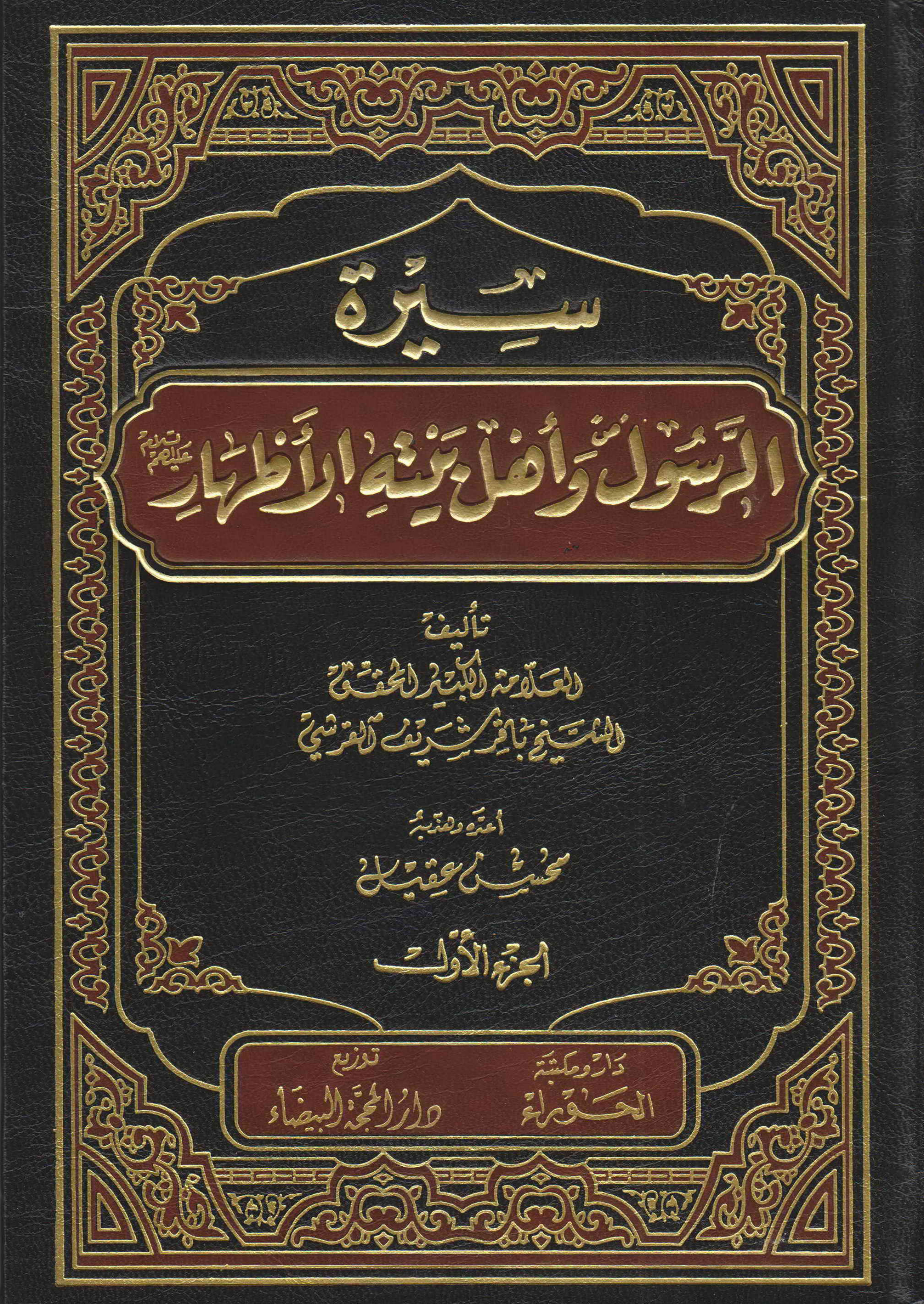

سيرة
الرسول وأهل بيته الأطهار عليهم السلام
تأليف
العلامة الكبير المحقق
الشيخ باقر شريف القرشي
أعده وهذبه
محسن عقيل
الجزء الأول
دار ومكتبة
الحوراء
توزيع
دار المحجة البيضاء

سيرة

الرسول وأهل بيته الأطهار عليهم السلام


بسم الله الرحمن الرحيم

سيرة
الرسول وأهل بيته الأطهار عليهم السلام

تأليف

العلامة الكبير المحقق

الشيخ باقر شريف القرشي

أعده وهذبه

محسن عقيل

الجزء الأول

توزيع

دار المحجة البيضاء

دار

ومكتبة الحوراء

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى، ثم الصلاة والسلام على من اختارهم هداةً لعباده، لا سيما خاتم الأنبياء وسيّد الرُّسل والأصفياء أبو القاسم المصطفى محمّد ﷺ وعلى آله الميامين النجباء.

لقد خلق الله الإنسان وزوّده بعنصري العقل والإرادة، فبالعقل يبصر ويكتشف الحقّ ويميّزه عن الباطل، وبالإرادة يختار ما يراه صالحاً له ومحقّقاً لأغراضه وأهدافه.

وقد جعل الله العقل المميِّز حجةً له على خلقه، وأعانه بما أفاض على العقول من معين هدايته؛ فإنّه هو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وأرشده إلى طريق كماله اللائق به، وعرّفه الغاية التي خلقه من أجلها، وجاء به إلى هذه الحياة الدنيا من أجل تحقيقها.

وأوضح القرآن الحكيم بنصوصه الصريحة معالم الهداية الربّانية وآفاقها ومستلزماتها وطرقها، كما بيّن لنا عللها وأسبابها من جهة، وأسفر عن ثمارها ونتائجها من جهةٍ أخرى.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾(١)، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) وغير ذلك من الآيات.

وقد سلك الأنبياء السابقون وأوصياؤهم المصطفون طريق الهداية الدامي، واقتحموا سبيل التربية الشاقّ، وتحمّلوا في سبيل أداء المهامّ الرسالية كلّ صعب، وقدّموا في سبيل تحقيق أهداف الرسالات الإلهية كلّ ما يمكن أن يقدّمه الإنسان المتفاني في مبدئه وعقيدته، ولم يتراجعوا لحظة، ولم يتلكّأوا طرفة عين.

وقد توّج الله جهودهم وجهادهم المستمرّ على مدى العصور برسالة خاتم الأنبياء

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

محمّد بن عبد الله ﷺ وحمّله الأمانة الكبرى ومسؤولية الهداية بجميع مراتبها، طالباً منه تحقيق أهدافها. وقد خطا الرسول الأعظم ﷺ في هذا الطريق الوعر خطواتٍ مدهشة، وحقّق في أقصر فترةٍ زمنيةٍ أكبر نتاجٍ ممكنٍ في حساب الدعوات التغييرية والرسالات الثورية، وكانت حصيلة جهاده وكدحه ليل نهار خلال عقدين من الزمن ما يلي:

١ ـ تقديم رسالةٍ كاملةٍ للبشرية تحتوي على عناصر الديمومة والبقاء.

٢ ـ تزويدها بعناصر تصونها من الزيغ والانحراف.

٣ ـ تكوين أُمّةٍ مسلمةٍ تؤمن بالإسلام مبدأً، وبالرسول قائداً، وبالشريعة قانوناً للحياة.

٤ ـ تأسيس دولةٍ إسلامية وكيانٍ سياسيٍّ يحمل لواء الإسلام ويطبّق شريعة السماء.

٥ ـ تقديم الوجه المشرق للقيادة الربّانية الحكيمة المتمثّلة في قيادته ﷺ.

ومن هنا كان التخطيط الإلهيّ يحتّم على الرسول ﷺ إعداد الصفوة من أهل بيته، والتصريح بأسمائهم وأدوارهم؛ لتسلّم مقاليد الحركة النبويّة العظيمة والهداية الربّانية الخالدة بأمر من الله سبحانه وصيانة للرسالة الإلهية التي كتب الله لها الخلود من تحريف الجاهلين وكيد الخائنين، وتربية للأجيال على قيم ومفاهيم الشريعة المباركة التي تولّوا تبيين معالمها وكشف أسرارها وذخائرها على مرّ العصور، وحتى يرث الله الأرض ومَن عليها.

وتجلّى هذا التخطيط الربّاني في ما نصّ عليه الرسول ﷺ بقوله: **«إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»**.

وكان أئمة أهل البيت صلوات الله عليهم خير من عرّفهم النبي الأكرم ﷺ بأمر من الله تعالى لقيادة الأُمّة من بعده.

إنّ سيرة الأئمّة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام تمثّل المسيرة الواقعية للإسلام بعد عصر الرسول ﷺ، ودراسة حياتهم بشكلٍ مستوعبٍ تكشف لنا عن صورة مستوعبة لحركة الإسلام الأصيل الذي أخذ يشقّ طريقه إلى أعماق الأُمّة بعد أن أخذت طاقتها الحرارية تتضاءل بعد وفاة الرسول ﷺ، فأخذ الأئمة المعصومون عليهم السلام يعملون على توعية الأُمّة وتحريك طاقتها باتجاه إيجاد وتصعيد الوعي الرساليّ للشريعة ولحركة الرسول ﷺ وثورته المباركة، غير خارجين عن مسار السنن الكونية التي تتحكّم في سلوك القيادة والأمة جمعاء.

وتبلورت حياة الأئمّة الراشدين في استمرارهم على نهج الرسول العظيم وانفتاح الأُمّة عليهم والتفاعل معهم كأعلام للهداية ومصابيح لإنارة الدرب للسالكين المؤمنين بقيادتهم، فكانوا هم الأدلّاء على الله وعلى مرضاته، والمستقرّين في أمر الله، والتامّين في محبّته، والذائبين في الشوق إليه، والسابقين إلى تسلّق قمم الكمال الإنسانيّ المنشود.

وقد حفلت حياتهم بأنواع الجهاد والصبر على طاعة الله وتحمّل جفاء أهل الجفاء حتّى ضربوا أعلى أمثلة الصمود لتنفيذ أحكام الله تعالى، ثم اختاروا الشهادة مع العزّ على الحياة مع الذلّ، حتى فازوا بلقاء الله سبحانه بعد كفاحٍ عظيمٍ وجهادٍ كبير.

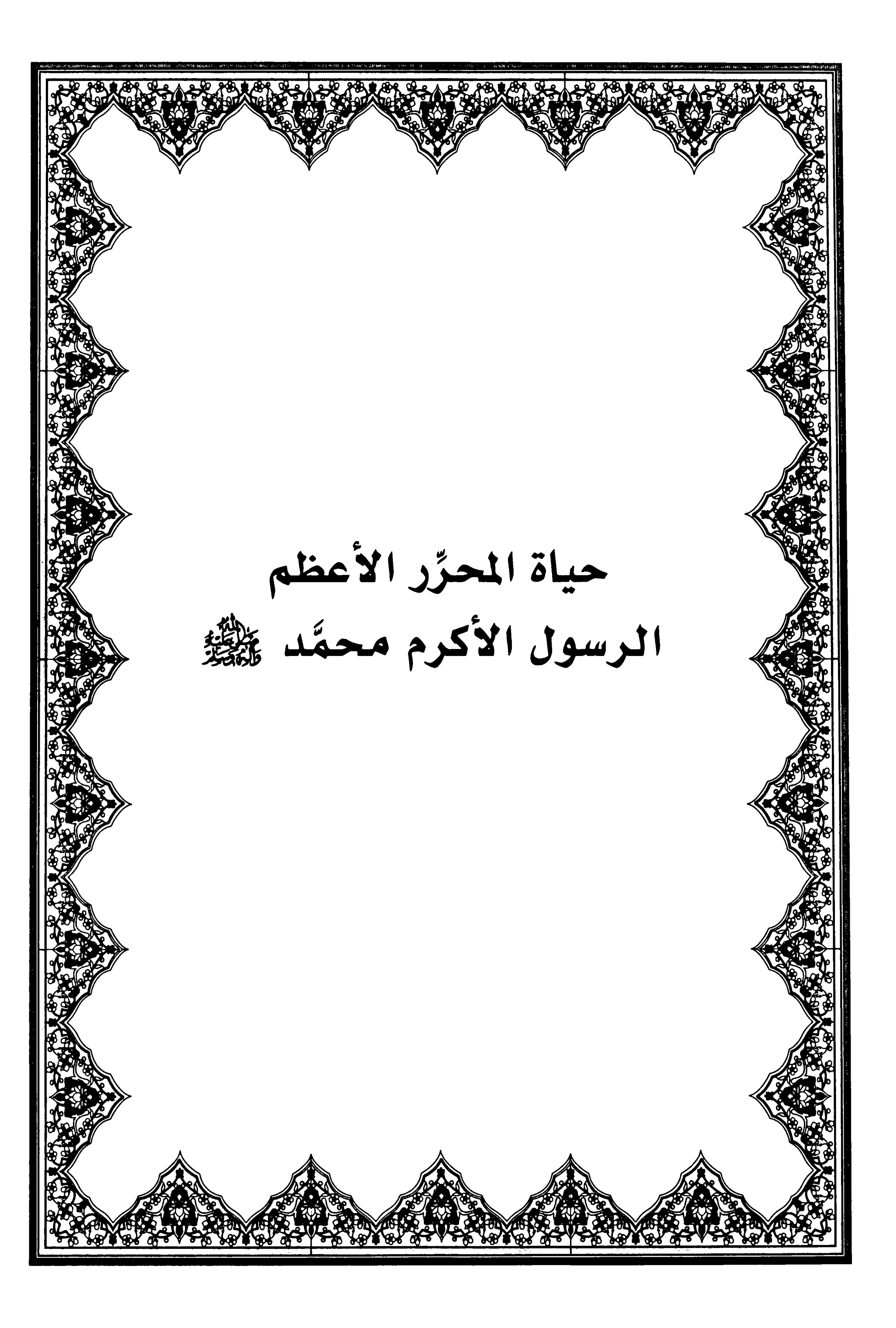
ولا يستطيع المؤرّخون والكتّاب أن يلمّوا بجميع زوايا حياتهم العطرة ويدّعوا دراستها بشكلٍ كامل، ومن هنا فإنّ محاولتنا هذه إنّما هي إعطاء قبساتٍ من حياتهم، ولقطاتٍ من سيرتهم وسلوكهم ومواقفهم التي دوّنها المؤرّخون واستطعنا اكتشافها من خلال مصادر الدراسة والتحقيق، عسى الله أن ينفع بها إنه وليّ التوفيق.

إنَّ دراستنا لحركة أهل البيت عليهم السلام الرسالية تبدأ برسول الإسلام وخاتم الأنبياء **محمّد بن عبد الله** صلى الله عليه وآله وتنتهي بخاتم الأوصياء، **محمد بن الحسن العسكري المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه وأنار الأرض بعدله.**

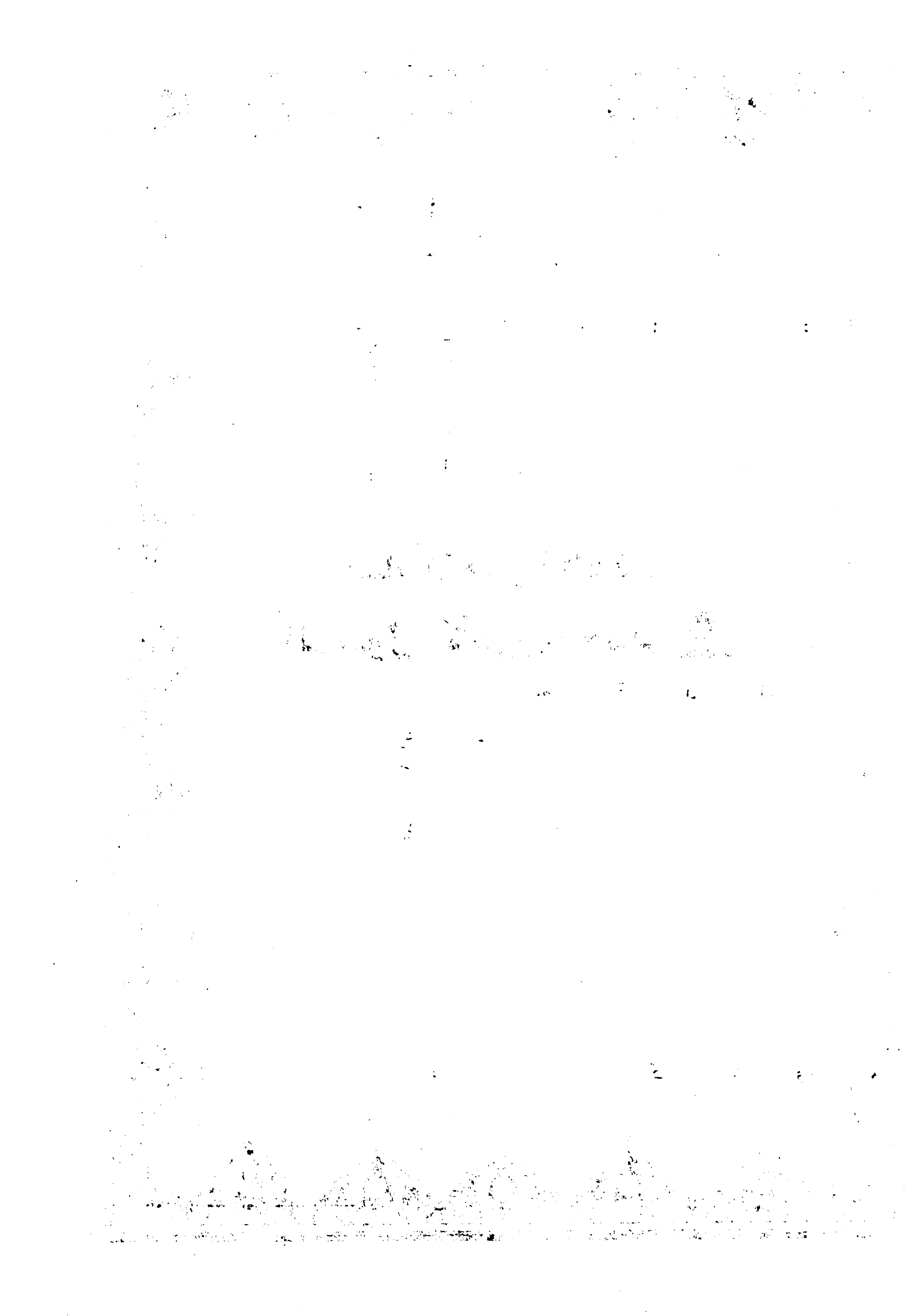
ويختصّ هذا الكتاب بدراسة حياة الرسول المصطفى وأهل بيته عليهم السلام الذين جسّدوا الإسلام بكلّ أبعاده، وفي جميع مرافق حياتهم: الفردية والاجتماعية، وفي ظروف اجتماعية وسياسية عصيبة فأرسوا قواعد القيم الإسلامية المُثلى في واقع الفكر والعقيدة وفي أُفق الخُلق والسلوك وأصبحوا نبراساً ـ على مدى العصور ـ يشعّوا بالإيمان والطهر والبهاء للعالمين.

ولا يسعنا إلّا أن نبتهل إلى الله تعالى بالدعاء والشكر لتوفيقنا على إنجاز هذا العمل فإنه حسبنا ونعم النصير.

«محسن عقيل»



حياة المحرِّر الأعظم
الرسول الأكرم محمَّد ﷺ



الأصول الكريم: عمالقةٌ وأمجادٌ

أمَّا الأُصول الكريمة التي تفرَّع منها سيِّد الكائنات فإنَّها كانت من عمالقة البشر، ومن أفذاذ ما خلق الله تعالى طهارة وعفَّة وسموّاً وكمالاً.

قال الماوردي: «إنَّه ـ أي النبيّ ﷺ ـ من سلالة آباء كرام ليس فيهم مترذّل، بل كلّهم سادة قادة، وشرف النسب، وطهارة المولد من شروط النُّبوَّة»[1].

إنَّ النبيّ ﷺ ليس فخر عدنان ومجد بني هاشم فحسب، وإنَّما هو فخر وعزّ وشرف للإنسانيَّة في جميع فترات تأريخها، فهو الذي صنع حضارة الإنسان، وفجَّر ينابيع العلم والحكمة في الأرض..

ولد الرسول الأعظم ﷺ في أيَّام جدّه عبد المطلب، وقد رزء النبيّ بوفاة أُمّه وأبيه ـ كما سنذكره ـ وقد تبنَّاه جدّه، فعاش في ذرى عطفه ومودَّته، وقد أيقن الجدّ بأنَّ حفيده ذو شأن عظيم، أخبرته بذلك الرهبان وغيرهم، فقام برعايته، وتولّى بنفسه خدماته، وأخلص له في الحبّ كأعظم ما يكون الإخلاص، فقدَّمه على أبنائه وأحفاده.

وصية عبد المطلب بالنبيّ ﷺ:

كان عبد المطلب حذراً وخائفاً على حفيده، الذي يستوعب الدُّنيا ذكره، وأنَّه سيخلق لهم مجداً وذكراً عاطراً لا يُنسى مدى الدهر... وقد شعر بدنو الأجل المحتوم منه، فأوصى ولده أبا طالب بالنبيّ بهذه الوصية الذهبيَّة:

«انظر يا أبا طالب أن تكون حافظاً لهذا الوحيد الذي لم يشمّ رائحة أبيه، ولم يذق شفقة أُمّه، انظر أن يكون في جسدك بمنزلة كبدك، فإنِّي قد تركت بنيّ كلّهم، وخصصتك به، فانصره بلسانك ويدك ومالك، فإنَّ الله سيودّه، ويملك ما لا يملك أحد من آبائي...».

(١) السيرة النبويَّة والآثار المحمَّديَّة: ١/٧.

وحفلت هذه الوصية برأفته، وشفقته على النبيّ ﷺ، وأنَّه سيكون له شأن عظيم لم يبلغه أحد من آبائه، ثمَّ التفت إلى أبي طالب قائلاً:

«هل قبلت وصيَّتي؟».

«نعم، قبلت وصيَّتك، والله على ذلك شاهد».

واستراح عبد المطّلب من همّ ثقيل كان جاثماً عليه، فقال لأبي طالب:

«الآن خفَّف عليَّ الموت».

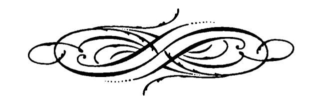
وأخذ يوسعه تقبيلاً ويقول له:

«لم أرَ أحداً أطيب ريحاً منك، ولا أحسن وجهاً».

ولم يلبث عبد المطّلب بعد وصيَّته بالنبيّ ﷺ إلاَّ وقتاً يسيراً ثمَّ لفظ أنفاسه الأخيرة، وقد انطوت بوفاته صفحة من صفحات النبل والشرف وضجَّت مكَّة بنبأ وفاته، فقد خسروا المصلح الذي كان يحنو عليهم ويعطف.

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ النبيّ ﷺ كان عمره الشريف يوم وفاة جدّه ثمان سنين[١].

لقد نشأ الرسول ﷺ في ظلال هذه الأُسرة التي توارثت النبل والشهامة، وتطبَّعت على الخير والإحسان.



(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ٨١.

أُبوَّةٌ وأُمومةٌ وإشراقٌ

وقبل أن نتحدَّث عن مشرق النُّور في ولادة سيِّد الكائنات نعرض لأبيه الطاهر وأُمّه الزكيَّة، اللذين تفرَّع منهما هذا العملاق العظيم، الذي غيَّر مجرى تأريخ البشريَّة.

الأب: عبد الله:

أمَّا عبد الله الأب الكريم للنبيّ ﷺ فكان من سادات قريش في آدابه وحسن سلوكه، وكان عفيفاً لم تدنِّسه الآثام.

الأُمّ: آمنة:

أمَّا السيِّدة الكريمة التي حظيت بالشرف والنُّور والمجد فهي أُمّ النبيّ ﷺ آمنة بنت وهب من بني زهرة من القبائل الممجَّدة، وقد عنى النسَّابون بذكر النابهين منهم، وكانت آمنة أفضل فتاة في قريش نسباً وموضعاً[1].

رؤيا آمنة:

ورأت آمنة في منامها رؤيا غريبة قصَّتها على زوجها، فقالت له:

«لقد رأيت كأنَّ شعاعاً من النُّور انبثق من كياني فأضاء الدُّنيا من حولي، حتَّى رأيت به قصور بُصْرى من أرض الشام، وسمعت هاتفاً يهتف إنَّك قد حملت سيِّد هذه الأُمَّة. . .»[2].

وصدقت رؤياها، فقد حملت بسيِّد الكائنات الذي خضعت له الدُّنيا. ألا بوركت هذه السيِّدة التي خصَّها الله تعالى بهذا الفضل الذي لم تظفر به أي سيِّدة في الدُّنيا، وتحدَّثت آمنة عن بركة مولودها العظيم، فقالت:

«منذ اليوم الذي حملت فيه ولدي حتَّى الساعة التي وضعته فيها لم أشعر بأقلّ ألم،

---

(١) السيرة النبويَّة/ دحلان: ١/ ٢٨.

(٢) حياة الرسول المصطفى ﷺ: ١/ ١٠٠.

وإنِّي لم أشعر حتَّى بمجرَّد ثقله، بل ما شعرت أنِّي قد حملت به، حتَّى أتاني آتٍ وأنا بين النوم واليقظة، فقال: هل شعرت أنَّك حملت؟ فكأنِّي أقول: ما أدري.

فقال: إنَّك قد حملت بسيِّد هذه الأُمَّة ونبيّها، اعلمي ذلك»[١].

وفاؤها لزوجها:

وكانت آمنة وفيَّةً لزوجها عبد الله، ومن عظيم وفائها أنَّها كانت تخرج من مكَّة لزيارة قبره كلّ عام، ومعها عبد المطلب وأُمّ أيمن حاضنة الرسول ﷺ، وفي إحدى زياراتها لمرقده وافتها المنية بالأبواء، ودفنت فيها[٢].

الولادة المشرقة:

وتحدَّثت السيِّدة الزكيَّة عن كيفية ولادتها بالرسول الأعظم ﷺ فقالت:

«وفي نفس اللحظة ـ يعني من ولادتها ـ خرج من أحشائي خيط من النُّور، وترامى ناحية المشرق حتَّى بلغ أرض الشام، وعندما دنا موعد ولادتي ظهر لي المَلك من جديد، وأوصاني قائلاً: عندما تضعين ولدك قولي: أُعيذه بالواحد الصمد من شرّ كلِّ حاسد، ثمَّ سمِّيه محمَّداً، فهذا هو الاسم الذي بُشِّر به في التوراة والإنجيل؛ ولأنَّه سوف يحمد من جميع سكَّان السَّماء والأرض...»[٣].

الزمان:

واختلف الرواة في العام الذي وُلد فيه سيِّد الكائنات، وهذه بعض الأقوال:

١ ـ ولد سنة (٥٧٠م) ذهب إلى ذلك الأكثر، وذلك في عام الفيل[٤].

٢ ـ ولد في عام الفيل يوم الجمعة، في شهر ربيع الأوَّل، في يوم السابع عشر منه[٥].

المكان:

أمَّا المكان الذي حظي بولادة سيِّد الأنبياء ﷺ فهو مكَّة، وفي دار جدّه عبد المطلب.

---

(١) حياة محمَّد/عبد الحليم: ص٤٧٦.
(٢) أعلام النساء: ١/١٨.
(٣) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/١٥٨.
(٤) حياة محمَّد/هيكل: ص٧٠.
(٥) كشف الغمَّة في معرفة الأئمَّة: ١/١٤.

ابتهاج عبد المطلب:

وحينما بُشِّر عبد المطلب بولادة النبيّ ﷺ طافت به موجات من السرور والابتهاج وعوَّذه بهذا الشعر:

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي أعْطاني   هذا الغُلامُ الطيِّبُ الأرْدانِ
قَدْ سادَ في المَهدِ على الغُلْمانِ   أُعيذُهُ بالبَيْتِ ذي الأركانِ(١)

تسميته:

وسمَّا جده محمَّداً ﷺ، فقالت له قريش: لِمَ سمَّيته بهذا الاسم ورغبت عن تسميته بأسماء أهل بيته؟ فقال: أردت أن يحمده الله تعالى في السَّماء، وخلقه في الأرض(٢).

خوارق ومعجزات:

وصحبت ولادة النبيّ ﷺ بعض الخوارق والمعجزات، كان منها:

١ ـ ارتجاج إيوان كسرى وسقوط شرفاته.

٢ ـ غيض بحيرة طبرية.

٣ ـ خمود نار فارس، وكان لها ألف عام لم تخمد، وكانت تعبد من دون الله.

لقد كانت ولادة النبيّ ﷺ مشفوعة بالآيات البيِّنات، والمعاجز الباهرات.

فزع اليهود:

وفزع بعض أحبار اليهود من ولادة النبيّ ﷺ، فقد صعد على أطَمة(٣) بيثرب، وصرخ بأعلى صوته طالباً حضور اليهود قائلاً: يا معشر اليهود، فلمَّا اجتمعوا عنده رأوه فزعاً مذهولاً فقالوا له:

«ويلك!! ما لك؟..».

«طلعَ اللَّيلة نجم أحمد الذي وُلد به»(٤).

وفزع يهودي كان يسكن مكَّة، فقد قال في بعض مجالس قريش: هل ولد فيكم في هذه اللَّيلة مولود؟ فقالوا: ما نعلم ذلك، وسارع قائلاً لهم:

---

(١) هامش السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/١٦٧.
(٢) السيرة النبويَّة/ابن كثير: ١/٢١٠.
(٣) الأطَمة: الحصن.
(٤) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/١٥٩.

«احفظوا ما أقول لكم: ولد في هذه اللَّيلة نبيّ هذه الأُمَّة، وهو منكم معاشر قريش، وأخذ يحدِّثهم عن أوصافه، وأخبرهم أنَّه وجد ذلك في الكتب القديمة»[١].

مرضعاته:

١ ـ أوَّل من أرضعته السيِّدة الزكيَّة الطاهرة أُمّه، فقد أرضعته أيَّاماً، قيل: سبعة أيَّام، وقيل: تسعة أيَّام[٢]، ثمَّ جفَّ لبنها تأثُّراً بوفاة زوجها.

٢ ـ أرضعته جارية لأبي لهب، وقد أعتقها، وكانت قد أرضعت حمزة قبله[٣].

٣ ـ حليمة السعدية، وقد رأت في رضاعها للنبيّ من البركة والخير الشيء الكثير، ونعمت مع قومها بالخير العميم. ويقول الرواة: إنَّ عبد المطلب قال لحليمة:

من أنت؟...

امرأة من بني سعد.

ما اسمك؟...

حليمة.

بخٍ بخٍ سعد وحلم، خصلتان فيهما خير الدهر وعزّ الأبد. يا حليمة، إنَّ عندي غلاماً يتيماً، قد عرضته على نساء بني سعد فأبين أن يقبلن، وقلن ما عند اليتيم من الخير، إنَّما نلتمس له الكرامة من الآباء، فهل لكِ أن ترضعيه فعسى أن تسعدي به؟ واستجابت له، وقد ملأ الله تعالى قلبها حبَّاً ومودَّة له.

حاضنته:

وتشرَّفت بحضانة النبيّ ﷺ أُمّ أيمن بركة الحبشية، فقد قامت بحضانته ورعايته حتَّى كبر، وهي أُمّ أُسامة بن زيد[٤].

ملامحه:

أمَّا ملامح النبيّ ﷺ فقد بدت عليه أسارير النُبوَّة، فكان وجهه الشريف كالقمر في

---

(١) السيرة النبويَّة/زيني دحلان: ١/ ٣٠.
(٢) السيرة الحلبيَّة: ١/ ٩٧.
(٣) الطبقات الكبرى/ابن سعد: ١/ ٨.
(٤) دلائل النُبوَّة: ١/ ٩٠.

تمامه تعنو لمنظره الجباه، فكان آية من آيات الله تعالى في جماله وبهاء منظره، فلم يرَ الراؤون مثله في روعة منظره، وجمال صورته وقد بهر بها الجميع.

وفاة آمنة:

وخرجت آمنة بابنها إلى المدينة لتريه أخوال جدّه من بني النجّار، وقد صحبت معها أمّ أيمن، ولمَّا انتهت إلى المدينة عرَّفته بالمكان الذي توفِّي به أبوه، والمكان الذي دُفن فيه، وقد ترك ذلك في نفسه الشريفة أعمق الحزن، وبقيت أيَّاماً معدودة ثمَّ قفلت راجعة إلى مكَّة، وفي أثناء الطريق مرضت بالأبواء(١) فتوفيت هناك، ودُفنت فيه(٢)، وقد فجع النبيّ ﷺ كأقسى ما تكون الفجيعة بوفاة والدته الرؤوم التي كانت تحنو عليه وتعطف، فإنَّ أقسى محنة تمرُّ على الطفل فقده لأبويه اللذين ينتهل منهما العطف والحنان.

سئل الإمام الباقر عليه السلام: لِمَ أُوتِم النبيّ ﷺ من أبويه فقال: «لئلا يوجد عليه حقّ لمخلوق»(٣).

وفاة عبد المطّلب:

وفاجعة أُخرى داهمت النبيّ ﷺ، وهي فقده لجدّه عبد المطّلب الذي عاش في ذرى عطفه، وفي كنف مودَّته، وكان عمر الرسول ﷺ ـ فيما يقول الرواة ـ ثمان سنين(٤).

في رعاية أبي طالب:

نشأ النبيّ ﷺ في كنف عمِّه أبي طالب وفي ذرى عطفه، وقد أخلص له في المودَّة والحبّ، وقدمه على أهله وأبنائه، وكان يؤثره بالنفقة والكسوة على نفسه وعلى جميع أهله(٥)، فقد أخبرته الرهبان والكهان أنَّ لابن أخيه شأناً عظيماً، فخاف عليه من كيد اليهود ومكرهم، فلم يفارقه ساعة من ليل أو نهار(٦)، ولم يأتمن عليه أي أحد، وبلغ

(١) الأبواء: مكان يقع بين مكَّة والمدينة.
(٢) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/١٧٧.
(٣) صحيفة الرضا عليه السلام: ص٣٨.
(٤) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/١٦٩.
(٥) مناقب أبي طالب: ١/٣٦.
(٦) مناقب أبي طالب: ١/٣٦.

من برّه وعطفه أنَّه إذا حضر الطعام لا يسمح لأولاده بتناوله حتَّى يحضر النبيّ ﷺ فيأكل معهم[١].

رعاية زوجة أبي طالب للنبي ﷺ:

أمَّا السيِّدة فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب، فقد قامت بدور مهمّ في خدمة النبيّ ﷺ ورعايته، وكانت تفضِّله على أولادها في المودَّة، وقد عوَّضته عن عطف أُمّه وحنانها، وكانت تدعو الله تعالى أن يرزقها ولداً ليكون أخاً له، فاستجاب الله دعاءها فرزقها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام[٢]، فكان أخاً له، وناصراً ومحامياً عنه.

وفاتها:

ورزء النبيّ ﷺ بوفاة السيِّدة فاطمة التي كانت تحنو عليه وتعطف، وتبالغ في برّه والإحسان إليه، وكان يدعوها أُمّه، فقد صعدت روحها كأسمى روح صعدت إلى الله تعالى تحفُّها ملائكة الرَّحمٰن، وقد شيَّع النبيّ ﷺ جثمانها الطاهر ببالغ الأسى والحزن، وحفروا لها قبراً فاضطجع فيه النبيّ، ودعا لها بالمغفرة والرحمة، وقيل له:

ما رأيناك صنعت بأحد كما صنعت بها؟

فقال: **«لَمْ يَكُنْ بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ أَبَرَّ بِي مِنْها، إنَّما أَلْبَسْتُها قَمِيصي لِتُكْسىٰ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، واضْطَجَعْتُ فِي قَبْرِها لِيُهَوَّنَ عَلَيْها»**[٣].

مع عمّه إلى الشام:

كان النبيّ ﷺ في السنة الثانية عشر من عمره الشريف، وقد أراد عمّه أبو طالب السفر إلى الشام في تجارة له، وقد خاف أن يصحب معه ابن أخيه لئلا يُصيبه جهد من وعثاء الطريق إلاَّ أنَّ النبيّ ﷺ أبدى رغبته الملحَّة في السفر معه قائلاً:

«عَلىٰ مَنْ تُخَلِّفْنِي وَلاَ أَبٌ لِي وَلاَ أُمٌّ»، فاستجاب له، فغادر مع عمّه مكَّة مع قافلة من قريش، وهم يجدّون في السير لا يلون على شيء، حتَّى أشرفوا على الشام.

مع راهب:

واستراحت القافلة في مسيرتها في مكان كان فيه راهب له اطّلاع واسع بكتب

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٦٢.
(٢) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١/ ١٤.
(٣) أسد الغابة: ٥/ ٥١٥.

النصرانية، فرأى النبيّ ﷺ قد استظلَّ تحت شجرة تدانت عليه أغصانها، فآمن بأنَّه سيكون نبيّاً، وأنَّه خاتم الأنبياء، وسارع إلى قريش قائلاً:

إنِّي قد صنعت لكم طعاماً، وأُحبُّ أن تحضروا كلُّكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحرّكم.

وبهر القرشيون من ذلك، ورفع شخص عقيرته قائلاً:

كنَّا نمرُّ بك كثيراً فما شأنك اليوم؟

فأجاب الراهب:

صدقت، قد كان ما تقول، ولكنَّكم اليوم جميعاً في ضيافتي.

وشكره القوم، وهرعوا جميعاً لمنزله، وتخلَّف عنهم النبيّ ﷺ، ونظر الراهب إليهم فلم يرَ فيهم النبيّ، فقال:

يا معشر قريش، لا يتخلَّف أحد منكم عن تناول الطعام.

نعم، لم يتخلَّف أحد منَّا سوى غلام، وهو أحدثنا سناً.

دعوه فليحضر هذا الطعام.

وانبرى أحدهم فأحضر النبيّ، وأخذ الراهب يطيل النظر إليه، ثمَّ وجَّه إليه السؤال التالي:

يا غلام أسألك بحقِّ اللَّات والعزَّى[1] إلاَّ ما أخبرتني عمَّا أسألك؟

ونفر النبيّ من القسم بالأصنام وقال له:

«لاَ تَسْأَلْنِي بِحَقِّ اللَّات والعُزَّىٰ، فَوَاللَّهِ، ما أَبْغَضْتُ شَيْئاً قَطُّ بُغْضَهُما».

وعرف الراهب أنَّ الفتى ليس دينه دين قريش الخاضعين للأصنام، فقال له: بالله أسألك إلاَّ ما أخبرتني؟

«سَلْ ما أَرَدْتَ».

وأخذ الراهب يسأله عن نومه ويقظته سائر شؤونه، والنبيّ يجيبه، ثمَّ نظر إلى خاتم النُّبوَّة بين كتفيه، فالتفت إلى أبي طالب قائلاً:

ما هذا الغلام منك؟

ـ ابني.

---

(١) إنَّما أقسم باللَّات والعزَّىٰ مجاراة لقريش الذين كانوا يعبدون الأصنام.

ـ ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً.

ـ إنَّه ابنُ أخي.

ـ صدقت، ما فعل أبوه؟

ـ مات أبوه وأُمّه حُبلى به.

ـ صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه من اليهود، فوالله، لئن رأوه وعرفوا ما عرفت لَيَبْغُنَّه شرّاً، إنَّ لابن أخيك لشأناً عظيماً.

وبعدما فرغ أبو طالب من تجارته بالشام قفل راجعاً به إلى مكّة[١].

رعيه للأغنام:

كان النبيّ ﷺ في سنيّ صباه يرعى أغنام أهله، وكان يعتزّ بذلك، فقال: «**ما بَعَثَ اللَّهُ نَبِيّاً إلاَّ راعِيَ غَنَم**»، وقال: «**بُعِثَ مُوسىٰ وَهُوَ راعي غَنَمٍ، وَبُعِثَ داوُدُ وَهُوَ راعي غَنَمٍ، وَبُعِثْتُ وَأنا أرْعىٰ غَنَمَ أهْلِي**»[٢].

انصرافه عن اللهو:

والظاهرة البارزة في حياة الرسول ﷺ ـ وهو في شرخ الشباب ـ انصرافه التامّ عن اللهو، فلم يكن يلهو كما تلهو الشباب، فقد انصرف انصرافاً كاملاً عمَّا يشين الإنسان من اقتراف مآثم الحياة، فقد أقام حياته على الفضيلة ومحاسن الأعمال والصفات.

تجارته بأموال خديجة:

كانت أُمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد تاجرة ذات شرف ومال، وكانت تستأجر الرجال في أموالها تضاربهم بشيء معيَّن من الأرباح، وقد كانت ذا ثراء عريض، وانبرى أبو طالب إلى ابن أخيه محمَّد ﷺ، وكان في سنّ الخامسة والعشرين، فقال له: «يابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدَّ الزمان علينا، وقد بلغني أنَّ خديجة استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن أكلِّمها»، فقال له الرسول: «**لَكَ ما أحْبَبْتَ يا عَمّ**»، وانبرى أبو طالب إلى خديجة فعرض عليها الأمر، فاستجابت له ورحَّبت به، فعاد أبو طالب إلى ابن أخيه وأخبره بالأمر، وقال له: «هذا رزق ساقه الله تعالى لك».

---

(١) السيرة النبويَّة/ ابن هشام: ١/ ١٨١و١٨٢.

(٢) حياة محمَّد/ هيكل: ص١١٦.

وزوّدته خديجة بمال وفير، وأرسلت معه خادمها ميسرة، وأوصته بخدمته، وأن ينقل لها ما يشاهده منه من أحداث، وسارت القافلة تطوي البيداء حتّى انتهت إلى سوق بصرى، فنزل الرسول ﷺ تحت ظلّ شجرة قريبة من صومعة راهب يُسمّى نسطوراً، فنظر إلى النبيّ جالس في ظلال تلك الشجرة، ففزع وقال لميسرة ـ وكان يعرفه ـ:

«يا ميسرة من هذا الذي تحت الشجرة؟..».

«رجلٌ من قريش..».

«ما نزل تحت هذه الشجرة بعد عيسى إلاَّ نبيّ».

وانبرى الراهب مسرعاً نحو الرسول ﷺ، وهو خاضع، فقبَّل رأسه وقدميه وقال له:

«آمنت بك، وأنا أشهد أنَّك الذي ذكرك الله تعالى في التوراة..».

وطلب منه أن يريه كتفه، فكشف له عنه فإذا هو خاتم النُّبوَّة يشعُّ نوراً، فانبرى قائلاً:

«أشهد أنَّك رسول الله النبيّ الأُمِّيّ الذي بشَّر بك عيسى، وأنَّك صاحب الحوض والشفاعة ولواء الحمد..».

ووعى ذلك ميسرة، فبهر منه، كما شاهد السحابة تظلُّه وَحدَهُ من حرِّ الشمس، وربح النبيّ في سفرته ربحاً كثيراً، وقال ميسرة للنبيّ:

أتَّجرنا لخديجة أربعين سفرة ما رأينا ربحاً قطّ أكثر من هذا الربح على وجهك..[1].

وقفل النبيّ ﷺ مع القافلة راجعين إلى مكّة، وقد ملئت نفس ميسرة إعجاباً بما شاهده من الكرامات والمعاجز من النبي ﷺ، فسارع إلى خديجة فأخبرها بما شاهده من معاجز النبيّ من الأرباح الكثيرة التي ربح فيها.

دخل النبيّ مكّة فاستقبلته خديجة ورحَّبت به أجمل ترحيب وأخذ يحدِّثها ـ ببلاغته وروعة فصاحته ـ عن الأرباح التي ظفر بها، فزادها إعجاباً وإكباراً وتعظيماً، وقد أيقنت إيقاناً لا يخاطره شكّ أنَّ له شأناً عظيماً، وأنَّه أعظم مصلح اجتماعي في الأرض[2].

---

(١) السيرة النبويَّة/زيني دحلان: ١/ ٥٤.

(٢) الطبقات الكبرى/ابن سعد: ١/ ٨٢، القسم الأوَّل.

قِران النبيّ بخديجة:

وملئت نفس خديجة إكباراً ومودَّة للنبيّ ﷺ، وقد رغبت بالزواج منه، وكان عمرها أربعين سنة، وعمر النبيّ ﷺ خمس وعشرون سنة، وعرضت رغبتها الملحَّة في الاقتران منه على أُختها على قول، أو على صديقتها نفيسة بنت منية على قول آخر، وسارعت نحو النبيّ ﷺ، فقالت له:

«ما يمنعك أن تتزوَّج؟..».

«ما بِيَدي ما أَتَزَوَّجُ بِهِ..».

«إن كفيت ذلك، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟..».

«مَنْ هِيَ؟..»..

«خديجة..».

ورضي النبيّ ﷺ بذلك، وسارعت المرأة إلى خديجة فأخبرتها بذلك، وسرَّت سروراً بالغاً، وعلمت أنَّها تتزوَّج بسيِّد ولد آدم، وحدَّدت الساعة، وطلب النبيّ من أعمامه الحضور لخطبة خديجة، فسارعوا لإجابته، يتقدَّمهم أبو طالب وحمزة وبقيَّة أعمامه، وأقبلوا إلى دار خديجة، فاستقبلهم عمّها عمر بن أسد فرحَّب بهم، ولمَّا استقرَّ بهم الجلوس وتصدر أبو طالب الجماعة التي جاءت لخطبة خديجة للنبيّ ﷺ، قال:

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرِّيَّة إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً، وبيتاً محجوباً، وجعلنا الحكَّام على الناس.

ثمَّ إنَّ محمَّد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازنه فتى في قريش إلاَّ رجح به، برّاً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً، وإن كان في المال قلّ، فإنَّ المال ظلّ زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم في الصداق فعلي»[١].

احتضان النبيّ ﷺ للإمام:

وحينما كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في دور الطفولة أصابت قريش أزمة ماديَّة حادَّة تأثَّر منها أبو طالب، فانبرى رسول الله ﷺ إلى عمّه حمزة والعباس، وطلب منهما أن يتحمَّلا ثقل عمّه، فاتَّجهوا صوبه وعرضوا عليه الأمر، فقال لهم: «دعوا لي عقيلاً

---

(١) التذكرة الحمدونيَّة: ٦/ ٢٥٣.

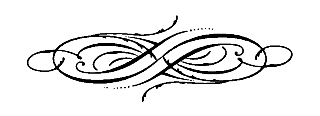
وخذوا من شئتم»، وكان شديد الحبّ لولده عقيل، فأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ الرسول عليّاً، وقال لهما:

«اخْتَرْتُ مَنِ اخْتَارَهُ اللّٰهُ تَعالىٰ عَلَيْكُما ـ يعني علياً ـ».

فكان الإمام في حجر رسول الله ﷺ، وفي ذرى عطفه ومودَّته، وقد غذَّاه بطباعه وهديه، وأفاض عليه مكوّناته النفسيَّة، فكان في جميع فترات حياته نسخة عنه، ومثلاً مشرقاً له، وقد تحدَّث الإمام عن تلك الفترة الذهبية التي عاشها مع النبيّ ﷺ وما لاقاه من صنوف الحفاوة والتكريم قال عليه السلام:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ بِالقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ. وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلِيدٌ، يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كِذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَكُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً، وَيأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ».

أرأيتم كيف أخلص له النبيّ في الحبّ والمودَّة فربَّاه بمعالي أخلاقه التي امتاز بها على سائر النَّبيِّين حتَّى يكون صورة عنه، وممثّلاً له في حياته وبعد وفاته[1].



(١) موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام/ المؤلّف: ١/ ٤٩.

عناصره النفسيَّة

ما خلق الله تعالى فضيلة يشرِّف بها الإنسان ويسمو إلاَّ وهي من عناصر شخصيَّة الرسول ﷺ، ومن مقوِّماته وذاتيَّاته، فقد خلقه الله تعالى مهذَّباً من كلّ عيب، ومطهَّراً من كلّ رجس، قد توفَّرت فيه جميع الصفات الرفيعة والمُثل العليا التي استطاع بها أن يغيِّر مجرى تأريخ العالم، ويحدث زلزالاً مدمِّراً لعقائد الجاهليَّة التي استباحت مآثم الحياة.

إنَّه ليس في تأريخ عظماء العالم شخصيَّة تضارع شخصيَّة الرسول ﷺ في مواهبه وعبقرياته، وفي قدراته وملكاته، فقد رفع رسالة ربّه بقوَّة وشموخ وليس عنده قوَّة تحميه من المدّ الجاهلي، سوى عمّه مؤمن قريش أبي طالب وابنه بطل الإسلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

قوَّة الإرادة:

وقد دخل النبيّ ﷺ في صراع رهيب مع القوى الجاهليَّة المنحطَّة فكريّاً، فدمَّر جميع معالمها، وقضى على أعمدتها، وذلك بقوَّة إرادته، وصلابة عزمه، مع ما تمتَّع به من الصفات المشرقة... لقد تسلَّحت قريش بقواها الماديَّة ودخلت في ميدان الصراع مع الرسول ﷺ المحرّر الأعظم، فلم يحفل بهم، ولم تخفه وحدته وقلَّة من آمن به من المستضعفين، الذين لم يكن لهم ركن شديد يأوون إليه، وراح النبيّ ﷺ مع قلَّة الصديق والناصر يملي على صفحات الكون إرادته التي لا يقف أمامها شيء قائلاً لعمّه:

«وَاللَّهِ يا عَمِّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ بِيَمِيْنِي، وَالْقَمَرَ بِيَسارِي عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ ما تَرَكْتُهُ، حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ..».

سموّ الأخلاق:

من أبرز الصفات الرفيعة الماثلة في شخصيَّة الرسول ﷺ سموّ الأخلاق، فقد كان آية من آيات الله تعالى في هذه الظاهرة التي امتاز بها على سائر النَّبيِّين، وساد بها على جميع المخلوقين.

وقد أثنى الله تعالى عليه، ومجَّد فيه هذه الصفة الرفيعة قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١]، وتحدَّث ﷺ عن معالي أخلاقه قال:

«إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأخْلاَقِ»[٢].

وكان يدعو ويقول: **«اللَّهُمَّ كَمَا أحْسَنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي»**.

وهذه شذرات من خُلقه الفيَّاض:

١ ـ من معالي أخلاق النبيّ ﷺ أنَّ إسرائيلياً كان حاقداً على النبيّ، وقد بالغ في الاعتداء عليه، فكان يُلقي عليه التراب والرماد إذا اجتاز على داره، ومرض اليهودي، فطرق النبيّ ﷺ باب داره فخرجت زوجته فقال لها: **«إنَّ زَوْجَكِ عَوَّدَنا بِعادَةٍ وَقَدِ انْقَطَعَ عَنْها وَأنا أحْتَمِلُ أنَّهُ مَرِيْضٌ»**، وقد جئت لعيادته، فأذنت له بالدخول عليه، فلمَّا رآه اليهودي بهر، وراح يقول: هذه أخلاق الأنبياء، وأسلم، فقد استجاب للحقّ، ونزع ما في نفسه من شرّ بسبب أخلاق النبيّ.

٢ ـ من سموّ أخلاق النبيّ ﷺ أنَّه إذا سلَّم عليه شخص في الطريق فلا ينصرف حتَّى يكون الشخص هو المنصرف عنه، كما إذا صافحه أحد فلا ينزع يده عنه حتَّى يكون الشخص هو الذي ينزع يده عنه، كما روى ذلك ابن عمر وغيره[٣].

٣ ـ ومن نفحات أخلاقه ﷺ أنَّه ما كلَّم أحداً بكلمة تغيظه أو تكرهه، وإنَّما كان يقابل الناس بالكلمات الناعمة والطيِّبة.

٤ ـ وفد على النبيّ ﷺ شخص فأخذته هيبته ولم يستطع أن يتكلَّم، فنهره النبيّ وقال له:

«إنَّما أنا ابْنُ امْرَأةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأكُلُ الْقَدِيدَ في مَكَّة»[٤].

٥ ـ ومن سمات أخلاقه أنَّه كان يقسِّم لحظاته على أصحابه بالسوية[٥]، وكان يلاقي الكبير والصغير، والحرّ والعبد، ببسمات فيَّاضة بالبشر من دون أن تظهر على سحنات وجهه الشريف أي أمارة للغضب، اللَّهمَّ إلاَّ إذا رأى عملاً مجافياً لشريعة الله تعالى، فإنَّ الغضب يبدو عليه.

---

(١) سورة القلم: الآية ٤.

(٢) السُّنن الكبرى: ١٠/ ١٩٢.

(٣) صحيح الترمذي: ٢/ ٢٥٥.

(٤) تاريخ بغداد: ٦/ ٢٢٠.

(٥) روضة الكافي: ص٢٦٨.

٦ ـ وروى عبد الله بن عمر عن عظيم أخلاق النبيّ ﷺ أنَّه ما أخرج ركبتيه بين جليس له قطّ، وما جلس أحد أمامه فيقوم حتَّى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه[١].

٧ ـ تحدَّثت عائشة عن أخلاق النبيّ ﷺ فقالت: ما كان أحد أحسن خُلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلاَّ قال له: لبَّيك[٢].

وقالت عائشة: كان خلق الرسول ﷺ القرآن الذي لا تتناهى معانيه وأوصافه كذلك كان الرسول.

الحلم:

من الصفات البارزة في شخصيَّة النبيّ العظيم ﷺ سعة الحلم.

١ ـ روى أنس بن مالك قال: كنت مع النبيّ ﷺ، وعليه برد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابي جذباً شديداً، فأثَّرت حاشية البرد في صفحة عاتقه الشريف، ورفع صوته على النبي ﷺ قائلاً:

«يا محمَّد، أحمل لي على بعيريَّ هذين من مال الله ـ تعالى ـ الذي عندك، فإنَّك لا تحمل من مالك، ولا من مال أبيك..».

ولم يتأثَّر النبيّ ﷺ من اعتدائه عليه، وإنَّما قابله بلطف قائلاً له:

«الْمَالُ مَالُ اللَّهِ، وَأنا عَبْدُهُ..».

وقابله النبيّ ﷺ ببسمات قائلاً:

«وَيُقادُ مِنْكَ يا أعْرابيُّ ما فَعَلْتَ بي؟».

«لا».

«لِمَ؟».

«لأنَّك لا تكافىء بالسيِّئة السيِّئة».

وضحك النبيّ، وأمر أن يحمل له على أحد بعيريه تمراً، وعلى الآخر شعيراً[٣].

٢ ـ ومن عظيم حلمه أنَّه لمَّا كسرت رباعيته، وشجَّ جبينه في يوم أُحد شقَّ ذلك على أصحابه فراحوا يقولون له:

«لو دعوت عليهم؟».

---

(١) مكارم الأخلاق: ص١٥.

(٢) تفسير الرازي: ١٥/ ٨٢، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

(٣) دلائل النُّبوَّة/ ابن نعيم: ص١٣٤.

فأجابهم برحمة ولطف:

«إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وَلَكِنْ بُعِثْتُ دَاعِياً وَرَحْمَةً، اللَّهُمَّ إهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»(١).

٣ ـ ومن سعة حلمه وعظيم عفوه أنَّه كان نائماً في قيلولة، فاستيقظ فرأى رجلاً واقفاً، وقد شهر سيفه عليه يريد قتله، فقال له الرجل:

«ما الذي يمنعك منِّي؟».

فأجابه النبي ﷺ بثقة واطمئنان:

«اللَّه الَّذي يَمْنَعُنِي».

واضطرب الرجل وسقط السيف من يده، فأخذه النبيّ ﷺ وقال له:

«مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟».

فقال الرجل بتضرُّع وخشوع:

«كن خير آخذ»، يعني السيف.

فعفا عنه النبيّ ﷺ، وقفل الرجل راجعاً إلى قومه، وقد بهر بأخلاق النبيّ ﷺ، فقال لهم: جئتكم من عند خير الناس.

٤ ـ ومن بوادر حلمه أنَّ زيد بن سعنة وفد عليه قبل إسلامه في دين يتقاضاه منه، فجذب ثوب النبيّ عن منكبه، وأغلظ له في القول، فانتهره عمر، فابتسم النبيّ ﷺ وقال لعمر:

«أنا وَهُوَ إلىٰ غَيْرِ هَذا أَحْوَجُ يا عُمَرُ تَأْمُرُنِي بِحُسْنِ القَضاءِ، وَتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ التَّقاضي»(٢).

وقاضاه النبيّ وزاده عشرين صاعاً، وكان ذلك سبب إسلامه، وقال في حقّ النبيّ ﷺ: لا تزيده شدَّة الجهل عليه إلاَّ حلماً(٣).

٥ ـ ومن سموّ حلمه أنَّه عفا عن أبي سفيان، الذي ناجزه الحرب وجهد على قتله، فعفا عنه، وبهر أبو سفيان، فقال بإعجاب:

«بأبي أنت وأُمّي، ما أحلمك، وأوصلك، وأكرمك»(٤).

---

(١) صحيح مسلم: ٧/ ٢٠.
(٢) شرح الشفاء: ١/٢٢٦.
(٣) السُّنن الكبرى/ البيهقي: ٩/ ١١٨.
(٤) مجمع الزوائد: ٦/ ١٦٦.

كما عفا عن وحشي قاتل عمّه حمزة بعدما أسلم، كما أصدر عفواً عامّاً عن أعدائه من أهل مكّة، وقال: **«اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»**[١].

جوده:

كان النبيّ ﷺ من أندى الناس كفّاً، وأكثرهم برّاً.

١ ـ إنَّ رجلاً سأل النبيّ ﷺ فأعطاه غنماً سدّت ما بين جبلين، فرجع إلى بلده مبهوراً قد غمرته المبرَّة النبويَّة فقال لقومه: «أسلموا فإنَّ محمَّداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة».

٢ ـ ردّ على هوازن سباياها، وقد بلغت ستة آلاف[٢].

٣ ـ أعطى غير واحد من الناس مائة من الإبل، وأعطى صفوان مائة ثمَّ مائة[٣].

٤ ـ أهدت إليه امرأة بردة، وكان محتاجاً إليها، فلبسها، فرآها رجل من الصحابة فقال: «يارسول الله ما أحسن هذه؟»، فقال: **«نَعَم»**، ونزعها وأعطاها له[٤].

٥ ـ لمَّا قفل النبيّ ﷺ من حنين جاءت إليه الأعراب يسألونه البرّ، حتَّى اضطرّوه إلى شجرة، وخطفوا رداءه، فقال لهم: **«أعْطُوني رِدَائِيَ، لَوْ كَانَ لِي عَدَدَ هَذِهِ العِضاةِ نِعَماً لَقَسَّمْتُها بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لاَ تَجِدُوني بَخِيلاً وَلاَ كَذَّاباً وَلاَ جَبَاناً»**[٥].

٦ ـ أُتي بمال من البحرين، فقال لأصحابه: **«انْثُروه»**، فنثروه، وكان أكثر مال أُتي به إليه، فخرج إلى المسجد، فلمَّا قضى الصلاة جاء ووزَّعه على أصحابه، ولم يبقِ لنفسه منه شيئاً.

٧ ـ ومن برّه وجوده أنَّه مضى إلى الجعرانة[٦]، فقسّم فيها الأموال، وازدحم عليه الناس وهو يعطيهم، حتَّى ألجأوه إلى شجرة، فأخذوا برده، فقال لهم: **«رُدّوا عَلَيَّ بُرْدي، وَاللَّهِ! لَوْ كَانَ عِنْدِي عَدَدَ شَجَرِ تهامَةَ لَقَسَّمْتُهُ بَيْنَكُم»**[٧].

---

(١) السُّنن الكبرى: ٩/١١٨.
(٢) جواهر البحار في فضائل النبيّ المختار: ١/٤١.
(٣) جواهر البحار في فضائل النبيّ المختار: ١/٤١.
(٤) محمَّد المثل الكامل: ص٢٦.
(٥) المصدر المتقدِّم: ص٢٥.
(٦) الجعرانة: ماء ما بين الطائف ومكَّة، وهي أقرب إلى مكَّة.
(٧) بحار الأنوار: ١٦/ ٤٣٠.

التواضع:

من الصفات الرفيعة الماثلة في شخصيَّة الرسول ﷺ التواضع فهو بالرغم من أنَّه سيِّد الكائنات وأعظم الموجودات، إلاَّ أنَّه كان من أشدّ الناس تواضعاً، وقد قال لأصحابه: **«إنَّما أنا عَبْدٌ: آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»**(١).

وكان يحلب شاته، ويرقِّع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويعقل البعير ويعلف نافحه، ويأكل مع الخادم، ويحمل بضاعته من السوق(٢).

وقد قال له شخص: يا خير البريَّة، فردَّ عليه: **«ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ»**(٣).

وقال لأصحاب: **«لاَ تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، إنَّما أنا عَبْدٌ، فَقُوْلُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»**(٤).

وروى أنس عن تواضع الرسول: أنَّ امرأة عرضت للنبيّ ﷺ في الطريق، فقالت له: «إنَّ لي إليك حاجة»، فأجابها بالقبول، وجلس في الطريق، فأمضت بحاجتها، فقضاها(٥)، لقد ملك قلوب المسلمين بتواضعه فهاموا في حبّه.

وكان من تواضعه: أنَّ عديّ بن حاتم وفد عليه، فقال له النبيّ:

«مَنِ الرَّجُلُ؟».

«عدي بن حاتم».

فانطلق به النبيّ ﷺ إلى بيته، وقابله بحفاوة وتكريم، فألقى له وسادة وقال له: **«اجْلِسْ عَلَيْها»**، وجلس هو على الأرض، فبهر عدي من معالي أخلاقه، وقال بإعجاب وإكبار:

«أشهد أنَّك لا تبغي في الأرض علوّاً ولا فساداً». ثمَّ أعلن إسلامه(٦).

---

(١) كنز العمَّال: ٨/ ٤٠٧.
(٢) جواهر البحار في فضائل النبيّ المختار: ١/ ٥٠.
(٣) فتح الباري: ٨/ ٥٣٣.
(٤) شرح السُّنَّة: ٧/ ١٣٠.
(٥) شرح السُّنَّة: ٧/ ١٣٠.
(٦) السيرة النبويَّة/ ابن هشام: ٤/ ٢٢٧.

الزهد:

من خصائص النبيّ ﷺ الزهد في الدُّنيا، فقد رفض زينتها ومباهجها، وتجرَّد تجرُّداً كاملاً عن جميع رغباتها.

١ ـ روت عائشة قائلةً: إنَّ النبيّ ﷺ لم يمتلأ جوفه شبعاً قطّ، ولم يبثّ شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحبّ إليه من الغنى، وإن كان يظل جائعاً يلتوي طول ليلته من الجوع فلم يمنعه ذلك من صيام يومه، ولو شاء سأل ربّه فآتاه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت رحيمة ممَّا أرى به، أمسح بيدي على بطنه ممَّا أرى به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلغت من الدُّنيا ممَّا يقوتك؟ فيقول:

«يا عائِشَةُ، ما لي وَلِلدُّنيا؟ إخواني أُوْلُوْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ صَبَرُوا عَلىٰ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذا، فَمَضَوا عَلَىٰ حَالِهِم، فَقَدِمُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ فَأَكْرَمَ مَآبَهُمْ، وَأَجْزَلَ ثَوابَهُمْ، فَأَجِدُنِي أَسْتَحيي إنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيْشَتِي أنْ يَقْصُرَ بِي غَداً، وَمَا مِنْ شَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِإخْوانِي وَأَخِلَّائِي»[١].

٢ ـ دخل على النبيّ رجل فرآه جالساً على حصير قد أثَّر في جسمه، ووسادة من ليف أثَّرت في خدّه، فجعل الرجل يقول بألم: ما رضي بهذا كسرى ولا قيصر، إنَّهم ينامون على الحرير والديباج، وأنت على هذا الحصير، فقال له النبي ﷺ: **«أنا خَيْرٌ مِنْهُما، ما أنا وَالدُّنْيا، إنَّما مَثَلُها كَمَثَلِ رَاكِبٍ مَرَّ عَلَىٰ شَجَرَةٍ، وَلَها فَيْءٌ فاسْتَظَلَّ تَحْتَها، فَلَمَّا مالَ الظِّلُّ عَنْها ارْتَحَلَ وَتَرَكَها»**.

٣ ـ روت عائشة قالت: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيَّام تباعاً من خبز، حتَّى مضى لسبيله».

٤ ـ روى ابن عبَّاس قال: «كان رسول الله ﷺ يبيت هو وأهله اللَّيالي المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاءً»[٢].

٥ ـ روت عائشة قالت: «كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً، حشوه من ليف، وقد توفِّي صلوات الله عليه ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله، وهو يدعو: **اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلَ مُحَمَّدٍ قُوْتاً»**[٣].

---

(١) أخلاق النُّبوَّة: ص٢٨٦.
(٢) عيون الأثر: ٢/٤٢٨.
(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٢/٤٤٦.

٦ ـ أهدى رجل من الأنصار إلى النبيّ ﷺ صاعاً من رطب، فقال للخادمة التي جاءت بالرطب: **«ادْخُلي فانْظُري هَلْ تَجِدينَ في الْبَيْتِ قِصْعَةً أَوْ طَبَقاً فَتَأْتِيني بِهِ** ـ ليضع فيه الرطب ـ، فذهبت فلم تجد شيئاً، فأخبرت النبيّ بذلك، فكنس موضعاً بثوبه وقال: **«ضَعِيْهِ** ـ أي الرطب ـ **عَلَىٰ هَذَا الْحَضِيْضِ»**، ثمَّ قال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَتِ الدُّنْيا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعالىٰ جناحَ بَعُوضَةٍ ما أَعْطَىٰ مِنْها الْكافِرَ وَالْمُنافِقَ شَيْئاً»**[١].

الإنابة إلى الله:

من ذاتيَّات النبيّ العظيم ﷺ الإنابة إلى الله تعالى، والخوف الشديد منه. يقول الإمام الصَّادق عليه السلام: **«ما كانَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنْ يَظَلَّ خائِفاً جائِعاً في اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»**[٢].

وروى ابن عمر قال: «إنَّا كنَّا نعدُّ في مجلس لرسول الله ﷺ يقول مائة مرَّة: **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ»**[٣].

المؤذن:

أمَّا مؤذِّن النبيّ ﷺ فقد كان بلال الحبشي[٤]، وكان ينطق بالشين سيناً، فيقول في آذانه: أسهد أن لا إلٰه إلاَّ الله، وكان المنافقون يسخرون منه ويعيبون عليه ذلك، فرفع ذلك إلى النبيّ ﷺ، فتأثَّر وقال: **«إنَّ سين بلال شين عند الله تعالى، إنَّ سين بلال خَيْرٌ مِنْ شيْنِكُمْ»**.

كثرة صلاته:

كان رسول الله ﷺ كثير الصلاة، وكان يجد فيها متعة من أعظم متع حياته؛ لأنَّه كان يناجي ربّه تعالى، وقد ورمت قدماه من كثرة الصلاة، فقالت له عائشة: «لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟»، فقال: **«أفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْداً شَكُوراً»**[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/٤٥٦.
(٢) روضة الكافي: ص١٦٣.
(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٨/ ٣٥٠.
(٤) صحيح مسلم: ٣/ ١٢٩.
(٥) صحيح البخاري: ٤/ ١٨٣٠، الحديث ٤٥٥٧.

وروت أُمّ سلمة، قالت: كان ـ النبيّ ﷺ يصلّي ثمّ ينام قدر ما صلّى، ثمّ يصلّي قدر ما نام، ثمّ ينام قدر ما صلّى حتّى يصبح»[١].

وروى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**لَمَّا نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢] قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ حَتَّىٰ تورمَّتْ قَدَماهُ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ رِجْلاً وَيَضَعُ أُخْرَى، فَهَبَطَ عَلَيْهِ جَبْرَئِيلُ بِالآيَة: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾**»[٣].

بكاؤه في صلاته:

كان النبيّ ﷺ إذا صلّى يبكي من خشية الله تعالى، فقد روى مطرف عن أبيه، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلّي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء»[٤].

الحياء:

كان النبيّ ﷺ أشدّ النَّاس حياءً. قال أبو سعيد الخدري: «كان رسول الله ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها»[٥].

ولمَّا فتح الله تعالى الفتح المبين باحتلال مكَّة التي كانت قلعة للوثنيَّة ومركزاً للقوى المعادية للنبيّ ﷺ، دخل فاتحاً تحفُّ به قوَّاته المسلَّحة، وهو مطأطأ برأسه إلى الأرض خجلاً وحياءً من قريش التي جهدت على مناجزته ولفَّ لواء رسالته، وخاطبهم بناعم القول قائلاً لهم: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**».

وكان من حيائه أنَّه لم يصرِّح باسم من يكرهه، وإنَّما يقول: «**ما بالُ أقْوامٍ يَقُولُونَ أوْ يَصْنَعُونَ كَذا**»[٦].

ذكره لله:

كان رسول الله ﷺ دوماً يلهج بذكر الله تعالى، فكان ـ فيما يقول الرواة ـ: إذا أصبح يقول: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيراً عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ**»، يردِّد ذلك ثلاثمائة وستّين مرَّة، وإذا أمسى قال مثل ذلك[٧].

---

(١) صحيح الترمذي: ٢/ ١٥٢.
(٢) سورة المزمِّل: الآيتان ١ و٢.
(٣) كنز العمَّال: ١/ ٢٧٣.
(٤) روضة الكافي: ٢/ ٤٨٩.
(٥) فيض القدير: ٥/ ١٥٩.
(٦) تاريخ الإسلام/السيرة النبويَّة/الذهبي: ص٤٥٥.
(٧) أُصول الكافي: ٢/ ٤٨٩.

وكان يقول: «خَيْرُ الْعِبادَةِ قَوْلُ: لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ»[١].

وروى الإمام أبو عبد الله عليه السلام: «**إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لاَ يَقومُ مِنْ مَجْلِسٍ وَإنْ خَفَّ حَتَّىٰ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَمْساً وَعِشْرينَ مَرَّةً**»[٢].

وكان في كلّ يوم يستغفر الله عزَّ وجلَّ سبعين مرَّة، ويضيف إلى الاستغفار: «**وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**»[٣].

الشفقة والرَّحمة:

من عناصر الرسول ﷺ الشفقة والرَّحمة لجميع الناس متَّفقين ومختلفين، وقد أعلن الذِّكر الحكيم ذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

وكان ﷺ شديد الرَّحمة والشفقة على أهله وعياله. يقول خادمه أنس بن مالك: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»[٥].

الوفاء:

من الصفات الرفيعة للنبيّ ﷺ الوفاء، فقد كان من أوفى الناس، وأرعاهم لمقابلة المعروف والإحسان بالإحسان، وكان من وفائه لأُمّ المؤمنين خديجة بعد وفاتها أنَّه إذا قُدِّمت له هدية بادر بإهدائها إلى إحدى صديقات خديجة[٦].

وقالت عائشة: «ما غرت على امرأة مثل ما غرت على خديجة لما كنت أسمعه عن رسول الله ﷺ عنها، وأنَّه كان يذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها، واستأذنت عليه امرأة فهشّ لها، وأحسن السؤال عنها، فلمَّا خرجت قال: **إنَّها كانَتْ تَأْتِينا أَيَّامَ خَدِيُجَةَ، وإنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإيمانِ**»[٧].

---

(١) أُصول الكافي: ٢/٥٠٦.
(٢) أُصول الكافي: ٢/٥٠٤.
(٣) أُصول الكافي: ٢/٥٠٥.
(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٨.
(٥) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ـ: ٧/٧٦.
(٦) الأدب المفرد/ البخاري: ص٢٣٢.
(٧) الأمالي/ الشجري: ٢/١٥٢.

ومن وفائه أنَّه كان يبعث إلى ثويبة مولاة أبي لهب بصلة وكسوة لأنَّها أرضعته، ولمّا ماتت سأل: **«مَن بَقِيَ مِنْ قَرابَتِها؟»**.

قيل: «ليس لها أحد»(١).

وأقبل أبوه من الرضاعة فقابله بالاحتفاء والتكريم، ووضع له بعض ثوبه للجلوس عليه، ثُمَّ أقبلت أُمّه من الرضاعة، فوضع لها شقّ ثوبه من الجانب الآخر، فجلست عليه(٢).

ومن وفائه أنَّه وفد عليه وفد من النجاشي الذي أكرم اللاجئين عنده من المسلمين الذين هاجروا للحبشة، فقام ﷺ بنفسه يخدمهم، فقال له أصحابه: «نكفيك»، فقال: **«إنَّهُمْ كَانُوا لأصْحابِنا مُكْرِمِينَ، وَإِنِّي أُحِبُّ أنْ أُكافِئَهُمْ»**(٣).

الشجاعة:

كان النبيّ ﷺ أشجع الناس، وأصلبهم وأقواهم شكيمة، وتحدَّث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن شجاعة النبيّ ﷺ بقوله:

«إنّا كُنّا إذا اشْتَدَّ الْبَأْسُ، واحْمَرَّتِ الْحَدَقُ اتَّقَيْنا بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ، فَما يَكُونُ أحَدٌ أقْرَبَ إلَىٰ الْعَدُوِّ مِنْهُ، وَلَقَدْ رَأيْتَنِي يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِالنَّبِيِّ، وَهُوَ أقْرَبُ بِنا إلَىٰ الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أشَدِّ النّاسِ بَأْساً»(٤).

وروى العبَّاس عن شجاعة الرسول ﷺ بقوله:

«لما التقى المسلمون والكفَّار يوم حنين ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفَّار، وأنا آخذ بلجامها أكفّها أن لا تسرع، وأبو سفيان بن الحارث، ثمَّ نادى يا لِلْمُسْلِمِينَ...»(٥).

حبّ الفقراء:

روى أبو سعيد قائلاً: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اللّهُمَّ أحْيني مِسْكِيْناً، وَتَوَفَّنِي**

---

(١) جواهر البحار في فضائل النبيّ المختار: ١/٤٨.
(٢) جواهر البحار في فضائل النبيّ المختار: ١/٤٨.
(٣) دلائل النُّبوَّة/ السيوطي: ٢/٣٠٧.
(٤) جواهر البحار في فضائل النبيّ المختار: ١/٤٣.
(٥) فتح الباري: ٨/٢٨.

مِسْكِيناً، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَساكِينِ، وَأنَّ أَشْقَىٰ الأشْقِياء، مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فَقْرُ الدُّنْيا وَعَذابُ الآخِرَةِ»(١).

وروى أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«اللَّهُمَّ أحْيِنِي مِسْكِيْناً، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَساكِيْنِ يَوْمَ الْقِيامَةِ»**، فانبرت إليه عائشة قائلة: «لِمَ يا رسول الله؟».

فقال لها:

«إنَّهُمْ يَدْخُلُوْنَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أغْنِيائِهِمْ بِأرْبَعِيْنَ خَرِيْفاً. يا عَائِشَةُ، لاَ تَرُدِّي الْمِسْكِينَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ. يا عَائِشَةُ، أحِبِّي الْمَساكِيْنَ وَقَرِّبِيْهِمْ، فَإنَّ اللَّهَ يُقَرِّبُكِ يَوْمَ الْقِيامَةِ»(٢).

كراهته للعظمة:

من الصفات البارزة في شخصيَّة الرسول ﷺ كراهيته الشديدة للتفوُّق والأنانيَّة والعظمة، فقد روى ابن عبَّاس قال: «مشيت خلف رسول الله ﷺ لأنظر هل يكره أن أمشي وراءه أو يحبّ ذلك، قال: فالتمسني بيده وألحقني به حتَّى مشيت بجنبه، ثمَّ تخلَّفت مرَّة ثانية، فالتمسني بيده فألحقني به فعرفت أنَّه يكره ذلك»(٣).

وكان يكره أن يستقبل بالتعظيم والتبجيل، وكان يقول لأصحابه: **«لا تَقُومُوا ـ لي ـ كَما تَقُوْمُ الأعاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً»**(٤).

الصبر:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ فَأمَرَهُ بِالصَّبْرِ فَقَالَ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾**(٥)**، لَقَدْ صَبَرَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَىٰ مَا لاَقَاهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْمَكْرُوْهِ حَتَّىٰ فَتَحَ لَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ الْفَتْحَ الْمُبِينَ»**.

إنَّ الله تعالى أمر نبيّه بالصبر. قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٦).

(١) مستدرك الحاكم: ٢/ ٥٦.
(٢) صحيح الترمذي: ٢/ ٥٦.
(٣) تاريخ بغداد: ١٢/ ٩١.
(٤) صحيح أبي داود: ٢/ ٢٢٤.
(٥) سورة المزمِّل: الآية ١٠.
(٦) سورة لقمان: الآية ١٧.

العدل:

وقد خاطبه بعض جهَّال العرب، فقال له:

«أعدل يا محمَّد».

فردَّ عليه قائلاً:

«وَيْحَكَ فَمَنْ يَعْدِلْ إنْ لَمْ أعْدِلْ، خِبْتُ وَخَسِرْتُ إنْ لَمْ أعْدِلْ»(١).

الفصاحة والبلاغة:

قال الغزالي: «كان رسول الله ﷺ يتكلَّم بجوامع الكلم، لا فضول ولا تقصير، يتبع كلامه بعضه بعضاً، يحفظه سامعه ويعيه»(٢).

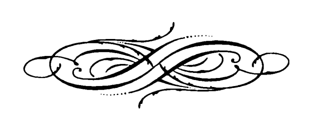
وقد استطاع صلوات الله عليه بسموٍّ بلاغته أن يحتلّ العواطف، ويسيطر على النُّفوس، وأنَّ الكثيرين ممَّن آمنوا به قد جلبهم روعة بيانه وصدق دعوته، وقد أُثر عنه القول:

«أنا أفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ»(٣).

وقال له بعض أصحابه: «ما أفصحك يا رسول الله، وما رأينا مَن هو أفصح منك»، فقال ﷺ: **«وَما يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ، وَبِلِساني نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَبِلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبِيْنٍ»**(٤).

الوقار:

وصفه ابن أبي هالة بقوله: **«كَانَ رَسُول اللَّهِ ﷺ سُكُوْتُهُ عَلَىٰ أرْبَعٍ: عَلَىٰ الْحِلْمِ، وَالْحَذَرِ، وَالتَّقْدِيرِ، وَالتَّفْكِيرِ»**.



---

(١) الشفاء: ١/ ٢٢٣.

(٢) إحياء العلوم: ٢/ ٣٦٧.

(٣) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/ ١٧٦.

(٤) بحار الأنوار: ٦/ ٢٣٠.

في غار حراء

وتبدأ حياة الرسول الأعظم ﷺ الفكريَّة والرساليَّة من غار حراء[١]، فكان يقيم فيه بعيداً عن ضوضاء الحياة، ممعناً في التأمُّل بمظاهر الكون، وما فيه من الأدلَّة الحاسمة على وجود الخالق العظيم، كان ينظر إلى الكواكب ويتأمَّل، فتزيده إيماناً ويقيناً ورسوخاً بعظمة الله تعالى خالق الكون وواهب الحياة.

كان النبيّ ﷺ يقيم في غار حراء يتعبَّد ويسبِّح الله تعالى، وهو على ثقة أنَّه المصلح الأكبر للإنسانيَّة، والمنقذ لها من خرافات الجاهليَّة، وأنَّه وحده الذي ينشر كلمة التوحيد في الأرض، ويدمِّر الأوثان والأصنام، وأنَّه النبيّ الذي بشِّرت به الكتب السماويَّة، وهو خاتم النَّبيِّين وسيِّد المرسلين.

الوحي:

أمَّا بداية الوحي على النبيّ ﷺ فكان في تلك البقعة المباركة من غار حراء، وكان عمره ـ فيما يقول الرواة ـ أربعين سنة، وكان في أوَّل فبراير سنة (٦١٠م).

وقد نزل عليه جبرئيل بالرسالة المقدَّسة، مبتدءاً بسورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، فأعرب له الرسول أنَّه لا يقرأ، فألحَّ عليه ثانياً وثالثاً، فقال ﷺ:

«ماذا أقْرَأُ؟».

ـ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[٢]، فقرأها، وانصرف الملك وقد نقشت في قلبه[٣].

(١) حراء: جبل يبعد عن مكَّة فرسخين.
(٢) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٥.
(٣) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/ ٢٥٤.

مع خديجة:

وأسرع الرسول ﷺ إلى زوجته الوفية أُمّ المؤمنين خديجة، وقد أخذته رعدة المحموم قائلاً لها:

«دَثِّرُوْنِي، دَثِّرُوْنِي».

وسارعت خديجة فدثّرته، وقد ملكها فزع عظيم، فقالت له:

«يا أبا القاسم، حدِّثني بالله ماذا حدث لك؟».

فحدَّثها بما رأى، فانبرت تبعث في نفسه الاطمئنان، وتشجِّعه على تحمُّل رسالة ربّه قائلة له:

«والله! لا يخزيك الله أبداً، إنَّك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسي المعدم، وتعين على نوائب الدهر.

إبشر يابن عمِّي واثْبُتْ، فوالذي نفس خديجة بيده، إنِّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأُمَّة»[١].

خديجة مع ورقة:

وسارعت خديجة إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل، وكان يدين بالنصرانية وعارفاً بالإنجيل، فأخبرته بما رأى النبيّ ﷺ، وسمع فأطرق ورقة مليّاً ثمَّ رفع رأسه، وقد أصابه الفزع والذهول وقال بصوت مضطرب النبرات:

«قدُّوس، قدُّوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنَّه لنبيّ هذه الأُمَّة، فقولي له: فليثبت».

وملئت نفس خديجة فرحاً وابتهاجاً، فسارعت إلى النبيّ ﷺ لتبشِّره بمقالة ورقة، ووجدته نائماً، وإذا به قد اهتزَّ وأخذ العرق ينصبّ منه، وإذا بجبريل يوحي إليه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾[٢].

لقد أمره الله تعالى بأن يقوم بنشاط فيدعو العباد إلى كلمة التوحيد التي تُبنى عليها

---

(١) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/ ٢٥٤.

(٢) سورة المدّثّر: الآيات ١ ـ ٧.

جميع قوى الخير والسلام في الأرض، وأن ينذرهم من عذاب الله تعالى الذي ينزله على الظالمين والكافرين.

وطلبت منه خديجة أن يعود لفراشه فأجابها:

«انْقَضىٰ يا خَدِيْجَةُ عَهْدُ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ، فَقَدْ أمَرنِي جَبْرَئِيْلُ أن أُنْذِرَ النَّاسَ، وَأنْ أدْعُوَهُمْ إلَىٰ اللَّهِ وَإلَىٰ عِبَادَتِهِ، فَمَنْ ذَا أدْعُوْ وَمَنْ ذَا يَسْتَجِيْبُ لِي؟».

وأخذت أُمّ المؤمنين خديجة تحفِّزه وتنشِّطه على أداء رسالة الله تعالى لعباده، وأن يتسلَّح بالصبر والعزم في دعوته إلى الله تعالى.

إسلام خديجة وعليّ:

وأسلمت أُمّ المؤمنين خديجة بالوقت، فكانت أوَّل من حظيت باعتناق الإسلام، كما أسلم معها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فكانا أوَّل من أسلم[١].

صلاة النبيّ في الكعبة:

وفي اليوم الثاني من نزول الوحي على رسول الله ﷺ وتقلّده للنُّبوَّة مضى إلى الكعبة فأدَّى الصلاة فيها[٢] وقد ائتمَّت به أُمّ المؤمنين خديجة والإمام علي عليه السلام، وهي أوَّل صلاة في الإسلام تُقام في الكعبة المقدَّسة.

طواف النبيّ بالكعبة:

وطاف النبيّ ﷺ في الكعبة، وهو أوَّل طواف إسلامي يُقام في الكعبة المشرَّفة، فقد روى عبد الله بن مسعود، قال: «إنَّ أوَّل شيء علمته من أمر رسول الله ﷺ أنِّي قدمت الكعبة مع عمومة لي، فأرشدنا إلى العباس بن عبد المطّلب، فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم، فجلسنا إليه، فبينما نحن عنده؛ إذ أقبل رجل من باب الصفا؛ أبيض، تعلوه حمرة، له وفرة جعدة إلى أنصاف أُذنيه، أقتر الأنف، برّاق الثنايا، أدعج العينين، كثّ اللحية، دقيق المسربة، شثن الكفّين والقدمين، عليه ثوبان أبيضان كأنَّه القمر ليلة البدر، يمشي عن يمينه غلام أمرد، حسن الوجه، مراهق أو محتلم، تقفوه امرأة قد سترت محاسنها، حتَّى قصد نحو الحجر فاستلمه، ثمَّ استلمه الغلام، ثمَّ استلمته المرأة، ثمَّ طاف بالبيت سبعاً، والغلام والمرأة يطوفان معه.

---

(١) صحيح الترمذي: ٢/ ٣٠١.

(٢) تهذيب الكمال: ٢٠/ ١٨٥.

قلنا: يا أبا الفضل، إنَّ هذا الدِّين لم نكن نعرفه فيكم أَوَشيء حدث؟

قال العباس: هذا ابن أخي محمَّد ﷺ، والغلام عليّ بن أبي طالب، والمرأة خديجة».

وتابع ابن مسعود حديثه قائلاً: «والله ما على وجه الأرض من أحد نعلمه يعبد الله بهذا الدِّين إلاَّ هؤلاء الثلاثة»[١].

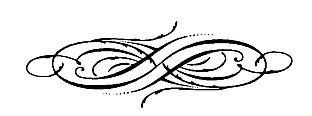
الدعوة سرّاً:

وأحاط النبيّ ﷺ دعوته إلى الإسلام بكثير من السرّ والكتمان؛ إذ لم يكن هناك أي مجال لإظهار الدعوة إلى الإسلام والجهر بها في وسط ذلك المجتمع المنحطّ فكرياً، والمخيّم عليه الجهل، والغارق في عبادة الأصنام والأوثان، فالجهر بالدعوة سوف يقابل بعنف وقسوة وشدَّة لا طاقة للنبيّ ﷺ عليه.

الدعوة إلى الله:

واقتصر النبيّ ﷺ على الدعوة إلى الله تعالى فقط، فقد بدأ رسالته بهذه الكلمة الذهبية: **«قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا»**.

وكان النبيّ ﷺ على يقين لا يخامره شكّ ولا وهم أنَّ الإسلام لا بدَّ أن ينتشر ويسود في الأرض، ولا بدَّ أن تطوى معالم الجاهليَّة وتدمَّر أفكارها، فقد قال ﷺ: **«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ - أي الإِسْلاَمُ - مَا بَلَغَ اللَّيْلُ، وَلاَ يَتْرُكِ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ دَخَلَهُ هَذَا الدِّيْنُ، يَعِزُّ عَزِيْزٌ بِهِ، وَيَذِلُّ ذَلِيْلٌ بِهِ، يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»**[٢].



(١) مجمع الزوائد: ٩/ ٢٢٢.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ١٩٢.

الجهر بالدعوة

مضت ثلاث سنين والدعوة الإسلاميَّة محاطة بالكتمان، وبعد انقضائها أمره الله تعالى بالجهر بها، فقد نزل عليه الوحي بهذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1].

وتلقَّىٰ النبيّ أمر الله تعالى بالترحيب، وعزم على الجهر بالدعوة وإعلانها مدوِّية لا لبس فيها ولا خفاء، فأمر ابن عمّه عليّاً بدعوة بني هاشم وبني عبد المطّلب وبني نوفل وغيرهم من أولاد عبد مناف.

كما أمر عليّاً أن يصنع لهم طعاماً مكوّناً من فخذ شاة، ومدّ من برّ، وصاع من لبن، وحضر المدعوّون وكان عددهم أربعين رجلاً، كان من بينهم أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب[2]. وقدَّم لهم النبيّ ﷺ الطعام، وقال لهم: **«كُلُوا بِسْمِ اللَّهِ»**، فأكلوا حتَّى شبعوا، وشربوا حتَّى نهلوا، مع أنَّ الواحد منهم كان يأكل الشاة ويشرب جرَّة من لبن، ولكن الطعام والشراب كفاهم، وبهروا بذلك، وأراد النبيّ ﷺ أن يتكلَّم، فسارع أبو لهب قائلاً:

«ما رأينا سحراً كسحر اليوم، فلنبادر بالانصراف».

وتفرَّق الجميع بين مستهزء وساخر، ولم يحدِّثهم النبيّ بشيء، فقد قطع أبو لهب حديثه، وفي اليوم الثاني دعاهم النبيّ ﷺ إلى تناول الطعام، فأكلوا وشربوا، وقام النبيّ ﷺ فخطب فيهم قائلاً:

«يا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ شَاباً فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلِ مِمَّا قَدْ جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ تَعالىٰ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ؟».

أحجم القوم كلّهم، ولم ينبس أحد ببنت شفة، كأنَّ على رؤوسهم الطير، وانبرى إليه الإمام أمير المؤمنين، فقال له بحماس بالغ:

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٢) أبو لهب: كنّي بذلك لحمرة لونه ـ التذكرة الحمدونيَّة: ٨/ ٣٠١.

«أنا يا نَبِيَّ اللَّهِ أكُونُ وَزِيرَكَ عَلَيْهِ».

فأخذ النبيّ ﷺ برقبته، وخاطب القوم:

«إنَّ هَذَا أخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيْكُمْ فاسْمَعُوا لَهُ وَأطِيعُوا».

وتعالت الأصوات بالسخرية والاستهزاء، قائلين لأبي طالب:

«أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[1].

وعلى أيِّ حال، فقد أعار القوم دعوة النبيّ ﷺ أذناً صمَّاء، ولم يستجب منهم أحد سوى عمّه أبي طالب، وابنه الإمام عليّ عليه السلام.

إجراءات قاسية:

وأجمعت قريش على مناجزة الرسول ﷺ ومناهضته بجميع ما تملك من وسائل العنف والشِّدَّة، لقد ضاقت قريش من الإسلام أشدّ الضيق، ونفروا أشدّ النفور، وقاوموه بأعنف المقاومة وأقساها، وكان منها ما يلي:

١ ـ الاستهزاء:

وسخرت قريش بالنبيّ ﷺ في بداية دعوته.

٢ ـ إغراء صبيانهم بمحاربته:

وأوعزت قريش إلى صبيانهم وشجَّعتهم على محاربة النبيّ ﷺ، فكانوا يلقون عليه الحجارة والتراب والرماد.

٣ ـ اتّهام النبيّ بالجنون:

ومن بين الوسائل التي عمدت إليها قريش في محاربة النبيّ ﷺ رميه بالجنون؛ لأنَّه جاءهم بشريعة مجافية لطباعهم التي ران عليها الجهل.

المعتدون على النبي ﷺ:

١ ـ أبو جهل:

وكان من ألدّ أعداء النبيّ ﷺ أبو جهل، فقد ملئت نفسه الخبيثة حقداً وعداءً له.

وكان من حقد هذا الكلب على النبيّ ﷺ أنَّ النبيّ كان بسوق ذي المجاز يدعو الناس إلى اعتناق الإسلام ويقول: «قُولُوا: لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا»، وأبو جهل خلفه

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٦٣.

يسفي عليه التراب، ويخاطب الناس قائلاً: «لا يَغُرَّنَّكُمْ هذا عن دينكم، إنَّما يريد أن تتركوا عبادة اللَّات والعُزَّى»[١].

ومن اعتداء هذا الوحش على النبيّ ﷺ أنَّه حاول أن يطأ رقبة النبيّ وهو في أثناء الصلاة، إلاَّ أنَّه نكص على عقبيه، فقيل له في ذلك، فقال: «رأيت أنَّ بيني وبينه خندقاً من نار مهولاً، ورأيت ملائكة ذوي أجنحة»، ونقل ذلك إلى النبيّ ﷺ فقال: **«لَوْ دَنا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الْمَلائِكَةُ عُضْواً عُضْواً»**، ونزلت الآية: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾[٢]، إنَّ هذا الوحش الكاسر لم يترك لوناً من ألوان الاعتداء إلاَّ صبَّه على النبيّ ﷺ.

٢ ـ أبو لهب:

أمَّا أبو لهب فكان من أحقد أعداء النبيّ ﷺ، ومن أكثرهم تجرُّءاً وتكذيباً له.

وكان من مقاومة أبي لهب للدعوة الإسلاميَّة أنَّ النبيّ ﷺ لمَّا كان يدعو إلى الله تعالى كان أبو لهب يرفع عقيرته مخاطباً قريش:

«لا يَغُرَّنَّكُمْ عن دينكم ودين آبائكم»[٣].

٣ ـ عقبة بن أبي معيط:

وكان عقبة من أعدى الناس لرسول الله ﷺ، وبالغ في إيذائه والاعتداء عليه، فقد رآه يصلِّي في جوف الكعبة فوضع ثوبه في عنق النبيّ ﷺ وخنقه، فسارع أبو بكر فدفعه عنه، وقال له:

«أتقتلون رجلاً أن يقول ربِّي الله وقد جاءكم بالبيِّنات من ربّكم»[٤].

٤ ـ الأسود:

من المعتدين على رسول الله ﷺ والساخرين منه: الأسود بن عبد يغوث الزهري القرشي، وقد بالغ في السخرية بالنبيّ ﷺ، وإيذاء أصحابه، وكان يقول للنبيّ مستهزءاً، وإذا رأى أصحاب النبي يقول ساخراً منهم:

«هل كُلِّمتَ اليوم من السَّماء؟».. «جاءكم ملوك الأرض»[٥].

---

(١) تاريخ الإسلام/ السيرة النبويَّة/ الذهبي: ص١٥١.
(٢) سورة العلق: الآية ٩. بحار الأنوار: ١٨/ ٤٦.
(٣) تاريخ الإسلام/ السيرة النبويَّة/ الذهبي: ص١٥١.
(٤) السيرة النبويَّة/ ابن كثير: ١/ ٤٧٠.
(٥) أنساب الأشراف: ١/ ١٣١ و١٣٢.

٥ ـ الحكم بن أبي العاص:

كان الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة والد مروان استخف بالنبيّ ﷺ واستهزأ به، فكان يمرُّ خلفه فيغمز به ويخلج بأنفه وفمه، والتفت إليه النبيّ فرآه يفعل ذلك فقال له: «فَلْتَكُنْ كَذَلِكَ»، فكان يختلج ويرتعش حتَّى هلك.

٦ ـ أُميَّة بن خلف:

أمَّا أُميَّة بن خلف، فقد كان من أخبث الناس عداوة للنبيّ، وكان إذا رآه همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه الآية: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾[١]، وقد قتل هذا الباغي اللئيم في يوم بدر[٢].

اتّهام النبيّ بالسحر:

واتّهمت قريش النبيّ ﷺ بالسحر؛ لأنَّه كان يتلو عليهم آيات الله البيِّنات البالغة حدّ الإعجاز في بلاغتها وفصاحتها.

صدّ المادحين للنبيّ ﷺ:

وبلغ من حقد القرشيِّين للنبيّ ﷺ أنَّهم صدّوا من مدحه، وبذلوا له المال لمنعه من الوصول إليه.

منع الراغبين في اعتناق الإسلام:

ووقفت قريش لمنع الراغبين في اعتناق الإسلام والبقاء على عبادة الأوثان، فقد روى المؤرّخون أنَّ مروان بن الحكم التقى بحويطب، فسأله عن عمره فأخبره به، فقال له مروان[٣]:

«تأخّر إسلامك أيُّها الشيخ حتَّى سبقتك الأحداث».

وصارحه حويطب قائلاً:

«والله لقد هممت بالإسلام غير مرَّة، كلّ ذلك يعوقني أبوك، يقول لي: تضيع شرفك، وتدع دين آبائك لدين محدث، وتصير تابعاً»[٤].

---

(١) سورة الهُمَزَة: الآيتان ١ و٢.

(٢) دلائل النُّبوَّة/ البيهقي: ٢/ ٣٣٥، وغيره.

(٣) السيرة الحلبيَّة: ١/ ١٤٣.

(٤) البداية والنهاية: ٨/ ٧٦.

اضطهاد المؤمنين:

وصبَّ القرشيّون جام غضبهم على كلّ من أسلم وآمن بالنبيّ ﷺ.

وعلى أيٍّ حال فقد عذَّبت قريش كوكبة من أعلام الإسلام، كان منهم الأُسرة الكريمة المكوَّنة من:

١ ـ عمَّار.

٢ ـ ياسر.

٣ ـ سميَّة.

فقد عذّبت هذه الأُسرة عذاباً منكراً وأليماً، وكان النبيّ ﷺ يجتاز عليهم وهم فيوطأة التعذيب، فيتقطَّع قلبه الشريف ألماً وحزناً، وقال فيهم كلمته الخالدة التي هي وسام شرف لهم:

«صَبْراً آلَ يَاسِرٍ إنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ»(١).

ومن المعذّبين في سبيل الإسلام الصحابي الجليل بلال الحبشي مؤذّن النبيّ ﷺ، فقد عذَّبه الجاهلي أُميَّة بن خلف، وصبَّ عليه ألوان العذاب.

النبيّ ﷺ يدعو المسلمين للصمود:

وبالغت قريش في إيذاء المسلمين وتعذيبهم بأقسى ألوان العذاب وأشدّه، وقد انهارت أعصاب بعضهم، ففتنوا عن دينهم، وبقي فريق منهم متمسِّكاً بدينه لم يحفل ببطش القرشيِّين وتعذيبهم، وكان النبيّ ﷺ يدعو المؤمنين إلى الصمود والصبر على ما حلَّ بهم من العذاب الأليم، وقد طلب الخباب بن الأرت من النبيّ ﷺ أن يدعو على قريش فقال له:

«كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُوْنَ عِظَامِهِ مِنْ لَحمٍ أوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِيْنِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَىٰ مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، ما يَصْرفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِيْنِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأمْرَ حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعاءَ إلىٰ حَضْرَ مَوْتٍ مَا يَخافُ إلاَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

---

(١) كنز العمَّال: ٦/ ٨٥.

(٢) السيرة النبويَّة/ابن كثير: ١/ ٤٩٦.

حماية أبي طالب للنبي ﷺ:

قام أبو طالب بدور إيجابي ومتميِّز في حماية النبيّ ﷺ، فكان القوَّة الضاربة التي وقفت إلى جانبه، ولولاه لما استطاع النبيّ أن يقف بعزم وثبات لتبليغ رسالة ربّه أمام تلك الوحوش الكاسرة التي جهدت على إطفاء نور الله تعالى.

لقد أوجد الرسول ﷺ في ثورته الكبرى انقلاباً فكرياً وتحوُّلاً اجتماعياً، فقد خافت قريش على آلهتها وأصنامها التي أعلن النبيّ عليها الحرب بلا هوادة، كما خافت على تقاليدها وعاداتها التي سخر منها النبيّ ﷺ، وقد ورمت آنافهم، وانتفخ سحرهم، فناجزوا النبيّ ﷺ وحاربوه، وكان أبو طالب يبعث في نفسه العزم والنشاط على إشاعة مبادئه.

وكان أبو طالب حريصاً أشدّ الحرص على ابن أخيه، لا يفارقه، ولم يخل بينه وبين غوائل الدهر وعاديات الأيام، وكان شفيقاً عليه، رفيقاً به، يكلؤه، ويرعاه، ويحوطه، ويحميه، ويضنّ به على المكروه.

هجرة المسلمين الأُولى للحبشة:

ولمَّا رأى رسول الله ﷺ ما مُني به أصحابه من العذاب والتنكيل، وما تعرَّضوا له من صنوف المحن والبلاء أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة؛ لأنَّ بها ملكاً لا يظلم أحداً ولا يعتدي عليه، وهي أرض صدق، حتَّى يجعل الله تعالى لهم مخرجاً ممَّا هم فيه.

وخرجت كوكبة من المسلمين من الذين اضطهدوا وعذِّبوا، وقد فرّوا إلى الله تعالى بدينهم، وكان عددهم ـ فيما يقول مؤلفو السيرة النبويَّة ـ أحد عشر رجلاً وأربع نساء، ثمَّ تتابع المسلمون للالتحاق بهم، وكان منهم الشهيد الخالد جعفر الطيَّار، وقد هاجر بعضهم ومعه أهله، وهاجر آخرون بأنفسهم، وقد استقبلهم النجاشي خير استقبال، ووفَّر لهم الحماية والأمن، وقد وجدوا في كنف رعايته الكثير من البرّ والإحسان.

وفادة قريش للنجاشي:

وفزعت قريش كأشدّ ما يكون الفزع من هجرة المسلمين لأرض الحبشة، وقد خافوا من تطوُّر الأحداث، وانقلاب الأمر عليهم باتّخاذ الحبشة قاعدة ومركزاً للدعوة الإسلاميَّة، فأوفدوا للنجاشي وفداً يسأله أن لا يمنح المكّيِّين الذين عنده الحماية، وأن يسلِّمهم إلى القرشيِّين، واختاروا للسفارة عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة،

وأرسلوا معهما هدايا نفيسة، وبادر أبو طالب فبعث رسالة للنجاشي يحثّه فيها على حسن جوار المسلمين والدفاع عنهم، وختم رسالته بهذه الأبيات:

أَلا لَيْتَ شِعري كيفَ في النَّأْيِ جَعْفَرٌ وَعَمروٌ وأعداء العَدُوِّ الأقارِبُ[١]
وهَلْ نَالتِ أفْعالُ النَّجاشيِّ جَعْفَراً وأصْحابَهُ أوْ عاقَ ذَلِكَ شاغِبُ[٢]
تَعَلَّمْ، أبَيْتَ اللَّعْنَ، أنَّكَ ماجِدٌ كَريمٌ فَلاَ يَشْقىٰ لَدَيْكَ المُجانِبُ[٣]
تَعَلَّمْ بِأنَّ اللَّهَ زَادَكَ بَسْطَةً وأسْبابَ خَيرٍ كُلُّها بِكَ لازِبُ[٤]
وَإنَّكَ فَيضٌ ذو سِجالٍ غَزيرَةٍ يَنالُ الأعادي نَفْعَها وَالأقارِبُ[٥]

وأنت ترى في هذه الأبيات مدى شفقة أبي طالب على ولده جعفر، وخوفه من أن ينال عقاباً أو مكروهاً من النجاشي، وقد أثنى ثناءً عاطراً على النجاشي ووصفه بأنَّه ماجد كريم لا يشقى مجاوره، وعلى أيِّ حال فقد مثل السفيران أمام النجاشي، وقال له أحدهما:

«أيُّها الملك، قد ضوى[٦] إلى بلدك منَّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه».

وصدقت البطارقة التي هي من حاشية النجاشي كلام الوفد القرشي، وطلبت منه إجابة الوفد القرشي لأنَّه قدَّم لهم هدايا وألطافاً، وغضب النجاشي وأبى أن يدفعهم للوفد قائلاً:

«لا أُسلِّمهم إليهما، كيف أُسلِّمهم وقد نزلوا في بلادي، واختاروني عمَّن سواي، حتَّى أسألهم عمَّا يقولون، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما».

وبعث إليهم فلمَّا مثلوا أمامه قال لهم:

---

(١) النأي: البعد.
(٢) عاق: منع. شاغب: من الشغب.
(٣) المجانب: الداخل في حمى الإنسان.
(٤) لازب: أي لاصق.
(٥) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/٣٥٧.
(٦) ضوى: لجأ.

«ما هذا الدِّين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟».

فانبرى إليه جعفر الطيَّار فأدلى بحجَّته البالغة قائلاً له:

«أيُّها الملك، كنَّا قوماً أهل جاهليَّة نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منَّا الضعيف، فكنَّا على ذلك حتَّى بعث الله إلينا رسولاً منَّا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام».

وعدَّد جعفر ما جاء به النبيّ ﷺ من القيم الكريمة والمبادىء الرفيعة، وأضاف قائلاً:

«فصدَّقناه، وآمنَّا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا، وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنَّا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيُّها الملك».

وكان خطاب جعفر حافلاً بأحكام الإسلام، فبهر منها النجاشي والتفت إليه قائلاً:

«هل لك ممَّا جاء به عن الله تعالى؟».

«نعم».

«اقرأه علَيَّ؟».

وتلا عليه سورة مريم من أوَّلها حتَّى انتهى إلى قوله تعالى:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[1].

---

(١) سورة مريم: الآيات ٢٩ ـ ٣٣.

وهيمنت هذه الآيات على مشاعر النجاشي والأساقفة، وغرقوا في البكاء، وراح النجاشي يقول لجعفر:

«إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة، انطلقا، فلا والله لا أُسلمهم إليكما ولا يكادون».

ثمَّ أمر بطرد ابن العاص وصاحبه، وعدم تسليم المسلمين إليهم، وتميَّز ابن العاص غيظاً وغضباً، وورم أنفه، فدبَّر لهم مكيدة ومكراً، وبادر إلى النجاشي قائلاً:

«إنَّ المسلمين يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً».

وفزع النجاشي فأرسل خلف المسلمين، فلمَّا مثلوا عنده سألهم عمَّا يقولون في السيِّد المسيح، فبادر جعفر قائلاً:

«إنَّ نبينا يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

وامتلأت نفس النجاشي سروراً وابتهاجاً وخطّ في الأرض خطّاً وقال لجعفر:

«ليس بين ديننا ودينكم أكثر من هذا الخط».

وأيقن النجاشي بأنَّ المسلمين على حقّ، وأنَّ خصومهم على مزلقة الباطل، ومنح المسلمين الإقامة في الحبشة، وجعلهم في مأمن ودعة من أذى القرشيِّين، ورجع ابن العاص بخفّي حنين، يجرُّ معه رداء الخيبة والخسران، ووفَّر النجاشي لهم الحماية الكاملة، ومنحهم الحرية في أداء طقوسهم الدينيَّة، فقد روت أُمّ سلمة قالت: «حينما نزلنا في أرض الحبشة جاورنا خير جار، النجاشي آمننا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذىٰ، ولا نسمع شيئاً نكرهه»[١].

دعوة قريش للنبيّ ﷺ:

وضاقت قريش ذرعاً من المبادىء والقيم التي أعلنها الرسول ﷺ، والتي استهدفت تدمير أصنامهم ومعتقداتهم، وتأسيس حياة جديدة لم يألفوها، قائمة على العدل الخالص والحقّ المحض، وقد أعيت بهم السبل والحيل، فقد استجاب لدعوة الرسول ﷺ بعض غلمانهم ونسائهم والأرقَّاء والمستضعفين، وقد رأوا أنَّ سياسة العنف والشِّدَّة لا تجدي شيئاً، فأجمعوا على الالتقاء بالنبيّ ﷺ مباشرة، وشكَّلوا وفداً بزعامة عُتبة بن ربيعة،

---

(١) أمتاع الأسماع: ٤/١٠٦.

وكان من سادات قريش، فالتقوا بالنبيّ في البيت الحرام، وبادر عتبة فخاطب الرسول صلى الله عليه وآله بناعم القول قائلاً:

«يابن أخي، إنَّك منَّا حيث علمت من السِّطة[1] في العشيرة، والمكان في النسب، وأنَّك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَنْ مضى من آبائهم، فاسمع منِّي أعرض عليك أُموراً تنظر فيها لعلَّك تقبل منها بعضها».

وبادر الرسول صلى الله عليه وآله قائلاً:

«قُلْ يا أبا الْوَلِيدِ أسْمَعُ».

«يابن أخي، إن كنت إنَّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا، حتَّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا، حتَّى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِياً[2] تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتَّى نُبرئك منه، فإنَّه ربما غلب التابعُ[3] على الرجل حتَّى يداوى منه».

ولمَّا أنهى عتبة حديثه الحافل بالمغريات والتمنّيات، التفت إليه النبيّ صلى الله عليه وآله بعزم قائلاً:

«قَدْ فَرَغْتَ يا أبا الْوَلِيْدِ؟».

«نعم».

«إسْمَعْ مِنّي».

«أفعل».

وتلا النبيّ صلى الله عليه وآله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[4].

---

(١) السِّطة: الشرف.
(٢) رئياً: أراد به ما يتراءى للإنسان من الجنّ.
(٣) التابع: المسحور.
(٤) سورة فصّلت: الآيات ١ ـ ٥.

ومضى الرسول ﷺ في تلاوة السورة، وبهر بها عتبة، وهام في تيَّارات مذهلة، والتفت إليه النبيّ قائلاً:

«قَدْ سَمِعْتَ يا أبا الْوَلِيْدِ ما سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ».

وقفل عتبة راجعاً إلى أصحابه، وملء إهابه إكبار وإعجاب، وقد بدا عليه التغيُّر والذهول، فاستقبله أصحابه قائلين:

«ما وراءك يا أبا الوليد؟».

«إنِّي سمعت قولاً، والله! ما سمعت مثله قطّ، والله! ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه. فوالله! ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإذا تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظْهَرْ على العرب فملكه مُلْككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به».

وقد أرشدهم إلى الخير بجميع سبله ومفاهيمه، لقد نصحهم أن لا يعرضوا بسوء ومكروه إلى الرسول، ويتركوه وشأنه إلاَّ أنَّهم أعاروا نصحه آذاناً صمَّاء، وقالوا له:

«سحركَ يا أبا الوليد».

«هذا رأيي فيه، فاصنعوا له ما بدا لكم»[١].

الصحيفة:

وورمت أُنوف القرشيِّين، وتميَّزوا غيظاً وغضباً من النبيّ ﷺ الذي عاب آلهتهم، وسخر من معتقداتهم، وهزأ من تقاليدهم، ونعى عليهم حياتهم الحافلة بالمآثم والرذائل، فضاقوا ذرعاً من ذلك، فاجتمعوا وتذاكروا ما حلّ بهم من تقلّل مجتمعهم، فقد صبا إلى الإسلام بعض شبابهم ونسائهم وأرقَّائهم، وقد احتدم الجدل بينهم كأشدّ ما يكون، فكان الشاب يعقّ أبويه، وكانت المرأة تبين زوجها لأنَّه كافر، ولم تهدأ قريش، ولم تقرّ لها عين، وقد عرضوا على وجوههم محنتهم، وما يعانونه من صنوف المحن والخطوب، فعقدوا مؤتمراً قرَّروا فيه ما يلي:

١ ـ أن لا يزوِّجوا شخصاً من بني هاشم وبني عبد المطّلب.

٢ ـ أن لا يتزوَّج أحد من هاشميَّة.

٣ ـ لا يبيعوهم شيئاً.

---

(١) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/٢٩٣ و٢٩٤. كنز العمَّال: ٦/٢٨٩.

٤ ـ لا يبتاعوا منهم شيئاً.

وسجّلوا هذه البنود في صحيفة وعلّقوها في جوف الكعبة توكيداً لأنفسهم، والتزاماً بها، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فدعا عليه النبيّ ﷺ فشُلّت بعض أصابعه[1].

في شِعب أبي طالب:

وفرض القرشيّون الإقامة الجبريّة على النبيّ ﷺ وبقيّة الهاشميِّين، ومنعوهم من الاختلاط بالناس لئلا يغسلوا أدمغتهم المشبعة بالوثنية وعقائد الجاهليّة، وقد أقاموا في شِعب أبي طالب لا يريمون عنه، وهم يعانون أقسى ألوان الاضطهاد، وأشدّ صنوف الإرهاق.

نقض الصحيفة:

ومكث النبيّ ﷺ مع السادة الهاشميِّين معتقلين في شِعب أبي طالب سنتين أو ما يزيد عليهما، وقد لاقوا من الجهد والعناء ما لا يوصف لقسوته ومرارته، فقد كانوا بمعزل تامّ عن المجتمع مقيمين إقامة جبرية في الشعب لا يريمون عنه، قد سدَّت عليهم جميع نوافذ الحياة، قد حرّمت عليهم قريش كلّ صلة لهم مع الناس.

وشاء الله تعالى أن ينقذ نبيّه الكريم مع من آمن معه من هذه المحنة الحازبة، وينجيهم من هذا البلاء العظيم، فسلَّط الأرضة على الصحيفة فأتت عليها وتركت اسم الله تعالى لم تلتهمه، وأخبر جبرئيل النبيّ ﷺ بذلك، وسارع النبيّ ﷺ إلى عمّه أبي طالب، فأخبره بالأمر قائلاً له:

«إنَّ رَبِّيَ اللَّهُ تَعَالىٰ قَدْ سَلَّطَ الأرْضَةَ عَلَىٰ صَحِيْفَةِ قُرَيْشٍ، فَلَمْ تَدَعْ فِيها اسْماً هُوَ لِلَّهِ إلاَّ أثْبَتَتْهُ فِيها، وَنَفَتْ مِنْهُ الظُّلْمَ وَالْقَطِيْعَةَ وَالْبُهْتَانَ».

وبادر أبو طالب قائلاً:

«أربّك أخبرك بهذا؟».

«نَعَمْ»..

وانطلق أبو طالب صوب قريش، فقال لهم:

«يا معشر قريش، إنَّ ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فانظروا إلى صحيفتكم، فإن كان

(١) السيرة النبويّة/ابن هشام: ١/ ٣٧٥.

كما قال ابنُ أخي فانتهوا عن قَطيعتنا، وأنزلوا عمَّا فيها، وإن يكن كاذباً دفعتُ لكم ابنَ أخي».

وانطلقت أصواتهم بلهجة واحدة قائلين:

«رضينا، رضينا».

وسارعوا صوب الصحيفة فوجدها كما أخبر النبيّ ﷺ، فزادهم ذلك عتوّاً وشرّاً[١].

لقد خرج النبيّ ﷺ من الشعب بعزم وقوَّة بأس، وهو يدعو الناس إلى الإسلام، ونبذ الجاهليَّة لأصنامها وأوثانها غير حافل بمناهضة قريش، فقد احتمى بعمّه أبي طالب، فكان مع أبنائه سدّاً حصيناً له، وقوَّة ضاربة يحتمي بها من أذى قريش.

النبيّ ﷺ مع القبائل:

وأخذ الرسول ﷺ يعرض رسالته على القبائل، ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى، ونبذ الأصنام، لقد لبث النبيّ ﷺ عشر سنين يتبع الحجَّاج في منازلهم بمنى والموقف، ويأتي إليهم في أسواق الموسم، وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز ليبلِّغ رسالات ربّه[٢].

الإسراء والمعراج:

خصَّ الله تعالى نبيّه العظيم بالإسراء والمعراج، فقد ميَّزه بهما على بقيَّة أنبيائه عليهم السلام، ونعرض ـ بإيجاز ـ لهما:

الإسراء:

أمَّا الإسراء فقد تحدَّث عنه القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣]؛ ونظراً للأهمّية البالغة لهذه الرحلة المباركة سمّيت السورة باسم (سورة الإسراء). فكان إسراء الرسول ﷺ من تلك البقعة المباركة التي هي مهبط أنبياء الله تعالى ورسله، فقد بارك تعالى فيها وخصَّها بالفضل، وميَّزها عن بقيَّة البقاع.

---

(١) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ٢/ ١٦ ـ ١٧.

(٢) فتح الباري: ٣/ ٦٩٥.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١.

لقد أسري بالرسول ﷺ من المسجد الحرام بمكَّة إلى المسجد الأقصى بالقدس، كما جاء في نصّ الآية المباركة، وكان الإسراء بنفس النبيّ ﷺ جسداً وروحاً[١].

مكان الإسراء:

أمَّا المكان الذي حظي بإسراء سيِّد الكائنات، فقد روي بصور مختلفة منها:

١ ـ روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ، قال: **«بَيْنَما أنا في الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فِي الْحِجْرِ بَيْنَ النَّائِمَ وَالْيَقْظانِ إذْ أتاني جَبْرَئِيْلُ بِالْبُراقِ»**[٢].

٢ ـ روى مالك: قال رسول الله ﷺ: **«بَيْنَما أنا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ، فَأُتِيْتُ بِطَشْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَلِيءٍ حِكْمَةً وَإيماناً»**[٣].

٣ ـ روت السيِّدة أُمّ هاني قالت: «إنَّ رسول الله ﷺ نام عندي تلك اللَّيلة في بيتي، فصلَّى العشاء الآخرة، ثمَّ نام ونمنا، فلمَّا كان قبل الفجر أيقظنا، فلمَّا صلَّى الصبح وصلَّينا معه، قال: **«يا أُمَّ هاني، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمُ العِشاءَ الآخِرَةَ، كَما رَأيْتِ ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ قَدْ صَلَّيْتُ الْغَداةَ الآنَ كَما تَرَيْنَ»**[٤].

٤ ـ روى أبو ذرّ الغفاري: أنَّ النبيّ ﷺ قال: **«أنا بِمَكَّةَ فأتاني جَبْرَئِيلُ فَقالَ: قُمْ أيُّها النَّائِمُ، ثُمَّ أخَذَ بَيَدي فَعَرَجَ بي إلَىٰ السَّماءِ الدُّنْيا»**[٥].

كيفية الإسراء:

وصوَّر الرواة المركبة التي اعتلاها النبيّ ﷺ في إسرائه لبيت المقدس بما لا يخلو من تكلّف، وليس في ذكرها فائدة أو متعة تعود على القرَّاء، وإنَّما نذكر بعض المواضع التي صلَّى فيها النبيّ ﷺ، وهي:

١ ـ طور سيناء: أمره جبرئيل أن يصلِّي فيه؛ لأنَّ الله تعالى كلَّم فيه موسى بن عمران.

٢ ـ بيت لحم.

---

(١) نهاية الأرب: ١٦/ ٢٩٣.
(٢) حياة الرسول ﷺ: ص٢٣٣.
(٣) حياة الرسول ﷺ: ص٢٣٣.
(٤) حياة محمَّد/ هيكل: ص١٨٩.
(٥) صحيح البخاري: ١/ ٩٧.

أوعز جبرئيل إلى النبيّ أن يصلّي في بيت لحم؛ لأنَّه ولد فيه السيِّد المسيح، فصلَّى فيه.

٣ ـ بيت المقدس: وانتهت المسيرة بالنبيّ ﷺ إلى بيت المقدس، فأنزله جبرئيل في المسجد فصلَّى فيه ركعتين، وقد ائتمَّت به الأنبياء العظام سلام الله عليهم.

صخرة بيت المقدس:

وعرج النبيّ ﷺ من صخرة بيت المقدس إلى مكَّة.

مشاهداته:

شاهد الرسول ﷺ في رحلته صوراً رائعة كان منها:

١ ـ إلتقاؤه بآدم أبي البشر واحتفاؤه به.

٢ ـ إلتقاؤه بالسيِّد المسيح ومقابلته له بمزيد من الاحتفاء والتكريم.

٣ ـ مقابلته ليوسف الصدِّيق.

٤ ـ إلتقاؤه بالنبيّ موسى وترحيبه به.

٥ ـ إلتقاؤه بإدريس[١].

٦ ـ كما شاهد الرسول ﷺ تلك الصور الرائعة، والتقى بأنبياء الله العظام، فقد شاهد صوراً مفزعة ومذهلة، كان منها أنَّه رأى عصابة من المجرمين يعذّبون بأقسى العذاب وأشدّه، وهم الهمَّازون واللَّمَّازون، والذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، والمرابون، وإنَّما رأى قسوة عذابهم ليبيِّن لأُمَّته شدَّة آثامهم، فلا يسلكوا سبيلهم[٢].

عام الحزن:

وبعدما خرج الرسول ﷺ من الشِّعب الذي فرضت عليه ـ وعلى مَن اتّبعه ـ الإقامة الجبريَّة، أخذ يذيع رسالته بين القبائل التي تفد إلى مكَّة، محتمياً بعمِّه شيخ البطحاء الذي سخَّر جاهه وحياته وجميع إمكانياته لخدمة الإسلام، وحماية الرسول ﷺ وقد أشرف على الثمانين عاماً، وقد ألمَّت به الأمراض، فخفَّت لعيادته أشراف قريش، وقالوا له:

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٠٤.

(٢) سفينة البحار: ١/ ١٧٦.

«يا أبا طالب، أنت منّا حيث علمت، وحضرك ما ترى.. وعلمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فدعه، فخذ له منّا وخذ منه لنا، ليكفّ عنّا ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه».

وأرسل أبو طالب خلف النبي ﷺ، فلمّا حضر عرف ما عندهم فبادرهم قائلاً:

«كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تُعْطُونِيَاها تَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبَ، وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ».

وسارع أبو جهل قائلاً:

«نعم وأبيك عشر كلمات».

«تَقُولُونَ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَتَخْلَعُونَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ».

وأنكر بعضهم ذلك، وفقد إهابه، فقال للنبيّ ﷺ:

«أتريد يا محمَّد أن تجعل الآلهة إلٰهاً واحداً؟».

وأيس القوم من إجابة النبيّ لهم، وانبرى بعضهم قائلاً:

«ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً ممَّا تريدون».

وخرجوا واجمين مذهولين لم يظفروا بشيء قد صدَّهم النبيّ ﷺ عن رغبتهم.

وفاة أبي طالب:

ولاقى أبو طالب جهداً شاقّاً وعسيراً في نصرة النبيّ ﷺ وحمايته، وكفاحه للقوى المعادية له، وقد ألمّت به الأمراض، ودنا إليه الموت سريعاً، وكان في اللحظات الأخيرة من حياته يوصي أبناء أُسرته بالوقوف إلى جانب النبيّ وحمايته من كيد القرشيِّين وبطشهم، ثمَّ لفظ أنفاسه الأخيرة، فصعدت روحه الطاهرة إلى الله تعالى تحفّها الملائكة المقرَّبون والأنبياء المرسلون.

تأبين النبيّ ﷺ له:

وفجع النبيّ ﷺ بوفاة عمّه، فقد فَقَدَ الناصر والمحامي والذابّ عنه، وقد وقف على حافّة القبر وهو واجم حزين قد روَّىٰ ثرى القبر بدموع عينيه، وهو يصوغ من حزنه كلمات قائلاً:

«وَصَلَتْكَ رَحِمٌ يا عَمِّ، جُزِيتَ خَيْراً يا عَمِّ، فَلَقَدْ رَبَّيْتَ وَكَفَلْتَ صَغِيراً، وَآزَرْتَ وَنَصَرْتَ كَبِيراً، أما وَاللَّهِ! لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، وَأشْفَعَنَّ فِيكَ شَفاعَةً يَعْجَبُ مِنْها الثَّقَلاَنِ»[1].

---

(١) أبو طالب وبنوه: ص١٠٣.

لقد فقدَ النبيّ ﷺ المحامي والناصر، والركن الشديد الذي كان يأوي إليه، وقد استوحدته قريش، وأجمعت على التنكيل به، وقال ﷺ:

«ما نلَتْ قُرَيْشٌ شَيْئاً أَكْرَهُهُ حَتَّىٰ مَاتَ أَبُو طَالِبٍ»(١).

وفاة خديجة:

وقفت أُمّ المؤمنين خديجة إلى جانب الرسول ﷺ تشدّ أزره، وتخفِّف عنه ما يُقاسيه من ألوان الاضطهاد التي كان يعانيها من القرشيِّين، فقد روى ابن إسحاق أنَّ رسول الله ﷺ كان لا يسمع شيئاً يكرهه من حقد عليه وتكذيب له فيحزنه إلاَّ فرَّج الله عنه بخديجة رضي الله عنها إذا رجع إليها، فكانت تثبِّته، وتخفِّف عنه، وتصدِّقه، وتهوِّن عليه أمر الناس، وأعانته على احتمال أثقال الحياة، وما زالت على ذلك حتَّى لحقت بربّها»(٢).

لقد قدَّمت أُمّ المؤمنين خديجة جميع ما تملكه من الثراء للإسلام حتَّى نفد جميع ما عندها من المال، حتَّى لم تملك حصيراً تجلس عليه.

مكانتها عند النبيّ ﷺ:

احتلَّت أُمّ المؤمنين خديجة عواطف النبيّ ﷺ، وحظيت بأسمى مكانة عنده، فكان يقيم لها في نفسه خالص المودَّة والتكريم، وقد حدَّثت عائشة عن عميق حبّ النبيّ لها فقال:

كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتَّى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً فأدركتني الغيرة.

فقلت: «هل كانت إلاَّ عجوزاً، قد أبدلك الله خيراً منها».

فغضب النبيّ حتَّى اهتزَّ مقدّم شعره من الغضب، ثمّ قال:

«لاَ وَاللّهِ! ما أَبْدَلَنِي اللّهُ خَيْراً مِنْها: آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِيَ النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي فِي مَالِها إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي مِنْها أَوْلاَداً إِذْ حَرَمَنِي أَوْلاَدَ النِّساءِ»(٣).

---

(١) الكامل في التاريخ: ٢/ ٣٤.
(٢) الإصابة: ٤/ ٢٧٣.
(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٤٨٥.

وكان من حبّ النبيّ ﷺ وولائه لها أنَّ هالة أُخت خديجة دخلت بيت النبيّ فسمع صوتها في بهو بيته، وكان يشبه صوت خديجة التي برَّت به وأحسنت إليه، فهتف قائلاً:

«اللَّهُمَّ هالَةُ».

وما ملكت عائشة نفسها، وقالت بحرارة:

«ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، قد هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها».

وتميَّز الرسول ﷺ غيظاً، وصاح بعائشة:

«لاَ وَاللَّهِ! ما أَبْدَلَنِي اللَّهُ خَيْراً مِنْها: آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِيَ النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِها إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي مِنْها الوَلَدَ دُونَ غَيْرِها مِنَ النِّساءِ»[١].

وكان من ولائه ومحبَّته لخديجة أنَّه إذا ذبح شاة يقول: أرسلوا إلى صديقات خديجة، وثارت عائشة وقالت له:

«لِمَ تفعل ذلك؟».

فيجيبها النبيّ ﷺ:

«إِنِّي لأُحِبُّ حَبِيبَها»[٢].

ونخر الحسد قلب عائشة لكثرة إطراء النبيّ ﷺ على خديجة فقالت:

«ما حسدت امرأة مثل ما حسدت خديجة، وما تزوَّجني رسول الله ﷺ إلاَّ بعدما ماتت»[٣].

إلى الفردوس الأعلى:

لقد اختطف الموت خديجة التي كانت أبرّ الناس برسول الله ﷺ، وأسرعهم لنصرته، وقد استوعب الأسى قلب النبيّ ﷺ لفقدها، فسمَّى العام الذي توفّيت فيه عام الحزن، وكان عمرها خمساً وستّين سنة، ووافاها الأجل المحتوم في شهر رمضان، وقد أقامت مع النبيّ ﷺ خمساً وعشرين سنة[٤].

---

(١) صحيح مسلم: ٧/ ١٣٤، باب فضائل خديجة.

(٢) الاستيعاب: ٤/ ٢٧٨.

(٣) الإصابة: ٨/ ٦٢.

(٤) السيرة النبويَّة/زيني دحلان: ١/ ١٣٩.

بيعة العقبة الأُولى:

ولمَّا أراد الله تعالى إعزاز عبده ورسوله، وإظهار دينه، وإنجاز وعده له بالنصر، خرج صلوات الله عليه يعرض نفسه، ويبشِّر بدين الله على القبائل، فبينما هو في العقبة لقي رهطاً من الخزرج، فقال لهم:

«مَنْ أَنْتُمْ؟».

«نفر من الخزرج».

«مِنْ مَوالي الْيَهُودِ؟».

«نعم».

«تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟».

«بلى».

فأخذوا مجالسهم، وعرض عليهم النبيّ ﷺ الإسلام الحافل بالمُثل العليا والقيم الكريمة، وتلا عليهم آيات من الذِّكر الحكيم التي تعنو لها الوجوه، وتأخذ بمجامع القلوب، فنفذت إلى أعماق نفوسهم، وزاد في إيمانهم أنَّ اليهود الذين كانوا معهم، كانوا يبشِّرون بخروج نبيّ مبعوث، فلمَّا دعاهم النبيّ إلى الإسلام، قال بعضهم لبعض:

«يا قوم، إنَّه النبيّ الذي توعَّدكم به اليهود فلا يسبقونكم إليه».

وأجابوا النبيّ، وأعلنوا إسلامهم، وقالوا للنبيّ:

«إنَّا تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والبغضاء ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله تعالى بك فتدعوهم إلى الإسلام، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه، فإن أجابوك فلا رجل أعزّ منك». وقفلوا راجعين إلى وطنهم، وقد أعلنوا إسلامهم، وهم يبشِّرون به، ويذكرون مُثله الرفيعة، ومحاسنه العظيمة، وكانوا اثني عشر رجلاً وهم: أبو أُمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، وأخوه معاذ ورافع بن مالك، وذَكْوان بن عبد القيس، وعُبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عُبادة، وعُقْبة بن عامر، وقُطْبةُ بن عامر، وهؤلاء من الخزرج، ومن الأوس عُويم بن ساعدة وأبو الهيثم مالك بن التيهان[١].

---

(١) السيرة النبويَّة/ابن كثير: ٢/١٧٨.

وانتشر الإسلام في ربوع يثرب، فقد أشرقت كلمة التوحيد في ديارهم، ونعموا بهذه النعمة التي خصَّهم الله تعالى بها، وميَّزهم على بقيَّة العرب.

صيغة البيعة للنبيّ ﷺ:

أمَّا صيغة بيعة الأنصار للنبيّ ﷺ فهي: لا يشركون بالله شيئاً، ولا يسرقون، ولا يزنون، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتون ببهتان يَفْتروه، ولا يعصون الله تعالى في معروف... فإن وفوا بذلك فلهم الجنَّة، وإن لم يفوا فأمرهم إلى الله تعالى، إن شاء عفا وإن شاء عاقب[١].

وحفلت صيغة البيعة بالقيم الكريمة التي رفع شعارها النبيّ ﷺ والتي تضمن النجاح والخير للمسلمين.

إيفاد مصعب للمدينة:

أرسل أهل المدينة وفداً إلى النبيّ ﷺ يطلبون منه أن يرسل لهم مرشداً دينياً يعلِّمهم أحكام الإسلام، ويرشدهم إلى سُننه وآدابه، فاختار النبيّ ﷺ مصعب بن عمير، وكان من خيار شباب المسلمين في فضله وفقهه، كما كان من أصبح فتيان قريش، ومن أكثرهم أدباً، وأحسنهم سلوكاً، فغادر مكَّة، ومضى إلى يثرب، فأخذ يشيع في أوساط الأوس والخزرج معارف الإسلام، ويهديهم للتي هي أقوم، يتلو عليهم كتاب الله العزيز الذي يبهر العقول في فصاحته وبلاغته، وسموّ تعاليمه وأحكامه، وقد انتشر الإسلام انتشاراً هائلاً، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلاَّ وفيه رجال ونساء قد اعتنقوا الإسلام[٢]، وقد نجح مصعب نجاحاً باهراً، فكان أوَّل سفير في الإسلام يكتب له النجاح في مهمَّته.

بيعة العقبة الثانية:

وقفل مصعب بن عمير راجعاً إلى مكَّة، وهو يحمل إلى النبيّ ﷺ البشارة العظمى بانتشار الإسلام في المدينة، وتجاوب الأوس والخزرج مع الإسلام وتفانيهم في الدفاع عنه، والذود عنه بجميع ما يملكونه من طاقات ماديَّة ومعنويَّة، وقد سرَّ النبيّ ﷺ سروراً بالغاً، وابتهج كما عمَّت الفرحة الكبرى المسلمين في مكَّة الذين كانوا يعانون الاضطهاد

(١) السيرة النبويَّة/ابن كثير: ٢/١٧٩.
(٢) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ٢/٧٦.

والتعذيب. . . ونعرض لبعض شؤون البيعة المباركة التي كانت بداية للفتح الإسلامي، ففيما يلي ذلك:

وفد الأنصار للنبيّ ﷺ:

وأوفد الأنصار وفداً لملاقاة النبيّ ﷺ، وتعيين وقت للالتقاء به، وخرج الوفد يجدّ في السير لا يلوي على شيء حتَّى انتهى إلى مكَّة، وكان فيه البراء بن معرور، وكعب بن مالك، والتقى الوفد بالنبيّ ﷺ في المسجد، وقدَّموا له الاحترام البالغ وشوق أهل المدينة للتشرُّف بقدومه واتّخاذ بلدهم عاصمة له.

التقاء النبيّ ﷺ بالأنصار:

واتّفق النبيّ ﷺ مع وفد الأنصار أن يجتمع بهم في أيَّام التشريق، ووفدت كوكبة من الأنصار لحجّ بيت الله الحرام كان عددهم سبعين رجلاً وامرأتين، وهما: أُمّ عمارة نُسيَبة بنت كعب، وأُمّ مَنيع أسماء بنت عمرو، وسنذكر أسماءهم.

وكتم الأنصار الأمر خوفاً من مشركي قريش، وانتظروا حتَّى مضى من اللَّيل ثلثه، فتسلَّلوا جميعاً إلى العقبة ومعهم المرأتان، وتشرَّفوا بمقابلة النبيّ ﷺ، فرحَّب بهم أجمل ترحيب، فدعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم آيات من الذِّكر الحكيم وجلت منها قلوبهم، وانبروا قائلين:

«سمعنا مقالتك، فتكلَّم، وخذ لنفسك ولربّك بما أحببت».

وتلا رسول الله ﷺ ما يريده منهم قائلاً:

«أُبايِعُكُمْ عَلىٰ أنْ تَمْنَعُوني مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِساءَكُمْ وَأَبْناءَكُمْ».

وانبرى البراء بن مَعْرور فأخذ بيد النبيّ ﷺ وقال:

«والذي بعثك بالحقّ لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا[١]، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة[٢]، ورثناها كابراً عن كابر»[٣].

ونهض ابن رواحة، فخاطب النبيّ قائلاً:

«فإذا فعلنا، فما لنا؟».

---

(١) الأزر: النساء.

(٢) الحلقة: أي السلاح.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/ ٣٣٢.

«لَكُمُ الْجَنَّةُ».

وقام أبو الهيثم بن التيهان فأحاط بالنبيّ علماً بخطر اليهود عليهم قائلاً:

«إنَّ بيننا وبين الرجال حبالاً ـ يعني اليهود ـ نحن قاطعوها، فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك، ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا».

فتبسَّم النبيّ ﷺ، وأعرب له أنَّه معهم يحارب من حاربوا، ويسالم من سالموا قائلاً:

«بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، والْهَدْمَ الْهَدْمَ، أَنْتُمْ مِنِّي وَأنا مِنْكُمْ، أُحارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وأُسالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ».

ويعتبر هذا الموقف من النبيّ والأنصار إعلان حرب على اليهود الذين يعيثون في الأرض فساداً... وقبل أن يبايعوا النبيّ رفع العبَّاس ابن عبادة صوته قائلاً:

«يا معشر الخزرج، أتعلمون علامَ تبايعون هذا الرجل؟ إنَّك تُبايعونه على حرب الأحمر والأسود من النَّاس، فإن كنتم ترَوْن أنَّكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فدعوه، فوالله إن فعلتم خزي الدُّنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنَّكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدُّنيا والآخرة».

وتعالت أصواتهم بلهجة واحدة:

«إنَّا نأخذه على مصيبة الأموال، وقَتْل الأشراف، فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟».

فأجابهم الرسول ﷺ بثقة واطمئنان:

«الْجَنَّة».

ورضوا بالجنَّة بديلاً على ما يصيبهم من الجهد والعناء وذهاب الأموال والأنفس.

صيغة البيعة:

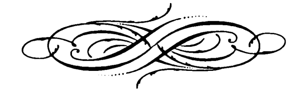
وكانت صيغة البيعة التي بايعوا فيها رسول الله ﷺ هي كما رواها عبادة بن الصامت، قال:

«بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا

فيه لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب ممَّا نمنع به أنفسنا وأرواحنا وأبناءنا ولنا الجنَّة»[١].

فزع قريش:

وفزعت قريش كأشدّ ما يكون الفزع حينما علمت ببيعة أهل المدينة للنبيّ ﷺ، وتعهَّدهم بحمايته، والذبّ عن مبادئه وقيمه، وقد أيقنت أنَّها المستهدفة من هذه المعاهدة، فهي التي كفرت بالدِّين، وعذَّبت المستضعفين ممَّن آمن به، وهي التي اعتدت على شخصية الرسول ﷺ، وجرَّعته نغب التهمام، فلا بدَّ أن يثأر منهم.



(١) السيرة النبويَّة/ ابن كثير: ٢/ ٢٠٣.

هجرة الرسول إلى يثرب

واطمأنَّ الرسول ﷺ إلى بيعة الأنصار، وورث بإخلاصهم له، وتفانيهم في حماية الدعوة الإسلاميَّة والذبّ عنها، وقد صارت يثرب قلعة حصينة للإسلام، فقد هاجر إليها نخبة من المؤمنين، ووجدوا فيها الحماية والأمن، والمواساة لهم في السرَّاء والضرَّاء.

فزع قريش:

وفزعت قريش كأشدّ ما يكون الفزع حينما تسرَّبت لهم الأنباء بعزم النبيّ ﷺ على مغادرة بلدهم إلى يثرب، واتّخاذها مقرّاً لدعوته.

دار الندوة:

وتنادى زعماء قريش للاجتماع في دار الندوة، وهي دار قصيّ بن كلاب التي اتّخذتها قريش للتشاور فيها إذا عرضت لهم حادثة مهمَّة فيتَّخذون فيها القرار الذي يسيرون عليه.

اقتراح أبي جهل:

وانبرى أبو جعل بن هشام فخاطب القوم قائلاً:

«إنَّ لي رأياً، ما أراكم قد وقعتم عليه بعد...».

فقالوا: «ما هو يا أبا الحكم؟».

قال: «أرى أن نأخذ من كلّ قبيلة من قبائلكم العِشر فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثمَّ نعطي كلّ فتى منهم سيفاً صارماً، ثمَّ يعمِدوا إليه، فيضربوه بها ضربةَ رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنَّهم إن فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعاً، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منَّا بالعقل، فعقلناه لهم»[١].

وأقرَّ الجميع هذا الرأي واستصوبوه، وقالوا: «لا رأي غيره»[٢].

---

(١) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ٢/١٢٦.

(٢) الكامل في التاريخ: ٢/٢٨.

وتمَّ تعيين الرجال الذين سيتولّون القيام بهذه الجريمة، كما تمَّ في نفس الوقت تعيين الزمن الذي يفدون فيه للهجوم على بيت النبيّ ﷺ، إلاَّ أنَّ المشيئة الإلٰهيَّة أخلفت ظنَّهم، فقد مكروا ومكر الله، والله خير الماكرين.

مغادرة النبيّ مكَّة:

وأوعز الله تعالى إلى عبده ورسوله بمغادرة مكَّة والهجرة إلى يثرب، وأعلمه بما دبَّره المشركون من اغتياله، وفي تلك الليلة أحاط المشركون بدار النبيّ ﷺ وهم يترقَّبون طلوع الصبح لتمزّق سيوفهم جسم النبيّ ﷺ الذي أراد أن يحرِّرهم من ظلمات الجاهليَّة ومآثمها، لقد أرادت قريش أن تنصر أصنامها وأوثانها، وتعيد مكانتها في أوسط العرب بعدما فقدته.

مبيت الإمام في فراش النبيّ ﷺ:

وسارع النبيّ إلى أخيه، وباب مدينة علمه، الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فأحاطه علماً بما دبَّرته قريش ضدَّه، وطلب منه أن يبيت في فراشه، ويتّشح ببردته الخضراء، ليوهم على أُولئك الأقزام أنَّه هو النبيّ، حتَّى يسلم من شرّهم، وتلقَّى الإمام طلب النبيّ ﷺ بمزيد من السرور والابتهاج، وشعر بالسعادة ليكون فداءً لرسول الله ﷺ، وخرج النبيّ ﷺ من الدار، ورماهم بحفنة من التراب أتت على وجوههم القذرة الكريهة، قائلاً:

«شاهَتِ الْوجُوهُ ذُلًّا».

وتلا النبيّ ﷺ قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1].

إنَّ مبيت الإمام عليه السلام في فراش الرسول ﷺ، ووقايته له صفحة مشرقة من جهاده، وقد أنزل الله تعالى فيه الآية المباركة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[2].

---

(١) سورة يٰس: الآية ٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

هجوم القوم على الإمام:

ولمَّا اندلع نور الصبح هجم المشركون على الإمام، ظانِّين أنَّه النبيّ ﷺ، فشهر في وجوههم سيفه، فلمَّا رأوه ذهلوا ووجموا وصاحوا به:

«أين محمَّد؟».

وقابلهم الإمام بعنف وصاح بهم قائلاً:

«جَعَلْتُموني حارِساً عَلَيْهِ؟».

ووجم القوم، ونكصوا على أعقابهم يجرّون رداء الخيبة والخسران، فقد فلت الرسول من قبضتهم، وسلم من مكيدتهم.

استقبال المدينة للنبيّ ﷺ:

وانتهت الأنباء لأهل المدينة بهجرة النبيّ ﷺ إليهم، فهرعت الجماهير بشوق عارم لاستقباله، وخرجت النساء وهن ينشدن:

طَلَعَ الْفَجْرُ عَلَيْنا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنا ما دَعا لِلَّهِ دَاعْ[1]

كما خرجت جواري بني النجَّار وهن يضربن بالدفوف وينشدن:

نَحْنُ جَوارٍ من بَني النَّجَّارِ يا حَبَّذا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

واحتشدت الجماهير في الطرق وهم يهتفون:

«جاء محمَّد».

«جاء رسول الله».

«الله أكبر»[2].

في ضيافة أبي أيُّوب:

وحفَّت رؤساء القبائل بالنبيّ ﷺ، وقد طلب كلّ واحد منهم أن يتشرَّف ويحظى بضيافته والنزول عنده، فشكرهم النبيّ ﷺ، وأحاطهم علماً أنَّ الناقة مأمورة أن تحطّ في المكان الذي يختاره الله تعالى، وسارت الناقة وخلفها الجماهير الحاشدة، حتَّى أتت دار أبي أيُّوب خالد بن زيد، فتَحلْحلت، وَرزَمتْ، ووضعتْ جِرانها وبركت، فنزل عنها

---

(١) السيرة النبويَّة/ابن كثير: ٢/٢٦٩.
(٢) سيرة دحلان: ١/١٧٢.

النبيّ ﷺ، واستقبله أبو أيُّوب بكلّ حفاوة وتكريم، وعدَّ ذلك من ألطاف الله تعالى ومن نعمه عليه(١).

تأسيس بيت للنبيّ ﷺ:

بنى النبيّ ﷺ مساكنه إلى جانب المسجد الشريف باللبن، وسقَّفها بجذوع النخل والجريد(٢).

اهتمامه بالماء:

وكان ﷺ يؤتى له بالماء من بئر أبي الهيثم بن التيهان، وكان ماؤها طيِّباً، وكان ﷺ يهتمّ بنظافة الماء، فقد استسقى ماءً، فأتاه شخص بقدح فيه ماء، وكانت فيه شعرة، فبادر إلى إزالتها، فدعا له النبيّ وقال: **«اللَّهُمَّ جَمِّلْهُ»**، ويقول الرواة: إنَّ الشخص بلغ أربعاً وتسعين سنة، وليس في لحيته شعرة بيضاء(٣).

سكَّان المدينة:

أمَّا سكَّان المدينة التي اتّخذها النبيّ عاصمة لدولته، فقد تجاوب معظم سكَّانها لاعتناق الإسلام، وقد اتّخذ النبيّ ﷺ منهم جيشاً مزوَّداً بالعقيدة، مؤمناً بأصالة الإسلام، فخاضوا أعنف المعارك، واشتبكوا مع أعتى القوى المعادية للإسلام المزوَّدة بأحدث الأسلحة في ذلك العصر.

وعلى أيٍّ حال، فإنَّ معظم سكَّان المدينة كانوا هم من الأوس والخزرج، وقد سادت بينهم الحروب، إلاَّ أنَّ النبيّ ﷺ قضى عليها، وآخى بينهم.

تأسيس الجامع النبوي:

بادر النبيّ ﷺ إلى تأسيس جامع له ليكون مقرّاً لحكومته، ومعهداً لتعاليمه، ومركزاً لعبادته، وكانت قطعة أرض تُسمَّى المِرْبد، فسأل عن صاحبها، فقيل له: إنَّها لسهل وسُهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لمعاذ بن عفراء، وضمن معاذ إرضاءهما، فاتّخذه رسول الله ﷺ مسجداً له، وكان طوله ستّين ذراعاً، وعرضه كذلك، وكان النبيّ ﷺ من جملة العمَّال.

---

(١) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/ ٤٩٥.

(٢) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ٢/ ١٤١.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٥/ ٣٤٠.

وفي تأسيس الجامع النبويّ ومساكن النبيّ ﷺ انتشر الإسلام في ربوع المدينة ونواحيها، وبذلك تشكّلت الدولة الإسلاميّة العظمى.

اعتزاز الأنصار بالنبيّ ﷺ:

واعتزّ الأنصار بقدوم النبي ﷺ إليهم، واتّخاذ بلدهم مقرّاً لعاصمته.

الأُخوَّة بين المسلمين:

من الأعمال الرائعة التي قام بها النبيّ ﷺ أنّه آخى بين المهاجرين والأنصار برباط الأُخوَّة الصادقة التي هي أوثق من رابطة النسب والدم، والتي من مظاهرها أن يشارك كلّ واحد منهم أخاه في مكاره الدهر ولينها، وقد آخى بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام.

إقامة الحضارة الإسلاميَّة:

وبعدما استقام النبيّ ﷺ في يثرب، ووجد في أهلها الحماية والأمن شرع في إقامة الحضارة الإسلاميَّة التي تسمو بالإنسان وتنقذه من مآثم الحياة، وقد حفلت حضارته بجميع ألوان التطوُّر والإبداع، فقد صنعت منهجاً متكاملاً للإنسان يجد في ظلاله الأمن والرخاء، وجميع ما يصبو إليه في حياته، فقد عالج جميع قضاياه بالإصلاح الشامل، وحسم جميع ألوان الشَّر والفساد، وكان من بين مناهجه:

تحرير المرأة:

وكان من مظاهر ظلمها وبلائها.

١ ـ وأد البنات:

وكان من الظلم الفاحش للمرأة في العصر الجاهلي أنّه إذا ولد لشخص بنت ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم، وقد حكى القرآن الكريم ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1]، والأدهى من ذلك أنّهم كانوا يعمدون إلى وأد البنت وهي حيَّة، وقد نعى عليهم القرآن ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[2].

---

(١) سورة النحل: الآية ٥٨.

(٢) سورة التكوير: الآيتان ٨ و٩.

وحرَّرها الإسلام من هذا الظلم الفاحش، وبنى للمرأة كياناً متميِّزاً بالتكريم والتبجيل، فهي صانعة الحياة ومربّية الجيل، وهي قوام الحياة.

٢ ـ حرمان المرأة من الميراث:

أمَّا المرأة في العصر الجاهلي، فقد حرمت من الميراث، فإنَّها لا ترث زوجها وأباها وأُمّها، ولا حظّ لها فيما يتركونه من متع الحياة، وقد ساوى الإسلام بينها وبين الرجل في هذه الظاهرة مساواة كاملة، فهي ترث وتورِّث على تفصيل في كيفيَّة الإرث ذكره فقهاء المسلمين.

٣ ـ زواج المرأة:

أمَّا زواج المرأة فهو تابع لرغبات الآباء والإخوان وسائر الأرحام من دون أن يكون للمرأة أي شأن في زواج نفسها، ولهم السيطرة التامَّة عليها، فإذا شاؤوا تركوها عانسة، أو تفدي نفسها بالمال، وحرَّرها الإسلام من هذه القيود، ولم يجعل لأحد عليها سلطاناً سوى الأب على رأي بعض الفقهاء.

المساواة:

من القيم الحضاريَّة التي أسَّسها الإسلام المساواة العادلة بين جميع أبناء البشر على اختلاف قوميَّاتهم ولغاتهم وألسنتهم، لا فرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين غني وفقير، ففي الحديث: «**كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرابٍ**».

١ ـ المساواة الاجتماعيَّة:

وقرَّر الإسلام بصورة إيجابيَّة المساواة الطبيعيَّة بين النَّاس. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]. روى ابن عبَّاس سبب نزول هذه الآية أنَّ أحد الموالي خطب امرأة من بين بياضة، فأشار النبيّ على أهلها أن يزوِّجوها منه، فقالوا له:

«يا رسول الله، أنزوِّج بناتنا من موالينا؟».

ونزلت الآية المباركة في تحطيم العادة الجاهليَّة التي تقتضي بتفاوت بعض الطبقات على بعض.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

٢ ـ المساواة أمام القانون:

من معالم السياسة الإسلاميَّة مساواة النَّاس أمام القانون بلا فرق بين القوي والضعيف، والغني والفقير، فقد سئل الرسول ﷺ أن يعفو عن سارقة لشرف أُسرتها، فامتنع وأجاب: «إنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ لأنَّهُمْ كَانوا إذَا أذْنَبَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ عاقَبوهُ، وَإذا أذْنَبَ الشَّريفُ فِيهِمْ تَركوهُ، وَاللَّهِ! لَوْ سَرَقَتْ فاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَها»[1].

ومن مساواة الرسول ﷺ الباهرة أنَّه لما دنا منه الأجل المحتوم خرج وهو مريض فاعتلى أعواد المنبر وخطب قائلاً:

«أَيُّها النَّاسُ، ألاَ فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْراً فَهَذَا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدْ، وَمَنْ كُنْتُ أخَذْتُ مِنْهُ مَالاً فَهَذا مالِي فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ، وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضاً فَهَذا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدْ... وَلاَ يَقُولَنَّ قَائِلٌ: أخافُ الشَّحناءُ مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللَّهِ، ألاَ وَإنَّ الشَّحْناءَ لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِي وَلاَ مِنْ خُلُقِي، وَإنَّ أحَبَّكُمْ إلَيَّ مَنْ أخَذَ حَقّاً كَانَ لَهُ عَلَيَّ، أوْ حَلَّلَنِي فَلَقِيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَيْسَ لأحَدٍ عِنْدِي مَظْلِمَةٌ...»[2].

٣ ـ المساواة في الضرائب:

إنَّ الضرائب الماليَّة التي فرضها الإسلام، كالزكاة والخمس وغيرهما يتساوى فيها جميع المسلمين، فلا يعفى عنها شخص، وتفرض على شخص آخر.

٤ ـ المساواة في التوظيف:

من روائع العدالة الاجتماعيَّة التي أنشأها الإسلام المساواة بين المواطنين في التوظيف والمناصب، فلا يختصّ بها قوم دون قوم، فجميع من تتوفَّر فيه الإمكانيَّات والشرائط فهو أوْلى بالمنصب، وإن كان ذلك قريباً لأحد المسؤولين.

المسؤوليَّة الفرديَّة:

إنَّ الإنسان في شريعة الإسلام مسؤول عن عمله لا يؤخذ غيره بوزر عمله. قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[3].

---

(١) الخراج/أبو يوسف: ص٥٠.
(٢) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٢/ ٨٢.
(٣) سورة الطور: الآية ٢١.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

إلغاء التمييز العنصري:

من القيم الحضاريَّة التي أسَّسها الإسلام إلغاء التمييز العنصري بين المسلمين يقول الرواة: إنَّ امرأة سوداء كانت تقيم في المسجد فقيرة بائسة، ففقدها النبيّ، فقيل له: إنَّها ماتت، فتألَّم وقال لأصحابه:

«أفَلا كُنتُم أخبَرْتُموني؟».

وطلب النبيّ ﷺ أن يرشدوه لقبرها، فأرشدوه له، فانطلق ﷺ إلى القبر[٢].

وقال ﷺ في سلمان الفارسي رضي الله عنه: **«سَلْمانُ مِنَّا أهْلَ البَيْتِ، الصَّدَقَةُ حَرامٌ عَلىٰ سَلْمان»**.

وقال ﷺ في بلال الحبشي حينما كان لا يتمكَّن من النطق بالشين، وإنَّما كان ينطق بالسين، فاتّخذ بعض المنافقين ذلك ذريعة للسخرية به، ولمَّا علم النبيّ ﷺ ذلك قال: **«إنَّ سينَ بِلالٍ شِينٌ عِنْدَ اللّهِ تَعالىٰ، إنَّ سِينَ بِلالٍ خَيْرٌ من شِينِكُم»**.

الأخوَّة الإسلاميَّة:

أمَّا حقيقة الإخوَّة الإسلاميَّة فقد تحدَّث عنها الرسول ﷺ بقوله:

«لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه».

ووصف النبيّ ﷺ المجتمع الإسلامي في إخوَّته وتقارب عواطفه، ووحدة مشاعره بأنَّهم كالجسم الواحد. قال ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوادِّهِمْ وَتَراحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إذَا اشْتَكىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَداعىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ»**.

لقد أضفى الإسلام على الإخوَّة الإسلاميَّة المنزلة الرفيعة، فجعلها أقوى من رابطة النسب والدم، فقال ﷺ: **«الْمُسْلِمُ أخو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلاَ يُحَقِّرُهُ...»**.

عوامل التضامن:

وندب الإسلام إلى بعض الأُمور التي تجمع المسلمين على صعيد المحبَّة والإخاء، ومن بينها:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٤.

(٢) النظام السياسي في الإسلام: ص٣٠٥.

١ ـ التراحم والتعاطف:

حثَّ الإسلام على التراحم والتعاطف.

إنَّ هذه النصائح تجعل المسلمين يداً واحدة على مَن سواهم، ولو تحلّىٰ بها المسلمون لما طمعت فيهم إسرائيل وعبيدها الأمريكان.

٢ ـ إفشاء السلام:

من روابط المجتمع الإسلامي إفشاء السلام، وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وآله ـ حينما وصل إلى يثرب ـ المسلمين وأوصى به قائلاً: **«افْشُوْا السَّلاَمَ، وأَطِيبوا الكَلاَمَ، وأَطْعِمُوا الطَّعامَ، وصِلُوْا الأَرْحامَ، وصَلُّوا بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلاَمٍ»**[1].

٣ ـ التزاور:

وحثَّ الإسلام المسلمين على التزاور فيما بينهم؛ لأنَّه يعقد أواصر المحبَّة والمودَّة بينهم.

٤ ـ قضاء حوائج النَّاس:

حثَّ النبيّ صلى الله عليه وآله على ذلك. فقال صلى الله عليه وآله: **«مَن مَشىٰ فِي قَضَاءِ حَاجَةِ أَخِيهِ ساعَةً فِي لَيْلٍ أَوْ نَهارٍ قَضاها أَوْ لَمْ يَقْضِها كَانَ خَيْراً مِنِ اعْتِكافِ شَهْرٍ»**[2].

٥ ـ إغاثة المسلم:

من برامج الإخوَّة الإسلاميَّة: إغاثة المسلم وردّ لهفته. قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»**[3].

عوامل التفرقة:

وسدَّ الإسلام جميع النوافذ التي تتسرَّب منها عوامل التفرقة للإخوَّة الإسلاميَّة، وتسبّب تصدّع وحدة المسلمين وتضامنهم، والتي منها:

١ ـ السخرية والتنابز:

حرَّم الإسلام السخرية والتنابز بالألقاب. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٣١٣.

(٢) أُصول الكافي: ٢/ ١٩٥.

(٣) الجامع الصحيح/ الترمذي: ٢/ ١٨٩.

مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١).

٢ ـ الغيبة:

حرَّم الإسلام الغيبة، وهي أن يذكر المسلم أخاه المسلم في غيبته وعدم حضوره بما يسوؤه ويكرهه.

قد شدَّد النبيّ ﷺ في حرمة الغيبة، فقد خطب حتَّى أسمع العوائق في بيوتها، وكان من جملة خطابه: **«يا مَعْشَرَ مَن آمَنَ بِلِسانِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ، لاَ تَغْتابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَتَبَّعُوا عَوْراتِهِمْ، فَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتَتَبَّعُ اللَّهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»**(٢).

٣ ـ النميمة:

وحرَّم النبيّ ﷺ النميمة فقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَىٰ اللَّهِ الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، الباغُونَ لِلْبُرَاءِ المَعايِبَ»**(٣).

٤ ـ التقاطع:

وبنى النبيّ ﷺ المجتمع الإسلامي على التواصل والمودَّة ونهى عن التقاطع. قال ﷺ: **«أَيُّما مُسلِمَيْنِ تَهاجَرا، فَمَكَثا ثَلاثاً لا يَصْطَلِحانِ إلاَّ كانا خارِجَيْنِ مِنَ الإسْلامِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُما وَلايَةٌ، فَأَيُّهُما سَبَقَ إلىٰ كَلام أَخِيهِ كَانَ السَّابِقُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ يَوْمَ الحِسابِ»**(٤).

٥ ـ عدم التعاون:

أقام الإسلام المجتمع على التعاون بين المسلمين، ونهى عن الإخلال به.

إنَّ ترك التعاون بين المسلمين له مضاعفاته السيِّئة التي منها انقطاع المودَّة والألفة بينهم.

٦ ـ الإيذاء والتحقير:

حرَّم الإسلام إيذاء المسلم وتحقيره وإهانته، وقد أُثرت عن النبي ﷺ كوكبة من الأحاديث تحرّم ذلك، منها:

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١١.

(٢) جامع السعادات: ٢/ ٢٩٨.

(٣) أُصول الكافي: ٢/ ٢٧٤.

(٤) أُصول الكافي: ٢/ ٢٥٨.

١ ـ قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُون مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ».

٢ ـ قال ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أنْ يُشيرَ إلَىٰ أخِيهِ بِنَظْرَةٍ تُؤذيهِ».

٣ ـ قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ نابَذَنِي مَنْ أذَلَّ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ»[١].

٧ ـ التخويف والإرهاب:

وحرَّم الإسلام تخويف أي إنسان مسلم أو إرهابه. قال رسول ﷺ: «مَنْ نَظَرَ إلَىٰ مُؤْمِنٍ نَظْرَةً لِيُخِيفَهُ بِهَا أخَافَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ»[٢].

٨ ـ السباب:

ومن معالي التربية الإسلاميَّة تحريم السباب حتَّى مع الأعداء في الدِّين. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٣].

وأثرت عن النبيّ ﷺ بعض الأحاديث في النهي عن السباب. قال ﷺ: «سبابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ، وأكْلُ لَحْمِهِ مَعْصِيَةٌ، وَقِتالُهُ كُفْرٌ، وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ»[٤].

٩ ـ تتبُّع العثرات والعيوب:

وأحاط الإسلام المجتمع الإسلامي بسياج واقٍ من التصدُّع والتشتُّت، فكان ممَّا نهى عنه تتبُّع عثرات النَّاس، ونشر مساوئهم.

١٠ ـ انتقاص المسلم:

حذَّر النبيّ ﷺ المسلمين من ذلك، قال: «مَنْ أذاعَ فَاحِشَةً كَانَ كَمُبْتَدِئِها وَمَنْ عَيَّرَ مُؤْمِناً بِشَيْءٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَرْكَبَهُ»[٥].

١١ ـ التفاخر بالأنساب:

نهى الإسلام عن التفاخر بالأنساب؛ لأنَّه موجب لتصدُّع الأخوَّة الإسلامية.

إنَّ التفاخر بالأنساب ليس من الإسلام، وإنَّما التفاخر بأعمال الخير والعمل الصالح.

---

(١) أُصول الكافي: ٢/ ٢٦٢.
(٢) المصدر المتقدِّم: ص٢٧٣.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.
(٤) أُصول الكافي: ٢/ ٢٦٨.
(٥) أُصول الكافي: ٢/ ٢٦٥.

بنود من الحضارة الإسلاميَّة

وانتهج النبيّ ﷺ أروع الأنظمة وأكثرة أصالة وعمقاً لأُمَّته، توفِّر لها الأمن والاستقرار، وقد عرضنا إلى بعضها في البحوث السابقة، وبقي علينا أن نعرض لبعضها الآخر وهي:

الحريَّة:

تبنَّى الإسلام الحرية الكاملة للإنسان؛ لأنَّها كالهواء لرئته، لا تستقيم من دونها الحياة، والحريَّة التي أعلنها الإسلام وهي ما يلي:

١ ـ حريَّة العقيدة:

إنَّ حريَّة العقيدة للإنسان هي جزء من رسالة الإسلام، فإنَّ خطَّة الرسول ﷺ هي إبلاغ قيمه ومبادئه إلى المجتمع، فإن شاؤوا آمنوا بها، وإن شاؤوا تركوها.

٢ ـ حريَّة الفكر:

إنَّ الإسلام قد فتح آفاق الفكر أمام العقل ودعاه إلى الانطلاق إلى بثّ نشاطه وفعَّاليَّاته ليتدبَّر في شؤون الكون، وينظر فيما خلقه الله تعالى من الكائنات وغيرها التي تدعو إلى الإيمان المطلق بالله تعالى.

٣ ـ الحريَّة المدنيَّة:

ونعني بها إعطاء الفرد الحريَّة التامَّة في مجال العمل بشرط أن لا يكون محرَّماً في الإسلام، كصنع آلات اللهو، وكذلك معامل صنع الخمر وغير ذلك من الأعمال المحرَّمة.

الولاة والعمَّال:

ولمَّا ظهر أمر الإسلام، واستقرَّت دولته العظمى، أخذ النبيَّ ﷺ يرسل الولاة والعمَّال إلى البلاد والقرى التي آمنت بالإسلام.

مهمّة الولاة:

أمّا مهمّة الولاة الذين أرسلهم النبيّ ﷺ إلى الذين آمنوا بالإسلام فهي:

١ ـ تعليم أحكام الإسلام، كالصلاة والصوم والحجّ والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم القرآن الكريم، ونشر الأخلاق والآداب، وإشاعة الفضيلة بين النّاس.

٢ ـ جباية الضرائب الإسلاميّة، كالزكاة وإنفاقها على فقراء المحلّة، وما شاكل ذلك من المصالح العامّة.

٣ ـ فصل الخصومات والنزاعات بين النّاس، وحلّ مشاكلهم على ضوء الأحكام الإسلاميّة.

٤ ـ ومن مهام الولاة مراقبة السوق، فكان النبيّ ﷺ ينظر باهتمام إلى الحياة الاقتصاديّة، فكان الذين يبيعون الطعام مجازفة ـ أي من غير كيل ولا وزن ـ يُضربون في عهد النبيّ ﷺ، ولا بدّ أن يكون بيع الطعام خاضعاً للكيل والوزن[١].

عزل الولاة:

كان النبيّ ﷺ شديد الفحص عن سيرة الولاة، فإذا رأى والياً تشتكي منه الرعيّة لسوء إدارته أو سوء أخلاقه بادر إلى عزله.

محاسبة الولاة والعمّال:

كان النبيّ ﷺ يُحاسب ولاته وعمّاله على المستخرج والمصروف منه، وقد استعمل رجلاً من الأزد على الصدقات، فقال:

«هذا لكم، وهذا أُهدي لي...».

وتألّم النبيّ ﷺ من كلامه، وقال له:

«ما بالُ الرَّجُلِ نَسْتَعْمِلُهُ عَلَىٰ الْعَمَلِ مِمَّا وَلّانا اللَّهُ، فَيَقُولُ: هذا أُهْدي لي؟ أَفَلا قَعَدَ في بَيْتِ أُمِّهِ وَأَبِيهِ فَيَنْظُرَ أيُهدىٰ إِلَيْهِ أَمْ لا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ نَسْتَعْمِلُ رَجُلاً عَلَىٰ الْعَمَلِ مِمَّا وَلّانا اللَّهُ مِنْهُ شَيْئاً إلاّ جاء بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ إنْ كَانَ بَعِيراً لَهُ رُغاءٌ، وَإنْ كَانَتْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوارٌ، وَإنْ كَانَتْ شَاةٌ تَمْعُر».

ثمّ رفع النبيّ ﷺ يديه إلى السّماء، وقال: **«اللّهُمَّ بَلَّغْتُهُ»** قالها مرّتين أو ثلاثاً[٢].

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١١٦١.

(٢) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعيّة: ص٤٨.

رواتب الموظّفين:

واهتمَّ الإسلام اهتماماً بالغاً في شؤون الموظّفين في جهاز الدولة، فكان من أهمّ ما عنى به الترفيه عليهم، وعدم حاجتهم لما في أيدي النَّاس.

السفراء:

ولمَّا أقام رسول الله ﷺ دولته العظمى في يثرب، ووجد في أهلها الحماية لرسالته أخذ يبعث السفراء للملوك والأُمراء يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، والدخول في دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى ديناً لجميع عباده، وكانت رسائله إليهم من أهمّ وسائل الإعلام على الصعيد العالمي.

نشر التعليم:

اهتمَّ النبيّ ﷺ اهتماماً بالغاً بنشر العلم ومحو الأُميَّة، وجعل طلب العلم فريضة على المسلمين، وأمر بتقييد العلم بالكتابة لئلا يُنسى(١)، وندَّد بمن لا يتعلَّم، فقال:

«ما بالُ أقْوامٍ لاَ يَتَعَلَّمونَ مِنْ جيرانِهِم وَلا يَتَفَقَّهون»، وشدَّد بالعقوبة على مَن لا يعلم ولا يتعلَّم(٢).

تعليم النساء:

أمَّا موقف الإسلام تجاه التعليم ومحو الأُميَّة فهو واضح، و يختصّ ذلك بالرجال، وقد أمر النبيّ ﷺ الشفاء أُمّ سليمان بن أبي حتمة أن تعلِّم حفصة رُقْية النملة كما علَّمتها الكتابة(٣).

الاقتصاد الإسلامي:

أقام النَّبيّ ﷺ للمسلمين اقتصاداً متطوّراً يحسم الفقر، ويقضي على الحرمان، وكان من بين وسائل اقتصاده:

١ ـ الحثّ على الزراعة:

كانت الزراعة في العصر الإسلامي الأوَّل وما تلاه هي العمود الفقري للاقتصاد

---

(١) كنز العمَّال: ٥/ ٢٢.
(٢) مجمع الزوائد: ١/ ٦٤.
(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٦/ ٣٧٢.

العامّ، وقد حثَّ النبيّ ﷺ على الزراعة، ودعا بصورة إيجابيَّة إلى غرس النخيل، فقد دخل النبيّ ﷺ على أُمّ مُبَشِّر الأنصاريَّة في نخل لها، فقال:

«لاَ يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْساً، وَلاَ يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إنسانٌ أَوْ دابَّةٌ إلاَّ كانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ»[1].

٢ ـ الحثّ على العمل:

حثَّ النبيّ ﷺ على العمل بجميع صنوفه، وندب إليه لأنَّه من أهمّ العناصر في الانتاج، وقد أخذ النبيّ ﷺ بيد عامل فجعل يقلِّبها أمام أصحابه وهو يقول: **«هَذِهِ يَدٌ يُحِبُّها اللَّهُ وَرَسُولُهُ»**[2].

٣ ـ تحريم الربا:

من الوسائل الاقتصاديَّة التي توجب شيوع الثروة في الأُمَّة وعدم احتكارها عند فئة من الرأسماليِّين، هو تحريم الإسلام للربا، والتشديد في العقاب على مقترفها، ففي بعض الأخبار: **«دِرْهَمُ رِباً يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ ـ وَهُوَ يَعْلَمُ ـ أَشَدُّ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاَثِينَ زِنْيَةٌ»**.

٤ ـ تحريم الغبن:

وحرَّم الإسلام الغبن، سواء أكان غبن البائع أم المشتري؛ وذلك لئلا يُضام أحدهما بخسارة ماليَّة، وإذا وقع الغبن فقد فتح الشارع باب الخيار أي خيار فسخ المعاملة أو إعطاء المغبون حقّه ممَّا غبن فيه.

٥ ـ تحريم الاحتكار:

من بنود الاقتصاد الإسلامي تحريم الاحتكار، الذي يؤدِّي إلى اضطراب السوق، وزيادة الأسعار، وإشاعة الفقر بين النَّاس.

وقد تظافرت الأخبار عن النبيّ ﷺ في ذمّ المحتكر، وهذه بعضها:

«بِئْسَ الْعَبْدُ الْمُحْتَكِرُ: إنْ أَرْخَصَ اللَّهُ تَعَالَىٰ الأَسْعارَ حَزِنَ وَإن أَغْلاهَا اللَّهُ فَرِحَ»[3].

٦ ـ مراقبة السوق:

من بنود الاقتصاد الإسلامي مراقبة السوق، وتفتيش السلع؛ وذلك حذراً من الغشّ فيها، وحذراً من زيادة الأسعار التي تجحف بحقّ المواطنين.

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١١٨٨.

(٢) العمل وحقوق العامل في الإسلام: ص٣٠٥.

(٣) مستدرك الحاكم: ٢/ ١٢.

٧ ـ الضرائب الماليَّة:

وفرض الإسلام الضرائب الماليَّة لتدفع إلى الفقراء، وكان منها زكاة الفطرة، وهي تجب بعد انقضاء شهر رمضان على كلّ مسلم، صغيراً وكبيراً، ذكراً أم أُنثى.

٨ ـ زكاة الأموال:

وتجب الزكاة في الغلات الأربعة، وهي الحنطة والشعير والتمر والزبيب إذا بلغت النصاب.

٩ ـ الخمس:

وتظافرت الأخبار عن أئمَّة الهدى سلام الله عليهم في وجوب الخمس، وهو يجب في المعادن والغوص، والمال المختلط بالحرام.

١٠ ـ مسؤوليَّة الدولة:

من بنود الاقتصاد الإسلامي مسؤوليَّة الدولة عن مكافحة الفقر والقضاء عليه؛ وذلك بما يلي:

١ ـ **توفير العمل**: والدولة مسؤولة عن توفير العمل للمواطنين، وتهيئة الفرص المتكافئة لهم حتَّى لا تنتشر البطالة، وتعمُّ الحاجة بين النَّاس.

٢ ـ **تسديد نقص ذوي الدخل المحدود**: إذا كان المواطن موظَّفاً أو غير موظَّف لا يكفيه دخله أو راتبه في تسديد شؤونه، فإنَّ الدولة مسؤولة عن تسديد ذلك النقص، ولا يبقى الشخص في حاجة وبؤس، فإنَّ الفقر كالكفر يجب مكافحته وإزالته.

٣ ـ **وفاء الدَّين**: إذا استدان الشخص للإنفاق على عياله، ولم يتمكَّن من تسديده فعلى الدولة وفاء دينه.

تحويل القبلة إلى الكعبة:

كان رسول الله ﷺ يتَّجه في صلاته صوب بيت المقدس، وتحوَّلت القبلة إلى الكعبة المقدَّسة في الظهر يوم الثلاثاء للنصف من شعبان في السنة الثانية من الهجرة، وقد سُمِّي المكان الذي صلَّى فيه بمسجد القبلتين[١].

---

(١) المنتظم: ٣/ ٩٣.

فريضة رمضان:

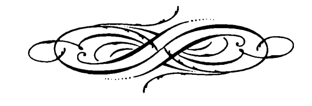
وفي السنة الثانية من الهجرة أمر النبيّ ﷺ بصيام شهر رمضان المبارك، وإخراج زكاة الفطرة، وذلك بعدما حوَّلت القبلة إلى الكعبة المشرَّفة بشهر(١).

مشاورة النبيّ لأصحابه:

والظاهرة البارزة في سيرة النبيّ ﷺ أنَّه كان يستشير أصحابه في معظم الأُمور السياسية والاجتماعيَّة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(٢)، فقد روى أبو هريرة، قال: «ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»(٣).

كتَّابه:

واتَّخذ النبيّ ﷺ كوكبة من الصحابة يكتبون له ما ينزل عليه من الوحي وما يبعثه من الرسائل إلى الملوك الذين يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكتب المصالحة والهدنة وغير ذلك.



---

(١) المصدر المتقدّم: ص٩٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٣) سُنن البيهقي: ٧/ ٤٥.

نماذج من أدعيته

النبيّ ﷺ داعية الله الأكبر في الأرض، وترجمان وحيه، وإمام الموحِّدين، وسيِّد المنيبين، وخاتم النَّبيِّين، الذي رفع بقوَّة وشموخ كلمة التوحيد، ودمَّر بعزم وصلابة الأوثان والأصنام التي تعبد من دون الله تعالى، فأشاع معرفته، ودلَّل على وحدانيَّته، ووجوب ذاته، وعظيم شأنه، فأنار العقول، وأضاء دخائل النُّفوس، وأقام صروح الإيمان، وفنَّد شبه الملحدين.

من أدعيته ﷺ

الصلاح في الدِّين والدُّنيا:

«اللَّهُمَّ اصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعادِي، وَاجْعَلْ الْحَياةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»(١).

طلب المغفرة:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئتِي وَجَهْلِي وَإِسْرافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَئِي وَعَمْدِي، وَهَزْلِي وَجِدِّي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ»(٢).

الخشية من الله:

«اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنا وَبَيْنَ مَعاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا يُهَوِّنُ عَلَيْنَا مُصِيباتِ الدُّنْيا، وَمَتِّعْنا بِأَسْمَاعِنا وَأَبْصَرِنا وَقُوَّتِنا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَارَنا عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنا، وَانْصُرْنا عَلَىٰ مَنْ عادانا،

---

(١) كنز العمَّال: ٢/ ١٨٥.

(٢) صحيح البخاري: ٧/ ١٦٦.

وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنا فِي دِينِنَا، وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيا أَكْبَرَ هَمِّنا، وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنا، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لاَ يَرْحَمُنا»(١).

السلامة من النزعات الشريرة:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَالْقَسْوَةِ، وَالْغَفْلَةِ، وَالْعَيْلَةِ، وَالذِّلَّةِ، وَالْمَسْكَنَةِ.

وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْكُفْرِ، وَالْفُسُوقِ، وَالشِّقَاقِ، وَالنِّفَاقِ، وَالسُّمْعَةِ، وَالرِّيَاءِ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الصَّمَمِ، وَالْبَكَمِ، وَالْجُنُونِ، وَالْجُذَامِ، وَالْبَرَصِ، وَسَيِّىءِ الأَسْقَامِ(٢).

أدعية علّمها لعليّ عليه السلام:

أفاض النبيّ صلى الله عليه وآله على وصيّه وباب مدينة علمه جميع مكوّناته، وعهد إليه بجميع ما يقرِّبه إلى الله تعالى زُلفى، وقد علَّمه بعض الأدعية الشريفة ليُناجي بها الله تعالى، والتي منها ما يلي:

دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام عندما أرسله إلى اليمن:

أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام داعية إلى اليمن يدعوهم إلى توحيد الله واعتناق الإسلام، وقد أسلموا على يده بلا قتال، وقد زوَّده بهذا الدُّعاء الشريف:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِلَا ثِقَةٍ مِنِّي بِغَيْرِكَ، وَلَا رَجَاءٍ يَأْوِي بِي إِلَّا إِلَيْكَ، وَلَا قُوَّةٍ أَتَّكِلُ عَلَيْهَا، وَلَا حِيلَةٍ أَلْجَأُ إِلَيْهَا إِلَّا طَلَبَ فَضْلِكَ، وَالتَّعَرُّضَ لِرَحْمَتِكَ، وَالسُّكُونَ إِلَى أَحْسَنِ عَادَتِكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا سَبَقَ لِي فِي وَجْهِي هَذَا مِمَّا أُحِبُّ وَأَكْرَهُ، فَإِنَّمَا أَوْقَعْتَ عَلَيَّ فِيهِ قُدْرَتَكَ، فَمَحْمُودٌ فِيهِ بَلَاؤُكَ مُتَّضِحٌ فِيهِ قَضَاؤُكَ، وَأَنْتَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ.

اللَّهُمَّ فَاصْرِفْ عَنِّي مَقَادِيرَ كُلِّ بَلَاءٍ، وَمَقَاصِرَ كُلِّ لَأْوَاءٍ، وَابْسُطْ عَلَيَّ كَنَفاً مِنْ رَحْمَتِكَ وَسَعَةً مِنْ فَضْلِكَ، وَلُطْفاً مِنْ عَفْوِكَ حَتَّى لَا أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ، وَذَلِكَ مَعَ مَا أَسْأَلُكَ أَنْ تُخْلِفَنِي فِي أَهْلِي وَوُلْدِي، وَصُرُوفِ حُزَانَتِي بِأَحْسَنِ مَا خَلَّفْتَ بِهِ غَائِباً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَحْصِينِ كُلِّ عَوْرَةٍ وَسَتْرِ كُلِّ سَيِّئَةٍ، وَحَطِّ كُلِّ مَعْصِيَةٍ،

---

(١) نهج الفصاحة: ١/ ٣٣٣.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ١/ ٥٣٠.

وَكِفَايَةِ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَارْزُقْنِي عَلَى ذَلِكَ شُكْرَكَ وَذِكْرَكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَالرِّضَا بِقَضَائِكَ، يَا وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ.

وَاجْعَلْنِي وَمَا خَوَّلْتَنِي وَوَلَدِي، وَرَزَقْتَنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي حِمَاكَ الَّذِي لَا يُسْتَبَاحُ، وَذِمَّتِكَ الَّتِي لَا تُخْفَرُ، وَجِوَارِكَ الَّذِي لَا يُرَامُ، وَأَمَانِكَ الَّذِي لَا يَنْقُضُ، وَسِتْرِكَ الَّذِي لَا يُهْتَكُ، فَإِنَّهُ مَنْ كَانَ فِي حِمَاكَ وَذِمَّتِكَ وَجِوَارِكَ وَأَمَانِكَ وَسِتْرِكَ كَانَ آمِناً مَحْفُوظاً، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»(١).

دعاء النبي ﷺ لعلي عليه السلام يدعو به عند كل شدَّة:

من الأدعية الجليلة التي علَّمها النبيّ ﷺ للإمام عليه السلام هذا الدُّعاء، وأمره أن يحتفظ به، ويدعو به عند كلّ شدَّة تلمّ به، وهذا نصّه بعد البسملة:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، الْمُدَبِّرُ بِلَا وَزِيرٍ، وَلَا خَلْقٍ مِنْ عِبَادِهِ يَسْتَشِيرُ، الْأَوَّلُ غَيْرُ مَوْصُوفٍ، وَالْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلْقِ، الْعَظِيمُ الرُّبُوبِيَّةِ، نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ وَفَاطِرُهُمَا وَمُبْتَدِعُهُمَا، بِغَيْرِ عَمَدٍ خَلَقَهُمَا، وَفَتَقَهُمَا فَتْقاً، فَقَامَتِ السَّمٰوَاتُ طَائِعَاتٍ بِأَمْرِهِ، وَاسْتَقَرَّتِ الْأَرَضُونَ بِأَوْتَادِهَا فَوْقَ الْمَاءِ، ثُمَّ عَلَا رَبُّنَا فِي السَّمٰاوٰاتِ الْعُلىٰ، الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ، لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَمٰا فِي الْأَرْضِ وَمٰا بَيْنَهُمٰا وَمٰا تَحْتَ الثَّرىٰ، فَأَنَا أَشْهَدُ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا رَافِعَ لِمَا وَضَعْتَ، وَلَا وَاضِعَ لِمَا رَفَعْتَ، وَلَا مُعِزَّ لِمَنْ أَذْلَلْتَ، وَلَا مُذِلَّ لِمَنْ أَعْزَزْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَأَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ كُنْتَ إِذْ لَمْ تَكُنْ سَمَاءٌ مَبْنِيَّةٌ، وَلَا أَرْضٌ مَدْحِيَّةٌ، وَلَا شَمْسٌ مُضِيئَةٌ، وَلَا لَيْلٌ مُظْلِمٌ، وَلَا نَهَارٌ مُضِيءٌ وَلَا بَحْرٌ لُجِّيٌّ، وَلَا جَبَلٌ رَاسٍ، وَلَا نَجْمٌ سَارٍ، وَلَا قَمَرٌ مُنِيرٌ، وَلَا رِيحٌ تَهُبُّ، وَلَا سَحَابٌ يَسْكُبُ، وَلَا بَرْقٌ يَلْمَعُ، وَلَا رُوحٌ تَنَفَّسُ، وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ، وَلَا نَارٌ تَتَوَقَّدُ، وَلَا مَاءٌ يَطَّرِدُ، كُنْتَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَوَّنْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَدَرْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَابْتَدَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَغْنَيْتَ وَأَفْقَرْتَ، وَأَمَتَّ وَأَحْيَيْتَ، وَأَضْحَكْتَ وَأَبْكَيْتَ، وَعَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَيْتَ، فَتَبَارَكْتَ يَا اللَّهُ وَتَعَالَيْتَ، أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْخَلَّاقُ الْمُعِينُ، أَمْرُكَ غَالِبٌ، وَعِلْمُكَ نَافِذٌ، وَكَيْدُكَ غَرِيبٌ، وَوَعْدُكَ صَادِقٌ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَحُكْمُكَ عَدْلٌ، وَكَلَامُكَ هُدًى، وَوَحْيُكَ نُورٌ، وَرَحْمَتُكَ وَاسِعَةٌ، وَعَفْوُكَ عَظِيمٌ، وَفَضْلُكَ كَثِيرٌ، وَعَطَاؤُكَ جَزِيلٌ، وَحَبْلُكَ

(١) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٤/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

مَتِينٌ، وَإِمْكَانُكَ عَتِيدٌ، وَجَارُكَ عَزِيزٌ، وَبَأْسُكَ شَدِيدٌ، وَمَكْرُكَ مَكِيدٌ، أَنْتَ يَا رَبِّ مَوْضِعُ كُلِّ شَكْوَى، وَحَاضِرُ كُلِّ مَلَإٍ، وَشَاهِدُ كُلِّ نَجْوَى، وَمُنْتَهَى كُلِّ حَاجَةٍ، مُفَرِّجُ كُلِّ حَزِنٍ، وَغِنَى كُلِّ مِسْكِينٍ، وَحِصْنُ كُلِّ هَارِبٍ، وَأَمَانُ كُلِّ خَائِفٍ، حِرْزُ الضُّعَفَاءِ، كَنْزُ الْفُقَرَاءِ، مُفَرِّجُ الْغَمَّاءِ، مُعِينُ الصَّالِحِينَ، ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّنَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، تَكْفِي مِنْ عِبَادِكَ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ جَارُ مَنْ لَاذَ بِكَ وَتَضَرَّعَ إِلَيْكَ، عِصْمَةُ مَنِ اعْتَصَمَ بِكَ، نَاصِرُ مَنِ انْتَصَرَ بِكَ، تَغْفِرُ الذُّنُوبَ لِمَنِ اسْتَغْفَرَكَ، جَبَّارُ الْجَبَابِرَةِ، عَظِيمُ الْعُظَمَاءِ، كَبِيرُ الْكُبَرَاءِ، سَيِّدُ السَّادَاتِ، مَوْلَى الْمَوَالِي، صَرِيخُ الْمُسْتَصْرِخِينَ، مُنَفِّسٌ عَنِ الْمَكْرُوبِينَ، مُجِيبُ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّينَ، أَسْمَعُ السَّامِعِينَ، أَبْصَرُ النَّاظِرِينَ، أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ، أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، خَيْرُ الْغَافِرِينَ، قَاضِي حَوَائِجِ الْمُؤْمِنِينَ، مُغِيثُ الصَّالِحِينَ.

أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، أَنْتَ الْخَالِقُ وَأَنَا الْمَخْلُوقُ، وَأَنْتَ الْمَالِكُ وَأَنَا الْمَمْلُوكُ، وَأَنْتَ الرَّبُّ وَأَنَا الْعَبْدُ، وَأَنْتَ الرَّازِقُ وَأَنَا الْمَرْزُوقُ، وَأَنْتَ الْمُعْطِي وَأَنَا السَّائِلُ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ وَأَنَا الْبَخِيلُ، وَأَنْتَ الْقَوِيُّ وَأَنَا الضَّعِيفُ، وَأَنْتَ الْعَزِيزُ وَأَنَا الذَّلِيلُ، وَأَنْتَ الْغَنِيُّ وَأَنَا الْفَقِيرُ، وَأَنْتَ السَّيِّدُ وَأَنَا الْعَبْدُ، وَأَنْتَ الْغَافِرُ وَأَنَا الْمُسِيءُ، وَأَنْتَ الْعَالِمُ وَأَنَا الْجَاهِلُ، وَأَنْتَ الْحَلِيمُ وَأَنَا الْعَجُولُ، وَأَنْتَ الرَّحْمَنُ وَأَنَا الْمَرْحُومُ، وَأَنْتَ الْمُعَافِي وَأَنَا الْمُبْتَلَى، وَأَنْتَ الْمُجِيبُ وَأَنَا الْمُضْطَرُّ، وَأَنَا أَشْهَدُ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمُعْطِي عِبَادَكَ بِلَا سُؤَالٍ، وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْفَرْدُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَاسْتُرْ عَلَيَّ عُيُوبِي، وَافْتَحْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَرِزْقاً وَاسِعاً يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»[1].

أدعية علّمها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لسيِّدة النساء عليها السلام:

تولّى النبيّ صلى الله عليه وآله بنفسه تربية بضعته سيِّدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام، فغذّاها بجميع صنوف التقوى، وغرس في نفسها النزعات الخيِّرة، والآداب الكريمة، ممّا جعلها فريدة الدُّنيا في مثلها ومكوِّناتها النفسيَّة، والقدوة الحسنة لكلّ امرأة مسلمة، وكان ممّا غذّاها به الأدعية الكريمة التي هي تبتُّل وتضرُّع وانقطاع إلى الله تعالى، وهذه بعضها:

---

(١) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٤/٢٩٨ ـ ٣٠٠.

الدُّعاء الأوَّل:

«يَا اللَّهُ، يَا أَعَزَّ مَذْكُورٍ وَأَقْدَمَهُ قِدَماً فِي الْعِزِّ وَالْجَبَرُوتِ.

يَا اللَّهُ، يَا رَحِيمَ كُلِّ مُتَرَحِّمٍ، وَمَفْزَعَ كُلِّ مَلْهُوفٍ.

يَا اللَّهُ، يَا رَاحِمَ كُلِّ حَزِينٍ يَشْكُو بَثَّهُ وَحُزْنَهُ إِلَيْهِ.

يَا اللَّهُ، يَا خَيْرَ مَنْ طُلِبَ الْمَعْرُوفُ مِنْهُ، وَأَسَرَّ فِي الْعَطَاءِ.

يَا اللَّهُ، يَا مَنْ تَخَافُ الْمَلَائِكَةُ الْمُتَوَقِّدَةُ بِالنُّورِ مِنْهُ.

أَسْأَلُكَ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي يَدْعُوكَ بِهَا حَمَلَةُ عَرْشِكَ، وَمَنْ حَوْلَ عَرْشِكَ، بِنُورِكَ يُسَبِّحُونَ بِهَا شَفَقَةً مِنْ خَوْفِ عَذَابِكَ، وَبِالْأَسْمَاءِ الَّتِي يَدْعُوكَ بِهَا جَبْرَئِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ إِلَّا أَجَبْتَنِي، وَكَشَفْتَ يَا إِلَهِي كُرْبَتِي، وَسَتَرْتَ ذُنُوبِي.

يَا مَنْ يَأْمُرُ بِالصَّيْحَةِ فِي خَلْقِهِ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ يُحْشَرُونَ، أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ الِاسْمِ الَّذِي تُحْيِي بِهِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ أَنْ تُحْيِيَ قَلْبِي، وَتَشْرَحَ صَدْرِي، وَتُصْلِحَ شَأْنِي.

يَا مَنْ خَصَّ نَفْسَهُ بِالْبَقَاءِ، وَخَلَقَ لِبَرِيَّتِهِ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، يَا مَنْ فِعْلُهُ قَوْلٌ، وَقَوْلُهُ أَمْرٌ، وَأَمْرُهُ مَاضٍ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي دَعَاكَ بِهَا خَلِيلُكَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَاسْتَجَبْتَ لَهُ، وَقُلْتَ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1].

وَبِالِاسْمِ الَّذِي دَعَاكَ بِهِ مُوسَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ فَاسْتَجَبْتَ لَهُ دُعَاءَهُ.

وَبِالِاسْمِ الَّذِي كَشَفْتَ بِهِ عَنْ أَيُّوبَ الضُّرَّ، وَتُبْتَ بِهِ عَلَى دَاوُدَ، وَسَخَّرْتَ بِهِ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ وَالشَّيَاطِينَ، وَعَلَّمْتَهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ.

وَبِالِاسْمِ الَّذِي وَهَبْتَ لِزَكَرِيَّا يَحْيَى، وَخَلَقْتَ عِيسَى مِنْ رُوحِ الْقُدُسِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ. وَبِالِاسْمِ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ الْعَرْشَ وَالْكُرْسِيَّ. وَبِالِاسْمِ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ الرُّوحَانِيِّينَ. وَبِالِاسْمِ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ. وَبِالِاسْمِ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ جَمِيعَ الْخَلْقِ وَجَمِيعَ مَا أَرَدْتَ مِنْ شَيْءٍ. وَبِالِاسْمِ الَّذِي قَدَرْتَ بِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. أَسْأَلُكَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ لَمَّا أَعْطَيْتَنِي سُؤْلِي، وَقَضَيْتَ بِهَا حَوَائِجِي»[2].

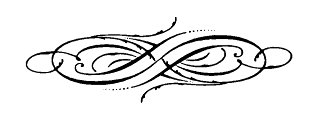
---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.

(٢) حياة سيِّدة النساء فاطمة الزهراء ؏: ص٥٥ ـ ٥٧.

ومن الأدعية التي علَّمها النبيّ ﷺ هذا الدُّعاء عند نزول المصيبة:

«يَا عَالِمَ الْغَيْبِ وَالسَّرَائِرِ، يَا مُطَاعُ يَا عَلِيمُ، يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ، يَا هَازِمَ الأَحْزَابِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، يَا كَائِدَ فِرْعَوْنَ لِمُوسَىٰ، يَا مُنْجِيَ عِيسَىٰ مِنَ أَيْدِي الظَّلَمَةِ، يَا مُخَلِّصَ قَوْمِ نُوحٍ مِنَ الْغَرَقِ، يَا رَاحِمَ عَبْدِهِ يَعْقُوبَ، يَا كَاشِفَ ضُرِّ أَيُّوبَ، يَا مُنْجِيَ ذِي النُّونِ مِنَ الظُّلُمَاتِ، يَا فَاعِلَ كُلِّ خَيْرٍ، يَا هَادِياً إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ، يَا دَالًّا عَلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ، يَا آمِراً بِكُلِّ خَيْرٍ، يَا خَالِقَ الْخَيْرِ، وَيَا أَهْلَ الْخَيْرِ، أَنْتَ اللَّهُ رَغِبْتُ إِلَيْكَ فِيما قَدْ عَلِمْتُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ»[1].



(١) بحار الأنوار: ٨٨/ ٣٧٠.

الوصايا التربويَّة

وصاياه للإمام علي عليه السلام:

من غرر وصايا الرسول ﷺ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الوصيَّة الذهبيَّة التي نذكر بعض بنودها. قال ﷺ:

«يَا عَلِيُّ، إِنَّ مِنَ الْيَقِينِ أَنْ لَا تُرْضِيَ أَحَداً بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلَا تَحْمَدَ أَحَداً بِمَا آتَاكَ اللَّهُ، وَلَا تَذُمَّ أَحَداً عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، فَإِنَّ الرِّزْقَ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا تَصْرِفُهُ كَرَاهَةُ كَارِهٍ. إِنَّ اللَّهَ بِحُكْمِهِ وَفَضْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ».

«يَا عَلِيُّ، إِنَّهُ لَا فَقْرَ أَشَدُّ مِنَ الْجَهْلِ، وَلَا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ، وَلَا مُظَاهَرَةَ أَحْسَنُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ، وَلَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلَا عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ».

«يَا عَلِيُّ، آفَةُ الْحَدِيثِ الْكَذِبُ، وَآفَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ، وَآفَةُ الْعِبَادَةِ الْفَتْرَةُ، وَآفَةُ السَّمَاحَةِ الْمَنُّ، وَآفَةُ الشَّجَاعَةِ الْبَغْيُ، وَآفَةُ الْجَمَالِ الْخُيَلَاءُ، وَآفَةُ الْحَسَبِ الْفَخْرُ».

«يَا عَلِيُّ، عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ، وَلَا تَخْرُجْ مِنْ فِيكَ كَذِبَةٌ أَبَداً، وَلَا تَجْتَرِيَنَّ عَلَى خِيَانَةٍ أَبَداً، وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ. وَابْذُلْ مَالَكَ وَنَفْسَكَ دُونَ دِينِكَ، وَعَلَيْكَ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ فَارْكَبْهَا، وَعَلَيْكَ بِمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ فَاجْتَنِبْهَا».

«يَا عَلِيُّ، أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ ـ تَعَالَى ـ ثَلَاثُ خِصَالٍ: مَنْ أَتَى اللَّهَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ، وَمَنْ وَرِعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ، وَمَنْ قَنِعَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ».

«يَا عَلِيُّ، ثَلَاثٌ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ: تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

«يَا عَلِيُّ، سَيِّدُ الْأَعْمَالِ ثَلَاثُ خِصَالٍ: إِنْصَافُكَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمُسَاوَاةُ الْأَخِ فِي اللَّهِ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

«يَا عَلِيُّ، ثَلاثَةٌ مِنْ حُلَلِ اللَّهِ: رَجُلٌ زَارَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فِي اللَّهِ فَهُوَ زَوْرُ اللَّهِ؛ وَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكْرِمَ زَوْرَهُ وَيُعْطِيَهُ مَا سَأَلَ، وَرَجُلٌ صَلَّى ثُمَّ عَقَّبَ إِلَى الصَّلَاةِ الْأُخْرَى فَهُوَ ضَيْفُ اللَّهِ؛ وَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكْرِمَ ضَيْفَهُ، وَالْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ فَهُمَا وَفْدُ اللَّهِ؛ وَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكْرِمَ وَفْدَهُ».

«يَا عَلِيُّ، ثَلَاثٌ ثَوَابُهُنَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: الْحَجُّ يَنْفِي الْفَقْرَ، وَالصَّدَقَةُ تَدْفَعُ الْبَلِيَّةَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ».

«يَا عَلِيُّ، ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ لَمْ يَقُمْ لَهُ عَمَلٌ: وَرَعٌ يَحْجُزُهُ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعِلْمٌ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ السَّفِيهِ، وَعَقْلٌ يُدَارِي بِهِ النَّاسَ».

«يَا عَلِيُّ، ثَلَاثَةٌ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَحَبَّ لِأَخِيهِ مَا أَحَبَّ لِنَفْسِهِ، وَرَجُلٌ بَلَغَهُ أَمْرٌ فَلَمْ يُقْدِمْ فِيهِ وَلَمْ يَتَأَخَّرْ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الْأَمْرَ لِلَّهِ رِضًا أَوْ سَخَطٌ، وَرَجُلٌ لَمْ يَعِبْ أَخَاهُ بِعَيْبٍ حَتَّى يُصْلِحَ ذَلِكَ الْعَيْبَ عَنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ كُلَّمَا أَصْلَحَ مِنْ نَفْسِهِ عَيْباً بَدَا لَهُ مِنْهَا آخَرُ؛ وَكَفَى بِالْمَرْءِ فِي نَفْسِهِ شُغُلًا».

«يَا عَلِيُّ، ثَلَاثٌ مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ: سَخَاءُ النَّفْسِ، وَطِيبُ الْكَلَامِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى».

«يَا عَلِيُّ، فِي التَّوْرَاةِ أَرْبَعٌ إِلَى جَنْبِهِنَّ أَرْبَعٌ: مَنْ أَصْبَحَ عَلَى الدُّنْيَا حَرِيصاً أَصْبَحَ وَهُوَ عَلَى اللَّهِ سَاخِطٌ، وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ فَإِنَّمَا يَشْكُو رَبَّهُ، وَمَنْ أَتَى غَنِيّاً فَتَضَعْضَعَ لَهُ[1] ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ، وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهُوَ مَنِ اتَّخَذَ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَلَعِباً.

أَرْبَعٌ إِلَى جَنْبِهِنَّ أَرْبَعٌ: مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَشِرْ يَنْدَمْ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَالْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ. فَقِيلَ لَهُ: الْفَقْرُ مِنَ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ؟ فَقَالَ: الْفَقْرُ مِنَ الدِّينِ».

«يَا عَلِيُّ، كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَعْيُنٍ: عَيْنٌ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ غُضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ فَاضَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».

«يَا عَلِيُّ، طُوبَى لِصُورَةٍ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهَا تَبْكِي عَلَى ذَنْبٍ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ الذَّنْبِ أَحَدٌ غَيْرُ اللَّهِ».

«يَا عَلِيُّ، ثَلَاثٌ مُوبِقَاتٌ وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ:

فَأَمَّا الْمُوبِقَاتُ: فَهَوىً مُتَّبَعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ.

---

(١) أي خضع وذلّ له.

وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَالعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَخَوْفُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

«يَا عَلِيُّ، ثَلَاثٌ يَحْسُنُ فِيهِنَّ الْكَذِبُ: الْمَكِيدَةُ فِي الْحَرْبِ، وَعِدَتُكَ زَوْجَتَكَ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ».

«يَا عَلِيُّ، ثَلَاثٌ يَقْبُحُ فِيهِنَّ الصِّدْقُ: النَّمِيمَةُ، وَإِخْبَارُ الرَّجُلِ عَنْ أَهْلِهِ بِمَا يَكْرَهُ، وَتَكْذِيبُكَ الرَّجُلَ عَنِ الْخَيْرِ».

«يَا عَلِيُّ، أَرْبَعٌ يَذْهَبْنَ ضَلالًا - أي ضياعاً -: الْأَكْلُ بَعْدَ الشِّبَعِ، وَالسِّرَاجُ فِي الْقَمَرِ، وَالزَّرْعُ فِي الْأَرْضِ السَّبْخَةِ، وَالصَّنِيعَةُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهَا».

«يَا عَلِيُّ، أَرْبَعٌ أَسْرَعُ شَيْءٍ عُقُوبَةً: رَجُلٌ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ فَكَافَأَكَ بِالْإِحْسَانِ إِسَاءَةً، وَرَجُلٌ لَا تَبْغِي عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْغِي عَلَيْكَ، وَرَجُلٌ عَاقَدْتَهُ عَلَى أَمْرٍ فَمِنْ أَمْرِكَ الْوَفَاءُ لَهُ وَمِنْ أَمْرِهِ الْغَدْرُ بِكَ، وَرَجُلٌ تَصِلُ رَحِمَهُ وَيَقْطَعُهَا».

«يَا عَلِيُّ، أَرْبَعٌ مَنْ يَكُنَّ فِيهِ كَمَلَ إِسْلَامُهُ: الصِّدْقُ، وَالشُّكْرُ، وَالْحَيَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

«يَا عَلِيُّ، قِلَّةُ طَلَبِ الْحَوَائِجِ مِنَ النَّاسِ هُوَ الْغِنَى الْحَاضِرُ، وَكَثْرَةُ الْحَوَائِجِ إِلَى النَّاسِ مَذَلَّةٌ وَهُوَ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ»(١).

من الوصايا التربويّة للنبيّ ﷺ إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الوصيّة:

«يَا عَلِيُّ، أَفْضَلُ الجِهَادِ مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِظُلْمِ أَحَدٍ.

يَا عَلِيُّ، مَنْ خَافَ النَّاسُ لِسَانَهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

يَا عَلِيُّ، شَرُّ النَّاسِ مَنْ أَكْرَمَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ، وَأَذَىٰ شَرِّهِ.

يَا عَلِيُّ، شَرُّ النَّاسِ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، وَشَرٌّ مِنْهُ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيا غَيْرِهِ»(٢).

وصيّة النبيّ لسيّدة النساء عليها السلام:

من غرر الوصايا التي أوصى بها النبيّ ﷺ وصيّته لسيّدة نساء العالمين ابنته الوحيدة الزهراء سلام الله عليها هذه الوصيّة:

«لَيْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُهُ بَوَائِقَهُ. وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا

---

(١) تحف العقول: ص٦ ـ ٩.

(٢) وسائل الشيعة: ٦/ ٣٣٣.

يُؤْذِي جارَهُ. وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ يَسْكُتْ. إِنَّ اللَّهَ ـ تَعالَىٰ ـ يُحِبُّ الْخَيِّرَ الْحَلِيمَ الْمُتَعَفِّفَ، وَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الضَّنِينَ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ. إِنَّ الحياءَ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْفُحْشَ مِنَ البَذاءِ، وَالبَذاءُ فِي النَّارِ...»[١].

بعض وصايا النبيّ ﷺ لابن مسعود:

أخذ النبيّ ﷺ يتحف ابن مسعود ومَن معه بهذه الوصايا.. ونحن نذكر بعضها:

«يا اَبْنَ مَسْعُود، قَالَ اللَّهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢]، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[٣]، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[٤].

يا اَبْنَ مَسْعُود، قَوْلُ اللَّهِ تَعالَىٰ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[٥]، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[٦]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾[٧]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾»[٨].

وانبرى بعضهم قائلاً: «يا رسول الله، مَن الصابرون؟».

«الَّذِينَ يَصْبِرُونَ عَلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ، وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ، الَّذِينَ كَسَبُوا طَيِّباً، وَأَنْفَقُوا قَصْداً، وَقَدَّمُوا فَضْلًا، فَأَفْلَحُوا وَنَجَحُوا».

ألقى النبيّ ﷺ الأضواء على الصابرين الذين هم من خيرة النَّاس في سلوكهم وآدابهم، ثمَّ واصل النبيّ ﷺ حديثه مع ابن مسعود قائلاً:

«يَا اَبْنَ مَسْعُود، عَلَيْهِمُ ـ أي على الصابرين ـ الْخُشُوعُ، وَالْوقارُ، وَالسَّكِينَةُ، وَالتَّفَكُّرُ، وَاللِّيْنُ، وَالْعَدْلُ، وَالتَّعْلِيمُ، وَالاعْتِبَارُ، وَالتَّدْبِيرُ، وَالتَّقْوىٰ، وَالإِحْسَانُ، وَالتَّحَرُّجُ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَالْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ، وَإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ، وَمُعَاوَنَةِ أَهْلِ الْحَقِّ، وَالْبَغْيَةِ عَلَىٰ الْمُسِيءِ، وَالْعَفْوِ لِمَنْ ظَلَمَ.

---

(١) حياة سيِّدة النساء فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ص٥٤.
(٢) سورة الزُّمر: الآية ١٠.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٥.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ١١١.
(٥) سورة الإنسان: الآية ١٢.
(٦) سورة القصص: الآية ٥٤.
(٧) سورة البقرة: الآية ٢١٤.
(٨) سورة البقرة: الآية ١٥٥.

يَا ٱبْنَ مَسْعُود، إِذَا ابْتُلوا صَبرُوا، وَإِذَا أُعطُوا شَكَرُوا، وَإِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا، وَإِذَا قَالُوا صَدَقُوا، وَإِذَا عَاهَدوا وَفُوا، وَإِذَا أَسَاؤُوا اسْتَغْفَرُوا، وَإِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً، وَيَقُولُونَ لِلنَّاس حُسْناً.

يَا ٱبْنَ مَسْعُود، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْفَائِزُونَ».

ويستمرّ النبيّ ﷺ في حديثه مع ابن مسعود قائلاً: «يا ٱبْنَ مَسْعُود، قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾»[2].

ومن بنود هذه الوصيَّة قوله:

«يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُوسَى بِالْكَلَامِ وَالْمُنَاجَاةِ، حِينَ تُرَى خُضْرَةُ الْبَقْلِ مِنْ بَطْنِهِ مِنْ هُزَالِهِ[3]، وَمَا سَأَلَ مُوسَى حِينَ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ إِلَّا طَعَاماً يَأْكُلُهُ مِنْ جُوعٍ.

يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنْ شِئْتَ نَبَّأْتُكَ بِأَمْرِ نُوحٍ نَبِيِّ اللَّهِ، إِنَّهُ عَاشَ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، فَكَانَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ: لَا أُمْسِي، وَإِذَا أَمْسَى قَالَ: لَا أُصْبِحُ، فَكَانَ لِبَاسُهُ الشَّعْرَ، وَطَعَامُهُ الشَّعِيرَ.

وَإِنْ شِئْتَ نَبَّأْتُكَ بِأَمْرِ دَاوُدَ عليه السلام خَلِيفَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ لِبَاسُهُ الشَّعْرَ، وَطَعَامُهُ الشَّعِيرَ.

وَإِنْ شِئْتَ نَبَّأْتُكَ بِأَمْرِ سُلَيْمَانَ عليه السلام مَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ، كَانَ يَأْكُلُ الشَّعِيرَ، وَيُطْعِمُ النَّاسَ الْحُوَّارَى[4] وَكَانَ لِبَاسُهُ الشَّعْرَ، وَكَانَ إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ شَدَّ يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ فَلَا يَزَالُ قَائِماً يُصَلِّي حَتَّى يُصْبِحَ.

وَإِنْ شِئْتَ نَبَّأْتُكَ بِأَمْرِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ عليه السلام، كَانَ لِبَاسُهُ الصُّوفَ، وَطَعَامُهُ الشَّعِيرَ.

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ٣٣ ـ ٣٥.
(٢) سورة الإسراء: الآيتان ١٨ و١٩.
(٣) الهزال: قلَّة اللحم.
(٤) الحوارى: الدقيق الأبيض.

وَإِنْ شِئْتَ نَبَّأْتُكَ بِأَمْرِ يَحْيَى عليه السلام كَانَ لِبَاسُهُ اللِّيفَ، وَكَانَ يَأْكُلُ وَرَقَ الشَّجَرِ.

وَإِنْ شِئْتَ نَبَّأْتُكَ بِأَمْرِ عِيسَى عليه السلام بْنِ مَرْيَمَ، وَهُوَ الْعَجَبُ، كَانَ يَقُولُ: إِدَامِيَ الْجُوعُ، وَشِعَارِيَ الْخَوْفُ[١]، وَلِبَاسِيَ الصُّوفُ، وَدَابَّتِي رِجْلَايَ، وَسِرَاجِي بِاللَّيْلِ الْقَمَرُ، وَصَلَايَ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقُ الشَّمْسِ، وَفَاكِهَتِي وَرَيْحَانَتِي بُقُولُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ الْوُحُوشُ وَالْأَنْعَامُ، وَأَبِيتُ وَلَيْسَ لِي شَيْءٌ، وَأُصْبِحُ وَلَيْسَ لِي شَيْءٌ، وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ أَغْنَى مِنِّي.

يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، مَا يُغْنِي مَنْ يَتَنَعَّمُ فِي الدُّنْيَا إِذَا أُخْلِدَ فِي النَّارِ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٢]، يَبْنُونَ الدُّورَ، وَيُشَيِّدُونَ الْقُصُورَ، وَيُزَخْرِفُونَ الْمَسَاجِدَ، وَلَيْسَتْ هِمَّتُهُمْ إِلَّا الدُّنْيَا، عَاكِفُونَ عَلَيْهَا، مُعْتَمِدُونَ فِيهَا، آلِهَتُهُمْ بُطُونُهُمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٣].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٤]، وَمَا هُوَ إِلَّا مُنَافِقٌ جَعَلَ دِينَهُ هَوَاهُ، وَإِلَهَهُ بَطْنَهُ، كُلَّمَا اشْتَهَى مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[٥].

يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، مَحَارِيبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، وَشَرَفُهُمُ الدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيرُ، وَهِمَّتُهُمْ بُطُونُهُمْ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْأَشْرَارِ، الْفِتْنَةُ مَعَهُمْ، وَإِلَيْهِمْ تَعُودُ.

يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[٦].

يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، أَجْسَادُهُمْ لَا تَشْبَعُ، وَقُلُوبُهُمْ لَا تَخْشَعُ».

ويأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله في وصيّته قائلاً:

«يَا ابْنَ مَسْعُود، لَا تُحَقِّرَنَّ ذَنْباً، وَلَا تُصَغِّرَنَّهُ، وَاجْتَنِبِ الْكَبَائِرَ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَظَرَ

---

(١) الخوف: هو من الله تعالى.
(٢) سورة الروم: الآية ٧.
(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٢٩ ـ ١٣١.
(٤) سورة الجاثية: الآية ٢٣.
(٥) سورة الرعد: الآية ٢٦.
(٦) سورة الشعراء: الآيات ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ ذُنُوبِهِ دَمِعَتْ عَيْنَاهُ قَيْحاً وَدَماً، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾(١)».

وهذا بند آخر من الوصيَّة:

«يَا ٱبْنَ مَسْعُودَ، أَكْثِرِ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَالْبِرِّ، فَإِنَّ الْمُحْسِنَ وَالْمُسِيءَ يَنْدَمَانِ، يَقُولُ الْمُحْسِنُ: يَا لَيْتَنِي ازْدَدْتُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَيَقُولُ الْمُسِيءُ: قَصَّرْتُ وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(٢).

يَا ٱبْنَ مَسْعُود، لاَ تُقَدِّمِ الذَّنْبَ، وَلاَ تُؤَخِّرِ التَّوْبَةَ، وَلَكِنْ قَدِّمِ التَّوْبَةَ، وَأَخِّرِ الذَّنْبَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾(٣)».

ومن بنود هذه الوصيَّة قوله:

«يَا ٱبْنَ مَسْعُود، عَلَيْكَ بِالسَّكِينَةِ وَالْوِقَارِ، وَكُنْ سَهْلاً، لَيِّناً، عَفِيفاً، مُسْلِماً، تَقِيّاً، نَقِيّاً، طَاهِراً، مُطَهَّراً، صَادِقاً، خَالِصاً، سَلِيماً، صَحِيحاً، لَبِيباً، صَالِحاً، صَبُوراً، شَكُوراً، مُؤْمِناً، وَرِعاً، عَابِداً، زَاهِداً، رَحِيماً، عَالِماً، فَقِيهاً، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾(٤)».

من وصايا النبيّ ﷺ لأبي ذر (رض):

ونأخذ بعض المقاطع من هذه الوصية القيِّمة:

«يَا أَبَا ذَرٍّ، أُعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ كُنْتَ لا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ عِبَادَةِ اللَّهِ الْمَعْرِفَةُ بِهِ، فَهُوَ الأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ فَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَالْفَرْدُ فَلَا ثَانِيَ لَهُ، وَالْبَاقِي لَا إِلَى غَايَةٍ، فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شَيْءٍ، وَهُوَ اللَّهُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ثُمَّ الإِيمَانُ بِي، وَالإِقْرَارُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَنِي إِلَى كَافَّةِ النَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجاً مُنِيراً، ثُمَّ حُبُّ أَهْلِ بَيْتِيَ الَّذِينَ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً.

وَاعْلَمْ يَا أَبَا ذَرٍّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ أَهْلَ بَيْتِي فِي أُمَّتِي كَسَفِينَةِ نُوح، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ رَغِبَ عَنْهَا غَرِقَ، وَمِثْلِ بَابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً...

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠.
(٢) سورة القيامة: الآية ٢.
(٣) سورة القيامة: الآية ٥.
(٤) سورة هود: الآية ٧٥.

يَا أَبَا ذَرٍّ، كُنْ كَأَنَّكَ فِي الدُّنْيَا غَرِيبٌ، أَوْ كَعَابِرِ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ.

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سُقْمِكَ، وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا اسْمُكَ غَداً...

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكُمْ فِي مَمَرِّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي آجَالٍ مَنْقُوصَةٍ، وَأَعْمَالٍ مَحْفُوظَةٍ، وَالْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً، وَمَنْ يَزْرَعْ خَيْراً يُوشِكْ أَنْ يَحْصِدَ خَيْراً، وَمَنْ يَزْرَعْ شَرّاً يُوشِكْ أَنْ يَحْصِدَ نَدَامَةً، وَلِكُلِّ زَارِعٍ مِثْلُ مَا زَرَعَ...

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَيُدْخِلُ قَوْماً الْجَنَّةَ فَيُعْطِيهِمْ حَتَّى يَمَلُّوا، وَفَوْقَهُمْ قَوْمٌ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى، فَإِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِمْ عَرَفُوهُمْ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كُنَّا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَبِمَ فَضَّلْتَهُمْ عَلَيْنَا؟ فَيُقَالُ: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، إِنَّهُمْ كَانُوا يَجُوعُونَ حِينَ تَشْبَعُونَ، وَيَظْمَؤُونَ حِينَ تَرْوَوْنَ، وَيَقُومُونَ حِينَ تَنَامُونَ، وَيَشْخَصُونَ حِينَ تَخْفِضُونَ...

يَا أَبَا ذَرٍّ، الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ، وَمَا أَصْبَحَ فِيهَا مُؤْمِنٌ إِلَّا حَزِيناً، فَكَيْفَ لَا يَحْزَنُ الْمُؤْمِنُ وَقَدْ أَوْعَدَهُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، أَنَّهُ وَارِدُ جَهَنَّمَ وَلَمْ يَعِدْهُ أَنَّهُ صَادِرٌ عَنْهَا، وَلَيَلْقَيَنَّ أَمْرَاضاً وَمُصِيبَاتٍ وَأُمُوراً تَغِيظُهُ، وَلَيُظْلَمَنَّ فَلَا يُنْتَصَرُ، يَبْتَغِي ثَوَاباً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَا يَزَالُ فِيهَا حَزِيناً حَتَّى يُفَارِقَهَا، فَإِذَا فَارَقَهَا أَفْضَى إِلَى الرَّاحَةِ وَالْكَرَامَةِ...

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ امْرُؤٌ وَلْيَعْلَمْ مَا يَقُولُ.

يَا أَبَا ذَرٍّ، اتْرُكْ فُضُولَ الْكَلَامِ، وَحَسْبُكَ مِنَ الْكَلَامِ مَا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ.

يَا أَبَا ذَرٍّ، كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ.

يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَقُّ بِطُولِ السِّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ.

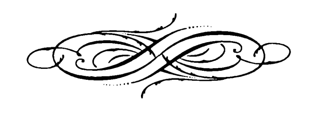
يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى، إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَإِكْرَامَ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ الْعَامِلِينَ، وَإِكْرَامَ السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ.

يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا عَمِلَ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ لِسَانَهُ...

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنْ سَرَّكَ أَنْ تَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَإِنْ سَرَّكَ أَنْ تَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَاتَّقِ اللَّهَ، وَإِنْ سَرَّكَ أَنْ تَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدَيْكَ.

يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَذِهِ الآيَةِ لَكَفَتْهُم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾(١).

يَا أَبَا ذَرٍّ، طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي غَيْرِ مَنْقَصَةٍ، وَأَذَلَّ نَفْسَهُ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ، وَأَنْفَقَ مَالًا جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَة. طُوبَىٰ لِمَنْ صَلُحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ عَلَانِيَتُهُ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ. طُوبَىٰ لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ»(٢).



(١) سورة الطلاق: الآيتان ٢ و٣.
(٢) بحار الأنوار: ١٧/ ٧٤. الأمالي: ٢/ ١٣٨.

المواعظ والنصائح

اهتمَّ النبيّ ﷺ اهتماماً بالغاً بالوعظ الذي هو بلسم للنُّفوس الحائرة يهديها للتي هي أقوم، وتشرق به آفاق النفس، وتصونها من مآثم الحياة، وقد أُثرت عنه كوكبة من المواعظ، كان منها ما يلي:

التحذير من حبّ الدُّنيا:

حذَّر النبيّ ﷺ من حبّ الدُّنيا، والتهالك على مباهجها، قال ﷺ:

«مَا لِي أَرَى حُبَّ الدُّنْيَا قَدْ غَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؛ حَتَّى كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِهِمْ كُتِبَ. وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِهِمْ وَجَبَ، كَأَنَّ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ خَبَرِ الْأَمْوَاتِ قَبْلَهُمْ عِنْدَهُمْ كَسَبِيلِ قَوْمٍ سَفْرٍ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْهِمْ رَاجِعُونَ، بُيُوتُهُمْ أَجْدَاثُهُمْ، وَتَأْكُلُونَ تُرَاثَهُمْ فَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ. هَيْهَاتَ، هَيْهَاتَ، أَمَا يَتَّعِظُ آخِرُهُمْ بِأَوَّلِهِمْ، لَقَدْ جَهِلُوا وَنَسُوا كُلَّ وَاعِظٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَآمَنُوا شَرَّ كُلِّ عَاقِبَةِ سُوءٍ، وَلَمْ يَخَافُوا نُزُولَ فَادِحَةٍ، وَبَوَائِقَ حَادِثَةٍ. طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ خَوْفُ اللَّهِ عَنْ خَوْفِ النَّاسِ.

طُوبَى لِمَنْ طَابَ كَسْبُهُ، وَصَلُحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ عَلَانِيَتُهُ، وَاسْتَقَامَتْ خَلِيقَتُهُ.

طُوبَىٰ لِمَنْ أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ.

طُوبَىٰ لِمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ عَزَّ ذِكْرُهُ، وَزَهَدَ فِيمَا أَحَلَّ لَهُ مِنْ غَيْرِ رَغْبَةٍ عَنْ سُنَّتِي، وَرَفَضَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ تَحَوُّلٍ عَنْ سُنَّتِي، وَاتَّبَعَ الْأَخْبَارَ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ بَعْدِي، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ، وَرَحِمَ أَهْلَ الْمَسْكَنَةِ.

طُوبَىٰ لِمَنْ اكْتَسَبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَالًا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَأَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَعَادَ بِهِ عَلَىٰ أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ، وَجَانَبَ أَهْلَ الْخُيَلَاءِ وَالتَّفَاخُرِ وَالرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا، الْمُبْتَدِعِينَ خِلَافَ سُنَّتِي، الْعَامِلِينَ بِغَيْرِ سِيرَتِي.

طُوبَى لِمَنْ حَسُنَ مَعَ النَّاسِ خُلُقُهُ وَبَذَلَ لَهُمْ مَعُونَتَهُ، وَعَدَلَ عَنْهُمْ شَرَّهُ».

الخصال الشريفة:

ومن نصائح النبيّ ﷺ لأُمَّته قوله:

«تَقَبَّلُوا لِي بِسِتٍّ أَتَقَبَّلُ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ: إِذَا حَدَّثْتُمْ فَلَا تُكْذِبُوا، وَإِذَا وَعَدْتُمْ فَلَا تَخْلِفُوا، وَإِذَا ائْتُمِنْتُمْ فَلَا تَخُونُوا، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُجَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَلْسِنَتَكُمْ»(١).

أشد النَّاس بلاءً:

من مواعظ النبيّ ﷺ قوله ـ حيث سُئل عن أشدّ النَّاس بلاءً في الدُّنيا ـ:

«النَّبِيُّونَ، ثُمَّ الْأَمَاثِلُ فَالْأَمَاثِلُ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِ، وَحُسْنِ عَمَلِهِ، فَمَنْ صَحَّ إِيمَانُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَمَنْ سَخُفَ إِيمَانُهُ، وَضَعُفَ عَمَلُهُ قَلَّ بَلَاؤُهُ»(٢).

الأعمال المقرّبة للجنَّة والنَّار:

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ نَبَّأْتُكُمْ بِهِ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَمَا مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا وَقَدْ نَبَّأْتُكُم بِهِ وَأَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ: لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ بِمَعَاصِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»(٣).

ذكر الموت:

ومن غرر مواعظ النبيّ ﷺ هذه الموعظة:

«أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ، فَإِنَّكُمْ إِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِي ضِيقٍ وَسَعَةٍ عَلَيْكُمْ فَرَضِيتُمْ بِهِ أُجِرْتُمْ، وَإِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِي غِنىً بَغَضَهُ إِلَيْكُمْ فَجُدْتُمْ بِهِ أُثِبْتُمْ، إِنَّ الْمَنَايَا قَاطِعَاتٍ لِلأَعْمَالِ، وَاللَّيَالِي مُدْنِيَاتٍ لِلآجَالِ، وَإِنَّ الْمَرْءَ بَيْنَ يَوْمَيْنِ: يَوْمٌ مَضَىٰ أُحْصِيَ فِيهِ عَمَلُهُ فَخُتِمَ عَلَيْهِ، وَيَوْمٌ قَدْ بَقِيَ لَعَلَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ، إِنَّ الْعَبْدَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ، وَحُلُولِ رَمْسِهِ، يَرَىٰ جَزَاءَ مَا أَسْلَفَ، وَقِلَّةِ غَنَاءِ مَا خَلَّفَ، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ»(٤).

---

(١) بحار الأنوار: ٧٧/ ١١٢.

(٢) تحف العقول: ص٣٩.

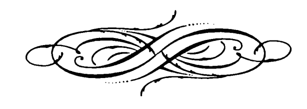
(٣) تحف العقول: ص٤٠.

(٤) التذكرة الحمدونيَّة: ١/ ٣٨.

إدبار الدُّنيا:

من مواعظ النبيّ ﷺ هذه الموعظة الثمينة. قال ﷺ:

«أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا قَدِ ارْتَحَلَتْ مُدْبِرَةً، وَالْآخِرَةَ قَدِ احْتَمَلَتْ مُقْبِلَةً، أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي يَوْمِ عَمَلٍ لَا حِسَابَ فِيهِ، وَيُوشِكُ أَنْ تَكُونُوا فِي يَوْمِ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، وَلَا يُعْطِي الْآخِرَةَ إِلَّا لِمَنْ يُحِبُّ، وَإِنَّ لِلدُّنْيَا أَبْنَاءً وَلِلْآخِرَةِ أَبْنَاءً، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، إِنَّ شَرَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمُ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، فَاتِّبَاعُ الْهَوَى يَصْرِفُ قُلُوبَكُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَطُولُ الْأَمَلِ يَصْرِفُ هِمَمَكُمْ إِلَى الدُّنْيَا، وَمَا بَعْدَهُمَا لِأَحَدٍ مِنْ خَيْرٍ يُرْجَاهُ فِي دُنْيَا وَلَا آخِرَةٍ»[1].



(١) بحار الأنوار: ٧٧/١٨٨.

من خطب النبي ﷺ

خطابه في مكَّة:

ولمَّا نزل الوحي على النبيّ ﷺ بإنذار عشيرته، وإبلاغهم بنبوَّته، دعاهم إلى بيته، وأقام لهم مائدة، فلمَّا فرغوا من تناول الطعام قام فيهم خطيباً، فقال ـ بعد حمد الله والثناء عليه ـ:

«إِنَّ الرَّائِدَ لاَ يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللَّهِ! لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعاً مَا كَذَبْتُكُمْ، وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ جَمِيعاً مَا غَرَرْتُكُمْ.

وَاللَّهِ! الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً.

وَاللَّهِ! لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتُحَاسَبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَتُجْزَوْنَ بِالإِحْسَانِ إِحْساناً، وَبِالسُّوءِ سُوءاً، وَإِنَّهَا الْجَنَّةُ أَبَداً، أَوِ النَّارُ أَبَداً»[١].

خطابه في غدير خم:

ولمَّا انتهى الرسول ﷺ من حجّه قفل راجعاً إلى المدينة، وحينما انتهى إلى غدير خم نزل عليه الوحي برسالة من السماء، برسالة بالغة الخطورة، وهي إقامة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة من بعده، وقائداً عامّاً لأُمَّته، وكانت رسالة السماء هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[٢].

وانبرى الرسول ﷺ بعزم ثابت وإرادة صلة إلى تنفيذ أمر الله تعالى، فوضع أعباء المسير، وحطّ رحله في رمضاء الهجير، وأمر قوافل الحجَّاج أن تفعل مثل ذلك وكان الوقت قاسياً في شدَّة حرارته، حتَّى كان الرجل يضع طرف ردائه تحت قدميه ليتَّقي به من الحرّ، وبعدما اجتمع الحجَّاج الذين كان عددهم ـ فيما يقول المؤرّخون ـ مائة ألف أو يزيدون، قام النبيّ ﷺ خطيباً فقال:

---

(١) السيرة الحلبيَّة: ١/ ٢٧٢. الكامل في التاريخ: ٢/ ٢٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٧.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ، وَنُؤْمِنُ بِهِ، وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنا، وَمِنْ سَيِّئاتِ أَعْمالِنا، الَّذِي لاَ هَادِيَ لِمَنْ ضَلَّ، وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَىٰ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ: أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ نَبَّأَنِيَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَنَّهُ لَمْ يُعَمَّرْ نَبِيٌّ إِلَّا مِثْلَ نِصْفِ عُمُرِ الَّذِي قَبْلَهُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ أُدعىٰ فَأُجِيبَ، وَإِنِّي مَسْؤُولٌ، وَأَنْتُمْ مَسْؤُولُونَ، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟».

وهتفوا جميعاً: «نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت وجهدت، فجزاك الله خيراً».

وواصل النبيّ ﷺ حديثه قائلاً:

«أَلَسْتُمْ تَشْهَدُونَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ جَنَّتَهُ حَقٌّ، وَأَنَّ نَارَهُ حَقٌّ، وَأَنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ...؟».

وصاحوا من جميع جنبات الحفل بلهجة واحدة قائلين: «بلى، نشهد بذلك».

ورفع الرّسول ﷺ رأسه إلى السّماء قائلاً: **«اللَّهُمَّ اشْهَدْ...».**

ثمّ انبرى النبيّ ﷺ في خطبته قائلاً: **«أَيُّها النَّاسُ أَلَا تَسْمَعُونَ؟».**

فقالوا: «نعم».

فقال النبيّ ﷺ:

«إِنِّي فَرَطٌ عَلَىٰ الْحَوْضِ، وَأَنْتُمْ وَارِدُونَ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَإِنَّ عَرْضَهُ مَا بَيْنَ صَنْعاءَ وَبُصْرَىٰ[(١)]، فِيهِ أَقْداحٌ عَدَدَ النُّجُومِ مِن فِضَّةٍ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِي الثَّقَلَيْنِ؟...».

فناداه منادٍ من القوم: «ما الثقلان يا رسول الله؟».

فأجابه النبيّ ﷺ:

«الثَّقَلُ الأَكْبَرُ كِتَابُ اللَّهِ، طَرَفٌ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَطَرَفٌ بِأَيْدِيكُم فَتَمَسَّكُوا بِهِ لَا تَضِلُّوا، وَالآخَرُ الأَصْغَرُ عِتْرَتِي، وَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ نَبَّأَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقا حَتَّىٰ يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَسَأَلْتُ ذَلِكَ لَهُمَا رَبِّي، فَلَا تَقَدَّمُوهُما فَتَهْلَكُوا، وَلَا تَقْصُرُوا عَنْهُما فَتَهْلَكُوا...».

ثمّ أخذ بيد وصيّه، وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ففرض ولايته على جميع المسلمين، وأخذ بيد عليّ حتّى بان بياض إبطيهما، ورفع صوته قائلاً:

---

(١) صنعاء: عاصمة اليمن. بصرى: قصبة من أعمال دمشق.

«أَيُّهَا النَّاس، مَنْ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِم؟...».

فانبروا قائلين: «الله ورسوله أعلم؟».

فقال ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ مَوْلاَي، وَأَنَا مَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَا أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ». قال ذلك ثلاث مرَّات.

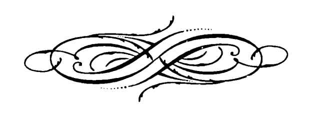
ثمَّ قال:

«اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَأَحِبَّ مَنْ أَحَبَّهُ، وَأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ...».

وانتهى بذلك الخطاب الجليل الذي أدَّىٰ فيه النبيّ ﷺ رسالة ربّه، فنصب فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة على المسلمين، وأقبل الحاضرون على مبايعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وانبرى عمر بن الخطَّاب فبايعه وهنَّأه، وقال له: «هنيئاً يابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة».

لقد وضع النبيّ ﷺ المنهج الكامل لسعادة أُمَّته ووقايتها من التردِّي في مآثم الحياة.. إنَّ البيعة للإمام عليه السلام في يوم عيد الغدير جزء من رسالة الإسلام، وركن من أركان الدِّين، فمن أنكرها فقد أنكر الإسلام، كما يقول العلَّامة العلائلي[1].



(١) موسوعة الغدير/العلَّامة الأميني: ١/ ١١.

روائع الحكم والآداب

وضع النبيّ ﷺ مناهج رائعة للتربية والآداب وحسن السلوك. لقد كانت حِكَم النبيّ ﷺ منهجاً متكاملاً لما يسمو به الإنسان وتتطوّر به حياته في دُنيا الفضائل، ويكون خليفاً بأن يكون خليفة لله تعالى في الأرض.

إنَّ حِكَم النبيّ ﷺ جزء من الأرصدة الإسلاميَّة التي عالجت جميع قضايا الإنسان، ووضعت الحلول الحاسمة لجميع ما يعاني منه من الأزمات الاجتماعيَّة والنفسيَّة، ونعرض لبعض نماذجها:

الأخلاق الحسنة:

قال ﷺ: «**أَحْسَنُ النَّاسِ إِيماناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً، وَأَحْسَنُكُمْ خُلُقاً أَلْطَفُكُمْ بِأَهْلِهِ، وَأَنا أَلطَفُكُم بِأَهْلِهِ**»(١).

قال ﷺ لأصحابه: «**أَلَا أُخْبِرُكُم بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحاسِنُكُمْ أَخْلاقاً، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ**»(٢).

قال ﷺ: «**حُسْنُ الْخُلُقِ يَبْلُغُ بِصَاحِبِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**». فَقِيلَ لرسول ﷺ: ما أَفْضَلُ ما أُعْطِيَ الْعَبْدُ؟ قالَ: «**حُسْنُ الْخُلُقِ**»(٣).

سوء الخُلق:

قال ﷺ: «**سُوءُ الْخُلُقِ شُؤْمٌ**»(٤).

العقل:

قال رسول الله ﷺ: «**صَدِيقُ كُلِّ امْرِءٍ عَقْلُهُ، وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ**»(٥).

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٥٠.
(٢) التذكرة الحمدونيَّة: ٢/ ١٧٢.
(٣) تحف العقول: ص٤٥.
(٤) تحف العقول: ص٤٤.

قال رسول الله ﷺ: «قَسَّمَ اللَّهُ الْعَقْلَ ثَلاثَةَ أَجْزاءٍ، فَمَنْ كُنَّ فِيهِ كَمُلَ عَقْلُهُ، وَمَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ فَلَا عَقْلَ لَهُ: حُسْنُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَحُسْنُ الطَّاعَةِ لِلَّهِ، وَحُسْنُ الصَّبْرِ عَلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ»[١].

الحمق:

أُثر عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: «إِنَّ الأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحُمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ»[٢].

العلم:

ثواب العالم:

روى الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام، عن جدِّه رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتِهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِهِ، وَأَنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحوتُ فِي الْبَحْرِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ النُّجُوم لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ. إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيناراً وَلاَ دِرْهَماً، وَلَكِنْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[٣].

تعلُّم العلم:

قال ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ حَسَنَةٌ، وَمُدارَسَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهادٌ، وَتَعْلِيمَهُ مَنْ لاَ يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلاَلِ وَالْحَرَام، وَسَالِكٌ بِطَالِبِهِ سُبُلَ الْجَنَّةِ، وَمُونِسٌ فِي الْوَحْدَةِ، وَصَاحِبٌ فِي الْغُرْبَةِ، وَدَلِيلٌ عَلَىٰ السَّرَّاءِ، وَسِلاَحٌ عَلىٰ الأَعْدَاءِ، وَزَيْنُ الأَخِلَّاءِ، يَرْفَعُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِهِ أَقْوَاماً يَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ أَئِمَّةً يُقْتَدىٰ بِهِمْ، تُرْمَقُ أَعْمَالُهُمْ، وَتُقْتَبَسُ آثَارُهُمْ، وَتَرْغَبُ الْمَلائِكَةُ فِي خُلَّتِهِمْ؛ لأَنَّ الْعِلْمَ حَياةُ الْقُلُوبِ، وَنُورُ الأَبْصَارِ مِنَ الْعَمَىٰ، وَقُوَّةُ الأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، وَيُنْزِلُ اللَّهُ حَامِلَهُ مَنَازِلَ الأَحِبَّاءِ، وَيَمْنَحُهُ مُجَالَسَةَ الأَبْرَارِ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.

بِالْعِلْم يُطَاعُ اللَّهُ وَيُعْبَدُ، وَبِالْعِلْم يُعْرَفُ اللَّهُ وَيُوَحَّدُ، وَبِهِ تُوصَلُ الأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلاَلُ وَالْحَرَامُ، وَالْعِلْمُ إِمَامُ الْعَقْلِ»[٤].

---

(٥) بحار الأنوار: ٧٧/ ١٧٤.

(١) بحار الأنوار: ٧٧/ ١٥٨.

(٢) محاضرات الراغب: ١/ ١٤.

(٣) أصول الكافي: ١/ ٧٩.

ذمّ الجهل:

قال ﷺ: «وَصِفَةُ الْجَاهِلِ: أَنْ يَظْلِمَ مَنْ خَالَطَهُ، وَيَتَعَدَّىٰ عَلَىٰ مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَيَتَطَاوَلَ عَلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، كَلاَمُهُ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ، إِنْ تَكَلَّمَ أَثِمَ، وَإِنْ سَكَتَ سَها، وَإِنْ عَرَضَتْ لَهُ فِتْنَةٌ سَارَعَ إِلَيْهَا فَأَرْدَتْهُ، وَإِنْ رَأَىٰ فَضِيلَةً أَعْرَضَ وَأَبْطَأَ عَنْهَا، لاَ يَخَافُ ذُنُوبَهُ الْقَدِيمَةَ، وَلاَ يَرْتَدِعُ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ، يَتَوَانَىٰ عَنِ الْبِرِّ وَيُبْطِىءُ عَنْهُ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ لِمَا فَاتَهُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ ضَيَّعَهُ، فَتِلْكَ عَشْرُ خِصَالٍ مِنْ صِفَةِ الْجَاهِلِ الَّذِي حُرِمَ الْعَقْلَ»[١].

آداب النفس:

قال ﷺ: «لاَ مَالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ. وَلاَ وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ. وَلاَ عَقْلَ كَالتَّدبُّرِ. وَلاَ حَزْمَ كَالتَّقْوىٰ، وَلاَ قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلاَ مِيزَانَ كَالأَدَبِ، وَلاَ فَائِدَةَ كَالتَّوْفِيقِ، وَلاَ تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلاَ رِبْحَ كَثَوابِ اللَّهِ، وَلاَ وَرَعَ كَالْوقُوفِ عِنْدَ الشُّبهَةِ، وَلاَ زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ، وَلاَ عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ، وَلاَ عِبَادَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَلاَ إِيمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ، وَلاَ حَسَبَ كَالتَّوَاضُعِ، وَلاَ شَرَفَ كَالْعِلْمِ، وَلاَ مَظَاهِرَ كَالْمُشَاوَرَةِ، فَاحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا حَوَىٰ، وَالْبَطْنَ وَمَا وَعىٰ، وَاذْكُرِ الْمَوْتَ وَطُولَ الْبِلَىٰ»[٢].

السخاء:

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ـ تَعَالَىٰ ـ اسْتَخْلَصَ هَذَا الدِّينَ لِنَفْسِهِ، وَلاَ يَصْلُحُ لِدِينِكُمْ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ أَلَا فَزَيِّنُوا دِينَكُمْ بِهِمَا»[٣].

فعل الخير:

قال ﷺ: «إِفْعَلُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُم، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٌ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَسَلُوا اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ، وَيُؤْمِنَ رَوْعَاتِكُمْ»[٤].

(٤) تحف العقول: ص٢٨.
(١) تحف العقول: ص٢٩.
(٢) نثر الدرر: ١/ ١٧١.
(٣) سراج الملوك: ص٢٤٧.
(٤) الشهاب: ص١٢.

خيانة الأمانة:

أُثر عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «يُؤْتَىٰ بِصَاحِبِ الأَمَانَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: أَدِّ أَمَانَتَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيا، فَيُقَالُ: اذْهَبوا بِهِ إِلَىٰ الْهَاوِيَةِ، فَيَهْوِي فِيهَا حَتَّىٰ يَنْتَهِي إِلَىٰ قَعْرِهَا، فَيَجِدُهَا هُنَاكَ كَهَيْئَتِهَا، فَيَحْمِلُهَا فَيَضَعُها عَلَىٰ عَاتِقِهِ، ثُمَّ يَصْعَدُ بِهَا حَتَّى إِذَا رَأَىٰ قَدْ خَرَجَ زَلَّتْ فَهَوتْ، وَهَوىٰ فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الآبِدِينَ»[1].

شهادة الزور:

قال ﷺ: «إِنَّ الطَّيْرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَتَضْرِبُ بِمَنَاقِيرِهَا، وَتَقْذِفُ بِمَا فِي حَواصِلِها، وَتُحرِّكُ أَذْنَابَهَا مِنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا يُكَلِّمُ شَاهِدُ الزُّورِ، وَلاَ تَقَرُّ قَدَمَاهُ فِي الأَرْضِ حَتَّى يُقْذَفَ بِهِ فِي النَّارِ»[2].

التكبُّر:

وقال ﷺ: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، وَاخْتَالَ فِي مَشْيَتِهِ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجعلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبانٌ»[3].

المكر:

قال ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْمَكْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ قَضىٰ أَنْ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»[4].

الكذب:

قال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْكِذْبَ، فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَتَحَدَّثُوا الصِّدْقَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرِّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ»[5].

الحرص:

وقال ﷺ: «يَهْرَمُ ابْنَ آدَمَ، وَتَشِبُّ مَعَهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَىٰ الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَىٰ الْعُمْرِ»[6].

---

(١) الجامع الصغير: ٢/ ٨٥. التذكرة الحمدونيَّة: ٣/ ٩.
(٢) مجمع الزوائد: ٤/ ٢٠٠.
(٣) مجمع الزوائد: ١/ ٩٨.
(٤) التذكرة الحمدونيَّة: ١/ ٤٨.
(٥) مجمع الزوائد: ١/ ٩٣.
(٦) نهاية الإرب: ٣/ ٣٧٦.

الفخر:

قال ﷺ: «النَّاسُ لآدَمَ وَحَوَّاء، كَطَفِّ الصَّاعِ لَنْ تَمْلُؤُهُ. إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْأَلُ عَنْ أَحْسَابِكُمْ، وَلاَ يَسْأَلُ إِلَّا عَنْ أَعْمَالِكُمْ. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»(١).

الظلم:

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَىٰ مُنَادٍ: أَيْنَ الظَّلَمَةُ، وَأَعْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَشْبَاهُ الظَّلمة، حَتَّىٰ مَنْ بَرَىٰ لَهُمْ قَلَماً أَوْ لاَقَ لَهُمْ دواةً، فَيَجْتَمِعُونَ فِي تَابُوتِ حَدِيدٍ ثُمَّ يُلْقَىٰ بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ»(٢).

الإعانة على الباطل:

قال النبيّ ﷺ: «مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ بَاطِلٍ لِيَدْحَضَ بِبَاطِلِهِ حَقّاً فَقَدْ بَرِىءَ مِنْ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ»(٣).

خمس خصال:

أدلى النبيّ ﷺ بخمس خصال توجب كمال الإنسان وصدق إيمانه.

قال ﷺ: «لاَ يُكمِلُ عَبْدٌ الإِيمَانَ حَتَّىٰ يَكُونُ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ: التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللَّهِ، وَالتَّفْوِيضُ إِلَىٰ اللَّهِ، وَالتَّصْدِيقُ لأَمْرِ اللَّهِ، وَالرِّضىٰ بِقَضاءِ اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ بَلاَءِ اللَّهِ، إِنَّهُ مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ ـ تَعَالَىٰ ـ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَىٰ لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيْمَانَ»(٤).

القناعة:

قال ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفافاً، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»(٥).

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ٤/ ١٤٥.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٨٣٤.
(٣) مجمع الزوائد: ٤/ ٢٠٥ و: ٥/ ٢١١.
(٤) اللآلي المصنوعة: ١/ ٣٠٢.
(٥) التذكرة الحمدونيّة: ٣/ ٢١١.

الاستغفار:

قال النبيّ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ»، قالوا: يا رسول الله، كيف يدخله الجنَّة؟

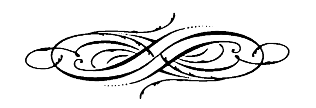
قال ﷺ: «يَكُونُ نَصْبَ عَيْنَيْهِ تَائِباً عَنْهُ مُسْتَغْفِراً حَتَّىٰ يَدْخُلَ بِهِ الْجَنَّةَ»(١).

أحبّ النَّاس للنبيّ ﷺ:

تحدَّث النبيّ ﷺ عن أحبّ أوليائه وأعزَّهم عنده، قال: «أَغْبَطُ النَّاسِ عِنْدِيْ مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَالِ، ذُوْ حَظٍّ مِنْ صَلاَةٍ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفافاً فَصَبَرَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللَّهَ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ، وَكَانَ غَامِضاً فِي النَّاسِ، عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ وَقَلَّ تُرَاثُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ»(٢).

الجهاد في سبيل الله:

قال رسول الله ﷺ: «أَقْرَبُ الْعَمَلِ إِلَىٰ اللَّهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يُقَارِبُهُ شَيْءٌ»(٣).



(١) محاضرات الراغب: ١/ ٤٠٨.
(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٥/ ٥٢.
(٣) كنز العمَّال: ٤/ ٢٨٥.

الكلمات القصار

أُثرت عن النبيّ ﷺ كوكبة من الحكم القصار التي هي من ذخائر البيان، ومن مناجم الأدب والحكمة، وهي على إيجازها تمثِّل روعة البلاغة والفصاحة، وقد حكت الآداب الإسلاميَّة الحافلة بمقوِّمات الارتقاء والنهوض، وهذا عرض لبعضها:

- «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟ اِرْحَمِ الْيَتِيمَ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ يَلِنْ قَلْبُكَ، وَتُدْرِكْ حَاجَتَكَ».
- «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ مَنْ أَطْعَمَ مِنْ جُوعٍ، أَوْ دَفَعَ عَنْهُ مَغْرَماً، أَوْ كَشَفَ عَنْهُ كَرْباً».
- «أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَىٰ اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِبَادِهِ، وَأَقْوَمُهُمْ بِحَقِّهِ، الَّذِينَ يُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوف وَفِعَالَهُ».
- «أَحْسِنُوا جِوَارَ نِعَمِ اللَّهِ لاَ تَنْفِرُوها فَقَلَّمَا زَالَتْ عَنْ قَوْمٍ فَعَادَتْ إِلَيْهِمْ».
- «ادْرَؤُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ، وَأَقِيلُوا الْكِرَامَ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ».
- «إِذَا اسْتَشَاطَ السُّلْطَانُ تَسَلَّطَ الشَّيْطَانُ».
- «إِذَا سَادَ الْقَوْمَ فَاسِقُهُمْ، وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَذَلَّهُمْ، وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ الْفَاسِقُ، فَلْيَنْتَظِرِ الْبَلاَءَ».
- «إِذَا قَدَرْتَ عَلَىٰ عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ».
- «إِذَا كَانَ عِنْدَكَ مَا يَكْفِيكَ فَلاَ تَطْلُبْ مَا يُطْغِيكَ».
- «أَرْبَعٌ مِنْ عَلاَمَاتِ الشَّقَاءِ: جُمُودُ الْعَيْنِ، وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ، وَشِدَّةُ الْحِرْصِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، وَالإِصْرَارُ عَلَىٰ الذَّنْبِ».
- «أَرْبَعَةٌ قَلِيلُهَا كَثِيرٌ: الْفَقْرُ، وَالْوَجَعُ، وَالْعَدَاوَةُ، وَالنَّارُ».
- «اسْتَعِينُوا عَلَىٰ أُمُورِكُمْ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ».
- «أُطْلُبِ الْعَافِيَةَ لِغَيْرِكَ تُرْزَقْهَا فِي نَفْسِكَ».

ـ «أُطْلُبُوا الْفَضْلَ عِنْدَ الرُّحَمَاءِ مِنْ أُمَّتِي تَعِيشُوا فِي أَكْنَافِهِمْ، وَلاَ تَطْلُبُوهُ مِنَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ».

ـ «أَعْدَلُ النَّاسِ مَنْ رَضِيَ لِلنَّاسِ مَا يَرْضىٰ لِنَفْسِهِ، وَكَرِهَ لَهُمْ مَا كَرِهَ لِنَفْسِهِ».

ـ «أَفْضَلُ الأَصْحَابِ مَنْ إِذَا ذَكَرْتَ أَعَانَكَ، وَإِذَا نَسِيْتَ ذَكَّرَكَ».

ـ «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ أَنْ تُدْخِلَ عَلَىٰ أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ سُرُوراً، أَوْ تَقْضِيَ عَنْهُ دَيْناً».

ـ «أَفْضَلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصْفَحَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

ـ «أَكْثَرُ النَّاسِ قِيمَةً أَكْثَرُهُمْ عِلْماً».

ـ «أَكْرِمُوا الْعُلَمَاءَ فَإِنَّهُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، فَمَنْ أَكْرَمَهُمْ فَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

ـ «أَلَا لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثُهُمَا الشَّيْطَانَ».

ـ «إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَىٰ اللَّهِ مَنْ حَبَّبَ إِلَيْهِ الْمَعْرُوفَ وَحَبَّبَ إِلَيْهِ فِعَالَهُ».

ـ «إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضاً فِي الْبَاطِلِ».

ـ «إِنَّ السَّعَادَةَ كُلَّ السَّعَادَةِ طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ».

ـ «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّ الْكِذْبَ فِي الصَّلاَحِ، وَأَبْغَضَ الصِّدْقَ فِي الْفَسَادِ».

ـ «إِنَّ اللَّهَ جَبَلَ قُلُوبَ عِبَادِهِ عَلىٰ حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا».

ـ «إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الزَّانِي، وَالْغَنِيَّ الظَّلُومَ، وَالْفَقِيرَ الْمُخْتَالَ، وَالسَّائِلَ الْمُلْحِفَ، وَيُحْبِطُ أَجْرَ الْمُعْطِي الْمَنَّانِ، وَيَمْقُتُ الْبَذِيخَ الْجَرِيَّ الْكَذَّابَ».

ـ «اِعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً».

ـ «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَصْدَءُ كَمَا يَصْدَءُ الْحَدِيدُ». قيلَ: فَمَا جلاءُها؟ قَالَ: «ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَتِلاَوَةُ الْقُرْآنِ».

ـ «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ».

ـ «إِيَّاكُمْ وَتَخَشُّعَ النِّفَاقِ، وَهُوَ أَنْ يُرَىٰ الْجَسَدُ خَاشِعاً وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ».

ـ «إِيَّاكَ وَخَصْلَتَيْنِ: الضَّجَرَ، وَالْكَسَلَ، فَإِنَّكَ إِن ضَجِرْتَ لَمْ تَصْبِرْ عَلَىٰ حَقٍّ، وَإِن كَسِلْتَ لَمْ تُؤَدِّ حَقّاً».

ـ «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ، وَالْكِذْبُ يَنْقُصُ الرِّزْقَ، وَالدُّعَاءُ يَرُدُّ الْقَضَاءَ».

ـ «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ، وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَتَهْلِكُوا».

ـ «تَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ مِنْهُ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَهُ، وَلاَ تَكُونُوا جَبَابِرَةَ الْعُلَمَاءِ».

ـ «ثَلاثَةٌ مُجالَسَتُهُمْ تُمِيتُ الْقَلْبَ: الْجُلُوسُ مَعَ الأَنْذَالِ، وَالْحَدِيثُ مَعَ النِّسَاءِ، وَالْجُلُوسُ مَعَ الأَغْنِيَاءِ».

ـ «حُسْنُ الْخُلُقِ يَبْلُغُ بِصَاحِبِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ». فَقِيلَ لَهُ: ما أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ؟ قَالَ: ـ «حُسْنُ الْخُلُقِ».

ـ «الْحَيَاءُ حَيَاءَانِ: حَيَاءُ عَقْلٍ، وَحَيَاءُ حُمْقٍ، فَحَيَاءُ الْعَقْلِ الْعِلْمُ، وَحَيَاءُ الْحُمْقِ الْجَهْلُ».

ـ «خَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا مِنَ الْبِرِّ شَيْءٌ: الإِيْمَانُ بِاللَّهِ، وَالنَّفْعُ لِعِبَادِ اللَّهِ».

ـ «خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ».

ـ «دَعْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ».

ـ «الدُّنيا دُوَلٌ، فَمَا كَانَ لَكَ أَتَاكَ عَلَىٰ ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدفَعْهُ بِقُوَّتِكَ».

ـ «رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الإِيْمَانِ بِاللَّهِ الْحَيَاءُ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

ـ «رَحِمَ اللَّهُ امْرَءاً أَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مَنْ مَالِهِ».

ـ «رَوِّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بِسَاعَةٍ».

ـ «سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحداً لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْراً مِنَ الْعَافِيَةِ».

ـ «الشَّيْخُ شَابٌّ فِي حُبِّ اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ طُولِ الْحَيَاةِ، وَكَثْرَةِ الْمَالِ».

ـ «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

ـ «عَجَباً لِلْمُؤْمِنِ لاَ يَقْضِي اللَّهُ عَلَيْهِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْراً لَهُ، سَرَّهُ أَوْ سَاءَهُ، إِنِ ابْتَلاَهُ كَانَ كَفَّارَةً لِذَنْبِهِ، وَإِنْ أَعْطَاهُ وَأَكْرَمَهُ كَانَ قَدْ حَبَاهُ».

ـ «عَدْلُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ».

ـ «عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَا أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ».

ـ «عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ».

ـ «فُضُوحُ الدُّنْيا أَهْوَنُ مِنْ فُضُوحِ الآخِرَةِ».

ـ «كَثْرَةُ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ».

ـ «كَفَىٰ بِالدَّهْرِ وَاعِظاً وَبِالْمَوْتِ مُفَرِّقاً».

- «كَفَىٰ بِالْمَوْتِ وَاعِظاً، وَكَفَىٰ بِالتُّقَىٰ غِنىً، وَكَفَىٰ بِالْعِبَادَةِ شُغْلاً، وَكَفَىٰ بِالْقِيَامَةِ مَوئِلاً وَبِاللَّهِ مُجَازِياً».

- «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ اتْبَعَ نَفْسَهُ هِوَاهَا، وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللَّهِ الأَمَانِيّ».

- «لاَ تَضَعُوا الْحِكْمَةَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا، وَلاَ تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ».

- «لاَ عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلاَ وَرَعَ كَالْكَفِّ، وَلاَ حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ».

- «لاَ يَشْبَعُ عَالِمٌ مِنْ عِلْمِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةَ».

- «وَلِلْكَسْلاَنِ ثَلاَثُ عَلاَمَاتٍ: يَتَوانَىٰ حَتَّى يُفَرِّطَ، وَيُفَرِّطُ حَتَّىٰ يُضَيِّعَ، وَيُضَيِّعُ حَتَّىٰ يَأْثَمَ».

- «لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ النَّاسِ زَمانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ».

- «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَىٰ جَنْبِهِ».

- «مَا مِنْ صَدَقَةٍ أَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ».

- «مَا هَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ».

- «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ».

- «مَنْ أَتَىٰ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَأَثْنُوه فَإِنَّ الثَّنَاءَ جَزَاءٌ».

- «مُرُوءَتُنا أَهْلَ الْبَيْتِ الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَنَا، وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَنا».

- «مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعاً لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعاً: مَنْ أُعْطِيَ الإِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الإِجَابَةَ».

- «مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَىٰ النَّاسِ وَأَنْتَ طَلِقُ الْوَجْهِ».

- «مَنْ جَادَلَ فِي خُصُومَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّه حَتَّىٰ يَنْزَعَ».

- «مَنْ خَافَ النَّاسُ لِسَانَهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

- «مَنْ طَلَبَ رِضىٰ مَخْلُوقٍ بِسَخَطِ الْخَالِقِ سَلَّطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ».

- «مَنْ قَلَّ طَعْمُهُ صَحَّ بَدَنُهُ، وَمَنْ كَثُرَ طَعْمُهُ سَقُمَ بَدَنُهُ، وَقَسا قَلْبُهُ».

- «مَنْ كَثُرَ هَمُّهُ سَقُمَ بَدَنُهُ، وَمَنْ سَاءَ خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ، وَمَنْ لاَحَىٰ الرِّجَالَ ذَهَبَتْ مُرُوَّتُهُ وَكَرَامَتُهُ».

ـ «الْمُؤْمِنُ مَنْفَعَةٌ؛ إِنْ مَاشَيْتَهُ نَفَعَكَ، وَإِنْ شَاوَرْتَهُ نَفَعَكَ، وَإِنْ شَارَكْتَهُ نَفَعَكَ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ مَنْفَعَةٌ».

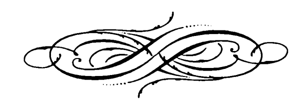
ـ «النَّدَمُ تَوْبَةٌ».

ـ «نَوْمٌ عَلَىٰ عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ صَلاَةٍ عَلَىٰ جَهْلٍ».

ـ «الْوَيْلُ لِمَنْ تَرَكَ عِيَالَهُ بِخَيْرٍ، وَقَدِمَ عَلَىٰ رَبِّهِ بَشَرٍّ».

ـ «الْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ».

ـ «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ».



واقعة بدرٍ

احتلَّت واقعة بدر مركزاً مهمَّاً في تاريخ الإسلام، فقد فتح الله تعالى بها الفتح المبين، والنصر الحاسم لعبده ورسوله محمَّد ﷺ، وأعزَّ دينه، وأذلَّ أعداءه، وقهر خصومه الذين انطوت أفكارهم على الجهل والغطرسة والأنانيَّة.

لقد كانت واقعة بدر بداية لارتفاع راية الإسلام وفتوحاته، واندحار معالم الجاهليَّة.

المعركة:

بدأت المعركة صباح يوم الجمعة في يوم السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة (٢هـ) المصادف ١٥ كانون الثاني سنة (٦٢٤م)، وقد فتح القرشيّون باب الحرب، فقد برز منهم عتبة بن ربيعة، وشيبة والوليد، وهم أبطال قريش، وانبرى إليهم كوكبة من فتيان الأنصار فزهد فيهم عتبة، وأخذته العزَّة بالإثم، وقال له: «لا نريد هؤلاء، ولكن نريد أن يبارزنا بنو أعمامنا من بني عبد المطّلب»، فندب إليهم النبيّ ﷺ أخاه وابن عمِّه الإمام أمير المؤمنين وحمزة وعبيدة، فرضوا بهم أكفاء كراماً، وبرز حمزة إلى شيبة فقتله، وبرز الإمام إلى الوليد فاختطفه بسيفه الذي كان منجل الموت، وبرز عبيدة إلى عتبة، فأثبت كلّ منهما سيفه في رأس صاحبه، فبادر الإمام وحمزة، فمزَّقا جسد عتبة بسيفهما، وامتلئت قلوب القرشيِّين غيظاً وفزعاً، فقد هوت إلى الأرض جثث أعمدتهم هامدة لا حراك فيها.

دعاء النبيّ ﷺ:

وتوجَّه النبيّ ﷺ إلى الخالق العظيم بخشوع يدعوه أن ينصر المسلمين بنصره الذي لا غالب له قائلاً:

«اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشُ قَدْ أَتَتْ بِخُيَلائِها تُحَاوِلُ أَنْ تُكَذِّبَ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْركَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلَكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ الْيَوْمَ لاَ تُعْبَد...».

وما زال مادّاً يده يدعو الله تعالى، وهو أشدّ ما يكون تضرُّعاً وخشوعاً وإيماناً بالنصر الحاسم الذي وعده الله تعالى به وهو لا يخلف الميعاد.

المعركة الحاسمة:

والتحم الجيشان كأشدّ ما يكون الالتحام يريد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله أن ينصروا الله ورسوله وتعلو كلمة الإسلام، ويريد القرشيّون أن ينصروا أصنامهم وأوثانهم وتقاليدهم، وقد قذف الله تعالى في قلوب القرشيِّين الفزع والخوف، وأخذت سيوف المسلمين تحصد رؤوسهم، وتهوي جثثهم إلى الأرض.

بسالة الإمام:

وأبدى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من البسالة والصمود ما لا يوصف، فقد كان القوَّة الضاربة في جيش الرسول صلى الله عليه وآله، فقد غاص في أوساط القرشيِّين يحصد رؤوسهم، ويشيع فيهم القتل والدمار، وقد بهرت الملائكة من قوَّة بأسه، وعظيم إيمانه، فنادى جبرئيل:

«لا سيف إلاَّ ذو الفقار[١]، ولا فتى إلاَّ عليّ»[٢].

وكتب الله تعالى للإمام عليه السلام أن يفوز بنصر الإسلام وأن ترتفع رايته بيده.

النصر المبين:

ونصر الله تعالى نبيّه ورسوله وأعزَّه، وأذلَّ أعداءه، فقد تلاشت أجسام المشركين، وانتشرت جيفهم على أرض المعركة، تلاحقهم اللعنة والعذاب الدائم، وهلك في هذه المعركة جميع الرؤوس والضروس المعادية لرسول الله صلى الله عليه وآله والغارقة في الحقد عليه كان منهم:

١ ـ أبو جهل.

٢ ـ أُميَّة بن خلف.

٣ ـ عقبة بن أبي معيط.

٤ ـ النضر بن الحارث.

٥ ـ عتبة بن ربيعة.

٦ ـ شيبة بن ربيعة.

---

(١) سمِّي هذا السيف بذي الفقار لأنَّه كانت له فقرات كفقرات الظهر.

(٢) كنز العمَّال: ٣/ ١٥٤ وغيره.

خطاب النبيّ على أهل القليب:

وقف النبي ﷺ على شفير القليب وخاطب القتلى قائلاً: «**يَا أَهْلَ القَليب! يَا عُتْبَة بْن رَبِيعة! وَيَا شَيْبَة بْن رَبِيعَة! وَيَا أُميَّة بْن خَلَف! وَيَا أَبَا جَهْل بْن هِشَام**..» وعدَّد عصابة من الذين بالغوا في التنكيل به قائلاً:

«**هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدكُمْ رَبّكُمْ حَقّاً؟ فَإِنّي قَدْ وَجَدتُ مَا وَعَدنِي رَبِّي حَقّاً**».

وبهر أصحاب النبيّ ﷺ من خطابه للقتلى قائلين: «يا رسول الله، أتنادي قوماً قد جيفوا؟».

فأجابهم النبيّ ﷺ:

«**وَمَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُونِي**».

إنَّ الأرواح لا تفنى ولا تبلى، وإنَّما الأجسام هي التي تَبلى وتعود إلى عنصرها الذي تكوَّنت منه.. وفي رواية أنَّ النبيّ ﷺ قال لأهل القليب:

«**يا أَهْلَ القَلِيبِ، بِئْسَ الْعَشِيرَةِ الَّتِي كُنْتُم لَنَبِيِّكُم؛ كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسُ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ**».

لقد أعزَّ الله تعالى عبده ورسوله ونصره على أُولئك الفسقة الأقزام الذين جهدوا على إطفاء نور الإسلام، وإعادة الحياة الجاهليَّة الآثمة إلى مسرح الحياة.

الأسرى من قريش:

وقع سبعون أسيراً من قريش[1] بأيدي القوَّات المسلَّحة من جيش النبيّ ﷺ فأخذ من بعضهم الجزية وأطلق سراحهم، وكانت جزية أحدهم أربعة آلاف درهم، وتسابق القرشيّون إلى إعطاء الفدية عن أسراهم، وقد أوصى النبيّ ﷺ بالأسارى خيراً، وكان مَن لا يتمكَّن من دفع الجزية وهو يحسن القراءة والكتابة أمره النبيّ ﷺ بتعليم أبناء المسلمين بدل الجزية، وقد أقام بذلك أوَّل صرح في عاصمته لمحو الأُميَّة.

انتصار الإسلام:

وانتصر الإسلام انتصاراً رائعاً بعد انتهاء واقعة بدر، فقد قويت شوكة المسلمين،

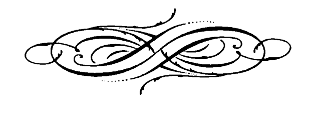
---

(١) تاريخ أبي الفداء: ١/١٣٦. تاريخ الطبري: ٢/١٣٥.

وأكسبتهم قوَّة نفسيَّة هائلة، فهي أُمّ الفتوح التي شجَّعتهم على الخوض في أعنف المعارك التي شنَّها عليهم أعداء الإسلام، لقد انتهت معركة بدر، وقد تقلَّد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيها وسام شرف، فقد كان سيفه فيها منجل الموت الذي حصد به رؤوس القرشيِّين الذين ما آمنوا بالله طرفة عين حتَّى بعد إعلانهم المزيَّف للإسلام، وأنَّ جميع ما عاناه المسلمون من الأزمات كانت من صنعهم وتدبيرهم.

فزع المشركين:

أحدث انتصار الإسلام في واقعة بدر موجة من الفزع والخوف في نفوس المشركين من العرب؛ لأنَّ قريش التي هي أقوى العرب في نفوذها وإمكانيَّاتها الاقتصاديَّة قد تحطَّمت، وفقدت أهمّ أعمدتها في صراعها مع الإسلام، وأيقنت العرب أنَّها لا تستطيع أن تقف أمامه، وأنَّه قوَّة لا تُقهر.



واقعة أُحُدٍ

استقبلت قريش نبأ هزيمتهم المنكرة، وخسائرهم الفادحة بالأنفس والأموال في معركة بدر بمزيد من الأسى واللوعة، وساد فيهم حزن عميق، وأسى مرير، وكان من أشدَّهم لوعة أبو سفيان وزوجته هند أُمّ معاوية، فقد حرَّمت على نفسها وعلى الرجال والنساء من قريش البكاء على قتلاهم حتَّى يظلّ الحزن كامناً في نفوسهم لا يطفأ إلاَّ بأخذ الثأر من المسلمين.

كان أبو سفيان قائد قريش في واقعة أُحد، والزعيم الأوَّل في هذه المعركة.

وأجمعت قريش على حرب رسول الله ﷺ وتبعها قبائل كنانة، وأهل تِهامة وأحابِيشهم، فكان عددهم فيما يقول المؤرّخون ثلاثة آلاف، وجيش المسلمين سبعمائة.

وخرجت قريش عن بكرة أبيها لحرب رسول الله ﷺ تصحبهم نساؤهم؛ لأنَّه أدعى للتفاني في الحرب.

وكانت هند تبعث الحماس في نفوس الرجال، وزوجها يتقدَّم أرجاس المردة والطغاة، ويحرِّضهم على الخوض في الحرب لإطفاء نور الله تعالى، وإخماد رسالة الإسلام.

مشاورة النبيّ لأصحابه:

كان النبيّ ﷺ في معظم أُموره السياسيَّة والعسكريَّة يستشير أصحابه فيها ما لم ينزل عليه الوحي من السَّماء، وقد عرض على أصحابه الخروج من المدينة لصدِّ عدوان المعتدين من قريش، أو الإقامة في المدينة، فإذا جاء العدو قاتلوه فيها، واختلف رأي أصحابه، فكان رأي عبد الله بن أُبيّ بن سَلول الإقامة في المدينة، وقال آخرون: «يا رسول الله، اخرُج بنا إلى أعدائنا لا يَروْن أنَّا جَبُنَّا وضَعُفنا»، واستجاب لهم النبيّ ﷺ على كره، فدخل بيته ولبس لامته، وذلك في يوم الجمعة، وخرج معه ألف مقاتل.

انخذال المنافقين:

وزحف الرسول ﷺ بجيشه لصدّ العدوان عليه، فلمَّا كان الشَّوْط بين المدينة وأُحد

انخذل عنه عبد الله بن أُبيّ بن سَلول، وهو من رؤوس المنافقين، ومعه ثلث عسكر النبيّ، وناداهم عبد الله بن عَمرو بن حَرَام برفيع صوته:

«يا قوم، أذكِّركم الله ألاَّ تخذُلوا قومَكم ونَبيّكم عندما حَضَر من عدوّهم..».

فلم يستجيبوا له، واعتذروا بأعذار واهية، فقال لهم:

«أبعدكم الله أعداء الله، فسُيغْني الله عنكم نبيّه..».

وانصرف النبيّ ﷺ عنهم ومعه سبعمائة مقاتل.

نزول النبيّ ﷺ بالشِّعب:

وسار الرسول ﷺ بجيشه لا يلوي على شيء، حتَّى نزل الشِّعب في عُدْوة الوادي إلى الجَبل، واستدبر جبل أُحد، وأقام عليه خمسين رجلاً من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير، وألزمهم بالإقامة على الجبل لا يريمون عنه ليحفظ المسلمين من خلفهم، وقال ﷺ لعبد الله:

«انْضَحِ الخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ لاَ يَأْتونا مِنْ خَلْفِنا، إنْ كَانَتْ لَنا أَوْ عَلَيْنا، لاَ تُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكْ».

وفي رواية: أنَّ النبيّ ﷺ قال للرماة على الجبل: **«إنْ رَأَيْتُمونا تَتَخَطَّفُنا فَلاَ تَبْرَحوا حَتَّىٰ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمونا ظَهَرْنا عَلَىٰ الْقَوْمِ وَأَوْطَأْنَاهُم فَلاَ تَبْرَحوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»**(١).

الحرب:

وفتحت قريش باب الحرب على المسلمين، فقد برز إلى الساحة طلحة بن أبي طلحة، وكان من فرسان قريش رافعاً صوته قائلاً:

«يا أصحاب محمَّد، تزعمون أنَّ الله ـ تعالى ـ يعجِّلنا بأسيافكم إلى النَّار، ويعجِّلكم بأسيافنا إلى الجنَّة، فأيّكم يبرز إليَّ؟».

فبرز إليه بطل الإسلام، وأسد الله ورسوله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: **«وَاللَّهِ! لاَ أُفَارِقُكَ حَتَّىٰ أُعَجِّلَكَ بِسَيْفِي إِلَىٰ النَّارِ»**.

وبادره بضربة برا بها رجله فسقط إلى الأرض صريعاً يتخبَّط بدمه، وأراد الإمام أن يجهز عليه، فناشده الله والرحم أن يتركه، فتركه ولم يلبث إلاَّ ساعة حتَّى هلك.

---

(١) السيرة الحلبيَّة: ٢/٢٢٢.

وبرز بعد طلحة أبطال قريش وشجعانها، فانبرى إليهم بطل الإسلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فحصد رؤوسهم بسيفه، وقد انهارت معنويَّاتهم، وأيقنوا بالهلاك.

النبي ﷺ مع أبي دجانة:

كان أبو دجانة من خيار الصحابة، وكان شجاعاً يختال الأعداء عند الحرب، وكان بيد رسول الله ﷺ سيف، فقال: **«مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيف بِحَقِّهِ؟»**.

فانبرى إليه أبو دجانة فقال: «ما حقَّه يا رسول الله؟».

«أَنْ تَضْرِبَ بِهِ فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ حَتَّى يَنْحَنِي».

«أنا آخذه يا رسول الله بِحَقِّه».

فناوله النبيّ إيَّاه، فأخذه وتعصَّب بعصابة حمراء وحمل على المشركين، فكان لا يلقى أحداً إلاَّ قتله، وحمل على هند أُمّ معاوية حتَّى بلغ سيفه مَفْرِق رأسها، إلاَّ أنَّه عدل عن ذلك ترفُّعاً منه[١].

مصرع الشهيد حمزة:

أبدى الشهيد الخالد حمزة بن عبد المطّلب من البسالة ما لا يوصف، فقد وقف بإيمان وعزم مدافعاً عن دين الله تعالى، وهو يجندل الأبطال ويروي الأرض من دماء أُولئك الوحوش الكاسرة التي انطوت نفوسهم على الكفر والرذائل، فكان القوَّة الضاربة في جيش الإسلام، ونعرض ـ بإيجاز ـ إلى بعض فصول شهادة بطل الإسلام حمزة سلام الله عليه.

اغتيال حمزة:

أمَّا الذي اغتال حمزة فإنَّه من أرجاس الجاهليَّة، وهو وحشي، ولم ينبعث من تلقاء نفسه إلى القيام بهذه العمليَّة، وإنَّما بعثه إلى ذلك:

هند أُمّ معاوية؛ لأنَّها قد وترت في واقعة بدر بأعمدة أُسرتها، وقد وعدت وحشياً بالخير الكثير إن قام باغتيال حمزة. وجُبير بن مُطعم مولى وحشي، وقد وعده بالعتق والحرية إن اغتال حمزة.

---

(١) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ٣/ ٧٣.

التمثيل بجسده الطاهر:

وطارت هند أُمّ معاوية فرحاً بقتل الشهيد حمزة، وسارعت إلى أرض المعركة تفتِّش عن جثمانه لتروي حقدها من جسده، ولمّا انتهت إليه عمدت إلى بقر بطنه، واستخرجت كبده فلاكتها، ولم تستطع أن تُسِيغها[1]، فَلفَظَتها وجدّعت أنفه وأُذنيه ومذاكيره، واتّخذتها قلادة لها.

مكافأة وحشي:

شكرت هند بمزيد من التقدير لوحشي لاغتياله حمزة، فأعطته خدمها وقلائدها وقرطها[2].

لوعة النبيّ ﷺ على عمِّه:

مضى النبيّ مع كوكبة من أصحابه يفتِّش عن جثمان عمِّه حتَّى انتهى إليه، فلمَّا رآه، ويا لهول ما رأى، فقد نظر إليه وقد مُثِّل به، فراح يقول بأسى وحزن وغيظ:

«لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَداً، مَا وَقَفْتُ مَوْقِفاً قَطُّ أَغْيَظَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا، لَوْلاَ أَنْ تَحْزَنَ صَفِيَّةُ وَيَكُونَ سُنَّةً مِنْ بَعْدِي لَتَرَكْتُهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ فِي بُطُونِ السِّبَاعِ، وَحَواصِلِ الطُّيُورِ، وَلَئِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَىٰ قُرَيْشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنَ الْمَوَاطِنِ لأُمَثِّلَنَّ بِثَلاَثِينَ رَجُلاً مِنْهُمْ»[3].

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[4].

فصبر رسول الله ﷺ، وعفا ونهى عن المُثلة ولو بالكلب العقور.

مصرع الشهيد مصعب:

كان مصعب من أنبل فتيان قريش، ومن أتقى المسلمين في إيمانه وجهاده، فقد أبلى في الله بلاءً حسناً، وصبر على ما عاناه من ألوان التعذيب، ومن صنوف المحن والخطوب. وقد أبلىٰ في المعركة بلاءً حسناً، واستشهد فيها.

---

(١) تسيغها: تبلعها.
(٢) السيرة النبويَّة/ابن كثير: ٣/ ٩١.
(٣) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ٢/ ٩٥.
(٤) سورة النحل: الآيتان ١٢٦ و١٢٧.

اندحار المشركين:

وأباد المسلمون وعلى رأسهم الإمام أمير المؤمنين حملة ألوية المشركين، وسقط معظم قادتهم، وولّى جيشهم الأدبار لا يلوون على شيء، وخلفهم نساؤهم ينادين بالويل والثبور حتّى قصدن الجبل كاشفات سيقانهنَّ، وهنَّ بأقصى مكان من الذلِّ والهوان[١]، ولكن لم يمض إلاَّ قليل من الوقت حتّى انعكس الأمر.

هزيمة المسلمين:

وتكبَّد المسلمون أفدح الخسائر في الأرواح، فقد نزلت بهم كارثة مدمِّرة كادت تلفُّ لواء الإسلام، ويعود السبب في ذلك إلى مخالفة الرماة الذين أقامهم النبيّ ﷺ على الجبل لحماية جيشه لئلاَّ يأتيهم العدوّ من خلفهم، وقد ألزمهم الإقامة بمواضعهم، وأن لا يفارقوه في جميع الأحوال، ولمَّا تعرَّضت قريش إلى هزيمة منكرة تاركة وراءها أمتعتها وأسلحتها، فلمَّا رآها الرماة تركوا مواضعهم، وانسابوا إلى أرض المعركة لنهب الأمتعة والعتاد، وبصر بهم خالد بن الوليد وهو من أبطال قريش، فحمل على أصحاب النبيّ من الخلف وهم لا يشعرون، فقتل منهم كوكبة كان معظمها من القادة البارزين في جيش النبيّ ﷺ، وكانت هذه الكارثة ناجمة من مخالفة الرماة لأوامر النبيّ المشدَّدة في الحفاظ على أماكنهم لأنَّها أهمّ قاعدة عسكريَّة لا تضمن للجيش الإسلامي الظفر بالأعداء.

شعار المشركين في المعركة:

كان شعار المشركين في المعركة الذين يقاتلون من أجله: يا للعزَّىٰ، يا لهبل، ودلَّ ذلك على مدى تمسّكهم بالأصنام والأوثان.

أرجاس حاولوا قتل النبيّ ﷺ:

وأحاطت عصابة من المجرمين بالنبيّ ﷺ أرادت قتله وهم:

١ ـ عُتبة بن أبي وقَّاص:

كان عتبة بن أبي وقَّاص من أعدى النَّاس إلى رسول الله ﷺ، وقد رماه هذا الخبيث الرجس بحجر فكسر رُباعِيَّته اليُمنى والسُّفلى، وقد دعا عليه النبيّ ﷺ، وقال:

---

(١) السيرة الحلبيَّة: ٢/٢٢٦.

«اللَّهُمَّ لاَ يَحولُ عَلَيْهِ الْحَوْلُ حَتَّىٰ يَمُوتَ كَافِراً».

٢ ـ أُميَّة بن خلف:

من ألدّ أعداء النبيّ ﷺ، وكان يلقاه بمكَّة ويقول له:

«يا محمَّد، إنَّ عندي العَوْذ ـ وهو اسم لفرسه ـ أعْلفه في كلّ يوم فَرَقاً[١] من ذُرة لأقتلك عليه».

فأجابه النبيّ ﷺ:

«بَلْ أَنَا أَقْتُلُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

وقد أقبل في يوم أُحد يشتدّ كالكلب صوب النبيّ رافعاً عقيرته قائلاً للنبيّ:

«يا كذَّاب أين تفرّ؟».

فاعترضه رجال من المسلمين، فأمرهم النبيّ ﷺ أن يخلّو عنه، وتناول حربة فأطلقها عليه، فخدشت عنقه، واحتقن الدم، وصاح الرجس الخبيث:

«قتلني محمَّد».

فردَّ عليه قومه قائلين:

«ذهب والله عقلك، إنَّك لتأخذ السهام من أضلاعك فترمي بها، وما هذا عليك به من بأس إنَّما هو خدشة». وأخذ الألم منه مأخذاً عظيماً، فقال لهم:

«هذا الذي بي لو كان بأهل ذي مجاز[٢]، أو بربيعة، أو مضر، أو بأهل الأرض لماتوا أجمعين لو بصق علَيَّ لقتلني»، وهلك عدوّ الله في رجوعه إلى مكَّة.

الخطر محدق بالنبيّ ﷺ:

وبعد أن انهزم من ساحة الحرب معظم المسلمين يطاردهم الرعب والخوف أحدق الخطر بالنبيّ ﷺ، وأُصيب بجروح وغيرها في منتهى الخطورة، كان منها:

١ ـ كسر رُباعيته اليمنى والسفلى.

٢ ـ شقَّ شفته العليا، وسال الدم على سحنات وجهه الشريف، وهو يمسحه ويقول: **«كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِم وَهُوَ يَدْعُوهُم إِلَىٰ اللَّهِ».**

٢ ـ وقوعه في حفرة عملها أبو عامر وأخفاها ليسقط فيها المسلمون من حيث لا

---

(١) الفرق: مكيال يسع ستّة عشر منّاً.

(٢) ذي مجاز: سوق في الجاهليَّة.

يعلمون، وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانبه، فأخذ بيده ورفعه طلحة حتَّى استوى قائماً.

وأمر أبو سفيان منادياً ينادي في المعركة أنَّ محمَّداً قد قتل، ولمَّا سمع المسلمون فرّوا على وجوههم لا يلوون على شيء.

وقام الإمام بدور إيجابي ومتميِّز بحماية النبيّ ﷺ في الذبّ عن رسول الله ﷺ، وحمايته من الفجرة المارقين، والتفت إليه النبيّ قائلاً: **«يَا عَلِيُّ، مَا فَعَلَ النَّاسُ؟»**.

فأجابه الإمام بأسى ولوعة: **«نَقَضُوا الْعَهْدَ وَوَلُّوا الدُّبُرَ»**.

وحملت على النبيّ ﷺ عصابة من القرشيِّين، فضاق منهم ذرعاً، فقال لعليّ ﷺ: **«إِكْفِنِي هَؤُلاَءِ»**.

فحمل عليهم الإمام وكشفهم عنه، وولُّوا منهزمين، ثمَّ حملت عليه عصابة أُخرى تقارب خمسين فارساً، فقال لعليّ: **«إِكْفِنِي هَؤُلاَءِ»**، فحمل عليهم، وكان راجلاً فقتل منهم أربعة من أبناء سفيان بن عويف، كما قتل ستّة من الكتيبة الأُولى، ففي سبيل الله تعالى ما عاناه سيِّد الموحِّدين من المحن الشاقَّة في سبيل الإسلام.

وحملت كتيبة ثالثة على النبيّ ﷺ فيها هشام بن أُميَّة، فقتله الإمام، وولَّت منهزمة، وحملت عليه عصابة رابعة فيها بشر بن مالك فقتله الإمام وولَّت كتيبته منهزمة.

وهكذا قام الإمام عليه السلام بحماية رسول الله ﷺ يحصد الرؤوس، ويجندل الأبطال، وقد بهر جبرئيل من مواساته للنبيّ ﷺوعظيم جهاده، فقال للنبيّ ﷺ:

«إِنَّ هَذِهِ الْمُواسَاةَ قَدْ عَجِبَتْ مِنْهَا الْمَلاَئِكَةُ».

فقال له النبيّ ﷺ:

«وَمَا يَمْنَعُهُ وَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ؟».

فقال جبرئيل باعتزاز: «وَأَنَا مِنْكُمَا»[١].

وقال الإمام عليه السلام في هذه المحنة الحازبة ملازماً للنبيّ ﷺ وفدائيّاً له، وقد أُصيب بستّة عشر ضربة تلزمه الأرض، وما كان يرفعه إلاَّ جبرئيل[٢]، ففي ذمَّة الله ما لاقاه الإمام عليه السلام من المحن والخطوب في الذبّ عن دين الله تعالى، ونصرة الإسلام، والدفاع عن رسول الله ﷺ.

---

(١) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ١٨/٢.
(٢) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ١٨/٢.

انتهاء الحرب:

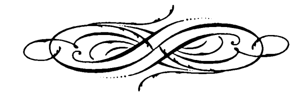
وانتهت الحرب بفوز قريش في المعركة وخذلان المسلمين، وشهادة الكثير من قادتهم، وقد أعرب النبيّ ﷺ أنَّ آخر معركة يُصاب فيها المسلمون هذه المعركة، فقد قال لأخيه، وباب مدينة علمه، الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«لاَ يَصِيبُ الْمُشْرِكُونَ مِنَّا مِثْلَهَا أَبَداً حَتَّىٰ يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَيْنَا»**[1].

سرور المنافقين واليهود:

وسرَّ المنافقون واليهود سروراً بالغاً بما مُني به المسلمون في واقعة أُحد من القتل والدمار، فقد اضطرب وتزعزع حكم الإسلام، وراحت أنديتهم تتحدَّث بسخرية واستهزاء عن مصير المسلمين، فهذا رأس المنافقين عبد الله بن أُبي سلول لم يشترك في القتال؛ لأنَّ النبيّ ﷺ لم يسمع رأيه أو لأنَّه غضب على مواليه من اليهود والنصارى، فقد كان ناعم البال، قرير العين بالخسائر التي تكبَّدها المسلمون في هذه الواقعة.

وعلى أيِّ حال، قد شمتت القوى المعادية للإسلام، وراحت تعلن فرحتها بهذه الكارثة المدمِّرة، وتمنّوا أن تتكرَّر حتَّى تنطوي راية الإسلام.

واستضعفت القبائل العربيَّة المسلمين بعد واقعة أُحد، فبعد ما كان الرعب مخيِّماً عليها، وهي تخشى بسطة الإسلام عليها، أخذت بعد ما حلَّ بالمسلمين من الدمار أن تغزوهم وتستأصلهم.



---

(١) السيرة النبويَّة/ ابن كثير: ٢/ ٨٤.

واقعة الخندق

تُعدُّ واقعة الخندق من أعنف المعارك التي خاضها المسلمون، فقد تحزَّبت القبائل على رسول الله ﷺ، ولذلك سمّيت بواقعة الأحزاب، وقد ضاق المسلمون منها ذرعاً، وساد فيهم الرعب والخوف، وقد حكى القرآن الكريم مدى الهلع والفزع الذي أصاب المسلمين. قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[1]، ونتحدَّث ـ بإيجاز ـ عن فصول هذه الواقعة التي انتصر فيها الإسلام على يد الإمام أمير المؤمنين ﷺ، فهو الذي أحرز فيها الفتح المبين، وفيما يلي ذلك:

دور اليهود:

أمَّا اليهود فكان لهم دور متميِّز في هذه المعركة، فقد خفت منهم عصابة إلى القرشيِّين يستنهضونهم لحرب رسول الله ﷺ قائلين لهم:

«إنَّا سنكون معكم عليه حتَّى نَسْتأصله».

وهتف القرشيّون بشوق ولهفة قائلين:

«يا معشر اليهود، إنَّكم أهل الكتاب الأوَّل، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه، نحن ومحمَّد أفدِينُنا خير أم دينه؟».

وسارع اليهود قائلين:

«بل دينكم ـ وهو عبادة الأوثان والأصنام ـ خير من دينه، وأنتم أوْلى بالحقّ منه».

إنَّ عبادة الأوثان خير من دين الإسلام الذي يوحِّد الله تعالى، ولا يشرك به.. إنَّ هذا هو المنطق السائد عند اليهود في جميع عصورهم، وتأريخهم شاهد بذلك، وقد حكى القرآن الكريم هذه المحاولة التي جرت بين اليهود وبين القرشيِّين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۝٥١ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٠.

نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ ـ أي النُّبوّة ـ ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾(١)(٢).

وقد استجابت قريش، وهي من ألدّ أعداء الإسلام إلى دعوة اليهود.

حفر الخندق:

لمّا علم النبيّ ﷺ خروج القرشيِّين وقبائل غطفان لحربه جمع أصحابه، وأحاطهم علماً بالأمر، وطلب منهم الرأي في اتّخاذ أهمّ وسيلة لصدّ العدوان عن المسلمين، فأشار عليهم الصحابي الجليل سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة ليمنع وصول العدوّ لهم، واستصوب النبيّ ﷺ رأيه، وقام مع أصحابه بحفر الخندق، وكان المنافقون يتسلّلون عن العمل، ويذهبون لشؤونهم بغير إذن من النبيّ ﷺ، فنزلت فيهم الآية الكريمة: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣)، أمّا المؤمنون فقد جهدوا نفوسهم على العلم، وإذا كانت لهم حاجة استأذنوا النبيّ ﷺ في قضائها، فأنزل الله فيهم الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

وكان النبيّ ﷺ يعمل مع العاملين في حفر الخندق، وكره أن يتميّز عليهم. وكانت هذه الخطّة حكيمة، فقد وقت المسلمين من شرّ عظيم، وقد وقفت قريش مذهولة، فلم تقدر على اجتياز الخندق، ووقفت بالجانب الآخر منه، وقد استخدمت النبل في محاربتها للمسلمين، وكان المسلمون يردّون عليهم بالمثل من دون أن تقع حرب عامّة بين الفريقين.

عبور الخندق:

وعبرت بعض قوّات العدوّ الخندق، وأخذت تدعو القوّات الإسلاميّة إلى المبارزة والالتحام.

---

(١) سورة النِّساء: الآيات ٥١ ـ ٥٥.
(٢) السيرة النبويّة/ لابن هشام: ٢/ ٢١٤.
(٣) سورة النُّور: الآية ٦٣.
(٤) سورة النُّور: الآية ٦٢.

مبارزة الإمام لعمرو:

وعبرت الخندق عصابة من قوَّات الشرك، كا منها عمرو بن عبد ود فارس قريش في الجاهليَّة، وفارس كنانة، وهو مدجَّج بالسلاح، كأنَّه القلعة فوق جواده، وقد اهتزَّت الأرض من تيهه وزهوه وقوَّة بدنه، وساد الوجوم والخوف بين المسلمين، وجعل يصول ويجول أمامهم محتقراً لهم، وقد رفع صوته.

«يا رجال محمَّد، هل من مبارز؟».

وكان نداؤه كالصاعقة فقد خلعت القلوب، ولم يجبه أحد، فصاح ثانياً:

«ألا رجل يبارز؟».

وانبرى إليه بطل الإسلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً:

«أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ...»!

وكان الرسول ﷺ ضنيناً على الإمام، فقال له:

«إِنَّهُ عَمْرُو».

وجلس الإمام امتثالاً لأمر النبيّ ﷺ، وعاد عمرو ساخراً من المسلمين قائلاً:

«يا أصحاب محمَّد، أين جنَّتكم التي زعمتم أنَّكم داخلوها إذا قُتِلتم؟ ألا يريدها رجل منكم؟».

ولم يستجب له أحد من المسلمين، فقد خطف الرعب ألوانهم، فانبرى أسد الإسلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أشرأبَّت إليه الأعناق إلى النبيّ ﷺ، فأذِن له بعد إصرار وإلحاح.. وقد قلَّده وساماً من أعظم الأوسمة قائلاً:

«بَرَزَ الإِيْمَانُ كُلُّهُ إِلَىٰ الشِّرْكِ كُلِّهِ».

الله أكبر! عليّ نفس الإيمان والإسلام، فأيُّ وسام أجدر بالتعظيم والتبجيل من هذا الوسام، ثمَّ رفع النبيّ ﷺ يديه بالدُّعاء مبتهلاً إلى الله تعالى أن يحفظ له الإمام قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخَذْتَ مِنِّي حَمْزَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَعُبَيْدَةَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَاحْفَظِ الْيَوْمَ عَلِيّاً... رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ...».

وبرز بطل الإسلام مزهوّاً لم يخالجه خوف ولا رعب، وبهر عمرو بن عبد ودّ من جرأة هذا الفتى وإقدامه على مناجزته، وهو فارس العرب قائلاً له:

«مَن أنت؟».

فأجابه الإمام ساخراً منه:

«أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ».

فأشفق عليه عمرو وقال له:

«قد كان أبوك صديقاً لي».

ولم يحفل الإمام بصداقة عمرو لأبيه وراح يقول له:

«يَا عَمْرُو، إِنَّكَ عَاهَدْتَ قَوْمَكَ أَلَّا يَدْعُوكَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَىٰ خِلاَلٍ ثَلاَثٍ إِلَّا أَجَبْتَهُ؟».

«نعم، هذا عهدي».

«إِنِّي أَدْعُوكَ إِلَىٰ الإِسْلاَمِ».

وضحك عمرو وقال بسخرية:

«أأترك دين آبائي، دع هذا عنك».

«أَكُفُّ يَدِي عَنْكَ فَلَا أَقْتُلُكَ وَتَرجِعُ؟».

وغضب عمرو وأخذته العزَّة بالإثم، وعجب من جرأة هذا الفتى عليه، وقال له:

«إذن تتحدَّث العرب بفراري».

وعرض الإمام عليه الأمر الثالث قائلاً:

«إِنِّي أَدْعُوكَ إِلَىٰ النِّزَالِ؟»[1].

وعجب عمرو من بسالة الفتى وشجاعته، فنزل عن فرسه، واستلَّ سيفه، وضرب الإمام، فاستقبلها بدرقته فقدَّها ونفذ السيف إلى رأسه فشجَّه، وأيقن المسلمون أنَّ الإمام قد لاقى مصيره، ولكن لم يلبثوا إلاَّ قليلاً حتَّى ضرب الإمام عمرواً ضربة منكرة هدَّته، وسقط إلى الأرض جريحاً يخور بدمه، كما يخور الثور عند ذبحه، وكبَّر الإمام عليه السلام، وكبَّر المسلمون، فقد انقصم ظهر الشِّرك، وتفلَّلت قواه، وأحرز الإسلام النصر الحاسم على أعدائه بيد إمام المتَّقين وبطل الإيمان، وراح النبيّ ﷺ يقلِّده وساماً مشرقاً على امتداد التاريخ قائلاً:

«لِمُبَارَزَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِعَمْرُو بْنِ عَبْدِ وَدٍّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ أَعْمَالِ أُمَّتِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2].

---

(١) مستدرك الحاكم: ٣/ ٣٢.

(٢) تاريخ الخطيب البغدادي: ١٣/ ١٩. مستدرك الحاكم: ٣/ ٣٢.

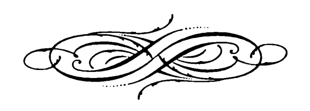
الله أكبر! هذه الضربة الحاسمة للشرك تعادل جميع ما تعمله أُمَّة محمَّد ﷺ من حسنات ومبرَّات إلى يوم القيامة، فأيَّة مكرمة هذه المكرمة؟

وقال الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان:

«لو قسّمت فضيلة عليّ بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لوسعتهم»[1].

قال عبد الله بن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[2] قال: «كفاهم بعليّ بن أبي طالب»[3].

وبكت قريش أمرَّ البكاء، وحزنت أعمق الحزن على قتل بطلها عمرو بن عبد ودّ لأنَّ قتله كان هزيمة لهم.



(١) رسائل الجاحظ: ص٦٠.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.
(٣) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٢/ ٣٧.

بنو قريظة وفتح خيبر

ولم يكد ينتهي النبيّ ﷺ من واقعة الخندق حتَّى وافته الأنباء من السَّماء بالإسراع إلى غزو بني قريظة، وهم أسوأ عصابة إسرائيليَّة انتهكت حرمات الله، وباءت بغضبه وغضب رسوله، وكانت مصدر فتنة ومكر للمسلمين، فكانوا يكيدون لهم في وضح النهار وفي غلس اللَّيل.

صدرت الأوامر من القيادة العليا إلى الجيش الإسلامي بالزحف إلى بني قريظة، وأنَّ لا يصلّون صلاة العصر إلاَّ فيهم، واتَّجه الجيش لا يلوي على شيء حتَّى انتهى إلى بني قريظة، وأحاط بهم، وفرض عليهم الحصار، وكانوا في حصون محصَّنة.

أوفد النبيّ ﷺ أخاه الإمام عليّ ﷺ لمقابلة بني قريظة، فلمَّا انتهى إليهم قابلوه بمرّ القول، وطعنوا في شخصيَّة الرسول ﷺ، وقفل الإمام عليّ ﷺ راجعاً إلى النبيّ ﷺ ليخبره بما رأى منهم، وطلب منه أن لا يدنو من حصونهم، فسأله النبيّ ﷺ:

«لَمْ أَظُنَّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَذىً؟».

«نَعَمْ».

«لَوْ رَأَوْنِي لَمَا قَالُوا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ».

ثُمَّ دنا النبيّ ﷺ من حصونهم وناداهم:

«يَا إِخْوَانَ الْقِرَدَةِ، هَلْ أَخْزَاكُمُ اللَّهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ».

وأمر النبيّ ﷺ بتطويق الحصار عليهم، وظلَّ الحصار عليهم خمساً وعشرين ليلة لم يقع خلالها سوى التراشق بالسهام والحجارة، وقد أيقنوا أنَّ حصونهم لن تغني عنهم شيئاً، وأنَّهم لا بدَّ أن يقعوا في قبضة المسلمين.

فتح خيبر:

رأى النبيّ ﷺ أنَّه لا يستقيم أمر المسلمين، ولا تسود له كلمة مع وجود قوَّة لليهود، وتلك القوَّة ماثلة في حصون خيبر التي هي مصنع للأسلحة على اختلاف أنواعها من السيوف والرماح والدروع والدبابات التي كانت تقذف بالماء الحارّ والرصاص بعد

إذابته، وهي من أخطر الأسلحة في ذلك العصر، وكانت خيبر هي التي تمدّ القوى المحاربة للإسلام بالأسلحة، وزحف النبيّ ﷺ بجيشه لاحتلال حصون خيبر، ولمَّا أشرف عليها ابتهل إلى الله تعالى أن يحقِّق له النصر، ودعا بهذا الدُّعاء:

«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا أَذْرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا».

وقال للجيش: **«اقْدِمُوا بِبِسْمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ»**.

وأسند قيادة جيشه لأبي بكر فمضى، ولمَّا أشرف على الحصون قوبل بوابل من القذائف، فرجع منهزماً خائباً، وفي اليوم الثاني أسند النبيّ ﷺ قيادة الجيش إلى عمر بن الخطَّاب، فكان كصاحبه أبي بكر، فقفل راجعاً منهزماً، وظلَّت الحصون مغلقة لم يمسَّها سوء.

وبعدما عجز الجيش من اقتحام الحصون أعلن النبيّ ﷺ أنَّه سَيُعيِّنُ القائد الذي يفتح الله على يده، قائلاً:

«لأَدْفَعَنَّ الرَّايَةَ غَداً إِلَىٰ رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لاَ يَرْجِعُ حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُ»[1].

واستشرف الجيش بفارغ الصبر ينتظر القائد الملهم الذي يفتح الله على يده، ولم يطرق بذهن أحد أنَّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنَّه كان مصاباً برمد، ولمَّا اندلع نور الصبح دعاه النبيّ ﷺ، وكان معصباً على عينيه، فأزاح العصابة عنه، وسقا عينيه بريقه، فبرئتا بالوقت، وقال له:

«خُذْ هَذِهِ الرَّايَةَ حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ...».

وعلى أيِّ حال، فقد استلم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الراية من النبيّ ﷺ وقال: **«يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُقَاتِلُهُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا مِثْلَنا؟»**.

فأجابه النبيّ ﷺ:

«انفُذْ عَلَىٰ رَسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ! لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[2].

---

(١) حلية الأولياء: ١/٦٢. صفة الصفوة: ١/١٦٣. مسند أحمد بن حنبل: رقم الحديث ٧٧٨.

(٢) صفة الصفوة: ١/١٦٤. صحيح البخاري: ٧/١٢١.

مبارزة الإمام لمرحب:

وبرز مرحب، وهو من أبطال اليهود وشجعانهم صوب الإمام وعليه مغفر يماني، وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وهو يرتجز:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إِذَا اللُّيوثُ أَقْبَلَتْ تَلْتَهِبُ

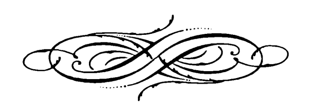
واستقبله حامي الإسلام وعليه جبّة حمراء، فأجابه:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَة ضِرْغَامُ آجَامٍ وَلَيْثُ قَسْوَرَة[1]
عَبْلُ الذِّرَاعَيْنِ شَدِيدُ الْقَصْوَرَة كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرة[2]
أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رِقَابَ الْكَفَرَةِ أَكِيلُهُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَة[3]

وتقدّم الإمام نحو مرحب فبادره بضربة قدّت البيضة والمغفر وسقط إلى الأرض صريعاً يتخبّط بدمه، فأجهز عليه وتركه جثّة هامدة.

وكتب الله تعالى النصر الحاسم للإسلام على يد أخي النبيّ ﷺ وباب مدينة علمه، وفتحت بذلك حصون خيبر، وأذلّ الله تعالى اليهود وكسر شوكتهم، ولقّنهم درساً قاسياً يذكرونه بأسى ولوعة على امتداد التاريخ.

وسرَّ النبيّ ﷺ بهذا الفتح المبين الذي أعزّ الله تعالى به المسلمين، وقهر أعداءهم اليهود، وصادف في ذلك اليوم رجوع جعفر الطيّار من الحبشة، فقال ﷺ: **«مَا أَدْرِي بِأَيِّهِما أَنَا أَسَرُّ أَبِقُدُومِ جَعْفَرٍ أَمْ بِفَتْحِ خَيْبَرَ؟»**[4].



(١) الآجام: جمع أجمة، وهي الشجر الكثير الملتفّ أو القصب يكونان مأوى للأسود، وهو إشارة إلى فرط قوّته ومنعة جانبه. القسورة: كناية عن الأسد الذي يأخذ فريسته قسراً.

(٢) العبل: الضخم. القصورة: أصل العنق.

(٣) السندرة: هي المكيال، والمعنى: أنّي أقتلكم قتلاً واسعاً، وقيل غير ذلك.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٢٨/٤.

الغزوات

نحن أمام غزوات النبيّ ﷺ إلى بعض المناطق والأقاليم والقبائل، والنظر فيما هو الهدف منها، والذي أراه بمزيد من التأمُّل أنَّ الهدف من ذلك يعود لما يلي:

أولاً: إنَّ الله تعالى أرسل عبده ورسوله إلى جميع أُمم العالم وشعوب الأرض رحمة منه تعالى بهم لينقذهم من واقعهم المرير، ويهديهم للتي هي أقوم.

لقد كان الإنسان غارقاً في الجهل وفي مآثم الحياة، وكان ذلك ماثلاً في المجتمع الذي عاش فيه رسول الله ﷺ، فقد عكفت القبائل على عبادة الأوثان والأصنام، واتّخذتها آلهة يعبدونها من دون الله تعالى خالق الكون وواهب الحياة، فكان صلوات الله عليه ملزماً من قِبل الله تعالى أن يبلِّغ رسالته إلى عباده، ويرشدهم إلى معالم الحقّ، ويقيم فيهم نظاماً متطوّراً يضمن حقوقهم، وتُصان فيه كرامتهم.

ثانياً: التخلُّص من الخطر المحدق بالإسلام من بعض القبائل والمناطق التي كانت تكيد للإسلام في وضح النهار وفي غلس اللَّيل، كاليهود الذين شكَّلوا قاعدة شعبيَّة انضمَّ إليها المنافقون للإطاحة بالنظام الإسلامي، فاضطرَّ النبيّ ﷺ إلى غزوهم لإنقاذ المسلمين من ويلاتهم وكوارثهم.

ثالثاً: إنَّ الغزو لم يستهدف بأيِّ حال من الأحوال الاستيلاء على أموالهم المنقولة وغير المنقولة، وإنَّما كان يستهدف الإيمان بالله ورسوله، وإقامة شعائر الدِّين، والتخلِّي عن العادات الجاهليَّة التي تهبط بالإنسان إلى مستوى سحيق من التأخُّر والانحطاط.

ونعود إلى ذكر غزوات النبيّ ﷺ حسب ما نصَّت عليه كتب السيرة النبويَّة نذكر منها:

١ ـ غزوة بني سُلَيْم.

٢ ـ غزوة السَّويق.

٣ ـ غزوة الفُرُع.

٤ ـ غزوة بُواط.

٥ ـ غزوة العشيرة.

٦ ـ غزوة بني قينقاع.

٧ ـ غزوة قَرْقَرة الكُدْر.

٨ ـ غزوة ذي أمرّ.

٩ ـ غزوة ذات الرقا.

١٠ ـ غزوة دومة الجنَدْل.

١١ ـ غزوة بني المصطلق.

١٢ ـ غزوة مؤتة.

١٣ ـ غزوة وادي القرى.

١٤ ـ غزوة الفتح.

١٥ ـ غزوة حنين.

١٦ ـ غزوة الطائف.

١٧ ـ غزوة تبوك.

فتح مكَّة

نحن أمام فتح مكَّة التي انتصر فيها الإسلام انتصاراً هائلاً، وطويت فيها ألوية الشِّرك، وأُقبرت معالم الجاهليَّة، وذلَّت القوى المعادية للإسلام من القرشيِّين واليهود، وامتدَّت دولة الإسلام إلى معظم مناطق الجزيرة العربيَّة.

إنَّ لفتح مكَّة أهمَّية بالغة في تاريخ الإسلام، فقد كانت قلعة لقوى الشِّرك والإلحاد، فهي التي تمدّ القوى المناهضة للإسلام، وقد تبنَّت بصورة إيجابيَّة مناجزة النبيّ ﷺ، وتعذيب من آمن به، ومطاردة أتباعه، وهي في نفس الوقت أعظم قوَّة في الجزيرة، وذلك بما تملك من ثراء اقتصادي قد سخّر لمحاربة الدعوة الإسلاميَّة.

وعلى أيِّ حال، فإنَّا نعرض بصورة موجزة لبعض الشؤون التي دفعت النبيّ ﷺ لاحتلال مكَّة، وما يتعلَّق بذلك من بحوث.

صلح الحديبية:

عقد رسول الله ﷺ بينه وبين قريش عقداً ذا بنود ذكرها مؤلّفو السيرة النبويَّة، كان

من بنودها: مَن أحبّ أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل، فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ومضت مدَّة على هذا العهد.

نقض العهد:

كانت بين خزاعة وبني بكر ثارات ودماء فيما بينهما، ولمَّا كانت واقعة مؤتة خيِّل إلى بعض رجال قريش أنَّ الإسلام قد قضي عليه كما اعتقد بنو بكر أنَّ الفرصة قد حانت للانقضاض على خزاعة، وعرضوا ذلك على جماعة من قريش فشجَّعوهم على ذلك، وأمدُّوهم بالسلاح والمال، وبينما كانت خزاعة على ماء لهم إذ هجم عليهم بنو بكر فقتلوا منهم جماعة، وسارعت كوكبة من خزاعة وعلى رأسهم عمرو بن سالم إلى المدينة، فأخبروا النبيّ ﷺ بما قامت به بنو بكر وقريش من نقض العهد، فقال النبيّ ﷺ لعمرو: «**نُصِرْتَ يَا عَمرو بن سالِم**»، ووعده بالنصر.

تصميم النبيّ ﷺ على فتح مكَّة:

رأى النبيّ ﷺ أنَّه لا يتحقَّق له النصر الحاسم إلاَّ بفتح مكَّة التي حاربته حينما كان فيها، وحينما نزح عنها، وأخذ يعدُّ لذلك عدَّته، وقد وثق بنصر الله تعالى له، وقهر أعدائه وخصومه.

زحف الجيش الإسلامي إلى مكَّة:

وجمع النبيّ ﷺ جيشاً مكثَّفاً قوامه عشرة آلاف جندي مسلَّح أو يزيد على ذلك، وهو مزوَّد بجميع آلات الحرب في ذلك العصر، وقد أحاط اتّجاهه إلى مكَّة بكثير من السرّ والكتمان، فلم تعلم القطعات العسكريَّة باتّجاهه، فقد خاف النبيّ ﷺ إن تعلم قريش بمسيرة جيشه لاحتلال بلادهم فتستعدّ للحرب، فتراق الدماء في البلد الحرام، فكره ذلك وأحاط الأمر بالكتمان.

على مشارف مكَّة:

وسارعت الجيوش الإسلاميَّة لا تلوي على شيء حتَّى انتهت إلى مشارف مكَّة وأهلها غافلون لا يعلمون شيئاً، فقد أحاطت بهم القوَّات العسكريَّة، واقتربت من احتلال بلدهم، وإنَّما عمد النبيّ ﷺ إلى التعتيم وعدم إشاعة احتلال جيشه لوطنهم حفظاً على السلام وعدم إراقة الدماء في البلد الحرام.

وأمر النبيّ ﷺ بجمع الحطب، فجمعت كمّيات هائلة منه، فلمّا اختلط الظلام أمر بإشعال النار فيه، وأخذ لهب النَّار يعلو في أُفق مكَّة، وفزع أبو سفيان، وأوجس في نفسه خيفة منه، فقال لبُديل بن ورقاء، وكان إلى جانبه:

«ما رأيت كالليلة نيراناً قطّ مثل هذه النَّار؟».

وبادر بُديل قائلاً:

«هذه والله خزاعة جشها الحرب».

وسخر منه أبو سفيان وراح يقول له:

«خزاعة أذلّ وأقلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها».

واستولى عليه الفزع، واطمأنت نفسه بأنَّها جيوش المسلمين جاءت لاحتلال مكَّة.

دخول النبيّ ﷺ مكَّة:

وسارت جيوش المسلمين إلى دخول مكَّة، وهي فرحة مستبشرة بهذا النصر العظيم، الذي لم تلق فيه أيَّة مقاومة، وقد حمل الراية سعد بن عبادة وهو فرح مستبشر، ويلوِّح برايته في الفضاء يميناً وشمالاً، ويهتف بأعلى صوته:

«اليومُ يومُ المَلْحَمة، اليَومُ تُسْتَحَلّ الحُرَمَة».

وسمعه عمر بن الخطَّاب، فسارع إلى النبيّ ﷺ قائلاً:

«يا رسول الله، أسمعت ما قال سعد؟».

فأمر النبيّ ﷺ بأخذ اللواء من سعد وإعطائه إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فأخذه وأدخله إلى مكَّة إدخالاً رفيقاً رافعاً صوته قائلاً:

«**الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ، الْيَوْمُ تُصَانُ الْحُرَمَةُ...**».

وعمَّت الفرحة الكبرى جميع أوساط القرشيِّين، وأيقنوا برحمة الرسول ﷺ، وأنَّه لا يؤاخذهم بما اقترفوه تجاهه من التنكيل والاعتداء.

النبيّ ﷺ في الكعبة:

وسارع النبيّ ﷺ إلى بيت الله الحرام ليؤدِّي التحيَّة إليه، فأغلقه بوجهه عثمان بن طلحة وصعد على سطح الكعبة، وأبى أن يدفع إليه المفتاح، فانبرى إليه الإمام أمير

المؤمنين عليه السلام، فلوى يده وأخذ المفتاح منه، وأعطاه للنبيّ ﷺ، ففتح الكعبة، وصلّى فيها ركعتين[١]، ثمّ سلَّم المفتاح له وقال له: «**الْيَوْمُ يومُ بِرٍّ وَوَفَاءٍ**»[٢].

تطهير البيت من الأصنام:

ولمّا دخل النبيّ ﷺ البيت الحرام بادر قبل كلّ شيء إلى تحطيم الأصنام وتدميرها، التي اتّخذها القرشيّون آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، وكانت الأصنام المعلّقة على ظاهر الكعبة ثلاثمائة وستّين صنماً، وكان لكلّ حيّ من العرب صنم خاصّ بهم.

وكان على جهة باب البيت المعظَّم الصنم الأعلى لقريش، وهو هبل، صنم أبي سفيان، فجعل النبيّ ﷺ يطعن بقوسه في عينه وهو يقول:

«**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**»، ثمّ أمر بتحطيمه، وتطهير البيت الحرام منه، وكان ذلك من أعظم ما رزء به أبو سفيان، وغيره من عتاة قريش.

واعتلى النبيّ ﷺ على منكب الإمام لتكسير الأصنام، فعجز الإمام عن النهوض به، فقال له الرسول:

«**إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ حَمْلَ ثِقْلِ النُّبُوَّةِ، فاصْعَدْ أَنْتَ**»، فاعتلى الإمام على كاهل رسول الله ﷺ وهو يقول: «**لَوْ شِئْتُ لَنِلْتُ أُفُقَ السَّمَاءِ**»، ثمّ أقبل على الأصنام، فجعل يقلعها ويرمي بها إلى الأرض، ولم يبق منها إلاّ صنم واحد، وهو صنم خزاعة، وكان موتداً بأوتاد من حديد، فقال له الرسول: «**عَالِجْهُ**»، فعالجه الإمام، وهو يقول: «**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**»، وقلعه ورمى به إلى الأرض حتّى صار قطعاً[٣]، وبذلك تطهَّر البيت الحرام من أصنام قريش على يد رسول الله ﷺ وعلى يد أخيه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، كما تحطّمت الأصنام من قبل على يد شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

خطاب النبيّ ﷺ:

أحاطت جماهير أهالي مكّة بالرسول الأعظم ﷺ، وهي تنتظر بفارغ الصبر ما يواجهونه منه، فهل ينزل بهم العقاب الصارم، ويقابلهم بمزيد من الانتقام من جرَّاء ما

---

(١) صبح الأعشى: ٤/ ٢٦٩.
(٢) السيرة النبويّة/ ابن هشام: ٤/ ٥٥.
(٣) إنسان العيون: ٣/ ٩٩ ـ ١٠٠.

صبّوه عليه وعلى أتباعه المستضعفين من صنوف الخطوب والكوارث، أو أنّه سيعفو عنهم، ويقابلهم بالعفو والصفح الجميل.

واعتلى النبيّ ﷺ منصّة الخطابة، واستمال الجميع إلى أُذن صاغية، وفتح النبيّ ﷺ خطابه بتوحيد الله تعالى والثناء عليه قائلاً:

«لاَ إِلٰهَ إِلّا اللّٰهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا كُلُّ مَأْثَرةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدَّعىٰ فَهُوَ تَحتَ قَدَمَيَّ هَاتَين، إِلّا سَدَانَةَ الْبَيْت، وَسِقَايَةَ الحَاجّ».

وأضاف بعد كلام له في شأن دية الخطأ قائلاً:

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْش، إِنَّ اللّٰهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالآبَاءِ. النَّاسُ مِنْ آدَم، وَآدَمُ مِنْ تُرَاب»، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[(١)].

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟».

فهتفوا جميعاً بلسان واحد:

خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم..

وأصدر رسول الرحمة العفو العامّ عن أُولئك الذين ما تركوا لوناً من ألوان الاعتداء إلاّ وصبّوه عليه قائلاً لهم:

«اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ...»[(٢)].

غزوة حنين

فزعت هوازن ـ فيما يقول المؤرّخون ـ كأشدّ ما يكون الفزع باحتلال النبيّ ﷺ مكّة، وخضوع القبائل القرشيّة لسلطان الإسلام، ودخول النّاس في دين الله أفواجاً، فانبرى مالك بن عوف، وهو الزعيم المطاع لقبائل هوازن، فدعا أُسرته، واستنجد ببعض القبائل الأُخرى، وفي طليعتها ثقيف لمحاربة النبيّ ﷺ وعرض عليهم الأخطار الهائلة التي ستواجه المشركين وعبادة الأوثان من انتصار الإسلام، وإنَّ النبيّ ﷺ سوف يزحف بجيوشه لاحتلالهم، واستجاب الجميع لرأيه، فجنّد قسماً كبيراً منهم للحرب، وأوصاهم

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) السيرة النبويّة/ابن هشام: ٤/ ٥٤ ـ ٥٥. تاريخ الطبري: ٢/ ٣٢٧.

قائلاً: إذا رأيتموهم ـ يعني المسلمين ـ فاكْسِروا جُفُون سيوفكم، ثمَّ شدّوا شَدَّة رجل واحد، وازحفوا للحرب.

زحف المسلمين للحرب:

ولمَّا انتهت أنباء هوازن إلى النبيّ ﷺ أوفد للقياهم عبد الله الأسلمي، وأمره بالتعرُّف على أنبائهم، فمضى وعلم أنَّهم مصمّمون على الحرب، فقفل راجعاً إلى النبيّ ﷺ وأخبره بذلك، فزحف بجيشه البالغ عدده اثنا عشر ألفاً، وكان فيهم من لم يخالط الإسلام قلبه، كأبي سفيان بن حرب، وأمثاله من القرشيِّين والطامعين في الغنائم والأسلاب.

وتحرَّك الجيش الإسلامي من مكَّة متّجهاً صوب هوازن حتَّى انتهى إلى وادي حنين[١].

التحام الجيشين:

والتحم الجيشان كأشدّ ما يكون الالتحام في معركة رهيبة لم يحسب لها المسلمون حساباً، فقد وثبت عليهم هوازن من كلّ جيب في الوادي وهي توسعهم رمياً وقذفاً، حتَّى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وبلغت القلوب الحناجر.

هزيمة المسلمين:

وانهزم المسلمون شرّ هزيمة، فقد كانت الخطَّة العسكريَّة التي عملتها هوازن محكمة للغاية، فقد كانوا موزَّعين في جيوب الوادي، وحينما دخل المسلمون فيه ثاروا عليهم من كلّ جانب وهم لا يشعرون، فجفلوا وفرّوا لا يلوون على شيء، وجعل النبيّ ﷺ يدعو المسلمين إلى الصبر والثبات وعدم الفرار قائلاً:

«أَيُّها النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَيَّ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ».

وثبت النبيّ ﷺ وهو يحرِّض المسلمين على الصمود قائلاً للمنهزمين:

«أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ، أَيْنَ؟».

وشاعت في الأوساط أنَّ النبيّ ﷺ قد استشهد، وكان منادياً ينادي بصوت عالٍ قائلاً:

---

(١) وادي حنين: موضع قريب من مكَّة، وقيل: هو وادٍ قبل الطائف بجنب ذي المجاز، وقال الواقدي: بينه وبين مكَّة ثلاثة ليال. معجم البلدان: ٢/٣١٣.

«يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَروا، يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ بَايَعوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، إِنَّ مُحَمَّداً حَيٌّ فَهَلُمُّوا».

واستجاب المنهزمون إلى نداءه، وأحاطوا بالنبيّ ﷺ يميناً وشمالاً يمنعون عنه العوادي.

هزيمة المشركين:

ولمّا بلغت قلوب المسلمين الحناجر، وزلزلوا زلزالاً شديداً قد ساد عليهم الرعب والخوف، نصر الله تعالى عبده ورسوله، فقتل من المشركين سبعون رجلاً من أبطالهم وعيونهم، وهزم الباقون شرّ هزيمة، ولاحقتهم جيوش المسلمين فأشاعت فيهم القتل والأسر، وردَّ الله تعالى كيدهم إلى نحورهم.

بسالة الإمام:

وأبدى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من البسالة ما لا يوصف، وأبلى في المعركة بلاءً حسناً، وقد أجمع الرواة على أنَّه كان من أصل المدافعين عن النبيّ ﷺ، فقد وقف مع كوكبة من المسلمين إلى جانب النبيّ ﷺ يدافعون عنه، وقاتلوا قتالاً أهونه الشديد، وكان النبيّ ﷺ يردِّد القول:

«أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ٱبْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ»[(١)].

لقد كان النصر المؤزَّر معظمه في هذه المعركة التي كانت من أعنف المعارك وأشدّها قسوة على يد بطل الإسلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وغنم المسلمون في هذه المعركة أموالاً طائلة كان منها:

١ ـ اثنان وعشرون ألفاً من الإبل.

٢ ـ أربعون ألفاً من الشياة.

٣ ـ أربعة آلاف أُوقية من الفضَّة.

٤ ـ الأسرى ستّة آلاف[(٢)].

---

(١) الوطيس: التنور.

(٢) حياة محمَّد ﷺ: ص٤٢٦.

غزوة تبوك

ولم تبق ناحية من نواحي الجزيرة العربيَّة إلاَّ وأيقنت بقوَّة الحكومة الإسلاميَّة، وأنَّها قوَّة لا تقهر، وأنها أمام أمرين: إمَّا مقاومة السلطة أو الدخول في الإسلام، والخضوع لأنظمته الدينيَّة والاقتصاديَّة، وبينما كان العرب مذهولين أمام الأحداث التي سيواجهونها من الإسلام؛ إذ وافتهم الأنباء بأنَّ الروم قد هيَّأت جيشاً لغزو المسلمين والهيمنة على البلاد الخاضعة لحكم الإسلام.

وشاعت هذه الأنباء، فقام النبيّ ﷺ بعزم شامخ لتهيئة جيش قوي يغزو به الروم ويكسر شوكتهم.

وتخلَّف المنافقون عن الالتحاق بالجيش الإسلامي، وأخذوا يلتمسون لهم المعاذير بأنَّ الوقت شديد الحرارة، وفيهم نزلت الآية: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[١].

واستشفَّ النبيّ ﷺ من وراء الغيب ما قاله هؤلاء المنافقون، فبعث عمَّار بن ياسر وقال له: «**سَلْهُم عَمَّا قالوا، فَإِنْ أَنْكَروا فَقُلْ: بَلَىٰ، قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا**»، فانطلق إليهم عمَّار وأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ، فأقبلوا إلى النبيّ ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة له: «يا رسول الله، إنَّا كنَّا نخوض ونلعب»، فنزلت الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[٢].

وهناك كوكبة من الصحابة قد أُترعت نفوسهم بالإيمان، كان منهم سبعة أشخاص من الأنصار وغيرهم لم يجدوا مركباً لهم، فطلبوا من النبيّ ﷺ أن يسعفهم بمركب ليمضون إلى الجهاد، فقال لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[٣]، ومن المؤمنين أبو خَيْثَمَة، فإنَّه لم يلتحق بالنبيّ ﷺ وبقي في داره، وكان الوقت شديد الحرّ، فهيَّأت له زوجتاه عريشاً، وبرَّدت له ماء، فنظر إليهما، وقال بألم وحرارة: «رسول الله في الضِّحّ[٤] والرِّيح والحرّ، وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد، وطعام مهيَّأ، وامرأةٍ حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف».

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ٨١ و٨٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦٥.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٢.

(٤) الضِّحّ: الشمس.

ثمَّ خاطب زوجتيه:

«والله تعالى لا أدخُلُ عريش واحدة منكُما حتَّى ألحق برسول الله، فَهَيِّئا لي زاداً».

فقدَّما له الزاد، ثمَّ قدم ناضحه فاعتلاه، وأخذ يجدّ في السير لا يلوي على شيء حتَّى التحق برسول الله حتَّى إذا دنا منه وهو في تبوك، فقال النَّاس: «هذا راكب على الطريق مُقْبل إلينا»، فقال النبيّ ﷺ:

«كُنْ أَبَا خَيْثَمَة».

وتأمَّله المسلمون فقالوا: «هو والله أبو خيثمة»، ثمَّ دنا من النبيّ ﷺ وسلَّم عليه، فقال له خيراً، ودعا له بخير.

وتخلَّف أبو ذرّ عن مسايرة الجيش؛ لأنَّ راحلته لم تطق المشي، فتركها وأخذ متاعه فحمله على ظهره، وسار في أثر الجيش، فأدرك النبيّ ﷺ في بعض المنازل، فقال النَّاس: «هذا أبو ذرّ»، فرحَّب به النبيّ ﷺ وقال: «رَحِمَ اللَّهُ أَبَا ذَرّ يَمْشِي وَحْدَهُ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ، وَيُبْعَثُ وَحْدَه»[1].

الإمام في غزوة تبوك:

وواكب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام النبيّ ﷺ في جميع حروبه وغزواته، إلاَّ في غزوة تبوك، فقد أبقاه النبيّ ﷺ ممثِّلاً عنه في المدينة، وأرجف المنافقون، وأشاعوا أنَّ النبيّ ﷺ إنَّما لم يصحبه معه لكراهته له، وبلغ ذلك الإمام، فأخبر النبيّ ﷺ بمقالة المنافقين، فردَّ عليهم مزاعمهم، وقلَّد الإمام أسمى وسام قائلاً:

«كَذَبُوا، وَإِنَّمَا خَلَّفْتُكَ لِمَا وَرَائِي، فَارْجِعْ فَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي وَأَهْلِكَ، أَمَا تَرْضىٰ يَا عَلِيُّ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسىٰ، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[2].

ورجع الإمام عليه السلام قرير العين، فقد قلَّده الرسول ﷺ وسام الخلافة من بعده، وجعله منه بمنزلة هارون من موسى، وباء حسَّاده بالفشل والخزي.

الإمام عليه السلام وفتح اليمن:

أرسل النبيّ ﷺ معه كتيبة عسكريَّة إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام أو الحرب، وأخذ الإمام يجدّ في السير لا يلوي على شيء ليؤدِّي رسالة النبيّ ﷺ.

---

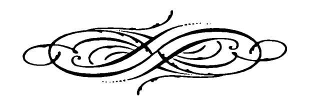
(١) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ٤/١٦٧.

(٢) تاريخ ابن الأثير: ٢/١٩٠. السيرة النبويَّة/ابن هشام: ٤/١٦٣.

إسلام همدان:

وانتهى الإمام عليه السلام إلى اليمن، والتقى بوجوه اليمانيِّين وزعمائهم، وعرض عليهم دعوة النبيّ ﷺ وشرح لهم قيم الإسلام، وما يهدف إليه من إقامة مجتمع أفضل تتوفَّر فيه جميع ما يصبو إليه المجتمع من العدل والأمن والرخاء.

وقد بهر اليمانيّون بكمال الإمام عليه السلام وفضله وأدبه، فاستجابوا لدعوته، وأعلنت همدان الإسلام، وهي من أقوى الأُسر العربيَّة في اليمن، ومن أشدّها تمسُّكاً بقيم الإسلام، وبذلك فقد فتحت اليمن بغير حرب[1]، وبقيت قاعدة الولاء للإمام عليه السلام.



(١) أمالي المرتضى: ١/ ٢٩٢.

السرايا

أمَّا السرايا التي بعثها النبيّ ﷺ لبعض القرى والمناطق، فكان الغرض منها إظهار قوَّة الإسلام، ولا تنضمّ إلى القوى المعادية للإسلام، كما أنَّ أهدافها التبشير بالقيم العظيمة، والمبادىء الرفيعة التي تبنَّاها الإسلام، والتي جاءت لتحرير الإنسان من خرافات الجاهليَّة، وعبادتها للأوثان والأصنام، وإنقاذها من واقعها المرير الذي هبطت به إلى مستوى سحيق ما له من قرار.

وعلى أيٍّ حال، فإنَّا نذكر بعض السرايا التي أسند النبيّ ﷺ قيادتها إلى بعض أصحابه، وهي ثمانية وثلاثون سريَّة:

١ ـ سريَّة زيد بن حارثة على قافلة لقريش فيها أبو سفيان.

٢ ـ سريَّة خالد لبني جذيمة.

٣ ـ سريَّة عبد الله بن رواحة.

٤ ـ سريَّة بَشير بن سَعْد.

٥ ـ سريَّة أبي حدرد.

٦ ـ السريَّة إلى إِضَمّ.

٧ ـ سريَّة زيد بن حارثة نحو مدين.

٨ ـ سريَّة عبد الله بن حذافة السهمي.

٩ ـ سريَّة شجاع بن وهب.

١٠ ـ سريَّة كعب بن عمير.

١١ ـ سريَّة عمرو بن العاص.

١٢ ـ سريَّة أبي عبيدة.

١٣ ـ سريَّة زيد بن حارثة على وادي القرى.

١٤ ـ سريَّة عمير بن عدي.

طلائع الرَّحيل

أدَّىٰ النبيّ العظيم ﷺ رسالة ربّه إلى عباده كاملة مشرقة، فأنقذهم بعد اللُّتَيَّا والتي من عبادة الأوثان والأصنام، فحرَّر العقول وفتح لهم آفاقاً كريمة لم يألفها الإنسان حافلة بالوعي والتطوُّر، وأمدَّها بجميع وسائل النهوض والارتقاء.

وقد عانى النبيّ ﷺ جميع صنوف المحن والخطوب من فراعنة قريش، وجبابرة العرب، وفسقة اليهود، فاتَّهموه بالجنون والكذب والسحر، وأغروا صبيانهم وجهَّالهم بإلقاء التراب والحجارة عليه، وعذّبوا بأقسى ألوان التعذيب مَن آمن به، وقد استشهد من تعذيبهم ياسر وسميَّة، واضطرَّت الطلائع المقدَّسة من المسلمين إلى الهجرة من ديارهم إلى الحبشة، وكان المحامي والناصر للنبيّ ﷺ عمَّه أبو طالب مؤمن قريش، وبعد وفاته استضعفته قريش، وأحاطت بداره شاهرين سيوفهم ليمزِّقوا جسده الطاهر، ففرَّ منهم في غلس اللَّيل البهيم إلى المدينة، وقد ترك أخاه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في فراشه ملتحفاً ببردته، وقد نجا صلوات الله عليه بتسديد من الله تعالى ولطفه.

وحينما انتهى النبيّ ﷺ إلى المدينة وجد في أهلها الحماية والأمن والقوَّة، فاتّخذها عاصمة له، وقد قامت قيامة القرشيِّين، وورمت آنافهم، فجهَّزوا الجيوش لمحاربته، فكانت واقعة بدر وأُحد والأحزاب، ومعظمها بقيادة أبي سفيان جدّ يزيد وأبو معاوية، وباءت جميع محاولاتهم بالفشل والخزي، فقد نصر الله تعالى نبيّه نصراً عزيزاً، وفتح له فتحاً مبيناً، ودخل النَّاس في دين الله تعالى أفواجاً أفواجاً، وخضعت قريش لحكم الإسلام، ودخلوا فيه مكرهين أذلَّاء صاغرين قد أُترعت نفوسهم بآثام الجاهليَّة ومعتقداتها.

وعلى أيِّ حال، فإنَّ النبيّ ﷺ بعدما أدَّى رسالة ربّه بدت عليه إمارات الرحيل عن هذه الدُّنيا، والانتقال إلى الفردوس الأعلى، وكانت تتكرَّر عليه علامات الرحيل عن الدُّنيا، والسفر إلى الله تعالى، كان من بينها:

أوّلاً: إنّ القرآن الكريم نزل عليه مرّتين بعدما كان ينزل عليه مرّة واحدة، فاستشعر من ذلك دنوّ الأجل المحتوم منه(١).

وأخذ ينعى نفسه، ويشيع ذلك بين المسلمين، كما أحاط بضعته سيّدة نساء العالمين علماً بانتقاله إلى حضيرة القدس قائلاً لها:

«إِنَّ جِبْرَئِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي بِهِ فِي هَذَا الْعَامِ مَرَّتَيْنِ، وَمَا أَرىٰ ذَلِكَ إِلَّا اقْتِرَابَ أَجَلِي»(٢).

وذابت نفس بضعته شعاعاً، وودّت مفارقة الحياة ولم تسمع هذه الكلمات من أبيها:

ثانياً: أنّه نزل الوحي على الرسول ﷺ بهذه الآية: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(٣).

وكانت هذه الآية إنذاراً له بمفارقته للحياة، وقد أثارت في نفسه كوامن الألم، وسمعه المسلمون يقول:

«لَيْتَنِي أَعْلَمُ مَتىٰ يَكُونُ ذَلِكَ؟».

ثالثاً: أنّه نزلت عليه سورة النصر، فشعر منها بدنوّ أجله، وكان يسكت بين التكبير والقراءة في الصلاة ويقول:

«سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ».

وذهل المسلمون من ذلك، وراحوا يسألونه عن هذه الحالة الغريبة التي تعتريه، فأجابهم:

«إِنَّ نَفْسِي قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ»(٤).

وهام المسلمون في تيارات من الهواجس، فقد كان نعي النبيّ ﷺ لنفسه كالصاعقة عليهم، فلا يدرون ما يجري عليهم إن خلت الدُّنيا من محمَّد ﷺ، الذي برّ بدينهم ودُنياهم، وحرَّرهم من عبادة الأوثان والأصنام.

---

(١) الخصائص الكبرى: ٢/٢٦٨.
(٢) تاريخ ابن الأثير: ٥/٥٢٣.
(٣) سورة الزمر: الآيتان ٣٠ و٣١.
(٤) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ: ٢/ ٧١ ـ ٧٣.

حجَّة الوداع

ولما أيقن النبيّ ﷺ بقرب انتقاله إلى جنَّة المأوى رأى من الواجب عليه أن يحجّ البيت الحرام، ويضع لأُمَّته الخطوط السليمة لنجاتها، وصيانتها من الأزمات والفتن، وسيادتها على بقيَّة أُمم العالم وشعوب الأرض، ولهذه الأسباب حجّ البيت الحرام ليعلن في صعيده ما يرومه، وقد أعلن بين الوفود أنَّ عامهم هذا هو آخر عهدهم به قائلاً:

«إِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا الْمَوْقِفِ أَبَداً».

وفزع الحجَّاج وذهلوا، وأفزعهم كلامه، وراح يقول بعضهم لبعض: «النبيّ ينعى نفسه».

ومضى النبيّ ﷺ في تنفيذ مناهجه السليمة التي تضمن سعادة أُمَّته في جميع مراحل تأريخها قائلاً:

«ايُّهَا النَّاسُ! إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي».

ولمَّا أنهى النبيّ ﷺ مراسيم الحجّ، وقف عند بئر زمزم، وأمر ربيعة بن خلف فوقف تحت راحلته ليبلِّغ الحجَّاج ما يقوله، وقال لربيعة: **«قُلْ مَا أَقُولُهُ»**، ثمَّ قال:

«أَتَدْرُونَ أَيَّ بَلَدٍ هَذَا؟».

«أَتَدْرُونَ أَيَّ شَهْرٍ هَذَا؟».

«أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟».

فهتفوا جميعاً:

«نعم، هذا البلد الحرام، وهذا الشهر الحرام، واليوم الحرام».

وأخذ النبيّ ﷺ يتلو عليهم القيم الكريمة والمُثل العليا التي جاء بها قائلاً:

«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُم دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كَحُرْمَةِ بَلَدِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا.. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟...».

فأجابوا جميعاً:

«نعم».

ثمَّ أخذ النبيّ ﷺ يعرض على حجّاج بيت الله الحرام الأحكام التي يلزمون بتطبيقها على واقع حياتهم قائلاً:

«اتَّقُوا اللَّهَ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا . . . .

النَّاسُ فِي الإِسْلَامِ سَواءٌ» النّاسُ طَفُّ الصَّاعِ لآدَمَ وَحَوَّاءَ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لأَعْجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ إِلَّا بِتَقْوى اللَّهِ . . . أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

وانبروا قائلين:

«نعم».

وأضاف النبيّ ﷺ قائلاً:

«اللَّهُمَّ اشْهَدْ، لَا تَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ وَائْتُونِي بِأَعْمَالِكُمْ، فَأَقُولُ لِلنَّاسِ: هَكَذَا، وَلَكُمْ هَكَذا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

وهذه المثل الكريمة هي التي تحقّق كرامة الإنسان، وتضمن له سعادته، ثمَّ واصل النبيّ ﷺ حديثه قائلاً:

«اللَّهُمَّ اشْهَدْ، كُلُّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمِي، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمَ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ[1]، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

«نعم».

«اللَّهُمَّ اشْهَدْ، وَكُلُّ رِباً كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمِي، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُهُ رِبا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

«نعم».

«اللَّهُمَّ شْهَدْ. . أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُواطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ.

أُوصِيكُمْ بِالنِّساءِ خَيْراً فَإِنَّما هُنَّ عَوارٍ عِنْدَكُمْ، لاَ يَمْلِكْنَ لأَنْفُسِهِنَّ شَيْئاً، وَإِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقٌّ: كِسْوَتُهُنَّ وَرِزْقُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فِراشَكُمْ أَحَداً، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ إِلَّا بِعِلْمِكُمْ وَإِذْنِكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

«نعم».

---

(١) ربيعة بن الحارث قتله بنو سعد بن بكر.

«اللَّهُمَّ اشهَدْ، فَأُوْصِيْكُمْ بِمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

«نعم».

«اللَّهُمَّ اشهَدْ. إِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَغُشُّهُ، وَلاَ يَخُونُهُ، وَلاَ يَغْتَابُهُ، وَلاَ يَحِلُّ لَهُ دَمُهُ، وَلاَ شَيْءٌ مِنْ مَاله إِلَّا بِطِيْبٍ مِنْهُ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

«نعم».

«لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً مُضَلِّلِينَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، إِنِّي خَلَّفْتُ فِيْكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

«اللَّهُمَّ اشهَدْ. إِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ...»[١].

مؤتمر غدير خم:

وبعد ما أدَّى النبيّ ﷺ الحجّ إلى بيت الله الحرام، ووضع الخطط السليمة لصيانة الأُمَّة من التردِّي في مجاهل هذه الحياة قفل راجعاً إلى المدينة، ولمَّا اجتاز موكبه في غدير خم هبط عليه جبرئيل برسالة من السَّماء بالغة الخطورة تتعلَّق بمصير الأُمَّة ومستقبلها بعد رحيله إلى جنَّة المأوى، فقد أمره الله تعالى أن يحطّ رحله في ذلك المكان لينصِّب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إماماً للأُمَّة وخليفة عليها من بعده، ويقلِّده المرجعيَّة العامَّة لها، ولم يرخِّصه في التأخير لحظة واحدة، وكان أمر السماء بهذه الآيــــة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[٢].

وتلقَّىٰ النبيّ ﷺ أمر الله تعالى بأهمّية بالغة، فانبرى بعزم ثابت وإرادة صلبة غير حافل بالمنافقين والحاسدين للإمام عليه السلام، فوضع أعباء المسير، وحطَّ رحله في رمضاء الهجير، وأمر قوافل الحجِّ أن تصنع مثل ذلك، وكان الوقت قاسياً في حرارته حتَّى كان الرجل يضع طرف ردائه تحت قدمه يتَّقي به من الحرّ.

واجتمع الحجَّاج فصلَّى بهم النبيّ ﷺ وبعد فراغه من الصلاة أمر بوضع حدائج لتكون منبراً له، فصنعت له فاعتلى عليها، وكان عدد الحاضرين ـ فيما يقول الرواة ـ مائة ألف أو يزيدون، فخطب فيهم وأعلن عمَّا عاناه من الجهود الشاقَّة في سبيل هداية

---

(١) حياة الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام: ١/ ١٩٥ ـ ١٩٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٧.

النَّاس وإنقاذهم من خرافات الجاهليَّة وعبادة الأوثان والأصنام، ثمَّ ذكر كوكبة من أحكام الإسلام وتعاليمه، والتفت إلى الجماهير قائلاً:

«انْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِي الثَّقَلَيْنِ؟».

فناداه منادٍ من القوم:

ما الثقلان يا رسول الله؟

وبيَّن بوضوح وصراحة الثقلين قائلاً:

«الثَّقَلُ الأَكْبَرُ: كِتَابُ اللَّهِ طَرَفٌ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ وَلاَ تَضِلُّوا، وَالآخَرُ الأَصْغَرُ: عِتْرَتِي، وَإِنَّ اللَّطِيفَ نَبَّأَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَسَأَلْتُ ذَلِكَ رَبِّي لَهُمَا، فَلَا تَقَدَّمُوهُمَا فَتَهْلِكُوا، وَلاَ تَقْصُرُوا عَنْهُمَا فَتَهْلِكُوا».

الضمان الأكيد لسلامة الأُمَّة فيمسيرتها التمسُّك بكتاب الله العزيز وبالعترة الطاهرة.

ثمَّ أخذ النبيّ ﷺ بيد وصيّه وسيِّد عترته وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فرفعه حتَّى بان بياض إبطيهما، ورفع صوته عالياً قائلاً:

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟».

فأجابوا مجمعين:

«الله ورسوله أعلم».

فقال صلوات الله عليه:

«إِنَّ اللَّهَ مَوْلاَيَ، وَأَنَا مَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَا أَوْلَىٰ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ».

قال ذلك ثلاث مرَّات، ثمَّ قال:

«اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَأَحِبَّ مَنْ أَحَبَّهُ، وَأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ».

وانتهى خطابه الشريف الذي أعلن فيه تقليده لمنصب الخلافة والإمامة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

البيعة العامَّة للإمام عليه السلام:

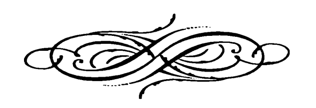
وأقبل المسلمون يبايعون الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بولاية العهد ويهنِّئونه بهذا

المنصب الخطير، وأمر النبيّ ﷺ أُمَّهات المؤمنين أن يبايعن الإمام، ففعلن ذلك[١]، وأقبل ابن الخطّاب فهنّأ الإمام وصافحه، وقال له:

«هنيئاً يابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة»[٢].

النبيّ ﷺ والخلافة:

اهتمَّ النبيّ ﷺ اهتماماً بالغاً بالخلافة والإمامة من بعده؛ لأنَّها من أهمّ المراكز الحسَّاسة في إقامة دولته، فهي امتداد لحكمه واستدامة لشريعته، وقد قرنها برسالته في بداية دعوته للإسلام حينما دعا أُسرته إلى تصديقه، والإيمان بقيمه ليتّخذ منهم شخصاً يؤازره على أداء رسالته فيجعله وزيراً وخليفة من بعده، فلم يستجب له أحد سوى الإمام أمير المؤمنين ﷺ، فأخذ برقبته، وقال: **«هَذا أَخِي، وَوَزِيرِي، وَوَصِيِّي، وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي فِيكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»**[٣].



(١) موسوعة الغدير: ٢/ ٣٤.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٤/ ٢٨١.

(٣) الحديث مجمع على صحّته.

المأساة الخالدة

وبعدما أقام النبيّ ﷺ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة من بعده على أُمّته في غدير خم، قفل راجعاً إلى المدينة، وقد بدت صحّته تنهار يوماً بعد يوم، فقد ألمّت به الأمراض، وأصابته حمى مبرحة حتّى كأنّ به لهباً منها، وقد لازمته ولم تنقطع عنه، وكانت عليه قطيفة، فإذا وضع أزواجه وعوّاده أيديهم عليها شعروا بحرّها[1]، ووضعوا إلى جواره إناء فيه ماء بارد، فكان يضع يده فيه ويمسح بها وجهه الشريف لتخفّ عنه حرارة الحمّى، وذهبت بعض المصادر أنّ مرضه مستند إلى طعام مسموم قدّمته يهوديّة له، فكان يقول:

«مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُهُ بِخَيْبَر، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»[2].

ولمّا أُشيع مرضه هرع المسلمون لعيادته، وهم ما بين باكٍ وواجم، فقد طافت بهم موجات من الألم والذهول، فهل يغيب عنهم ذلك الكوكب الذي أضاء في سماء الكون، وتختفي أنواره المشرقة، وممّا زاد في ذهولهم أنّ النبيّ ﷺ استقبلهم بأسى بالغ، ونعى إليهم نفسه الشريفة، وأوصاهم بما يضمن سعادتهم قائلاً:

«أَيُّهَا النَّاسُ، يُوشَكُ أَنْ أُقْبَضْ قَبْضاً سَرِيعاً فَيُنْطَلَقَ بِي، وَقَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ مَعْذِرَةَ إِلَيْكُمْ، أَلَا إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيْكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي».

وكان أخوه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانبه، فأخذ بيده وقال لعوّاده:

«هَذَا عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ، لَا يَفْتَرِقَانِ حَتَّىٰ يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[3].

إعطاء القصاص من نفسه ﷺ:

ولمّا علم النبيّ ﷺ إنّ لقاءه بربّه قريب دعا الفضل بن عبّاس، فأمره أن يأخذ

---

(١) البداية والنهاية: ٥/ ٢٢٦.

(٢) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٢/ ٦٢.

(٣) الصواعق المحرقة: ٢/ ٣٦١.

بيده، ويجلسه على المنبر، وأن ينادي بالنَّاس الصلاة جامعة، وأدَّى الفضل ما أمر به، فاجتمع النَّاس، فخطب فيهم النبيّ ﷺ، وقال ـ بعد حمد الله تعالى والثناء عليه ـ:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ قَدْ دَنَا مِنِّي خُلُوفٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، وَلَنْ تَرَوْنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ فِيْكُمْ، وَقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ أَنَّ غَيْرَهُ غَيْرُ مُغْنٍ عَنِّي حَتَّىٰ أَقُومَهُ فِيْكُمْ، أَلَا فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْراً فَهَذَا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدْ، وَمَنْ كنتُ أَخَذْتُ مِنْهُ مَالاً فَهَذا مَالِي فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ، وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضاً فَهَذا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدْ... وَلَا يَقُولَنَّ قَائِلٌ: أَخَافُ الشَّحْنَاءَ مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللَّهِ، أَلَا وَإِنَّ الشَّحْنَاءَ لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِي وَلَا مِنْ خُلُقِي، وَإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ حَقّاً كَانَ لَهُ عَلَيَّ، أَوْ حَلَّلَنِي فَلَقِيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجعلَّ وَلَيْسَ لأَحَدٍ عِنْدِي مَظْلَمَةٌ».

يا لروعة العدل!

يا لروعة الخلق النبويّ!

الله أكبر! أي سموّ هذا، وأي خُلق هذا؟ لقد أسَّس النبيّ ﷺ جميع صنوف العدل وسموّ الذات وكمال النفس.

لقد أعطى رسول الإنسانيَّة القصاص من نفسه وهو في الساعات الأخيرة من حياته ليخرج من هذه الدُّنيا وليس لأيّ أحد عليه تبعة.. وانبرى إليه رجل من القوم فقال للنبيّ ﷺ:

«يا رسول الله، لي عندك ثلاثة دراهم».

فقابله النبيّ ﷺ بلطف قائلاً له:

«أَمَّا أَنَا فَلَا أُكَذِّبُ قَائِلاً، وَلَا مُسْتَحْلِفُهُ عَلَىٰ يَمِينٍ، فَبِمَ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي؟».

وسارع الرجل قائلاً:

«أما تذكر أنَّه مرَّ بك سائل فأمرتني أن أُعطيه، فأعطيته ثلاثة دراهم».

وأمر النبيّ ﷺ الفضل بإعطائه الدراهم، فأعطاها له، ثمَّ عاد النبيّ ﷺ إلى خطابه قائلاً:

«مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْغُلُولِ شَيْءٌ فَلْيَرُدَّهُ».

فقام إليه رجل فقال له:

«يا رسول الله، عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله».

فقال له النبيّ ﷺ:

«لِمَ غَلَلْتَها؟».

«كنت محتاجاً إليها».

فأمر النبيّ ﷺ بأخذها منه، ثمَّ عاد في خطابه:

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ أَحَسَّ فِي نَفْسِهِ شَيْئاً فَلْيَقُمْ أَدْعُ اللَّهَ لَهُ».

فقام إليه رجل فقال:

«يا رسول الله، إنِّي لمنافق، وإنِّي لكذوب، وإنِّي لشؤوم».

فزجره عمر وصاح به:

«لقد سترك الله، لو سترت على نفسك».

والتفت النبيّ ﷺ إلى عمر فقال له:

«صَهْ يَا ٱبْنَ الْخَطَّابِ! فُضُوحُ الدُّنْيا أَهْوَنُ مِنْ فُضُوحِ الآخِرَةِ».

ثمَّ دعا النبيّ ﷺ للرجل قائلاً:

«اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقاً وَإِيْمَاناً، وَأَذْهِبْ عَنْهُ الشُّؤْمَ»(١).

وانبرى رجل من أقصى القوم يُقال له سوادة بن قيس، فقال:

«يا رسول الله، إنَّك ضربتني بالسوط على بطني، وأنا أُريد القصاص منك».

واستجاب النبيّ ﷺ له، فقال لبلال:

«عَلَيَّ بِالسَّوْطِ لِيَقْتَصَّ مِنِّي سَوادَةُ».

وذهل الحاضرون، وساد عليهم صمت رهيب من هذا العدل، وانطلق بلال رافعاً عقيرته قائلاً:

«أيُّها النَّاس، اعطوا القصاص من أنفسكم في دار الدُّنيا، فهذا رسول الله قد أعطى القصاص من نفسه».

ومضى بلال وهو خائر القوى إلى بيت النبيّ ﷺ فجاء بالسوط وناوله إلى سوادة، فأخذه وأقبل به صوب النبيّ ﷺ الذي ألمَّت به الأمراض، وهو في الساعات الأخيرة من حياته، فقال للنبيّ ﷺ:

«يا رسول الله، اكشف لي عن بطنك».

وكشف الرسول ﷺ عن بطنه، فقال له سوادة وهو غارق في البكاء:

«يا رسول الله، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟».

---

(١) البداية والنهاية: ٥/ ٢٣١.

«نَعَمْ».

ووضع سوادة وجهه على بطن رسول الله، ودموعه تتبلور على خدّيه، وهو يقول بصوت حزين النبرات:

«أعوذ بموضع القصاص من رسول الله من النّار يوم النّار».

والتفت إليه النبيّ ﷺ قائلاً:

«أَتَعفُو يَا سَوادَةُ أَمْ تَقْتَصُّ؟».

«بل أعفو يا رسول الله».

فشكره النبيّ ﷺ ورفع يديه بالدُّعاء له قائلاً:

«اللَّهُمَّ اعْفُ عَنْ سَوادَةَ كَمَا عَفَا عَنْ نَبِيِّكَ»[(١)].

سريَّة أُسامة:

واستبانت للنبيّ ﷺ التيارات الحزبية من صحابته الهادفة إلى صرف الخلافة عن أهل بيت النُّبوَّة ومراكز العلم والحكمة، فرأى خير ضمان يتدارك به الموقف أن يزجّ بجميع أصحابه لغزو الروم حتَّى تخلو عاصمته منهم فيما إذا انتقل إلى حضيرة القدس، ويتمّ بذلك تسلُّم الإمام ؑ لمقاليد الحكم من دون منازع، وأمر أعلام المهاجرين والأنصار بالالتحاق بالجيش، وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة الجرَّاح، وبشير بن سعد[(٢)]، وهؤلاء من أقطاب الحزب المعارض للإمام ؑ.

وعهد النبيّ ﷺ بإمارة الجيش إلى أُسامة بن زيد، وهو في شرخ الشباب، ولم يعهد بالإمارة إلى شيوخ الصحابة لأنَّ في ذلك إشعاراً منه بأنَّ القيادة العامَّة لا تخضع لكبر السنّ، وإنَّما تخضع للمؤهّلات والقابليَّات التي يتمتَّع بها الشخص.

وقال النبيّ ﷺ لأُسامة:

«سِرْ إِلَىٰ مَوْضِعِ أَبِيكَ فَأَوْطِئْهُمُ الْخَيْلَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ هَذَا الْجَيْشَ فَاغْزُ صَباحاً عَلَىٰ أَهْلِ أَبنى[(٣)] وَحَرِّقْ عَلَيْهِم، وَأَسْرِعِ السَّيْرَ لِتَسْبِقَ الأَخْبَارَ، فَإِنْ أَظْهَرَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاقْلِلِ اللَّبْثَ فِيهِمْ، وَخُذْ مَعَكَ الأَدِلَّاءَ، وَقَدِّمِ الْعُيُونَ وَالطَّلائِعَ مَعَكَ».

---

(١) بحار الأنوار: ٢٢/ ٥٠٢.

(٢) كنز العمَّال: ٥/ ٣١٢.

(٣) أبنى: ناحية بالبلقاء من أرض سوريا، تقع بين عسقلان والرملة، بالقرب من مؤتة التي استشهد فيها الشهيد الخالد جعفر الطيَّار وزيد بن حارثة.

وحفلت هذه الوصيَّة بالمناهج العسكريَّة الرائعة التي دلَّت على مدى الخبرة المذهلة في الشؤون العسكريَّة عند النبيّ ﷺ، وفي اليوم التاسع والعشرين من صفر رأى النبيّ ﷺ جيشه قد مُني بالتمرُّد، فلم يلتحق به أعلام الصحابة، فساءه ذلك، وخرج مع ما به من المرض، فحثَّهم على المسير، وعقد بنفسه اللواء لأُسامة وقال له: **«اغْزُ بِسْمِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَاتِلْ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ»**.

وخرج أُسامة معقوداً لواؤه، فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف[١]، وتثاقل بعض الصحابة من الالتحاق بالمعسكر، وأظهروا العصيان والتمرُّد والطعن بقيادة أُسامة، يقول له عمر:

«مات رسول الله، وأنت عليَّ أمير؟».

ونقلت هذه الكلمات إلى النبيّ ﷺ، وقد ازدادت به الحمَّى، فغضب، وخرج وهو معصَّب الرأس، قد دثَّر بقطيفته، فاعتلى المنبر، وهو متبرِّم، فأعلن سخطه البالغ على المتخلِّفين عن جيش أُسامة، وقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْ بَعْضِكُمْ فِي تَأْمِيرِي أُسَامَةُ؟ وَلَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي تَأْمِيرِي أَبَاهُ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَ لَخَلِيقاً بَالإِمَارَةِ وَإِنَّ ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ لَخَلِيقٌ بِهَا»[٢].

ثمَّ نزل عن المنبر، وجعل يؤكِّد على الالتحاق بالجيش، ويلعن من تخلَّف عنه قائلاً:

«جَهِّزُوا جَيْشَ أُسَامَةَ».

«نَفِّذُوا جَيْشَ أُسَامَةُ».

«لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ جَيْشِ أُسَامَةَ».

ولم تثر هذه الأوامر المشدَّدة من رسول الله ﷺ حفائظ نفوسهم، ولم تدفعهم إلى الالتحاق بالجيش، فقد تثاقلوا واعتذروا للرسول ﷺ بشتَّىٰ المعاذير الواهية، وهو سلام الله عليه لم يمنحهم العذر، وإنَّما أظهر لهم السخط وعدم الرِّضا.

رزيَّة يوم الخميس:

واستبان للرسول ﷺ بصورة مكشوفة تصميم بعض الصحابة على صرف الخلافة

---

(١) الجرف: موضع على ثلاثة أميال عن المدينة، نحو جهة الشام، كانت به أموال لعمر بن الخطَّاب ولأهل المدينة، معجم البلدان: ٢/ ١٢٨.

(٢) السيرة الحلبيَّة: ٣/ ٣٤٢.

عن أهل البيت عليهم السلام، فرأى أن يعزِّز بيعة يوم الغدير العامَّة، ويدعمها بثبت خطِّي، فقال: «**ائْتُونِي بِالْكَتِفِ وَالدَّواةِ لأَكْتُبَ لَكُمْ كِتَاباً لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَداً**».

وعلم بعض الصحابة ما يريده النبي ﷺ فقال: «حسبنا كتاب الله».

وكثر الجدل بين القوم، فطائفة حاولت تنفيذ ما أمر به النبيّ ﷺ، وطائفة أُخرى أصرَّت على معارضتها للرسول ﷺ، والحيلولة بينه وبين الكتابة؛ وذلك خوفاً على فوات مصالحها وأطماعها.

وانطلقت بعض السيِّدات من أُمَّهات المؤمنين وغيرهنَّ من وراء الستر، فأنكرن على القوم هذا الموقف المتّسم بالجرأة على النبيّ ﷺوهو في الساعات الأخيرة من حياته، فقلن لهم:

«ألا تسمعون ما يقول رسول الله؟».

«ألا تنفِّذون ما يريد رسول الله؟».

فثار عمر وهو بطل الموقف، وزعيم المعارضة فصاح بالنِّساء قائلاً:

«إنّكنَّ صويحبات يوسف إذا مرض عصرتن أعينكن، وإذا صحَّ ركبتن عنقه».

فرمقه الرسول بطرفه غضباناً، وصاح به:

«**دَعُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ خَيْرٌ مِنْكُمْ**».

وبدا صراع رهيب بين القوم وكادت تفوز الجبهة التي أرادت الكتابة، فانبرى شخص فسدَّد سهماً لما أراده النبيّ ﷺ، فقال ـ ويا لهول ما قال ـ:

«إنَّ النبيّ لَيَهْجُر»[1]!

ما أعظم هذه الجرأة على النبي ﷺ!

ما أقسى هذا الاعتداء على مركز النبيّ ﷺ!

يا لها من كلمة تحمل جميع ألوان الشرّ!

ألم يسمع هذا القائل كلام الله تعالى في شأن النبيّ العظيم، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾[2]؟

---

(١) نصَّ على هذه الحادثة المؤلمة جميع المؤرّخين، ذكرها البخاري في صحيحه عدَّة مرَّات، في: ٤/٦٨ و٦٩، وكتم اسم القائل، وفي نهاية ابن الأثير وشرح النهج: ٣/١٩٤ ذكروا اسم القائل وأنَّه عمر بن الخطَّاب.

(٢) سورة النجم: الآيات ٢ ـ ٥.

ألم تمرّ عليه هذه الآية في سموّ مكانة النبيّ ﷺ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[١]؟

وكان ابن عبّاس إذا ذكر هذا الحادث الرهيب يذوب أسى ولوعة، ويبكي حتّى تسيل دموع عينيه على خدّيه كأنّها نظام اللؤلؤ وهو يقول:

«يوم الخميس، وما يوم الخميس؟ قال رسول الله ﷺ: «**ائْتُونِي بِالْكَتِفِ وَالدَّواةِ لأَكْتُبَ لَكُمْ كِتَاباً لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَداً**»، فقالوا: إنّ رسول الله يهجر»[٢].

ومن المؤكّد أنّ ابن عبّاس إنّما غرق بالبكاء لأنّه علم بأنّ النبيّ ﷺ أراد أن ينصّ على خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

لقد اتّهموا النبيّ ﷺ بالهجر وعدم الوعي الذي فيه طعن صريح بشخصيّة الرسول ﷺ الأمر الذي دعاه أن يُعرض عن الكتابة حفظاً على قداسة النُّبوَّة.

فجيعة الزَّهراء عليها السلام:

مُنيت زهراء الرسول عليها أفضل الصلوات بكارثة مدمِّرة حينما علمت أنّ أباها سيُفارق الحياة، فقد نخب الحزن قلبها الرقيق، وهامت في تيّارات من الأسى واللوعة، وقد لازمت أباها وهي مذهولة كأنّها جثمان فارق الحياة، وقد أحدقت بوجهه الشريف، فسمعته يقول:

«**وَاكَرْباه!**».

فأسرعت قائلة ـ ودموعها تتبلور على وجهها الشريف ـ:

«**وَاكَرْبِي! لِكَرْبِكَ يَا أَبَتِ**».

وأشفق عليها أبوها وراح يسلّيها قائلاً:

«**لَا كَرْبَ عَلَىٰ أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ**»[٣].

وكانت هذه الكلمات أشدّ عليها من الموت، ورآها النبيّ ﷺ وهي ولهى قد خطف الحزن لونها، كأنّها تعاني آلام الاحتضار، فأمرها بالدنوّ منه، فأسرَّ لها بحديث ففاضت عيناها بالدموع، ثمَّ أسرَّ لها بحديث ثانياً فقابلته ببسمات فيّاضة بالبشر والرِّضا، ورأت ذلك عائشة فبهرت وراحت تقول:

---

(١) سورة التكوير: الآيتان ١٩ و٢٠.
(٢) مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٣٥٥.
(٣) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام: ١/ ١٢٨.

«ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن»!

وسألتها عمَّا أسرَّ إليها أبوها، فأشاحت بوجهها عنها، وأبت أن تخبرها، ولمَّا انصرفت أخبرت سلام عليها بعض السيِّدات عن ذلك فقالت:

«أَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرَئِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي بِهِ فِي هَذَا الْعَامِ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ حَضَرَ أَجَلِي».

وكان هذا هو السبب في لوعتها وبكائها، أمَّا السبب في سرورها وابتهاجها فقالت:

«أَخْبَرَنِي أَنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لُحُوقاً بِي، وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ، أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ»[1].

وكانت بضعة الرسول ﷺ إلى جانب أبيها تمرِّضه، وقد ذابت نفسها شعاعاً وحزناً، وقد أخذ يصبِّرها ويخفِّف عنها لوعة الحزن قائلاً:

«يَا بُنَيَّةُ، لَا تَبْكِي، وَإِذَا مِتُّ فَقُولِي: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَإِنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ مَعُوضَةً».

فتجيبه بدموع وصوت متقطِّع حزين قائلة:

«وَمِنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟».

«نَعَمْ، وَمِنِّي»[2].

واشتدَّ الوجع بالنبيِّ ﷺ فقالت له بضعته:

«أَنْتَ وَاللَّهِ! كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ»

فقال لها أبوها:

«هَذَا قَوْلُ عَمِّكِ أَبِي طَالِبٍ»، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3].

---

(١) أنساب الأشراف، القسم الأوَّل: ١/ ١٣٣.

(٢) أنساب الأشراف، القسم الأوَّل: ١/ ١٣٣.

(٣) المصدر المتقدِّم. سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

النبيّ يوصي بأهل بيته:

روى أنس بن مالك، قال: جاءت فاطمة ومعها الحسنان إلى رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفّي فيه فانكبَّت عليه، وألصقت صدرها بصدره وهي غارقة في البكاء، ثمَّ انطلقت إلى بيتها، والنبيّ غارق في البكاء وهو يقول:

«اللَّهُمَّ أَهْلَ بَيْتِي، وَأَنَا مُسْتَوْدِعُهُمْ كُلَّ مُؤْمِنٍ».

وصيَّة النبيّ ﷺ بسبطيه عليهما السلام:

وقبل أن ينتقل النبيّ ﷺ إلى حضيرة القدس بثلاثة أيام أوصى أخاه وباب مدينة علمه أمير المؤمنين عليه السلام برعاية سبطيه قائلاً:

«يَا أَبَا الرَّيْحَانَتَيْنِ، أُوصِيكَ بِرَيْحَانَتَيَّ مِنَ الدُّنْيا، فَعَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدُّ رُكْنَاكَ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ».

ولمَّا قبض النبيّ ﷺ قال الإمام:

«هَذَا أَحَدُ رُكْنَيَّ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهُ ﷺ».

ولمَّا توفّيت سيِّدة نساء العالمين قال:

«هَذَا الرُّكْنُ الثَّانِي الَّذِي قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ»[1].

إلى الفردوس الأعلى:

وآن لسيِّد الكائنات أن يلتحق بالفردوس الأعلى، ويودِّع الحياة، فقد وفد عليه ملك الموت، فاستأذن بالدخول عليه، فأخبرته زهراء الرسول عليها السلام أنَّه مشغول بنفسه عنه، فانصرف، وبعد قليل عاد طالباً الإذن، فأفاق النبيّ ﷺ وقال لبضعته:

«أَتَعْرِفِينَهُ؟».

«لَا، يا رَسُولَ اللَّهِ».

«إِنَّهُ مُعَمِّرُ الْقُبُورِ، وَمُخَرِّبُ الدُّورِ، وَمُفَرِّقُ الْجَمَاعَاتِ».

وذهلت حبيبة النبيّ ﷺ، واندفعت بألم وحزن تقول:

«واأَبَتَاه! لِمَوْتِ خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ، وَامُصِيبَتَاه! لِمَمَاتِ خَيْرِ الأَتْقِيَاءِ، وَلانْقِطَاعِ سَيِّدِ الأَصْفِيَاءِ، وَاحَسْرَتَاه! لانْقِطَاعِ الْوَحِي مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ حُرِمْتُ الْيَوْمَ كَلامَكَ».

---

(١) أمالي الصدوق: ص١١٩.

وتصدَّع قلب النبيّ ﷺ، وراح يسلِّي بضعته قائلاً:

«**لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقاً بِي**»[١].

وأذن النبيّ ﷺ لملك الموت بالدخول عليه، ولمَّا مثل أمامه قال له:

«**يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُطِيعَكَ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرُنِي بِهِ، إِنْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَقْبِضَ نَفْسَكَ قَبَضْتُهَا، وَإِنْ تَأْمُرْنِي أَنْ أَتْرُكَهَا تَرَكْتُها**».

وبهر النبيّ ﷺ وقال:

«**أَتَفْعَلُ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ذَلِكَ؟**».

«**بِذَلِكَ أُمِرْتُ أَنْ أُطِيعَكَ فِي كُلِّ مَا أَمَرْتَنِي**».

ولم يحظ أحد من أنبياء الله تعالى بهذه المنزلة بمثل ما حظي به سيِّد الأنبياء محمَّد ﷺ، وهبط عليه جبرئيل فقال له:

«**يَا أَحْمَدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدِ اشْتَاقَ إِلَيْكَ**».

واختار النبيّ ﷺ جوار ربِّه، فإنَّ الآخرة خير له من الدُّنيا وأبقى.

وأذن النبيّ ﷺ لملك الموت باستلام روحه المقدَّسة، ودعا وصيّه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فلمَّا مثل أمامه قال له:

«**ضَعْ رَأْسِي فِي حِجْرِكَ، فَقَدْ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ، فَإِذَا فَاضَتْ نَفْسِي فَتَنَاوَلْهَا، وَامْسَحْ بِهَا وَجْهَكَ، ثُمَّ وَجِّهْنِي إِلَىٰ الْقِبْلَةِ، وَتَوَلَّ أَمْرِي، وَصَلِّ عَلَيَّ أَوَّل النَّاسِ، وَلاَ تُفَارِقْنِي حَتَّىٰ تُوارِيَنِي فِي رَمْسِي وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**».

وأخذ الإمام عليه السلام رأس النبيّ فوضعه في حجره، ومدَّ يده اليمنى تحت حنكه، وفاضت روحه العظيمة إلى بارئها، فمسح بها الإمام عليه السلام وجهه الشريف[٢].

وكان أعظم أهل البيت لوعة وحزناً بضعة الرسول وريحانته، فقد وقعت على الجثمان المقدَّس وهي تبكي أمرّ البكاء، وتقول بذوب روحها:

«**وَاأَبَتَاه!**».

«**وانَبِيَّ الرَّحْمَة**».

---

(١) درَّة الناصحين: ص٦٦.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/٢٩.

«الآنَ لَا يَأْتِي الْوَحيِ، الآنَ يَنقَطِعُ عَنَّا جَبْرَئِيلُ، اللَّهُمَّ أَلْحِقْ رُوحِي بِرُوحِهِ، وَاشْفَعْنِي بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ، وَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَهُ وَشَفَاعَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

وأخذت تجول حول الجثمان العظيم وهي ولهى قد أخرسها الخطب قائلة:

«وَاأَبَتَاهُ! إِلَىٰ جَبْرَئِيلَ أَنْعَاهُ».

«وَاأَبَتَاهُ! جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ».

«وَاأَبَتَاهُ! أَجَابَ رَبَّاً دَعَاهُ»[٢].

ومادت الأرض، وذهل المسلمون حتَّى عن نفوسهم، فيا لهول الفاجعة الكبرى.

تجهيز الجثمان العظيم:

وتولَّىٰ الإمام أمير المؤمنين ﷺ تجهيز أخيه؛ وذلك بأمر منه، وهو يذرف أحرّ الدموع، فغسَّل الجسد الطاهر وهو يقول:

«بِأَبِي أَنتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّىٰ صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّىٰ صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَواءً. وَلَوْلاَ أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً»[٣].

وتحدَّث الإمام ﷺ عمَّن أعانه على غسله، فقال:

«وَلَقَدْ وَلِيتُ غُسْلَهُ - ﷺ - وَالْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالأَفْنِيَةُ، مَلأٌ يَهْبِطُ وَمَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ[٤] يُصَلُّونَ عَلَيْهِ».

وكان العبَّاس عمّ النبيّ ﷺ وأسامة يناولان الإمام الماء من وراء الستر[٥]، وكان الطيب يفوح من الجسد الطاهر، والإمام يقول:

«بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، طِبْتَ حَيَّاً وَمَيِّتاً»[٦]، أمَّا الماء الذي غسِّل به الجسد الطاهر فهو من بئر يُقال لها الفرس، وكان النبيّ ﷺ يشرب منها[٧].

---

(١) تاريخ الخميس: ٢/ ١٩٢.
(٢) سيرة أعلام النبلاء: ٢/ ٨٨.
(٣) نهج البلاغة: ٢/ ٢٥٥.
(٤) الهينمة: الصوت الخفيّ.
(٥) البداية والنهاية: ٥/ ٢٦٣.
(٦) الطبقات الكبرى: ٢/ ٦٣.
(٧) البداية والنهاية: ٥/ ٢٦١.

وبعدما فرغ الإمام من غسل الجسد الطاهر أدرجه في أكفانه ووضعه على السرير.

الصلاة على الجثمان العظيم:

وأوَّل من صلَّى على الجثمان العظيم هو الله تعالى من فوق عرشه، ثمَّ جبرئيل، ثمَّ إسرافيل، ثمَّ الملائكة زمراً زمراً[1]، وهرع المسلمون للصلاة على جثمان نبيّهم، فقال لهم الإمام:

«لَا يَقُومُ عَلَيْهِ إِمَامٌ مِنكُمْ، هُوَ إِمَامُكُمْ حَيَّاً وَمَيِّتاً»، فكانوا يدخلون عليه رسلاً رسلاً فيصلُّون عليه صفّاً ليس لهم إمام، وأمير المؤمنين واقف إلى جانب الجثمان وهو يقول:

«السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.. اللَّهُمَّ اشْهَدْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَنَصَحَ لأُمَّتِهِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ وَتَمَّتْ كَلِمَتُهُ، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَتَّبِعُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَثَبِّتْنَا بَعْدَهُ، وَاجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ».

وكان المصلّون يقولون بعد ذلك: آمين[2]، وكانت جموع المسلمين بعد الصلاة تمرُّ على الجثمان العظيم فتلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة وهي مذهولة غارقة في تيّارات من الأسى والحزن، فقد مات المنقذ، ومات المعلِّم، ومات من أسَّس لهم دولة سيطرت على معظم أنحاء العالم.

مواراة الجثمان العظيم:

وبعدما فرغ المسلمون من أداء الصلاة على الجثمان المقدَّس قام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فحفر القبر، وبعد الانتهاء منه وارى جثمان سيِّد الكائنات، وأسمى شخصيَّة خلقها الله تعالى في هذا الكون، وأفضل داعية لله تعالى في الأرض، ووقف الإمام على حافَّة القبر وهو يروي ترابه من ماء عينيه قائلاً:

«إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ، وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ، وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ، وَإِنَّهُ قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ»[3].

تأبين الإمام عليه السلام:

وألقى الإمام عليه السلام كلمة تأبينيَّة للرسول ﷺ وختمها بهذه الأبيات:

---

(١) حلية الأولياء: ٤/ ٧٧.

(٢) كنز العمَّال: ٤/ ٥٤.

(٣) نهج البلاغة: ٣/ ٢٢٤.

«مَا فَاضَ دَمْعِي عِنْدَ نَازِلَةٍ إِلَّا جَعَلْتُكَ لِلْبُكَا سَبَبا
فَإِذَا ذَكَرْتُكَ سَامَحَتْكَ بِهِ مُقَلُ الْجُفُونِ فَفَاضَ وَانْسَكَبا
إِنِّي أُجِلُّ ثَرىً حَلَلْتَ بِهِ مِنْ أَنْ أَرىٰ بِسِوَاهُ مُكْتَئِبا»[1]

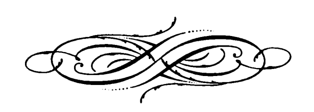
فزع أهل البيت عليهم السلام:

وفزع أهل البيت عليهم السلام كأشدّ ما يكون الفزع، وداخلهم خوف رهيب من الأُسر القرشيَّة الذين وترهم الإمام عليه السلام بسيفه، وكانت تتربَّص بالإمام عليه السلام الدوائر، وتبغي له الغوائل، وقد بات هو وأهل بيته بأطول ليلة قد حاطت بهم الهواجس والآلام، وقد حكى الإمام الصَّادق عليه السلام مدى ذعرهم بقوله:

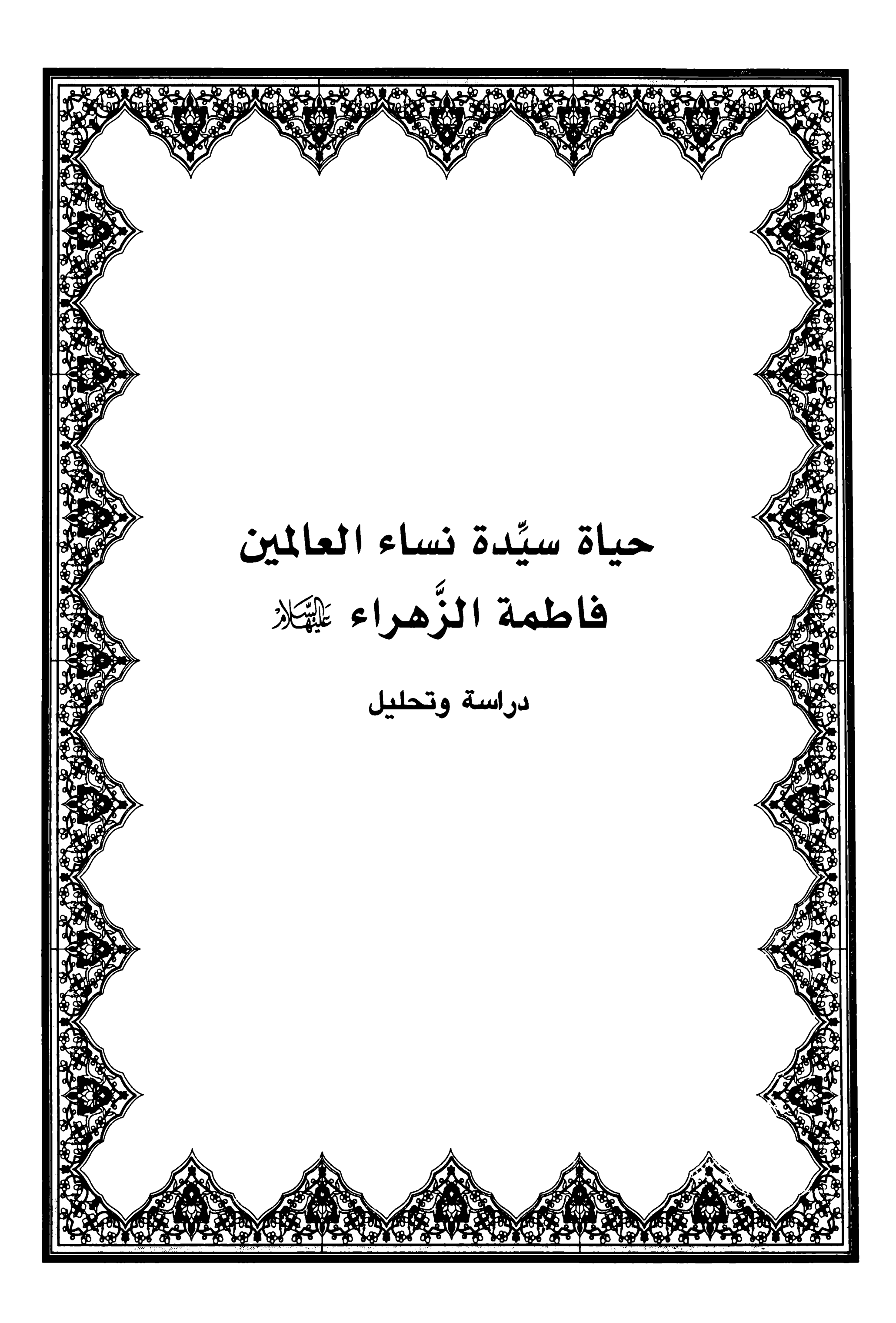
«لَمَّا ماتَ النَّبِيُّ ﷺ بَاتَ أَهْلُ بَيْتِهِ كَأَنْ لَا سَمَاءَ تُظِلُّهُم، وَلَا أَرْضَ تُقِلُّهُم؛ لأَنَّهُ وَتَرَ الأَقْرَبَ وَالأَبْعَدَ»[2].

ومنذ وفاة النبيّ ﷺ تتابعت المحن والخطوب على أهل بيته، يتبع بعضها بعضاً، فقد انتقمت منهم قريش، وأعلنت بصراحة:

«لا تجتمع النُّبوَّة والخلافة في بيت واحد»، فأبعدتهم عن مراكزهم، وحالت بينهم وبين ما أراده الله تعالى ورسوله لهم، فلم تمض على انتقال النبيّ ﷺ إلى حضيرة القدس خمسون عاماً وإذا بهم في موكب جهير يطوف الأقطار حاملين رؤوس أبنائه على أطراف الرماح، وبناته سبايا يتصفَّح وجوههنَّ القريب والبعيد، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.



(١) ربيع الأبرار: ٤/١٩٢.
(٢) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٢/٩٦ ـ ٩٧.



حياة سيِّدة نساء العالمين
فاطمة الزَّهراء عليها السلام

دراسة وتحليل

النَّسب الوضَّاءُ

الأب: أمَّا أبو الزهراء فهو سيِّد الكائنات، وزعيم الإنسانيَّة الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله.

الأُمّ: أمَّا أُمّ زهراء الرسول سلام الله عليها فهي خديجة بنت خويلد الطاهرة، وكانت تُسمَّى سيِّدة نساء قريش في الجاهلية، وأُمّ المؤمنين في الإسلام، ذات الشرف الأصيل، والمجد الأثيل.

مساندة خديجة للنبيّ صلى الله عليه وآله وخدماتها في نشر الإسلام:

وقفت أُمّ المؤمنين خديجة إلى جانب الرسول صلى الله عليه وآله تشدُّ أزره، وتعينه على احتمال أقسىٰ ألوان الأذىٰ والاضطهاد التي كان يُعانيه من قريش، فقد روى ابن إسحاق قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك إلاَّ فرَّج الله بخديجة إذا رجع إليها تثبِّته، وتخفِّف عنه، وتصدِّقه، وتهوِّن عليه أمر الناس وما زالت على ذلك حتَّى لحقت بربِّها[1].

وسخَّرت أُمّ المؤمنين خديجة ثراءها العريض لخدمة الإسلام، فقد بذلت بسخاء جميع ما تملكه لنشر الدعوة الإسلاميَّة، وكان من أهمّ نفقاتها حينما اعتقلت قريش النبيّ صلى الله عليه وآله مع من آمن به من الهاشميِّين في شِعب أبي طالب، فقد فرضوا عليهم الحرمان الاقتصادي، وحرموا إسعافهم بالطعام وغيره، وقد أمدَّتهم أُمّ المؤمنين خديجة بجميع ما يحتاجون إليه من الطعام وغيره، طيلة المدَّة التي كانت تزيد على السنتين، فما أعظم عائدتها على الإسلام والمسلمين.

لقد قدَّمت خديجة للإسلام جميع ما تملكه من الثراء، ولم يبق شيء عندها من المال، حتَّى بلغ بها الفقر أنَّها لا تملك حصيراً تجلس عليه، فجزاها الله عن الإسلام، وأجزل لها المزيد من الأجر.

ولأُمّ المؤمنين خديجة المكانة المتميِّزة عند الله تعالى، فقد شكر مساعيها وأثنى

(١) الإصابة: ٤/ ٢٧٣.

على خدماتها العظيمة في مساندتها للنبيّ ﷺ ونشرها للإسلام، وقد تواترت الأخبار أنَّ الله تعالى أرسل لها تحيَّة وسلاماً على يد عبده ورسوله محمَّد ﷺ[١].

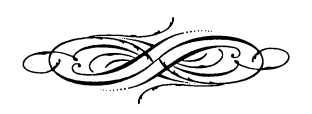
وكان من عظيم منزلة أُمّ المؤمنين خديجة عند الله تعالى أن منحها الله قصراً في الفردوس الأعلى هو من أعلى القصور التي أعدَّها تعالى للصالحين والصالحات من عباده، فقد جاء في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أُمِرْتُ أنْ أبشِّرَ خدِيْجَةَ بِبيْتٍ في الجنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبٍ فِيهِ ولا نَصَبٍ»**[٢].

واحتلّت أُمّ المؤمنين خديجة عواطف النبيّ ﷺ، وحظيت بأسمىٰ مكانة عنده، فكان يقيم لها في نفسه خالص المودَّة والحبّ، وقد حدَّثت عائشة عن عميق حبّ النبيّ لخديجة قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتَّى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً فأدركتني الغيرة فقلت: هل كانت إلاّ عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها.

فغضب ﷺ حتَّى اهتزَّ مقدّم شعره من الغضب، ثمَّ قال: **«لا واللَّهِ! ما أبدلَنِي اللَّهُ خَيْراً مِنْها، آمَنَتْ بِي إذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَواسَتْنِي في مَالِهَا إذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرزَقَنِي مِنْها أوْلاداً إذْ حَرَمَنِي أوْلادَ النِّساءِ»**[٣].

لقد اختطف الموت خديجة التي كان أبرّ الناس برسول الله ﷺ، وأحنّ أهل بيته عليه، وأسرعهم لنصرته وتوطيداً ودعماً لرسالته.

وقد تركت خديجة ابنتها فاطمة وهي في دور الطفولة قد غمرها الحزن، واستولت عليها الهموم.



(١) الإصابة: ٤/ ٢٧٤.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٣/ ١٩٧.

(٣) الاستيعاب: ٤/ ٢٧٨.

ولادة الصدِّيقة ونشأتُها

مراسيم الولادة:

وحينما بشِّر النبيّ صلى الله عليه وآله بولادة خديجة للزَّهراء عليها السلام سارع إلى البيت. فأخذ وليدته المباركة وأوسعها تقبيلاً، وأجرى عليها مراسيم الولادة الشرعية وهي:

الأذان والإقامة:

وأذَّن النبيّ صلى الله عليه وآله في أُذُن وليدته اليُمنى، وكان نشيد ذلك الأذان:

«اللّهُ أكْبَرُ».

«لا إلَهَ إلاَّ اللّهُ».

وكان أوَّل صوت قرع سمع الصدِّيقة صوت أبيها داعية الله الأكبر في الأرض، وقد غذَّاها بهذه الكلمات التي بعثه الله بها من أجل إشاعتها بين الناس، فكانت جزءً من حياتها الفكرية التي لازمتها في جميع فترات حياتها.

ثمَّ تلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله نشيد الإقامة في أُذُنها اليُسرى، وانطبع صوت أبيها في فصول الإقامة بأعماق نفسها ودخائل ذاتها، حتَّى صارت من مقوَّماتها، وهبط على النبيّ صلى الله عليه وآله جبرئيل فأبلغه السلام من الله تعالى له ولمولودته المباركة[١].

زمن ولادتها:

اختلف الرواة في زمن ولادة الصدِّيقة سيِّدة نساء العالمين عليها السلام، وهذه بعض الأقوال:

١ ـ ولدت الصدِّيقة الطاهرة بعد البعثة النبويَّة بخمس سنين، وبعد الإسراء بثلاث سنين في العشرين من جمادى الآخرة[٢]، وكانت ولادتها في يوم الجمعة[٣]، وهو اليوم المبارك.

---

(١) ميزان الاعتدال: ٤/ ٧٢.

(٢) أعلام الورىٰ: ١٤٨.

(٣) الكوثر في أحوال فاطمة بنت النبي الأطهر: ١/ ٣٠٩.

٢ ـ ولدت بعد البعثة النبويَّة بسنة[١].

٣ ـ ولدت قبل البعثة النبويَّة بخمس سنين، وهذا القول شاذٌ ومتروك[٢].

٤ ـ ونصَّت بعض المصادر أنَّها ولدت قبل البعثة النبويَّة إلاَّ أنَّها أهملت السنة والشهر الذي ولدت فيه[٣].

المكان:

أمَّا المكان الذي حظي بولادة الصدِّيقة فهو مكَّة، وفي بيت أُمّ المؤمنين خديجة الذي يقع بالقرب من زقاق العطَّارين، وفي هذا الوقت صار مسجداً.

تسميتها:

سمَّى النبيّ ﷺ وليدته المباركة بفاطمة، ولم يكن هذا الاسم غريباً، فقد كان اسماً لأُمّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وروي عن أهل البيت عليهم السلام أنَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام سأل رسول الله ﷺ، **فقال له:**

«لِمَ سُمَّيْتَ فاطمةَ يا رسول الله؟».

فقال ﷺ:

«لأنَّها فُطمَتْ هِي وشِيْعَتُها مِنَ النَّارِ»[٤].

ألقابها:

١ ـ الصدِّيقة: وهي أصدق امرأة في دنيا الإسلام وغيره، وقد صدَّقت وآمنت بنبوَّة أبيها وما أخبر به من شؤون الآخرة وغيرها.

٢ ـ المباركة: بوركت هي وذرِّيَّتها حماة الإسلام ودعاة الله تعالى في الأرض.

٣ ـ الطاهرة: وهي أطهر بنات حوَّاء، وأعفّهنَّ، وقد قلَّدها الله تعالى هذا الوسام بآية التطهير قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٥]، وبإجماع المفسِّرين أنَّها من أهل البيت الذين منحهم الله هذا الوسام.

---

(١) نساء النبيّ وأولاده: ٩٠.
(٢) مأساة الزهراء عليها السلام: ١/ ٣٦.
(٣) الإصابة: ٨/ ٥٤.
(٤) نساء النبي وأولاده: ٩١.
(٥) الأحزاب: ٣٣.

٤ ـ **الزكية**: وهي أزكى امرأة في الإسلام، فقد زكت من كلّ رجس وإثم.

٥ ـ **الراضية**: فقد رضت بما قسم الله لها من البساطة في العيش والزهد في متع الدُّنيا.

٦ ـ **المُحدَّثة**: لأنَّ الملائكة كانت تحدِّثها، كما كانت الملائكة تحدِّث مريم، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾[١].

٧ ـ **البتول**: سمِّيت بذلك لأنَّها بتلت وانقطعت عن النظير، فليس لها ندّ من النِّساء يشبهها في فضائلها، وقد سئل أحمد بن يحيى عن سبب تسميتها بالبتول، فقال: لانقطاعها عن نساء أهل زمانها ونساء الأُمَّة، عفافاً وفضلاً وديناً وحسباً. وقيل: لانقطاعها عن الدُّنيا إلى الله عزَّ وجلَّ[٢].

٨ ـ **الزَّهراء**: سمِّيت بذلك لأنَّها كانت تزهر بعظيم إيمانها وسموّ أخلاقها، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن السبب في تسميتها بهذا الاسم فقال: **«إنَّها إذا قامَتْ في محْرابِها زَهَرَ نُورُها لأهلِ السَّماءِ، كما تُزْهر الكَواكِبُ لأهْلِ الأرضِ»**[٣].

كنيتها:

١ ـ **أُمّ أبيها**: كُنيت بذلك لعظيم حنوّها وشفقتها على أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله[٤].

ومن حنوّها على أبيها، وعظيم محبَّتها له، أنَّه قَدِم من بعض الغزوات إلى المدينة، وكان أوَّل ما يدخل على بيت فاطمة قبل أن يدخل إلى بيت زوجاته، واستقبلته فاطمة، وجعلت تقبِّل وجهه وعينيه وتبكي، فقال لها الرسول صلى الله عليه وآله: **«ما يُبْكِيكِ؟»**.

فانبرت قائلة: **«أراك قَدْ شَحُبَ لوْنُكَ»**.

فهدَّأ النبيّ صلى الله عليه وآله روعتها وقال لها: **«يا فاطِمَةُ، إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بعثَ أباكِ بأمْرٍ لَمْ يَبْقَ عَلى ظَهْرِ الأرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ ولا شَعَرٍ إلاَّ أدْخَلَهُ بِهِ عِزّاً أوْ ذلًّا يبْلُغُ حَيثُ بَلَغَ اللَّيلُ»**[٥].

وكانت تعظِّم أباها وتحنو له إجلالاً، فكانت تخاطبه يا رسول الله خصوصاً لمَّا

---

(١) آل عمران: ٣/ ٤٥.
(٢) لسان العرب: ١٦/ ٤٣.
(٣) نساء النبي وأولاده: ٩٢.
(٤) الاستيعاب: ٢/ ٧٥٢.
(٥) حلية الأولياء: ٢/ ٣٠.

نزلت الآية الكريمة: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾(١)، وشقَّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وآله فقال لها: **«يا فاطمةُ، إنَّها - أي الآية - لَمْ تَنْزِلْ فِيكِ، ولا فِي أَهْلِكِ، ولا فِي نَسْلِكِ، أنْتِ منّي وأنا مِنْكِ، إنَّما نَزَلَتْ في أهْلِ الجَفاءِ والغِلْظَةِ مِنْ قُرَيشٍ؛ أصحابَ البَذْخِ والكِبَرِ، قُولِي: يا أبة، فإنَّها أحْيىٰ للقَلْبِ، وأرْضىٰ لِلرَّبِّ»**(٢).

٢ - **أمّ الحسنين:** كُنيت بأُم الحسنين، وهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسيِّديْ شباب أهل الجنَّة.

٣ - **أمّ الحسن:** وهو نجلها الأكبر الإمام الزكي الحسن عليه السلام.

٤ - **أمّ الحسين:** وهو نجلها الثاني محيي الإسلام ومنقذ المسلمين، وأبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام.

نقش خاتمها:

كان نقش خاتم سيِّدة النِّساء **«أَمِنَ المُتَوَكِّلُونَ»**.

وقيل: كان نقشه: **«اللَّهُ وليُّ عِصْمَتِي»**(٣).

نشأتها:

نشأت سيِّدة نساء العالمين فاطمة سلام الله عليها في كنف أبيها سيِّد الكائنات وفي ذرىٰ عطفه، فغذَّاها بمواهبه، وأفاض عليها مكوّناته النفسية التي أشرفت بها سماء الدُّنيا، وعلَّمها القرآن الكريم، وأحاطها علماً بجميع ما يتعلَّق بآيات الأحكام وأسباب النزول، وغير ذلك ممَّا يرتبط به، كما درَّسها أحكام الشريعة من العبادات والمعاملات، كما رسم لها محاسن الأخلاق وأُصول الآداب، وربَّاها على الإيمان الخالص بالله تعالى خالق الكون وواهب الحياة.

من معالم التربية النبوية لها:

من برامج التربية التي قدَّمها النبيّ صلى الله عليه وآله إلى زهرائه سيِّدة نساء العالمين عليها السلام أنَّه أوصاها بما يلي:

«لَيْسَ مِنَ المُؤْمِنِينَ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جارُهُ بَوائِقَهُ.

---

(١) سورة النُّور: ٢٤/ ٦٣.

(٢) بحار الأنوار: ٤٣/ ٣٣.

(٣) الكوثر في أحوال فاطمة بنت النبيّ الأطهر: ١/ ٣٠٩.

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فلا يُؤْذِي جَارَهُ.

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ يَسْكُتْ.

إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الخَيِّرَ الحَلِيمَ المُتَعَفِّفَ، وَيُبْغِضُ الْفاحِشَ الضَّنِينَ السَّائِلَ المُلْحِفَ.

إنَّ الحَياءَ مِنَ الإيمانِ، والإيمانُ فِي الجَنَّةِ، وإنَّ الفُحْشَ مِنَ البَذاءِ، وَالبَذاءُ فِي النَّارِ...»[1].

ومن مناهج تربية النبيّ صلى الله عليه وآله لبضعته أنَّه دخل عليها فرأى في عنقها قلادة فشاح بوجهه عنها، فنزعتها وقدَّمتها إلى أبيها، فقال لها: «وَأنتِ مِنِّي يا فَاطِمَةُ».

وطرق الباب سائل، فقام النبيّ صلى الله عليه وآله فناوله القلادة ثمَّ قال: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلىٰ مَنْ أَهْرَقَ دَمِي، وآذانِي فِي عِتْرَتِي»[2].

أدعية علَّمها النبيّ صلى الله عليه وآله للزَّهراء عليها السلام:

ومن معالي تربية النبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه علَّمها بعض الأدعية التي فيها سلامة للإنسان ونجاة له، ومنها هذا الدُّعاء:

يا اللَّهُ، يا أعَزَّ مَذْكُورٍ وأقْدَمَهُ قِدَماً فِي العِزَّةِ والجَبَرُوتِ.

يا اللَّهُ، يا رَحِيمَ كُلِّ مُسْتَرْحِمٍ، وَمَفْزَعَ كُلِّ مَلْهُوفٍ إلَيْهِ.

يا اللَّهُ، يا رَاحِمَ كُلِّ حَزِينٍ يَشْكُو بَثَّهُ وَحُزْنَهُ إلَيْهِ.

يا اللَّهُ، يا خَيْرَ مَنْ طُلِبَ المَعْرُوفُ مِنْهُ، وأسْرَعَ فِي العَطاءِ.

يا اللَّهُ، يا مَنْ تَخافُ المَلائِكَةُ المُتَوَقِّدَةُ بِالنُّورِ مِنْهُ.

أسْألُكَ بِالأسْماءِ الَّتِي يَدْعُوكَ بِها حَمَلَةُ عَرْشِكَ، وَمَنْ حَوْلَ عَرْشِكَ، بِنُورِكَ يُسَبِّحُونَ بِهَا شَفَقَةً مِنْ خَوْفِ عَذابِكَ، وَبِالأسْماءِ الَّتِي يَدْعُوكَ بِها جَبْرَئِيلُ وَمِيكائِيلُ وَإسْرافِيلُ إلاَّ أجَبْتَنِي، وَكَشَفْتَ يَا إلَهِي كُرْبَتِي، وَسَتَرْتَ ذُنُوبِي.

يا مَنْ يَأْمُرُ بالصَّيْحَةِ فِي خَلْقِهِ فَإذَا هُمْ بالسَّاهِرَةِ يُحْشَرُونَ، أسْألُ بِذَلِكَ الاسْمِ الَّذِي تُحْيِي بِهِ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ أنْ تُحْيِيَ قَلْبِي، وَتَشْرَحَ صَدْرِي، وَتُصْلِحَ شَأْنِي.

يا مَنْ خَصَّ نَفْسَهُ بِالْبَقاءِ، وَخَلَقَ لِبَرِيَّتِهِ المَوْتَ وَالحياةَ، يا مَنْ فِعْلُهُ قَوْلٌ، وَقَوْلُهُ

---

(١) دلائل الإمامة: ٦٦.

(٢) كشف الغمَّة: ١/ ٤٧١.

أَمْرٌ، وَأَمْرُهُ ماضٍ علىٰ ما يَشاءُ، أَسْأَلُكَ بالاسْمِ الَّذِي دَعاكَ بِه خَلِيلُكَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ فاسْتَجَبْتَ لَهُ، وَقُلْتَ: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1].

وَبِالاسْمِ الَّذِي دَعاكَ بِهِ مُوسىٰ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ فاسْتَجَبْتَ لَهُ دُعاءَهُ.

وَبِالاسْمِ الَّذِي كَشَفْتَ بِهِ عَنْ أَيُّوبَ الضُّرَّ، وَتُبْتَ عَلىٰ داوُدَ، وَسَخَّرْتَ بِه لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ والشَّياطِينَ، وعَلَّمْتَهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ.

وبِالاسْمِ الَّذِي وَهَبْتَ بِهِ لِزَكَرِيَّا يَحْيىٰ، وَخَلَقْتَ عِيسىٰ مِنْ رُوحِ القُدُسِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ.

وَبِالاسْمِ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ العَرْشَ وَالكُرْسِيَّ.

وَبِالاسْمِ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ الرَّوْحانِيِّينَ.

وَبِالاسْمِ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ الجِنَّ وَالإِنسَ.

وَبِالاسْمِ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ جَمِيعَ الخَلْقِ وَجَمِيعَ مَا أَرَدْتَ مِنْ شَيْءٍ.

وَبِالاسْمِ الَّذِي قَدَرْتَ بِهِ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ.

أَسْأَلُكَ بِهٰذِهِ الأَسْماءِ لَما أَعْطَيْتَنِي سُؤالِي، وَقَضَيْتَ بِها حَوائِجِي»[2].

ومن الأدعية التي علَّمها النبيّ ﷺ هذا الدُّعاء عند نزول المصيبة:

يا عَالِمَ الغَيْبِ والسَّرائِرِ، يا مُطاعُ يا عَلِيمُ، يا اللَّهُ يا اللَّهُ يا اللَّهُ، يا هَازِمَ الأَحْزابِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، يا كائِدَ فِرْعَوْنَ لمُوسى، يا مُنْجِيَ عِيسى مِنَ أَيْدِي الظَّلَمَةِ، يا مُخَلِّصَ قَوْمِ نُوحٍ مِنَ الغَرَقِ، يا رَاحِمَ عَبْدِهِ يَعْقُوبَ، يا كَاشِفَ ضُرِّ أَيُّوبَ، يَا مُنْجِيَ ذِي النُّونِ مِنَ الظُّلُماتِ، يا فَاعِلَ كُلِّ خَيْرٍ، يا هادِياً إلى كُلِّ خَيْرٍ، يا دالًّا عَلى كُلِّ خَيْرٍ، يا آمِراً بِكُلِّ خَيْرٍ، يا خَالِقَ الْخَيْرِ، وَيا أَهْلَ الخَيْرِ، أَنْتَ اللَّهُ رَغِبْتُ إِلَيْكَ فِيما قَدْ عَلِمْتُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلىٰ محمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ[3].

ومن الأدعية التي علَّمها النبيّ ﷺ هذا الدُّعاء لدفع الأرق:

عن الإمام عليّ ﵇ أنَّ فاطمة ﵍ شكت إلى رسول الله ﷺ الأرق فقال لها قولي:

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.

(٢) مهج الدعوات: ٢٠٧.

(٣) بحار الأنوار: ٨٨/ ٣٧٠.

يا مُشْبِعَ البُطُونِ الجائِعَةِ، وَيا كاسِيَ الجُسُوم العارِيَةِ، وَيا ساكِنَ العُرُوقِ الضَّارِبَةِ، وَيا مُنَوِّمَ العُيُونِ السَّاهِرَةِ، سَكِّنْ عُرُوقِي الضَّارِبَةِ، وَأْذَنْ لِعَيْنِي نَوْماً عاجِلاً»(١).

شبهها بالنبيّ صلى الله عليه وآله:

حدَّث جابر بن عبد الله الأنصاري عن مشابهة الزَّهراء لأبيها قال: ما رأيت فاطمة تمشي إلاَّ ذكرت رسول الله صلى الله عليه وآله، تميل على جانبها الأيمن مرَّة، وعلى جانبها الأيسر مرَّة(٢).

وقالت عائشة: ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ودلًّا وهدياً وحديثاً برسول الله صلى الله عليه وآله في قيامه وقعوده من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت إذا دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله قام إليها فقبَّلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبَّلته، وأجلسته في مجلسها(٣).

عيادة النبيّ صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام:

ألمَّت بعض الأمراض بسيِّدة نساء العالمين صلام الله عليها، فبادر النبيّ صلى الله عليه وآله مسرعاً لعيادتها والاطمئنان على سلامتها، وقد انبرى معه عمران بن حصين، فلمَّا انتهيا إلى بابها سلَّم عليها النبيّ صلى الله عليه وآله وقال لها: «أَدْخُلُ أنا وَمَنْ مَعِي؟».

قالت: «نَعَمْ، وَمَنْ مَعَكَ... يا أَبَتاهُ، فَواللَّهِ ما عَلَيَّ إلاَّ عَباءَةٌ».

فأمرها النبيّ صلى الله عليه وآله بالتستّر بها، وأعطاها ملاءة كانت عليه لتستر رأسها، فصنعت ذلك، ثمَّ دخل عليها فقال لها: «كَيْفَ تَجِدِينَكِ يا بُنَيَّةُ؟».

قالت: «إنِّي لَوَجِعَةٌ، وَإنَّهُ لَيَزِيدُنِي أَنَّهُ ما لِي طَعامٌ آكُلُهُ».

والتفت إليها النبيّ صلى الله عليه وآله فقلَّدها وساماً قائلاً: «أما تَرْضَيْنَ أَنَّكِ سَيِّدَةُ نِساءِ الْعَالَمِينَ».

قالت: «يا أَبَتِ، فأَيْنَ مَرْيَمُ؟».

قال: «تِلْكَ سيِّدَةُ نِساءِ عَالَمِها، وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِساءِ عالَمِكِ»(٤).

---

(١) فلاح السائل: ٣٨٤.
(٢) بحار الأنوار: ٤٣/٧.
(٣) ذخائر العقبى: ٤٠.
(٤) حلية الأولياء: ٢/٤٢.

عناصرها النفسية

العصمة:

أمَّا العصمة من اقتراف الذُّنوب عمداً وسهواً فهي من عناصر سيِّدة النِّساء فاطمة سلام الله عليها، ومن مقوّماتها الذاتية التي لا يمكن الجدل والشكّ فيها، فقد زكَّاها الله تعالى من كلّ إثم، وعصمها من كلّ ذنب، وحباها بكلّ فضل، وجعلها قدوة حسنة لجميع نساء العالم، فهي القدوة في عبادتها وعفَّتها وطهارتها وإحسانها وبرّها بالبؤساء والمحرومين...

أمَّا ما يدعم عصمتها فهو:

آية التطهير: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وأهل البيت هم: عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[2].

البرّ بالفقراء:

من عناصر سيِّدة النِّساء سلام الله عليها البرّ بالفقراء، والعطف على المحرومين، وكانت مع زوجها وولديها من المعنيِّين بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[3]، ونعرض لصور من برّها وإحسانها.

١ ـ إنَّها كانت تطحن الحبّ من الحنطة والشعير لفقراء جيرانها الذين يعجزون عن الطحن.

٢ ـ إنَّها كانت تستقي الماء بقربة فتحمله لضعفاء جيرانها من الذين لا يتمكَّنون من الحصول على الماء.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) تفسير الرازي: ٦/ ٧٨٣.

(٣) سورة الدهر: الآيتان ٨ و٩.

٣ ـ إنَّها في ليلة زفافها كان عليها ثوب جديد، فعلمت أنَّ فتاة من الأنصار لم تجد ثوباً تلبسه، فخلعت سلام الله عليها ثوب عرسها وأعطته للفتاة.

ومن برّ سيِّدة النِّساء ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري قال:

صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر، فلمَّا انفتل جلس في القبلة والناس حوله، وأقبل شيخ طاعن بالسنّ، وهو يشكو الجوع قائلاً: يا نبيَّ الله، أنا جائع فأطعمني، وعاري فاكسني، فأمره رسول الله ﷺ بإتيان بيت بضعته، فانطلق الأعرابي ووقف على باب سيِّدة النِّساء فسلَّم عليها، وقال لها: يا بنت محمَّد، أنا عاري الجسد جائع فواسيني يرحمك الله، وكانت الزهراء في ضائقة اقتصادية، فلم تجد شيئاً تسعفه سوى جلد كبش كان ينام عليه ولدها الحسن والحسين، فقالت له: **«خُذْ هَذا أيُّها الشَّيْخُ»**، فزهد فيه وردَّه إليها، فعمدت فاطمة إلى عِقد كان في عنقها فنزعته، وناولته له، كان قد أهدته لها فاطمة بنت عمّها حمزة بن عبد المطّلب، فأخذه الأعرابي وأقبل نحو رسول الله ﷺ وقال له: أعطتني فاطمة هذا العقد، وقالت: بعه عسى الله أن يعوِّضك به خيراً، فبكى النبيّ ﷺ وقال: **«وَكَيْفَ لا يَصْنَعُ اللَّهُ بِكَ خَيْراً وَقَدْ أعْطَتْهُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَيِّدَةُ بَناتِ آدَمَ»**.

فقام عمَّار بن ياسر فقال: يا رسول الله، أتأذن لي بشراء هذا العقد؟

قال: **«اشْتَرِهِ يا عمَّار فَلَوْ اشْتَرَكَ فِيه الثَّقَلانِ ما عَذَّبَهُم اللَّهُ بِالنَّارِ»**.

فقال عمَّار: بكم العِقد يا شيخ؟

قال: بشبعة من الخبز واللحم، وبردة يمانية أستر بها عورتي وأُصلِّي فيها لربِّي، ودينار يبلّغني إلى أهلي.

فقال عمَّار له: لك عشرون ديناراً ومأتا درهم هجريَّة، وبردة يمانية، وراحلتي تبلِّغك أهلك، وشبعك من خبز البرّ واللحم.

فقال الشيخ: ما أسخاك بالمال أيُّها الرجل.

وانطلق الشيخ فرحاً مسروراً، وهو يقول: اللَّهمَّ لا إلَه لنا سواك، اللَّهمَّ أعطِ فاطمة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت.

وعمد عمَّار إلى العقد فطيَّبه بالمسك ولفَّه في بردة يمانية وأعطاه بيد عبد له وقال له: خذ هذا العقد فادفعه إلى رسول الله ﷺ وأنت له، ومضى العبد فرفع العقد إلى رسول الله ﷺ، فأمره النبيّ ﷺ أن يمضي به إلى فاطمة، فأخذته وأعتقت العبد، فضحك العبد.

فقالت: **«ما يُضْحِكُكَ يا غُلاَم؟»**.

فقال: أضحكني عظيم بركة هذا العِقد، أشبع جائعاً، وكسى عرياناً، وأغنى فقيراً، وأعتق عبداً، ورجع إلى صاحبه[١].

الزهد في الدُّنيا:

هذه شذرات مشرقة من زهدها:

١ ـ لمَّا نزلت هذه الآية الكريمة على النبيّ ﷺ وهي: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[٢] بكى النبيّ ﷺ بكاءً شديداً وبكى أصحابه لبكائه، ولم يعلموا سرّ بكائه، وسارع بعض الصحابة إلى سيِّدة النِّساء فاطمة ؑ فأخبرها، وكانت تطحن شعيراً هي تقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٣]، فسلَّم عليها وأخبرها ببكاء أبيها، فنهضت والتفَّت بشملة خَلِقة وقد خيطت بسعف النخل، فنظر إليها سلمان الفارسي فبكى وقال: واحزناه! بنات قيصر وكسرى في سندس وحرير وابنة رسول الله ﷺ عليها شملة صوف خَلِقة، ودخلت على رسول الله ﷺ وأخبرته بمقالة سلمان، ثمَّ قالت له:

«وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! ما لِيَ وَلِعَلِيٍّ مُنْذُ خَمسِ سِنِينَ إلاَّ مِسْكُ كَبْشٍ نَعْلِفُ عَلَيْهِ بِالنَّهارِ بَعِيرَنا، فَإذا كانَ اللَّيْلُ افْتَرَشْناهُ، وإنَّ مِرْفَقَتَنا لَمِنْ أدَمٍ حَشْوُها مِنْ لِيْفٍ»، فشكرها النبيّ ﷺ، والتفتت الزهراء ؑ إلى أبيها وسألته عن سببِ بكائه فأخبرها بنزول الآية، فخرَّت لوجهها وقالت: **«الْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ لِمَنْ دَخَلَ النَّارَ»**[٤].

٢ ـ ومن زهدها في الدُّنيا ما رواه أنس، قال: جاءت فاطمة ؑ إلى النبيّ ﷺ فقالت له: **«يا رَسُولَ اللَّهِ، إنِّي وابْنَ أبِي طالِبٍ ما لَنا فِراشٌ إلاَّ جِلْدَ كَبْشٍ نَنامُ عَلَيْهِ وَنَعْلِفُ عَلَيْهِ ناضِحَنا بِالنَّهارِ»**.

فقال النبيّ ﷺ: **«يا بُنَيَّةُ، اصْبِرِي فَإنَّ مُوسى بْنَ عِمْرانَ أقامَ مَعَ امْرَأتِهِ عَشْرَ سَنِينَ ما لَها فِراشٌ إلاَّ عَباءَةٌ قَطَوانِيَّةٌ»**[٥].

٣ ـ روى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري قال:

رأى النبيّ ﷺ ابنته فاطمة وعليها كساء رثّ، وهي تطحن بيدها، وترضع ولدها،

---

(١) إعلموا أنّي فاطمة: ٩/٢٦٦، نقلناه بتصرُّف.
(٢) سورة الحجر: الآيتان ٤٣ و٤٤.
(٣) سورة القصص: الآية ٦٠.
(٤) إعلموا أنّي فاطمة: ٢/١٦.
(٥) فاطمة الزَّهراء بهجة قلب المصطفى: ٢٧٤.

فدمعت عينا رسول الله ﷺ وقال لها: «يا بِنْتاهُ، تَجَرَّعِي مَرارَةَ الدُّنْيا لِحَلاوَةِ الآخِرَةِ...».

وانبرت حبيبة رسول الله ﷺ معلنة الرِّضا بذلك قائلة: «الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ نَعْمائِهِ، والشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَىٰ آلائِهِ...»[1].

العفاف والحجاب:

١ ـ روى الإمام أمير المؤمنين ﷺ قال: استأذن أعمى على فاطمة ﷺ فحجبته، فقال لها رسول الله ﷺ:

«لِمَ حَجَبْتِهِ، وَهُوَ لا يَراكِ؟».

فأجابته: «إنْ لَمْ يَكُنْ يَراني، فَإِنِّي أراهُ».

وانبرى الرسول ﷺ يمجِّد فيها هذه الرُّوح قائلاً: «أشْهَدُ أنَّكِ بِضْعَةٌ مِنِّي»[2].

قدَّم الإمام أمير المؤمنين ﷺ سؤالاً إلى بضعة الرسول ﷺ فقال لها: «مَتَىٰ تَكُونُ المَرْأَةُ أدْنَىٰ مِنْ رَبِّها؟».

فقالت ﷺ: «أنْ تَلْزَمَ قَعْرَ بَيْتِها...».

وعرض الإمام جوابها على رسول الله ﷺ: «صَدَقَتْ، إنَّ فاطِمَةَ بِضْعَةٌ مِنِّي»[3].

الإيمان العميق بالله:

قد تحدَّث الإمام الحسن ﷺ عنها قائلاً:

«رَأَيْتُ أُمِّي فاطِمَةَ ﷺ فِي مِحْرابِها لَيْلَةً، فَلَمْ تَزَلْ راكِعَةً ساجِدَةً حَتَّى اتَّضَحَ عَمُودُ الصُّبْحِ، وَسَمِعْتُها تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَتُسَمِّيهِمْ، وَتُكْثِرُ مِنَ الدُّعاءِ لَهُمْ، وَلاَ تَدْعُو لِنَفْسِهَا بِشَيْءٍ، فَقُلْتُ لَها: يا أُمَّاهُ، لِمَ لاَ تَدْعِينَ لِنَفْسِكِ؟

فَقالَتْ: يا بُنَيَّ، الْجارَ ثُمَّ الدَّارَ...»[4].

---

(١) سفينة البحار: ١/٥٧١.
(٢) بحار الأنوار: ٤٣/٩١.
(٣) الجعفريات: ٩٥.
(٤) في رحاب أهل البيت ﷺ: ٢٠٥.

دعاؤها عليها السلام في الالتجاء إلى الله تعالى:

من أدعيتها الشريفة هذا الدُّعاء الذي يمثِّل مدى إخلاصها لله تعالى واعتصامها به، وهذا نصّه:

«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَىٰ الْخَلْقِ، أَحْيِنِي ما عَلِمْتَ الْحَياةَ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إذا كانَتِ الوَفاةُ خَيْراً لِي.

اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الإخْلاَصِ، وَخَشْيَتَكَ فِي الرِّضا والْغَضَبِ، وَالْقَصْدَ فِي الغِنىٰ وَالْفَقْرِ. وَأَسْأَلُكَ نَعِيماً لاَ يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لاَ تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضا بِالقَضاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ النَّظَرَ إلىٰ وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إلىٰ لِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءِ مُضِرَّةٍ، وَلاَ فِتْنَةٍ مُظْلِمَةٍ.

اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإيمانِ، وَاجْعَلْنا هُداةً مَهْدِيِّينَ، يا رَبَّ الْعالَمِينَ»[(١)].

دعاؤها في الاعتصام بالله تعالى:

ومن أدعيتها الشريفة هذا الدُّعاء في الاعتصام بالله تعالى:

«اللَّهُمَّ قَنِّعْنِي بِما رَزَقْتَنِي، وَاسْتُرْنِي وَعافِنِي أَبَداً ما أَبْقَيْتَنِي، وَاغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي إذا تَوَفَّيْتَنِي.

اللَّهُمَّ لاَ تُعْيِنِي فِي طَلَبِ ما لَمْ تُقَدِّرْهُ لِي، وَما قَدَّرْتَهُ عَلَيَّ فاجْعَلْهُ مُيَسَّراً سَهْلاً.

اللَّهُمَّ كافِ عَنِّي وَالدَيَّ، وَكُلَّ مَنْ لَهُ نِعْمَةٌ عَلَيَّ خَيْرَ مُكافاةٍ.

اللَّهُمَّ فَرِّغْنِي لِما خَلَقْتَنِي لَهُ، وَلاَ تَشْغَلْنِي بِما تَكَفَّلْتَ لِي بِهِ، وَلاَ تُعَذِّبْنِي وَأَنا أَسْتَغْفِرُكَ، وَلاَ تَحْرِمْنِي وَأَنا أَسْأَلُكَ.

اللَّهُمَّ ذَلِّلْ نَفْسِي فِي نَفْسِي، وَعَظِّمْ شَأْنَكَ فِي نَفْسِي، وَأَلْهِمْنِي طاعَتَكَ وَالْعَمَلَ بِما يُرْضِيكَ، وَالتَّجَنُّبَ لِما يُسْخِطُكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»[(٢)].

دعاؤها عليها السلام في تسبيح الله تعالى:

سُبْحانَ مَنِ اسْتَنارَ بِالْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ.

سُبْحانَ مَنِ احْتَجَبَ في سَبْعِ سَماواتٍ، فَلا عَيْنٌ تَراهُ.

سُبْحانَ مَنْ أَذَلَّ الخَلاَئِقَ بِالْمَوْتِ، وَأَعَزَّ نَفْسَهُ بِالْحَياةِ.

---

(١) بحار الأنوار: ٩٤/ ٢٢٥.

(٢) إعلموا أنّي فاطمة: ٩/ ٥٧١.

سُبْحانَ مَنْ يَبْقى وَيَفْنى كُلُّ شَيْءٍ سِواهُ، سُبْحانَ مَنِ اسْتَخْلَصَ الْحَمْدَ لِنَفْسِهِ وَارْتَضاهُ.

سُبْحانَ الْحَيِّ الْعَلِيمِ، سُبْحانَ الْحَلِيمِ الْكَرِيمِ، سُبْحانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحانَ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، سُبْحانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ[١].

دعاؤها عليها السلام للأمر العظيم:

بِحَقِّ يٰس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، وَبِحَقِّ طٰهَ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، يا مَنْ يَقْدِرُ عَلى حَوائِجِ السَّائِلِينَ، يا مَنْ يَعْلَمُ مَا فِي الضَّمِيرِ، يَا مُنَفِّساً عَنِ الْمَكْرُوبِينَ، يَا مُفَرِّجاً عَنِ الْمَغْمُومِينَ، يا رَاحِمَ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ، يا رَازِقَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ، يا مَنْ لاَ يَحْتاجُ إِلَى التَّفْسِيرِ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ[٢].

دعاؤها عليها السلام في تيسير الأُمور:

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمٰواتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. رَبَّنا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، مُنْزِلَ التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوىٰ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِناصِيَتِهِ.

أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٍ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ[٣].

دعاؤها عليها السلام في الاستشفاء:

بِسْمِ اللَّهِ النُّورِ، بِسْمِ اللَّهِ نُورِ النُّورِ، بِسْمِ اللَّهِ نورٌ عَلَى نُورٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُدَبِّرُ الأُمُورِ، بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ النُّورَ مِنَ النُّورِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ النُّورَ مِنَ النُّورِ، وَأَنْزَلَ النُّورَ عَلَى الطُّورِ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رِقٍّ مَنْشُورٍ، بِقَدَرٍ مَقْدُورٍ، عَلىٰ نَبِيٍّ مَحْبُورٍ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ بِالْعِزِّ مَذْكُورٌ، وَبِالْفَخْرِ مَشْهُورٌ، وَعَلَىٰ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ مَشْكُورٌ، وَصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ[٤].

---

(١) دعوات الراوندي: ٩١.

(٢) دعوات الراوندي: ٥٤.

(٣) بحار الأنوار: ٢٩٧/٩٢.

(٤) بحار الأنوار: ٦٧/٤٣ ـ ٦٨.

دعاؤها عليها السلام في الصباح والمساء:

يا حَيُّ يا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ فَأَغِثْنِي، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبداً، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ[1].

دعاؤها عليها السلام عند المنام:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَافِي، سُبْحانَ اللَّهِ الأَعْلَى، حَسْبِيَ اللَّهُ وَكَفىٰ، ما شَاءَ اللَّهُ قَضىٰ، سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ دَعا، لَيْسَ مِنَ اللَّهِ مَلْجَأٌ، وَلا وَراءَ اللَّهِ مُلْتَجأٌ ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[3].

أدعية الأيام:

ـ دعاؤها عليها السلام في يوم السبت:

وكانت تدعو في يوم السبت بهذا الدُّعاء الشريف:

«اللَّهُمَّ افْتَحْ لَنَا خَزَائِنَ رَحْمَتِكَ، وَهَبْ لَنَا اللَّهُمَّ رَحْمَةً لاَ تُعَذِّبْنا بَعْدَها فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَارْزُقْنا مِنْ فَضْلِكَ الْوَاسِعِ رِزْقاً حَلاَلاً طَيِّباً، وَلاَ تُحْوِجْنا، وَلاَ تُفْقِرْنا إِلىٰ أَحَدٍ سِواكَ، وَزِدْنا لَكَ شُكْراً، وإِلَيْكَ فَقْراً وَفَاقَةً، وَبِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ غِناً وَتَعَفُّفاً.

اللَّهُمَّ وَسِّعْ عَلَيْنا فِي الدُّنْيا، اللَّهُمَّ نَعُوذُ بِكَ أَنْ تَزْوِيَ وَجْهَكَ عَنَّا فِي حَالٍ وَنَحْنُ نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيهِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَعْطِنا مَا تُحِبُّ، وَاجْعَلْهُ لَنا قُوَّةً فِيمَا تُحِبُّ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

ـ دعاؤها عليها السلام في يوم الأحد:

وكانت سلام الله عليها تدعو بهذا الدُّعاء الجليل في يوم الأحد، وهذا نصّه:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ يَوْمِي هَذا فَلاَحاً، وأَوْسَطَهُ صَلاَحاً، وَآخِرَهُ نَجاحاً.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاجْعَلْنا مِمَّنْ أَنابَ إِلَيْكَ فَقَبِلْتَهُ، وَتَوَكَّلَ عَلَيْكَ فَكَفَيْتَهُ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْكَ فَرَحِمْتَهُ...».

---

(١) مهج الدعوات: ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) سورة هود: الآية ٥٦.

(٣) فلاح السائل: ٢٨٣.

ـ دعاؤها عليها السلام في يوم الاثنين:

وكانت زهراء الرسول عليها السلام تدعو الله تعالى بهذا الدُّعاء في يوم الاثنين:

«اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ قُوَّةً فِي عِبَادَتِكَ، وَتَبَصُّراً فِي كِتَابِكَ، وَفَهْماً فِي حُكْمِكَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَلاَ تَجْعَلِ الْقُرْآنَ بِنا ماحِلاً، وَالصِّراطَ زَائِلاً، وَمُحَمَّداً صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنَّا مُوَلِّياً».

ـ دعاؤها عليها السلام في يوم الثلاثاء:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ غَفْلَةَ النَّاسِ لَنا ذِكْراً، وَاجْعَلْ ذِكْرَهُمْ لَنا شُكْراً، وَاجْعَلْ صَالِحَ مَا نَقُولُ بِأَلْسِنَتِنَا نِيَّةً فِي قُلُوبِنا.

اللَّهُمَّ إنَّ مَغْفِرَتَكَ أَوْسَعُ مِنْ ذُنُوبِنا، وَرَحْمَتَكَ أَرْجىٰ عِنْدَنا مِنْ أعْمالِنا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ، وَوَفِّقْنا لِصَالِحِ الأعْمَالِ، وَالصَّوابِ مِنَ الْفِعَالِ..».

ـ دعاؤها عليها السلام في يوم الأربعاء:

«اللَّهُمَّ احْرُسْنا بِعَيْنِكَ الَّتِي لاَ تَنامُ، وَرُكْنِكَ الَّذِي لاَ يُرامُ، وَبِأَسْمَائِكَ الْعِظَامِ، وَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاحْفَظْ عَلَيْنا مَا لَوْ حَفِظَهُ غَيْرُكَ ضَاعَ، وَاسْتُرْ عَلَيْنا مَا لَوْ سَتَرَهُ غَيْرُكَ شَاعَ، وَاجْعَلْ كُلَّ ذَلِكَ لَنا مِطْواعاً، إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ، قَرِيبٌ مُجِيبٌ..».

ـ دعاؤها عليها السلام في يوم الخميس:

«اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدىٰ، وَالتُّقىٰ، والْعَفَافَ، والْعَمَلَ بِما تُحِبُّ وَتَرْضىٰ.

اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ قُوَّتِكَ لِضَعْفِنا، وَمِنْ غِناكَ لِفَقْرِنا، وَمِنْ حِلْمِكَ وَعِلْمِكَ لِجَهْلِنا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَعِنَّا عَلىٰ شُكْرِكَ وَذِكْرِكَ وَطَاعَتِكَ وَعِبادَتِكَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

ـ دعاؤها عليها السلام في يوم الجمعة:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِنْ أَقْرَبِ مَنْ تَقَرَّبَ إلَيْكَ، وَأَوْجَهِ مَنْ تَوَجَّهَ إلَيْكَ، وَأَنْجَحِ مَنْ سَأَلَكَ وَتَضَرَّعَ إلَيْكَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِمَّنْ كَأَنَّهُ يَراكَ إلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي فِيْهِ يَلْقاكَ، وَلاَ تُمِتْنا إلاَّ عَلَىٰ رِضَاكَ.

اللَّهُمَّ وَاجْعَلْنا مِمَّنْ أَخْلَصَ لَكَ بِعَمَلِهِ، وَأَحَبَّكَ فِي جَمِيعِ خَلْقِكَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاغْفِرْ لَنا مَغْفِرَةً جَزْماً حَتْماً لاَ نَقْتَرِفُ بَعْدَها ذَنْباً، وَلاَ نَكْتَسِبُ خَطِيئَةً وَلاَ إِثْماً.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلاَةً نَامِيَةً دَائِمَةً زَاكِيَةً مُتَتابِعَةً مُتَواصِلَةً مُتَرادِفَةً بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»[١].

حرزها عليها السلام:

وتسلَّحت بضعة الرسول سلام الله عليها بهذا الحرز، وجاء فيه بعد البسملة:

«يا حيُّ، يا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ فَأَغِثْنِي، وَلاَ تَكِلْنِي إِلىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبداً، وأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ...»[٢].

تسبيح الزهراء عليها السلام:

من الأعمال المشرقة التي كانت تزاولها بضعة الرسول سلام الله عليها عقيب كلّ صلاة تصلِّيها هو التسبيح الذي علَّمها رسول الله ﷺ وخصَّه بها، وقد روى قصَّته الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

«كانَتْ فاطِمَةُ أَحَبَّ النَّاسِ لأبيها، وَقَدْ أَثَّرَتِ الرَّحىٰ بِيَدَيْها، وَاستَقَتْ بِالْقِرْبَةِ حَتَّىٰ أَثَّرَتْ فِي نَحْرِها، وَكَنَسَتِ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيابُها، وَأَوْقَدَتِ الْقِدْرَ حَتَّىٰ دَكَنَتْ ثِيابُها، وَأَصابَها مِنْ ذَلِكَ ضُرٌّ، فَسَمِعْنا أَنَّ رَقِيقاً أُتِيَ بِهِمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ لَها، لَوْ أَتَيْتِ أَباكِ فَسَأَلْتِيه خادِماً يَكْفِيكِ، فَأَتَتْهُ، فَوَجَدَتْهُ مَشْغُولاً، فَاسْتَحْيَتْ أَنْ تُراجِعَهُ، فَرَجَعَتْ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي بادَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بَيْتِ فاطِمَةَ فَسَأَلَها عَنْ سَبَبِ مَجِيئِها إِلَيْهِ، فَاسْتَحْيَتْ أَنْ تُخْبِرَهُ، وَسارَعَ الإمامُ فَقالَ لَهُ:

«أنا وَاللَّهِ! أُحَدِّثُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّها جَرَتْ بِالرَّحىٰ حَتَّى أَثَّرَتْ فِي يَدَيْها، وَاسْتَقَتْ بِالْقِرْبَةِ حَتَّى أَثَّرَتْ فِي نَحْرِها، وَكَسَحَتِ الْبَيْتَ حَتَّىٰ اغْبَرَّتْ ثِيابُها، وَأَوْقَدَتِ الْقِدْرَ حَتَّىٰ دَكَنَتْ ثِيابُها، وَبَلَغَنا أَنَّهُ أَتاكَ رَقِيقٌ أَوْ خَدَمٌ، فَقُلْتُ لَها: سَلِيهِ خادِماً».

وانبرى النبيّ ﷺ فاتحفهما بما هو خير من جميع متع الحياة قائلاً:

---

(١) بحار الأنوار: ٩٠/٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) الباقيات الصالحات: ٤٢٩.

«ألاَ أُعَلِّمُكُما خَيْراً مِمَّا سَأَلْتُمانِي إذا أَخَذْتُما مَضَاجِعَكُما تُكَبِّرا أَرْبعاً وَثَلاَثِينَ، وَتُسَبِّحا ثَلاَثاً وَثَلاَثِين، وَتَحْمِدا ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُما مِنْ خَادِمٍ»[1].

عبادتها

تعقيبها بعد صلاة الظهر:

وكانت بعضة الرسول صلى الله عليه وآله إذا فرغت من صلاة الظهر دعت بهذا الدُّعاء:

«سُبْحانَ ذِي الْعِزِّ الشَّامِخِ الْمُنِيفِ، سُبْحانَ ذِي الْجَلاَلِ الْعَظِيمِ، سُبْحانَ ذِي الْمُلْكِ الْفَاخِرِ الْقَدِيم.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ بَلَغْتُ مَا بَلَغْتُ مِنَ الْعِلْم بِهِ، وَالْعَمَلِ لَهُ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ، وَالطَّاعَةِ لأَمْرِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْنِي جَاحِداً لِشَيْءٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَلاَ مُتَحَيِّراً فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانِي لِدِيْنِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي أَعْبُدُ شَيْئاً غَيْرَهُ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَوْلَ التَّوَّابِينَ وَعَمَلَهُمْ، وَنَجاةَ الْمُجَاهِدِينَ وَثَوابَهُمْ، وَتَصْدِيقَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَوَكُّلَهُمْ، وَالرَّاحَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَالأَمْنَ عِنْدَ الْحِسابِ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ خَيْرَ غائِبٍ أَنْتَظِرُهُ، وَخَيْرَ مُطَّلِعٍ يَطَّلِعُ عَلَيَّ، وَارْزُقْنِي عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ، وَعِنْدَ نُزُولِهِ، وَفِي غَمَراتِهِ، وَحِيْنَ تُنْزِلُ النَّفْسَ مِنْ بَيْنِ التَّراقِي، وَحِيْنَ تَبْلُغُ الْحُلْقُومَ، وَفِي حَالِ خُرُوجِي مِنَ الدُّنْيا، وَتِلْكَ السَّاعَةُ الَّتِي لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي فِيْهَا ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً، وَلاَ شِدَّةً وَلاَ رَخاءً، رَوْحاً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَحَظّاً مِنْ رِضْوانِكَ، وَبُشْرىٰ مِنْ كَرَامَتِكَ، قَبْلَ أَنْ تَتَوَفَّىٰ نَفْسِي، وَتَقْبِضَ رُوْحِي، وَتُسَلِّطَ مَلَكَ الْمَوْتِ عَلىٰ إِخْراجِ نَفْسِي، بِبُشْرىٰ مِنْكَ.

وَتَصْدِيقَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَوَكُّلَهُمْ، وَالرَّاحَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَالأَمْنَ عِنْدَ الْحِسَابِ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ خَيْرَ غَائِبٍ أَنْتَظِرُهُ، وَخَيْرَ مُطَّلِعٍ يَطَّلِعُ عَلَيَّ، وَارْزُقْنِي عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ، وَعِنْدَ نُزُولِهِ، وَفِي غَمَراتِهِ، وَحِيْنَ تُنْزِلُ النَّفْسَ مِنْ بَيْنِ التَّراقِي، وَحِيْنَ تَبْلُغُ الْحُلْقُومَ، وَفِي حَالِ خُرُوجِي مِنَ الدُّنْيا، وَتِلْكَ السَّاعَةُ الَّتِي لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي فِيْهَا ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً، وَلاَ شِدَّةً وَلاَ رَخاءً، رَوْحاً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَحَظّاً مِنْ رِضْوانِكَ، وَبُشْرىٰ مِنْ كَرَامَتِكَ، قَبْلَ أَنْ تَتَوَفَّىٰ نَفْسِي، وَتَقْبِضَ رُوْحِي، وَتُسَلِّطَ مَلَكَ الْمَوْتِ عَلَىٰ إِخْرَاجِ نَفْسِي، بِبُشْرىٰ مِنْكَ.

يا رَبِّ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِكَ تَثْلُجُ بِهَا صَدْرِي، وَتَسُرُّ بِهَا نَفْسِي، وَتَقِرُّ بِهَا عَيْنِي، وَيَتَهَلَّلُ بِهَا وَجْهِي، وَيَسْفُرُ بِهَا لَوْنِي، وَيَطْمَئِنُّ بِهَا قَلْبِي، وَيَتَبَاشَرُ بِهَا سَائِرُ جَسَدِي،

(١) سنن أبي داود: ٢/٤٨٩ ـ ٤٩٠.

يَغْبِطُنِي بِهَا مَنْ حَضَرَنِي مِنْ خَلْقِكَ، وَمَنْ سَمِعَ بِي مِنْ عِبادِكَ، تُهَوِّنُ بِهَا عَلَيَّ سَكَرَاتِ الْمَوتِ، وَتُفَرِّجُ عَنِّي بِهَا كُرْبَتَهُ، وَتُخَفِّفُ بِهَا عَنِّي شِدَّتَهُ، وَتَكْشِفُ بِهَا عَنِّي غَمَّهُ، وَتُذْهِبُ عَنِّي بِهَا هَمَّهُ وَحَسْرَتَهُ، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ أَسَفِهِ وَفِتْنَتِهِ، وَتُجِيرُنِي بِهَا مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا يَحْضُرُ أَهْلَهُ، وَتَرْزُقُنِي بِهَا خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا يَحْضُرُ عِنْدَهُ، وَخَيْرَ مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَهُ.

ثُمَّ إذا تُوُفِّيَتْ نَفْسِي، وَقُبِضَتْ رُوحِي، فَاجْعَلْ رُوحِي فِي الأَرْوَاحِ الرَّابِحَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسِي فِي الأَنْفُسِ الصَّالِحَةِ، وَاجْعَلْ جَسَدِي فِي الأَجْسَادِ الْمُطَهَّرَةِ، وَاجْعَلْ عَمَلِي فِي الأَعْمَالِ الْمُتَقَبَّلَةِ، ثُمَّ ارزُقْنِي فِي خِطَّتِي مِنَ الأَرْضِ، وَمَوْضِعِ جُثَّتِي، حَيْثُ يُرْفَتُ لَحْمِي، وَيُدْفَنُ عَظْمِي، وَأُتْرَكُ وَحِيداً لاَ حِيْلَةَ لِي، قَدْ لَفَظَتْنِي الْبِلاَدُ، وَتَخَلَّىٰ مِنِّي الْعِبادُ، وَافْتَقَرْتُ إلىٰ رَحْمَتِكَ، وَاحْتَجْتُ إلىٰ صَالِحِ عَمَلِي، وَأَلقىٰ مَا مَهَّدْتُ لِنَفْسِي، وَقَدَّمْتُ لآخِرَتِي، وَعَمِلْتُ فِي أيَّامِ حَيَاتِي، فَوْزاً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَضِياءً مِنْ نُورِكَ، وَتَثْبِيتاً مِنْ كَرَامَتِكَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ، إنَّكَ تُضِلُّ الظَّالِمِينَ، وَتَفْعَلُ مَا تَشَاءُ.

ثُمَّ بَارِكْ لِي فِي الْبَعْثِ والْحِسَابِ إذا انْشَقَّتِ الأَرْضُ عَنِّي، وَتَخَلَّىٰ الْعِبَادُ مِنِّي، وَغَشِيَتْنِي الصَّيْحَةُ، وَأَفْزَعَتْنِي النَّفْخَةُ، وَنَشَرْتَنِي بَعْدَ الْمَوتِ، وَبَعَثْتَنِي لِلْحِسابِ.

فَابْعَثْ مَعِي يا رَبِّ نُوراً مِنْ رَحْمَتِكَ، يَسْعىٰ بَيْنَ يَدَيَّ، وَعَنْ يَمِينِي، تُؤْمِنُنِي بِهِ، وَتَرْبِطُ بِهِ عَلَىٰ قَلْبِي، وَتُظْهِرُ بِهِ عُذْرِي، وَتُبَيِّضُ بِهِ وَجْهِي، وَتُصَدِّقُ بِهِ حَدِيثِي، وَتُفْلِجُ بِهِ حُجَّتِي، وَتُبَلِّغُنِي بِهِ الْعُرْوَةَ الوثْقىٰ مِنْ رَحْمَتِكَ، وَتُحِلُّنِي الدَّرَجَةَ الْعُلْيا مِنْ جَنَّتِكَ، وَتَرْزُقُنِي بِهِ مُرافَقَةَ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ فِي أَعْلىٰ الْجَنَّةِ دَرَجَةً، وَأَبْلَغِها فَضِيلَةً، وَأَبَرِّها عَطِيَّةً، وَأَوْفَقِها نَفْسَةً مَعَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلىٰ جَمِيعِ الأَنْبِياءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وعَلىٰ الْمَلاَئِكَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَلىٰ آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَعَلىٰ أَئِمَّةِ الْهُدىٰ أَجْمَعِينَ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ كَما هَدَيْتَنا بِهِ، وَصَلِّ عَلىٰ مُحَمَّدٍ كَما رَحِمْتَنا بِهِ، وَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ كَما عَزَّزْتَنا بِهِ، وَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ كَما فَضَّلْتَنا بِهِ، وَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ كَما شَرَّفْتَنا بِهِ، وَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ كَما بَصَّرْتَنا بِهِ، وَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ كَما أَنْقَذْتَنا بِهِ مِنْ شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ.

اللَّهُمَّ بَيِّضْ وَجْهَهُ، وَاعْلِ كَعْبَهُ، وَافْلِجْ حُجَّتَهُ، وَاتِمِمْ نُورَهُ، وَثَقِّلْ مِيزَانَهُ، وَعَظِّمْ بُرْهَانَهُ، وَافْسَحْ لَهُ حَتَّىٰ يَرْضىٰ، وَبَلِّغْهُ الدَّرَجَةَ وَالْوَسِيْلَةَ مِنَ الجَنَّةِ، وَابْعَثْهُ الْمَقامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدْتَهُ، وَاجْعَلْهُ أَفْضَلَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عِنْدَكَ مَنْزِلَةً وَوَسِيلَةً، وَاقْصُصْ

بِنا أثَرَهُ، وَاسْقِنا بِكَأْسِهِ، وَأوْرِدْنا حَوْضَهُ، وَاحْشُرْنا فِي زُمْرَتِهِ، وَتَوفَّنا عَلىٰ مِلَّتِهِ، وَاسْلُكْ بِنا سُبُلَهُ، وَاسْتَعْمِلْنا بِسُنَّتِهِ غَيْرَ خَزايا وَلاَ نَادِمِينَ، وَلاَ شَاكِّينَ، وَلاَ مُبَدِّلِينَ.

يا مَنْ بَابُهُ مَفْتُوحٌ لِدَاعِيهِ، وَحِجَابُهُ مَرْفُوعٌ لِرَاجِيهِ، يَا سَاتِرَ الأمْرِ الْقَبِيحِ، وَمُدَاوِيَ الْقَلْبِ الْجَرِيحِ، لاَ تَفْضَحْنِي فِي مَشْهَدِ الْقِيَامَةِ بِمُوبِقَاتِ الآثَامِ، وَلاَ تُعْرِضْ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ عَنِّي مِنْ بَيْنِ الأنَامِ.

يا غَايَةَ الْمُضْطَرِّ الْفَقِيرِ، وَيَا جَابِرَ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ، هَبْ لِي مُوبِقَاتِ الْجَرَائِرِ، وَاعْفُ عَنِّي فَاضِحَاتِ السَّرائِرِ، وَاغْسِلْ قَلْبِي مِنْ وِزْرِ الخَطَايا، وَارْزُقْنِي حُسْنَ الاسْتِعْدادِ لِنُزُولِ الْمَنَايا.

يا أكْرَمَ الأكْرَمِينَ، وَمُنْتَهىٰ أُمْنِيَّةِ السَّائِلِينَ، أنْتَ مَوْلاَيَ فَتَحْتَ لِي بَابَ الدُّعَاءِ وَالإنَابَةِ، فَلاَ تُغْلِقْ عَنِّي بَابَ الْقَبُولِ وَالإجَابَةِ، وَنَجِّنِي بِرَحْمَتِكَ مِنَ النَّارِ، وَبَوِّئْنِي غُرُفَاتِ الْجِنَانِ، وَاجْعَلْنِي مُسْتَمْسِكاً بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقىٰ، وَاخْتِمْ لِي بِالسَّعَادَةِ، وَأحْيِنِي بِالسَّلاَمَةِ.

يا ذَا الْفَضْلِ وَالْكَمَالِ، وَالْعِزَّةِ وَالْجَلاَلِ، لاَ تُشْمِتْ بِي عَدُوّاً وَلاَ حَاسِداً، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ سُلْطَاناً عَنِيداً، وَلاَ شَيْطَاناً مَرِيداً، بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً»[١].

دعاؤها عليها السلام بعد صلاة العصر:

وكانت زهراء الرسول عليها السلام تدعو الله تعالى بعد صلاة العصر بهذا الدُّعاء:

«سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ جَوارِحَ الْقُلُوبِ، سُبْحانَ مَنْ يُحْصِي عَدَدَ الذُّنُوبِ، سُبْحانَ مَنْ لاَ يَخفىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي الأرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْنِي كَافِراً لأنْعُمِهِ، وَلاَ جَاحِداً لِفَضْلِهِ، فَالْخَيْرُ مِنْهُ وَهُوَ أهْلُهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى حُجَّتِهِ الْبَالِغَةِ عَلَىٰ جَمِيعِ مَنْ خَلَقَ، مِمَّنْ أطَاعَهُ، وَمِمَّنْ عَصَاهُ، فَإنْ رَحِمَ فَمِنْ مَنِّهِ، وَإنْ عَاقَبَ فَبِما قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْمَكَانِ، الرَّفِيعِ الْبُنْيَانِ، الشَّدِيدِ الأرْكَانِ، الْعَزِيزِ السُّلْطَان، الْعَظِيمِ الشَّأْنِ، الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ، الرَّحِيمِ الرَّحْمٰنِ، الْمُنْعِمِ الْمَنَّانِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي احْتَجَبَ عَنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ يَرَاهُ بِحَقِيقَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقُدْرَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ، فَلَمْ تُدْرِكْهُ الأبْصَارُ، وَلَمْ تَحُطْ بِهِ الأخْبَارُ، وَلَمْ يَقِسْهُ مِقْدَارٌ، وَلَمْ يَتَوَهَّمْهُ اعْتِبَارٌ؛ لأنَّهُ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ.

(١) فلاح السائل: ١٧٣.

اللَّهُمَّ قَدْ تَرَىٰ مَكَانِي، وَتَسْمَعُ كَلاَمِي، وَتَطَّلِعُ عَلَىٰ أمْرِي، وَتَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي، وَلَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أمْرِي، وَقَدْ سَعَيْتُ إلَيْكَ فِي طَلِبَتِي، وَطَلَبْتُ إلَيْكَ فِي حَاجَتِي، وَتَضَرَّعْتُ إلَيْكَ فِي مَسْأَلَتِي، وَسَأَلْتُكَ لِفَقْرٍ وَحَاجَةٍ، وَذِلَّةٍ وَضِيقَةٍ، وَبُؤْسٍ وَمَسْكَنَةٍ.

وَأنْتَ الرَّبُّ الْجَوَادُ بِالْمَغْفِرَةِ، تَجِدُ مَنْ تُعَذِّبُ غَيْرِي، وَلاَ أجِدُ مَنْ يَغْفِرُ لِي غَيْرَكَ، وَأنْتَ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِي، وَأنَا فَقِيرٌ إلَىٰ رَحْمَتِكَ، فَأسْألُكَ بِفَقْرِي إلَيْكَ، وَغِنَاكَ عَنِّي، وَبِقُدْرَتِكَ عَلَيَّ، وَقِلَّةِ امْتِنَاعِي مِنْكَ، أنْ تَجْعَلَ دُعَائِي هَذا دُعاءً وَافَقَ مِنْكَ إجَابَةً، وَمَجْلِسِي هَذا مَجْلِساً وَافَقَ مِنْكَ رَحْمَةً، وَطَلِبَتِي هَذِهِ طَلِبَةً وَافَقَتْ نَجَاحاً، وَمَا خِفْتُ عُسْرَتَهُ مِنَ الأُمُورِ فَيَسِّرْهُ، وَمَا خِفْتُ عَجْزَهُ مِنَ الأشْيَاءِ فَوَسِّعْهُ، وَمَنْ أرَادَنِي بِسُوءٍ مِنَ الْخَلاَئِقِ كُلِّهِمْ فَاغْلِبْهُ، آمِينَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَهَوِّنْ عَلَيَّ مَا خَشِيْتُ شِدَّتَهُ، وَاكْشِفْ عَنِّي مَا خَشِيْتُ كُرْبَتَهُ، وَيَسِّرْ لِي مَا خَشِيْتُ عُسْرَتَهُ، آمِينَ رَبَّ الْعَالِمِينَ.

اللَّهُمَّ انْزَعِ الْعُجْبَ وَالرِّيَاءِ وَالْكِبْرَ وَالْبَغْيَ وَالْحَسَدَ وَالضَّعْفَ وَالشَّكَّ وَالْوَهْنَ وَالضُّرَّ وَالأسْقَامَ وَالْخُذْلاَنَ وَالْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ وَالْبَلِيَّةَ وَالْفَسَادَ مِنْ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَخُذْ بِنَاصِيَتِي إلَى مَا تُحِبُّ وَتَرْضَىٰ، يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَاغْفِرْ ذَنْبِي، وَاسْتُرْ عَوْرَتِي، وَآمِنْ رَوْعَتِي، وَاجْبُرْ مُصِيبَتِي، وَاغْنِ فَقْرِي، وَيَسِّرْ حَاجَتِي، وَأقِلْنِي عَثْرَتِي، وَاجْمَعْ شَمْلِي، وَاكْفِنِي مَا أهَمَّنِي، وَمَا غَابَ عَنِّي، وَمَا حَضَرَنِي وَمَا أتَخَوَّفُهُ مِنْكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ فَوَّضْتُ أمْرِي إلَيْكَ، وَألْجَأْتُ ظَهْرِي إلَيْكَ، وَأسْلَمْتُ نَفْسِي إلَيْكَ بِمَا جَنَيْتُ عَلَيْهَا، فَرَقاً مِنْكَ، وَخَوْفاً وَطَمَعاً، وَأنْتَ الْكَرِيمُ الَّذِي لاَ يَقْطَعُ الرَّجَاءِ، وَلاَ يُخَيِّبُ الدُّعاءَ، فَأسْألُكَ بِحَقِّ إبْرَاهِيمَ خَلِيْلِكَ، وَمُوسىٰ كَلِيْمِكَ، وَعِيسىٰ رُوْحِكَ، وَمُحَمَّدٍ صَفِيِّكَ وَنَبِيِّكَ ﷺ ألاَّ تَصْرِفَ وَجْهَكَ الْكَرِيمَ عَنِّي، حَتَّىٰ تَقْبَلَ تَوْبَتِي، وَتَغْفِرَ لِي خَطِيْئَتِي يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ ثَارِي عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنِي، وَانْصُرنِي عَلَىٰ مَنْ عَادَانِي، اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ مُصِيْبَتِي فِي دِيْنِي، وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيا أكْبَرَ هَمِّي، وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِي.

اللَّهُمَّ أصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أمْرِي، وَأصْلِحْ لِي دُنْيايَ الَّتِي فِيْهَا مَعَاشِي، وَأصْلِح لِي آخِرَتِيَ الَّتِي إلَيْهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

اللَّهُمَّ إنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي.

اللّهُمَّ أحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إذا كَانَتِ الْوَفاةُ خَيْراً لِي، وَأسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَالْعَدْلَ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضا، وَأسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنىٰ، وأسْأَلُكَ نَعِيماً لاَ يَبِيدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لاَ تَنْقَطِعُ، وَأسْأَلُكَ الرِّضا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلىٰ وَجْهِكَ.

اللّهُمَّ إنِّي أسْتَهْدِيكَ لإرْشَادِ أمْرِي، وَأعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، اللّهُمَّ عَمِلْتُ سُوْءً، وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي إنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنْتَ، اللّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ تَعْجِيلَ عَافِيَتِكَ، وَصَبْراً عَلَىٰ بَلِيَّتِكَ، وَخُرُوجاً مِنَ الدُّنْيا إلىٰ رَحْمَتِكَ.

اللّهُمَّ إنِّي أُشْهِدُكَ، وَأُشْهِدُ مَلاَئِكَتَكَ، وَحَمَلَةَ عَرْشِكَ، وَأُشْهِدُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ وَالأرْضِ أنَّكَ أنْتَ اللّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ، وَأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صلى الله عليه وآله، يا كَائِنُ قَبْلَ أنْ يَكونَ شَيْءٌ، وَالْمُكَوِّنُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْكَائِنُ بَعْدَ مَا لاَ يَكُونُ شَيْءٌ.

وَأسْأَلُكَ بِأنَّ لَكَ الحَمْدُ، لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ، بَدِيعُ السَّمٰواتِ وَالأرْضِ.

اللّهُمَّ إلىٰ رَحْمَتِكَ رَفَعْتُ بَصَرِي، وَإلىٰ جُودِكَ بَسَطْتُ كَفِّي، فَلاَ تَحْرِمْنِي وَأنا أسْأَلُكَ، وَلاَ تُعَذِّبْنِي وَأنَا أسْتَغْفِرُكَ، اللّهُمَّ فَاغْفِرْ لِي فَإنَّكَ بِي عَالِمٌ، وَلاَ تُعَذِّبْنِي فَإنَّكَ عَلَيَّ قَادِرٌ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللّهُمَّ ذَا الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ، وَالصَّلاَةِ النَّافِعَةِ الرَّافِعَةِ الزَّكِيَّةِ، صَلِّ عَلَىٰ أكْرَمِ خَلْقِكَ عَلَيْكَ، وَأحَبِّهِمْ إلَيْكَ، وَأوْجَهِهِمْ لَدَيْكَ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الْمَخْصُوصِ بِفَضَائِلِ الْوَسائِلِ، أشْرَفَ، وَأكْمَلَ، وَأرْفَعَ، وَأعْظَمَ، وَأكْمَلَ ما صَلَّيْتَ عَلىٰ مُبَلِّغٍ عَنْكَ، وَمُؤْتَمِنٍ عَلىٰ وَحْيِكَ.

اللّهُمَّ كَمَا سَدَدْتَ بِهِ الْعَمىٰ، وَفَتَحْتَ بِهِ الْهُدىٰ، فَاجْعَلْ مَنَاهِجَ سُبُلِهِ لَنَا سَنَاءً، وَحُجَجَ بُرْهَانِهِ لَنا سَبَباً؛ نَأْتَمُّ بِهِ إلَىٰ الْقُدُومِ عَلَيْكَ.

اللّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمٰواتِ السَّبْعِ، وَمِلْءَ طِبَاقِهِنَّ، وَمِلْءَ الأرَضِينَ السَّبْعِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُما، وَمِلْءَ عَرْشِ رَبِّنا الْكَرِيمِ وَمِيزَانَ رَبِّنا الْغَفَّارِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِ رَبِّنا الْقَهَّارِ، وَمِلْءَ الْجَنَّةِ، وَمِلْءَ النَّارِ، وَعَدَدَ الثَّرىٰ وَالْمَاءِ، وَعَدَدَ ما يُرىٰ وَمَا لاَ يُرىٰ.

اللّهُمَّ وَاجْعَلْ صَلَواتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَمَنَّكَ وَمَغْفِرَتَكَ وَرَحْمَتَكَ وَرِضْوانَكَ وَفَضْلَكَ وَسَلاَمَتَكَ وَذِكْرَكَ وَنُورَكَ وَشَرَفَكَ وَنِعْمَتَكَ وَخِيرَتَكَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ وَتَرَحَّمْتَ عَلَىٰ إبْرَاهِيمَ وَآلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

اللَّهُمَّ أعْطِ مُحَمَّداً الْوَسِيلَةَ الْعُظمىٰ، وَكَرِيمَ جَزَائِكَ فِي الْعُقْبىٰ، حَتَّىٰ تُشَرِّفَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يا إِلَهَ الْهُدىٰ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، وَعَلىٰ جَمِيعِ مَلاَئِكَتِكَ وَأَنْبِيائِكَ وَرُسُلِكَ، سَلاَمٌ عَلىٰ جِبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ، وَمَلاَئِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ، وَالْكِرامِ الْكَاتِبِينَ وَالْكَرُوبِيِّينَ، وَسَلاَمٌ عَلىٰ مَلاَئِكَتِكَ أجْمَعِينَ.

وَسَلاَمٌ عَلىٰ أَبِيْنا آدَمَ، وَعَلىٰ أُمِّنا حَوَّاءَ، وَسَلاَمٌ عَلىٰ النَّبِيِّينَ أجْمَعِينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَعَلىٰ الشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ، وَسَلاَمٌ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ أجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»[١].

دعاؤها ﷺ عقيب صلاة المغرب:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ.

وَلاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ الأوَّلُ وَالآخِرُ، وَلاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، وَلاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ الْمُحْيِي وَالْمُمِيتُ.

وَاللَّهُ أَكْبَرُ ذُو الطَّوْلِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ذُو الْبَقَاءِ الدَّائِمِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لاَ يُدْرِكُ الْعَالِمُونَ عِلْمَهُ، وَلاَ يَسْتَخِفُّ الْجَاهِلُونَ حِلْمَهُ، وَلاَ يَبْلُغُ الْمَادِحُونَ مِدْحَتَهُ، وَلاَ يَصِفُ الْوَاصِفونَ صِفَتَهُ، وَلاَ يُحْسِنُ الْخَلْقُ نَعْتَهُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ، وَالْعَظَمَةِ وَالْجَبَرُوتِ، وَالْعِزِّ وَالْكِبْرِياءِ، وَالْبَهاءِ وَالْجَلاَلِ، وَالْمَهابَةِ وَالْجَمَالِ، وَالْعِزَّةِ وَالْقُدْرَةِ، وَالْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَالْمِنَّةِ وَالْغَلَبَةِ، وَالْفَضْلِ والطَّوْلِ، وَالْعَدْلِ وَالْحَقِّ، وَالْخَلْقِ وَالْعُلاَءِ، وَالرِّفْعَةِ وَالْمَجْدِ، وَالْفَضِيلَةِ والْحِكْمَةِ، وَالْغَناءِ وَالسَّعَةِ، وَالْبَسْطِ والْقَبْضِ، وَالْحِلْمِ وَالْعِلْمِ، وَالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ، وَالنِّعْمَةِ السَّابِغَةِ، وَالثَّناءِ الْحَسَنِ الْجَمِيلِ، وَالآلاَءِ الْكَرِيمَةِ، مَلِكِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَمَا فِيهِنَّ، تَبَارَكَ اللَّهُ وَتَعَالَىٰ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلِمَ أَسْرَارَ الْغُيُوبِ، وَاطَّلَعَ عَلىٰ مَا تَجِنِي الْقُلُوبُ، فَلَيْسَ عَنْهُ مَذْهَبٌ وَلاَ مَهْرَبٌ.

---

(١) فلاح السائل: ٢٠٣.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَكَبِّرِ فِي سُلْطَانِهِ، الْعَزِيزِ فِي مَكَانِهِ، الْمُتَجَبِّرِ فِي مُلْكِهِ، الْقَوِيِّ فِي بَطْشِهِ، الرَّفِيعِ فَوْقَ عَرْشِهِ الْمُطَّلِعِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَالْبَالِغِ لِمَا أَرَادَ مِنْ عِلْمِهِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِكَلِمَاتِهِ قَامَتِ السَّمٰوَاتُ الشِّدَادُ، وَثَبَتَتِ الأَرَضُونَ الْمِهَادُ، وَانْتَصَبَتِ الْجِبالُ الرَّوَاسِي الأَوْتَادُ، وَجَرَتِ الرِّيَاحُ اللَّوَاقِحُ، وَسَارَتْ فِي جَوِّ السَّمَاءِ السَّحَابُ، وَوَقَفَتْ عَلَىٰ حُدُودِها المحَارُ، وَوَجِلَتِ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ، وَانْقَمَعَتِ الأَرْبَابُ لِرُبُوبِيَّتِهِ، تَبَارَكْتَ يَا مُحصِيَ قَطْرِ الْمَطَرِ، وَوَرَقِ الشَّجَرِ، وَمُحْيِيَ أَجْسَادِ الْمَوْتَىٰ لِلْحَشْرِ.

سُبْحَانَكَ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرام، مَا فَعَلْتَ بِالْغَرِيبِ الْفَقِيرِ إِذَا أَتَاكَ مُسْتَجِيراً مُسْتَغِيثاً، مَا فَعَلْتَ بِمَنْ أَنَاخَ بِفِنَائِكَ، وَتَعَرَّضَ لِرِضَاكَ، وَغَدا إِلَيْكَ، فَجَثا بَيْنَ يَدَيْكَ يَشْكو إِلَيْكَ مَا لاَ يَخْفىٰ عَلَيْكَ، فَلاَ يَكُونَنَّ يَا رَبِّ حَظِّي مِنْ دُعَائِي الْحِرْمَانُ، وَلاَ نَصِيبِي مِمَّا أَرْجُو مِنْكَ الْخِذْلاَنُ.

يَا مَنْ لَمْ يَزَلْ، وَلاَ يَزَالُ، وَلاَ يَزُولُ كَمَا لَمْ يَزَلْ قَائِماً عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، يَا مَنْ جَعَلَ أَيَّامَ الدُّنْيا تَزُولُ، وَشُهُورَهَا تَحُولُ، وَسِنِيَّها تَدُورُ، وَأَنْتَ الدَّائِمُ لاَ تُبْلِيكَ الأَزْمَانُ، وَلاَ تُغَيِّرُكَ الدُّهُورُ.

يَا مَنْ كُلُّ يَوْمٍ عِنْدَهُ جَدِيدٌ، وَكُلُّ رِزْقٍ عِنْدَهُ عَتِيدٌ، لِلضَّعِيفِ وَالْقَوِيِّ وَالشَّدِيدِ، قَسَّمْتَ الأَرْزَاقَ بَيْنَ الْخَلاَئِقِ، فَسَوَّيْتَ بَيْنَ الذَّرَّةِ وَالْعُصْفُورِ.

اللَّهُمَّ إِذَا ضَاقَ الْمُقَامُ بِالنَّاسِ فَنَعُوذُ بِكَ مِنْ ضِيْقِ الْمُقَامِ. اللَّهُمَّ إِذَا طَالَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ الْمُجْرِمِينَ فَقَصِّرْ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَلَيْنا كَمَا بَيْنَ الصَّلاَةِ إِلَىٰ الصَّلاَةِ.

اللَّهُمَّ إِذَا دَنَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْجَمَاجِمِ فَكَانَ بَيْنَها وَبَيْنَ الْجَمَاجِمِ مِقْدَارُ مِيلٍ، وَزِيدَ فِي حَرِّها حَرُّ عَشْرِ سِنِينَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تُظِلَّنا بِالْغَمَامِ، وَتَنْصِبَ لَنَا الْمَنَابِرَ وَالْكَرَاسِيَّ نَجْلِسُ عَلَيْها، وَالنَّاسُ يَنْطَلِقُونَ فِي الْمَقَامِ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِحَقِّ هَذِهِ الْمَحَامِدِ إِلاَّ غَفَرْتَ لِي، وَتَجاوَزْتَ عَنِّي، وَأَلْبَسْتَنِي الْعَافِيَةَ فِي بدَنِي، وَرَزَقْتَنِي السَّلاَمَةَ فِي دِيْنِي.

فَإِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَنَا واثِقٌ بِإِجابَتِكَ إِيَّايَ فِي مَسْأَلَتِي، وَأَدْعُوكَ وَأَنَا عَالِمٌ بِاسْتِمَاعِكَ دَعْوَتِي، فَاسْتَمِعْ دُعَائِي، وَلاَ تَقْطَعْ رَجَائِي، وَلاَ تَرُدَّ ثَنَائِي، وَلاَ تُخَيِّبْ دُعَائِي، أَنَا مُحْتَاجٌ إِلىٰ رِضْوَانِكَ، وَفَقِيرٌ إِلَى غُفْرَانِكَ، وَأَسْأَلُكَ وَلاَ آيِسٌ مِنْ رَحْمَتِكَ، وَأَدْعُوكَ وَأَنَا غَيْرُ مُحْتَرِزٍ مِنْ سَخَطِكَ.

رَبِّ فَاسْتَجِبْ لِي، وَامْنُنْ عَلَيَّ بِعَفوِكَ، وَتَوفَّنِي مُسْلِماً، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ، رَبِّ لاَ تَمْنَعْنِي فَضْلَكَ يَا مَنَّانُ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي مَخْذُولاً يَا حَنَّانُ.

رَبِّ ارْحَمْ عِنْدَ فِرَاقِ الأَحِبَّةِ صَرْعَتِي، وَعِنْدَ سُكُونِ الْقَبْرِ وَحْدَتِي، وَفِي مَفَازَةِ الْقِيَامَةِ غُرْبَتِي، وَبَيْنَ يَدَيْكَ مَوْقُوفاً لِلْحِسابِ فَاقَتِي.

رَبِّ أَفْزَعُ إِلَيْكَ مِنَ النَّارِ فَأَجِرْنِي، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ فَأَعِذْنِي، رَبِّ أَفْزَعُ إِلَيْكَ مِنَ النَّارِ فَابْعِدْنِي، رَبِّ أَسْتَرْحِمُكَ مَكْرُوباً فَارْحَمْنِي، رَبِّ أَسْتَغْفِرُكَ لِمَا جَهِلْتُ فَاغْفِرْ لِي، رَبِّ قَدْ أَبْرَزَنِي الدُّعَاءُ لِلْحَاجَةِ إِلَيْكَ فَلاَ تُؤْيِسْنِي، يَا كَرِيمُ ذَا الآلاَءِ وَالإِحْسَانِ وَالتَّجَاوُزِ.

يا سَيِّدِي، يَا بَرُّ، يَا رَحِيمُ، اسْتَجِبْ بَيْنَ الْمُتَضَرِّعِينَ إِلَيْكَ دَعْوَتِي، وَارْحَمْ بَيْنَ الْمُنْتَحِبِينَ بِالْعَوِيلِ عَبْرَتِي، وَاجْعَلْ فِي لِقَائِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيا رَاحَتِي، وَاسْتُرْ بَيْنَ الأَمْوَاتِ يَا عَظِيمَ الرَّجَاءِ عَوْرَتِي، وَاعْطِفْ عَلَيَّ عِنْدَ التَّحَوُّلِ وَحِيداً إِلَىٰ حُفْرَتِي، إِنَّكَ أَمَلِي، وَمَوْضِعُ طَلِبَتِي، وَالْعَارِفُ بِمَا أُرِيدُ فِي تَوْجِيهِ مَسْأَلَتِي.

فَاقْضِ يَا قَاضِيَ الْحَاجَاتِ حَاجَتِي، فَإِلَيْكَ الْمُشْتَكىٰ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَالْمُرْتَجىٰ، أَفِرُّ إِلَيْكَ هَارِباً مِنَ الذُّنُوبِ فَاقْبَلْنِي، وَأَلْتَجِيءُ مِنْ عَدْلِكَ إِلَىٰ مَغْفِرَتِكَ فَأَدْرِكْنِي، وَأَلْتَاذُ بِعَفْوِكَ مِنْ بَطْشِكَ فَامْنَعْنِي، وَأَسْتَرْوِحُ رَحْمَتَكَ مِنْ عِقَابِكَ فَنَجِّنِي، وَأَطْلُبُ الْقُرْبَةَ مِنْكَ بِالإِسْلاَمِ فَقَرِّبْنِي، وَمِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ فَآمِنِّي، وَفِي ظِلِّ عَرْشِكَ فَظَلِّلْنِي، وَكِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِكَ، فَهَبْ لِي، وَمِنَ الدُّنْيا سَالِماً فَنَجِّنِي، وَمِنَ الظُّلُماتِ إِلَىٰ النُّورِ فَأَخْرِجْنِي، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ فَبَيِّضْ وَجْهِي، وَحِسَاباً يَسِيراً فَحَاسِبْنِي، وَبِسَرَائِرِي فَلاَ تَفْضَحْنِي، وَعَلَىٰ بَلاَئِكَ فَصَبِّرْنِي، وَكَمَا صَرَفْتَ عَنْ يُوسُفَ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَمَا لاَ طَاقَةَ لِي بِهِ فَلاَ تُحَمِّلْنِي، وَإِلَىٰ دَارِ السَّلاَمِ فَاهْدِنِي، وَبِالْقُرْآنِ فَانْفَعْنِي، وَبِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فَثَبِّتْنِي، وَمِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَاحْفَظْنِي، وَبِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَجَبَرُوتِكَ فَاعْصِمْنِي، وَبِحِلْمِكَ وَعِلْمِكَ، وَسَعَةِ رَحْمَتِكَ، مِنْ جَهَنَّمَ فَنَجِّنِي، وَجَنَّتَكَ الْفِرْدَوْسَ فَاسْكُنِّي، وَالنَّظَرَ إِلَىٰ وَجْهِكَ فَارْزُقْنِي، وَبِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَلْحِقْنِي، وَمِنَ الشَّيَاطِينَ وَأَوْلِيائِهِمْ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ فَاكْفِنِي.

اللَّهُمَّ وَأَعْدَائِي، وَمَنْ كَادَنِي بِسُوءٍ إِنْ أَتَوْا بَرّاً فَجَبِّنْ شَجِيعَهُمْ، وَفُضَّ جَمْعَهُمْ، وَكَلِّلْ سِلاَحهُمْ، وَعَرْقِبْ دوابَّهُمْ، وسَلِّطْ عَلَيْهِمُ الْعواصِفَ وَالْقَوَاصِفَ أَبَداً حَتَّىٰ تُصْلِيهِمُ النَّارَ، أَنْزِلْهُمْ مِنْ صَيَاصِيهِمْ، وَأَمْكِنَّا مِنْ نَواصِيهِمْ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلاَةً يَشْهَدُ بِهَا الأَوَّلُونَ مِنَ الأَبْرَارِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَقَائِدِ الْخَيْرِ، وَمِفْتَاحِ الرَّحْمَةِ.

اللَّهُمَّ رَبَّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَرَبَّ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَرَبَّ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَرَبَّ الْحِلِّ والإِحْرَامِ، أَبْلِغْ رُوحَ مُحَمَّدٍ مِنَّا التَّحِيَّةَ وَالسَّلاَمَ.

السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَلاَمٌ عَلَيْكَ يَا أَمِينَ اللَّهِ، سَلاَمٌ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَهُوَ كَمَا وَصَفْتَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ.

اللَّهُمَّ أَعْطِهِ أَفْضَلَ مَا سَأَلَكَ، وَأَفْضَلَ مَا سُئِلْتَ لَهُ، وَأَفْضَلَ مَا هُوَ مَسْؤُولٌ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ»[1].

دعاؤها عليها السلام عقيب صلاة العشاء:

«سُبْحَانَ مَنْ تَوَاضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ، سُبْحَانَ مَنْ ذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِعِزَّتِهِ، سُبْحَانَ مَنْ خَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لأَمْرِهِ وَمُلْكِهِ، سُبْحَانَ مَنِ انْقَادَتْ لَهُ الأُمُورُ بِأَزِمَّتِها.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لاَ يَنْسىٰ مَنْ ذَكَرَهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لاَ يُخَيِّبُ مَنْ دَعَاهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ سَامِكِ السَّمَاءِ، وَسَاطِحِ الأَرْضِ، وَحَاصِرِ الْبِحَارِ، وَنَاضِدِ الْجِبَالِ، وَبَارِيءِ الْحَيْوانِ، وَخَالِقِ الشَّجَرِ، وَفَاتِحِ يَنَابِيعِ الأَرْضِ، وَمُدَبِّرِ الأُمُورِ، وَمُسَيِّرِ السَّحَابِ، وَمُجْرِي الرِّيحِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ مِنْ أَغْوارِ الأَرْضِ، مُتَصَاعِداتٍ فِي الْهَواءِ، وَمُهْبِطِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَبِشُكْرِهِ تَسْتَوْجِبُ الزِّيادَاتُ، وَبِأَمْرِهِ قَامَتِ السَّمٰوَاتُ، وَبِعِزَّتِهِ اسْتَقَرَّتِ الرَّاسِياتُ، وَسَبَّحَتِ الْوُحُوشُ فِي الْفَلَواتِ، وَالطَّيْرُ فِي الْوَكَنَاتِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ، مُنْزِلِ الآياتِ، وَاسِعِ الْبَرَكَاتِ، سَاتِرِ الْعَوراتِ، قَابِلِ الْحَسَنَاتِ، مُقِيلِ الْعَثَراتِ، مُنَفِّسِ الْكُرُباتِ، مُنْزِلِ الْبَرَكاتِ، مُجِيبِ الدَّعَواتِ، مُحْيِي الأَمْواتِ، إِلَهِ مَنْ فِي الأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ كُلِّ حَمْدٍ وَذِكْرٍ، وَشُكْرٍ وَصَبْرٍ، وَصَلاَةٍ وَزَكاةٍ، وَقِيام وَعِبادَةٍ، وَسَعادَةٍ وَبَرَكَةٍ، وَزِيادَةٍ وَرَحْمَةٍ، وَنِعْمَةٍ وَكَرامَةٍ، وَفَرِيضَةٍ، وَسَرَّاءٍ وَضَرَّاءٍ، وَشِدَّةٍ وَرَخاءٍ، وَمُصِيبَةٍ وَبَلاَءٍ، وَعُسْرٍ وَيُسْرٍ، وَغِنَاءٍ وَفَقْرٍ، وَعَلىٰ كُلِّ حَالٍ، وَفِي كُلِّ أَوانٍ وَزَمانٍ، وَكُلِّ مَثْوَى وَمُنْقَلَبٍ وَمُقام.

اللَّهُمَّ إِنِّي عائِذٌ بِكَ فَأَعِذْنِي، وَمُسْتَجِيرٌ بِكَ فَأَجِرْنِي، وَمُسْتَعِينٌ بِكَ فَأَعِنِّي، وَمُسْتَغِيثٌ بِكَ فَأَغِثْنِي، وَدَاعِيكَ فَأَجِبْنِي، وَمُسْتَغْفِرُكَ فَاغْفِرْ لِي، وَمُسْتَنْصِرُكَ فَانْصُرْنِي، وَمُسْتَهْدِيكَ فَاهْدِنِي، وَمُسْتَكْفِيكَ فَاكْفِنِي، وَمُلْتَجأٌ إِلَيْكَ فَآوِنِي، وَمُسْتَمْسِكٌ بِحَبْلِكَ فَاعْصِمْنِي،

(١) فلاح السائل: ٢٣٨.

وَمُتَوَكِّلٌ عَلَيْكَ فَاكْفِنِي، وَاجْعَلْنِي فِي عِيَاذِكَ وَجِوَارِكَ وَحِرْزِكَ وَكَنَفِكِ وَحِياطَتِكَ وَحَرَاسَتِكَ وَكِلاَئَتِكَ وَحُرْمَتِكَ وَأَمْنِكَ وَتَحْتَ ظِلِّكَ، وَتَحتَ جِنَاحِكَ.

وَاجْعَلْ عَلَيَّ جُنَّةً وَاقِيَةً مِنْكَ، وَاجْعَلْ حِفْظَكَ وَحِياطَتَكَ وَحَراسَتَكَ وَكِلاَئَتَكَ، مِنْ وَرائِي وَأَمَامِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَمِنْ تَحْتِي، وَحَوالَيَّ، حَتَّىٰ لاَ يَصِلَ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ إِلَىٰ مَكْرُوهِي وَأَذايَ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرامِ.

اللَّهُمَّ اكْفِنِي حَسَدَ الْحَاسِدِينَ، وَبَغْيَ الْبَاغِينَ، وَكَيْدَ الْكَائِدِينَ، وَمَكْرَ الْمَاكِرِينَ، وَحِيلَةَ الْمُحْتَالِينَ، وَغِيلَةَ الْمُغْتَالِينَ، وَغِيبَةَ الْمُغْتَابِينَ، وَظُلْمَ الظَّالِمِينَ، وَجَوْرَ الْجَائِرِينَ، وَاعْتِداءَ الْمُعْتَدِينَ، وَسَخَطَ الْمُتَسَخِّطِينَ، وَتَشَحُّبَ الْمُتَشَحِّبِينَ، وَصَوْلَةَ الصَّائِلِينَ، وَاقْتَارَ الْمُقْتَرِينَ، وَغَشْمَ الْغَاشِمِينَ، وَخَبْطَ الْخَابِطِينَ، وَسِعَايَةَ السَّاعِينَ، وَنَمَامَةَ النَّامِّينَ، وَسِحْرَ السَّحَرَةِ وَالْمَرَدَةِ وَالشَّيَاطِينِ، وَجَوْرَ السَّلاَطِينِ، وَمَكْرُوهَ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْمَخْزُونِ الطَّيِّبِ الطَّاهِرِ، الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضُ، وَأَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلَمُ، وَسَبَّحَتْ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ، وَوَجِلَتْ مِنْهُ الْقُلُوبُ، وَخَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ، وَأَحْيَيْتَ بِهِ الْمَوْتىٰ، أَنْ تَغْفِرَ لِي كُلَّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ وَضَوْءِ النَّهارِ، عَمَداً أَوْ خَطأً، سِرّاً أَوْ عَلاَنِيَّةً. وَأَنْ تَهَبَ لِي يَقِيناً وَهَدْياً وَنُوراً وَعِلْماً وَفَهماً حَتَّىٰ أُقِيمَ كِتَابَكَ، وَأُحِلَّ حَلاَلَكَ، وَأُحَرِّمَ حَرامَكَ، وَأُؤَدِّيَ فَرائِضَكَ، وَأُقِيمَ سُنَّةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ.

اللَّهُمَّ أَلْحِقْنِي بِصَالِحِ مَنْ مَضىٰ، وَاجْعَلْنِي مِنْ صَالِحِ مَنْ بَقِيَ، وَاخْتِمْ لِي عَمَلِي بِأَحْسَنِهِ إِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

اللَّهُمَّ إِذَا فَنِيَ عُمْرِي، وَتَصَرَّمَتْ أَيَّامُ حَيَاتِي، وَكَانَ لاَ بُدَّ لِي مِنْ لِقَائِكَ، فَأَسْأَلُكَ يَا لَطِيفُ أَنْ تُوجِبَ لِي مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً يَغْبِطُنِي بِهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ.

اللَّهُمَّ اقْبَلْ مِدْحَتِي، وَارْحَمْ ضَرَاعَتِي، وَإِقْرَارِي عَلىٰ نَفْسِي وَاعْتِرَافِي، فَقَدْ أَسْمَعْتُكَ صَوْتِي فِي الدَّاعِينَ، وَخُشُوعِي فِي الضَّارِعِينَ، وَمِدْحَتِي فِي الْقَائِلِينَ، وَتَسْبِيحِي فِي الْمَادِحِينَ.

وَأَنْتَ مُجِيبُ الْمُضْطَرِّينَ، وَمُغِيثُ الْمُسْتَغِيثِينَ، وَغِيَاثُ الْمَلْهُوفِينَ، وَحِرْزُ الْهَارِبِينَ، وَصَرِيخُ الْمُؤْمِنِينَ، وَمُقِيلُ الْمُذْنِبِينَ، وَصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ، وَالسِّرَاجِ الْمُنِيرِ، وَعَلىٰ جَمِيعِ الْمَلاَئِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ.

اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ، وَبَارِىءَ الْمَسْمُوكاتِ، وَجَبَّالَ الْقُلُوبِ عَلىٰ فِطْرَتِها، شَقِيِّها وَسَعِيدِها، اجْعَلْ شَرايِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوامِيَ بَرَكاتِكَ، وَكَرَائِمَ تَحِيَّاتِكَ، عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ

وَرَسُولِكَ وَأَمِينِكَ عَلىٰ وَحيكَ، الْقَائِمِ بِحُجَّتِكَ، وَالذَّابِّ عَنْ حَرَمِكَ، وَالصَّادِعِ بِأَمْرِكَ، وَالْمُشَيِّدِ بِآيَاتِكَ، وَالْمُوفِي لِنَذْرِكَ.

اللَّهُمَّ فَاعْطِهِ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ مِنْ فَضَائِلِهِ، وَمَنْقَبَةٍ مِنْ مَنَاقِبِهِ، وَحَالٍ مِنْ أَحْوالِهِ، وَمَنْزِلَةٍ مِنْ مَنَازِلِهِ، رَأَيْتَ مُحَمَّداً لَكَ فِيها نَاصِراً، وَعَلىٰ مَكْرُوهِ بَلاَئِكَ صَابِراً، وَلِمَنْ عَادَاكَ مُعَادِياً، وَلِمَنْ وَالاَكَ مُوالِياً، وَعَمَّا كَرِهْتَ نَائِياً، وَإِلَىٰ مَا أَحْبَبْتَ دَاعِياً، فَضَائِلَ مِنْ جَزَائِكَ، وَخَصَائِصَ مِنْ عَطَائِكَ وَحِبائِكَ، تُسْنِي بِها أَمْرَهُ، وَتُعْلِي بِها دَرَجَتَهُ، مَعَ الْقُوَّامِ بِقِسْطِكَ، وَالذَّابِّينَ عَنْ حَرَمِكَ، حَتَّىٰ لاَ يَبْقىٰ سَناءٌ وَلاَ بَهاءٌ، وَلاَ رَحْمَةٌ وَلاَ كَرَامَةٌ، إلاَّ خَصَصْتَ بِها مُحَمَّداً بِذَلِكَ، وَآتَيْتَهُ مِنْكَ الذُّرىٰ، وَبَلَّغْتَهُ الْمَقَامَاتِ الْعُلىٰ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَ دِينِي وَنَفْسِي وَجَمِيعَ نِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَاجْعَلْنِي فِي كَنَفِكَ وَحِفْظِكَ وَعِزِّكَ وَمَنْعِكَ، عَزَّ جَارُكَ، وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْماؤُكَ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ، حَسْبِي أَنْتَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالشِّدَّةِ وَالرَّخاءِ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا، وَإِلَيْكَ أَنَبْنا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، رَبَّنا لاَ تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَها كَانَ غَراماً، إِنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً. رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ.

رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا، وَتَوَفَّنا مَعَ الأَبْرَارِ، رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلىٰ رُسُلِكَ، وَلاَ تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعادَ.

رَبَّنا لاَ تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا، رَبَّنا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا.

رَبَّنا وَلاَ تُحَمِّلْنا ما لاَ طَاقَةَ لَنا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنا، وَارْحَمْنا، أَنْتَ مَوْلاَنا، فَانْصُرْنا عَلىٰ الْقَوْمِ الْكَافِرِين.

رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنا بِرَحْمَتِكَ عَذَابَ النَّارِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَىٰ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيماً»[١].

---

(١) فلاح السائل: ٢٥١ ـ ٢٥٤.

الزَّهراءُ في رحاب القرآن والسُّنَّة

في رحاب القرآن

آيات في كتاب الله تعالى حملت وسام شرف لأهل بيت النبوّة ومعدن الرحمة ﷺ، لهم فيها غنى عن مدح المادحين، ووصف الواصفين لهم، وبضعة الرسول سلام الله عليها في طليعة المعنيِّين بها، ومن بين تلك الآيات:

آية المودَّة:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[١].

فرض الله تعالى في كتابه الكريم مودَّة أهل البيت ﷺ على جميع المسلمين.

١ ـ روى ابن عبَّاس قال:

لمَّا نزلت هذه الآية قيل للرسول: من قرابتك الذين أوجبت علينا مودَّتهم؟ قال ﷺ: **«عَلِيٌّ وَفاطِمَةُ وابْناهُما»**[٢].

٢ ـ روى جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال:

جاء أعرابي إلى النبيّ ﷺ فقال: يا محمَّد، اعرض عليَّ الإسلام؟

فقال له: **«تَشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ، وَأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»**.

فقال الأعرابي: تسألني عليه أجراً؟

ـ **«لاَ إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ»**.

ـ قرباي أم قرباك؟

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٢) مجمع الزوائد: ٧/١٠٣.

ـ «قُرْبايَ».

ـ هات أُبايعك، فعلى من لا يحبّك ولا يحبّ قرباك لعنة الله.

ـ «آمين»[١].

آية الأبرار:

من الآيات التي أشادت بفضل العترة الطاهرة التي من عقودها فاطمة الزَّهراء عليها السلام آية الأبرار. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[٢].

ذهب جمهور المفسِّرين إلى أنَّ سورة هل أتى نزلت في أهل البيت عليهم السلام[٣].

آية التطهير:

من الآيات البيِّنات التي نزلت في حقّ أهل البيت عليهم السلام آية التطهير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٤].

الآية الكريمة نزلت في أهل البيت عليهم السلام، وهم الخمسة أصحاب الكساء، وقد أجمع المفسِّرون على ذلك[٥].

وممَّا يدلُّ على ذلك: أنَّ أُمّ سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي، وفي البيت فاطمة وعليّ والحسن والحسين عليهم السلام، فجلَّلهم رسول الله صلى الله عليه وآله بكساء كان عليه، ثمَّ قال: **«اللَّهُمَّ هؤُلاَءِ أهْلُ بَيْتِي فَأذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً»**، يكرِّر ذلك، فقالت أُمّ سلمة: «وأنا معكم يا رسول الله»؟، ورفعت الكساء لتدخل، فجذبه رسول الله صلى الله عليه وآله وقال لها: **«إنَّكِ عَلىٰ خَيْرٍ»**[٦].

آية المباهلة:

من آيات الله تعالى أعلنت سموّ أهل البيت عليهم السلام وعظيم منزلتهم عند الله تعالى آية

---

(١) حلية الأولياء: ٣/ ٢٠١.
(٢) سورة الإنسان: الآيات ٥ ـ ٧.
(٣) تفسير الرازي: ١٠/ ٢٢٤٣.
(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.
(٥) تفسير الرازي: ٦/ ٧٨٣.
(٦) مستدرك الحاكم: ٢/ ٤١٦.

المباهلة. قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[١].

أجمع المفسِّرون ورواة الحديث أنَّ الآية الكريمة نزلت في أهل بيت النبوَّة ومعدن الرحمة[٢]، والمراد بالأبناء الحسن والحسين عليهما السلام سبطي الرحمة، وإمامي الهدى، والمراد بالنساء سيِّدة نساء العالمين الزَّهراء سلام الله عليها، وبالأنفس الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

في ظلال السُّنَّة

الأحاديث في فضل الزهراء عليها السلام

ـ روى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ رسول الله ﷺ قال لفاطمة عليها السلام: **«إنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لغَضَبِكِ، وَيَرْضىٰ لِرِضَاكِ»**[٣].

ـ روى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ رسول الله ﷺ قال لفاطمة سلام الله عليها: **«إنَّ الرَّبَّ يَغْضَبُ لِغَضَبِكِ، وَيَرْضىٰ لِرِضَاكِ»**[٤].

ـ روى مسوّر بن مخرمة أنَّ رسول الله ﷺ قال لفاطمة سلام الله عليها: **«فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي، فَمَنْ أغْضَبَها أغْضَبَنِي»**[٥].

ـ روى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«تُحْشَرُ ابْنَتِي فَاطِمَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْها حِلَّةُ الْكَرَامَةِ، قَدْ عُجِنَتْ بِمَاءِ الْحَيَوانِ[٦]، فَتَنْظُرُ إلَيْهَا الْخَلاَئِقُ، فَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، ثُمَّ تُكْسىٰ حِلَّةً مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، عَلىٰ ألْفِ حُلَّةٍ مَكْتُوبٌ بِخَطٍّ أخْضَرَ: ادْخُلُوا ابْنَةَ مَحَمَّدٍ ﷺ الْجَنَّةَ عَلىٰ أحْسَنِ صُورَةٍ، وَأكْمَلِ هَيْبَةٍ، وأتَمِّ كَرَامَةٍ، وَأوْفَرِ حظٍّ»**[٧].

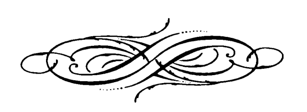
ـ أخذ النبيّ ﷺ بيد سيِّدة النِّساء عليها السلام، وقال أمام المسلمين معلناً بسموّ منزلتها، وعظيم شأنها، قال: **«مَنْ عَرَفَ هَذِهِ فَقَدْ عَرَفَها، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْها فَهِي فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ،**

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦١.
(٢) تفسير الرازي: ٢/ ٦٩٩.
(٣) مستدرك الحاكم: ٣/ ١٥٣.
(٤) ميزان الاعتدال، الذهبي: ٢/ ٧٢.
(٥) صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق: ٤/ ٢١٠ و٢١٩.
(٦) ماء الحَيَوان: ماء الحياة.
(٧) ذخائر العقبى: ٤٨.

وَهِيَ بِضْعَةٌ مِنِّي، وَهِيَ قَلْبِي، وَهِيَ رُوْحِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيَّ، مَنْ آذَاها فَقَدْ آذانِي، وَمَنْ آذانِي فَقَدْ آذَىٰ اللَّهَ»(١).

ـ روى الإمام الحسين عليه السلام أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «فاطِمَةُ بَهْجَةُ قَلْبِي، وَابْنَاها ثَمَرَةُ فُؤادِي، وَبَعْلُها نُورُ بَصَرِي، وَالأئِمَّةُ مِنْ وِلْدِها أُمَنَاءُ رَبِّي وَحَبْلُهُ الْمَمْدُودُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، مَنِ اعْتَصَمَ بِهِ نَجا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ هَوىٰ»(٢).



(١) نور الأبصار: ٤١.

(٢) فرائد السمطين: ٢/٦٦.

قِرانُ الصِّديقة بالإمام

ولمّا أشرفت بضعة الرسول سلام الله عليها على ميعة الشباب هرع مشيخة الصحابة وعيونهم إلى النبيّ ليشرِّفهم بمصاهرته، فلم يجبهم إلى ذلك، وممَّن طلب منه ذلك أبو بكر، فردَّه النبيّ ﷺ وقال له: «أَنْتَظِرُ بِهَا الْقَضاءَ». وأعقبه عمر فردَّه النبيّ بمثل ما ردَّ به صاحبه[١].

وأشاع النبيّ ﷺ أنَّ أمر الزَّهراء عليها السلام بيد الله تعالى، وليس له أي شأن فيه.

ولمّا علم المسلمون ذلك وجموا عن مذاكرته في ذلك، ومضت فترة من الزمن اجتمع في خلالها نفر من الصحابة بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فذكروا له قربه من النبيّ ﷺ، وشدَّة بلائه في الإسلام، ومناصرته للنبيّ في جميع المواقف والمشاهد، وعرضوا عليه أن يخطب من النبيّ بضعته ليفوز بمصاهرته، ويحوز إلى شرف جهاده شرف المصاهرة، فسار عليه السلام بين الإحجام والإقدام يسير في خطو متمهِّل وئيد حتَّى دخل على النبيّ ﷺ وهو مطرق برأسه، فسارع إليه النبيّ ﷺ قائلاً: «ما حاجَتُكَ يا أَخِي؟».

فغالبه الحياء برهة ثمَّ أجاب: «ذَكَرْتُ فاطِمَةَ يا رَسُولَ اللَّهِ».

فأجابه الرسول والسرور بادٍ على وجهه وابتسامة على شفتيه قائلاً: «مَرْحَباً، إنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَكَ مِنَ ابْنَتِي»[٢].

ورد في بعض التفاسير أنَّه المعني بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[٣]، والتفت النبيّ ﷺ إلى أصحابه فأخبرهم بأنَّ الله تعالى قد أمره أن يزوِّج بضعته من الإمام عليه السلام قائلاً: «لَقَدْ أَتانِي مَلَكٌ فَقَالَ لِي: يا نَبِيَّ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ لَكَ: إنِّي زَوَّجَتُ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ فِي الْمَلأ الأعْلىٰ، فَزَوِّجْها مِنْهُ فِي الأَرْضِ»[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ١١.
(٢) نور الأبصار: ٤٢.
(٣) الفرقان: ٥٤.
(٤) ذخائر العقبى: ٣٢.

وانبرى الرسول صلى الله عليه وآله نحو بضعته، وقد أترعت نفسه الشريفة بالأفراح، فقال لها: **«زَوَّجْتُكِ خَيْرَ أُمَّتِي؛ أَعْلَمُهُمْ عِلْماً، وَأَفْضَلُهُمْ حِلْماً، وَأَوَّلُهُمْ سِلْماً»**(١).

وقال لها ثانياً: **«يا فاطِمَةُ، أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، فاخْتَارَ مِنْهُمْ أَبَاكِ، فَبَعَثَهُ نَبِيّاً، ثُمَّ اطَّلَعَ ثَانِيةً فَاخْتَارَ بَعْلَكِ فَأَوْحىٰ إِلَيَّ فَأَنْكَحْتُهُ وَاتَّخَذْتُهُ وَصِيّاً»**(٢).

وقال لها ثالثاً: **«إِنَّهُ لأَوَّلُ أَصْحَابِي إِسْلاماً ـ أَوْ أَقْدَمُ أُمَّتِي سِلْماً ـ، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْماً، وَأَعْظَمُهُمْ حِلْماً»**(٣).

وفي الحديث أنَّه: **«لَوْ لَمْ يُخْلَقْ عَلِيٌّ لَمَا كَانَ لِفاطِمَةَ كُفُوءٌ»**(٤).

المهر:

قال الرسول صلى الله عليه وآله للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«يا عَلِيُّ، أَعِنْدَكَ شَيْءٌ؟»**.

«عِنْدِي سَيْفِي وَدِرْعِي وَفَرَسِي».

وهذا كان كلّ ما يملكه، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: **«أَمَّا فَرَسُكَ فَلاَ بُدَّ لَكَ مِنْها، وَأَمَّا سَيْفُكَ فَلاَ غِنَىٰ لَكَ عَنْهُ، وَأَمَّا دِرْعُكَ فَبِعْهُ»**(٥).

جهاز فاطمة عليها السلام:

وكانت محتوياته كما يلي:

١ ـ جلد كبش إذا أرادا أن يناما قلباه على صوفه.

٢ ـ وسادة من أدم حشوها ليف.

٣ ـ سرير من جريد النخل.

٤ ـ رحيين.

٥ ـ سقاء.

٦ ـ جرَّتين.

٧ ـ أوانٍ من الخزف(٦).

---

(١) جمع الجوامع: ٦/٣٩٨.
(٢) ذخائر العقبى: ٣٢.
(٣) كنز العمَّال: ٦/١٥٣.
(٤) مسند أحمد بن حنبل: ٥/٣٦.
(٥) كفاية الطالب: ١٦٦.
(٦) حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام: ١/٤٨.

وطرح الجهاز أمام النبيّ ﷺ، فنظر إلى أواني الخزف فقال: «**بُورِكَ لأَهْلِ بَيْتٍ جُلُّ آنِيَتِهِمْ مِنَ الخَزَفِ**».

خطبة العقد:

وأجرى الرسول ﷺ خطبة عقد القِران بين بضعته وبين الإمام عليه السلام أمام جمع حاشد من الصحابة، وهذا نصّها:

«**الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَحْمُودِ بِنِعْمَتِهِ، الْمَعْبُودِ بِقُدْرَتِهِ، الْمُطاعِ بِسُلْطَانِهِ، الْمَرْهُوبِ مِنْ عَذَابِهِ وَسَطَوَاتِهِ، النَّافِذِ أَمْرُهُ فِي سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ، الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَمَيَّزَهُمْ بِأَحْكَامِهِ، وَأَعَزَّهُمْ بِدِينِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.**

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَتْ عَظَمَتُهُ جَعَلَ الْمُصاهَرَةَ نَسَباً لاَحِقاً، وَأَمْراً مُفْتَرَضاً، أَوْشَجَ[١] **بِهِ الأَرْحامَ، وَأَلْزَمَ الأَنامَ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[٢]**، وَأَمْرُ اللَّهِ يَجْرِي إِلَىٰ قَضَائِهِ، وَقَضاؤُهُ يَجْرِي إِلَىٰ قَدَرِهِ، وَلِكُلِّ قَضاءٍ قَدَرٌ، وَلِكُلِّ قَدَرٍ أَجَلٌ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٣].

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَ فاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ، ثُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُ فاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ عَلَىٰ أَرْبَعِمَائَةِ مِثْقالِ فِضَّةٍ إِنْ رَضِيَ بِذَلِكَ عَلىٰ السُّنَّةِ الْقَائِمَةِ، وَالْفَرِيضَةِ الْوَاجِبَةِ، فَجَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُما، وَبارَكَ لَهُما، وَأَطابَ نَسْلَهُما، وَجَعَلَ نَسْلَهُما مَفَاتِيحَ الرَّحْمَةِ، وَمَعادِنَ الْحِكْمَةِ، وَأَمْنَ الأُمَّةِ. أَقُولُ قَوْلِي هَذا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ».

ولم يكن الإمام حاضر خطبة العقد، وإنّما كان في حاجة لرسول الله ﷺ، وبعد انتهاء خطبة العقد دخل على النبيّ ﷺ، فلمّا رآه تبسّم وقال له: «**يا عَلِيُّ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَكَ فاطِمَةَ، وإِنِّي قَدْ زَوَّجْتُكَها عَلىٰ أَرْبَعِمَائَةِ مِثْقالِ فِضَّةٍ**»[٤].

وأمر النبي ﷺ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يتكلّم فانبرى قائلاً: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَرُبَ مِنْ حَامِدِيهِ، وَدَنا مِنْ سَائِلِيهِ، وَوَعَدَ الْجَنَّةَ مَنْ يَتَّقِيهِ، وَأَنْذَرَ بِالنَّارِ مَنْ يَعْصِيهِ، نَحْمِدُهُ عَلَىٰ قَدِيمِ إِحْسَانِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَهْدِيهِ، وَنُؤْمِنُ بِهِ، وَنَسْتَكْفِيهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ**

---

(١) أوشج به الأرحام: أي شبك بعضها في بعض.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٥٤.
(٣) سورة الرعد: الآية ٣٩.
(٤) كشف الغمّة: ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، شَهادَةً تَبْلُغُه وَتُرْضِيهِ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، صَلاَةً تُزْلِفُهُ وَتُحْظِيهِ، وَتَرْفَعُهُ وَتُصْطَفِيهِ، وَالنِّكاحُ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَيُرْضِيهِ، وَهَذا رَسُولُ اللَّهِ زَوَّجَنِي ابْنَتَهُ فاطِمَةَ عَلَىٰ خَمْسِمائَةِ دِرْهَمٍ، وَقَدْ رَضِيتُ، فَاسْأَلُوهُ وَاشْهَدُوا».

وانبرى النبيّ قائلاً: «قَدْ زَوَّجْتُكَ ابْنَتِي فاطِمَةَ عَلَىٰ ما زَوَّجَكَ الرَّحْمٰنُ، وَقَدْ رَضِيتُ بِما رَضِيَ اللَّهُ لَها، فَنِعْمَ الْخَتَنُ أَنْتَ، وَنِعْمَ الصَّاحِبُ أَنْتَ، وَكَفاكَ بِرِضَىٰ اللَّهِ رِضاً»[(١)].

وبادر الإمام بالرِّضا والقبول، ثمَّ خرَّ ساجداً لله تعالى شاكراً له على هذه النعمة التي تفضَّل بها عليه، ودعا النبيّ ﷺ للإمام ولبضعته قائلاً: «بارَكَ اللَّهُ لَكُما، وَعَلَيْكُما، وَأَسْعَدَ جَدَّكُما، وَجَمَعَ بَيْنَكُما، وَأَخْرَجَ مِنْكُما الْكَثِيرَ الطَّيِّبَ»[(٢)].

وكان مجلس العقد في الجامع النبوي[(٣)].

وأمر النبيّ ﷺ بتقديم وعاء فيه بُسَر، فأخذ المدعوون منه[(٤)].

وليمة الزواج:

ولمَّا حانت ليلة اقتران النُّورين التفت النبيّ ﷺ إلى عليّ فقال له: «يا عَلِيُّ، لاَ بُدَّ لِلْعَرُوسِ مِنْ وَلِيمَةٍ»[(٥)].

ولم يكن عند الإمام شيء، فتبرَّع سعد بن عبادة بكبش، كما تبرَّع بعض الأنصار بأصوع من ذُرَّة[(٦)]، وصُنِع الطعام، ودُعِي عليه المسلمون وقت العشاء، وأعطى النبيّ ﷺ دراهماً إلى الإمام عليه السلام وقال له: «اشْتَرِ سَمْناً وَتَمْراً وأقِطاً»، فاشترى الإمام ذلك وجاء به إلى النبيّ ﷺ، وحسر النبيّ عن ذراعيه، ودعا بسفرة من أدم، وجعل يشدّخ[(٧)] التمر والسمن ويخلطهما بالأقط، حتَّى اتَّخذه حيساً[(٨)]، وقدَّمه إلى المدعوين.

النبيّ ﷺ يحدِّث فاطمة عن عليّ عليه السلام:

وحدَّث الرسول ﷺ بضعته عن منزلة عليّ ومقامه عنده قائلاً لها: «أما تَدْرِينَ ما

---

(١) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٣٢.
(٢) نور الأبصار: ٤٢.
(٣) كشف الغمَّة: ١/ ٣٥٨.
(٤) ذخائر العقبى: ٣٠.
(٥) كنز العمَّال: ٧/ ١٤.
(٦) الطبقات الكبرى: ٨/ ١٧.
(٧) الشدخ: لحسر الشيء الأجوف.
(٨) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٣٢. الحيس: هو تمر يخلط بسمن وأقِط.

مَنْزِلَةُ عَلِيٍّ عِنْدِي؟ كَفانِي أَمْرِي وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَضَرَبَ بَيْنَ يَدَيَّ بِالسَّيْفِ وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَتَلَ الأَبْطَالَ وَهُوَ ابْنُ تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَفَرَّجَ هُمُومِي وَهُوَ ابْنُ عِشْرِينَ سَنَةً، وَرَفَعَ بَابَ خَيْبَرَ وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً»[١].

المنزل:

أمَّا البيت الذي تزوَّج به الإمام عليه السلام فهو من بيوت حارثة بن النعمان، وقد استحيى النبيّ ﷺ أن يأخذه منه، فلمَّا علم ذلك خفَّ مسرعاً إلى النبيّ ﷺ وقال له: يا رسول الله، أنا ومالي لله ولرسوله. واللّهِ! ما من شيء أحبُّ إليَّ ممَّا تأخذه، والذي تأخذه أحبُّ إليَّ ممَّا تتركه، فجزَّاه النبيّ ﷺ خيراً وتحوَّلت فاطمة إليه[٢].

الزفاف:

طلب النبيّ ﷺ من أمّ المؤمنين أُمّ سلمة أن تذهب بكريمته إلى دار أمير المؤمنين عليه السلام الملاصق للجامع النبويّ، فمضت بها أُمّ سلمة مع حفنة من نساء المهاجرين والأنصار، فَزَفَفْنَ بضعة رسول الله ﷺ، وهنَّ يرتِّلن الأهازيج والأشعار، وبعدما أدَّىٰ النبيّ ﷺ صلاة العشاء انطلق إلى دار الإمام فاستقبلته أُمّ أيمن، فقال لها بصوت فيَّاض بالبشر: **«هاهُنا أخِي؟»**.

وراحت أُمّ أيمن تقول: «بأبِي أنْتَ وَأُمِّي يا رَسُولَ اللّهِ، مَنْ أخُوكَ؟».

«عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ».

«كيف يكون أخاك وقد زوَّجته ابنتك؟».

«هُوَ ذَلِكَ يا أُمَّ أيْمَنَ».

ودخل النبيّ ﷺ فنهض الزوجان تكريماً وإجلالاً له، والتفت النبيّ ﷺ إلى فاطمة عليها السلام وأمرها أن تناوله ماءً فأحضرت له قعباً[٣] فيه ماء، فأخذ منه شربة ومجَّها فيه، وقال لها: **«قُومِي»** فنضح بعض ذلك الماء على ثدييها ورأسها، ثمَّ رفع رأسه بالدُّعاء قائلاً: **«اللّهُمَّ إنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ»**.

ثمَّ أمر عليّاً أن يُحضر له قعباً فيه ماء ففعل، فأخذه النبيّ ﷺ وتناول منه شربة

---

(١) أمالي الصدوق: ٤٨٣.
(٢) بحار الأنوار: ٦/٤٠.
(٣) القعب: قدح من خشب.

ومجَّها فيه، ثمَّ صبَّه على رأسه وأخذ يدعو له قائلاً: «**اللَّهُمَّ إنِّي أُعِيْذُهُ بِكَ وَذُرِّيَّتَهُ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ**».

ثمَّ قال له: «**ادْبِرْ**»، فأدبر، وصبَّ بقيَّة الماء، ثمَّ دعا له، وأمره بالدخول على أهله(١).

وفي الحديث: «**كَانَ لِعَلِيٍّ وَجْهٌ مِنَ النَّاسِ حَياةَ فاطِمَةَ** ـ أي جاه»(٢).

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله لفاطمة: «**لَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّداً فِي الدُّنْيا وَسَيِّداً فِي الآخِرَةِ، لاَ يُبْغِضُهُ إلاَّ مُنَافِقٌ**»(٣).

الزَّهراء عليها السلام تتصدَّق بثوب عرسها:

وخلعت بضعة الرسول صلى الله عليه وآله ثوب عرسها في ليلة زفافها، ودفعته لفتاة فقيرة، وفي اليوم الثاني دخل عليها فلم ير ثوب عرسها عليها، فسألها عنه، فقالت له: «**أبَتاهُ، لَقَدْ طَرَقَتْ عَلَيَّ الْبَابَ فَتاةٌ فَقِيرةٌ تَطْلِبُ ثَوْباً، فَأخَذْتُ ثَوْبِي الْقَدِيمَ لأدْفَعَهُ لَها إلاَّ أنِّي تَذَكَّرْتُ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٤)، وَأنَا أُحِبُّ الثَّوْبَ الْجَدِيدَ فَآثَرْتُها عَلىٰ نَفْسِي، وَأعْطَيْتُهُ لَها**»(٥).

دار سكناها:

أقام النبيّ صلى الله عليه وآله لبضعته بيتاً مجاوراً للجامع الأعظم، وفتح له باباً عليه، ولمَّا أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بغلق الأبواب المفتوحة على الجامع استثنى منها باب سيِّدة نساء العالمين عليها السلام، تكريماً وتعظيماً لها(٦).

شؤون المنزل:

وكانت أُمّ الإمام السيِّدة الزكية فاطمة معه في داره، ووزَّع الإمام شؤون البيت عليها وعلى سيِّدة نساء العالمين عليها السلام، فجعل شؤون البيت الداخلية من تهيئة الطعام وغيره عليها، وشؤونه الخارجية على والدته(٧).

---

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام: ١/ ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) غريب الحديث، ابن الجوزي: ٢/ ٤٥٥.
(٣) ذخائر العقبى: ٤٣.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٩٢.
(٥) إعلموا أنّي فاطمة: ٢/ ٦٦٥.
(٦) مسند أحمد بن حنبل: ٢/ ٢٦.
(٧) النفحات القدسيَّة في الأنوار الفاطميَّة: ١٣٥. الاستيعاب (المطبوع على هامش الإصابة): ٤/ ٣٦٣.

وكانت بضعة الرسول صلى الله عليه وآله تقوم بمنزلها بالأعمال التالية:

١ ـ تهيئة الطعام:

وكانت زهراء الرسول عليها السلام تقوم بتهيئة الطعام لزوجها وأبنائها، فكانت تطحن الشعير ـ على الأكثر ـ، أو الحنطة، ثمَّ تقوم بعجنه وخبزه.

٢ ـ تنظيف البيت:

من الأعمال التي تولَّت زهراء الرسول عليها السلام القيام به في داخل البيت تنظيفه من القمامة وغيرها، وقد أثَّر ذلك على ثيابها؛ لأنَّ البيت لم يكن مفروشاً بغير التراب.

٣ ـ الغزل لملابس أبنائها وزوجها:

وكانت سلام الله عليها تغزل ملابس أبنائها وزوجها بيديها الطاهرتين، وكان للإمام أمير المؤمنين عليه السلام قميص من غزلها يتَّقي به في الحروب[١].

٤ ـ مساعدة الإمام عليه السلام لفاطمة عليها السلام:

كان الإمام عليه السلام يساعد سيِّدة النِّساء في شؤون المنزل ويعينها على مهام البيت، وقد روى عليه السلام قال: **«دَخَلَ عَلَيْنا رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَفاطِمَةُ عِنْدَ الْقِدْرِ، وَأنا أُنَقِّي الْعَدَسَ فَقَالَ: يا أبا الْحَسَنِ. لَبَّيْكَ. اسْمَعْ منِّي ما أقُولُ، وَما أقُولُ إلاَّ مِنْ أمْرِ رَبِّي، ما مِنْ رَجُلٍ يُعِينُ امْرَأتَهُ فِي بَيْتِها إلاَّ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ عَلىٰ بَدَنِهِ عِبادَةُ سَنَةٍ؛ صِيامِ نَهارِها وَقِيامِ لَيْلِها، وَأعْطاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الصَّابِرِينَ وَالصِّدِّيقِينَ»**[٢].

وقد كانت الحياة بين الإمام عليه السلام وسيِّدة النِّساء عليها السلام حياة مودَّة وألفة، وقد تحدَّث الإمام عليه السلام عن ذلك بقوله: **«فَواللَّهِ! ما أغْضَبْتُها وَلاَ أكْرَهْتُها عَلىٰ أمْرٍ حَتَّىٰ قَبَضَها اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلاَ أغْضَبَتْنِي وَلاَ عَصَتْ لِي أمْراً، وَلَقَدْ كُنْتُ أنْظُرُ إلَيْها فَتَنْكَشِفُ عَنِّي الْهُمُومُ وَالأحْزَانُ»**[٣].

٥ ـ طحنها الطعام لجيرانها:

روى سلمان الفارسي قال: مررت ذات يوم على بيت فاطمة عليها السلام فسمعت الحسن والحسين عليهما السلام يبكيان، وهما طفلان صغيران، فرقَّ قلبي لهما، فقلت لفاطمة، وأنا

---

(١) بحار الأنوار: ٣٩/ ٥٤.
(٢) بحار الأنوار: ١٠١/ ١٣٢.
(٣) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٣٣.

واقف على باب دارها: أُريد أن أقوم بحمل الحسن والحسين عليهما السلام، فقالت: «**يا سَلْمانُ، لَيْسَ عَلَىٰ رَأْسِي حِجابٌ**»، قال: فرميت لها بعباءتي، فتحجَّبت بها، وقامت إلى الحسن والحسين عليهما السلام، فجئت إلى الرحى التي كانت تطحن بها، فأخذت أُديرها، فوجدت أثر الدم على قطب الرحى فدهشت، فسألت فاطمة عليها السلام عن ذلك فقالت: إنَّها كانت تطحن القمح والشعير والحبوب لفقراء المدينة؛ لأنَّهم لا يملكون رحًى، فكانوا يأتون إليها بالطعام، ويسألونها أن تعينهم على طحنه، فكانت تطحنه لهم برفق وحنان[١].

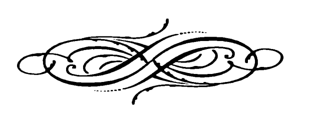
ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله فرآها تطحن وعليها كساء من أوبار الإبل فبكى وقال لها: «**اصْبِرِي عَلَىٰ مَرارَةِ الدُّنْيا لِنَعِيمِ الآخِرَةِ غَداً**»[٢].

وكانت في حال طحنها تتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٣].

وأوصى النبيّ صلى الله عليه وآله سيِّدة النِّساء عليها السلام بضعته أنَّ لا تلحّ على زوجها بأن يأتي لها بأيّ شيء من أُمور الدُّنيا، فقد قالت له: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله نَهَانِي أَنْ أَسْأَلَكَ شَيْئاً**»، فقال: «**لاَ تَسْأَلِي ابْنَ عَمِّكِ شَيْئاً، إن جَاءَكِ بِشَيْءٍ عَفْواً، وَإلاَّ فَلاَ تَسْأَلِيهِ**».

٦ ـ سقايتها للضعفاء:

ومن الأعمال التي كانت تسديها لضعفاء جيرانها من العجزة والنِّساء والأطفال أنَّها كانت تملأ القربة من ماء الآبار وتحملها لهم، حتَّى أثَّر ذلك في متنها[٤].



(١) إعلموا أنّي فاطمة: ٤/٥٤٧.
(٢) كنز العمّال: ٦/ ٢٩٥.
(٣) سورة القصص: الآية ٦٠.
(٤) بحار الأنوار: ٤٣/ ٨٢.

الذُّرِّيَّةُ الطَّاهِرَةُ

الإمام الحسن عليه السلام: هو أوّل مولود لسيِّدة النِّساء.

الإمام الحسين عليه السلام: هو باني الإسلام، والمنقذ الأعظم للأُمَّة الإسلاميَّة.

السيِّدة زينب: هي حفيدة الرسول ﷺ، وسيِّدة نساء العالمين بعد أُمّها الصدِّيقة الطاهرة سلام الله عليها، فقد تجسَّدت فيها جميع الصفات الكريمة والنزعات الشريفة، هي أوّل سيِّدة من نسل رسول الله ﷺ تزيَّنت بها الدُّنيا، ولم يولد مثلها في طهارتها وعفّتها.

أُمُّ كلثوم: ذهب بعض النسَّابين إلى أنَّ السيِّدة أُمُّ كلثوم أُمّها الصدِّيقة سيِّدة نساء العالمين زهراء الرسول عليها السلام، وأنَّ عمر بن الخطَّاب تزوَّجها، وقد أولدت منه ولدين أحدهما عون والآخر معين.

وقد دلّلنا على عدم صحَّة هذه الرواية، وذكرنا أنَّه ليس للصدِّيقة الطاهرة فاطمة الزَّهراء سلام الله عليها بنت غير السيِّدة المعظَّمة زينب عليها السلام، كما ذهب إلى ذلك بعض المحقّقين، وأنَّها كانت تكنَّى بأُمِّ كلثوم، وعثرت على بعض المصادر جاء فيه أنَّ السيِّدة أسماء بنت عميس أعقبت من أبي بكر زوجها ولداً وهو الشهيد الخالد محمَّد، وبنتاً اسمها أُمّ كلثوم، وقد تربَّت مع أُمّهما أسماء في بيت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنَّ الإمام قد تزوَّج بأُمّهما أسماء، فأُمّ كلثوم ربيبة الإمام، وقد تزوَّج بها عمر بن الخطَّاب.

وعلى أيِّ حال، فإنِّي أذهب بغير تردُّد إلى أنَّ الصدِّيقة الطاهرة الزهراء عليها السلام ليس عندها بنت تُسمَّىٰ بأُمّ كلثوم.

المُحسن: هو قطعة من كبد رسول الله ﷺ سمَّاه بالمحسن، وهو في بطن أُمّه، ولمَّا هجم القوم على دار الصدِّيقة وديعة النبيّ وبضعته ليحرقوه فزعت وقاومتهم فاعتدوا عليها وهي خلف الباب، وكان من عنف الاعتداء عليها وقسوته أنَّها أسقطت المحسن ما بين الحائط والباب.

تراثها العلمي والفكري

١ ـ الحثّ على النظافة:

روى الحسين بن الحسن، عن أُمَّة فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام، عن أبيها، عن فاطمة عليها السلام، قالت: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: لاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ مَنْ بَاتَ وَفِي يَدِهِ غَمْرٌ[1]»[2].

٢ ـ السخاء والبخل:

روى الإمام زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أُمّه فاطمة عليها السلام، قالت: «قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: إيَّاكِ وَالْبُخْلَ؛ فَإِنَّهُ عَاهَةٌ لاَ تَكُونُ فِي كَرِيمٍ... إيَّاكِ وَالْبُخْلَ؛ فَإِنَّهُ شَجَرَةٌ فِي النَّارِ، وَأغْصَانُها فِي الدُّنْيا، فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْ أغْصانِهَا أدْخَلَهُ النَّارَ. وَالسَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَأغْصَانُها فِي الدُّنْيا، فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْ أغْصَانِها أدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»[3].

٣ ـ فضل العتق:

روى الحكيم بن أبي نعيم، قال: سمعت فاطمة عليها السلام بنت محمَّد صلى الله عليه وآله تحدِّث عن أبيها، قالت: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: مَنْ أعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً كَانَ لَهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا فَكَاكُ عُضْوٍ مِنَ النَّارِ»[4].

٤ ـ فضل المريض:

روت السيِّدة فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام، عن جدّتها فاطمة الزَّهراء عليها السلام، عن

---

(١) الغمر: دسم اللحم.

(٢) مسند فاطمة الزهراء عليها السلام: ٢٢٠.

(٣) الكوثر في أحوال فاطمة بنت النبيّ الأطهر: ٤/٤٢٧.

(٤) مسند فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ٢٢١.

النبيّ ﷺ أنّه قال: «إذا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْحىٰ اللّهُ إلىٰ مَلاَئِكَتِهِ أَنْ ارْفَعُوا عَنْ عَبْدِيَ الْقَلَمَ مَا دَامَ فِي وَثَاقِي، فَإِنِّي أَنَا حَبَسْتُهُ حَتَّى أَقْبِضَهُ أَوْ أُخَلِيَ سَبِيلَهُ»[١].

٥ ـ التهاون في الصلاة:

سألت الصدِّيقة سيِّدة النِّساء ﷺ أباها رسول الله ﷺ قائلة: «يا أَبَتاهُ، ما لِمَنْ تَهاوَنَ بِصَلاَتِهِ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ؟».

فأجابها قائلاً: «يا فاطِمَةُ، مَنْ تَهاوَنَ بِصَلاَتِهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّساءِ ابْتَلاَهُ اللّهُ بِخَمْسَ عَشَرَ خَصْلَةً؛ ستٌّ مِنْهَا فِي دَارِ الدُّنيا، وَثَلاَثٍ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَثَلاَثٍ فِي قَبْرِهِ، وَثَلاَثٍ فِي الْقِيامَةِ إذا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ، فَأَمَّا اللَّوَاتِي تُصِيبُهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَالأُولَى يَرْفَعُ اللّهُ الْبَرَكَةَ مِنْ عُمُرِهِ وَيَرْفَعُ اللّهُ الْبَرَكَةَ مِنْ رِزْقِهِ وَيَمْحُو اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ سِيمَاءَ الصَّالِحِينَ مِنْ وَجْهِهِ وَكُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ لا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ وَلَا يَرْتَفِعُ دُعَاؤُهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَالسَّادِسَةُ لَيْسَ لَهُ حَظٌّ فِي دُعَاءِ الصَّالِحِينَ وَأَمَّا اللَّوَاتِي تُصِيبُهُ عِنْدَ مَوْتِهِ فَأُولاَهُنَّ أَنَّهُ يَمُوتُ ذَلِيلًا وَالثَّانِيَةُ يَمُوتُ جَائِعاً وَالثَّالِثَةُ يَمُوتُ عَطْشَاناً فَلَوْ سُقِيَ مِنْ أَنْهَارِ الدُّنْيَا لَمْ يَرْوَ عَطَشُهُ وَأَمَّا اللَّوَاتِي تُصِيبُهُ فِي قَبْرِهِ فَأُولاَهُنَّ يُوَكِّلُ اللّهُ بِهِ مَلَكاً يُزْعِجُهُ فِي قَبْرِهِ وَالثَّانِيَةُ يُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ وَالثَّالِثَةُ تَكُونَ الظُّلْمَةُ فِي قَبْرِهِ وَأَمَّا اللَّوَاتِي تُصِيبُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ فَأُولاَهُنَّ أَنْ يُوَكِّلَ اللّهُ بِهِ مَلَكاً يَسْحَبُهُ عَلَى وَجْهِهِ وَالْخَلاَئِقُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَالثَّانِيَةُ يُحَاسِبُهُ حِسَاباً شَدِيداً وَالثَّالِثَةُ لَا يَنْظُرُ اللّهُ إِلَيْهِ وَلَا يُزَكِّيهِ وَلَهُ عَذَابٌ أَلِيم».

٦ ـ الساعة التي يُستجاب فيها الدُّعاء:

روى زيد بن علي ﷺ، عن آبائه، عن جدّته فاطمة ﷺ، قالت: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: إنَّ فِي الْجُمْعَةِ لَسَاعَةٌ لاَ يُوافِقُها رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيها خَيْراً إلاَّ أَعْطاهُ إِيَّاهُ.

قُلْتُ: يا رَسُولَ اللّهِ، أيُّ سَاعَةٍ هِيَ؟

قَالَ: إذَا تَدَلَّىٰ نِصْفُ عَيْنِ الشَّمْسِ لِلْغُرُوبِ».

قال زيد: وكانت فاطمة سلام الله عليها تقول لغلامها: «اصْعَدْ إِلَىٰ الظِّرابِ[٢] فَإِذا رَأَيْتَ نِصْفَ عَيْنِ الشَّمْسِ قَدْ تَدَلَّىٰ لِلْغُرُوبِ فَاعْلِمْنِي حَتَّى أَدْعُو»[٣].

---

(١) مسند فاطمة الزّهراء ﷺ: ٢٢٠.

(٢) الظراب: جمع المظرب، أي المرتفع.

(٣) بحار الأنوار: ٨٩/٢٦٩.

٧ ـ الساعة التي يقسّم الله فيها أرزاقه للعباد:

روت سيِّدة النِّساء سلام الله عليها، عن أبيها صلى الله عليه وآله، قالت: «مَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وأنا مُضْطَجِعَةٌ مُتَصَبِّحَةٌ فَحَرَّكَنِي بِرِجْلِهِ وَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، قُومِي فَاشْهَدِي رِزْقَ رَبِّكِ، وَلاَ تَكُونِي مِنَ الْغَافِلِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُقَسِّمُ أَرْزَاقَ النَّاسِ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ»[1].

٨ ـ الدُّعاء عند دخول المسجد:

روى عبد الله بن الحسن، عن أُمّه فاطمة، عن جدّته سيِّدة نساء العالمين عليها السلام، قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»[2].

٩ ـ الجندان الظالمان:

روى عبد الله بن الحسن، عن أُمّه، عن سيِّدة النِّساء سلام الله عليها أنَّها روت أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ما التَقىٰ جُنْدَانِ ظَالِمَانِ إلاَّ تَخَلَّىٰ اللَّهُ عَنْهُما، فَلَمْ يُبالِ أَيُّهُمَا غَلَبَ، ومَا الْتَقىٰ جُنْدَانِ ظالِمانَ إلاَّ كَانَتْ الدَّائِرَةُ عَلَىٰ أَعْتَاهُمَا»[3].

١٠ ـ فضل الشيعة:

روت سيِّدة النِّساء الصدِّيقة زينب عليها السلام، عن أُمّها سيِّدة نساء العالمين عليها السلام أنَّها قالت: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله لِعَلِيٍّ: أَمَا إِنَّكَ يا عَلِيُّ وَشِيْعَتَكَ فِي الْجَنَّةِ»[4].

١١ ـ السعيد من أحبَّ عليّاً عليه السلام:

روت سيِّدة النِّساء، عن أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «هَذا جَبْرَئِيلُ يُخبِرُنِي أَنَّ السَّعِيدَ مَنْ أَحبَّ عَلِيّاً فِي حَياتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ، وَأنَّ الشَّقِيَّ كُلَّ الشَّقِيِّ مَنْ أَبْغَضَ عَلِيّاً فِي حَياتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ»[5].

---

(١) الكوثر في أحوال فاطمة بنت النبيّ الأطهر: ٤/ ٧٢.
(٢) بحار الأنوار: ٨١/ ٢٢.
(٣) الذريّة الطاهرة النبوية: ١٠٧.
(٤) الكوثر في أحوال فاطمة بنت النبيّ الأطهر: ٤/ ٦١.
(٥) مجمع الزوائد: ٩/ ١٣٢.

١٢ ـ أبناء فاطمة عليها السلام ينتسبون للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

روت السيِّدة فاطمة، عن أبيها، عن سيِّدة نساء العالمين أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **«لِكُلِّ نَبِيٍّ عُصْبَةٌ يَنْتَمُونَ إِلَيْهِ، وَإِنَّ بَنِي فَاطِمَةَ عُصْبَتِي الَّتِي إِلَيْهَا نَنْتَمِي»**(١).

ومثل هذا الحديث روته سيِّدة نساء العالمين عليها السلام، عن أبيها صلى الله عليه وآله، قال: **«كُلُّ بَنِي أَبٍ يَنْتَمُونَ إِلَىٰ عُصْبَةِ أَبِيهِمْ، إلاَّ وُلْدَ فَاطِمَةَ، فَإِنِّي أَنَا أَبُوهُمْ وَأَنَا عُصْبَتُهُمْ»**(٢).

١٣ ـ تعويذ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للحسنين عليهما السلام:

روت السيِّدة فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام، عن جدّتها الصدِّيقة سلام الله عليها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعوِّذ الحسن والحسين بهذه الكلمات، كما كان يعلِّمهما السورة من القرآن، يقول: **«أُعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وِمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ»**(٣).

١٤ ـ نِحلة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للحسنين عليهما السلام:

روت سيِّدة النِّساء سلام الله عليها أنَّها قالت لأبيها صلى الله عليه وآله: **«يا رَسُولَ اللَّهِ، انْحَلْ ابْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ»** عليهما السلام فقَالَ: **«أَنْحَلُ الْحَسَنَ الْمَهَابَةَ وَالْحِلْمَ، وَأَنْحَلُ الْحُسَيْنَ السَّمَاحَةَ وَالرَّحْمَةَ»**(٤).

١٥ ـ ميراث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لسبطيه عليهما السلام:

روت زينب بنت أبي رافع، عن سيِّدة النِّساء فاطمة سلام الله عليها أنَّها أتت رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفِّي فيه فقالت له: **«يا رَسُولَ اللَّهِ، هذانِ ابْنَاكَ فَوَرِّثْهُما. فَقَالَ: أَمَّا الْحَسَنُ فَلَهُ هَيْبَتِي وَسُؤْدَدِي، وَأَمَّا الْحُسَينُ فَلَهُ جُرْأَتِي وَجُودِي»**(٥).

١٦ ـ الصنيعة لأبناء فاطمة عليها السلام:

روت سيِّدة النِّساء سلام الله عليها، عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) الكوثر في أحوال فاطمة بنت النبيّ الأطهر: ٤/ ٤٣٣.
(٢) بحار الأنوار: ٣٧/ ٧٠.
(٣) الذرِّية الطاهرة النبوية: ١٠٧.
(٤) حياة الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام: ١/ ٢١٧.
(٥) كنز العمَّال: ٧/ ٢٦٨.

قال: «أَيُّما رَجُلٌ صَنَعَ إِلىٰ رَجُلٍ مِنْ وُلْدِي صَنِيعَةً فَلَمْ يُكافِئْهُ عَلَيْها، فَأنا الْمُكافِيءُ لَهُ عَلَيْها»(١).

١٧ ـ حديث الثقلين:

قالت الصدِّيقة سيِّدة النِّساء سلام الله عليها: «سَمِعْتُ أَبِي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ، وَقَدِ امْتَلأتْ الْحُجْرَةُ مِنْ أَصْحابِهِ يَقُولُ: «يا أَيُّها النَّاسُ، يُوشَكُ أَنْ أُقْبَضَ قَبْضاً يَسِيراً، وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ الْقَوْلَ مَعْذِرَةً إِلَيْكُمْ، أَلاَ إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيكُمْ كِتابَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقالَ: هَذا عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ، لاَ يَفْتَرِقانِ حَتَّىٰ يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَأَسْأَلُكُمْ ما تُخْلِفُونِي فِيهِما»(٢).

١٨ ـ النصّ على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام:

روى الإمام الحسين عليه السلام، عن أُمّه سيِّدة نساء العالمين عليها السلام أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ كُنْتُ وَلِيُّهُ فَعَلِيٌّ وَلِيُّهُ، وَمَنْ كُنْتُ إِمامَهُ فَعَلِيٌّ إِمامُهُ»(٣).

١٩ ـ الأئمَّة من وُلد الحسين عليه السلام:

روى الإمام الحسين عليه السلام، عن أُمّه سيِّدة نساء العالمين عليها السلام أنَّها قالت له: «لَمَّا وَلَدْتُكَ دَخَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَناوَلْتُكَ إِيَّاهُ فِي خِرْقَةٍ صَفْراءَ، فَرَمىٰ بِهَا وَأَخَذَ خِرْقَةً بَيْضاءَ، وَلَفَّكَ بِهَا، وَأَذَّنَ فِي أُذُنِكَ الْيُمْنىٰ، وَأَقامَ فِي الْيُسْرىٰ، ثُمَّ قالَ: يا فاطِمَةُ، خُذِيهِ، فَإِنَّهُ أَبُو الأَئِمَّةِ، تِسْعَةٌ مِنْ وِلْدِهِ أَئِمَّةٌ أَبْرارٌ، وَالتَّاسِعُ مَهْدِيُّهُمْ»(٤).

٢٠ ـ فضل الإمام عليّ عليه السلام:

روت عائشة قالت: حدَّثتني فاطمة عليها السلام قالت: «قالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: زَوْجُكِ أَعْلَمُ النَّاسِ عِلْماً، وَأَوَّلُهُمْ سِلْماً، وَأَفْضَلُهُمْ حِلْماً»(٥).

٢١ ـ الأعراف هم الأئمَّة عليهم السلام:

روى الصحابي الجليل أبو ذرّ، قال: سمعت فاطمة عليها السلام تقول: «سَأَلْتُ أَبِي عَنْ

(١) بحار الأنوار: ٩٣/ ٢٢٥.
(٢) ينابيع المودَّة: ٢٩٤.
(٣) الكوثر في أحوال فاطمة بنت النبيّ الأطهر: ٤/ ٣٥٧.
(٤) منتخب الأثر: ٨٩.
(٥) الذرِّيَّة الطاهرة النبوية: ١٠٣.

قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾[(١)] قَالَ: هُمُ الأَئِمَّةُ بَعْدِي: عَلِيٌّ وَسِبْطَايَ، وَتِسْعَةٌ مِنْ صُلْبِ الْحُسَيْنِ، هُمْ رِجَالُ الأعْرافِ، لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ يَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَهُ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ إلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَيُنْكِرُونَهُ، لاَ يُعْرَفُ اللَّهُ تَعَالىٰ إلاَّ بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِهِمْ»[(٢)].

٢٢ ـ الصدِّيقة عليها السلام من السوابق لمرضاة الله تعالى:

قالت سيِّدة النِّساء لأبيها ﷺ: «يا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ سَلْمانَ تَعَجَّبَ مِنْ لِبَاسِي، فَوالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا لِي وَلِعَلِيٍّ مُنْذُ خَمْسِ سِنِينَ إلاَّ مِسْكُ كَبْشٍ نَعْلِفُ عَلَيْهَا بِالنَّهارِ بَعِيرَنا، فَإذا كَانَا للَّيْلُ افْتَرَشْناهُ، وَإنَّ مِرْفَقَتَنا لَمِنْ أَدَمٍ حَشْوُها مِنْ لِيْفٍ.

فقالَ النَّبيُّ ﷺ: يا سَلْمَانُ، إنْ ابْنَتِي لَفِي الْخَيْلِ السَّوابِقِ»[(٣)].

جوامع الكلم:

١ ـ «الْبِشْرُ فِي وَجْهِ الْمُؤْمِنِ يُوْجِبُ لِصاحِبِهِ الْجَنَّةَ، وَالْبِشْرُ فِي وَجهِ الْمُعانِدِ الْمُعَادِي يَقِي صَاحِبَهُ النَّارَ»[(٤)].

٢ ـ «مَنْ أَصْعَدَ إلَىٰ اللَّهِ خَالِصَ عِبادَتِهِ أَهْبَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إلَيْهِ أَفْضَلَ مَصْلَحَتِهِ»[(٥)].

٣ ـ «فَرَضَ اللَّهُ الْعَدْلَ مِسْكاً لِلْقُلُوبِ»[(٦)].

٤ ـ «خِيَارُكُمْ أَلْيَنُكُمْ، وَأَكْرَمُهُمْ لِنِسائِهِمْ»[(٧)].

٥ ـ «ما يَصْنَعُ الصَّائِمُ بِصِيامِهِ إذَا لَمْ يَصُنْ لِسانَهُ وَسَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَجَوارِحَهُ»[(٨)].

٦ ـ «دَعْنَ التَّعْدادَ وَعَلَيْكُنَّ بِالدُّعاءِ»[(٩)].

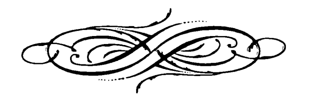
٧ ـ «اتْرُكْنَ الْحِدادَ، وَعَلَيْكُنَّ بِالدُّعاءِ»[(١٠)].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٦.
(٢) بحار الأنوار: ٣٦/٣١٥.
(٣) الكوثر في أحوال فاطمة بنت النبيّ الأطهر: ٤/٤٤٥.
(٤) بحار الأنوار: ٧٥/٤٠١.
(٥) بحار الأنوار: ٧٠/٢٤٩.
(٦) الكوثر في أحوال فاطمة بنت النبيّ الأطهر: ٤/٤٤٠.
(٧) مسند فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ٢٢١.
(٨) بحار الأنوار: ٩٦/٢٩٥.
(٩) بحار الأنوار: ١٠/٩٦.
(١٠) المصدر المتقدِّم: ٩٧.

مصحف فاطمة:

من المناهج العلميَّة التي زاولتها سيِّدة نساء العالمين عليها السلام أنَّها ألَّفت كتاباً من إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله، أشارت فيه إلى الأحداث التي تقع على مسرح الحياة من دون أن تتعرض إلى مسائل الحلال والحرام، وسُمِّي هذا الكتاب فيما بعد بمصحف فاطمة،وكان هذا الكتاب عند الأئمَّة الطاهرين عليهم السلام، يرجعون إليه للنظر في الأحداث التي تواجهها الإنسانيَّة في مستقبل حياتها.



الزهراء عليها السلام مع الثورة الإسلامية العظمى

الزهراء عليها السلام مع أبيها:

رافقت الزَّهراء سلام الله عليها، وهي في فجر الصبا، أباها في أيام محنته، ورأت ما كان يعانيه من الاضطهاد والتنكيل، فكان قلبها الطاهر يذوب أسى وحسرات، فقد روى الرواة عن ابن مسعود أنَّه قال: إنَّ النبيّ ﷺ بينما كان يصلِّي في البيت المعظَّم، وكان أبو جهل مع عصابة من فسقة قريش في البيت فالتفت إليهم أبو جهل فقال لهم: «أيّكم يقوم إلى سَلَى جزور بني فلان فيأخذه ويضعه على كتفي محمَّد إذا سجد؟».

وانبرى شقيّ منهم فأخذ سَلَى الجزور وهو ملوَّث بالدم والروث ووضعه بين كتفي الرسول ﷺ في حال سجوده، وغرقت العصابة المجرمة بالضحك، وخاف ابن مسعود أن يطرحه عن ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد لم يرفع رأسه، وسارع شخص إلى فاطمة عليها السلام فأخبرها بما جرى على أبيها، فأقبلت ومعها جويرة فأزاحته عنه، ودعت على من صنع ذلك، ولمَّا قضى النبيّ ﷺ صلاته رفع صوته بالدُّعاء عليهم، وكان من عادته إذا دعا يدعو ثلاثاً، وإذا سأل من الله تعالى يسأل ثلاثاً، ثمَّ قال: **«اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ»**.

قال ذلك ثلاث مرَّات، فلمَّا سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا من دعائه، ثمَّ قال ﷺ: **«اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هُشامٍ، وَتُبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدَ بن عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ مَعِيطٍ...»**.

يقول ابن سعد:

«فوالذي بعث محمَّداً ﷺ بالحقِّ لقد رأيت الذين سمَّى - يعني الذين دعا عليهم النبيّ - صرعى يوم بدر، ثمَّ سحبوا إلى القليب قليب بدر»[١].

(١) صحيح مسلم: في كتاب الجهاد والسير: ٥/ ١٨٠.

في واقعة أُحُد:

حضرت سيِّدة النِّساء واقعة أُحُد، ورأت ما مُنِي به المسلمين من الهزيمة الساحقة التي كادت أن تطوي معالم الإسلام، لولا جهاد ابن عمّها الإمام أمير المؤمنين وانبرت سيِّدة النِّساء بألم بالغ ومعها زوجها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فجعل يسكب الماء على جراحات الرسول صلى الله عليه وآله، وكان الماء لا يزيد الدم إلاَّ كثرة، فسارعت الصدِّيقة إلى قطعة حصير فأحرقته حتَّى صار رماداً، فأخذت منه ووضعته على الجراحات فاستمسكت[١].

واقعة الأحزاب:

وداهمت جيوش المشركين المدينة عاصمة الإسلام بقيادة الجاهلي أبي سفيان لتطوي رسالة الإسلام، وتعيد الجاهلية الأُولى إلى الناس، وصنع المسلمون خندقاً لحماية المدينة، برأي المفكِّر الصحابي الجليل سلمان الفارسي، وظلَّ النبيّ صلى الله عليه وآله يعمل مع المسلمين، وسارعت إليه بضعته الصدِّيقة سيِّدة النِّساء بكسرة من خبز فرفعتها إليه، فقال لها: **«ما هَذِهِ يا فاطِمَةُ؟»**.

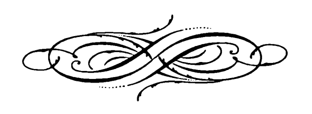
فقالت له بأدب ولطف: **«مِنْ قُرْصٍ اخْتَبَزْتُهُ لابْنِي، جِئْتُكَ مِنْهُ بِهَذِهِ الْكِسْرَةَ»**.

وسارع النبيّ صلى الله عليه وآله قائلاً: **«أمَا إنَّها لأَوَّلُ طَعامٍ دَخَلَ فَمَ أبِيكِ مُنْذُ ثَلاَثٍ»**[٢].

النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع بضعته في حلّه وترحاله:

وأخلص النبيّ صلى الله عليه وآله لبضعته، وقدَّمها على بقيَّة أهله، وكان من عظيم إخلاصه لها أنَّه إذا سافر كان آخر عهدٍ بها، وإذا قدم من سفره كان أوَّل ما يقدم عليها، ثمَّ يأتي إلى بيته[٣].

كما حضرت سلام الله عليها مع أبيها في فتح مكَّة[٤]، وشاهدت الفتح المبين لأبيها، وخضوع القرشيِّين وذلّتهم له.



(١) صحيح مسلم: كتاب الجهاد: ٥/ ١٧٨.
(٢) ذخائر العقبى: ٤٧.
(٣) سنن أبي داود: ٣/ ٢٩١، باب ما جاء في الانتفاع بالعاج.
(٤) المغازي: ٣/ ١٠٨٧.

المأساة الخالدة

وطافت ببضعة الرسول تيارات مروعة ومذهلة من الأسى والحزن حينما علمت أنَّ أباها هو عندها أعزّ من هذه الحياة، سوف يفارقها وينتقل إلى حظيرة القدس وتخلو الدُّنيا من شخصه العظيم، فكانت ولهى تراودها الآلام يتبع بعضها بعضاً، وقد ضاقت عليها الأرض.

ونعرض - بإيجاز - إلى بعض فصول هذه المأساة الخالدة في دُنيا الأحزان:

مرض النبيّ ﷺ:

ولمَّا قفل النبيّ ﷺ راجعاً من مكَّة إلى يثرب بدأت صحَّته تنهار يوماً بعد يوم، فقد ألمَّ به المرض، وأصابته حمى مبرحة، حتَّى كأنَّ به لهباً منها، وكانت عليه قطيفة، فإذا وضع أزواجه وعوَّاده أيديهم عليها شعروا بحرِّها، وقد وضعوا إلى جواره إناءً فيه ماء بارد، فما زال يضع يده فيه، ويمسح به وجهه الشريف، وهو من أروع الوسائل، لتخفيف درجة الحرارة، وكان يقول: **«ما أزالُ أجِدُ ألَمَ الطَّعامِ الَّذِي أكَلْتُهُ بِخَيْبَرَ، فَهَذا أوانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»**[١].

وهرع المسلمون إلى عيادته، وقد خيَّم عليهم الأسى والذهول فازدحمت بهم حجرته فنعى إليهم نفسه، وأوصاهم بما يضمن لهم السعادة والنجاح قائلاً: **«أيُّها النَّاسُ، يُوشَكُ أنْ أُقْبَضَ قَبْضاً سَرِيعاً، فَيُنْطَلَقُ بِي، وَقَدَّمْتُ إلَيْكُمْ الْقَوْلَ مَعْذَرَةً إلَيْكُمْ، ألاَ إنِّي مُخَلِّفٌ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِتْرَتِي أهْلَ بَيْتِي...»**.

ثمَّ أخذ بيد وصيّه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: **«هَذا عَلِيٌّ مَعَ الْقُرآنِ، وَالْقُرآنُ مَعَ عَلِيٍّ، لاَ يَفْتَرِقانِ حَتَّىٰ يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ»**[٢].

---

(١) البداية والنهاية: ٥/ ٢٤٦.

(٢) الصواعق المحرقة: ٢/ ٣٦١.

لوعة الزَّهراء عليها السلام:

ونخب الحزن قلب بضعة الرسول صلى الله عليه وآله، وبرح بها الألم وأضناها، حينما أيقنت بمفارقة أبيها لهذه الحياة، فقد فزعت مرعوبة تعثَّر بخطاها كأنَّما تُعاني آلام الاحتضار، وقد جلست إلى جنبه، وأحدقت بوجهه، فسمعته يقول: «وَاكَرْباه!».

وامتلأ قلبها الطاهر أسىً وحسرات وراحت تقول: «وَاكَرْبِي! لِكَرْبِكَ يا أَبَتِ».

وأشفق الرسول صلى الله عليه وآله حينما رأى حبيبته ولهى كأنَّها صورة جثمان ليس فيه حياة، فقال لها مسلِّياً: «لاَ كَرْبَ عَلىٰ أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ»[1].

ووقعت هذه الكلمات كالصاعقة عليها، فقد علمت أنَّ أباها سيفارقها، ورآها النبيّ صلى الله عليه وآله مضطربة قد خطف الحزن لونها، وسرت في جسمها رعدة الأسى، فأراد أن يسلِّيها، فأمرها بالدنوّ إليه، وأسرَّ إليها بحديث فلم تملك نفسها أن غامت عيناها بالدموع، ثمَّ أسرَّ إليها ثانيةً فقابلته ببسمات فيَّاضة بالبشر، وعجبت عائشة من ذلك وراحت تقول:

ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن!

وسألتها عائشة عمَّا أسرَّ إليها أبوها، فأشاحت بوجهها عنها، وأبت أن تخبرها، ولمَّا تصرَّمت الأيام أخبرت عن ذلك، فقالت: «أَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرَئِيلَ كَانَ يُعارِضُنِي بِالْقُرآنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي بِهِ فِي هَذَا الْعامِ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أَراهُ إلاَّ قَدْ حَضَرَ أَجَلِي».

وكان هذا هو السبب في لوعتها وبكائها، وأمَّا سبب سرورها وابتهاجها فتقول: «أَخْبَرَنِي أَنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لُحُوقاً بِي، وَنِعْمَ السَّلَفُ أنا لَكِ، أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِساءِ هَذِهِ الأُمَّةِ»[2]؟

إنَّ السبب في إخماد حزنها هو أنَّها أوَّل أهل بيته لحوقاً به، لقد سئمت الحياة التي يختفي منها أبوها.

وأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله يخفِّف لوعة بضعته قائلاً لها: «يا بُنَيَّةُ، لاَ تَبْكِي، وإذا مِتُّ فَقُولِي: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَإِنَّ فيها مِنْ كُلِّ مَيِّت مَعُوضَةٌ».

فقالت له بصوت خافت حزين النبرات: «وَمِنْكَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟».

---

(١) حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام: ١/ ١١٢.

(٢) حياة الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام: ١/ ٢١٥.

قال: **«نَعَمْ، وَمِنّي»**[1].

واشتدَّ الوجع برسول الله صلى الله عليه وآله، فجعلت تبكي أحرّ البكاء، وخاطبت أباها قائلةً: **«أَنْتَ وَاللَّهِ! كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:**

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَىٰ الْغَمامُ بِوَجْهِهِ ثِمالُ الْيَتامَىٰ عِصْمَةٌ لِلأَرامِلِ

فقال لهاالنبيّ صلى الله عليه وآله: **«هَذا قَوْلُ عَمِّكِ أَبِي طَالِبٍ»**، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّـٰكِرِينَ﴾»[2][3].

النبيّ صلى الله عليه وآله يوصي بأهل بيته:

روى أنس بن مالك قال: جاءت فاطمة ومعها الحسن والحسين عليهما السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفّي فيه فانكبَّت عليه، وألصقت صدرها بصدره وهي غارقة بالبكاء، فنهاها النبيّ صلى الله عليه وآله عن البكاء خوفاً عليها والنبيّ صلى الله عليه وآله قد جرت دموعه على خدّيه وهو يقول: **«اللَّهُمَّ أَهْلَ بَيْتِي، وأنا مُسْتَوْدِعُهُمْ كُلَّ مُؤْمِنٍ...»**.

وجعل يردِّد ذلك ثلاث مرَّات[4]، وهو مثقل بالهمّ لعلمه بما سيجري عليهم من صنوف المحن والخطوب.

ميراث النبيّ صلى الله عليه وآله لسبطيه عليهما السلام:

وأقبلت سيِّدة النساء ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السلام وهي تذرف الدموع، طالبة من أبيها أن يورث ولديها شيئاً من مكارم نفسه التي عطَّر شذاها العالم قائلةً له: **«أَبَه، هَذانِ وَلَداكَ فَوَرِّثْهُما مِنْكَ شَيْئاً»**.

وأفاض عليهما النبيّ صلى الله عليه وآله بعض خصائصه ومميزاته التي امتاز بها على سائر النَّبيِّين قائلاً:

«أَمَّا الْحَسَنُ فَلَهُ هَيْبَتِي وَسُؤْدَدِي، وأَمَّا الْحُسَيْنُ فَلَهُ جُرْأَتِي وَجُودِي»[5].

---

(١) أنساب الأشراف: ١/١٣٣.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.
(٣) حياة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: ١/٢١٦.
(٤) أنساب الأشراف: ١/١٣٣.
(٥) مناقب آل أبي طالب: ٢/٤٦٥.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الفردوس الأعلى:

وآن الوقت للنبيّ العظيم صلى الله عليه وآله الذي لم يخلق الله له نظيراً فيما مضى من سالف الزمن، ومن هو آتٍ أن يرحل عن هذه الحياة ويجاور إخوانه أنبياء الله العظام، فقد هبط عليه ملك الموت مستأذناً منه، فانبرت إليه الزهراء قائلة له: «إِنَّهُ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ».

فانصرف ثمَّ عاد طالباً الإذن فأفاق النبيّ صلى الله عليه وآله وقال لبضعته: «أَتَعْرِفِيه؟».

- «لاَ، يا رَسُولَ اللَّهِ».

- «إِنَّهُ مُعَمِّرُ الْقُبورِ، وَمُخَرِّبُ الدُّورِ، وَمُفَرِّقُ الْجَماعاتِ».

وَقُدَّ قلب الزهراء، وتبدَّدت نفسها شعاعاً، قد أخرسها الخطب، وراحت تقول بصوت خافت حزين النبرات: «وَاأَبْتاه! لِمَوْتِ خَاتِمِ الأَنْبِياءِ، وَامُصِيبَتاه! لِمَماتِ خَيْرِ الأَتْقِياءِ، وَلانْقِطاعِ سَيِّدِ الأَصْفِياءِ، وَاحَسْرَتاه! لانقِطَاعِ الْوَحِي مِنَ السَّماءِ، فَقَدْ حُرِمْتُ الْيَوْمَ كَلاَمَكَ».

وتصدَّع قلب الرسول صلى الله عليه وآله حينما رأى بضعته ولهى، فقال لها:

«لا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقاً بِي...»[1].

وأذن النبيّ صلى الله عليه وآله لملك الموت بالدخول عليه، ولمَّا مثل أمامه قال له:

«يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ وَأَمَرَنِي أَنْ أُطِيعَكَ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرُنِي بِهِ، إِنْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَقْبِضَ نَفْسَكَ قَبَضْتُها، وَإِنْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَتْرُكَها تَرَكْتُها».

وبهر النبيّ صلى الله عليه وآله من هذا اللطف الذي خصَّه به وراح يقول:

«أَتَفْعَلُ يا مَلَكَ الْمَوْتِ ذَلِكَ؟».

قال: «بِذَلِكَ أُمِرْتُ أَنْ أُطِيعَكَ فِي كُلِّ مَا أَمَرْتَنِي...».

وهبط جبرئيل على النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له:

«يا أَحْمَدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدِ اشْتاقَ إِلَيْكَ»[2].

واختار النبيّ صلى الله عليه وآله جوار ربّه، فأذن لملك الموت بقبض روحه، وفزع السبطان إلى جدّهما فألقيا بأنفسهما عليه، وهما يذرفان الدموع، وأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله يوسعهما تقبيلاً، ويودِّعهما الوداع الأخير، وأراد الإمام عليه السلام أن ينحيهما عنه، فأبى النبيّ صلى الله عليه وآله وقال له:

---

(١) درَّة الناصحين: ٦٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/٤٨.

«دَعْهُما يَتَمَتَّعان مِنِّي، وَأَتَمَتَّعْ مِنْهُما، فَسَتُصِيبُهُما بَعْدِي إثْرَةٌ».

ثمَّ التفت إلى عوّاده فقال لهم:

«قَدْ خَلَّفْتُ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أهْلَ بَيْتِي، فَالْمُضَيِّعُ لِكِتابَ اللَّهِ كَالْمُضَيِّعِ لِسُنَّتِي، وَالْمُضَيِّعُ لِسُنَّتِي كَالْمُضَيِّعِ لِعِتْرَتِي، إنَّهُما لَنْ يَفْتَرِقا حَتَّى يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[1].

ثمَّ التفت إلى وصيّه وباب مدينة علمه، فقال له:

«ضَعْ رَأسِي فِي حِجْرِكَ، فَقَدْ جاءَ أمْرُ اللَّهِ، فَإذا فَاضَتْ نَفْسِي فَتَناوَلْها، وَامْسَحْ بِها وَجْهَكَ، ثُمَّ وَجِّهْنِي إلَى الْقِبْلَةِ، وَتَوَلَّ أمْرِي، وَصَلِّ عَلَيَّ أوَّلَ النَّاسِ، وَلاَ تُفارِقْنِي حَتَّى تُوارِيَنِي فِي رَمْسِي وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وأخذ الإمام ﷺ رأس النبيّ ﷺ فوضعه في حجره، ومدَّ يده اليمنى تحت حنكه، وشرع ملك الموت يقبض روحه العظيمة، والرسول يتلو آيات الله تعالى، حتَّى فاضت روحه الطاهرة، فمسح بها الإمام وجهه[2]. لقد مادت الأرض، وارتحل إلى الله تعالى من كانت حياته نوراً ورحمة لعباد الله.

لقد أُصيبت الإنسانيَّة بكارثة مدمِّرة، فقد مات القائد والمعلِّم والمربِّي، واحتجب ذلك النُّور الذي أضاء سماء الدُّنيا بتعاليمه وآدابه وسموِّ أخلاقه.

ووجم المسلمون، وطاشت أحلامهم من حصول الكارثة، ووضعن أزواج النبيّ الجلاليب عن رؤوسهنَّ وهنَّ يلدمن صدورهنَّ، أمَّا نساء الأنصار فقد أخذن يضربن وجوهنَّ، حتَّى ذبحت حلوقهنَّ من الصياح[3].

أمَّا فاطمة الزَّهراء ﷺ فقد وقعت على الجثمان العظيم، وهي تقول بذوب روحها:

«واأبَتاه»!

«وارَسُولَ اللَّهِ».

«وانَبِيَّ رَحْمَتاه».

«الآنَ لاَ يَأتِي الْوَحْيُ، الآنَ يَنْقَطِعُ عَنَّا جَبْرَئِيلُ، اللَّهُمَّ ألْحِقْ رُوحِي بِرُوحِهِ، وَاشْفَعْنِي بِالنَّظَرِ إلَى وَجْهِهِ، وَلاَ تَحْرِمْنِي أجْرَهُ وَشَفاعَتَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ»[4].

---

(١) مقتل الحسين ﷺ، الخوارزمي: ١/ ١١٤.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٩.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ٥٧٤.
(٤) تاريخ الخميس: ٢/ ١٩٢.

ثمَّ أخذت تجول حوله وهي تندبه بأشجى ما تكون الندبة قائلةً:

«وَاأَبَتاهُ! إِلَى جَبْرَئِيلَ أَنْعَاهُ».

«وَاأَبَتاهُ! جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ».

«وَاأَبَتاهُ! أَجَابَ رَبّاً دَعَاهُ»[1].

لقد ذعرت زهراء الرسول صلى الله عليه وآله بفقد أبيها، وراحت تذرف أحرّ الدموع، فقد ذابت نفسها أسى وحزناً.

رثاء الزهراء عليها السلام لأبيها صلى الله عليه وآله:

وانطوت نفس الصدِّيقة على حزن عميق، فكانت ترثيه بذوب روحها ونسب إليها من الشعر في رثائها له صلى الله عليه وآله ما يلي:

إغْـبَـرَّ آفَـاقُ الـسَّـمَـاءِ وَكُـوِّرَتْ شَـمْـسُ الـنَّـهَـارِ وَأَظْـلَـمَ الْـعَـصْـرانِ
فَـالأَرْضُ مِـنْ بَـعْـدِ الـنَّـبِـيِّ كَـئِـيْـبَـةٌ أَسَـفـاً عَـلَـيْـهِ كَـثِـيـرَةُ الـرَّجَـفـانِ
فَـلْـيَـبْـكِـهِ شَـرْقُ الـبِـلادِ وَغَـرْبُـهـا وَلْـيَـبْـكِـهِ مُـضَـرٌ وَكُـلُّ يَـمـانِ
وَلْـيَـبْـكِـهِ الـطُّـورُ الْـمُـعَـظَّـمُ جُـودُهُ وَالْـبَـيْـتُ ذُو الأَسْـتـارِ وَالأَرْكـانِ
يـا خَـاتَـمَ الـرُّسُـلِ الْـمـبـارَكِ ضَـوْؤهُ صَـلَّـى عَـلَـيْـكَ مُـنـزل الْـقُـرْآنُ[2]

وقفت على القبر الشريف وقالت ودموعها تتساقط إلى الأرض كأنَّها اللؤلؤ:

إنَّـا فَـقَـدْنـاكَ فَـقْـدَ الأَرْضِ وَابِـلَـهـا فـاخْـتَـلَّ قَـوْمُـكَ فـاشْـهَـدْهُـمْ فَـقَـدْ نُـكِـبُـوا
وَكُـلُّ أَهْـلٍ لَـهُ قُـرْبَـىٰ وَمَـنْـزِلَـة عِـنْـدَ الإِلٰـهِ عَـلَـىٰ الأَدْنَـيْـنَ مُـقْـتَـرَبُ
أَبْـدَتْ رِجـالٌ لَـنـا نَـجْـوَى صُـدُورِهُـمُ لَـمَّـا مَـضَـيْـتَ وَحـالَـتْ دُونَـكَ الـتُّـرُبُ
تَـجَـهَّـمَـتْـنـا رِجـالٌ واسْـتُـخِـفَّ بِـنـا لَـمَّـا فُـقِـدْتَ وَكُـلُّ الأَرْضِ مُـغْـتَـصَـبُ[3]

وكانت تأخذ قبضة من ثرى القبر الشريف وتضعه على عينيها وتقول:

مَـاذَا عَـلَـى مَـنْ شَـمَّ تُـرْبَـةَ أَحْـمَـدٍ أَنْ لاَ يَـشَـمَّ مَـدَى الـزَّمَـانِ غَـوَالِـيَـا
صُـبَّـتْ عَـلَـيَّ مَـصَـائِـبٌ لَـوْ أَنَّـهَـا صُـبَّـتْ عَـلَـىٰ الأَيَّـامِ صِـرْنَ لَـيَـالِـيَـا[4]

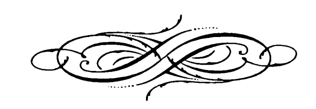
(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٨٨.
(٢) فاطمة الزهراء والفاطميّون: ٤٩.
(٣) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٩٥.
(٤) تاريخ الخميس: ٢/ ١٧٣.

وممَّا قالته في رثاء أبيها:

قُلْ لِلْمُغَيَّبِ تَحْتَ أطْباقِ الثَّرىٰ إنْ كُنْتَ تَسْمَعُ صَرْخَتِي وَنِدائِيَا
قَدْ كُنْتُ ذاتَ حِمىً بِظِلِّ مُحَمَّدٍ لاَ أخْشَ مِنْ ضَيْمٍ وَكَانَ جَمَالِيَا
فَإذَا بَكَتْ قُمْرِيَّةٌ فِي لَيْلِهَا شَجَناً عَلىٰ غُصْنٍ بَكَيْتُ صَبَاحِيَا
فَلأجْعَلَنَّ الْحُزْنَ بَعْدَكَ مُونِسِي وَلأجْعَلَنَّ الدَّمْعَ فِيكَ وَشَاحِيَا

وممَّا قالته في رثاء أبيها:

نَفْسِي عَلى زَفَراتِها مَحْبُوسَةٌ يا لَيْتَها خَرَجَتْ مَعَ الزَّفَراتِ
لا خَيْرَ بَعْدَكَ فِي الحَياةِ وَإنَّما أبْكِي مَخَافَةَ أنْ تَطُولَ حَياتِي[1]



(١) السيرة النبوية: ٣/ ٣٦٤، المطبوع بهامش السيرة الحلبية.

الفتنة الكبرى

١ ـ الهجوم على دار الإمام عليه السلام:

أجمع المؤرّخون والرواة على هجوم القوم على دار الإمام عليه السلام التي هي موضع تقديس النبيّ صلى الله عليه وآله، وأنَّه كان يقف ستّة أشهر على بابها ويتلو الآية المباركة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وكان الهجوم مصحوباً بما يلي:

التهديد بإحراق دار فاطمة عليها السلام:

أمَّا التهديد بإحراق دار الإمام عليه السلام فقد تسالم عليه الرواة والمؤرّخون، وهذه بعض رواياتهم:

ذكر البلاذري أنَّ أبا بكر أرسل إلى عليّ عليه السلام يريد بيعته، فلم يبايع، فجاء عمر ومعه فتيلة فتلقَّته فاطمة عليها السلام على الباب، فقالت له: **«أتراكَ مُحْرِقاً عَليَّ بَابِي؟»**.

قال: «نعم، وذلك أقوى ممَّا جاء به أبوك»[2].

ذكر الطبري بسنده قال: أتى عمر بن الخطَّاب منزل عليّ عليه السلام، وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: «والله لأحرقنَّ عليكم أو لتخرجنَّ إلى البيعة»، فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف، فعثر فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه[3].

قال ابن عبدربّه: الذين تخلَّفوا عن بيعة أبي بكر عليّ والعبَّاس والزبير وسعد بن عبادة، فأمَّا عليّ والعبَّاس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة عليها السلام حتَّى بعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطَّاب ليخرجوا من بيت فاطمة عليها السلام وقال له: «إن أبوا فقاتلهم»، فأقبل بقبس

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) أنساب الأشراف: ١/٥٨٦.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/١٩٨.

من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: «يابْنَ الْخَطَّابِ، أجِئْتَ لِتُحْرِقَ دارَنا؟».

قال: «نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأُمَّة»(١).

ذكر المسعودي أنَّ العبَّاس صار إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد قبض رسول الله ﷺ، فأقام أمير المؤمنين ومن معه من شيعته في منزله بما عهد إليه رسول الله ﷺ، فتوجَّهوا إلى منزله فهجموا عليه، وأحرقوا بابه، واستخرجوه منه كُرهاً، ضغطوا سيِّدة النساء بالباب(٢).

إنَّ إقدام القوم على حرق بيت الزَّهراء عليها السلام لا مجال للشكّ فيه.

يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم:

وَقَوْلَةٍ لِعَلِيّ قالها عُمَرٌ ... أكْرِمْ بِسامِعِها أعْظِمْ بِمُلْقِيها
حَرَّقْتُ دارَكَ لا أُبْقِي عَليكَ بِها ... إنْ لَمْ تُبايعْ وَبِنْتُ الْمُصْطَفَى فِيها
ما كانَ غيرُ أبِي حَفْصٍ بقائِلِها ... أمامَ فارِسِ عَدْنانٍ وَحامِيها(٣)

ندم أبي بكر:

وندم أبو بكر كأشدّ ما يكون الندم على ما اقترفه من الهجوم على دار سيِّدة نساء العالمين، فقد قال في مرضه الذي توفِّي فيه: «إنِّي لا آسي على شيء من الدُّنيا إلاَّ على ثلاث فعلتهنَّ، وددت أنِّي تركتهنَّ».

وكان من هذه الثلاثة قوله: «فوددت أنِّي لم أكشف بيت فاطمة عن شيء»(٤).

وقال مرَّة أخرى: «إنِّي لا آسي على شيء إلاَّ على ثلاث: وددت أنِّي لم أفعلهنَّ: وددت أنِّي لم أكشف بيت فاطمة وتركته، وإن أُغلق على الحرب»(٥).

٢ ـ الاعتداء على الزَّهراء عليها السلام:

والشيء المحقّق أنَّ القوم قد اعتدوا على شخصيَّة الزَّهراء سلام الله عليها لأنَّها وقفت موقفاً حاسماً ضدّهم، فقد جهدت على إفساد مخطَّطاتهم، وإرجاع الحقّ إلى

---

(١) العقد الفريد: ٥/ ١٢.
(٢) إثبات الوصيَّة: ١٢٣.
(٣) ديوان حافظ إبراهيم: ١/ ٧٥.
(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٦١٩. ميزان الاعتدال: ٢/ ٢١٥. كنز العرفان: ٥/ ٦٣١.
(٥) لسان الميزان: ٤/ ١٨٩.

معدنه؛ لأنَّها كانت تتمتَّع بحصانة ذاتيَّة، فهي بقيَّة النبوَّة، وسيِّدة نساء العالمين، إلاَّ أنَّ القوم لم يحفلوا بذلك، وأصرّوا على تنفيذ سياستهم مهما كلَّفهم الأمر، وابتعدوا عن الحقّ.

وعلى أيِّ حال فهذه صور مؤلمة تحزُّ في نفس كلّ مسلم قد جرت على سيِّدة نساء العالمين عليها السلام وهي:

إسقاط الجنين:

ومن جرَّاء الاعتداء الصارخ على بضعة الرسول عليها السلام أنَّها أسقطت جنينها الذي سمَّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بالمحسن، ونحن نذكر عرضاً موجزاً لبعض النصوص التاريخية من دون أن نعلِّق عليها:

روى الشهرستاني عن إبراهيم بن سيَّار، أنَّ عمر ضرب فاطمة حتَّى ألقت الجنين من بطنها، وكان يصيح: «احرقوا دارها بمن فيها»[(١)].

قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة أحمد بن محمد بن السرِّي بن يحيى بن دارم المحدِّث أبو بكر الكوفي، قال محمَّد بن أحمد الكوفي الحافظ بعد أن أرَّخ موته: كان مستقيم الأمر عامَّة دهره، ثمَّ في آخر أيَّامه كان أكثر ما يقرأ عليه المثالب، حضرته ورجل يقرأ عليه: إنَّ عمر رفس فاطمة حتَّى أسقطت بمحسن[(٢)].

قال المسعودي: ضغطوا سيِّدة النِّساء بالباب حتَّى أسقطت محسناً[(٣)].

قال ابن قتيبة: إنَّ محسناً فسد من زخم ـ أي الدفع ـ قنفذ العدوي[(٤)].

روى الطبرسي احتجاج الإمام الحسن عليه السلام على عصابة من أعداء آل البيت عليهم السلام كان من بينهم المغيرة بن شعبة، فخاطبه الإمام قائلاً:

«وأمَّا أنْتَ يا مُغِيرَةُ، فإنَّكَ لِلَّهِ عَدُوٌّ، وَلِكِتَابِهِ نَابِذٌ، وَلِنَبِيِّهِ مُكَذِّبٌ، وَأنْتَ الزَّانِي. وَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ الرَّجْمُ، وَأنْتَ الَّذِي ضَرَبْتَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله حَتَّىٰ أدْمَيْتَها، وَألْقَتْ ما فِي بَطْنِها، اسْتِذْلالاً مِنْكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَمُخالَفَةً مِنْكَ لأمْرِهِ، وَانْتِهاكاً لِحُرْمَتِهِ، وَقَدْ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: يا فاطِمَةُ، أنْتِ سَيِّدَةُ نِساءِ أهْلِ الجَنَّةِ.

---

(١) الملل والنحل: ١/٥٧.
(٢) لسان الميزان: ١/٢٦٨.
(٣) إثبات الوصيَّة: ١٤٣.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ٣/١٣٣.

والله مُصَيِّرُكَ إلى النَّارِ، وَجَاعِلُ وَبالِ ما نَطَقْتَ بِهِ عَلَيْكَ»[١].

٣ ـ إسقاط الخمس عن العترة الطاهرة:

من الإجراءات القاسية التي اتَّخذها أبو بكر ضدّ العترة الطاهرة أنَّه أسقط الخمس عنهم، وهو حقّ مفروض نصَّ عليه القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾[٢].

وقد أجمع المسلمون على أنَّ النبيّ ﷺ كان يختصّ بسهم من الخمس، ويخصّ أقاربه بسهم آخر منه، وكانت هذه سيرته إلى أن اختاره الله تعالى لجواره، ولمَّا ولي أبو بكر أسقط سهم النبيّ ﷺ وسهم ذوي القربى، ومنع بني هاشم من الخمس، وجعلهم كغيرهم[٣].

وقد أرسلت إليه سيِّدة نساء العالمين تسأله أن يدفع إليها ما بقي من خُمس خيبر، فأبى أن يدفع إليها شيئاً.

٤ ـ تأميم فدك:

من الإجراءات القاسية التي اتَّخذها أبو بكر ضدّ زهراء الرسول وبضعته تأميمه لفدك، ومصادرتها لبيت المال، ونعرض ـ بإيجاز ـ إلى حديث فدك وما يرتبط بها من بعض الشؤون.

ـ موقعها الجغرافي:

فدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة[٤].

وهي قرية من قرى اليهود بينها وبين خيبر دون مرحلة[٥].

ـ حدودها عند أهل البيت عليهم السلام:

أمَّا حدود فدك عند الأئمَّة الطاهرين عليهم السلام فإنَّها تستوعب جميع مناطق العالم الإسلامي، فقد ذكر الرواة أنَّ هارون الرشيد قال للإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٤٠١.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.
(٣) تفسير الكشَّاف: ٢/ ٢٢١ (في تفسير آية الخمس).
(٤) معجم البلدان: ٤/ ٢٣٨.
(٥) مجمع البحرين: ٥/ ٢٨٣.

ـ أُحبِّ أن أردَّ عليك فدكاً.

ـ **«لاَ آخُذُها إلاَّ بِحِدُودِها»**.

«ما حدودها؟».

«إنْ حَدَدْتُها فَلاَ تَرْدُدْها».

«بحقِّ جدّك إلاَّ فعلت».

«أمَّا حَدُّها الأوَّلُ فَعدَنٌ»، فتغيَّر وجه الرشيد.

«أمَّا الْحَدُّ الثَّانِي: فَسَمَرْقَنْدُ»، فاربدّ وجه الرشيد.

«وأمَّا الْحَدُّ الثَّالِثُ فَأفَرِيقا».

«وأمَّا الْحَدُّ الرَّابعُ فَمِمَّا يَلِي الْجُزُرَ وَأرْمِينَةَ»، فقد الرشيد صوابه، وراح يقول: لم يبقِ لنا شيء»[١].

ـ هبتها لفاطمة عليها السلام:

ولمَّا صارت فدك تحت قبضة الرسول صلى الله عليه وآله نزلت عليه الآية الكريمة: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[٢]، فقد تواترت النصوص على أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله دعا سيِّدة النِّساء فأعطاها فدكاً والعوالي، وقال لها: **«هَذا قِسَمٌ قَسَمَهُ اللَّهُ لَكِ وَلِعُقْبِكِ»**[٣].

وتصرَّفت فيها سيِّدة النِّساء عليها السلام تصرُّف المالك في أملاكه، ولم يكن لأهل البيت عليهم السلام مورد اقتصادي غيرها، حسبما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«بَلىٰ، كانَتْ فِي أيْدِينا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ ما أظَلَّتْهُ السَّماءُ»**، وبعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله بادر أبو بكر إلى مصادرتها، وضمَّها إلى بيت المال، والسبب في ذلك إضعاف الإمام اقتصادياً، وشلّ الحركة المعارضة لأبي بكر.

قال ابن أبي الحديد:

«سألت عليّ بن الفارقي مدرِّس المدرسة الغربية ببغداد فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟

ـ نعم.

ـ فَلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً، وهي عنده صادقة؟

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٣٢٠.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٦.

(٣) شواهد التنزيل: ١/ ٤٤١.

فتبسَّم وقال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمته، وقلَّة دعابته ثمَّ قال:

لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرَّد دعواها لجاءت إليه غداً وادَّعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء؛ لأنَّه يكون قد سجَّل على نفسه أنَّها صادقة فيما تدَّعي كائناً ما كان، من غير حاجة إلى بيِّنة ولا شهود»[1].

وعلى أيِّ حال، فقد عمدت السلطات الحاكمة بعد حكومة الشيخين إلى التصرُّف فيها حسب أهوائهم، فقد وهبها عثمان بن عفَّان إلى مروان بن الحكم، وكان ذلك من أسباب النقمة على عثمان حسب ما يقول المؤرّخون[2]، وبعد هلاك مروان توارثها أبناؤه إلى أن تولَّى عمر بن عبد العزيز فانتزعها منهم وردَّها صدقة[3].

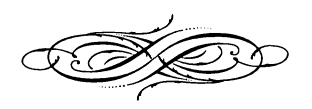
مطالبة الزَّهراء عليها السلام بفدك:

وبعد ما أمَّم أبو بكر فدكاً بادرت إليه سيِّدة نساء العالمين مطالبة منه إرجاعها إليها، ويقول الرواة:

إنَّه طلب منها شهوداً على أنَّ النبيّ ﷺ قد منح فدكاً لها، فأقامت الشهود على ذلك، كان منهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، والسيِّدة الفاضلة أُمّ أيمن التي قال فيها النبيّ ﷺ: إنَّها من أهل الجنَّة، فكتب لها أبو بكر بردّ فدك إليها إلاَّ أنَّ عمر أخذ الكتاب فبصق فيه وخرَّقه[4].

وقيل إنَّه لم يحفل بشهادة الإمام ولا بشهادة أُمّ أيمن، وقال: إنَّ عليّاً يجرّ النار إلى قرصه، وأنَّ أُمّ أيمن امرأة أعجمية لا تفصح.

فقد استولى أبو بكر على فدك، وضمَّها إلى ممتلكات الدولة، وقد ذابت نفس الصدِّيقة أسى وحسرات، فقد سلبت منها ومن أبنائها بلغة العيش، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.



(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١/ ١٩٨.
(٢) العقد الفريد: ٤/ ٢٨٣.
(٣) تاريخ أبي الفداء: ١/ ١٦٨.
(٤) الاحتجاج: ١/ ١٢٢.

الخطاب التاريخي الخالد لسيِّدة النِّساء عليها السلام

وصف الرواة كيفيَّة خروج سيِّدة النِّساء عليها السلام إلى جامع أبيها أنَّها لاثَتْ خِمارَها على رأسِها، وأقبلت في لُمَةٍ مِنْ حَفَدتِها، تَطأ ذُيُولَها ما تَخْرِمُ مِشْيتُها مِشْيَةَ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، حَتَّى دخَلَتْ على أبي بَكْرٍ وهو في حَشْدٍ مِنَ المهاجرين والأنصار وغَيْرِهِم، فَنيطَتْ دونَها مُلاءَةٌ[١]، ثُمَّ أنَّتْ أنَّةً أجْهَشَ لها القومُ بالبُكاءِ، وارتجَّ المجلس، فأمهلتهم حتَّى إذا سكن نشيجهم، وهَدَأَتْ فَوْرَتُهُمْ، افْتَتَحت خطابها بِحَمدِ اللَّهِ تعالى والثناء عليه، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله، فعاد القومُ في بُكائِهِمْ، فلمَّا أمسكُوا عادتْ في خطابِها، فَقالَتْ عليها السلام:

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلىٰ ما أنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلىٰ ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغِ آلاَءٍ أسْداها، وَتعمامِ مِنَنٍ والاها[٢]، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عَدَدُها، وَنَأىٰ عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الإدْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لاسْتِزادَتِها بِالشُّكْرِ لاتِّصالِها، وَاسْتَحْمَدَ إلَىٰ الْخَلاَئِقِ بِإجْزالِها، وَثَنىٰ بِالنَّدْبِ إلىٰ أمْثالِها.

واستمرَّت بضعة الرسول في خطابها قائلةً:

وَأشْهَدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإخْلاَصَ تَأْوِيلَها، وضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وأنارَ فِي التَّفَكُّرِ مَعْقُولَها، الْمُمْتَنِعُ عَنِ الأبْصارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الألْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الأوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ.

ابْتَدَعَ الأشْياءَ لاَ مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وأنْشَأها بِلاَ احْتِذاءِ أمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلىٰ تَكْوِينِها، وَلاَ فائِدَةٍ لَهُ فِي تَصْوِيرِها، إلاَّ تَثْبِيتاً لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبِيهاً عَلىٰ طاعَتِهِ، وَإظْهاراً لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ، وَإعْزازاً لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ عَلىٰ طاعَتِهِ، وَوَضَعَ الْعِقابَ عَلىٰ مَعْصِيَتِهِ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نَقْمَتِهِ، وَحِياشَةً[٣] مِنْهُ إلىٰ جَنَّتِهِ.

---

(١) الملاءة: الإزار.

(٢) والاها: أي تابعها.

(٣) حاش الإبل: جمعها وساقها.

وتأخذ سيِّدة النِّساء في ذكر أبيها سيِّد الأنبياء ﷺ قائلةً:

وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمَّاهُ قَبْلَ أَنِ اجْتَبَلَهُ[١]، وَاصْطَفاهُ قَبْلَ أَنِ ابْتَعَثَهُ؛ إِذِ الْخَلائِقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاوِيلِ مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عِلْماً مِنَ اللَّهِ تَعالىٰ بِمآيِلِ الأُمُورِ، وَإِحاطَةً بِحَوادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَواقِعِ الْمَقْدُورِ.

ابْتَعَثَهُ اللَّهُ إِتْماماً لأَمْرِهِ، وَعَزِيمَةً عَلىٰ إِمْضاءِ حُكْمِهِ، وَإِنْفاذاً لِمَقَادِيرِ حَتْمِهِ، فَرَأى الأُمَمَ فِرَقاً فِي أَدْيانِها، عُكَّفاً عَلىٰ نِيرانِها، عابِدَةً لأَوْثانِها، مُنْكِرَةً لِلَّهِ مَعَ عِرْفانِها.

فَأَنارَ اللَّهُ بِأَبِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ظُلَمَها، وَكَشَفَ عَنِ الْقُلُوبِ بُهَمَها[٢]، وَجَلىٰ عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها[٣]، وَقامَ فِي النَّاسِ بِالْهِدايَةِ، فَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الْغِوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ الْعِمايَةِ، وَهَداهُمْ إِلىٰ الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَدَعاهُمْ إِلىٰ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ قَبْضَ رَأْفَةٍ وَاخْتِيارٍ، وَرَغْبَةٍ وَإِيْثارٍ، فَمُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ تَعَبِ هَذِهِ الدَّارِ فِي راحَةٍ، قَدْ حُفَّ بِالْمَلائِكَةِ الأَبْرارِ، وَرِضْوانِ الرَّبِّ الْغَفَّارِ، وَمُجاوَرَةِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، صَلَّىٰ اللَّهُ عَلىٰ أَبِي نَبِيِّهِ وَأَمِينِهِ عَلىٰ الْوَحْيِ، وَصَفِيِّهِ وَخِيَرَتِهِ مِنَ الْخَلْقِ، وَالسَّلامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ.

وتستمر سيِّدة النِّساء في خطابها التأريخي الخالد قائلةً:

أَنْتُمْ عِبادَ اللَّهِ نُصُبُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَحَمَلَةُ دِينِهِ وَوَحْيِهِ، وَأُمَناءُ اللَّهِ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَبُلَغاؤُهُ إِلىٰ الأُمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقٌّ لَكُمْ لِلَّهِ فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ اسْتَخْلَفَها عَلَيْكُمْ: كِتَابُ اللَّهِ النَّاطِقُ، وَالْقُرْآنُ الصَّادِقُ، وَالنُّورُ السَّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللاَّمِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُنْجَلِيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِداً إِلىٰ الرِّضْوانِ إِتِّباعُهُ، مُؤَدٍّ إِلىٰ النَّجاةِ اسْتِماعُهُ، بِهِ تُنالُ حُجَجُ اللَّهِ الْمُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ الْمُفَسَّرَةُ، وَمَحارِمُهُ الْمُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الْجالِيَةُ، وَبَراهِينُهُ الْكافِيَةُ، وَفَضائِلُهُ الْمَنْدُوبَةُ، وَرُخَصُهُ الْمَوْهُوبَةُ، وَشَرائِعُهُ الْمَكْتُوبَةُ.

ثمَّ أخذت سلام الله عليها بالحديث عن فرائض الإسلام وعلل تشريعاته قائلة:

فَجَعَلَ اللَّهُ الإِيمانَ تَطْهِيراً لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ الْكِبْرِ، وَالزَّكاةَ

---

(١) اجتبله: أي خلقه.

(٢) بهمها: أي مبهماتها، وهي المشكلات من الأمور.

(٣) غممها: جمع غمَّة، وهي: المبهم والملتبس.

تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ، وَنَماءً فِي الرِّزْقِ، وَالصِّيامَ تَثْبِيتاً لِلإخْلاَصِ، وَالْحَجَّ تَشْييداً لِلدِّينِ، وَالْعَدْلَ تَنْسِيقاً لِلْقُلُوبِ، وَطَاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أماناً مِنَ الْفُرْقَةِ، والْجِهادَ عِزّاً لِلإسْلاَمِ، وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلىٰ اسْتِيجابِ الأجْرِ.

وَالأمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلعامَّةِ، وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وَقايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الأرْحامِ مُنْسأةً فِي الْعُمْرِ[1]، وَمُنْماةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصاصَ حِصْناً لِلدِّماءِ، وَالْوَفاءَ بِالنَّذْرِ تَعْرِيضاً لِلْمَغْفِرَةِ، وَتَوْفِيَةَ الْمَكاييلِ وَالْمَوازِينِ تَغْيِيراً لِلْبَخْسِ، وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزِيهاً عَنِ الرِّجْسِ، وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجاباً عَنِ اللَّعْنَةِ، وَتَرْكَ السَّرْقَةِ إيجاباً لِلْعِفَّةِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ الشِّرْكَ إخْلاَصاً لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ.

فـ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وأطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا أمَرَكُمْ بِهِ، ونَهاكُمْ عَنْهُ، فإنَّهُ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وتستمرّ سيِّدة نساء العالمين في خطابها التاريخي قائلةً:

أيُّها النَّاسُ، اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ، وَأبِي مُحَمَّدٌ، أقُولُ عَوْداً وَبَدْءاً، وَلاَ أقُولُ ما أقُولُ غَلَطاً، وَلاَ أفْعَلُ ما أفْعَلُ شَطَطاً[2]، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

فَإنْ تَعْزُوه[4] وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ أبِي دُونَ نِسائِكُمْ، وَأخا ابْنِ عَمِّي دُونَ رِجالِكُمْ، وَلَنِعْمَ الْمَعْزِيُّ إلَيْهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ، صادِعاً[5] بِالنِّذارَةِ[6]، مائِلاً عَنْ مَدْرَجَةِ[7] الْمُشْرِكِينَ، ضارِباً ثَبَجَهُمْ[8]، آخِذاً بِأكْظامِهِمْ[9]، دَاعِياً إلىٰ سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، يَكْسِرُ الأصْنامَ، وَيَنْكُتُ الْهامَ[10]، حَتَّىٰ انْهزَمَ الْجَمْعُ وَوَلَّوُا الدُّبُرَ.

---

(١) منسأة في العمر: مؤخّرة.
(٢) الشَّطط: هو البعد عن الحقّ ومجاوزة الحدّ في كلّ شيء.
(٣) عنتّم: أنكرتم وجحدتم.
(٤) تعزوه: تنسبوه.
(٥) صادعاً: الصدع هو الإظهار.
(٦) النذارة: الإنذار، وهو الإعلام على وجه التخويف.
(٧) المدرجة: المسلك والمذهب.
(٨) الثبج: وسط الشيء.
(٩) الكظم: مخرج النفس.
(١٠) النكت: إلقاء الشيء على رأسه.

حَتّى تَفَرَّىٰ اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ[١]، وَأَسْفَرَ الْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ، وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ، وَخَرِسَتْ شَقَاشِقُ[٢] الشَّياطِينِ، وَطاحَ[٣] وَشِيظُ[٤] النِّفاقِ، وَانْحَلَّتْ عُقَدُ الْكُفْرِ وَالشِّقاقِ، وَفُهْتُمْ بِكَلِمَةِ الإخْلاَصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبِيضِ الْخِماصِ[٥].

وَكُنْتُمْ عَلىٰ شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ، مُذْقَةَ الشّارِبِ[٦]، وَنُهْزَةَ الطّامِعِ[٧]، وَقُبْسَةَ الْعَجْلاَنِ[٨]، وَمُوْطِيءَ الأقْدامِ[٩]، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ[١٠]، وَتَقْتاتُونَ الْقِدَّ[١١]، أذِلَّةً خاسِئِينَ، تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النّاس مِنْ حَوْلِكُمْ، فَأَنْقَذَكُمُ اللّٰهُ تَبارَكَ وَتَعالىٰ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ اللَّتَيّا وَالَّتِي، وَبَعْدَ أَنْ مُنِيَ بِبُهَمِ الرِّجالِ[١٢]، وَذُؤْبانِ الْعَرَبِ، وَمَرَدَةِ أَهْلِ الْكِتابِ. ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾، أَوْ نَجَمَ[١٣] قَرْنٌ لِلشَّيْطانِ[١٤]، أَوْ فَغَرَتْ فاغِرَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[١٥]، قَذَفَ أَخاهُ فِي لَهَواتِها[١٦]، فَلاَ يَنْكَفِيءُ[١٧] حَتّى يَطَأَ صِماخَها بِأَخْمَصِهِ[١٨]، وَيُخْمِدَ لَهَبَها بِسَيْفِهِ، مَكْدُوداً فِي ذاتِ اللّٰهِ، مُجْتَهِداً فِي أَمْرِ اللّٰهِ، قَرِيباً مِنْ رَسُولِ اللّٰهِ، سَيِّداً فِي أَوْلِياءِ اللّٰهِ، مُشمِّراً ناصِحاً، مُجِدّاً كادِحاً، لاَ تَأْخُذُهُ فِي اللّٰهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ، وَأَنْتُمْ فِي رَفاهِيَّةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وادِعُونَ[١٩] فاكِهُونَ[٢٠]

---

(١) أي انشق حتّى ظهر وجه الصباح.
(٢) الشقاشق: شيء كالربة يخرجها البعير من فيه إذا هاج.
(٣) طاح: هلك.
(٤) الوشيظ: السفلة والرذّل من الناس.
(٥) البيض الخماص: المراد بهم أهل البيت ﷺ.
(٦) مذقة الشارب: شربته.
(٧) نهزة الطامع: الفرصة أي محلّ نهزته.
(٨) قبسة العجلان: مثل في الاستعجال.
(٩) وموطيء الأقدام: مثل مشهور في المغلوبية والمذلّة.
(١٠) الطرق: ماء السماء الذي تبول به الإبل وتبعر.
(١١) القد: سير يقدُّ من جلد غير مدبوغ.
(١٢) بهم الرجال: شجعانهم.
(١٣) نجم: ظهر.
(١٤) قرن الشيطان: أُمّته وتابعوه.
(١٥) الفاغرة من المشركين: الطائفة منهم.
(١٦) اللهوات: وهي اللحمة في أقصى شفة الفم.
(١٧) ينكفيء: يرجع.
(١٨) الأخمص: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.
(١٩) وادعون: ساكنون.
(٢٠) فاكهون: ناعمون.

آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ بِنَا الدَّوائِرَ(١)، وَتَتَوَكَّفُونَ(٢) الأخبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ مِنَ الْقِتالِ.

ثمَّ أخذت سلام الله عليها في خطابها قائلة:

فَلَمَّا اخْتارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ دارَ أنْبِيائِهِ وَمأوىٰ أصْفِيائِهِ، ظَهَرَ فِيكُمْ حَسَيكَةُ(٣) النِّفاقِ، وَسَمَلَ(٤) جِلْبابُ(٥) الدِّينِ، وَنَطَقَ كاظِمُ(٦) الْغاوِينَ، وَنَبَغَ خامِلُ(٧) الأقَلِّينَ، وَهَدَرَ(٨) فَنِيقُ(٩) الْمُبْطِلِينَ، فَخَطَرَ(١٠) فِي عَرَصاتِكُمْ، وَأطْلَعَ الشَّيْطانُ رَأسَهُ مِنْ مَغْرَزِهِ(١١)، هاتِفاً بِكُمْ، فَألْفاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجِيبِينَ، وَلِلْغِرَّةِ فِيهِ مُلاحِظِينَ، ثُمَّ اسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفافاً، وَأحْمَشَكُمْ فَألْفاكُمْ غِضاباً(١٢)، فَوَسَمْتُمْ(١٣) غَيْرَ إبِلِكُمْ، وَأوْرَدْتُمْ(١٤) غَيْرَ شِرْبِكُمْ.

هَذا، وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ، وَالْكَلْمُ(١٥) رَحِيبٌ(١٦)، وَالْجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِلْ، وَالرَّسُولُ لَمَّا يُقْبَرْ، ابْتِداراً زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾(١٧).

فَهَيْهاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ، وَأنَّىٰ تُؤْفَكُونَ، وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أظْهُرِكُمْ، أُمُورُهُ ظاهِرَةٌ، وَأحْكامُهُ زاهِرَةٌ، وَأعْلامُهُ باهِرَةٌ، وَزَواجِرُهُ لائِحَةٌ، وَأوامِرُهُ واضِحَةٌ، وَقَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، أرَغْبَةً عَنْهُ تُرِيدُونَ؟ أمْ بِغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ؟ ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

---

(١) الدوائر: صروف الزمان، أي كنتم تنتظرون نزول البلاء علينا.
(٢) التواكف: التوقُّع.
(٣) الحسيكة: الحقد والعداوة.
(٤) سمل: صار خلقاً.
(٥) الجلباب: الإزار.
(٦) الكظوم: السكوت.
(٧) الخامل: من خفي ذكره وكان ساقطاً لا نباهة له.
(٨) الهدير: ترديد البعير صوته في حنجرته.
(٩) الفنيق: الفحل المكرم من الإبل، الذي لا يركب ولا يُهان.
(١٠) خطر البعير بذنبه: إذا رفعه مرَّة بعد مرَّة وضرب به فخذيه.
(١١) مغرزه: أي ما يختفي فيه تشبيهاً له بالقنفذ؛ فإنَّه يطلع رأسه بعد زوال الخوف.
(١٢) أي حملكم على الغضب فوجدكم مغضبين لغضبه.
(١٣) الوسم: أثر الكيّ.
(١٤) الورود: حضور الماء للشرب.
(١٥) الكَلْم: الجرح.
(١٦) الرحب: الوسيع.
(١٧) سورة التوبة: الآية ٤٩.

ثمَّ استمرَّت سيِّدة النِّساء في خطابها قائلة:

ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا إلىٰ رَيْثَ أنْ تَسْكُنَ نَفرَتُها[١]، وَيَسْلَسَ[٢] قِيادُها، ثُمَّ أخَذْتُمْ تُورُونَ وَقْدَتَها[٣]، وَتُهَيِّجُونَ جَمْرتَها، وَتَسْتَجِيبُونَ لِهِتافِ الشَّيْطانِ الْغَوِيِّ، وَإطْفاءِ أنْوارِ الدِّينِ الْجَلِيِّ، وَإهْمادِ سُنَنِ النَّبِيِّ الصَّفِيِّ، تُسِرُّونَ حَسْواً[٤] فِي ارْتِغاءٍ[٥]، وَتَمْشُونَ لأهْلِهِ وَوَلَدِهِ فِي الْخَمرِ[٦] والضَّرَّاءِ[٧]، وَنَصْبِرُ مِنْكُمْ عَلىٰ مِثْلِ حَزِّ الْمُدىٰ[٨]، وَوَخْزِ السِّنانِ فِي الْحَشا.

وَأنْـتُـمُ الآنَ تَـزْعُـمُـونَ ألاَّ إرْثَ لَـنـا، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أفَلاَ تَعْلَمُونَ؟ بَلىٰ قَدْ تَجَلَّىٰ لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ أنِّي ابْنَتُهُ.

أيُّها الْمُسْلِمُونَ، أأُغْلَبُ عَلىٰ إرْثِي؟

يَابْنَ أبِي قُحافَةَ، أفِي كِتابِ اللَّهِ أنْ تَرِثَ أباكَ وَلاَ أرِثَ أبِي؟

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فِرِيّاً، أفَعَلىٰ عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللَّهِ وَنَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ إذْ يَقُولُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾[٩]، وَقالَ فِيمَا اقْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا إذْ قَالَ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ﴾[١٠]، وَقـالَ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[١١]، وَقـالَ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾[١٢]، وَقـالَ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١٣].

---

(١) نفرت الدابة: جزعت وتباعدت.
(٢) يسلس: يسهل.
(٣) وقدتها: لهبها.
(٤) الحسو: هو الشرب شيئاً فشيئاً.
(٥) الارتغاء: هو شرب الرغوة، وهي اللبن المشوب بالماء. و«حسواً في ارتغاء» مثل يضرب لمن يُظهر شيئاً ويريد غيره.
(٦) الخمر: ما واراك من شجر وغيره.
(٧) الضرَّاء: الشجر الملتفّ بالوادي.
(٨) حزّ المدى: قطع السكاكين.
(٩) سورة النمل: الآية ١٦.
(١٠) سورة مريم: الآيتان ٥ و٦.
(١١) سورة الأنفال: الآية ٧٥ وسورة الأحزاب: الآية ٦.
(١٢) سورة النساء: الآية ١١.
(١٣) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

وَزَعَمْتُمْ أنْ لاَ حِظْوَةَ[(١)] لِي، وَلاَ إرْثَ مِنْ أبِي، وَلاَ رَحِمَ بَيْنَنا، أفَخَصَّكُمُ اللَّهُ بِآيَةٍ أخْرَجَ مِنْها أبِي؟

أمْ هَلْ تَقُولُونَ: إنَّ أهْلَ مِلَّتَيْنِ لاَ يَتَوَارَثانِ؟ أوَلَسْتُ أنَا وَأبِي مِنْ أهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ؟

أمْ أنْتُمْ أعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أبِي وَابْنِ عَمِّي؟

فَدُونَكَها مَخْطُومَةً[(٢)] مَرْحُولَةً[(٣)] تَلْقَاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ. فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ، وَالزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيامَةُ، وَعِنْدَ السَّاعَةِ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ، وَلاَ يَنْفَعُكُمْ إذْ تَنْدَمُونَ، ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[(٤)].

ثمَّ إنَّها رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت لهم:

يَا مَعاشِرَ النَّقِيبَةِ[(٥)]، وَأعْضَادَ الْمِلَّةِ، وَحَضَنَةَ الإسْلاَمِ، مَا هَذِهِ الْغَمِيزَةُ[(٦)] فِي حَقِّي، وَالسِّنَةُ[(٧)] عَنْ ظُلاَمَتِي؟ أمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أبِي يَقُولُ: «الْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ»، سُرْعَانَ مَا أحْدَثْتُمْ، وَعَجْلاَنَ ذَا إهَالَةً[(٨)]، وَلَكُمْ طَاقَةٌ بِمَا أُحَاوِلُ، وَقُوَّةٌ عَلَىٰ مَا أطْلُبُ وَأُزَاوِلُ؟ أتَقُولُونَ: مَاتَ مُحَمَّدٌ؟ فَخَطْبٌ جَلِيلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْنُهُ[(٩)]، وَاسْتَنْهَرَ[(١٠)] فَتْقُهُ، وَانْفَتَقَ رَتْقُهُ، وَأظْلِمَتِ الأرْضُ لِغَيْبَتِهِ، وَكُسِفَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَانْتَثَرَتِ النُّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ، وَأكْدَتِ[(١١)] الآمَالُ، وَخَشَعَتِ الْجِبالُ، وَأُضِيعَ الْحَرِيمُ، وَأُزِيلَتِ الْحُرْمَةُ عِنْدَ مَمَاتِهِ.

فَتِلْكَ وَاللَّهِ! النَّازِلَةُ الْكُبْرىٰ، وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمىٰ، لاَ مِثْلُهَا نَازِلَةٌ، وَلاَ بَائِقَةٌ[(١٢)]

(١) الحظوة: المكانة.
(٢) مخطومة: من الخطام، وهو كلّ ما يدخل في أنف البعير ليقاد به.
(٣) الرحل: هو للناقة كالسرج للفرس.
(٤) سورة هود: الآية ٣٩.
(٥) النقيبة: الفتية.
(٦) الغميزة: ضعفة في العمل.
(٧) السِّنة: النوم الخفيف.
(٨) إهالة: دسم اللحم، وسرعان في إهالة مثل يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته.
(٩) الوهن: الخرق.
(١٠) استنهر: اتّسع.
(١١) أكدت: قلّ خيرها.
(١٢) بائقة: داهية.

عَاجِلَةٌ، أُعْلِنَ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي أَفْنِيَتِكُمْ، وَفِي مُمْسَاكُمْ وَمُصْبَحِكُم، يَهْتِفُ فِي أَفْنِيَتِكُمْ هِتَافاً وَصُراخاً، وَتِلاَوَةً وَإِلْحَاناً، وَلَقَبْلَهُ مَا حَلَّ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، حُكْمٌ فَصْلٌ، وَقَضَاءٌ حَتْمٌ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١].

أيهاً بَنِي قَيْلَةَ[٢]، أَأُهْضَمُ تُراثَ أَبِي وَأَنْتُم بِمَرْأىٰ مِنِّي وَمَسْمَعٍ وَمُنْتَدىً[٣] وَمَجْمَعٍ، تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ، وَتَشْمَلُكُمُ الْخُبْرَةُ، وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالأَدَاةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاَحُ وَالْجُنَّةُ[٤]، تُوَافِيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلاَ تُجِيبُونَ، وَتَأْتِيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلاَ تُغِيثُونَ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفَاحِ، مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاَحِ، وَالنُّخْبَةُ الَّتِي انْتُخِبَتْ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتِيرَتْ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ.

قَاتَلْتُمُ الْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ، وَنَاطَحْتُمُ الأُمَمَ، وَكَافَحْتُمُ الْبُهَمَ، فَلاَ نَبْرَحُ[٥] أَوْ تَبْرَحُونَ، نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ، حَتَّىٰ إِذَا دَارَتْ بِنَا رَحَىٰ الإِسْلاَمِ، وَدَرَّ حَلَبُ الأَيَّامِ، وَخَضَعَتْ نُعْرَةُ الشِّرْكِ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الإِفْكِ، وَخَمَدَتْ نِيرَانُ الْكُفْرِ، وَهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرَجِ، وَاسْتَوْسَقَ[٦] نِظَامُ الدِّينِ، فَأَنَّىٰ حِرْتُمْ بَعْدَ الْبَيَانِ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الإِعْلاَنِ، وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الإِقْدَامِ، وَأَشْرَكْتُمْ بَعْدَ الإِيْمَانِ؟

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٧].

واستمرَّت الصدِّيقة في خطابها للأنصار قائلة لهم:

أَلاَ وَقَدْ أَرىٰ أَنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ[٨] إِلَىٰ الْخَفْضِ[٩]، وَأَبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٢) قبيلتا الأنصار: الأوس والخزرج.

(٣) المنتدى: المجلس.

(٤) الجنَّة: ما استترت به من السلاح.

(٥) لا نبرح: لا نزال.

(٦) استوسق: اجتمع.

(٧) سورة التوبة: الآية ١٣، جاء في أعلام النساء: ٤/١٢٣ بعد هذه الجملة: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾سورة التوبة: الآية ١٢.

(٨) أخلدتم: ملتم.

(٩) الخفض: السعة والخصب واللين.

وَالْقَبْضِ، وَخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ[١]، وَنَجَوْتُمْ مِنَ الضِّيقِ بِالسَّعَةِ، فَمَجَجْتُمْ مَا وَعِيتُمْ، وَدَسَعْتُمُ[٢] الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ[٣]، ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

ألاَ وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ هَذَا عَلَىٰ مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خَامَرَتْكُمْ، وَالْغَدْرَةِ الَّتِي اسْتَشْعَرَتْهَا قُلُوبُكُمْ، وَلَكِنَّهَا فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخُورُ[٤] الْقَنَا[٥]، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ، فَدُونَكُمُوهَا فَاحْتَقِبُوهَا[٦] دَبِرَةَ[٧] الظَّهْرِ، نَقِبَةَ الْخُفِّ[٨]، بَاقِيَةَ الْعَارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللَّهِ الْجَبَّارِ، وَشَنَارِ الأبَدِ، مَوْصُولَةً بِنَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الأفْئِدَةِ، فَبِعَيْنِ اللَّهِ مَا تَفْعَلُونَ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، وَأنا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فاعملوا إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون[٩].

خيبة الزهراء عليها السلام:

وقفلت بضعة الرسول سلام الله عليها إلى مرقد أبيها تشكو إليها ما ألَمَّ بها من الخطوب التي عانتها من القوم قائلة:

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أنْبَاءٌ وَهَنْبَثَةٌ ... لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الْخُطَبُ
إنَّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأرْضِ وَابِلَهَا ... وَاخْتَلَّ قَوْمُكَ فَاشْهَدْهُمْ وَلاَ تَغِبُ
أبْدَتْ رِجَالٌ لَنَا نَجْوىٰ صُدُورِهِمُ ... لَمَّا مَضَيْتَ وَحَالَتْ دُونَكَ التُّرَبُ
تَجَهَّمَتْنَا رِجَالٌ وَاسْتُخِفَّ بِنَا ... لَمَّا فُقِدْتَ وَكُلُّ الإرْثِ مُغْتَصَبُ

خطابها التأريخي على النساء:

ولمَّا مرضت بضعة الرسول سلام الله عليها هرعت نساء المسلمين إلى عيادتها، فقلن لها: كيف أصبحت من علَّتك يا بنت رسول الله؟

فأجابتهنَّ بلوعة وأسى قائلة:

(١) الدعة: الراحة والسكون.
(٢) الدسع: القيء.
(٣) تسوغتم: شربتم.
(٤) الخور: الضعف.
(٥) القنا: الرماح.
(٦) احتقبوها: أي احملوها على ظهوركم.
(٧) دبر البعير: أصابته الدبرة، وهي جراحة تحدث من الرحل.
(٨) نقب خفّ البعير: رقَّ وتثقَّب.
(٩) الاحتجاج: ١/١٣٢ ـ ١٤١.

أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ عائِفَةً لِدُنْياكُنَّ، قَالِيَةً لِرِجالِكُنَّ، لَفَظْتُهُمْ[١] بَعْدَ أَنْ عَجَمْتُهُمْ[٢]، وَسَئِمْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ سَبَرْتُهُمْ[٣]، فَقُبْحاً لِفُلُولِ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ بَعْدَ الْجِدِّ، وَقَرْعِ الصَّفاةِ، وَصَدْعِ الْقَناةِ، وَخَتَلِ الآراءِ[٤]، وَزَلَلِ الأَهْواءِ، وَبِئْسَ ﴿مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[٥]، لاَ جَرَمَ لَقَدْ قَلَّدْتُهُمْ رِبْقَتَها، وَحَمَّلْتُهُمْ أَوْقَتَها[٦]، وَشَنَنْتُ عَلَيْهِمْ غارَتَها، فَجَدْعاً وَعقْراً وَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

ويْحَهُمْ أَنَّىٰ زَحْزَحُوها عَنْ رَوَاسِي الرِّسالَةِ، وَقَواعِدِ النُّبُوَّةِ وَالدَّلاَلَةِ، وَمَهْبِطِ الرُّوحِ الأَمِينِ، وَالطَّبِينِ[٧] بِأُمُورِ الدُّنْيا وَالدِّينِ، أَلاَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ، وَمَا الَّذِي نَقِمُوا مِنْ أَبِي الْحَسَنِ، نَقِمُوا وَاللَّهِ مِنْهُ نَكِيرَ سَيْفِهِ، وَقِلَّةَ مُبالاَتِهِ لِحَتْفِهِ، وَشِدَّةَ وَطْأَتِهِ، وَنَكالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ[٨] فِي ذَاتِ اللَّهِ.

وَتَاللَّهِ لَوْ مَالُوا عَنِ الْمَحَجَّةِ اللاَّئِحَةِ، وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ لَرَدَّهُمْ إِلَيْهَا، وَحَمَلَهُمْ عَلَيْها، وَلَسارَ بِهِمْ سَيْراً سُجُحاً[٩]، لاَ يُكْلَمُ[١٠] خِشَاشُهُ، وَلاَ يَكِلُّ سائِرُهُ، وَلاَ يَمَلُّ رَاكِبُهُ، وَلأَوْرَدَهُمْ مَنْهَلاً نَمِيراً صَافِياً رَوِيّاً، تَطْفَحُ ضِفَّتاهُ، وَلاَ يَتَرَنَّقُ جَانِبَاهُ، وَلأَصْدَرَهُمْ بِطاناً، وَنَصَحَ لَهُمْ سِرّاً وَإِعْلاَناً.

وَلَمْ يَكُنْ يَتَحَلَّىٰ مِنَ الدُّنْيا بِطائِلٍ، وَلاَ يَحْظَىٰ مِنْها بِنائِلٍ، غَيْرَ رَيِّ النَّاهِلِ، وَشَبْعَةِ الْكافِلِ، وَلَبانَ لَهُمُ الزَّاهِدُ مِنَ الرَّاغِبِ، وَالصَّادِقُ مِنَ الْكاذِبِ. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[١١]، ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[١٢].

أَلاَ هَلُمَّ فَاسْتَمِعْ، وَمَا عِشْتَ أَراكَ الدَّهْرُ عَجَباً، وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ، لَيْتَ

---

(١) لفظتهم: رميت بهم وطرحتهم.
(٢) أي بعد أن اختبرتهم وامتحنتهم.
(٣) جرَّبتهم واختبرتهم واحداً واحداً.
(٤) ختل الآراء: زيفها وخداعها.
(٥) سورة المائدة: الآية ٨٠.
(٦) أوقتها: ثقلها.
(٧) الطبين: الفطن الحاذق العالم بكلّ شيء.
(٨) تنمّر: عبس وغضب.
(٩) سجحاً: سهلاً.
(١٠) كلمه: جرحه.
(١١) سورة الأعراف: الآية ٩٦.
(١٢) سورة الزمر: الآية ٥١.

شِعْرِي إلىٰ أيِّ سِنادٍ اسْتَنَدُوا، وَإلىٰ أيِّ عِمادٍ اعْتَمَدُوا، وَبِأيِّ عُرْوَةٍ تَمَسَّكُوا، وَعَلىٰ أيَّةِ ذُرِّيَّةٍ أقْدَمُوا وَاحْتَنَكُوا[١]؟ ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾، و﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

اسْتَبْدَلُوا واللّهِ الذُّنابىٰ[٢] بِالْقَوادِمِ[٣]، وَالْعَجُزَ[٤] بِالْكاهِلِ[٥]، فَرَغْماً لِمَعاطِسِ[٦] قَوْمٍ ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وَيْحَهُمْ ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

أما لَعَمْرِي لَقَدْ لَقِحَتْ، فَنَظِرَةً رَيْثَما تُنْتِجُ، ثُمَّ احْتَلِبُوا مِلأَ الْقَعْبِ[٧] دَماً عَبِيطاً[٨]، وَذُعافاً[٩] مُبِيداً، هُنالِكَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ، وَيَعْرِفُ التّالُونَ غِبَّ[١٠] ما أَسَّسَ الأَوَّلُونَ، ثُمَّ طِيبُوا عَنْ دُنْياكُمْ أنْفُساً، وَاطْمَئِنُّوا لِلْفِتْنَةِ جاْشاً، وَأبْشِرُوا بِسَيْفٍ صارِمٍ، وَسَطْوَةِ مُعْتَدٍ غاشِمٍ، وَبِهَرَجٍ شامِلٍ، وَاسْتِبْدادٍ مِنَ الظّالِمِينَ، يَدَعُ فَيْئَكُمْ زَهِيداً، وَجَمْعَكُمْ حَصِيداً، فَيا حَسْرَةً لَكُمْ، وَأنّىٰ بِكُمْ وَقَدْ عُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أنُلْزِمُكُمُوها وَأنْتُمْ لَها كارِهُونَ.

وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، وَالصَّلاةُ عَلىٰ مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ[١١].

اعتذار مرفوض:

حاول أبو بكر وصاحبه عمر أن يسترضيا سيِّدة نساء العالمين، ويضفيا على خلافتهم الصبغة الشرعية، فاستأذنا بالدخول عليها، فأبت سلام الله عليها أن تأذن لهما، ثمَّ استأذنا ثانياً، فامتنعت من إجابتهما، فاتّجها صوب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وطلبا منه مقابلة وديعة النبيّ صلى الله عليه وآله، فخفَّ نحوها وطلب منها الإذن لهما، فأجابته إلى ذلك، فدخلا عليها، فأزاحت بوجهها الشريف عنهما، وتقدَّما يطلبان منها الرِّضا والعفو، فقالت لهما:

---

(١) احتنكه: استولى عليه.
(٢) الذنابى: مؤخّر الشيء.
(٣) القوادم: مقادم الريش.
(٤) العجز: مؤخّر الشيء.
(٥) الكاهل: مقدّم أعلى الظهر ممَّا يلي العنق.
(٦) لمعطس: لأنف.
(٧) القعب: القدح.
(٨) الدم العبيط: الخالص الطري.
(٩) الذعاف: السمّ الذي يقتل من ساعته.
(١٠) الغب: العاقبة.
(١١) أعلام النساء: ٤/١٢٨ ـ ١٢٩.

«نَشَدْتُكُما اللَّهَ أَلَمْ تَسْمَعا رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: رِضا فاطِمَةَ مِنْ رِضايَ، وَسَخَطُ فاطِمَةَ مِنْ سَخَطِي، فَمَنْ أَحَبَّ فاطِمَةَ ابْنَتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَرْضىٰ فَاطِمَةَ فَقَدْ أَرْضانِي، وَمَنْ أَسْخَطَ فَاطِمَةَ فَقَدْ أَسْخَطَنِي؟».

فأجابا بالتصديق قائلين: أجل سمعناه يقول ذلك.

فرفعت كفّها إلى السماء وراحت تقول بألم وأسى:

«فإنّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ أَنَّكُما أَسْخَطْتُمانِي وَمَا أَرْضَيْتُمانِي، وَلَئِنْ لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ لأَشْكُوَنَّكُما إِلَيْهِ».

والتفتت إلى أبي بكر قائلةً:

«وَاللَّهِ! لأَدْعُوَنَّ عَلَيْكَ فِي كُلِّ صَلاَةٍ أُصَلِّيها»[١].

الحزن العميق:

ونخب الحزن قلب بضعة الرسول سلام الله عليها وألمَّ بها الأسى على فَقْد أبيها، فكانت تذكره بمزيد من اللوعة، وقد اشتاقت إلى صوت بلال مؤذِّن أبيها أن يؤذِّن لها، وقد امتنع من الأذان بعد وفاة النبيّ ﷺ، فاستجاب لها وأخذ في الأذان، فلمّا قال: **«اللَّهُ أَكْبَرُ»** ذكرت سيِّدة النِّساء أباها، فلم تملك نفسها من البكاء، فلمّا بلغ **«أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ»** شهقت وسقطت مغمى عليها، فقال الناس: يا بلال، أمسك فقد فارقت ابنة رسول الله ﷺ الدُّنيا، وأفاقت سيِّدة النساء فطلبت من بلال أن يتمّم الأذان فلم يفعل[٢].

لوعة وشجون:

وألمَّت المحن والخطوب بزهراء الرسول وبضعته، فقد تراكمت عليها المصائب يتبع بعضها بعضاً، وكان من أقساها وأشدّها ألماً عندها جحد القوم لحقِّها ومبالغتهم في التنكيل بها، ولم يراعوا حقَّها ووصايا النبيّ فيها، فترك ذلك أعمق الأسى والحزن في نفسها، وقد خلَّدت إلى البكاء، فكانت تجد فيه راحة نفسيَّة لها حتَّى عدت من البكّائين الخمس الذين انقطعوا إلى الحزن والبكاء[٣].

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٤.

(٢) فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى: ١١٣.

(٣) البكّاؤون الخمس: آدم ويعقوب ويوسف وعليّ بن الحسين وفاطمة. بحار الأنوار: ١١/ ٢٠٤.

وبلغ من عظيم حزنها على أبيها أنَّ أنس بن مالك استأذن عليها ليعزِّيها بمصابها الأليم على فقد أبيها، وكان أنس ممَّن وسَّد رسول الله ﷺ في مثواه الأخير، فقالت له:

«أَنَسُ بْنُ مالِكٍ هَذا؟».

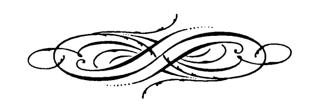
قال: نَعَمْ يا بنت رسول الله.

فقالت له وهي تلفظ قطعاً من قلبها المذاب:

«كَيْفَ طَابَتْ نُفُوسُكُم أن تَحْثُوا التُّرابَ عَلىٰ رَسُولِ اللَّهِ».

وقطع أنس كلامه وهام في تيارات من الحزن، وخرج وهو يذرف أحرّ الدموع[١].

وألحَّت سيِّدة النِّساء على ابن عمّها الإمام أمير المؤمنين أن يريها القميص الذي غسّل فيه أباها، فجاء به إليها، فأخذته بلهفة وهي توسعه تقبيلاً وشمّاً؛ لأنَّه مسَّ جسد أبيها الذي غاب في مثواه.. وقد تقطَّع قلبها الزاكي ألماً وحزناً حتَّى غشي عليها[٢].



(١) سنن ابن ماجة: ١٨.

(٢) حياة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: ١/١٦٨.

إلى جنَّة المأوى

وأثَّر الحزن المرهق ببضعة النبيّ ﷺ ووديعته في أُمّته حتَّىٰ فتكت بها الأمراض، وتناهبت جسمها الآلام، فلازمت الفراش، ولم تتمكَّن من النهوض والقيام، وأخذت تذوي كما تذوي الأزهار عند الظماء، فقد مشى إليها الموت سريعاً وهي في شبابها الغضّ الاهاب.

ولمَّا بدت لها طلائع الرحيل أوصت بوصيَّتها الخالدة إلى ابن عمّها وكان من بنودها:

١ ـ أن يواري جثمانها المقدَّس في غلس اللَّيل البهيم، ولا يحضر تشييع جنازتها أحد من الذين هضموها؛ لأنَّهم أعداؤها، وأعداء أبيها ـ على حدِّ تعبيرها ـ.

٢ ـ أن يعفي ويستر موضع قبرها ليكون رمزاً لغضبها على القوم غير قابل للشكّ والتأويل على ممرّ الأجيال الصاعدة.

٣ ـ أن يتزوَّج بابنة أُختها أُمامة؛ لأنَّها تقوم برعاية أبنائها الحسن والحسين وزينب الذين عندها أعزّ من الحياة.

وضمن لها الإمام عليه السلام تنفيذ وصاياها، وانصرف عنها وهو غارق بتيارات مذهلة من الأسى والشجون... وعرضت سيِّدة النِّساء على أسماء بنت عميس، وكانت أثيرة عندها وممرّضة لها، أن يُصْنَع لها سرير يواري جسدها الشريف، فقد كانت العادة بحمل الميِّت على لوحة من خشب يبدو فيها جسده، فكرهت سلام الله عليها ذلك فعملت لها أسماء سريراً يستر جسد الميِّت شاهدته حينما كانت في الحبشة، فلمَّا نظرت سرَّت به، وابتسمت، وهي أوَّل ابتسامة شوهدت لها منذ لحق أبو بالرفيق الأعلى[1].

وفي آخر يوم من حياتها أصبحت وقد ظهر عليها بعض التحسُّن على صحَّتها، وقد بدى عليها الفرح والسرور، فقد علمت أنَّها في اليوم الأخير من حياتها، وأنَّها ستلتحق بأبيها، فعمدت سلام الله عليها إلى ولديها فغسلت لهما، وصنعت لهما من الطعام ما

(١) المجالس السنية: ٢/ ١٣٧.

يكفيهم يومهم، وأمرتهما بالخروج لزيارة قبر جدّهما، وألقت عليهما نظرة الوداع الأخير، وقلبها قد ذاب من اللوعة والأسى.

وخرج الحسنان وقد هاما في تيارات من الهواجس، وأحسَّا ببوادر مخيفة من وضع أُمّهما أغرقتهما بالهموم والآلام.

والتفتت وديعة النبيّ سلام الله عليها إلى أسماء بنت عميس فقالت لها:

«يا أُمَّاهُ».

ـ نعم يا حبيبة رسول الله.

«اسْكُبي لِي غُسْلاً».

وانبرت أسماء فأتتها بالماء، فاغتسلت فيه، وقالت لها ثانياً:

«ايتِيْني بِثِيابِي الْجُدُدِ».

وناولتها أسماء ثيابها، وهتفت بها مرَّة أُخرى:

«اجْعَلِي فِراشِي وَسَطَ الْبَيْتِ».

وذعرت أسماء وارتعش قلبها، فقد شعرت أنَّ بضعة الرسول صلى الله عليه وآله قد حلَّ بها الموت، وصنعت لها ما أرادت، فاضطجعت على فراشها واستقبلت القبلة، وقالت لأسماء:

«يا أُمَّاهُ، إنِّي مَقْبُوضَةٌ الآنَ وَقَدْ تَطَهَّرْتُ، فَلاَ يَكْشِفْنِي أحَدٌ».

وأخذت تتلو آيات من الذِّكر الحكيم حتَّى فاضت نفسها الزكية ولسانها يلهج بذكر الله تعالى... لقد سمت تلك الرُّوح العظيمة إلى بارئها تحفّها ملائكة الرَّحمٰن وتستقبلها أنبياء الله، وعلى رأسهم سيِّد الكائنات أبوها.. وكانت وفاتها ما بين المغرب والعشاء(١).

لقد ارتفعت تلك الرُّوح العظيمة إلى جنان الله ورضوانه، فما أظلَّت سماء الدُّنيا فيما مضى وما هو آتٍ من بنات حوَّاء مثلها قداسة وشرفاً وعفَّة.. وقد انقطع بموتها آخر من كان في الدُّنيا من نسل رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقفل الحسنان مسرعين إلى الدار ليتعرَّفا خبر أُمّهما فلم يجداها، فبادرا إلى أسماء يسألانها عنها، فأخبرتهما وهي غارقة بالبكاء قائلة:

(١) وفاة الصدِّيقة، السيِّد المقرّم: ١٠٧.

يا سيِّديَّ، إنَّ أُمّكما قد ماتت فأخبرا أباكما.

فكان ذلك كالصاعقة عليهما، فهرعا مسرعين إلى جثمانها، فألقى الإمام الحسن بنفسه عليها وهو يقول:

«يا أُمَّاهُ، كَلِّمِيني قَبْلَ أنْ تُفارِقَ رُوْحِي بَدَنِي».

ووقع عليها الإمام الحسين وهو يعجُّ بالبكاء قائلاً:

«يا أُمَّاهُ، أنا ابْنُكِ الْحُسَيْنُ، كَلِّمِيني قَبْلَ أنْ يَنْصَدِعَ قَلْبِي فَأمُوتُ».

وأخذت أسماء توسعهما تقبيلاً، وتخفِّف عنهما لوعة المصاب، وطلبت منهما الخروج من الدار خوفاً عليهما ليخبرا أباهما بموت أُمّهما، فانطلقا إلى مسجد رسول الله ﷺ وهما غارقان في البكاء، فاستقبلهما المسلمون بفزع قائلين لهما:

ما يبكيكما يا بنيْ رسول الله، لعلَّكما نظرتما موقف جدّكما فبكيتما شوقاً إليه؟ فأجابا بنبرات من الحزن قائِلَيْن:

«أوَلَيْسَ قَدْ مَاتَتْ أُمُّنا فاطِمَةُ».

واضطرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهزَّ النبأ كيانه، وطفق يقول:

«بِمَنِ الْعَزاءُ يا بِنْتَ مُحَمَّدٍ؟ كُنْتُ بِكِ أتَعَزَّىٰ، فَفِيمَ الْعَزاءُ مِنْ بَعْدِكِ؟..».

وخفَّ مسرعاً صوب الدار وهو يذرف أحرّ الدموع، ولمَّا انتهى إليها ألقى على الجثمان المقدَّس نظرة وهو ينشد:

«لِكُلِّ اجْتِماعٍ مِنْ خَلِيْلَيْنِ فُرْقَةٌ وَكُلُّ الَّذِي دُوْنَ الْفِراقِ قَلِيْلُ
وَإنَّ افْتِقادِي فاطِماً بَعْدَ أحْمَدٍ دَلِيلٌ عَلىٰ أنْ لا يَدُومَ خَلِيْلُ»

وهرع المسلمون من كلّ صوب نحو بيت الإمام وهم يعجُّون بالبكاء على وديعة نبيّهم الذين قصَّروا في حقِّها.. لقد انطوت بموتها آخر صفحة من صفحات النبوَّة.. وتذكَّروا بموتها ما أقام لهم النبيّ من مجد وعزَّة، وما أسداه عليهم من عطف وأُبوَّة وحنان، وقد ارتجَّت المدينة بالبكاء من النِّساء والرجال، وانتظروا خروج الجنازة ليفوزوا بتشييعها، فعهد الإمام إلى سلمان الفارسي أن يعرِّفهم بتأخير التشييع إلى اليوم الثاني، وتفرَّقت الجماهير، وأقبلت عائشة وهي تريد الدخول إلى بيت الإمام لتلقي على الجثمان المقدَّس نظرة الوداع، فحجبتها أسماء وقالت لها:

لقد عهدتْ إليَّ أن لا يدخل عليها أحد(١).

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٦٥.

ولمَّا مضى من اللَّيل شطره قام الإمام فغسَّل الجسد الطاهر ومعه الحسنان وأسماء، وبعد الانتهاء من الغسل أدرجها في أكفانها ودعا بأطفالها الذين لم ينتهلوا كثيراً من حنان أُمّهم ليلقوا عليها نظرة الوداع، فألقوا بنفوسهم عليها، وقد مادت الأرض من كثرة بكائهم، وبعد انتهاء الوداع عقد الإمام الرداء عليها.

ولمَّا حلَّ الهزيع الأخير من اللَّيل قام الإمام فصلَّى على الجسد الطاهر، ثمَّ أوعز إلى بني هاشم، وخلّص الصحابة أن يحملوا الجثمان العظيم إلى مثواه الأخير، ولم يخبر أي أحد بتشييعها سوى تلك الصفوة من أهل بيته وأصحابه، ثمَّ أودعها في قبرها، وأهال عليها التراب، ووقف على حافَّة القبر وهو يروي ثراه بدموع عينيه، وأخذ يؤبِّنها بهذه الكلمات التي تمثِّل لوعته وحزنه قائلاً:

«السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوارِكَ، السَّرِيعَةِ اللَّحاقِ بِكَ.

قَلَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إلاَّ أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ «فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

لَقَدْ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ إِلَىٰ أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَظَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَىٰ هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤالَ، واسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ؛ هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلاَمُ عَلَيْكُمَا سَلاَمَ مُوَدِّعٍ، لاَ قَالٍ وَلاَ سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلاَ عَنْ مَلاَلَةٍ، وَإِنْ أُقِمْ فَلاَ عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ»[١].

عمرها الشريف:

واختلف الرواة في عمر سيِّدة نساء العالمين، وهذه بعض الأقوال:

١ ـ عمرها ثمان عشرة سنة[٢].

٢ ـ عمرها إحدى وعشرون سنة[٣].

٣ ـ عمرها خمس وعشرون سنة[٤].

---

(١) نهج البلاغة: ٢/٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٢) ذخائر العقبى: ١/٥٢.

(٣) مستدرك الحاكم: ٣/١٧٨.

(٤) تأريخ الخلفاء: ١/٧٥.

٤ ـ عمرها سبع وعشرون سنة[١].

تأريخ وفاتها:

١ ـ أنَّها عاشت بعد أبيها ثلاثين يوماً أو خمسة وثلاثين يوماً[٢].

٢ ـ عاشت بعد أبيها أربعين يوماً[٣].

٣ ـ عاشت بعد فَقْد أبيها خمسة وسبعين يوماً[٤].

٤ ـ عاشت بعد رحيل أبيها إلى حظيرة القدس خمسة وتسعين يوماً[٥].

مرقدها الشريف:

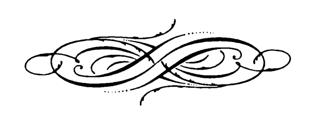
أمَّا موضع قبر الصدِّيقة سلام الله عليها فهو مجهول؛ لأنَّها أوصت الإمام بإخفائه ليكون شاهداً عبر الأجيال الصاعدة على أساها وغضبها على القوم الذين جهدوا على ظلمها وهضمها، ولم يرعوا مكانتها من رسول الله ﷺ وقربها منه.

وعلى أيَّة حال فقد قيل في موضع قبرها ما يلي:

١ ـ أنَّها دفنت في البقيع[٦].

٢ ـ دفنت في بيتها[٧].

٣ ـ دفنت ما بين المرقد النبوي وبين المنبر الشريف، ففي الحديث: **«ما بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الْجَنَّةِ»**[٨].



(١) مجمع الزوائد: ٩/ ٢١٠.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١١٥.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ١١٦.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ١١٦.
(٥) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٥٦.
(٦) البداية والنهاية: ٦/ ٣٣٤.
(٧) تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ٣٥٣.
(٨) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٨٥.



حياة
الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

النسب الوضَّاح

ليس في دنيا الأنساب نسب وضَّاح التقت به جميع عناصر الشرف والكرامة كنسب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فهو من صميم الأُسرة الهاشمية التي عُرفت بالنبل والشهامة وقرابة الضيف ونجدة الضعيف وحماية الجار وغير ذلك من الصفات الكريمة التي جعلتها في طليعة الأُسر العربية سموّاً وإشراقاً وشرفاً.

وكانت عبادة الأصنام هي السائدة في قبائل مكَّة، فقد كانت أصنامهم معلَّقة على ظهر الكعبة، فلكلّ قبيلة صنم يعبدونه من دون الله سوى الأُسرة الهاشمية فإنَّها وحدها تعبد الله وحده، وتدين بدين إبراهيم شيخ الأنبياء. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَاللَّهِ! ما عَبَدَ أَبِي وَلَا جَدِّي عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَلَا عَبْدُ مُنَافٍ وَلَا هَاشِمُ صَنَماً، وَإِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَيُصَلُّونَ إِلَىٰ الْبَيْتِ عَلَىٰ دِينِ إِبْرَاهِيمَ مُتَمَسِّكِينَ بِهِ...»[1].

❖ الأب أبو طالب:

أمَّا أبو طالب فهو حامي الإسلام، والرصيد الأعظم للدعوة الإسلامية منذ بزوغ نورها، فهو القوَّة الضاربة التي حمت الإسلام حينما هبَّت طغاة قريش، وعتاتهم لإطفاء نور الله وإخماد شعلة التوحيد، ومن المؤكَّد أنَّه لولا حماية أبي طالب للنبيّ صلى الله عليه وآله لما استطاع أن يُبلِّغ رسالة ربّه، ويقف بعزم وشموخ أمام تلك الوحوش الكاسرة مستهيناً بها محتقراً لأصنامها ساخراً من تقاليدها وعاداتها، ونعرض ـ بإيجاز ـ إلى بعض مواقفه البطولية في نصرة الإسلام، والذبّ عن حمى الرسول صلى الله عليه وآله التي سجَّلت له بمداد من النُّور والفخر، وفيما يلي ذلك:

رعايته للنبيّ صلى الله عليه وآله:

وعنى أبو طالب عناية بالغة بالنَّبيّ صلى الله عليه وآله، وقام بجميع خدماته وشؤونه، وتولَّى رعايته منذ نعومة أظفاره، فكان المربِّي والحارس له.

---

(١) إكمال الدِّين/ الصدوق: ص١٠٤.

يقول الرواة: إنَّ أبا طالب سافر للتجارة إلى الشام مع النبيّ ﷺ فسارع إليه الراهب فقال له: إنِّي أنصحك أن ترجع بابن أخيك من مكانك هذا وإن أدَّىٰ ذلك إلى ذهاب أموالك وخسارتك في تجارتك، فإنِّي لا آمن عليه من دسائس الشرك ومكائد اليهود؛ فإنَّهم إن عرفوا الذي عرفته فلا يولّوا حتَّى يلحقوا به الأذى، بل يغتالونه بكلّ نشاط وقوّة[1]، وقفل أبو طالب راجعاً إلى مكَّة، ولم يمض في تجارته إلى الشام حفظاً لابْنِ أخيه، وبلغ من رعايته له أنَّه كان يصحبه معه في فراشه خوفاً عليه[2]، كما كان ينقله في غلس اللَّيل من مكان إلى مكان، ويمضي ليله ساهراً على حراسته لئلا يغتاله أحد.

في ذمَّة الخلود:

ولاقى أبو طالب جهداً شاقّاً وعسيراً في حمايته للنبيّ ﷺ ونصرته للإسلام، وكفاحه للقوى المعادية لابن أخيه، وقد تعرَّض لأقسى ألوان المحن والخطوب من طغاة القرشيِّين وعتاتهم، وقد ألمَّت به العلل والأمراض ودنا منه الموت، وكان أهمّ ما يعانيه مصير الرسول ﷺ من بعده، وماذا سيلاقيه من ذئاب قومه الذين تنكَّروا لجميع القيم والأعراف، فأخذ وهو على حافة الموت يوصي أبناءه وأفراد أُسرته بنصرة الرسول والوقوف إلى جانبه، وحمايته من كيد القرشيِّين وبطشهم وأخذ المرض يزداد فيه حتى وافته المنيَّة في شهر شوَّال أو في ذي القعدة، وذلك بعد خروج النبيّ من الشِعب[3].

وسارع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فغسَّل جسد أبيه الطاهر وأدرجه في أكفانه، وقد ذابت نفسه عليه حزناً وأسى، وهرعت الجماهير إلى دار أبي طالب فحملوا الجثمان المقدَّس بمزيد من الحفاوة والتكريم، وواروه في مقرّه الأخير، وقد واروا معه الشرف والإيمان.

لقد انطوت حياة هذا المجاهد العظيم الذي وهب حياته لله تعالى، فنصر الإسلام، وقاوم الشرك، وقارع الباطل، فسلام الله عليه، فما أعظم عائدته على الإسلام والمسلمين!

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٩٠.
(٢) السيرة الحلبية: ١/ ١٤٠.
(٣) الكامل في التاريخ/ ابن الأثير: ٢/ ٣٤.

تأبين النبيّ له:

ووقف النبيّ صلى الله عليه وآله على حافَّة قبر عمّه، وهو واجم حزين، قد روى ثرى قبره بدموعه، وأخذ يصوغ من حزنه كلمات في تأبينه قائلاً:

«وَصَلَتْكَ رَحِمُ يَا عَمُّ، جُزِيتَ خَيْراً، فَلَقَدْ رَبَّيْتَ وَكَفَلْتَ صَغِيراً، وَآزَرْتَ وَنَصَرْتَ كَبِيراً، أَمَا وَاللَّهِ يَا عَمُّ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، وَأَشْفَعَنَّ فِيكَ شَفَاعَةً يَعْجَبُ مِنْهَا الثَّقَلَانِ...»[(١)].

❖ الأُمّ فاطمة بنت أسد:

أمَّا أُمّ الإمام عليه السلام فهي السيِّدة الزكية فاطمة بنت أسد، وهي من سيِّدات عصرها في عفّتها وطهارتها وسموِّ ذاتها، وهذا عرض لبعض شؤونها:

سبقها إلى الإسلام:

كانت هذه السيِّدة المعظَّمة من السابقات لاعتناق الإسلام وبذلك فقد نالت الشرف العظيم، فقد أسلمت بعد عشرة أشخاص[(٢)].

مبايعتها للنبيّ:

وهذه السيِّدة الزكية أوَّل امرأة بايعت النبيّ صلى الله عليه وآله[(٣)].

رعايتها للنبيّ:

وقامت هذه السيِّدة الطاهرة بدور مهمّ في خدمة النبيّ صلى الله عليه وآله، وكانت تفضّله في الرعاية والحنان على أولادها، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يكرمها ويعظِّمها ويدعوها أُمّه[(٤)].

روايتها للحديث:

وعدَّها علماء الحديث من رواة الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله[(٥)].

إقامتها في بيت الإمام:

ولازمت هذه السيِّدة الطاهرة ولدها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولم تقم مع بقيَّة أبنائها، ولمَّا تزوَّج الإمام عليه السلام بسيِّدة نساء العالمين زهراء الرسول صلى الله عليه وآله قال الإمام لأُمّه:

---

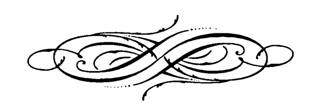
(١) أبو طالب وبنوه: ص١٠٣.
(٢) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١/ ١٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) أعلام النِّساء: ٣/ ١١٣.

«إكْفِي فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله سِقَايَةَ الْمَاءِ وَالذّهابَ فِي الْحَاجَةِ، وَتَكْفِيكِ فِي دَاخِلِ الْبَيْتِ الطَّحْنَ وَالْعَجِينَ».

وفاتها:

ألمَّت الأمراض بهذه السيِّدة المعظَّمة فكانت زهراء الرسول تقوم برعايتها وشؤونها حتى انتقلت إلى حضيرة القدس، فقام ولدها الإمام عليه السلام بتجهيزها، وأخبر النبيّ صلى الله عليه وآله بوفاتها فحزن عليها حزناً عميقاً، وأمر عليّاً بتكفينها في قميصه، ولمَّا انتهى تجهيزها شيَّعها النبيّ وحفروا لها قبراً فاضطجع فيه، وجزَّاها الخير ودعا لها بالرحمة والرضوان، وذلك لما أسدت عليه من البرّ والإحسان، وقيل للنبيّ: ما رأيناك صنعت بأحد كما صنعت بهذه؟ فقال:

«لَمْ يَكُنْ بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ أَبَرَّ بِي مِنْها، إِنَّمَا أَلْبَسْتُها قَمِيصِي لِتُكْسَىٰ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، وَاضْطَجَعْتُ فِي قَبْرِها لِيُهَوَّنَ عَلَيْها»[1].



(١) أسد الغابة: ٥/ ٥١٠.

وليد الكعبة

الشيء المحقَّق الذي اتّفق عليه المؤرّخون والرواة هو أنَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وُلد في الكعبة المقدَّسة[١] ولم يُولد بها أحد سواه.

كيفيَّة ولادته:

وصف الرواة كيفيَّة ولادة إمام المتَّقين فقالوا: إنَّ والدته السيِّدة الزكية فاطمة لمَّا أحسَّت بالطلق نهضت وهي مبهورة الأنفاس، فاتّجهت صوب الكعبة المقدَّسة، وهي على يقين لا يخامره شكّ أن لحملها شأناً كبيراً عند الله تعالى، ولمَّا مثلت أمام الكعبة اتّجهت بعواطفها نحو الله تعالى، وأخذت تناجيه وتدعوه أن ييسِّر لها ولادتها، وتعلَّقت بأستار الكعبة قائلة:

«ربِّ إنِّي مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإنِّي مصدَّقة بكلام جدِّي إبراهيم الخليل... وأنَّه بنى البيت العتيق، فبحقِّ الذي بنى هذا البيت وبحقِّ المولود الذي في بطني لمَّا يسَّرت عليَّ ولادتي...»[٢].

وما انتهت السيِّدة فاطمة من دعائها حتى انشقَّ لها جدار البيت المعظَّم فدخلت فيه وقلبها مطمئن بذكر الله تعالى وبعظمة وليدها الذي ستضيء الدُّنيا به.

مشرق النُّور:

ولم تمكث السيِّدة فاطمة في حرم البيت المعظَّم إلاَّ زمناً قليلاً حتى وضعت وليدها المبارك حجَّة الله في أرضه الذي طوَّق الدُّنيا بمواهبه وعبقرياته.

تسمية أُمّه له:

وبهرت السيِّدة فاطمة بمنظر وليدها العظيم، فقد رأت الفروسية بادية عليه،

---

(١) مستدرك الحاكم: ٣/ ٤٨٤، قال الحاكم: «وتواترت الأخبار أنَّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في الكعبة».

(٢) بحار الأنوار: ٣٥/ ٨.

والشجاعة ماثلة فيه، ورأت سلامة جسده فسمَّته حيدرة، وهو من أسماء الأسد، وكان الإمام كما سمَّته أُمّه بالأسد، فقد كان أسد الله وأسد رسوله.

تسمية أبي طالب له:

أمَّا أبوه شيخ البطحاء ومؤمن قريش فإنَّه دخل الكعبة المقدَّسة وناجى الله تعالى بإخلاص أن يلهمه تسمية وليده المبارك قائلاً:

يَا رَبَّ هَذَا الْغَسَقِ الدَّجِيِّ والْقَمَرِ الْمُنْبَلِجِ الْمُضِيِّ
بَيِّنْ لَنَا مِنْ أَمْرِكَ الْخَفِيِّ مَاذَا تَرىٰ فِي إِسْمِ ذَا الصَّبِيِّ

فألهمه الله تعالى أن يسمِّه عليّاً، فخرج من البيت الحرام وهو ينشد أمام قريش:

سَمَّيْتُهُ بِعَلِيٍّ كَيْ يَدُومَ لَهُ عِزُّ الْعُلُوِّ وَفَخْرُ الْعِزِّ أَدْوَمُهُ

سنة ولادته:

ولد أمير البيان ورائد العدالة الإسلامية الإمام عليه السلام في يوم الجمعة الثالث عشر من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة[١] وبالحساب الميلادي كانت ولادته سنة (٦٠٠م)، وقد ولد قبل البعثة النبوية باثنتي عشرة سنة، وقيل أقلّ من ذلك.

ألقابه:

١ ـ الصدِّيق:

لقّبه النبيّ ﷺ بذلك[٢]، وإنَّما لُقِّب به لأنَّه صدَّق رسول الله ﷺ وآمن بجميع ما جاء به من عند الله تعالى.

٢ ـ الوصيّ:

من الألقاب الكريمة التي عُرف بها الإمام عليه السلام «الوصي» أي وصي رسول الله ﷺ.

٣ ـ الفاروق:

لقّب الإمام عليه السلام بالفاروق لأنَّه يفرق بين الحقّ والباطل.

٤ ـ يعسوب الدِّين:

اليعسوب في اللغة فحل النحل، ثمَّ أُطلق على السيِّد الشريف في قومه، وهو من

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٩٠.
(٢) تأريخ الخميس: ٢/ ٢٧٥.

ألقاب الإمام عليه السلام، لقَّبه النبيّ صلى الله عليه وآله بذلك، فقد قال له: «**هَذا** ـ وأشار إلى الإمام ـ **يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَالُ يَعْسُوبُ الظَّالِمِينَ**»[١].

٥ ـ الوليّ:

من الألقاب الرفيعة التي تقلّدها الإمام عليه السلام (الوليّ)، وقد منحته السَّماء هذا الوسام العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢].

٦ ـ أمير المؤمنين:

من الألقاب الشائعة للإمام عليه السلام (أمير المؤمنين) حتَّى أنَّه إذا أُطلق فلا ينصرف إلى سوى الإمام، يقول الدكتور زكي مبارك: «أمير المؤمنين هو اللقب الاصطلاحي لعليّ بن أبي طالب، فإن رأى القارىء في كتاب قديم من غير نصّ على اسم فليعرف أنَّ المراد هو عليّ بن أبي طالب»[٣].

٧ ـ الأمين:

من ألقاب الإمام عليه السلام (الأمين) لقّب بذلك لأنَّه كان أميناً على أُمور الدِّين وأسرار خاتم المرسلين، وقد منحه هذا اللقب الرسول صلى الله عليه وآله فقد قال له: «**يا عَلِيُّ، أَنْتَ صَفِيِّي وَأَمِينِي**»[٤].

٨ ـ الهادي:

من ألقاب الإمام عليه السلام (الهادي)، فقد كان هادياً للمسلمين ومرشداً للمتَّقين ووليّاً للمؤمنين، وقد اقتبس هذا اللقب من قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «**أَنَا الْمُنْذِرُ وَعَلِيٌّ الْهَادِي، وَبِكَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ**»[٥].

٩ ـ الأُذن الواعية:

من ألقاب الكريمة للإمام عليه السلام (الأُذن الواعية)، فقد كان عليه السلام أُذناً واعية لجميع ما أُنزل على النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد قال له النبيّ حينما نزلت عليه الآية: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾:

(١) مجمع الزوائد: ٩/ ١٠٢.
(٢) سورة المائدة: الآية ٥٥.
(٣) عبقرية الشريف الرضي: ٢/ ٢٢٨.
(٤) ذخائر العقبىٰ: ص٥٧.
(٥) مستدرك الحاكم: ٣/ ١٢٩.

«سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَها أُذُنَكَ يَا عَلِيُّ».

فقال عليّ: **«فَمَا نَسِيتُ شَيْئاً بَعْدُ، وَمَا كَانَ لِي أَن أَنْسَىٰ»**[١].

١٠ ـ المرتضى:

من ألقابه الكريمة (المرتضى) لقّب بذلك لأنَّ الله ارتضاه وصيّاً للنبيّ وخليفة له من بعده، أو لأنَّ الله تعالى ارتضاه لسيِّدة النِّساء زهراء الرسول زوجاً[٢].

١١ ـ الأنزع البطين:

لقّب الإمام بذلك لأنَّه ذا صلعة ليس في رأسه شعر إلاَّ من خلفه، وكان عظيم البطن ولكن بلا بطنة.

١٢ ـ الشريف:

أمَّا الإمام فهو من أشرف الناس بحسبه ومثله وورعه وتقواه.

١٣ بيضة البلد:

من ألقابه الكريمة (بيضة البلد) كما كان أبوه بيضة مكَّة ومصدر عزّها وشرفها[٣].

١٤ ـ خير البشر:

لقَّبه النبيّ ﷺ (خير البشر)، وقد ورد ذلك في كوكبة من الأحاديث هذه بعضها:

ـ روى الخطيب البغدادي بسنده عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: **«عَلِيٌّ خَيْرُ الْبَشَرِ فَمَنِ امْتَرى[٤] فَقَدْ كَفَرَ»**[٥].

١٥ ـ سيِّد العرب:

من الألقاب الكريمة للإمام عليه السلام (سيِّد العرب) أضفاه عليه النبيّ ﷺ، قال: **«أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ وَعَلِيٌّ سَيِّدُ الْعَرَبِ»**[٦].

---

(١) تفسير الطبري: ٢٩/ ٣٥. الكشّاف: ٤/ ٦٠٠.

(٢) ذخائر العقبىٰ: ص٣٢.

(٣) تاريخ الخميس: ٥/ ٣٧٥.

(٤) امترى: أي شكّ.

(٥) تاريخ بغداد: ٧/ ٤٢١.

(٦) كنز العمَّال: ٦/ ١٥٧.

١٦ ـ حجَّة الله:

من ألقابه العظيمة (حجَّة الله) فقد كان حجَّة من الله على عباده يهديهم للتي هي أقوم وينير لهم طرق الهداية، منحه هذا اللقب النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**أَنَا وَعَلِيٌّ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ**»[(١)].

كناه:

١ ـ أبو الريحانتين:

وهما الإمامام الحسن والحسين.

٢ ـ أبو السبطين:

كنّي بولديه سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام[(٢)].

٣ ـ أبو الحسن:

كنّي الإمام عليه السلام بابنه الأكبر الإمام الحسن السبط الأوّل للنبيّ صلى الله عليه وآله.

٤ ـ أبو الحسين:

وشاعت هذه الكنية[(٣)] في الأوساط الإسلامية، فقد كنّي بولده مفخرة الإسلام والمجدّد الأعظم لدين الإسلام الإمام الحسين عليه السلام.

٥ ـ أبو تراب:

إنَّ هذه الكنية من أحب الكنى عند الإمام عليه السلام، فقد كنَّاه بها رسول الله صلى الله عليه وآله في عدَّة مناسبات كان من بينها ما يلي:

١ ـ روى ابن عبَّاس حبر الأُمَّة، قال: لمَّا آخى النبيّ صلى الله عليه وآله بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ولم يواخ بين الإمام وبين أحد منهم خرج عليّ مغضباً حتَّى أتى جدولاً فتوسَّد ذراعه فسفت عليه الريح، فطلبه النبيّ حتَّى ظفر به فوكزه برجله، فقال له:

«**قُمْ فَما صَلَحْتَ أَنْ تَكُونَ إِلَّا أَبَا تُرَابٍ، غَضِبْتَ عَلَيَّ حِيْنَ آخَيْتُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَلَمْ أُواخِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، أَمَا تَرْضىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنَ**

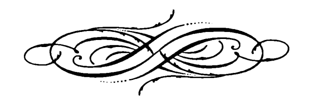
(١) كنوز الحقائق/المناوي: ص٤٣.
(٢) أعلام الورى: ص١٩٤.
(٣) معرفة الصحابة: ١/ ٢٧٩.

مُوسَىٰ إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، أَلَا مَنْ أَحَبَّكَ حُفَّ بِالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَمَاتَهُ اللَّهُ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَحُوسِبَ بِعَمَلِهِ فِي الإِسْلَامِ»[١].

ملامحه وصفاته:

كان الإمام عليه السلام من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم أخلاقاً، وكانت أسارير النُّور على وجهه الشريف، وقد وصفت ملامحه بصفات كثيرة...

ووصف النبيّ ﷺ أخاه ووصيّه بهذه الأوصاف الرفيعة، قال: «من أراد أن ينظر إلى إبراهيم في حلمه، وإلى نوح في حكمه، وإلى يوسف في جماله، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب»[٢].



(١) مجمع الزوائد: ٩/١١١.

(٢) ذخائر العقبىٰ: ص٢٤.

نشأته

نشأ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عهد طفولته في كنف أبيه أبي طالب مؤمن قريش وشيخ البطحاء، الذي كان مثالاً لكلّ فضيلة وعنواناً لكلّ كرامة، فربّى ولده الإمام على الشهامة والنبل، وغذّاه بالإيمان بالله، كما قامت بتربيته أُمّه الزكية السيّدة فاطمة سيّدة نساء عصرها في عفّتها وطهارتها، فغذّته بالأخلاق الكريمة والعادات الحسنة، وغرست في نفسه النزعات الشريفة.

احتضان النَّبي للإمام:

إنَّ الإمام عليه السلام كان من ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وآله ومن أكثرهم تطبُّعاً بأخلاقه وفهماً لرسالته، ولمَّا أعلن النبيّ صلى الله عليه وآله ثورته الكبرى على الأفكار الجاهلية وعاداتها، كان الإمام في فجر الصبا يذبّ عنه، ويحميه من صبيان قريش الذين كانوا يحاربونه بالحجارة ويقذفونه بالتراب، ويصيحون وراءه ساحر ومجنون، وكان الإمام عليه السلام يوقع بهم الضرب واللكم فينهزمون إلى أُمَّهاتهم وآبائهم وكان ذلك أوَّل جهاد له في سبيل الإسلام.

وقد تحدَّث الإمام عليه السلام عن تلك الفترة الذهبية التي عاشها في رعاية النبيّ وما لاقاه من صنوف الحفاوة والتكريم فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ. وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلِيدٌ، يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. وَكُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ»[1].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

التربية النبوية للإمام:

عنى النبيّ ﷺ عناية بالغة بتربية أخيه وابن عمّه الإمام عليه السلام فغرس في أعماق ذاته صفاته الكريمة ونزعاته الشريفة حتّى يحكي طباعه واتّجاهاته وبقيمه من بعده علماً لأُمّته ورائداً لتبليغ رسالته.

سبقه للإسلام:

والشيء الذي اتّفق عليه المؤرّخون والرواة أنَّ الإمام عليه السلام أوّل من آمن بالنبيّ ﷺ واستجاب لدعوته عن وعي وإيمان، وقد قال عليه السلام: **«لَقَدْ عَبَدْتُ اللَّهَ تَعالَىٰ قَبْلَ أَنْ يَعْبُدُ أَحَدُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ»**[١].

وقال عليه السلام: **«كُنْتُ أَسْمَعُ الصَّوْتَ، وَأَبْصِرُ الضَّوْءَ سِنِينَ سَبْعاً، وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَامِتُ مَا أُذِنَ لَهُ فِي الإِنْذَارِ وَالتَّبْلِيغِ»**[٢].

وقد تحدَّث الإمام عليه السلام عن إيمان وإيمان خديجة بالإسلام بقوله: **«وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتُ يَوْمَئِذٍ وَاحِدُ فِي الإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُما»**.

وقال ابن عبّاس: كان عليّ أوّل من آمن من الناس بعد خديجة[٣]، وقال ابن إسحاق: كان عليّ أوّل من آمن بالله وبمحمّد رسول الله ﷺ[٤].

حبّه للنبيّ:

كان الإمام عليه السلام يحبّ النبيّ حبّاً استوعب نفسه، وأخلص له في الودّ كأعظم ما يكون الودّ، وقد سأله شخص عن مدى حبّه له قائلاً: كيف كان حبّكم لرسول الله؟

فأجابه الإمام: **«كَانَ وَاللَّهِ أَحَبَّ إِلَيْنا مِنْ أَمْوالِنا وَأَوْلَادِنا وَأُمَّهَاتِنا وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَىٰ الظَّمأ...»**[٥].

---

(١) صفة الصفوة: ١/ ١٦٢.

(٢) بحار الأنوار: ٣٤/ ٢٥٥.

(٣) نهج البلاغة: ٤/ ١١٦.

(٤) نهج البلاغة: ٤/ ١١٦.

(٥) خزانة الأدب: ٣/ ٢١٣.

قيامه بخدمة النبيّ:

كان الإمام عليه السلام يتولّى رعاية النبيّ صلى الله عليه وآله والقيام بخدماته حتّى أنّه إذا أراد القيام بادر فأخذ بيده، وإذا أراد أن يجلس اتّكأ عليه[١].

تمجيده للنبيّ:

وكان الإمام على يقين لا يخامره شكّ بنبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله ورسالته، وكان يثني عليه عاطر الثناء، وممّا قال فيه عليه السلام:

«مُسْتَقَرُّهُ ـ أي النبيّ ـ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ السَّلَامَةِ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الأَبْرَارِ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الأَبْصَارِ، دَفَنَ اللَّهُ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ، كَلَامُهُ بَيَانٌ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ»[٢].

كتابته للوحي:

وتظافرت الأخبار أنَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يكتب الوحي المنزل على عبد الله ورسوله محمَّد صلى الله عليه وآله[٣].

كتابته لعهود الرسول:

كان الإمام عليه السلام يكتب عهود الرسول وصلحه، فقد كتب لأهل نجران وغيرهم ما سجّله النبيّ صلى الله عليه وآله لهم[٤].

تحطيمه للأصنام:

وظاهرة أُخرى من سيرة الإمام واتّجاهاته كراهته البالغة للأصنام وبغضه الشديد لها، وكان يسعى إلى تدميرها قبل أن يشرق نور الإسلام.

---

(١) أعلام الورى: ص١٨٧.

(٢) نهج البلاغة: ١/١٨٦.

(٣) الاستيعاب (المطبوع على هامش الإصابة): ١/٣٠.

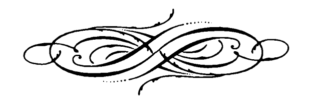
(٤) صبح الأعشىٰ: ١/٦٥.

اجتنابه للخضاب:

ولم يخضب الإمام عليه السلام كريمته الشريفة لقول النبيّ ﷺ له: **«إِنَّهَا تَخَضَّبُ مِنْ دَمِ رَأْسِهِ»**[(١)]، لقد آثر الخضاب بدم رأسه الشريف في سبيل الله تعالى.

دار سكناه:

ولمَّا كان الإمام عليه السلام في مكَّة، كان مقيماً مع أبيه أبي طالب في بيته، ومحلّه معروف في الأوساط المكّية، ولمَّا هاجر الإمام إلى يثرب بنى له النبيّ ﷺ بيتاً مجاوراً للجامع النبوي الشريف وفتح له باباً عليه، ولمَّا أمر النبيّ بإغلاق الأبواب المتّصلة بالجامع استثنى منها باب بيت الإمام تكريماً وتعظيماً له.



(١) وسائل الشيعة: ١/٤٩٩.

عناصره النفسيَّة

لقد كان هذا الإمام الملهم العظيم بمكوّناته النفسية والفكرية دنيا من الكمال والفضائل التي لا حدّ لأبعادها.. إنَّه هبة الله تعالى لهذه الأُمَّة مرشداً وهادياً بعد أخيه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

وهو القائل: **«لَوْ كُشِفَ الْغِطاءُ لِي مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً...»**.

وقد ناجى الله تعالى بإيمان قائلاً:

«إِلٰهِي مَا عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ عِقَابِكَ، وَلَا طَمَعاً فِي ثَوَابِكَ، وَلَكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ»[(١)].

إنابته لله تعالى:

كان الإمام عليه السلام من أعظم المنيبين لله تعالى، ومن أكثرهم خوفاً منه، وقد حدَّث أبو الدرداء عن شدَّة إنابته لله تعالى قال:

شهدت عليّ بن أبي طالب بشويحطات النجّار وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممَّن يليه واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته، وبعُد عليَّ مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجيَّة، وهو يقول:

«إِلٰهِي كَمْ مِنْ مُوبِقَةٍ حَلُمْتَ عَنْ مَقابَلَتِها بِنِقْمَتِكَ، وَكَمْ مِنْ جَرِيرَةٍ تَكَرَّمْتَ عَنْ كَشْفِها بِكَرَمِكَ، إِلٰهِي إِنْ طَالَ فِي عِصْيانِكَ عُمْرِي، وَعَظُمَ فهي الصُّحُفِ ذَنْبِي، فَما أَنَا بِمُؤَمِّلٍ غَيْرَ غُفْرَانِكَ، وَلَا أَنَا بِرَاجٍ غَيْرَ رِضْوَانِكَ...».

وذهل أبو الدرداء، وهام في تيارات من خشية الله، وراح يفتِّش عن صاحب هذا الصوت، ولم يلبث حتى عرفه، وإذا به إمام المتَّقين عليّ بن أبي طالب، فاستتر أبو الدرداء ليسمع بقيَّة مناجاة الإمام، وراح الإمام يصلِّي، فلمَّا فرغ من صلاته توجَّه بقلب منيب إلى الدُّعاء والبكاء من خشية الله تعالى، وكان ممَّا ناجى به الله تعالى قوله:

---

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ١٤.

«إِلٰهِي أُفَكِّرُ فِي عَفوِكَ فَتَهُونُ عَلَيَّ خَطِيئَتِي، ثُمَّ أَذْكُرُ الْعَظِيمَ مِنْ أَخْذِكَ فَتَعْظُمُ عَلَيَّ بَلِيَّتِي...».

ثمَّ قال: «آهِ إِن أَنَا قَرَأْتُ فِي الصُّحُفِ سَيِّئَةً أَنَا نَاسِيها وَأَنْتَ مُحْصِيها، فَتَقُولُ: خُذُوهُ، فَيا لَهُ مِنْ مَأْخُوذٍ لَا تُنْجِيْهِ عَشِيرَتُهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ قَبِيلَتُهُ! يَرْحَمُهُ الْمَلأُ إِذَا أُذِنَ فِيهِ بِالنِّدَاءِ... آهِ مِنْ نَارٍ تُنْضِجُ الأَكْبَادَ وَالْكُلَىٰ، آهِ مِنْ نَارٍ نَزَّاعَةٍ لِلشَّوىٰ! آهِ مِنْ غَمْرَةٍ مِنْ مُلْهبَاتِ لَظَىٰ...».

يقول أبو الدرداء: ثمَّ انفجر الإمام عليه السلام باكياً وخمد صوته، فسارعت إليه فوجدته كالخشبة الملقاة فحرَّكته فلم يتحرَّك، فقلت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، مات والله عليّ بن أبي طالب، فبادرت مسرعاً إلى بيته أنعاه إلى أهله، فقالت زهراء الرسول سلام الله عليها:

«يا أَبا الدَّرْداءِ، مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ؟...».

فأخبرتها بما رأيته، فقالت سيِّدة النِّساء:

«هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله...».

ثمَّ أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق، ونظر إليَّ وأنا أبكي فقال لي: «مِمَّ بُكاؤُكَ يَا أَبا الدَّرْداءِ؟».

- ممَّا أراه تنزله بنفسك.

فأجابه الإمام وهو غارق بالخشية من الله قائلاً:

«يا أَبا الدَّرْداءِ، كَيْفَ لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ دُعِيَ بِي إِلَىٰ الْحِسَابِ، وَأَيْقَنَ أَهْلُ الْجَرائِمِ بِالْعَذَابِ، وَاحْتَوَشَتْنِي مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ، وَزَبَانِيَةٌ فِظَاظٌ، فَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، قَدْ أَسْلَمَنِي الأَحْيَاءُ، وَرَحِمَنِي أَهْلُ الدُّنْيا، لَكُنْتَ أَشَدَّ رَحْمَةً لِي بَيْنَ يَدَيْ مَنْ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَة...».

وبهر أبو الدرداء ممَّا رآه من إنابة الإمام وخشيته من الله تعالى وراح يقول: والله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ[1].

العصمة من الذُّنوب:

وظاهرة أُخرى من نزعات الإمام عليه السلام وذاتياته العصمة من كلّ إثم ورجس، فلم

---

(١) أمالي الصدوق: ص٤٨ ـ ٤٩.

يقترف ـ بإجماع المؤرّخين ـ أي ذنب أو خطيئة، ولم يشذّ عن سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله في هديه وسلوكه.

وعلى أيٍّ حال فقد صدرت منه مجموعة من الكلمات تدلُّ ـ بوضوح ـ على عصمته، كان منها ما يلي:

١ ـ قال عليه السلام: **«وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ جُلْبَ شَعَيرَةٍ أَسْلُبُهَا مِن فَم نَمْلَةٍ مَا فَعَلْتُ»**.

٢ ـ قال عليه السلام: **«وَاللَّهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ حَسِكِ السَّعْدَانِ[١] مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلَالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَىٰ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ»**[٢].

٣ ـ قال عليه السلام: **«وَاللَّهِ لَدُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عِرَاقِ خَنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ»**.

٤ ـ قال عليه السلام: **«وَإِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَىٰ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً»**.

٥ ـ قال عليه السلام: **«مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ، وَلَا ضَلَلْتُ وَلَا ضُلَّ بِي»**.

٥ ـ قال عليه السلام: **«إِنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَىٰ اللَّهِ وَلَا عَلَىٰ رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ»**.

٦ ـ قال عليه السلام: **«فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَىٰ جَادَّةِ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَىٰ مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ»**.

زهده:

من ذاتيات إمام المتّقين، ومن أبرز عناصره الزهد التامّ في الدُّنيا، والرفض الكامل لجميع مباهجها وزينتها، لقد سيطر على نفسه وعوّدها البؤس والحرمان، وحمّلها من أمره رهقاً، فلم يستجب لأي متعة من متع الحياة، ولم ينعم بأي نعمة من نعيمها، فكان أزهد الناس كما يقول عمر بن عبد العزيز[٣].

صور مذهلة من زهده:

وذكر المؤرّخون والرواة صوراً رائعة ومذهلة من زهد الإمام عليه السلام كان منها ما يلي:

---

(١) الحسك: الشوك. السعدان: نبت له شوك ترعاه الإبل.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ٣/ ٨٠.

(٣) تاريخ دمشق: ٣/ ٢٥٢.

١ ـ لباسه:

أ ـ روى عمر بن قيس قال: رئي عليّ وعليه إزار مرقوع فعوتب عليه، فقال: «يَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ»(١).

ب ـ روى أبو حيَّان التميمي عن أبيه، قال: رأيت عليّاً على المنبر يقول: «مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي سَيْفِي هَذَا؟ فَلَوْ كَانَ عِنْدِي ثَمَنُ إِزَارٍ مَا بِعْتُهُ».

فقام إليه رجل فقال له: أنا أُسلفلك ثمن إزار... وعلَّق على ذلك عبد الرزاق فقال: لقد فعل الإمام ذلك وكانت الدُّنيا إذ ذاك بيده إلاَّ الشَّام(٢).

ج ـ روى عليّ بن الأقمر قال: رأيت عليّاً وهو يبيع سيفاً له في السوق ويقول: «مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي هَذَا السَّيْفَ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ لَطَالَما كَشَفْتُ بِهِ الْكُرَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ كَانَ عِنْدِي ثَمَنُ إِزَارٍ مَا بِعْتُهُ»(٣).

د ـ أتى الإمام عليه السلام سوق البزَّازين ليشتري ثوباً له فوقف على تاجر فعرفه، فأراد مسامحته ليتقرَّب إليه، فانصرف عنه ولم يشترِ منه، ووقف على غلام لم يعرفه فاشترى منه ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم، والآخر بدرهمين، فقال لقنبر: «خُذِ الَّذِي بِثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ».

فقال له قنبر: أنت أوْلىٰ به، إنَّك تصعد المنبر وتخطب الناس، فردَّ عليه الإمام وقال له:

«أَنْتَ شَابٌّ، وَلَكَ شَرْخُ الشَّبَابِ، وَأَنَا أَسْتَحِي مِنْ رَبِّي أَنْ أَتَفَضَّلَ عَلَيْكَ»(٤).

هـ ـ خطب الإمام عليه السلام على أهل الكوفة، فقال لهم: «دَخَلْتُ بِلَادَكُمْ بِأَسْمَالِي هَذِهِ وَرَاحِلَتِي هَذِهِ، فَإِذَا خَرَجْتُ مِنْ بِلَادِكُمْ بِغَيْرِ مَا دَخَلْتُ فَإِنِّي مِنَ الْخَائِنِينَ»(٥)!

٢ ـ طعامه:

وامتنع الإمام عليه السلام من تناول ألوان الأطعمة، واقتصر على ما يسدّ الرمق من

---

(١) صفة الصفوة: ١/١٦٨.
(٢) الاستيعاب (المطبوع على هامش الإصابة): ٢/٤٩.
(٣) صفة الصفوة: ١/١٦٨.
(٤) الغارات: ١/١٠٦.
(٥) المناقب: ١/٣٦٧.

الأطعمة البسيطة كالخبز والملح، وربَّما تعدَّاه إلى اللبن أو الخلّ، وكان في أيَّام رسول الله صلى الله عليه وآله يربط الحجر على بطنه من الجوع[١].

وقد تحدَّث الإمام عليه السلام عن زهده وإعراضه عن الدُّنيا بقوله:

«فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِها وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ».

وروى عبد الله بن رزين قال: دخلت على عليّ بن أبي طالب يوم الأضحى فقرَّب إلينا حريرة[٢] فقلت: أصلحك الله، لو قرَّبت إلينا من هذا البطّ ـ يعني الوزّ ـ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أكثر الخير، فقال:

«يابْنَ رَزِينٍ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: لَا يَحِلُّ لِلْخَلِيفَةِ مِنْ مَالِ اللَّهِ إِلَّا قَصْعَتَانِ، قَصْعَةٌ يَأْكُلُهَا هُوَ وَأَهْلُهُ، وَقَصْعَةٌ يَضَعُها بَيْنَ يَدَي النَّاسِ»[٣].

بطولته النادرة:

من مظاهر شخصيَّة الإمام عليه السلام بطولته النادرة التي استوعبت ـ بفخر وشرف ـ جميع لغات الأرض، وصارت مضرب الأمثال وأُنشودة الأبطال في كلّ زمان ومكان، فهو بطل الإسلام دون منازع، لا يعرف المسلمون سيفاً كسيف عليّ في إطاحته لرؤوس المشركين وأعلام الملحدين، وهو الذي أذلّ طغاة القرشيِّين، وسحق كبرياءهم، ودمَّر غلواءهم، ومواقفه المشرّفة في واقعة بدر وأُحد والأحزاب وغيرها تدلِّل ـ بوضوح ـ على أنَّ الإسلام قام بجهوده وجهاده، ولولا مواقفه الحاسمة لما أبقت القوى القرشية الضالَّة أثراً للإسلام.

يقول ابن أبي الحديد: وأمَّا الشجاعة فإنَّه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة تضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة. وهو الشجاع الذي ما فرَّ قطّ، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلاَّ قتله، ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأُولى إلى الثانية.

ومن مظاهر شجاعته أنَّه كان يخرج في أيَّام صفِّين وحده بغير حماية فقيل له: تقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشي في إزار ورداء؟ فقال عليه السلام: **«بِالْمَوْتِ تُخَوِّفُونِي؟ فَوَاللَّهِ**

(١) مسند أحمد: ٢/ ٣٥١، رقم الحديث ١٣٦٧.

(٢) وفي بعض الكتب خزيرة وهو لحم يقطّع صغاراً ويصبّ عليه ماء كثير فإذا نضج ذرّ عليه الدقيق.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٧٨.

مَا أُبَالِي سَقَطْتُ عَلَىٰ الْمَوْتِ أَمْ سَقَطَ عَلَيَّ!»[١] إنَّه كان على بيِّنة من دينه، فقد سخر من الموت وهزأ بالحياة؛ لأنَّه عاش مجاهداً طيلة حياته.

حلمه:

كان الإمام عليه السلام من أحلم الناس، ومن أكثرهم كظماً لغيظه، فلم يثأر من أي أحد اعتدىٰ عليه أو أساءه، وإنَّما كان يقابلهم بالصفح والإحسان كشأن أخيه وابن عمِّه الرسول ﷺ.

بوادر من حلمه:

وهذه لمحات من بوادر حلمه تنمُّ عن نفسه العظيمة التي خلقها الله لتكون مشكاة نور لعباده تهديهم للتي هي أقوم، وهي كما يلي:

١ ـ دعا الإمام عليه السلام غلاماً له فلم يجبه، ثمَّ دعاه مرَّة ثانية وثالثة فلم يجبه، فقام إليه وقال له:

«ما حَمَلَكَ عَلَىٰ تَرْكِ إِجَابَتِي؟».

فردَّ عليه الغلام:

ـ كسلت عن إجابتك، وأمنت عقوبتك..

وامتلأ قلب الإمام سروراً، وقال عليه السلام: **«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي مِمَّنْ يَأْمَنُهُ خَلْقُهُ، امْضِ فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَىٰ»**[٢].

٢ ـ قصده أبو هريرة، وكان معروفاً بانحرافه عنه، ومتجاهراً ببغضه، فسأله حاجة فقضاها له، فعاتبه بعض أصحابه على ذلك فقال عليه السلام:

«إِنِّي لأَسْتَحِي أَنْ يَغْلِبَ جَهْلُهُ حِلْمِي، وَذَنْبُهُ عَفْوِي، وَمَسْأَلَتُهُ جُودِي»[٣].

صبره:

من أبرز صفات الإمام عليه السلام الخلود إلى الصبر، وعدم الجزع على ما ألَمَّ به من محن الدُّنيا، وكوارث الأيَّام، وكان من أشدِّها هولاً، وأعظمها محنة فقده لأخيه وابن عمِّه الذي عاشه في ذرىٰ عطفه سيِّد الكائنات الرسول الأعظم ﷺ.

---

(١) العقد الفريد: ١/ ١٠٢.
(٢) المناقب: ١/ ٣٨٠.
(٣) المناقب: ٦/ ٣٨٠.

ومن المحن الشاقَّة التي عاناها الإمام فقده لسيِّدة نساء العالمين زهراء الرسول صلى الله عليه وآله، فلم تمض أيَّام معدودة حتى فجع بفقدها، وهي في فجر الصبا وروعة الشباب، وقد التاع وحزن على فقدها كأشدّ ما يكون الحزن، وبقي في أرباض بيته صابراً محتسباً يسامر الهموم والأحزان بمعزل تامّ عن الأُمَّة سياسياً واجتماعياً.

تواضعه:

من ذاتيات الإمام عليه السلام ونزعاته التواضع، ولكن لا للأغنياء والمتكبِّرين، وإنَّما للفقراء والمستضعفين، فكان يخفض لهم جناح البرّ والمودَّة، وقد ضارع بذلك أخاه وابن عمّه الرسول صلى الله عليه وآله، فقد كان للمؤمنين أباً وللفقراء أخاً..

ونعرض فيما يلي لبعض ما أُثر عن الإمام عليه السلام.

شذرات من تواضعه:

وهذه شذرات معطَّرة بهدي الإمام عليه السلام من تواضعه:

وفد عليه رجل مع ابنه فرحَّب بهما وأجلسهما في صدر المجلس، ثمَّ أمر لهما بطعام، وبعد الفراغ منه بادر الإمام فأخذ الإبريق ليغسل يد الأب ففزع الرجل، وقال:

كيف يراني الله وأنت تصبُّ الماء على يدي؟

فأجابه الإمام عليه السلام برفق ولطف:

«إِنَّ اللَّهَ يَرَانِي أَخَاكَ الَّذِي لَا يَتَمَيَّزُ مِنْكَ، وَلَا يَتَفَضَّلُ عَنْكَ، وَيَزِيدُنِي بِذَلِكَ مَنْزِلَةً فِي الْجَنَّةِ».

أيّ روح ملائكية هذه الرُّوح؟ وأيّ سموّ في الذات هذا السموّ؟

وانصاع الرجل إلى كلام الإمام عليه السلام، فصبَّ الماء على يده، ولمَّا فرغ ناول الإبريق إلى ولده محمَّد بن الحنفية، وقال له:

«يا بُنَيَّ، لَوْ كَانَ هَذَا الابْنُ حَضَرَنِي دُونَ أَبِيهِ لَصَبَبْتُ الْمَاءَ عَلَىٰ يَدِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَأْبَىٰ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ الابْنِ وَأَبِيهِ».

وقام محمَّد فغسل يد الولد[1]، وهذه الأخلاق العلوية مقتبسة من أخلاق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذي امتاز على سائر النَّبيِّين بمكارم أخلاقه.

(١) المناقب: ١/ ٣٧٣.

عيادته المرضى:

من معالي أخلاق الإمام عليه السلام عيادته للمرضى، وكان يحفِّز أصحابه على ذلك، ويحثّهم على هذه الظاهرة، فقد قال لهم: **«مَنْ أَتَىٰ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ يَعُوْدُهُ مَشَىٰ فِي خُرافَةِ الْجَنَّةِ[1]، فَإِذَا جَلَسَ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ»**[2].

١ ـ عاد شخصاً من أصحابه، ولمَّا استقرَّ به المجلس قال له:

«جَعَلَ اللَّه مَا كَانَ مِنْ شَكْوَاكَ حطّاً لِسَيِّئَاتِكَ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ، وَيَحُتُّهَا حَتَّ الأَوْرَاقِ. وَإِنَّمَا الأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ، وَالْعَمَلِ بِالأَيْدِي وَالأَقْدَامِ»[3].

٢ ـ عاد الإمام عليه السلام صاحبه وصديقه صعصعة بن صوحان، فقال له الإمام:

«وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا خَفِيفَ الْمُؤْونَةِ، حَسَنَهَ الْمَعُونَةِ».

فأجابه صعصعة: وأنت يا أمير المؤمنين، إنَّ الله في عينك لعظيم، وإنَّك بالمؤمنين لرحيم، وإنَّك بكتاب الله لعليم.

ولما أراد الإمام عليه السلام الخروج قال لصعصعة:

«يَا صَعْصَعَةُ، لَا تَجْعَلْ عِيادَتِي فَخْراً عَلَىٰ قَوْمِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ»[4].

كراهته للمدح:

كان الإمام عليه السلام يسأم المدح والإطراء، وكان يقول لمن أطراه: **«أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ»**، وإذا أطرىٰ عليه رجل قال: **«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِيْ مِنْهُ، وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْهُ بِنَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُ»**[5].

سخاؤه:

كان الإمام عليه السلام من أندى الناس كفّاً، ومن أكثرهم برّاً وإحساناً إلى المحتاجين.

---

(١) خرافة الجنَّة: ثمارها.
(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ١٢٧.
(٣) ربيع الأبرار: ٤/ ١٣١.
(٤) المصدر السابق: ص١٣٢.
(٥) أمالي المرتضى: ١/ ٢٧٤.

شذرات من جوده:

روى أصبغ بن نباتة قال عليه السلام: جاء رجل إلى الإمام فقال له: يا أمير المؤمنين، إنَّ لي إليك حاجة قد رفعتها إلى الله تعالى قبل أن أرفعها إليك، فإن قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك.

فقال له الإمام عليه السلام: **«أُكْتُبْ حَاجَتَكَ عَلَىٰ الأَرْضِ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَىٰ ذُلَّ السُّؤَالِ عَلَىٰ وَجْهِكَ»**.

فكتب الرجل إنِّي محتاج، فأمر الإمام بإحضار حلَّة فأُتِيَ بها إليه فأخذها الرجل فلبسها، وقال:

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَىٰ مَحَاسِنُهَا ... فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَلا
إنْ نِلْتَ حُسْنَ ثَنَائِي نِلْتَ مَكْرُمَةً ... وَلَسْتَ تَبْغِي بِمَا قَدْ قُلْتُهُ بَدَلا
إنَّ الثَّنَاءَ لَيُحْيِي ذِكْرَ صَاحِبِهِ ... كَالْغَيْثِ يُحْيِي نِدَاهُ السَّهلَ وَالْجَبَلا
لَا تَزْهِدِ الدَّهْرَ فِي خَيْرٍ تُوَاقِعُهُ ... فَكُلُّ شَخْصٍ سَيُجْزَىٰ بِالَّذِي عَمِلا

وأمر الإمام بمائة دينار، فلمَّا حضرت دفعها له، وبادر الأصبغ قائلاً:

أمير المؤمنين، ومائة دينار؟!

فأجابه الإمام:

«سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، وَهَذِهِ مَنْزِلَةُ الرَّجُلِ عِنْدِي»[1].

الرأفة بالفقراء:

من عناصر الإمام عليه السلام وذاتياته الرأفة الكاملة بالفقراء، فكان لهم أباً، وعليهم عطوفاً، وقد واساهم في مكاره الدهر وجشوبة العيش وخشونة اللباس، وهو القائل أيَّام خلافته:

أَأَبِيْتُ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَىٰ وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ؟ أَوَ أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَىٰ الْقِدِّ

(١) جواهر المطالب: ٢/ ١٢٩.

عدله:

من عناصر الإمام الذاتية إقامة العدل، وإيثاره على كلّ شيء، خصوصاً في أيام خلافته.

بوادر من عدله:

وفد عقيل على الإمام في الكوفة، فرحَّب به الإمام وقال لولده الإمام الحسن عليه السلام: **«أكْسُ عَمَّكَ»**، فكساه قميصاً ورداءً من ملكه، ولمَّا حضر العشاء قدَّم له خبزاً وملحاً، فأنكر عقيل ذلك وقال:

ـ ليس ما أرى؟

لقد أراد عقيل أن تقدَّم له مائدة شهيَّة حافلة بألوان الطعام، فأجابه الإمام بلطف وهدوء:

«أَوَلَيْسَ هَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ؟ فَلَهُ الْحَمْدُ كَثِيراً».

وفقد عقيل إهابه، وضاقت عليه الأرض، فقال للإمام:

ـ إعطني ما أقضي به دَيني، وعجِّل سراحي حتَّى أرحل عنك.

«كَمْ دَيْنُكَ يَا أَبَا يَزِيد؟».

ـ مائة ألف درهم.

«وَاللَّهِ مَا هِيَ عِنْدِي، وَلَا أَمْلِكُها، وَلَكِنْ اصْبِرْ حَتَّى يَخْرُجَ عَطايَ فَأُواسِيكَهُ، وَلَوْلَا أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعِيالِ مِنْ شَيْءٍ لأَعْطَيْتُكَ كُلَّهُ».

وخاطب عقيل الإمام بعنف قائلاً:

ـ بيت المال بيدك، وأنت تسوِّفني إلى عطائك، وكم عطاؤك؟ وما عسى أن يكون؟ ولو أعطيتنيه كلّه.

وضاق الإمام ذرعاً من عقيل، فطرح أمامه حكم الإسلام قائلاً:

«وَمَا أَنَا وَأَنْتَ فِيهِ ـ أي في العطاء من بيت المال ـ **إِلَّا بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»**.

وكان الإمام مطلًا على صناديق التجَّار في السوق، فقال لعقيل:

«إِنْ أَبَيْتَ يَا أَبَا يَزِيدَ مَا أَقُولُ فانْزِلْ إِلَىٰ بَعْضِ هَذِهِ الصَّنَادِيقِ فَاكْسِرْ أَقْفَالَهُ وَخُذْ مَا فِيهِ».

وتوهَّم عقيل أنَّها من أموال الدولة، فقال للإمام:

ـ ما في هذه الصناديق؟

«فِيهَا أَمْوالُ التُّجّارِ».

فأنكر عقيل، وراح يقول بألم ومرارة:

ـ أتأمرني أن أكسر صناديق قوم توكَّلوا على الله وجعلوا فيها أموالهم؟

فردَّ عليه الإمام قائلاً:

«أَتَأْمُرُنِي أَنْ أَفْتَحَ بَيْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ فَأُعْطِيَكَ أَمْوالَهُمْ، وَقَدْ تَوَكَّلُوا عَلَىٰ اللّٰهِ، وَأَقْفَلُوا عَلَيْهَا، وَإِنْ شِئْتَ أَخَذْتَ سَيْفَكَ وَأَخَذْتُ سَيْفِي وَخَرَجْنا جَمِيعاً إِلَىٰ الْحِيرَةِ، فَإِنَّ فِيهَا تُجّاراً مَياسِيْرَ، فَدَخَلْنا عَلَىٰ بَعْضِهِمْ فَأَخَذْنا مَالَهُ».

والتاع عقيل، وراح يقول بألم:

ـ أوَ سارقاً جئتُ؟

فأجابه رائد العدالة الإسلامية قائلاً:

«تَسْرِقُ مِنْ وَاحِدٍ خَيْرٌ مَنْ أَنْ تَسْرِقَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً».

ولم يجد عقيل منفذاً يسلك فيه، فقد سدَّ عليه الإمام جميع النوافذ، وصيَّره أمام العدل الصارم، الذي لا يستجيب لأيّ عاطفة، ولا ينصاع إلاَّ إلى الحقّ، وراح عقيل يقول بحرارة اليأس:

ـ أتأذن لي أن أخرج إلى معاوية؟

«أَذِنْتُ لَكَ».

ـ أعِنّي على سفري.

فأمر الإمام ولده الزكي الإمام الحسن عليه السلام بإعطائه أربعمائة درهم نفقة له، فخرج عقيل وهو يقول:

سَيُغْنِينِي الَّذِي أَغْنَاكَ عَنِّي وَيَقْضِي دَيْنَنا رَبٌّ قَرِيبٌ[1]

سعة علومه:

وأجمع الرواة على اختلاف ميولهم وأهوائهم على أنَّ الإمام عليه السلام أوسع المسلمين علماً، وأكثرهم فقهاً، وأنَّه لا يماثله أحد من الصحابة وغيرهم في قدراته العلمية، فقد

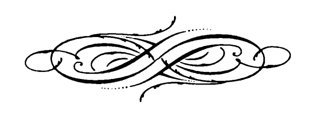
(١) المناقب: ١/٣٧٩، وقريب منه في الصواعق المحرقة: ص٧٩.

غذّاه سيِّد الكائنات ﷺ بملكاته ومواهبه، فهو باب مدينة علمه، وقد تحدَّث الإمام عليه السلام عن سعة علومه فقال:

١ ـ «بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَىٰ مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ[1] فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ[2]!».

٢ ـ وقال عليه السلام: «سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي! بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِئَةً وَتُضِلُّ مِئَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً»[3].

٣ ـ قال عليه السلام: «لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ».



(١) الأرشية: الحبال.

(٢) الطوىٰ البعيدة: الآبار العميقة.

(٣) شرح الأخبار: ١/ ١٣٩.

الإمام عليه السلام في رحاب القرآن الكريم

أشاد القرآن الكريم في كثير من الآيات البيّنات بفضل أمير المؤمنين عليه السلام، وإبرازه كأسمىٰ شخصية إسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وأنّه له الأهميَّة البالغة عند الله تعالى، وقد أعلنت كثير من المصادر أنَّه نزلت في حقِّه ثلاثمائة آية(١)، وهي تشيد بفضله وإيمانه.

أمَّا الآيات النازلة في فضله، وسموِّ شأنه، وعظيم منزلته فهذه بعضها:

١ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(٢).

روى الطبري بسنده عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت هذه الآية وضع النبيّ صلى الله عليه وآله يده على صدره، وقال: **«أَنَا الْمُنْذِرُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»** وأومأ إلى منكب عليّ فقال: **«أَنْتَ الْهَادِي، بِكَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ بَعْدِي»**(٣).

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾(٤).

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية:

«قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَها أُذُنَكَ يَا عَلِيُّ، فَمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله شَيْئاً فَنَسِيتُهُ»(٥).

٣ ـ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٦).

كانت عند الإمام عليه السلام أربعة دراهم، فأنفق في اللَّيل درهماً، وفي النهار درهماً،

---

(١) تاريخ بغداد: ٦/ ٢٢١.
(٢) سورة الرعد: الآية ٧.
(٣) تفسير الطبري: ١٣/ ٧٢.
(٤) سورة الحاقَّة: الآية ١٢.
(٥) كنز العمَّال: ٦/ ١٠٨.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٧٤.

وفي السرِّ درهماً، وفي العلانية درهماً، فقال له رسول الله ﷺ: **«مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَذَا؟ فَقَالَ: أَسْتَوْجِبُ عَلَىٰ اللَّهِ مَا وَعَدَنِي»** فنزلت فيه هذه الآية[1].

٤ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[2].

روى ابن عساكر بسنده عن جابر بن عبد الله قال: كنَّا عند النبيِّ ﷺ فأقبل عليّ عليه السلام فقال النبيّ ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ هَذا وَشِيْعَتَهُ هُمُ الْفَائِزُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**. ونزلت فيه الآية الكريمة، فكان أصحاب النبيّ إذا أقبل عليٌّ قالوا: جاء خير البريَّة[3].

٥ ـ قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4].

روى الطبري بسنده عن جابر الجعفي قال: لمَّا نزلت هذه الآية قال عليّ عليه السلام: **«نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ»**[5].

٦ ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[6].

قال السيوطي: أخرج ابن مردويه عن ابن عبَّاس أنَّ قول الله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ومثل ذلك روي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام[7].

٧ ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[8].

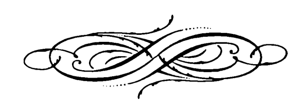
نزلت هذه الآية على الرسول ﷺ في غدير خم لمَّا قفل راجعاً من حجَّة الوداع، وقد أمر فيها بنصب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة من بعده، فقام النبيّ ﷺ فنصب الإمام خليفة وقائداً لأُمَّته من بعده، وقال مقالته المشهورة: **«مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذِلْ مَنْ خَذَلَهُ»**، فقام عمر وقال له: هنيئاً لك يابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة[9].

---

(١) أسد الغابة: ٤/ ٢٥.
(٢) سورة البيِّنة: الآية ٧.
(٣) الدرّ المنثور (في تفسير هذه الآية): ٨/ ٥٨٩.
(٤) سورة النحل: الآية ٤٣.
(٥) تفسير الطبري: ٨/ ١٤٥.
(٦) سورة التوبة: الآية ١١٩.
(٧) الدرّ المنثور: ٤/ ٣١٦.
(٨) سورة المائدة: الآية ٦٧.
(٩) أسباب النزول: ص١٥٠.

٨ ـ قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[(١)].

نزلت الآية الكريمة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجَّة بعد ما نصب النبيّ صلى الله عليه وآله الإمام عليه السلام خليفة من بعده[(٢)]، وقال عليه السلام بعد نزول الآية عليه: «**اللَّهُ أَكْبَرُ عَلَىٰ إِكْمَالِ الدِّينِ، وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ، وَرِضَىٰ الرَّبِّ بِرِسَالَتِي، وَالْوِلَايَةِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ**»[(٣)].



(١) سورة المائدة: الآية ٣.
(٢) تاريخ بغداد: ٨/١٩. الدرّ المنثور: ٦/١٩.
(٣) دلائل الصدق: ٢/١٥٢.

مع الثورة الإسلاميَّة

الإمام أوَّل من صلَّى مع النبيّ:

والشيء المحقّق عند الرواة والمحقِّقين هو أنَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو أوَّل من آمن وصلَّىٰ مع النبيّ ﷺ في البيت الحرام[1].

الإمام مع النبيّ في بداية دعوته:

وواكب الإمام عليه السلام الرسول ﷺ في بداية دعوته، وكان في فجر الصبا وروعة الشباب، وقد آمن بوعي وفكر برسالة الإسلام، وانطبعت في دخائل نفسه، وأعماق ذاته، وحينما أمر الرسول ﷺ بتليغ رسالة ربّه إلى عشيرته بهذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[2] دعا الإمام وأخبره بما أُمر به من تبليغ الدعوة المباركة إلى عشيرته الأقربين، وأحاطه علماً أنَّهم لا يستجيبون له، ولا يؤمنون برسالته، ولكنَّه مأمور بذلك لإقامة الحجَّة عليهم، فأعدَّ لهم وليمة وشراباً من لبن، وسارع الإمام إلى دعوتهم فاستجابوا له، وكان فيهم من أعمامه مؤمن قريش أبو طالب وحمزة والعبَّاس وأبو لهب، ولمَّا حضروا قدَّم لهم الإمام الطعام، فتناول النبيّ ﷺ قطعة من اللحم فشقَّها بأسنانه، وألقاها في نواحي الصفحة، وقال لهم: «خذوا بسم الله»، فأكلوا جميعاً، والطعام باقٍ على حاله، وكان الرجل يأكل مقدار ما في الصفحة إلاَّ أنَّها ببركة النبيّ ﷺ لم ينقص منها شيء، وبادر الإمام فسقاهم اللبن حتى ارتووا.

وقام النبيّ ﷺ فدعاهم إلى اعتناق الإسلام ونبذ الأصنام، فقطع الأثيم أبو لهب كلامه، وخاطب المجتمعين قائلاً: لقد سحركم.

فتفرَّقوا بين مستهزء وساخر، ولم يحدِّثهم النبيّ ﷺ شيئاً، فقد قطع أبو لهب عليه

---

(١) صحيح الترمذي: ٢/ ٣٠٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

كلامه، وفي اليوم الثاني دعاهم النبيّ صلى الله عليه وآله إلى تناول الطعام فأكلوا وشربوا وانبرى النبيّ خطيباً فقال:

«يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ شَابّاً فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلِ مِمَّا قَدْ جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ؟».

فأحجم القوم كلّهم ولم ينبس أحد منهم ببنت شفة كأنَّ على رؤوسهم الطير، ولم يجبه أحد منهم، فانبرى إليه الإمام أمير المؤمنين فقال له بحماس:

«أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكُونُ وَزِيْرَكَ عَلَيْهِ».

فأخذ النبي صلى الله عليه وآله برقبته، وخاطب القوم قائلاً: **«إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيْكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»**.

وتعالت أصوات أُولئك الأقزام بالسخرية والاستهزاء قائلين لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[1].

مبيت الإمام على فراش النبيّ:

وأوعز النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أخيه وابن عمِّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يبيت في فراشه، ويتَّشح ببردته الخضراء[2]؛ ليوهم على أُولئك الأقزام أنَّه النبيّ صلى الله عليه وآله حتَّى يسلم من شرّهم، وتلقَّى الإمام عليه السلام أمر النبيّ بمزيد من السرور والابتهاج وشعر بالسعادة التي لم يحلم بها من قبل ليكون فداءً لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وخرج النبيّ من الدار، ورماهم بحفنة من التراب أتت على وجوههم الكريهة قائلاً: «شاهت الوجوه ذلّاً».

وأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله يتلو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3].

إنَّ مبيت الإمام عليه السلام على فراش النبيّ صلى الله عليه وآله ووقايته له بنفسه صفحة مشرقة من جهاده، ومنقبة لا تُعدُّ لها أيَّة منقبة، وقد أنزل الله تعالى آية من كتابه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[4]، ويقول الرواة: إنَّ الله تعالى باهى

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٦٣.

(٢) أمتاع الأسماع/المقريزي: ١/ ٣٩.

(٣) سورة يٰس: الآية ٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

ملائكته بالإمام، فقد أوحىٰ إلى جبرئيل وميكائيل أنّي آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة على صاحبه، فأوحىٰ الله عزَّ وجلَّ إليهما: أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب آخيت بينه وبين محمَّد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوِّه، فنزلا فكان جبرئيل عند رأس عليّ، وميكائيل عند رجليه، وجبرئيل يقول للإمام: «بخٍّ بخٍّ، من مثلك يابن أبي طالب، يُباهِي الله عزَّ وجلَّ به الملائكة»، فأنزل الله على رسوله وهو متوجّه إلى المدينة في شأن علي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1].

إنَّ مبيت الإمام في فراش النبيّ ﷺ يوحي أنَّه الشخصية الثانية في رسالة الإسلام الذي يخلف النبيّ ويمثِّل شخصيَّته ويقوم مقامه، ولهذه الكرامة دور مهم في دعوة الإسلام لم ينلها أحد من أُسرة النبيّ ﷺ وأصحابه.

هجرة الإمام إلى يثرب:

ولمَّا نزح الرسول ﷺ من مكَّة إلى يثرب قام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأداء الأمانات التي عند النبيّ، وردّ الودائع، وقضاء ديونه ﷺ، وأمر منادياً يُنادي بالأبطح مَن كانت له عند رسول الله ﷺ أمانة فليأت ويستلم أمانته، وبعد ما أدَّىٰ ذلك حمل السيِّدات الزاكيات من الفواطم وهاجر بهنَّ إلى يثرب، فلحقه سبعة من عتاة قريش لصدِّه عن السفر، فانبرى إليهم الإمام ببسالة وعزم، فقتل واحداً منهم، وهرب الباقون[2].

وسار الإمام يطوي البيداء لا يلوي على شيء حتَّى انتهى إلى يثرب، وقيل إلى قبا قبل أن يدخل النبيّ إلى المدينة[3].

ولمَّا بلغ النبيّ قدوم عليّ أمر بإحضاره فقيل له إنَّه لا يقدر على المشي، فأتاه النبيّ فلمَّا رآه اعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم من كثرة المشي فأخذ النبيّ من ريقه ومسح به رجليه فبرئتا، ولم يَشْكُ بعد ذلك منهما شيئاً[4].

---

(١) أسد الغابة: ٤/ ٢٥.
(٢) أعيان الشيعة: ٣/ ٩٢.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٢.
(٤) أسد الغابة: ٤/ ٩٢.

مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في جهاده وغزواته

وقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانب النبيّ صلى الله عليه وآله يحميه ويدبّ عنه في جميع الحروب التي شنَّتها عليه قريش، وقد أسند إليه قيادة جيشه، وجعله رافعاً للوائه، وقد لازمه الإمام في غزواته التي كان الغرض منها رفع كلمة الله وتحرير إرادة الإنسان وفكره من عبادة الأوثان والأصنام التي هي من الأوبئة على الفكر، ومن الأمراض الخطرة التي تلحق الإنسان بقافلة الحيوان السائم، وتصدَّه عن الطريق القويم.

وعلى أيٍّ حال فإنَّا نعرض للحروب وبعض الغزوات التي خاضها الإمام مع النبيّ صلى الله عليه وآله دفاعاً عن كلمة الإسلام ورافعاً لراية التوحيد، وفيما يلي ذلك:

واقعة بدر

سجَّلت واقعة بدر نصراً مبيناً للإسلام، وفتحاً عظيماً للمسلمين، وضربة حاسمة لأئمَّة الكفر والضلال من الطغاة القرشيِّين وجبابرتهم، لقد أعزَّ الله عبده ورسوله محمَّد صلى الله عليه وآله بواقعة بدر، وأذلَّ أعداءه، وأظهر دينه، ودفع كلمته، وكان البطل البارز في تلك المعركة هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان سيفه منجل الموت الذي حصد رؤوس المشركين، وعتاة الملحدين من القرشيِّين..

سقاية الإمام للجيش:

وأصاب الجيش الإسلامي ظمأ في بدر فانبرى الإمام عليه السلام إلى القليب وجاء بالماء حتى أروى المسلمين[1].

بسالة الإمام:

وأبدى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من البسالة والصمود ما لا يوصف، فكان القوَّة الضاربة في جيش الرسول صلى الله عليه وآله، فقد غاص في أوساط القرشيِّين يحصد رؤوسهم ويشيع

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٤٠٦.

فيهم القتل والدمار، وقد بهرت ملائكة السَّماء من بسالته، ونادى جبرئيل: **«لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفِقَارِ**[١]**، وَلَا فَتىٰ إِلَّا عَلِيٌّ»**[٢].

أسماء من قتلهم الإمام:

١ ـ الوليد بن عتبة، كان جريئاً فتَّاكاً تهابه الرجال، وهو أخو هند أُمّ معاوية وزوجة أبي سفيان.

٢ ـ حنظلة بن أبي سفيان.

٣ ـ العاص بن سعيد، وكان هولاً تهابه الأبطال.

٤ ـ نوفل بن خويلد، وكان من أشدّ المشركين عداوة لرسول الله ﷺ، وكانت قريش تقدِّمه وتعظِّمه وتطيعه، وهو من بني نوفل بن عبد مناف.

٥ ـ زمعة بن الأسود.

٦ ـ النضر بن الحارث بن كلدة من بني عبد الدار.

٧ ـ طعيمة بن عدي بن نوفل، كان من رؤوس أهل الضلال.

٨ ـ عمير بن عثمان بن كعب بن تيم عمّ طلحة بن عبيد الله.

٩ ـ عثمان بن عبيد الله.

١٠ ـ مالك بن عبيد الله أخو عثمان.

١١ ـ مسعود بن أُميَّة بن المغيرة من بني مخزوم.

١٢ ـ حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة.

١٣ ـ قيس بن الفاكه بن المغيرة.

١٤ ـ أبو قيس بن الوليد بن المغيرة.

١٥ ـ عمر بن مخزوم.

١٦ ـ الحارث بن زمعة.

١٧ ـ أبو المنذر بن أبي رفاعة.

١٨ ـ منبه بن الحجَّاج السهمي.

١٩ ـ العاص بن منبه من بني سهم.

---

(١) سمِّي هذا السيف بذي الفقار لأنَّه كانت له فقرات كفقرات الظهر.

(٢) كنز العمَّال: ٣/ ١٥٤.

١٠ ـ علقمة بن كلدة.

٢١ ـ أبو العاص بن قيس بن عدي.

٢٢ ـ معاوية بن المغيرة بن أبي العاص.

٢٣ ـ لوذان بن ربيعة.

٢٤ ـ عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة.

٢٥ ـ حاجب بن السائب بن عويم.

٢٦ ـ أوس بن المغيرة بن لوذان.

٢٧ ـ زيد بن مليص.

٢٨ ـ غانم بن أبي عويف.

٢٩ ـ سعيد بن وهب حليف بني عامر.

٣٠ ـ معاوية بن عامر بن عبد القيس.

٣١ ـ السائب بن مالك.

٣٢ ـ عبد الله بن جميل بن زهير الحارث بن أسد.

٣٣ ـ أبو الحكم بن الأخنس.

٣٤ ـ هشام بن أبي أُميَّة بن المغيرة[1].

هؤلاء الذين حصد رؤوسهم الإمام عليه السلام بسيفه في سبيل الإسلام.

لقد انتهت معركة بدر وكان البطل البارز فيها أسد الله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان سيفه منجل الموت الذي أرهفه على رقاب القرشيِّين الذين ما آمنوا بالله طرفة عين حتَّى بعد إعلانهم المزيَّف للإسلام.

واقعة أُحُد

الحرب:

وكانت جيوش المشركين ثلاثة آلاف، وجيوش المسلمين سبعمائة مقاتل، ويتقدَّم جيوش المشركين طلحة بن أبي طلحة وبيده اللواء، وقد رفع عقيرته قائلاً: يا أصحاب

(١) أعيان الشيعة: ٣/٩٨ ـ ٩٩.

محمَّد، تزعمون أنَّ الله يعجِّلنا بأسيافكم إلى النار، ويعجِّلكم بأسيافنا إلى الجنَّة، فأيّكم يبرز لي؟ فبرز إليه بطل الإسلام وأسد الله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً:

«وَاللَّهِ! لَا أُفارِقُكَ حَتَّىٰ أُعَجِّلَكَ بِسَيْفِي إِلَىٰ النَّارِ».

وبادره الإمام بضربة فبرى بها رجله، فسقط إلى الأرض، يتخبَّط بدمه، وأراد الإمام أن يجهز عليه، فناشده الله والرحم أن يتركه، فتركه، ولم يلبث إلاَّ ساعة حتى هلك، وفرح النبيّ ﷺ بهلاكه، كما عمَّت الفرحة جميع المسلمين[١].

هزيمة المسلمين:

من المؤسف حقّاً أنَّ المسلمين منوا بهزيمة ساحقة وخسائر فادحة كادت تلفُّ لواء الإسلام، وذلك من جرَّاء مخالفة فرقة في الجيش الإسلامي للمخطَّطات الحربية التي وضعها الرسول ﷺ وألزمهم بتفيذها.

حماية الإمام للنبيّ:

وتوالت الهزائم المنكرة في جيش المسلمين، وفرَّ معظمهم يطاردهم الفزع والخوف، وزاد في رعبهم نداء أبي سفيان أنَّ محمَّداً قد قُتل.. وتركوا النبيّ وقد أحاط به أعداء الله، وقد أُصيب بجروح بالغة وقد وقع في حفرة عملها أبو عامر وأخفاها ليسقط فيها المسلمون من حيث لا يعلمون، وكان الإمام إلى جانبه فأخذ بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً[٢]، ولم يبق مع النبيّ ﷺ إلاَّ نفر قليل في طليعتهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فالتفت إليه النبيّ ﷺ فقال له:

«يا عَلِيُّ، مَا فَعَلَ النَّاسُ؟».

فأجابه بأسىٰ ومرارة:

«نَقَضُوا الْعَهْدَ وَوَلَّوا الدُّبُرَ...».

وحملت على النبيّ ﷺ عصابة مجرمة من القرشيِّين، فضاق منهم ذرعاً فقال لعلي: **«أَكْفِنِي هَؤُلَاءِ»**، فحمل عليهم الإمام فكشفهم عنه، وحملت عليه كتيبة أُخرى تقارب خمسين فارساً، فقال لعليّ: **«أَكْفِنِي هَؤُلَاءِ»** فحمل عليهم الإمام وكان راجلاً فقتل أربعة

---

(١) نور الأبصار: ص٧٨.
(٢) أعيان الشيعة: ٣/ ١١١.

من أبناء سفيان بن عويف، وستّة من تلك الكتيبة، وقد ذادها عن النبيّ ﷺ بعد جهد شاق.

وحملت على النبيّ ﷺ كتيبة فيها هشام بن أُميَّة، فقتله الإمام، ففرت كتيبته، وحملت على النبيّ ﷺ كتيبة فيها بشر بن مالك، فقتله الإمام، وولَّت كتيبته منهزمة.... وبهر جبرائيل من مواساة الإمام وجهاده وصبره فقال للنبيّ: **«إِنَّ هَذِهِ الْمُوَاسَاةَ قَدْ عَجِبَتْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ»**، فقال له النبيّ: **«وَمَا يَمْنَعُهُ وَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ»**؟ فقال جبرائيل: **«وَأَنَا مِنْكُمَا»**[١].

وظلَّ الإمام صامداً في تلك المعركة الرهيبة مدافعاً عن رسول الله ﷺ وفادياً له بنفسه، وقد أُصيب بست عشرة ضربة كل ضربة تلزمه الأرض، وما كان يرفعه إلاَّ جبرائيل[٢].

لقد كانت معركة أُحد المعركة الوحيدة التي هُزم فيها المسلمون، وقد أخبر النبيّ ﷺ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد انتهاء المعركة أنَّه لا يصيب المشركون من المسلمون مثل هذه المعركة حتى يفتح الله تعالى على المسلمين[٣].

واقعة الخندق

وهي واقعة الأحزاب، وقد كتب الله تعالى النصر للإسلام على يد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فهو الذي أحرز الفتح المبين.

مبارزة الإمام لعمرو:

وضاقت القبائل القرشية ذرعاً من هذه المناوشات التي لم يحرزوا فيها نصراً، والتمسوا منهم مكاناً ضيِّقاً، فأقحموا خيولهم فيه وعبروا الخندق، كان منهم عمرو بن عبد ودّ فارس قريش في الجاهلية وفارس كنانة، وهو مدجَّج بالسلاح كأنَّه القلعة فوق جواده، واهتزَّت الأرض من تيهه وزهوه وقوَّة بدنه، وساد الوجوم بين المسلمين وعمَّ فيهم الرعب وتهيُّبوه، وجعل يصول ويجول أمامهم محتقراً لهم وقد رفع صوته قائلاً:

يا رجال محمَّد، هل من مبارز؟

(١) أعيان الشيعة: ٣/ ١١١.
(٢) أسد الغابة: ٤/ ٢٠.
(٣) البداية والنهاية: ٤/ ٤٧.

وخلعت قلوب المسلمين، فكان كالصاعقة عليهم.

وهتف ثانياً:

ألا رجل يبارز؟

ولبّى نداءه حامي الإسلام وبطل المسلمين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: **«أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ...»!**

وكان الرسول ﷺ ضنيناً على ابن عمّه، فقال للإمام:

«إِنَّهُ عَمْرُو».

وجلس الإمام عليه السلام ممتثلاً لأمر النبيّ ﷺ، وعاد عمرو ساخراً من المسلمين قائلاً لهم:

يا أصحاب محمَّد، أين جنَّتكم التي زعمتم أنَّك داخلوها إذا قُتِلْتم؟ ألا يريدها رجل منكم؟

ولم يستجب أحد من المسلمين لنداء عمرو سوى الإمام، فأخذ يلحُّ على النبي أن يأذن له، فأذِن له النبيّ بعد إصراره وإلحاحه.

وقلَّده الرسول وساماً من أعظم الأوسمة التي تقلَّدها الإمام حين قال ﷺ: **«بَرَزَ الإِيمَانُ كُلُّهُ إِلَىٰ الشِّرْكِ كُلِّهِ»**.

يا لها من كلمة خالدة، فقد حدَّدت الإمام بالإيمان بجميع رحابه ومفاهيمه، فهو الذي يحكيه. ورفع النبيّ ﷺ يديه بالدُّعاء مبتهلاً إلى الله تعالى قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخَذْتَ مِنِّي حَمْزَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَعُبَيْدَةَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَاحْفَظِ الْيَوْمَ عَلِيّاً، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ...».

وبرز الإمام مزهواً لم يخالجه رعب ولا خوف من عمرو بن عبد ودّ، وعجب عمرو من جرأة هذا الفتى وإقدامه على مناجزته، فقال له:

من أنت؟

فأجابه الإمام ساخراً منه:

«أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ».

فأشفق عليه عمرو وقال له:

قد كان أبوك صديقاً لي.

ولم يحفل الإمام بصداقة عمرو لأبيه وراح يقول له:

«يَا عَمْرُو، إِنَّكَ عَاهَدْتَ قَوْمَكَ أَلَّا يَدْعُوكَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَىٰ خِلَالٍ ثَلَاثٍ إِلَّا أَجَبْتَهُ؟...».

نعم، هذا عهدي.

«إِنِّي أَدْعُوكَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ...».

وضحك عمرو وقال للإمام بسخرية:

أأترك دين آبائي، دع هذا عنك..

«أَكُفُّ يَدِي عَنْكَ فَلَا أَقْتُلُكَ وَتَرجِعُ؟».

وغضب عمرو وعجب من جرأة هذا الفتى عليه وقال له:

إذن تتحدَّث العرب عن فراري..

وعرض الإمام عليه الأمر الثالث فقال له:

«إِنِّي أَدْعُوكَ إِلَىٰ النِّزَالِ؟»(١).

وعجب عمرو من جرأة الفتى وبسالته، فنزل عن فرسه واستلَّ سيفه وضرب رأس الإمام، فاستقبلها بدرقته فقدَّها ونفذ السيف إلى رأس الإمام فشجَّه، وأيقن المسلمون أنَّ الإمام قد لاقى مصيره، ولكنَّ الله تعالى نصره وحماه، فقد ضرب عمرواً ضربة هدَّته وسقط إلى الأرض يخور بدمه كما يخور الثور عند ذبحه.. وكبَّر الإمام، وكبَّر المسلمون، فقد انقصم ظهر الشِّرك وتفلَّلت قواه، وأحرز الإسلام النصر الحاسم على يد إمام المتَّقين وبطل الإيمان، وراح النبيّ صلى الله عليه وآله يقلِّده وساماً مشرقاً باقياً على امتداد التاريخ قائلاً: **«لَمُبارَزَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِعَمْرو بْنِ عَبْدِ وَدٍّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ أَعْمَالِ أُمَّتِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**(٢).

وقال الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان: لو قسّمت فضيلة عليّ بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لوسعتهم(٣).

---

(١) مستدرك الحاكم: ٣/ ٣٢.

(٢) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٩. مستدرك الحاكم: ٣/ ٣٢.

(٣) رسائل الجاحظ: ص٦٠.

فتح خيبر

وبعدما عجز الجيش من اقتحام الحصن أعلن النبيّ ﷺ أنّه سيعيِّن القائد الذي يفتح الله على يده قائلاً:

«لأدْفَعَنَّ الرَّايَةَ غداً إلَىٰ رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهَ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَا يَرْجِعُ حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُ»[1].

واستشرف الجيش بفارغ الصبر ينتظرون القائد الملهم الذي يفتح الله على يده، ولم يظنُّوا أنّه الإمام؛ لأنّه كان مصاباً برمد، ولمّا اندلع نور الصباح دعاه النبيّ ﷺ وكان معصباً على عينيه فأزاح العصابة عنه وسقا عينيه بريقه فبرئتا بالوقت، وقال له: **«خُذْ هَذِهِ الرَّايَةَ حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ...»**.

واستلم الإمام عليه السلام الراية من النبيّ ﷺ وقال له:

«يَا رَسُولَ اللَّهَ، أُقَاتِلُهُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا مِثْلَنا؟»، فقال له النبيّ: **«انْفُذْ عَلَىٰ رَسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلَىٰ الإِسْلَام، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ! لأنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلَا وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»**[2].

مبارزة الإمام لمرحب:

وبرز مرحب ـ وهو من أبطال اليهود وشجعانهم ـ صوب الإمام وعليه مغفر يماني وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وهو يرتجز:

قد علمت خيبرٌ أنّي مرحبٌ   شاكي السلاحِ بطلٌ مجرَّبُ
إذا الليوث أقبلت تلتهبُ

واستقبله حامي الإسلام وعليه جبّة حمراء فأجابه:

«أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِ أُمِّي حَيْدَرَهْ   ضِرْغَامُ آجَام وَلَيْثُ قَسْوَرَهْ[3]
عَبْلُ الذِّرَاعَيْنِ شَدِيدُ الْقَسْوَرَهْ   كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ[4]
أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رِقَابَ الْكَفَرَةِ   أَكِيلُهُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ»[5]

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٦٢.
(٢) صفوة الصفوة: ١/ ١٦٤.
(٣) الآجام: جمع أجمة، وهي الشجر الكثير الملتفّ أو القصب يكونان مأوى للأسود.
(٤) العبل: الضخم.
(٥) السندرة: اختلف في معناها، فقال ابن الأعرابي: هي المكيال، والمعنى: أنّي أقتلكم قتلاً واسعاً كثيراً.

ولم يختلف الرواة في أنَّ هذا الشعر للإمام[١]، وقد حكى هذا الشعر قوّة بأس الإمام عليه السلام وشجاعته، وتقدَّم إليه الإمام فبادره بضربة قدَّت البيضة والمغفر ورأسه، وسقط إلى الأرض صريعاً يتخبَّط بدمه، فأجهز عليه وتركه جثّة هامدة، وبذلك فقد كتب الله النصر للإسلام، وفتحت حصون خيبر، وأذلَّ اليهود ولقَّنهم درساً قاسياً يذكرونه بأسىٰ ولوعة على امتداد التاريخ.

وسُرَّ النبيّ صلى الله عليه وآله سروراً بالغاً بهذا النصر المبين الذي أعزَّ الله به المسلمين وقهر أعداءهم اليهود، وصادف في ذلك اليوم رجوع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فقال صلى الله عليه وآله: **«مَا أَدْرِي بِأَيِّهِما أَنَا أَسَرُّ أَبِقُدُومِ جَعْفَرٍ أَمْ بِفَتْحِ خَيْبَرَ»**[٢]؟

فتح مكّة

وكتب الله تعالى النصر المبين لعبده ورسوله محمَّد صلى الله عليه وآله، فقد أذلَّ القوى المعادية من القرشيِّين واليهود، وامتدَّت دولته على كثير من مناطق الجزيرة العربية، فقد سادت فيها كلمة الإسلام ورفعت عليها راية التوحيد.

وقد رأى النبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه لا يتحقَّق له النصر الحاسم والفتح المبين إلاَّ بفتح مكّة التي هي قلعة الشِّرك والإلحاد والتي حاربته حينما كان فيها وحينما نزح عنها.

تطهير البيت من الأصنام:

ولمَّا دخل النبيّ صلى الله عليه وآله البيت الحرام كان أوَّل عمل قام به تحطيمه وإزالته للأصنام والأوثان التي اتّخذها القرشيّون آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، والتي تنمُّ عن جهلهم وانحطاطهم الفكري، وقد كانت الأصنام المعلَّقة على الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً، ولكلّ حيّ من العرب صنم خاصّ بهم.

وكان على جهة باب البيت المعظَّم الصنم الأعلى لقريش وهو هبل، فجعل النبيّ صلى الله عليه وآله يطعن بقوسه في عينه، وهو يقول: **«جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً»** ثمَّ أمر بتحطيمه وتطهير البيت منه، وقد شقَّ ذلك على أبي سفيان وغيره من عتاة القرشيِّين، ثمَّ اعتلى النبيّ صلى الله عليه وآله على منكب الإمام صلى الله عليه وآله لتكسير الأصنام، فعجز الإمام عن النهوض به، فقال له الرسول: **«إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ حَمْلَ ثِقْلِ النُّبُوَّةِ، فَاصْعَدْ أَنْتَ»**، فاعتلى

---

(١) خزانة الأدب: ٦/ ٦٥.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ٤/ ١٢٨.

الإمام على كاهل رسول الله ﷺ وقال الإمام: «**لَوْ شِئْتُ لَنِلْتُ أُفُقَ السَّمَاءِ**»، وأقبل على الأصنام فجعل يقلعها ويرمي بها إلى الأرض، ولم يبق إلاَّ صنم خزاعة وكان موتداً بأوتاد من حديد، فقال له الرسول: «**عَالِجْهُ**»، فعالجه الإمام وهو يقول: «**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**»، فعالجه حتى تمكَّن منه فقذفه حتى تكسَّر[١].

غزوة حنين

تحرَّك جيش النبيّ ﷺ من مكَّة وقد وزَّع الرايات على قادة جيشه، وأعطى لواء المهاجرين إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وسارعت جيوش المسلمين تطوي البيداء لا تلوي على شيء، فانتهت إلى وادي حنين[٢].

فرار المسلمين:

وكانت هوازن قد أعدَّت خطَّة رهيبة ومحكمة للإيقاع بالمسلمين، فقد احتلَّت وادي حنين وكمنت في شِعابه ومضايقه، فلمَّا اجتازت عليهم جيوش المسلمين، ولم يكونوا على علم بما دبّر لهم، وثبت عليهم هوازن من كلّ زاوية في الوادي، فجفل المسلمون وانهزموا هزيمة منكرة لا يلوي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، وجعل يدعو المسلمين إلى الثبات والصبر على الجهاد وعدم الفرار قائلاً:

«**أَيُّهَا النَّاسُ، إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ**»[٣].

بسالة الإمام:

وأبدى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من البسالة ما لا يوصف، فقد أخذ يجول في الميدان يجندل الأبطال، ويُنزل بهم أفدح الخسائر، وقد أجمع الرواة أنَّه كان من أصلب المدافعين عن النبيّ ﷺ[٤]، وناول الإمام عليه السلام النبيّ ﷺ قبضة من التراب، فرمى بها وجوه المشركين من هوازن وغيرهم[٥]، والتحم الإمام مع المشركين التحاماً شديداً، وقد

---

(١) إنسان العين: ٣/ ٩٩ ـ ١٠٠.
(٢) وادي حنين: موضع قريب من مكَّة.
(٣) الكامل في التاريخ: ٢/ ١٧٨.
(٤) مجمع الزوائد: ٦/ ١٨٠.
(٥) تاريخ بغداد: ٤/ ٣٣٤.

التحق به مائة رجل من فرسان المسلمين فقاتلوا قتالاً أهونه الشديد، ولمّا رأى النبيّ صلى الله عليه وآله قال:

«أَنَـــا الـــنَّـــبِـــيُّ لَا كَـــذِبْ أَنَـــا ابْـــنُ عَـــبْـــدِ الْـــمُـــطَّـــلِـــبْ»

الآن حمى الوطيس، واشتدَّ الحرب، فسقطت الرؤوس والأيدي.

الإمام وسورة البراءة:

وعهد النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر يمثّله في أهالي مكَّة ليقرأ عليهم بنوداً من سورة البراءة، وما قنّنه الإسلام من أحكام لمن طاف في بيت الله الحرام، وهذه بعضها:

أوّلاً: لا يطوف في البيت عريان، وكانت العادة المتَّبعة أن يطوف الرجل عريان.

ثانياً: لا يدخل الجنَّة إلاَّ من آمن بالله ورسوله.

ثالثاً: من كان بينه وبين رسول الله مدَّة فأجله إلى مدّته.

رابعاً: إنَّ الله ورسوله بريئان من المشركين(١).

وسار أبو بكر حاملاً رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله، فهبط الوحي على النبيّ صلى الله عليه وآله يأمره بإسناد هذه المهمَّة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وإقصاء أبي بكر، وبادر الإمام مسرعاً فأدرك أبا بكر في الطريق فأخذ الرسالة منه(٢)، وقرأها على أهالي مكَّة، وقفل أبو بكر راجعاً وملء إهابه ألم ممضّ، فلمَّا رأى النبيّ بكى وقال: يا رسول الله، حدث فيَّ شيء؟

فهدَّأ النبي روعه وقال له:

«مَا حَدَثَ فِيْكَ إِلَّا خَيْر، وَلَكِنْ أُمِرْتُ أَنْ لَا يُبَلِّغُهَا إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنِّي...»(٣).

غزوة تبوك

وواكب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع حروبه وغزواته إلاَّ في غزوة تبوك، فقد أبقاه ممثّلاً عنه في يثرب، وأرجف المنافقون وأشاعوا أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله إنَّما أبقاه في المدينة لكراهته له، وبلغ ذلك الإمام عليه السلام فأخبر النبيّ صلى الله عليه وآله بمقالتهم، فردَّ عليهم مزاعمهم وقلَّد الإمام عليه السلام أسمىٰ الأوسمة قائلاً:

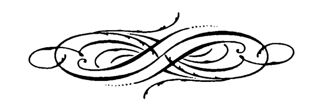
---

(١) التنبيه والأشراف: ص١٨٦.
(٢) مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٣.
(٣) أمالي المرتضى: ١/ ٢٩٢.

«كَذَبُوا، وَإِنَّمَا خَلَّفْتُكَ لِمَا وَرَائِي، فَارْجِعْ فَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي وَأَهْلِكَ، أَمَا تَرْضَىٰ يَا عَلِيُّ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي...».

ورجع الإمام قرير العين مثلوج القلب، فقد قلّده الرسول صلى الله عليه وآله وسام الخلافة والوصاية من بعده، وجعله منه بمنزلة هارون من موسىٰ، وباء حسّاده بالفشل والخيبة..

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن جهاد الإمام عليه السلام ودفاعه عن قيم الإسلام وبمبادئه، فقد اشترك مع النبيّ صلى الله عليه وآله في جميع حروبه وغزواته، وناضل كأشدّ ما يكون النضال لرفع راية الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد فما أعظم عائدته على الإسلام والمسلمين!



تعيين الوصي في غدير خمّ

مؤتمر غدير خمّ:

وبعدما أدّىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله الحجّ إلى بيت الله الحرام ووضع الخطط السليمة لصيانة أُمّته من الزيغ قفل راجعاً إلى يثرب، وحينما اجتاز موكبه في غدير خم هبط عليه جبرئيل وهو يحمل رسالة من الله تعالى بالغة الخطورة تتعلّق بمصير الأُمّة الإسلامية ومستقبلها الحضاري، فقد أمره الله تعالى أن يحطّ رحله في ذلك المكان لينصّب الإمام عليّاً عليه السلام خليفة من بعده، ويقلّده المرجعية العامّة، ولم يرخّصه في التأخير قيد لحظة واحدة، وكان أمر السّماء بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(١).

واجتمع الحجّاج فصلّى بهم النبيّ صلى الله عليه وآله وبعدما فرغ من الصلاة أمر بوضع حدائج الإبل لتكون منبراً له، فصنعوا له ذلك، فاعتلى عليها، وكان عدد الحاضرين مائة ألف أو يزيدون، وأقبلت الجماهير بقلوبها نحو النبيّ، فخطب فيهم معلناً ما عاناه من الجهود الشاقّة في سبيل الإسلام، وما كانوا فيه من الضلال والحياة البائسة فأنقذهم منها، ثمّ ذكر كوكبة من أحكام الإسلام وتعاليمه، ثمّ التفت إليهم قائلاً:

«انْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِي الثَّقَلَيْنِ؟».

فناده منادٍ من القوم:

ما الثقلان يا رسول الله؟

وعرض عليهم أمر الثقلين قائلاً:

«الثَّقَلُ الأَكْبَرُ: كِتَابُ اللَّهِ طَرَفٌ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ وَلَا تَضِلُّوا، وَالآخَرُ الأَصْغَرُ: عِتْرَتِي، وَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ نَبَّأَنِي أَنَّهُما لَنْ يَفْتَرِقا حَتَّىٰ يَرِدا

(١) سورة المائدة: الآية ٦٠.

عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَسَأَلْتُ ذَلِكَ رَبِّي لَهُما، فَلَا تَقَدَّمُوهُمَا فَتَهْلِكُوا، وَلَا تَقْصُرُوا عَنْهُما فَتَهْلِكُوا...».

ووضع النبيّ ﷺ بذلك المناهج السليمة لسلامة أُمّته من الضلال والانحراف عن طريق الحقّ، ثمّ أخذ النبيّ ﷺ بيد وصيّه وسيِّد عترته وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ففرض ولايته على المسلمين، وأقامه علماً لهدايتهم، فرفعها حتى بان بياض إبطيهما، ورفع صوته عالياً قائلاً:

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟».

فأجابوا جميعاً:

الله ورسوله أعلم..

فقال ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ مَوْلَايَ، وَأَنَا مَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَا أَوْلَىٰ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»، قال ذلك ثلاث مرّات، ثمّ قال:

«اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَأَحِبَّ مَنْ أَحَبَّهُ، وَأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ...».

وبذلك أنهى خطابه الشريف الذي أدّىٰ فيه رسالة ربّه، فنصب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة من بعده، وأثبت له الولاية الكبرى على عموم المسلمين كما كانت له ﷺ الولاية العامّة على جميع المسلمين.

وأقبل المسلمون يبايعون الإمام بولاية العهد ويهنِّئونه بإمرة المسلمين، وأمر النبيّ ﷺ أُمّهات المؤمنين بمبايعته[١].

نزول آية إكمال الدِّين:

وفي ذلك اليوم الخالد في دنيا الإسلام نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢].

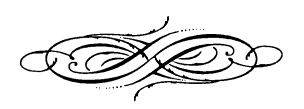
---

(١) الغدير: ٢/ ٣٤.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

لقد كمل الدِّين، وتمَّت نعمة الله الكبرى على المسلمين بولاية إمام المتَّقين وسيِّد الموحِّدين، وبقيادته الرُّوحيَّة والزمنية على جميع المؤمنين.

وعلى أيٍّ حال فموضوع الغدير جزء من رسالة الإسلام وركن من أركان الدِّين، فمن أنكره فقد أنكر الإسلام كما يقول الشيخ العلائلي.



المأساة الخالدة

وبعدما أقام الرسول الأعظم ﷺ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة على أُمَّته في غدير خمّ ونصَّبه إماماً من بعده قفل راجعاً إلى يثرب، وقد بدت صحَّته تنهار يوماً بعد يوم، فقد ألمَّ به المرض وأصابته حمى مبرحة، حتَّىٰ كأنَّ به لهباً منها، وقد لازمته ولم تنقطع عنه.

ولمَّا أُشيع مرضه هرع المسلمون لعيادته وهم ما بين باكٍ وواجم، قد طافت بهم موجات من الألم والذهول، واستقبلهم الرسول بأسىٰ بالغ فنعى إليهم نفسه الشريفة، وأوصاهم بما يضمن لهم الاستقامة والتوازن في حياتهم قائلاً:

«أَيُّهَا النَّاسُ، يُوشِكُ أَنْ أُقْبَضَ قَبْضاً سَرِيعاً فَيُنْطَلَقَ بِي، وَقَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ الْقَوْلَ مَعْذَرِةً إِلَيْكُمْ، أَلَا إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيْكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي...».

وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانبه، فأخذ بيده وقال لعوَّاده:

«هَذَا عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ، لَا يَفْتَرِقَانِ حَتَّىٰ يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[١].

فجيعة الزَّهراء عليها السلام:

ومنيت زهراء الرسول ﷺ بكارثة مدمِّرة حينما علمت أنَّ أباها سيُفارق الحياة، فقد نخب الحزن قلبها الرقيق، وهامت في تيارات من الأسى واللوعة، وقد لازمت أباها وهي مذهولة كأنَّها جثمان فارقته الحياة، وقد أحدقت بوجهه فسمعته يقول:

«وَاكَرْباه!».

وامتلأ قلبها الطاهر حزناً، فأسرعت قائلة:

«وَاكَرْبِي! لِكَرْبِكَ يَا أَبَتِ»، وأشفق عليها أبوها وراح يسلِّيها قائلاً:

«لَا كَرْبَ عَلَىٰ أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ»[٢].

(١) الصواعق المحرقة: ٢/ ٣٦١.

(٢) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام: ١/ ١١٢.

النبيّ يوصي بأهل بيته:

روى أنس بن مالك قال: جاءت فاطمة ومعها الحسنان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفّي فيه فانكبّت عليه وألصقت صدرها بصدره وهي غارقة في البكاء، ثمّ انطلقت إلى بيتها، والنبيّ تسبقه دموعه وهو يقول:

«اللَّهُمَّ أَهْلَ بَيْتِي، وَأَنَا مُسْتَوْدِعُهُمْ كُلَّ مُؤْمِنٍ...».

وجعل يردّد ذلك ثلاث مرّات[1] وهو مثقل بالألم والحزن، فقد استشفَّ من وراء الغيب ما يجري عليهم من المحن والخطوب.

وصيَّة النبيّ بسبطيه:

وقبل أن ينتقل النبيّ إلى حضيرة القدس بثلاثة أيّام أوصى الإمام عليه السلام برعاية سبطيه قائلاً:

«يا أَبا الرَّيحانَتَيْنِ، أُوْصِيْكَ بِرَيْحانَتَيَّ مِنَ الدُّنْيا، فَعَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدُّ رُكْناكَ، واللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ...».

ولمَّا قبض النبيّ قال الإمام:

«هَذَا أَحَدُ رُكْنَيَّ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله»، ولمَّا ماتت فاطمة قال: **«هَذَا الرُّكْنُ الثَّانِي الَّذِي قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ»**[2].

إلى الفردوس الأعلى:

وآن لسيِّد الكائنات أن يلتحق بالفردوس الأعلى مقرّ الأنبياء والأوصياء، فقد وفد عليه ملك الموت فاستأذن بالدخول عليه، فأخبرته زهراء الرسول بأنَّه مشغول بنفسه عنه، فانصرف، وبعد قليل عاد طالباً الإذن، فأفاق النبيّ وقال لبضعته:

«أَتَعْرِفِينَهُ؟».

«لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ».

«إِنَّهُ مُعَمِّرُ الْقُبورِ، وَمَخَرِّبُ الدُّورِ، وَمُفَرِّقُ الْجَماعَاتِ»، وذهلت حبيبة الرسول، وقدّ قلبها، واندفعت تقول:

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٣٣.

(٢) أمالي الصدوق: ص١١٩.

«وَاأَبَتَاه! لِمَوْتِ خَاتَم الأَنْبِياءِ، وَامُصِيبَتاه! لِمَماتِ خَيْرِ الأَتْقِياءِ، وَلانْقِطاعِ سَيِّدِ الأَصْفِياءِ، وَاحَسْرَتاه! لانْقِطاعِ الْوَحِي مِنَ السَّماءِ، فَقَدْ حُرِمْتُ الْيَوْمَ كَلامَكَ».

وتصدَّع قلب الرسول وذابت نفسه، وراح يسلِّي زهراءه قائلاً:

«لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقاً بِي...»[(١)].

وأذن النبيّ لملك الموت بالدخول عليه، ولمَّا مثل أمامه قال له:

«يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُطِيعَكَ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرُنِي بِهِ، إِنْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَقْبِضَ نَفْسَكَ قَبَضْتُها، وَإِنْ تَأْمُرْنِي أَنْ أَتْرُكَها تَرَكْتُها».

وبهر النبيّ ﷺ وقال له:

«أَتَفْعَلُ يا مَلَكَ الْمَوْتِ ذٰلِكَ؟».

«بِذٰلِكَ أُمِرْتُ أَنْ أُطِيعَكَ فِي كُلِّ مَا أَمَرْتَنِي...».

ولم يحظ أحد من أنبياء الله ورسله بمثل ما حظي به خاتم الأنبياء، فقد أمر الله تعالى ملك الموت بإطاعته، والاستئذان بالدخول عليه.

وهبط جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال له:

«يا أَحْمَدُ، إِنَّ اللَّهَ اشْتاقَ إِلَيْكَ»، واختار النبيّ جوار ربّه، فإنَّ الآخرة خير له وأبقى، وأذن لملك الموت باستلام روحه المقدَّسة، ودعا وصيّه وباب مدينة علمه الإمام عليه السلام فقال له:

«ضَعْ رَأْسِي فِي حِجْرِكَ، فَقَدْ جاءَ أَمْرُ اللَّهِ، فَاذَا فَاضَتْ نَفْسِي فَتَناوَلْها، وامْسَحْ بِها وَجْهَكَ، ثُمَّ وَجِّهْنِي إِلَىٰ الْقِبْلَةِ، وَتَوَلَّ أَمْرِي، وَصَلِّ عَلَيَّ أَوَّلَ النَّاسِ، وَلَا تُفارِقْنِي حَتَّىٰ تُوارِيَنِي فِي رَمْسِي واسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وأخذ الإمام رأس النبيّ فوضعه في حجره، ومدَّ يده اليمنى تحت حنكه، وفاضت روحه العظيمة، فمسح بها الإمام وجهه[(٢)].

لقد مادت الأرض، وخبا نور العدل، وانطفأت تلك الشعلة المشرقة التي أضاءت سماء الدُّنيا بالعلم والإيمان.

---

(١) درَّة الناصحين: ص٦٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢٩/١.

تجهيز الجثمان العظيم:

وتولّى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تجهيز جثمان أخيه وابن عمّه، وذلك بأمر منه، وهو يذرف الدموع، فغسّل الجسد، وهو يقول:

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّىٰ صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِواكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّىٰ صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَواءً. وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عِنِ الْجَزَعِ، لأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً[1].

قال عليه السلام: «**وَلَقَدْ وَلَيْتُ غُسْلَهُ ـ صلى الله عليه وآله ـ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالأَفْنِيَةُ، مَلأٌ يَهْبِطُ وَمَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنمةٌ مِنْهُمْ**[2] **يُصَلُّونَ عَلَيْهِ..**».

وكان العباس عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وأسامة يناولان الإمام الماء من وراء الستر[3].

وكان الطيب في أثناء الغسل يخرج من الجسد الطاهر، والإمام يقول:

«**بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يا رَسُولَ اللَّهِ، طِبْتَ حَيَّاً وَمَيِّتاً**»[4]، وأمّا الماء الذي غسّل فيه الرسول فهو من بئر يُقال لها الغرس، وكان يشرب منها[5]، وبعد الفراغ من الغسل أدرجه الإمام في أكفانه، ووضعه على السرير.

الصلاة على الجثمان العظيم:

وأوّل من صلّى على الجثمان المقدّس هو الله تعالى من فوق عرشه، ثمّ جبرئيل، ثمّ إسرافيل، ثمّ الملائكة زمراً زمراً[6]، وهرع المسلمون للصلاة على جثمان نبيّهم، فقال لهم الإمام:

«**لَا يَقُومُ عَلَيْهِ إِمَامُ مِنْكُمْ، هُوَ إِمَامُكُم حَيَّاً وَمَيِّتاً**»، فكانوا يدخلون عليه رسلاً رسلاً فيصلّون عليه صفّاً ليس لهم إمام، وأمير المؤمنين واقف إلى جانب الجثمان وهو يقول:

«**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ مَا أُنْزِلَ**

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٢٥٥.
(٢) الهينمة: الصوت الخفي.
(٣) البداية والنهاية: ٥/ ٢٦٣.
(٤) الطبقات الكبرى: ٢/ ٦٣.
(٥) البداية والنهاية: ٥/ ٢٦١.
(٦) حلية الأولياء: ٤/ ٧٧.

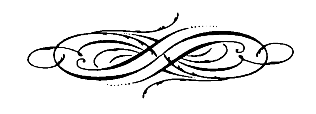
إِلَيْهِ، وَنَصَحَ لأُمَّتِهِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّىٰ أَعَزَّ اللَّهَ دِينَهُ وَتَمَّتْ كَلِمَتُهُ، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنا مِمَّنْ يَتَّبِعَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَثَبِّتْنا بَعْدَهُ، وَاجْمَعْ بَيْنَنا وَبَيْنَهُ».

تأبين الإمام للرسول:

ووقف الإمام عليه السلام على منبر الرسول صلى الله عليه وآله وهو يصوغ من حزنه كلمات وقال:

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ! إِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ، وَإِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ، وَإِنَّ الْمُصِيبَةَ بِكَ لأَجَلُّ، وَإِنَّ مَا بَعْدَكَ وَمَا قَبْلَكَ لَجَلَلُ، ثمَّ قال:

«مَا فَاضَ دَمْعِي عِنْدَ نَازِلَةٍ　　إِلَّا جَعَلْتُكَ لِلْبُكَا سَبَبا
فَإِذَا ذَكَرْتُكَ سَامَحَتْكَ بِهِ　　مُقَلُ الْجُفُونِ فَفَاضَ وَانْسَكَبا
إِنِّي أُجِلُّ ثَرىً حَلَلْتَ بِهِ　　مِنْ أَنْ أَرىٰ بِسِواهُ مُكْتَئِبا»[1]



(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٩٢.

حكومة أبي بكرٍ

موقف الإمام من بيعة أبي بكر:

وأجمع المؤرّخون والرواة على أنَّ موقف الإمام تجاه بيعة أبي بكر كان متَّسماً بالكراهية وعدم الرِّضا، فهو أحقّ بالخلافة وأوْلى بها من غيره؛ لأنَّه ألصق الناس برسول الله ﷺ، بالإضافة إلى ما يتمتَّع به من القابليات الفذَّة والمواهب العظيمة التي لم تتوفَّر بعضها في غيره، وما كان يظنُّ أنَّ القوم يزعجون هذا الأمر ويخرجونه عنه، فقد بادره عمّه العبَّاس قائلاً:

يابن أخي، امدد يدك أُبايعك فيقول الناس عمّ رسول الله ﷺ بايع ابن عمّ رسول الله فلا يختلف عليك اثنان..

فردَّ عليه الإمام: **«مَنْ يَطْلُبُ هَذَا الأَمْرَ غَيْرُنا...»**[١].

وعلَّق الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي على ذلك بقوله:

نظر العباس في الأمر فرأى ابن أخيه أحقّ منه بوراثة السلطان؛ لأنَّه ربيب النبيّ، وصاحب السابقة في الإسلام، وصاحب البلاء الحسن الممتاز في المشاهد كلّها؛ ولأنَّ النبيّ كان يدعوه أخاه حتَّى قالت له أُمّ أيمن ذات يوم مداعبة: تدعوه أخاك وتزوِّجه ابنتك؟ ولأنَّ النبيّ قال له: **«أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسىٰ إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»**، وقال للمسلمين يوماً آخر: **«مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»**، من أجل ذلك أقبل العبَّاس بعد وفاة النبيّ على ابن أخيه وقال له: ابسط يدك أُبايعك..[٢].

امتناع الإمام من البيعة:

وأجمع رأي الجهاز الحاكم على إرغام الإمام وقسره على البيعة لأبي بكر، فأرسلوا حفنة من الشرطة فأحاطت بداره، وأمامهم عمر بن الخطَّاب وهو يرعد ويبرق ويتهدَّد

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٤.

(٢) علي وبنوه: ص١٩.

ويتوعَّد، وبيده قبس من نار يريد أن يحرق بيت الوحي، وهجم على دار الإمام وهو مغيظ محنق رافعاً صوته:

والذي نفس عمر بيده ليخرجنَّ أو لأحرقنَّها على مَن فيها.

فعذلته طائفة، وحذَّرته من عقوبة الله قائلة:

إنَّ فيها فاطمة.

وقد ذكرته بحفاوة رسول الله بها وقوله فيها: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْضىٰ لِرِضاكِ، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِكِ**»[١]، فلم يحفل ابن الخطَّاب بذلك وصاح بهم غير مكترث ولا مبال:

وإن، وإن..

فخرجت إليه حبيبة الرسول وبضعته الصدِّيقة الطاهرة الزهراء فصاحت به:

«**ما الَّذِي جِئْتَ بِهِ يَابْنَ الْخَطَّاب؟**».

فأجابها بعنف: الذي جئت به أقوى ممَّا جاء به أبوك[٢].

وأخرج الإمام بعنف وجيء به إلى أبي بكر، فصاح به حزبه: بايع أبا بكر.

فأجابهم الإمام بحجَّته الدامغة ـ وهو غير وجل من جبروتهم ـ قائلاً: «**أَنَا أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكُمْ، لَا أُبَايِعُكُمْ وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْبَيْعَةِ لِي، أَخَذْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَاحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِالْقَرَابَةِ مِنَ النبيّ ﷺ، وَتَأْخذونه مِنَّا أَهْلَ الْبَيْت غَصْباً، أَلَسْتُم زَعَمْتُم لِلأَنْصارِ أَنَّكُمْ أَوْلَىٰ بِهَذا الأَمْرِ مِنْهُم لما كَانَ مُحَمَّدُ ﷺ مِنْكُم فَأَعْطَوْكُمُ الْمَقَادَةَ وَسَلَّمُوا إِلَيْكُمُ الْإِمَارَةَ؟ وَأَنَا أَحْتَجُّ عَلَيْكُمْ بِمِثْلِ مَا احْتَجَجْتُمْ بِهِ عَلَى الْأَنْصَارِ، نَحْنُ أَوْلىٰ بِرَسُولِ اللَّهِ حَيّاً وَمَيِّتاً فَأَنْصِفُونَا إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ وَإِلَّا فَبُوءوا بِالظُّلْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**»[٣].

وحكى هذا الخطاب الحجَّة التي تغلَّب بها المهاجرون من قريش على الأنصار، وهي قربهم من النبيّ ﷺ، فإنَّها متوفِّرة فيه على أكمل الصور والوجوه، فهو ابن عمّ رسول الله ﷺ، وأبو سبطيه، وختنه على ابنته، ولم يجد هذا المنطق الفيَّاض مع القوم، فاندفع عمر بعنف قائلاً:

بايع.

ـ «**وَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟**».

---

(١) الحديث متواتر أخرجته الصحاح والسُّنن.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري: ٢/١٠.

(٣) حياة الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام: ١/٢٥٦.

ـ والله الذي لا إله إلاَّ هو نضرب عنقك.

ونظر الإمام فإذا ليس له معين ولم يكن يأوي إلى ركن شديد، فقال بصوت حزين النبرات:

«إِذَنْ تَقْتُلُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَأَخَا رَسُولِهِ».

واندفع ابن الخطَّاب بثورة قائلاً:

أمَّا عبداً لله فنعم، وأمَّا أخو رسوله فلا.

ونسى عمر أنَّ الإمام أخو النبيّ وباب مدينة علمه، والتفت إلى أبي بكر يحثّه على الوقيعة به قائلاً:

ألا تأمر فيك بأمرك؟..

وخاف أبو بكر من الفتنة فقال:

لا أُكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جانبه..

وانبرى أبو عبيدة بن الجرَّاح، وهو من أبرز أنصار أبي بكر فخاطب الإمام قائلاً: يابن عمّ، إنَّك حدث السنّ وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلاَّ أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به، فسلِّم الأمر لأبي بكر، فإنَّك إن تعش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق، وبه حقيق في فضلك ودينك وعلمك وسابقتك ونسبك وصهرك...

وأثارت هذه المخادعة كوامن الألم والأسىٰ في نفس الإمام فاندفع يخاطب المهاجرين ويعظهم قائلاً:

«اللَّهَ اللَّهَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! لَا تُخْرِجُوا سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ عَنْ دَارِهِ، وَقَعْرِ بَيْتِهِ إِلَى دُورِكُمْ، وَلَا تَدْفَعُوا أَهْلَهُ عَنْ مَقَامِهِ فِي النَّاسِ وَحَقِّهُ.. فَوَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! لَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ ـ لأَنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ ـ، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكُمْ، مَا كَانَ فِينا إِلَّا الْقَارِىءِ لِكِتَابِ اللَّهِ، الْفَقِيهُ فِي دِينِ اللَّهِ، الْعَالِمُ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، الْمُضْطَلِعُ بِأَمْرِ الرَّعِيَّةِ، الدَّافِعُ عَنْهُمْ الأُمُورَ السَّيِّئَةَ، الْقَاسِمُ بَيْنَهُمْ بالسَّوِيَّةَ، وَاللَّهِ! إِنَّهُ لَفِينَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى فَتَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَتَزْدَادُوا مِنَ الْحَقِّ بُعْداً»(١).

وأطلقوا سراح الإمام، ومضى يهرول نحو مثوى أخيه رسول الله صلى الله عليه وآله يشكو إليه ما ألمَّ به من المحن والخطوب، وهو يبكي أمرّ البكاء قائلاً:

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١١.

«يابْنَ أُمّ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي. . ».

لقد استضعفه القوم وتنكّروا له، وأعرضوا عمّا أوصاهم به النبيّ، وقفل الإمام راجعاً إلى بيته وهو كئيب حزين، وقد استبان له ما يحمله القوم من الحقد والكراهية.

أضواء على موقف الإمام:

ووقفل الإمام مع حكومة أبي بكر موقفاً سلبياً اتّسم بالعزلة التامّة عن الناس وعدم الاشتراك مع الجهاز الحاكم بأيّ لون من ألوان الاجتماع.

وقد أدلى الإمام عليه السلام ببعض الأسباب التي دعته لإلقاء الستار على حقّه وهي:

١ ـ فقده للقوّة العسكرية:

لم تتوفَّر عند الإمام عليه السلام أيّة قوّة عسكرية يستطيع أن يتغلَّب على الأحداث، ويستلم مقاليد الحكم، وقد صرَّح بذلك في كثير من المناسبات، وهذه بعضها:

أ ـ قال عليه السلام في خطبته الشقشقية:

«وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَىٰ طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ[١]، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَىٰ هَاتَا أَحْجَىٰ، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذىً وَفِي الْحَلْقِ شَجاً[٢]، أَرَىٰ تُرَاثِي نَهْباً. . . »[٣].

ب ـ قال عليه السلام:

«فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلَىٰ الْقَذَىٰ، وَشَرِبْتُ عَلَىٰ الشَّجَا، وَصَبَرْتُ عَلَىٰ أَخْذِ الْكَظَمِ، وَعَلَىٰ أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ»[٤].

ج ـ وبايعت الأكثرية الساحقة أبا بكر تحت ضغط عمر، وقد أراد الإمام عليه السلام أن يقيم عليهم الحجَّة فطاف بزهراء الرسول على بيوت المهاجرين والأنصار يسألهم النجدة ومناهضة الحكم القائم، فكانوا يقولون لبضعة الرسول:

يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، فتردّ عليهم حبيبة رسول الله:

«أَفَتَدَعُونَ تُرَاثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ دَارِهِ إِلَىٰ غَيْرِ دَارِهِ؟ . . . ».

وراحوا يعتذرون إليها قائلين:

---

(١) الطخية: الظلمة.

(٢) الشجىٰ: ما يعترض في الحلق من عظم ونحوه.

(٣) نهج البلاغة: ١/ ٣١.

(٤) نهج البلاغة: ١/ ٦٧.

يا بنت رسول الله، لو أنَّ زوجك سبق إلينا قبل أبي بكر لما عدلنا به..

ويجيبهم الإمام عليه السلام:

«أَفَكُنْتُ أَدَعُ رَسُولَ اللَّهِ فِي بَيْتِهِ لَمْ أَدْفِنْهُ، ثُمَّ أَخْرُجُ أُنَازِعُ النَّاسَ سُلْطَانَهُ؟!...».

وتدعم سيِّدة النِّساء مقالة الإمام عليه السلام قائلة:

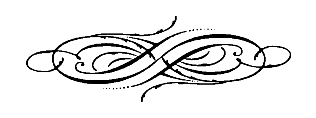
«ما صَنَعَ أَبُو الْحَسَنِ إِلَّا مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ.. وَقَدْ صَنَعُوا ما اللَّهُ حَسِيبُهُمْ عَلَيْهِ»[1]

إنَّ موقف الإمام عليه السلام مع حكومة أبي بكر متّسم بعدم الرِّضا إلاَّ أنَّه لم يستطع القيام بأيِّ عمل عسكري للإطاحة بها..

٢ ـ المحافظة على وحدة المسلمين:

من الأحداث التي دعت الإمام إلى المسالمة مع القوم حرصه على وحدة المسلمين، وقد أعلن ذلك حينما عزم القوم على البيعة لعثمان، فقال عليه السلام:

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا ـ أي الخلافة ـ مِنْ غَيْرِي؛ وَوَاللَّهِ! لأُسْلِمَنَّ ما سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيما تَنافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»[2].



(١) الإمامة والسياسة: ١/١٢.
(٢) نهج البلاغة: ١/١٢٤.

خلافة عمر

وتولّى عمر الخلافة بسهولة وسرور ولم يلق أي جهد أو عناء، وقد قبض على الحكم بيدٍ من حديد، وساس الأُمَّة بشدَّة وعنف حتَّى تحامى لقاءه أكابر الصحابة، فقد كانت درَّته ـ كما يقولون ـ أرهب من سيف الحجَّاج، حتَّى أنَّ حبر الأُمَّة عبد الله بن عباس لم يستطع أن يجهر برأيه في حلية المتعة إلاَّ بعد وفاته، وقد خافه وهابه ووصفه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته الشقشقية بالحوزة الخشناء التي يغلظ كلمها ويخشن مسَّها.

اعتزال الإمام:

واعتزل الإمام أيَّام حكومة عمر، ولم يشترك بأيّ عمل من أعمال الدولة، كما اعتزل في أيَّام حكومة أبي بكر، يقول محمَّد بن سليمان في أجوبته على أسئلة جعفر بن مكِّي عمَّا دار بين علي وعثمان: إنَّ عليَّاً دحضه الأوَّلان ـ يعني أبا بكر وعمر ـ وأسقطاه، وكسرا ناموسه بين الناس فصار نسياً منسياً..[1].

ويعزو الإمام عليه السلام جميع ما لاقاه في حياته من النكبات والأزمات إلى عمر، وذلك في حديث خاصّ له مع عبد الله بن عمر[2].

وعلى أيٍّ حال فقد اعتزل الإمام عليه السلام الناس اعتزالاً تامَّاً، وانصرف إلى تفسير القرآن الكريم، ولم يتّصل بأحد سوى الصفوة من أصحابه أمثال الطيِّب ابن الطيِّب عمَّار بن ياسر، والثائر على الحكم الأُموي أبو ذرّ، وسلمان الفارسي وغيرهم من خيار أصحاب الرسول.

وكان عمر يرجع إلى الإمام في المسائل الفقهية؛ لأنَّ بضاعته كانت قليلة فيها، وقد شاع عنه قوله:

---

(١) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ٩/٩٨.
(٢) المصدر السابق: ٥٤.

لولا علي لهلك عمر..[١].

وقد نزلت في عمر نازلة فحار في التخلّص منها، وعرض ذلك على أصحابه فقال لهم:

ما تقولون في هذا الأمر؟

فأجابوه: أنت المفزع والمنزع..

فلم يرضه قولهم وتلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾[٢].

ثمَّ قال لهم: أما والله! إنِّي وإيَّاكم لنعلم ابن بجدتها والخبير بها.

فقالوا: كأنَّك أردت ابن أبي طالب؟

وأنّىٰ يعدل بي عنه، وهل طفحت حرَّة بمثله..

لو دعوته يا أمير المؤمنين.

فامتنع من إجابتهم وقال:

إنَّ هناك شمخاً من هاشم، واثرة من علم، ولحمة من رسول الله صلى الله عليه وآله يؤتى ولا يأتي فامضوا بنا إليه...

وخفّوا جميعاً إليه فوجدوه في حائط له يعمل فيه وعليه تبان، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ إلى آخر السورة ودموعه تنهمر على خدَّيه، فلمَّا رآه القوم اجهشوا في البكاء، ولمَّا سكتوا سأله عمر عمَّا ألمَّ به، فأجابه عنه، والتفت عمر إلى الإمام فقال له:

أما والله! لقد أرادك الحقّ، ولكن أبىٰ قومك...

فأجابه الإمام:

«يا أَبا حَفْص، خَفِّضْ عَلَيْكَ مِنْ هُنا وَهُنا»، وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾».

وذهل عمر فوضع إحدى يديه على الأُخرى، وخرج كأنَّما ينظر في رماد[٣].

وعلى أيِّ حال فإنَّ الإمام في خلافة عمر قد كان جليساً في بيته يساور الهموم،

(١) الغدير: ٦/٨٣، وفيه عرض شامل لذلك.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٧٠.

(٣) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١٢/٧٩ ـ ٨٠.

ويسامر النُّجوم، ويتوسَّد الأرق، ويتجرَّع الغصص، قد كظم غيظه، وأوكل أمره إلى الله تعالى.

نظام الشورى:

ونظام الشورى الذي وضعه عمر كنظام السقيفة، قد أخلد للمسلمين المصاعب وألقتهم في شرّ عظيم، وهو نظام مفضوح لا غبار عليه في أنَّ القصد منه إقصاء الإمام عليه السلام عن قيادة الأُمَّة وتسليمها لبني أُميَّة إرضاءً لعواطف القرشيِّين المترعة بالحقد والكراهية للإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

انتخاب عمر لأعضاء الشورى:

وانتخب عمر ستّة أشخاص، وجعلهم أعضاء للشورى وألزمهم بانتخاب واحد منهم ليتولَّى قيادة الأُمَّة، وهم:

١ ـ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٢ ـ سعد بن أبي وقَّاص.

٣ ـ الزبير بن العوَّام.

٤ ـ طلحة.

٥ ـ عثمان بن عفَّان.

٦ ـ عبد الرحمن بن عوف.

والشيء البارز في هذا الانتخاب أنَّه لم يجعل أي نصيب فيه للأنصار الذين نصروا النبيّ، واحتضنوا مبادئه، ولعلَّ السبب في ذلك هو ميولهم للإمام عليه السلام، وقد اقتصر أعضاء الشورى على الجناح القرشي، وليس لغيرهم فيه أي نصيب.

إنَّ أعضاء الشورى لمَّا حضروا عنده قال لهم: أكلّكم يطمع بالخلافة بعدي؟..

ووجموا عن الكلام، فأعاد عليهم القول ثانياً، فأجابه الزبير: وما الذي يبعدنا منها، ولِيْتَها ـ أي الخلافة ـ أنت فقمت بها، ولسنا دونك في قريش، ولا في السابقة، ولا في القرابة..، ولم يسعه الردّ عليه لأنَّه ليس في كلامه فجوة يسلك فيها لإبطال كلامه، والتفت عمر إلى الجماعة فقال لهم:

أفلا أُخبركم عن أنفسكم؟..

فأجابوا مجمعين:

قل، فإنّا لو استعفيناك لم تعفنا..

وأخذ يحدِّثهم عن نفسيَّاتهم وميولهم، فوجَّه كلامه لكلّ واحد منهم:

مع الزبير:

«أَمَّا أَنْتَ يا زُبَيْرُ! فَوَعِق لَقِس[1]، مُؤْمِنُ الرِّضا، كَافِرُ الْغَضَبِ، يَوْماً إِنْسان وَيَوْماً شَيْطان، وَلَعَلَّهَا لَوْ أَفْضَتْ إِلَيْكَ ظلْت يَوْمَكَ تُلاطِمُ بِالْبَطْحَاءِ عَلَىٰ مُدٍّ مِنْ شَعِيرٍ.. أَفَرَأَيْتَ إِن أَفْضَتْ إِلَيْكَ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ يَكُونُ لِلنَّاسِ يَوْمَ تَكُونُ شَيْطاناً؟ وَمَنْ يَكُونُ يَوْمَ تَغْضَبُ!! وَما كَانَ اللَّهُ لِيَجْمَعَ لَكَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَأَنْتَ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ...».

مع طلحة:

وأقبل عمر على طلحة، وأخذ يحدِّثه بنزعاته فقال له:

أقول أم أسكت؟..

فزجره طلحة وقال له:

إنَّك لا تقول من الخير شيئاً..

وأخذ عمر يقول:

أما إنِّي أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أُحد وائياً بالذي حدث لك، ولقد مات رسول الله ﷺ ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب..

مع سعد بن أبي وقَّاص:

واتَّجه صوب سعد بن أبي وقَّاص، فقال له: إنَّما أنت صاحب مقنب[2] من هذه المقانب تقاتل به، وصاحب قنص وقوس وسهم، وما زهرة والخلافة وأُمور الناس؟

مع عبد الرحمن بن عوف:

وأقبل عمر على عبد الرحمن بن عوف، فقال له: أمَّا أنت يا عبد الرحمن فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك عليهم، ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك، وما زهرة وهذا الأمر؟..

إنَّ عبد الرحمن ـ حسب رأي عمر ـ مثال للإيمان والتقوى، وإنَّ إيمانه يساوي

---

(١) الوعق: الضجر والتبرُّم. اللقس: من لا يستقيم على أمر.
(٢) المقنب: جماعة الخيل.

نصف إيمان المسلمين، ومن إيمانه المزعوم أنَّه عدل عن انتخابه سيِّد العترة الطاهرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وسلَّم الخلافة إلى بني أُميَّة، فاتَّخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً.

وإذا لم تكن لعبد الرحمن شخصية صلبة وقوية ـ حسب رأي عمر ـ كيف رشَّحه للخلافة؟

مع الإمام أمير المؤمنين:

والتفت عمر إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: لله أنت لولا دعابة فيك.. أمَّا واللَّهِ! لئن ولّيتهم لتحملنَّهم على الحقّ الواضح والمحجَّة البيضاء..

ومتى كانت للإمام أمير المؤمنين عليه السلام الدعابة؟ وهو الذي ما أَلِف في حياته غير الجدّ والحزم.

إنَّ الدعابة تنمُّ عن ضعف الشخصية، وقد اعترف عمر أنَّ الإمام لو ولي أُمور المسلمين لحملهم على الحقّ الواضح والمحجَّة البيضاء، ومن المؤكَّد أنَّ من يقوم بذلك لا بدَّ أن يكون شخصية قوية ذا إرادة صلبة.

وعلى أيِّ حال فإنَّ عمر اعترف بأنَّ الإمام لو تقلَّد الحكم لسار بين المسلمين على الحقّ الواضح، وحملهم على الصراط المستقيم، فكيف جعله من أعضاء الشورى ولم يسند إليه الحكم مباشرة؟

مع عثمان:

وأقبل عمر على عثمان عميد الأُسرة الأُموية، وهو الذي كتب العهد بولايته من أبي بكر، وهو المرشَّح الوحيد عنده للخلافة فقال له:

هيها إليك، كأنِّي بك قد قلَّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيَّاك، فحملت بني أُميَّة وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً، واللَّهِ! لئن فعلوا لتفعلن، ولئن فعلت ليفعلن، ثمَّ أخذ بناصيته فقال له: فإذا كان ذلك فاذكر قولي[١].

رأي الإمام:

وكان الإمام على يقين لا يخامره شكّ في موقف عمر تجاهه، وأنَّه لا يرغب بأيِّ

(١) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦.

حال من الأحوال أن يتولّى شؤون المسلمين، ولم يضع نظام الشورى إلاّ لأجل ذلك، وإنَّ ما يبغيه إيصال الحكم إلى عثمان عميد الأُسرة الأموية، فقد التقى الإمام بعمّه العبّاس وقال له:

«يا عَمُّ، لَقَدْ عَدَلَتْ ـ أي الخلافة ـ **عنّا»**.

من أعلمك بذلك؟

«لَقَدْ قَرَنَ بِي عُثْمانَ وَقَالَ: كُونُوا مَعَ الأكْثَرِ، ثُمَّ قَالَ: كُونُوا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، وَسَعْدٌ لَا يُخَالِفُ ابْنَ عَمِّهِ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ، وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ صِهْرٌ لِعُثْمانَ، وَهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ، فَإِمَّا أَنْ يُوَلِّيها عَبْدُ الرَّحْمٰنِ لِعُثْمانَ، أَوْ يُولِّيها عُثْمَانُ لِعَبْدِ الرَّحْمٰنِ..»[١].

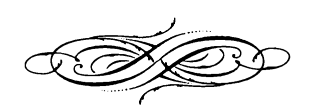
وصدق تفرّس الإمام، فقد ولّاها عبد الرحمن لعثمان إيثاراً لمصالحه وابتغاءً لرجوعها إليه.

لقد كانت الشورى بأُسلوبها مؤامرة مفضوحة لا ستار عليها في إبعاد الإمام عن الخلافة، يقول **كاشف الغطاء**: الشورى بجوهرها وحقيقتها مؤامرة واقعية وشورى صورية، وهي مهارة بارعة لفرض عثمان خليفة على المسلمين رغماً عليهم بتدبير بارع عاد على الإسلام والمسلمين بشرّ ما له دافع[٢].

وراح الإمام بعد سنين ـ يتحدّث بأسىً ـ عن الشورى العمرية التي صمّمت لإقصائه عن مركز الحكم يقول عليه السلام:

حَتَّىٰ إِذَا مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ ـ يعني عمر ـ **جَعَلَها في جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنّي أَحَدُهُمْ، فَيَاللَّهِ وَلِلشُّورَىٰ! مَتَىٰ اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ** ـ يعني به أبا بكر ـ **مِنْهُمْ، حَتَّىٰ صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّظَائِرِ!** ـ يعني أعضاء الشورى ـ.

وعلى أيٍّ حال فقد انتهت مأساة الشورى التي صمّمت لإقصاء الإمام عن الحكم، وقد أخلدت للمسلمين الفتن وألقتهم في شرّ عظيم.



---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥.
(٢) حياة الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام: ١/ ٣١٧.

حكومة عثمان

واستقبلت القوى الخيِّرة خلافة عثمان بكثير من القلق والوجوم والاضطراب، فقد اعتبرت فوزه في الحكم فوزاً لأُسرة الأمويِّين الذين لم يألوا جهداً في محاربة الإسلام والكيد للمسلمين، ويرى «دوزي» أنَّ انتصار الأُمويِّين إنَّما هو انتصار للجماعة التي كانت تضمر العداء للإسلام[1].

مظاهر شخصيَّته:

ولا بدَّ لنا من التحدُّث عن مظاهر شخصيَّة عثمان التي هي المقياس في نجاح أي حاكم أو فشله في الميادين السياسية والاجتماعية وهذه بعضها:

أوَّلاً: ضعف الإرادة:

كان عثمان ـ فيما أجمع عليه المؤرّخون ـ ضعيف الإرادة، خائر العزيمة.

ثانياً: حبّه العارم للأُمويِّين:

من النزعات التي اشتهر بها عثمان هو أنَّه كان عظيم الحبّ والولاء لأُسرته.

ثالثاً: ميله إلى الترف:

وكان عثمان شديد الميل إلى الترف والبذخ.

رابعاً: مصانعة الوجوه:

ومن نزعاته مصانعة الوجوه والأشراف، وإن أدَّىٰ ذلك إلى إهمال الأحكام الشرعية.

ولاته وعمَّاله:

وفرض عثمان أُسرته وذوي قرباه من بني أُميَّة وآل أبي معيط ولاةً وحكَّاماً على المسلمين.

---

(١) تاريخ الشعر العربي: ص٢٦.

وعلى أيِّ حال فإنَّا نعرض إلى بعض عمَّاله الذين عانىٰ منهم المسلمون الجهد والبلاء، وفيما يلي ذلك:

١ ـ **عبد الله بن عامر**: عبد الله بن عامر بن كريز هو ابن خال عثمان، وقد ولَّاه إمارة البصرة بعد أن عزل منها أبا موسى الأشعري.

٢ ـ **الوليد بن عقبة**: وكان على الكوفة والياً سعد بن أبي وقَّاص الزهري، فعزله عثمان وولَّى عليها الوليد بن عقبة، وهو ـ فيما أجمع عليه المؤرّخون ـ من فسَّاق بني أُميَّة، ومن أكثرهم مجوناً.

٣ ـ **عبد الله بن سعد**: ومن ولاة عثمان أخوه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح فجعله والياً على مصر، وأسند إليه إقامة الصلاة والولاية على الخراج، وهو فيما أجمع عليه المؤرّخون من أكثر زنادقة قريش عداءً للنبيّ صلى الله عليه وآله.

٤ ـ **معاوية بن أبي سفيان**: وأقرَّ عثمان معاوية على الشام، فقد ولَّاه عمر عليه، وزاد عثمان في رقعة سلطانه، وزاد في نفوذه، وقد مهَّد له الطريق لنقل الخلافة إليه.

٥ ـ **سعيد بن العاص**: وأسند عثمان ولاية الكوفة إلى سعيد بن العاص، فولَّاه هذا القطر العظيم الذي كان حامية للجيوش الإسلامية بعد أن عزل عنه الوليد الذي شرب الخمر وأقام الإمام عليه السلام عليه الحدّ.

سياسته الاقتصادية:

ولم تكن لعثمان سياسة اقتصادية واضحة المعالم، وإنَّما انتهج سياسة عمر وسار عليها[1]، وهي ممالأة الأشراف والوجوه، وتقديمهم في العطاء على غيرهم.

هباته للأُمويِّين:

ومنح عثمان بن أُميَّة الأموال الهائلة ووهبهم الثراء العريض.

هباته للأعيان:

ووهب عثمان الثراء العريض والأموال الهائلة إلى بعض الوجوه والأشراف من ذوي النفوذ، وهم:

١ ـ طلحة.

---

(١) تاريخ العراق في ظلّ الحكم الأُموي: ص٩٠.

٢ ـ الزبير.

٣ ـ زيد بن ثابت.

إقطاعه للأراضي:

ومن مناهج السياسة المالية عند عثمان أنَّه أقطع بعض الأراضي الواسعة لجمهرة من المؤيّدين لسياسته.

استقطاع عثمان للأموال:

واصطفى عثمان من بيت المال ما شاء لنفسه وعياله.

مع الجبهة المعارضة:

وكان من الطبيعي أن ينقم خيار المسلمين وصلحاؤهم على عثمان وولاته بما اقترفوه من مساوىء الأعمال التي لا تتَّفق مع الواقع الديني.

التنكيل بالمعارضين:

وأمعن عثمان بالتنكيل بالمعارضين لسياسته، فصبَّ عليهم جام غضبه وقابلهم بمزيد من القسوة والبطش والتنكيل، وهذه قائمة بأسماء بعضهم وما عانوه منه:

١ ـ عمَّار بن ياسر:

أمَّا عمَّار بن ياسر فهو أجلّ صحابي، ومكانته في الإسلام معلومة، فهو وأبواه قد عانوا في سبيل الإسلام أعنف المصاعب وأقسىٰ ألوان التعذيب.

لمَّا نكَّل عثمان بالصحابي الثائر على السياسة الأُموية أبي ذرّ فنفاه إلى الربذة، ومات فيها جائعاً غريباً مظلوماً مضطهداً، فحزن عليه المسلمون فقال عثمان أمام جماعة من الصحابة:

رحمه الله..

فاندفع عمَّار والأسىٰ بادٍ عليه فقال:

رحمه الله من كلّ أنفسنا..

فغضب عثمان وقال لعمَّار بأفحش القول وأقساه قائلاً:

يا عاضّ أيْر أبيه! أتراني ندمت على تسييره..؟.

أيليق هذا الفحش بالرجل العادي فضلاً عمَّن يدَّعي أنَّه خليفة المسلمين وأنَّ الملائكة تستحي منه.

ثمَّ أمر عثمان غلمانه فدفعوا عمَّاراً وأرهقوه، وأمر بنفيه إلى الربذة، فلمَّا تهيَّأ للخروج أقبلت بنو مخزوم إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فسألوه أن يكلِّم عثمان في شأن عمَّار وأن يلغي قراره في اعتقاله في الربذة، وكلَّم الإمام عثمان بذلك قائلاً:

«اتَّقِ اللَّهَ، فَإِنَّكَ سَيَّرْتَ رَجُلاً صَالِحاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهَلَكَ فِي تَسْيِيرِكَ، ثُمَّ أَنْتَ الآنَ تُرِيدُ أَنْ تَنْفِيَ نَظِيرَهُ..؟».

فثار عثمان وصاح بالإمام:

أَنْتَ أَحَقُّ بِالنَّفْيِ مِنْهُ...

«رُمْ إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ..».

واجتمع المهاجرون فعذلوه عن ذلك، فاستجاب لهم وعفا عن عمَّار[1].

٢ ـ مع أبي ذرّ:

أمَّا أبو ذرّ فهو صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وخليله، وهو من الأسبقين للإسلام، وكان من أزهد الناس في الدُّنيا، ومن أقلّهم احتفالاً بمنافعها، وكان من ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وآله.

إخراج أبي ذرّ من الشام:

وكتب معاوية إلى عثمان يخبره بخطر أبي ذرّ على الشام ويطلب منه إخراجه إلى بلد آخر، فأجابه عثمان، وأمره بحمله على أغلظ مركب وأوعره حتى يلقى الجهد والعناء، فأرسله معاوية مع جلاوزة نزعت من نفوسهم الرأفة والرحمة والشرف والكرامة، فساروا به سيراً مزعجاً ولم يسمحوا له أن يستريح من الجهد والعناء، ومضوا في سيرهم لا يلوون على شيء حتَّى سلَّخت بواطن فخذه وكاد أن يموت.

ولمَّا انتهى إلى يثرب دخل على عثمان وهو منهوك القوى، فاستقبله عثمان بالجفوة ومرارة القول قائلاً:

أنت الذي فعلت.. وفعلت؟..

فأجابه أبو ذرّ بمنطق الحقّ قائلاً:

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٥٠.

نصحتك فاستغششتني، ونصحت صاحبك ـ يعني معاوية ـ فاستغشني..

فصاح عثمان به:

كذبت، ولكنَّك تريد الفتنة وتحبّها، وقد أنغلت الشام علينا..

فوجَّه إليه أبو ذرّ نصيحته قائلاً:

اتّبع سنَّة صاحبيك ـ يعني أبا بكر وعمر ـ لم يكن لأحد كلام.

فصاح به عثمان:

ما لك لا أُمّ لك..

فقال له أبو ذرّ بهدوء:

والله! ما وجدت لي عذراً إلاَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

وثار عثمان فقال لمن حوله:

أشيروا عليَّ في هذا الشيخ الكذَّاب، إمَّا أن أضربه أو أحبسه أو أقتله، فإنَّه فرَّق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الإسلام..

فثار الإمام عليه السلام من هذه الاستهانة التي قابل بها عثمان أبا ذرّ، فقال له:

«يا عُثْمانُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ما أَظَلَّتِ الْخَضْراءُ، وَلَا أَقَلَّتِ الْغَبْراءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ..».

ولم يحقل هذا الثائر العظيم بعثمان، وإنَّما راح ينكر عليه بوحي من دينه، ويندِّد بسياسته الملتوية قائلاً له:

تستعمل الصبيان، وتحمي الحمى، وتقرِّب أولاد الطلقاء؟

وأخذ يذيع بين المسلمين ما سمعه من النبيّ ﷺ في ذمّ الأُمويِّين، ومدى خطرهم على الإسلام قائلاً:

قال رسول الله: **«إِنَّ بَنِي الْعَاصِ إِذَا بَلَغُوا ثَلَاثِينَ رَجُلاً جَعَلُوا كِتَابَ اللَّهِ دَخلاً، وَعِبَادَ اللَّهِ خَوْلاً، وَمَالَ اللَّهِ دُولاً»**.

توديع الأُسرة النبوية لأبي ذرّ:

ولم تذعن الأُسرة النبوية لأوامر عثمان بتحريم توديع أبي ذرّ، فقد خرجت ومعها الصحابي الجليل عمَّار بن ياسر لتوديع هذا الصحابي المضطهد، وتلقي عليه نظرة الوداع.

ولمَّا رآهم مروان وجَّه خطابه وإنذاره إلى الإمام الحسن عليه السلام فقال له:

إيه يا حسن! ألا تعلم أنَّ عثمان قد نهى عن كلام هذا الرجل؟ فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك..

ولم يجبه الإمام بكلمة احتقاراً له، وثار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وحمل على مروان وضرب أُذني دابته، وصاح به:

«تَنَحَّ نَحَّاكَ اللَّهُ إِلَىٰ النَّارِ»، وولّى مروان منهزماً فزعاً إلى سيّده وابن عمّه عثمان يخبره بعصيان أهل البيت عليهم السلام أمره، فاستشاط عثمان غيظاً وورم أنفه.

كلمة الإمام:

وألقى الإمام عليه السلام على أبي ذرّ نظرة مشفوعة بالأسىٰ والحزن، وخاطبه بهذه الكلمات التي حدَّدت أبعاد شخصيَّة أبي ذرّ، وألقت الأضواء على ثورته ضدّ الحكم الأموي قائلاً:

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَىٰ دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَىٰ دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ؛ فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَىٰ مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَالأَكْثَرُ حُسَّداً. وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَىٰ عَبْدٍ رَتْقاً، ثُمَّ اتَّقَىٰ اللَّهَ لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً! لَا يُؤْنِسَكَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لأَمَّنُوكَ.

يا لها من كلمات ذهبية ألمَّت بواقع أبي ذرّ الذي ثار في وجه الطغيان والاستبداد! فقد كانت ثورته إصلاحية استهدفت القضاء على الاستغلال ونهب ثروات الأُمَّة.

غضب عثمان على الإمام:

ولمَّا قفل الإمام عليه السلام راجعاً من توديع أبي ذرّ استقبلته جماعة من الناس فأخبروه غضب عثمان لأنَّه خالف أوامره التي حرَّم فيها توديع أبي ذرّ، فأجابهم الإمام: «**غَضَبُ الْخَيْلِ عَلَىٰ اللُّجُمِ**»[1]، وبادر عثمان فصاح بالإمام:

ما حملك على ردّ رسولي؟..

«**أَمَّا مَرْوانُ فَإِنَّهُ اسْتَقْبَلَنِي يَرُدُّنِي فَرَدَدْتُهُ عَنْ رَدِّي، وَأَمَّا أَمْرُكَ فَلَمْ أَرُدَّهُ..**».

أوَلم يبلغك أنّي قد نهيت الناس عن تشييع أبي ذرّ؟

---

١) يضرب مثلاً لمن يغضب غضباً لا ينتفع به.

«أَوَكُلُّ مَا أَمَرْتَنا بِهِ مِنْ شَيْءٍ يُرىٰ طَاعَةَ اللَّهِ وَالْحَقَّ فِي خِلَافِهِ اتَّبَعْنا فِيهِ أَمْرَكَ؟!!».

أقد مروان..

«وَمَا أَقِيدُهُ؟..».

ضربت بين أُذني راحلته..

«أَمَّا رَاحِلَتِي فَهِي تِلْكَ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَضْرِبَها كَما ضَرَبْتُ رَاحِلَتَهُ فَلْيَفْعَلْ، وَأَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ! لَئِنْ شَتَمْنَي لأَشْتُمَنَّكَ أَنْتَ بِمِثْلِها، لَا أَكْذِبُ فِيهِ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقّاً..».

ولِمَ لا يشتمنَّك إذ شتمته، فوالله! ما أنت عندي بأفضل منه..

وتألَّم الإمام من عثمان الذي ساوى بينه وبين الوزغ ابن الوزغ مروان بن الحكم، ونسي جهاد الإمام ومنزلته من النبيّ وأنَّه منه بمنزلة هارون من موسى، وردَّ الإمام على عثمان بأعنف القول قائلاً له:

«إِلَيَّ تَقُولُ هَذَا الْقَوْل، وَبِمَرْوانَ تَعْدِلُنِي؟.. فَأَنا وَاللَّهِ! أَفْضَلُ مِنْكَ، وَأَبِي أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكَ، وَأُمِّي أَفْضَلُ مِنْ أُمِّكَ، وَهَذِهِ نَبْلِي قَدْ نَثَلْتُها..».

٣ ـ عبد الله بن مسعود:

وعبد الله بن مسعود القارىء من ألمع الصحابة ومن خيارهم، وهو من الناقمين على عثمان لمَّا استقرض الوليد من بيت المال فطالبه ابن مسعود بردّ ما استقرضه، فأبىٰ الوليد وكتب إلى عثمان يخبره بذلك، فغضب عثمان وكتب إلى ابن مسعود إنَّما أنت خازن لنا، وغاظ ذلك ابن مسعود وألقى المفاتيح وقفل راجعاً إلى يثرب، فلمَّا انتهى إليها وجد عثمان على المنبر يخطب، فلمَّا رأى ابن مسعود قال يخاطب الحاضرين:

قدمت عليكم دويبة سوء من يمشي على طعامه يقيء ويسلح..

وردَّ عليه ابن مسعود قائلاً:

لست كذلك، ولكنِّي صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم بيعة الرضوان..

واندفعت عائشة منكرة على عثمان قائلة له:

أي عثمان، أتقول هذا لصاحب رسول الله؟..

وأمر عثمان جلاوزته بإخراج ابن مسعود من الجامع إخراجاً عنيفاً، وانبرى إليه أبو عبد الله بن زمعة فضرب به الأرض، وقيل بل احتمله (يحموم) غلام عثمان فاحتمله ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الأرض فانكسر ضلعه، وثار الإمام عليه السلام فخاطب عثمان بعنف قائلاً:

«يا عُثْمانُ، أَتَفْعَلُ هَذَا بِصاحِبِ رَسُولِ اللّهِ بِقَوْلِ الْوَلِيدِ بْنِ عَقَبَةَ؟..».

فقال عثمان:

ما بقول الوليد فعلت هذا، ولكنّي وجّهت زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة، فقال له ابن مسعود: إنَّ دمّ عثمان حلال..

وأنكر عليه الإمام أن يأخذ بقول زبيد قائلاً:

«أَحَلْتَ عَنْ زَبِيدٍ عَلَىٰ غَيْرِ ثِقَةٍ..»[1].

وحمل الإمام ابن مسعود إلى منزله، وقام برعايته حتى أبِل من مرضه، وقاطعه عثمان وهجره، وفرض عليه الإقامة الجبرية في يثرب، وقطع عنه عطاءه.. ومرض ابن مسعود مرضه الذي توفّي فيه فدخل عليه عثمان عائداً فقال له:

ما تشتكي؟

ذنوبي؟

ما تشتهي؟

رحمة ربّي.

أدعو لك طبيباً؟

الطبيب أمرضني.

آمر لك بعطائك؟

منعتني عنه وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا مستغني عنه!

يكون لولدك.

رزقهم على الله!

استغفر لي يا أبا عبد الرَّحمٰن.

اسأل الله أن يأخذ لي منك بحقّي..[2].

الثورة على عثمان:

وكان من الطبيعي أن تندلع الثورة على عثمان بعدما اقترفه من الأحداث الجسام،

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/٣٦.

(٢) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام: ١/٢٥٣ ـ ٢٥٤.

ولم تكن عفوية، وإنَّما كانت نتيجة للنضج الاجتماعي وكانت إصلاحية إلى حدٍّ كبير ـ كما يقول العلَّامة العلائلي ـ:

لقد شاع التنافر في جميع الأوساط وأخذت الأندية والمجالس تتحدَّث عن مظالم عثمان، وسوء سياسته[١].

مذكّرة المهاجرين لأهل مصر:

ورفع المهاجرون وخيار الصحابة مذكَّرة لأهل مصر يستنجدون بهم للقيام بتغيير نظام الحكم القائم.

وحفلت هذه المذكرة بالأخطاء التي ارتكبها عثمان وهي:

١ ـ تبديل كتاب الله وإلغاء أحكامه ونبذ نصوصه.

٢ ـ تغيير سُنَّة الرسول.

٣ ـ تبديل أحكام الخليفتين.

٤ ـ استئثار السلطة بالفيء.

٥ ـ صرف الخلافة الإسلامية عن مفاهيمها الخيرة إلى ملك عضوض[٢].

مذكرة أُخرى لأهل الثغور:

وأرسل صحابة الرسول ﷺ مذكَّرة أُخرى لأهل الثغور جاء فيها:

إنَّكم إنَّما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عزَّ وجلَّ تطلبون دين محمَّد ﷺ، فإنَّ دين محمَّد قد أفسده خليفتكم فأقيموه...

وفود الأمصار:

واستجابت الأمصار الإسلامية لنداء الصحابة، فأرسلت وفودها إلى المدينة للاطّلاع على حال عثمان، أمَّا الوفود فهي:

١ ـ الوفد المصري.

٢ ـ الوفد الكوفي.

٣ ـ الوفد البصري.

---

(١) الإمام الحسين عليه السلام: ص٦٦.

(٢) حياة الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام: ١/ ٣٧٨ ـ ٣٨٠.

مذكَّرة المصريِّين لعثمان:

ورفع الوفد المصري مذكَّرة لعثمان يدعوه فيها إلى الاستقامة في سلوكه والتوازن في سياسته.

استجارته بالإمام:

وسدَّت على عثمان جميع الوسائل، فلم ير هناك طريقاً مفتوحاً ليتخلَّص به ممَّا هو فيه من المحنة، ورأى أنَّه لا ملجأ له إلاَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فاستغاث به، فأجابه الإمام بعد أن شرط عليه أن يدعو القوم ويلتزم له بالسير على كتاب الله وسُنَّة نبيّه، فأجابه إلى ذلك، وانطلق الإمام صوب الثوَّار وهو يحمل لهم الضمان والالتزام بجميع ما طلبوه، فلمَّا رأوا الإمام قالوا له:

وراءك؟

فأجابهم الإمام بالالتزام الكامل بجميع مطالبهم قائلاً:

«تُعْطَوْنَ كِتَابَ اللَّهِ، وَتُعْتَبُونَ مِنْ كُلِّ مَا سَخِطْتُمْ عَلَيْهِ..».

أتضمن ذلك؟..

«نَعَمْ..».

رضينا.

وأقبل وجوه الوفد وأشرافهم مع الإمام فدخلوا على عثمان وعاتبوه على سياسته، وطلبوا منه أن يغيِّر سلوكه ويسير بين المسلمين بسياسة قوامها العدل الخالص والحقّ المحض، فأجابهم إلى ذلك.

نقضه للعهد:

ومن المؤسف أنَّ عثمان نقض ما قطعه على نفسه ولم يف للمسلمين بما عاهدهم عليه.

الحصار على عثمان:

وفرض الثوَّار الحصار على عثمان، وأحاطوا بداره وهم يهتفون بسقوطه، ويطالبونه بالاستقالة من منصبه، وفي أثناء تلك المحنة الحازبة التي أحاطت بعثمان انبرى مروان إلى الثوَّار فأشعل نار الثورة في نفوسهم ودفعهم إلى الإطاحة بحكم عثمان قائلاً لهم:

ما شأنكم؟ كأنَّكم قد جئتم لنهب، شاهت الوجوه تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا أخرجوا عنّا..

وكانت هذه الكلمات الطائشة قد أشعلت فتيل الحرب على عثمان، ونقلت إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فخفَّ مسرعاً إلى عثمان وقال له:

«أما رَضِيتَ مِنْ مَرْوانَ، وَلَا رَضِيَ مِنْكَ إِلَّا بِتَحَرُّفِكَ عَنْ دِينِكَ وَعَنْ عَقْلِكَ، مِثْلَ جَمْلِ الظَّعِينَةِ يُقَادُ حَيْثُ يَشاءُ رَبُّهُ، وَاللَّهِ! مَا مَرْوانُ بِذِي رَأْيٍ فِي دِينِهِ وَلَا فِي نَفْسِهِ، وَأَيْمُ اللَّهِ لأَرَاهُ يُوْرِدُكَ وَلَا يُصْدِرُكَ، وَمَا أَنَا عَائِدٌ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا لِمُعَاتَبَتِكَ، أَذْهَبْتَ شَرَفَكَ، وَغُلِبْتَ عَلَىٰ أَمْرِكَ..».

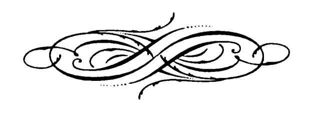
وتركه الإمام وانصرف عنه، والثوّار قد أحاطوا به، والتفتت نائلة زوج عثمان إلى مروان وبني أُميَّة فقالت لهم:

أنتم واللَّهِ! قاتلوه وميتِّموا أطفاله..

والتفتت إلى زوجها تحذِّره من مروان قائلة له:

إنَّك متى أطعت مروان قتلك..

لقد كان مروان من أهمّ الأسباب التي أدَّت إلى قتل عثمان، فقد أطاعه عثمان إطاعة عمياء، وهو يدفع به إلى مهالك من دون أن يحسّ عثمان بذلك.



الإمام علي عليه السلام والقرآن

والشي المؤكَّد الذي لا ريب فيه أنَّ سيِّد العترة النبوية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو أوَّل من عرف القرآن ووقف على محتوياته، ومنه أخذ تلميذه عبد الله بن عباس الذي هو ألمع مفسِّر للقرآن، وقد كانت نسبة علومه ومعارفه في القرآن بالنسبة إلى علوم الإمام عليه السلام كنسبة قطرة من المطر إلى ماء البحر.

واستمدَّ هذا الإمام الملهم العظيم تفسيره للقرآن من أخيه وابن عمِّه رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد أحاطه علماً بتفسير كلّ آية نزلت عليه، كما أعلن الإمام ذلك بقوله:

«فَلَمْ يُنْزِلِ اللَّهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ آيَةً مِنَ الْقُرآنِ إِلَّا وَقَدْ جَمَعْتُها، وَلَيْسَتْ مِنْهُ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ قَرَأَنِيها وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَها»[1].

وقال عليه السلام:

«ما نَزَلَتْ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ عَلِمْتُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَفِيمَنْ نَزَلَتْ، وَفِي أَيِّ شَيْءٍ نَزَلَتْ، وَفِي سَهْلٍ نَزَلَتْ، أَوْ فِي جَبَلٍ نَزَلَتْ»[2].

وبهذا كان الإمام عليه السلام أوَّل من أحاط بالقرآن علماً، ووقف على مضامينه ومحتوياته.

كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في أيَّام حكومة الخلفاء قد انصرف إلى تفسير القرآن الكريم، وبيان مفرداته، وما يتعلَّق بآياته من شؤون الكون، وأُمور التوحيد، وعجائب المخلوقات، وغير ذلك ممَّا يرتبط بتفسير القرآن.

من المؤكَّد أنَّه لو ثُنيت الوسادة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، وتسلَّم قيادة الحكم لتطوَّرت الحياة الإسلاميَّة، وسادت القيم الأصيلة والمُثل العليا في الأرض، فقد كان هذا الإمام الملهم العظيم يملك طاقات هائلة من العلم لا يملكها غيره، فهو باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله الذي لا حدود لمعارفه وعلومه.

---

(١) بحار الأنوار: ٩٢/ ٤٠.

(٢) أمالي الصدوق: ص١٦٦.

وقد أعلن الإمام عليه السلام أنَّه لو تسلَّم القيادة بعد النبي ﷺ لأفتى جميع الملل والأديان بما في كتبهم.

قال عليه السلام: «**أَمَا وَاللَّهِ! لَوْ ثُنِيَتْ لِيَ الْوِسَادَةُ فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا لَأَفْتَيْتُ أَهْلَ التَّوْرَاةِ بِتَوْرَاتِهِمْ حَتَّى تَنْطِقَ التَّوْرَاةُ فَتَقُولَ: صَدَقَ عَلِيٌّ مَا كَذَبَ، لَقَدْ أَفْتَاكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيَّ. وَأَفْتَيْتُ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِإِنْجِيلِهِمْ حَتَّى يَنْطِقَ الْإِنْجِيلُ فَيَقُولَ: صَدَقَ عَلِيٌّ مَا كَذَبَ، لَقَدْ أَفْتَاكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيَّ. وَأَفْتَيْتُ أَهْلَ الْقُرْآنِ بِقُرْآنِهِمْ حَتَّى يَنْطِقَ الْقُرْآنُ فَيَقُولَ: صَدَقَ عَلِيٌّ مَا كَذَبَ، لَقَدْ أَفْتَاكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيَّ، وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْقُرْآنَ لَيْلاً وَنَهَاراً فَهَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ يَعْلَمُ مَا نَزَلَ فِيهِ؟ وَلَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَأَخْبَرْتُكُمْ بِمَا كَانَ، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:** ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾»(١).

ودلَّ حديث الإمام عليه السلام على مدى ثرواته العلميَّة التي شملت جميع ما يقع في الدُّنيا من أحداث فيما هو كائن وما يكون حتى يرث الله الأرض ومَن عليها.

ومن المؤسف حقّاً أنَّ الأُمَّة لم تستغلّ هذا العملاق العظيم، ولم تحتضنه ليفيض عليها بعلومه ومعارفه وثقافته، ويعرِّفهم بما في كتاب الله العظيم من أسرار مذهلة، فقد باعدوا بينه وبين الحياة السياسية العامَّة في البلاد، وأعلنت بعض الشخصيات البارزة من قريش أنَّه لا تجتمع الخلافة والنُّبوَّة في بيت واحد، وهو منطق مهزول باعثه الحسد للإمام، والحقد على الأُسرة النبوية، فقد آلت الخلافة إلى بني أُميَّة وبني العباس، وهم لا رصيد لهم من علم وتقوى وفكر، وقد واجه المسلمون في عهودهم ألواناً مريرة من الاضطهاد والتنكيل.

انحناءٌ وتقديسٌ أمام القرآن الكريم

وانحنى الإمام إجلالاً وخضوعاً أمام القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد أضفىٰ عليه أجمل الأوصاف، وأسمىٰ النعوت.

لقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في طليعة من قيَّم القرآن، وأشاد بفضله، وعظيم منزلته، وهذه كوكبة من الأخبار التي أدلى بها عن أهمية القرآن المجيد:

---

(١) بحار الأنوار: ٩٢/٧٨، والآية ٣٩ من سورة الرعد.

وصف القرآن:

ووصف الإمام عليه السلام القرآن الكريم بهذه الصفات الرفيعة، قال عليه السلام:

«ظاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، ظَاهِرُهُ حُكْمٌ، وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ»(١).

القرآن ناطق:

من كلمات الإمام الرائعة في وصف القرآن الكريم قوله:

«وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، نَاطِقٌ لَا يَعْيَا لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ»(٢).

القرآن يتحدَّث عن أنباء الماضي والمستقبل:

قال عليه السلام: **«الْقُرْآنُ فِيهِ خَبَرُ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَنَبَأُ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ فِيمَا بَيْنَكُمْ»**.

القرآن حبل الله:

قال عليه السلام: **«عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ، وَالعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ وَوُلُوجُ السَّمْعِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ»**(٣).

القرآن هدى ونور:

أوصى الإمام عليه السلام أصحابه برعاية القرآن والتمسُّك به فإنَّه نور وهدى، قال عليه السلام:

«اعْلَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ هُدَىٰ النَّهَارِ، وَنُورُ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْ جَهْدٍ وَفَاقَةٍ...»(٤).

الحثّ على تعلُّم القرآن:

حثَّ الإمام عليه السلام أصحابه على تعلُّم القرآن الكريم، قال عليه السلام:

«تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ»(٥).

---

(١) البصائر والذخائر: ص٧.

(٢) نهج البلاغة: ٢/ ١٦.

(٣) بحار الأنوار: ٩٢/ ٢٣.

(٤) أصول الكافي: ٢/ ٦٠٠.

(٥) نهج البلاغة: ص٢١٤.

القرآن ربيع القلوب:

أدلى الإمام عليه السلام في بعض خطبه عمّا في القرآن الكريم من الفوائد التي لا يستغني عنها أحد، والتي منها أنّه ربيع القلوب، قال عليه السلام:

«فَإِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحداً بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ حَبْلُ اللّٰهِ الْمَتِينُ، وَسَبَبُهُ الأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلاءٌ غَيْرُهُ»[1].

وكثير من أمثال هذه الأحاديث أدلىٰ بها الإمام عليه السلام في فضل القرآن الكريم والإشادة به، وهي تحكي بصورة واضحة عن وعيه الكامل لكتاب الله العزيز، وتدبُّره التامّ لجميع ما فيه من حقول العلم والمعرفة، ولا شبهة أنَّه ليس هناك أحد من الصحابة قد وقف على القرآن الكريم حقيقته غير الإمام عليه السلام الذي هو باب مدينة علم النبي ﷺ.

كان من أهمّ ما عنى به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تفسير القرآن الكريم الذي هو رسالة الله تعالى الكبرى لعباده، ومنهجه الكامل لما فرض عليهم من أحكام، وليس هناك أحد غيره أدرى بما في القرآن من ناسخ ومنسوخ، وعامّ وخاصّ، ومجمل ومبيَّن، ومطلق ومقيَّد فقد علَّمه النبي ﷺ جميع ذلك، وقد صرَّح الإمام بذلك بقوله:

«سَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللّٰهِ، فَوَاللّٰهِ! مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللّٰه فِي لَيْلٍ وَنَهارٍ وَلَا مسِيرٍ، وَلَا مَقامٍ إِلَّا وَقَدْ أَقْرَأَنِيها رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَها...».

فانبرى إليه أحد قردة ذلك المجتمع ابن الكوّاء الدنس الخبيث ساخراً فقال له: يا أمير المؤمنين، فما كان ينزل عليه، وأنت غائب عنه؟

فأجابه الإمام عليه السلام:

«كَانَ يَحْفَظُ عَلَيَّ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ مَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهُ، حَتَّىٰ أَقْدِمَ عَلَيْهِ فَيُقْرِأُنِيهِ، وَيَقُولُ: يَا عَلِيُّ، أَنْزَلَ اللّٰهُ بَعْدَكَ عَلَيَّ كَذَا وَكَذا، وَتَأْوِيلُهُ كَذَا وَكَذَا، فَيُعَلِّمُنِي تَنْزِيلَهُ وَتَأْوِيلَهُ»[2].

لقد عهد النبي ﷺ إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بتفسير جميع ما نزل عليه من كتاب الله العظيم، وبيان محتوياته، ودقائقه وأسراره.

---

(١) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١٠/ ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ٩٢/ ٧٩. الاحتجاج: ص١٣٩.

في رحاب الدُّعاء

كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مولعاً بالدُّعاء، والابتهال إلى الله في جميع أوقاته، فكان يلهج بذكره في آناء اللَّيل وأدبار النهار، في حلّه وترحاله، وفي ساحات الحروب، ويذكر بمزيد من التذلُّل والخضوع عظيم قدرته، وعجيب مخلوقاته، وبديع صنعه، ورحمته على عباده، وقد أُثر عنه من الأدعية ما لا يُحصى.

فائدة الدُّعاء:

وحفل الدُّعاء إلى الله تعالىٰ بطاقات مشرقة من الفوائد، وقد أدلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ببعضها قال:

«جَعَلَ ـ أي اللَّهُ ـ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتىٰ شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلَا يَقْنَطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ لِيَكُون ذَلِكَ أَعْظَم لأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ، وَرُبَّما سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ. رَحُبَ وَادِيْكَ، وَعَزَّ نَادِيْكَ، وَلَا أَلَمَّ بِكَ أَلَمٌ، وَلَا طَافَ بِكَ عَدَمٌ»[1].

الدُّعاء سلاح المؤمن:

قال عليه السلام: **«الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ»**[2].

وجاء في حديث آخر للإمام عليه السلام: **«الدُّعَاءُ تُرْسُ الْمُؤْمِنِ، وَمَتىٰ تُكْثِرْ قَرْعَ الْبَابِ يُفْتَحْ لَكَ»**[3].

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/٢١٨ ـ ٢١٩.
(٢) أصول الكافي: ٢/٤٦٨.
(٣) أصول الكافي: ٢/٤٦٨.

فضل الدُّعاء:

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ الدُّعَاءُ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْعَفَافُ»[١].

الإقبال على الدُّعاء:

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَ قَلْبٍ لَاهٍ».

وكان عليه السلام يأمر بتوجُّه القلب في الدُّعاء إلى الميِّت قال: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ لِلْمَيِّتِ فَلَا يَدْعُ لَهُ وَقَلْبُهُ لَاهٍ عَنْهُ، وَلَكِن لِيَجْتَهِدْ لَهُ فِي الدُّعَاءِ»[٢].

الأوقات التي يُستجاب بها الدُّعاء:

قال عليه السلام: «اغْتَنِمُوا الدُّعَاءَ عِنْدَ أَرْبَعٍ: عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَعِنْدَ الأَذَانِ، وَعِنْدَ نُزُولِ الْغَيْثِ، وَعِنْدَ الْتِقَاءِ الصَّفَّيْنِ لِلشَّهَادَةِ»[٣].

فتح باب الإجابة:

قال عليه السلام: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْتَحَ بَابَ الدُّعَاءِ وَيُغْلِقَ عَلَيْهِ بَابَ الإِجَابَةِ»[٤].

وكان من وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا عَلِيّ! أُوْصِيكَ بِالدُّعَاءِ؛ فَإِنَّ مَعَهُ الإِجَابَة، وَبِالشُّكْرِ؛ فَإِنَّ مَعَهُ الْمَزِيد، وَأَنْهَاكَ عَنْ أَنْ تَخْفِرَ عَهْداً وَتُعِينَ عَلَيْهِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الْمَكْرِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، وَأَنْهَاكَ عَنْ الْبَغْيِ؛ فَإِنَّهُ مَن بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ»[٥].

حاجة الناس إلى الدُّعاء:

قال عليه السلام: «ما الْمُبْتَلَىٰ الَّذِي قَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْبَلَاءُ بِأَحْوَجَ إِلَىٰ الدُّعَاءِ مِنْ الْمُعافَىٰ الَّذِي لَا يَأْمَنُ الْبَلَاءَ»[٦].

---

(١) أُصول الكافي: ٢/٤٦٧.
(٢) أُصول الكافي: ٢/٤٧٣.
(٣) وسائل الشيعة: ٧/٦٤.
(٤) وسائل الشيعة: ٧/٢٧.
(٥) المصدر المتقدِّم: ص٢٩.
(٦) وسائل الشيعة: ٧/٢٨.

الثناء على الله قبل الدُّعاء:

ووضع الإمام عليه السلام منهجاً للدُّعاء، وهو أن يُثني الإنسان على الله تعالى ويمجِّده قبل الدُّعاء، فقد روي الإمام أبو عبد الله عليه السلام قال:

«إنَّ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: إنَّ الْمِدْحَةَ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ، فَإِذَا دَعَوْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَمَجِّدْهُ».

فقيل له: كيف يمجّد؟ فقال عليه السلام:

«تَقُولُ: يَا مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ! يَا فَعَّالاً لِمَا يُرِيدُ! يَا مَنْ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ! يَا مَنْ هُوَ بِالْمَنْظَرِ الأَعْلَىٰ! يَا مَنْ هُوَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»(١).

وأكّد الإمام عليه السلام ذلك في حديث آخر له قال:

«السُّؤَالُ بَعْدَ الْمَدْحِ، فَامْدَحُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ اسْأَلُوا الْحَوَائِجَ، أَثْنُوا عَلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَامْدَحُوهُ قَبْلَ طَلَبِ الْحَوَائِجِ»(٢).

ومعظم أدعية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد حفلت بتوحيد الله تعالى والثناء عليه، وهي تحمل طابع الإخلاص والعبودية المطلقة لله الواحد القهَّار، فقد حكت أدعيته مدى تذلّله أمام الله، وتضرّعه إليه، ومعرفته به.

دعاؤه عليه السلام في توحيد الله وتعظيمه

ومن أدعيته عليه السلام في توحيد الله وتعظيمه هذا الدُّعاء الشريف:

اللَّهُمَّ إِنَّكَ حَيٌّ لَا تَمُوتُ، وَصَادِقٌ لَا تَكْذِبُ، وَقَاهِرٌ لَا تُقْهَرُ، وَخَالِقٌ لَا تُعَانُ، وَقَرِيبٌ لَا تَبْعُدُ، وَقَادِرٌ لَا تُضَادُّ، وَغَافِرٌ لَا تَظْلِمُ، وَصَمَدٌ لَا تَطْعَمُ، وَقَيُّومٌ لَا تَنَامُ، وَمُجِيبٌ لَا تَسْأَمُ، وَبَصِيرٌ لَا تَرْتَابُ، وَجَبَّارٌ لَا تُعَانُ، وَعَظِيمٌ لَا تُرَامُ، وَعَلِيمٌ لَا تُعَلَّمُ، وقَوِيٌّ لَا تَضعفُ، وَحَلِيمٌ لَا تَعجلُ، وَعَظِيمٌ لَا تُوصفُ، ووَفِيٌّ لَا تُخلِفُ، وَعَادِلٌ لَا تَحِيفُ، وَغَالِبٌ لَا تُغْلَبُ، وَغَنِيٌّ لَا تَفْتَقِرُ، وَكَبِيرٌ لَا تَصْغَرُ، وَحَكِيمٌ لَا تَجُورُ، وَمَنِيعٌ لَا تُقْهَرُ، وَمَعْرُوفٌ لَا تُنْكَرُ، وَوَتْرٌ لَا تُسْتَأْنِسُ، وَفَرْدٌ لَا تَسْتَشِيرُ، وَوَهَّابٌ لَا تَمَلُّ، وَسَمِيعٌ لَا تَذْهَلُ، وَجَوَادٌ لَا تَبْخَلُ، وَعَزِيزٌ لَا تَذِلُّ، وَحَافِظٌ لَا تَغْفُلُ، وَقَائِمٌ لَا تَسْهُو، وَقَيُّومٌ لَا

---

(١) المصدر المتقدِّم: ص٨٠.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/ ٨٣. الخصال: ٢/ ١٦٩.

تَنَامُ، وَرَفِيقٌ لَا تَعْنِفُ، وَحَلِيمٌ لَا تَعْجَلُ، وَشَاهِدٌ لَا تَغِيبُ، وَمُحْتَجِبٌ لَا تُرَىٰ، وَدَائِمٌ لَا تَفْنَىٰ، وَبَاقٍ لَا تَبْلَىٰ، وَوَاحِدٌ لَا تُشْبِهُ، وَمُقْتَدِرٌ لَا تُنَازَعُ..

وألمَّت هذه الكلمات ببعض صفات الخالق العظيم، ونعوته التي يعرفها ويُحيط بها إمام المتّقين، وسيِّد العارفين. ويستمرّ الإمام في دعائه قائلاً:

يَا كَرِيمُ، يَا جَوَادُ، يَا مُتَكَرِّمُ، يَا قَرِيبُ، يَا مُجِيبُ، يَا مُتَعَالِي، يَا جَلِيلُ، يَا سَلَامُ، يَا مُؤْمِنُ، يَا مُهَيْمِنُ، يَا عَزِيزُ، يَا مُتَعَزِّزُ، يَا جَبَّارُ، يَا مُتَجَبِّرُ، يَا كَبِيرُ، يَا قَادِرُ، يَا مُقْتَدِرُ، يَا مَنْ يُنَادَى مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ بِأَلْسِنَةٍ شَتَّى، وَلُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَحَوَائِجَ مُتَتَابِعَةٍ، لَا يَشْغَلُكَ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ.

أَنْتَ الَّذِي لَا تَبِيدُ، وَلَا تُفْنِيكَ الدُّهُورُ، وَلَا تُغَيِّرُكَ الْأَزْمِنَةُ، وَلَا تُحِيطُ بِكَ الْأَمْكِنَةُ، وَلَا يَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، وَلَا يُشْبِهُكَ شَيْءٌ. وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَذٰلِكَ وَأَنْتَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَكَ أَكْرَمَ الْوُجُوه.

سَبُّوحٌ ذِكْرُكَ، قُدُّوسٌ أَمْرُكَ، وَاجِبٌ حَقُّكَ، نَافِذٌ قَضَاؤُكَ، لَازِمَةٌ طَاعَتُكَ، صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَيَسِّرْ لِي مِنْ أَمْرِي مَا أَخَافُ عُسْرَهُ، وَفَرِّجْ عَنِّي وَعَنْ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ مَا أَخَافُ كَرْبَهُ، وَسَهِّلْ لِي مَا أَخَافُ صُعُوبَتَهُ، وَخَلِّصْنِي مِمَّا أَخَافُ هَلَكَتَهُ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

يَا ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ! إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينِ...»[1].

دعاؤه ﷺ في الاستكانة والتذلّل أمام الله

من أدعية الإمام ﷺ هذا الدُّعاء الشريف الذي أبدىٰ فيه خشوعه وتذلّله وخشيته من الله تعالى وهذا نصّه:

إِلَهِي إِنْ حَمِدْتُكَ فَبِمَوَاهِبِكَ، وَإِنْ مَجَّدْتُكَ فَبِمُرَادِكَ، وَإِنْ سَأَلْتُكَ فَبِقُوَّتِكَ، وَإِنْ هَلَّلْتُكَ فَبِقُدْرَتِكَ، وَإِنْ نَظَرْتُ فَإِلَى رَحْمَتِكَ، وَإِنْ عَضَضْتُ فَعَلَى نِعْمَتِكَ.

إِلَهِي إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَشْغَلْهُ الْوُلُوعُ بِذِكْرِكَ، وَلَمْ يَزْوِهِ السَّفَهُ بِقُرْبِكَ، كَانَتْ حَيَاتُهُ عَلَيْهِ مِيتَةً، وَمِيتَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً.

إِلَهِي تَنَاهَتْ أَبْصَارُ النَّاظِرِينَ إِلَيْكَ بِسَرَائِرِ الْقُلُوبِ، وَطَالَتْ أَسْمَاعُ السَّامِعِينَ لَكَ

---

(١) الصحيفة العلوية: ص٧٤ ـ ٧٦.

بِخَفِيَّاتِ الصُّدُورِ، فَلَمْ يَلْقَ أَبْصَارَهُمْ رَدٌّ مَا يُرِيدُونَ، وَهَتَكْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حُجُبَ الْغَفْلَةِ فَسَكَنُوا فِي نُورِكَ، وَتَنَفَّسُوا بِرَوْحِكَ، فَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ مَغَارِسَ لِمَحَبَّتِكَ، وَأَبْصَارُهُمْ مَعَاكِفاً لِقُدْرَتِكَ، وَقَرَّبْتَ أَرْوَاحَهُمْ مِنْ قُدْسِكَ، فَجَالَسُوا اسْمَكَ بِوَقَارِ الْمُجَالَسَةِ، وَخُضُوعِ الْمُخَاطَبَةِ، فَأَقْبَلْتَ إِلَيْهِمْ إِقْبَالَ الشَّفِيقِ، وَأَنْصَتَّ لَهُمْ إِنْصَاتَ الرَّفِيقِ، وَأَجَبْتَ لَهُمْ إِجَابَاتِ الْأَحِبَّاءِ، وَنَاجَيْتَهُمْ مُنَاجَاةَ الْأَخِلَّاءِ، فَابْلُغْ بِيَ الْمَحَلَّ الَّذِي إِلَيْهِ وَصَلُوا وَلَا تَتْرُكْ بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَكُوتِ عِزِّكَ بَاباً إِلَّا فَتَحْتَهُ، وَلَا حِجَاباً مِنْ حُجُبِ الْغَفْلَةِ إِلَّا هَتَكْتَهُ، حَتَّى تُقِيمَ رُوحِي بَيْنَ ضِيَاءِ عَرْشِكَ، وَتَجْعَلَ لَهَا مَقَاماً نُصْبَ نُورِكَ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إِلَهِي مَا أَوْحَشَ طَرِيقاً لَا يَكُونُ رَفِيقِي فِيهِ أَمَلِي فِيكَ، وَأَبْعَدَ سَفَراً لَا يَكُونُ رَجَائِي مِنْهُ دَلِيلِي مِنْكَ، خَابَ مَنِ اعْتَصَمَ بِحَبْلِ غَيْرِكَ، وَضَعُفَ رُكْنُ مَنِ اسْتَنَدَ إِلَى غَيْرِ رُكْنِكَ، فَيَا مُعَلِّمَ مُؤَمِّلِيهِ الْأَمَلَ فَيُذْهِبُ عَنْهُمْ كَآبَةَ الْوَجَلِ، لَا تَحْرِمْنِي صَالِحَ الْعَمَلِ، وَاكْلَأْنِي كِلَاءَةَ مَنْ فَارَقَتْهُ الْحِيَلُ، فَكَيْفَ يَلْحَقُ مُؤَمِّلِيكَ ذُلُّ الْفَقْرِ وَأَنْتَ الْغَنِيُّ عَنْ مَضَارِّ الْمُذْنِبِينَ؟

إِلَهِي وَإِنَّ كُلَّ حَلَاوَةٍ مُنْقَطِعَةٌ، وَحَلَاوَةَ الْإِيمَانِ تَزْدَادُ حَلَاوَتُهَا اتِّصَالاً بِكَ. إِلَهِي وَإِنَّ قَلْبِي قَدْ بَسَطَ أَمَلَهُ فِيكَ فَأَذِقْهُ مِنْ حَلَاوَةِ بَسْطِكَ إِيَّاهُ الْبُلُوغَ لِمَا أَمَّلَ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إِلَهِي أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ مَنْ يَعْرِفُكَ كُنْهَ مَعْرِفَتِكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَسْلُكَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ أَعَذْتَ بِهَا أَحِبَّاءَكَ مِنْ خَلْقِكَ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إِلَهِي أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ الَّذِي قَدْ تَحَيَّرَ فِي رَجَائِهِ فَلَا يَجِدُ مَلْجَأً، وَلَا مَسْنَداً يَصِلُ بِهِ إِلَيْكَ، وَلَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَيْكَ إِلَّا بِكَ، وَبِأَرْكَانِكَ وَمَقَامَاتِكَ الَّتِي لَا تَعْطِيلَ لَهَا مِنْكَ، فَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي ظَهَرْتَ بِهِ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِكَ فَوَحَّدُوكَ وَعَرَفُوكَ فَعَبَدُوكَ بِحَقِيقَتِكَ أَنْ تُعَرِّفَنِي نَفْسَكَ لِأُقِرَّ لَكَ بِرُبُوبِيَّتِكَ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بِكَ، وَلَا تَجْعَلْنِي يَا إِلَهِي مِمَّنْ يَعْبُدُ الِاسْمَ دُونَ الْمَعْنَى، وَالْحَظْنِي بِلَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِكَ تُنَوِّرُ بِهَا قَلْبِي بِمَعْرِفَتِكَ خَاصَّةً، وَمَعْرِفَةِ أَوْلِيَائِكَ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1].

دعاؤه عليه السلام عند طلوع الشّمس

إذا أشرقت الشّمس، وهي من آيات الله العظيمة دعا الإمام عليه السلام بهذا الدُّعاء:

(١) بحار الأنوار: ٩١/ ٩٥، ربيع الأبرار: ٢/ ٢٥٣.

أَيَّتُهَا الشَّمْسُ الْبَدِيعَةُ التَّصْوِيرِ، الْمُعْجِزَةُ التَّقْدِيرِ، الَّتِي جُعِلَتْ سِرَاجاً لِلأَبْصَارِ، وَنَفْعاً لِسُكَّانِ الأَمْصَارِ، شُرُوقُكِ حَيَاةٌ، وَغُرُوبُكِ وَفَاةٌ، إِنْ طَلَعَتِ بِأَمْرٍ عَزِيزٍ، وَإِنْ رَجَعْتِ إِلَىٰ مُسْتَقَرٍّ حَرِيزٍ، أَسْأَلُ الَّذِي زَيَّنَ بِكِ السَّمَاءَ، وَأَلْبَسَكِ الضِّيَاءَ، وَصَدَّعَ لَكِ أَرْكَانَ الْمَطَالِعِ، وَحَجَبَكِ بِالشُّعَاعِ اللَّامِعِ، فَلَا يُشْرِفُ بِكِ شَيْءٌ إِلَّا امْتَحَقَ، وَلَا يُوَاجِهُكِ بَشَرٌ إِلَّا احْتَرَقَ، أَنْ يَهَبَ لَنَا بِكِ مِنَ الصِّحَّةِ، وَدَفْعِ الْعِلَّةِ، وَرَدِّ الْغُرْبَةِ، وَكَشْفِ الْكُرْبَةِ، وَأَنْ يَقِينَا مِنَ الزَّلَلِ، وَمُتَابَعَةِ الْهَوَىٰ، وَمُصَاحَبَةِ الرَّدَىٰ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا مِنَ الْعُمْرِ بِأَطْوَلِهِ، وَمِنَ الْعَمَلِ بِأَفْضَلِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَكِ لِقَضَاءٍ جَدِيدٍ سَعِيدٍ، يُؤْذِنُ بِلِبَاسِ الصِّحَّةِ، وَيَضْمَنُ دِفَاعَ النِّقْمَةِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَتْمِمْ عَلَيْنَا آلاءَكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِيهَا وَاحْرُسْ عَلَيْنَا عَوارِفَكَ الَّتِي أَسْدَيْتَنِيهَا إِنَّكَ وَلِيُّ الإِحْسَانِ، وَوَاهِبُ الإِمْتِنَانِ، ذُو الطَّوْلِ الشَّدِيدِ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[1].

مناجاة الإمام عليه السلام

ومن مناجاة الإمام عليه السلام هذه المناجاة التي دلَّت على تعلُّقه بالله تعالى وشدَّة حبّه له، وإيمانه به، وهذا نصّها:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الأَمَانَ، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، وَأَسْأَلُكَ الأَمَانَ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[3]، وَأَسْأَلُكَ الأَمَانَ يَوْمَ ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[4]، وَأَسْأَلُكَ الأَمَانَ يَوْمَ ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾[5]، وَأَسْأَلُكَ الأَمَانَ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[6]، وَأَسْأَلُكَ الأَمَانَ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[7]، وَأَسْأَلُكَ الأَمَانَ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[8]، وَأَسْأَلُكَ الأَمَانَ يَوْمَ ﴿يَوَدُّ

---

(١) جمال الأسبوع/للسيِّد ابن طاووس: ص٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٢) سورة الشعراء: الآيتان ٨٨ و٨٩.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٢٧.
(٤) سورة الرَّحمٰن: الآية ٤١.
(٥) سورة لقمان: الآية ٣٣.
(٦) سورة غافر: الآية ٥٢.
(٧) سورة الانفطار: الآية ١٩.
(٨) سورة عبس: الآيات ٣٤ ـ ٣٧.

ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾»[1] . . .

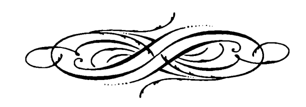
وحكى هذا المقطع شدَّة خوف الإمام يوم القيامة من الله تعالى وعظيم إنابته إليه، ويستمرّ الإمام في مناجاته قائلاً:

مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ، أَنْتَ الْمَوْلَى وَأَنَا الْعَبْدُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْعَبْدَ إِلَّا الْمَوْلَى. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْمَالِكُ وَأَنَا الْمَمْلُوكُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمَمْلُوكَ إِلَّا الْمَالِكُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْعَزِيزُ وَأَنَا الذَّلِيلُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الذَّلِيلَ إِلَّا الْعَزِيزُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْخَالِقُ وَأَنَا الْمَخْلُوقُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمَخْلُوقَ إِلَّا الْخَالِقُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْعَظِيمُ وَأَنَا الْحَقِيرُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْحَقِيرَ إِلَّا الْعَظِيمُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْقَوِيُّ وَأَنَا الضَّعِيفُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الضَّعِيفَ إِلَّا الْقَوِيُّ، مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْغَنِيُّ وَأَنَا الْفَقِيرُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْفَقِيرَ إِلَّا الْغَنِيُّ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْمُعْطِي وَأَنَا السَّائِلُ، وَهَلْ يَرْحَمُ السَّائِلَ إِلَّا الْمُعْطِي، مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْحَيُّ وَأَنَا الْمَيِّتُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمَيِّتَ إِلَّا الْحَيُّ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْبَاقِي وَأَنَا الْفَانِي، وَهَلْ يَرْحَمُ الْفَانِيَ إِلَّا الْبَاقِي، مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الدَّائِمُ وَأَنَا الزَّائِلُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الزَّائِلَ إِلَّا الدَّائِمُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الرَّازِقُ وَأَنَا الْمَرْزُوقُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمَرْزُوقَ إِلَّا الرَّازِقُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْجَوَادُ وَأَنَا الْبَخِيلُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْبَخِيلَ إِلَّا الْجَوَادُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْمُعَافِي وَأَنَا الْمُبْتَلَى، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمُبْتَلَى إِلَّا الْمُعَافِي. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْكَبِيرُ وَأَنَا الصَّغِيرُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الصَّغِيرَ إِلَّا الْكَبِيرُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْهَادِي وَأَنَا الضَّالُّ، وَهَلْ يَرْحَمُ الضَّالَّ إِلَّا الْهَادِي. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ وَأَنَا الْمَرْحُومُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمَرْحُومَ إِلَّا الرَّحْمَنُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ السُّلْطَانُ وَأَنَا الْمُمْتَحَنُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمُمْتَحَنَ إِلَّا السُّلْطَانُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الدَّلِيلُ وَأَنَا الْمُتَحَيِّرُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمُتَحَيِّرَ إِلَّا الدَّلِيلُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْغَفُورُ وَأَنَا الْمُذْنِبُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمُذْنِبَ إِلَّا الْغَفُورُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْغَالِبُ وَأَنَا الْمَغْلُوبُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمَغْلُوبَ إِلَّا الْغَالِبُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الرَّبُّ وَأَنَا الْمَرْبُوبُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمَرْبُوبَ إِلَّا الرَّبُّ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ أَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ وَأَنَا الْخَاشِعُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْخَاشِعَ إِلَّا الْمُتَكَبِّرُ. مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ، ارْحَمْنِي

(١) سورة المعارج: الآيات ١١ ـ ١٦.

بِرَحْمَتِكَ، وَارْضَ عَنِّي بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ وَفَضْلِكَ، يَا ذَا الْجُودِ وَالْإِحْسَانِ وَالطَّوْلِ وَالِامْتِنَانِ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ[١].

أبدى إمام العارفين في هذه المناجاة جميع ألوان التذلُّل والخضوع إلى الله تعالى، فقد ذاب من خشيته، وآمن إيماناً لا يخامره شكّ بأنَّ الكون كلّه خاضع لأوامر الله وإرادته فلذا التجأ إليه في جميع أُموره وشؤونه.



(١) مصباح الزائر: ص٨٨ ـ ٩٠. مزار المشهدي (مخطوط).

من وصايا الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم للإمام علي عليه السلام

وصية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للإمام عليه السلام

قال النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام: «يا عَلِيُّ، أُوْصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا عَنِّي.

وكان من بنود وصيته صلى الله عليه وآله: إِنَّ الْيَقِينَ أَنْ لَا تُرْضِيَ أَحداً بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلَا تَحْمَدَ أَحداً عَلَى مَا آتَاكَ اللَّهُ، وَلَا تَذُمَّ أَحداً عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، فَإِنَّ الرِّزْقَ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَصْرِفُهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ، إِنَّ اللَّهَ بِحُكْمِهِ وَفَضْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضىٰ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ.

يَا عَلِيُّ، إِنَّهُ لَا فَقْرَ أَشَدُّ مِنَ الْجَهْلِ، وَلَا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ، وَلَا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ، وَلَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلَا وَرَعَ كَالْكَفِّ ـ يعني عن محارم اللَّهِ ـ، وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلَا عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ.

يَا عَلِيُّ، آفَةُ الْحَدِيثِ الْكَذِبُ، وَآفَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ، وَآفَةُ الْعِبَادَةِ الْفَتْرَةُ، وَآفَةُ السَّمَاحَةِ الْمَنُّ، وَآفَةُ الشَّجَاعَةِ الْبَغْيُ، وَآفَةُ الْجَمَالِ الْخُيَلَاءُ، وَآفَةُ الْحَسَبِ الْفَخْرُ.

يَا عَلِيُّ، إِنَّكَ لَا تَزَالُ بِخَيْرٍ ما حَفِظْتَ وَصِيَّتِي، أَنْتَ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَكَ»(١).

وصية أُخرى للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أُوْصِيكَ يَا عَلِيُّ فِي نَفْسِكَ بِخِصالٍ فَاحْفَظْها ـ اللَّهُمَّ أَعِنْهُ ـ:

الأولىٰ: الصِّدْقُ فَلَا يَخْرُجْ مِنْ فِيْكَ كِذْبٌ أَبَداً.

والثانية: الْوَرَعُ فَلَا تَجْتَرِىء عَلَىٰ خِيَانَةٍ أَبَداً.

والثالثة: الْخَوْفُ مِنْ اللَّهِ كَأَنَّكَ تَراهُ.

---

(١) المحاسن/ البرقي: ص١٣.

والرابعة: الْبُكَاءُ لِلَّهِ، يبْنىٰ لَكَ بِكُلِّ دَمْعَةٍ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ.

والخامسة: بَذْلُكَ مَالَكَ وَدَمَكَ دُوْنَ دِيْنِكَ.

السادسة: الأَخْذُ بُسُنَّتِي فِي صَلَاتِي وَصَوْمِي وَصَدَقَتِي.

فأَمَّا الصِّيامُ فَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فِي الشَّهْرِ، الْخَمِيْسُ أَوَّلُ الشَّهْرِ، وَالأَرْبُعاءُ فِي وَسَطِ الشَّهْرِ، وَالْخَمِيْسُ فِي آخِرِ الشَّهْرِ.

وَالصَّدَقَةُ بِجُهْدِكَ، حَتَّىٰ تَقُولَ قَدْ أَسْرَفْتُ، وَلَمْ تُسْرِفْ.

وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ، كرَّر ذلك أربع مرَّات، وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ الزَّوَالِ، وَعَلَيْكَ بِرَفْعِ يَدَيْكَ إِلَىٰ رَبِّكَ وَكَثْرَةِ تَقَلُّبِها، وَعَلَيْكَ بِتَلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَعَلَيْكَ بِالسِّوَاكِ لِكُلِّ وُضُوْءٍ، وَعَلَيْكَ بِمَحَاسِنِ الأَخْلَاقِ فَارْتَكِبْها وَبِمَساوِىءَ الأَخْلَاقِ فَاجْتَنِبْها، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَلَا تَلُوْمَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ»[١].

من وصايا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للإمام عليه السلام

من وصايا الرسول صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام:

«يَا عَلِيُّ، النَّوْمُ أَرْبَعَةٌ: نَوْمُ الأَنْبِياءِ عَلَىٰ أَقْفِيَتِهِمْ، وَنَوْمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ أَيْمَانِهِمْ، وَنَوْمُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَىٰ أَيْسَارِهِمْ، وَنَوْمُ الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ وُجُوْهِهِمْ»[٢].

وصف كامل للإسلام

روى خلاس بن عمر قال:

كنَّا جلوساً عند عليّ بن أبي طالب إذ أتاه رجل من خزاعة، فقال: يا أمير المؤمنين، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله ينعت الإسلام؟

قال: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ:

«بُنِي الإِسْلَامُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ:

عَلَىٰ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، وَالْجِهَادِ وَالْعَدْلِ.

وَلِلصَّبْرِ أَرْبَعُ شُعَبٍ:

---

(١) المحاسن: ص١٣ ـ ١٤. الروضة: ص٧٩.

(٢) بحار الأنوار: ٧٤/ ٥٥.

الشَّوْقُ، وَالشَّفَقَةُ، وَالزَّهادَةُ، وَالتَّرَقُّبُ، فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَواتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ رَجَعَ عَنْ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيا تَهاوَنَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ.

وَلِلْيَقِينِ أَرْبَعُ شُعَبٍ:

تَبْصِرَةُ الْفِطْنَةِ، وَتَأْوِيلُ الْحِكْمَةِ، وَمَعْرِفَةُ الْعِبْرَةِ، وَاتِّبَاعُ السُّنَّةِ، فَمَنْ أَبْصَرَ الْفِطْنَةَ تَأَوَّلَ الْحِكْمَةَ، وَمَنْ تَأَوَّلَ الْحِكْمَةَ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ اتَّبَعَ السُّنَّةَ، وَمَنِ اتَّبَعَ السُّنَّةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الأَوَّلِينَ.

وَلِلْجِهادِ أَرْبَعُ شُعَبٍ:

الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقُ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنآنُ الْفَاسِقِينَ، فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظَهْرَ الْمُؤْمِنِ، وَمَنْ نَهىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أَنْفَ الْمُنَافِقِ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمواطِنِ قَضىٰ الَّذِي عَلَيْهِ وَأَحْرَزَ دِيْنَهُ، وَمَنْ شَنَأَ الْفَاسِقِينَ فَقَدْ غَضِبَ لِلَّهِ، وَمَنْ غَضِبَ لِلَّهِ يَغْضَبُ اللَّهُ لَهُ.

وَلِلْعَدْلِ أَرْبَعُ شُعَبٍ:

غَوْصُ الْفَهْمِ، وَزَهْرَةُ الْعِلْمِ، وَشَرَائِعُ الْحُكْمِ، وَرَوْضَةُ الْحِلْمِ؛ فَمَنْ غَاصَ الْفَهْمَ فَسَّرَ جُمَلَ الْعِلْمِ، وَمَنْ رَعىٰ زَهْرَةَ الْعِلْمِ عَرَفَ شَرَائِعَ الْحُكْمِ وَوَرَدَ رَوْضَةَ الْحِلْمِ، وَمَنْ وَرَدَ رَوْضَةَ الْحِلْمِ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ وَهُمْ فِي رَاحَةٍ»[1].

الجهاد في الفتنة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَدْ كَتَبَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ الْجِهَادَ فِي الْفِتْنَةِ مِنْ بَعْدِي، كَمَا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْجِهَادَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مَعِي.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْفِتْنَةُ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْنَا فِيهَا الْجِهَادُ.

قَالَ: فِتْنَةُ قَوْمٍ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَهُمْ مُخَالِفُونَ لِسُنَّتِي، وَطَاعِنُونَ فِي دِينِي.

فَقُلْتُ: فَعَلَامَ تُقَاتِلُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ؟

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٧٤ ـ ٧٥.

فَقَالَ: عَلَىٰ إِحْدَاثِهِمْ فِي دِيْنِهِمْ وَفِرَاقِهِمْ لأَمْرِي وَاسْتِحْلَالِهِمْ دِمَاءَ عِتْرَتِي»[١].

الدُّنيا سجن المؤمن

جاء في وصيَّة النبيّ ﷺ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، إِنَّ الدُّنْيا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ.

يا عَلِيُّ، أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَىٰ الدُّنْيا: اخْدِمِي مَنْ خَدَمَنِي، وَأَتْعِبِي مَنْ خَدَمَكَ.

يا عَلِيُّ، إِنَّ الدُّنْيا لَوْ عَدِلَتْ عَنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوْضَةٍ لَمَا سُقِيَ الْكَافِرُ مِنْهَا شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ.

يا عَلِيُّ، مَا أَحَدٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ يَتَمَنَّىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ لَمْ يُعْطَ مِنَ الدُّنْيا إِلَّا قُوْتاً»[٢].

مكارم الأخلاق

جاء في وصيَّة النبي ﷺ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، ثَلَاثَةٌ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ: أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتَحْلُمَ عَمَّنْ جَهِلَ حَقَّكَ»[٣].

حسن الأخلاق

من وصايا النبيّ ﷺ للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، أَحْسِنْ خُلُقَكَ مَعَ أَهْلِكَ وَجِيْرانِكَ وَمَنْ تُعَاشِرُ وَتُصَاحِبُ مِنَ النَّاسِ تُكْتَبْ عِنْدَ اللَّهِ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ»[٤].

قضاء حوائج الناس

قال رسول الله ﷺ عليه السلام للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، الْحَاجَةُ أَمَانَةُ اللَّهِ عَنْدَ خَلْقِهِ، فَمَنْ كَتَمَها عَلَىٰ نَفْسِهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ مَنْ

---

(١) وسائل الشيعة: ٦/ ٦١.

(٢) وسائل الشيعة: ٦/ ٣١٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٣٣٥.

(٤) بحار الأنوار: ٧٤/ ٦٧.

صَلَّىٰ، وَمَنْ كَشَفَهَا إِلَىٰ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُ وَلَمْ يَفْعَلْ فَقَدْ قَتَلَهُ، أَما إِنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ بِسَيْفٍ وَلَا سِنَانٍ وَلَا سَهْمٍ، وَلَكِنْ قَتَلَهُ بِمَا نَكىٰ مِنْ قَلْبِهِ»[١].

أفضل الناس

جاء في وصية النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، ثَلَاثَةٌ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ فَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ:

مَنْ أَتَىٰ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.

وَمَنْ وَرَعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ.

وَمَنْ قَنَعَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ أَغْنَىٰ النَّاسِ».

ثمَّ قال صلى الله عليه وآله:

«يا عَلِيُّ، ثَلَاثَةٌ مَنْ لَمْ يَكُنَّ فِيهِ لَمْ يَتِمَّ عَمَلُهُ:

وَرَعٌ يَحْجِزُهُ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَخُلُقٌ يُدَارِي بِهِ النَّاسَ، وَحِلْمٌ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ الْجَاهِلِ».

إلى أن قال صلى الله عليه وآله:

«يا عَلِيُّ، الإِسْلَامُ عُرْيَانٌ، وَلِبَاسُهُ الْحَيَاءُ، وَزِينَتُهُ الْعَفَافُ، وَمُرُوَّتُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَعِمَادُهُ الْوَرَعُ»[٢].

علامات للمؤمن ولغيره

ومن وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثَ عَلَامَاتٍ:

الصِّيامُ وَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ.

وَإِنَّ لِلْمُتَكَلِّفِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلَاثَ عَلَامَاتٍ:

يَتَمَلَّقُ إِذَا شَهِدَ، وَيَغْتَابُ إِذَا غَابَ، وَيَشْمَتُ بِالْمُصِيبَةِ.

وَلِلظَّالِمِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ:

يَقْهَرُ مَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ، وَمَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيُظَاهِرُ الظَّلَمَةَ.

---

(١) أُصول الكافي: ٢/ ٢٦١.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٣٣٦.

وَلِلْمُرَائِي ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ:

يَنْشَطُ إِذَا كَانَ عِنْدَ النَّاسِ، وَيَكْسَلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ، وَيُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ.

وَلِلْمُنَافِقِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ:

إِنْ حَدَّثَ كَذِبَ، وَإِنْ اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ.

وَلِلْكَسْلَانِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ:

يَتَوانَىٰ حَتَّىٰ يُفَرِّطَ، وَيُفَرِّطُ حَتَّىٰ يُضِيِّعَ، وَيُضَيِّعُ حَتَّىٰ يَأْثَمَ.

وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ خُطْوَةٍ لِمَعَادٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»[١].

مواساة الإخوان

جاء في وصيَّة النبيّ ﷺ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، ثَلَاثَةٌ لَا تُطِيقُهَا هَذِهِ الأُمَّةُ:

الْمُواسَاةُ لِلأَخِ فِي مَالِهِ، وَإِنْصافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِهِ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَلَيْسَ هُوَ سُبْحانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَكِنْ إِذَا وَرَدَ عَلَىٰ مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ خَافَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ وَتَرَكَهُ»[٢].

خصال كريمة

من وصايا النبيّ ﷺ للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، ثَلَاثَةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

رَجُلٌ أَحَبَّ لأَخِيهِ مَا أَحَبَّ لِنَفْسِهِ.

وَرَجُلٌ بَلَغَهُ أَمْرٌ فَلَمْ يَقْدِمْ فِيهِ وَلَمْ يَتَأَخَّرْ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الأَمْرَ لِلَّهِ رِضىً أَوْ سُخْطٌ.

وَرَجُلٌ لَمْ يَعِبْ أَخَاهُ بِعَيْبٍ حَتَّىٰ يُصْلِحَ ذَلِكَ الْعَيْبَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ كُلَّما أَصْلَحَ مِنْ نَفْسِهِ عَيْباً بَدا لَهُ مِنْهَا آخَرُ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ فِي نَفْسِهِ شُغْلاً»[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٦٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٣٢٦.

(٣) بحار الأنوار: ٧٤/ ٦٢.

أبواب البرّ

من وصايا الرسول صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، ثَلَاثٌ مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ: سَخَاءُ النَّفْسِ، وَطِيْبُ الْكَلَامِ، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ الأَذىٰ»[(١)].

الرفق باليتيم والضعيف

جاء في وصيَّة النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ: مَنْ آوَىٰ الْيَتِيمَ، وَرَحِمَ الضَّعِيفَ، وَأَشْفَقَ عَلَىٰ وَالِدَيْهِ، وَرَفِقَ بِمَمْلُوْكِهِ».

ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله:

«يا عَلِيُّ، مَنْ كَفَىٰ يَتِيماً فِي نَفَقَتِهِ بِمَالِهِ حَتَّىٰ يَسْتَغْنِيَ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ.

يا عَلِيُّ، مَنْ مَسَحَ يَدَهُ عَلَىٰ رَأْسِ يَتِيمٍ تَرَحُّماً لَهُ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(٢)].

الاتّقاء من الغضب

من وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، لَا تَغْضَبْ فَإِذَا غَضِبْتَ فَاقْعُدْ، وَتَفَكَّرْ فِي قَدْرَةِ الرَّبِّ عَلَىٰ الْعِبَادِ، وَحِلْمِهِ عَنْهُمْ، وَإِذَا قِيْلَ لَكَ اِتَّقِ اللَّهَ فَانْبُذْ غَضَبَكَ وَرَاجِعْ حِلْمَكَ»[(٣)].

النهي عن الحلف بالله

من وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، لَا تَحْلِفْ بِاللَّهِ كَاذِباً وَلَا صَادِقاً مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ، وَلَا تَجْعَلِ اللَّهَ عُرْضَةً لِيَمِيْنِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْحَمُ، وَلَا يَرْعَىٰ مَنْ حَلَفَ بِاسْمِهِ كَاذِباً»[(٤)].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٦٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٣٣٦.

(٣) تحف العقول: ص١٤.

(٤) بحار الأنوار: ٧٤/ ٦٧.

المزاح والكذب

جاء في وصيّة النبيّ ﷺ للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، لَا تَمْزَحْ فَيَذْهَبَ بهاؤُكَ، وَلَا تَكْذِبْ لَيَذْهَبَ نُورُكَ، وَإِيَّاكَ وَخصْلَتَيْنِ: الضَّجَرَ وَالْكَسَلَ، فَإِنَّكَ إِنْ ضَجِرْتَ لَمْ تَصْبِرْ عَلَىٰ حَقٍّ، وَإِنْ كَسِلْتَ لَمْ تُؤَدِّ حَقّاً.

يا عَلِيُّ، مَنِ اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ الضَّجَرُ رَحَلَتْ عَنْهُ الرَّاحَةُ...»[١].

شرّ النّاس

من وصايا النبيّ ﷺ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهِمُّ بِظُلْمِ أَحَدٍ...

يا عَلِيُّ، مَنْ خَافَ النَّاسُ لِسَانَهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

يا عَلِيُّ، شَرُّ النَّاسِ مَنْ أَكْرَمَهُ النَّاسُ اتِّقاءَ فُحْشِهِ وَأَذَىٰ شَرِّهِ.

يا عَلِيُّ، شَرُّ النَّاسِ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْياهُ، وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيا غَيْرِهِ»[٢].

من قواصم الظهر

وكان ممّا أوصىٰ به النبيّ ﷺ الإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، أَرْبَعَةٌ مِنْ قَوَاصِمِ الظَّهْرِ: إِمَامٌ يَعْصِي اللَّهَ وَيُطَاعُ أَمْرُهُ، وَزَوْجَةٌ يَحْفَظُها زَوْجُهَا وَهِي تَخُونُهُ، وَفَقْرٌ لَا يَجِدُ صَاحِبُهُ لَهُ مُدَاوِياً، وَجَارُ سُوْءٍ فِي دَارِ مُقَامٍ»[٣].

مستحق الإهانة

من وصايا النبيّ ﷺ للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، ثَمَانِيَةٌ إِنْ أُهِينُوا فَلَا يَلُومُوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ: الذَّاهِبُ إِلَىٰ مَائِدَةٍ لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا، وَالْمُتَأَمِّرُ عَلَىٰ رَبِّ الْبَيْتِ، وَطَالِبُ الْخَيْرِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَطَالِبُ الْفَضْلِ مِنَ اللِّئَامِ، وَالدَّاخِلُ

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٣٣٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٣٣٣.

(٣) الخصال: ١/ ٩٦.

بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي سِرٍّ لَمْ يُدْخِلَاهُ فِيْهِ، وَالْمُسْتَخِفُّ بِالسُّلْطَانِ، وَالْجَالِسُ فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ، وَالْمُقْبِلُ بِالْحَدِيْثِ عَلَىٰ مَنْ لَا يَسْمَعُ مِنْهُ...»[1].

رؤية الهلال

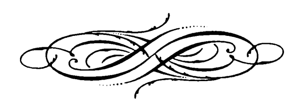
من وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، إِذَا رَأَيْتَ الْهِلَالَ فَكَبِّرْ ثَلَاثاً وَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكَ، وَقَدَّرَكَ مَنَازِلَ، وَجَعَلَكَ آيَةً لِلْعَالَمِينَ»[2].

النظر في المرآة

من وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام عليه السلام:

«يا عَلِيُّ، إِذَا نَظَرْتَ فِي مِرْآةٍ فَكَبِّرْ ثَلَاثاً، وَقُلْ: اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي»[3].



(١) بحار الأنوار: ٧٤/٤٨.

(٢) تحف العقول: ص١٠.

(٣) المصدر السابق: ص١١.

من وصايا الإمام علي عليه السلام

أمَّا وصايا الإمام عليه السلام لأبنائه وبعض أعلام أصحابه فإنَّها من أُصول التربية الإسلامية الرائدة التي وضعت الأُسس الرفيعة لسموّ النفس وتهذيبها وكمالها وصرفها عن مآثم هذه الحياة التي تهبط بالإنسان إلى مستوى سحيق.

إنَّ وصايا الإمام عليه السلام دُنيا من الفضائل والكمال والآداب، ومن حقِّها أن تكون منهجاً للتربية العامَّة في الجامعات والمعاهد في البلاد الإسلامية ليغذّىٰ بها النشء الذي يجهل كلّ شيء عن مقومات التربية الإسلامية، وما تنشده من القيم والمبادىء التي تصنع الحضارة الإنسانية بأروع صورها وأبدع معانيها، وهي من أهمّ ما عنىٰ بها الإمام عليه السلام فيما قنَّنه في ميادين الإصلاح الاجتماعي من الأُسس التربوية القائمة على كلّ ما يصلح الإنسان، ويهديه للتي هي أقوم.. ونعرض لبعض وصايا هذا الإمام الملهم العظيم، وفيما أحسب أنَّ أهمّ وصاياه هي الوصية التالية:

وصيَّتُهُ عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام

هذه الوصية الذهبية الخالدة قد أتحف بها الإمام عليه السلام ولده الزكي الإمام الحسن عليه السلام سبط رسول الله ﷺ وريحانته، وهي تحمل أشعة من نور النُّبوَّة والإمامة ترشد الضالّ، وتهدي الحائر، وتضيء العقول، وتهذِّب النُّفوس.

قال عليه السلام:

«مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ[١]، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، الظَّاعِنِ عَنْهَا غداً، إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ[٢]، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا،

---

(١) أي المعترف بشدائده.

(٢) أي يؤمِّل البقاء والخلود في الدُّنيا، وهذا لا يدركه أحد.

وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ(١) الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنَّهُ حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ، وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ - أَيْ بُنَيَّ - وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ!...

ويستمر الإمام المربِّي العظيم في وصيَّته لولده الإمام الحسن عليه السلام، قال عليه السلام:

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ. فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَا تُكَلَّفُ.

وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عَنْ حَيْرَةِ الضَّلَالَةِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ.

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ.

وَخُضِ الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ! وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ.

---

(١) الجموح: الاستعصاء.

وَأَخلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ الِاسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْهَا صَفحاً، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ...

ويستمرّ الإمام الحكيم في وصيّته قائلاً:

أَيْ بُنَيَّ! إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُكَ قَدْ بَلَغْتَ سِنّاً، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ، وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ.

فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْغَلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مِنْهُ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ...

ويأخذ الإمام المربّي في وصيّته قائلاً:

أَيْ بُنَيَّ! وَإِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ[1]، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْبَسَكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ لَكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ فِيهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ...

ويستمرّ الإمام في وصيّته فيقول:

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ! أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالِاقْتِصَارُ عَلَى

(١) النخيل: المختار المصفى.

مَا افْتَرَضَ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ يَنْظُرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا كَانُوا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ، وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ. فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا لَكَ قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ خَبْطَ الْعَشْوَاءِ[1]، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ. وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ.

ويأخذ الإمام عليه السلام في وصيّته قائلاً:

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ! وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِيمَ إِلَّا عَلَى مَا خَلَقَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَالِابْتِلَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا نَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ خُلِقْتَ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ! وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ! فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، فَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ ـ أي خوفك...

ويأخذ الإمام في وصيّته الحافلة بالنصائح قائلاً:

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ! أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ـ وَإِنِ اجْتَهَدْتَ ـ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ...

ويستمر الإمام في عرض وصيّته قائلاً:

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ! أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لَا يُضَادُّهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ.

---

١) العشواء: الضعيف البصر.

عَظُمَ عَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتِهِ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ، فَإِذَا عَرَفْتَ ذَٰلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدُرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ...

ثمَّ يستمر الإمام عليه السلام في وصيَّته الخالدة قائلاً:

يَا بُنَيَّ! إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ أَبْصَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ أَلَماً، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً مَغْرَماً. وَلَا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ.

وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَهْوَلَ لَدَيْهِمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا هُمْ فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ...

ويستمرّ الإمام عليه السلام في وصيَّته قائلاً:

يَا بُنَيَّ! وَاجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، وَأَحِبَّ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، لَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ لِنَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ مَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ. فَأَسْعَى فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ. وَإِذَا هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

ويأخذ الإمام عليه السلام في وصيَّته قائلاً:

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَأَهْوَالٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ عَنْ حُسْنِ الِارْتِيَادِ، وَقَدْرْ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقِيلاً وَوَبَالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَاكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ. وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ...

ولنقرأ بنداً آخر من هذه الوصيّة. قال عليه السلام:

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِىءُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ[1] قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّىءِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، «فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ»، وَلَا إِلَىٰ الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ...

ويأخذ الإمام عليه السلام في وصيّته قائلاً:

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالإِنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةِ بِكَ أَوْلَىٰ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الِاسْتِعْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَىٰ أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ. ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَىٰ شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ.

وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلًا وَآجِلًا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَهُ...

ويستمرّ الإمام عليه السلام في وصيّته قائلاً:

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ! أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الآخِرَةِ، أَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا

---

(١) فارتد لنفسك: أي ابعث لك رائداً من طيّبات الأعمال.

يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ فِيهَا بِالتَّوْبَةِ، فَتَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذٰلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ. . .

ثمَّ قال الإمام عليه السلام:

يَا بُنَيَّ! أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِهَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا.

نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَةٍ[1] بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا[2]. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَىٰ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَىٰ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، واتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ، كَأَنَّ قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعَانُ؛ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ!

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً. . .

ويأخذ الإمام في عرض وصاياه قائلاً:

وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ[3]؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ، وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً.

وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً. وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ؟!. . .

ومن بنود هذه الوصيَّة قوله عليه السلام:

---

(١) السروح العاهة: هي الإبل السائبة التي ترعى الآفات.
(٢) يسيمها: أي يسرحها إلى المرعى.
(٣) الحرب: سلب المال.

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ[(١)] بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ.

وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ...

ومن مواد هذه الوصيَّة قوله عليه السلام:

وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ. وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ. وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدِ غَيْرِكَ. وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَىٰ النَّاسِ. وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَىٰ مَعَ الْفُجُورِ. وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ. وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ. وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ.

وَقَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ. وَإِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً[(٢)]. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً. وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ[(٣)].

ويستمرّ الإمام المربِّي في عرض وصاياه ونصائحه الذهبية قائلاً:

وَإِيَّاكَ وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ.

بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ. وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ. وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ. التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، رُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ! لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ[(٤)]، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ...

أرأيتم هذه الحِكم التي صاغها أمير البيان والتي هي منحوتة من صميم الواقع وخلاصة التجارب؟ ويقول عليه السلام:

وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ، وَاحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ[(٥)] عَلَىٰ الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَىٰ اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَىٰ الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَىٰ

---

(١) توجف: أي تسرع.

(٢) المراد أنَّ المقام إذا كان يلزم العنف فيكون إبداله بالرفق عنفاً ويكون العنف من الرفق.

(٣) المستنصح: من يطلب منه النصح.

(٤) القعود: ما يعقده الراعي من الإبل.

(٥) الصرم: القطيعة.

الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَىٰ اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَىٰ الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ.

لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً[1].

وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَىٰ عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَىٰ الظَّفَرَيْنِ[2] وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ لَهُ يَوْماً مَّا. وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلَا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ، وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ.

وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ...

ولنستمع إلى بعض فصول هذه الوصيَّة الخالدة، يقول عليه السلام:

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ! أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، وَالْبَهَائِمُ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ. وَاطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ. مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ[3] جَارَ وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ[4]، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ[5]. وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ.

وَمَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ. وَأَوْثَقُ سَبَبٍ

---

(١) المغبة: العاقبة.

(٢) الظفران: هنا ظفر الانتقام، وظفر الإحسان، والثاني أحلى.

(٣) القصد: الاعتدال.

(٤) الصاحب المناسب: أي يراعى فيه ما يراعى في النسب.

(٥) المراد مراعاة حقّ الصديق في حال غيبته.

أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ [١] فَهُوَ عَدُوُّكَ. قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً. لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ.

أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ...

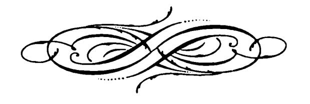
ولنقرأ البند الأخير من هذه الوصية، قال عليه السلام:

وَإِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ.

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ [٢]، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَىٰ عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ [٣]. وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ [٤]، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ مِنْهُنَّ إِلَى السُّقْمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَىٰ الرِّيَبِ. وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ لَا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ [٥]. وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ.

اسْتَوْدِعِ اللَّهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ» [٦].

وانتهت هذه الوصية وهي حافلة بالقيم الكريمة، والمثل العليا، والنصائح الرفيعة التي لم يؤثر نظيرها عن أي خليفة من خلفاء المسلمين، وقد جاءت معبِّرة عن مُثل الإمام عليه السلام وطاقاته العلمية التي أضاءت سماء الإسلام.



(١) من لم يبالك: أي لم يهتمّ بأمرك.
(٢) الأفن: ضعف الرأي.
(٣) القهرمان: الذي يحكم في الأُمور ويتصرَّف فيها بأمره.
(٤) التغاير: إظهار الغيرة على المرأة بسوء الظنّ فيها من غير موجب.
(٥) يتواكلوا: أي يتَّكل بعضهم على بعض في خدمتك.
(٦) نهج البلاغة/ محمد عبده: ٣/ ٣٧ ـ ٥٧.

مواعظه

أمّا مواعظ الإمام عليه السلام فإنّها تجلو القلوب، وتهذّب البصائر، وتسمو بالإنسان إلى أسمى مراتب الكمال، وكان لها التأثير البالغ في نفوس العارفين والمتّقين.

حال الإنسان في الدُّنيا

وصف الإمام عليه السلام وصفاً دقيقاً وملمّاً لحياة الإنسان في الدُّنيا، قال عليه السلام:

«إِنَّمَا الْمَرْءُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، وَنَهْبٌ لِلْمَصَائِبِ، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ. وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ. وَلَا يَنَالُ العَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلَا يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ. فَنَحْنُ أَعْوَانُ الْحُتُوفِ، وَأَنْفُسُنَا تَسُوقُنَا إِلَىٰ الْفَنَاءِ؛ فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً إِلَّا أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيا، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا؟! فَاطْلُبُوا الْخَيْرَ وَأَهْلِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْراً مِنَ الْخَيْرِ مُعْطِيهِ، وَشَرّاً من الشَّرِّ فَاعِلُهُ...»[1].

طوبى للزاهدين في الدُّنيا

روى نوف البكالي وهو من خيار أصحاب الإمام عليه السلام قال: رأيت عليّ بن أبي طالب عليه السلام خرج في غلس اللّيل ناظراً إلى النُّجوم، فقال له:

«يا نَوْفُ، أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ؟».

ـ رامق يا أمير المؤمنين:

«يَا نَوْفُ طُوبَىٰ لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ، أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الأَرْضَ بِسَاطاً، وَتُرَابَهَا فِرَاشاً، وَمَاءَهَا طِيباً، وَالْقُرْآنَ شِعَاراً[2]، وَالدُّعَاءَ دِثَاراً، ثُمَّ قَرَضُوا[3] الدُّنْيَا قَرْضاً عَلَىٰ مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) ذيل الأمالي: ٢/ ٥٤.

(٢) الشعار: ما يلي البدن من الثياب.

(٣) أي مزّقوا الدُّنيا على طريقة المسيح عليه السلام في العبادة.

يَا نَوْفُ، إِنَّ اللَّه تَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَىٰ عِيسىٰ أَن مُرْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا يَدْخُلُوا بَيْتاً مِنْ بُيُوتِي إِلَّا بِقُلُوبٍ طَاهِرَةٍ، وَأَبْصَارٍ خَاشِعَةٍ، وَأَيْدٍ نَقِيَّةٍ، فَإِنِّي لَا أَسْتَجِيبُ لأَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا لأَحَدٍ مِنْ خَلْقِي عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ...»[١].

موعظته لرجل شيَّع جنازة وهو يضحك

وشيَّع الإمام عليه السلام جنازة فرأى رجلاً يضحك، فساءه ذلك، ووعظه بهذه الكلمات المشرقة، قال عليه السلام:

«كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَىٰ غَيْرِنَا كُتِبَ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَىٰ غَيْرِنَا وَجَبَ، وَكَأَنَّ الَّذِي نَرَىٰ مِنَ الأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ! نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ، وَرُمِينَا بِكُلِّ جَائِحَةٍ[٢]!!».

صفة الدُّنيا

وصف الإمام عليه السلام الدُّنيا وصفاً رائعاً ودقيقاً، قال عليه السلام:

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ! وَآخِرُهَا فَنَاءٌ! فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ. مَنِ اسْتَغْنَىٰ فِيهَا فُتِنَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ[٣]، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ.

علَّق الشريف الرضي على هذه الكلمات البليغة بقوله:

أقول: وإذا تأمَّل المتأمل قوله عليه السلام: «وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ» وجد تحته من المعنى لعجيب، والغرض البعيد، ما لا تُبلغ غايته ولا يدرك غوره، ولا سيَّما إذا قرن إليه نوله: «وَمَنْ أَبْصَر إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ» فإنَّه يجد الفرق بين «أَبْصَرَ بِهَا» و«أَبْصَرَ إِلَيْهَا» واضحاً يِّراً، وعجيباً باهراً![٤].

---

١) حلية الأولياء: ١/ ٧٩.

٢) الجائحة: الآفة.

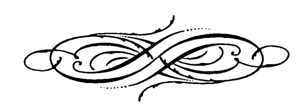
٣) ومن ساعاها فاتته: المراد أنَّه من جدَّ في طلب الدُّنيا فاتته، أي سبقته، فإنَّه كلَّما نال منها شيئاً فتحت له أبواب الأمل فيها.

٤) نهج البلاغة: ١/ ١٣٠ ـ ١٣١.

الاتّعاظ بالعِبر

ومن خطبة له يعظ فيها أصحابه جاء فيها:

«فَاتَّعِظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ، وَانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَوَاعِظِ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلَائِقُ الأُمْنِيَّةِ، وَدَهِمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الأُمُورِ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَىٰ الْوِرْدِ الْمَوْرُودِ، فَـ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[1]: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَىٰ مَحْشَرِهَا؛ وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا»[2].



(١) سورة ق: الآية ٢١.
(٢) نهج البلاغة: ١/١٤٨.

حكمه القيِّمةُ

بلغت حِكَمُ الإمام عليه السلام قمّة الجمال في روعتها وأصالتها وبما احتوت عليه من محاسن الفكر والآداب، بالإضافة إلى سموّ فصاحتها وبلاغتها...

قال عليه السلام: قِيمَةُ كُلِّ امْرِىءٍ مَا يُحْسِنُهُ.

قال عليه السلام: الْعِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَىٰ فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ[١].

قال عليه السلام: هَلَكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ.

قال عليه السلام: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ.

قال عليه السلام: مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وآخِرُهَا فَنَاءٌ؟ فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ. مَنِ اسْتَغْنَىٰ فِيهَا فُتِنَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ.

قال عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الآخِرَةَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ لأَقْوَامٍ.

قال عليه السلام: الدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ؛ فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطَرْ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ! فَبِكِلَاهُمَا أَنْتَ مُخْتَبَرٌ[٢].

قال عليه السلام: لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فَهْمَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا[٣].

قال عليه السلام: نَبِّهْ بِالتَّفَكُّرِ قَلْبَكَ، وَجَافِ عَنِ النَّوْمِ جَنْبَكَ، وَاتَّقِ اللَّهَ تَعَالَىٰ رَبَّكَ[٤].

قال عليه السلام: أَتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَهْلِكُ وَمَعَهُ النَّجَاةُ، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا هِيَ؟ قال: الإِسْتِغْفَارُ[٥].

قال عليه السلام: لَا تَقْطَعْ أَخَاكَ عَلَىٰ ارْتِيَابٍ، وَلَا تَهْجُرْهُ دُونَ اسْتِعْتَابٍ[٦].

---

(١) التمثيل والمحاضرة/ الثعالبي: ص١٦٥.

(٢) البصائر والذخائر: ص١٥٥.

(٣) حلية الأولياء: ١/ ٧٧.

(٤) بهجة المجالس: ١/ ١١٥.

(٥) النُّجوم الزَّاهرة: ٢/ ١٢٣.

(٦) العقد الفريد: ٢/ ٣٠٩.

قال عليه السلام: لَا رَاحَةَ لِحَسُودٍ، وَلَا إِخَاءَ لِمَلُولٍ، وَلَا مَحَبَّةَ لِسَيِّىءِ الْخُلُقِ[١].

قال عليه السلام: أَوَّلُ عِوَضِ الْحَلِيمِ عَنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ عَلَىٰ الْجَاهِلِ[٢].

قال عليه السلام: النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَىٰ سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ[٣].

قال عليه السلام: مَنْ حَسُنَتْ بِهِ الظُّنُونُ رَمَقَتْهُ الرِّجَالُ بِالْعُيُونِ.

قال عليه السلام: مَنْ لَمْ يُجَرِّبِ الأُمُورَ خُدِعَ، وَمَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صُرِعَ.

قال عليه السلام: مَنْ قَنَعَ بِالْيَسِيرِ اسْتَغْنَىٰ عَنِ الْكَثِيرِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِالْكَثِيرِ افْتَقَرَ إِلَىٰ الْحَقِيرِ.

قال عليه السلام: مَنْ كَانَ عَلَىٰ يَقِينٍ فَأَصَابَهُ شَكٌّ فَلْيَمْضِ عَلَىٰ يَقِينِهِ؛ فَإِنَّ الْيَقِينَ لَا يُدْفَعُ بِالشَّكِّ.

قال عليه السلام: خَيْرُ الْغِنَىٰ تَرْكُ السُّؤَالِ، وَشَرُّ الْفَقْرِ لُزُومُ الْخُضُوعِ.

قال عليه السلام: مَا أَضْمَرَ إِنْسَانٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ[٤].

قال عليه السلام: كُلُّ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وِعَاءَ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ.

قال عليه السلام: لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال عليه السلام: لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ، وَلَا يُضَارِعُ، وَلَا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ.

قال عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ؛ فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِي، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ.

قال عليه السلام: افْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَداً أَوْلَىٰ بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي، فَيَكُونَ وَاللَّهِ كَذَلِكَ. إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلاً، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ.

قال عليه السلام: اتَّقُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ فِي الْخَلَوَاتِ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ.

---

(١) العقد الفريد: ٢/ ٣١٩.

(٢) المصدر السابق: ص٢٨١.

(٣) العقد الفريد: ٢/ ٢٩٤.

(٤) صبح الأعشىٰ: ٧/ ٢٦٧.

العلمُ والتعليمُ

ومن أهمّ البرامج السياسية في حكومة الإمام عليه السلام نشر التعليم، ومحو الأُمّية، وإشاعة العلم بين الناس فقد اتّخذ جامع الكوفة مدرسة ومعهداً لإلقاء محاضراته العلمية وقيمه الفكرية، والتي كان منها الدعوة إلى الله تعالى، وإظهار فلسفة التوحيد وإقامة الإيمان بالله تعالى على ضوء الأدلّة العلمية الحاسمة التي لا تقبل الجدل والتشكيك، بالإضافة إلى مواعظه العملاقة التي كانت تهزُّ أعماق النُّفوس خوفاً ورهبة من الله تعالى.

الإشادة بالعلم:

قال عليه السلام في حديثه مع تلميذه العالم كميل بن زياد:

«يَا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْلُ، هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ»[١].

أهمّية العالم:

قال عليه السلام: «إِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ الْعَالِمُ ثُلِمَ فِي الْإِسْلَامِ ثَلْمَةٌ لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٢].

---

(١) نهج البلاغة: ٣/ ١٦٤.

(٢) مستدرك نهج البلاغة: ص١٧٧.

تكريم العالم:

قال عليه السلام: «إِنَّ مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ إِذَا أَتَيْتَهُ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيْهِ خَاصَّةً، وَعَلَى الْقَوْمِ عَامَّةً، وَلَا تَجْلِسْ قُدَّامَهُ، وَلَا تُشِرْ بِيَدِكَ، وَلَا تَغْمِزْ بِعَيْنِكَ، وَلَا تَقُلْ: قَالَ: فُلَانٌ خِلَافَ قَوْلِكَ، وَلَا تَأْخُذ بِثَوْبِهِ، وَلَا تُلِحَّ عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ فَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّخْلَةِ الْمُرْطِبَةِ الَّتِي لَا يَزَالُ يَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ»[١].

أخذ المحاسن من كلّ علم:

قال عليه السلام: «الْعِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَىٰ، فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ»[٢].

العمل بالعلم:

قال عليه السلام: «الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ: فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ؛ وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ».

وقال عليه السلام: «أَنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ؛ بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالْحَسْرَةُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْوَمُ كَالسَّائِرِ عَلَىٰ غَيْرِ طَرِيقٍ... وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!»[٣].

أنواع طلاب العلم:

تحدَّث الإمام عليه السلام عن أصناف طلبة العلوم فقال:

«طَلَبَةُ هَذَا الْعِلْمِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ، أَلَا فَاعْرِفُوهُمْ بِصِفَاتِهِمْ:

صِنْفٌ مِنْهُمْ يَتَعَلَّمُونَ لِلْمِرَاءِ وَالْجَدَلِ.

وَصِنْفٌ لِلإِسْتِطَالَةِ وَالْحِيَلِ.

وَصِنْفٌ لِلْفِقْهِ وَالْعَمَلِ.

فَأَمَّا صَاحِبُ الْمِرَاءِ وَالْجَدَلِ فَإِنَّكَ تَرَاهُ مُمَارِياً لِلرِّجَالِ فِي أَنْدِيَةِ الْمَقَالِ، قَدْ تَسَرْبَلَ بِالتَّخَشُّعِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْوَرَعِ، فَدَقَّ اللَّهُ مِنْ هَذَا حَيْزُومَهُ، وَقَطَعَ مِنْهُ خَيْشُومَهُ.

وَأَمَّا صَاحِبُ الِاسْتِطَالَةِ وَالْحِيَلِ، فَإِنَّهُ يَسْتَطِيلُ عَلَى أَشْبَاهِهِ مِنْ أَشْكَالِهِ، وَيَتَوَاضَعُ

---

(١) العقد الفريد: ٢/ ٢٢٤.

(٢) معجم الأدباء: ١/ ٧٣.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١١٠.

لِلأَغْنِيَاءِ مِنْ دُونِهِمْ، فَهُوَ لِحَلْوَائِهِمْ هَاضِمٌ، وَلِدِينِهِ حَاطِمٌ، فَأَعْمَى اللَّهُ مِنْ هَذَا بَصَرَهُ، وَمَحَىٰ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَثَرَهُ.

وَأَمَّا صَاحِبُ الْفِقْهِ وَالْعَمَلِ، فَتَرَاهُ ذَا كَآبَةٍ وَحَزَنٍ، قَامَ اللَّيْلَ فِي حِنْدِسِهِ، وَانْحَنَى فِي بُرْنُسِهِ يَعْمَلُ وَيَخْشَى فَشَدَّ اللَّهُ مِنْ هَذَا أَرْكَانَهُ، وَأَعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَانَه»(١).

علم الفلك والحساب

من العلوم التي أخذت عنه علم الفلك والحساب، فقد قال عليه السلام عن خلق السَّماء:

«ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ، وَأَجْرَىٰ فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِيراً، فِي فَلَكٍ دَئِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ(٢)»(٣).

وقال عليه السلام عن كيفيّة خلق السَّماء:

«وَنَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ، فَالْتَحَمَتْ عُرَىٰ أَشْرَاجِهَا، وَفَتَقَ بَعْدَ الإِرْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا»(٤).

علم الحيوان

وصف الطيور:

ووصف الإمام عليه السلام الطيور وصفاً دقيقاً وملمّاً بجميع أصنافها، قال عليه السلام:

«ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ؛ وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمَسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا، وَرَوَاسِيَ أَعْلَامِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ.

كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ،

---

(١) مستدرك نهج البلاغة: ص١٧٧.
(٢) المائر: المتحرّك.
(٣) نهج البلاغة: ص١٥.
(٤) نهج البلاغة: ص٣٧.

وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ[١] أَنْ يَسْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفاً، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ.

فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ لَوْنٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ؛ وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ فِيهِ»[٢].

علم الكلام

قال عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ؛ وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ.

لَا تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ[٣]، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ؛ الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ، وَالسَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ[٤] وَالْبَصِيرِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ[٥]، وَالشَّاهِدِ لَا بِمُمَاسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ[٦]، وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ، وَالْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ.

بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ.

مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ[٧]، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ.

عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورٌ»[٨].

علم الطبيعة ـ الفيزياء

قال عليه السلام: «وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَىٰ عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ»[٩].

---

(١) العبالة: الضخامة.
(٢) نهج البلاغة/محمَّد عبده: ٢/ ٧٠، خطبة ١٦٠.
(٣) لا تستلمه المشاعر: لا تصل إليه الحواس.
(٤) الأداة: الآلة.
(٥) تفريق الآلة: تفح الأجفان بعضها عن بعض.
(٦) البائن: المنفصل عن خلقه.
(٧) أي من كيَّفه بكيفيات المحدَثين.
(٨) نهج البلاغة/محمَّد عبده: ٢/ ٥٣.
(٩) نهج البلاغة/محمَّد عبده: ١/ ١٠٨.

الكهرباء

وقال عليه السلام: «لَوْ شِئْتُ لَجَعَلْتُ لَكُمْ مِنَ الْماءِ نُوراً وَنَاراً».

إنَّ هذه المعاني الدقيقة والأسرار العميقة تضمَّنها قول الإمام عليه السلام الذي هو باب مدينة علم النبيّ صلى الله عليه وآله، وهو القائل:

«بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَىٰ مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاَضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ!»(١).

علم الطبّ

وأثرت عن الإمام عليه السلام الكثير من الآراء الذهبية في علم الطب تدلُّ على استيعابه لهذا العلم، ومعرفته الكاملة بأسراره وهو القائل فيما يحتويه جسم الإنسان من الأجهزة والأنظمة العجيبة:

أَتَحْسَبُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ ... وَفِيكَ انْطَوَىٰ الْعَالَمُ الأَكْبَرُ
دَواؤُكَ فِيكَ وَمَا تُبْصِرُ ... وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تَشْعُرُ

الوقاية من الأمراض:

قال عليه السلام: «لَا تَجْلِسْ عَلَىٰ الطَّعَامِ إِلَّا وَأَنْتَ جَائِعٌ، وَلَا تَقُمْ مِنْهُ إِلَّا وَأَنْتَ تَشْتَهِيهِ، وَجَوِّدِ الْمَضْغَ، وَاعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَىٰ الْخَلَاءِ إِذَا نِمْتَ فَإِذَا اسْتَعْمَلْتَ هَذِهِ اسْتَغْنَيْتَ عَنِ الطِّبِّ»(٢).

علم الجيولوجيا

قال عليه السلام: «وَأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَال، وَأَرْسَاهَا عَلَىٰ غَيْرِ قَرَار، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ».

قال عليه السلام: «فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَنَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ»(٣).

---

(١) نهج البلاغة/ محمَّد عبده: ١/ ٣٦.
(٢) مستدرك نهج البلاغة: ص١٢٦.
(٣) نهج البلاغة/ محمَّد عبده: ص٧.

علم الفلسفة

قام إليه أعرابي يوم الجمل فسأله: يا أمير المؤمنين أتقول إنَّ الله واحد؟ فحمل النَّاس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى في أمير المؤمنين من تقسم القلب؟

فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام:

«دَعُوهُ فَإِنَّ الَّذِي يُرِيدُهُ الْأَعْرَابِيُّ هُوَ الَّذِي نُرِيدُهُ مِنَ الْقَوْمِ».

ثُمَّ قَالَ:

«إِنَّ الْقَوْلَ فِي أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

فَوَجْهَانِ مِنْهَا لَا يَجُوزانِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَجْهَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ.

فَأَمَّا اللَّذَانِ لَا يَجُوزَانِ عَلَيْهِ:

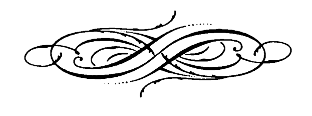
فَقَوْلُ الْقَائِلِ: وَاحِدٌ يَقْصِدُ بِهِ بَابَ الْأَعْدَادِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ لِأَنَّ مَا لَا ثَانِيَ لَهُ لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْأَعْدَادِ، أَمَا تَرَى أَنَّهُ كَفَرَ مَنْ قَالَ إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.

وَقَوْلُ الْقَائِلِ: هُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ، يُرِيدُ بِهِ النَّوْعَ مِنَ الْجِنْسِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ وَجَلَّ رَبُّنَا عَنْ ذَلِكَ وَتَعَالَى.

وَأَمَّا الْوَجْهَانِ اللَّذَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ:

فَقَوْلُ الْقَائِلِ: هُوَ وَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ شِبْهٌ، كَذَلِكَ رَبُّنَا.

وَقَوْلُ الْقَائِلِ: إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحَدِيُّ الْمَعْنَى، يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ لَا يَنْقَسِمُ فِي وُجُودٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا وَهْمٍ، كَذَلِكَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَل»[1].



(١) بحار الأنوار: ٢/ ٦٥.

احتجاجات ومناظرات الإمام عليه السلام

كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وأقربهم إليه، فهو باب مدينة علمه، وأبو سبطيه، ومَن كان منه بمنزلة هارون من موسى. فقد تطبَّع بأخلاقه، والتزم بحرفية منهجه، وسار على أضواء رسالته لم يخالف أي سُنَّة منها، فاعتمد عليه السلام بصورة موضوعية على الاحتجاج والمناظرة مع خصومه، ولم يفتح معهم باب الحرب إلاَّ بعد أن انسدَّت معهم نوافذ السلم، وأعلنوا العصيان المسلَّح عليه، وكان ذلك مكشوفاً في حربه مع أهل الجمل وصفِّين والنهروان، فقد بغوا عليه، وتمرَّدوا على حكومته، ولم تُجدِ معه أي وسيلة من وسائل الصلح وحقن الدماء.

أمَّا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فهو من أوسع الناس أُفقاً وأكثرهم استيعاباً لجميع مباحث العلوم، كما كان أخبرهم في المسائل الكلامية، فقد ناظر الخلفاء وأفحمهم، وناظر علماء الأديان السَّماويَّة وألحق بهم هزيمة ساحقة، فقد عَلم مناطق الضعف والزيف في أناجيلهم وتوراتهم فوضعها بين أيديهم، فلم يستطيعوا الدفاع عن أديانهم ووقفوا واجمين أمام منطقه الفيَّاض، معترفين بعجزهم خاضعين لملكاته وقدراته العلمية.

ومن المؤكَّد أنَّه لم يملك أي أحد من الصحابة وغيرهم ما يملك الإمام من المواهب والعبقريات التي فاق بها على غيره.

احتجاجات الإمام عليه السلام على الخلفاء

الشيء البارز في حياة الإمام السياسية احتجاجاته الصارمة على الخلفاء ومناظراته معهم، فإنَّها تلقي الأضواء على ما يكنّه الإمام من أسىً بالغ بسبب إبعاده عن المسرح السياسي، وحجبه عن الخلافة التي هي ظلّ الله في الأرض يحتمي بظلالها المظلومون والمضطهدون، ويفزع إليها البائسون والمحرومون.

احتجاجه عليه السلام على أبي بكر وحزبه

ولمّا أُخذ الإمام عليه السلام قصراً إلى الجامع النبوي ليبايع أبا بكر أحاط به حزب أبي بكر، وصاحوا به: بايع أبا بكر، فأجابهم الإمام بحجّته البالغة، ومنطقه الفيّاض قائلاً:

«أَنَا أَحَقُّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْكُمْ، لا أُبَايِعُكُمْ وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْبَيْعَةِ لِي، أَخَذْتُمْ هَذَا الأَمْرَ - يعني الخلافة - مِنَ الأَنْصَارِ وَاحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِالْقَرَابَةِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَأْخُذُونَهُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ غَصْباً؟

أَلَسْتُمْ زَعمتُم لِلأَنْصَارِ أَنَّكُمْ أَوْلَىٰ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْهُمْ لِمَكانِكُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فَأَعْطَوْكُمُ الْمَقَادَةَ وَسَلَّمُوا إِلَيْكُمُ الإِمَارَةَ؟

وَأَنَا أَحْتَجُّ عَلَيْكُمْ بِمِثْلِ مَا احْتَجَجْتُمْ بِهِ عَلَى الأَنْصَارِ، فَأَنْصِفُونَا إِنْ كُنْتُمْ تَؤْمِنُونَ، وَإِلَّا فَبُوءُوا بِالظُّلْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ...»[1].

احتجاج الإمام عليه السلام على المهاجرين

واحتجَّ الإمام على المهاجرين باحتجاج صارم لأنَّهم وقفوا ضده، وحالوا بينه وبين حقّه، فخاطبهم بأسىٰ ولوعة قائلاً:

«يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، اللَّهَ اللَّهَ لَا تُخْرِجُوا سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْعَرَبِ عَنْ دَارِهِ وَقَعْرِ بَيْتِهِ إِلَى دُورِكُمْ وَقُعُورِ بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَدْفَعُوا أَهْلَهُ عَنْ مَقَامِهِ مِنَ النَّاسِ وَحَقِّهِ؛ فَوَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ لَنَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ؛ لأَنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْكُمْ، أَمَا كَانَ مِنَّا الْقَارِئُ لِكِتَابِ اللَّهِ، الْفَقِيهُ فِي دِينِ اللَّهِ، الْعَالِمُ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ، الْمُضْطَلِعُ بِأَمْرِ الرَّعِيَّةِ، الدَّافِعُ عَنْهُمُ الأُمُورَ السَّيِّئَةَ، الْقَاسِمُ بَيْنَهُمْ بِالسَّوِيَّةِ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَفِينا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ فَتَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَتَزْدَادُوا عَنِ الْحَقِّ بُعْداً...»[2].

الإمام عليه السلام مع أعضاء الشورى

وأقام عمر بعد اغتياله نظام الشورى، وهو نظام هزيل لا يحمل أي طابع من الشورى الواقعية التي تمثّل جميع قطاعات الشعب، فقد حصرها في ستة أشخاص فكان

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٧٣.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١١ - ١٢.

معظمهم من الحاقدين على الإمام أمثال سعد بن وقاص وطلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف.

وعلى أيٍّ حال فإنّا نعرض لاحتجاج الإمام على أعضاء الشورى فقد قال لهم:

«لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَىٰ دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِم، وَعَائِدَةِ كَرَم. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي؛ عَسَىٰ أَنْ تَرَوْا هَذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَىٰ فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِيعَةً لأَهْلِ الْجَهَالَةِ»[١].

إذعان الإمام لمصلحة المسلمين:

وأعرب الإمام عليه السلام حينما بويع عثمان عن إذعانه لمصلحة المسلمين، فقد خاطب أعضاء الشورى قائلاً:

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا - أي الخلافة - مِنْ غَيْرِي؛ وَوَاللَّهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»[٢].

وصبر الإمام على سلب تراثه حفظاً على كلمة الإسلام ووحدة المسلمين، وقد أدلى بذلك بقوله عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَبَضَ نَبِيَّهُ اسْتَأْثَرَتْ عَلَيْنَا قُرَيْشٌ بِالْأَمْرِ وَدَفَعَتْنَا عَنْ حَقٍّ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ مِنَ النَّاسِ كَافَّةً، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنْ تَفْرِيقِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَسَفْكِ دِمَائِهِمْ، وَالنَّاسُ حَدِيثُو عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ، وَالدِّينُ يُمْخَضُ مَخْضَ الْوَطْبِ، يُفْسِدُهُ أَدْنَى وَهْنٍ، وَيَعْكِسُهُ أَقَلُّ خَلَقٍ، فَوَلِيَ الْأَمْرَ قَوْمٌ لَمْ يَأْلُوا فِي أَمْرِهِمْ اجْتِهَاداً، ثُمَّ انْتَقَلُوا إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ تَمْحِيصِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَالْعَفْوِ عَنْ هَفَوَاتِهِمْ»[٣].

احتجاج آخر للإمام عليه السلام

روى أبو الطفيل عامر بن واثلة قال: كنت على الباب يوم الشورى فارتفعت الأصوات بينهم فسمعت عليّاً عليه السلام يقول:

«بَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ وَأَنَا وَاللَّهِ أَوْلَى بِالْأَمْرِ مِنْهُ وَأَحَقُّ بِهِ مِنْهُ، فَسَمِعْتُ وَ أَطَعْتُ

(١) نهج البلاغة/ محمَّد عبده: ٢/ ٣١.
(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ٦/ ١٦٦.
(٣) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ١/ ٣٠٨.

مَخَافَةَ أَنْ يَرْجِعَ الْقَوْمُ كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ رِقَابَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ، ثُمَّ بَايَعَ أَبَا بَكْرٍ لِعُمَرَ وَأَنَا أَوْلَى بِالْأَمْرِ مِنْهُ، فَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ مَخَافَةَ أَنْ يَرْجِعَ الْقَوْمُ كُفَّاراً، ثُمَّ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَبَايِعُوا عُثْمَانَ إِذَنْ لَا أَسْمَعُ وَلَا أُطِيعُ.

وَإِنَّ عُمَرَ جَعَلَنِي فِي خَمْسَةِ نَفَرٍ أَنَا سَادِسُهُمْ لَا يَعْرِفُ لِي فَضْلًا فِي الصَّلَاحِ، وَلَا يَعْرِفُونَهُ لِي، كَأَنَّمَا نَحْنُ فِيهِ شَرَعٌ سَوَاءٌ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَشَاءُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لَتَكَلَّمْتُ ثُمَّ لَا يَسْتَطِيعُ عَرَبِيُّكُمْ وَلَا أَعَجَمِيُّكُمْ وَلَا مُعَاهِدُ مِنْكُمْ وَلَا الْمُشْرِكُ رَدَّ خَصْلَةٍ مِنْهَا لَفَعَلْتُ»[١].

احتجاجه عليه السلام على معاوية

من أروع ما احتجَّ به الإمام عليه السلام على معاوية هذا الاحتجاج الذي كان جواباً لرسالة معاوية له، ولنقرأه بإمعان:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللَّهِ مُحَمَّداً صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ[٢]، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ.

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ[٣]؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ.

وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا! أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ[٤]، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ!.

فَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ[٥]، رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ، أَلَا تَرَى غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ».

وأضاف الإمام قائلاً:

---

(١) فرائد السمطين: ١/ ٣٢٠.

(٢) هجر: مدينة باليمن كثيرة النخيل، وقيل مدينة بالبحرين.

(٣) فلان وفلان: يعني بهما الشيخين أبا بكر وعمر.

(٤) أربع على ظلعك: أي قف عندَ حدِّك، واعرف قدرك.

(٥) التيه: الضلال.

«وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحَدِّثُ أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ!

أَوَلَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ، قِيلَ الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ! وَلَوْ لَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ.

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ، فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا[1] لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فِعْلَ الأَكْفَاءِ، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ!.

وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ ـ وهو أبو جهل.

وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلَافِ ـ وهو أبو سفيان.

وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ ـ وهم صبية الأمويِّين.

وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ـ وهي زهراء الرسول ـ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ ـ وهي أمُّ جميل عمَّة معاوية ـ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ!».

ويستمر الإمام في رسالته:

«فَإِسْلَامُنَا مَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ[2]، وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[3]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ.

وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ...».

---

(١) لعلَّ المراد من قوله عليه السلام: «فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا» أنَّ الله خصَّهم بالهداية فبعث منهم رسوله العظيم، وهو وأهل بيتِهِ مصادر الهداية والرشاد للخلق، فهم بهذا صنائع الله لأنَّهم خصَّهم بالنُّبوَّة، والناس صنائع لهم لأنَّ هدايتهم كانت بسببهم.

(٢) أراد عليه السلام أنَّ شرف أُسرته في الجاهلية لا ينكر.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٦٨.

ويأخذ الإمام في احتجاجه:

«وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ.

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا *

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ(١) حَتَّى أُبَايِعَ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ! وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا».

ويستمر الإمام الممتحن في رسالته واحتجاجه على معاوية قائلاً:

«ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ، أَمَّنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ.

كَلَّا وَاللَّهِ ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢).

وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ.

وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ

وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

وعلى أيِّ حال فقد أخذ الإمام في رسالته في الاحتجاج على معاوية قائلاً:

«وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ(٣)! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ؟!.

فَلَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ(٤)

---

(١) الجمل المخشوش: هو الذي يجعل في أنفهِ خشبة ليقاد.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٨.

(٣) الاستعبار: البكاء.

(٤) لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل، هو شطر من بيت قاله بدر بن قشير لمَّا أُغير على إبلهِ في الجاهلية فاستنقذها وقال:

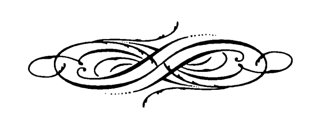
لبثْ قليلاً يلحق الهيجا حمل   لا بأس بالموت إذا الموت نزل.

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ[١] نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ[٢]، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ[٣]؛ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ»[٤].

احتجاجه على الخوارج

واندفع الإمام عليه السلام لإبطال مزاعم معاوية واتباعه قائلاً لأصحابه:

«وَيْحَكُمْ أَنَا أَوَّلُ مَنْ دَعا إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ يَحِلُّ لِي وَلَا يَسَعُنِي فِي دِينِي أَنْ أُدْعىٰ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ فَلَا أَقْبَلَهُ، إِنِّي إِنَّمَا أُقَاتِلُهُمْ لِيَدِينُوا بِحُكْمِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ عَصَوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُمْ، وَنَقَضُوا عَهْدَهُ وَنَبَذُوا كِتَابَهُ، وَلَكِنِّي قَدْ أَعْلَمْتُكُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَادُوكُمْ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ يُرِيدُونَ...»[٥].



(١) مرقل نحوك: أي مسرع.
(٢) القتام: الغبار.
(٣) متسربلين: أي لابسين.
(٤) صبح الأعشى: ١/٢٢٩. نهاية الأدب: ٧/٢٣٣. نهج البلاغة: ٢/٢١.
(٥) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ١/٥١١.

قضاءُ الإمام عليه السلام في عهد الرَّسول والخلفاء

تقلَّد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام منصب القضاء في عهد الرسول ﷺ، فقد رشَّحه لهذا المنصب الحسَّاس، وقدَّمه على بقيَّة أصحابه وأبناء أُسرته، وذلك لعلمه بمواهبه وعبقرياته، وإحاطته الكاملة بشؤون الشريعة، فهو باب مدينة علمه، وأخوه ونفسه، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى.

وكما كان الإمام عليه السلام المرجع الأعلى للقضاء في عهد الرسول ﷺ كذلك كان في عهد الخلفاء، فكانوا يفزعون إليه إذا ألمَّت بهم مسألة لا يهتدون لحلّها، وكان رأيه الحاسم في ما يقضي ويفتي به.. ونعرض لبعض نوادر قضائه في أيام الرسول ﷺ والخلفاء.

في عهد أبي بكر

حكمه على شارب خمر لا يعلم بحرمته:

رُفع إلى أبي بكر شخص قد شرب الخمر، فأراد أن يقيم عليه الحدّ، فقال له: إنِّي شربتها ولا علم لي بتحريمها؛ لأنِّي نشأت بين قوم يشربونها مستحلّين لها، فَأُرْتِجَ على أبي بكر ولم يهتد للحكم فيها، فأشاروا عليه بسؤال الإمام عليه السلام، فأرسل إليه مَن يسأله عنها فأجابهم:

«مُرُوا رَجُلَيْنِ ثِقَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَطُوفَانِ بِهِ عَلَىٰ مَجَالِسِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ يُنَاشِدانِهِمْ هَلْ فِيهِمْ أَحَدٌ تَلَا عَلَيْهِ آيَةَ التَّحْرِيم أَوْ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ! فَإِنْ شَهِدَ بِذَلِكَ رَجُلَانِ مِنْهُمْ فَأَقِمْ عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ عَلَيْهِ أَحَدٌ بِذَلِكَ فَاسْتَتِبْهُ وَخَلِّ سَبِيلَهُ».

ففعل أبو بكر، فلم يشهد عليه أحد فخلَّىٰ سبيله واستتابه[1].

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/٣٥٦. الإرشاد: ١/١٠٧ وغيرها.

في عهد عمر

قصّة قدامة بن مظعون:

روى المؤرّخون أنَّ قدامة بن مظعون شرب الخمر، فأراد عمر أن يقيم عليه الحدّ، فقال له قدامة: لا يجب عليَّ الحدّ.

فقال عمر: لِمَ؟

فقال: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1]، فدرأ عمر عنه الحدّ، وبلغ ذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فأنكر على عمر درأه الحدّ عن قدامة، وقال له:

«لِمَ تَرَكْتَ إِقَامَةَ الْحَدِّ عَلَىٰ قُدامَةَ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ...؟».

فأجابه عمر أنَّه تلا عليَّ الآية ـ المتقدِّمة ـ، فأوضح الإمام له الحكم في المسألة قائلاً:

«لَيسَ قُدامَةُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الآيَةِ، وَلَا مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُ فِي ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَسْتَحِلُّونَ حَراماً، فَارْدُدْ قُدامَةَ وَاسْتَتِبْهُ مِمَّا قَالَ، فَإِنْ تَابَ فَأَقِمْ عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنْ لَمْ يَتُبْ فَاقْتُلْهُ فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الْمِلَّةِ».

وعرف عمر الصواب في كلام الإمام عليه السلام، فبعث خلف قدامة فأظهر التوبة، فدرأ عمر عنه القتل، ولم يدرِ كيف يقيم عليه الحدّ، فاستشار الإمام عليه السلام فقال له: **«حَدُّهُ ثَمَانُونَ»**، فحدَّه عمر ثمانين[2].

اتّهام امرأة بريئة بالبغاء:

روى الإمام أبو عبد الله عليه السلام قال:

أُتي بجارية إلى عمر بن الخطّاب قد شهدوا عليها أنَّها بغت، وكان من قصّتها أنَّها كانت عند رجل، وكان كثير السفر، فشبَّت الجارية فخافت زوجته أن يتزوَّجها زوجها، فدعت جماعة من النساء فأمسكنها، وأخذت عُذْرَتَها بإصبعها، فلمَّا قدم زوجها من سفره رمت زوجته الجارية بالفاحشة، وأقامت البيِّنة من جاراتها على ذلك، فرفع الرجل أمرها إلى عمر بن الخطّاب فلم يدرِ كيف يصنع.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢/٣٦٦.

ثمَّ أخذ الجارية والرجل والنِّساء إلى الإمام عليه السلام، وعرض عليه الأمر، فقال الإمام عليه السلام لامرأة الرجل:

«أَلَكِ بَيِّنَةٌ أَوْ بُرْهانٌ؟».

قالت: لي شهود جاراتي يشهدن عليها بما أقول.

فأمر الإمام عليه السلام بإحضارهنَّ، فلمَّا مثلن أمامه أخرج السيف من غمده ووضعه بين يديه، ثمَّ دعى بزوجة الرجل، فأصرَّت على قولها، فردَّها إلى البيت ثمَّ دعى إحدى النِّساء، وجثا على ركبتيه، وقال لها:

«أَتَعْرِفِيْنَنِي؟ أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَهَذَ سَيْفِي، وَقَدْ قَالَتِ امْرَأَةُ الرَّجُلِ مَا قَالَتْ، وَرَجَعَتْ إِلَىٰ الْحَقِّ ـ أي إلى الحبس ـ **وَأَعْطَيْتَها الأَمَانَ، فَإِنْ لَمْ تَصْدُقِيْنِي لأَمْلأَنَّ السَّيْفَ مِنْكِ»**.

والتفتت المرأة إلى عمر فقالت له: الأمان على الصدق، فأجابها الإمام: **«فَاصْدُقِي»**.

قالت: لا والله! إنَّها ـ أي زوجة الرجل ـ رأت جمالاً وهيئة، فخافت فساد زوجها فسقتها المسكر ودعتنا فأمسكناها، فافتضَّتها بإصبعها، وراح الإمام يقول:

«اللَّهُ أَكْبَرُ أَنَا أَوَّلُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الشُّهُودِ إِلَّا دَنْيالَ النَّبِيَّ».

وألزم المرأة حدّ القذف، وألزمهنَّ جميعاً العقر، وجعل عقرها أربعمائة درهم، وأمر المرأة أن تنفى عن الرجل ويطلِّقها، وزوَّجه الجارية.

مجنونة بغت:

رفعت امرأة مجنونة إلى عمر قد فجر بها رجل، وقامت البيِّنة عليها فأمر بجلدها، فمرَّ بها الإمام عليه السلام، فسأل عن أمرها، فأُخبر بشأنها، فقال عليه السلام:

«رُدُّوها إِلَىٰ عُمَر، وَقُولُوا لَهُ: إِنَّ هَذِهِ مَجْنُونَةُ آلِ فُلَان، وَإِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قَالَ: رُفِعَ الْقَلَمُ عَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَفِيقَ، وَإِنَّها مَغْلُوبَةٌ عَلَىٰ عَقْلِها وَنَفْسِها».

فردّوها إليه، فدرأ عنها الحدّ.[1].

امرأة اضطرَّت إلى الزنا:

جاءت امرأة إلى عمر فقالت له: إنِّي فجرت فأقم فيَّ حدّ الله، فأمر برجمها، وكان الإمام حاضراً، فقال له:

(١) الإرشاد/الشيخ المفيد: ص٩٧

«سَلْها كَيْفَ فَجَرَتْ؟».

فقالت: كنت في فلاة من الأرض فأصابني عطش شديد، فقصدت خيمة فأصبت فيها رجلاً أعرابياً، فسألته الماء فأبى أن يسقيني إلاَّ أن أُمكِّنه من نفسي، فولّيت منه هاربة، فاشتدَّ بي العطش حتَّى غارت عيناي وذهب لساني، فلمَّا بلغ منِّي ذلك أتيته فسقاني، ووقع عليَّ، فقال الإمام عليه السلام:

«هَذِهِ هِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، هَذِهِ غَيْرَ بَاغِيَةٍ، وَلَا عَادِيَةٍ فَخَلِّ سَبِيْلَها».

فقال عمر: لولا عليّ لهلك عمر(١).

رجم الحامل:

رفعت إلى عمر امرأة حامل قد زنت فأمر برجمها، فانبرى الإمام عليه السلام منكراً عليه هذا الحكم قائلاً:

«هَبْ لَكَ سَبِيلٌ عَلَيْهَا، فَأَيُّ سَبِيلٍ لَكَ عَلَىٰ مَا فِي بَطْنِها، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾...»

وراح عمر يبدي إعجابه بالإمام قائلاً:

لا عشتُ لمعضلة لا يكون لها أبو الحسن...

ثمَّ التفت إلى الإمام قائلاً:

ما أصنع بها يا أبا الحسن؟

وبيَّن الإمام له الحكم قائلاً:

«احْتَطْ عَلَيْها حَتَّىٰ تَلِدَ، فَإِذَا وَلَدَتْ وَوَجَدَتْ لِوَلَدِها مَنْ يَكْفُلُهُ فَأَقِمِ الْحَدَّ عَلَيْها»(٢).

في عهد عثمان

مكاتِبةٌ زَنَتْ:

بغت أمة مكاتبة قد تحرَّر ثلاثة أرباع منها، وبقي ربع منها رقّاً، فسأل عثمان الإمام عن حكمها، فقال:

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/٢٥.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤/٢٨.

«يُجْلَدُ مِنْهَا بِحِسابِ الْحُرِّيَّةِ، وَيُجْلَدُ مِنْهَا بِحِسَابِ الرِّقِّ».

ووجَّه عثمان السؤال إلى زيد بن ثابت فقال له: يُجلد منها بحساب الرقِّ فقط، فردَّ عليه الإمام قائلاً:

«كَيْفَ تُجْلَدُ بِحِسابِ الرِّقِّ وَقَدْ أُعْتِقَ مِنْهَا ثَلاثَةُ أَرْباعِها؟ وَهَلّا جَلَدْتَها بِحِسابِ الْحُرِّيَّةِ، فَإِنَّها فِيْهَا أَكْثَرُ».

فقال زيد: لو كان ذلك كذلك لوجب توريثها بحساب الحرية. فقال له الإمام: «أَجَلْ، ذَلِكَ»، فأفحم زيد، وخالف عثمان رأي الإمام وأخذ برأي زيد[١].

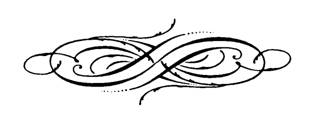
شيخ حملت منه امرأته:

تزوَّج شيخ كبير بامرأة فحملت منه، فزعم الشيخ أنَّه لم يصل إليها، وأنكر حملها، ورفع أمره إلى عثمان، فالتبس عليه الأمر، فأمر بإقامة الحدّ عليها، وكان الإمام حاضراً فأنكر على عثمان فتواه، وقال له:

«إِنَّ لِلْمَرْأَةِ سُمَّيْنِ سُمٌّ لِلْمَحِيضِ، وَسُمٌّ لِلْبَوْلِ، فَلَعَلَّ الشَّيْخُ كَانَ يَنالُ مِنْها فَسالَ ماؤُهُ فِي سُمِّ الْمَحِيضِ فَحَمِلَتْ مِنْهُ، فَاسْأَلُوا الرَّجُلَ عَنْ ذَلِكَ».

فسألوه فقال: قد كنت أُنزل الماء في قبلها من غير وصول إليها بالافتضاض، فقال الإمام:

«الْحَمْلُ لَهُ وَالْوَلَدُ وَلَدُهُ»، فصار عثمان إلى قضائه[٢].



(١) الإرشاد/الشيخ المفيد: ص١٠١.

(٢) الإرشاد/الشيخ المفيد: ص١١٣.

قضاؤُهُ عليه السلام في أيّام حكومتهِ

من روائع قضائه

نقل الرواة كوكبة رائعة من قضاء الإمام عليه السلام توصَّل فيها إلى تمييز الحقّ من الباطل في قضايا مبهمة ومعقَّدة، كان منها ما يلي:

الشاب الذي يطالب بأموال أبيه:

رفع شاب شكواه إلى الإمام ومعه جماعة، فقال للإمام: إنَّ هؤلاء النفر خرجوا معهم أبي في السفر، فرجعوا ولم يرجع أبي معهم، فسألتهم عنه فقالوا: قد توفِّي، وسألتهم عن أموالهم، فقالوا: ما ترك مالاً، فقدَّمتهم إلى شريح فاستحلفهم، فانبرى الإمام قائلاً:

«وَاللّه! لأَحْكُمَنَّ بَيْنَهُمْ بِحُكْمٍ مَا حَكَمَ بِهِ خَلَقٌ إِلَّا داودُ النَّبِيُّ عليه السلام».

ثمَّ أمر الإمام قنبر بإحضار شرطة الخميس، فلمَّا حضروا وكَّل بكلّ واحد منهم شرطيّاً، والتفت إليهم قائلاً:

«مَاذَا تَقُولُونَ؟ تَقُولُونَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ مَا صَنَعْتُمْ بِأَبِي هَذَا الْفَتىٰ؟ إِنِّي إِذاً لَجَاهِلٌ».

ثمَّ أمر بتفريقهم وتغطية رؤوسهم، وأُقيم كلّ واحد منهم إلى أسطوانة من أساطين المسجد، وقد غطِّيت رؤوسهم بثيابهم، ثمَّ دعا كاتبه عبيد الله بن رافع، وأمره بإحضار صحيفة ودواة، وجلس الإمام في مجلس القضاء، وجلس الناس في مجلسه، وقال لهم: إذا كبَّرت فكبِّروا، ثمَّ دعا بواحد منهم وكشف الثوب عن وجهه، وقال لعبيد الله كاتبه: **«اكْتُبْ إِقْرارَهُ وَمَا يَقُولُ»**، ثمَّ أقبل على الرجل، وقال له:

«فِي أَيِّ يَوْمٍ خَرَجْتُمْ مِنْ مَنَازِلِكُمْ، وَأَبُو هَذَا الْفَتىٰ مَعَكُمْ؟».

في كذا وكذا، وعيَّنه.

«فِي أَيِّ شَهْرٍ؟».

في شهر كذا، وعيَّنه.

«فِي أَيِّ سَنَةٍ؟».

في سنة كذا، وعيَّنها.

«إِلَىٰ أَيْنَ بَلَغْتُمْ فِي سَفَرِكُمْ حَتَّىٰ مَاتَ أَبُو هَذا الْفَتَىٰ؟».

إلى موضع كذا، وعيَّنه.

«فِي مَنْزِلِ مَنْ مَاتَ؟».

في منزل فلان، وشخَّصه.

«مَا كَانَ مِنْ مَرَضِهِ؟».

كذا وكذا، وعيَّن مرضاً خاصّاً.

«كَمْ يَوْماً كَانَ مَرَضُهُ؟».

وعيَّن الوقت الذي مرض.

«فِي أَيِّ يَوْمٍ مَاتَ؟ وَمَنْ غَسَلَهُ؟ وَمَنْ كَفَّنَهُ؟ وَبِما كَفَّنْتُمُوهُ، وَمَنْ صَلَّىٰ عَلَيْهِ؟ وَمَنْ نَزَلَ قَبْرَهُ؟».

ثمَّ كبَّر الإمام عليه السلام وكبَّر الناس معه، فارتاب الباقون ولم يداخلهم شكّ أنَّ صاحبهم قد أقرَّ عليهم وعلى نفسه بما اقترفوه من الجريمة، ثمَّ أمر عليه السلام بالرجل إلى السجن، ودعا بشخص آخر منهم وقال له:

«كَلَّا! زَعَمْتُمْ أَنِّي لَا أَعْلَمُ مَا صَنَعْتُمْ؟».

فارتاب الرجل وطفق يخبر الإمام بما اقترفوه قائلاً:

يا أمير المؤمنين، ما أنا إلاَّ واحد من القوم، ولقد كنت كارهاً لقتله.

ثمَّ دعا بكلّ واحد منهم فأقرَّ بالقتل وسلب المال، ثمَّ أمر بردّ الرجل الذي أمر به إلى الحبس فأقرَّ كأصحابه، فألزمهم بالمال والدم.

الأرغفة الثمانية:

من عجائب قضاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ رجلين اصطحبا في طريق، فلمَّا أرادا الغداء أخرج أحدهما خمسة أرغفة، وأخرج الآخر ثلاثة أرغفة، ومرَّ بهما شخص فدعواه إلى تناول الطعام فأجابهم إلى ذلك، وأكلوا جميعاً الأرغفة الثمانية، وبعد الفراغ

من الطعام قدَّم لهما الرجل ثمانية دراهم جزاءً لدعوتهما له، وانبرى صاحب الأرغفة الثلاثة فقال لصاحبه: أُقسِّم الدراهم نصفين، فردَّ عليه صاحبه أنَّ كلّ واحد منَّا يأخذ من الدراهم عدد ما أخرج من الأرغفة، ووقع الشجار بينهما، فترافعا إلى الإمام عليه السلام فأمرهما بالصلح فلم يستجيبا له، وقالا: اقض بيننا بالحقّ، فحكم الإمام بينهما، فأعطى صاحب الخمسة أرغفة سبعة دراهم، وأعطى صاحب الثلاثة درهماً، وبهرا من ذلك، فقال عليه السلام مبيِّناً الوجه في هذه القسمة.

«أَلَيْسَ أَخْرَجَ أَحَدُكُما مِنْ زَادِهِ خَمْسَةَ أَرْغِفَةً وَأَخْرَجَ الآخَرُ ثَلَاثَةً؟».

بلى.

«أَلَيْسَ أَكَلَ ضَيْفُكُما مَعَكُما مِثْلَما أَكَلْتُما؟».

بلى.

«أَلَيْسَ أَكَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا ثَلَاثَةَ أَرْغِفَةٍ غَيْرَ ثلث؟».

بلى.

«أَلَيْس أَكَلْتَ يَا صَاحِبَ الثَّلَاثَةِ ثَلَاثَةِ أَرْغِفَةٍ غَيْرَ ثلث؟ وَأَكَلْتَ أَنْتَ يَا صَاحِبَ الْخَمْسَةِ ثَلَاثَةِ أَرْغَفَة غَيْر ثلث؟ وَأكل الضيف ثلاثة أرغفة غير ثلث؟ أليس بقي لك يا صاحب الثَّلَاثَةِ ثُلُثَ رَغِيفٍ مِنْ زَادِكَ؟ وَبَقِي لَكَ يا صَاحِبَ الْخَمْسَةِ رَغِيفانِ وَثُلث، وَأَكَلْتَ ثَلَاثَةَ غَيْرَ ثُلث، فَأَعْطَاكُما لِكُلِّ ثُلُث رَغِيف دِرهماً، فَأَعْطىٰ صاحِبَ الرَّغِيفَيْنِ وَثُلث سَبْعَةَ دَراهِمَ، وَأَعْطىٰ صَاحِبَ الثَّلَاثَةِ دِرْهماً»[1].

كلب وطىءَ شاة فولدت منه:

من غرر قضاء الإمام عليه السلام أنَّ أعرابياً سأله بهذه المسألة.

الأعرابي: رأيت كلباً وطىء شاة فأولدها ولداً، فما حكم ذلك في الحلّ...؟

الإمام: **«اعْتَبِرْهُ فِي الأَكْلِ، فَإِنْ أَكَلَ لَحماً فَهُوَ كَلْبٌ، وَإِنْ رَأَيْتَهُ يَأْكُلُ عَلَفاً فَهُوَ شاة..»**.

الأعرابي: وجدته تارة يأكل هذا، وتارة يأكل هذا...

الإمام: **«اعْتَبِرْهُ فِي الشُّرْبِ، فَإِنْ كَرَعَ فَهُوَ شاةٌ، وَإِنْ وَلَغَ فَهُوَ كَلْبٌ»**.

الأعرابي: وجدته يلغ مرَّة ويكرع أُخرى.

---

(١) فروع الكافي: ٧/ ٣٢٧.

الإمام: «اعْتَبِرْهُ فِي الْمَشْيِ مَعَ الْمَاشِيَةِ، فَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْها فَهُوَ كَلْبٌ، وَإِنْ تَقَدَّمَ أَوْ تَوَسَّطَ فَهُوَ شَاةٌ».

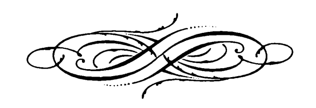
الأعرابي: وجدته مرَّة هكذا ومرَّة هكذا.

الإمام: «اعْتَبِرْهُ فِي الْجُلُوسِ، فَإِنْ بَرَكَ فَهُوَ شَاةٌ، وَإِنْ أَقْعىٰ فَهُوَ كَلْبٌ».

الأعرابي: إنَّه هذا مرَّة وهذا مرَّة.

الإمام: «اذْبَحْهُ فَإِنْ وَجَدتْ لَهُ كرْشاً فَهُوَ شَاةٌ، وَإِنْ وَجَدْتَ لَهُ أَمْعاءَ فَهُوَ كَلْبٌ».

وبهت الأعرابي وذهل من سعة علوم الإمام وإحاطته الكاملة بمعرفة طبائع الحيوانات وحقائقها[١].



(١) قضاء أمير المؤمنين عليه السلام: ص٥٢.

وُلاته وعمَّاله

قبل الخوض والدخول في البحث عن شؤون ولاة الإمام عليه السلام وعمَّاله وجباة الضرائب والخراج، وما زوَّدهم به الإمام عليه السلام من الأنظمة والنصائح في وثائقه إليهم، نعرض إلى بعض البحوث التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً وموضوعياً بأجهزة الحكم ومناصب الدولة وشؤون الموظّفين والعمَّال وغير ذلك، وفيما يلي هذه البحوث:

أهمّية الولاة:

أمَّا الولاة على الأقطار والأقاليم الإسلامية فهم الذين يعيّنهم الخليفة الذي تقلّد أُمور المسلمين ليحكموا بينهم بالحقّ والعدل، ويقيموا سُنَّة الله تعالى وأحكامه في الأرض، ويعملوا على تطوير العالم الإسلامي في إنماء ثرواته، وعمارة أرضه، وإقصاء الفقر والحاجة عن كلّ مواطن يقيم في بلاد المسلمين.

عقاب الإمام الجائر:

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ شَرَّ النَّاسِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ، وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَىٰ بِدْعَةً مَتْرُوكَةً، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: يُؤْتَىٰ بِالإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ فَيُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ فَيَدُورُ كَما تَدُورُ الرَّحىٰ، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا»[1].

التباعد عن السلطان الجائر:

أوصى الإمام عليه السلام بالتباعد عن السلطان الجائر فقال:

«تَبَاعَدْ عَنِ السُّلْطَانِ الْجَائِرِ، وَلَا تَأْمَنْ خُدَعَ الشَّيْطَانِ، فَتَقُولَ: أَنْكَرْتُ، نَزَعْتُ، فَإِنَّهُ هَكَذا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ إِلَّا حُبَّ الدُّنْيا وَقُرْبَ السَّلَاطِينِ وَخَالَفَتْكَ

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٢٤.

عَمَّا فِيهِ رُشْدُكَ فَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسانَكَ فَإِنَّهُ لَا بَقِيَّةَ لِلْمَوْتِ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَلَا تَسَلَ عَنْ أَخْبَارِهِمْ، وَلَا تَنْطِقْ بِأَسْرَارِهِمْ، وَلَا تَدْخُلْ فِيمَا بَيْنَهُمْ»[١].

واجبات الولاة:

وعلى الولاة في الأقاليم الإسلامية أن يقيموا العدل ويحكموا بين الناس بالحقّ، ويتعاهدوا مصالح المسلمين وقضاياهم.

وقد قال عليه السلام:

«يَجِبُ عَلَىٰ الْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمورَهُ وَيَتَعَهَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّىٰ لَا يَخْفىٰ عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ، وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ، ثُمَّ لَا يَتْرِكُ وَاحِداً مِنْهُما بِغَيْرِ جَزاءٍ، فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ تَهاوَنَ الْمُحْسِنُ، وَاجْتَرأَ الْمُسِيءُ، وَفَسَدَ الأَمْرُ، وَضَاعَ الْعَمَلُ»[٢].

تعاليم وأحكام:

١ ـ على الولاة أن يشعروا في قلوبهم الرأفة والرحمة للرعية من دون فرق بين المسلمين وغيرهم، يقول عليه السلام لمالك:

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِالْإِحْسَانِ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ:

إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ.

٢ ـ أن لا يتَّخذوا الإمرة والسلطة وسيلة للاستعلاء على الناس والتكبُّر عليهم.

يقول عليه السلام: **وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ[٣] فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّباً مِنَ الْغِيَرِ.**

وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً[٤]، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ. وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ[٥]، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ مَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ!

---

(١) المصدر المتقدِّم: ص٢٢٧.

(٢) صبح الأعشى: ٢/ ٣٢٥.

(٣) الإدغال: الإفساد.

(٤) المخيلة: الخيلاء والعجب بالنفس.

(٥) الغرب: الحدَّة.

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ[١] اللَّه فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

٣ ـ على الولاة أن ينصفوا الله تعالى وذلك بطاعته وامتثال أوامره، وأن ينصفوا الناس وذلك بإعطاء حقوقهم، وقد حفل بذلك وغيره من صنوف العدل قوله عليه السلام:

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى[٢] مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ!

وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةٍ وَتَعْجِيلِ نِقْمَةٍ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

٤ ـ قال عليه السلام: وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَىٰ الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَىٰ الْخَاصَّةِ[٣]، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَىٰ الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ.

وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ[٤]، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنَ أَهْلِ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ؛ فَلْيَكُنْ لَهُمْ صَغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.

٥ ـ قال عليه السلام: وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَىٰ الْإِسَاءَةِ!

وَأَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَىٰ حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ

(١) المساماة: المباراة في السموّ.
(٢) الهوىٰ: الميل.
(٣) أجحف: أي أذهب.
(٤) الإلحاف: الإلحاح.

قِبَلَهُمْ[١]. فَلْيَكُنْ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ ظَنِّكَ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً[٢] طَوِيلًا.

وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَأَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ.

٦ ـ قال عليه السلام: وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ.

وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِمَّا مَضَى مِنْ تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا.

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ مِنْ قَبْلِكَ.

٧ ـ قال عليه السلام: وَارْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ[٣] مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[٤].

فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ: الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ.

وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ: الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ.

٨ ـ قال عليه السلام: ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ[٥]، وَلَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصَرُ[٦] مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ[٧] عَلَىٰ طَمَعٍ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ؛ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ

---

(١) قبلهم: أي عندهم.
(٢) النصب: التعب.
(٣) يضلعك: أي ما يشكل عليك.
(٤) سورة النِّساء: الآية ٥٩.
(٥) تمحكه: أي لا تغضبه.
(٦) يحصر: أي يضيق صدره.
(٧) تشرف نفسه: أي لا تدنو نفسه.

عَلَى تَكَشُّفِ الأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ[١] إِطْرَاءٌ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ.

ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ[٢] عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ.

وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ.

فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى وَتُطْلَبُ فِيهِ الدُّنْيَا.

٩ ـ قال عليه السلام: ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِيَاراً، وَلَا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقِدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَاقاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَراً.

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا[٣] أَمَانَتَكَ.

ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ[٤] عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ.

وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ؛ فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

١٠ ـ قال عليه السلام: ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ، فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ[٥]، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَإٍ، وَلَا تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ

---

(١) يزدهيه: أي يَسْتخفّه.
(٢) يزيل علّته: أي يرفع حاجته.
(٣) ثلموا: نقضوا.
(٤) الحدوة: الحثّ على الشيء.
(٥) تبطره: أي تفسده.

إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ، فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الأُمُورِ، فَإِنَّ الجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ.

ثُمَّ لَا يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلَكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ.

وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ، لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ.

١١ ـ قال عليه السلام: وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً(١) تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ(٢) جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ(٣)».

ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ(٤) مِنْهُمْ وَالْعِيَّ(٥)، وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ وَالْأَنَفَ يَبْسُطِ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ.

وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ!

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا مِنْهَا:

إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ. وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ مِمَّا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ. وَامْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ. وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ.

---

(١) قسماً: أي وقتاً خاصّاً.

(٢) تقعد عنهم: أي تبعد عنهم.

(٣) التعتع: هو العجز عن الكلام لخوف من السلطة.

(٤) الخرق: العنف.

(٥) العيّ: العجز عن النطق.

١٢ ـ قال عليه السلام: وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ لِلَّهِ بِهِ دِينَكَ: إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ اللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلَا مَنْقُوصٍ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ.

وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ، فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلَا مُضَيِّعاً[1]، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ.

وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟

فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً».

١٣ ـ قال عليه السلام: وَأَمَّا بَعْدَ، فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ؛ وَالِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ.

وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ:

إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ...

١٤ ـ قال عليه السلام: وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ.

١٥ ـ قال عليه السلام: وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً[2] فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ.

---

(١) التنفير: تطويل الصلاة. التضييع: نقص الصلاة، والمراد التوسّط في أدائها.

(٢) الحيف: الظلم.

١٦ ـ قال عليه السلام: إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْنَى لِنَقِمَةٍ، وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ، وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ.

وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ(١).

وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ يَدُكَ بِعُقُوبَةٍ؛ فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ.

١٧ ـ قال عليه السلام: وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ.

وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعُودَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

١٨ ـ قال عليه السلام: وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَقُّطَ فِيهَا(٢) عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ(٣)، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ.

فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ.

وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ(٤)، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ. امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ(٥)، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الِاخْتِيَارَ؛ وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ.

---

(١) القود: القصاص.
(٢) التسقط: التهاون.
(٣) تنكّرت: أي لم يعرف وجه الصواب فيها.
(٤) أسوة: المراد أن لا يستأثر من أموال الدولة بما يكون الناس فيه أسوة.
(٥) حمية أنفك: المراد به الإباء.

بطانة الولاة:

قال عليه السلام: وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنكَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَىٰ مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ.

حق الوالي على الرعية وحقّها عليه:

عرض الإمام عليه السلام في حديثه التالي إلى حقّ الوالي على الرعية، وحقّها عليه، قال عليه السلام:

حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ.

فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى إِلَيْهَا الْوَالِي كَذَلِكَ عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، فَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطَابَ بِهِ الْعَيْشُ وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الأَعْدَاءِ.

وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الأَشْرَارُ[1].

ولاته على مصر

قيس بن سعد:

أمّا قيس بن سعد فهو من أفذاذ القادة الإسلاميّين، وعلم من أعلام الجهاد في الإسلام، ومن ذخائر الرجال الذين أنجبتهم مدرسة الإسلام...

ولاية مالك الأشتر:

أمّا مالك فهو سيف من سيوف الله تعالى، وعلم من أعلام الجهاد في الإسلام، قد وهب

(١) ربيع الأبرار: ٤/٢٤١ ـ ٢٤٢.

حياته لله تعالى، وأخلص لدينه كأعظم ما يكون الإخلاص... وقد وقف بحزم وإخلاص إلى جانب إمام المتّقين وسيِّد الموحِّدين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يحميه، ويذبّ عنه في أحلك الظروف، وأشدّها محنة وبلاءً، وقد أدلى الإمام عليه السلام بعظيم منزلته وجهاده تجاهه قائلاً:

«لَقَدْ كَانَ لِي كَمَا كُنْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله».

محمَّد بن أبي بكر:

وبعدما نكب الإمام عليه السلام بشهادة أخيه وعضده مالك الأشتر قلَّد محمَّد بن أبي بكر ولاية مصر وهو من ألمع الرجال في فضله وتقواه، ومن أكثرهم حبّاً وولاءً للإمام عليه السلام، فكان ابناً بارّاً للإمام، وولداً مخلصاً له، وشفيقاً عليه.

ولاته على مكَّة ـ المدينة ـ اليمن ـ البحرين

واليه على مكَّة قُثَم:

استعمل الإمام عليه السلام على مكَّة ابن عمِّه قُثَمَ بن العبَّاس، وأُمّه لُبَابَة بنت الحارث الهلالية، روي أنَّها أوَّل امرأة أسلمت بعد أُمّ المؤمنين خديجة، وكان أثيراً عند الإمام عليه السلام وذلك لورعه وتقواه.

واليه على المدينة سهل بن حنيف:

ولمَّا نزح الإمام عليه السلام إلى حرب الجمل أقام على يثرب والياً، سهل بن حنيف الأنصاري الأوسي، وكان من أعلام الصحابة وخيارهم، ومن السابقين لاعتناق الإسلام، شهد بدراً، وثبت يوم أُحد حين انكشف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وبايع النبيّ على الموت، وكان ينفح عن رسول الله صلى الله عليه وآله بالنبل فيقول: نبلوا سهلاً فإنَّه سهل.

واليه على اليمن عبيد الله بن العباس:

واستعمل الإمام عليه السلام على اليمن عبيد الله بن العبَّاس، وكان الوالي عليها من قِبل عثمان يعلى بن منبّه، ونهب جميع ما جمع من الجباية، وخرج به إلى مكَّة[1]، وقد جهَّز بالأموال جيش عائشة، وأمدَّه بما يحتاج إليه من النفقات، وكان أعظم عون قدَّمه للمتمرِّدين على حكومة الإمام عليه السلام.

---

(١) الكامل لابن الأثير: ٣/١٠٣.

ولاته على البحرين

عمر بن أبي سلمة:

واستعمل الإمام عليه السلام على البحرين عمر بن أبي سلمة المخزومي ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله، أمّه أمّ المؤمنين السيِّدة أمّ سلمة.

وقد عزله الإمام عليه السلام عن ولاية البحرين، وكتب إليه هذه الرسالة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ نُعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرَقِيَّ عَلَىٰ الْبَحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ لَكَ، وَلَا تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ[1]؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ، وَأَدَّيْتَ الأَمَانَةَ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ[2]، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ، فَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَىٰ ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَىٰ جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ[3].

وحكت هذه الرسالة توثيق الإمام لعمر، وقيامه بإدارة البلاد بأحسن ما يرام، وأنَّه إنَّما عزله ليستعين بآرائه في محاربة معاوية.

النعمان بن عجلان:

النعمان بن عجلان من سادات الأنصار، وكان لسانهم وشاعرهم.

وعلى أيِّ حال فقد استعمل الإمام على البحرين النعمان، فجعل يهب الأموال الكثيرة إلى أُسرته.

ولمّا علم الإمام عليه السلام ذلك عزله، وولّى منهزماً إلى معاوية[4].

ولاته على أصبهان ـ اردشيرخره ـ هيت ـ أذربيجان

مخنف بن سليم واليه على أصبهان:

مخنف بن سليم الأزدي الغامدي له صحبة، وكان من أصحاب الإمام عليه السلام، استعمله على أصبهان، وشهد معه صفِّين.

---

(١) التثريب: الاستقصاء في اللوم.
(٢) ظنين: أي غير متَّهم.
(٣) تاريخ ابن واضح: ٢/ ١٩٠.
(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠١.

عامله كميل على هيت:

من ألمع ولاة الإمام عليه السلام كميل بن زياد النخعي العالم الجليل الذي احتلّ مكانة مرموقة عند الإمام عليه السلام، فكان حامل أسراره ـ كما يقول علماء الرجال ـ وقالوا فيه: إنَّه كان شريفاً مطاعاً في قومه، وإنَّه من أجلّ علماء وقته، وعقلاء زمانه، ونسَّاك عصره[١].

ولاته على البصرة

عثمان بن حنيف:

كان عثمان بن حنيف الأنصاري الأوسي من أعلام الصحابة، شهد أحداً والمشاهد بعدها مع النبيّ ﷺ، وكان له رأي ثاقب، ومعرفة كاملة بالأُمور[٢]، وقد استعمله الإمام عليه السلام والياً على البصرة، وقد دعاه قوم منها إلى وليمة فأجابهم، ولمَّا علم الإمام ذلك أنكره.

ولاية عبد الله بن عبَّاس:

أمَّا عبد الله بن العبَّاس فهو ألمع شخصية إسلامية في الأُسرة العباسية، فقد تتلمذ عند الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وأخذ منه علومه، التي منها علم الفقه وتفسير القرآن الكريم.

رسائل الإمام لابن عبَّاس:

وقد زوَّده الإمام عليه السلام ببعض الرسائل الحافلة بالوعظ والإرشاد ونكران الذات والتي منها:

١ ـ كتب الإمام عليه السلام إلى ابن عبَّاس هذه الرسالة الموجزة:

أَمَّا بَعْدُ، فَلَا يَكُنْ حَظُّكَ فِي وَلَايَتِكَ مَالاً تَسْتَفِيدُهُ، وَلَا غَيْظاً تَشْفِيهِ، وَلَكِنْ إِمَاتَةَ بَاطِلٍ وَإِحْيَاءَ حَقٍّ[٣].

وحدَّدت هذه الرسالة مسؤولية ابن عبَّاس في ولايته على البصرة أن يقيم الحقّ

---

(١) أضواء على دعاء كميل: ص٨٥.
(٢) الاستيعاب: ٣/ ٩٠.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٢٧.

ويميت الباطل، وأن لا يكون هدفه الحصول على المال أو التشفّي من خصومه وأعدائه، وهو تصوُّر بارع للسياسة الإسلامية التي بُنيت على الحقّ المحض والعدل الخالص.

٢ ـ وكتب الإمام عليه السلام إلى ابن عبَّاس هذه الرسالة الحافلة بالنصح والوعظ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ، وَلَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ؛ وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ[١]، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَىٰ ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ[٢].

٣ ـ ولمَّا أراد الإمام عليه السلام الشخوص إلى حرب معاوية كتب إليه:

أَمَّا بَعْدُ، فَأَشْخِصْ إِلَيَّ مَنْ قِبَلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَذَكِّرْهُمْ بَلَائِي عِنْدَهُمْ وَعَفْوِي عَنْهُمْ، وَاسْتِبْقَائِي لَهُمْ، وَرَغِّبْهُمْ فِي الْجِهَادِ وَأَعْلِمْهُمُ الَّذِي فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ.

وأقام الإمام في النخيلة لم يبرح عنها حتى قدم عليه ابن عبَّاس مع أهل البصرة[٣].

اتّهامه بالخيانة:

واتّهم حبر الأُمَّة بخيانة بيت مال البصرة واختلاس ما فيه من أموال، وقد أعلن ذلك بعض المؤرّخين مستندين إلى كوكبة من الرسائل بعثها الإمام إليه.

وعلى أيِّ حال فإنَّا نذكر بعض تلك الرسائل التي بعثها الإمام عليه السلام لابن عبَّاس:

كتب الإمام عليه السلام هذه الرسالة لابن عباس، وجاء فيها:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ.

بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ.

وقد أجابه ابن عباس نافياً عنه هذه التهمة بما يلي:

أمَّا بعد فإنَّ كلّ الذي بلغك باطل، وأنا لما تحت يدي ضابط، وعليه حافظ، فلا تصدّق الضنين[٤].

---

(١) دار دول: أي لا تدوم لأحد، فتارة تكون بيد شخص، وأُخرى بيد غيره.

(٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٥/ ٢٤٩.

(٣) كتاب متين: ٢/ ١١٦. بحار الأنوار: ٨/ ٤٧١.

(٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة ـ المحقّق الكبير المحمودي، نقلاً عن تاريخ الطبري: ٤/ ١٠٨.

وجواب ابن عباس صريح في براءته من تهمة الخيانة، وأنَّه قد اتّهمه بذلك بعض حسَّاده وأعدائه.

ولاية أبي الأسود:

أمَّا أبو الأسود الدؤلي فهو من وجوه شيعة الإمام عليه السلام واستعمله والياً على البصرة بعد ابن عباس[١].

ولاية زياد:

وولي زياد بن عبيد الرومي ولاية البصرة من قبل عبد الله بن عباس، ويتساءل الكثيرون من قدامى ومحدِّثين أنَّه كيف أقرَّ الإمام ولايته ولم يبادر إلى عزله مع أنَّه ليس له أبّ شرعي يعرف به حتى قيل فيه زياد ابن أبيه.

تحذير الإمام لزياد من أباطيل معاوية:

قام زياد بدور إيجابي في بعض أعمال فارس فضبطها ضبطاً صالحاً وجبى خراجها وحماها، وعرف ذلك معاوية فورم أنفه، فقام لخداعه وجلبه إليه، وكتب إليه:

أمَّا بعد، فإنَّه غرَّتك قلاع تأوي إليها ليلاً كما تأوي الطير إلى وكرها، وأيم الله لولا انتظاري بك ما الله أعلم به لكان ذلك منِّي ما قاله العبد الصالح: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٢].

وكتب في أسفل الكتاب شعراً كان منه هذا البيت:

تَنسىٰ أَبَاكَ وَقَدْ شَالَت نَعامَتُهُ   إِذْ تَخْطُبُ النَّاسَ وَالْوَالِي عُمَرْ

ولمَّا ورد الكتاب على زياد قام خطيباً، وقال: العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق يهدِّدني وبيني وبينه ابن عمّ رسول الله ﷺ، وزوج سيِّدة نساء العالمين، وأبو السبطين، وصاحب الولاية والإخاء في مائة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، أما والله! لو تخطَّىٰ هؤلاء أجمعين إليَّ لوجدني فحشاً[٣] ضرَّاباً بالسيف.

---

(١) خزانة الأدب: ١/ ٢٨١.

(٢) سورة النمل: الآية ٣٧.

(٣) المفحش: الجريء.

وكتب إلى الإمام عليه السلام يخبره بما جرى وأرسل معه كتاب معاوية إليه، فبعث الإمام عليه السلام هذه الرسالة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ مَا وَلَّيْتُكَ وَأَنَا أَرَاكَ لِذَلِكَ أَهْلاً، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فَلْتَةٌ فِي أَيَّامِ عُمَرَ مِنْ أَمَانِيِّ التِّيهِ وَكَذِبِ النَّفْسِ، لَمْ تَسْتَوْجِبْ بِهَا نَسَباً، وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ كَالشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، فَاحْذَرْهُ ثُمَّ احْذَرْهُ ثُمَّ احْذَرْهُ، وَالسَّلَامُ(١).

وحذَّر الإمام عليه السلام في هذه الرسالة زياداً من أضاليل معاوية وخداعه، فقد حاول أن يلحق زياداً بنسبه، وذلك شبهة لزنا أبيه بسميَّة أُمّ زياد، والقصَّة ممَّا يندى له جبين الإنسانية ففيها فضيحة لأبي سفيان وسميَّة، ولكن معاوية لم يحفل بالعار في سبيل تدعيم أغراضه السياسية، وبناء سلطانه، وأخيراً فقد استجاب زياد لمعاوية، وصار من أقوى أعوانه وأخذ يتتبَّع شيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكان بهم عالماً، فجعل يسمل أعينهم ويقطع ألسنتهم، ويقتلهم على الظنَّة والتُّهمة.

ولاته على المدائن ـ كسكر ـ الجبل

ولاته على المدائن

وعهد الإمام عليه السلام بولاية المدائن إلى الأشخاص التالية أسماؤهم، وهم:

حذيفة اليماني:

وهو من أبرز الصحابة في فضله وتقواه، وكان يُسمَّىٰ صاحب السرّ؛ لأنَّه كان يعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد اتّصل اتّصالاً وثيقاً بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فكان يذيع فضائله، وينشر مناقبه.

سعد بن مسعود:

كان سعد من خيار أصحاب الإمام عليه السلام وهو عمّ البطل الخالد المختار، الذي استأصل شأفة المجرمين من قتلة سيِّد الشُّهداء عليه السلام.

عهد الإمام عليه السلام بولاية المدائن إلى سعد، وذلك بعد وفاة حذيفة بن اليمان.

---

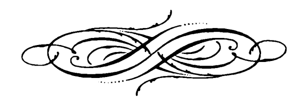
(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر: ٥/ ٤١٠.

عامله على كسكر:

وكان عامله على كسكر[١] عجلان بن قدامة.

عامله على الجبل:

وأقام الإمام والياً على الجبل سليمان بن صرد الخزاعي، وهو من أفذاذ شيعته، وأحد المطالبين بدم سيِّد الشُّهداء عليه السلام، وكان زعيم التوّابين.



(١) كسكر: مدينة تقع بين الكوفة والبصرة.

تأنيب الولاة وعزلهم

كان الإمام عليه السلام يراقب ولاته وعمَّاله مراقبة شديدة، فجعل عليهم الرقباء والعيون يتتَّبعون تصرُّفاتهم، ويسجِّلون خدماتهم وتصرُّفاتهم وسائر شؤونهم، ويرفعونها له، فإذا اشتكى أحد المواطنين والياً من ولاته لسوء خلقه أو لتجبُّره وتكبُّر واعتزازه بوظيفته أنَّبه الإمام ووبَّخه، وأرشده إلى مكارم الأخلاق، وإذا كان الوالي خائناً، وسارقاً بادر إلى عزله ومحاسبته.

تأنيب العمَّال:

أنَّب الإمام عليه السلام كوكبة من ولاته المواطنين شكوا سوء أخلاقهم للإمام، وهذا عرض لبعضهم:

١ ـ أنَّ جماعة من الدهَّاقين الذين لم يدخلوا في دين الإسلام، وبقوا على دينهم شكوا إلى الإمام عليه السلام غلظة عاملهم، فكتب الإمام إليه هذه الرسالة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ[1].

٢ ـ رفع بعض العيون الذي أقامهم الإمام على واليه بالبحرين النعمان بن عجلان أنَّه ذهب بمال البحرين، فكتب إليه الإمام هذه الرسالة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَهَانَ بِالأَمَانَةِ، وَرَغِبَ فِي الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ، أَخَلَّ بِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُشْفِي عَلَيْهِ بَعْدُ أَمَرُّ وَأَبْقَىٰ وَأَشْقَىٰ وَأَطْوَلُ.

فَخَفِ اللَّهِ إِنَّكَ مِنْ عَشِيْرَةٍ ذَات صَلَاحٍ، فَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ الظَّنِّ بِكَ، وَرَاجِعْ إِنْ كَانَ

(١) نهج البلاغة: ص٣٧٦.

حَقّاً مَا بَلَغَنِي عَنْكَ، وَلَا تَقْلِبَنَّ رَأْيِي فِيكَ، وَاسْتَنْظِفْ خَرَاجَكَ ثُمَّ اكْتُبْ إِلَيَّ لِيَأْتِيَكَ رَأْيِي وَأَمْرِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ(١).

٣ ـ وافت الأنباء إلى الإمام عليه السلام أنَّ عامله على اصطخر المنذر بن جارود العبدي قد شذَّ في سلوكه، فكتب إليه هذه الرسالة يؤنِّبه وينقم عليه، وهذا نصّها:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً، وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَاداً، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ.

وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ أَوْ يُعْلَى بِهِ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ(٢).

عزل الولاة:

وعزل الإمام عليه السلام بعض الولاة لمَّا انحرفوا عن الطريق القويم، وسلكوا منهجاً غير ما أمر الله به، وهؤلاء بعضهم:

١ ـ الأشعث بن قيس:

كان الأشعث بن قيس والياً على آذربيجان فبلغ الإمام عليه السلام أنَّه خان بيت المال فعزله وكتب إليه الرسالة التالية:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا غَرَّكَ مِنْ نَفْسِكَ وَجَرَّأَكَ عَلَىٰ آخِرِكَ إِمْلَاءُ اللَّهِ لَكَ؛ إِذْ مَا زِلْتَ قَدِيماً تَأْكُلُ رِزْقَهُ، وَتُلْحِدُ فِي آيَاتِهِ، وَتَسْتَمْتِعُ بِخَلَاقِكَ، وَتَذْهَبُ بِحَسْنَاتِكَ إِلَىٰ يَوْمِكَ هَذَا.

فَإِذَا أَتَاكَ رَسُولِي بِكِتَابِي هَذَا فَأَقْبِلْ وَاحْمِلْ مَا قِبَلَكَ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ(٣).

٢ ـ عزله لوالٍ شكت عليه سوادة:

رفعت سوادة بنت عمارة الهمدانية إلى الإمام أمير المؤمنين شكوى في شأن والٍ جار عليهم فبكى الإمام عليه السلام، وقال:

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٧٧.
(٢) نهج السعادة: ٥/ ٢٣.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٧٦.

اللَّهُم أَنْتَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ، إِنِّي لَمْ آمُرْهُمْ بِظُلْمِ خَلْقِكَ وَلَا بِتَرْكِ حَقِّكَ.

وكتب إليه الرسالة التالية بعد البسملة:

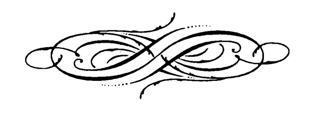
قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ.

إِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَاحْتَفِظْ بِمَا فِي يَدَيْكَ مَنْ عَمَلِنَا حَتَّىٰ يَأْتِيَ مَنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامُ(١).

٣ ـ عزل الأشعري:

كان أبو موسى الأشعري والياً على الكوفة من قبل عثمان بن عفَّان، وكان منحرفاً عن الإمام، وقد جعل يثبّط عزائم الناس من الالتحاق بجيش الإمام الذي ندبه للقضاء على تمرُّد طلحة والزبير، فعزله الإمام وكتب إليه هذه الرسالة:

اِعْتَزِلْ عَمَلَنَا يَابْنَ الْحَائِكِ! مَذْمُوماً مَدْحُوراً، فَمَا هَذَا أَوَّلَ يَوْمِنَا مِنْكَ، وَإِنَّ لَكَ فِينَا لَهَنَاتٍ وَهَنَاتٍ(٢).



(١) العقد الفريد: ١/ ٢١٢.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ٣٦٨.

حكومة الإمام عليه السلام

تسلَّم الإمام عليه السلام قيادة الحكم بعد الإطاحة بحكومة عثمان بن عفَّان، وقد أعلن بين المسلمين معالم سياسته الداخلية والخارجية، وأكَّد بصورة حازمة اهتمامه البالغ بأمر الخراج وسائر ما تملكه الدولة من وارداتها المالية، وأنَّها ملك للشعب، وليس له أن يصطفي فيها لنفسه وذويه، وإنَّما يجب أن تنفق على تطوير حياة المواطنين، وإنقاذهم من غائلة الفقر والحرمان، كما يجب أن تهيَّأ لهم الفرص المتكافئة للعمل لئلَّا تشيع البطالة والجريمة في البلاد.

واستقبل الإمام عليه السلام مصرع عثمان بكثير من القلق والوجوم والاضطراب، وذلك لعلمه بمجريات الأحداث، وأنَّ الأمويِّين والطامعين والمنحرفين سيتَّخذون من دمه ورقة رابحة يطالبون بها؛ للاستيلاء على الحكم ونهب ثروات البلاد.

رفض الإمام للخلافة:

ومن المؤكَّد أنَّ الإمام لم تكن له أيَّة رغبة في الخلافة التي تعني الزهو والإمرة والظفر بخيرات البلاد، فإنَّ هذه الأهداف محرَّمة وغير مشروعة عند الإمام عليه السلام الذي يبغي الحكم لتحقيق الأهداف النبيلة، والمُثل العليا، وإسعاد المجتمع، وإنقاذه من البؤس والحرمان، وإشاعة الرفاهية والأمن بين الجميع.

وقد هتف الإمام أمام الجماهير التي أحاطت به وهي تطالبه بتقلُّده للحكم فقال لهم:

«لَا حَاجَةَ لِي فِي أَمْرِكُمْ، فَمَنْ اخْتَرْتُمْ رَضِيتُ بِهِ..».

أجل، إنَّه لا حاجة له ولا رغبة له في الخلافة ما لم يحقِّق أهدافه النبيلة.. وقد أعرب الإمام عليه السلام في بعض أحاديثه عن الأسباب التي دعته لمنازعة الخلفاء فقال:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ».

وعلى أيٍّ حال فقد أحاطت الجماهير بالإمام وهي تعلن رغبتها الملحَّة في ولايته قائلة:

لا إمام لنا غيرك...

وهتفت ثانية:

ما نختار غيرك..

قبول الإمام:

وفكَّر الإمام في قبول الخلافة، فرأى أنَّ المصلحة تقتضي قبولها، وذلك خوفاً من أن ينزو عليها علج من فسَّاق بني أُميَّة، قال عليه السلام:

«وَاللَّهِ! مَا تَقَدَّمْتُ عَلَيْهَا - أي على الخلافة - **إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يَنْزُو عَلَىٰ الأُمَّة تَيْسٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، فَيَلْعَبَ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَ وَجَلَّ...»**[1].

البيعة:

وهرعت الجماهير إلى الجامع الأعظم وهي تنتظر بفارغ الصبر قبول الإمام لخلافتهم، وأقبل الإمام عليه السلام وإلى جانبيه سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد احتفَّت به البقيَّة الطاهرة من صحابة رسول الله كعمَّار بن ياسر ومالك الأشتر وغيرهما، وقد ارتفعت أصوات الجماهير بالتأييد الكامل له والهتاف بحياته، فاعتلى عليه السلام أعواد المنبر وخاطب الجماهير:

«أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ هَذَا أَمْرُكُمْ لَيْسَ لأَحَدٍ فِيهِ حَقٌّ إِلَّا مَنْ أَمَّرْتُمْ، وَقَدْ إِفْتَرَقْنَا بِالأَمْسِ وَكُنْتُ كَارِهاً لأَمْرِكُمْ، فَأَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ أَكُونَ عَلَيْكُمْ، أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي أَنْ آخُذَ دِرْهَماً دُونَكُمْ، فَإِنْ شِئْتُمْ قَعَدْتُ لَكُمْ، وَإِلَّا فَلَا آخُذُ عَلَىٰ أَحَدٍ - يعني البيعة -».

ابتهاج المسلمين:

وابتهج المسلمون بهذه البيعة، وعمَّت الفرحة الكبرى جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد رجع الحقّ إلى نصابه وقامت دولة العدل، وتقلَّد الخلافة أبو الأيتام وناصر المحرومين والمظلومين. وقد حكى الإمام في بعض خطبه مدى سرور الناس ببيعته، قال عليه السلام:

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ٩٣.

«وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ».

تأييد الصحابة:

وانبرى كبار الصحابة الذين ناصروا الرسول ﷺ وساهموا في بناء الإسلام فأعلنوا تأييدهم الكامل للإمام، وهم:

١ ـ ثابت بن قيس.

٢ ـ خزيمة بن ثابت.

٣ ـ صعصعة بن صوحان.

٤ ـ مالك الأشتر.

٥ ـ عبد الرَّحمٰن الجمحي.

٦ ـ عقبة بن عمرو.

الوفود المهنِّئة:

وعمَّت الفرحة الكبرى جميع أنحاء العالم الإسلامي، وهرعت الوفود إلى المدينة، وهي تعلن تأييدها لحكومة الإمام وولاءها، وهذا بعضها:

١ ـ وفد اليمن.

٢ ـ قبائل همدان.

٣ ـ وفد جهينة.

٤ ـ وفد بجيلة.

الدُّعاء على المنابر للإمام:

أمَّا الإمام عليه السلام فهو أوَّل خليفة دعي له على المنابر بالتأييد والنصر، ولم يحظ بمثل ذلك غيره، وكان أوَّل من دعا له عبد الله بن عبَّاس، فقال:

اللَّهُمَّ انصر علياً على الحقّ...

وجوم القرشيِّين:

واستقبلت قريش خلافة الإمام عليه السلام بكثير من الفزع والوجوم والاضطراب؛ لأنَّ الإمام عليه السلام قد وترهم في سبيل الدعوة الإسلامية، وقضىٰ على الكثيرين من أعيانهم

ووجوههم، فقد قتل من أعلام بني أُميَّة عتبة بن ربيعة جدّ معاوية، والوليد ابن عتبة خال معاوية، وحنظلة أخاه، وغيرهم من أقطاب الشِّرك والإلحاد، فكانت نفوسهم مترعة بالحقد والعداء للإمام.

لقد امتحن الإمام امتحاناً عسيراً بالأُسر القرشيَّة، وراح يصعّد آلامه وزفراته منهم قائلاً:

«مَالِي وَلِقُرَيْشٍ! وَاللَّهِ! لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، . . . وَاللَّهِ! لأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلِ حَتَّىٰ أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ! فَقُلْ لِقُرَيش: فَلَتَضَجّ ضَجِيجِها».

القُعَّاد:

وتخلَّف عن بيعة الإمام جماعة سمَّاهم المسعودي بـ«القُعَّاد»[١]، وسمَّاهم أبو الفداء بـ«المعتزلة»[٢]، وقال فيهم الإمام:

«أُولَئِكَ قَوْمٌ قَعِدُوا عَنِ الْحَقِّ، وَلَمْ يَقُومُوا مَعَ الْبَاطِلِ»[٣].

مصادرة الأموال المنهوبة:

وأوَّل عمل باشره الإمام بعد توليته للخلافة أنَّ أصدر قراره الحاسم بمصادرة القطائع التي أقطعها عثمان لبني أُميَّة وغيرهم، واسترجاع الأموال الهائلة التي وهبها لهم؛ لأنَّها أُخذت بغير وجه مشروع، وقد صودرت أموال عثمان حتى سيفه ودرعه.

سياسته الداخلية:

وأجهد الإمام نفسه على أن يسوس الناس بسياسة مشرقة قوامها العدل الخالص، والحقّ المحض، وينشر الرفاه والأمن، ويوزّع الخيرات على العباد بالسواء، فلا يختصّ بها قوم دون آخرين. . .

المواساة:

من برامج سياسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مواساته للفقراء والضعفاء في جشوبة العيش ومكاره الدهر.

---

(١) مروج الذهب (المطبوع بهامش ابن الأثير): ٦/ ٧٨.
(٢) تاريخ أبي الفداء: ١/ ١٧٦ ـ ١٧٨.
(٣) الاستيعاب: ٣/ ٥٥.

إلغاء التفاخر بالآباء:

ونهى الإمام عليه السلام رعيَّته عن التفاخر بالآباء والأجداد والمباهات بالبنين والأموال[١]، وغير ذلك من التفاخر بما يؤول أمره إلى التراب.

إنشاؤه بيتاً للمظالم:

وأنشأ الإمام بيتاً للمظالم أنشاه للذين لا يتمكَّنون من الوصول إلى السلطة، وكان عليه السلام يشرف عليه بنفسه.

شرطة الخميس:

وأحدث الإمام عليه السلام جهازاً للمحافظة على الأمن ومراقبة الأحداث، وقد سمَّاه (شرطة الخميس).

الصراحة والصدق:

والشيء البارز في سياسة الإمام عليه السلام التزام الصراحة والصدق في جميع شؤون حياته، فلم يوارب ولم يخادع ولم يداهن في دينه، وسار على منهج أخيه وابن عمِّه رسول الله صلى الله عليه وآله.

سياسته المالية:

كان للإمام عليه السلام منهج خاصّ متميِّز في سياسته المالية، ومن أبرز مناهجه أنَّه كان يرى المال الذي تملكه الدولة مال الله تعالى ومال المسلمين، ويجب إنفاقه على تطوير حياتهم، وإنقاذهم من غائلة البؤس والحاجة، ولا يختصّ ذلك بالمسلمين، وإنَّما يعمُّ جميع من سكن بلاد المسلمين من اليهود والنصارى والصابئة.

توزيع المال:

من المناهج في السياسية المالية التي انتهجها الإمام عليه السلام في حكومته توزيع الأموال التي تجبىٰ للخزينة المركزية حين وصولها، فكان يبادر إلى إنفاقها على مستحقِّيها، والجهات المختصَّة كتعمير الأراضي وإصلاح الري، الأمر الذي يعود على البلاد بالفائدة، وكانت هذه سيرته ومنهجه.

---

(١) خزانة الأدب: ٣/٥٩.

المساواة في العطاء:

وانتهج الإمام عليه السلام طريقة خاصَّة في العطاء، وهي التسوية بين المسلمين، فلم يميِّز قوماً على قوم، ولا فئة على فئة.

احتياطه في أموال الدولة:

واحتاط الإمام كأشدّ ما يكون الاحتياط في أموال الدولة، وقد روى المؤرّخون صوراً مدهشة من احتياطه فيها كان منها ما يلي:

مع عقيل:

وفد عليه عقيل طالباً منه أن يُرفِّه عليه ويمنحه الصلة، فأخبره الإمام أنَّ ما في بيت المال للمسلمين، وليس له أن يأخذ منه قليلاً ولا كثيراً، وإذا منحه وأعطاه منه فإنَّه يكون خائناً ومختلساً، وأخذ عقيل يلحّ عليه ويجهد في مطالبته، فأحمى له الإمام حديدة وأدناها منه، فظنَّ أنَّها صرَّة فيها مال، فألقى نفسه عليها، فلمَّا مسَّها كاد أن يحترق من ميسمها، وضجَّ ضجيج ذي دنف منها، فلمَّا أفاق أجمع رأيه على الالتحاق بمعاوية لينعم في صِلاته وأمواله التي اختلسها من بيت مال المسلمين.

الحرية:

من المبادىء التي طبَّقها الإمام في أيَّام حكومته منح الناس الحرية الكاملة شريطة أن لا تستغلّ في الاعتداء على الناس، ولا تضرُّ بمصالحهم، وأن لا تتنافى مع قواعد الشرع، ومن معالمها ما يلي:

الحرية السياسية:

ونعني بها أن تتاح للناس الحرية التامَّة في اعتناق أي مذهب سياسي من دون أن تفرض السلطة عليهم رأياً معاكساً، وقد منح الإمام عليه السلام هذه الحرية حتى لأعدائه الذين أعلنوا رفض بيعته التي قام عليها إجماع المسلمين.

ويتفرع عن الحرية السياسية ما يلي:

١ ـ حرية القول:

من مظاهر الحرية الواسعة التي منحها الإمام عليه السلام للمواطنين حرية القول، وإن كان في غير صالح الدولة ما لم يتعقَّبه فساد، فالعقاب يكون عليه.

٢ ـ حرية النقد:

ومنح الإمام الحرية الواسعة لنقد حكمه، ولم يتعرَّض للناقدين له بسوء، وكان ابن الكوَّاء من ألدّ أعدائه، فقد اعترض عليه وقال له:

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، فردَّ عليه عليه السلام:

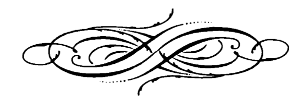
﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، ولم يتَّخذ الإمام ضدَّه أي إجراء وإنَّما عفا عنه وخلَّى سبيله.

٣ ـ حرية التنقُّل:

ولم يفرض الإمام عليه السلام الإقامة الجبرية على أيِّ أحد من الصحابة وغيرهم كما فرضها عمر بن الخطَّاب.

الرقابة على السوق:

الإمام عليه السلام أوَّل خليفة في الإسلام قام بالرقابة على السوق، وكان يتجوَّل بين الباعة، ويوصيهم بتقوى الله تعالى، وينهاهم عن معصيَّته، ويأمرهم بالاستقامة في معاملاتهم وكان يقول لهم: أحسنوا، أرخصوا بيعكم على المسلمين فإنَّه أعظم للبركة.



حرب الجمل

والشيء المؤكَّد الذي اتَّفق عليه المؤرّخون والرواة هو أنَّ النبيّ ﷺ قد عهد إلى وصيّه وباب مدينة علمه بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين(١)، أمَّا الناكثون فهم الذين قاموا بحرب الجمل، ومهَّدوا الطريق إلى معاوية وحزبه لحرب الإمام، وهم الذين سمَّاهم النبيّ بالقاسطين، وأمَّا المارقون فهم الخوارج الذين مرقوا عن الإسلام وحاربوا الإمام.

أمَّا الذين قاموا بهذه الحرب فقد نكثوا بيعة الإمام وخاسوا ما عاهدوا عليه الله تعالى من الطاعة للإمام، ومتابعة أمره، وقد عناهم الإمام بقوله:

«مَنْ نَكَثَ بَيْعَتَهُ لَقِيَ اللَّهَ أَجْذَمَ لَيْسَ لَهُ يَدٌ».

وعلى أيٍّ حال فإنَّ الذين أشعلوا هذه الحرب قد أثاروا الفتنة بين المسلمين، وخالفوا ما أمر الله تعالى به من الاعتصام بحبله جميعاً وأن لا يتفرَّقوا، وهم قد فارقوا الجماعة، وسفكوا دماء المسلمين بغير حقّ، وأشاعوا فيهم الحزن والحداد، والله تعالى هو الذي يتولَّى حسابهم ما اقترفوه من إثمٍ عظيم..

السيِّدة عائشة:

وقبل الحديث عن تمرُّد عائشة وخروجها على حكومة الإمام عليه السلام نعرض إلى شيء بالغ الأهمية وهو موقف عائشة من عثمان.

أمَّا عائشة فقد كانت في طليعة الحاقدين على عثمان والناقمين عليه.

وقد أشعلت العواطف، وألهبت القلوب ضدّه، فأباحت دمه وجرَّدته من جميع الشرعية للحكم، ولمَّا علمت بدنوِّ مصرعه على أيدي الثوَّار غادرت يثرب، واتَّجهت صوب مكَّة تترقَّب أخباره بفارغ الصبر.

---

(١) مستدرك الحاكم: ٣/ ١٣٩.

موقفها من بيعة الإمام:

وغادرت عائشة مكّة صوب المدينة، فلمّا انتهت إلى سرف[١] لقيها عبيد بن أمّ كلاب فبادرت مسرعة تسأله عن الأحداث قائلة له:

مهيم ـ يعني ما عندك من نبأ؟

قتلوا عثمان.

ولم تهتمّ بقتله، وإنّما كانت تترقّب الخليفة من بعده، فقالت:

ثمَّ صنعوا ماذا؟

أخذها أهل المدينة بالإجماع فجازت بهم الأُمور إلى غير مجاز، اجتمعوا إلى عليّ بن أبي طالب...

وفقدت عائشة إهابها وراحت تقول بحرارة وجزع وبصرها يشير إلى السَّماء ثمَّ ينخفض إلى الأرض:

ليت هذه ـ أي السَّماء ـ انطبقت على هذه ـ أي الأرض ـ إن تمَّ الأمر لصاحبك، ويحك انظر ما تقول؟

هو ما قلت لك يا أُمّ المؤمنين.

فولولت وجزعت، وأصابها ذهول ورعدة، فبهر عبيد وقال لها:

ما شأنك يا أُمّ المؤمنين؟ والله! لا أعرف بين لابتيها[٢] أحداً أوْلى بها ـ أي الخلافة ـ منه ـ أي من الإمام ـ، ولا أحقّ ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته، فماذا تكرهين منه؟

وراحت تلتمس المعاذير لموقفها، فتمسّكت بما هو أوهى من بيت العنكبوت قائلة:

قتل عثمان والله مظلوماً! وأنا طالبة بدمه...

فأنكر عليها عبيد، وأبدى دهشته قائلاً:

إنَّ أوّل من طعن عليه ـ أي على عثمان ـ لأنت، وأطمع الناس في قتله، وقلتِ: اقتلوا نعثلاً فقد فجر.

وأبدت معاذيرها الواهية قائلة:

---

(١) سرف: موضع يقع على مسيرة ليلة من مكّة.

(٢) لابتيها: موضعان يكتنفان المدينة.

والله! قلتُ وقال الناس، وآخر قولي خير من أوَّله..

وسخر عبيد من قولها وقال:

عذرٌ والله! ضعيف يا أُمّ المؤمنين!

وخاطبها عبيد بهذه الأبيات التي ارتجلها قائلاً:

فمنكِ البَداءُ ومنكِ الغِيَرْ ومنكِ الرياحُ ومنكِ المطَرْ

وأنتِ أمرْتِ بقتلِ الإمامِ وقلتِ لنا: إنَّه قد كَفَرْ

ولم يسقطِ السقفُ من فوقنا ولم تنكسِفْ شمسُنا والقمَرْ

وقد بايعَ الناس ذا تُدْرَإٍ يزيلُ الشَّبا ويُقيمُ الصعَرْ

ويلبسُ للحَرْبِ أثوابها وما من وَفىٰ مثل من قد غدر

وقفلت عائشة راجعة إلى مكَّة، فلمَّا انتهت إليها استقبلها القرشيّون فقالت لهم:

يا معشر قريش، إنَّ عثمان قُتل، قتله عليّ بن أبي طالب، والله! لليلة من عثمان خير من عليّ الدهر كلّه...[1].

وتناست عائشة أنَّ عليّاً نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، وأحبّ الناس إليه، وأنَّه بمنزلة هارون من موسى...

خطاب عائشة بمكَّة:

أحاطت جماهير أهل مكَّة بعائشة، فخطبت فيهم خطابها السياسي، وخلاصته أنَّها حمَّلت المسؤولية في إراقة دم عثمان على الغوغاء، فهم الذين استباحوا سفك دمه في البلد الحرام وفي الشهر الحرام، وذلك بعدما أقلع من ذنوبه، وأخلص في توبته، ولا حجَّة لهم فيما اقترفوه من سفك دمه...[2].

دوافع تمرُّدها:

ولم يكن تمرُّد عائشة على حكومة الإمام عفوياً وإنَّما كان ناشئاً عن أسباب هذه بعضها:

١ ـ وهو من أوثق الأسباب، أنَّها كانت تروم إرجاع الخلافة إلى ابن عمّها طلحة،

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٧٢.

(٢) نصّ خطابها الكامل في تاريخ الطبري: ٣/ ٢٦٨.

وجعلها في تيم أُسرتها، وقد أعربت عن ذلك حينما كانت في مكّة فجعلت تناجي ابن عمّها طلحة وتخاطبه قائلة:

إيه ذا الإصبع! إيه أبا شبل! إيه ابن عمّ! لله أبوك! أما إنَّهم وجدوا طلحة لها ـ أي الخلافة ـ كفواً، لكأنّي أنظر إلى إصبعه، وهو يبايع حثو الإبل[1].

٢ ـ ومن بواعث حقد عائشة على الإمام هو أنَّ النبيّ ﷺ كان دوماً يشيد بفضله، ويقدِّمه على سائر أصحابه وأُسرته.

٣ ـ ومن الأسباب التي أدَّت إلى حقد عائشة على الإمام وزوجته سيِّدة نساء العالمين أنَّ النبيّ ﷺ قد أخلص في الحبّ كأعظم ما يكون الإخلاص لابنته وبضعته.

٤ ـ وممَّا زاد في حقد عائشة على زهراء الرسول أنَّها قد حظيت بالذرِّية المباركة سيِّدي شباب أهل الجنَّة، وشبيهة مريم بنت عمران السيِّدة زينب سلام الله عليها.

٥ ـ ومن بواعث حقد عائشة على الأُسرة النبوية أنَّ النبيّ ﷺ كان دوماً يشيد بأُمّ الزَّهراء عليها السلام السيِّدة خديجة ويترحَّم عليها، وكان إذا ذبح شاة اختار أطيب ما فيها من لحم وبعثه إلى صديقات خديجة، وكانت عائشة تتميَّز غيظاً من ذلك وتقول له بحرارة: ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها؟

ويسارع النبيّ ﷺ رادّاً عليها:

«مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ خَيْراً مِنْهَا، آمَنَتْ بِيَ حِينَ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا حِينَ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرُزِقْتُ مِنْهَا الْوَلَدَ ـ وهي سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام ـ **وَحُرِمْتُهُ مِنْ غَيْرِهَا»**.

مؤتمر مكَّة:

وعقدت عائشة مع طلحة والزبير وغيرهما من الحاقدين على الإمام والخالعين لبيعته مؤتمراً، وقد وجدوا في هذا البلد الحرام تجاوباً فكرياً لهم، وتعاطفاً من أبناء الأُسر القرشية الحاقدة على الإمام، والتي ناجزت الرسول ﷺ بجميع ما تملكه من الوسائل.

مقرَّرات المؤتمر:

وتداول زعماء الفتنة الآراء في البلد الذي يغزونه ويتَّخذونه مقرّاً لتمرُّدهم، والشعارات التي يرفعونها:

---

(١) أحاديث أُمّ المؤمنين عائشة: ص١١٨.

١ ـ احتلال البصرة.

٢ ـ المطالبة بدم عثمان.

٣ ـ مسؤولية الإمام عن دم عثمان.

خديعة معاوية للزبير وطلحة:

قام معاوية بخديعة الزبير وطلحة واتّخاذهما سلّماً يعبر فيه لأهدافه، فقد منّاهما بالخلافة والبيعة لهما إن خلعا بيعة الإمام، وقد كتب للزبير هذه الرسالة:

لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان:

سلام عليك، أمّا بعد فإنّي قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليهما ابن أبي طالب، فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة من بعدك فأظهرا الطلب بدم عثمان وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناوئكما...

ولمّا وصلت الرسالة إلى الزبير لم يملك صوابه من الفرح والسرور وخفّ مسرعاً إلى طلحة يخبره بذلك، فلمّا قرأ طلحة رسالة معاوية لم يشكّ هو والزبير في صدق هذا الذئب، وتحفّزا بصورة جادّة إلى إعلان الثورة على الإمام لتكون لهما الخلافة بعد الإجهاز على حكومة الإمام، وقد اتّخذا ـ كما عهد إليهما معاوية ـ دم عثمان بن عفّان شعاراً لهما...[1].

تجهيز الجيش بالأموال:

وقام ولاة عثمان بتجهيز جيش عائشة بالأموال التي نهبوها من الخزينة المركزية، فجهّز يعلى بن أُميّة ـ الذي كان والياً من قِبل عثمان على اليمن ـ الجيش بستمائة بعير وستمائة ألف درهم[2]، ولم يتحرّج أعضاء القيادة العامّة في جيش عائشة من هذه الأموال المحرّمة.

الزحف إلى البصرة:

وتحرّكت جيوش عائشة من مكّة متّجهة صوب البصرة لاحتلالها، وقد دقّت طبول الحرب وانتشرت الرايات، وتهافتت القوى المنحرفة عن الحقّ وذوو الأطماع على

(١) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١/ ٢٣١.
(٢) تاريخ ابن الأثير: ٣/ ١٠٦.

الالتحاق بجيش عائشة، وشعارهم المطالبة بدم عثمان الذي سفكه طلحة والزبير وعائشة.

ماء الحوأب:

وسارت قافلة عائشة في البيداء تحفُّها الجيوش فاجتازت على مكان يُقال له «الحوأب» فتلقَّتها كلاب الحيّ بهرير وعواء فذعرت عائشة فالتفت إلى محمَّد بن طلحة فقالت له:

أيّ ماء هذا يا محمَّد؟

ـ ماء الحوأب يا أُمّ المؤمنين!

فهتفت بحرارة قائلة:

ما أراني إلاَّ راجعة.

ـ لِمَ يا أُمّ المؤمنين؟

ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه:

«كَأَنِّي بِإِحْدَاكُنَّ قَدْ نَبَحَتْها كِلَاب الْحَوْأَب، وَإِيَّاكِ أَنْ تَكُونِي يَا حُمَيْراء»[1].

فسارع محمَّد قائلاً:

تقدَّمي يرحمك الله، ودعي هذا القول...

ولم تبرح من مكانها، وطافت بها الهموم والأحزان، فقد أيقنت بضلالة قصدها.. وذعرت القيادة العامَّة في جيشها، وانبرى إليها بعضهم قائلاً:

يا أُمَّاه، تقدَّمي..

وبقيت تائهة تراودها كلمات الرسول ﷺ، وراحت تقول بنبرات ملؤها الأسىٰ والحزن:

ردّوني، أنا والله! صاحبة كلاب الحوأب.

ردّوني.

وأسرع إليها ابن أُختها عبد الله بن الزبير كأنَّه ذئب، وهو يلهث، فلمَّا رأته انهارت أمامه، فجاء بشهود اشترى ضمائرهم فشهدوا أنَّ هذا الماء ليس بماء الحوأب، وهي

---

(١) روى ابن عبَّاس عن النبيّ أنَّه قال يوماً لنسائه وهنَّ جميعاً عنده: «أيَّتكنَّ صاحبة الجمل الأدب تنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة كلّهم في النار، وتنجو بعدما كادت».

أوّل شهادة زور في الإسلام[1]، فأقلعت عن فكرتها، وأخذت تقود الجيوش لحرب وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وباب مدينة علمه.

في ربوع البصرة:

وراحت جيوش عائشة تطوي البيداء حتى داهمت البصرة ففزع أهلها كأشدّ ما يكون الفزع.

استنجاد الإمام بالكوفة:

ورأى الإمام الممتحن أنّه لا وسيلة للقضاء على هذا الجيب المتمرِّد الذي فتحته عائشة إلاّ بالقوَّة العسكرية، فاستنجد بالكوفة وهي أعظم حامية عسكرية في عصر الإمام، فأوفد كوكبة من أعلام أصحابه بقيادة المجاهد الكبير هاشم بن عتبة المرقل وزوَّده برسالة إلى حاكم الكوفة أبي موسى الأشعري جاء فيها بعد البسملة:

«أَمَّا بَعْدُ... فَإِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ، لِتُشْخِصَ إِلَيَّ مَنْ قِبَلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِيَتَوَجَّهُوا إِلَى قَوْمٍ نَكَثُوا بَيْعَتِي، وَقَتَلُوا شِيعَتِي، وَأَحْدَثُوا فِي الْإِسْلَامِ هَذَا الْحَدَثَ الْعَظِيمَ، فَاشْخَصْ بِالنَّاسِ إِلَيَّ مَعَهُ حِينَ يَقْدَمُ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَمْ أُوَلِّكَ الْمِصْرَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَمْ أُقِرَّكَ عَلَيْهِ إِلَّا لِتَكُونَ مِنْ أَعْوَانِي عَلَى الْحَقِّ، وَأَنْصَارِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ»[2].

ولمَّا انتهى الوفد إلى الكوفة عرض هاشم الرسالة على أبي موسى فمحاه، وأخذ يتوعَّد هاشماً بالسجن والتنكيل، وجعل يثبّط الناس ويحرِّضهم على عدم الاستجابة للإمام عليه السلام، ورفع المرقال إلى الإمام رسالة عرَّفه فيها بموقف هذا المنافق، وما قام به من إفساد الناس وحثّهم على الاعتزال، ولمَّا قرأ الإمام الرسالة أوفد ولده الزكي الحسن عليه السلام والصحابي العظيم عمَّار بن ياسر، والزعيم قيس بن سعد، وزوَّدهم برسالة عزل فيها الخائن الأشعري، ويتوعَّده بالتنكيل إن تأخَّر عن إجابتهم وأظهر العصيان والتمرُّد.

خطبة الإمام بذي قار:

خطب الإمام عليه السلام بذي قار خطاباً بالغ الأهمية عرض فيه الأحداث الرهيبة التي

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣٤٧.

(٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٤/ ٥٥.

واجهها بعد وفاة أخيه وابن عمّه الرسول ﷺ، فقد جاء فيها بعد البسملة والثناء على الله تعالى:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ وَحَالٍ، فِي الْغُدُوِّ وَالْآصَالِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، وَحَيَاةً لِلْبِلَادِ، حِينَ امْتَلَأَتِ الْأَرْضُ فِتْنَةً وَاضْطَرَبَ حَبْلُهَا وَعُبِدَ الشَّيْطَانُ فِي أَكْنَافِهَا، وَاشْتَمَلَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ عَلَى عَقَائِدِ أَهْلِهَا، فَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الَّذِي أَطْفَأَ اللَّهُ بِهِ نِيرَانَهَا، وَأَخْمَدَ بِهِ شِرَارَهَا، وَنَزَعَ بِهِ أَوْتَادَهَا، وَأَقَامَ بِهِ مَيْلَهَا، إِمَامُ الْهُدَى، وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى ﷺ، فَلَقَدْ صَدَعَ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ وَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَأَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ ذَاتَ الْبَيْنِ وَآمَنَ بِهِ السُّبُلَ، وَحَقَنَ بِهِ الدِّمَاءَ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ ذَوِي الضَّغَائِنِ الْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ حَمِيداً.

ثُمَّ اسْتَخْلَفَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ فَلَمْ يَأْلُ جُهْدَهُ.

ثُمَّ اسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَلَمْ يَأْلُ جُهْدَهُ.

ثُمَّ اسْتَخْلَفَ النَّاسُ عُثْمَانَ بْن عَفَّان، فَنَالَ مِنْكُمْ وَنِلْتُمْ مِنْهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ أَتَيْتُمُونِي لِتُبَايِعُونِي، فَقُلْتُ: لَا حَاجَةَ فِي ذَلِكَ وَدَخَلْتُ مَنْزِلِي فَاسْتَخْرَجْتُمُونِي، فَقَبَضْتُ يَدِي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَتَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّكُمْ قَاتِلِيَّ، وَأَنَّ بَعْضَكُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ، فَبَايَعْتُمُونِي وَأَنَا غَيْرُ مَسْرُورٍ بِذَلِكَ، وَلَا جَذِلٌ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنِّي كُنْتُ كَارِهاً لِلْحُكُومَةِ بَيْنَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي شَيْئاً مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي إِلَّا أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، ثُمَّ يُنْشَرُ كِتَابُهُ، فَإِنْ كَانَ عَادِلًا نَجَا، وَإِنْ كَانَ جَائِراً هَوَى»، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَيَّ مَلَؤُكُمْ، وَبَايَعَنِي طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، وَأَنَا أَعْرِفُ الْغَدْرَ فِي أَوْجُهِهِمَا وَالنَّكْثَ فِي أَعْيُنِهِمَا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَانِي فِي الْعُمْرَةِ، فَأَعْلَمْتُهُمَا أَنْ لَيْسَا الْعُمْرَةَ يُرِيدَانِ، فَسَارَا إِلَى مَكَّةَ، وَاسْتَخَفَّا عَائِشَةَ، وَخَدَعَاهَا وَشَخَصَ مَعَهُمَا أَبْنَاءُ الطُّلَقَاءِ فَقَدِمُوا الْبَصْرَةَ فَقَتَلُوا بِهَا الْمُسْلِمِينَ وَفَعَلُوا الْمُنْكَرَ، فَيَا عَجَباً لِاسْتِقَامَتِهِمَا لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَبَغْيِهِمَا عَلَيَّ، وَهُمَا يَعْلَمَانِ أَنِّي لَسْتُ دُونَ أَحَدِهِمَا وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ.

وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ كَتَبَ إِلَيْهِمَا مِنَ الشَّامِ كِتَاباً يَخْدَعُهُمَا فِيهِ، فَكَتَمَاهُ عَنِّي وَ خَرَجَا يُوهِمَانِ الطَّغَامَ أَنَّهُمَا يَطْلُبَانِ بِدَمِ عُثْمَانَ، وَاللَّهِ! مَا أَنْكَرَا عَلَيَّ مُنْكَراً وَلَا جَعَلَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَفاً، وَإِنَّ دَمَ عُثْمَانَ لَمَعْصُوبٌ بِهِمَا، وَمَطْلُوبٌ مِنْهُمَا. يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي إِلَىٰ مَا دَعَا وَبِمَاذَا أُجِيبَ!! وَاللَّهِ! إِنَّهُمَا لَعَلَى ضَلَالَةٍ صَمَّاءَ، وَجَهَالَةٍ عَمْيَاءَ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ

دَمَرَ لَهُمَا حِزْبَهُ وَاسْتَجْلَبَ مِنْهُمَا خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ لِيُعِيدَ الْجَوْرَ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرُدَّ الْبَاطِلَ إِلَى نِصَابِهِ...».

ثمَّ رفع الإمام عليه السلام يديه وقال:

«اللَّهُمَّ إِنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي وَأَلَّبَا عَلَيَّ، وَنَكَثَا بَيْعَتِي فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَانْكُثْ مَا أَبْرَمَا، وَلَا تَغْفِرْ لَهُمَا أَبداً، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا عَمِلَا وَأَمَّلَا...»[1].

الصحابة الذين رافقوا الإمام:

١ ـ الإمام الحسن عليه السلام.

٢ ـ الإمام الحسين عليه السلام.

٣ ـ الصحابي العظيم الطيِّب ابن الطيِّب عمَّار بن ياسر.

٤ ـ سهل بن حنيف.

٥ ـ عثمان بن حنيف.

٦ ـ سعد بن الحارث بن عمرو.

٧ ـ جارية بن قدامة بن زهير.

٨ ـ أبو مسعود الأنصاري.

٩ ـ أبو سعيد الخدري.

١٠ ـ أبو أُمامة العبدي بن العجلان الباهلي.

١١ ـ خزيمة بن ثابت بن الفاكه.

١٢ ـ هاشم بن عتبة بن أبي وقَّاص.

١٣ ـ سليمان بن صرد الخزاعي.

١٤ ـ الأشعث بن قيس الكندي.

١٥ ـ قيس بن سعد بن عبادة.

١٦ ـ أبو عمرة بشير بن عمر.

١٧ ـ حجر بن عدي بن الأدبر الكندي.

١٨ ـ عمرو بن الحمق الخزاعي.

(١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ١/٣١٩ ـ ٣٢٢.

١٩ ـ عبد الله بن عبَّاس: حبر الأُمَّة.

٢٠ ـ عبيد الله بن عبَّاس.

٢١ ـ عبد الله بن جعفر.

٢٢ ـ عمر بن أبي سلمة.

٢٣ ـ جعدة بن هبيرة بن أبي وهب.

جيش الإمام بالبصرة:

وتحرَّكت قوَّات الإمام من ذي قار، وهي على بيِّنة صادقة من أمرها لا يخامرها شكّ أنَّها على الحقّ، ومع أخي رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه، وأنَّها تحارب فئة باغية لا هدف لها إلاَّ الوصول إلى الحكم، وقد انتهت جيوش الإمام في زحفها إلى مكان يُسمَّىٰ بالزاوية ويقع قريباً من البصرة، فأقام فيه الإمام، وبادر إلى الصلاة، وبعد الفراغ منها أخذ يبكي، ودموعه تسيل على سحنات وجهه الشريف، وهو يتضرَّع إلى الله تعالى في أن يحقن دماء المسلمين، ويجنِّبه ويلات الحرب، ويجمع كلمة المسلمين على الهدى والحقّ.

مع عائشة: وندب الإمام عليه السلام ابن عبَّاس للقيا عائشة، وأمره أن يقول لها:

«إِنَّ هَذِهِ الأُمُورَ لَا تُصْلِحُها النِّساءُ، وَإِنَّكِ لَمْ تُؤْمَرِي بِذَلِكَ، فَلِمَ تَرْضَيْن بِالْخُرُوجِ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ فِي تَبَرُّجِكِ؟ وَبَيْتِكِ الَّذِي أَمَرَكِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْمُقام فِيهِ؟ حَتَّىٰ سِرْتِ إِلَىٰ الْبَصْرَةِ فَقَتَلْتِ الْمُسْلِمِينَ؟ وَعَمَدْتِ إِلَىٰ عُمَّالِي فَأَخْرَجْتِهِمْ؟ وَأَمَرْتِ بِالتَّنْكِيلِ بِالْمُسْلِمِينَ؟ وَأَبَحْتِ دِمَاءَ الصَّالِحِينَ؟ فَارْعي وَرَاقِبِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّكِ كُنْتِ أَشَدَّ النَّاسِ عَلَىٰ عُثْمانَ، فَمَا عَدا مِمَّا بَدا»[(١)].

مع الزبير: وسارع ابن عبَّاس إلى الزبير، فالتقى به وحده، وكان يخشى أن يكون معه ابنه عبد الله الذي كان من ألدّ أعداء الإمام عليه السلام، وعرض عليه نصيحة الإمام، ودارت بينهما بعض الأحاديث، وكاد أن يلين لها الزبير، إلاَّ أنَّ بعض الحاضرين سارع إلى ولده عبد الله فأخبره بمجيء ابن عبَّاس فخشي من استجابة أبيه فبادر مسرعاً إلى أبيه، وجرت مناظرة بينه وبين ابن عبَّاس، فصرف أباه، وأفسد الأمر، فانصرف ابن عبَّاس وقد فشل في مهمَّته، فأخبر الإمام عليه السلام بذلك.

(١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٤/ ٧٧ ـ ٧٨.

الإمام مع طلحة والزبير:

ولم يكتفِ الإمام عليه السلام بالوفد الذي أرسله للزبير وطلحة وعائشة، فقد خرج بنفسه ليقيم الحجَّة عليهم، فالتقى بطلحة والزبير، وقال لهما:

«اسْتَحْلِفا عَائِشَةَ بِحَقِّ اللَّهِ، وَبِحَقِّ رَسُولِهِ عَلَىٰ أَرْبَعِ خِصَالٍ أَنْ تَصْدُقَ فِيهَا: هَلْ تَعْلَمُ رَجُلاً مِنْ قُرَيْشٍ أَوْلَىٰ مِنِّي بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِسْلَامِي قَبْلَ كَافَةِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَكِفَايَتِي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كُفَّارَ الْعَرَبِ بِسَيْفِي وَرُمْحِي، وَعَلَىٰ بَرَاءَتِي مِنْ دَمِ عُثْمانَ، وَعَلَىٰ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْتَكْرِهُ أَحَداً عَلَىٰ بَيْعَتِي، وَعَلَىٰ أَنِّي كُنْتُ أَحْسَنَ قَوْلاً فِي عُثْمَانَ مِنْكُمَا؟».

فأجابه طلحة جواباً منكراً، ورقَّ له الزبير، وقفل الإمام راجعاً إلى أصحابه فقالوا له: بِمَ كلَّمت الرجلين؟ فقال عليه السلام:

«إِنَّ شَأْنَهُمَا لَمُخْتَلِفٌ، أَمَّا الزُّبَيرُ فَقَادَهُ اللَّجَاجُ، وَلَنْ يُقَاتِلَكُمْ، وَأَمَّا طَلْحَةُ فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْحَقِّ فَأَجَابَنِي بِالْبَاطِلِ، وَلَقِيتُهُ بِالْيَقِينِ فَقَابَلَنِي بِالشَّكِّ، فَوَاللَّهِ! مَا نَفَعَهُ الْحَقُّ، وَأَضَرَّ بِهِ الْبَاطِلَ، وَهُوَ ـ أي طلحة ـ مَقْتُولٌ فِي الرَّعِيلِ...»[1].

الإمام مع الزبير:

ورأى الإمام عليه السلام أن يكسب الزبير، وينقذه من الضلالة فخرج إليه، وقد اعتلى بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء، وكان عارياً من السلاح، فنادى أين الزبير؟ فخرج إليه شاكّاً بسلاحه، فقيل لعائشة إنَّ الزبير قد خرج للإمام، فخافت عليه وصاحت:

واحَرْباه يا أسماء[2]!

فقيل لها: إنَّ عليّاً خرج حاسراً فاطمأنَّت، واعتنق الإمام الزبير وقال له بلطف: **«مَا الَّذِي أَخْرَجَكَ؟»**.

دم عثمان.

ولم يحفل الإمام بهذا الاعتذار الذي لا نصيب له من الصحَّة، فأشاح عنه، وأخذ يذكِّره بما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله فيه:

«أَنَاشِدُكَ بِاللَّهِ، هَلْ تَعْلَمُ يَا زُبَيْرُ أَنِّي كُنْتُ أَنَا وَأَنْتَ فِي سَقِيفَةَ بَنِي فُلَانٍ تُعَالِجُنِي

---

(١) واقعة صفِّين/ محمَّد بن زكريا: ٣٥.

(٢) أسماء: هي بنت أبي بكر، أُخت عائشة، وهي زوجة الزبير.

وَأُعَالِجُكَ فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللّٰهِ، فَقَالَ: كَأَنَّكَ تُحِبُّهُ؟ قُلْتُ: وَمَا يَمْنَعُنِي إِنَّهُ عَلَىٰ دِينِي وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِي. فَقَالَ رَسُولُ اللّٰهِ: أَمَا إِنَّهُ لَيُقَاتِلَنَّكَ وَهُوَ الظَّالِمُ».

ولم يسع الزبير إنكار ذلك، وراح يقول بأسى وحزن: اللّٰهُمَّ نعم.

«فَعَلَامَ تُقَاتِلُنِي؟».

نسيتها والله! ولو ذكرتها ما خرجت إليك، ولا قاتلتك...

وانصرف الزبير، وقد طافت به موجات من الأسى، وندم كأشدّ ما يكون الندم على ما فرَّط في أمر نفسه، وقفل الإمام راجعاً إلى أصحابه فبادروا قائلين:

يا أمير المؤمنين، سرت إلى رجل في سلاحه، وأنت حاسر؟

فأجابهم الإمام:

«أَتَدرُونَ مَنْ الرَّجُلُ؟ إِنَّهُ الزُّبَيْرُ بْنُ صَفِيَّةَ عَمَّة رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ، أما أَنَّهُ قَدْ أَعْطىٰ عَهْداً لَا يُقَاتِلُكُمْ... إِنِّي ذَكَرْتُ لَهُ حَدِيثاً قَالَهُ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ، فَقَال: لَوْ ذَكَرْتُهُ مَا أَتَيْتُكَ...».

وصاح أصحاب الإمام: الحمد لله يا أمير المؤمنين! ما كنَّا نخشى في هذه الحرب غيره، ولا نتَّقي سواه[1].

الحرب العامَّة:

ولمَّا يئس الإمام ﷺ من السلم وحقن الدماء، عبَّأ جيشه تعبئة عامَّة وأسند قيادة جيشه إلى الزعيم مالك الأشتر، والصحابي العظيم عمَّار بن ياسر وغيرهما من أعلام الصحابة، ودعا بدرع رسول الله ﷺ، واعتلى على بغلة رسول الله ﷺ، ووقف أمام صفوف جيشه، ونشر عليه اللواء، فوقف قيس بن عبادة أمامه وأنشأ يقول:

هَذَا اللِّوَاءُ الَّذِي كُنَّا نَخِفُّ مَعَ النَّبِيِّ وَجِبْرِيلُ لنا مَدَدا
ما ضَرَّ مَن كَانت الأَنْصارُ عَيْبَتَهُ أَن لَا يَكُونَ لَهُ مِنْ غَيْرِها أَحَداً
قَوْمٌ إِذَا حارَبوا طَالَتْ أَكُفُّهُمُ بالْمَشْرَقِيَّةِ حَتَّىٰ يَفْتَحُوا الْبَلَدا

وصفَّ جند عائشة صفوفهم، وجاؤوا بالجمل الذي يقلّ عائشة وخطامه بيد كعب بن شور، وقد رفع صوته قائلاً:

يَا مَعْشَرَ الأَزْدِ عَلَيْكُمْ أُمَّكُمْ فَإِنَّهَا صَلَاتُكُمْ وَصَوْمُكُمْ

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٧٣.

وَالحرْمَةُ العُظمىٰ الَّتِي تَعُمُّكُمْ فأحضروها جِدّكُمْ وَحَزْمَكُمْ
لَا يَغْلِبَنْ سُمُّ الْعَدُوِّ[١] سُمَّكُمْ إنَّ العَدُوَّ إنْ عَلَاكُمْ زَمَّكُمْ
وَخَصَّكُم بِجَوْرِه وَعَمَّكُمْ لَا تَفضَحوا اليوم فداكم قَوْمكمْ[٢]

ابن الزبير ومالك الأشتر:

وبرز عبد الله بن الزبير لحومة الحرب، فبرز إليه الزعيم مالك الأشتر فعلا صدر ابن الزبير فصاح مستجيراً:

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

وأخذ الأشتر برجل ابن الزبير وألقاه في الخندق، وقال: والله! لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله ما اجتمع منك عضو إلى عضو أبداً.

مصرع الزبير وطلحة:

أمَّا الزبير فكان رقيق القلب، وشديد الوله لأهل البيت عليهم السلام وقد زجَّ به في هذه المهالك حبّه للمُلك، وإغراء ولده له.

أمَّا طلحة فهو ثاني شخصيَّة في هذه الحرب الظالمة، وكان من الحاقدين على الإمام لموقفه من بيعة أبي بكر الذي هو من ألصق الناس بطلحة وهو الذي أغرى الزبير بالتمرُّد على حكومة الإمام عليه السلام.

وبمقتله ومصرع الزبير فقد انتهت القيادة العامَّة في جيش عائشة.

قيادة عائشة للجيش:

وتولَّت عائشة القيادة العامَّة للجيش بعد هلاك الزبير وطلحة، فكانت هي التي تتولَّى إصدار الأوامر في العمليات الحربية.

كما أحاطت بجمل عائشة الأزد وبنو ناجية، وقد هاموا بحبّها والإخلاص إليها فكانوا يأخذون بعر جملها ويشمّونه ويقولون: بعر جمل أُمّنا ريحه ريح المسك..

لقد أُريقت الدماء، وأُزهقت الأنفس حول جمل عائشة، وقد تهافت هؤلاء الأعراب عليه لا يريمون عنه، ويقدِّمون نفوسهم بسخاء للحفاظ عليه.

(١) يريد بالعدو: الإمام أمير المؤمنين صدِّيق المؤمنين وعدوّ المنافقين.
(٢) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ٢/ ٨١.

عقر الجمل:

رأى الإمام عليه السلام أنَّ الحرب لا تنتهي ما دام الجمل موجوداً فرفع صوته عالياً:

«اعقُرُوا الْجَمَلَ، فَإِنَّه شَيْطانٌ، اعْقُرُوهُ وَإِلَّا فُنِيتِ الْعَرَبُ، لَا يَزَالُ السَّيْفُ قَائِماً وَرَاكِعاً حَتَّى يَهْوِي هَذَا الْبَعِيرُ إِلَىٰ الأَرْضِ»[1].

فحمل عليه ـ في رواية ـ الإمام الحسن عليه السلام فقطع يده اليمنى، وشدَّ عليه الإمام الحسين عليه السلام فقطع يده اليسرى فهوى إلى جنبه وله عجيج منكر لم يسمع مثله، كأنَّه عجل بني إسرائيل.

وفرَّ حماة الجمل في البيداء لا يلوون على شيء فقد تحطَّم صنمهم الذي قدَّموا له هذه القرابين، وأمر الإمام عليه السلام بحرقه وذري رماده في الهواء لئلَّا تبقى منه بقيَّة تكون مصدر فتنة وبلاء، وبعد الفراغ من حرقه قال عليه السلام:

«لَعَنَهُ اللَّهُ مِنْ دابةٍ، ما أَشْبَهَهُ بِعُجِلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، ثمَّ مدَّ بصره نحو الرماد الذي تناهبته الريح وتلا قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[2].

مع عائشة:

وأوفد الإمام الممتحن للقيا عائشة السبطين الحسن والحسين عليهما السلام ومحمَّد بن أبي بكر فانطلقوا إليها، ومدَّ أخوها محمَّد بيده في هودجها فجفلت منه، وصاحت به:

من أنت؟

أبغض أهلكِ إليك..

ابن الخثعميَّة؟

نعم، أخوك البرّ..

عقوق..

هل أصابكِ مكروه؟

سهم لم يضرّني..

(١) وقعة الجمل: ص٤٥.

(٢) سورة طٰه: الآية ٩٧.

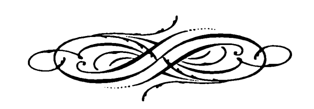
فانتزعه منها، وأخذ بخطام هودجها، وأدخلها في الهزيع الأخير من اللَّيل إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي، وفيه صفيَّة بنت الحارث فأقامت فيه أياماً.

الإمام مع عائشة:

وسار الإمام عليه السلام نحو عائشة، فاستقبلته صفيَّة بنت الحارث شرّ لقاء، فقالت له: يا قاتل الأحبَّة، أيتم الله بنيك كما أيتمت بني، وكانوا قد قتلوا في المعركة، فأعرض عنها، ولم يجبها بشيء، ومضى حتى دخل على عائشة، فقالت له: ملكت فأسْجح[1].

وأمرها الإمام بمغادرة البصرة، وأن تقرّ في بيتها كما أمرها الله ورسوله، ولمَّا قفل راجعاً استقبلته صفيَّة بمثل ما قالت له أوّلاً فردَّ عليها الإمام قائلاً:

«لَوْ كُنْتُ قَاتِلَ الأَحِبَّةِ لَقَتَلْتُ مَنْ فِي هَذَا الْبَيْتِ».



(١) التمثيل والمحاضرة: ص٣٩.

تمرُّد معاوية

ولم يسترح الإمام وقتاً قصيراً من حرب الجمل حتى رأى خطراً رهيباً محدقاً بالدولة من ابن أبي سفيان الذي لم يع الإسلام، ولم يؤمن بقيمه وأهدافه، وهو أمكر سياسي في تاريخ العرب على الإطلاق، فقد استطاع بقابليَّاته الدبلوماسية أن يغزو قلب الخليفة الثاني، ويسيطر على مشاعره وعواطفه، فلم يفتح معه سجِّل المحاسبة الذي فتحه أمام ولاته وعمَّاله، كما لم يحاسبه على تصرُّفاته الشاذَّة المجافية لروح الإسلام وتعاليمه من استعماله أواني الذهب والفضَّة ولبسه الحرير وغير ذلك ممَّا هو محرَّم في الإسلام، وقد اتّهم بشرب الخمر، فكان الخليفة يبالغ في تسديده والاعتذار عنه، ويقول عنه: ذاك كسرى العرب، وهو اعتذار مهلهل حسب ما يقول المحقِّقون.

خداعه للوجوه:

وجهد معاوية على خداع الوجوه والأعيان وإفسادهم، وقد منَّى بعضهم بالخلافة والبيعة له، كما منَّى آخرين بالوظائف المهمَّة والثراء العريض، وفيما يلي بعضهم:

١ ـ الزبير وطلحة:

من أضاليل معاوية ومكره أنَّه كتب إلى الزبير قبل حرب الجمل يمنِّيه بالخلافة، ومن بعده تكون إلى طلحة، فطار الزبير فرحاً، وكذلك طلحة، وأعلنا التمرُّد والعصيان على حكومة الإمام.

٢ ـ عبد الله بن عمر:

وعرف معاوية امتناع عبد الله بن عمر عن بيعة الإمام واعتزاله عنها، فراح يخطب ودّه، ويمنِّيه بالإمارة، ويطلب منه الانضمام إليه.

٣ ـ سعد بن أبي وقَّاص:

وسعد بن أبي وقَّاص هو ممَّن تخلَّف عن بيعة الإمام، فكتب إليه معاوية يمنِّيه ويغريه ليجلبه إليه، وكتب إليه هذه الرسالة:

أمَّا بعد.. فإنَّ أحقَّ الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقَّه، واختاروه على غيره.

وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكاك في الأمر والشورى، ونظيراك في الإسلام.. وخفَّت لذلك ـ أي للطلب بدم عثمان ـ أُمّ المؤمنين، فلا تكرَهن ما رَضُوا، ولا تردّنَّ ما قبِلُوا، فإنَّما تردُّها شُورى بين المسلمين...»[1].

٤ ـ عمرو بن العاص:

رأى معاوية أنَّه لا يستطيع الوقوف أمام الإمام عليه السلام إلاَّ إذا انضمَّ إلى جهازه داهية العرب عمرو بن العاص.

٥ ـ كتابه لأهل المدينة:

رفع معاوية بمشورة ابن العاص رسالة إلى أهل المدينة يدعوهم فيها إلى خذلان الإمام عليه السلام، والتمرُّد على حكومته.

تضليل أهل الشام:

وعمد معاوية إلى تضليل الرأي العامّ في الشام، فأشاع فيهم أنَّ الإمام هو الذي سفك دم عثمان، وهو المسؤول عن دمه.

الرسائل المتبادلة بين الإمام عليه السلام ومعاوية:

وقبل إعلان الحرب بعث الإمام الممتحن جمهرة من الرسائل إلى معاوية يدعوه فيها إلى بيعته، والدخول فيما دخل فيه المسلمون في طاعته وأن لا يفرِّق كلمة المسلمين، ويشتِّت شملهم، فأجابه معاوية مراوغاً ومنافقاً، ومطالباً بدم عثمان والاقتصاص من قتلته.. ونعرض لبعض تلك الرسائل:

رسالة للإمام:

روى ابن أبي الحديد أنَّ الإمام عليه السلام لمَّا بويع كتب إلى معاوية:

«أَمَّا بَعْدُ.. فَإِنَّ النَّاسَ قَتَلُوا عُثْمانَ عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنِّي، وَبَايَعُونِي عَنْ مَشُورَةٍ مِنْهُمْ وَاجْتِمَاعٍ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَبايِعْ لِي، وَأَوْفِدْ إِلَيَّ أَشْرَافَ أَهْلِ الشَّامِ قِبَلَكَ..».

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/١٠٣.

جواب معاوية:

ولمَّا انتهت رسالة الإمام إلى معاوية وقرأها دعا بطُومار وكتب فيه:

من معاوية إلى عليّ، أمَّا بعد.. فإنَّه

ليس بيني وبين قيسٍ عتابٌ غيرُ طَعْنِ الكُلَىٰ وضربِ الرِّقاب[1]

ومعنى هذا الجواب أنَّ معاوية مصمّم على حرب الإمام ومناهضته لحكمه.

الاستعداد لحرب:

وفشلت جميع الوسائل التي اتّخذها الإمام عليه السلام لحقن الدماء وجمع كلمة المسلمين، فقد قرَّر معاوية إعلان التمرُّد والعصيان ومناهضة حكم الإمام بالسلاح، وقد شرط على الإمام في رجوعه إلى طاعته شرطين وهما:

١ ـ تسليم قتلة عثمان إليه ليقتصَّ منهم، وفيهم خيار الصحابة.

٢ ـ حلّ حكومة الإمام، وجعل الأمر شورى بين المسلمين لينتخبوا من شاؤوا حاكماً لهم.

وقد اتّخذ هذين الشرطين التعجيزيِّين وسيلة لإعلان حربه على الإمام.

وعلى أيٍّ حال فقد استعدَّ كلا الفريقين للحرب، وتهيَّأ بجمع معدَّاته وأسلحته.

رسائل الإمام عليه السلام:

وأرسل الإمام بعض الرسائل إلى ولاته وأُمراء الأجناد يدعوهم فيها لنجدته ونصرته والالتحاق به لمحاربة خصمه العنيد الذي خالف الجماعة، وخلع يد الطاعة.

وكتب الإمام عليه السلام رسالة إلى مخنف بن سليم عامله على أصبهان وهمذان يدعوه فيها لنجدته.

وكتب عليه السلام رسالة إلى أُمراء الأجناد يستنهضهم فيها لنصرته في الورع والتقوى.

وكتب عليه السلام رسالة إلى القرشيِّين بما فيهم معاوية يدعوهم جميعاً إلى حقن الدماء، وجمع الكلمة.

زحف معاوية لصفِّين:

وتهيَّأت لمعاوية جميع الوسائل التي يستطيع بها على محاربة الإمام من العدد

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ١/ ٧٧.

والعُدَّة، فقد استطاع بمكره وخداعه أن يغري أهل الشام بأنَّ الإمام عليه السلام هو الذي قتل عثمان بن عفَّان فكان ينشر قميصه الملطَّخ بدمه على المنبر فيضجّ الشاميّون بالبكاء والعويل.

خروج الإمام للحرب:

وتهيَّأ الإمام للحرب بعدما علم بزحف عدوّه لمناجزته، وقام الخطباء من أنصار الإمام يدعون الناس للحرب، ويحثّونهم على الجهاد بعدما أحرزوه من النصر الكبير في معركة الجمل..

رسل السلام:

كان الإمام عليه السلام متحرِّجاً كأشدّ ما يكون التحرُّج في دماء المسلمين، فقد جهد نفسه على نشر السلم والوئام، واجتناب الحرب، فأوفد كوكبة من أصحابه إلى معاوية يدعونه إلى حقن الدماء، ويحذّرونه مغبة ما يحدث من الخسائر بين المسلمين، وقد أوفد مثل ذلك في حرب الجمل إلى عائشة وطلحة والزبير.

الاستعداد للحرب:

ولمَّا فشلت جميع الوسائل التي اتّخذها الإمام من أجل السلم وحقن الدماء عبَّأ أصحابه للحرب، وكذلك عبَّأ معاوية جيشه للقتال.

تعاليم الإمام:

وأوعز الإمام عليه السلام إلى جيشه بتطبيق ما يلي في ميادين الحرب قائلاً لهم:

«لَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ حَتَّى يَبْدَؤُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ - بِحَمْدِ اللَّهِ - عَلَى حُجَّةٍ وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَؤُوكُمْ حُجَّةٌ أُخرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا قَاتَلْتُمُوهُمْ فَهَزَمْتُمُوهُمْ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَكْشِفُوا عَوْرَةً، وَلَا تُمَثِّلُوا بِقَتِيلٍ، فَإِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى رِحَالِ الْقَوْمِ فَلَا تَهْتِكُوا سِتْراً، وَلَا تَدْخُلُوا دَاراً إِلَّا بِإِذْنٍ، وَلَا تَأْخُذُوا شَيْئاً مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَا وَجَدْتُمْ فِي عَسْكَرِهِمْ، وَلَا تُهَيِّجُوا امْرَأَةً بِأَذىً وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ وَصُلَحَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضِعَافُ الْقُوَى»[1].

(١) وقعة صفِّين: ص٢٦٦.

التحام الجيشين:

واستعدَّ الإمام عليه السلام للحرب فخرج لابساً لامة حربه، وكان على ميمنة جيشه عبد الله بن بديل الخزاعي، وعلى ميسرته عبد الله بن عباس، وقرَّاء العراق، ومن بينهم الصحابي العظيم عمَّار بن ياسر، وباقي الصحابة الأجلَّاء، فاستقبلتهم جحافل جيوش الشام، والتحتم معهم في معركة رهيبة، وقد أبلى الجيش العراقي بلاءً حسناً، وزرع الرعب والخوف في جند معاوية، واستمرَّت الحرب، فلمَّا حلَّ شهر المحرَّم توقَّف القتال.

معاوية يحرِّض أصحابه على اغتيال الإمام عليه السلام:

وطلب معاوية من قادة جيشه وفرسانهم اغتيال الإمام فقال لهم:

إنَّ عليَّاً يخرج في سرعان الخيل فمن ينتدب له؟

فقام إليه عبد الرحمن بن خالد، فقال: أنا له.

فأمره معاوية بالجلوس لأنَّه ليس خفيفاً في الحرب.

وقام عبد الرحمن العكِّيُّ، فقال: أنا له. فمنعه معاوية لأنَّه كان عجولاً.

وقام عمرو بن الحُصين السّكوني فقال: أنا له.

فقال معاوية: أنت له حقَّاً، فخرج مع علكٍّ والصَّدفِ.

وخرج الإمام على عادته إلى ساحة الحرب فترقَّبه السكوني، وحمل عليه من خلفه، فلمَّا كاد أن يطعنه اعترضه سعيد بن قيس الهمداني فطعنه طعنة نجلاء قصم بها صلبه، فالتفت الإمام إلى خلفه فرأى السكوني صريعاً، ورأى رجلاً من ذي رُعَين قد قتله سعيد أيضاً فجزع عليهما معاوية جزعاً شديداً.

استئناف الحرب:

واستؤنفت العمليات الحربية بعد تصرُّم محرَّم إلاَّ أنَّها لم تكن عامَّة، وإنَّما كانت متقطِّعة، تخرج الكتيبة للكتيبة والفرقة للفرقة، وقد سئم الفريقان هذه الحرب المتقطِّعة وتعجَّلوا الحرب العامَّة فعبَّأ الإمام جيوشه تعبئة عامَّة وكذلك فعل معاوية، والتحم الجيشان التحاماً رهيباً، واقتتلوا أبرح قتال، وأشدَّه وانكشفت ميمنة جيش الإمام انكشافاً ذريعاً بلغ حدّ الهزيمة، وقاتل الإمام ومعه الحسنان[1]، وانحاز الإمام إلى ميسرة جيشه، وكانت فيها ربيعة، وقد بذلت من الجهد أقساه، وكان قائلهم يقول:

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٣٠٥.

لا عذر لكم بعد اليوم عند العرب إن أُصيب عليّ.

واشتدَّ القتال، وقد تحالفت على الموت وصمدت في ميادين الحرب، ورجعت ميمنة الإمام إلى حالها من التماسك، وكان ذلك بفضل القائد الملهم الزعيم مالك الأشتر، واستمرَّت الحرب على حالها من العنف.

الإمام يدعو معاوية للبراز:

وبرز الإمام في ساحة الحرب ونادى رافعاً صوته:

يا معاوية!

فالتفت معاوية إلى جماعته، وقال لهم:

اسألوه ما شأنه؟

أحب أن يظهر لي فأُكلِّمه كلمة واحدة..

وخرج معاوية ومعه ابن العاص، وهما يحتميان بالجند، فوجَّه الإمام خطابه إلى معاوية قائلاً:

«وَيْحَكَ! عَلَامَ يَقْتَتِلُ النَّاسُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَيَضْرِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؟ أُبْرُزْ إِلَيَّ فَأَيُّنا قَتَلَ صَاحِبَهُ فالأَمْرُ لَهُ...».

والتفت معاوية إلى ابن العاص فقال له:

ما ترى يا أبا عبد الله؟

لقد أنصفك الرجل.

والتاع معاوية من كلام ابن العاص، وقال له بعنف:

ليس من مثلي يخدع عن نفسه، والله! ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قطّ إلاَّ سقى الأرض من دمه.

وانصرف معاوية مغيظاً محنقاً يطارده الرعب والفزع، وتأثَّر من ابن العاص، وحقد عليه لمَّا أشار عليه بمبارزة الإمام، فقد أشار عليه بالموت والهلاك.

مبارزة الإمام لابن العاص:

وبرز ابن العاص في بعض أيَّام صفِّين إلى ساحة الحرب، فتصدَّىٰ له الإمام، فلمَّا عرفه انخلع قلبه وجمد دمه، وكشف عن عورته، فصرف الإمام وجهه عنه حياءً وخجلاً، وقال أصحاب الإمام له:

أفلت الرجل يا أمير المؤمنين؟

ـ أتدرون من هو؟

ـ لا.

ـ إنَّه عمرو بن العاص تلقَّاني بعورته فصرفت وجهي عنه...

ورجع ابن العاص إلى معاوية، فقال له:

ما صنعت يا عمرو؟

ـ لقيني عليّ فصرعني...

فسخر معاوية وقال مستهزئاً به:

احمد الله وعورتك...

مصرع الشهيد الخالد عمَّار:

أمَّا عمَّار بن ياسر فهو من أفضل صحابة النبيّ ﷺ ومن أكثرهم جهاداً في الإسلام، وكان أثيراً عند النبيّ ﷺ فقد أخلص له في الحبّ كأعظم ما يكون الإخلاص.

لقد قاتل عمَّار وجاهد بإيمان مع رسول الله ﷺ دفاعاً عن الإسلام، واليوم يقاتل مع أخي رسول الله ﷺ دفاعاً عن تأويل القرآن ودفاعاً عن إمام المسلمين، فما أعظم عائدة عمَّار على الإسلام!

وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام برحاً ومضطرباً لم يقرّ له قرار حينما برز عمَّار إلى ساحة الجهاد فكان يقول بأسىً بالغ:

«فَتِّشُوا لِي عَنِ ابْنِ سُمَيَّةَ...».

ولمَّا انتهى الإمام عليه السلام إلى الجثمان المقدَّس ألقى بنفسه عليه وجعل يوسعه تقبيلاً وأخذ يؤبِّنه بحرارة قائلاً:

«إِنَّ امْرَأً مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَعْظَمْ عَلَيْهِ قَتْلُ عَمَّارٍ ـ وَيَدْخُلْ عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ مُصِيبَةٌ مُوجِعَةٌ ـ لِغَيْرُ رَشِيدٍ.

رَحِمَ اللَّهُ عَمَّاراً يَوْمَ أَسْلَمَ.

وَرَحِمَ اللَّهُ عَمَّاراً يَوْمَ قُتِلَ.

وَرَحِمَ اللَّهُ عَمَّاراً يَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً.

لَقَدْ رَأَيْتُ عَمَّاراً مَا يُذْكَرُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَةٌ إِلَا كَانَ الرَّابِعُ، وَلَا

خَمْسَةٌ إِلَّا كَانَ الْخَامِسُ، وَمَا كَانَ أَحَدُ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَشُكُّ فِي أَنَّ عَمَّاراً قَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ وَلَا اثْنَيْنِ، فَهَنِيئاً لِعَمَّارٍ الْجَنَّةُ».

وقوع الفتنة في جيش معاوية:

ولمَّا أُذيع مقتل عمَّار وقعت الفتنة في جيش معاوية، فقد سمع الجميع مقالة النبيّ ﷺ في حقِّه: «تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ» فقد اتّضح لهم أنَّهم الفئة الباغية التي عناها النبيّ ﷺ وكان ابن العاص من بين الذين رووا حديث النبيّ ﷺ في عمَّار تقتله الفئة الباغية، وشاع ذلك عنه في أوساط أهل الشام، فتراجع بعض العارفين من أصحاب معاوية والتحقوا بالإمام.

وعلى أيٍّ حال فقد أوجد قتل عمَّار زلزالاً في جيش معاوية، وتمرُّداً في كتائبه إلاَّ أنَّ ابن العاص قد استطاع بمكره وخداعه أن يضلِّل الجماهير فقال لهم:

إنَّ الذي قتل عمَّاراً هو الذي أخرجه إلى حومة الحرب، وآمن الغوغاء من أهل الشام بمقالته، ونقل إلى الإمام عليه السلام قوله فردَّ عليه قائلاً:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الَّذِي قَتَلَ حَمْزَةَ وَجَعْفَراً لأَنَّهُ أَخْرَجَهُما لِلْحَرْبِ».

خطاب الإمام:

ولمَّا بان الانكسار الهائل في معسكر الطاغية ابن أبي سفيان، وتفلَّلت جميع كتائبه العسكرية قام الإمام عليه السلام خطيباً في جيشه فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه:

«أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ بَلَغَ بِكُمْ الأَمْرُ وَبِعَدُوِّكُمْ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا آخِرُ نَفْسٍ، وَإِنَّ الأُمُورَ إِذَا أَقْبَلَتْ اعْتُبِرَ آخِرُها بِأَوَّلِها، وَقَدْ صَبَرَ لَكُمُ الْقَوْمُ عَلَىٰ غَيْرِ دِينٍ حَتَّىٰ بَلَغْنا مِنْهُمْ مَا بَلَغْنا، وَأَنا غَادٍ عَلَيْهِمْ بِالْغَداةِ أُحاكِمُهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ...».

واحتدم القتال كأشدِّه، وزحف القائد العام مالك الأشتر وقد أحرز الفتح، ولم يبق على الاستيلاء على معاوية الذي فرَّق كلمة المسلمين وألقاهم في شرّ عظيم إلاَّ حلبة شاة أو عدوة فرس، وقد شاءت المقادير عكس ذلك.

مهزلة رفع المصاحف:

إنَّ أبشع مهزلة في التاريخ البشري وأسوأ كارثة مُني بها المسلمون على امتداد

التاريخ هي مكيدة رفع المصاحف، وقد وصفها «راوجوست ميلر» بأنَّها من أبشع المهازل وأسوأها في التاريخ البشري(١).

وعلى أيِّ حال فقد أوعز معاوية برفع المصاحف أمام الجيش العراقي، فرفعت زهاء خمسمائة مصحف، وتعالت أصوات أهل الشام بلهجة واحدة:

يا أهل العراق! هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفَّار؟

وكانت هذه الهتافات التي تعالت من أهل الشام كالصاعقة على رؤوس الجيش العراقي، فقد انقلب رأساً على عقب، فخلع طاعة الإمام ومني بانقلاب مدمِّر، وراح الإمام الممتحن يحذِّر جيشه من هذه الدعاوى المضلِّلة ويفنِّد مزاعم معاوية قائلاً:

يا لسوء الأقدار!

يا للأسف!

يا للمصيبة العظمى!

لقد أحاطت تلك الوحوش الكاسرة والبهائم المخدوعة بالإمام المظلوم الممتحن، وكان عددهم زهاء عشرين ألفاً، وهم مقنَّعون بالحديد، شاكّون بالسلاح، قد اسودَّت وجوههم من السجود، يتقدَّمهم مِسعَر بن فَدَكيّ، وزيد بن حصين، وعصابة من القرَّاء، فنادوا الإمام باسمه لا بإمرة المؤمنين قائلين:

يا عليُّ، أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلاَّ قتلناك كما قتلنا ابن عفَّان، فوالله لنفعلنَّها إن لم تُجِبْهم...

فردَّ عليهم الإمام قائلاً والأسى ملء فؤاده:

«وَيْحَكُمْ أَنَا أَوَّلُ مَنْ دَعَا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ يَحِلُّ لِي وَلَا يَسَعُنِي فِي دِينِي أَنْ أُدعَى إِلَى كِتَابِ اللَّهِ فَلَا أَقْبَلَهُ، إِنِّي إِنَّمَا أُقَاتِلُهُمْ لِيَدِينُوا بِحُكْمِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ عَصَوُا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُمْ وَنَقَضُوا عَهْدَهُ وَنَبَذُوا كِتَابَهُ، وَلَكِنِّي قَدْ أَعْلَمْتُكُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَادُوكُمْ وَأَنَّهُمْ لَيْسَ الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ يُرِيدُونَ...».

ولم يجد الإمام بُدّاً من إجابتهم فأصدر أوامره بإيقاف عمليات الحرب، وقد ذاب

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام: ص١٩٠.

قلبه الشريف ألماً وحزناً فقد أيقن بزوال دولة الحقّ، وانتصار دولة الظلم والبغي وأنَّ دماء جيشه التي سفكت في سبيل الله ضاعت وذهبت سدىً.

فأرسل الإمام عليه السلام إلى الأشتر بإيقاف العمليات العسكرية، فلم يعن مالك بما أُمر به، وقفل الرسول راجعاً إلى الإمام وأخبره بمقالة مالك فارتفعت أصوات أولئك الوحوش بالإنكار على الإمام، فلم يجد بُدّاً من إصدار أوامره المشدَّدة إلى مالك بوقف الحرب، فاستجاب الأشتر على كره.

وعرف الأشتر أنَّ مكيدة ابن العاص قد أوجدت هذا الانقلاب في جيش الإمام، فقال بحرارة وألم:

أما والله! لقد ظننت أنَّها ـ رفع المصاحف ـ ستوقع اختلافاً وفرقة، إنَّها مشورة ابن العاهرة ـ يعني عمرو بن العاص ـ ألا ترى إلى الفتح؟!

ألا ترى إلى ما يَلْقَوْن؟

ألا ترى ما يصنع الله بهم؟

أيبتغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟

وأحاطه رسول الإمام علماً بحراجة الموقف والأخطار الهائلة المحدقة بالإمام قائلاً:

أتحبُّ أنَّك إن ظفرت هاهنا، وأنَّ أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يفرِّج عنه، ويسلِّم إلى عدوّه...

فقال الأشتر مقالة المؤمن الممتحن:

سبحان الله لا والله! ما أحبّ ذلك.

وطلب مالك من الإمام أن يناجزهم الحرب فأبى لأنَّهم كانوا الأكثرية الساحقة في جيشه، وفتح باب الحرب معهم يؤدِّي إلى أفظع النتائج لأنَّهم يقعون فريسة سائغة بأيدي الأُمويِّين.

وأطرق الإمام الممتحن برأسه إلى الأرض، وقد طافت به موجات من الألم القاسي، وتمثَّلت أمامه الأخطار المحدقة بالمسلمين، فلم يكلِّم هؤلاء الوحوش بكلمة، وراحوا يهتفون:

إنَّ عليّاً أمير المؤمنين قد رضي الحكومة، ورضي بحكم القرآن...

وغرق الإمام في تيارات قاسية وموجعة من الألم الممضّ، فقد مُنِي بانقلاب مدمِّر في جيشه ولا يستطيع أن يعمل أي شيء، وراح يقول:

«لَقَدْ كُنْتُ أَمْس أَمِيراً، فأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ نَاهِياً فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنهِيّاً. . .».

وتركهم يتخبَّطون في دياجير قاتمة أدَّت إلى هلاكهم، وانتصار الجور والطغيان عليهم.

وانتصر معاوية، وطار فرحاً على ما آل إليه جيش الإمام من التمرُّد والعصيان وكتب إلى الإمام رسالة جاء فيها:

أمَّا بعد. . عافانا الله وإيَّاك فقد آن لك أن تُجيب إلى ما فيه صلاحنا والأُلفة بيننا، وقد فعلت وأنا أعرف حقِّي، ولكن اشتريت بالعفو صلاح الأُمَّة، ولا أكثر فرحاً بشيء جاء ولا ذهب، وإنَّما أدخلني في هذا الأمر القيام بالحقّ فيما بين الباغي والمبغيِّ عليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فدعوت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك فإنَّه لا يجمعنا وإيَّاك إلاَّ هو، نحيي ما أحيا القرآن، ونُمِيت ما أمات القرآن، والسلام.

وحفلت هذه الرسالة بالكذب والنفاق، فهل معاوية ابن هند يعرف القرآن ويخضع له وهو وأبوه وأُمّه ومعهم الكثير من الأُسر القرشية قد كفروا بالقرآن وآمنوا بأصنامهم وأوثانهم؟

مآسي الإمام:

ولمَّا انتهى النبأ المفزع والمؤلم بأمر التحكيم إلى الإمام القاضي بخلعه بلغ به الحزن أقصاه، وذهبت نفسه شعاعاً ألماً وأسىً، فجمع الناس فخطب فيهم خطاباً صعد فيه آلامه وأحزانه على مخالفة أمره بعدم إيقاف القتال، والاستجابة لنداء عدوّه الماكر الذي قضى على ما أحرزه جيشه من النصر الحاسم يقول عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرَّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ.

وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ

لِقَصِيرٍ أَمْرًا فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَـرْتُـكُـمْ أَمْـرِي بِـمُـنْـعَـرَجِ الـلِّـوَى فَـلَـمْ تَـسْـتَـبِـينُـوا الـرُّشْـدَ إِلَّا ضُـحَـى الْـغَـد

أَلَا إِنَّ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ اخْتَرْتُمُوهُما حَكَمَيْنِ قَدْ نَبَذا حُكْمَ الْكِتَابِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمَا، وَارْتَأَيا الرَّأْيَ مِنْ قِبَلَ أَنْفُسِهِما، فَأَماتا مَا أَحْياهُ الْقُرْآنَ، ثُمَّ اخْتَلَفا فِي حُكْمِهِما، فَكِلَاهُما لَا يَرْشُدُ وَلَا يُسَدَّدُ فَبَرِىءَ اللَّهُ مِنهمَا وَرَسُولُهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، فَاسْتَعِدُّوا لِلْجِهَادِ، وَتَأَهَّبُوا لِلْمَسِيرِ، وَأَصْبِحُوا فِي مُعَسْكَرِكُمْ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»[١].

وتوالت المحن الكبرى على إمام العدل والحقّ يتبع بعضها بعضاً، فقد أفلت دولته، وانهارت حكومته، فقد تمرَّد عليه جيشه كأشدّ ما يكون التمرُّد، فكان يأمره فلا يطيع، ويدعوه فلا يستجيب، قد مزَّقه معاوية، وعبث به وذلك بما كان يرسل من الأموال إلى قادة الجيش حتى آثروه على الإمام، وقد قيل لرجل من بني تغلب: آثرتم معاوية على عليّ؟

فقال: ما آثرناه، ولكنّا آثرنا العنب الأصفر والبرّ الأحمر والزيت الأخضر[٢].

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٨٥.

(٢) الامتاع والمؤانسة: ٢/ ٦٣.

تمرُّد المارقين

من المحن الشاقَّة التي أُمتحن بها الإمام امتحاناً عسيراً هي الفتنة الكبرى التي مُنِي بها جيشه، فقد فتن برفع المصاحف من قِبل أهل الشام الذين طويت أعلامهم وخسروا المعركة فلجأوا إلى هذه الحيلة التي خدع بها القرَّاء في جيش الإمام، وتبنّوها بصورة إيجابية، فأحاطوا بالإمام من كلّ جانب شاهرين السيوف في وجهه رافعين أصواتهم: نُدعى إلى كتاب الله تعالى ولا نجيب؟!

ووبَّخهم الإمام، وأقام لهم الحجج البالغة على زيف ما ذهبوا إليه، فلم نُجِدِ معهم شيئاً، فتركهم وشأنهم، ولمَّا أصرّوا ثانياً على انتخاب الأشعري نهاهم عنه، وأمرهم بانتخاب ابن عباس فلم يذعنوا له، ولمَّا آل التحكيم إلى تلك الصورة الهزيلة ندموا على ما فرَّطوا في أمر الأُمَّة وأنفسهم، ورفعوا شعارهم ملوّحين به، وداعين إليه، وهو «لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»، وسرعان ما تحوَّل هذا الشعار إلى حكم النطع والسيف، وإشاعة الرعب والخوف بين الناس، وقد علَّق الإمام على شعارهم بقوله: **«كَلِمَةُ حَقٍّ يُرادُ بِهَا بَاطِلٌ»**.

استعداد الإمام عليه السلام لحرب معاوية:

وتهيَّأت قوات الإمام لحرب معاوية، والتحقت بها كتائب من أهل البصرة، وسار الإمام بجيشه لمناجزة أهل الشام، ولكنَّه لم يلبث إلاَّ قليلاً حتَّى وافته الأنباء بتمرُّد الخوارج، وإعلانهم العصيان المسلَّح، وقد أقاموا في النهروان، وأخذوا يعيثون في الأرض فساداً، فاستحلّوا دماء المسلمين، وقالوا بكفر من لا يذهب لرأيهم.

قتال الإمام عليه السلام للمارقين:

وخاف أصحاب الإمام من السير لحرب معاوية، ويتركوا الخوارج من ورائهم يستبيحون أموالهم وأعراضهم من بعدهم، فانكشفت نواياهم التخريبية بقتلهم عبد الله بن خبَّاب وزوجته، فطلبوا من الإمام مناجزتهم فإذا فرغوا منهم ساروا لحرب معاوية، فأجابهم الإمام إلى ذلك، وسار بجيشه حتَّى إلى النهروان حيث كانوا يقيمون فيه،

فأرسل إليهم أن يمكّنوه من قتلة عبد الله بن خبّاب ليقتصّ منهم، ويمضي إلى قتال معاوية فأجابوه جميعاً بلهجة واحدة:

ليس بيننا وبينك إلاّ السيف إلاّ أن تقرّ بالكفر، وتتوب كما تبنا...

فردَّ عليهم الإمام قائلاً:

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ[(١)] وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ[(٢)]. أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللَّهِ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ! ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[(٣)] فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ، وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ.

أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً[(٤)].

وأخذ الإمام عليه السلام يعظهم تارة، ويراسلهم أُخرى، فجعل كثير منهم يتسلّلون ويعودون إلى الكوفة، وقسم منهم التحق بجيش الإمام، وفريق آخر اعتزل الحرب، ولم يبق منهم إلاّ ذو الثفنات عبد الله بن وهب الراسبي زعيمهم ومعه ثلاثة آلاف.

ولمّا يئس الإمام من هدايتهم عبّأ جيشه تعبئة عامّة، وأمرهم أن لا يبدأوهم بقتال حتى يكونوا هم الذين يبدأون به، ولمّا نظر الخوارج إلى تهيئة الإمام للحرب تهيّأوا أيضاً، وكنت نفوسهم تتحرّق إلى الحرب، وهتف بعضهم:

هل من رائح إلى الجنّة؟

فصاحوا جميعاً:

الرواح إلى الجنّة، وحملوا حملة منكرة على جيش الإمام وهم يهتفون بشعارهم: «لا حكم إلاّ لله».

وانفرجت لهم خيل الإمام فرقتين: فرقة تمضي إلى الميمنة، وفرقة تمضي إلى الميسرة، والخوارج اندفعوا بين الفرقتين فتلقّاهم أصحاب الإمام بالنبل وما هي إلاّ ساعة حتى قتلوا عن آخرهم، ولم يفلت منهم إلاّ تسعة[(٥)].

وقيل للإمام:

---

(١) الحاصب: ريح شديدة.
(٢) الآبر: الذي يُأبّر النخل، أي يصلحه.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٥٦.
(٤) نهج البلاغة: ١/١٥٩.
(٥) الملل والنحل/الشهرستاني: ١/١٥٩.

هلك القوم بأجمعهم.

وراح الإمام يخبرهم بما أخبره به النبي ﷺ من أنهم لم يهلكوا جميعاً، وأنَّه سيدين بفكرتهم من في أصلاب الرجال قائلاً:

«كَلَّا وَاللَّهِ! إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ[١]، كُلَّما نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ».

ولمَّا وضعت الحرب أوزارها طلب الإمام عليه السلام أن يلتمسوا له ذا الثدية في القتلى، ففتَّشوا عنه فلم يظفروا به، فعادوا إليه وأخبروه أنَّهم لم يجدوه، فأمرهم بالبحث عنه ثانياً وقال:

«وَاللَّهِ! ما كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ، وَيْحَكُمْ إِلْتَمِسُوا الرَّجُلَ فَإِنَّهُ فِي الْقَتْلَىٰ».

فانطلقوا يبحثون عنه، فظفر به رجل من أصحابه وهو جثَّة هامدة، فمضى مسرعاً إلى الإمام فأخبره بذلك، فخرَّ الإمام ساجداً وكذلك فعل بعض أصحابه، ثمَّ رفع رأسه من السجود وهو يقول: **«مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ، قَتَلْتُم شَرَّ النَّاسِ»**[٢].

وحدَّث الإمام أصحابه بما سمعه من النبيّ ﷺ في شأن ذي الثدية قائلاً:

قال رسول الله ﷺ لي:

«سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِ الْحَقِّ، لَا يُجَاوِزُ حُلُوْقَهُمْ، يَخْرُجُونَ مِنَ الْحَقِّ خُرُوجَ السَّهْم - أَوْ مُرُوقَ السَّهْم -، سِيماهُمْ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلاً مُخْدَجُ الْيَدِ[٣] فِي يَدِهِ شَعراتٌ سُودٌ، فَإِنْ كَانَ فِيهِمْ فَقَدْ قَتَلْتُمْ شَرَّ النَّاسِ».

وأمر الإمام بإحضار جثَّته، فأُحضرت له، فكشف عن يده فإذا على منكبه ثدي كثدي المرأة، وعليها شعرات سود تمتدّ حتى تحاذي باطن يده الأُخرى، فإذا تركت عادت إلى منكبه، فلمَّا رأى الإمام ذلك خرَّ ساجداً، ثمَّ إنَّ الإمام عمد إلى القتلى من الفريقين فدفنهم، وقسَّم بين أصحابه سلاح الخوارج الذين سمّوا بالشراة[٤]، ثمَّ ردَّ الأمتعة والعبيد إلى أهليهم كما فعل مثل ذلك بأصحاب الجمل.

---

(١) قرارات النساء: أرحامهنَّ.

(٢) حلية الأولياء: ٧/ ٩٩.

(٣) أي ناقص إليه، والخداج - بكسر الخاء -: النقصان.

(٤) سمِّي الخوارج بالشراة لقولهم: إنَّا شرينا أنفسنا في طاعة الله، جاء ذلك في خزانة الأدب: ٨/ ٧٤.

أُفول دولة الحقِّ

وأعقبت حرب صفِّين والنهروان أعظم المحن، وأشدّها هولاً وقسوة على الإمام، ولم يمتحن بها وحده، وإنَّما امتحن بها العالم الإسلامي، فقد أخرجته من الدعة والاستقرار، وأخلدت له المحن والويلات.

لقد أفلت دولة الحقّ ودولة المظلومين والمضطهدين، وغاب نجمها، وانتصرت الوثنية القرشية التي يمثِّلها معاوية بن أبي سفيان، فقد أعلن انتصاره الحاسم على الإمام بقوله:

لقد حاربت عليّاً بعد صفِّين بغير جيش، ولا عناء ولا عتاد[1].

تفلُّل جيش الإمام:

وتفلَّلت جميع القوَّات العسكرية في جيش الإمام وانهارت انهياراً فظيعاً، وشاعت فيها الفرقة والاختلاف، ولم تعد قوَّة صلبة يأوي إليها الإمام، ويحتمي بها من جيش معاوية الذي أصبح متماسكاً قويّاً يتمتَّع بالطاعة الكاملة لقيادته.

عبث الخوارج:

ومن بين المحن الكبرى التي أُمتحن بها الإمام امتحاناً عسيراً هي فتنة الخوارج، فإنَّ الإمام لم يقض عليهم في النهروان، وإنَّما قضى على عصابة منهم، وبقي الكثيرون منهم يعيشون معه وهم يكيدون له، ويتربَّصون به الدوائر، ويحوِّلون قلوب الناس عنه، فقد أمِنوا من بطشه وعقوبته، وأطمعهم فيه عدله، وأغراهم لينه، وبسطه للحريات العامَّة، فراحوا يجاهرونه بالإنكار عليه فقد قطع ابن الكوَّاء على الإمام خطابه، وتلا قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، فردَّ عليه الإمام بآية أُخرى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٢٠٠.

دعاء الإمام على نفسه:

وطافت بالإمام موجات رهيبة ومفزعة من الأزمات يتبع بعضها بعضاً، وكان من أقسى ما حلَّ به أنَّه رأى باطل معاوية قد استحكم، وسلطانه قد تمَّ، ورأى نفسه في أرباض الكوفة قد احتوشته ذئاب العرب الذين كرهوا عدله، ونقموا من سياسته الهادفة إلى تحقيق العدالة ونشر المساواة بين الناس.

وعلى أيٍّ حال فقد أصبح الإمام بمعزل تام عن جميع السلطات فكان يأمر فلا يُطاع، ويدعو فلا يُستجاب له، وجعل يخبرهم عمَّا سيلاقونه من بعده من التنكيل والإرهاق من السلطات الظالمة التي ستحكم بلادهم، قال عليه السلام:

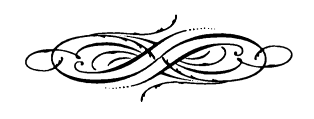
«أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً. فَيُفَرِّقُ جَمَاعَتَكُمْ، وَيُبْكِي عُيُونَكُمْ، وَتَمَنَّوْنَ عَنْ قَلِيلٍ أَنَّكُمْ رَأَيْتُمُونِي فَنَصَرْتُمُونِي، وَسَتَعْلَمُونَ حَقَّ مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ».

وعلى أيٍّ حال فقد سئم الإمام من ذلك المجتمع، وراح يتمنَّى مفارقة الحياة، وكان كثيراً ما يقول:

«مَتىٰ يُبْعَثُ أَشْقاها؟».

وأخذ يدعو الله تعالى أن ينقله إلى جواره؛ ويريحه من ذلك المجتمع الشقي، فقد روى البلاذري عن أبي صالح، قال: شهدت عليّاً، وقد وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تقطع الورق، وهو يقول:

«اللَّهُمَّ أَنِّي سَأَلْتُهُمْ مَا فِيهِ فَمَنَعُونِي ذَلِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَأَبْغَضْتُهُمْ وَأَبْغَضُونِي، وَحَمَلُونِي عَلَىٰ غَيْرِ خُلُقِي فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً لِي مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، وَمِثْ قُلُوبَهُمْ مَيْثَ الْمِلْحِ فِي الْمَاءِ»[1].



(١) أنساب الأشراف: ١/ ٢٠٠.

المأساةُ الخالدة

ليس في هذا الشرق العربي ولا في غيره من مناطق العالم وأُمم الأرض حاكم مثل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نزاهته وعدله، وتجرّده من جميع المحسوبيات والأطماع، فقد كان فيما أجمع عليه المؤرّخون لم يخضع لأيَّة نزعة مادية أو عاطفية، وإنَّما آثر الحقّ ورضا الله تعالى في سلوكه وجميع تصرُّفاته فلم يجابِ أحداً ولم يداهن أي شخص في دينه، فقد تبنَّى بصورة إيجابية العدل الخالص والحقّ المحض، وقد جهد أن يرفع الحيف والظلم والغبن عن الناس، ويحطِّم الفوارق التي مآلها إلى التراب بين المسلمين.

كان ابن عبَّاس يرى أنَّ التفاضل في العطاء هو الضمان الوحيد لحماية دولة الإمام من التمزُّق، ورمق الإمام بطرفه ابن عباس، ونفر من رأيه، وقال له:

«يابْنَ عبَّاس، تُرِيدُ مِنِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ؟ لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ بالْعَطاءِ فَكَيْفَ وَالْمَالُ مَالُ اللّهِ. . .».

يقول عبد الله بن رزين: دخلت على عليّ يوم الأضحى فقرب إلينا حريرة فقلت: أصلحك الله لو قرَّبت إلينا من هذا البطّ، فإنَّ الله تعالى قد أكثر الخير؟

فقال عليه السلام: **«يابْنَ رَزِين، سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: لَا يَحِلُّ لِخَلِيفَةٍ مِنْ مَالِ اللّهِ إلّا قَصْعَتانِ، قَصْعَةٌ يَأْكُلُها هُوَ وَأَهْلُهُ، وَقَصْعَةٌ يَضَعُها بَيْنَ النَّاسِ»**[1].

مؤتمر مكّة:

نزحت عصابة من الخوارج إلى مكَّة لأداء الحجّ، فلمَّا انتهى موسمه عقدوا مؤتمراً عرضوا فيه الأحداث الجسام التي مُني بها العالم الإسلامي والتي أدَّت إلى سفك الدماء، واختلاف كلمة المسلمين، وعزوها إلى ثلاثة أشخاص وهم:

الإمام أمير المؤمنين.

معاوية بن أبي سفيان.

١) جواهر المطالب: ص٤٣.

عمرو بن العاص.

وأجمع رأيهم على اغتيال هؤلاء الأشخاص، وانبرى إلى تنفيذ عملية اغتيالهم الأشخاص التالية أسماؤهم:

١ ـ عبد الرحمن بن ملجم، تعهَّد بقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٢ ـ الحجَّاج بن عبد الله الصريمي، تعهَّد بقتل معاوية.

٣ ـ عمرو بن بكر التميمي، تعهَّد بقتل ابن العاص.

وعيَّنوا وقتاً خاصّاً لاغتيالهم وهو ليلة الثامن عشر من شهر رمضان ساعة خروجهم إلى صلاة الصبح، وبعد انفضاض المؤتمر أقاموا بمكَّة أشهراً، ثمَّ اعتمروا في شهر رجب، وافترقوا وقصد كلّ واحد منهم البلد الذي تعاهد على القيام بعملية الاغتيال فيه.

الإمام مع ابن ملجم:

كان الإمام عليه السلام لا يخامره شكّ في أنَّ ابن ملجم هو الذي يقوم باغتياله، وقد ذكر الرواة أنَّه جاء ليبايع الإمام فردَّه مرَّتين أو ثلاثاً، ثمَّ بايعه، فأخذ الإمام منه المواثيق بأن لا يغدر، ولا ينكث بيعته، فقال له ابن ملجم:

ما رأيتك تفعل هذا بغيري؟ فأعرض عنه الإمام، فلمَّا ولّىٰ قال الإمام لغزوان: **«إحْمِلْهُ عَلَىٰ الأَشْقَرِ»**، فحمله عليه، ثمَّ تمثَّل الإمام:

«أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيْلِكَ مِنْ مُرَادِ»

والتفت الإمام إلى من حضر وقال لهم: **«وَاللَّهِ! مَا أَرَاهُ يَفِي بِمَا قَالَ»**[١]، وما كان هذا الإنسان الممسوخ يفي بما قال، فقد نكث ما عاهد عليه الله فاغتال إمام المتَّقين وسيِّد العابدين.

الوشاية بابن ملجم:

كان الإمام عليه السلام على المنبر يخطب، وكان الخبيث الدنس ابن ملجم إلى جانب منصَّة الخطابة، فقال مهدِّداً ومتوعِّداً للإمام: والله! لأريحنَّهم منك، فسمعه بعض الجالسين، فألقى عليه القبض، وجاء به مخفوراً إلى الإمام فأخبره بمقالته، فأمر الإمام

(١) المناقب: ٣/ ٩٣.

بإطلاق سراحه، وقال: «لَمْ يَقْتُلْنِي بَعْدُ»[١]، وهكذا فتح الإمام باب الحرية على نطاق واسع لأعدائه وخصومه، فلذا كانوا لا يخشونه ولا يخافون عقابه.

ابن ملجم مع قطام:

ولمَّا دخل الدنس الخبيث ابن ملجم إلى الكوفة التقى ببعض أصحابه من تيم الرباب، وكانت قطام عنده، وكان الإمام قد قتل أباها وأخاها في واقعة النهروان، وكانت بارعة في الجمال، فلمَّا رآها ابن ملجم فتن بها، فخطبها فأجابته إلى ذلك، وشرطت عليه الباغية مهراً وهو ثلاثة آلاف درهم، ووصيفاً، وخادماً، وقتل الإمام عليه السلام.

اغتيال الإمام:

ويقول الرواة: إنَّه لمَّا حلَّت ليلة التاسع عشر من رمضان أحسَّ الإمام بنزول الرزء القاصم، فكان برماً تساوره الهموم والأحزان وهو يقول:

«مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ، إِنَّها اللَّيْلَةُ الَّتِي وُعِدْتُ فِيهَا...».

وراودته تلك الليلة ذكريات جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وآله وما قاساه من طغاة قريش وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب من الجهد والعناء، فقد التحم معهم في ميادين الحروب التحاماً رهيباً في سبيل نشر كلمة التوحيد وحماية النبيّ العظيم من كيدهم ومكرهم.

وعلى أيِّ حال فلندع الحديث إلى السيِّدة الزكية أُمّ كلثوم[٢] تحدِّثنا بما شاهدته من أبيها في تلك الليلة الخالدة في دنيا الأحزان، قالت:

لمَّا كانت ليلة التاسع عشر من رمضان قدَّمت إلى أبي عند إفطاره طبقاً فيه قرصان من خبز الشعير وقصعة فيها لبن، وملح جريش، فلمَّا فرغ من صلاته أقبل على فطوره، فلمَّا نظر إليه حرَّك رأسه وبكى وقال:

«مَا ظَنَنْتُ بِنْتاً تَسُوءُ أَبَاها كَمَا أَسَاَتِ إِلَيَّ».

«ما ذاك؟».

«تُقَدِّمِينَ إِلَى أَبِيكِ إِدَامَيْنِ فِي فَرْدِ طَبَقٍ وَاحِدٍ، أَتُرِيدِينَ أَنْ يَطُولَ وُقُوفِي غَداً بَيْنَ يَدَي

---

١) علي بن أبي طالب بقيَّة النُّبوَّة وخاتم الخلافة: ص٥٦٢.
٢) السيِّدة أُمّ كلثوم هي في أغلب الظنّ السيِّدة المعظَّمة زينب سلام الله عليها، وهذه كنيتها.

اللَّهِ تعَالىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتْبَعَ أَخِي وَابْنَ عَمِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا قُدِّمَ إِلَيْهِ إِدَامَانِ فِي طَبَقٍ وَاحِدٍ إِلَى أَنْ قَبَضَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

ثمَّ قال عليه السلام: «يَا بُنَيَّةِ، مَا مِنْ رَجُلٍ طَابَ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ وَمَلْبَسُهُ إِلَّا طَالَ وُقُوفُهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

يَا بُنَيَّةِ، إِنَّ الدُّنْيَا فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي حَبِيبِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ جَبْرَئِيلَ نَزَلَ إِلَيْهِ وَمَعَهُ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ الْأَرْضِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، السَّلَامُ يُقْرِؤكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ صَيَّرْتَ مَعَكَ جِبَالَ تِهَامَةَ ذَهَباً وَفِضَّةً، وَخُذْ هَذِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ حَظِّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ ﷺ: يَا جَبْرَئِيلُ، وَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: الْمَوْتُ، فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِي الدُّنْيَا، دَعْنِي أَجُوعُ يَوْماً، وَأَشْبَعُ يَوْماً، فَالْيَوْمَ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ أَتَضَرَّعُ إِلَى رَبِّي، وَالْيَوْمَ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ أَشْكُرُ رَبِّي، وَأَحْمَدُهُ، فَقَالَ جَبْرَئِيلُ: وُفِّقْتَ لِكُلِّ خَيْرٍ يَا مُحَمَّدُ!».

ثم قال عليه السلام: «يَا بُنَيَّةِ، الدَّارُ دَارُ غُرُورٍ، وَدَارُ هَوَانٍ، فَمَنْ قَدَّمَ شَيْئاً وَجَدَهُ. يَا بُنَيَّةِ، لَا آكُلُ شَيْئاً حَتَّى تَرْفَعِي أَحَدَ الْإِدَامَيْنِ».

فلما رفعته أكل قرصاً واحداً بالملح الجريش، ثمَّ حمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قام إلى صلاته فصلَّى، ولم يزل راكعاً وساجداً ومبتهلاً ومتضرِّعاً إلى الله سبحانه، ويكثر الدخول والخروج، وهو ينظر إلى السَّماء وهو قلقٌ، ثمَّ قرأ سورة «يٰس» حتَّى ختمها، ثمَّ رقد هنيهة، وانتبه مرعوباً، وجعل يمسح وجهه بثوبه، ونهض قائماً على قدميه وهو يقول: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي لِقَائِكَ».

وَيُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، ثُمَّ صَلَّى حَتَّى ذَهَبَ بَعْضُ اللَّيْلِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلتَّعْقِيبِ، ثُمَّ نَامَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ انْتَبَهَ مَرْعُوباً، وَجَمَعَ أَوْلَادَهُ فَقَالَ لَهُمْ:

«فِي هَذَا الشَّهْرِ تَفْقِدُونِي، إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالَتْنِي...».

«ما رأيت؟».

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَنَامِي وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، إِنَّكَ قَادِمٌ إِلَيْنَا عَنْ قَرِيبٍ، يَجِيءُ إِلَيْكَ أَشْقَاهَا فَيَخْضِبُ شَيْبَتَكَ مِنْ أُمِّ رَأْسِكَ، وَأَنَا مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ، وَإِنَّكَ عِنْدَنَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ...».

فضَجّ أبناؤه بِالْبُكَاءِ، فأمرهم بالخلود إلى الصبر وطاعة الله، ولم يزل تلك الليلة قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً، ويخرج ساعة بعد ساعة، يقلب طرفه في السَّماء، وينظر في الكواكب وهو يقول:

«مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ، وَإِنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِي وُعِدْتُ بِهَا».

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مُصَلَّاهُ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِي فِي الْمَوْتِ»، وَيُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»، وَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ كَثِيراً.

قَالَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ: قلت له: «يَا أَبَتَاهُ، مَا لِي أَرَاكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَا تَذُوقُ طَعْمَ الرُّقَادِ؟».

فأجابها الإمام: «يَا بُنَيَّةِ، إِنَّ أَبَاكِ قَتَلَ الْأَبْطَالَ، وَخَاضَ الْأَهْوَالَ، وَمَا دَخَلَ الْخَوْفُ جَوْفَهُ، وَمَا دَخَلَ فِي قَلْبِي رُعْبٌ أَكْثَرُ مِمَّا دَخَلَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ...».

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»، وفزعت السيِّدة أُمّ كلثوم، وقالت له بنبرات مشفوعة بالبكاء:

«ما لَكَ تَنْعىٰ نَفْسَكَ مِنْذُ اللَّيْلَةِ؟».

«يَا بُنَيَّةِ، قَدْ قَرُبَ الْأَجَلُ وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ...».

واستولى الأسى والحزن على أمّ كلثوم، وغرقت بالبكاء، وأخذ يهدِّىء من لوعتها قائلاً: «يَا بُنَيَّةُ، إِنِّي لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله»[1]. هذا بعض ما حدَّثت به السيِّدة أُمّ كلثوم من الأحداث المفزعة التي رافقت اغتيال أبيها.

وأقبل الإمام في غلس اللَّيل البهيم على الدُّعاء والابتهال إلى الله تعالى، ففي ظلام ذلك اللَّيل الذي دام على البؤساء والمحرومين، قام الإمام فأسبغ الوضوء، وتهيَّأ إلى الخروج إلى بيت الله ليؤدِّي صلاة الصبح، فلمَّا بلغ صحن الدار كانت فيه وزّ أُهديت إلى الإمام الحسن عليه السلام فصحن في وجهه الشريف منذرة بالخطر العظيم الذي سيعصف بالشرق العربي، وسائر الوطن الإسلامي، ويحوِّله إلى ركام، وتنبَّأ الإمام عليه السلام بنزول الرزء القاصم فقال: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، صَوائِحُ تَتْبَعُها نَوائِحُ»[2]، إنَّ تلك الصوائح التي انطلقت من الطيور تحوَّلت إلى عويل، وصراخ اليتامى والمساكين، فقد فقدوا من كان يرعاهم ويعطف عليهم، وراح الإمام يوصي ابنته برعاية تلك الطيور قائلاً:

«يَا بُنَيَّةِ، بِحَقِّي عَلَيْكِ إِلَّا مَا أَطْلَقْتِها، فَقَدْ حَبَسْتِ مَا لَيْسَ لَهُ لِسَانٌ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْكَلَامِ إِذَا جَاعَ أَوْ عَطِشَ، فَأَطْعِمِيها وَاسْقِيها وَإِلَّا خَلِّي سَبِيلَها تَأْكُلْ مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ»[3].

(١) بحار الأنوار: ٤٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٩١.
(٣) بحار الأنوار: ٤٢/ ٢٧٨.

وأقبل الإمام على فتح الباب فعسر عليه فتحها لأنّها كانت من جذوع النخل، وعالجها حتى فتحها فانحلّ مئزره فشدّه وهو يقول:

اشْدُدْ حَيَازِيمَكَ لِلْمَوْتِ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَاقِيكَا
وَلَا تَجْزَعْ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا حَلَّ بِوَادِيكَا
كَمَا أَضْحَكَكَ الدَّهْرُ كَذَاكَ الدَّهْرُ يُبْكِيكَا

وفزع الحسن عليه السلام كأشدّ ما يكون الفزع من حالة أبيه فسارع إليه قائلاً:

«مَا أَخْرَجَكَ فِي هَذِهِ الْوَقْتِ؟».

«رُؤْيَا رَأَيْتُهَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ هَالَتْنِي».

«خَيْراً رَأَيْتَ، وَخَيْراً يَكُونُ، قُصَّهَا عَلَيَّ».

«رَأَيْتُ جِبْرَئِيلَ عليه السلام قَدْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ، فَتَنَاوَلَ مِنْهُ حَجَرَيْنِ، وَمَضَى بِهِمَا إِلَى الْكَعْبَةِ، فَضَرَبَ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ، فَصَارَا كَالرَّمِيمِ، فَمَا بَقِيَ بِمَكَّةَ وَلَا بِالْمَدِينَةِ بَيْتٌ إِلَّا وَدَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ الرَّمَادِ شَيْءٌ».

واضطرب الإمام الحسن عليه السلام فسارع قائلاً:

«مَا تَأْوِيلُ هَذِهِ الرُّؤْيَا؟».

«إِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَايَ، فَإِنَّ أَبَاكَ مَقْتُولٌ، وَلَا يَبْقَى بِمَكَّةَ وَلَا بِالْمَدِينَةِ بَيْتٌ إِلَّا دَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ الْحُزْنُ مِنْ أَجْلِي...».

ووجم الإمام الحسن عليه السلام وراح يقول بذوب روحه:

«مَتَى يَكُونُ ذَلِكَ؟».

«إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، وَلَكِنْ عَهِدَ إِلَيَّ حَبِيبِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، يَقْتُلُنِي ابْنُ مُلْجَمٍ...».

وراح الإمام يقول بلوعة وفزع:

«إِذَا عَلِمْتَ مِنْهُ ذَلِكَ فَاقْتُلْهُ...».

«لَا يَجُوزُ الْقِصَاصُ قَبْلَ الْجِنَايَةِ، وَالْجِنَايَةُ لَمْ تَحْصُلْ مِنْهُ...».

وأراد الإمام الحسن أن يصحبه إلى الجامع فأقسم عليه الإمام بالرجوع إلى فراشه، ولم يسمح له بالخروج معه، ومضى الإمام عليه السلام إلى بيت الله تعالى فجعل يوقظ الناس على عادته لعبادة الله الواحد القهّار، واجتاز على قوم فقبض على كريمته وقال: «ظَنَنْتُ

فِيكُمْ أَشْقاها الَّذِي يُخَضِّبَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ»، وأومأ إلى لحيته[١]، ثمَّ شرع إمام المتَّقين وسيِّد الموحِّدين في صلاته، وبينما هو ماثل بين يدي الحقّ يناجيه بقلبه وعواطفه ولسانه مشغول بذكره إذ هوى عليه بسيفه شقيق عاقر ناقة صالح عبد الرحمن بن ملجم، ومعه شبيب بن بحيرة الأشْجَعيُّ، وهو يهتف بشعار المجرمين الخوارج قائلاً:

«**الْحُكْمُ لِلَّهِ لَا لَكَ**».

وعلا الرجس الدنس بالسيف رأس الإمام بطل الإسلام وعلم المجاهدين والمتَّقين فقدَّ جبهته الشريفة التي طالما عفَّرها بالسجود لله تعالى، وانتهت الضربة الغادرة إلى دماغه المقدَّس الذي ما فكَّر إلاَّ في سعادة الناس وجمعهم على صعيد الحقّ والعدل وإزالة شبح الفقر والحرمان عنهم.

ولمَّا أحسَّ الإمام بلذع السيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة الرضا بقضاء الله تعالى، وانطلق صوته يدوِّي في رحاب المسجد:

«**فِزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**».

يا أمير الحقّ!

يا رائد العدل!

يا بطل الإسلام!

يا وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله!

لقد فزتَ برضىٰ الله تعالىٰ، وفازت قِيَمُكَ ومبادئُك، وبقيتَ أنت وحدك رهن الخلود بما أوجدته في دنيا الإسلام من المُثُل والقيم الكريمة.

وكان من أشدّ أبنائه لوعة الإمام الحسن الزكي ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، فنظر إليه الإمام فقال له بلطف:

«**يا بُنَيَّ، لَا تَبْكِ فَإِنَّكَ تُقْتَلُ بِالسُّمِّ، وَيُقْتَلُ أَخُوكَ بِالسَّيْفِ**».

إلقاء القبض على ابن ملجم:

وأُلقي القبض على المجرم الأثيم ابن ملجم فجيء به مكشوف الرأس، مكتوفاً فأوقف بين يدي الإمام الزكي الحسن عليه السلام، فقال له:

---

(١) الكامل/المبرّد: ٣/ ١٤٢.

«يا مَلْعُونُ، قَتَلْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِمَامَ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا جَزَاؤُهُ حِينَ آواكَ وَقَرَّبَكَ، حَتَّى تُجازِيهِ بِهَذَا الْجَزاءِ. . .؟».

والتفت الإمام الحسن إلى أبيه قائلاً:

«يا أَبَة، هَذا عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوّكَ ابْنَ مُلْجِمٍ قَدْ أَمْكَنَنا اللَّهُ مِنْهُ».

وفتح الإمام عينيه وقال له بصوت خافت:

«لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِدّاً وَأَمْرَا عَظِيماً، أَلَمْ أَشْفِقْ عَلَيْكَ وَأُقَدِّمْكَ عَلَىٰ غَيْرِكَ فِي الْعَطاءِ فَلِماذا تُجازِينِي بِهَذَا الْجَزاء؟».

والتفت الإمام إلى ولده فجعل يوصيهم بالبرّ إلى قاتله قائلاً:

«أَطْعِمُوهُ، وَاسْقُوهُ، فَإِنْ عِشْتُ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، إِنْ شِئْتُ قَتَلْتُ، وَإِنْ شِئْتُ عَفَوْتُ، وَإِنْ مِتُّ فَاقْتُلُوهُ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»[1].

وبهر الإمام الحسن من وصيَّة أبيه بالبر والإحسان لقاتله قائلاً:

«يا أَبتاهُ، قَتَلَكَ هَذَا اللَّعِينُ، وَفُجِعْنا بِكَ، تَأْمُرُنا بِالرِّفْقِ بِهِ».

فأجابه الإمام بما انطوت عليه روحه الملائكيَّة قائلاً:

«يا بُنَيَّ، نَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، أَطْعِمْهُ مِمَّا تَأْكُلُ، وَاسْقِهِ مِمَّا تَشْرَبُ، فَإِن أَنا مِتُّ فَاقْتَصَّ مِنْهُ بِأَنْ تَقْتُلَهُ، وَلَا تُمَثِّلْ بِالرَّجُلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ، وَإِن أَنا عِشْتُ فَأَنا أَعْلَمُ ما أَفْعَلُ بِهِ فَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَزْدَادُ عَلَىٰ الْمُذْنِبِ إِلَيْنا إِلَّا عَفْواً وَكَرماً».

وهكذا نفسية هذا الإمام العظيم العفو والإحسان والبرّ بمن اعتدىٰ عليه وظلمه.

أُمّ كلثوم وابن ملجم:

وكانت العقيلة أُمّ كلثوم غارقة في الأسىٰ والشجون، والتفت إلى المجرم الخبيث ابن ملجم فقالت له:

«يا عَدُوَّ اللَّهِ، قَتَلْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟».

فردَّها الأثيم بوقاحة وصلف:

لم أقتل أمير المؤمنين ولكن قتلت أباك. . .

فأجابته حفيدة الرسول:

---

(١) النُّجوم الزَّاهرة: ١/١١٩.

«إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لَا يَكُونَ عَلَيْهِ بَأس».

وسارع المجرم قائلاً:

فَلِم تبكين إذاً؟ عليَّ تبكين؟

وراح ابن ملجم يقرح عواطفها وشعورها ويعلمها عن ضربته الغادرة للإمام قائلاً: والله! لقد سمَّمته ـ أي السيف ـ شهراً فإن أخلفني فأبعده الله سيفاً وأسحقه(١).

إلى الفردوس الأعلى:

وفي ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان التي قيل إنَّها ليلة القدر اشتدَّت الآلام القاسية بالإمام عليه السلام فقد تزايد ولوج السمّ في جسده الشريف، وقد وصف حالته ولده محمَّد بن الحنفية قال:

نظرنا إلى قدميه وقد احمرَّتا فكبر ذلك علينا وأيسنا منه، ثمَّ عرضنا عليه المأكول والمشروب فأبى، ونظرنا إلى شفتيه وهما تختلجان بذكر الله تعالى، وجعل جبينه يرشح عرقاً، فقال له محمَّد(٢):

ما لي أراك يرشح جبينك عرقاً؟

فأجابه الإمام:

«يا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ عَرَقَ جَبِيْنُهُ وَسَكَنَ أَنِينُهُ».

ولمَّا أحسَّ بدنوِّ الأجل المحتوم منه أمر بجمع أولاده ليودِّعهم الوداع الأخير، فلمَّا مثلوا عنده قال لهم بصوت خافت:

«اللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ، اسْتَوْدِعُكُم اللَّهَ».

وتعالت أصوات أولاده بالبكاء، والتفت إليه ولده الزكي الإمام الحسن عليه السلام فقال له: «يا أبة، ما الذي دعاك إلى هذا؟».

«يا بُنَيَّ، رَأَيْتُ جَدَّكَ رَسُولَ اللَّهَ ﷺ فِي مَنَامِي قَبْلَ هَذِهِ الْكَارِثَةِ بِلَيْلَةٍ، فَشَكَوْتُ إِلَيْهِ ما أنا فِيهِ مِنَ التَّذَلُّلِ وَالأَذَىٰ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ.

فَقَالَ لِي: ادْعُ عَلَيْهِمْ.

---

(١) أنساب الأشراف: ١/٢١٦.

(٢) محمَّد بن الحنفية يكنَّى أبا القاسم بشَّر به النبيّ قبل ولادته، فقد قال لعليّ: «سيولد لك بعدي غلام قد نحلته اسمي وكنيتي».

فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ أَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنّي، وَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ. . . .

فَقَالَ لِي: قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعاءَك، وَسَيَنْقُلُكَ إِلَيْنا بَعْدَ ثَلَاثٍ، وَقَدْ انْقَضَتِ الثَّلَاثُ. يا أَبا مُحَمَّد، أُوْصِيكَ بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ ـ يعني الإمام الحسين ـ **خَيْراً، فَأَنْتُما مِنّي، وَأَنا مِنْكُما».**

ثمَّ التفت إلى بقيَّة أولاده، وأمرهم أن لا يخالفوا سيِّدي شباب أهل الجنَّة الإمامين الحسن والحسين، وأن يطيعوهما، ثمَّ قال لهم:

«أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ الْعَزاءَ أَلَا وَإِنِّي مُنْصَرِفٌ عَنْكُمْ فِي لَيْلَتِي هَذِهِ، وَلَاحِقٌ بِحَبِيبِي مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا وَعَدَنِي».

ثمَّ أُغمي عليه ساعة، فلمَّا أفاق قال لولده:

«هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَمِّي حَمْزَةُ، وَأَخِي جَعْفَرٌ، وَأَصْحابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ: عَجِّل قُدومَكَ عَلَيْنا فَإِنَّا إِلَيْكَ مُشْتَاقُونَ. . .».

ثمَّ قال لهم برفق:

«أَسْتَوْدِعُكُمْ اللَّهَ جَمِيعاً، اللَّهُ خَلِيْفَتِي عَلَيْكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ خَلِيْفَةً»، ثمَّ سلَّم على ملائكة الله الكرام الذين أحاطوا به لينقلوا روحه المقدَّسة إلى الفردوس الأعلى، وأخذ يقرأ آيات من الذِّكر الحكيم، وكان آخر ما نطق به قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[1] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2]، ثمَّ فاضت روحه الطاهرة إلى جنَّة المأوى تحفُّها ملائكة الله والأنبياء والأوصياء.

لقد سمت تلك الرُّوح العظيمة إلى بارئها لتقدِّم إليه ما عاناه من الجهد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وما لاقاه من الخطوب من طغاة القرشيِّين.

لقد ارتفع إلى الله تعالى ذلك اللطف الإلٰهي الذي خلقه الله تعالى ليبدِّد ظلمات الجهل، ويطهِّر الأرض من أوثان الجاهلية وأرجاسها.

لقد مادت أركان العدالة، وانطمست معالم الدِّين ومات أبو الغرباء، وكهف الأيتام، وعون الضعفاء.

لقد مضى الإمام إلى جنَّة المأوى، وهو مكدود، مجهود غارق في الأسىٰ والخطوب ممَّا عاناه من أعمدة القرشيِّين الذين أبوا أن تجتمع الخلافة والنُّبوَّة في بيت

---

(١) سورة الصافَّات: ص٦١.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٨.

واحد فأقصوه عن مركزه وقيادته للأُمَّة بعد وفاة أخيه وابن عمِّه الرسول ﷺ ولمَّا آلت الخلافة إليه ناجزوه الحرب، ولاحقوه بضربات موجعة فأفسدوا عليه جيشه، وتركوه في أرباض الكوفة يصعّد الزفرات والآلام.

القصاص من ابن ملجم:

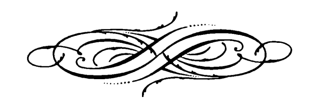
وفي صبيحة ذلك اليوم الخالد في دنيا الأحزان أمر الإمام الحسن بإحضار المجرم الأثيم عبد الرحمن بن ملجم، فلمَّا مثل أمامه قال له ابن ملجم:

ما الذي أمرك به أبوك؟

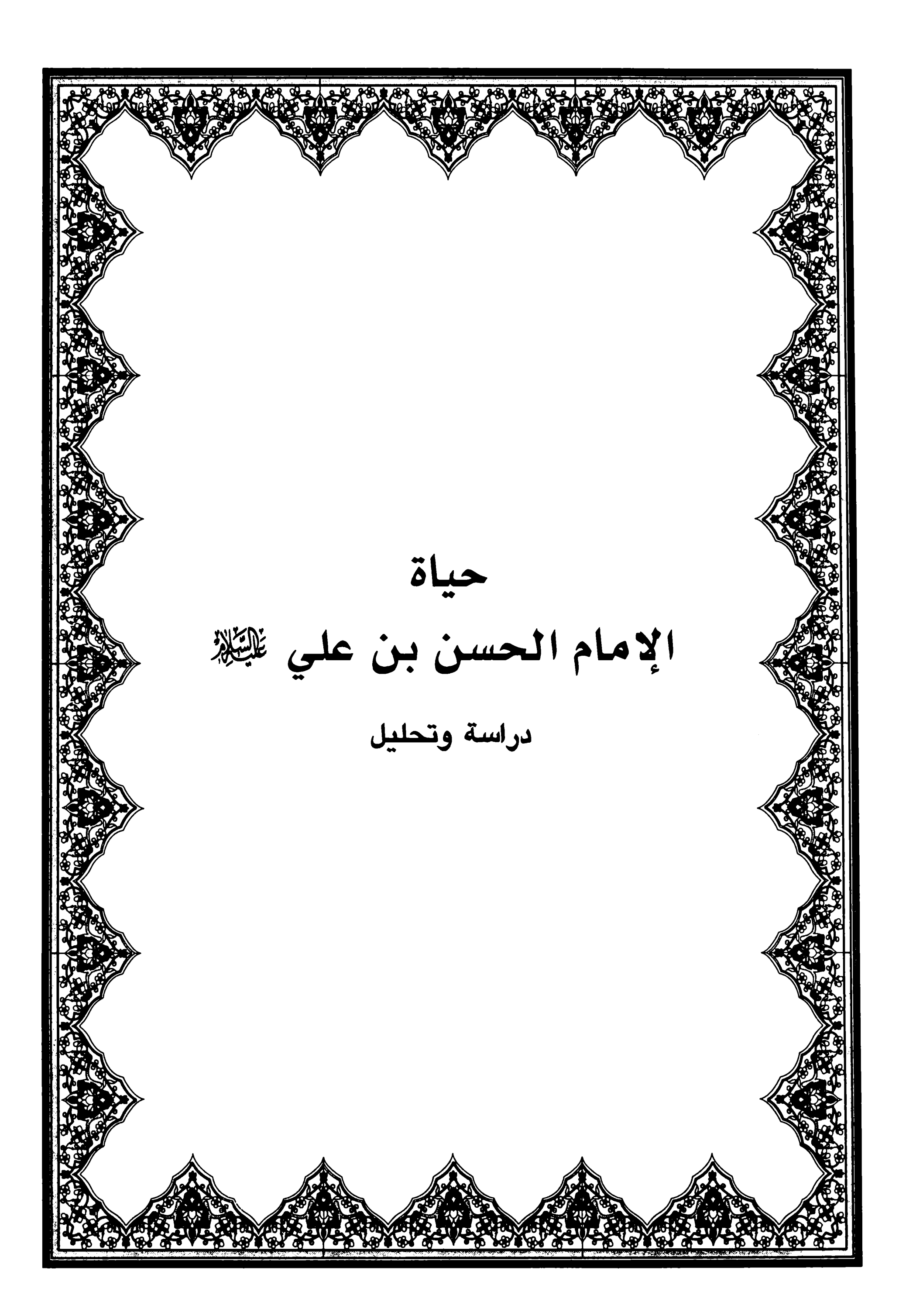
«أمرني أن لا أقتل غير قاتله، وأن أُشبع بطنك، وأنعم وطأك، فإن عاش اقتصَّ أو عفا، وإنمات ألحقتك به...».

وبهر الأثيم وراح يقول:

إن كان أبوك ليقول الحقّ، ويقضي به في حال الغضب والرِّضا. ثمَّ إنَّ الإمام الحسن ضربه بالسيف فاتَّقى الضربة بيده فبترت، ثمَّ أجهز عليه فقتله[1].

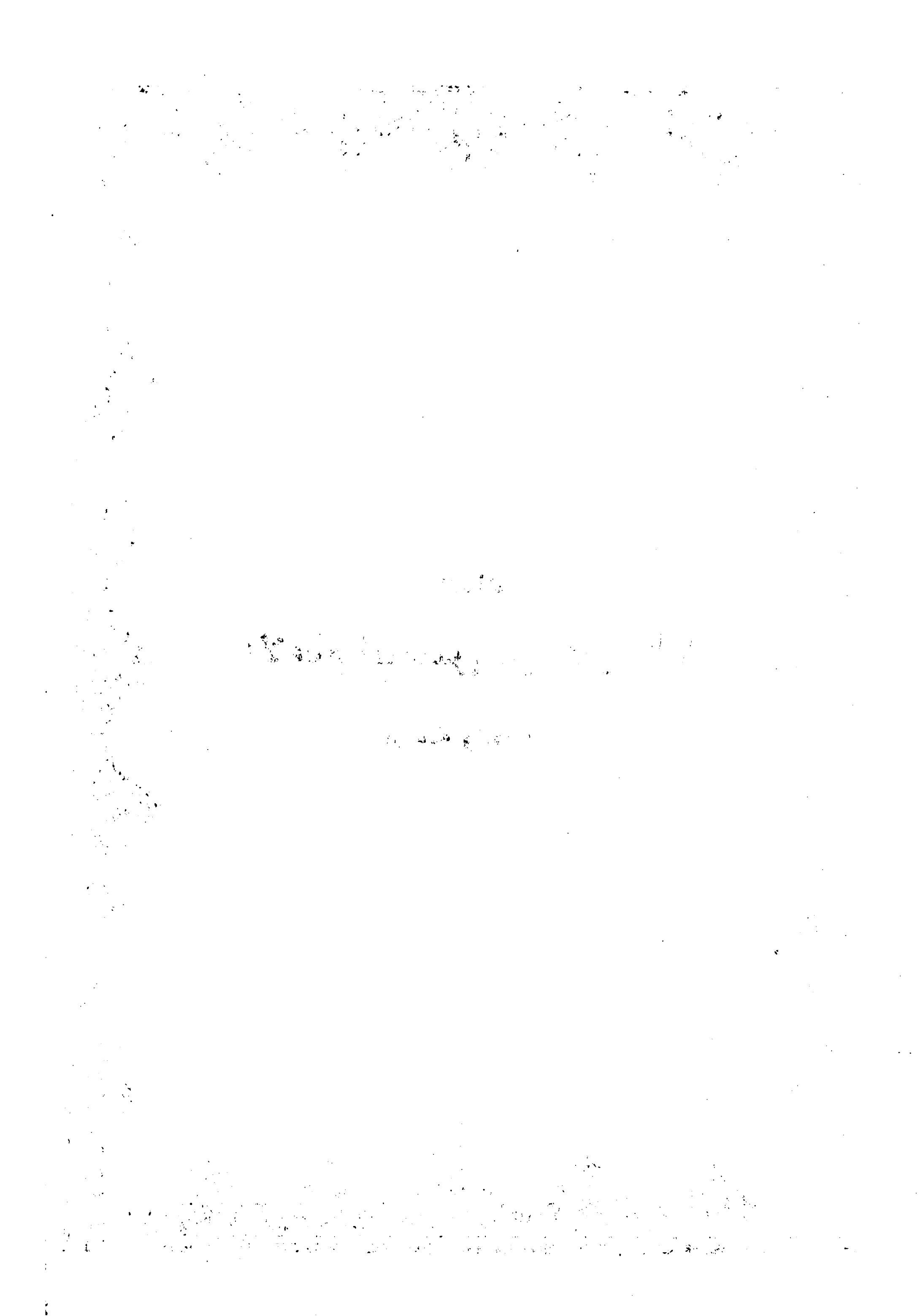


(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٩١.



حياة
الإمام الحسن بن علي عليه السلام

دراسة وتحليل



الوليد الجديد

الأمّ: فاطمة بنت محمَّد ﷺ.

الأب: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وصي الرسول ﷺ.

لقد استقبل حفيد الرسول ﷺ وسبطه الأكبر سيِّد شباب أهل الجنَّة دنيا الوجود في شهر هو أبرك الشهور وأفضلها حتى سُمّي شهر الله، وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وكان ذلك في السنة الثانية، أو الثالثة من الهجرة(١) وقد شوهدت في طلعة الوليد طلعة الرسول ﷺ وبدت فيه شمائل النُّبوَّة ومحاسن الإمامة.

ولما أذيع نبأ ولادة الصدِّيقة بالمولود المبارك غمرت موجات من السرور والفرح قلب النبي ﷺ فسارع إلى بيت ابنته ـ أعز الباقين، والباقيات عليه من أبنائه ـ ليهنئها بمولودها الجديد ويبارك به لأخيه أمير المؤمنين، ويفيض على المولود شيئاً من مكرمات نفسه التي طبق شذاها العالم بأسره ولما وصل ﷺ إلى مثوى الإمام نادى:

«يا أسماء: هاتيني ابني..».

فانبرت أسماء، ودفعته إليه في خرقة صفراء فرمى بها.

وقال: «ألم أعهد إليكم أن لا تلفوا المولود في خرقة صفراء؟».

وقام ﷺ فسرأه، وألباه بريقه(٢) وضمه إلى صدره، ورفع يديه بالدُّعاء له: «اللّهمَّ: إنِّي أعيذه بك، وذرِّيته من الشيطان الرجيم..»(٣).

سنن الولادة:

وأخذ ﷺ بإجراء مراسيم الولادة وسننها على مولوده المبارك وهي:

---

(١) الإصابة: ج١، ص٣٢٨.

(٢) سرأه: قطع سرته، ألباه بريقه، مأخوذ من اللباء، وهو أول اللبن عند الولادة، والمراد أنَّه ﷺ أطعمه بريقه كما يطعم الصبي اللباء.

(٣) دائرة المعارف للبستاني: ٧/٣٨.

١ ـ الأذان والإقامة:

وأذن ﷺ في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى[١] وفي الخبر: «إنَّ ذلك عصمة للمولود من الشيطان الرجيم»[٢].

٢ ـ التسمية:

والتفت ﷺ إلى أمير المؤمنين، وقد أترعت نفسه العظيمة بالغبطة والمسرات فقال له: «هل سميت الوليد المبارك؟».

فأجابه الإمام: «ما كنت لأسبقك يا رسول الله».

وانطلق النبي ﷺ فقال له: «ما كنت لأسبق ربِّي..».

وما هي إلاَّ لحظات وإذا بالوحي يناجي الرسول، ويحمل له «التسمية» من الحق تعالى يقول له جبرئيل: «سمه حسناً»[٣].

٣ ـ العقيقة:

وانطوت سبعة أيام على ولادة حفيد الرسول ﷺ فاتجه ﷺ إلى بيت الإمام عليه السلام ليقوم ببعض التكريم والاحتفاء فجاء بأقصى ما عنده من البر والتوسعة فعقَّ عنه بكبش واحد[٤] وأعطى القابلة منه الفخذ وصار فعله هذا سُنَّة لأُمَّته من بعده.

٤ ـ حلق رأسه:

وحلق ﷺ رأس حفيده بيده المباركة، وتصدَّق بزنته فضة على المساكين[٥] وطلى رأسه بالخلوق[٦]. حقاً لم نر حناناً مثل هذا الحنان، ولا عطفاً يضارع هذا العطف.

٥ ـ الختان:

وأجرى ﷺ عليه الختان في اليوم السابع من ولادته[٧] لأنَّ ختان الطفل في ذلك الوقت أطيب له وأطهر[٨].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٦/ ٣٩١.
(٢) الجواهر كتاب النكاح.
(٣) تأريخ الخميس: ج١، ص٤٧٠.
(٤) تأريخ الخميس: ج١، ص٤٧٠.
(٥) تأريخ الخميس: ج١، ص٤٧٠.
(٦) الخلوق: طيب مركب من زعفران وغيره.
(٧) نور الأبصار: ص١٠٨.
(٨) جواهر الأحكام كتاب النكاح.

٦ ـ كنيته:

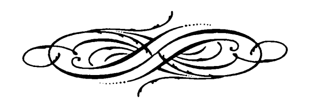
وكناه النبي ﷺ أبا محمد[١] ولا كنية له غيرها، وبهذا انتهت جميع مراسيم الولادة التي قام النبي ﷺ بها لسبطه الأكبر.

ألقابه:

ولقّب عليه السلام بالسبط، والزكي، والمجتبى، والسيِّد، والتقي.

ملامحه:

أما ملامحه، فكانت تحاكي ملامح جده الرسول ﷺ فقد حدث أنس بن مالك قال: لم يكن أحد أشبه بالنبي من الحسن بن علي[٢] وقد صور رواة الأثر صورته بما ينطبق على صورة جده ﷺ فقالوا: إنَّه كان أبيض مشرباً بحمرة أدعج العينين[٣] ذا وفرة[٤] عظيم الكراديس[٥] بعيد المنكبين[٦] جعد الشعر[٧] كثّ اللحية[٨] كأنَّ عنقه إبريق فضة[٩] وهذه الأوصاف تضارع أوصاف النبي ﷺ حسب ما ذكره الرواة من أوصافه ﷺ، وكما شابه جده في صورته فقد شابهه في أخلاقه الرفيعة[١٠].



---

(١) أسد الغابة: ٢/ ٩.
(٢) فضائل الأصحاب: ص١٦٦.
(٣) الأدعج: شدة في سواد العين مع سعتها.
(٤) الوفرة: الشعر السائل على الأذنين، أو هو الشعر المجتمع على الرأس.
(٥) الكراديس: جمع مفردة الكردوسة، وهي كل عظمتين التقيا في مفصل أو العظم الذي يجتمع عليه اللحم، والمراد ضخم الأعضاء.
(٦) المنكبين: تثنية منكب، وهو مجتمع رأس الكتف والعضد.
(٧) الجعد: الشعر الذي فيه التواء وتقبض، وهو خلاف المسترسل.
(٨) كثّ اللحية: قصرها مع كثرة شعرها.
(٩) تأريخ الخميس: ١/ ١٧١.
(١٠) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠١.

ذكاء وعبقرية

وطفولة الإمام الحسن عليه السلام قد التقت بها جميع هذه العناصر الحية، فالرسول ﷺ تولى تربية سبطه، وأفاض عليه بمكرمات نفسه، والإمام أمير المؤمنين عليه السلام غذّاه بحكمه ومُثله، والعذراء القديسة أفضل بنات حواء قد غرست في نفس وليدها الفضيلة والكمال، وبذلك سمت طفولته فكانت مثالاً للتكامل الإنساني، وعنواناً للسمو والتهذيب، ورمزاً للذكاء والعبقرية.

نشأ في بيت الوحي، وتربى في مدرسة التوحيد، وشاهد جده الرسول الذي هو أكمل إنسان ضمه هذا الوجود، يقيم في كل فترة من الزمن صروحاً للعدل، ويشيد دعائم الفضيلة والكمال، قد وسع الناس بأخلاقه، وجمعهم على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، فتأثر السبط بذلك.

فقد اجتاز مع أخيه سيِّد الشُّهداء عليه السلام، وهما في دور الطفولة على شيخ لا يحسن الوضوء، فلم يدعهما السمو في النفس، وحب الخير للناس أن يتركا الشيخ على حاله لا يحسن وضوءه، فأحدثا نزاعاً صورياً أمامه، وجعل كل منهما يقول للآخر: أنت لا تحسن الوضوء، والتفتا إلى الشيخ بأسلوب هادىء وجعلاه حاكماً بينهما قائلين له:

«يا شيخ، يتوضأ كل واحد منَّا أمامك، وانظر أي الوضوئين أحسن؟» فتوضآ أمامه، وجعل الشيخ يمعن في ذلك فتنبه إلى قصوره، والتفت إلى تقصيره من دون أن يأنف فقال لهما:

«كلاكما، يا سيِّدي تحسنان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لا يحسن، وقد تعلم الآن منكما، وتاب على يديكما...»[(١)].

وملك الإمام الحسن عليه السلام بمقتضى ميراثه من الذكاء، وسمو الإدراك ما لا يملكه غيره، فقد حدث الرواة عن مدى نبوغه الباكر، فقالوا: إنَّه كان لا يمرُّ عليه شيء إلاَّ حفظه، وكان يحضر مجلس جده ﷺ فيحفظ الوحي فينطلق إلى أُمِّه فيلقيه عليها، فتحدِّث به أمير المؤمنين عليه السلام فيتعجب، ويقول: «من أين لك هذا؟!!».

---

(١) البحار: ١٠/٨٩.

ـ «من ولدك الحسن».

واختفى الإمام عليه السلام في بعض زوايا البيت ليسمع ولده، ويقبل الحسن على عادته ليلقي على أُمّه ما حفظه من آيات الوحي والتنزيل فيرتج عليه، ولا يستطيع النطق فتبادر البتول قائلة:

ـ «يا بني، لماذا أرتج عليك؟!!».

ـ «يا أُمَّاه.. لا تعجبي ممَّا عراني، فإنَّ كبيراً يرعاني!!»(١).

حفظه للحديث:

وحفظ عليه السلام وعمره الشريف أربع سنين الشيء الكثير ممَّا سمعه من جده صلى الله عليه وآله، قال عليه السلام: علَّمني رسول الله صلى الله عليه وآله كلمات أقولهن في الوتر: اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنَّك تقضي ولا يقضى عليك، وإنَّه لا يذل من واليت، تباركت ربَّنا وتعاليت»(٢).

وروى عمير بن مأمون، قال: سمعت الحسن بن علي عليه السلام يقول: «من صلَّى صلاة الغداة، فجلس في مصلاه حتى تطلع الشمس كان له حجاب من النار، أو قال: ستر من النار»(٣).

وقال له بعض أصحابه: ما تذكر من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عليه السلام: أخذت تمرة من تمر الصدقة، فتركتها في فمي فنزعها بلعابها، فقيل يا رسول الله، ما كان عليك من هذه التمرة، قال: إنَّا آل محمد لا تحلُّ لنا الصدقة(٤).

وسئل عليه السلام عمَّا سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: سمعته يقول لرجل: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنَّ الشر ريبة والخير طمأنينة»(٥).

وحدث عليه السلام أصحابه عن خلق جده الرسول وسيرته فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا سأله أحد حاجة لم يرده إلاَّ بها أو بميسور من القول.

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب: ٢/١٤٨.
(٢) صحيح الترمذي: ١/٩٣.
(٣) أسد الغابة: ٢/١١.
(٤) أسد الغابة: ٢/١١.
(٥) تأريخ اليعقوبي: ٢/٢٠١.

تكريم وحفاوة

الكتاب العزيز:

ونطق كتاب الله العظيم ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه ـ بفضل أهل البيت، وبسمو مكانتهم عند الله، وحسبنا أن نشير إلى بعض آياته:

١ ـ آية المودَّة:

وفرض الله على المسلمين مودَّة أهل البيت عليهم السلام وقد نطق القرآن بذلك قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

وروى ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال بعض المسلمين: يا رسول الله من قرابتك الذين أوجبت علينا طاعتهم؟ فقال ﷺ: علي وفاطمة وابناهما[2].

٢ ـ آية التطهير:

ومن آيات الله البيِّنات الدالّة على عصمة أهل البيت من الذُّنوب، وعلى طهارتهم من الزيغ والآثام، آية التطهير قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3].

المختصون بها: وأجمع ثقاة الرواة أنَّها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة، والحسنين عليهما السلام ولم يشاركهم أحد في هذه الفضيلة[4].

٣ ـ آية المباهلة:

من آيات الله الباهرات التي أشادت بفضل أهل البيت عليهم السلام آية المباهلة قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٢) تفسير الفخر الرازي: ٧/ ٤٠٦.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٤) انظر تفسير الفخر الرازي: ٦/ ٧٨٣، النيسابوري في تفسير سورة الأحزاب، صحيح مسلم: ٢/ ٣٣١.

﴿وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[(١)] فقد روى الجمهور بطرق مستفيضة[(٢)] أنّها نزلت في أهل البيت عليهم السلام وأنَّ ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ إشارة إلى الحسنين، ﴿وَنِسَاءَنَا﴾ إلى فاطمة، و﴿أَنفُسَنَا﴾ إلى علي.

٤ ـ سورة هل أتى:

ونزلت في أهل البيت عليهم السلام سورة مباركة من سور القرآن الكريم وهي سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ فقد روى جمهور المفسرين والمحدثين أنّها نزلت فيهم[(٣)] والسبب في نزولها أنَّ الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما جدهما رسول الله صلى الله عليه وآله مع بعض الصحابة، فقالوا للإمام: لو نذرت لله إن عافى ولديك، فنذر عليه السلام صوم ثلاثة أيام شكراً لله إن برئا، وتابعته الصدِّيقة عليها السلام وجاريتها فضة في هذا النذر، ولما ابل الحسنان من المرض صاموا جميعاً، ولم يكن عند أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك الوقت شيء من الطعام ليجعله إفطاراً لهم فاستقرض ثلاثة أصواع من الشعير، فعمدت الصدِّيقة عليها السلام في اليوم الأول إلى صاع فطحنته وخبزته فلما آن وقت الإفطار، وإذا بمسكين يستمنحهم من القوت شيئاً، فتبرع الإمام في إفطاره، وتابعه الجميع في صنعه، وناولوا طعامهم إلى المسكين وقضوا ليلتهم، ولم يذوقوا من الطعام شيئاً، وأصبحوا وهم صائمون، فلما حلَّ وقت الإفطار، والطعام بين أيديهم، وإذا بيتيم على الباب يشكو ألم الجوع، فتبرعوا جميعاً بقوتهم، وطووا ليلتهم، ولم يذوقوا سوى ماء القراح، وفي اليوم الثالث قامت سيِّدة النِّساء فطحنت ما فضل من الطعام وخبزته، فلما حان وقت الإفطار قدمت لهم الطعام، وسرعان ما طرق الباب أسير يشكو الجوع فسحبوا أيديهم من الطعام، ومنحوه له، سبحانك اللهم أي مبرة أعظم من هذه المبرة، وأي إيثار أعظم من هذا الإيثار!!!

وفي اليوم الرابع جاء رسول الله صلى الله عليه وآله لزيارتهم، فرآهم ويا لهول ما رأى، رأى الصفرة بادية على الوجوه، الارتعاش حلَّ في أجسامهم من الضعف، فتغيَّر حاله وانطلق يقول:

«واغوثاه أهل بيت محمد يموتون جياعاً!!».

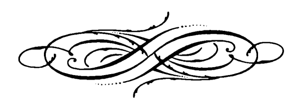
---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٢) تفسير الجلالين: ١/ ٣٥، تفسير روح البيان: ١/ ٤٥٧.

(٣) تفسير الفخر الرازي: ٨/ ٣٩٢.

ولم ينته الرسول صلى الله عليه وآله من كلامه حتى هبط عليه أمين الوحي، وهو يرفع إليه سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ وفيها أجمل الثناء وعاطر الذِّكر لأهل البيت قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.



الأخبار التي أثرت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سبطه الأكبر

أما ما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله فيما يخص سبطه فهي روايات عدَّة نقتصر منها على ما يلي:

١ ـ روى البراء بن عازب قال: رأيت النبي صلى الله عليه وآله والحسن على عاتقه، يقول: «اللهم، إنِّي أحبّه فأحبه»[١].

٢ ـ وروت عائشة قالت: إنَّ النبي صلى الله عليه وآله كان يأخذ حسناً، فيضمه إليه ثم يقول: «اللهم، إنَّ هذا ابني، وأنا أحبه، فأحبه، وأحب من يحبه..»[٢].

٣ ـ وروى زهير بن الأقمر قال: بينما الحسن بن علي يخطب بعدما قتل علي عليه السلام إذ قام إليه رجل من الأزد آدم طوال، فقال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله واضعه في حبوته، يقول: «من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب» ولولا عزمة من رسول الله صلى الله عليه وآله ما حدثتكم[٣].

٤ ـ وروى أبو بكرة قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة، وعليه أخرى، ويقول: «إنَّ ابني هذا سيِّد. ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٤].

٥ ـ وروى ابن عباس قال: أقبل النبي صلى الله عليه وآله وقد حمل الحسن على رقبته فلقيه رجل، فقال نعم المركب ركبت يا غلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ونعم الراكب هو[٥].

٦ ـ وروى عبد الله بن عبد الرحمن بن الزبير قال: أشبه أهل النبي صلى الله عليه وآله وأحبهم إليه الحسن رأيته يجيء وهو ساجد فيركب رقبته أو قال ظهره، فما ينزله

(١) صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق، ورواه الترمذي في صحيحه: ٢/٣٠٧.
(٢) كنز العمال: ٧/ ١٠٤.
(٣) تهذيب التهذيب: ٢/٢٩٧.
(٤) الإصابة: ١/ ٣٣٠.
(٥) الصواعق: ص٨٢.

حتى يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر[١].

٧ ـ وروى أنَّ النبي ﷺ صلَّى إحدى صلاتي العشاء فسجد سجدة أطال فيها السجود، فلما سلَّم قال له الناس: في ذلك فقال: «إنَّ ابني هذا ـ يعني الحسن ـ ارتحلني فكرهت أن أعجله»[٢].

٨ ـ وصعد ﷺ على المنبر ليخطب، فجاء الحسن فصعد المنبر، فوضعه على رقبته حتى كان يرى بريق خلخاليه من أقصى المسجد، وهما يلمعان على صدر الرسول، ولم يزل على هذه الحالة حتى فرغ ﷺ من خطبته[٣].

٩ ـ وقال ﷺ: «من سرَّه أن ينظر إلى سيِّد شباب أهل الجنَّة فلينظر إلى الحسن»[٤].

١٠ ـ وقال ﷺ: «الحسن ريحانتي من الدُّنيا»[٥].

١١ ـ وروى أنس بن مالك قال: دخل الحسن على النبي ﷺ فأردت أن أميطه عنه، فقال ﷺ: «ويحك يا أنس دع ابني، وثمرة فؤادي، فإنَّ من آذى هذا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[٦].

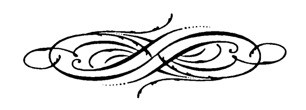
احتفاء المسلمين به:

واحتفى المسلمون بالإمام الحسن احتفاءً بالغاً فكان كبار الصحابة يقابلون بالتجلة والتكريم، ويتسابقون إلى القيام بخدمته، فهذا عبد الله بن عباس حبر الأُمَّة كان إذا ركب الحسن والحسين عليهما السلام بادر فأمسك لهما الركاب وسوى عليهما الثياب، وقد لامه مدارك بن زياد على ذلك فنهره وقال له: «يا لكع أوتدري من هذان؟! هذان ابنا رسول الله ﷺ أوليس ممَّا أنعم الله به عليَّ أن أمسك لهما الركاب، وأسوي عليهما الثياب..»[٧].

---

(١) الإصابة: ٢/ ١١.
(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٣٣.
(٣) البحار: ٦/ ٥٨.
(٤) فضائل الأصحاب: ص١٦٥.
(٥) الاستيعاب: ٢/ ٣٦٩.
(٦) كنز العمَّال: ٦/ ٢٢٢.
(٧) تأريخ ابن عساكر: ٤/ ٢١٢.

وبلغ من تعظيم المسلمين وتكريمهم لهما أنَّهما كانا يفدان إلى بيت الله الحرام ماشيين فما اجتازا على ركب إلاَّ ترجل ذلك الركب إجلالاً وإكباراً لهما، وإذا طافا بالبيت الحرام بلغ زحام الناس عليهما مبلغاً هائلاً لم يشاهد نظيره لأجل السلام عليهما والتبرك بزيارتهما[1] وكان أبو هريرة إذا رأى الإمام الحسن عليه السلام مقبلاً قام إليه فقبَّله بسرته لأنَّه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يفعل ذلك[2] وحقاً للمسلمين أن يكرموا حفيد نبيهم ويقدسوه بعدما كرمه النبي صلى الله عليه وآله ورفع من شأنه.



(١) البداية والنهاية: ٨/ ٣٧.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢/ ٢٥٥.

الفاجعة الكبرى

وقطع الحسن عليه السلام شوطاً من طفولته مع جده الرسول ﷺ حتى توسعت مداركه ونمت ملكاته، وهو ناعم البال قرير العين، يستقبل الحياة كل يوم بثغر باسم وبهناء وسعادة، يرى من جده ﷺ الحنان والعطف، ومن مشيخة الصحابة التعظيم والتكريم، وقد رأى عليه السلام ما منح به الإسلام من التوسع وكثرة الغزوات حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً، فقد تحطمت عروش الشرك واندحرت قوى الإلحاد، وغزت الجيوش الإسلامية مكة التي هي أعز بلد وأمنعه في الجزيرة العربية، وقام الإسلام وهو عبل الذراع مفتول الساعد شامخ الكيان وسرت موجات فتحه إلى أغلب شعوب الأرض، وقد غمرت قلوب المسلمين المسرات على هذا النصر الذي أعزهم الله وأيدهم به وكان أشد المسلمين فرحاً وأعظمهم سروراً بهذه الانتصارات التي حقَّقها الإسلام أهل البيت.

ولكن لم تدم لهم الحالة الهانئة فقد عبس الزمن في وجوههم، واكفهر، وغزا قلوبهم بخوف غامض وحزن بهيم فقد آن للرسول ﷺ أن يفد على الله، وينتقل إلى حظيرة القدس.

توجع الزهراء:

وأحاط الأسى بابنة الرسول وألم بها الخطب وأضر الحزن بقلبها الرقيق المعذب، فقد شاهدت أباها يعاني أشد الألم والكرب وهو يقول: «واكرباه».

ويمتلىء قلبها باللوعة والحزن فتجيبه: «واكربي لكربك يا أبتي».

فنظر إليها وقد غام بصرها بالدموع فأشفق عليها وقال لها: «لا كرب على أبيك بعد اليوم..».

ثمَّ يخبرها: «إنَّك أول أهل بيتي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك.. ألا ترضين أن تكوني سيِّدة نساء هذه الأُمَّة..».

لقد دفع ﷺ عن حبيبته الأسى بإخبارها بعدم طول الفراق بينها وبينه، ولما علمت

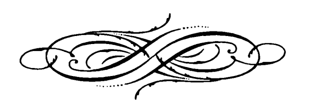
أنَّ لقاء أبيها بربّه لقريب انطلقت إلى بيتها فجاءت بولديها وهي تذرف من الدموع مهما ساعدتها الجفون فقالت له: «أبه هذان ولداك فورثهما منك شيئاً..».

فأفاض عليهما الرسول من مكرمات نفسه، وورثهما من كمالاته قائلاً: «أما الحسن فإنَّ له هيبتي وسؤددي، وأما الحسين فإنَّ له جرأتي وجودي»[١].

ويقوم الحسن من عنده وقد ورث منه الهيبة والسؤدد، وورث منه سيِّد الشُّهداء الجرأة والجود، وهل هناك ممَّا تحويه البسيطة ميراث خير من هذا الميراث الحاوي لكمالات النُّبوَّة وسؤددها، وقد كان الحسن بحكم ميراثه رمزاً للهيبة الأحمدية، ومثالاً للسؤدد النبوي فقد روي «أنَّه كان عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك»[٢].

وبعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى أذاب الهول العظيم، والمصاب المؤلم قلب الإمام الحسن عليه السلام وهو في سنه المبكر فذبلت منه نضارة الصبا وروعته فقد رأى من يحدب عليه ويفيض عليه من رقيق حنانه يوارى في الثرى، ورأى أبويه وقد أضناهما الذهول وأحاط بهما الأسى على فقد الراحل العظيم فترك ذلك في نفسه شديد الألم ولاذع الحزن... لقد مضى الرسول صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى وكان عمر الحسن سبع سنين[٣].

وقد رافق الإمام الحسن في ذلك الدور الأحداث الخطيرة التي وقعت قبل وفاة جده الرسول صلى الله عليه وآله من امتناع القوم من الالتحاق بسرية أُسامة وعدم استجابتهم للنبي صلى الله عليه وآله أمر بإعطائه الدواة والكتف ليكتب لأُمَّته كتاباً يقيها من الفتن والضلال فعرف ـ من غير شك ـ الغاية من ذلك، وعلم ما دبَّره القوم من المؤامرات ضد أبيه فترك ذلك في نفسه كامن الحزن والوجد وانبرى ينكر على القوم غصبهم لحق أبيه كما سنبيِّنه في عهد الشيخين.



(١) كنز العمال: ٧/ ١١٠.
(٢) مناقب ابن شهرآشوب.
(٣) كشف الغمة: ص١٥٤.

في عهد الشيخين

الإمام الحسن:

وما استقر في نفس أمير المؤمنين عليه السلام من اللوعة والأسى على ضياع حقِّه وغصب تراثه قد استقر في نفس وليده الإمام الحسن عليه السلام فقد انطلق إلى مسجد جده ﷺ فرأى أبا بكر على منبر المسجد يخطب الناس فالتاع ووجه إليه لاذع النقد قائلاً له: «انزل... انزل عن منبر أبي، واذهب إلى منبر أبيك!!».

وبهت أبو بكر، وتطلعت أبصار الناس إلى القائل فإذا هو حفيد الرسول ﷺ وريحانته، فأخذتهم الحيرة والدهشة، وساد عليهم الوجوم، واسترد أبو بكر خاطره فتدارك الموقف فقال له بناعم القول: «صدقت والله، إنَّه لمنبر أبيك لا منبر أبي..»[1].

إنَّ احتجاج الإمام الحسن عليه السلام ـ وهو في غضون الصبا ـ انبعث عن نضوج وطموح وذكاء، وكشف عن آلام مرهقة كان يكنّها في أعماق نفسه على ضياع حقّ أبيه.

كان يرى المنبر يرقاه جده الرسول ﷺ وهو يدعو الناس إلى الله، ويهديهم إلى سواء السبيل، وقد اختفى ذلك النُّور، واحتجب ذلك الصوت، وهو لا يجد أحداً خليقاً بأن يخلفه سوى أبيه سيِّد الأوصياء الذي نافح عن رسول الله ﷺ في جميع المواقف والمشاهد.

شجون الزَّهراء عليها السلام:

ينظر الحسن عليه السلام إلى هذا الحزن البهيم الذي حلَّ بأُمِّه الرؤوم فينصدع قلبه، ويذرف من الدموع مهما ساعدته الجفون، يرى الحسن وهو في غضون الصبا لوعة المصائب التي دهت أُمّه الحنون حتى وهت قوَّتها ولوَّن الأسى وجهها كأنَّها صورة جثمان قد فارقته الحياة، فيغرق في الدموع والشؤون.

وهكذا بقيت بضعة الرسول بعد أبيها قد أضناها الحزن، وزاد في أحزانها جحد

(١) الرياض النضرة: ١/١٣٩.

القوم حقّها وسلبهم لتراثها، وبقي الحسن يشاهد ما مُنيت به أُمّه من الكوارث والخطوب وهو مصدوع الجسم، قد ذبلت نضارة صباه لا يعرف في نهاره إلاّ شجرة الأراك حيث يمضي مع أُمّه ليساعدها في النوح ويخفّف عنها اللوعة والحسرة ويستمر معها طيلة النهار في حزن وكمد فإذا أوشكت الشمس أن تغرب تقدّمها مع أبيه وأخيه قافلين إلى الدار فيجد الوحشة والهم قد خيّما عليها.

الزهراء عليها السلام إلى الرفيق الأعلى

وفي اليوم الأخير من حياتها كانت فرحة مسرورة لعلمها باللحاق بأبيها الذي بشّرها أنّها تكون أوّل أهل بيته لحوقاً به، وعمدت لولديها فغسلت لهما، وأمرتهما بالخروج لزيارة قبر جدهما فخرجا وهما يفكّران في الأمر هل أنَّ أُمّهما قد أنهكتها العلّة، وأضرَّ الداء بها حتى لا تستطيع أن تمضي إلى بيت الأحزان الذي ألفته؟! أو أنّها تريد أن تبكي في هذا اليوم في ثوبها؟! كيف البكاء وشيوخ المدينة قد منعوها من البكاء؟! وغرقا في بحر من الهموم وتيار من الهواجس.

والتفتت إلى سلمى بنت عميس وكانت تتولى خدمتها وتمريضها فقالت لها: «يا أماه».

قالت: «نعم يا حبيبة رسول الله».

قالت عليها السلام: «اسكبي لي غسلاً».

فانبرت وأتت لها بما طلبته من الماء فاغتسلت فيه، وهي على أحسن ما تكون، وقالت لها: «إيتني بثيابي الجدد».

فناولتها ثيابها، وهتفت بها ثانية: «اجعلي فراشي وسط البيت».

فذهلت المرأة وقامت تتعثر بأذيالها فصنعت لها ذلك فاضطجعت على فراشها، واستقبلت القبلة والتفتت إلى سلمى قائلة: «يا أمه... إنّي مقبوضة الآن، وقد تطهّرت، فلا يكشفني أحد»[1].

وقبضت في وقتها وقد انطوت في ذلك اليوم الخالد في دنيا الأحزان أروع صفحة من صفحات الفضيلة والطهر والعفاف، وانقطع بموتها آخر من كان في دنيا الوجود من نسل رسول الله.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٧.

وقفل الحسنان راجعين إلى الدار فنظرا فإذا ليس فيها أُمّهم فبادرا إلى سلمى فقالا: «سلمى أين أُمّنا».

فبادرت إليهما، وقد أحاطت بها رعشة الذهول والارتباك، وغامت عيناها بالدموع فقالت: «يا سيِّدي إنَّ أُمّكما قد ماتت... فأخبرا بذلك أباكما..».

وأشرفا على الموت بهذا النبأ المريع فبادرا إلى المسجد، وقد علا منهما البكاء فاستقبلهما المسلمون، قائلين: «ما يبكيكما يا بني رسول الله؟ لعلَّكما نظرتما إلى موقف جدكما فبكيتما شوقاً إليه؟».

فأجابا بصوت مشفوع بالأسى والعبرات: «أوليست قد مات أُمّنا فاطمة».

وأمر الإمام علي عليه السلام سلمان الفارسي أن يصرف الناس فخرج سلمان وصرفهم وأقبلت عائشة فأرادت الدخول إلى بيت الإمام فمنعتها أسماء وقالت لها: «لقد عهدت إليَّ فاطمة أن لا يدخل عليها أحد..»[١].

وقام الإمام الثاكل الحزين فغسل الجسد الطاهر وطيَّبه بالحنوط، وأدرجه في الأكفان ودعا بأطفالها الذين لم ينتهلوا من حنان أُمّهم فألقوا عليها نظرة الوداع، وقد علا منهم الصراخ والعويل، وبعد الفراغ من ذلك انتظر الهزيع الأخير من اللَّيل فلما حلَّ خرج مع حفنة من الرجال وهم يحملون الجثمان المقدَّس إلى مقره الأخير، ولم يخبر أمير المؤمنين أحداً من الناس سوى الصفوة من أصحابه تنفيذاً لوصيتها وحفر عليه السلام لها قبراً في البقيع على ما قيل[٢] ووسدها فيه وأهال عليها التراب، ولما انصرف من كان معه من المشيعين وقف على حافة القبر ونار الحزن قد لسعت قلبه، فجعل يناجي الرسول، ويؤبن زهراءه بكلمات تنمُّ عن قلب أفعم بالآلام والحسرات:

«السلام عليك يا رسول الله، عنِّي وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك... قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورقَّ عنها تجلُّدي... إلاَّ أنَّ في التأسي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك موضع تعز فلقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك... إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة، أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد[٣] إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها

---

(١) أسد الغابة: ٥/ ٥٢٤.
(٢) البحار: ١٠/ ٥٢.
(٣) اللَّيل المسهد: الذي ينقضي بالسهر.

مقيم، وستنبئك ابنتك بتظافر أُمّتك على هضمها فأحفها السؤال[١] واستخبرها الحال. . . هذا ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذِّكر. والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم[٢] فإن انصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين. . . »[٣].

يصغي الإمام الحسن عليه السلام إلى هذه المناجاة الحزينة من أبيه فتلمّ به آلام مبرحة، ويحفُّ به حزن مرهق، وتضاعف حزنه وشجاه حينما رأى أعز ما في الحياة عنده أُمّه الرؤوم قد عاشت في هذه الدُّنيا وعمرها كعمر الزهور، وفاجأها الموت وهي في شبابها الغض الاهاب.

وقد ذاق من هذه الكوارث وهو في دوره الباكر مرارة الحياة، وصار قلبه موطناً للهموم، ومركزاً للأحزان والشجون.

اعتزال الإمام علي عليه السلام:

وانصرف أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن ودَّع بضعة الرسول صلى الله عليه وآله في الثرى، وهو يبكي أمر البكاء، وعاد إلى البيت وهو كئيب حزين، ينظر إلى أطفاله وهم يندبون أُمّهم ويبكون على فادح المصاب، فتهيج أحزانه، وتزداد آلامه، ويشاهد حقه وتراثه فيرى الرجال قد تناهبوه فثلم به الكوارث والخطوب، فآثر عليه السلام العزلة، وأحب الخلود إلى السكون في داره، وقد اعتزل عليه السلام عن الناس فصار جليس بيته، لا يجتمع بالناس، ولا يجتمعون به قد أعرض عن القوم، وأعرضوا عنه، لا يراجعهم، ولا يراجعونه، ولا يشاركونه في جميع الأمور اللهم إلاَّ إذا حلَّت في ناديهم مشكلة لا يعرفون جوابها، ولا يهتدون لحلها، فزعوا إليه ليكشف لهم الستار عنها، وكان عليه السلام تارة يتولى جواب ذلك بنفسه، وأخرى يحيله إلى ولده الحسن للتدليل على فضله ومواهبه، فمن ذلك ما حدث به الرواة أنَّ أعرابياً سأل أبا بكر فقال له: «إنِّي أصبت بيض نعام فشويته وأكلته، وأنا محرم فما يجب عليَّ؟».

فتحيَّر أبو بكر ولم يطق جواباً، وأحال الجواب إلى عمر فتحيَّر أيضاً، وأحال الجواب إلى عبد الرحمن فعجز عنه، وفزعوا جميعاً إلى باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله

(١) الإحفاء بالسؤال: الاستقصاء.
(٢) القالي: البغض، والسئم مأخوذ من السامة وهي ملال الشيء.
(٣) شرح النهج محمد عبده: ٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

ليهديهم إلى الجواب، ووجه إليه الأعرابي السؤال السالف فقال عليه السلام: «سل أي الغلامين شئت ـ وأشار إلى الحسن والحسين ـ».

ووجه الأعرابي سؤاله إلى الإمام الحسن فقال عليه السلام له:

ـ ألك إبل؟

ـ نعم.

ـ فاعمد إلى ما أكلت من البيض نوقاً فأضربهن في الفحول، فما ينتج منها، اهده إلى بيت الله العتيق، الذي حججت إليه..».

والتفت إليه أمير المؤمنين: «يا بني، إنَّ من النوق السلوب، ومنها ما يزلق»(١).

فأجابه الحسن عن إشكاله: «إن يكن من النوق السلوب، وما يزلق فإنَّ من البيض ما يمرق»(٢).

وكان جوابه عليه السلام على وفق ما قرر في الفقه الإسلامي في كفارة الإحرام، واستحسن أمير المؤمنين جوابه فالتفت عليه السلام إلى حضار مجلسه، وهو يشيد بمواهب ولده، وغزارة علمه وفضله، قائلاً: «معاشر الناس.. إنَّ الذي فهم هذا الغلام هو الذي فهمها سليمان بن داود»(٣).

الإمام الحسن عليه السلام وخلافة عمر:

وتولى عمر بن الخطاب أزمَّة الحكم بعد وفاة أبي بكر، وتسلَّم قيادة الأُمَّة بهدوء وسلام، فساس البلاد بشدَّة وعنف بالغين، وقد تحامى لقاءه أكابر الصحابة، فلم يستطع أحد منهم أن يجاهر بآرائه، أو ينقد الحكم القائم، فإنَّ درة عمر ـ كما يقولون ـ كانت أهيب في النُّفوس من سيف الحجاج، حتى أنَّ ابن عباس لم يتمكن أن يصرِّح برأيه في جواز المتعة، وحليتها إلاَّ بعد وفاة عمر، وقد وصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد أعوام سياسة عمر، وشدَّة عنفه يقول عليه السلام:

«فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها، ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها،

---

(١) السلوب: الناقة التي مات ولدها أو ألقته بغير تمام، الزلوق: الناقة التي تلقى ولدها بغير تمام.
(٢) يمرق: مأخوذ من مرقت البيضة أي فسدت.
(٣) مناقب ابن شهرآشوب: ٢/ ١٥٠.

والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس، وتلون واعتراض..»(١).

وقد قطع الإمام الحسن عليه السلام في عهد عمر دور الصبا حتى أشرف على ميعة الشباب، وقد اقتضت سياسة عمر أن يجل السبطين ويجعل لهما نصيباً فيما يغتنمه المسلمون، ووردت إليه حلل من وشي اليمن فوزعها على المسلمين ونساهما، فبعث إلى عامله على اليمن أن يرسل له حلتين، فأرسلهما إليه فكساهما وقد جعل عطاءهما مثل عطاء أبيهما، وألحقهما بفريضة أهل بدر، وكانت خمسة آلاف(٢).

ولم تظهر لنا أي بادرة عن الإمام الحسن عليه السلام ماعدا ذلك، ويعود السبب إلى عدم تدخل أبيه أمير المؤمنين عليه السلام في شؤون عمر وعدم اشتراكه في أي جانب من الجوانب العامة.

الانتخاب:

ولاقى عمر ربه، ومضى إلى مقره الأخير فأحاط البوليس بأعضاء الشورى، وألزمهم بالاجتماع لينفذوا وصية عمر، ويختاروا للمسلمين حاكماً منهم، فاجتمع المرشحون في بيت المال، وقيل في بيت مسرور بن محرمة وأشرف على الانتخاب الإمام الحسن عليه السلام وعبد الله بن عباس، وأزدلف عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة إلى محل الانتخاب فجلسا في الباب، فعرف قصدهما سعد بن أبي وقاص فنهرهما وقال:

«تريدان أن تقولا: حضرنا، وكنّا في أهل الشورى؟!».

وتداول الأعضاء الحديث فيما بينهم عمَّن هو أحق بالأمر وأولى به وأكثرهم قدرة وقابلية على إدارة شؤون الحكم، وانبرى إليهم أمير المؤمنين عليه السلام فأقام عليهم الحجَّة، وحذرهم مغبة ما يحدث في البلاد من الفتن إن استجابوا لنزعاتهم ولم يؤثروا الحق فقال الإمام علي عليه السلام:

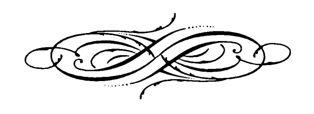
«لم يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق، وصلة رحم، وعائدة كرم فاسمعوا قولي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتضي فيه السيوف، وتخان فيه العهود، حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلال وشيعة لأهل الجهالة..»(٣).

---

(١) نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/١٦٢.
(٢) تأريخ ابن عساكر: ٤/٣٣١.
(٣) نهج البلاغة محمد عبده: ٢/٣١.

ولم يعوا منطق الإمام علي عليه السلام، ولم يتأملوا فيه، وانطلقوا مدفوعين وراء أطماعهم وأهوائهم، وكشف الزمن بعد حين صدق تنبؤ الإمام، فقد انتضوا السيوف، وخانوا العهود ليصلوا إلى صولجان الحكم والسلطان وصار بعضهم أئمة لأهل الضلالة، وشيعة لأهل الجهالة.

وأشرف الإمام الحسن على الانتخاب فراعه ما رأى من انقياد القوم نحو الأغراض الشخصية، والمطامع، واستبان له أنَّ المهاجرين من قريش يحملون في نفوسهم حقداً وضغناً على أبيه، وإنَّ الدِّين لعق على ألسنتهم يحوطونه حيث ما درت معائشهم، وقد تركت تلكم الصور التي اجتازت عليه في نفسه أشد الاستياء والتذمُّر، وعرفته أنَّ القوم يسيرون وراء مصالحهم وأطماعهم، ولا شأن لهم بالمصلحة العامة.



الإمام الحسن عليه السلام في عهد عثمان

نستقبل الحسن عليه السلام في عهد عثمان وهو في شرخ الشباب وعنفوانه فقد كان عمره ينيف على عشرين عاماً وهو دور يسمح لصاحبه أن يخوض معترك الحياة، وأن يعطي رأياً في الناحية الاجتماعية فدخل الإمام عليه السلام في دوره هذا ـ على ما قيل ـ ميدان الجهاد «والجهاد باب من أبواب الجنَّة» فانضم إلى المجاهدين حيث اتجهت ألويتهم الفاتحة إلى احتلال أفريقية، سنة ست وعشرين من الهجرة[1] وتذكر المجاهدون في حفيد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شخصية جده، فأبلوا بلاءاً حسناً حتى فتح الله على أيديهم وبعدما وضعت الحرب أوزارها اتجه الحسن عليه السلام إلى عاصمة جده صلى الله عليه وآله وسلم والنصر حليفه وقلبه مفعم بالسرور والارتياح لتوسع النفوذ الإسلامي وانتشار دين جده، ولما كانت سنة ثلاثين من الهجرة اتجهت الجيوش الإسلامية الفاتحة والتي يرفّ النصر عليها إلى احتلال طبرستان فانضم الحسن عليه السلام إليها[2] وببركته فتح الله على أيديهم ورفّ لواء الإسلام عليها، ففي سبيل المصلحة العامة وخدمة الدِّين اللذين هما فوق سائر الاعتبارات دخل الإمام الحسن عليه السلام في ميدان الجهاد والكفاح، وألقى الستار على ما يكنه في نفسه من الاستياء على ضياع حقّ أبيه، وهو درس رائع يجب أن تستفيد منه الأحزاب السياسية القائمة في البلاد من أنَّ العنعنات الحزبية يجب أن تلغى أمام صالح البلاد والمجتمع.

وساس عثمان الأُمَّة حفنة من السنين فكانت سياسته بعيدة كلّ البعد عن سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الشيخين وبعيدة كل البعد عن روح ذلك العصر لأنَّها لم تتفق من الناحية الدِّينيَّة والاجتماعية لذلك كتب لها الفشل والخذلان، وسبب ذلك يرجع إلى عدم قدرة الخليفة على إدارة شؤون الأُمَّة وعجزه من الناحية الإدارية، وضعف إرادته ضعفاً يلمس في كافة أعماله.

---

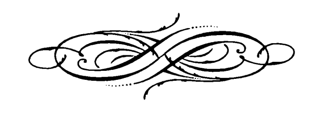
(١) العبر: ج٢، ص١٢٨ و١٢٩ لابن خلدون.

(٢) تأريخ الأمم والملوك: ج٥، ص٥٧ و٥٨، العبر: ج٢، ص١٣٤.

ما قاله الإمام الحسن عليه السلام عندما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة:

بادر إليه الإمام الحسن عليه السلام إلى أبو ذرّ فصافحه وودعه، وألقى عليه كلمات تنمُّ عن قلب موجع لهذا الفراق قائلاً: «يا عماه، لولا أنَّه ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدُّنيا بتذكُّر فراغها، وشدَّة ما اشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيك، وهو عنك راضٍ...».

لقد أمره الإمام الحسن عليه السلام بالصبر على ما انتابه من الكوارث والخطوب التي صبَّها عليه القوم ليلقى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عنه راضٍ.



المثل العليا

توفرت في الإمام أبي محمد الصفات الرفيعة والمثل الكريمة، وتجسَّدت فيه طاقات الإسلام وعناصره ومقوماته، فهو بحكم قابلياته ونزعاته فذ من أفذاذ العقل الإنساني، ومثل من أمثلة التكامل البشري، وعظيم من عظماء الإسلام.

لقد بلغ الإمام الذروة في فضائله، ومآثره، وأصالة رأيه، وسمو تفكيره، وشدَّة ورعه، وسعة حلمه، ودماثة أخلاقه إلى غير ذلك من ملكاته التي كان بها موضع اعتزاز المسلمين وفخرهم، ونشير إلى بعضها:

إمامته:

ومن أبرز الصفات الماثلة فيه هي الإمامة وذلك لما تستدعيه من المثل والقابليات التي لا تتوفر إلاَّ عند من اصطفاه الله واختاره من بين عباده، وقد حباه تعالى بها، وأعلن ذلك الرسول الكريم بقوله فيه وفي أخيه: «الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا».

أخلاقه الرفيعة:

قد ذكر التأريخ بوادر كثيرة من مكارم أخلاقه نسوق بعضها وهي:

١ ـ إنَّه اجتاز على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الأرض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق، وهم يأكلون منها فدعوه إلى مشاركتهم فأجابهم إلى ذلك وهو يقول: «إنَّ الله لا يحب المتكبرين» ولما فرغ من تناول الطعام دعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم وأغدق عليهم بنعمه وإحسانه[١].

٢ ـ ومن آيات أخلاقه أنَّه مرَّ على صبيان يتناولون الطعام فدعوه لمشاركتهم فأجابهم إلى ذلك ثم حملهم إلى منزله فمنحهم ببرِّه ومعروفه وقال: «اليد لهم لأنَّهم لم يجدوا غير ما أطعموني ونحن نجد ممَّا أعطيناهم»[٢].

---

(١) أعيان الشيعة: ٤/ ٢٤.

(٢) الصبان المطبوع على هامش نور الأبصار: ص١٧٦.

٣ ـ ومن مكارم أخلاقه أنَّه كان يغضي عمَّن أساء إليه، ويقابله بالإحسان، فقد كانت عنده شاة فوجدها يوماً قد كسرت رجلها فقال عليه السلام لغلامه:

ـ من فعل هذا بها؟

ـ أنا.

ـ لم ذلك؟!

ـ لأجلب لك الهم والغم.

فتبسم عليه السلام، وقال له: لأسرك، فأعتقه وأجزل له في العطاء[١].

٤ ـ ومن عظيم أخلاقه أنَّه كان جالساً في مكان فأراد الانصراف منه فجاءه فقير فرحب به ولاطفه وقال له:

ـ إنَّك جلست على حين قيام منَّا أفتأذن لي بالانصراف؟؟

ـ نعم يابن رسول الله[٢].

٥ ـ واجتاز على الإمام شخص من أهل الشام ممَّن غذاهم معاوية بالكراهية والحقد على آل البيت فجعل يكيل للإمام السب والشتم، والإمام ساكت لم يرد عليه شيئاً من مقالته، وبعد فراغه التفت الإمام فخاطبه بناعم القول وقابله ببسمات فيَّاضة بالبشر قائلاً:

«أيُّها الشيخ: أظنك غريباً؟ لو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعاً أطعمناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك..» وما زال عليه السلام يلاطف الشامي بهذا ومثله ليقلع روح العداء والشر من نفسه حتى ذهل ولم يطق ردّ الكلام وبقي حائراً خجلاً كيف يعتذر للإمام، وكيف يمحو الذنب عنه؟ وطفق يقول: «الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء..»[٣].

كرمه وسخاؤه:

قد ذكر التأريخ بوادر كثيرة من كرمه وجوده نسوق إلى القراء بعضها:

١ ـ جاءه أعرابي سائلاً فقال عليه السلام: أعطوه ما في الخزانة، وكان فيها عشرة آلاف درهم فقال له الأعرابي: يا سيِّدي هلا تركتني أبوح بحاجتي، وأنشر مدحتي؟ فأجابه الإمام:

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي: ١/ ١٤٧.

(٢) تأريخ الخلفاء للسيوطي: ص٧٣.

(٣) مناقب ابن شهرآشوب: ٢/ ١٤٩، الكامل للمبرد: ١/ ١٩٠.

نحن أُناس نوالنا خضل | يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا | خوفاً على ماء وجه من يسل
لو علم البحر فضل نائلنا | لغاض من بعد فيضه خجل[١]

٢ ـ واجتاز عليه السلام على غلام أسود بين يديه رغيف يأكل منه لقمة ويدفع لكلب كان عنده لقمة أخرى.

فقال له الإمام:

ـ ما حملك على ذلك؟

ـ إنِّي لأستحيي أن آكل ولا أطعمه.

رأى الإمام فيه خصلة من أحب الخصال عنده، فأحب أن يجازيه على صنعه، ويقابل إحسانه بإحسان فقال له: لا تبرح من مكانك، ثم انطلق فاشتراه من مولاه واشترى الحائط[٢] الذي هو فيه فأعتقه، وملكه إيَّاه[٣].

٣ ـ واجتاز يوماً في بعض أزقة المدينة فسمع رجلاً يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانطلق إلى بيته، وأرسلها إليه بالوقت[٤].

٤ ـ وجاءه شخص يظهر الإعواز والحاجة فقال له عليه السلام ما هذا حق سؤالك، يعظم لدى معرفتي بما يجب لك، ويكبر عليَّ ويديَّ تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت منَّا الميسور، ورفعت عنَّا مؤونة الاحتفال والاهتمام فعلت، فأجابه الرجل: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله أقبل القليل وأشكر العطية، وأعذر على المنع، فأحضر عليه السلام وكيله وحاسبه وقال له: هات الفاضل، وكان الفاضل خمسين ألف درهم فدفعها إليه ولم يكتف عليه السلام بذلك بل قال لوكيله ما فعلت بالخمس مائة دينار التي عندك؟ فقال له: هي عندي، فأمره بإحضارها ثم دفعها إلى الرجل وهو يعتذر منه[٥].

٥ ـ ومن مكارمه عليه السلام أنَّه خرج هو وأخوه الحسين عليه السلام وابن عمهما عبد الله بن جعفر وافدين إلى بيت الله الحرام، وفي أثناء الطريق أصابهم جوع وعطش وقد سبقتهم

---

(١) أعيان الشيعة: ٤/ ٨٩ ـ ٩٠.
(٢) الحائط: البستان.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٣٨.
(٤) الطبقات الكبرى للشعراني: ١/ ٢٣.
(٥) دائرة المعارف للبستاني: ج٧، ص٣٩.

أثقالهم، فانعطفوا على بيت قد ضرب أطنابه في وسط تلك البيداء القاحلة، فلما وصلوا إلى البيت لم يروا فيه إلاَّ عجوزاً فطلبوا منها شراباً وطعاماً، فأجابت بما طبعت عليه نفس الكريم قائلة:

نعم.

إنَّها النفس التي جبلت على الخير وطبعت فيها الأريحية قدمت في سبيل العز والمجد كل ما تملك، لم يك عند العجوز سوى شاة هي كل ما تملك ممَّا أظلته الخضراء وأقلته الغبراء، فتقدَّمت وبيدها الشاة قائلة لهم:

دونكم هذه الشاة فاحلبوها واشربوا لبنها، فلما فعلوا ذلك تقدَّمت إليهم مرَّة أخرى قائلة:

أقسم عليكم إلاَّ ما ذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم الحطب لشيها، ففعلوا ذلك وهيأت العجوز الحطب، وبعد الفراغ من تناول الطعام عزموا على الرحيل فتقدموا إليها وعرفوها بشخصياتهم ليجازوها على صنعها خيراً إن رجعوا إلى وطنهم، قائلين:

«يا أمة الله إنَّا نفر من قريش نريد حجَّ بيت الله الحرام، فإذا رجعنا سالمين فهلمي إلينا لنكافئك على هذا الصنع الجميل».

ثم انصرفوا لشأنهم، ولما عنَّ غياب القرص عن السماء أقبل رب البيت على عادته فأخبرته العجوز بالقصة، فاستولى عليه الغضب، ذلك لأنَّ الشاة هي مصدر القوت وإدرار الرزق عليهم، فقال لها: ويحك أتذبحين الشاة لأُناس لا تعرفينهم؟ ثم تقولين إنَّهم نفر من قريش.

وطوى الدهر عجلته فمضت سنة وأقبلت أخرى فاعترت البادية أزمة شديدة لأنَّ السماء قد منعتها قطرها حتى قلصت موارد العيش وانعدمت أسباب القوت، فرحلا عن البادية ونزلا المدينة، ولم يجدا عملاً يحيطان به خبراً سوى التقاط البعر من الطرقات والشوارع، فاتخذا ذلك مهنة لهما، وفي يوم من الأيام وهما على عملهما أرادت السعادة أن تحنو عليهما فلمح الحسن عليه السلام العجوز فعرفها، وقد حلَّ وفاء الدَّين، والمعروف في ذمة الأحرار دين فأمر عليه السلام غلامه أن يأتي بها إليه، فلما مثلت بين يديه قال عليه السلام لها:

أتعرفيني يا أمة الله؟

ـ لا..

ـ أنا أحد ضيوفك يوم كذا سنة كذا.

ـ لست أعرفك.

ـ إن لم تعرفيني فأنا أعرفك، ثم أمر عليه السلام غلامه فاشترى لها من غنم الصدقة ألف شاة وأعطاها ألف دينار، ثم أمر عليه السلام غلامه أن يذهب بها إلى أخيه الحسين عليه السلام ويعرفه بها، فأخذها الغلام فلما دخلت عرفها الحسين عليه السلام، فقال للغلام: كم أعطاها أخي؟ فأخبره الغلام بعطائه، فأوصلها عليه السلام بمثل ذلك، ثم بعث الحسين بها إلى عبد الله بن جعفر، فلما دخلت عليه عرفها، فأمر لها بألفي شاة وألفي دينار فأخذت ذلك جميعاً وانصرفت[1].

٦ ـ ومن آيات مكارمه عليه السلام أنَّه اشترى حائطاً من الأنصار بأربعمائة ألف فبلغه أنَّه قد احتاجوا إلى ما في أيدي الناس فردَّه إليهم[2].

٧ ـ ومن مكارمه عليه السلام أنَّ جارية حيته بطاقة من ريحان، فقال عليه السلام لها: أنت حرة لوجه الله، فلامه أنس على ذلك، فأجابه عليه السلام: أدَّبنا الله فقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ وكان أحسن منها إعتاقها[3].

٨ ـ ومن مكارمه عليه السلام أنَّ مروان بن الحكم قال: إنِّي لمشغوف ببغلة الحسن بن علي فمن يأتيني بها؟

فانبرى إليها ابن أبي عتيق قائلاً: أنا آتيك بها لكن بشرط أن تقضي لي ثلاثين حاجة؟

قال: ألتزم لك بذلك.

فقال ابن أبي عتيق لمروان: إذا اجتمع الناس عندك العشية فإنِّي آخذ في مآثر قريش وأمسك عن الحسن فلمني على ذلك، فلما اجتمع الناس أخذ ابن أبي عتيق في مآثر قريش وسكت عن ذكر فضائل الإمام الحسن عليه السلام، فقال له مروان ألا تذكر أولية أبي محمد، وله في هذا ما ليس لأحد منَّا، فقال ابن أبي عتيق: إنَّما كنَّا في ذكر الأشراف ولو كنَّا في ذكر الأنبياء لذكرنا فضائل أبي محمد، ولما خرج الإمام عليه السلام تبعه ابن أبي عتيق فلما نظر إليه الحسن عليه السلام تبسم وعرف الغاية من مديحه فقال عليه السلام له: ألك حاجة؟ فقال: نعم ذكرت البغلة، فنزل عليه السلام عنها ودفعها إليه[4].

٩ ـ ومن جوده عليه السلام أنَّ رجلاً سأله أن يعطيه شيئاً فقال له عليه السلام: إنَّ المسألة لا

---

(١) إحياء العلوم للغزالي: ٣/١٧٣.

(٢) الصبان: ص١٧٦.

(٣) المناقب: ٢/٢٣.

(٤) الكامل للمبرد: ٢/١٣.

تصلح إلاً في غرم فادح[١] أو فقر مدقع أو حمالة مفظعة[٢] فقال ما جئت إلاً في إحداهن، فأمر عليه السلام له بمائة دينار، ثم انعطف الرجل نحو الحسين عليه السلام فسأله مثل سؤال أخيه فأعطاه مائة دينار سوى دينار لأنَّه كره أن يساوي أخاه في عطائه وانعطف الرجل بعد ذلك إلى عبد الله بن عمر فسأله فأعطاه سبعة دنانير، فقال الرجل لعبد الله: إنِّي أتيت الحسن والحسين وحكى له ما جرى له معهما فقال ابن عمر: ويحك أنَّى تجعلني مثلهما؟! إنَّهما غرا العلم[٣]، غرا المال[٤].

١٠ ـ ومن مكارمه عليه السلام أنَّه ما اشترى من أحد حائطاً ثم افتقر البائع إلاً وردَّه عليه وأردفه بالثمن معه[٥].

١١ ـ وجاءه فقير يشكو حاله ولم يك عنده عليه السلام في ذلك اليوم شيء فعز عليه الأمر واستحى من ردِّه فقال عليه السلام له: إنِّي أدلك على شيء يحصل لك منه الخير، فقال الفقير: يابن رسول الله ما هو؟! قال عليه السلام: إذهب إلى الخليفة فإنَّ ابنته قد توفيت وانقطع عليها وما سمع من أحد تعزية بليغة فعزه بهذه الكلمات يحصل لك منه الخير، قال: يابن رسول الله حفظني إيَّاها، قال عليه السلام قل له: الحمد لله الذي سترك بجلوسك على قبرها ولم يهتكها بجلوسها على قبرك، وحفظ الفقير هذه الكلمات وجاء إلى الخليفة فعزاه بها، فذهب عنه حزنه وأمر له بجائزة وقال له: أكلامك هذا؟

قال: لا، وإنَّما هو كلام الإمام الحسن.

قال الخليفة: صدقت فإنَّه معدن الكلام الفصيح وأمر له بجائزة أخرى[٦].

عبادته وتقواه:

قد حدث الرواة عن مدى طاعته فقالوا: إنَّه لم ير في وقت من الأوقات إلاً وهو يلهج بذكر الله[٧]، وأنَّه إذا ذكر الجنَّة والنار اضطرب اضطراب السليم[٨] فسأل الله الجنَّة

---

(١) الغرم الفادح: هو الدين الثقيل.
(٢) الحمالة: بالفتح هو ما يتحمله الشخص من الدية والغرامة عن قومه، المفظعة الشيء الشديد.
(٣) غرا العلم أي ألقما العلم ومنه حديث معاوية كان النبي يغر علياً بالعلم.
(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة: ٣/ ١٤٠.
(٥) الطبقات الكبرى للشعراني: ١/ ٢٣.
(٦) نور الأبصار: ص١١١.
(٧) أمالي الصدوق: ص١٠٨.
(٨) السليم: من لسعة العقرب.

وتعوَّذ من النار، وإذا ذكر الموت وما يعقبه من البعث والنشور بكى بكاء الخائفين والمنيبين[١] وإذا ذكر العرض على الله شهق شهقة يغشى عليه منها[٢]، وكان من أشد المعتبرين بالموت فإذا حضر جنازة ظهرت عليه السكينة أياماً، وإذا مات في جواره ميت سمع منه النحيب والبكاء كما يسمع من دار الميت[٣].

بعض مظاهر عبادته:

١ ـ وضوؤه وصلاته:

كان الإمام إذا أراد الوضوء تغيَّر حاله، وداخله خوف عميق حتى يصفر لونه وترتعد فرائصه، وسئل عن سِّر ذلك فقال: «حقّ على من وقف بين يدي ربّ العرش أن ترتعد فرائصه، ويصفر لونه. . .».

وإذا فرغ من الوضوء وأراد الدخول إلى المسجد رفع صوته قائلاً: «إلٰهي: ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء، فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم»[٤].

وإذا أقبل على صلاته بدا عليه الخضوع والخشوع، وظهر عليه الخوف حتى ترتعد جميع فرائصه وأعضائه[٥] وإذا فرغ من صلاة الفجر لا يتكلَّم إلاَّ بذكر الله حتى تطلع الشمس[٦].

٢ ـ حجّه:

ومن مظاهر عبادته وعظيم إخلاصه وطاعته لله تعالى أنَّه حجَّ بيت الله الحرام خمساً وعشرين حجَّة ماشياً على قدميه وكانت النجائب[٧]، تقاد بين يديه وسئل عن كثرة حجّه ماشياً فأجاب: «إنِّي أستحي من ربِّي أن لا أمضي إلى بيته ماشياً على قدمي»[٨].

---

(١) أعيان الشيعة: ٤/ ١١.
(٢) أمالي الصدوق: ص١٠٨.
(٣) مجموعة ورام: ص٣١٧.
(٤) البحار: ١٠/ ٩٣.
(٥) أمالي الصدوق: ص١٠٨.
(٦) البحار: ١٠/ ٩٣.
(٧) النجائب: جمع، مفرده نجيبة وهي الفاضل من الحيوانات وفي بعض المصادر الجنائب لتفاد بين يديه.
(٨) أعيان الشيعة: ٤/ ١١.

٣ ـ تلاوته للقرآن:

كان الإمام يتلو الذِّكر الحكيم تلاوة إمعان وتدبُّر فلا يمرُّ بآية تشتمل على نداء المؤمنين إلاَّ قال: لبَّيك اللَّهم لبَّيك[١]. وكان يقرأ في كل ليلة سورة الكهف[٢].

٤ ـ التصدق بأمواله:

وقدم الإمام في سبيل مرضاة الله كل غال ونفيس، فقد خرج عن جميع ما يملك مرتين، وشاطر الله أمواله ثلاث مرَّات حتى أعطى نعلاً وأمسك أخرى[٣].

زهده:

ورفض الإمام جميع مباهج الحياة، وزهد في ملاذها ونعيمها، واتجه إلى الدار الآخرة التي أعدها الله لمتقين من عباده، وقد تحدث عليه السلام عن عزوفه عن الدُّنيا، واقتناعه بالقليل منها يقول:

لكسرة من خسيس الخبز تشبعني   وشربة من قراح الماء تكفيني
وطرة من دقيق الثوب[٤] تسترني   حياً وإن مت تكفيني لتكفيني[٥]

ورسم على خاتمه بيتين من الشعر يلمس فيهما مدى زهده وهما:

قدِّم لنفسك ما استطعت من التقى   إنَّ المنية نازل بك يا فتى
أصبحت ذا فرح كأنَّك لا ترى   أحباب قلبك في المقابر والبلى[٦]

وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها   إنَّ اغتراراً بظل زائل حمق[٧]

وممَّا ينسب له في ذم المغرور في الدُّنيا والمفتون بحبها قوله:

قل للمقيم بغير دار إقامة   حان الرحيل فودع الأحبابا

---

(١) أمالي الصدوق: ص١٠٨.
(٢) تأريخ ابن كثير: ٨/٣٧.
(٣) أسد الغابة: ٢/١٣.
(٤) الدقيق: الحقير من الثياب.
(٥) البحار: ١٠/٩٤.
(٦) تأريخ ابن عساكر: ٤/٢١٩.
(٧) الفصول المهمة لابن الصباغ: ص١٦٢.

إنَّ الـذيـن لـقـيـتـهـم وصـحـبـتـهـم   صـاروا جـمـيـعـاً فـي الـقـبـور تـرابـا[١]

ومن مظاهر زهده ما حدث به مدرك بن زياد قال: كنَّا في حيطان ابن عباس فجاء الحسن والحسين، وابنا العباس فطافوا في تلك البساتين ثم جلسوا على ضفاف بعض السواقي، فقال الحسن: يا مدرك، هل عندك غذاء؟ فقلت له: نعم، ثم انطلقت فجئته بخبز وشيء من الملح مع طاقتين من بقل فأكل منه، وقال: يا مدرك ما أطيب هذا؟

وجيء بعد ذلك بالطعام وكان في منتهى الحسن والجودة فالتفت عليه السلام إلى مدرك وأمره بأن يجمع الغلمان ويقدِّم لهم الطعام، فدعاهم مدرك فأكلوا منه ولم يأكل الإمام منه شيئاً فقال له مدرك: لماذا لا تأكل منه؟ فقال عليه السلام: إنَّ ذاك الطعام أحب عندي[٢].

هيبته ووقاره:

قد حدث واصل بن عطاء قال: «كانت على الحسن سيماء الأنبياء وبهاء الملوك»[٣].

وقال ابن الزبير: «والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي في هيبته وسمو منزلته»[٤].

وبلغ من عظيم هيبته أنَّه كان يفرش له على باب البيت فإذا خرج وجلس انقطع الطريق لأنَّه لا يمرُّ أحد إلاَّ جلس إجلالاً وإكباراً له، فإذا علم ذلك قام ودخل البيت[٥].

ومن عظيم هيبته وسمو مكانته في نفوس المسلمين أنَّه ما اجتاز مع أخيه على ركب في حال سفرهما إلى بيت الله الحرام ماشيين إلاَّ ترجل ذلك الركب تعظيماً وإكباراً لهما حتى ثقل المشي على جماهير الحجَّاج فكلَّموا سعد بن أبي وقاص في ذلك فبادر إلى الإمام وقال له:

«يا أبا محمد، إنَّ المشي قد ثقل على الحجَّاج لأنَّهم إذا رأوكما لم تطب نفوسهم بالركوب، فلو ركبتما رحمة لهم..».

---

(١) المناقب: ٢/ ١٤٥.
(٢) تأريخ ابن عساكر: ٤/ ٢١٢.
(٣) أعيان الشيعة: ٤/ ١٢، المناقب.
(٤) تأريخ ابن كثير: ٨/ ٣٧.
(٥) أعلام الورى في أعلام الهدى: ص١٢٥.

فأجابه الإمام بما ينمُّ عن نفس قد عاهدت الله أن تبذل في مرضاته كل غال ونفيس قائلاً:

«لا نركب فقد عاهدنا الله أن نؤم بيته ماشيين، ولكن نتنكب الطريق..»[١].

وسار عليه السلام في بعض طرق يثرب وقد لبس حلة فاخرة، وركب بغلة فارهة، ووجهه الشريف يشرق حسناً وجمالاً، وقد حفَّت به خدمه، وحاشيته فرآه بعض أغبياء اليهود فبادر إليه وقال له:

يابن رسول الله عندي سؤال؟

ـ ما هو؟

ـ إنَّ جدك رسول الله ﷺ يقول: الدُّنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر، فأنت المؤمن وأنا الكافر، وما الدُّنيا إلاَّ جنَّة لك تتنعم فيها، وتستلذ بها وأنت مؤمن، وما أراها إلاَّ سجناً قد أهلكني حرها وأجهدني فقرها؟

ـ لو نظرت إلى ما أعد الله لي وللمؤمنين في الدار الآخرة ممَّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر لعلمت أنِّي قبل انتقالي إليها وأنا في هذه الحالة في سجن، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك ولكل كافر في دار الآخرة من سعير نار جهنم، ونكال العذاب الأليم المقيم لرأيت قبل مصيرك إليه أنَّك في جنَّة واسعة ونعمة جامعة[٢].

فصاحته وبلاغته:

وجَّه الإمام علي عليه السلام إلى الحسن أسئلة تعلق بأُصول الأخلاق والفضائل، فأجابه عليه السلام بما هو عفو البداهة والخاطر فكان الجواب آية من آيات البلاغة والإعجاز:

الإمام علي: يا بني ما السداد؟

الحسن: يا أبت السداد دفع المنكر بالمعروف.

ـ ما الشرف؟

ـ اصطناع العشيرة وحمل الجريرة.

ـ ما المروءة؟

(١) المناقب: ٢/١٤٢.

(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ: ص١٦١.

ـ العفاف وإصلاح المرء ماله.

ـ ما الدنيئة؟

ـ النظر في اليسير ومنع الحقير.

ـ ما اللوم؟

ـ احتراز المرء نفسه وبذله عرسه.

ـ ما السماحة؟

ـ البذل في العسر واليسر.

ـ ما الشح؟

ـ أن ترى ما في يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً.

ـ ما الإخاء؟

ـ الوفاء في الشِّدَّة والرخاء.

ـ ما الجبن؟

ـ الجرأة على الصديق والنكول عن العدو.

ـ ما الغنيمة؟

ـ الرغبة في التقوى والزهادة في الدُّنيا.

ـ ما الحلم؟

ـ كظم الغيظ وملك النفس.

ـ ما الغنى؟

ـ رضى النفس بما قسم الله وإن قلّ فإنَّما الغنى غنى النفس.

ـ ما الفقر؟

ـ شره النفس في كل شيء.

ـ ما المنعة؟

ـ شدة البأس ومقارعة أشد الناس.

ـ ما الذل؟

ـ الفزع عند المصدوقية.

ـ ما الجرأة؟

ـ موافقة الأقران.

ـ ما الكلفة؟

ـ كلامك فيما لا يعنيك.

ـ ما المجد؟

ـ أن تعطي في الغرم وأن تعفو عن الجرم.

ـ ما العقل؟

ـ حفظ القلب كل ما استرعيته.

ـ ما الحزق؟

ـ معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك.

ـ ما الثناء؟

ـ إتيان الجميل وترك القبيح.

ـ ما الحزم؟

ـ طول الأناة[١] والرفق بالولاة والاحتراس من الناس بسوء الظن هو الحزم.

ـ ما الشرف؟

ـ موافقة الإخوان.

ـ ما السفه؟

ـ اتباع الدناة ومصاحبة الغواة.

ـ ما الغفلة؟

ـ تركك المسجد وطاعتك المفسد.

ـ ما الحرمان؟

ـ تركك حظك وقد عرض عليك.

ـ ما السيِّد؟

ـ الأحمق في ماله المتهاون في عرضه، يشتم فلا يجيب، المحتزم[٢] بأمر عشيرته هو السيِّد[٣].

---

(١) الأناة: الوقار والحلم والانتظار.

(٢) وفي رواية المهتم بأمر عشيرته.

(٣) تأريخ ابن كثير: ج٨، ص٣٩.

مكارم الأخلاق:

قال جابر: سمعت الحسن عليه السلام يقول: مكارم الأخلاق عشرة، صدق اللِّسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافاة بالصنائع، وصلة الرحم، والتذمم[١] على الجار، ومعرفة الحق للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء[٢].

والتفت معاوية يوماً إلى الإمام عليه السلام قال له: يا أبا محمد ثلاث خلال لم أجد من يجيبني عنها!!!

ـ ما هي؟

ـ المروءة، الكرم، النجدة.

ـ أما (المروءة) فإصلاح الرجل أمر دينه وحسن قيامه على ماله وإفشاء السلام والتحبب إلى الناس.

(الكرم) العطية قبل السؤال، والتبرع بالمعروف والإطعام في المحل.

(النجدة) الذب عن الجار، والمحامات في الكريهة، والصبر عند الشدائد.

وجاء إليه شخص فقال: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله من أحسن الناس؟

ـ من أشرك الناس في عيشه.

ـ من أشر الناس؟

ـ من لا يعيش في عيشه أحد[٣].

الجرائم الأخلاقية:

قال عليه السلام: هلاك الناس في ثلاث: الكبر، الحرص، الحسد.

«الكبر» به هلاك الدِّين، وبه لعن إبليس.

«الحرص» عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنَّة.

«الحسد» رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل[٤].

---

(١) التذمم: مأخوذ من أذمه أي أجاره وأخذه تحت حمايته.
(٢) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠١.
(٣) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠٢.
(٤) نور الأبصار: ص١١٠.

التحريض على طلب العلم:

قال عليه السلام لبنيه: «تعلَّموا العلم فإنَّكم صغار القوم، وكبارهم غداً، ومن لم يحفظ منكم فليكتب»[١].

وقال عليه السلام: «علم الناس، وتعلم علم غيرك فتكون قد اتقنت علمك وعلمت ما لم تعلم»[٢].

وقال عليه السلام: «حسن السؤال نصف العلم»[٣].

فضل العقل:

قال عليه السلام: «لا أدب لمن لا عقل له، ولا مودَّة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل، وبالعقل تدرك سعادة الدارين، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً»[٤].

فضل القرآن الكريم:

قال عليه السلام: «إنَّ هذا القرآن فيه مصابيح النُّور، وشفاء الصدور، فليجل جال بضوئه، وليلجم[٥] الصفة قلبه، فإنَّ التفكير حياة القلب البصير كما يمشي المستنير في الظُّلمات بالنُّور»[٦].

الدُّعاء:

قال عليه السلام: «ما فتح الله عزَّ وجلَّ على أحد باب مسألة فخزن[٧] عنه باب الإجابة، ولا فتح على رجل باب عمل فخزن عنه باب القبول، ولا فتح لعبد باب شكر فخزن عنه باب المزيد»[٨].

---

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ: ص١٤٢.
(٢) الاثني عشرية: ص٣٧.
(٣) نور الأبصار: ص١١٠.
(٤) أعيان الشيعة: ٨٨/٤.
(٥) لجم: أي شدّ.
(٦) كشف الغمة: ص١٧١.
(٧) خزن: أغلق وسد.
(٨) أعيان الشيعة: ٨٨/٤.

السياسة:

سأله شخص عن رأيه في السياسة؟ فقال عليه السلام: «هي أن ترعى حقوق الله، وحقوق الأحياء، وحقوق الأموات. فأما حقوق الله فأداء ما طلب، والاجتناب عمَّا نهى. وأما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر عن خدمة أُمَّتك، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأُمَّته، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوي. وأما حقوق الأموات فهي أن تذكر خيراتهم، وتتغاضى عن مساوئهم فإنَّ لهم رباً يحاسبهم»[1].

وقال له معاوية: ما يجب لنا في سلطاننا؟

الإمام: ما قال سليمان بن داود!!

معاوية: وما قال سليمان؟

الإمام: إنَّه قال لبعض أصحابه، أتدري ما يجب على الملك في ملكه وما لا يضره إذا أدَّى الذي عليه منه، إذا خاف الله في السِّر والعلانية وعدل في الغضب والرِّضا، وقصد في الفقر والغنى، ولم يأخذ الأموال غصباً، ولم يأكلها إسرافاً وتبذيراً، ولم يضره ما تمتع به من دُنياه إذا كان من خلته[2].

الصديق والصاحب:

قال عليه السلام: ألا أخبركم عن صديق كان لي من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظم به في عيني صغر الدُّنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يتشهى ما لا يحل ولا يكنز إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يمد يداً إلاَّ على ثقة لمنفعة، كان لا يتشكى ولا يتبرم، كان أكثر دهره صامتاً فإذا قال بذ[3] القائلين، كان ضعيفاً مستضعفاً فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً، كان إذا جامع العلماء على أن يسمع أحرص منه على أن يقول، كان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت كان لا يقول ما يفعل ويفعل ما لا يقول كان إذا عرض له أمران لا يدري أيهما أقرب إلى الحق

---

(١) مجلة العرفان الجزء الثالث المجلد الأربعون ص٢٥٤ نقلاً عن المجلد التاسع من التذكرة المعلوفية.
(٢) تأريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٢.
(٣) بذ: أي تفوق وغلب.

نظر أقربهما من هواه فخالفه كان لا يلوم أحداً على ما قد يقع العذر في مثله، كان لا يقول حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً[١].

وقال عليه السلام لبعض ولده: يا بني لا تواخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره القريب من قربته المودة والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه.

وسأله رجل أن يكون صديقاً له وجليساً، فقال له عليه السلام: إيَّاك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك، أو تكذبني فإنَّه لا رأي لمكذوب، أو تغتاب عندي أحداً، فقال الرجل: إئذن لي في الانصراف قال له: نعم إذا شئت[٢].

السخاء والمعروف:

كان عليه السلام يطوف في بيت الله الحرام فسأله رجل عن معنى الجواد فقال له: إنَّ لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق فإنَّ الجواد الذي يؤدِّي ما افترض عليه، والبخيل الذي يبخل بما افترض عليه، وإن كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد إن منع لأنَّه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له وإن منع منع ما ليس له[٣].

وقال عليه السلام: المعروف ما لم يتقدمه مطل ولا يتبعه منّ، والإعطاء قبل السؤال من أكبر السؤدد[٤].

البخل:

قال عليه السلام: **البخل جامع للمساوىء والعيوب، وقاطع للمودات من القلوب.**

وسئل عليه السلام عن البخل فقال: **هو أن يرى الرجل ما أنفقه تلفاً وما أمسكه شرفاً**[٥].

التواضع:

قال عليه السلام: **أعرف الناس بحقوق إخوانه وأشدهم قضاءاً لها أعظمهم عند الله شأناً، ومن تواضع في الدُّنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام**[٦].

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة: ج٢، ص٥٥.
(٢) تحف العقول: ص٥٥.
(٣) مجمع البحرين: مادة جود.
(٤) أعيان الشيعة: ج٤، ص٨٨.
(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب: ج٣، ص٣٩٨.
(٦) مجموعة ورام: ص٣١٢.

التوكل على الله:

قيل له عليه السلام: إنَّ أبا ذر كان يقول الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحبّ إليَّ من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول من اتكل على حسن اختيار الله لم يتمن أنّه في غير الحالة التي اختارها الله له[١].

تقوى الله:

قال عليه السلام: إنَّ الله لم يخلقكم عبثاً وليس بتارككم سدى، كتب آجالكم وقسم بينكم معائشكم ليعرف كل ذي منزلة منزلته وإنَّ ما قدر له أصابه وما صرف عنه فلن يصيبه قد كفاكم مؤونة الدُّنيا وفرغكم لعبادته وحثّكم على الشكر وافترض عليكم الذِّكر وأوصاكم بالتقوى وجعل التقوى منتهى رضاه، والتقوى باب كل توبة، ورأس كل حكمة وشرف كل عمل بالتقوى فاز من فاز من المتقين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ وقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فاتقوا عباد الله واعلموا أنَّ من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ويسدِّده في أمره ويهيأ له رشده، ويفلحه بحجته ويبيض وجهه ويعطيه رغبته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشُّهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً[٢].

الوعظ والإرشاد:

قال عليه السلام: يابن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً وارض بما قسم الله تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلاً، إنَّه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيراً ويبنون مشيداً ويأملون بعيداً أصبح جمعهم بوراً وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً، يابن آدم إنَّك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أُمّك، فجد بما في يديك فإنَّ المؤمن يتزود والكافر يتمتع وكان يتلو عقيب كلامه هذا، قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[٣][٤].

وقال عليه السلام: اتقوا عباد الله وجدّوا في الطلب وتجاه الهرب وبادروا العمل قبل مقطعات النقمات وهادم اللذات، فإنَّ الدُّنيا لا يدوم نعيمها ولا تؤمن فجيعتها ولا تتوقى

(١) تأريخ ابن كثير: ج٨، ص٣٩.
(٢) تحف العقول: ص٥٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٧.
(٤) نور الأبصار: ص١١٠.

في مساويها، غرور حائل، وسناد مائل فاتعظوا عباد الله بالعبر واعتبروا بالأثر وازدجروا بالنعم وانتفعوا بالمواعظ، فكفى بالله معتصماً ونصيراً وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً وكفى بالجنَّة ثواباً وكفى بالنار عقاباً ووبالاً[١].

وعزى عليه السلام رجلاً قد مات بعض ذويه فقال له: **إن كانت هذه المصيبة أحدثت لك موعظة وكسبتك أجراً فهو، وإلاَّ فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ميتك**[٢].

وجاءه رجل من الأثرياء فقال له: يابن رسول الله إنِّي أخاف من الموت!!!

فقال له عليه السلام: **ذاك لأنَّك أخرت مالك ولو قدمته لسرَّك أن تلحق به**[٣].

ومرَّ عليه السلام على قوم يلعبون ويضحكون في يوم عيد الفطر فوقف عليه السلام والتفت إليهم قائلاً: **إنَّ الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته فسبق قوم ففازوا، وقصر آخرون فخابوا، فالعجب كل العجب من ضاحك لاعب في اليوم الذي يُثاب فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون، وأيم الله لو كشف الغطاء لعلموا أنَّ المحسن مشغول بإحسانه والمسيء مشغول بإساءته**، ثم تركهم عليه السلام وانصرف[٤].

وقال عليه السلام: **أوصيكم بتقوى الله وإدامة التفكُّر فإنَّ التفكُّر أبو كل خير وأمه.**

وقال عليه السلام: **من عرف الله أحبَّه ومن عرف الدُّنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل وإذا تفكَّر حزن**[٥].

ومرَّ عليه السلام على ميت يُراد دفنه فقال: **إنَّ امرأً هذا آخره لحقيق بأن يزهد في أوَّله، وإنَّ امرأً هذا أوَّله لحقيق أن يخاف من آخره**[٦].

وقال عليه السلام: **الناس في دار سهو وغفلة يعملون ولا يعلمون فإذا صاروا إلى دار الآخرة صاروا إلى دار يقين يعلمون ولا يعملون**[٧].

طلب الرزق:

قال عليه السلام: **لا تجاهد الطلب جهاد الغالب ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم فإنَّ**

---

(١) كذا وجد في تحف العقول: ص٥٦.
(٢) مجموعة ورام: ص٤١١.
(٣) تأريخ اليعقوبي: ج٢، ص٢٠٢.
(٤) جامع السعادات: ج٣، ص٣٧٦.
(٥) مجموعة ورام: ص٣٧.
(٦) المحاسن والمساوىء للجاحظ: ص٢٥٦.
(٧) الاثني عشرية: ص٣٧.

ابتغاء الفضل من السُّنَّة والإجمال في الطلب من العفة وليست العفة بدافعة رزقاً ولا الحرص بجالب فضلاً فإنَّ الرزق مقسوم واستعمال الحرص استعمال المآثم[١].

المساجد:

قال عليه السلام: من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثمان خصال: آية محكمة، وأخاً مستفاداً، وعلماً مستطرفاً، ورحمة منتظرة، وكلمة تدله على هدى أو تردعه عن ردى، وترك الذُّنوب حياءً أو خشية[٢].

آداب المائدة:

قال عليه السلام: غسل اليدين قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي الهم[٣].

وقال عليه السلام: في المائدة اثنتا عشرة خصلة يجب على كل مسلم أن يعرفها، أربع فيها فرض، وأربع سُنَّة، وأربع تأديب.

الفرض: المعرفة، الرِّضا، التسمية، الشكر.

السُّنَّة: الوضوء قبل الطعام، الجلوس على الجانب الأيسر، الأكل بثلاثة أصابع، ولعق الأصابع.

التأديب: الأكل ممَّا يليك، تصغير اللقمة، تجويد المضغ، قلَّة النظر في وجوه الناس[٤].

ولاء أهل البيت:

قال له رجل: يابن رسول الله إنِّي من شيعتكم!!!

فقال عليه السلام: يا عبد الله إن كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت، وإن كنت بخلاف ذلك فلا تزد في ذنوبك بدعواك مرتبة شريفة لست من أهلها، لا تقل أنا من شيعتك، ولكن قل أنا من مواليكم ومحبيكم ومعادي أعدائكم وأنت في خير وإلى خير[٥].

---

(١) تحف العقول: ص٥٥.
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة: ج٣، ص٣.
(٣) الاثني عشرية: ص٣٧.
(٤) مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار: ج٢، ص٢٧١.
(٥) مجموعة ورام: ص٣٠١.

كلماته الحكمية القصار:

- فضح الموت الدُّنيا[(١)].
- كن في الدُّنيا ببدنك وفي الآخرة بقلبك.
- اجعل ما طلبت من الدُّنيا فلم تظفر به بمنزلة ما لم يخطر ببالك.
- ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم.
- إنَّ من طلب العبادة تزكى لها.
- المزاح يأكل الهيبة وقد أكثر من الهيبة الصامت.
- تجهل النعم ما أقامت فإذا ولت عرفت.
- الوعد مرض في الجود والإنجاز دواؤه.
- المسؤول حر حتى يعد ومسترق بالوعد حتى ينجز.
- لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واجعل بينهما للاعتذار طريقاً.
- قطع العلم عذر المتعلمين.
- اليقين معاذ السلامة.
- لا يغش العاقل من استنصحه.
- إذا أضرت النوافل بالفريضة فاتركوها.
- الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود.
- وسأله شخص عن الصمت؟ فقال عليه السلام: هو ستر العَي وزين العرض وفاعله في راحة وجليسه في أمن.
- فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها.
- أشد من المصيبة سوء الخلق.
- من تذكر بُعد السفر إعتدَّ.
- القريب من قربته المودة وإن بعد نسبه، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه.
- وقال عليه السلام لرجل قد برىء من مرضه: إنَّ الله قد ذكرك فاذكره وأقالك فاشكره.
- إن لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه ممَّا تكره فلا تطعها فيما تحملك عليه ممَّا تهوى.

---

(١) مجموعة ورام: ص٢٠١.

ـ من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه.

ـ العار أهون من النار.

ـ قال عليه السلام لأصحابه: هل رأيتم ظالماً أشبه بمظلوم؟ قالوا: وكيف ذاك يابن رسول الله؟!!

ـ قال: الحاسد، فإنَّه في تعب ومن حسده في راحة.

ـ مروءة القناعة والرِّضا أكثر من مروءة الإعطاء.

ـ تمام الصنيعة خير من ابتدائها.

نظمه للشعر:

أما نظم الإمام عليه السلام للشعر فقليل وقد تقدَّمت في بحوث هذا الكتاب أبيات نسبت له ولكن ابن رشيق قد عدَّ الإمام عليه السلام من الشعراء واستشهد له ببيت واحد كان الإمام قد أنشده وهو مختضب بالسواد فقال عليه السلام:

نسود أعلاها وتأبى أُصولها فليت الذي يسود منها هو الأصل[1]

وجاء في أعيان الشيعة أنَّه عليه السلام قال في الوعظ:

ذرى كدر الأيام إنَّ صفاءها تولى بأيام السرور الذواهب
وكيف يغر الدهر من كان بينه وبين الليالي محكمات التجارب

وجاء في المناقب أنَّه عليه السلام قال:

لئن ساءني دهر عزمت تصبراً وكل بلاء لا يدوم يسير
وإن سرني لم أبتهج بسروره وكل سرور لا يدوم حقير

---

(١) العمدة: ج١، ص٢١.

في عهد الإمام علي عليه السلام

وصاياه لولده الحسن:

وللإمام أمير المؤمنين وصايا تربوية لولده الحسن حافلة بالقيم العليا والمثل الإنسانية الكريمة ونسوق إلى القراء بعضاً من فصولها:

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ(١)، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً، إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ(٢)، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ(٣)، وَعَبْدِ الدُّنْيَا وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الْآفَاتِ(٤)، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ(٥)، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ(٦)، وَالِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي(٧)، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ(٨)، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ، وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ

---

(١) المعترف له بالشِّدَّة.
(٢) يؤمل البقاء وهو ممَّا لا يدركه أحد.
(٣) هدفها رتمي إليه سهامها. والرهينة المرهونة أي أنَّه في قبضتها وحكمها. والرمية ما أصابه السهم.
(٤) من قولهم فلان نصب عيني بالضم أي لا يفارقني. والصريع: الطريح.
(٥) جموح الدهر: استعصاؤه وتغلبه.
(٦) ما مفعول تبينت.
(٧) من أمر الآخرة.
(٨) صدفه: صرفه، والضمير في صرفني للرأي. ومحض الأمر: خالصه.

الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ[١] كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ ـ أَيْ بُنَيَّ ـ وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ؟

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ[٢]، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا، وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ، خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ[٣]، وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ[٤]، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَ عَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ، وَأَلْجِىء نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ[٥]، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ، وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ الِاسْتِخَارَةَ[٦] وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً[٧]، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَاعْلَمْ: إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ[٨].

---

(١) مفعول كتب هو قوله فإنَّ أوصيك إلخ. وقوله مستظهراً به: أي مستعيناً بما أكتب إليك على ميل قلبك وهوىٰ نفسك.

(٢) أطلب منه الإقرار بالفناء. وبصره: أي اجعله بصيراً بالفجائع جمع فجيعة: وهي المصيبة تفزع بحلولها.

(٣) باين: أي باعد وجانب الذي يفعل المنكر.

(٤) الغمرات: الشدائد.

(٥) الكهف: الملجأ. والحريز: الحافظ.

(٦) الاستخارة إجالة الرأي في الأمر قبل فعله لاختيار أفضل وجوهه.

(٧) صفحاً: أي جانباً أي لا تعرض عنها.

(٨) لا يحِقُّ بكسر الحاء وضمها أي لا يكون من الحقّ كالسحر ونحوه.

أَيْ بُنَيَّ! إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِناً(١)، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا، قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي، دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي(٢)، وَأَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي(٣)، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى، وَفِتَنِ الدُّنْيَا(٤)، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ، وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ(٥)، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلاَجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ(٦).

أَيْ بُنَيَّ! إِنِّي وَ إِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ، قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ(٧) وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ(٨)، أَنْ يَكُونَ(٩) ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الإِسْلاَمِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلاَلِهِ وَحَرَامِهِ، لاَ أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ(١٠).

---

(١) أي وصلت النهاية من جهة السِّن. والوهن: الضعف.
(٢) أفضي: ألقي إليك.
(٣) وإن أنقص عطف على أن يعجل.
(٤) أي يسبقني بالاستيلاء على قلبك غلبات الأهواء فلا تتمكن نصيحتي من النفوذ إلى فؤادك فتكون كالفرس الصعب غير المذلل. والنفور ضد الأنس.
(٥) ليكون جدّ رأيك أي محققه وثابته مستعداً لقبول الحقائق التي وقف عليها أهل التجارب وكفوك طلبها. والبغية ـ بالكسر ـ: الطلب.
(٦) استبان: ظهر إذا انضمَّ رأيه إلى آراء أهل التجارب فربَّما يظهر له ما لم يكن ظهر لهم فإنَّ رأيه يأتي بأمر جديد لم يكونوا أتوا به.
(٧) النخيل: المختار المصفى. وتوخيت: أي تحريت.
(٨) أجمعت: عزمت. عطف على يعني الوالد.
(٩) أن يكون مفعول رأيت.
(١٠) لا أتعدى بك كتاب الله إلى غيره بل أقف بك عنده.

ثُمَّ أَشْفَقْتُ[١] أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ، مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ[٢]، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ[٣]، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ: إِنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي، تَقْوَى اللَّهِ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ[٤]، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ، وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ[٥]، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ.

فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ.

وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ[٦]، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ[٧].

فَتَفَهَّمْ ـ يَا بُنَيَّ ـ وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ[٨]، وَالِابْتِلَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا

---

(١) أشفقت أي خشيت وخفت.
(٢) مثل: صفة لمفعول مطلق محذوف أي التباساً مثل الذي كان لهم.
(٣) أي أنّك وإن كنت تكره أن ينبهك أحد لما ذكرت لك، فإنْ أعدَّ اتّقان التنبيه على كراهتك له، أحبُّ إليَّ من إسلامك أي إلقائك إلى أمر أخشى عليك به الهلكة.
(٤) لم يتركوا النظر لأنفسهم بما عرفوا حسن عاقبته، وإمساك أنفسهم عن عمل لم يكلفهم الله إتيانه.
(٥) الشائبة: ما يشوب الفكر من شكّ وحيرة. وأولجتك: أدخلتك.
(٦) العشواء: الضعيفة البصر أي تخبط خبط عشواء لا تأمن أن تسقط فيما لا خلاص منه وتورط الأمر: دخل فيه على صعوبة في التخلص منه.
(٧) حبس النفس عن الخلط والخبط في الدّين أحسن.
(٨) لا تثبت الدُّنيا إلّا على ما أودع الله في طبيعتها من التلون بالنعماء تارة، والاختبار بالبلاء تارة وإعقابها للجزاء في المعاد يوم القيامة على الخير خيراً وعلى الشّرّ شرّاً.

لَا تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ بِهِ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ، وَرَزَقَكَ، وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ[١].

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ: أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ، فَارْضَ بِهِ رَائِداً[٢]، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً[٣]، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنِ اجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ: إِنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَداً، وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلٌ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ[٤]، وَآخِرٌ بَعْدَ الأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ، عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ، فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ[٥]، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وعَظِيم حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالرَّهْبَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ.

يَا بُنَيَّ! إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا، وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا، وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ، وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الأَمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا، إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا[٦]: كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيباً، وَجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ[٧]، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ المَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلِّهِمْ.

---

(١) شفقتك: أي خوفك.

(٢) الرائد: من ترسله في طلب الكلأ ليتعرف موقعه. والرسول قد عرف عن الله وأخبرنا فهو رائد سعادتنا.

(٣) لم أقصر في نصيحتك.

(٤) فهو أوّل بالنسبة إلى الأشياء لكونه قبلها إلّا أنّه لا أولية أي لا ابتداء له.

(٥) خطره: أي قدره.

(٦) خبر الدُّنيا: عرفها كما هي بامتحان أحوالها. والسفر - بفتح السكون - المسافرون. ونبا المنزل بأهله: لم يوافقهم المقام فيه لوخامته. والجديب: المقحط لا خير فيه. وأموا: قصدوا. والجناب: الناحية. والمريع - بفتح فكسر - كثير العشب.

(٧) وعثاء السفر: مشقته. والجشوبة - بضم الجيم -: الغلظ، أو كون الطعام بلا أدم.

وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا: كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ، وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ، مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ[(١)]، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

يَا بُنَيَّ! إِجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِي مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ[(٢)]، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

وَاعْلَمْ: إِنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ[(٣)]، فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ[(٤)]، وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ[(٥)]، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

وَاعْلَمْ: إِنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ[(٦)]، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الِارْتِيَادِ[(٧)]، وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً، حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ[(٨)]، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

وَاعْلَمْ: إِنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً[(٩)]، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِئُ

---

(١) هجم عليه: انتهى إليه بغتة.

(٢) إذا عاملوك بمثل ما تعاملهم فارض بذلك، ولا تطلب منهم أزيد ممّا تقدّم لهم.

(٣) الإعجاب: استحسان ما يصدر عن النفس مطلقاً، وهو خلق من أعظم الأخلاق مصيبة على صاحبه، ومن أشدّ الآفات ضرراً لقلبه.

(٤) الكدح: أشدّ السعي.

(٥) لا تحرص على جمع المال ليأخذه الوارثون بعدك بل أنفق فيما يجلب رضاء الله عنك.

(٦) هو طريق السعادة الأبدية.

(٧) الارتياد: الطلب. وحسنه: إتيانه من وجهه. والبلاغ ـ بالفتح ـ: الكفاية.

(٨) الفاقة: الفقر، وإذا أسعفت الفقراء بالمال كان أجر الإسعاف وثوابه ذخيرة تنالها في القيامة، فكأنّهم حملوا عنك زاداً يبلغك موطن سعادتك يؤدّونه إليك وقت الحاجة. وهذا الكلام من أفصح ما قيل في الحثّ على الصدقة.

(٩) صعبة المرتقى. والمخف ـ بضم فكسر ـ: الذي خفّف حمله، والمثقل بعكسه، وهو من أثقل ظهره بالأوزار.

عَلَيْهَا أَقْبَحُ حالًا مِنَ الْمُسْرِعِ، وَإِنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ، أَوْ عَلَى نَارٍ فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ[١]، وَوَطِّىءِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ[٢]، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

وَاعْلَمْ: إِنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ[٣] وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً[٤]، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ وَبَابَ الِاسْتِعْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاءَكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ[٥] فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ[٦]، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ[٧]، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ، ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ، بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ[٨]، فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ[٩] فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ، عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ.

---

(١) أبعث رائداً من طيّبات الأعمال توقفك الثقة به على جودة المنزل.

(٢) المستعتب والمنصرف مصدران، والاستعتاب: الاسترضاء، والإنصراف إلى الدُّنيا بعد الموت حتَّى يمكن استرضاء الله بعد إغضابه باستئناف العمل.

(٣) الإنابة: الرجوع إلى الله، يعبر الراجع إليه برجوعه.

(٤) نزوعك: رجوعك.

(٥) المناجاة: المكالمة سِرّاً. والله يعلم السِّرّ كما يعلم العلن.

(٦) أفضيت: ألقيت. وأبثثته: كاشفته. وذات النفس: حالتها.

(٧) طلبت كشفها.

(٨) الشؤبوب ـ بالضم ـ: الدفعة من المطر، وما أشبه رحمة الله بالمطر ينزل على الأرض الموات فيحييها، وما أشبه نوباتها بدفعات المطر.

(٩) القنوط: اليأس.

وَاعْلَمْ: يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ(١)، وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ، وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

يَا بُنَيَّ! أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَ قَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ(٢)، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ(٣)، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا(٤)، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللَّهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا(٥)، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضاً(٦)، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ(٧)، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا(٨)، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا، سُرُوحُ عَاهَةٍ(٩) بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا(١٠)، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ(١١)، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ(١٢)، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ،

---

(١) قُلْعةٌ ـ بضم القاف وسكون اللام، وبضمتين، وبضم ففتح، يُقال منزل قلعة أي لا يملك لنازله، أو لا يدري متى ينتقل عنه. والبلغة: الكفاية أي دار تؤخذ منها الكفاية للآخرة.

(٢) الحذر ـ بالكسر ـ الاحتراز والاحتراس. والأرز ـ بالفتح ـ: القوَّة.

(٣) بهر ـ كمنع ـ: غلب، أي يغلبك على أمرك.

(٤) إخلاد أهل الدُّنيا: سكونهم إليها. والتكالب: التواثب.

(٥) نعاه: أخبر بموته. والدُّنيا تخبر بحالها عن فنائها.

(٦) ضارية: مولعة بالإفتراس. يهر ـ بكسر الهاء وضمها ـ: أي يمقت ويكره بعضها بعضاً.

(٧) عقل البعير ـ بالتشديد ـ: شدّ وظيفه إلى ذراعه. والنعم ـ بالتحريك ـ الإبل، أي إبل منعها عن الشّر عقالها وهم الضعفاء، وأُخرى مهملة تأتي من السوء ما تشاء وهم الأقوياء.

(٨) أضلّت: أضاعت عقولها وركبت طريقها المجهول لها.

(٩) السُّروح ـ بالضم ـ: جمع سَرْح بفتح فسكون: وهو المال السائم من إبل ونحوها. والعاهة: الآفة، أي أنَّهم يسرحون لرعي الآفات وادي المتاعب. والوعث: الرخو يصعب السير فيه.

(١٠) أسام الدابة: سرحها إلى المرعى.

(١١) يسفر أي يكشف ظلام الجهل عمَّا خفي من الحقيقة عند انجلاء الغفلة بحلول المنية.

(١٢) الأظعان ـ جمع ظغينة ـ: وهو الهودج تركب فيه المرأة، عبَّر به عن المسافرين في طريق الدُّنيا إلى الآخرة كأنَّ حالهم أن وردوا على غاية سيرهم.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً[١].

وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ[٢]، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ، وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ، وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً[٣]، وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ، وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً، وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ[٤]، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ[٥].

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ[٦]، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ.

وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ، أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ[٧]، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ[٨]، وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ، خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ،

---

(١) الوداع: الساكن المستريح.

(٢) خفض: أمر من خفض ـ بالتشديد ـ أي رفق. وأجمل في كسبه، أي سعى سعياً جميلاً لا يحرص فيمنع الحق ولا يطمع فيتناول ما ليس بحق.

(٣) إنَّ رغائب المال إنَّما تطلب لصون النفس عن الابتذال، فلو بذل باذل نفسه لتحصيل المال فقد ضيع ما هو المقصود من المال فكان جمع المال عبثاً ولا عوض لما ضيع.

(٤) يريد أي خير في شيء سمَّاه الناس خيراً وهو ممَّا لا يناله الإنسان إلَّا بالشَّر، فإن كان طريقه شرّاً فكيف يكون هو خيراً؟.

(٥) إنَّ العسر الذي يخشاه الإنسان هو ما يضطرَّه لرذيل الفعال فهو يسعى كل جهده ليتحاشى الوقوع فيه فإن جعل الرذائل وسيلة لكسب اليسر: أي السعة فقد وقع أوَّل الأمر فيما يهرب منه فما الفائدة في يسره وهو لا يحميه من النقيصة.

(٦) توجف: تسرع. والمناهل: ما ترده الإبل ونحوها للشرب.

(٧) التلافي: التدارك لإصلاح ما فسد أو كاد. وما فرط: أي قصر عن إفادة الغرض أو إنالة الوطر. وإدراك ما فات هو اللحاق به لأجل استرجاعه، وفات أي سبق إلى غير صواب وسابق الكلام لا يدرك فيسترجع بخلاف مقصر السكوت فسهل تداركه، وإنَّما يحفظ الماء في القربة مثلاً بشدّ وكائها: أي رباطها، وإن لم يشدّ الوكاء صبَّ ما في الوعاء ولم يمكن إرجاعه فكذلك اللِّسان.

(٨) إرشاد للاقتصاد في المال.

وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ[١]، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ[٢]، مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ[٣]، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ، قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ، بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ، وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ، إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً[٤]، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَ الدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ[٥]، وَإِيَّاكَ وَالاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى[٦]، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ[٧]. بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً، لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ، وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ[٨]، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ، التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ، لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ[٩]، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ، سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ[١٠]، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ[١١].

إِحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ[١٢]، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ[١٣] وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ

---

(١) فالأولى عدم إباحته لشخص آخر وإلّا فشا.

(٢) قد يسعى الإنسان بقصد فائدته فينقلب سعيه بالضرر عليه لجهله أو سوء قصده.

(٣) أهجر إهجاراً وهجراً بالضم: هذا في كلامه. وكثير الكلام لا يخلو من الإهجار.

(٤) إذا كان المقام يلزمه العنف فيكون إبداله بالرفق عنفاً ويكون العنف من الرفق، وذلك كمقام التأديب وإجراء الحدود مثلاً. والخرق ـ بالضم ـ: العنف.

(٥) المستنصح ـ اسم مفعول ـ: المطلوب منه النصح فيلزم التفكُّر والتروي في جميع الأحوال لئلّا يروج غشّ أو تنبذ نصيحة.

(٦) المنى: جمع منية ـ بضم فسكون ـ ما يتمناه الشخص لنفسه ويعلل نفسه باحتمال الوصول إليه، وهي بضائع الموتى لأنَّ المتجر بها يموت ولا يصل إلى شيء، فإن تمنيت فاعمل لأمنيتك.

(٧) أفضل التجربة: ما زجرت عن سيئة، وحملت على حسنة، وذلك الموعظة.

(٨) زاد الصالحات والتقوى، أو المراد إضاعة المال مع مفسدة المعاد بالإسراف في الشهوات وهو أظهر.

(٩) مهين إمَّا بفتح الميم بمعنى حقير فإنَّ الحقير لا يصلح لأن يكون معيناً، أو بضمها بمعنى فاعل الإهانة فيعينك ويهينك فيفسد ما يصلح. والظنين بالظاء. المتهم: وبالضاد البخيل.

(١٠) القعود بالفتح من الإبل: ما يقتعده الراعي في كل حاجته، ويُقال للبكر إلى أن يثني وللفصيل، أي ساهل الدهر ما دام منقاداً وخذ حظك من قياده.

(١١) اللجاج ـ بالفتح ـ: الخصومة أي أحذرك من أن تغلبك الخصومات فلا تملك نفسك من الوقوع في مضارها.

(١٢) صرمه: قطيعته، أي ألزم نفسك بصلة صديقك إذا قطعك إلخ.

(١٣) جموده: بخله.

فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ، لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً، فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً.

وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً(١). وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ(٢) فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ(٣)، وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذٰلِكَ يَوْماً مَا(٤)، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ(٥)، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ، وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ(٦)، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ، وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ: إِنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ، مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ(٧)، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ(٨)، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ.

اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ، وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ، إِطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ، وَحُسْنِ الْيَقِينِ، مَنْ تَرَكَ

---

(١) المغبَّة ـ بفتحتين ثم باء مشدَّدة ـ: بمعنى العاقبة، وكظم الغيظ وإن صعب على النفس فيوقته إلَّا أنَّها تجد لذَّته عند الإفاقة من الغيظ، فللعفو لذَّة إن كان في محلّه، وللخلاص من الضرر المعقب لفعل الغضب لذَّة أخرى.

(٢) لِنْ: أمر من اللين ضد الغلظ والخشونة.

(٣) ظفر الانتقام التملّك بالإحسان، والثاني أحلى وأربح فائدة.

(٤) بقية من الصلة يسهل لك معها الرجوع إليه إذا ظهر له حسن العودة.

(٥) صدقه بلزوم ما ظنَّ بك من الخير.

(٦) مراده إذا أتى أخوك بأسباب القطيعة فقابلها بموجبات الصلة حتى تغلبه، ولا يصحّ أن يكون أقدر على ما يوجب القطيعة منك على ما يوجب القطيعة منك على ما يوجب الصلة، وهذا أبلغ قول في لزوم حفظ الصداقة.

(٧) منزلتك من الكرامة في الدُّنيا والآخرة.

(٨) تفلّت ـ بتشديد اللام ـ أي تملص من اليد فلم تحفظه، فالذي يجزع على ما فاته كالذي يجزع على ما لم يصله، والثاني لا يحصر فينال فالجزع عليه غير لائق فكذا الأوَّل.

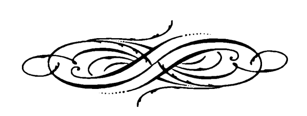
الْقَصْدَ جَارَ[(١)] وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ[(٢)]، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ[(٣)]، وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى[(٤)(٥)] وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ، مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ[(٦)] قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً، لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ، أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ[(٧)]، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ، مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ[(٨)]، لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ، إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ، سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ، إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ.

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ[(٩)]، وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ، بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ[(١٠)]، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ، وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ[(١١)]، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا، وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ[(١٢)]، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ.

---

(١) القصد: الاعتدال. وجار: مال عن الصواب.
(٢) يراعي فيما يراعي في قرابة النسب.
(٣) الغَيب: ضد الحضور: أي من حفظ لك حقّك وهو غائب عنك.
(٤) الهوىٰ: شهوة غير منضبطة ولا مملوكة بسلطان الشرع والأدب. والعناء: الشقاء.
(٥) وفي نسخة: والهوى شريك العمى.
(٦) لم يبالك أي لم يهتم بأمرك. باليته وباليت به: أي راعيت واعتنيت به.
(٧) لأنَّ فرص الشَّر لا تنقضي لكثرة طرقه، وطريق الخير واحد وهو الحق.
(٨) من هاب شيئاً سلَّطه على نفسه.
(٩) الأفَن ـ بالتحريك ـ: ضعف الرأي. والوهَن: الضعف.
(١٠) أي إذا أدخلت على النِّساء من لا يوثق بأمانته فكأنَّك أخرجتهن إلى مختلط العامة فأي فرق بينهما؟.
(١١) القهرمان: الذي يحكم في الأمور ويتصرف فيها بأمره. ولا تعد ـ بفتح فسكون ـ أي لا تجاوز بإكرامها نفسها فتكرم غيرها بشفاعتها. أين هذه الوصية من حال الذين يصرفون النِّساء في مصالح الأمَّة، بل ومن يختص بخدمتهن كرامة لهن!!.
(١٢) التغاير: إظهار الغيرة على المرأة بسوء الظَّنّ في حالها من غير موجب.

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ[١]، وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ، اسْتَوْدِعِ اللَّهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ، وَالْآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ».



(١) يتواكلوا: يتكل بعضهم على بعض.

في البصرة

أبناء الحسن:

وبعث الإمام ولده الحسن ومعه عمار بن ياسر وأرسل معه رسالة فيها عزل أبي موسى عن منصبه وتعيين قرضة بن كعب في وظيفته، وهذا نص رسالته:

«أما بعد: فقد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر الذي لم يجعل الله لك نصيباً منه، بمنعك عن رد أمري، وقد بعثت الحسن بن علي وعمار بن ياسر يستفزان الناس، وبعثت قرضة بن كعب والياً على المصر فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، فإن لم تفعل فإنّي قد أمرته أن ينابذك..».

ووصل الإمام الحسن إلى الكوفة فالتأم حوله الناس زمراً، وهم يعربون له الانقياد والطاعة، ويظهرون له الولاء والإخلاص، وأعلن الإمام الحسن بالوقت عزل الوالي المتمرد عن منصبه، وتعيين قرضة في محله، ولكن أبا موسى بقي مصمماً على مكره وغيه، فقد أقبل على عمار بن ياسر يحدِّثه في أمر عثمان عله أن يجد في حديثه فرجة فيتهمه بدم عثمان ليتخذ من ذلك وسيلة إلى خذلان الناس عن الإمام فقال له:

«يا أبا اليقظان، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار؟».

فأجابه عمار: «لم أفعل ولمَ تسؤني؟».

وعرف الحسن غايته فقطع حبل الجدال وقال له: «يا أبا موسى، لمَ تثبط عنَّا الناس؟».

وأقبل الإمام الحسن يحدِّثه برفق ولين ليقلع روح الشر والعناد من نفسه قائلاً: «يا أبا موسى.. والله ما أردنا إلاَّ الإصلاح، وليس مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء..».

فبهت أبو موسى، وضاقت به مكابرته، وطغيانه فقال للإمام: «صدقت بأبي أنت وأمِّي!... ولكن المستشار مؤتمن..».

ـ نعم.

ـ سمعت رسول الله يقول: إنَّها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب!. وقد جعلنا الله عزَّ وجلَّ إخواناً وحرم علينا أموالنا ودماءنا، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[١] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾[٢]....

فانبرى إليه عمار فردَّ عليه أباطيله وخداعه قائلاً: «أنت سمعت هذا من رسول الله؟..».

ـ «نعم وهذه يدي بما قلت».

فالتفت عمار إلى الناس قائلاً:

«إنَّما عنى رسول الله بذلك أبا موسى، فهو قاعد خير منه قائم؟..».

ولم يجد كلام عمار ولا ترفق الحسن، وطول صبره وعظيم حلمه مع هذا الجلف المتمرد الذي لا يخضع لغير الشدة والقسر، فقد بقي شديد الإصرار على ما هو عليه من تثبيط عزائم الناس وخذلانهم من الخروج مع الإمام.

وأخذ سبط النبي يوقظ الهمم، ويبعث النشاط في النُّفوس ويحفزها للجهاد، وخطب فيهم قائلاً: «أيُّها الناس.. قد كان في مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما قد بلغكم، وقد أتيناكم مستنصرين لأنَّكم جبهة الأنصار، ورؤوس العرب وقد كان من طلحة والزبير بعد بيعتهما وخروجهما بعائشة ما قد بلغكم. وتعلمون أنَّ وهن النساء وضعف رأيهن إلى التلاشي، ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء، وأيم الله لو لم ينصره منكم أحد لرجوت أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية، فانصروا الله ينصركم..».

وقام عمار فأخذ يحفز الناس للجهاد ويبيِّن لهم حقيقة الحال في شأن عثمان قائلاً: «يا أهل الكوفة.. إن غابت عنكم أنباؤنا فقد انتهت إليكم أمورنا جعلوا كتاب الله بينهم وبين محاجتهم فيه أحيى الله من أحيى، وأمات من أمات، وإنَّ طلحة والزبير كانا أول من طعن وآخر من أمر، وكانا أول من بايع، فلما أخطأهما ما أملا نكثا بيعتهما من غير

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٣.

حدث!.. وهذا ابن بنت رسول الله قد عرفتموه وقد جاء يستنصركم، وقد دلكم علي في المهاجرين والبدريين والأنصار الذين تبؤوا الدار والإيمان..».

وقام على أثرهما قيس بن سعد فجعل يدعوهم إلى القيام بالواجب ونصرة أمير المؤمنين قائلاً: «.. إنَّ الأمر لو استقبلنا به أهل الشورى لكان علي أحق الناس به، وكان قتال من أبى حلالاً فكيف والحجَّة على طلحة والزبير، وقد بايعاه طوعاً، وخالفاه حسداً وقد جاءكم علي في المهاجرين والأنصار». ثم أنشأ يقول:

رضينا بقسم اللّه إذ كان قسمنا ... علياً وأبناء الرسول محمد
وقلنا لهم أهلاً وسهلاً ومرحبا ... نمدُّ يدينا من هوى وتودُّد
فما للزبير الناقض العهد حرمة ... ولا لأخيه طلحة اليوم من يد
أتاكم سليل المصطفى ووصيه ... وأنتم بحمد اللّه عار من الهد[1]
فمن قائم يرجى بخيل إلى الوغا ... وصم العوالي والصفيح المهند
يسود من أدناه غير مدافع ... وإن كان ما نقضيه غير مسود
فإن يأتي ما نهوى فذاك نريده ... وإن نخط ما نهوى فغير تعمد[2]

وقد بقي أبو موسى مصراً على طغيانه يثبط عزائم الناس، ويدعوهم إلى التخاذل وعدم الإجابة لنصرة الإمام، وقد جعل كلَّما سمعه من الحسن ومن الخطباء دبر أذنيه حتى أعيى الإمام الحسن حلمه فاندفع يصيح به في ثورة وعنف قائلاً له:

«اعتزل عملنا أيُّها الرجل، وتنح عن منبرنا لا أم لك!».

وأخذ الحسن يجد في تحفيز الناس للجهاد ويحثّهم على الخروج لنصرة أبيه، وقد قام فيهم خطيباً فقال لهم:

«أيُّها الناس.. أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنَّه سيوجد إلى هذا الأمر من ينفر إليه، والله لئن يليه أولو النهي أمثل في العاجل والآجل وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما أبتلينا به وابتليتم، وإنَّ أمير المؤمنين يقول: قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً وإنّي أذكر الله رجلاً رعى حقَّ الله إلاَّ نفر، فإن كنت مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً أخذ. والله إنَّ طلحة والزبير لأوَّل من بايعني، وأوَّل من

(١) الهد: الضعيف والجبان.
(٢) الغدير: ٢/ ٧٧.

غدر فهل استأثرت بمال أو بدلت حكماً، فانفروا وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر . . ».

فأجابه الناس بالسمع والطاعة والامتثال والانقياد لأمره، والإجابة لدعوته، ولكن الزعيم مالك الأشتر رأى أنَّ الأمر لا يتم إلاَّ بإخراج أبي موسى مهان الجانب محطم الكيان، فأقبل مع جماعة من قومه فأحاطوا بالقصر فلما نظر إليهم غلمانه أقبلوا يشتدون إلى أبي موسى وقد خيم عليهم الخوف والذعر فقالوا له:

«يا أبا موسى، هذا الأشتر قد دخل القصر فضربنا وأخرجنا».

فنزل الوغد من القصر وقد استولى عليه الذهول فصاح به الأشتر:

«أخرج من قصرنا لا أم لك . . ».

وتردَّد الأشعري برهة فصاح به مالك ثانياً:

«أخرج . . أخرج الله نفسك!. فوالله إنَّك لمن المنافقين!».

ونطق الأشعري بصوت واهن ضعيف.

ـ أجلني هذه العشية.

ـ هي لك، ولا تبيتن في القصر الليلة . .

ودخلت الجماهير تنهب أمتعته وأمواله، ولكن الأشتر لم يتنكر لعدوه المهزوم فقد وقف معه موقف الكريم النبيل فحال وبين الجماهير وبين ما ابتغوه من نهبه والتنكيل به، فقال لهم:

«إنِّي أجلته الليلة وقد أخرجته فكفوا عنه».

فكفت الناس عنه، وفي الصباح خرج الباغي الأثيم وهو يجر سرابيل الخزي والخيانة، وقد صفا الجو للإمام الحسن، وأقبل يتحدث إلى الناس بالخروج قائلاً:

«أيُّها الناس. إنِّي غاد، فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر[١] ومن شاء فليخرج في الماء . . ».

واستجابت الجماهير لدعوة الإمام فلما رأى ذلك قيس بن سعد غمرته الأفراح والمسرات وأنشأ يقول:

جزى اللّه أهل الكوفة اليوم نصرة أجابوا ولم يأبوا بخذلان من خذل
وقالوا! علي خير حاف وناعل رضينا من ناقضي العهد من بدل

---

(١) أي على الدواب.

هـمـا أبـرزا زوج الـنـبـي تـعـمـدا يسوق بها الحادي المنيخ على جمل
فـمـا هـكـذا كـانـت وصـاة نـبـيـكـم وما هكذا الإنصاف أعظم بذا المثل
فـهـل بـعـد هـذا مـن مـقـال لـقـائـل ألا قـبـح الـلّـه الأمـانـي والـعـلـل[1]

وعجَّت الكوفة بالنفار فقد نزحت منها آلاف كثيرة، فريق منها ركب السفن، وفريق آخر ركب المطي، وقد بدا عليهم الرِّضا والقبول وقد ساروا وهم تحت قيادة الحسن فانتهوا إلى ذي قار وقد التقوا بالإمام أمير المؤمنين حيث كان مقيماً هناك فسَّر بنجاح ولده، وشكر له جهوده ومساعيه النبيلة.

خطاب ابن الزبير:

وكان عبد الله بن الزبير من أشد المحرضين إلى إثارة الفتنة، وإراقة الدماء، وقد أفسد جميع الوسائل التي صنعها أمير المؤمنين لتحقيق السلم، وقد خطب في جموع البصريين ودعاهم إلى الحرب ومناجزة الإمام وهذا نص خطابه:

«أيُّها الناس، إنَّ علي بن أبي طالب قتل الخليفة بالحق عثمان، ثم جهز الجيوش إليكم ليستولي عليكم، ويأخذ مدينتكم، فكونوا رجالاً تطلبون بثأر خليفتكم، واحفظوا حريمكم، وقاتلوا عن نسائكم وذراريكم وأحسابكم وأنسابكم، أترضون لأهل الكوفة أن يردوا بلادكم، اغضبوا فقد غوضبتم، وقاتلوا فقد قوتلتم، ألا وإنَّ علياً لا يرى معه في هذا الأمر أحداً سواه والله لئن ظفر بكم ليهلكن دينكم ودُنياكم.».

وحفل خطابه بالمغالطات والأكاذيب، وإثارة النعرات والعصبيات ضد أمير المؤمنين، وهو يعلم ـ من دون شك ـ كذب ما قاله ولكن نفسه سوَّلت له ذلك طمعاً بالإمرة والسلطان.

خطاب الحسن:

وبلغ الإمام أمير المؤمنين خطاب ابن الزبير فأوعز إلى ولده الحسن بالردِّ عليه فقام الحسن خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«قد بلغتنا مقالة ابن الزبير في أبي وقوله فيه: إنَّه قتل عثمان، وأنتم يا معشر المهاجرين والأنصار وغيرهم من المسلمين علمتم بقول الزبير في عثمان، وما كان اسمه

(١) الغدير: ٢/٧٦.

عنده، وما كان يتجنى عليه، وإنَّ طلحة يومذاك ركز رايته على بيت ماله وهو حي، فأنَّى لهم أن يرموا أبي بقتله وينطقون بذمه، ولو شئنا القول فيهم لقلنا.

وأما قوله: إنَّ علياً ابتز الناس أمرهم، فإنَّ أعظم حجَّة لأبيه زعم أنَّه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه، فقد أقر بالبيعة وادعى الوليجة فليأت على ما ادعاه ببرهان وأنَّى له ذلك؟

وأما تعجبه من تورد أهل الكوفة على أهل البصرة، فما عجبه من أهل حق توردوا على أهل باطل.

أما أنصار عثمان فليس لنا معهم حرب ولا قتال، ولكنَّنا نحارب راكبة الجمل وأتباعها..»[1].

واندفع عمرو بن أحيحة فأبدى إعجابه البالغ بخطاب الإمام فقال:

حسن الخير يا شبيه أبيه ... قمت فينا مقام خير خطيب
قمت بالخطبة التي صدع اللَّـ ... ـه بها عن أبيك أهل العيوب
وكشفت القناع فاتضح الأمر ... وأصلحت فاسدات القلوب
لست كابن الزبير لجلج في القو ... ل وطأطأ عنان فسل مريب
وأبى اللَّـه أن يقوم بما قا ... م ابن الوصي وابن النجيب
إنَّ شخصاً بين النبي ـ لك الخير ... ـ وبين الوصي غير مشوب[2]

لقد فنَّد الإمام أبو محمد مزاعم ابن الزبير وردَّ عليه أكاذيبه فإنَّ الذي أشعل نار الفتنة، على عثمان إنَّما هو الزبير وطلحة وعائشة، وليس للإمام أمير المؤمنين ضلع في ذلك.

إعلان الحرب:

ودعا الإمام بعد مقتل سفيره قادة جيشه فأقامهم على أماكنهم، وعبأ الجنود للحرب وقد رسم لهم خطة تمثَّلت فيها الفضيلة والرحمة والعدل فقد قال لهم:

«أيُّها الناس.. إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثِّلوا بقتيل ولا تهتكوا ستراً ولا تقربوا من أموالهم إلاَّ ما تجدونه في معسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله..».

---

(١) الجمل: ص١٥٨ ـ ١٥٩.
(٢) شرح النهج: ١/١٤٦، ط دار إحياء الكتب العربية.

واعتلت عائشة جملها المُسمَّى بعسكر، وقد ألبسوه المسوح، وجلود البقر، وجعلوا دونه اللبود[١].

ولها القيادة العامة فهي التي تنظم العساكر وتصدر الأوامر، ووجه جيشها النبل إلى معسكر الإمام فقتل بعض أصحابه، فلم يجد بعد ذلك بداً من الحرب فتقلد الإمام سيفه، ودفع الراية إلى ولده محمد وقال للحسن والحسين: إنَّما دفعت الراية إلى أخيكما وتركتكما لمكانكما من رسول الله وانطلق محمد إلى ساحة الوغى بعزم ثابت ونفس جياشة وهو يطلب الظفر والنصر، ولكن سهام القوم قد مطرت عليه من كلِّ جانب فتريث عن المسير برهة فلم يشعر إلاَّ ويد أبيه تدفعه من الخلف وهو يقول له بنبرات تقطر حماساً:

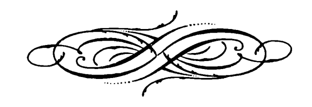
«أدركك عرق من أمك!».

ثم خطف الراية من يده وهزَّها في وجهه وهو يقول له:

اطعن بها طعن أبيك تحمد لا خير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرفي والقنا المسدد

لم يكن موقف محمد خوراً وجبناً وإنَّما هو من دهاء القائد المحنك الذي أراد أن يبلغ الغاية بعد أن تنكشف عنه سهام القوم، ولم يرد أمير المؤمنين بفعله إلاَّ ليرى أهل البصرة في بداية الحرب الحزم والعزم والبسالة لعلَّهم عن غيهم يرتدعون.

وحمل الإمام على القوم وقد رفع العلم بيسراه، وشهر في يمينه ذا الفقار الذي حارب به الملحدين والمشركين على عهد رسول الله واليوم يحارب به المارقين من الدِّين والمنحرفين عن الإسلام، واحتف به أعلام المهاجرين والأنصار فكان العدو أمام بواترهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.



(١) اللبود: ـ جمع مفردها اللبد ـ الكساء من الشعر، وبساط من الشعر.

في صفين

لقد انخذل المجتمع الإسلامي في حادثة صفين فلم يقرر مصيره الحاسم فأنتج ذلك خذلان الإمام أمير المؤمنين وإرغام الإمام الحسن من بعده على الصلح، وتسلم الأمويين لقيادة الحكم في البلاد فأمعنوا في قتل الأخيار ومطاردة المصلحين وإشاعة الظلم والجور في الأرض.

خطبة الإمام الحسن عليه السلام في صفين:

وأخذ الإمام الحسن يوقظ الهمم، ويبعث الحزم والنشاط في النُّفوس ويحثّها على الخروج لحرب معاوية كما فعل ذلك من قبل في معركة الجمل وقد قام خطيباً بين الجماهير يدعوهم إلى الجهاد وهذا نص خطابه:

«الحمد لله لا إلّه غيره، وحده لا شريك له، وأثنى عليه بما هو أهله»، ثم قال:

«إنَّ ممَّا عظم الله عليكم من حقّه، وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره، ولا يؤدَّى شكره، ولا يبلغه صفة ولا قول ونحن إنَّما غضبنا لله ولكم، فإنَّه منَّ علينا بما هو أهل أن نشكر فيه آلاءه وبلاءه ونعماءه، قولاً يصعد إلى الله فيه الرِّضا، وتنتشر فيه عارفة الصدق يصدق الله فيه قولنا، ونستوجب فيه المزيد من ربّنا، قولاً يزيد ولا يبيد، فإنَّه لم يجتمع قوم قطّ على أمر واحد إلاَّ اشتدَّ أمرهم، واستحكمت عقدتهم. فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده، فإنَّه قد حضر، ولا تخاذلوا فإنَّ الخذلان يقطع نياط القلوب، وإنَّ الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة لأنَّه لم يمتنع[1] قوم قطّ إلاَّ رفع الله عنهم العلَّة، وكفاهم جوائح[2] الذلة، وهداهم إلى معالم الملة»، ثم أنشد:

والصلح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع[3]

---

(١) الامتناع: العزة والقوَّة.
(٢) الجوائح: ـ جمع مفردة جائحة ـ وهي الدواهي والشدائد.
(٣) البيت للعباس بن مرداس السلمي كما في الخزانة: ٢/ ٨٢.

وحفل خطابه البليغ بالدعوة إلى الوحدة والتعاون، وبذل الجهود لمحاربة القوى الباغية، وقد استجاب الناس لدعوته فخفوا سراعاً لنصرة الحق والدفاع عن الإسلام.

الحسن مع عبيد الله:

حاول معاوية أن يلعب دوراً مع الإمام الحسن فبعث إليه عبيد الله بن عمر[١] يمنيه بالخلافة ويخدعه حتى يترك أباه فانطلق عبيد الله فقال له:

ـ لي إليك حاجة.

ـ نعم.. ما تريد؟

ـ إنَّ أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً، وقد شنئوه فهل لك أن تخلعه ونوليك هذا الأمر؟ نعم إنَّ الإمام قد وترهم ولكن في سبيل الإسلام فقد حاولوا لفّ لوائه، فناجزهم الإمام فقتل جبابرتهم، وأباد طغاتهم وهزم جموعهم، وهم من أجل ذلك يحملون له حقداً وعداءاً، ولما سمع الإمام مقالته صاح به وقد لذعته عقرب الخيانة فقال له:

«كلا والله لا يكون ذلك!!».

وألقى الإمام الحسن عليه نظرة غضب واستياء، وأخبره أنَّه سيلاقي حتفه عمَّا قليل فقال له:

«لكأنِّي أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك. أما أنَّ الشيطان قد زيَّن لك، وخدعك حتى أخرجك مخلقاً بالخلوق[٢] ترى نساء أهل الشام موقفك، وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلاً..».

ورجع عبيد الله إلى معاوية وهو خائب حسير وقد أخفق في مهمته وأخبره بحديث الإمام فقال معاوية متبهراً: «إنَّه ابن أبيه!!»[٣].

وخرج عبيد الله في ذلك اليوم إلى ساحة الحرب يُقاتل مع الجبهة المعادية للإسلام فلاقى حتفه سريعاً على يد فذ نبيل من همدان، واجتاز الإمام الحسن في ساحة المعركة فرأى رجلاً قد توسد رجلاً قتيلاً وقد ركَّز رمحه في عينه وربط فرسه في رجله، فقال الحسن لمن حوله: انظروا من هذا؟ فأخبروه أنَّ الرجل من همدان، وأنَّ القتيل

---

(١) عبيد الله بن عمر بن الخطاب ولد على عهد رسول الله ولم يروا عنه شيئاً، وهو الذي قتل الهزمزان وجفينة وقد توعده الإمام بإقامة الحد عليه إن ظفر به.

(٢) الخلوق: الطيب.

(٣) البحار.

عبيد الله بن عمر، فسَّر بذلك وقال مبتهجاً: الحمد لله على ذلك[1] وقد قضى عبيد الله نهايته الأخيرة وهو معاد لله ورسوله، وباغ على الإسلام، وخارج على إمام المسلمين.

خطاب الإمام الحسن:

ولما أذيع الخبر المؤلم بين العراقيين في خلع أبي موسى للإمام زادت الفتنة، وكثر الاختلاف والانشقاق بينهم، وجعل بعضهم يتبرأ من بعض ويشتم بعضهم بعضاً، ورأى الإمام أنَّ خطورة الموقف تقضي بأن يقوم نفر من أهل بيته فيخطب بين الناس ليوقفهم على حقيقة الحال ويبيِّن لهم فساد التحكيم، فقال للحسن: قم يا بني، فقل في هذين الرجلين عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص، فقام الحسن فاعتلى أعواد المنبر فقال:

«أيُّها الناس، قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنَّما بعثا ليحكما بالكتاب على الهوى، فحكما بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسم حكماً ولكنَّه محكوم عليه، وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمر فأخطأ في ثلاث خصال، واحدة أنَّه خالف (يعني أبا موسى) أباه (يعني عمر) إذ لم يرضه لها ولا جعله من أهل الشورى، وأخرى إنَّه لم يستأمره في نفسه، وثالثها إنَّه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس. وأما الحكومة فقد حكم النبي ﷺ سعد بن معاذ في بني قريظة فحكم بما يرضى الله به، ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله ﷺ»، ثم نزل عن منصة الخطابة.

لقد ذكر الحسن في خطابه الرائع أهم النقاط الحساسة التي هي محور النزاع ومصدر الفتنة فأشبعها بالتفصيل وبيَّن جلية الحال للجموع الحاشدة حتى لم يترك ثغرة ينفذ منها المتمردون إلاّ وسدَّها في وجوههم فأبان عليه السلام أنَّ المختار للتحكيم إنَّما يتبع قوله ويكون رأيه فيصلاً للخصومة فيما إذا حكم بالحق ولم يخضع للنزعات والأهواء الفاسدة، وأبو موسى لم يكن في تحكيمه هذا خاضعاً للحق بل اتبع هواه وميوله فرشح عبد الله بن عمر للخلافة مع أنَّ أباه كان لا يراه أهلاً لها ولو كان يراه أهلاً للخلافة لرشحه لها أو جعله من أعضاء الشورى مضى إلى أنَّ الشرط الأساسي في الانتخاب هو أن يجتمع على المنتخب المهاجرون والأنصار ولم يحصل ذلك له، وأعرب عليه السلام في خطابه عن مشروعية التحكيم الأمر الذي أنكرته الخوارج مستدلاً على ذلك بتحكيم

---

(١) وقعة صفين: ص٣٣٤.

النبي صلى الله عليه وآله لسعد بن معاذ في بني قريظة، ولو كان التحكيم غير مشروع لما ارتكبه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

المتارك الفظيعة:

وأعقبت حادثة صفين والنهروان أعظم المحن والمشاكل وأغرقت البلاد في الأحداث والخطوب، وقد أوجبت خذلان الإمام وولده الحسن في دوره، ونشير إلى بعضها:

١ ـ تمرد الجيش:

لقد مني الجيش العراقي عقيب الحادثتين بالانشقاق والتمرد، والضعف والسئم من الحرب وسبب ذلك يرجع إلى كثرة من قتل منهم.

٢ ـ فقده لأعلام أصحابه:

وفقد الإمام في صفين أهم أصحابه الذين يعتمد على إخلاصهم وإيمانهم بقضيته، وهم البقية الصالحة من المهاجرين والأنصار الذين ناضلوا عن كرامة الإسلام وشيدوا صروحه، ولو كانوا على قيد الحياة لما حدث التفكُّك في جيشه.

٣ ـ الاحتلال والغزو:

لقد درس معاوية نفسية الجيش العراقي ووقف على تخاذله وعدم انقياده للإمام فجعل يحتل الأقطار الإسلامية قطراً بعد قطر.

٤ ـ فتنة الخريت:

ولم يقف بلاء الإمام ومحنته في أصحابه، وخصمه معاوية إلى هذا الحد فقد تجاوز البلاء والشَّر إلى ما هو أعظم وأشد، تلك هي فكرة الخوارج التي لم يقض عليها يوم النهروان وإنَّما قضى على بعض معتنقيها وقد أخذت تتسع ويكثر أنصارها، وقد خلقوا أفظع المشاكل في الحقل الإسلامي فدعوا إلى التمرد على حكومة الإمام وكان من أهمهم هو الخريت[1].

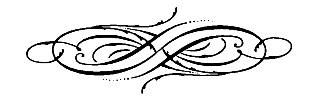
وهكذا أخذت الفتن تتسع وتتزايد في الحاضرة الإسلامية التي هي تحت سيطرة

---

(١) الخريت بن راشد الناجي، كان على مضر كلها يوم الجمل واستعمله عبد الله بن عامر على كورة من كور فارس، وكان مع الإمام حتى صار أمر الحكمين ففارقه إلى بلاد فارس مخالفاً. (الإصابة: ١/ ٤٢٢).

حكم الإمام حتى أوجبت خذلان الإمام وقتله وخذلان ولده الحسن في دوره وألحقت أضراراً كثيرة في المجتمع الإسلامي جعلته غارقاً في المآسي والشجون.

إنَّ حادثة صفين بما أعقبته من المتارك الفظيعة قد أوجبت تدهور المسلمين وانحطاطهم، وتغلب قوى البغي على قوى الحق والإسلام، ومهدت الطريق للأمويين أن يتحكموا في رقاب المسلمين، وأن يستأثروا بأموالهم وسائر إمكانياتهم، وأن يسعوا جاهدين في محاربة الإصلاح وسائر النزعات الخيرة حتى ضجَّ المسلمون من جورهم واستبدادهم وظلمهم.



مصرع الحق

الفاجعة الكبرى:

ولما أطل على الوجود شهر رمضان، أفضل الشهور، وأعظمها حرمة وقدراً عند الله حتى نسب إليه فقيل شهر الله، كان الإمام على علم بانتقاله إلى حظيرة القدس في ظرف هذا الشهر العظيم، فكان يتناول طعام الإفطار الليلة عند الحسن، وأخرى عند الحسين، ومرة عند عبد الله بن جعفر وهو لا يزيد في طعامه على ثلاث لقم، ويحدث عن السبب في قلَّة أكله قائلاً: «أحب أن يأتيني أمر الله، وأنا خميص البطن»[(١)].

ولما أقبلت الليلة الثامنة عشرة من شهر رمضان اضطرب الإمام أشد الاضطراب، فجعل يمشي في صحن الدار وهو محزون النفس خائر القوى ينظر إلى الكواكب ويتأمَّل فيها فيزداد همه وحزنه، وهو يقول متنبأ عن وقوع الحادث الخطير في تلك الليلة:

«ما كذبت، ولا كذبت، إنَّها الليلة التي وعدت فيها»[(٢)].

وبقي عليه السلام طيلة تلك الليلة، قلقاً حزيناً يناجي ربه ويطلب منه المغفرة والرضوان، ويتلو آي الذِّكر الحكيم، وقبل أن تشرق أنوار الفجر وينسلخ ظلام اللَّيل القاتم، أقبل فسبغ الوضوء، ولما عزم على الخروج من بيته إلى مناجاة الله وعبادته في بيته الكريم صاحت في وجهه وز[(٣)] كانت قد أهديت إلى الحسن، فتنبأ عليه السلام من صياحهن وقوع الحادث العظيم والرزء القاصم قائلاً:

«لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، صوائح تتبعها نوائح»[(٤)].

وأقبل الحسن وهو مضطرب من خروج أبيه في هذا الوقت الباكر فقال له:

ـ ما أخرجك في هذا الوقت؟

---

(١) تأريخ ابن الأثير: ج٣، ص١٦٨.

(٢) الصواعق: ص٨٠.

(٣) الوز: نوع من الطيور.

(٤) مروج الذهب: ج٢، ص٢٩١.

ـ رؤيا رأيتها في هذه الليلة أهالتني.

ـ خيراً رأيت، وخيراً يكون قصها عليَّ.

ـ رأيت جبرئيل قد نزل من السماء على جبل أبي قبيس، فتناول منه حجرين، ومضى بهما إلى الكعبة، فضرب أحدهما بالآخر فصارا كالرميم، فما بقي بمكة ولا بالمدينة بيت إلاَّ ودخله من ذلك الرماد شيء.

ـ ما تأويل هذه الرؤيا؟

ـ إن صدقت رؤياي، فإنَّ أباك مقتول، ولا يبقى بمكة ولا بالمدينة بيت إلاَّ ودخله الهم والحزن من أجلي.

فالتاع الحسن وذهل وانبرى قائلاً بصوت خافت حزين النبرات:

ـ متى يكون ذلك؟

ـ إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1] ولكن عهد إليَّ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه يكون في العشر الأواخر من شهر رمضان، يقتلني عبد الرحمن بن ملجم.

ـ إذا علمت ذلك فاقتله.

ـ لا يجوز القصاص قبل الجناية والجناية لم تحصل منه.

وأقسم الإمام على ولده الحسن أن يرجع إلى فراشه، فلم يجد الحسن بداً من الامتثال.

ولما انتهى الإمام إلى بيت الله، جعل على عادته يوقظ الناس لعبادة الله ومناجاته، وحينما فرغ من ذلك شرع في صلاته، وبينما هو ماثل بين يدي الخالق مشغول بذكر الله إذ هوى عليه اللعين ابن ملجم وضرب الإمام على رأسه، فصاح عليه السلام: «فزت وربّ الكعبة».

لقد فاز الإمام، وأي فوز أعظم من أن يذكر قريناً للحق والعدل وتذكر مبادؤه المقدَّسة أعجوبة لقادة الفكر الإنساني يسيرون على ضوئها للعمل في حقل الإصلاح، ولما وقع الإمام صريعاً في محرابه هتف معرفاً بقاتله: «قتلني ابن اليهودية عبد الرحمن بن ملجم، فلا يفوتنكم».

فهرع الناس إلى المسجد بجميع طبقاتهم وهم معولون نادبون قد أذهلهم الخطب

---

(١) سورة لقمان: الآية ٣٤.

وورعهم المصاب وبلغ بهم الحزن إلى قرار سحيق وفي مقدمتهم أولاد أمير المؤمنين، فوجدوا الإمام طريحاً في محرابه وجعدة ابنة هبيرة وجماعة حافون به يعالجونه للصلاة وهو لا يستطيع ولما وقع نظره على ولده الحسن أمره أن يصلي بالناس[١] وصلّى الإمام وهو جالس والدم ينزف منه، ولما فرغ الحسن من صلاته أخذ رأس أبيه فوضعه في حجره ودموعه تتبلور على وجهه الشريف، فقال له:

ـ من فعل بك هذا؟

ـ ابن اليهودية عبد الرحمن بن ملجم.

ـ من أي طريق مضى؟

ـ لا يمض أحد في طلبه، إنَّه سيطلع عليكم من هذا الباب، وأشار إلى باب كندة، فاشتغل الناس بالنظر إليها وما هي إلاَّ فترات وإذا الصيحة قد ارتفعت فقد ظفر بالأثيم المجرم ابن ملجم فجيء به مكتوفاً مكشوف الرأس، فأوقف بين يدي الحسن فقال له:

«يا ملعون، قتلت أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، هذا جزاؤه حين آواك وقربك حتى تجازيه بهذا الجزاء».

والتفت إلى أبيه قائلاً: يا أبة هذا عدو الله وعدوك ابن ملجم قد أمكننا الله منه. ففتح الإمام عينيه وقال له بصوت خافت:

«لقد جئت شيئاً إدّاً وأمراً عظيماً، ألم أشفق عليك وأقدِّمك على غيرك في العطاء؟ فلماذا تجازيني بهذا الجزاء؟».

وقال للحسن يوصيه ببره والإحسان إليه: «يا بني ارفق بأسيرك وارحمه، واشفق عليه».

فقال له الحسن: «يا أبتاه، قتلك هذا اللعين، وفجعنا بك، وأنت تأمرنا بالرفق به!!».

فأجابه أمير المؤمنين: «يا بني نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة، أطعمه ممَّا تأكل، واسقه ممَّا تشرب، فإن أنا متّ فاقتص منه بأن تقتله، ولا تمثِّل بالرجل فإنِّي سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إيَّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به، وأنا أولى بالعفو، فنحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلاَّ عفواً وكرماً».

وأمر عليه السلام بحمله إلى الدار فحمل والناس تهرول خلفه قد أشرفت على الهلاك من

(١) مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ص٦٣.

البكاء والعويل قد أخذتهم المائقة وهم يهتفون بذوب الرُّوح: قتل إمام الحق، قتل إمام الحق.

واستقبلته بناته وعياله بالبكاء والعويل ولما استقر في ثوبه، التفت إليه الحسن وقد حرق الهم والجزع قلبه قائلاً:

«يا أبة، من لنا بعدك؟ إنَّ مصابنا بك مثل مصابنا برسول الله».

فضمه الإمام وقال مهدئاً روعه: «يا بني، أسكن الله قلبك بالصبر، وعظم أجرك، وأجر إخوتك بقدر مصابكم بي».

وجمع الحسن لجنة من الأطباء لمعالجته وكان أبصرهم بالطب أثير بن عمرو السكوني فاستدعى برئة شاة حارة فتتبع عرقاً منها فاستخرجه فأدخله في جرح الإمام ثم نفخ العرق فاستخرجه فإذا هو مكلل ببياض الدماغ، لأنَّ الضربة قد وصلت إلى دماغ الإمام فارتبك أثير والتفت إلى الإمام ـ واليأس في صوته ـ قائلاً:

«يا أمير المؤمنين، اعهد عهدك، فإنَّك ميت»[١].

فالتفت الحسن إلى أبيه ودموعه تتبلور على وجهه، وشظايا قلبه يلفظها بنبرات صوته قائلاً:

«أبة، كسرت ظهري، كيف أستطيع أن أراك بهذه الحالة؟».

وبصر الإمام فرأى الأسى قد استوعب نفسه فقال له برفق: «يا بني لا غم على أبيك بعد هذا اليوم ولا جزع، اليوم ألقى جدك محمد المصطفى، وجدتك خديجة الكبرى، وأُمّك الزهراء، وإنَّ الحور العين ينتظرن أباك ويترقبن قدومه ساعة بعد ساعة، فلا بأس عليك، يا بني لا تبك».

وتسمم دم الإمام، ومال وجهه الشريف إلى الصفرة، وكان في تلك الحالة هادىء النفس قرير العين لا يفتر عن ذكر الله وتسبيحه وهو ينظر إلى آفاق السماء، ويبتهل إلى الله بالدُّعاء قائلاً:

«إلَهي، أسألك مرافقة الأنبياء، والأوصياء وأعلى درجات الجنَّة».

وغشي عليه فذاب قلب الحسن وجعل يبكي مهما ساعدته الجفون، فسقطت قطرات من دموعه على وجه الإمام فأفاق، فلما رآه قال له مهدئاً روعه:

---

(١) الاستيعاب: ج٢، ص٦٢.

«يا بني ما هذا البكاء؟ لا خوف ولا جزع على أبيك بعد اليوم، يا بني لا تبك، فأنت تقتل بالسم، ويقتل أخوك الحسين بالسيف».

وصاياه:

وأخذ الإمام يوصي أولاده بمكارم الأخلاق، ويضع بين أيديهم المثل الرفيعة ويلقي عليهم الدروس القيمة، وقد وجه عليه السلام نصائحه الرفيعة أولاً لولديه الحسن والحسين، وثانياً لبقية أولاده ولعموم المسلمين، قائلاً:

«أوصيكما بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدُّنيا وإن بغتكما[1] ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولا للحق واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

أوصيكما، وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي، بتقوى الله، ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم، فإنِّي سمعت جدكما صلى الله عليه وآله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام. الله الله في الأيتام، فلا تغبوا أفواههم[2] ولا يضيعوا بحضرتكم، والله الله في جيرانكم، فإنَّهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنَّه سيورثهم، والله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم، والله الله في الصلاة، فإنَّها عمود دينكم، والله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم فإنَّه إن ترك لم تناظروا[3]، والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله، وعليكم بالتواصل والتباذل[4] وإيَّاكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يُستجاب لكم».

ثم قال عليه السلام مخاطباً لآله وذويه:

«يا بني عبد المطلب لا ألفينكم[5] تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون قتل أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلاَّ قاتلي. انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثَّل بالرجل، فإنِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إيَّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور»[6].

---

(١) المعنى: لا تطلبا الدُّنيا، وإن طلبتكما.
(٢) لا تغبوا أفواههم: أي لا تقطعوا صلتكم عنهم وصلوا أفواههم بالطعام دوماً.
(٣) لم تناظروا، مبني للمجهول: أي لا ينظر إليكم بالكرامة والرحمة من الله وغيره إن أهملتم تعاليم الدِّين وفروضه.
(٤) التباذل: العطاء.
(٥) لا ألفينكم: أي لا أجدنكم تخوضون دماء المسلمين بالسفك انتقاماً منهم بقتلي.
(٦) شرح النهج محمد عبده: ج٣، ص٨٥.

وأخذ عليه السلام يوصي ولده الحسن خاصة بمعالم الدِّين وإقامة شعائره قائلاً:

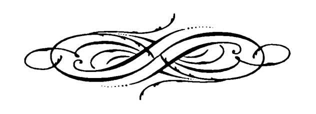
«أوصيك، أي بني، بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها وحسن الوضوء، فإنَّه لا صلاة إلاَّ بطهور، وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عن الجاهل والتفقه في الدِّين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش»[1].

إقامة الحسن من بعده:

ولما علم أمير المؤمنين أنَّه مفارق لهذه الدُّنيا، وأنَّ لقاءه بربه لقريب عهد بالخلافة والإمامة لولده الحسن فأقامه من بعده لترجع إليه الأُمَّة في شؤونها كافة، ولم تختلف كلمة الشيعة في ذلك فقد ذكر ثقة الإسلام الكليني أنَّ أمير المؤمنين أوصى إلى الحسن، وأشهد على وصيته الحسين ومحمداً وجميع ولده، ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتب والسلاح، وقال له:

«يا بني! أمرني رسول الله ﷺ أن أوصي إليك، وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي كما أوصى إليَّ رسول الله، ودفع إليَّ كتبه وسلاحه وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين».

وروى أيضاً أنَّه قال له: **«يا بني أنت وليّ الدم فإن عفوت فلك وإن قتلت فضربة مكان ضربة»**[2].



(١) تأريخ ابن الأثير: ج٣، ص١٧٠.

(٢) أصول الكافي: ١/٢٩٧ ـ ٢٩٨.

الإمام علي عليه السلام إلى الرفيق الأعلى

ولما فرغ الإمام أمير المؤمنين من وصاياه أخذ يتلو آي الذِّكر الحكيم ويكثر من الدُّعاء ولما دنا منه الأجل المحتوم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ ثمَّ فاضت روحه الزكية إلى جنَّة المأوى وسمت إلى الرفيق الأعلىٰ.

تجهيزه ودفنه:

وأخذ الحسن عليه السلام في تجهيز أبيه فغسل الجسد الطاهر وطيَّبه بالحنوط، وأدرجه في أكفانه، ولما حلَّ الهزيع الأخير من اللَّيل خرج ومعه حفنة من آله وأصحابه يحملون الجثمان المقدَّس إلى مقره الأخير فدفنه في النجف الأشرف حيث مقره الآن كعبة للوافدين ومقراً للمؤمنين والمتقين ومدرسة للمتعلمين، ورجع الإمام الحسن إلى بيته بعد أن وارى أباه وقد استولى عليه الأسى والذهول وأحاط به الحزن.

القصاص من ابن ملجم:

وفي صبيحة ذلك اليوم الخالد في دنيا الأحزان طلب الإمام الحسن إحضار المجرم الأثيم عبد الرحمن بن ملجم فلما مثل بين يديه قال له ابن ملجم:

ـ ما الذي أمرك به أبوك؟

ـ أمرني أن لا أقتل غير قاتله، وأن أشبع بطنك وأنعم وطأك، فإن عاش اقتص أو عفا وإن مات ألحقتك به.

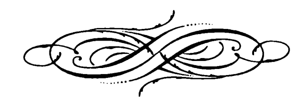
فقال الأثيم متبهراً: «إن كان أبوك ليقول الحق، ويقضي به في حال الغضب والرِّضا!!».

ثم إنَّ الإمام الحسن ضربه بالسيف فاتقى اللعين الضربة بيده فبترت ثم جهز عليه فقتله ولم يثلم به[1].

(١) تأريخ اليعقوبي: ٢/١٩١.

وعلى أيٍّ حال فإنَّ الإمام الحسن بعد ما فرغ من قتل ابن ملجم، انثال الناس على مبايعته ـ كما سنذكر ذلك بالتفصيل ـ وقد استقبل الحسن الخلافة بما لم يستقبلها أحد من الذين سبقوه فقد أصبحت الحاظرة الإسلامية الخاضعة لنفوذه مهددة بخطر معاوية فقد قوي أمره، واستحكم سلطانه، وعظم شره، وانضم إليه كل من لم يع الإسلام من ذوي الأطماع والأهواء فعملوا جاهدين على إفساد أمر الإمام وتقويض خلافته، ومضافاً لهذا الخطر الخارجي الفتن الداخلية التي نشبت أظفارها في المجتمع العراقي وأهمها خطراً وأعظمها محنة وبلاءاً هي فتنة الخوارج التي كانت سوسة تنخر في المعسكر العراقي، وخطراً مسلحاً من أهم الأخطار الفتاكة في الدولة الجديدة، فقد انجرف بفكرتهم السذج والمغرر بهم من البسطاء.

هذان الخطران معظم ما استقبله الإمام الحسن في دور خلافته، ولقد ابتلى بهما أشد البلاء، ولم يبتل وحده بهما، فقد ابتلى بهما النظام الإسلامي والخلافة الرشيدة فقد كان يرجى في دوره أن تنتشر مفاهيم الإسلام وتسود العدالة الاجتماعية في الأرض ويقضى على الغبن الاجتماعي والظلم الاجتماعي.



البيعة

واعتنى الإسلام بالخلافة اعتناءً بالغاً فأناط بها المسؤوليات الضخمة فجعلها مسؤولة عن نهضة المسلمين وتطورهم وانطلاقهم في ميادين العلم، وتوجيههم نحو الخير وإبعادهم عن مسالك الضلال والفساد، والعمل على إيجاد الوسائل السليمة لأسباب قوّتهم ورخائهم، كما أوكل إليها حراسة الدِّين والحفاظ على شؤونه، وصيانة مثله فهي المحور الذي تدور عليه سياسته وسائر شؤونه.

ومن الأئمة الطاهرين الاثني عشر الذين أقامهم الرسول صلى الله عليه وآله خلفاء من بعده وأمناء على تبليغ رسالته الإمام الحسن ريحانته وسبطه الأكبر فقد نصبه إماماً على أُمَّته وقال فيه وفي أخيه: «الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا». ونص على إمامته الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأقامه علماً من بعده، بعد أن اغتاله ابن ملجم، وقد فزع إليه المسلمون بعد موت أمير المؤمنين وأجمعوا على مبايعته، فقد اجتمعوا في جامع الكوفة سنة أربعين من الهجرة في صبيحة إحدى وعشرين من شهر رمضان المبارك، وأقبل عليه السلام وقد احتفت به البقية الباقية من صلحاء المهاجرين والأنصار فاعتلى منصة الخطابة فابتدأ ـ بعد حمد الله والثناء عليه ـ بتأبين فقيد العدالة الكبرى الإمام أمير المؤمنين وتعداد بعض فضائله ومواهبه فقال:

«لقد قُبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل، ولم يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقيه بنفسه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يوجهه برايته فيكنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه، ولقد توفي في هذه الليلة التي عرج فيها عيسى بن مريم عليه السلام وقبض فيها يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام وما خلف صفراء ولا بيضاء إلاَّ سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله».

وتمثَّلت صورة أبيه أمامه فخنقته العبرة وأرسل ما في عينيه من دموع وكذلك بكى جميع من حضر في جنبات الحفل، وساد الحزن وعمَّ الأسى ثم استأنف الإمام خطابه فأعرب للناس سمو مكانته وما يتمتع به من الشرف والمجد قائلاً:

«أيُّها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن ابن علي، وأنا ابن النبي، وأنا ابن الوصي، وأنا ابن البشير النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأنا من أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت».

ولما أنهى عليه السلام خطابه الذي لم يرو التأريخ إلاَّ شطراً منه انبرى عبيد الله بن العباس فحفز المسلمين إلى المبادرة لمبايعته قائلاً:

«معاشر الناس هذا ابن نبيكم، ووصي إمامكم فبايعوه».

واستجاب الناس لهذه الدعوة المباركة فهتفوا بالطاعة، وأعلنوا الرضا والانقياد قائلين:

«ما أحبه إلينا وأوجب حقه علينا وأحقه بالخلافة»[(١)].

وانثالوا على الإمام يبايعونه وهم إنما يبايعون الله وأول من بايعه المؤمن الثائر والحازم اليقظ الزعيم قيس بن سعد الأنصاري فقال له بنبرات تقطر حماساً وشوقاً إلى حرب أعداء الله وخصوم الإسلام:

«ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسُنَّة نبيه وقتال المحلين».

وثقل على الإمام أن يعزب عن قيس من أنَّ العمل على سُنَّة نبيه والسير على أضوائهما يغني عن اشتراط قتال المحلين لأنَّ فيهما تبياناً لكل شيء، فقال له بلطف ولين:

«على كتاب الله، كتابِ الله وسُنَّة نبيه، فإنَّهما يأتيان على كل شرط»[(٢)].

عموم البيعة:

وأجمع العالم الإسلامي من أقصاه إلى أدناه على مبايعة الإمام والانقياد لحكومته والخضوع لأمره، فبايعه من الكوفة اثنان وأربعون ألفاً على السمع والطاعة وكذلك بايعه أهل البصرة والمدائن، وجميع أهل العراق وبايعته فارس على يد زياد ابن أبيه، وبايعه الحجازيون واليمانيون، على يد القائد العسكري الحازم اليقظ جارية بن قدامة وما تخلف أحد عن البيعة سوى معاوية ومن يمتُّ به كما تخلف عن مبايعة الإمام علي عليه السلام من قبل فكانت بيعته عليه السلام عامة على غرار بيعة أبيه.

---

(١) مقاتل الطالبيين: ص٣٤.

(٢) تأريخ ابن الأثير: ج٣، ص١٧٤.

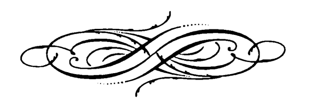
الحرب الباردة

وما أذيع مصير الخلافة الإسلامية إلى حفيد الرسول صلى الله عليه وآله إلاَّ وموجات من الهموم والأحزان قد طافت بابن هند، فملكته الحيرة واستولى عليه الجزع والذهول، وذلك لعلمه أنَّ للإمام مركزاً عظيماً في نفوس المسلمين، ومكانة مرموقة في جميع الأوساط، لأنَّه سبط النبي العظيم وأعز الناس عنده وأقربهم إليه، وقد شاعت بين المسلمين الأحاديث المتواترة عنه صلى الله عليه وآله في رفع كيانه، وتعظيم شأنه وتقديمه بالفضل على غيره فكيف يعدل الناس عنه إلى ابن هند وكيف يُقاس معاوية به وهو من الأسرة الملعونة في القرآن وقد عرف الجميع عداء أبيه وأسرته للإسلام والمسلمين من يوم بزغ نوره.

المؤتمر الأموي:

وعقد معاوية على أثر ذلك اجتماعاً مفاجئاً في بلاطه دعا فيه خلص أتباعه وأشياعه فأخبرهم بالموقف الرهيب، والخطر المفاجىء الذي حل في مملكته، وأعلمهم أنَّ الأمر إذا لم نتخذ فيه القرارات الحاسمة، ولم تبذل الجهود الجبارة لانتشاله فسوف يحدق بهم الخطر المنذر بالفناء.

عمل على نشر الجواسيس، وبثّ العيون في الأقطار الإسلامية الخاضعة لحكم الإمام ومراسلة الزعماء والوجوه والشخصيات البارزة وإرشائهم بالأموال الطائلة والوظائف المهمة في مناصب الدولة.



إعلان الحرب

وبعدما فشلت أغاليط معاوية ومخططاته السياسية رأى أنَّ خير وسيلة له للتغلب على الأحداث أن يبادر إلى إعلان الحرب لئلا يتبلور الموقف، وتفوت الفرصة وأكبر الظن ـ أنَّه بالإضافة إلى ذلك ـ إنَّما استعجل الحرب لأمور وهي:

١ ـ إنَّه اتصل اتصالاً وثيقاً بزعماء العراق، وقادة الجيش، ورؤساء القبائل فاشترى ضمائرهم الرخيصة بالأموال ومنَّاهم بالوظائف، فأجابوه سراً إلى خيانة الإمام وتنفيذ أغراضه.

٢ ـ علمه بتفكك الجيش العراق وتفلله وعدم طاعته للإمام.

٣ ـ علمه بوجود الخطر الداخلي الذي مني به العراق، وسلمت منه الشام.

٤ ـ مقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي فقد به العراق قائداً وموجهاً وخطيباً، يحملهم على الحق ويثيبهم إلى الصواب.

هذه الأمور ـ فيما نعلم ـ هي التي حفزت معاوية إلى إعلان الحرب واستعجاله.

مذكرة معاوية لعماله:

ورفع معاوية مذكرة ذات مضمون واحد إلى جميع عماله وولاته، يحثّهم فيها على الخروج إلى حرب الإمام ويأمرهم بالالتحاق به سريعاً بأحسن هيئة، وأتم استعداد وهذا نصها:

«من عبد الله معاوية أمير المؤمنين، إلى فلان ابن فلان، ومن قبله من المسلمين، سلام عليكم، فإنِّي أحمد إليكم الله الذي لا إلّه إلاَّ هو. أما بعد: فالحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم، وقتلة خليفتكم، إنَّ الله بلطفه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده فاغتاله فقتله فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم، فأقبلوا إليَّ حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم

وجندكم، وحسن عدتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان، والسلام عليكم ورحمة وبركاته»[(١)].

ولما وصلت هذه الرسالة إلى عماله وولاته قاموا بتحريض الناس وحثّهم على الخروج والاستعداد لحرب ريحانة رسول الله وسبطه وفي أقرب وقت التحقت به قوى هائلة منظمة لا ينقصها شيء من حيث الكراع والسلاح، والعدد والعدة.

فزع العراقيين:

وحينما أذيع خبر توجهه وبلوغه إلى هذا المحل عمَّ العراقيين الذعر والخوف، ولما علم الإمام بتوجهه أمر بعض أصحابه أن ينادي في العاصمة «الصلاة جامعة» ويقصد بذلك جمع الناس في جامع البلد، فنودي بذلك وما هي إلاَّ فترة يسيرة من الزمن حتى اكتظّ الجامع بالجماهير الحاشدة فخرج عليه السلام فاعتلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد: فإنَّ الله كتب الجهاد على خلقه وسمَّاه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد: اصبروا إنَّ الله مع الصابرين، فلستم أيُّها الناس نائلين ما تحبون إلاَّ بالصبر على ما تكرهون، إنَّه بلغني أنَّ معاوية بلغه أنَّا كنَّا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم في النخيلة حتى ننظر وتنظرون، ونرى وترون»[(٢)].

ولما أنهى عليه السلام خطابه وجم الحاضرون، وأخرست ألسنتهم، واصفرَّت ألوانهم كأنَّهم قد سيقوا إلى الموت، فلم يجب الإمام أحد منهم كل ذلك لخوفهم من أهل الشام، وحبهم للسلم، وإيثارهم للعافية، وكان هذا التخاذل في بداية الدعوة إلى جهاد العدو ينذر بالخطر ويدعو إلى التشاؤم واليأس من صلاحهم.

ولما رأى الصحابي العظيم والحازم اليقظ عدي بن حاتم سكوت الجماهير وعدم إجابتهم للإمام غاظه ذلك والتاع أشد اللوعة، فانبرى إليهم منكراً سكوتهم وتخاذلهم المفضوح قائلاً بنبرات تقطر حماساً وعزماً:

«أنا عدي بن حاتم، سبحان الله ما أقبح هذا المقام!!! ألا تجيبون إمامكم، وابن بنت نبيكم؟ أين خطبا المصر الذي ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جد الجد راوغوا كالثعالب، أما تخافون مقت الله، ولا عيبها وعارها».

(١) شرح ابن أبي الحديد: ١٣/٤.
(٢) شرح النهج ابن أبي الحديد: ١٣/٤.

ثم التفت إلى الإمام مظهراً له الطاعة والامتثال قائلاً:

«أصاب الله بك المراشد، وجنبك المكاره، ووفقك لما يحمد ورده وصدره، قد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا لك، وأطعنا فيما قلت ورأيت».

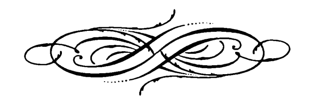
ثم أظهر إلى المجتمع عزمه على الخروج لحرب معاوية فوراً قائلاً:

«وهذا وجهي إلى معسكرنا، فمن أحب أن يوافي فليواف».

ثم خرج من المسجد وكانت دابته بالباب فركبها وخرج وحده من دون أن يلتحق به أحد وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه، فانتهى إلى النخيلة فعسكر بها وحده[١].

وهكذا اضطرب غيظاً وموجدة كل من الزعيم قيس بن سعد بن عبادة، ومعقل بن قيس الرياحي، وزياد بن صعصعة التميمي لما رأوا سكوت الجماهير وعدم إجابتهم بشيء فلاموهم على هذا التخاذل وبعثوا فيهم روح النشاط إلى حرب عدوهم ومناجزته ثم التفتوا إلى الإمام وكلموه بمثل كلام عدي في الانقياد والطاعة والامتثال لأمره فشكرهم الإمام على موقفهم المشرف، وأثنى على شعورهم الطيب قائلاً:

«ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والنصيحة فجزاكم الله خيراً».



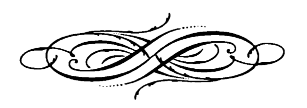
(١) شرح النهج ابن أبي الحديد: ٤/ ١٤.

في المدائن

في سجل التاريخ حوادث مفجعة يذوب القلب من هولها أسى وحسرات، وذلك بما تتركه من الآثار المريعة، والمضاعفات السيئة، وبما تخلفه من المشاكل والمصاعب كانتشار الظلم، وذيوع الجور، وهضم الحق، وضياع العدل. ومن أفجع هذه الحوادث وأقساها، انتصار الظالمين وتغلبهم على أئمة الحق والعدل، فإنَّه يؤدِّي حتماً إلى شل الحركة الإصلاحية، وتدمير القيم الإنسانية، وظهور البغي والجور في البلاد.

وتمثلت هذه المأساة المحزنة بأبشع صورها على مسرح الزمن الهازل في صراع الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، وغلبة معاوية عليه، وقد انتصرت بذلك القوى الحاقدة على الإسلام، والباغية على المسلمين، واندحرت المبادىء العليا التي جاء هذا الدِّين ليقيمها.

إنَّ من نكد الدُّنيا غلبة معاوية وانتصاره على سبط النبي وريحانته، وابتزازه لحقه، وفرضه حاكماً على المسلمين باسم الإسلام، وهو من ألدّ خصومه وأعدائه. إنَّ السِّر في انتصار معاوية يرجع إلى أسباب كثيرة وعوامل متعددة وأهمها الحوادث القاسية التي وقعت في «مسكن»(١) التي كانت تضم مقدمة جيش الإمام، والحوادث المؤسفة التي جرت في «المدائن» التي استقرت فيها عامة جيوشه، وقد عانى الإمام منها ألواناً شاقة من المحن والخطوب حتى اضطر إلى الصلح، والتجأ إلى مسالمة الخصم.



(١) مسكن: هو موضع قريب من «أوانا» على نهر الدجيل، وبها كانت الواقعة بين عبد الملك بن مروان، ومصعب بن الزبير، سنة (٧٢هـ)، وفيها قتل مصعب، وإبراهيم بن مالك الأشتر، ودفنا هناك ولهما قبر معروف، معجم البلدان: ٨/ ٥٤.

أسباب الصلح

العوامل التي دعت الإمام لمسالمة عدوه، وهي تتلخص في أمور استنتجناه من دراسة نفسية معاوية وملاحظة أعماله، ومن الوقوف على أضواء سيرة الإمام الرفيعة، ومعرفة سياسة أهل البيت ﷺ التي لا تتذرع بالوسائل التي شجبها الإسلام في سبيل الوصول إلى الحكم وقبل أن نعرض أسباب الصلح نود أن نبيِّن إنَّا قد نعيد نماذج بعض المواضيع لأجل الاستدلال على ما نذهب إليه وهي كما يلي:

١ ـ تفلل الجيش:

إنَّ أعظم ما تواجهه الدولة في جميع مجالاتها مسبب ـ على الأكثر ـ من خبث الجند وشدة خلافه، وعصيانه لقيادته العامة، وقد مُني الجيش العراقي آنذاك بالتمرد والانحلال بما لم يبتل به جيش معاوية فإنَّه ظل محتفظاً بالولاء لحكومته ولم يصب بمثل هذه الرجات والانتكاسات، وأهم الأسباب التي أدَّت إلى اضطراب الجيش:

أ ـ تضارب الحزبية فيه:

وقد ابتلي الجيش العراقي في ذلك الوقت بحزبين ليس فيهما ضدين للدولة الهاشمية وهما: الحزب الأموي والحزب الحروري.

ب ـ السأم من الحرب:

إنَّ من طبيعة الكوفة التي جبلت عليها نفوس أهلها السأم والملل «ولا رأي لملول» ومضافاً لهذه الظاهرة النفسية التي عرفوا بها أنَّ هناك سببين أوجبا زيادته ومضاعفته وهما:

الحروب المتتالية واليأس من الغنائم.

ج ـ فقد القوى الواعية:

وممَّا سبَّب تفلل الجيش العراقي فقده للقوى الواعية من أعلام الإسلام الذين آمنوا بحق أهل البيت ﷺ وعرفوا فضلهم وهم أمثال الصحابي العظيم عمار بن ياسر، والقائد

الملهم هاشم المرقال، وثابت بن قيس، وذو الشهادتين ونظائرهم من الذين سبقوا إلى الإسلام والإيمان.

د ـ الدعوة إلى الصلح:

وممَّا سبَّب ضعف العزائم، وإخماد نار الثورة في نفوس الجيش دعوة معاوية إلى الصلح وحقن الدماء، فقد كانت هذه الدعوة لذيذة مقبولة إلى حدٍّ بعيد، فقد استطابها البسطاء والسذج ورحب بها عملاء معاوية وأذنابه من الذين ضمهم جيش الإمام، ولم تكن الأكثرية الساحقة في الجيش تعلم بنوايا معاوية وما يبيته لهم من الشر فانخدعوا بدعوته إلى الصلح كما انخدعوا من قبل في رفع المصاحف، مضافاً لذلك خيانة زعمائهم، والتحاقهم بمعسكر معاوية.

هـ ـ خيانة عبيد الله:

ويعتبر خذلان عبيد الله بن العباس من العوامل المهمة التي سبَّبت تفكك الجيش وتخاذله.

و ـ رشوات معاوية:

وبالأموال تشترى ذمم الرجال، وتباع الأوطان، وتخمد الأفكار، وتسيل لها لعاب الأبطال.

ز ـ الإشاعات الكاذبة:

وممَّا سبَّب انحلال الجيش الإشاعات الكاذبة التي أذاعها عملاء معاوية في (المدائن) بأنَّ قيس بن سعد قد قتل، وأشاعوا أخرى بأنَّه قد صالح معاوية.

٢ ـ قوة العدو:

العامل الثاني الذي دعى الإمام إلى المصالحة والمسالمة هو ما يتمتع به خصمه من القوى العسكرية وغيرها التي لا طاقة للإمام على مناجزتها، ولا قابلية له للوقوف أمامها، ممَّا أرغم الإمام الحسن عليه السلام على الصلح، ونقدم عرضاً لبعضها وهي: .

أ ـ طاعة الجيش:

وغرس معاوية حبه في قلوب جيشه، وهيمن على مشاعرهم وعواطفهم فقد عرف ميولهم واتجاهم فسايرهم حتى أحبهم وأحبوه وصاروا طوع إرادته.

ب ـ بساطة وسذاجة:

وأتاح الزمن الهزيل إلى معاوية أن يسيطر على جيش كان مثالاً للسذاجة والبساطة فلم يعرف الأكثر منهم أي طرفيه أطول وقد احتفظ التأريخ بصور كثيرة من بلاهتهم تدلُّ على مدى خمولهم وعدم نباهتهم، فقد ذكر المؤرخون أنَّ رجلاً من أهل الكوفة قدم على بعير له إلى دمشق حال منصرفهم من صفين فتعلَّق به رجل من أهل دمشق قائلاً له:

«هذه ناقتي أخذت منِّي بصفين».

وحدث بينهما نزاع حاد فرفعا أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي بيِّنة على دعواه تتألف من خمسين رجلاً يشهدون أنَّها ناقته فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه فوراً، فالتفت إليه العراقي متعجباً من هذا الحكم قائلاً: «أصلحك الله إنَّه جمل وليس بناقة!».

قال معاوية: «حكم قد مضى».

ولما انفض الجمع أمر معاوية بإحضار العراقي فلما مثل عنده سأله عن ثمن البعير فأخبره به فدفع إليه ضعفه وبرّ به وأحسن إليه ثم قال له:

«أبلغ علياً أنِّي أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل»(١).

ج ـ اتفاق الكلمة:

سبب ذلك ما مني به العراق من الاختلاف والتفكك بسبب الأحزاب التي كانت تعمل على زعزة كيان الدولة الهاشمية وتحطيم عروشها.

د ـ ضخامة القوى العسكرية:

وأنفق معاوية جميع جهوده المعنوية والمادية في إصلاح جيشه وتقويته فإنَّه لما منيت الشام بخطر الروم بادر فعقد هدنة مؤقتة مع ملكها ودفع إليه أموالاً خطيرة ولم يفتح معه باب الحرب لئلا تضعف أعصاب جيشه ومضافاً إلى ذلك فإنَّه لم يستعمله في الفتوح والحروب.

هـ ـ حاشيته:

ومضافاً إلى ما كان يتمتع به معاوية من القوى العسكرية فقد ظفر بقوَّة أخرى لها أثرها الفعَّال في تقوية جبهته وتوجيهه وتدبير شؤونه وهي انضمام المحنكين والسياسيين إليه طمعاً بماله ودُنياه، كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص.

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣٣٢.

و ـ ضخامة الأموال:

ويسر لمعاوية من الثراء العريض الذي مهدته له بلاد الشام طيلة ملكه لها فإنَّه لم ينفقها في صالح المسلمين وإنَّما شرى بها الضمائر والأديان.

٣ ـ اغتيال أمير المؤمنين:

ومن العوامل التي دعت الإمام إلى الصلح ما روع به من اغتيال أبيه، فقد ترك ذلك حزناً مقيماً وأسىً شديداً في نفسه، وقد أدلى عليه السلام بذلك بقوله: «وقد زهدني فيكم اغتيالكم أبي».

٤ ـ حقن الدماء:

ومن دواع الصلح رغبة الإمام الملحة في حقن دماء المسلمين، وعدم إراقتها، ولو فتح باب الحرب مع معاوية لضحى بشيعته وأهل بيته، ويجتث بذلك الإسلام من أصله، وقد صرَّح عليه السلام بذلك في جوابه عن دوافع صلحه فقال:

«إنِّي خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض فأردت أن يكون للدين ناعي..».

وأجاب عليه السلام بعض الناقمين عليه من شيعته في الصلح فقال: «ما أردت بمصالحتي معاوية إلاَّ أن أدفع عنكم القتل»[1].

٥ ـ منَّة معاوية:

لقد علم الإمام عليه السلام أنَّه إن حارب معاوية فإنَّ أجلاف العراقيين وأوباشهم سوف يسلمونه أسيراً إلى معاوية وأغلب الظن أنَّه لا يقتله بل يخلي عنه ويسجل له بذلك مكرمة وفضيلة.

٦ ـ حوادث المدائن:

ومن جملة الأسباب التي دعت الإمام إلى الصلح هي الحوادث القاسية التي لاقاها في المدائن، من خيانة الزعماء والوجوه واتصالهم بمعاوية، والحكم عليه بالتكفير من قبل الخوارج، ومحاولة اغتياله، ونهب أمتعته.

٧ ـ الحديث النبوي:

نظر النبي صلى الله عليه وآله إلى الحوادث الآتية من بعده فرآها بعينها وحقيقتها لا بصورها

---

(١) الدينوري: ص٣٠٣.

وأشكالها، رأى أمَّته ستخيم عليها الكوارث، وتنصب عليها الفتن والخطوب، حتى تشرف على الهلاك والدمار، وإنَّ إنقاذها ممَّا هي فيه من الواقع المرير سيكون على يد سبطه الأكبر، وريحانته من الدُّنيا الإمام الحسن عليه السلام فأرسل كلمته الخالدة قائلاً:

«إنَّ ابني هذا سيِّد ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين».

٨ ـ العصمة:

وذكرت طائفة من العلماء الأعلام صلح الإمام عليه السلام فعللته بالعصمة وأنَّ الإمام المعصوم لا يرتكب الخطأ ولا يفعل إلاَّ ما فيه الخير والصلاح لجميع الأُمَّة.

٩ ـ إبراز الواقع الأموي:

كان معاوية قبل أن يتسولي على زمام الحكم ملتزماً بتعاليم الإسلام ظاهراً، ويظهر الاهتمام بشؤون المسلمين، ولكن كان ذلك ـ من دون شك ـ رياءً منه ومكيدة من باب المشي رويداً لأخذ الصيد، كان يبطن الكفر والنفاق ويضمر السوء والعداء للمسلمين فأراد الإمام الحسن عليه السلام بصلحه أن يبرز حقيقته، ويظهر للناس عاره وعياره، ويعرفه للذين خدعهم بمظاهره من أنَّه أعدى عدو للإسلام.

أبو سفيان وهند:

وأبو سفيان من ألدّ أعداء النبي ﷺ فهو الذي قاد الأحزاب، وظاهر اليهود، وناصر جميع القوى المعادية للإسلام، وتضاعف حقده على النبي ﷺ حينما وتره بأسرته وبسبعين رجلاً من صناديد قريش ممَّن كانوا تحت لواء الشرك في غزوة بدر الكبرى.

بعض من أعمال معاوية ونواياه:

١ ـ عدوه للنبي:

كان معاوية يكن في نفسه بغضاً عارماً للنبي ولذريته ويحاول بكل جهوده القضاء على كلمة الإسلام ومحو أثره.

٢ ـ تعطيله الحدود:

ولم يعتن معاوية بالحدود الإسلامية ولم يهتم بإقامتها فقد عفا عمَّن ثبت عليه الحد، فقد جيء إليه بجماعة سارقين فقطع أيديهم، وبقي واحد منهم فقال السارق:

يميني أمير المؤمنين أعيذها بعفوك أن تلقى مكاناً يشينها
يدي كانت الحسناء لو تم سترها ولا تعدم الحسناء عيباً يشيبها
فلا خير في الدُّنيا وكانت حبيبة إذا ما شمالي فارقتها يمينها

وغزت هذه الأبيات قلب معاوية فقال له: «كيف أصنع بك؟ قد قطعنا أصحابك».

فأجابته أم السارق: «يا أمير المؤمنين اجعلها في ذنوبك التي تتوب منها».

فخلى سبيله وأطلق سراحه، فكان أول حد ترك في الإسلام[١].

٣ ـ إباحته الربا:

ومنع الإسلام من الربا أشد المنع وجعله من الموبقات والكبائر، فلعن المعطي والآخذ والوسيط والشاهد، لكن معاوية لم يعتن بتحريم الإسلام له.

٤ ـ الأذان في صلاة العيد:

وقضى الشرع الإسلامي بإتيان الأذان والإقامة في خصوص الصلاة اليومية الواجبة، أما ما عداها من الصلاة المندوبة كصلاة النوافل أو الواجبة كصلاة العيدين والآيات فإنَّ الشرع قد حكم بتركهما.

ولكن معاوية لم يبال بذلك فقد أحدث الأذان والإقامة في صلاة العيد[٢] وبذلك خالف رسول الله وجافى ما أثر عنه وكان مبدعاً في تشريعه.

٥ ـ الخطبة قبل صلاة العيد:

وألزمت السُّنَّة الإسلامية في صلاة العيد بالخطبة بعد فراغ الإمام من الصلاة، ولكن معاوية لم يعتن بذلك فقد قدَّم الخطبة على الصلاة، واقتفى بفعله الأمويون[٣] وبذلك فقد هجر سُنَّة النبي.

٦ ـ أخذه الزكاة من الأعطية:

وفرض الإسلام الزكاة في موارد مخصوصة ذكرها الفقهاء وما عداها فلا تجب فيه الزكاة، ولكن معاوية قد أعرض عن ذلك فأخذ الزكاة من الأعطية ولم تشرع فيها الزكاة بإجماع المسلمين وقد ارتكب معاوية ذلك[٤].

---

١) البداية والنهاية: ٨/ ١٣٦.

٢) شرح ابن أبي الحديد: ١/ ٤٧٠.

٣) شرح ابن أبي الحديد: ٣/ ٤٧٠.

٤) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠٧.

٧ ـ تطيبه في الإحرام:

ويجب على المحرم في الحج أن يترك الطيب ما دام محرماً، فإذا حلَّ من إحرامه جاز له استعماله، ولكن معاوية خالف ذلك فتطيب في حال إحرامه[١].

٨ ـ استعماله أواني الذهب والفضة:

ويحرم استعمال أواني الذهب والفضة إلاّ أنَّ معاوية قد عمد إلى مخالفة ذلك وأخذ يستعملها في مأكله ومشربه.

٩ ـ لبسه الحرير:

وحرم الإسلام لبس الحرير على الرجال إلاّ في حال الحرب، ولكن معاوية قد جافى ذلك فقد عمد إلى لبسه[٢].

١٠ ـ استحلاله أموال الناس:

وحرم الإسلام أموال الناس وأخذها بالباطل، ولكن معاوية لم يلتزم بذلك فقد استصفى أموال الناس من دون عوض[٣].

١١ ـ شراؤه الأديان:

وليس في سوق التجارة رذيلة أسوأ من شراء ضمائر الناس وأديانهم فإنَّه ينمُّ عن سوء سريرة البائع والمشتري، وقد مهر معاوية في هذه الصنعة وكان يتجاهر بها من دون خيفة.

١٢ ـ خلاعة ومجون:

واتسعت الدعارة وانتشر المجون في الحاظرة الإسلامية في عصر بني أمية، وكان أوَّل من فتح باب الدعارة معاوية.

١٣ ـ افتعال الحديث:

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[٤] وقرب معاوية من يفترى الكذب على الله ورسوله ولا يؤمن بالله

---

(١) النصائح: ص١٠٠ وغيره.

(٢) النصائح: ص١٠١.

(٣) تأريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٧.

(٤) سورة النحل: الآية ١٠٥.

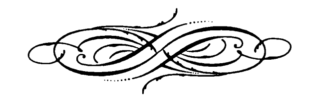
واليوم الآخر فقربهم إليه وأدناهم منه ومنحهم الأموال الضخمة، وأوعز إليهم أن يصنعوا الأحاديث الكاذبة على رسول الله ﷺ في فضله وفي فضل الأمويين والصحابة، وفي الحطّ من كرامة العترة الطاهرة وانتقاصها خصوصاً سيِّدها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

١٤ ـ استلحاقه زياداً:

قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر». لقد ضرب معاوية كلام رسول الله ﷺ بعرض الجدار بلا خيفة ولا حذر. فعاكس قوله، ورد حكمه علانية لأجل تدعيم ملكه، وإقامة سلطانه، فاستلحق به زياد ابن أبيه طبقاً لما كان عليه العمل قبل الإسلام!

١٥ ـ تسليط عمَّاله وولاته على المسلمين:

وعانت الشعوب الإسلامية في أيام معاوية ألواناً مريعة من المحن والخطوب لأنَّ الحكم القائم فيها مبني على العنف والجبروت، وعلى البطش والإرهاق، واستنزاف الثروات، وعلى التنكر لجميع القيم الإنسانية، حتى ضجَّ المجتمع من الظلم والجور والاستبداد، فلم تبق حاضرة من الحُضّر الإسلامية إلاّ عمَّها الخوف، وساد فيها الإرهاب والاضطراب. وعمد ولاة ابن هند إلى نشر الجور والظلم في جميع أنحاء البلاد فكانت دوائرهم مصدراً للقلق والاضطراب وباباً من أبواب البلاء على الناس فما راجعها أحد إلاّ اكتوى بنارها، يقول عبد الملك في وصفها: «أنعم الناس عيشاً من له ما يكفيه، وزوجة ترضيه، ولا يعرف أبوابنا الخبيثة فنؤذيه»[1].



(١) الكامل: ١٠/ ١٨٣.

بنود الصلح

ممَّا يدلُّ على أنَّ معاوية هو الذي ابتدأ في طلب الصلح، خطاب الإمام الحسن الذي ألقاه في المدائن فقد جاء فيه: «ألا وإنَّ معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة».

ومهما يكن من شيء فإنَّ تحقيق ذلك ليس بذي أهمية، لأنَّ الإمام إن كان هو الذي استعجل الصلح فلا ضير عليه نظراً للمحن الشاقة التي أحاطت به حتى ألجأته إلى المسالمة، وإن كان معاوية هو الذي استعجل الصلح فلا ضير على الإسلام أيضاً لما أوضحناه في أسباب الصلح، والمهم البحث عن الشروط التي اشترطها الإمام على خصمه.

فقد اختلف التأريخ فيه اختلافاً فاحشاً، واضطربت كلمات المؤرخين في ذلك، وفيما يلي بعض تلك الأقوال.

١ ـ ذكر بعض المؤرخين أنَّ الإمام أرسل سفيرين إلى معاوية، هما عمرو بن سلمة الهمداني، ومحمد بن الأشعث الكندي ليستوثقا من معاوية ويعلما ما عنده. فأعطاهما معاوية هذا الكتاب وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب للحسن بن علي من معاوية بن أبي سفيان، إنِّي صالحتك على أنَّ لك الأمر من بعدي، ولك عهد الله وميثاقه وذمته، وذمة رسوله محمد ﷺ، وأشد ما أخذه الله على أحد من خلقه من عهد وعقد، لا أبغيك غائلة ولا مكروهاً، وعلى أن أعطيك في كل سنة ألف ألف درهم من بيت المال، وعلى أنَّ لك خراج بَسَا ودار ابجرد، تبعث إليهما عمالك، وتصنع بهما ما بدا لك». شهد بها عبد الله بن عامر، وعمرو بن سلمة الكندي، وعبد الرحمن بن سمرة، ومحمد بن الأشعث الكندي، كتب في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين هجرية.

وتنص هذه الوثيقة على إعطاء معاوية للحسن ثلاثة أشياء:

١ ـ جعله ولي عهده.

٢ ـ للإمام من بيت المال راتب سنوي ألف ألف درهم.

٣ ـ منحه كورتين من كور فارس يرسل إليهما عماله، ويصنع بهما ما شاء.

واحتفظ الإمام برسالة معاوية، فأرسل إليه رجلاً من بني عبد المطلب وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل وأمّه أخت معاوية فقال له: إئت خالك وقل له إن أمنت الناس بايعتك.

ولما انتهى عبد الله إلى معاوية وعرض عليه مهمة الإمام وهي طلب الأمن العام لعموم الناس، استجاب له وأعطاه طوماراً وختم في أسفله وقال له: فليكتب الحسن فيه ما شاء، فجاء عبد الله بن الحارث بهذا التفويض المطلق إلى الإمام، فكتب عليه السلام ما رامه من الشروط.

وذكر جماعة من المؤرخين أنَّ الإمام ومعاوية اصطلحا وارتضيا بما احتوته الوثيقة الآتية وقد وقَّع عليها كلّ منهما وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما صالح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب، معاوية بن أبي سفيان، صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله، وسُنَّة رسوله، وسيرة الخلفاء الصالحين، وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين، وعلى أنَّ الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وعلى أنَّ أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء، وبما أعطى الله من نفسه، وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي، ولا أخيه الحسين، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله غائلة سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أُفق من الآفاق، شهد عليه فلان ابن فلان بذلك، وكفى بالله شهيداً»[(١)].

وهذه الصورة أفضل صورة وردت مبينة لكيفية الصلح فقد احتوت على أمور مهمة يعود صالح الأكثر منها إلى عموم المسلمين إلاَّ أنَّا نشكُّ في إنَّ ما احتوت عليه هذه الوثيقة هو مجموع ما طلبه الإمام وأراده، ونذكر فيما يلي مجموع الشروط التي ذكرها رواة الأثر وإن كان كل واحد منهم لم يذكرها بأسرها إلاَّ أنَّ بعضهم نص على طائفة

---

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ: ص١٤٥.

منها، والبعض الآخر ذكر طائفة أخرى، وقد اعترف الفريقن أنَّ ما ذكره كل واحد من الشروط ليس جميع ما اشترطه الإمام وإنَّما هي جزء من كل، وها هي:

١ ـ تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله، وسُنَّة نبيه ﷺ[١] وسيرة الخلفاء الصالحين[٢].

٢ ـ ليس لمعاوية أن يعهد بالأمر إلى أحد من بعده والأمر بعده للحسن[٣] فإن حدث به حدث فالأمر للحسين[٤].

٣ ـ الأمن العام لعموم الناس الأسود والأحمر منهم سواء فيه وأن يحتمل عنهم معاوية ما يكون من هفواتهم، وأن لا يتبع أحداً بما مضى، وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنة[٥].

٤ ـ أن لا يسميه أمير المؤمنين[٦].

٥ ـ أن لا يقيم عنده الشهادة[٧].

٦ ـ أن يترك سبّ أمير المؤمنين[٨] وأن لا يذكره إلاَّ بخير[٩].

٧ ـ أن يوصل إلى كل ذي حق حقه[١٠].

٨ ـ الأمن لشيعة أمير المؤمنين وعدم التعرُّض لهم بمكروه[١١].

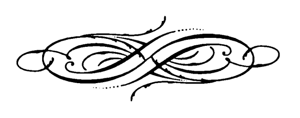
٩ ـ يفرق في أولاد من قتل مع أبيه في يوم الجمل وصفين ألف ألف درهم، ويجعل ذلك من خراج دار ابجرد[١٢][١٣].

---

(١) وذكرها ابن أبي الحديد في شرح النهج: ٤/٨.
(٢) البحار: ١٠/١١٥.
(٣) الإصابة: ١/٣٢٩.
(٤) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب لجمال الحسني: ص٥٢.
(٥) الدينوري: ص٢٠٠.
(٦) تذكرة الخواص لابن الجوزي: ص٢٠٦.
(٧) أعيان الشيعة: ٤/٤٣.
(٨) نفس المصدر.
(٩) مقاتل الطالبيين: ص٢٦.
(١٠) الفصول المهمة لابن الصباغ: ص١٤٤.
(١١) أعيان الشيعة: ٤/٤٣.
(١٢) البحار: ١٠/١٠١.
(١٣) دار ابجرد: أراض واسعة بفارس على حدود الأهواز قد فتحها المسلمون عنوة.

١٠ ـ أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة[١] ويقضي عنه ديونه ويدفع إليه في كل عام مائة ألف[٢].

١١ ـ أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله غائلة سراً ولا جهراً ولا يخيف أحداً منهم في أُفق من الآفاق[٣].



(١) تأريخ دول الإسلام: ١/٥٣.
(٢) جوهرة الكلام في مدح السادة الأعلام: ص١١٢.
(٣) البحار: ١٠/١١٥.

اجتماع الإمام بمعاوية

لعلَّ أقسى محنة اجتازتها نفس أي إنسان كان هي التي ألمَّت بالإمام الحسن عليه السلام حينما اجتمع بابن أبي سفيان، فقد أودع ذلك الاجتماع ألماً مرهقاً، وأسى مرّاً، استوعب نفسه الشريفة، ذلك لأنَّه رأى باطل معاوية قد استحكم وجوره قد انتصر، وزاد في أساه ما ستعانيه الأُمَّة في دور هذا الطاغية من المآسي والشجون، فترك ذلك أعمق الألم والحزن في نفسه.

لقد اجتمع الإمام ـ على كره ـ بمعاوية، وكان الاجتماع بالنخيلة[1] وقيل بالكوفة[2]، وقد حضرته جموع حاشدة من المسلمين، تنتظر بفارغ الصبر ما يفوه به الملك الظافر من الأمن والرفاهية وما يبسطه على الناس من العدل، وما عسى معاوية أن يفعل في هذه الساعة الرهيبة، إنَّه اعتلى المنبر فأظهر خبث ذاته، وسوء سريرته، وأعلن ما يضمره للمسلمين من الشر والإرهاق، كما أظهر لهم السِّر في الحرب التي أثارها على أمير المؤمنين وولده الحسن قائلاً:

«أيُّها الناس، ما اختلف أمر أُمَّة بعد نبيها إلاَّ وظهر أهل باطلها على أهل حقها».

ولما افتتح خطابه بهذ القول الذي حكى فيه الواقع التفت إلى أنَّه قد عنى به نفسه فندم على ذلك فاستدرك قائلاً:

«إلاَّ هذه الأُمَّة».

ثم وجه خطابه القاسي إلى العراقيين معرباً لهم عن حقيقة الحرب التي أثارها عليهم، وإنَّ الهدف الأقصى الذي ينشده من وراء ذلك إنَّما هو الملك، لا الطلب بدم عثمان قائلاً: «والله إنِّي ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، إنَّكم لتفعلون ذلك، وإنَّما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون».

---

(١) ابن أبي الحديد: ١٦/٤.

(٢) اليعقوبي: ٢/١٩٢.

ثم صرح بعد ذلك بعدم التزامه ووفائه بالشروط التي أعطاها للإمام فقال:

«ألا إنَّ كل دم أصيب في هذه الفتنة مطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين ولا يصلح الناس إلاَّ ثلاث: إخراج العطاء عند محله، وإقفال الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره، فإن لم تغزوهم غزوكم».

خطاب الإمام الحسن عليه السلام:

وهذا نص خطابه:

«الحمد لله كلَّما حمده حامد، وأشهد أن لا إلَه إلاَّ الله كلَّما شهد له شاهد، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى، واتمنه على الوحي صلى الله عليه وآله.

أما بعد: فوالله إنِّي لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنِّه وأنا أنصح خلق الله لخلقه، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة، ولا مريداً له سوءاً، ولا غائلة. ألا وإنَّ ما تكرهون في الجماعة خير لكم ممَّا تحبون في الفرقة ألا وإنِّي ناظر لكم خير من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري، ولا تردّوا عليَّ رأي غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإيَّاكم لما فيه المحبة والرِّضا»[١].

ثم التفت إلى الجماهير فقال لها:

«أيُّها الناس، إن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور، والله لو طلبتم ما بين جابلق[٢] وجابرس[٣] رجلاً جده رسول الله صلى الله عليه وآله ما وجدتموه غيري وغير أخي الحسين، وقد علمتم أنَّ الله هداكم بجدي محمد صلى الله عليه وآله فأنقذكم به من الضلالة، ورفعكم به من الجهالة، وأعزكم به بعد الذلة، وكثركم به بعد القلة، إنَّ معاوية نازعني حقاً هو لي دونه، فنظرت لصلاح الأُمَّة، وقطع الفتنة، وقد كنتم بايعتموني على أن تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت، فرأيت أن أسالم معاوية، وأضع الحرب بيني وبينه، وقد بايعته، وقد رأيت أنَّ حقن الدماء خير من سفكها، ولم أرد بذلك إلاَّ صلاحكم وبقاءكم، وإن أدرى لعلَّه فتنة لكم ومتاع إلى حين»[٤].

وأخذ عليه السلام بين ظلامة أهل البيت فقال:

---

(١) الإرشاد: ص١٦٩.

(٢) جابلق: رُوي عن ابن عباس أنَّها بأقصى المغرب وأهلها من ولد عاد، جاء ذلك في المعجم: ٣/ ٣٢.

(٣) جابرس: مدينة بأقصى المشرق.

(٤) كشف الغمة: ص١٧٠.

«وإنَّ معاوية زعم لكم أنّي رأيته للخلافة أهلاً ولم أر نفسي لها أهلاً، فكذب معاوية. نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله عزَّ وجلَّ وعلى لسان نبيه، ولم نزل ـ أهل البيت ـ مظلومين منذ قبض الله نبيه، فالله بيننا وبين من ظلمنا، وتوثب على رقابنا، وحمل الناس علينا، ومنعنا سهمنا من الفيء، ومنع أُمّنا ما جعل لها رسول الله، وأقسم بالله لو أنَّ الناس بايعوا أبي حين فارقهم رسول الله لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمعت فيها يا معاوية، فلما خرجت من معدنها تنازعتها قريش بينها، فطمع فيها الطلقاء وأبناء الطلقاء، أنت وأصحابك. وقد قال رسول الله: ما ولت أُمَّة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه إلاَّ لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا. فقد ترك بنو إسرائيل هارون وهم يعلمون أنَّه خليفة موسى فيهم واتبعوا السامري، وتركت هذه الأُمَّة أبي وبايعوا غيره، وقد سمعوا رسول الله يقول له: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاَّ النُّبوَّة، وقد رأوا رسول الله نصب أبي يوم غدير خم، وأمرهم أن يبلغ أمره الشاهدُ الغائب، وهرب رسول الله من قومه وهو يدعوهم إلى الله حتى دخل الغار، ولو أنَّه وجد أعواناً لما هرب، كفَّ أبي يده حين ناشدهم، واستغاث فلم يغث. فجعل الله هارون في سعة حين استضعفوه، وكادوا يقتلونه، وجعل الله النبي في سعة حين دخل الغار ولم يجد أعواناً، وكذلك أبي وأنا في سعة من الله حين خذلتنا هذه الأُمَّة. وإنَّما هي السُّنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً»(١).

والتفت إلى حضار الحفل فقال لهم:

«فوالذي بعث محمداً بالحقِّ، لا ينقص من حقنا ـ أهل البيت ـ أحدٌ إلاَّ نقصه الله من عمله، ولا تكون علينا دولة إلاَّ وتكون لنا العاقبة ولتعلمن نبأه بعد حين».

والتفت عليه السلام إلى معاوية فردَّ عليه سبّه لأبيه فقال له:

«أيها الذاكر علياً أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأُمّي فاطمة، وأُمّك هند، وجدي رسول الله، وجدك عتبة بن ربيعة، وجدتي خديجة، وجدتك قُتيَّلة، فلعن الله أخملنا ذكراً، وألأمنا حسباً، وشرنا قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً!!».

وارتفعت الأصوات من جميع جنبات الحفل بقول:

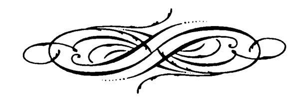
«آمين آمين».

وما سمع أحد هذا الخطاب إلاَّ شاركهم بقول: آمين، ونحن نقول: آمين آمين.

---

(١) البحار: ١٠/١١٤.

كان اجتماع الإمام بمعاوية، من أعظم المحن وأقساها عليه، وأقبل عليه السلام بعد ذلك يتهيأ للسفر إلى يثرب ليترك العراق الذي غدر به وبأبيه من قبل، فلم يف لهما بعهد ووعد يتركه إلى معاوية ولبني أميَّة يتصرفون فيه حسبما شاءت لهم أهواؤهم الخاصة، فقد أخرجوه من الدعة والرفاهية والأمن، إلى الشِّدَّة والقسوة والعذاب، وجعل العراقيون بعد نزوح الإمام عنهم يذكرون أيام حياتهم تحت ظلال الحكومة الهاشمية فيحزنون أشد الحزن، ويندمون أشد الندم على تفريطهم في جنب أمير المؤمنين، وولده الإمام الحسن عليه السلام.



إلى يثرب

بقي الإمام عليه السلام في الكوفة أياماً وهو مكلوم القلب قد طافت به الهموم والآلام يتلقى من شيعته مرارة الكلام، وقسوة القول، ومن معاوية وحزبه الاستهانة بمركزه الرفيع وهو مع ذلك صابر محتسب، قد كظم غيظه، وأوكل أمره إلى الله، وقد عزم على مغادرة العراق ـ البلد الذي غدر به وبأبيه من قبل ـ الشخوص إلى مدينة جده، وقد أظهر عزمه ونيته إلى أصحابه.

لقد رحل عليه السلام عن الكوفة هو وأهل بيته ومعه أبو رافع خازن بيت المال، وقد غشيتها الكآبة، وخيم عليها الحزن، وحلَّ بها الشقاء والوبال والدمار، فلقد صبَّ الله عليها بعد خروج الإمام الطاعون فقضى على كثير من أبنائها، وفرَّ منها المغير بن شعبة واليها ثم بعد مدة عاد إليها فلما وصل جرفه الطاعون فمات به(١).

لقد ودع الإمام الكوفة بالأسى والحسرات، ولم يذكر ما لاقاه من نشوز هذه الحاضرة ومن بوائقها ما لقيت، ثم هي تودعها بهذا البيت من الشعر فلا تذكر من تاريخها الطويل العريض، إلاَّ وفاء الأوفياء «المانعين الحوزة والذمار»، وهم الذين منعوا عنه من أراده في المدائن، والذين ثبتوا على طاعته يوم العسرة في مسكن فكانوا إخوان صدق، وخيرة الأنصار على قلتهم. وسار موكب الإمام ولكنَّه لم يبعد كثيراً حتى أدركه رسول معاوية يريد أن يرده إلى الكوفة ليقاتل طائفة من الخوارج خرجت عليه، فأبى عليه السلام أن يعود وكتب إلى معاوية:

«لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك، فإنِّي تركتك لصلاح الأُمَّة وحقن دمائها»(٢).

ثم مضى عليه السلام ولم يعتن بمعاوية، وما اجتاز موكبه على حي أو قرية إلاَّ وخف من فيهما إلى استقباله والتشرف بمقابلته، وكان أول حديث يبدأون به السؤال عمَّا صار إليه

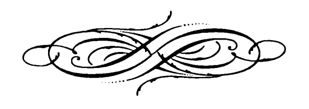
---

(١) المسعودي على هامش ابن الأثير: ٦/ ٩٧.

(٢) الكامل: ٣/ ٢٠٨.

أمره مع معاوية فيخبرهم عليه السلام بالحال فيظهرون له الاستياء والتذمر وعدم الرضا وذلك لخوفهم من سلطة معاوية ولكنَّه عليه السلام ما يصنع وقد مُني جيشه وشعبه بالتمرد والخذلان حتى التجأ إلى الصلح والمسالمة.

وانتهت قافلة الإمام إلى يثرب فلما علم أهلها بتشريفه عليه السلام خفوا جميعاً لاستقباله فقد أقبل إليهم الخير وحلَّت في ديارهم السعادة والرحمة، وعاودهم الخير الذي انقطع عنهم منذ نزح أمير المؤمنين عليه السلام عنهم، جاء إلى يثرب فاستقام فيها عشر سنين، فملأ رباعها بعطفه المستفيض، ورقيق حنانه وحلمه.



إلى دمشق

مناظراته:

ضاق معاوية ذرعاً بالإمام حينما كان في دمشق، فقد رأى من إقبال الناس واحتفائهم به ما ساءه فعقد عدَّة مجالس حشدها بالقوى المنحرفة عن أهل البيت والمعادية لهم كابن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة، وزياد ابن أبيه، وعبد الله بن الزبير، وأوعز لهم بالتطاول على ريحانة الرسول، والنيل منه، ليزهد الناس فيه، ويشفي نفسه من ابن فاتح مكة، ومحطم أوثان قريش، وقد قابله هؤلاء الأوغاد بمرارة القول وبذائة الكلام، وبالغوا في الاستهتار والاعتداء عليه، وكان عليه السلام يسدد لهم سهاماً من منطقه الفيَّاض فيرديهم صرعى، يلاحقهم العار والخزي، ويلمسهم مساوءهم وما عرفوا به من الزيغ والانحطاط، كان يجيبهم ـ وهو مكره ـ، ويرد على بذائتهم وهو يقول: «أما والله لولا أنَّ بني أميَّة تنسبني إلى العجز عن المقال لكففت تهاوناً»، ولروعة كلامه، وقوَّة حجَّته كان عبد الله بن عباس يقبِّل ما بين عينيه ويقول له: «أفديك يابن العم والله ما زال بحرك يزخر وأنت تصول حتى شفيتني من أولاد. . .».

لقد كان الإمام في جميع تلك المناظرات هو الظافر المنتصر وخصومه الضعفاء قد عرتهم الاستكانة والهزيمة والذهول، وقد أوصاهم كبيرهم بعدما شاهد أشلاءهم مضرجة بطعناته، أن يجتنبوا محاوراته(١).

* وقد أقبل معاوية على الإمام عليه السلام فقال له:

«يا حسن، أنا خير منك!!».

ـ وكيف ذاك يابن هند؟!!

ـ لأنَّ الناس قد أجمعوا عليَّ، ولم يجمعوا عليك.

(١) أعلام الزركلي: ٢/ ٢١٥.

وحيث أنَّ الإمرة لم تكن في الإسلام موجبة للتمايز، وإنَّما توجبه التقوى وعمل الخير، وقد انبرى عليه السلام مبطلاً دعوى معاوية:

«هيهات!! لشر ما علوت به يابن آكلة الأكباد، المجتمعون عليك رجلان، بين مطيع ومكره، فالطائع لك عاص لله، والمكره معذور بكتاب الله، وحاشا لله أن أقول أنا خير منك لأنَّك لا خير فيك، فإنَّ الله قد برَّأني من الرذائل كما برَّأك من الفضائل»[١].

* ودخل الإمام على معاوية، فلما رأى ابن العاص ما في الإمام من عظيم الهيبة والوقار ساءه ذلك، وتميز من الغيظ والحسد فاندفع قائلاً:

«قد جاءكم الفهه العي، الذي كأنَّ بين لحييه عقله».

وكان عبد الله بن جعفر حاضراً فلذعه قوله فصاح به:

«مه، والله لقد رمت صخرة ململمة، تنحط عنها السيول، وتقصر دونها الوعول، ولا تبلغها السهام، فإيَّاك والحسن إيَّاك، فإنَّك لا تزل راتعاً في لحم رجل من قريش، ولقد رميت فما برح سهمك، وقدحت فما أورى زندك».

وسمع الإمام الحديث، فلما اكتظ مجلس معاوية بالناس انبرى عليه السلام فوجَّه خطابه إلى معاوية، فألقى عليه ذنب وزيره ابن العاص، وتهدَّده بإعلان الحرب عليه إن لم ينته عن مكره وغيه، وذكر له الصفات الرفيعة الماثلة في شخصيته الكريمة قائلاً:

«يا معاوية لا يزال عندك عبد راتعاً في لحوم الناس، أما والله لو شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الأمور، وتحرّج منه الصدور».

* ومن مناظراته القيِّمة، ومشاجراته مع خصومه التي حطَّم بها كيانهم أنَّه عليه السلام أقبل إلى معاوية فلما بصر به حاجبه أسرع إليه فعرَّفه بتشريف الإمام، فالتفت معاوية إلى بطانته قائلاً:

«إنَّه إن دخل علينا أفسد ما نحن فيه».

فقال له مروان: «إءذن له، فإنِّي أسأله عمَّا ليس عنده جواب».

فنهره معاوية وقال له: «لا تفعل، إنَّهم قوم ألهموا الكلام».

وأذن معاوية للإمام، فلما دخل قام إليه فرحب به والتفت مروان قائلاً باستهزاء:

«أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن، ويُقال إنَّ ذلك من الخرق»[٢].

---

(١) روضة الواعظين لأبي علي النيسابوري.

(٢) الخرق (بالضم) ضعف الرأي، سوء التصرف، الجهل.

فأجابه الإمام قائلاً:

«ليس كما بلغك، ولكنَّا معشر بني هاشم طيبة أفواهنا، فنساؤنا يقبلن علينا بأنفاسهن، وأنتم معاشر بني أميَّة فيكم بخر شديد[١] فنساؤكم يصرفن أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصداغكم[٢] فإنَّما يشيب موضع العذار من أجل ذلك».

فغضب معاوية وصاح بأصحابه:

«قد كنت أخبرتكم فأبيتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم، وأفسد مجلسكم».

وخرج الإمام من عندهم وقد ترك الكمد ملأ نفوسهم وهو يقول:

ومارست هذا الدهر خمسين حجَّة ... وخمساً أرجى قائلاً بعد قائل

فما أنا في الدُّنيا بلغت جسيمها ... ولا في الذي أهوى كدحت بطائل

وقد أسرعت في المنايا أكفها ... وأيقنت أنِّي رهن موت معاجل[٣]

* ودخل الإمام على معاوية وكان في مجلس ضيق فجلس عليه السلام عند رجليه فتحدث معاوية بما شاء أن يتحدث به ثم قال: «عجباً لعائشة!! تزعم أنِّي في غير ما أنا أهله، وإنَّ الذي أصبحت فيه ليس لي بحق، ما لها ولهذا يغفر الله لها، إنَّما كان ينازعني أبو هذا الجالس ـ وأشار إلى الحسن ـ وقد استأثر الله به».

فقال عليه السلام: «أوعجب ذلك يا معاوية!!».

ـ أي والله!.

ـ أفلا أخبرك بما هو أعجب؟!!

ـ ما هو؟

ـ جلوسك في صدر المجلس وأنا عند رجليك.

فضحك معاوية وراوغ على عادته وقال:

ـ يابن أخي بلغني أنَّ عليك ديناً، كم هو؟

ـ مائة ألف.

ـ أمرنا لك ثلاثمائة ألف، مائة ألف منها لدينك، ومائة ألف تقسمها في أهل بيتك خاصة، ومائة ألف لخاصة نفسك، فقم مكرماً فاقبض صلتك.

---

(١) البخر: الرائحة الكريهة في الفم.

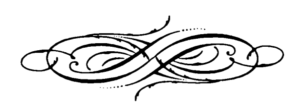
(٢) الأصداغ: جمع مفرده صدغ (بالضم) وهو ما بين العين والأذن أو الشعر المتدلي على هذ الموضع.

(٣) وفيات الأعيان: ٤/ ١٢١.

وخرج الإمام من عنده وكان يزيد حاضراً في مجلس أبيه فلما رأى حفاوته بالإمام ساءه ذلك وحينما انصرف من في المجلس اندفع قائلاً:

«تالله ما رأيت رجلاً مثلك، استقبلك بما استقبلك به ثم أمرت له بثلاثمائة ألف!».

- يا بني، إنَّ الحق حقهم فمن جاءك منهم فاحث له[1].



(١) شرح ابن أبي الحديد: ٤/ ٤.

خرق معاوية شروط الصلح

والتزمت أغلب الأُمم والشعوب على اختلاف عناصرها وأديانها بالوفاء بالعهود، وتنفيذ الشروط، وعدم مجافاتها لما تلتزم به، وذلك حرصاً منها على الروابط الاجتماعية، وحفظاً على النظام العام، وقد اهتم الإسلام بهذه الناحية اهتماماً بالغاً فأكد رعاية العهود، وضرورة الوفاء بها قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾[2] لقد دعا تعالى المسلمين ـ بهذه الآية ـ إلى أن يهبوا إلى نصرة إخوانهم في الدِّين وإلى الاشتراك معهم في عمليات الحروب إذا دعوهم إلى ذلك وقد استثنى تعالى المسلمين الذين بينهم وبين المشركين عهد وميثاق فإنَّه لا يجوز لهم خرق ذلك الميثاق، وذلك لما للعهود من الأهمية عند الله، يقول الرسول ﷺ: «المؤمنون عند شروطهم»، وقال ﷺ: «المؤمن إذا وعد وفى» ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة، أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيت. فإنَّه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود.

وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استبلوا من عواقب الغدر. فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك، ولا تختلن عدوك فإنَّه لا يجترىء على الله إلاَّ جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره..».

هذا هو موقف الإسلام تجاه المعاهدات والشروط فقد ألزم بوفائها ورعايتها، وحرم نكثها، ولنرجع بعد هذا إلى اتفاقية الصلح التي تمت بين الإمام ومعاوية، لنرى مدى الالتزام بها من الجانبين، أما ما يخص الإمام الحسن عليه السلام من الشروط التي

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٤.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

اشترطها معاوية عليه فإنَّه لم يكن سوى شرط واحد وهو أن لا يخرج الإمام عليه، وقد وفى له بذلك، فقد خف إليه خلص شيعته بعد أن أعلن معاوية نقضه للشروط التي أعطاها للإمام، فعرضوا عليه أن يخرج على معاوية، ويناجزه فأبى عليه السلام أن ينقض ما أعطاه من العهد، وبعد خروجه من الكوفة وشخوصه إلى يثرب جاءه زعماء شيعته فطلبوا منه مناجزة معاوية، وضمنوا له احتلال الكوفة وإخلائها من عامل معاوية، فامتنع عليه السلام من إجابتهم وأمرهم بالخلود إلى الصبر ـ كما تقدَّم بيان ذلك ـ.

وأما ما يخص معاوية فإنَّه قد خان بعهده، وحنث بيمينه، وكذب بمواعيده، بالرغم من أنَّه ألزم نفسه بالإيمان المغلظة والعهود المؤكدة على الوفاء بما أعطاه للإمام من شروط فقد جاء في ختام المعاهدة بتوقيعه: «وعلى معاوية بن أبي سفيان، عهد الله وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء، وبما أعطى الله من نفسه». فلم تمض أيام على إمضاء المعاهدة حتى أعلن نقضها فقال أمام المسلمين: «ألا إنَّ كل شيء أعطيته للحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به!» يقول الحصين بن نمير: «ما وفى معاوية للحسن بشيء ممَّا أعطاه، قتل حجراً وأصحاب حجر، وبايع لابنه وسم الحسن»[1].

إنَّ جميع ما شملته بنود المعاهدة من شرط قد نقضها «كسرى العرب» فلم يف بشيء منها، وقد أسفر بذلك عن سياسته التي رفعت شعار الغدر ونكث الذمم ونقض العهود والشروط التي نقضها:

١ ـ سبه لأمير المؤمنين.

٢ ـ خراج دار ابجرد: ومن جملة الشروط التي اشترطها الإمام على معاوية أن يعطيه خراج دار ابجرد ليرفه بذلك على الفقراء والمعوزين من شيعته، ولكن معاوية قد خاس بذلك ولم يف به كما صرَّح بذلك أبو الفداء.

٣ ـ شيعة أمير المؤمنين: ومن أهم الشروط التي اشترطها الإمام على خصمه الأمن العام لشيعته وشيعة أبيه وعدم التعرُّض لهم بسوء أو مكروه ولكن ابن أبي سفيان قد نقض عهده فلم يف للإمام بذلك، وجعل أهم أهدافه القضاء على هذه الطبقة المؤمنة التي آمن بحق أهل البيت عليهم السلام، ومن الشُّهداء الذين قتلهم معاوية لا لذنب اقترفوه سوى مودَّتهم لأهل البيت عليهم السلام:

---

(١) شرح ابن أبي الحديد: ١٦/٤.

حجر بن عدي: وهو من أهم الشخصيات الرفيعة فقد كان من طليعة صحابة النَّبي ﷺ.

ضحايا العقيدة من أصحاب حجر:

ولم يذق حجر الحمام ويقتل صبراً وحده فقد قتل معه ومن بعده جماعة من أصحابه المثاليين الذين ضحّوا بحياتهم الغالية تجاه عقيدتهم الدينية، ومبدأهم المقدَّس غير مبالين بالموت، وها نحن نذكر أسماءهم مع ما جرى عليهم من العسف والتنكيل من قبل معاوية وولاته:

أ ـ عبد الرحمن: وكان عبد الرحمن بن حسان العنزي في طليعة أصحاب حجر.

ب ـ صيفي بن فسيل: وصيفي بن فسيل الشيباني من أبطال المسلمين وعباقرتهم وأفذاذهم ومن خيرة أصحاب حجر.

ج ـ قبيصة بن ربيعة: وهو من جملة أصحاب حجر.

وأما بقية أصحاب حجر الذين استشهدوا معه فلم نعثر على معلومات وافية عنهم، ونشير إلى أسمائهم وهم:

شريك بن شداد الحضرمي.

كدام بن حيان العنزي.

محرز بن شهاب التميمي.

وهؤلاء الحماة الذين قدموا نفوسهم ضحايا للعقيدة، وقرابين للحق.

رشيد الهجري: ورشيد الهجري يُعدُّ في طليعة رجال الإسلام ورعاً وتقى وعلماً وفضلاً، فقد تتلمذ في مدرسة أمير المؤمنين ونال الكثير من علومه ومعارفه فكان عليه السلام يسميه (رشيد البلايا).

عمرو بن الحمق الخزاعي: وكان عمرو بن الحمق يحمل شعوراً دينياً قوياً حياً، وكان من خيرة الصحابة في ورعه وتقواه، وهو الذي سقى النبي لبناً فدعا له ﷺ بأن يمتعه الله بشبابه، فاستجاب الله دعاء نبيه فأخذ عمرو بعنق الثمانين عاماً ولم تُر في كريمته شعرة بيضاء[1].

---

(١) الإصابة: ٢/٥٢٦.

أوفى بن حصن: وكان أوفى بن حصن من المنددين بالسياسة الأموية، ومن الناقدين لسلطتهم، وكان يذيع مساوئهم بين أوساط الكوفيين.

جويرية بن مسهر العبدي: وكان جويرية من خلُّص أصحاب الإمام أمير المؤمنين ومن حملة حديثه ومن المقربين عنده.

عبد الله بن يحيى الحضرمي: وكان عبد الله الحضرمي من أولياء أمير المؤمنين ومن صفوة أصحابه وكان من شرطة الخميس(١).

ولم يقتصر معاوية في عدائه للشيعة على قتل زعمائهم، فقد قام بأمور بالغة الخطورة وهي:

هدم دور الشيعة.

عدم قبول شهادة الشيعة.

إشاعة الإرهاب والاعتقال.

ونحن نذكر أسماءهم مع ما جرى عليهم من العسف والظلم وهم:

١ ـ **محمد بن أبي حذيفة:** محمد بن أبي حذيفة يُعدُّ في طليعة ثقات الإسلام ومن خيرة صلحاء المسلمين فقد كان من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

٢ ـ **عبد الله بن هاشم المرقال:** ومن زعماء الشيعة وعيونهم الذين روعهم معاوية الزعيم المثالي عبد الله بن هاشم المرقال.

٣ ـ **عبد الله بن خليفة الطائي:** وعبد الله بن خليفة الطائي ممَّن عرف بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين.

٤ ـ **صعصعة بن صوحان:** وصعصعة بن صوحان من سادات العرب وفصحائهم النابهين وخطبائهم المفوهين كان من ذوي الفضيلة والدِّين.

٥ ـ **عدي بن حاتم:** وعدي بن حاتم من أهم الشخصيات الرفيعة الفذة في العراق، فقد كان قبل الإسلام يتمتع بمجد أصيل وشرف أثيل، فهو ابن حاتم مضرب المثل في الجود والسخاء ومن أبطال العقيدة، ومن عيون المؤمنين، ومن رجال الإسلام البارزين.

٦ ـ **جارية بن قدامة:** ووفد جارية بن قدامة السعدي على معاوية، فقال له معاوية:

---

(١) الخميس: اسم من أسماء الجيش سمي به لأنَّه قد قسم إلى خمسة أقسام المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساقة.

ـ أنت الساعي مع علي بن أبي طالب، والموقد النار في شعلك، تجوس قرى عربية تسفك دماءهم؟

ـ يا معاوية دع عنك علياً، فما أبغضنا علياً منذ أحببناه، ولا غششناه منذ صحبناه.

ـ ويحك يا جارية!! ما كان أهونك على أهلك إذ سموك جارية!!

ـ أنت يا معاوية كنت أهون على أهلك إذ سموك معاوية!

ـ لا أمّ لك.

ـ أم ما ولدتني، إن قوائم السيوف التي لقيناك بها بصفين في أيدينا.

ـ إنَّك لتهددني؟

ـ إنَّك لم تملكنا قسرة، ولم تفتحنا عنوة، ولكن أعطيتنا عهوداً ومواثيق، فإن وفيت لنا وفينا، وإن ترغب إلى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالاً مداداً، وأدرعاً شداداً، وأسنَّة حداداً، فإن بسطت إلينا فتراً من غدر، زلفنا إليك بباع من ختر.

ـ لا كثر الله في الناس من أمثالك.

وتركه جارية والأسى ملأ أهابه[١]، لقد لقي جارية هذا الهوان، والتبكيت من أجل ولائه للعترة الطاهرة التي فرض الله مودتها على جميع المسلمين.

ترويع نساء الشيعة:

ولم يقتصر معاوية في إرهابه واضطهاده على رجال الشيعة وزعمائهم فقد أخذ يتحرى نساءهم فما ذكرت له امرأة منهم ذات مكانة مهمة إلاَّ وبعث خلفها فقابلها بالاستخفاف والاستهانة، واللاتي وفدن عليه مع ما جرى بينهن وبينه من الحديث:

١ ـ **الزرقاء بنت عدي**: وكانت الزرقاء بنت عدي بن غالب ممَّن عرفت بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين عليه السلام.

٢ ـ **أمّ الخير البارقية**: كانت أمّ الخير بنت الحريش البارقية من سيدات النساء ومن البليغات البارعات، وقد عرفت بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين عليه السلام.

٣ ـ **سودة بنت عمارة**: وسودة بنت عمارة بن الأشتر الهمداني من سيدات نساء العراق، ومن ربات الفصاحة والبيان، ورثت حب أمير المؤمنين من آبائها الكرام الذين عرفوا بالحب والإخلاص له.

(١) تأريخ الخلفاء: ص١٩٩.

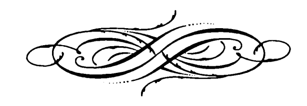
٤ ـ **أُمّ البراء بنت صفوان:** وكانت أُمّ البراء بنت صفوان بن هلال من سيدات النساء في عفتها وطهارة ذيلها، عرفت بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين عليه السلام.

٥ ـ **بكارة الهلالية:** وبكارة الهلالية من سيدات النساء الموصوفات بالشجاعة والإقدام والفصاحة والبلاغة، كانت من أنصار أمير المؤمنين في واقعة صفين.

٦ ـ **أروى بنت الحارث:** وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب من سيدات نساء المسلمين في إقدامها وشجاعتها وحسن منطقها، قد عرفت بالولاء والحب لأمير المؤمنين عليه السلام.

٧ ـ **عكرشة بنت الأطرش:** وعكرشة بنت الأطرش سيدة جليلة تُعدُّ في طليعة نساء العرب في شجاعتها، وقوّة بيانها، كانت في صفين تدعو الناس إلى نصرة الإمام ومناجزة عدوه.

٨ ـ **الدارمية الحجونية:** ومن سيدات النساء وخيارهن الدارمية الحجونية، عرفت بالصلاح والنسك، وبقوّة الحجّة، وشدة العارضة، قد والت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.



أزواجه وعقبه

وتساءل السائلون عن كثرة أزواج الإمام الحسن عليه السلام وأرجف المرجفون في ذلك، وقد بلغ الحقد وسوء الظن ببعض الجاهلين أن قالوا إنَّه إنَّما تزوج بهذه الكثرة إجابة لداعي الهوى وإشباعاً للشهوة، وما عرفوا أنَّ الإمام بعيد كل البعد عن الانقياد لهذه الغرائز فهو سيِّد شباب أهل الجنَّة وممَّن نطق القرآن الكريم بعصمته وطهارته. وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ كثرة زواج الإمام لا تنافي سيرته وهديه واستدلوا على ذلك بأُمور منها:

١ ـ أنَّه لا مانع بحسب الشريعة الإسلامية من كثرة الزواج، فقد ندب الإسلام إليه كثيراً، وقد اشتهرت كلمة المنقذ الأعظم في الحث على ذلك قد قال ﷺ: «تناكحوا تناسلوا حتى أباهي بكم الأُمم يوم القيامة ولو بالسقط».

٢ ـ إنَّما تزوج بهذه الكثرة لتقوى شوكته، ويشتد أزره بالمصاهرة على الأمويين الذين بذلوا جميع جهودهم للقضاء على الهاشميين وتحطيم كيانهم ومحو ذكرهم.

٣ ـ إنَّ أولياء النسوة كانوا يعرضون بناتهم على الإمام ويلحون عليه بالتزويج بهن لأجل التشرف به، والتقرب إليه، فهو حفيد النبي ﷺ وسبطه الأكبر، وسيِّد شباب أهل الجنَّة.

وقد بقي علينا أن نشير إلى أسماء أزواجه اللاتي ذكرهن المؤرخون مع بيان ما عثرنا عليه من تراجمهن وإليك ذلك:

١ ـ خولة الفزارية.

وخولة بنت منظور الفزارية من سيدات النساء في وفور عقلها وكمالها.

٢ ـ جعدة بنت الأشعث.

واختلف المؤرخون في اسمها، فقيل سكينة، وقيل شعثاء، وقيل عائشة، والأصح أنَّها جعدة حسب ما ذكره أكثر المؤرخين[١].

---

(١) مقاتل الطالبيين: ص٣٣ وغيره.

٣ ـ عائشة الخثعمية.

ومن جملة أزواج الإمام عائشة الخثعمية تزوجها في حياة أمير المؤمنين.

وأما بقية أزواجه اللاتي لم نعثر على تراجمهن فهن:

٤ ـ أمّ كلثوم بنت الفضل بن العباس.

٥ ـ أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمي.

٦ ـ أمّ بشير بنت أبي مسعود الأنصاري.

٧ ـ هند بنت عبد الرحمن بن أبي بكر.

٨ ـ امرأة من بنات عمرو بن أهيم المنقري.

٩ ـ امرأة من ثقيف، أولدت له ولداً أسماه عمراً.

١٠ ـ امرأة من بنات زرارة.

١١ ـ امرأة من بني شيبان من آل همام بن مرة.

١٢ ـ أمّ عبد الله، وهي بنت الشليل بن عبد الله أخو جرير البجلي.

١٣ ـ أمّ القاسم، وهي أمّ ولد، وقيل اسمها نفيلة، وقيل رملة.

فمجموع ما تزوجه الإمام من النساء هذا العدد المذكور لم يتجاوزه بقليل، وهو كما ترى لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة، إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن أزواج الإمام، وقد بقي علينا الإشارة إلى عدد أولاده ذكوراً وإناثاً، وقد اختلف المؤرخون في ذلك اختلافاً كثيراً فقد روي أنّهم:

١ ـ اثنا عشر، ثمانية ذكوراً وأربع بنات[١].

٢ ـ خمسة عشر، الذكور إحدى عشر، والإناث أربع.

٣ ـ ستة عشر، الذكور إحدى عشر، والإناث خمس.

٤ ـ تسعة عشر، الذكور ثلاثة عشر، والبنات ست.

٥ ـ عشرون، ستة عشر ذكراً، وأربع بنات.

٦ ـ اثنان وعشرون، الذكور أربعة عشر، والإناث ثمان.

وقيل غير ذلك، وقد اتفق المؤرخون أنّه لم يعقب أحد من أولاده سوى الحسن وزيد، أما أعلام أولادهم فهم:

(١) الإرشاد.

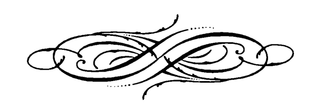
١ ـ **القاسم**: وفي طليعة أولاد الإمام الحسن القاسم، وقد استشهد معع عمه سيِّد الشُّهداء في واقعة كربلاء.

٢ ـ **أبو بكر**: واسمه عبد الله، أُمّه أُمّ ولد[١] يُقال لها رملة[٢] برز يوم الطف يحامي عن دين الله، ويذب عن ريحانة رسول الله ﷺ، فاستشهد في تلك الواقعة.

٣ ـ **عبد الله**: استشهد مع عمه سيِّد الشُّهداء في كارثة كربلاء، وله من العمر إحدى عشر سنة.

٤ ـ **زيد**: وزيد أُمّه خزرجية كان جليل القدر، كريم الطبع، كثير البر والإحسان.

٥ ـ **الحسن**: كان الحسن سيِّداً جليلاً عظيم القدر، وهو وصي أبيه، ووالي صدقته[٣]، حضر مع عمه الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء، فقاتل معه.



(١) تأريخ الطبري: ٦/٢٦٩.

(٢) الحدائق الوردية: ص١٠٧.

(٣) الحدائق الوردية: ص١٠٧.

نهاية المطاف

وحقق معاوية جميع ما يصبو إليه في هذه الحياة ونال من دنياه كل ما اشتهى وأراد ولكن بقيت عنده فكرة واحدة تراوده في جميع أوقاته قد أقضت مضجعه، لو تمت لتم له كل شيء بحسابه وهي جعل الخلافة والملك العضوض وراثة في أبنائه وذريته، وقد بذل جميع جهوده ومساعيه في تحقيق ذلك، فأدنى الأباعد، وأنفق الأموال الطائلة، وسافر إلى يثرب مع ما هو فيه من الشيخوخة والضعف، فلم يظفر بذلك ما دام الإمام الحسن حياً، فعلم أنَّه لا يتمكن من إنجاز مهمته إلاَّ باغتيال شخصية الإمام التي ينتظر دورها العادل جميع المسلمين لينتشر العدل ويعمُّ الخير والرفاهية في جميع أنحاء البلاد.

وأخذ معاوية يفكِّر في ذلك فيطيل التفكير، ويقلب الرأي على وجوهه بأي وسيلة يتوصل إلى تحقيق أمنيته، فمثل أمامه قوله الذي ضربه مثلاً للفتك والغدر: «إنَّ لله جنوداً من عسل»، وقد طبق ذلك فنجح به مع سعد بن أبي وقاص، والزعيم مالك الأشتر، فانحصرت وسيلته بتطبيق ذلك فأرسل إلى الإمام غير مرة سماً مميتاً حين ما كان في دمشق فلم ينجح به، فراسل عاهل الروم يطلب منه أن يبعث إليه سماً فاتكاً سريع التأثير فامتنع من إجابته قائلاً له: «إنَّه لا يصلح لنا في ديننا أن نعين على قتال من لا يقاتلنا» إنَّ ملك الروم لم يسمح له دينه أن يغتال بريئاً، ولكن معاوية قد استباح ذلك وأعرب عن كفره، فراسله مرة ثانية يخبره بمشروعية هذا الأمر قائلاً: «إنَّ هذا الرجل ابن الذي خرج بأرض تهامة ـ يعني رسول الله ـ قد خرج يطلب ملك أبيه، وأنا أريد إليه السم، فأريح منه العباد والبلاد» لقد استحل اغتيال الإمام لأنَّه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي حطم أوثان الجاهلية، وقضى على الشرك، وقد وجد ملك الروم عند ذلك مجالاً فبعث إليه سماً مميتاً[1]، ولما وصل السم إلى معاوية جعل يفكِّر في إيصاله إلى الإمام فاستعرض أقرباء الإمام ومن يمت إليه فلم يجد أحداً يعينه على ارتكاب هذه الجريمة، فاستعرض ثانياً أزواج الإمام فوجد في جعدة بنت الأشعث طلبته فأبوها الذي أرغم أمير المؤمنين على

(١) البحار: ١٠/١٧٣.

قبول التحكيم وأفسد جيشه ولعلَّه يجد في ابنته تحقيق آربه وبلوغ أمنيته فأرسل إليها السم بتوسط الأثيم مروان بن الحكم وأمره أن يمنيها بزواج يزيد وأن يقدم لها [illegible]ة ألف درهم(١) وحري بهذه الأثيمة أن تجيب نداء ابن هند فهي من أسرة انتهازية لها تأريخها الأسود فقد جبلت على الطمع وعلى الاستجابة لجميع الدوافع المادية، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام فيها: «إنَّ الأشعث شرك في دم أمير المؤمنين، وابنته جعدة سمت الحسن، وابنه شرك في دم الحسين»(٢). ويضاف لذلك أنَّ جعدة كانت مصابة بالعقد النفسية لأنَّها لم ترزق من الإمام ولداً، وكانت تعامل في بيتها معاملة عادية.

ولما وصل السم إلى مروان حمله إليها فقدم لها الأموال ومناها بزواج يزيد إن أجابت طلبته، فأخذ الشيطان يوسوس لها فانخدعت وفرحت بالأموال وباقترانها بيزيد، فوافقت على ارتكاب الجريمة فأخذت منه السم وكان الإمام صائماً في وقت شديد الحر فأخرجت له إفطاره وألقت السم في لبن فتناول منه الإمام جرعة فلما وصل إلى جوفه تقطعت أمعاؤه، فقال عليه السلام لما أحس بألمه الشديد:

«إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، الحمد لله على لقاء محمد سيِّد المرسلين وأبي سيِّد الوصيين، وأُمِّي سيِّدة نساء العالمين، وعمي جعفر الطيار، وحمزة سيِّد الشُّهداء».

ثم التفت إلى جعدة فقال لها:

«يا عدوة الله، قتلتيني قتلك الله، والله لا تصيبين منِّي خلفاً، ولقد غرك ـ يعني معاوية ـ وسخر منك يخزيك الله ويخزيه»(٣).

لقد أخزاها الله فلقد أصبحت مضرب المثل للسوء والخزي والإثم والخيانة فقد أصبحت عاراً لذريتها وأبنائها من غير الإمام فقد وصموا بأبناء مسممة الأزواج(٤) ولقد سخر منها معاوية فلم يف لها بزواج يزيد حيث طلبت منه ذلك فقد ردها بسخرية واستهزاء قائلاً:

«إنَّا نحب حياة يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه!!»(٥).

ولما وصل السم إلى جوف الإمام عليه السلام أخذ يعاني آلام الموت فلقي في فراش

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣٥٣.
(٢) أعيان الشيعة: ٤/ ٧٨.
(٣) تحف العقول: ص٣٩١.
(٤) أعيان الشيعة: ٤/ ٧٦.
(٥) مروج الذهب: ٢/ ٣٠٣.

المرض أربعين يوماً[١]، وقيل: شهرين[٢] وفي كل يوم تزداد فعالية السم في جسمه حتى ذاب قلبه الشريف من الألم، ذلك القلب الذي يضم الحب والعطف للناس جميعاً، ودخل عليه عائداً شقيقه الحسين فلما رآه وهو خابىء اللون، معصوب الرأس، قد ذابت حشاه من السم التفت إليه وقد أذهله المصاب، وأفزعه الخطب قائلاً:

«أخي من سقاك السم؟».

ـ وما تريد منه؟

ـ أريد أن أقتله.

«إن يكن الذي أظنه فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وإن لم يكن هو فما أحب أن يقتل بي بريء»[٣].

وهكذا كان عليه السلام محتاطاً في الدماء حريصاً عليها، لا يحب أن يهراق في أمره ملأ محجمة دماً، وجيء له بطبيب ففحصه فحصاً دقيقاً وبعد الإمعان في التشخيص يئس منه فالتفت إلى أهله قائلاً لهم:

«إنَّ السم قد قطع أمعاؤه»[٤].

فعند ذلك يئس الإمام من حياته، ودخل عليه عائداً الصحابي العظيم جنادة بن أبي أميَّة فالتفت إلى الإمام قائلاً:

«عظني يابن رسول الله».

فأجاب عليه السلام طلبته وهو في أشد الأحوال حراجة، وأقساها ألماً ومحنة فأتحفه بهذه الكلمات الذهبية التي هي أغلى وأثمن من الجوهر وقد كشفت عن أسرار إمامته، قائلاً:

«يا جنادة، استعد لسفرك، وحصل زادك قبل حلول أجلك، واعلم أنَّك تطلب الدُّنيا والموت يطلبك، ولا تحمل همّ يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه، واعلم أنَّك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلاَّ كنت فيه خازناً لغيرك، واعلم أنَّ الدُّنيا في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، وفي الشُّبهات عتاب، فأنزل الدُّنيا بمنزلة الميتة خذ منها ما يكفيك فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيه، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر فأخذت منه كما أخذت من الميتة، وإن كان العقاب فالعقاب يسير، واعمل

(١) دائرة المعارف للبستاني: ٧/٣٨.
(٢) حياة الحيوان للدميري: ١/٥٣.
(٣) الاستيعاب: ١/٣٧٤.
(٤) البداية والنهاية: ٨/٤٣.

لدنياك كأنَّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله عزَّ وجلَّ، وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك، وإذا أخذت منه صانك، وإذا أردت منه معونة أعانك وإن قلت صدّق قولك، وإن صلت شدّ صولتك، وإن مددت يدك بفضل مدّها، وإن بدت منك ثلمة سدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن سألته أعطاك، وإن سكت عنه ابتداك، وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق، وإن تنازعتما منقسماً آثرك»[١].

ودخل على الإمام عائداً عمير بن إسحاق فالتفت عليه السلام له قائلاً:

«يا عمير سلني قبل أن لا تسلني!».

وثقل على عمير أن يسأله وهو بهذه الحالة فقال له:

«لا والله لا أسألك حتى يعافيك الله ثم أسألك»[٢].

والتفت عليه السلام إلى أهل بيته معرباً لهم عمَّا يعانيه من ألم السم، «لقد ألقيت طائفة من كبدي، وإنّي سقيت السم مراراً، فلم أسقه مثل هذه المرة، لقد لفظت قطعة من كبدي، فجعلت أقلبها بعود معي»[٣].

ودخل عليه عائداً أخوه سيِّد الشُّهداء فلما نظر إلى ما يعانيه من ألم السم غامت عيناه بالدموع، فنظر إليه الحسن فقال له:

ـ ما يبكيك يا أبا عبد الله؟

ـ أبكي لما صنع بك.

واستشف الإمام الحسن بما سيجري على أخيه من بعده فهان عليه ما هو فيه، وأرخى عينيه بالدموع وقال له بنبرات مرتعشة حزينة:

«إنَّ الذي أوتي إليَّ سم أقتل به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله وقد ازدلف إليك ثلاثون ألفاً، يدعون أنَّهم من أُمَّة جدنا محمد ﷺ وينتحلون دين الإسلام،

---

(١) أعيان الشيعة: ٤/ ٨٥.
(٢) صفة الصفوة: ١/ ٣٢٠.
(٣) شرح ابن أبي الحديد: ٤/ ١٧.

فيجتمعون على قتلك، وسفك دمك، وانتهاك حرمتك، وسبي ذراريك ونسائك، وانتهاب ثقلك..»[١].

وصيته للحسين:

ولما ازداد ألمه وثقل حاله علم أنَّه قد قرب دنوه من دار الآخرة، وبعده عن هذه الدُّنيا، فاستدعا أخا سيِّد الشُّهداء فأوصاه بوصيته وعهد إليه بعهده، وقد روت الشيعة وصيته بلون لا يتفق مع ما روته أبناء السُّنَّة والجماعة.

أما ما روته الشيعة فهذا نصه:

«هذا ما أوصى به الحسن بن علي إلى أخيه الحسين، أوصى أنَّه يشهد أن لا إلّه إلاَّ الله،وحده لا شريك له، وأنَّه يعبده حقَّ عبادته، لا شريك له في الملك، ولاولي له من الذل، وأنَّه خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأنَّه أولى من عبد، وأحق من حمد، من أطاعه رشد، ومن عصاه غوى، ومن تاب إليه اهتدى، فإنِّي أوصيك يا حسين بمن خلفت من أهلي وولدي وأهل بيتك، أن تصفح عن مسيئهم، وتقبل من محسنهم وتكون لهم خلفاً ووالداً، وأن تدفنني مع رسول الله صلى الله عليه وآله فإنِّي أحق به وببيته، فإن أبوا عليك فأنشدك الله وبالقرابة التي قرب الله منك، والرحم الماسة من رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا يهراق من أمري محجمة من دم حتى تلقى رسول الله فتخصمهم وتخبره بما كان من أمر الناس إلينا»[٢].

وصيته لمحمد بن الحنفية:

ومشى الموت إلى الإمام عليه السلام فعلم أنَّه على أبواب الآخرة، فأمر قنبراً أن يحضر أخاه محمد بن الحنفية، فمضى إليه مسرعاً فلما رآه محمد ذُعر فقال:

«هل حدث إلاَّ خير؟».

فأجابه بصوت خافت: «أجب أبا محمد».

فذهل محمد واندهش وخرج يعدو حتى أنَّه لم يسوِ شسع نعله من كثرة ذهوله، فدخل على أخيه وهو مصفر الوجه قد مشت الرعدة بأوصاله فالتفت عليه السلام له:

«إجلس يا محمد، فليس يغيب مثلك عن سماعِ كلام تحيي به الأموات وتموت به الأحياء، كونوا أوعية العلم، ومصابيح الدجى، فإنَّ ضوء النهار بعضه أضوء من بعض،

---

(١) البحار: ١٠/ ١٢٣.
(٢) أعيان الشيعة: ٤/ ٧٩.

أما علمت أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل ولد إبراهيم أئمة، وفضَّل بعضهم على بعض، وآتى داود زبوراً، وقد علمت بما استأثر الله به محمداً ﷺ، يا محمد بن علي إنِّي لا أخاف عليك الحسد، وإنَّما وصف الله به الكافرين، فقال تعالى: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[١]، ولم يجعل الله للشيطان عليك سلطاناً، يا محمد بن علي ألا أخبرك بما سمعت من أبيك فيك؟».

- بلى.

- سمعت أباك يقول يوم البصرة: من أحب أن يبرني في الدُّنيا والآخرة فليبر محمداً، يا محمد بن علي لو شئت أن أخبرك وأنت نطفة في ظهر أبيك لأخبرتك، يا محمد بن علي أما علمت أنَّ الحسين بن علي بعد وفاة نفسي، ومفارقة روحي جسدي إمام بعدي، وعند الله في الكتاب الماضي وراثة النبي ﷺ أصابها في وراثة أبيه وأُمّه، علم الله أنَّكم خير خلقه فاصطفى منكم محمداً، واختار محمد علياً، واختارني علي للإمام واخترت أنا الحسين.

فانبرى إليه محمد مظهراً له الطاعة والانقياد قائلاً:

«أنت إمامي، وأنت وسيلتي إلى محمد ﷺ، والله لوددت إنَّ نفسي ذهبت قبل أن أسمع منك هذا الكلام، ألا وإنَّ في رأسي كلاماً لا تنزفه الدلاء، ولا تغيره بعد الرياح، كالكتاب المعجم في الرق المنهنم، أهم بإبدائه فأجدني سبقت إليه سبق الكتاب المنزل، وما جاءت به الرسل وإنَّه لكلام يكل به لسان الناطق، ويد الكاتب، ولا يبلغ فضلك، وكذلك يجزي الله المحسنين، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، إنَّ الحسين أعلمنا علماً وأثقلنا حلماً، وأقربنا من رسول الله ﷺ رحماً، كان إماماً فقيهاً قبل أن يخلق، وقرأ الوحي قبل أن ينطق، ولو علم الله أنَّ أحداً خير منَّا ما اصطفى محمداً منَّا، فلما اختار محمد علياً إماماً، واختارك علي بعده واخترت الحسين بعدك سلمنا ورضينا بمن هو الرِّضا»[٢].

وذكر الدينوري: أنَّ الإمام في ساعاته الأخيرة بعث خلف أخيه محمد وكان في ضيعة له، فلما مثل عنده فتح عليه السلام عينيه، وكان مغمى عليه، فالتفت إلى أخيه الحسين أولاً موصياً له بمحمد قائلاً له:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٢) محمد بن الحنفية: ص٥٢.

«يا أخي، أوصيك بمحمد خيراً، فإنَّه جلدة ما بين العينين».

ثم التفت إلى محمَّد:

«يا محمد، وأنا أوصيك بالحسين كانفه ووازره»(١).

إلى الرفيق الأعلى:

وثقل حال الإمام واشتد به الوجع فأخذ يعاني آلام الاحتضار فعلم أنَّه لم يبق من حياته الغالية إلاَّ بضع دقائق فالتفت إلى أهله قائلاً:

«أخرجوني إلى صحن الدار» فلما استقر به رفع رأسه إلى السماء وأخذ يناجي ربه ويتضرع إليه قائلاً:

«اللهم إنِّي أحتسب عندك نفسي فإنَّها أعز الأنفس عليَّ لم أصب بمثلها، اللهم آنس صرعتي، وآنس في القبر وحدتي».

ثم حضر في ذهنه غدر معاوية به، ونكثه للعهود، واغتياله إيَّاه فقال:

«لقد حاقت شربته، والله ما وفى بما وعد، ولا صدق فيما قال»(٢).

وأخذ يتلو آي الذِّكر الحكيم ويبتهل إلى الله ويناجيه حتى فاضت نفسه الزكية إلى جنَّة المأوى، وسمت إلى الرفيق الأعلى، تلك النفس الكريمة التي لم يخلق لها نظير فيما مضى من سالف الزمن، وما هو آت حلماً وسخاءً وعلماً وعطفاً وحناناً وبراً على الناس جميعاً.

لقد مات حليم المسلمين، وسيِّد شباب أهل الجنَّة، وريحانة الرسول وقرة عينه، فأظلمت الدُّنيا لفقده، وأشرقت الآخرة بقدومه.

وارتفعت الصيحة من بيوت الهاشميين، وعلا الصراخ والعويل من بيوت يثرب، وهرع أبو هريرة وهو باك العين، مذهول اللب إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ينادي بأعلى صوته:

«يا أيُّها الناس، مات اليوم حب رسول الله صلى الله عليه وآله فابكوا»(٣).

(١) الأخبار الطوال: ص٢٠٣.
(٢) تذكرة الخواص: ص٢٣.
(٣) تهذيب التهذيب: ٢/ ٣٠١.

تجهيز الإمام:

وأخذ سيِّد الشُّهداء في تجهيز أخيه وقد أعانه على ذلك عبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن جعفر، وعلي بن عبد الله بن عباس، فغسله وكفنه وحنطه وهو يذرف من الدموع مهما ساعدته الجفون، وبعد الفراغ من تجهيزه أمر عليه السلام بحمل الجثمان المقدَّس إلى مسجد الرسول لأجل الصلاة عليه[١].

الصلاة على الجثمان:

وحمل الجثمان المقدَّس من ثوي الإمام إلى مسجد النبي ﷺ على أطراف الأنامل قد حفت به الوجوه والأشراف، فوضع في الجامع فتقدم الإمام الحسين عليه السلام فصلَّى عليه وقد ائتمت به بقية الصحابة والناس على اختلاف طبقاتهم.

الفتنة الكبرى:

واتجهت مواكب التشييع نحو المرقد النبوي ليجدِّدوا بالجثمان الطاهر عهداً عند جده ويوارونه بجواره، ولما علم الأمويون ذلك تكتلوا وانضم بعضهم إلى بعض فقد دفعتهم الأنانية والعداء للهاشميين إلى إحداث المعارضة والشغب في دفن الإمام بجوار جده ذلك لأنَّهم رأوا أنَّ عميدهم عثمان قد دفن في حش كوكب مقبرة اليهود، ويدفن الحسن مع جده فيكون ذلك عاراً عليهم وخزياً، وأخذوا يهتفون بلسان واحد:

«يا رب هيجاء، هي خير من دعة، أيدفن عثمان بأقصى المدينة، ويدفن الحسن عند جده!!؟».

وانعطف مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص نحو عائشة وهما يستفزانها ويستنجدان بها في مناصرتهم، وقد عرفا دخيلة نفسها وما تكنه من الموجدة والغيرة والحسد لولد علي وفاطمة قائلين لها:

«يا أم المؤمنين، إنَّ الحسين يريد أن يدفن أخاه الحسن مع رسول الله والله لئن دفن الحسن بجوار جده ليذهبن فخر أبيك، وصاحبه عمر إلى يوم القيامة».

وألهبت هذه الكلمات نار الثورة في نفسها فاندفعت بغير اختيار لمناصرتهما كما اندفعت قبل ذلك لحرب أمير المؤمنين عليه السلام لا على أساس وثيق، بل للعاطفة والميول التي طبعت المرأة نفسياً على الانقياد إليهما، والتفتت إلى مروان قائلة:

---

(١) أعيان الشيعة: ٤/ ٨٠.

«ما أصنع يا مروان؟».

ـ الحقي به، وامنعيه من أن يدفن معه.

فقامت مسرعة مدهوشة، فجيء لها ببغلة فامتطتها وأقبلت إلى مواكب التشييع الحاشدة، وهي تصيح بلا اختيار قائلة:

«لا تُدخلوا بيتي من لا أحب!! إن دفن الحسن في بيتي لتجز هذه ـ وأومأت إلى ناصيتها ـ»[١].

نعم استجابت عائشة لرغبات الأمويين، وانطلقت في موكبهم فمنعت سبط النبي أن يدفن مع جده، وما راعت حرمة العترة الطاهرة التي فرض الله مودتها في كتابه الكريم، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ولما رأى الهاشميون موقف بني أميَّة ومنعهم من دفن الإمام بجوار جده عزموا على مناجزتهم، فانحاز كل منهما في جانب، وهمَّ بعضهم على بعضهم بالهجوم، فلما رأى الإمام الحسين عليه السلام ذلك بادر نحو الهاشميين فصاح بهم:

«الله الله يا بني هاشم، لا تضيعوا وصية أخي، واعدلوا به إلى البقيع، فإنَّه أقسم عليَّ إن أنا منعت من دفنه مع جده أن لا أخاصم فيه أحداً وأن أدفنه في البقيع مع أُمّه».

ثم التفت إلى الأمويين فقال لهم:

«والله لولا عهد الحسن إليَّ أن لا أهريق في أمره محجمة من دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها، وقد نقضتم العهد الذي بيننا وبينكم، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا».

ثم أمر عليه السلام بحمل الجثمان المقدَّس إلى البقيع، فحمل على الأنامل قد حفَّ به لهاشميون والطالبيون وهم يذرفون الدموع، ويصعدون من الحسرات ما يسعره الألم، ند أخذتهم المائقة، وأذاب الحزن قلوبهم على فقيدهم العظيم، وعلى ما ارتكبه لأمويون منهم.

وجيء بالجثمان الطاهر إلى البقيع فأودع في مقره الأخير بجواد جدته فاطمة بنت سد[٢] لقد أودع في الثرى ريحانة الرسول وسبطه، فاقبر معه الحلم والكرم والفضل.

---

١) شرح النهج: ٤/ ١٨، والسبط الجوزي في تذكرة الخواص: ص٢٢٣، واليعقوبي في تاريخه: ١/ ٢٠٠، وأبو الفداء في تاريخه: ١/ ١٩٢.

٢) كفاية الطالب: ص٢٦٨ وغيره.

على حافة القبر:

ووقف سيِّد الشُّهداء على حافة القبر وهو شاخص العين لم يطرف له هدب، ولم يهدأ له قلب، وأخذ يؤبّن أخاه، ويصوغ من حزنه كلمات:

«رحمك الله أبا محمد، إن كنت لتباصر الحق مظانه، وتؤثر الله عند التداحض في مواطن التقية بحسن الروية، وتستشف جليل معاظم الدُّنيا بعين لها حاقرة، وتفيض عليها يداً طاهرة الأطراف، نقية الأسرة، وتردع بادرة غرب أعدائك بأيسر المؤنة عليك، ولا غرو فأنت ابن سلالة النبوة، ورضيع لبان الحكمة، فإلى روح وريحان، وجنَّة ونعيم، أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه، ووهب لنا ولكم حسن الأسى[(١)] عنه»[(٢)].

وأقبل أخوه، الثاكل الحزين محمد بن الحنفية فوقف على حافة القبر كأنَّه يعاني آلام الاحتضار قد استجاب لأحاسيس نفسه الولهى، وقلبه المتصدع الذي ليس فيه فراغ لغير الأسى والحزن وهو يصوغ من حزنه كلمات قائلاً:

«رحمك الله يا أبا محمد، فوالله لئن عزت حياتك لقد هدت وفاتك ولنعم الرُّوح روح عمَّر بدنك، ونعم البدن بدن تضمنه كفنك، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك، وكيف لا تكون كذلك وأنت سليل الهدى، وحليف أهل التقى، وخامس أصحاب الكساء، وجدك المصطفى، وأبوك المرتضى، وأُمّك فاطمة الزهراء، وعمك جعفر الطيار في جنَّة المأوى، غذتك أكف الحق، وربيت في حجر الإسلام، وأرضعتك ثدي الإيمان فطبت حياً وميتاً، وإن كانت أنفسنا غير قالية لحياتك، ولا شاكة في الخيار لك، وإنَّك وأخاك لسيِّدا شباب أهل الجنَّة، فعليك أبا محمد منَّا السلام»[(٣)].

واجتمع زعماء الشيعة وشخصياتهم في ثوي سليمان بن صرد الخزاعي فرفعوا إلى الإمام الحسين رسالة يعزونه بمصابه المؤلم ويعربون له الولاء والإخلاص والطاعة لأمره وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم: للحسين بن علي، من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، سلام عليك، فإنَّا نحمد إليك الله الذي لا إلّه إلاَّ هو.

أما بعد: فقد بلغنا وفاة الحسن بن علي، فسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم

---

(١) الأسى: بضم أوله وكسره، جمع أسوة بالضم والكسر، وهو ما يتعزى به.
(٢) عيون الأخبار.
(٣) زهر الآداب: ١/ ٥٥.

يبعث حياً، غفر الله ذنبه، وتقبل حسناته، وألحقه بنبيه ﷺ، وضاعف لك الأجر في المصاب به، وجبَّر بك المصيبة من بعده فعند الله تحتسبه، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ما أعظم ما أصيبت به هذه الأُمَّة عامة، وأنت وهذه الشيعة خاصة، بهلاك ابن الوصي وابن بنت النبي، علم الهدى، ونور البلاد المرجو لإقامة الدِّين، وإعادة سيرة الصالحين، فاصبر رحمك الله على ما أصابك إنَّ ذلك من عزم الأمور، فإنَّ فيك خلفاً ممَّن كان قبلك، وإنَّ الله يؤتى رشده من يهتدي بهديك، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك المحزونة بحزنك، المسرورة بسرورك، السائرة بسيرتك، المنتظرة لأمرك، شرح الله صدرك، ورفع ذكرك، وأعظم أجرك، وغفر ذنبك، ورد عليك حقك، والسلام»(١).

سرور معاوية:

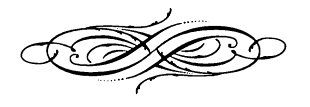
كان معاوية يتشوف بفارغ الصبر أنباء يثرب، ويترقب البريد ساعة فساعة، قد ألحَّ على عامله أن يعرِّفه بأخبار الإمام في كل يوم، ولما انتهى إليه النبأ بموت الإمام لم يملك نفسه من السرور حتى خرَّ ساجداً، وكبَّر وكبَّر من كان معه في الخضراء، ولما سمعت ذلك زوجه فاختة بنت قرضة خرجت من خوخة لها فرأت زوجها قد غمره الفرح والسرور فقالت له:

«سرك الله يا أمير المؤمنين، ما هذا الذي بلغك فسررت به؟».

ـ موت الحسن.

فاستعبرت، وقالت: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون». ثم بكت وقالت:

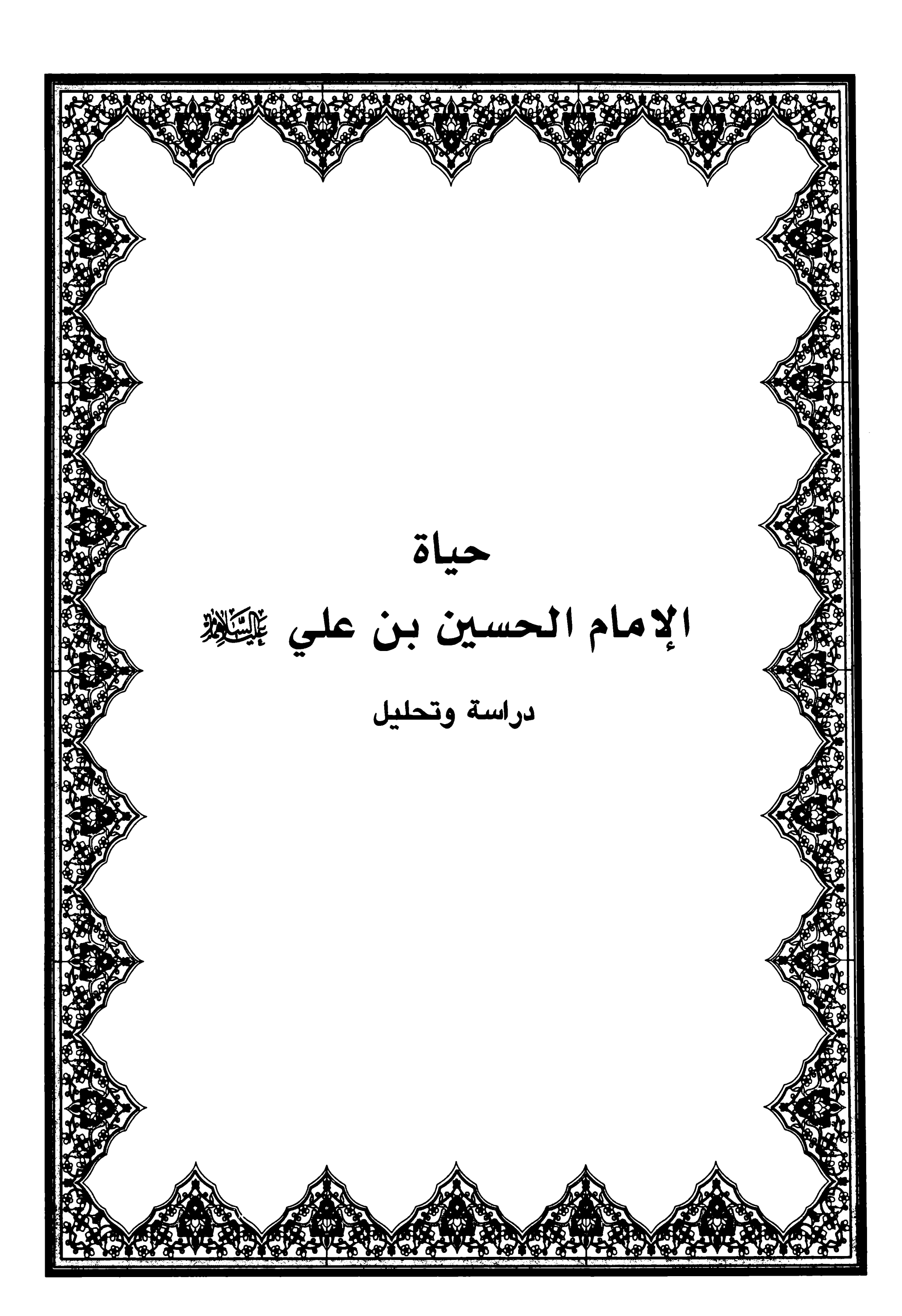
«مات سيِّد المسلمين، وابن بنت رسول الله ﷺ»(٢).



---

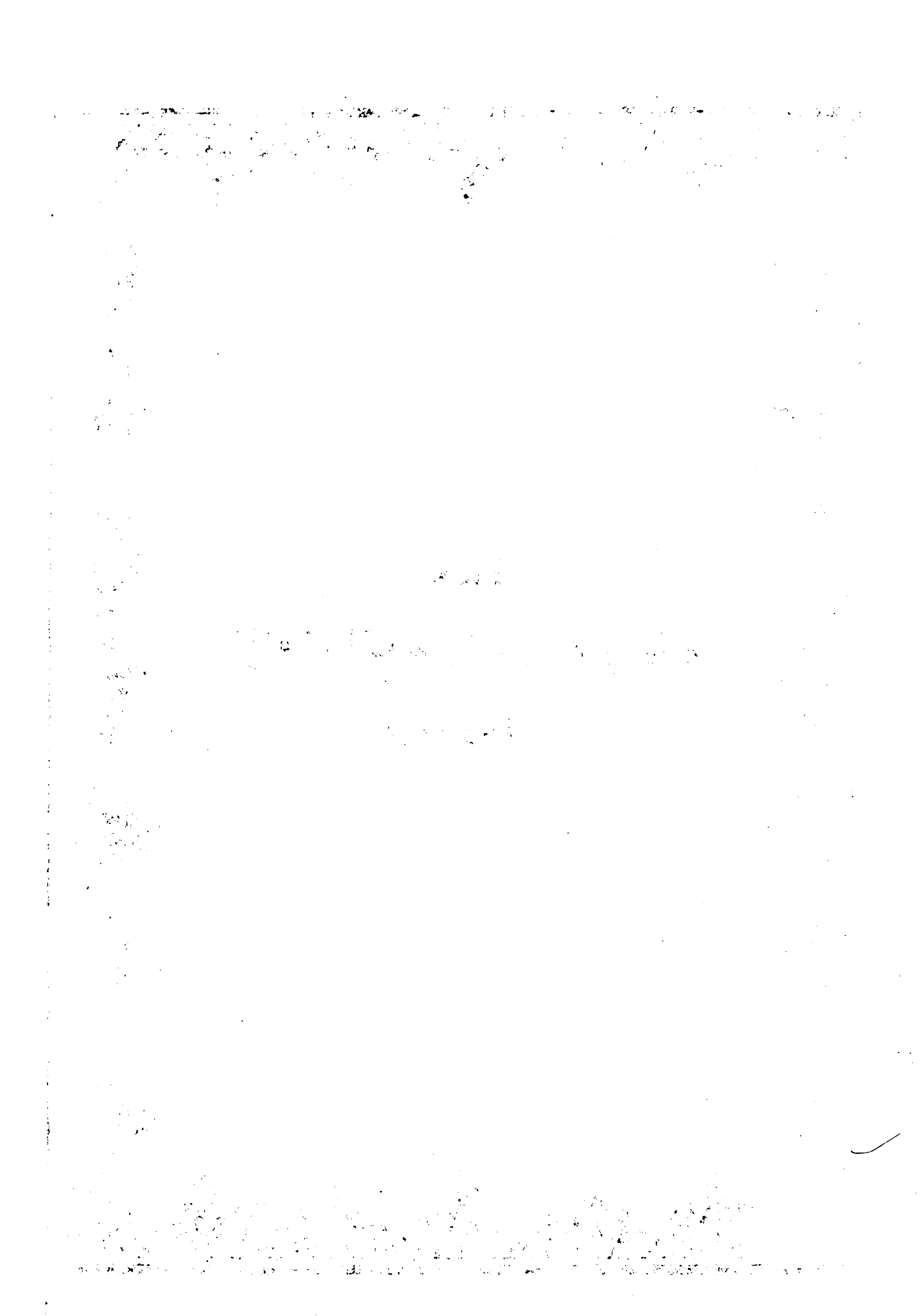
(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٣.

(٢) مروج الذهب: ٢/٣٠٥.



حياة
الإمام الحسين بن علي عليه السلام

دراسة وتحليل



غرس الرسالة

الأمّ:

إنّه الغرس الطيّب من سيّدة نساء العالمين فاطمة الزّهراء عليها السلام التي طهّرها الله بفضله، وجعلها تهدي من ضلال، وتجمع من فرقة.

الأب:

إنّه ثمرة الإمام علي عليه السلام رائد الحقّ والعدالة في الأرض، أخي النبيّ صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى، وأوّل من آمن بالله وصدّق رسوله.

الوليد الأوّل:

لم تمضِ إلاّ أيّام يسيرة حدّدها بعض المؤرّخين بإثنين وخمسين يوماً[١] حتى علقت سيّدة النّساء بحملٍ جديد، ظل يتطلع إليه الرسول صلى الله عليه وآله بفارغ الصبر، وكلهم رجاء وأمل في أن يشفع الله ذلك الكوكب بكوكب آخر ليضيئا في سماء الأُمّة الإسلاميّة، ويكونا امتداداً لحياة المنقذ العظيم.

رؤيا أُمّ الفضل:

ورأت السيّدة أُمّ الفضل بنت الحارث[٢] في منامها رؤيا غريبة لم تهتدِ إلى تأويلها، فهرعت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قائلة له: «إنّي رأيت حلماً منكراً كأنَّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري؟!».

فأزاح النبيّ صلى الله عليه وآله مخاوفها، وبشّرها بخير قائلاً: «**خَيْراً رَأَيْتِ، تَلِدُ فَاطِمَةُ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ غُلاَماً فَيَكُونُ فِي حِجْرِكِ**».

---

(١) المعارف: ص١٥٨.

(٢) أُمّ الفضل: هي لبابة الكبرى زوج العبّاس بن عبد المطّلب، وهي أوّل امرأة أسلمت بمكّة بعد السيّدة خديجة بنت خويلد.

ومضت الأيَّام سريعة فوضعت سيِّدة النِّساء فاطمة ولدها الحسين، فكان في حجر أمّ الفضل كما أخبر النبيّ ﷺ[١].

وجوم النبيّ ﷺ وبكاؤه:

ولمَّا بُشِّر الرسول الأعظم بسبطه المبارك خفَّ مسرعاً إلى بيت بضعته فاطمة عليها السلام، وهو مثقل الخُطا قد ساد عليه الوجوم والحزن، فنادى بصوت خافت حزين النبرات: **«يَا أَسْمَاءُ هَلُمِّي ابْنِي»**.

فناولته أسماء الوليد المبارك؛ فاحتضنه النبيّ ﷺ، وجعل يوسعه تقبيلاً، وقد انفجر بالبكاء فذهلت أسماء، وانبرت تقول: فداك أبي وأُمِّي، مِمَّ بكاؤك؟!

فأجابها النبيّ ﷺ وقد غمرت عيناه بالدموع: **«مِنِ ابْنِي هَذَا»**.

وملكتها الحيرة فلم تدرك معنى هذه الظاهرة ومغزاها، فانطلقت تقول: إنَّه وُلِدَ الساعة.

فأجابها الرسول بصوت متقطِّع النبرات حزناً وأسىً قائلاً: **«تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ مِنْ بَعْدِي، لاَ أَنَالَهُمْ اللَّهُ شَفَاعَتِي»**.

ثم نهض وهو مثقل بالهمّ وأسرَّ إلى أسماء قائلاً: **«لاَ تُخْبِرِي فَاطِمَةَ فَإِنَّهَا حَدِيثَةُ عَهْدٍ بِوِلاَدَةٍ. . .»**[٢].

سنة ولادته عليه السلام:

واستقبل سبط النبيّ ﷺ دُنيا الوجود في السنة الرابعة من الهجرة[٣]. وقيل: في السنة الثالثة[٤].

واختلف الرواة في الشهر الذي وُلِدَ فِيهِ، فذهب الأكثر إلى أنَّه ولد في شعبان، وأنَّه في اليوم الخامس منه[٥].

ولم يحدّد بعضهم اليوم، وإنَّما قال: وُلِدَ ليالٍ خلون من شعبان[٦].

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٧٦.
(٢) مسند الإمام زيد: ص٤٦٨.
(٣) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٢٧.
(٤) الكافي: ١/ ٥٣٠.
(٥) المعجم الكبير: ٣/ ١١٧.
(٦) إمتاع الأسماع: ص١٨٧.

وأهمل بعض المؤرّخين ذلك مكتفياً بالقول: إنَّه وُلِدَ في شعبان[١].

مراسيم الولادة:

احتضن النبيّ صلى الله عليه وآله وليده العظيم فأذّن في أُذنه اليمنى، وأقام في اليسرى[٢].

سماه النبيّ صلى الله عليه وآله حسيناً كما سمَّى أخاه حسناً[٣]: ويقول المؤرّخون: لم تكن العرب في جاهليتها تعرف هذين الاسمين حتى تسمّي أبناءها بهما، وإنَّما سمَّاهما النبيّ صلى الله عليه وآله بهما بوحي من السَّماء[٤].

وبعدما انطوت سبعة أيام من ولادة السبط أمر النبيّ صلى الله عليه وآله أن يعقّ عنه بكبش، ويوزع لحمه على الفقراء.

كما أمر أن تعطى القابلة فخذاً منها[٥]، وكان ذلك من جملة ما شرَّعه الإسلام في ميادين البر والإحسان إلى الفقراء.

وأمر النبيّ صلى الله عليه وآله أن يحلق رأس وليده، ويتصدَّق بزنته فضَّة على الفقراء[٦]، فكان وزنه ـ كما في الحديث ـ درهماً ونصفاً[٧]، وطلى رأسه بالخَلوق[٨]، ونهى عمَّا كان يفعله أهل الجاهليَّة من إطلاء رأس الوليد بالدمّ[٩].

رعاية النبيّ للحسين عليه السلام:

وتولّىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله بنفسه رعاية الحسين، واهتمَّ به اهتماماً بالغاً، فمزج روحه بروحه، ومزج عواطفه بعواطفه، وكان ـ فيما يقول المؤرّخون ـ يضع إبهامه في فيه، وأنَّه أخذه بعد ولادته فجعل لسانه في فمه ليغذّيه بريق النُّبوَّة، وهو يقول له: «**إِيهاً حُسَيْنٌ، إِيهاً حُسَيْنٌ، أَبَىٰ اللَّهُ إِلَّا مَا يُرِيدُ، هِيَ فِيكَ وَفِي وُلْدِكَ**»، يعني الإمامة[١٠].

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٧٤.
(٢) علل الشرائع: ١/ ١٦٧.
(٣) علل الشرائع: ١/ ١٦٦ و١٦٧.
(٤) شرح الأخبار: ٣/ ٨٩.
(٥) عيون أخبار الرِّضا عليه السلام: ٢/ ٢٥.
(٦) سُنن الترمذي: ٤/ ٨٤، الحديث ١٥١٩.
(٧) دعائم الإسلام: ٢/ ١٨٧، الحديث ٦٧٨.
(٨) الخلوق: طيب مركَّب من زعفران وغيره. لسان العرب: ١٠/ ٩١ ـ خَلَقَ. مجمع البحرين: ٥/ ١٥٧ـ خَلَقَ.
(٩) الكافي: ٦/ ٣٦.
(١٠) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٥٠.

فقد روى ابن عبَّاس قال: كان النبيّ ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين قائلاً: «أُعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ»، ويقول: «هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ ابْنَيْهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ»(١).

ويقول عبد الرَّحمٰن بن عوف: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمٰنِ، أَلَا أُعَلِّمُكَ عُوذَةً كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ بِهَا ابْنَيْهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، وَأَنَا أُعَوِّذُ بِهَا ابْنَيَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ: كَفَىٰ بِاللَّهِ وَاعِياً لِمَنْ دَعا، وَلاَ مَرْمىً وَرَاءَ أَمْرِ اللَّهِ لِرَامٍ رَمَىٰ»(٢).

ملامحه عليه السلام:

وبدت في ملامح الإمام الحسين عليه السلام ملامح جدّه الرسول الأعظم ﷺ فكان يُحاكيه في أوصافه، كما كن يحاكيه في أخلاقه التي امتاز بها على سائر النَّبيِّين. فقد وصفه محمَّد بن الضحَّاك، قال: «كان جسد الحسين يشبه جسد رسول الله ﷺ»(٣).

وقيل: إنَّه كان يشبه النبيّ ﷺ ما بين سرَّته إلى قدميه(٤).

وقال الإمام علي عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ أَشْبَهِ النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا بَيْنَ عُنُقِهِ إِلَىٰ وَجْهِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ الْحَسَنِ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ أَشْبَهِ النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا بَيْنَ عُنُقِهِ إِلَىٰ كَعْبِهِ خَلْقاً وَلَوْناً فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيّ»(٥).

هَيبَتُهُ عليه السلام:

وكانت عليه سيماء الأنبياء، فكان في هيبته يحكي هيبة جدّه التي تعنو لها الجباه، ووصف عظيمَ هيبتِه بعضُ الجلاَّدين من شَرَطة ابن زياد بقوله: لقد شغلنا نور وجهه وجمال هيبته عن الفكرة في قتله(٦).

ألقابه عليه السلام:

أمَّا ألقابه فتدلُّ على سموِّ ذاته، وما يتمتَّع به من الصفات الرفيعة، وهي:

١ ـ الشهيد.

---

(١) حلية الأولياء: ٤/٢٩٩.

(٢) كشف الغمَّة: ١/٤٩٢.

(٣) المعجم الكبير: ٣/١١٥، الرقم ٢٨٤٥.

(٤) سُنن الترمذي: ٥/٦١٨، الرقم ٣٧٧٩.

(٥) المعجم الكبير: ٣/٩٥، الحديث ٢٧٦٨.

(٦) مثير الأحزان/ابن نما: ص٥٧.

٢ ـ الطيِّب.
٣ ـ سيِّد شباب أهل الجنَّة.
٤ ـ السبط؛ لقوله صلى الله عليه وآله: «حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الأَسْبَاطِ»[١].
٥ ـ الرشيد.
٦ ـ الوفي.
٧ ـ المبارك.
٨ ـ التابع لمرضاة الله[٢].
٩ ـ الدليل على ذات الله.
١٠ ـ المطهّر.
١١ ـ البرُّ.
١٢ ـ أحد الكاظمين[٣].
١٣ ـ أبيّ الضيم.

كنيته عليه السلام:

كان يكنَّى بأبي عبد الله[٤]، وذكر غير واحد من المؤرّخين أنَّه لا كنية له غيرها[٥].

وقيل: إنَّه يكنَّى بأبي علي[٦].

وكنَّاه الناس من بعد شهادته بأبي الشُّهداء، وأبي الأحرار.

نقش خاتمه عليه السلام:

كان له خاتمان: أحدهما من عقيق، وقد نقش عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾[٧].

وثانيهما وهو الذي سلب منه يوم قتل، وقد كتب عليه: «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ عَدَدَ لِقَاءِ اللَّهِ»، وقد ورد: «أَنَّ مَنْ يَتَخَتَّمُ بِمِثْلِهِمَا كَانَا لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ»[٨].

---

(١) كشف الغمة: ١/٥٥١.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤/٧٨.
(٣) دلائل الإمامة: ص٧٣.
(٤) الإرشاد/المفيد: ٢/٢٧.
(٥) كشف الغمَّة: ١/٥٥١.
(٦) مناقب آل أبي طالب: ٤/٧٨.
(٧) سورة الطلاق: الآية ٣. الكافي: ٦/٤٨٣ و٤٨٤.
(٨) دلائل الإمامة: ص٧٣.

المكوّنات التربويّة

وتوفَّرت في سبط الرسول ﷺ وريحانته الإمام الحسين عليه السلام جميع العناصر التربوية الفذة التي لم يظفر بها غيره، فأخذ بجوهرها ولبابها، وقد أعدته لقيادة الأُمَّة، وتحمل رسالة الإسلام بجميع أبعادها ومكوِّناتها.

التربية النبويَّة:

وقام الرسول الأعظم ﷺ بدوره بتربية سبطه وريحانته فأفاض عليه بمكرماته ومُثُله، وغذَّاه بقيمه ومكوِّناته؛ ليكون صورة عنه.

ويقول الرواة: إنَّه كان كثير الاهتمام والاعتناء بشأنه، فكان يصحبه معه في أكثر أوقاته فيشمه عرفه وطيبه، ويرسم له محاسن أفعاله، ومكارم أخلاقه، وقد علَّمه وهو في غضون الصبا سورة التوحيد، ووردت إليه من تمر الصدقة فتناول منها الحسين ﷺ تمرة وجعلها في فيه، فنزعها منه الرسول ﷺ وقال له: «**أَلْقِها، فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ**»(١).

تربية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام له:

أمَّا الإمام علي عليه السلام فهو المربي الأوَّل الذي وضع أُصول التربية، ومناهج السلوك، وقواعد الآداب، وقد ربَّى ولده الإمام الحسين عليه السلام بتربيته المشرقة فغذَّاه بالحكمة، وغذَّاه بالعفَّة والنزاهة، ورسم له مكارم الأخلاق والآداب، وغرس في نفسه معنوياته المتدفقة فجعله يتطلع إلى الفضائل حتى جعل اتجاهه السليم نحو الخير والحقّ.

وقد زوَّده بعدَّة وصايا حافلة بالقيم الكريمة والمُثُل الإنسانيَّة، ومنها هذه الوصية القيمة الحافلة بالمواعظ والآداب الاجتماعية وما يحتاج إليه الناس في سلوكهم، وهي من أروع ما جاء في الإسلام من الأُسس التربوية التي تبعث على التوازن، والاستقامة في السلوك.

قال عليه السلام: «**يَا بُنَيَّ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةِ الْحَقِّ**

(١) مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٣٣٠، الحديث ١٧٣٣.

فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدِ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالْعَدْلِ فِي الصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ، وَالْعَمَلِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ.

أَيْ بُنَيَّ مَا شَرٌّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ بِشَرٍّ، وَلَا خَيْرٌ بَعْدَهُ النَّارُ بِخَيْرٍ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ مَنْ أَبْصَرَ عَيْبَ نَفْسِهِ شُغِلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ تَعَرَّى مِنْ لِبَاسِ التَّقْوَى لَمْ يَسْتَتِرْ بِشَيْءٍ مِنَ اللِّبَاسِ، وَمَنْ رَضِيَ بِقَسْمِ اللَّهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ حَفَرَ بِئْراً لِأَخِيهِ وَقَعَ فِيهَا، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ غَيْرِهِ انْكَشَفَتْ عَوْرَاتُ بَيْتِهِ، وَمَنْ نَسِيَ خَطِيئَتَهُ اسْتَعْظَمَ خَطِيئَةَ غَيْرِهِ، وَمَنْ كَابَدَ الْأُمُورَ عَطِبَ، وَمَنِ اقْتَحَمَ الْغَمَرَاتِ غَرِقَ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ، وَمَنِ اسْتَغْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ، وَمَنْ خَالَطَ الْعُلَمَاءَ وُقِّرَ، وَمَنْ خَالَطَ الْأَنْذَالَ حُقِّرَ، وَمَنْ سَفِهَ عَلَى النَّاسِ شُتِمَ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتُّهِمَ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطَاؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَاؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ.

أَيْ بُنَيَّ، مَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ وَرَضِيَ لِنَفْسِهِ بِهَا فَذَاكَ الْأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ، وَمَنْ تَفَكَّرَ اعْتَبَرَ، وَمَنِ اعْتَبَرَ اعْتَزَلَ، وَمَنِ اعْتَزَلَ سَلِمَ، وَمَنْ تَرَكَ الشَّهَوَاتِ كَانَ حُرّاً، وَمَنْ تَرَكَ الْحَسَدَ كَانَتْ لَهُ الْمَحَبَّةُ عِنْدَ النَّاسِ.

يَا بُنَيَّ عِزُّ الْمُؤْمِنِ غِنَاهُ عَنِ النَّاسِ، وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَنْفَعُهُ.

أَيْ بُنَيَّ، الْعَجَبُ مِمَّنْ يَخَافُ الْعِقَابَ فَلَمْ يَكُفَّ وَرَجَا الثَّوَابَ فَلَمْ يَتُبْ وَيَعْمَلْ.

أَيْ بُنَيَّ، الْفِكْرَةُ تُورِثُ نُوراً، وَالْغَفْلَةُ ظُلْمَةٌ، وَالْجِهَالَةُ ضَلَالَةٌ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالْأَدَبُ خَيْرُ مِيرَاثٍ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ خَيْرُ قَرِينٍ.

يَا بُنَيَّ، لَيْسَ مَعَ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ نَمَاءٌ، وَلَا مَعَ الْفُجُورِ غِنًى. أَيْ بُنَيَّ، الْعَافِيَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ: تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ، وَوَاحِدٌ فِي تَرْكِ مُجَالَسَةِ السُّفَهَاءِ. أَيْ بُنَيَّ، مَنْ تَزَيَّا بِمَعَاصِي اللَّهِ فِي الْمَجَالِسِ أَوْرَثَهُ اللَّهُ ذُلّاً، وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ عَلِمَ.

يَا بُنَيَّ، رَأْسُ الْعِلْمِ الرِّفْقُ وَآفَتُهُ الْخُرْقُ(١). وَمِنْ كُنُوزِ الْإِيمَانِ الصَّبْرُ عَلَى

---

(١) الخَرْقُ: الكِذْبُ، وَخَرَقَ الرَّجُلُ: كَذَبَ. القاموس المحيط: ١١٣٣، خَرَق.

الْمَصَائِبِ. وَالْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى. كَثْرَةُ الزِّيَارَةِ تُورِثُ الْمَلَالَةَ، وَالطُّمَأْنِينَةُ قَبْلَ الْخِبْرَةِ ضِدُّ الْحَزْمِ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ.

أَيْ بُنَيَّ، لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَا كَرَمَ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى، وَلَا مَعْقِلَ أَحْرَزُ مِنَ الْوَرَعِ، وَلَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَا لِبَاسَ أَجْمَلُ مِنَ الْعَافِيَةِ، وَلَا مَالَ أَذْهَبُ بِالْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَا بِالْقُوتِ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ تَعَجَّلَ الرَّاحَةَ وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ.

أَيْ بُنَيَّ، الْحِرْصُ مِفْتَاحُ التَّعَبِ؛ وَمَطِيَّةُ النَّصَبِ وَدَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ، وَالشَّرَهُ جَامِعٌ لِمَسَاوِي الْعُيُوبِ، وَكَفَاكَ تَأْدِيباً لِنَفْسِكَ مَا كَرِهْتَهُ مِنْ غَيْرِكَ. لِأَخِيكَ عَلَيْكَ مِثْلُ الَّذِي لَكَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَوَرَّطَ فِي الْأُمُورِ بِغَيْرِ نَظَرٍ فِي الْعَوَاقِبِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلنَّوَائِبِ. التَّدْبِيرُ قَبْلَ الْعَمَلِ يُؤْمِنُكَ النَّدَمَ. مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَأِ. الصَّبْرُ جُنَّةٌ مِنَ الْفَاقَةِ. الْبُخْلُ جِلْبَابُ الْمَسْكَنَةِ. الْحِرْصُ عَلَامَةُ الْفَقْرِ. وَصُولٌ مُعْدِمٌ خَيْرٌ مِنْ جَافٍ مُكْثِرٌ. لِكُلِّ شَيْءٍ قُوتٌ، وَابْنُ آدَمَ قُوتُ الْمَوْتِ.

أَيْ بُنَيَّ، لَا تُؤْيِسْ مُذْنِباً، فَكَمْ مِنْ عَاكِفٍ عَلَى ذَنْبِهِ خُتِمَ لَهُ بِالْخَيْرِ، وَكَمْ مِنْ مُقْبِلٍ عَلَى عَمَلِهِ مُفْسِدٌ لَهُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ صَائِرٌ إِلَى النَّارِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا.

أَيْ بُنَيَّ، كَمْ مِنْ عَاصٍ نَجَا، وَكَمْ مِنْ عَامِلٍ هَوَى.

وَمَنْ تَحَرَّى الْقَصْدَ خَفَّتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ.

وَمَنِ تَحَرَّىٰ الصِّدْقَ خَفَّتْ عَلَيْهِ الْمُؤَنُ، وَفِي خِلَافِ النَّفْسِ رُشْدُهَا. السَّاعَاتُ تَنْقُصُ الْأَعْمَارَ، وَيْلٌ لِلْبَاغِينَ مِنْ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ، وَعَالِمِ ضَمِيرِ الْمُضْمِرِينَ.

يَا بُنَيَّ، بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ. فِي كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أُكْلَةٍ غَصَصٌ. لَنْ تُنَالَ نِعْمَةٌ إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، مَا أَقْرَبَ الرَّاحَةَ مِنَ التَّعَبِ وَالْبُؤْسَ مِنَ النَّعِيمِ، وَالْمَوْتَ مِنَ الْحَيَاةِ، وَالسُّقْمَ مِنَ الصِّحَّةِ، فَطُوبَى لِمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ عَمَلَهُ وَعِلْمَهُ، وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ، وَأَخْذَهُ وَتَرْكَهُ، وَكَلَامَهُ وَصَمْتَهُ، وَفِعْلَهُ وَقَوْلَهُ. وَبَخٍ بَخٍ لِعَالِمٍ عَمِلَ فَكَفَّ، وَعَمِلَ فَجَدَّ، وَخَافَ التَّبَابَ[1] فَأَعَدَّ وَاسْتَعَدَّ. إِنْ سُئِلَ أَفْصَحَ، وَإِنْ تُرِكَ سَكَتَ، كَلَامُهُ صَوَابٌ، وَصَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ عِيٍّ عَنِ الْجَوَابِ، وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ بُلِيَ بِحِرْمَانٍ وَخِذْلَانٍ وَعِصْيَانٍ، وَاسْتَحْسَنَ لِنَفْسِهِ مَا يَكْرَهُهُ لِغَيْرِهِ.

---

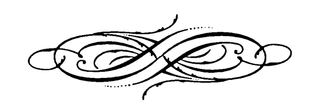
(١) التباب: الهلاك والخسران، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. لسان العرب: ٢/ ١١، تبت.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّهُ مَنْ لَانَتْ كَلِمَتُهُ وَجَبَتْ مَحَبَّتُهُ، وَفَّقَكَ اللّهُ لِرُشْدِهِ، وَجَعَلَكَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ بِقُدْرَتِهِ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ»[1].

تربية فاطمة عليها السلام:

وعنت سيِّدة النِّساء عليها السلام بتربية وليدها الحسين، فغمرته بالحنان والعطف؛ لتكون له بذلك شخصيته الاستقلالية، والشعوب بذاتياته، كما غذَّته بالآداب الإسلاميَّة، وعودته على الاستقامة، والاتجاه المطلق نحو الخير.

لقد نشأ الإمام الحسين عليه السلام في جو تلك الأُسرة العظيمة التي ما عرف التاريخ الإنساني لها نظيراً في إيمانها وهديها، وقد صار عليه السلام بحكم نشأته فيها من أفذاذ الفكر الإنساني ومن أبرز أئمَّة المسلمين.



(١) تحف العقول: ص٨٨ ـ ٩١.

في ظلال القرآن والسُّنَّة

في ظلال القرآن

أمَّا كتاب الله العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد أعلن فضل الإمام الحسين عليه السلام في إطار أهل البيت عليهم السلام، وله في كتاب الله غنىً عن مدح المادحين ووصف الواصفين، وهذه بعض الآيات الناطقة في فضلهم.

الأُولى: آية التطهير:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١].

ولا بدَّ لنا من وقفة قصيرة للبحث عن هذه الآية:

أوّلاً: من هم أهل البيت؟

وأجمع المفسرون[٢] وثقاة الرواة[٣] أنَّ أهل البيت عليهم السلام هم الخمسةأصحاب الكساء وهم: سيِّد الكائنات الرسول ﷺ، وصنوه الجاري مجرى نفسه أمير المؤمنين عليه السلام، وبضعته الطاهرة عديلة مريم بنت عمران سيِّدة النِّساء فاطمة الزَّهراء عليها السلام التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها، وريحانتاه من الدُّنيا سبطاه الشهيدان الحسن والحسين عليهما السلام سيِّدا شباب أهل الجنَّة، ولم يشاركهم أحد من الصحابة وغيرهم في هذه الآية.

الثانية: آية المودَّة:

وفرض الله على المسلمين مودَّة أهل البيت عليهم السلامقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٤].

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.
(٢) تفسير القمِّي: ٢/١٩٣ و١٩٤.
(٣) المصنف/ابن شيبة: ٧/٥٠١، الحديث ٤١.
(٤) سورة الشورى: الآية ٢٣.

ذهب جمهور المسلمين إلى أنَّ المراد بالقربى هم: «علي، وفاطمة، وابناهما الحسن والحسين». وأنَّ اقتراف الحسنة إنَّما هي في مودَّتهم ومحبَّتهم، وفيما يلي بعض ما أثر في ذلك:

أوّلاً: روى ابن عبَّاس، قال: «لما نزلت هذه الآية... قالوا: يا رسول الله، مَن قرابتك هؤلاء الذين أوجبت علينا مودَّتهم؟

قال صلى الله عليه وآله: **عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا**»[1].

الثالثة: آية المباهلة:

من آيات الله البيِّنات التي أعلنت فضل أهل البيت عليهم السلام آية المباهلة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

واتَّفق المفسّرون ورواة الحديث أنَّها نزلت في أهل البيت[3]، وأنَّ ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ إشارة إلى الحسنين عليهما السلام، ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ إشارة إلى فاطمة عليها السلام، و﴿أَنفُسَنَا﴾ إلى علي عليه السلام ومحمَّد صلى الله عليه وآله.

الرابعة: آية الأبرار:

ومن آيات الله الباهرات التي أشادت بفضل العترة الطاهرة آية الأبرار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[4].

روى جمهور المفسرين والمحدِّثين أنَّها نزلت في أهل البيت عليهم السلام[5]، وكان السبب في ذلك أنَّ الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما جدّهما الرسول صلى الله عليه وآله مع كوكبة من أصحابه، وطلبوا من علي عليه السلام أن ينذر لله صوماً إن عافاهما ممَّا ألَمَّ بِهما من السقم، فنذر أمير المؤمنين عليه السلام صوم ثلاثة أيَّام، وتابعته الصدِّيقة عليها السلام وجاريتها فضَّة في ذلك.

ولما برئ الحسنان عليهما السلام من المرض صاموا جميعاً، ولم يكن عند الإمام أمير

---

(١) ذخائر العقبىٰ: ص٢٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٣) مجمع البيان: ٢/ ٧٦٢. جامع البيان: ٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٤) سورة الإنسان: الآيات ٥ ـ ٧.

(٥) التفسير الكبير: ٣٠/ ٢٤٤.

المؤمنين في ذلك الوقت شيء من الطعام ليجعله إفطاراً لهم، فاستقرض ـ سلام الله عليه ـ ثلاثة أصواع من الشعير، فعمدت الصدِّيقة في اليوم الأوَّل إلى صاع فطحنته وخبزته، فلما آن وقت الإفطار وإذا بمسكين يطرق الباب يستمنحهم شيئاً من الطعام فعمدوا جميعاً إلى هبة قوتهم إلى المسكين، واستمروا في صيامهم لم يتناولوا سوى الماء.

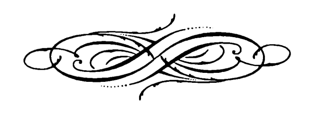
وفي اليوم الثاني عمدت بضعة النبيّ ﷺ إلى تهيئة الطعام الذي كان قوامه خبز الشعير، ولما حان وقت الغروب وإذا بيتيم قد أضناه الجوع وهو يطلب الإرفاد منهم، فتبرعوا جميعاً بقوتهم ولم يتناولوا سوى الماء.

وفي اليوم الثالث قامت سيِّدة النِّساء فطحنت ما فضل من الطعام وخبزته، فلما حان وقت الإفطار قدمت لهم الطعام، وسرعان ما طرق الباب أسير قد ألم به الجوع، فسحبوا أيديهم من الطعام ومنحوه له.

سبحانك اللَّهمَّ! أيَّة مبرة أعظم من هذه المبرة! وأي إيثار أبلغ من هذا الإيثار! إنَّه إيثار ما قصد به إلاَّ وجه الله الكريم.

ووفد عليهم رسول الله ﷺ في اليوم الرابع فرآهم ـ ويا لهول ما رأى ـ أجساماً مرتعشة من الضعف، ونفوساً قد ذابت من الجوع، فتغيَّر حاله وطفق يقول: **وَاغَوْثَاهُ، أَهْلُ بَيْتِ مُحَمَّدٍ يَمُوتُونَ جِياعاً!**.

ولم يُنهِ الرسول كلامه حتى هبط عليه أمين الوحي وهو يحمل المكافأة العظمى لأهل البيت ﷺ والتقييم لإيثارهم الخالد، إنَّها مكافأة لا توصف بكيف ولا تقدَّر بكم، فهي مغفرة ورحمة ورضوان من الله ليس لها حدّ، فقد ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾[1].



(١) سورة الإنسان: الآيات ١٢ ـ ١٧.

في ظلال السُّنَّة

في السُّنَّة النبوية كوكبة ضخمة من الأحاديث نطق بها الرسول العظيم صلى الله عليه وآله أبرزت معالم شخصية الإمام الحسين عليه السلام وحدَّدت أبعاد فضله على سائر المسلمين.

وتواترت الأخبار التي أثرت عن النبيّ صلى الله عليه وآله في فضل ريحانته الإمام الحسين عليه السلام، وهي تحدِّد معالم شخصيته، كما تحمل جانباً كبيراً من اهتمام الرسول صلى الله عليه وآله به، وفيما يلي بعضها:

الأوّل: روى جابر بن عبد الله قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ سَيِّدِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ**»[1].

الثاني: روى أبو هريرة قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حامل الحسين بن علي، وهو يقول: **اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ**»[2].

الثالث: روى يعلى بن مرة قال: «خرجنا مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلى طعام دعينا له، فإذا حسين يلعب بالسكة، فتقدَّم النبيّ صلى الله عليه وآله وبسط يديه فجعل الغلام يفر هاهنا وهاهنا، ويضاحكه النبيّ صلى الله عليه وآله حتى أخذه فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى في فأس رأسه فقبَّله، وقال: **حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً، حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الأَسْبَاطِ**»[3].

الرابع: روى الصحابي العظيم سلمان الفارسي، قال: «دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله، فإذا الحسين بن علي على فخذه، وهو يلثم فاه، ويقول: **أَنْتَ سَيِّدٌ ابْنُ سَيِّدٍ، أَنْتَ إِمَامٌ ابْنُ إِمَامٍ أَخُو إِمَامٍ وَأَبُوا الأَئِمَّةِ، وَأَنْتَ حُجَّةُ اللَّهِ وَابْنُ حُجَّتِهِ، وَأَبُو حُجَجٍ تِسْعَةٍ مِنْ صُلْبِكَ تَاسِعُهُمْ قَائِمُهُمْ**»[4].

---

(١) بحار الأنوار: ٤٣/٢٩٨.

(٢) كفاية الأثر: ص٨١ و٨٢.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٥/١٨٢، الحديث ١٧١١١.

(٤) كتاب سليم بن قيس: ص٤٦٠.

الخامس: قال النبيّ ﷺ: **«هَذَا - يعني الحسين - إِمَامٌ ابْنُ إِمَامٍ، أَخُو إِمَامٍ، أَبُو أَئِمَّةٍ تِسْعَةٍ»**(١).

السادس: روى أبو العبَّاس قال: «كنت عند النبيّ ﷺ وعلى فخذه الأيسر ابنه إبراهيم، وعلى فخذه الأيمن الحسين بن علي، والنبيّ تارة يقبّل هذا وأُخرى يقبّل هذا؛ إذ هبط عليه جبرئيل بوحي من ربِّ العالمين.

فلما سرى عنه قال: **أَتَانِي جَبْرَئِيلُ مِنْ رَبِّي، فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَبَّكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: لَسْتُ أَجْمَعُهُمَا لَكَ، فَافْدِ أَحَدَهُمَا بِصَاحِبِهِ.**

فنظر النبيّ إلى إبراهيم فبكى، ثمَّ قال ﷺ: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ أُمُّهُ أَمَةٌ وَمَتَىٰ مَاتَ لَمْ يَحْزَنْ عَلَيْهِ غَيْرِي، وَأُمُّ الْحُسَيْنِ فَاطِمَةُ، وَأَبُوهُ عَلِيٌّ ابْنُ عَمِّي لَحْمِي وَدَمِي، وَمَتَىٰ مَاتَ حَزِنَتْ ابْنَتِي، وَحَزِنَ ابْنُ عَمِّي، وَحَزِنْتُ أَنَا عَلَيْهِ، وَأَنَا أُوْثِرُ حُزْنِي عَلَىٰ حُزْنِهِمَا. يَا جَبْرَئِيلُ يُقْبَضُ إِبْرَاهِيمُ فَدَيْتُهُ بِإِبْرَاهِيمَ**، وقبض إبراهيم بعد ثلاث.

فكان النبيّ ﷺ إذا رأى الحسين مقبلاً قبَّله، وضمه إلى صدره، ورشف ثناياه، وقال: **فُدِيْتَ مَنْ فَدَيْتُهُ بِابْنِي إِبْرَاهِيمَ»**(٢).

السابع: روى ابن عبَّاس قال: «كان النبيّ ﷺ حاملاً الحسين على عاتقه، فقال له رجل: نِعْمَ الْمَرْكب ركبت يا غلام! فأجابه الرسول ﷺ: **وَنِعْمَ الرَّاكِبُ هُوَ»**(٣).

الثامن: روى يزيد بن أبي زياد قال: «خرج النبيّ ﷺ من بيت عائشة فمرَّ على بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكي، فالتاع ﷺ من ذلك فقال لفاطمة: **أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ بُكَاءَهُ يُؤْذِينِي»**(٤).

التاسع: روى عبد الله بن شداد، عن أبيه قال: «سجد رسول الله ﷺ سجدة أطالها حتَّى ظننا أنَّه قد حدث أمر، أو أنَّه يوحى إليه، فسألناه عن ذلك، فقال: **كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِن ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّىٰ يَقْضِي حَاجَتَهُ»**(٥).

---

(١) النكت الاعتقاديَّة: ص٣٤.
(٢) مثير الأحزان/ابن نما: ص١١.
(٣) سُنن الترمذي: ٥/ ٦٢٠، الحديث ٣٧٨٤.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢٢٦.
(٥) معاني الأخبار: ص٣٥١.

إخبار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بمقتله عليه السلام:

الأوَّل: روت أُمّ الفضل بنت الحارث، قالت: «كان الحسين في حجري فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وقد حملت معي الحسين، فوضعته في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم حانت منّي التفاتة، فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وآله تهريقان من الدموع.

فقلت له: ـ يا نبي الله، بأبي أنت وأُمّي، مالك؟

قال صلى الله عليه وآله: **أَتَانِي جِبْرَئِيلُ فَأَخبَرَنِي أَنَّ أُمَّتِي سَتَقْتُلُ ابْنِي هَذَا**.

وذعرت أُمّ الفضل، فانبرت تقول: يقتل هذا؟! وأشارت إلى الحسين.

قال صلى الله عليه وآله: **نَعَمْ، وَأَتَانِي جِبْرَئِيلُ بِتُرْبَةٍ مِنْ تُرْبَتِهِ حَمْراءَ**»[1].

واغرورقت عينا أُمّ الفضل بالبكاء، وهامت في تيارات مذهلة من الأسى والحزن.

الثاني: روت السيِّدة أُمّ سلمة قالت: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله اضطجع ذات ليلة للنوم فاستيقظ وهو خاثر[2]. ثمَّ اضطجع فاستيقظ وهو خاثر دون ما رأيت به المرة الأُولى، ثم اضطجع فاستيقظ، وفي يده تربة حمراء وهو يقبّلها، فقلت له: ما هذه التربة يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله: **أَخبَرَنِي جِبْرَئِيلُ أَنَّ ابْنِي هَذَا** ـ يعني الحسين ـ **يُقْتَلُ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ، فَقُلْتُ لِجَبْرَئِيلُ: أَرِنِي تُرْبَةَ الأَرْضِ الَّتِي يُقْتَلُ بِهَا؟**.

قَالَ: فَهَذِهِ تُرْبَتُهَا»[3].

الثالث: وروت أُمّ سلمة قالت: «كان النبيّ صلى الله عليه وآله جالساً ذات يوم في بيتي، فقال: **لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيَّ أَحدٌ**، فانتظرت فدخلت الحسين فسمعت نشيج النبيّ صلى الله عليه وآله، فإذا الحسين في حجره ـ أو إلى جنبه ـ يمسح رأسه وهو يبكي، فقلت له: والله ما علمت حتى دخل.

فقال لي: **إِنَّ جِبْرَئِيلَ كَانَ مَعَنَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ: أَتُحِبُّهُ؟فَقُلْتُ: نَعَمْ**.

فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ سَتَقْتُلُ هَذَا بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: كَرْبَلَاءُ فَتَنَاوَلَ جِبْرَئِيلُ مِنْ تُرَابِهَا، فَأَرانِيهِ»[4].

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/١٧٦ و١٧٧.
(٢) الخاثر: المضطرب.
(٣) المستدرك على الصحيحين: ٤/٣٩٨.
(٤) المعجم الكبير: ٣/١٠٨ و١٠٩، الرقم ٢٨١٩.

الرابع: روت عائشة قالت: «دخل الحسين بن علي على رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه، فنزا على رسول الله وهو منكب، فقال جبرئيل: أَتحبُّه يا محمَّد؟

قال: **يَا جَبْرَئِيلُ، وَمَالِيَ لَا أُحِبُّ ابْنِي؟**

قال: فإنَّ أُمَّتك ستقتله من بعدك، فمدَّ جبرئيل يده فأتاه بتربة بيضاء فقال: في هذه الأرض يقتل ابنك هذا، واسمها الطفّ.

فلما ذهب جبرئيل من عند رسول الله ﷺ والتربة في يده وهو يبكي فقال: **يَا عَائِشَةُ، إِنَّ جَبْرَئِيلَ أَخْبَرَنِي أَنَّ ابْنِي حُسَيْناً مَقْتُولٌ فِي أَرْضِ الطَّفِّ، وَأَنَّ أُمَّتِي سَتُفْتَنُ بَعْدِي**.

ثم خرج إلى أصحابه وفيهم علي، وأبو بكر، وعمر، وحذيفة، وعمَّار، وأبو ذر، وهو يبكي فبادروا إليه قائلين: ما يبكيك يا رسول الله؟!

فقال: **أَخْبَرَنِي جَبْرَئِيلُ أَنَّ ابْنِي الْحُسَيْنَ يُقْتَلُ بَعْدِي بِأَرْضِ الطَّفِّ، وَجَاءَنِي بِهَذِهِ التُّرْبَةِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهَا مَضْجَعَهُ**»[١].

الخامس: روت زينب بنت جحش زوج النبيّ ﷺ قالت: «كان النبيّ نائماً عندي والحسين عليه السلام يحبو في البيت، فغفلت عنه حتى أتى النبيّ ﷺ فصعد على بطنه... ثم قام النبيّ يصلِّي واحتضنه، فكان إذا ركع وسجد وضعه وإذا قام حمله، فلمَّا جلس جعل يدعو ويرفع يديه ويقول... فلما قضى الصلاة، قلت له: يا رسول الله، لقد رأيتك تصنع اليوم شيئاً ما رأيتك تصنعه؟

فقال ﷺ: **إِنَّ جَبْرَئِيلَ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ ابْنِي يُقْتَلُ، قُلْتُ: فَأَرِنِي إِذاً، فَأَتَانِي بِتُرْبَةٍ حَمْرَاءَ**»[٢].

السادس: روى ابن عبَّاس قال: «كان الحسين في حجر النبيّ ﷺ فقال جبرئيل: أتحبه؟

فقال: **كَيْفَ لَا أُحِبُّهُ وَهُوَ ثَمَرَةُ فُؤَادِي؟!**

فقال: إنَّ أُمَّتك ستقتله، ألا أريك من موضع قبره؟ فقبض قبضة فإذا تربة حمراء»[٣].

---

(١) ذوب النضَّار: ص٢١. الخرائج والجرائح: ١/٦٨.

(٢) الأمالي/الطوسي: ص٣١٦.

(٣) مجمع الزوائد: ٩/١٩١ و١٩٢.

السابع: روى أبو أُمامة قال: «قال رسول الله ﷺ لنسائه: **لَا تُبْكُوا هَذَا الصَّبِيَّ** يعني حسيناً.

قال: وكان يوم أُمّ سلمة، فنزل جبرئيل فدخل رسول الله ﷺ الداخل، وقال لأُمّ سلمة: **لَا تَدَعِي أَحَداً يَدْخُلُ عَلَيَّ**.

فجاء الحسين فلما نظر إلى النبيّ في البيت أراد أن يدخل، فأخذته أُمّ سلمة فاحتضنته وجعلت تناغيه وتسكّنه، فلما اشتدّ في البكاء خلّت عنه، فدخل حتى جلس في حجر النبيّ ﷺ، فقال جبرئيل للنبيّ: إنَّ أُمَّتك ستقتل ابنك هذا.

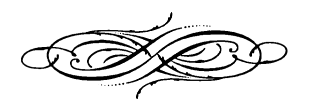
فقال النبيّ ﷺ: **يَقْتُلُونَهُ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِي؟!**

قال: نعم، يقتلونه.

فتناول جبرئيل تربة، فقال له: بمكان كذا وكذا يقتل، فخرج رسول الله ﷺ قد احتضن حسيناًوهو كاسف البال مغموم، فظنت أُمّ سلمة أنّه غضب من دخول الصبيّ عليه، فقالت: يا نبيّ الله، جعلت لك الفداء، إنَّك قد قلت: لا تبكوا هذا الصبيّ، وأمرتني ألّا أدع أحداً يدخل عليك، فجاء فخليت عنه. فلم يجبها النبيّ بشيء، وخرج إلى أصحابه، وهو غارق في الهم والأسى، فقال له: **إِنَّ أُمَّتِي يَقْتُلُونَ هَذَا**، وأشار إلى الحسين عليه السلام.

فانبرى إليه القوم وفيهم أبو بكر وعمر فقالا له: يا نبيّ الله وهم مؤمنون؟!! **نَعَمْ وَهَذِهِ تُرْبَتُهُ**»[1].

هذه من بعض الأخبار التي أعلن بها النبيّ ﷺ عن مقتل سبطه وريحانته، ويلمس فيها ذوب روحه أسىً وحزناً عليه، وقد تأكّد المسلمون من هذه الأخبار بقتل الإمام الحسين عليه السلام ولم يخالجهم فيه أدنى شك، كما آمن بها الحسين عليه السلام، وأعلن ذلك في كثير من المواقف التي سنعرض لها في غضون هذا الكتاب.



(١) المعجم الكبير: ٨/ ٢٨٥ و٢٨٦، الرقم ٨٠٩٦.

لمحاتٌ من مُثُل الإمام الحسين عليه السلام

وتجسَّدت في شخصية أبي الأحرار جميع القيم الإنسانيَّة والمُثُل العليا، والتقت به عناصر النُّبوَّة والإمامة، فكان بحكم مثله وتهذيبه فذّاً من أفذاذ التكامل الإنساني، ومثلاً رائعاً من أمثلة الرسالة الإسلاميَّة، فهو ـ بحقّ ـ الأُطروحة الخالدة للإسلام بجميع طاقاته ومقوماته.

إمامته عليه السلام:

الإمام الحسين عليه السلام أحد الكواكب المشرقة من أئمَّة أهل البيت عليهم السلام الذين استكملت فيهم الصفات الإنسانيَّة، وبلغوا ذروة الكمال المطلق، وأقاموا منار هذا الدِّين، ورفعوا شعار الحقّ والعدل في الأرض.

مظاهر شخصيته عليه السلام:

أمَّا المظاهر الفذَّة التي اتصفت بها شخصية أبي الأحرار، وكانت من عناصره ومقوّماته، فهي:

أوَّلاً: قوَّة الإرادة:

من النزعات الذاتية لأبي الشُّهداء عليه السلام قوَّة الإرادة، وصلابة العزم والتصميم، وقد ورث هذه الظاهرة الكريمة من جدّه الرسول صلى الله عليه وآله الذي غيَّر مجرى التاريخ، وقلب مفاهيم الحياة، ووقف صامداً وحده أمام القوى الهائلة التي هبَّت لتمنعه من أن يقول كلمة الله، فلم يعن بها وراح يقول لعمّه أبي طالب مؤمن قريش: **«يَا عَمْ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، والْقَمَرَ فِي يَسارِي عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ»**[1].

---

(١) تفسير القمّي: ٢/٢٢٨.

ثانياً: الإباء عن الضيم:

والصفة البارزة من نزعات الإمام الحسين عليه السلام الإباء عن الضيم حتى لُقِّب: بـ(أبيِّ الضيم)، وهي من أعظم ألقابه ذيوعاً وانتشاراً بين الناس، فقد كان المثل الأعلى لهذه الظاهرة، فهو الذي رفع شعار الكرامة الإنسانيَّة ورسم طريق الشرف والعزَّة، فلم يخنع، ولم يخضع لقرود بني أُميَّة، وآثر الموت تحت ظلال الأسنة.

وقد كانت كلماته يوم الطَّفّ من أروع ما أثر من الكلام العربي في تصوير العزَّة والمنعة والاعتداد بالنفس، يقول عليه السلام: «**أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السِّلَةِ وَالذِّلَّةِ، وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذِّلَّةَ.**

يَأْبَىٰ اللَّهُ لَنَا ذَٰلِكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ، وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ، وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ مِنْ أَنْ تُؤْثِرَ طَاعَةَ اللِّئَامِ عَلَىٰ مَصَارِعِ الْكِرَامِ...»[1].

ووقف يوم الطف كالجبل الأشم غير حافل بتلك الوحوش الكاسرة من جيوش الردة الأموية، وقد ألقى عليهم وعلى الأجيال أروع الدروس عن الكرامة وعزَّة النفس وشرف الإباء، قائلاً: **وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكُمْ بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ، وَلَا أَفِرُّ فِرَارَ الْعَبِيدِ، إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ...**[2].

ثالثاً: الشجاعة:

ولم يشاهد الناس في جميع مراحل التاريخ أشجع، ولا أربط جأشاً، ولا أقوى جناناً من الإمام الحسين عليه السلام، فقد وقف يوم الطَّفّ موقفاً حيَّر فيه الألباب، وأذهل فيه العقول، وأخذت الأجيال تتحدَّث بإعجاب وإكبار عن بسالته وصلابة عزمه، وقدم الناس شجاعته على شجاعة أبيه التي استوعبت جميع لغات الأرض.

وقد بهر أعداؤه الجبناء بقوَّة بأسه، فإنَّه لم ينهار أمام تلك النكبات المذهلة التي أخذت تتواكب عليه، وكان يزداد انطلاقاً وبشراً كلَّما ازداد الموقف بلاءً ومحنة، فإنَّه بعدما فقد أصحابه وأهل بيته زحف عليه الجيش بأسره، وكان عدده ـ فيما يقول الرواة ـ ثلاثين ألفاً[3]، فحمل عليهم وحده وقد ملك الخوف والرعب قلوبهم، فكانوا ينهزمون أمامه كالمعزى إذا شدَّ عليها الذئب ـ على حدِّ تعبير الرواة[4] ـ وبقي صامداً كالجبل

---

(١) تحف العقول: ص٢٤١ و٢٤٢.
(٢) الإرشاد/المفيد: ٢/٩٨.
(٣) بحار الأنوار: ٤٥/٤.
(٤) الإرشاد/المفيد: ص١١١.

يتلقّىٰ الطعنات من كلّ جانب، ولم يوهَ له ركن، وإنَّما مضى في أمره استبسالاً واستخفافاً بالمنية.

ولما سقط أبيُّ الضيم على الأرض جريحاً، وقد أعياه نزف الدماء تحامى الجيش بأسره من الإجهاز عليه رعباً وخوفاً منه.

لقد تحدَّى أبو الأحرار ببسالته النادرة الطبيعة البشرية، فسخر من الموت، وهَزأ من الحياة، وقد قال لأصحابه حينما مطرت عليه سهام الأعداء: «**قُومُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَىٰ الْمَوْتِ الَّذِي لاَ بُدَّ مِنْهُ، فَإِنَّ هَذِهِ السِّهَامَ رُسُلُ الْقَوْمِ إِلَيْكُمْ**»[١].

رابعاً: الصراحة:

من صفات أبي الأحرار الصراحة في القول، والصراحة في السلوك، ففي جميع فترات حياته لم يوارب ولم يخادع، ولم يسلك طريقاً فيه أي التواء، وإنَّما سلك الطريق الواضح الذي يتجاوب مع ضميره الحي، وابتعد عن المنعطفات التي لا يقرها دينه وخلقه، وكان من ألوان ذلك السلوك النيِّر أنَّ الوليد حاكم يثرب دعاه في غلس اللَّيل، وأحاطه علماً بهلاك معاوية، وطلب منه البيعة ليزيد مكتفياً بها في جنح الظلام، فامتنع عليه السلام وصارحه بالواقع قائلاً: «**أَيُّهَا الأَمِيرُ، إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَعْدِنُ الرِّسالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلاَئِكَةِ، وَمَحَلُّ الرَّحْمَةِ، بِنَا فَتَحَ اللَّهُ وَبِنَا خَتَمَ، وَيَزِيدُ رَجُلٌ فَاسِقٌ فَاجِرٌ، شَارِبُ خَمْرٍ، قَاتِلُ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ، مُعْلِنٌ بِالْفِسْقِ، وَمِثْلِي لاَ يُبَايعُ مِثْلَهُ...**»[٢].

فقال للذين اتبعوه طلباً للعافية لا للحق: «**قَدْ خَذَلَتْنَا شِيعَتُنَا، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمُ الإِنْصِرافَ فَلْيَنْصَرِفْ، لَيْسَ عَلَيْهِ ذِمَامٌ**».

فتفرق عنه ذوو الأطماع، وبقي معه الصفوة من أهل بيته وأصحابه الذين أتوا معه من المدينة[٣].

خامساً: الصلابة في الحق:

رأى الإمام الحسين عليه السلام الأمَّة قد غمرتها الأباطيل والأضاليل، ولم يعد ماثلاً في حياتها أي مفهوم من مفاهيم الحق، فانبرى عليه السلام إلى ميادين التضحية والفداء؛ ليرفع راية الحق، وقد أعلن عليه السلام هذا الهدف المشرق في خطابه الذي ألقاه أمام أصحابه قائلاً:

---

(١) اللهوف: ص٦٠. مقتل الحسين عليه السلام/ المقرّم: ص٢٩٢.
(٢) اللهوف: ص١٧. عوالم العلوم: ١٧/ ١٧٥.
(٣) وقعة الطَّف: ص١٦٦.

«أَلَا تَرَونَ إِلَىٰ الحَقّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَإِلَىٰ الْبَاطِلِ لَا يُتَنَاهَىٰ عَنْهُ؛ لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ...»[١].

سادساً: الصبر:

تواكبت عليه المحن الشاقة التي تميد بالصبر في يوم العاشر من المحرَّم فلم يكد ينتهي من محنة حتى تطوف به مجموعة من الرزايا والآلام، فكان يقف على الكواكب المشرقة من أبنائه وأهل بيته وقد تناهبت السيوف والرماح أجسامهم فيخاطبهم بكلّ طمأنينة وثبات: **«صَبْراً يَا أَهْلَ بَيْتِي، صَبْراً يَا بَنِي عُمُومَتِي، فَوَاللَّهِ لَا رَأَيْتُمْ هَواناً بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ»**[٢].

وقد بصر شقيقته عقيلة بني هاشم، وقد أذهلها الخطب، ومزَّق الأسى قلبها، فسارع إليها، وأمرها بالخلود إلى الصبر والرِّضا بما قسم الله.

ومن أهوال تلك الكوارث التي صبر الإمام الحسين عليه السلام عليها أنَّه كان يرى أطفاله وعياله، وهم يضجون من ألم الظمأ القاتل، ويستغيثون به من أليم العطش، فكان يأمرهم بالصبر والاستقامة، ويخبرهم بالعاقبة المشرقة التي يؤول إليها أمرهم بعد هذه المحن الحازبة.

وقد صبر على ملاقاة الأعداء الذين ملأت الأرض جموعهم المتدفقة، وهو وحده يتلقَّى الضرب والطعن من جميع الجهات، قد تفتَّت كبده من العطش، وهو غير حافل بذلك كله.

يقول المؤرّخون: إنَّه تفرَّد بهذه الظاهرة، فلم توهِ عزمه الأحداث مهما كانت، وقد توفي له ولد في حياته فلم يرَ عليه أثر للكآبة، فقيل له في ذلك فقال عليه السلام: **«إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ نَسْأَلُ اللَّهَ فَيُعْطِينا، فَإِذَا أَرَادَ مَا نَكْرَهُ فِيمَا نُحِبُّ رَضِينا»**[٣].

سابعاً: الحلم:

يقول المؤرّخون: إنَّ بعض مواليه قد جنى جناية توجب التأديب فأمر عليه السلام بتأديبه، فانبرى العبد قائلاً: يا مولاي، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقابله الإمام الحسين ببسماته الفيَّاضة، وقال له: **خَلّوا عَنْهُ، فَقَدْ كَظَمْتُ غَيْظِي.**

---

(١) تحف العقول: ص٢٤٥.

(٢) اللهوف: ص٦٨. بحار الأنوار: ٣٦/٤٥.

(٣) الدعوات: ص٢٨٦. بحار الأنوار: ١٨/٤٧.

وسارع العبد قائلاً: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾.

فقال عليه السلام: **قَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ**.

وانبرى العبد يطلب المزيد من الإحسان، قائلاً: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فقال عليه السلام: **أَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ**.

ثم أمر له بجائزة سنية تغنيه عن الحاجة ومسألة الناس[2].

ثامناً: التواضع:

قد نقل الرواة بوادر كثيرة من سموِّ أخلاقه وتواضعه، نشير إلى بعضها:

١ ـ إنَّه اجتامز على مساكين يأكلون في (الصفَّة) فدعوه إلى الغذاء فنزل عن راحلته، وتغذى معهم، ثمَّ قال لهم: **قَدْ أَجَبْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي**، فلبّوا كلامه وخفوا معه إلى منزله.

فقال عليه السلام لزوجه الرباب: **أَخْرِجِي مَا كُنْتِ تَدَّخِرِينَ**، فأخرجت ما عندها من نقود فناولها لهم[3].

٢ ـ مرَّ على فقراء يأكلون كسراً من أموال الصدقة: فسلَّم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فجلس معهم، وقال: «**لَوْلَا أَنَّهُ صَدَقَةٌ لأَكَلْتُ مَعَكُمْ**»، ثمَّ دعاهم إلى منزله، فأطعمهم، وكساهم، وأمر لهم بدراهم[4].

تاسعاً: الرأفة والعطف:

ومن صفات أبي الأحرار أنَّه كان شديد الرأفة بالناس يمد يده لكل ذي حاجة، ويسعف كل ذي لهفة، ويجير كل من استجار به. فقد دخل الحسين على معاوية، وعنده أعرابي يسأله حاجة، فأمسك وتشاغل بالحسين، فقال الأعرابي لبعض من حضر: مَن هذا الذي دخل؟

قالوا: الحسين بن علي عليه السلام.

فقال الأعرابي للحسين عليه السلام: أسألك يابن بنت رسول الله لما كلَّمته في حاجتي، فكلَّمه الحسين عليه السلام في ذلك فقضى حاجته.

فقال الأعرابي:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٢) كشف الغمَّة: ١/ ٥٧٥.

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ١٤/ ١٨١.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٦٦.

أَتَـيْـتُ الْـعَـبْـشَـمِـيَّ فَـلَـمْ يَـجُـدْ لِـي ... إِلَـــىٰ أَنْ هَـــزَّهُ ابْـــنُ الـــرَّسُـــولِ
هُـوَ ابْـنُ الْـمُـصْـطَـفَـىٰ كَـرَمـاً وَجُـوداً ... وَمِـنْ بَـطْـنِ الْـمُـطَـهَّـرَةِ الْـبَـتُـولِ
وَإِنْ لِـهَـاشِـمٍ فَـضْـلاً عَـلَـيْـكُـمْ ... كَـمَـا فَـضُـلَ الـرَّبِـيـعُ عَـلَـىٰ الْـمُـحُـولِ

فقال معاوية: يا أعرابي، أعطيك وتمدحه. فقال الأعرابي: أعطيتني من حقّه، وقضيت حاجتي بقوله[١].

وقد فزع مروان إليه وإلى أخيه وهو من ألدّ أعدائهم، بعد فشل واقعة الجمل، وطلب منهما أن يشفعا له عند أبيهما، فخفا إليه وكلّماه في شأنه، وقالا له: يُبايِعُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فقال عليه السلام: **«أَوَلَمْ يُبايِعْنِي قَبْلَ قَتْلِ عُثْمَانَ؟! لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ، لَوْ بَايَعَنِي بِيَدِهِ لَغَدَرَ بِسَبَّابَتِهِ، أَمَا إِنَّ لَهُ كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ، وَهُوَ أَبُو الأَكْبُشِ الأَرْبَعَةِ، وَسَتَلْقَىٰ الأُمَّةَ مِنْ وُلْدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ»**[٢].

ومن ألوان تلك الصور الخالدة لعطف الإمام الحسين عليه السلام ورأفته بالناس أنَّه لما استقبله الحر بجيشه البالغ ألف فارس، وكان قد أرسل لمناجزته وقتاله فرآه الإمام الحسين عليه السلام وقد أشرف على الهلاك من شدَّة العطش، فلم تدعه أريحيته ولا سموٌّ ذاته ألّا يقوم بإنقاذهم، فأمر عليه السلام غلمانه وأهل بيته أن يسقوا القوم عن آخرهم، ويسقوا خيولهم، فسقوهم عن آخرهم، وكان فيهم علي بن الطعان المحاربي الذي اشتد به وبفرسه العطش فلم يدرِ كيف يشرب فقام عليه السلام بنفسه فسقاه[٣].

عاشراً: الجود والسخاء:

يقول المؤرّخون: إنَّه كان يحمل في دجى اللَّيل البهيم الجراب يملؤه طعاماً ونقوداً إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين حتى أثر ذلك في ظهره[٤].

وكان يُحْمَلُ إليه المتاع الكثير فلا يقوم حتى يهب عامته، وقد عرف معاوية فيه هذه الظاهرة فأرسل إليه بهدايا وألطاف كما أرسل إلى غيره من شخصيات يثرب، وأخذ يحدث جلساءه بما يفعله كل واحد منهم بتلك الألطاف، فقال في الحسين: «أمَّا الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين، فإن بقي شيء نحر به الجَزُور وسقى به اللبن. . .».

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٨١.
(٢) نهج البلاغة: ١/ ١٢٣، الخطبة ٧٣.
(٣) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٧٨.
(٤) مطالب السؤول: ٢/ ٦٣.

وبعث رقيباً يرى ما يفعله القوم فكان كما أخبر، فقال معاوية: «أنا ابن هند أعلم بقريش من قريش»[١].

روى أنس، قال: كنت عند الحسين فدخلت عليه جارية بيدها طاقة ريحان فحيته بها، فقال لها: أنت حرة لوجه الله تعالى، وبهر أنس فانصرف يقول: جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها؟!

قال عليه السلام: «**كَذَا أَدَّبَنَا اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾**[٢]**، وَكَانَ أَحْسَنَ مِنْهَا عِتْقُهَا**»[٣].

وقصده أعرابي فسلَّم عليه وسأله حاجته، وقال: سمعت جدّك يقول: **إِذَا سَأَلْتُمْ حَاجَةً فَاسْأَلُوهَا مِنْ أَرْبَعةٍ إِمَّا عَرَبِيٍّ شَرِيفٍ، أَوْ مَوْلىً كَرِيمٍ، أَوْ حَامِلُ الْقُرْآنِ، أَوْ صَاحِبُ وَجْهٍ صَبِيحٍ**، فأمَّا العرب فشرفت بجدّك، وأمَّا الكرم فدأبكم وسيرتكم، وأمَّا القرآن ففي بيوتكم نزل، وأمَّا الوجه الصبيح فَإِنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَنْظُرُوا إِلَيَّ فَانْظُروا إِلَىٰ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ**.

فقال له الحسين عليه السلام: **مَا حَاجَتُكَ؟**

فكتبها الأعرابي على الأرض، فقال له الحسين عليه السلام: **سَمِعْتُ أَبِي عَلِيّاً يَقُولُ: الْمَعْرُوفُ بِقَدَرِ الْمَعْرِفَةِ، فَأَسْأَلُكَ عَنْ ثَلاَثِ مَسَائِلَ إِنْ أَجَبْتَ عَنْ وَاحِدَةٍ فَلَكَ ثُلُثُ مَا عِنْدِي، وَإِنْ أَجَبْتَ عَنِ اثْنَتَيْنِ فَلَكَ ثُلُثَا مَا عِنْدِي، وَإِنْ أَجَبْتَ عَنِ الثَّلاَثِ فَلَكَ كُلُّ مَا عِنْدِي، وَقَدْ حُمِلَتْ إِلَيَّ صُرَّةٌ مِنَ الْعِرَاقِ**.

فقال الأعرابي: سَلْ عَمَّا بدا لك، فإن أجبت وإلَّا تعلَّمت منك، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

فقال الإمام الحسين عليه السلام: **أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟**

فقال الأعرابي: الإيمان بالله.

فقال الحسين عليه السلام: **مَا نَجَاةُ الْعَبْدِ مِنَ الْهَلَكَةِ؟**

فقال الأعرابي: الثقة بالله.

فقال الحسين عليه السلام: **مَا يُزِينُ الْمَرْءَ؟**.

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٤٠ و٤١.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٦.

(٣) كشف الغمَّة: ١/ ٥٧٥.

فقال الأعرابي: علم معه حلم.

فقال الحسين عليه السلام: **فَإِنْ أَخْطَأَهُ ذَلِكَ؟**

فقال الأعرابي: مال معه مروءة.

فقال عليه السلام: **فَإِنْ أَخْطَأَهُ ذَلِكَ؟**

فقال: فقر معه صبر.

فقال الحسين عليه السلام: **فَإِنْ أَخْطَأَهُ ذَلِكَ؟**

فقال الأعرابي: فصاعقة تنزل من السماء تحرقه، فإنَّه أهل لذلك.

فضحك الإمام ورمى إليه بالصُّرة[١].

عبادته وتقواه عليه السلام:

أوّلاً: خوفه عليه السلام من الله:

كان الإمام الحسين عليه السلام في طليعة العارفين بالله، وكان عظيم الخوف منه، شديد الحذر من مخالفته، حتى قال له بعض أصحابه: «ما أعظم خوفك من ربّك؟! فقال عليه السلام: **لا يَأْمَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ خَافَ اللَّهَ فِي الدُّنْيا**»[٢].

ثانياً: كثرة صلاته وصومه (ع):

كان أكثر أوقاته عليه السلام مشغولاً بالصلاة والصوم[٣].

وكان يصلِّي في اليوم والليلة ألف ركعة، كما حدث بذلك ولده زين العابدين[٤].

وكان يتختَّم في شهر رمضان[٥].

ثالثاً: حجّه عليه السلام:

كان الإمام الحسين عليه السلام كثير الحج، وقد حجَّ خمساً وعشرين حجَّة ماشياً على قدميه، وكان نجائبه تُقاد بين يديه[٦]، وكان يمسك الركن الأسود ويُناجي الله ويدعو قائلاً: **إِلَهِي أَنْعَمْتَنِي فَلَمْ تَجِدْنِي شَاكِراً، وَابْتَلَيْتَنِي فَلَمْ تَجِدْنِي صَابِراً، فَلَا أَنْتَ سَلَبْتَ**

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤/١٩٦.

(٢) بحار الأنوار: ٤٤/١٩٢.

(٣) الخطط المقريزيَّة: ١/٤٢٨.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/١٦٠.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٣/٢٩١.

(٦) المعجم الكبير: ٣/١١٥، الرقم ٢٨٤٤.

النِّعْمَةَ بِتَرْكِ الشُّكْرِ، وَلَا أَدَمْتَ الشِّدَّةَ بِتَرْكِ الصَّبْرِ، إِلٰهِي مَا يَكُونُ مِنَ الْكَرِيمِ إِلَّا الْكَرَمُ. . .»[١].

رابعاً: صدقاته عليه السلام:

كان عليه السلام كثير البرّ والصدقة، وقد ورث أرضاً وأشياء فتصدَّق بها قبل أن يقبضها[٢].

مواهبه عليه السلام العلمية:

ولم يدانِ الإمام الحسين عليه السلام أحد في فضله وعلمه، فقد فاق غيره بملكاته ومواهب العلمية، وقد انتهل وهو في سنِّه المبكِّر من نمير علوم جدّه التي أضاءت آفاق هذا الكون، كما تتلمذ على يد أبيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام باب مدينة علم النبيّ ﷺ وأعلم الأُمَّة وأفقهها بشؤون الدِّين، وفي حديث ابن عمر: «كَانَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يُغَرَّانِ الْعِلْمَ غَرّاً»[٣].

وقال حبر الأُمَّة عبد الله بن عبَّاس: «الْحُسَيْنُ مِنْ بَيْتِ النُّبوَّةِ، وَهُمْ وَرَثَةُ الْعِلْمِ»[٤].

وقال بعض من ترجمه: «كان الحسين أفضل أهل زمانه في العلم والمعرفة بالكتاب والسُّنَّة»[٥].

مجلسه عليه السلام:

يقول المؤرّخون: إنَّ الناس كانوا يجتمعون إليه ويحتفون به، وكأنَّ على رؤوسهم الطير يسمعون منه العلم الواسع والحديث الصادق.

وكان مجلسه في جامع جدّه رسول الله ﷺ، وله حلقة خاصة به، وسأل رجل من قريش معاوية: أين يجد الحسين؟ فقال له: إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ فرأيت حلقة فيها قوم كأنَّ على رؤوسهم الطير فتلك حلقة أبي عبد الله[٦].

وروي أنَّ رجلاً قال له: يابن رسول الله، أنا من شيعتكم؟!

---

(١) العدد القويَّة: ص٣٥.
(٢) دعائم الإسلام: ٢/٣٣٩.
(٣) المعجم الأوسط/الطبراني: ٤/٤١٨، الرقم ٣٧٠٢.
(٤) التوحيد: ص٨٠.
(٥) الكواكب الدريَّة: ١/٥٨.
(٦) تاريخ مدينة دمشق: ١٤/١٧٩.

قال عليه السلام: اتَّقِ اللّهَ، وَلا تَدَّعِيَنَّ شَيْئاً يَقُولُ اللّهُ لَكَ: كَذِبْتَ، إِنَّ شِيعَتَنا مَنْ سَلِمَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ كُلِّ غِشٍّ وَدَغَلٍ، وَلَكِنْ قُلْ: أَنَا مِنْ مَوَالِيكُمْ وَمُحِبِّيكُمْ[1].

مكارم الأخلاق:

ورسم الإمام الحسين عليه السلام لأهل بيته وأصحابه مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، وأمرهم بالتحلي بها ليكونوا قدوة لغيرهم، وفيما يلي بعضها:

١ ـ قال عليه السلام: «الْحِلْمُ زِينَةٌ، وَالْوَفَاءُ مُرُوءَةٌ، وَالصِّلَةُ نِعْمَةٌ، وَالإِسْتِكْبَارُ صَلَفٌ، وَالْعَجَلَةُ سَفَهٌ، وَالسَّفَهُ ضَعْفٌ، وَالْغُلُوُّ وَرْطَةٌ، وَمُجالَسَةُ أَهْلِ الدَّنَاءَةِ شَرٌّ، وَمُجَالَسَةُ أَهْلِ الْفُسُوقِ رِيبَةٌ»[2].

٢ ـ قال عليه السلام: «الصِّدْقُ عِزٌّ، وَالْكِذْبُ عَجْزٌ، وَالسِّرُّ أَمَانَةٌ، وَالْجِوَارُ قَرَابَةٌ، وَالْمَعُونَةُ صَدَقَةٌ، وَالْعَمَلُ تَجْرُبَةٌ، وَالْخُلُقُ الْحَسَنُ عِبَادَةٌ، وَالصَّمْتُ زَيْنٌ، وَالشُّحُّ فَقْرٌ، وَالسَّخَاءُ غِنىً، وَالرِّفْقُ لُبٌّ»[3].

٣ ـ قال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ جَادَ سَادَ، وَمَنْ بَخِلَ رَذُلَ، وَإِنَّ أَجْوَدَ النَّاسِ مَنْ أَعْطَىٰ مَنْ لاَ يَرْجو، وَإِنَّ أَعْفَىٰ النَّاسَ مَنْ عَفَا عَنْ قُدْرَةٍ، وَإِنَّ أَوْصَلَ النَّاسِ مَنْ وَصَلَ مَنْ قَطَعَهُ، وَالأُصُولُ عَلَىٰ مَغَارِسِهَا بِفُرُوعِهَا تَسْمُو؛ فَمَنْ تَعَجَّلَ لأَخِيهِ خَيْراً وَجَدَهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ غَداً، وَمَنْ أَرَادَ اللّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالصَّنِيعَةِ إِلَىٰ أَخِيهِ كَفَاهُ بِهَا فِي وَقْتِ حَاجَتِهِ، وَصَرَفَ عَنْهُ مِنْ بَلاَءِ الدُّنْيا مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ، وَمَنْ نَفَّسَ كُرْبَةَ مُؤْمِنٍ فَرَّجَ اللّهُ عَنْهُ كُرَبَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ أَحْسَنَ أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْهِ؛ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»[4].

٤ ـ قال عليه السلام: «إِعْلَموا أَنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ، فَلاَ تَمَلُّوا النِّعَمَ فَتَعُودَ النِّقَمُ»[5].

٥ ـ رأى الإمام عليه السلام رجلاً قد دُعي إلى طعام فامتنع من الإجابة، فقال عليه السلام له: قُمْ فَلَيْسَ فِي الدَّعْوَةِ عَفْوٌ، وَإِنْ كُنْتَ مُفْطِراً فَكُلْ، وَإِنْ كُنْتَ صَائِماً فَبَارِكْ»[6].

---

١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٣٠٩، الحديث ١٥٤.
٢) كشف الغمّة: ١/ ٥٧٥ و٥٧٦.
٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٦٠.
٤) كشف الغمّة: ١/ ٥٧٤.
٥) كشف الغمّة: ١/ ٥٧٣.
٦) دعائم الإسلام: ٢/ ١٠٧ و١٠٨.

٦ ـ قال عليه السلام: «صَاحِبُ الْحَاجَةِ لَمْ يُكْرِمْ وَجْهَهُ عَنْ سُؤَالِكَ، فَأَكْرِمْ وَجْهَكَ عَنْ رَدِّهِ»[١].

٧ ـ كان عليه السلام دوماً ينشد هذه الأبيات الداعية إلى حسن الخلق، وعدم العناء في طلب الدُّنيا، ويزعم بعض الرواة أنَّها من نظمه، وهي:

لَـئِـنْ كَـانَـتِ الـدُّنْـيـا تُـعَـدُّ نَـفِـيـسَـةً ... فَـدَارُ ثَـوَابِ الـلَّـهِ أَعْـلَـىٰ وَأَنْـبَـلُ
وَإِنْ كَـانَـتِ الأَبْـدَانُ لِـلْـمَـوْتِ أُنْـشِـأَتْ ... فَقَتْلُ امْرِىءٍ بِالسَّيْفِ فِي اللَّهِ أَفْضَلُ
وَإِنْ كَـانَـتِ الأَرْزَاقُ رِزْقـاً مُـقَـدَّراً ... فَقِلَّةُ جَهْدِ الْمَرْءِ فِي الْكَسْبِ أَجْمَلُ
وَإِنْ كَـانَـتِ الأَمْـوَالُ لِـلـتَّـرْكِ جَـمْـعُـهَـا ... فَـمَـا بَـالُ مَـتْـرُوكٍ بِـهِ الْـمَـرْءُ يَـبْـخَـلُ
لَـئِـنْ كَـانَـتِ الأَفْـعَـالُ يَـوْمـاً لأَهْـلِـهَـا ... كَمَالاً فَحُسْنُ الْخُلْقِ أَبْهَىٰ وَأَكْمَلُ[٢]

وألمت هذه الأبيات برغبة الإمام الحسين عليه السلام بالشهادة في سبيل الله، كما حكت عن طبيعة كرمه وسخائه.

٨ ـ قال عليه السلام: «لَا تَتَكَلَّفْ مَا لَا تُطِيقُ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِمَا لَا تُدْرِكُ، وَلَا تَعْتَدَّ بِمَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَا تُنْفِقْ إِلَّا بِقَدَرِ مَا تَسْتَفِيدُ، وَلَا تَطْلُبْ مِنَ الْجَزَاءِ إِلَّا بِقَدَرِ مَا صَنَعْتَ، وَلَا تَفْرَحْ إِلَّا بِمَا نِلْتَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا تَتَنَاوَلْ إِلَّا مَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ أَهْلاً لَهُ»[٣].

٩ ـ قال عليه السلام لابن عبَّاس: «يَابْنَ عَبَّاسٍ، لَا تَتَكَلَّمَنَّ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ فَإِنَّنِي أَخَافُ عَلَيْكَ الْوِزْرَ، وَلَا تَتَكَلَّمَنَّ فِيمَا يَعْنِيكَ حَتَّىٰ تَرىٰ لِلْكَلَامِ مَوْضِعاً، فَرُبَّ مُتَكَلِّمٍ قَدْ تَكَلَّمَ بِحَقٍّ فَعِيبَ، وَلَا تُمَارِيَنَّ حَلِيماً وَلَا سَفِيهاً، فَإِنَّ الْحَلِيمَ يُقْلِيكَ، وَالسَّفِيهَ يُرْدِيكَ، وَلَا تَقُولَنَّ فِي أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ إِذَا تَوَارىٰ عَنْكَ إِلَّا مِثْلَ مَا تُحِبُّ أَنْ يَقُولَ فِيكَ إِذَا تَوَارَيْتَ عَنْهُ، وَاعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ بِالإِجْرَامِ مَجْزِيءٌ بِالإِحْسَانِ، وَالسَّلَامُ»[٤].

الإخوان:

قَالَ عليه السلام: «الإِخْوَانُ أَرْبَعَةٌ: فَأَخٌ لَكَ وَلَهُ، وَأَخٌ لَكَ، وَأَخٌ عَلَيْكَ، وَأَخٌ لَا لَكَ وَلَا لَهُ».

وأوضح عليه السلام ذلك بقوله: «الأَخُ الَّذِي هُوَ لَكَ وَلَهُ فَهُوَ الأَخُ الَّذِي يَطْلُبُ بِإِخَائِهِ بَقَاءَ

---

(١) كشف الغمَّة: ١/ ٥٧٦.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٩٥.
(٣) أسرار الحكماء: ص٩٠.
(٤) كنز الفوائد: ص١٩٤.

الْإِخَاءِ، وَلَا يَطْلُبُ بِإِخَائِهِ مَوْتَ الْإِخَاءِ فَهَذَا لَكَ وَلَهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَمَّ الْإِخَاءُ طَابَتْ حَيَاتُهُمَا جَمِيعاً، وَإِذَا دَخَلَ الْإِخَاءُ فِي حَالَ التَّنَاقُضِ بَطَلَا جَمِيعاً.

وَالْأَخُ الَّذِي هُوَ لَكَ فَهُوَ الْأَخُ الَّذِي قَدْ خَرَجَ بِنَفْسِهِ عَنْ حَالِ الطَّمَعِ إِلَى حَالِ الرَّغْبَةِ، فَلَمْ يَطْمَعْ فِي الدُّنْيَا إِذَا رَغِبَ فِي الْإِخَاءِ فَهَذَا مَوْفُورٌ عَلَيْكَ بِكُلِّيَّتِهِ.

وَالْأَخُ الَّذِي هُوَ عَلَيْكَ فَهُوَ الْأَخُ الَّذِي يَتَرَبَّصُ بِكَ الدَّوَائِرَ، وَيُفْشِي السَّرَائِرَ، وَيَكْذِبُ عَلَيْكَ بَيْنَ الْعَشَائِرِ، وَيَنْظُرُ فِي وَجْهِكَ نَظَرَ الْحَاسِدِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الْوَاحِدِ.

وَالْأَخُ الَّذِي لَا لَكَ وَلَا لَهُ، فَهُوَ الَّذِي قَدْ مَلَأَهُ اللَّهُ حُمْقاً فَأَبْعَدَهُ سُحْقاً، فَتَرَاهُ يُؤْثِرُ نَفْسَهُ عَلَيْكَ، وَيَطْلُبُ شُحّاً مَا لَدَيْكَ»[1].

العلم والتجارب:

وَقَالَ عليه السلام: «دِرَاسَةُ الْعِلْمِ لِقَاحُ الْمَعْرِفَةِ، وَطُولُ التَّجَارِبِ زِيَادَةٌ فِي الْعَقْلِ، وَالشَّرَفُ التَّقْوَى وَالْقُنُوعُ رَاحَةُ الْأَبْدَانِ، وَمَنْ أَحَبَّكَ نَهَاكَ وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَغْرَاكَ»[2].

الوعظ والإرشاد:

وعنى الإمام الحسين عليه السلام بوعظ الناس وإرشادهم ـ كما عنى أبوه أمير المؤمنين عليه السلام من قبله ـ مستهدفاً من ذلك تنمية القوى الخيرة في النُّفوس، وتوجيه الناس نحو الحق والخير وإبعادهم عن نزعات الشرِّ من الاعتداء والغرور والطيش وغير ذلك، ونعرض فيما يلي لبعض ما أثر عنه:

قال عليه السلام: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأُحَذِّرُكُمْ أَيَّامَهُ، وَأَرْفَعُ لَكُمْ أَعْلَامَهُ، فَكَأَنَّ الْمَخُوفَ قَدْ أَفِدَ بِمَهُولِ وُرُودِهِ، وَنَكِيرِ حُلُولِهِ، وَبَشِعِ مَذَاقِهِ، فَاعْتَلَقَ مُهَجَكُمْ، وَحَالَ بَيْنَ الْعَمَلِ وَبَيْنِكُمْ، فَبَادِرُوا بِصِحَّةِ الْأَجْسَامِ فِي مُدَّةِ الْأَعْمَارِ، كَأَنَّكُمْ تَبِعَاتُ طَوَارِقِهِ فَتَنْقُلُكُمْ مِنْ ظَهْرِ الْأَرْضِ إِلَى بَطْنِهَا، وَمِنْ عُلُوِّهَا إِلَى سُفْلِهَا، وَمِنْ أُنْسِهَا إِلَى وَحْشَتِهَا، وَمِنْ رَوْحِهَا وَضَوْئِهَا إِلَى ظُلْمَتِهَا، وَمِنْ سَعَتِهَا إِلَى ضِيقِهَا حَيْثُ لَا يُزَارُ حَمِيمٌ، وَلَا يُعَادُ سَقِيمٌ، وَلَا يُجَابُ صَرِيخٌ. أَعَانَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَنَجَّانَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ عِقَابِهِ، وَأَوْجَبَ لَنَا وَلَكُمُ الْجَزِيلَ مِنْ ثَوَابِهِ.

عِبَادَ اللَّهِ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ قِصَرَ مَرْمَاكُمْ، وَمَدَى مَضْعَنِكُمْ كَانَ حَسْبُ الْعَامِلِ شُغْلاً

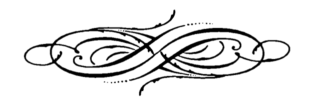
---

(١) تحف العقول: ٢٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ١٢٨/٧٨.

يَسْتَفْرِغُ عَلَيْهِ أَحْزَانَهُ، وَيَذْهَلُهُ عَنْ دُنْيَاهُ وَيُكْثِرُ نَصَبَهُ لِطَلَبِ الْخَلَاصِ مِنْهُ، فَكَيْفَ وَهُوَ بَعْدَ ذَلِكَ مُرْتَهَنٌ بِاكْتِسَابِهِ، مُسْتَوْقَفٌ عَلَى حِسَابِهِ، لَا وَزِيرَ لَهُ يَمْنَعُهُ، وَلَا ظَهِيرَ عَنْهُ يَدْفَعُهُ، وَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ؟! [(١)].

أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ضَمِنَ لِمَنِ اتَّقَاهُ أَنْ يُحَوِّلَهُ عَمَّا يَكْرَهُ إِلَى مَا يُحِبُّ، وَيَرْزُقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَخَافُ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَيَأْمَنُ الْعُقُوبَةَ مِنْ ذَنْبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُخْدَعُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» [(٢)].



(١) إشارة إلى الآية: ١٥٨ من سورة الأنعام.

(٢) تحف العقول: ص٢٩ و٢٤٠.

من أدعيته عليه السلام

١ ـ دعاؤه عليه السلام للوقاية من الأعداء:

كان عليه السلام يدعو بهذا الدُّعاء يستجير بالله من شرور أعدائه، وهذا نصّه:

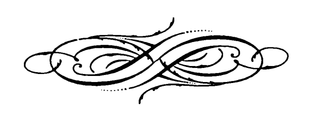
«اللَّهُمَّ يَا عُدَّتِي عِنْدَ شِدَّتِي، وَيَا غَوْثِي عِنْدَ كُرْبَتِي، احْرُسْنِي بِعَيْنِكَ الَّتِي لَا تَنَامُ، وَاكْنُفْنِي بِرُكْنِكَ الَّذِي لَا يُرَامُ، وَارحَمْنِي بِقُدْرَتِكَ عَلَيَّ، فَلَا أُهْلَكُ وَأَنْتَ رَجَائِي.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ وَأَقْدَرُ مِمَّا أَخَافُ وَأَحْذَرُ. اللَّهُمَّ بِكَ أَدْرَأُ فِي نَحْرِهِ، وَأَسْتَعِيذُ مِنْ شَرِّهِ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(١).

٢ ـ دعاؤه عليه السلام للاستسقاء:

كان عليه السلام يدعو بهذا الدُّعاء إذا خرج للاستسقاء:

«اللَّهُمَّ اسْقِنا سُقْياً وَاسِعَةً، وَادِعَةً، عَامَّةً، نَافِعَةً، غَيْرَ ضَارَّةٍ، تَعُمُّ بِهَا حَاضِرَنا وَبَادِينَا، وَتَزِيدُ بِهَا فِي رِزْقِنَا وَشُكْرِنا. اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ رِزْقَ إِيْمَانٍ، وَعَطَاءَ إِيْمَانٍ، إِنَّ عَطَاءَكَ لَمْ يَكُنْ مَحْظُوراً. اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِنا سَكَنَهَا، وَأَنْبِتْ فِيهَا زِينَتَهَا وَمَرْعَاهَا»(٢).



---

(١) نور الأبصار: ص٢٩٦.

(٢) عيون الأخبار: ٢/٢٧٨ و٢٧٩.

جوامع الكلم

ومنح الله الإمام الحسين عليه السلام أعنة الحكمة، وفصل الخطاب فكانت تتدفق على لسانه سيول من الموعظة والآداب، والأمثال السائرة، وفيما يلي بعضها:

قال عليه السلام: «مَا أَخَذَ اللَّهُ طَاقَةَ أَحَدٍ إِلَّا وَضَعَ عَنْهُ طَاعَتَهُ، وَلَا أَخَذَ قُدْرَتَهُ إِلَّا وَضَعَ عَنْهُ كُلْفَتَهُ»(١).

قَالَ عليه السلام: «إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُسِيءُ وَلَا يَعْتَذِرُ، وَالْمُنَافِقُ كُلَّ يَوْمٍ يُسِيءُ وَيَعْتَذِرُ»(٢).

قَالَ عليه السلام: «اللَّهُمَّ لَا تَسْتَدْرِجْنِي بِالإِحْسَانِ، وَلَا تُؤَدِّبْنِي بِالْبَلَاءِ»(٣).

قَالَ عليه السلام: «الْبَخِيلُ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ»(٤).

قَالَ عليه السلام: «مَنْ حَاوَلَ أَمْراً بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ كَانَ أَفْوَتَ لِمَا يَرْجُو، وَأَسْرَعَ لِمَجِيءِ مَا يَحْذَرُ»(٥).

قَالَ عليه السلام: «مِنْ دَلَائِلِ عَلَامَاتِ الْقَبُولِ الْجُلُوسُ إِلَى أَهْلِ الْعُقُولِ، وَمِنْ عَلَامَاتِ أَسْبَابِ الْجَهْلِ الْمُمَارَاةُ لِغَيْرِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَمِنْ دَلَائِلِ الْعَالِمِ انْتِقَادُهُ لِحَدِيثِهِ، وَعِلْمُهُ بِحَقَائِقِ فُنُونِ النَّظَرِ»(٦).

قَالَ عليه السلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ اتَّخَذَ اللَّهُ عِصْمَتَهُ، وَقَوْلُهُ مِرْآتَهُ، فَمَرَّةً يَنْظُرُ فِي نَعْتِ

---

(١) تحف العقول: ص٢٤٦.
(٢) تحف العقول: ص٢٤٨.
(٣) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص٨٣.
(٤) تحف العقول: ص٢٤٨.
(٥) الكافي: ٢/ ٣٧٢.
(٦) تحف العقول: ص٢٤٧ و٢٤٨.

الْمُؤْمِنِينَ، وَتَارَةً يَنْظُرُ فِي الْمُتَجَبِّرِينَ، فَهُوَ مِنْهُ فِي لَطَائِفِ، وَمِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَارُفٍ، وَمِنْ فِطْنَتِهِ فِي يَقِينٍ، وَمِنْ قُدْسِهِ عَلَى تَمْكِينٍ»(١).

قال عليه السلام: «مَوْتٌ فِي عِزٍّ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي ذُلٍّ»(٢).

قال عليه السلام: «الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ نَجَاةٌ مِنَ النَّارِ»(٣).

قال عليه السلام: «مَنْ أَحْجَمَ عَنِ الرَّأْيِ وَعِيِيَتْ بِهِ الْحِيَلُ كَانَ الرِّفْقُ مِفْتَاحَهُ»(٤).

قال عليه السلام: «مَنْ قَبِلَ عَطَاءَكَ فَقَدْ أَعَانَكَ عَلَىٰ الْكَرَمِ»(٥).

قال عليه السلام: «إِنَّ أَعْمَالَ هَذِهِ الأُمَّةِ مَا مِنْ صَباحٍ إِلَّا وَتُعْرَضُ عَلَىٰ اللَّهِ عَزَ وَجَلَّ»(٦).

قال عليه السلام: «خَيْرُ الْمَالِ مَا وَقِيَ بِهِ الْعِرْضُ»(٧).

قال عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ مِنْ أَجَلِهِ، وَيُزَادَ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(٨).

قال علي بن الحسين عليه السلام: «كَتَبَ رَجُلٌ إِلَىٰ الْحَسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام: يَا سَيِّدِي، أَخْبِرْنِي بِخَيْرِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ أُمُورَ النَّاسِ، وَمَنْ طَلَبَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَىٰ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ»(٩).

قال عليه السلام لابنه علي بن الحسين عليه السلام: «أَيْ بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَظُلْمَ مَنْ لَا يَجِدُ عَلَيْكَ نَاصِراً إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»(١٠).

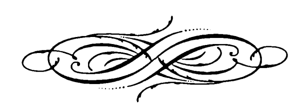
---

(١) تحف العقول: ص٢٤٨.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤/٦٨.
(٣) جامع الأخبار: ص٢٥٩، الحديث ٦٨٩.
(٤) أعلام الدين: ص٢٩٨.
(٥) بحار الأنوار: ٧١/٣٥٧.
(٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/٤٣، الحديث ١٥٦.
(٧) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص٨٣.
(٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/٤٣، الحديث ١٥٧.
(٩) الأمالي/الصدوق: ص٢٦٨، الحديث ١٤.
(١٠) الكافي: ٢/٣٣٣.

قال عليه السلام لرجل اغتاب عنده رجلاً: «**يَا هَذَا، كُفَّ عَنِ الْغِيْبَةِ فَإِنَّها إِدَامُ كِلاَبِ النَّارِ**»[1].

تكلَّم رجل عنده فقال: إنَّ المعروف إذا أسدي إلى غير أهله ضاع، فقال عليه السلام: «**لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ تَكُونُ الصَّنِيعَةُ مِثْلَ وَابِلِ الْمَطَرِ تُصِيبُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ**»[2].

سأله رجل عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[3]، قال عليه السلام: «**أَمَرَهُ أَنْ يُحَدِّثَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ**»[4].



(١) تحف العقول: ص٢٤٥.
(٢) تحف العقول: ص٢٤٥ و٢٤٦.
(٣) سورة الضحىٰ: الآية ١١.
(٤) تحف العقول: ص٢٤٦ و٢٤٧.

من بعض أشعاره عليه السلام

نسبت له هذه الأبيات الحكمية:

إِذَا مَا عَضَّكَ الدَّهْرُ ... فَلَا تَجْنَحْ إِلَىٰ الْخَلْقِ
وَلَا تَسْأَلْ سِوَىٰ اللَّهَ ... تَعَالَىٰ قَاسِمَ الرِّزْقِ
فَلَوْ عِشْتَ وَطَوَّفْتَ ... مِنَ الْغَرْبِ إِلَىٰ الشَّرْقِ
لَمَا صَادَفْتَ مَنْ يَقْدِرُ ... أَنْ يُسْعِدَ أَوْ يُشْقِي[(١)]

قال عليه السلام:

اِغْنَ عَنِ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ ... تُغْنَ عَنِ الْكَاذِبِ وَالصَّادِقِ
وَاسْتَرْزِقِ الرَّحْمٰنَ مِنْ فَضْلِهِ ... فَلَيْسَ غَيْرُ اللَّهِ مِنْ رَازِقِ
مَنْ ظَنَّ أَنَّ النَّاسَ يُغْنُونَهُ ... فَلَيْسَ بِالرَّحْمٰنِ بِالْوَاثِقِ
أَوْ ظَنَّ أَنَّ الْمَالَ مِنْ كَسْبِهِ ... زَلَّتْ بِهِ النَّعْلَانِ مِنْ حَالِقِ[(٢)]

زار الإمام الحسين عليه السلام مقابر الشُّهداء بالبقيع؛ لما في ذلك من التذكير بأحوال الآخرة، فانبرى يقول:

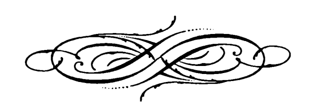
نَادَيْتُ سُكَّانَ الْقُبُورِ فَأُسْكِتُوا ... فَأَجَابَنِي عَنْ صَمْتِهِمْ تُرْبُ الحَصَا
قَالَتْ أَتَدْرِي مَا صَنَعْتُ بِسَاكِنِي ... مَزَّقْتُ لَحْمَهُمُ وَخَرَّقْتُ الْكِسَا
وَحَشَوْتُ أَعْيُنَهُمْ تُراباً بَعْدَمَا ... كَانَتْ تَأَذَّىٰ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْقَذا
أَمَّا الْعِظَامُ فَإِنَّنِي مَزَّقْتُهَا ... حَتَّىٰ تَبَايَنَتِ الْمَفَاصِلُ وَالشَّوا
قَطَّعْتُ ذَا مِنْ ذَا وَمِنْ هَذَا كَذا ... فَتَرَكْتُها مِمَّا يَطُولُ بِهَا الْبِلَا[(٣)]

---

(١) كشف الغمَّة: ١/ ٥٧٨.
(٢) الحالق: المرتفع، القاموس المحيط: ١١٣١، حَلَقَ. أعيان الشيعة: ١/ ٦٢١.
(٣) أعيان الشيعة: ١/ ٦٢١.

ونسب الأعشى هذه الأبيات للإمام الحسين عليه السلام:

كُلَّمَا زِيدَ صَاحِبُ الْمَالِ مَالاً زِيْدَ فِي هَمِّهِ وَفِي الاشْتِغَالِ
قَدْ عَرَفْنَاكَ يَا مُنَغِّصَةَ الْعَيْـ ـشِ وَيَا دَارَ كُلِّ فَانٍ وَبَالِ
لَيْسَ يَصْفُو لِزَاهِدٍ طَلَبُ الزُّهْـ ـدِ إِذَا كَانَ مُثْقَلاً بِالْعِيَالِ[1]



(١) أعيان الشيعة: ١/ ٦٢١.

مأساةُ الإسلام الكبرىٰ

عاش الإمام الحسين عليه السلام وهو في ريعان الصبا، وغضارة العمر في كنف جدِّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وكان يغدق عليه بعطفه، ويفيض عليه بحنانه، ويعمل على توجيهه وتقويمه، حتَّى توسَّعت مداركه، ونمت ملكاته وهو في سنِّه المبكر.

طلائع الرحيل:

وبدت طلائع الوفاة، ومفارقة الحياة للقائد والمنقذ والمعلِّم والرسول صلى الله عليه وآله، فقد كان هناك إنذاران متواليان يدلَّان على ذلك، وهما كما يلي:

١ ـ إنَّ القرآن نزل على الرسول صلى الله عليه وآله مرتين فاستشعر صلى الله عليه وآله بذلك حضور الأجل المحتوم[١]، وأخذ ينعى نفسه، ويذيع بين المسلمين مفارقته لهذه الحياة، وكان يقول لبضعته سيِّدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام: **«إنَّ جَبْرَئِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَأَنَّهُ عَارَضَنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَمَا أَرَىٰ ذَلِكَ إِلَّا اقْتِرَابَ أَجَلِي»**[٢].

٢ ـ إنَّه نزل عليه الوحي بهذه الآية: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[٣]. وكانت هذه الآية إنذاراً له بمفارقة الحياة، فأثارت كوامن التوجس في نفسه، وسمعه المسلمون يقول: **«لَيْتَنِي أَعْلَمُ مَتَىٰ يَكُونُ ذَلِكَ»**.

ونزلت عليه سورة النَّصر، فكان يسكت بين التكبير والقراءة ويقول: **«سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»**.

وفزع المسلمون وذهلوا، وانطلقوا إليه يسألونه عن هذه الحالة الرهيبة فأجابهم صلى الله عليه وآله: **«أَما إِنَّ نَفْسِي قَدْ نُعِيتْ إِلَيَّ...»**[٤].

---

(١) الخصائص الكبرىٰ/ السيوطي: ٢/ ٢٦٨.
(٢) الأمالي/ الصدوق: ص٦٩٢، الحديث ٩٤٨.
(٣) سورة الزمر: الآيتان ٣٠ و٣١.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٣٤.

تفجّع فاطمة الزَّهراء عليها السلام:

ونخب الحزن قلب بضعة الرسول ﷺ وريحانته، وبرَّح بها الألم وأضناها الأسىٰ حينما علمت أنَّ أباها مفارق لهذه الحياة، فقد جاءت إليه تتعثر بخطاها وهي مذهولة كأنَّها هي التي تعاني آلام الاحتضار فجلست إلى جانبه وهي محدقة بوجهه، ويمتلىء قلبها الطاهر بالأسى والحزن والحسرات، فتسرع إليه قائلة عليها السلام: **وَاكَرْبَاهُ لِكَرْبِكَ يَا أَبَتَاهُ**.

فأشفق الرسول ﷺ حينما رأى حبيبته كأنَّها صورة جثمان قد فارقته الحياة، فقال لها مسلياً: **لَا كَرْبَ عَلَىٰ أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ**(١).

وسألتها عائشة عمَّا أسرَّ إليها أبوها فأشاحت بوجهها عنها وأبت أن تخبرها، ولما انصرمت الأيَّام أخبرت ـ سلام الله عليها ـ عن ذلك، فقالت عليها السلام: **أَخْبَرَنِي إِنَّ جَبْرَئِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي فِي هَذَا الْعَامِ بِهِ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ حَضَرَ أَجَلِي**.

وكان هذا هو السبب في لوعتها وبكائها، وأما سبب سرورها وابتهاجها فتقول: **أَخْبَرَنِي إِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لُحُوقاً بِي، وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ... أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ**(٢).

لقد كان السبب في إخماد لوعتها إخباره لها أنَّها أوَّل أهل بيته لحوقاً به، وأخذ ﷺ يخفِّف عنها لوعة المصاب قائلاً لها: **يَا بُنَيَّةِ، لَا تَبْكِ، وَإِذَا مِتُّ فَقُولِي: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَإِنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ مَعُوضَةً**.

وقالت له بصوت خافت حزين النبرات: **وَمِنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟**

قال ﷺ: **نَعَمْ، وَمِنِّي**(٣).

واشتد الوجع برسول الله ﷺ فجعلت تبكي وتقول لأبيها: **أَنْتَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ القائِلُ:**

وَأَبيضُ يُستَسقَىٰ الغَمامُ بِوَجهِهِ ... ثِمالُ اليَتامىٰ عِصمَةٌ لِلأَرامِلِ

وأفاق رسول الله ﷺ فقال لها: **هَذَا قَوْلُ عَمِّي أَبِي طَالِبٍ**، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) كشف الغمَّة: ١/ ٤٠.
(٢) الأمالي/ الصدوق: ص٦٩٢، الحديث ٩٤٨.
(٣) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٢٥.

﴿مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[1][2].

وروى أنس بن مالك قال: «جاءت فاطمة ومعها الحسن والحسين عليهما السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله في مرضه الذي قبض فيه فانكبت عليه، وألصقت صدرها بصدره وهي غارقة في البكاء، فنهاها النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك فانطلقت إلى بيتها والنبيّ تسبقه دموعه، وهو يقول: **اللَّهُمَّ أَهْلُ بَيْتِي، وَأَنَا مُسْتَودِعُهُمْ كُلَّ مُؤْمِنٍ**»[3].

وجعل يردِّد ذلك ثلاث مرّات وهو مثقل بالهم لعلمه بما سيجري عليهم من المحن والخطوب.

ميراث النبيّ صلى الله عليه وآله لسبطيه عليهما السلام:

ولما علمت سيِّدة النِّساء أنَّ لقاء أبيها بربّه قريب فخفَّت إلى دارها وصحبت معها ولديها الحسن والحسين عليهما السلام، وهي تذرف الدموع، وتطلب منه أن يورثهما شيئاً من مكارم نفسه التي عطَّر شذاها العالم بأسره قائلة: **أَنْحِلْ ابْنَيَّ هَذَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ**.

وفي رواية أُخرى: **هَذَانِ ابْنَاكَ فَوَرِّثْهُمَا شَيْئاً**.

ويفيض عليهما الرسول صلى الله عليه وآله ببعض خصائصه وذاتياته التي امتاز بها على سائر النبيِّين قائلاً: **أَمَّا الْحَسَنُ فَلَهُ هَيْبَتِي وَسُؤْدَدِي، وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَلَهُ جُرْأَتِي وَجُودِي**[4].

ويقوم الحسنان من عند جدّهما وقد ورثا منه الهيبة والسؤدد، والجرأة والجود، وهل هناك ممَّا تحويه هذه الأرض أثمن وأعز من هذا الميراث الذي لا صلة له بعالم المادة وشؤونها، وإنَّما يحوي كمالات النُّبوَّة وخصائصها.

وصية النبيّ صلى الله عليه وآله بالسبطين عليهما السلام:

وأوصى النبيّ صلى الله عليه وآله الإمام علياً عليه السلام برعاية سبطيه، وكان ذلك قبل موته بثلاثة أيَّام، فقد قال له: **يَا أَبَا الرَّيْحَانَتَيْنِ، أُوْصِيكَ بِرَيْحَانَتَيَّ مِنَ الدُّنْيا فَعَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدُّ رُكْنَاكَ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ**.

---

١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.
٢) شرح الأخبار: ٣/ ٢٢٣.
٣) بحار الأنوار: ٢٢/ ٤٦١.
٤) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٩٦.

ولما قبض الرسول صلى الله عليه وآله قال علي عليه السلام: **هَذَا أَحَدُ رُكْنَيَّ الَّذِي قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ**، فلما ماتت فاطمة قال علي عليه السلام: **هَذَا الرُّكْنُ الثَّانِي الَّذِي قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله**(١).

لوعة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على الحسين عليه السلام:

خفَّ الإمام الحسين عليه السلام إلى جدّه الرسول صلى الله عليه وآله حينما كان يعاني آلام المرض وشدائد الاحتضار، فلما رآه ضمه إلى صدره وذهل عن آلام مرضه، وجعل يقول: **مَا لِي وَلِيَزِيدَ، لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِ، اللَّهُمَّ الْعَنْ يَزِيدَ**.

ثمَّ غشي عليه طويلاً، فلما أفاق أخذ يوسع الإمام الحسين عليه السلام تقبيلاً، وعيناه تفيضان بالدموع، وهو يقول: **أَمَا إِنَّ لِي وَلِقَاتِلِكَ مَقَاماً بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**(٢).

لقد تمثَّلت كارثة الحسين عليه السلام أمام جده الرسول وهو في ساعاته الأخيرة فزادته آلاماً وأحزاناً.

مآسي الزَّهراء عليها السلام:

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله طافت موجات قاسية من الهموم والأحزان ببضعة النبيّ صلى الله عليه وآله ووديعته، فقد احتلَّ الأسىٰ قلبها الرقيق المعذَّب، وغشيتها سحب قاتمة من الكدر واللوعة على فقد أبيها الذي كان أعزَّ عندها من الحياة، فكانت تزور جدثه الطاهر فتطوف حوله وهي حيرىٰ ذاهلة اللب، منهدَّة الكيان، فتلقي بنفسها عليه، وتأخذ حفنة من ترابه الطاهر فتضعه على عينيها ووجهها وتطيل من شمِّه وتقبيله، فتجد في نفسها راحة، وهي تبكي أمرّ البكاء وأشجاه، وتقول بصوتٍ حزين النبرات:

مَاذَا عَلَىٰ مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ ... أَنْ لَا يَشُمَّ مَدَىٰ الزَّمَانِ غَوَالِيَا
صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ لَوْ أَنَّهَا ... صُبَّتْ عَلَىٰ الأَيَّامِ صِرْنَ لَيَالِيَا
قُلْ لِلْمُغَيَّبِ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرىٰ ... إِنْ كُنْتَ تَسْمَعُ صَرْخَتِي وَنِدَائِيَا
قَدْ كُنْتُ ذَاتَ حِمىً بِظِلِّ مُحَمَّدٍ ... لَا أَخْشَ مِنْ ضَيْمٍ وَكَانَ جَمَالِيَا
فَالْيَوْمَ أَخْضَعُ لِلذَّلِيلِ وَأَتَّقِي ... ضَيْمِي وَأَدْفَعُ ظَالِمِي بِرِدَائِيَا
فَإِذَا بَكَتْ قُمْرِيَّةٌ فِي لَيْلِهَا ... شَجَناً عَلَىٰ غُصْنٍ بَكَيْتُ صَبَاحِيَا
فَلَأَجْعَلَنَّ الْحُزْنَ بَعْدَكَ مُؤْنِسِي ... وَلَأَجْعَلَنَّ الدَّمْعَ فِيكَ وِشَاحِيَا(٣)

---

(١) الأمالي/الصدوق: ص١٩٨، الحديث ٢١٠.
(٢) مثير الأحزان/ابن نما: ص١٢.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ١/٢٤٢.

وأثر الحزن المرهق ببضعة النبيّ ﷺ وريحانته حتى فتكت بها الأمراض فلازمت فراشها، ولم تتمكَّن من النهوض والقيام، فبادرت السيِّدات من نساء المسلمين إلى عيادتها فقلن لها: كيف أصبحتِ من علتك يا بنت رسول الله؟

فرمقتهنَّ بطرفها، وأجابتهن بصوتٍ خافت مشفوع بالحزن والحسرات قائلة: **أَجِدُنِي وَاللَّهِ كَارِهَةً لِدُنْياكُنَّ، مَسْرُورَةً لِفِرَاقِكُنَّ، أَلْقَىٰ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِحَسَراتِكُنَّ، فَمَا حُفِظَ لِيَ الْحَقُّ، وَلَا رُعِيتْ مِنِّي الذِّمَّةُ، وَلَا قُبِلَتْ الْوَصِيَّةُ، وَلَا عُرِفَتْ الْحُرْمَةُ**[1].

وخيَّم على النسوة صمت رهيب، وانعكس على وجوههنَّ حزن شديد، وغامت عيونهن بالدموع، وانطلقن إلى بيوتهن بخطىً ثقيلة، فعرضن على أزواجهن كلمات زهراء الرسول، فكانت وقعها عليهم أشدّ من ضرب السيوف، فقد عرفوا مدى تقصيرهم تجاه وديعة نبيهم، فجاؤوا معتذرين ونادمين على ما فرطوا من عدم نصرة بنت نبيهم ﷺ، ويرجون إقالتهم؛ ولكنَّها عليها السلام لم تقبل عذرهم.

وهرعت بعض أُمَّهات المؤمنين إلى عيادتها، فقلن لها: يا بنت رسول الله، صيري لنا في حضور غسلك حظاً.

فلم تجبهن إلى ذلك، وقالت: **أَتُرِدْنَ أَنْ تُقُلْنَ فِيَّ كَمَا قُلْتُنَّ فِي أُمِّي؛ لَا حَاجَةَ لِي فِي حُضُورِكُنَّ**[2].

إلى جنَّة المأوىٰ:

وتوالت الأمراض على وديعة النبيّ ﷺ وفتك الحزن بجسمها النحيل المعذب حتى انهارت قواها، وأصبحت لا تقوى على النهوض من فراشها، وأخذت تذوي كما تذوي الأزهار عند الظمأ، فقد مشى إليها الموت سريعاً وهي في شبابها الغضّ، وقد حان موعد اللقاء القريب بينها وبين أبيها الذي غاب عنها، وغابت معه عواطفه الفيَّاضة، ولما بدت لها طلائع الرحيل عن هذه الحياة طلبت حضور ابن عمِّها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فعهدت إليه بوصيتها، وقد جاء فيها أن يواري جثمانها المقدَّس في غلس اللَّيل البهيم، وألَّا يشيعها أحد من الذين هضموها؛ لأنَّهم أعداؤها وأعداء أبيها ـ على حدِّ تعبيرها ـ كما عهدت إليه أن يتزوَّج من بعدها ببنت أختها (أُمَامَة)؛ لأنَّها تقوم برعاية ولديها الحسن والحسين عليهما السلام اللذين هما أعز عندها من الحياة، وعهدت إليه أن يعفِّي موضع قبرها؛

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٤٤٦.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٤٤٦.

ليكون رمزاً لغضبها غير قابل للتأويل على مرّ لأجيال الصاعدة، وضمن لها الإمام علي عليه السلام جميع ما عهدت إليه، وانصرف عنها وهو غارق في الأسىٰ والشجون[١].

وأسرَّت بضعة الرسول ﷺ إلى أسماء بنت عميس فقالت لها: **إِنِّي قَدِ اسْتَقْبَحْتُ مَا يُصْنَعُ بِالنِّسَاءِ بَعْدَ مَوْتِهِنَّ**، فقد كانت العادة أن يدرج على المرأة ثوب فيصفها لمن رأى وقد كرهت ذلك، فأحبت أن يصنع لها سرير لا يبدو فيه جسدها، فعملت لها أسماء سريراً يستر من فيه قد شاهدته حينما كانت في الحبشة، فلما نظرت إليه سرت به وابتسمت، وهي أوَّل ابتسامة شوهدت لها منذ أن لحق أبوها بالرفيق الأعلى[٢].

وفي آخر يوم من حياتها أصبحت وقد ظهر بعض التحسُّن على صحتها، وكانت بادية الفرح والسرور فقد علمت أنَّها في يومها تلحق بأبيها، وعمدت إلى ولديها فغسلت لهما، وصنعت لهما من الطعام ما يكفيهما يومهما، وأمرت ولديها بالخروج لزيارة قبر جدهما، وهي تلقي عليهما نظرة الوداع وقلبها يذوب من اللوعة والوجد، وخرج الحسنان عليهما السلام وقد هاما في تيار من الهواجس، وأحسَّا ببوادر مخيفة أغرقتهما بالهموم والأحزان.

والتفتت وديعة النبيّ إلى سلمى امرأة أبي رافع[٣]، وكانت تتولى تمريضها وخدمتها، فقالت فاطمة عليها السلام لها: **هَيِّئِي لِي مَاءً**، فصببت لها فاغتسلت أحسن ما كانت تغتسل، ثم قالت: «**اِئْتِينِي بِثِيَابِي الْجُدُدِ**» فلبستها.

ثمَّ أتت البيت الذي كانت فيه، فقالت عليها السلام: **اِفْرِشِي لِي فِي وَسَطِهِ**.

وذعرت سلمى وارتعش قلبها، فقد عرفت أنَّ الموت قد حلَّ بوديعة النبيّ ﷺ، وصنعت لها سلمى ما أرادت فاضطجعت على فراشها، واستقبلت القبلة والتفتت إلى سلمى قائلة بصوت خافت: **إِنِّي مَقْبُوضَةٌ الآنَ، فَلَا أُكْشَفَنَّ، فَإِنِّي قَدِ اغْتَسَلْتُ**[٤]، وأخذت تتلو آيات من الذِّكر الحكيم حتى فارقت الحياة. وسمت تلك الرُّوح العظيمة إلى بارئها لتلتقي بأبيها الذي كرهت الحياة بعده.

لقد ارتفعت تلك الرُّوح إلى جنان الله ورضوانه، فما أظلَّت سماء الدُّنيا في جميع مراحل هذه الحياة مثلها قداسة وفضلاً وشرفاً وعظمة، وقد انقطع بموتها آخر من كان في دُنيا الوجود من نسل رسول الله ﷺ.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٦٢ و٣٦٣.

(٢) كشف الغمَّة: ١/ ٤٧٤.

(٣) سلمى خادمة النبيّ ﷺ: وهي مولاة صفية بنت عبد المطَّلب.

(٤) الأمالي/الطوسي: ص٤٠٠ و٤٠١، الحديث ٨٩٣.

وقفل الحسنان عليهما السلام إلى الدار فلم يجدا فيها أُمّهما فبادرا يسألان أسماء عن أُمّهما ففاجأتهما وهي غارقة في العويل والبكاء قائلة: يا سيِّدَي، إنَّ أُمّكما قد ماتت فأخبرا بذلك أباكما.

فكان ذلك كالصاعقة عليهما فهرعا مسرعين إلى جثمانها، فوقع عليها الحسن عليه السلام، وهو يقول: **يَا أُمَّاهُ، كَلِّمِينِي قَبْلَ أَنْ تُفَارِقَ رُوحِي بَدَنِي**.

وألقى الحسين عليه السلام نفسه عليها وهو يعجُّ بالبكاء، قائلاً: **يَا أُمَّاهُ، أَنَا ابْنُكِ الْحُسَيْنُ كَلِّمِينِي قَبْلَ أَنْ يَنْصَدِعَ قَلْبِي**.

وأخذت أسماء توسعهما تقبيلاً، وتعزيهما وتطلب منهما أن يسرعا إلى أبيهما فيخبراه، فانطلقا إلى مسجد جدهما رسول الله صلى الله عليه وآله وهما غارقان في البكاء، فلما قربا من المسجد رفعا صوتهما بالبكاء، فاستقبلهما المسلمون، وقد ظنوا أنّهما تذكرا جدهما فقالوا: ما يبكيكما يا بُنَي رسول الله لا أبكىٰ الله أعينكما؟ لعلّكما نظرتما موقف جدكما صلى الله عليه وآله فبكيتما شوقاً إليه؟

فأجابا: **لَا، أَوَلَيْسَ قَدْ مَاتَتْ أُمُّنَا فَاطِمَةُ؟!**

واضطرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهزَّ النبأ المؤلم كيانه، وطفق يقول: **بِمَنْ الْعَزَاءُ يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ؟ كُنْتُ بِكِ أَتَعَزَّىٰ فَفِيمَ الْعَزَاءُ مِنْ بَعْدِكِ؟**

وخفَّ مسرعاً إلى الدار وهو يذرف الدموع، ولما ألقى نظرة على جثمان حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ ينشد:

لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ ... وَكُلُّ الَّذِي دُونَ الْفِرَاقِ قَلِيلُ
وَإِنَّ افْتِقَادِي فَاطِماً بَعْدَ أَحْمَدٍ ... دَلِيلٌ عَلَىٰ أَلَّا يَدُومَ خَلِيلُ[1]

وقد قطع الإمام الحسين عليه السلام دور الطفولة في هذه المرحلة المحزنة وقلبه قد أُترع بالأحزان والآلام، فقد فَقَدَ في تلك الفترة الحزينة جده الذي كان يفيض عليه العطف والحنان، وفَقَدَ أُمّه الرؤوم التي عاشت في هذه الدُّنيا وعمرها كعمر الزهور، وفاجأها الموت وهي في شبابها الغض الأهاب.

ومن الطبيعي أنّه ليس أكثر حزناً ولا أقوى صدمة على الطفل من فَقْدِ أُمّه العطوف فإنّه يفقد معها جميع آمال حياته.

(١) كشف الغمّة: ١/ ٤٧٢.

حكومة عمر

اعتزال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

ولم يختلف المؤرّخون في أنَّ الإمام علي عليه السلام قد انطوت نفسه على حزن عميق، وأسىً شديد على ضياع حقّه، وسلب تراثه، فقد جهد القوم على الغض من شأنه، ومعاملته كشخص عادي غير حافلين بمواهبه، ومواقفه ومكانته من النبيّ ﷺ فكان في معزل عنهم، لا يشاركهم في أي أمر من أُمور الملك والسلطان، ولا يشاركونه فيها، وأعرض عنهم وأعرضوا عنه، حتى ألصق خده بالتراب، كما يقول المؤرّخون.

وعلى أية حال فإنَّ الإمام علي عليه السلام قد اعتزل عن الناس في عهد عمر كما اعتزلهم في عهد أبي بكر، فصار جليس بيته يساور الهموم ويسامر النُّجوم، ويتوسَّد الأرق، ويتجرَّع الغصص، قد كظم غيظه فلم يتصل بأحد إلاّ بخلّص أصحابه الذين عرفوا واقعه ومكانته كعمَّار بن ياسر، وأبي ذر، والمقداد، وقد عكف على جمع القرآن وكتابته، والإمعان في آياته.

وأجمع المؤرّخون على أنَّ عمر كان يرجع إلى الإمام علي عليه السلام في مهام المسائل التي يسأل عنها، والإمام علي عليه السلام لم يضن عليه بالجواب إظهاراً لأحكام الله التي يجب على العلماء إذاعتها بين الناس. وكان عمر يذيع فضل الإمام عليه السلام، ويقول: «لولا علي لهلك عمر»[(١)].

الإمام الحسين عليه السلام وعمر:

وانطوت نفس الإمام الحسين عليه السلام على حزن لاذع، وأسىً عميق على من احتل مقام أبيه، فبعث ذلك في نفسه عنصراً من عناصر الاستياء والتذمُّر، وكان يشعر بالمرارة بكلّ وعي، وهو في سنِّه المبكر. ويقول المؤرّخون: إنَّ عمر كان يخطب على المنبر،

(١) دعائم الإسلام: ٢/ ٤٥٣.

فلم يشعر إلاّ والحسين عليه السلام قد صعد إليه، وهو يهتف: **انْزِلْ عَنْ مِنْبَرِ أَبِي، وَاذْهَبْ إِلَىٰ مِنْبَرِ أَبِيكَ.**

وبُهِت عمر، واستولت عليه الحيرة، وراح يصدقه ويقول له: صدقت لم يكن لأبي منبر.

وأخذه فأجلسه إلى جنبه، وجعل يفحص عمَّن أوعز إليه بذلك قائلاً له: من علَّمك؟

فقال عليه السلام: **وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنِي أَحَدٌ**[1].

ويقول المؤرّخون: إنَّ عمر كان معنياً بالإمام الحسين عليه السلام فكان يأذن له بالدخول قبل أن يأذن للمتقدِّمين من الأنصار والمهاجرين، وقصده يوماً وهو خالٍ بمعاوية، ورأى ابنه عبد الله فطلب الإذن منه فلم يأذن له فرجع معه، والتقى به عمر في الغد فقال له: ما منعك يا حسين أن تأتيني؟

فقال عليه السلام: **إِنِّي جِئْتُ، وَأَنْتَ خَالٍ بِمُعاوِيَةَ، وَابْنُ عُمَرَ بِالْبَابِ، فَرَجَعَ ابْنُ عُمَرَ وَرَجَعْتُ مَعَهُ.**

فقال عمر: أنت أحق من ابن عمر، فإنَّما أنبت ما ترى في رؤوسنا الله ثم أنتم[2].

واقتضت سياسته أن يقابل سبطي الرسول صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام بمزيد من التكريم، فقد جعل لهما نصيباً فيما يغنمه المسلمون، ووردت إليه حلل من وَشي اليمن، فوزعها على المسلمين ونساهما، فبعث إلى عامله على اليمن أن يرسل له حلتين، فأرسلهما إليه فكساهما، وقد جعل عطاءهما مثل عطاء أبيهما، وألحقهما بفريضة أهل بدر وكانت خمسة آلاف[3].

ولم تظهر لنا أية بادرة عن الإمام الحسين عليه السلام في عهد عمر سوى ما ذكرناه، ويعود السبب في ذلك إلى انعزال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع أبنائه عن جهاز الحكم وإيثارهم الانطواء عن القوم، وعدم الاشتراك معهم في أي شأن من شؤون الدولة، فقد أُترعت نفوسهم بالأسىٰ المرير والحزن العميق، وقد أعلن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أساه وأحزانه في كثير من المواقف.

ويقول المؤرخون: إنَّ عمر نزلت به نازلة فحار في التخلُّص منها، وعرض على أصحابه ذلك فقال لهم: ما تقولون في هذا الأمر؟

---

(١) الإصابة: ٢/ ١٥، الحديث ١٧١٩.

(٢) الإصابة: ٢/ ١٥، الحديث ١٧١٩.

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ١٤/ ١٧٦.

فقالوا: أنت المفزع والمنزع.

فلم يرضه ذلك، فغضب وتلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[1].

ثم قال لهم: أما والله إنِّي وإيَّاكم لنعلم ابن بجدتها والخبير بها.

قالوا: كأنَّك أردت ابن أبي طالب.

قال: وأنَّىٰ يعدل بي عنه؟ وهل طفحت حرة مثله؟!

قالوا: فلو دعوت به يا أمير المؤمنين.

قال: هيهات إنَّ هناك شمخاً من هاشم، وأَثَرَة من علم، وَلُحمة من رسول الله ﷺ يُؤتىٰ ولا يأتي، فامضوا بنا إليه.

وخفّوا جميعاً إليه فألفوه في حائط له، وعليه تُبَّان[2]، وهو يتركَّل على مسحاته ويقرأ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[3] ـ إلى آخر السورة ـ ودموعه تهمي على خدّيه، فأجهش القوم لبكائه فبكوا، ثم سكت وسكتوا، فسأله عمر عن مسألته فأصدر إليه جوابها.

فقال له عمر: أما والله لقد أرادك الحق، ولكن أبى قومك.

فقال عليه السلام: **يَا أَبَا حَفْصٍ، خَفِّضْ عَلَيْكَ مِنْ هُنا، وَمِنْ هُنَا،** ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾[4].

وذهل عمر، فوضع إحدى يديه على الأُخرى وخرج؛ كأنَّما ينظر في رماد[5].

الإمام الحسين عليه السلام وآل عمر:

ويقول بعض المؤرّخين: إنَّ العلاقة بين الإمام الحسين عليه السلام وآل عمر كانت غير ودّية، ويعود السبب في ذلك إلى أنَّ عاصم بن عمر شرب الخمر فشهد عليه الحسين عليه السلام بذلك في مجلس القضاء أيَّام عثمان فأُقيم عليه الحد، وقد أوجبت هذه البادرة شيوع التباغض بين الأُسرتين[6].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٧٠.

(٢) التُّبان: سراويل صغيرة، القاموس المحيط: ١٥٢٧، تَبَنَ.

(٣) سورة القيامة: الآية ٣٦.

(٤) سورة النبأ: الآية ١٧.

(٥) الطرائف: ٢/١٢٧ و١٢٨.

(٦) المنمّق في أخبار قريش: ص٣٩٧.

حكومة عثمان

كلمة الإمام الحسين عليه السلام إلى أبي ذرّ عندما نفاه عثمان:

وانطلق الإمام الحسين عليه السلام إلى أبي ذرّ، وقد أخذ منه الأسىٰ مأخذاً عظيماً، فألقىٰ عليه هذه الكلمات المشرقة:

يَا عَمَّاهُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَادِرٌ أَنْ يُغَيِّرَ مَا قَدْ تَرَىٰ، وَاللَّهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، وَقَدْ مَنَعَكَ الْقَوْمُ دُنْيَاهُمْ، وَمَنَعْتَهُمْ دِينَكَ، فَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ، وَأَحْوَجَهُمْ إِلَىٰ مَا مَنَعْتَهُمْ! فَاسْأَلِ اللَّهَ الصَّبْرَ وَالنَّصْرَ، وَاسْتَعِذْ بِهِ مِنَ الْجَشَعِ وَالْجَزَعِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الدِّينِ وَالْكَرَمِ، وَإِنَّ الْجَشَعَ لَا يُقَدِّمُ رِزْقاً، وَالْجَزَعُ لَا يُؤَخِّرُ أَجَلاً(١).

ما أروع هذه الكلمات التي كشفت الستار عن عداء الأمويين لأبي ذرّ، فإنّهم قد خافوه على دُنياهم، وخافوه على مناصبهم، وقد أمره عليه السلام بالخلود إلى الصبر، ونهاه عن الجزع، فإنّه لا يؤخّر أجلاً.

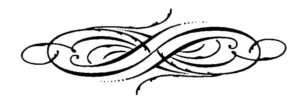
وقد تذرَّع الإمام الحسين عليه السلام بهذا الخلق العظيم في يوم الطَّفّ، فإنّه لم يخضع للأمويين ولم يجزع عمَّا ألمَّ به من عظيم الكوارث والخطوب.

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام في عهد عثمان في شرخ الشباب، ويقول المؤرّخون: إنّه انضم إلى الجيش الإسلامي الذي اتجه إلى فتح (طبرستان) سنة (٣٠هـ) وكان على قيادته سعيد بن العاص فأبلى الجيش بلاءً حسناً وفتح الله على يده ورجع ظافراً(٢).

ولم تظهر لنا بادرة أُخرى عن الإمام الحسين عليه السلام في تلك الفترة، ولعلَّ السبب يعود ـ فيما نحسب ـ إلى أنَّ الأُسرة النبويَّة كانت من الجبهة المعارضة لحكومة عثمان،

(١) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ٨/٢٥٣ و٢٥٤.
(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٤/١٨.

وقد قامت بدور إيجابي في التنديد بسياسته، وقد صبَّ عثمان جام غضبه على أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كأبي ذرّ، وعمّار، وابن مسعود، فأمعن في ظلمهم وإرهاقهم وقد شاهد الإمام الحسين عليه السلام تلك الأحداث المفزعة، فأضافت إلى نفسه آلاماً وعرفته بواقع المجتمع واتجاهاته.



عهدُ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

قبول الإمام عليّ عليه السلام الخلافة:

ولم يجد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بُدّاً من قبول الخلافة خوفاً أن ينزو إليها عِلج من بني أُميَّة، كما كان يتحدَّث بذلك، يقول عليه السلام: **وَاللَّهِ مَا تَقَدَّمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يَنْزُوَ عَلَىٰ الأَمْرِ تَيْسٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، فَيَلْعَبَ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**[1].

لقد دعته الضرورة والخوف على الإسلام إلى قبول خلافتهم التي لا أرب له فيها سوى إقامة الحق ودحر الباطل، فلم يكن ابن أبي طالب عليه السلام رائد العدالة الاجتماعية في الإسلام من عشّاق الملك والسلطان، ولا ممَّن يبغي الحكم لينعم في خيراته، إنَّه ربيب الوحي الذي أثبت في جميع أدوار حياته زهدهُ في الدُّنيا، وعزوفه عن جميع رغباتها.

مع الإمام الحسين عليه السلام:

وامتزجت عواطف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعواطف ولده الحسين عليه السلام، وتفاعلت روحه مع روحه حتَّى صار صورة فذَّة عنه تحكي واقعه وهديه.

لقد أفاض أمير المؤمنين عليه السلام جميع ذاتياته في نفس ولده الحسين عليه السلام، ومنحه حبّه وإخلاصه، وزوَّده بأروع حكمه وآدابه، وقد بلغ من عظيم حبّه أنَّه لم يسمح له بالدخول في عمليات الحروب أيَّام صفين كما لم يسمح لأخيه الحسن عليه السلام بذلك لئلا ينقطع بموتهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن رآهما قد تهالكا في ساحة الحرب.

وقد انطبعت مُثُل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وسائر اتجاهاته الفكرية في نفس الحسين عليه السلام، فكان كأبيه في ثورته على الظلم والباطل، ومناهضته للبغي والجور، وتفانيه في سبيل الحقّ والعدل وتبنيه لجميع وسائل الإصلاح والخير.

لقد كان كأبيه في بسالته وصموده، وعزَّة نفسه، وإبائه وشَممه، وقد اعترف بهذه

(١) أنساب الأشراف: ٢/ ٣٥٣.

الظاهرة أعداؤه يوم الطَّفّ، فإنَّهم لما عرضوا عليه الاستسلام لابن مرجانة والخضوع لإرادته، قال بعضهم: إنَّه لا يستجيب لكم فإنَّ نفس أبيه بين جنبيه.

لقد كانت نفس أبيه عملاق هذه الأُمَّة ورائدها الأعلى إلى العزَّة والكرامة ماثلة بجميع مظاهرها ومقوَّماتها في نفس الإمام الحسين عليه السلام حتى كأنَّه لم يعد هناك تعدد في الوجود بين الأب وولده، فكانا معاً من ألمع من تعتز بهما الإنسانيَّة في جميع الأجيال.

استسقاء الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة:

جاء قوم من أهل الكوفة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقالوا له: يا أمير المؤمنين، ادعُ لنا بدعوات في الاستسقاء فدعا علي عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام، فقال: **يَا حَسَنُ ادْعُ.**

فَقَالَ الْحَسَنُ عليه السلام: **اللَّهُمَّ هَيِّجْ لَنَا السَّحَابَ بِفَتْحِ الْأَبْوَابِ بِمَاءٍ عُبَابٍ وَرَبَابٍ، بِانْصِبَابٍ وَانْسِكَابٍ يَا وَهَّابُ، وَاسْقِنَا مُطْبِقَةً مُغْدِقَةً مُونِقَةً؛ افْتَحْ أَغْلَاقَهَا، وَسَهِّلْ إِطْلَاقَهَا، وَعَجِّلْ سِيَاقَهَا بِالْأَنْدِيَةِ فِي الْأَوْدِيَةِ يَا وَهَّابُ، بِصَوْبِ الْمَاءِ يَا فَعَّالُ اسْقِنَا مَطَراً قَطْراً طَلًّا مُطِلًّا، طَبَقاً مُطْبِقاً عَامّاً مُعِمّاً، دَهماً بُهْماً رُحْماً، رَشّاً مُرِشّاً، وَاسِعاً كَافِياً، عَاجِلًا طَيِّباً مُبَارَكاً، سُلَاطِحاً بَلَاطِحاً يُنَاطِحُ الْأَبَاطِحَ، مُغْدَوْدِقاً مُطْبَوْبِقاً مُغْرَوْرِقاً. وَاسْقِ سَهْلَنَا وَجِبَالَنَا، وَبَدْوَنَا وَحَضَرَنَا؛ حَتَّى تُرْخِصَ بِهِ أَسْعَارَنَا، وَتُبَارِكَ بِهِ فِي ضِيَاعِنَا وَمُدُنِنَا، أَرِنَا الرِّزْقَ مَوْجُوداً، وَالْغَلَاءَ مَفْقُوداً، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».**

ثُمَّ قَالَ لِلْحُسَيْنِ عليه السلام: ادْعُ.

فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: **اللَّهُمَّ مُعْطِيَ الْخَيْرَاتِ مِنْ مَظَانِّهَا، وَمُنْزِلَ الرَّحَمَاتِ مِنْ مَعَادِنِهَا، وَمُجْرِيَ الْبَرَكَاتِ عَلَى أَهْلِهَا؛ مِنْكَ الْغَيْثُ الْمُغِيثُ وَأَنْتَ الْغِيَاثُ الْمُسْتَغِيثُ، وَنَحْنُ الْخَاطِئُونَ وَأَهْلُ الذُّنُوبِ، وَأَنْتَ الْمُسْتَغْفَرُ الْغَفَّارُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. اللَّهُمَّ أَرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا دِيمَةً مِدْرَاراً، وَاسْقِنَا الْغَيْثَ وَاكِفاً مِغْزَاراً؛ غَيْثاً مُغِيثاً، وَاسِعاً مُسْبِغاً، مُهْطِلًا مَرِيّاً مَرِيعاً، غَدِقاً مُغْدِقاً، عُبَاباً مُجَلْجِلًا، سَحّاً سَحْسَاحاً، بَسّاً بَسَّاساً، مُسْبِلًا عَامّاً، وَدْقاً مِطْفَاحاً، يَدْفَعُ الوَدْقَ بِالْوَدْقِ دِفَاعاً، وَيَطْلُعُ الْقَطْرُ مِنْهُ غَيْرَ خُلَّبِ الْبَرْقِ وَلَا مُكَذِّبِ الرَّعْدِ، تَنْعَشُ بِهِ الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهِ الْمَيْتَ مِنْ بِلَادِكَ، مَنّاً عَلَيْنَا مِنْكَ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.**

فَمَا تَمَّ كَلَامُهُ حَتَّى صَبَّ اللَّهُ الْمَاءَ صَبّاً.

وَسُئِلَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَذَا شَيْءٌ عُلِّمناهُ؟!

فَقَالَ وَيْحَكُمْ! أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله حَيْثُ يَقُولُ: **أُجْرِيَتِ الْحِكْمَةُ عَلَى لِسَانِ أَهْلِ بَيْتِي**[1].

إخبار الإمام علي عليه السلام بمقتل الحسين عليه السلام:

وأشاع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بين الناس مقتل ولده الحسين عليه السلام، كما أشاع ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أدلى الإمام عليه السلام بذلك في كثير من المناسبات، وهذه بعضها:

١ ـ روى عبد الله بن يحيى عن أبيه: «أنَّه سافر مع علي عليه السلام إلى صفين، وكان صاحب مطهرته، فلما حاذوا نينوى، تأثر الإمام علي عليه السلام، ورفع صوته قائلاً: **اصْبِرْ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، اصْبِرْ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، بِشَطِّ الْفُرَاتِ!**

فذهل يحيى، وانبرى يقول: من ذا أبو عبد الله؟

فأجابه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقلبه يتقطَّع ألماً وحزناً قائلاً: **دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَعَيْنَاهُ تَفِيضَانِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَغْضَبَكَ أَحَدٌ؟ مَا شَأْنُ عَيْنَيْكَ تَفِيضَانِ؟ قَالَ: بَلْ قَامَ مِنْ عِنْدِي جَبْرَئِيلُ فَحَدَّثَنِي أَنَّ الْحُسَيْنَ يُقْتَلُ بِشَطِّ الْفُرَاتِ، وَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ أُشِمَّكَ مِنْ تُرْبَتِهِ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَبَضَ قَبْضَةً فَأَعْطَانِيهَا، فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنِي أَنْ فَاضَتَا**»[2].

٢ ـ حدث هرثمة بن سليم قال: «غزونا مع علي بن أبي طالب عليه السلام غزوة صفين، فلمَّا نزلنا بكربلاء صلَّى بنا صلاة، فلما سلَّم رفع إليه من تربتها فشمَّها ثمَّ قال: **وَاهاً لَكِ أَيَّتُها التُّرْبَةُ، لَيُحْشَرَنَّ مِنْكِ قَوْمٌ يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**.

وبهر هرثمة، وظل حديث الإمام علي عليه السلام يراوده في كل فترة، وكان منكراً له، فلمَّا رجع إلى زوجته جرداء بنت سمير، وكانت شيعة لعلي حدثها بما سمعه من الإمام، فقالت له: دعنا منك أيُّها الرجل، فإنَّ أمير المؤمنين لم يقل إلاَّ حقاً.

ولم تمضِ الأيَّام حتَّى بعث ابن زياد بجيوشه لحرب ريحانة رسول الله وكان فيهم هرثمة، فلمَّا انتهى إلى كربلاء ورأى الحسين عليه السلام وأصحابه تذكَّر قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فكَرِهَ حربه، وأقبل على الإمام الحسين عليه السلام وأخبره بما سمعه من أبيه، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: **مَعَنا أَنْتَ أَوْ عَلَيْنا؟**

---

١) من لا يحضره الفقيه: ١/٤٤٨ و٤٤٩، الحديث ١٥٠٧.

٢) مسند أحمد بن حنبل: ١/١٣٧، الحديث ٦٤٩.

فقال: لا معك ولا عليك، تركت أهلي وولدي أخاف عليهم من ابن زياد.

فنصحه الإمام الحسين عليه السلام، وقال له: **فَوَلِّ هَارِباً حَتَّىٰ لَا تَرىٰ لَنَا مَقْتَلاً، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَرَىٰ مَقْتَلَنا الْيَوْمَ رَجُلٌ وَلَا يُغِيثُنَا إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ.**

وانهزم هرثمة من كربلاء ولم يشهد مقتل الإمام الحسين عليه السلام»[١].

٣ ـ وروى أبو جحيفة قال: «جاء عروة البارقي إلى سعيد بن وهب فسأله وأنا أسمع، فقال: حديث حدثتنيه عن علي بن أبي طالب، قال: نعم، بعثني مخنف بن سليم إلى علي فأتيته بكربلاء فوجدته يشير بيده ويقول: **هَاهُنا، هَاهُنا.**

فبدر إليه رجل فقال له: ما ذلك يا أمير المؤمنين؟

قال عليه السلام: **ثِقْلٌ لآلِ مُحَمَّدٍ يَنْزِلُ هَاهُنا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِنْكُمْ، وَوَيْلٌ لَكُمْ مِنْهُمْ.**

ولم يعرف الرجل معنى كلامه فقال: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟!

فقال عليه السلام: **وَيْلٌ لَهُمْ مِنْكُمْ تَقْتُلُونَهُمْ، وَوَيْلٌ لَكُمْ مِنْهُمْ يُدْخِلُكُمُ اللَّهُ بِقَتْلِهِمُ النَّارَ**»[٢].

٤ ـ روى الحسن بن كثير عن أبيه: «أنَّ علياً أتى كربلاء فوقف بها، فقيل له: يا أمير المؤمنين، هذه كربلاء.

فأجاب والألم يحزُّ في نفسه، قائلاً: **ذَاتُ كَرْبٍ وَبَلَاءٍ**، ثُمَّ أومأ بيده إلى مكان فقال: **هَاهُنا مَوْضِعُ رِحَالِهِمْ، وَمُنَاخُ رِكَابِهِمْ**، وأومأ بيده إلى موضع آخر فقال: **هَاهُنا مِهْرَاقُ دِمَائِهِمْ**»[٣].

٥ ـ روى ابن عبَّاس، قال: «كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في خروجه إلى صفين، فلما نزل بنينوىٰ ـ وهو شطّ الفرات ـ قال بأعلى صوته: **يَابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَعْرِفُ هَذَا الْمَوْضِعَ؟**

فقلت له: ما أعرفه يا أمير المؤمنين.

والتفت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو غارق في البكاء، قائلاً: **لَوْ عَرَفْتَهُ كَمَعْرِفَتِي لَمْ تَكُنْ تَجُوزَهُ حَتَّىٰ تَبْكِي كَبُكَائِي.**

ثم بكى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بكاءً مرّاً، وقد استولى عليه الأسىٰ والحزن،

---

(١) وقعة صفين: ص١٤٠ و١٤١.

(٢) وقعة صفين: ص١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) وقعة صفين: ص١٤٢. شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ٣/ ١٧١.

وهو يقول بنبرات متقطعة: أَوَّهْ أَوَّهْ، مَا لِيَ وَلآلِ أَبِي سُفْيانَ، مَا لِيَ وَلآلِ حَرْبِ حِزْبِ الشَّيْطانِ وَأَوْلِياءِ الْكُفرِ. صَبْراً يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَلَقَدْ لَقِيَ أَبُوكَ مِثْلَ الَّذِي تَلْقَىٰ مِنْهُمْ.

ثمَّ دعا الإمام أمير المؤمنين بماء فتوضأ، ثمَّ صلَّى، وبعدما فرغ من صلاته جعل يتأوَّه ويردِّد كلامه السابق بحسرات، ثمَّ إنَّه رقد وانتبه فزعاً، فقال لابن عبَّاس: يَابْنَ عَبَّاسٍ.

فقلت: ها أنا ذا.

فقال عليه السلام: أَلَا أُحَدِّثُكَ بِمَا رَأَيْتُ فِي مَنَامِي آنِفاً عِنْدَ رَقْدَتِي؟

فقلت: نامت عيناك ورأيت خيراً يا أمير المؤمنين.

قال عليه السلام: رَأَيْتُ كَأَنِّي بِرِجَالٍ قَدْ نَزَلوا مِنَ السَّمَاءِ مَعَهُمْ أَعْلامٌ بِيضٌ، قَدْ تَقَلَّدوا سُيُوفَهُمْ وَهِيَ بِيضٌ تَلْمَعُ، وَقَدْ خَطُّوا حَوْلَ هَذِهِ الأَرْضِ خُطَّةً، ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّ هَذِهِ النَّخِيلَ قَدْ ضَرَبَتْ بِأَغْصَانِهَا الأَرْضَ تَضْطَرِبُ بِدَمٍ عَبِيطٍ، وَكَأَنِّي بِالْحُسَيْنِ سَخْلِي[1] وَفَرْخِي وَمُضْغَتِي وَمُخِّي قَدْ غَرِقَ فِيهِ؛ يَسْتَغِيثُ فَلَا يُغَاثُ، وَكَأَنَّ الرِّجَالَ الْبِيضَ قَدْ نَزَلوا مِنَ السَّمَاءِ يُنَادُونَهُ، وَيَقُولُون: صَبْراً آلَ الرَّسُولِ فَإِنَّكُمْ تُقْتَلونَ عَلَىٰ أَيْدِي شِرَارِ النَّاسِ، وَهَذِهِ الْجَنَّةُ ـ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ـ إِلَيْكَ مُشْتَاقَةٌ، ثُمَّ يُعَزُّونَنِي وَيَقُولونَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، أَبْشِرْ، فَقَدْ أَقَرَّ اللَّهُ بِهِ عَيْنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»[2].

٦ ـ روى أبو هريمة قال: «كنت مع علي عليه السلام بنهر كربلاء، فمرَّ بشجرة تحتها بَعْر غزلان فأخذ من التراب قبضة فشمَّها، ثمَّ قال: يُحْشَرُ مِنْ هَذَا الظَّهْرِ سَبْعونَ أَلْفاً يَدْخُلونَ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[3].

٧ ـ روى أبو خيرة قال: «صحبت علياً عليه السلام حتَّى أتى الكوفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ بِذُرِّيَّةِ نَبِيِّكُمْ بَيْنَ ظَهْرانَيْكُمْ؟!

قالوا: إذاً نبلي الله فيهم بلاءً حسناً.

فأجابهم الإمام علي عليه السلام: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَنْزِلُنَّ بَيْنَ ظَهْرانَيْكُمْ، وَلَتَخْرُجُنَّ إِلَيْهِمْ فَلَتَقْتُلُنَّهُمْ.

ثُمَّ أقبل يقول:

---

(١) السَّخل: المولود المحبَّب إلى والديه. تاج العروس: ٧/٣٧٣، سَخَلَ.

(٢) الأمالي/الصدوق: ص٦٩٤، الحديث ٩٥١.

(٣) المعجم الكبير: ٣/١١١، الحديث ٢٨٢٥.

هُــمْ أَوْرَدُوهُــمْ بِــالْــغُــرورِ وَغَــرَّدوا أَحــبُّــوا نَــجَــاةَ لَا نَــجَــاةَ وَلَا عُــذْرا»[١]

٨ ـ روى الطبراني بسنده عن علي عليه السلام أنَّه قال: «لَيُقْتَلَنَّ الْحُسَيْنُ قَتْلاً، وَإِنِّي لأَعْرِفُ التُّرْبَةَ الَّتِي يُقْتَلُ فِيهَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ»[٢].

٩ ـ روى الحسن بن محبوب عن ثابت الثمالي، عن سويد بن غفلة: «أنَّ علياً عليه السلام خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره، فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّي مررت بوادي القرى، فوجدت خالد بن عُرفطة قد مات، فاستغفر له.

فقال عليه السلام: وَاللَّهِ مَا مَاتَ، وَلاَ يَمُوتُ حَتَّىٰ يَقُودَ جَيْشَ ضَلاَلَةٍ، صَاحِبُ لُوَائِهِ حَبِيبُ ابْنُ حمارٍ.

فقام إليه رجل ورفع عقيرته قائلاً: يا أمير المؤمنين، أنا حبيب بن حِمار، وإنِّي لك شيعة ومحب.

فقال الإمام علي عليه السلام: أَنْتَ حَبِيبُ بْنُ حِمارٍ؟

قال: نعم.

وكرَّر الإمام عليه السلام قوله: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَبِيبُ بْنُ حِمارٍ، وهو يقول: نعم.

فقال عليه السلام: إِيْ وَاللَّهِ! إِنَّكَ لَحامِلُهَا، وَلَتَحْمِلَنَّها، وَلَتَدْخُلَنَّ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة.

قال ثابت: واللَّهِ ما مت حتَّى رأيت ابن زياد، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي عليهما السلام، وجعل خالد بن عُرفطة على مقدمته، وحبيب بن حمار صاحب رايته فدخل بها من باب الفيل»[٣].

١٠ ـ وخطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فكان من جملة خطابه: «سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَاللَّهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ فِئَةٍ تُضِلُّ مائَةً، أَوْ تَهْدِي مَائَةً إِلَّا نَبَّأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَسَائِقِهَا، وَلَوْ شِئْتُ لأَخْبَرْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَدْخَلِهِ، وَجَمِيعِ شَأْنِهِ.

فانبرى إليه الوغد الخبيث تميم بن أُسامة التميمي فقال ساخراً ومستهزئاً: كم في رأسي طاقة شعر؟!

فرمقه الإمام علي عليه السلام بطرفه وقال له: أَما وَاللَّهِ! إِنِّي لأَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَيْنَ

(١) المعجم الكبير: ٣/ ١١٠، الحديث ٢٨٢٣.
(٢) المعجم الكبير: ٣/ ١١٠ و١١١، الحديث ٢٨٢٤.
(٣) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ٢/ ٢٨٦ و٢٨٧.

بُرْهَانَهُ لَوْ أَخبَرْتُكَ بِهِ. وَلَقَدْ أَخبَرْتُك بِقِيَامِكَ وَمَقَالِكَ، وَقِيلَ لِي: إنَّ عَلَىٰ كُلِّ شَعْرَةٍ مِنْ شَعْرِ رَأْسِكَ مَلَكاً يَلْعَنُكَ، وَشَيْطاناً يَسْتَفِزُّكَ، وَآيَةُ ذٰلِكَ أَنَّ فِي بَيْتِك سَخْلاً يَقْتُلُ ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَحُضُّ عَلَىٰ قَتْلِهِ.

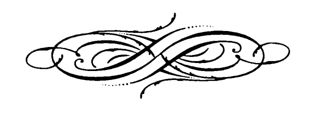
يقول ابن أبي الحديد: «فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام، كان ابنه حصين ـ بالصاد المهملة ـ يومئذٍ طفلاً صغيراً يرضع اللبن، ثم عاش إلى أن صار على شرطة عبيد الله بن زياد، وأخرجه عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام ويتوعده على لسانه إن أرجأ ذلك، فقتل عليه السلام صبيحة اليوم الذي ورد فيه الحصين بالرسالة في ليلته»[(١)].

١١ ـ قال عليه السلام للبراء بن عازب: **«يا بُراءُ، أَيُقْتَلُ الْحُسَيْنُ وَأَنْتَ حَيٌّ فَلَا تَنْصُرُهُ؟!»**.

فقال البراء: لا كان ذلك يا أمير المؤمنين.

ولما قتل الحسين عليه السلام ندم البراء وتذكَّر مقالة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فكان يقول: أعظم بها حسرة إذ لم أشهده وأقتل دونه[(٢)].

١٢ ـ قال أمير المؤمنين: **«كَأَنِّي بِالْقُصُورِ وَقَدْ شُيِّدَتْ حَوْلَ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، وَكَأَنِّي بِالأَسْوَاقِ وَقَدْ حُفَّتْ حَوْلَ قَبْرِهِ، وَلَا تَذْهَبُ الأَيَّامُ وَاللَّيالِي حَتَّىٰ يُسَارَ إِلَيْهِ مِنَ الآفَاقِ، وَذٰلِكَ بَعْدَ انْقِطَاعِ بَنِي مَرْوانَ»**[(٣)].



(١) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١٠/ ١٤ ـ ١٥.
(٢) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١٠/ ١٥.
(٣) مسند الإمام زيد: ص٤٧٠.

الأحداث التي عاصرها الإمام الحسين عليه السلام

لقد أثَّرت الأحداث الرهيبة التي عاصرها الإمام الحسين عليه السلام تأثيراً هائلاً في تغيير مناهج الحياة الفكريَّة والاجتماعيَّة في الإسلام، كما لعبت دورها الخطير على مسرح الحياة السياسية على امتداد التأريخ، وكان من أبرز نتائج تلك الأحداث التناحر على السلطة، والتنافس على الحكم، والصراع على الظفر بخيرات البلاد.

لقد كانت المظالم الاجتماعيَّة ـ في عهد معاوية ـ بمرأىً من الإمام الحسين عليه السلام ومسمع، فروَّعته وأفزعته إلى حدٍّ بعيد، فقد كان بحكم قيادته الرُّوحيَّة لأُمَّة جدِّه يحسُّ بأحاسيسها، ويتألم لآلامها، ويحيا بحياتها، وكان من أعظم ما عاناه من المحن والخطوب تتبُّع الجزَّارين والجلَّادين من ولاة معاوية لشيعة أهل البيت إمعاناً في قتلهم، وحرقاً لبيوتهم، ومصادرة لأموالهم، لا يألون جهداً في ظلمهم بكلّ طريق.

وفقدت الأُمَّة في عهد معاوية وخليعه يزيد جميع عناصرها ومقوِّماتها، ولم تعد خير أُمَّة أُخرجت للناس ـ حسب ما يريده الله لها ـ فقد عاث فيها معاوية فربَّاها على الوصولية والانتهازيَّة، وربَّاها على الذلّ والعبوديَّة، وسلب عنها صفاتها، وجرَّد عنها أخلاقها القويمة، فلم تعد تهتم بتحقيق أهدافها وآمالها، ولا بما يضمن لها الحياة الكريمة، فقد استسلمت للحكم الأُموي، وقبعت ذليلة مُهانة تحت وطأة سياطه، وهو يسفك دماءها، ويستنزف ثرواتها، ويشيع فيها الجور والفساد. فقد تخدَّرت بشكل فظيع، وأصبحت جثَّة هامدة لا وعي فيها ولا حراك، فلم تهبّ للدفاع عن كرامتها وعزتها، ولم تنطلق في ميادين الشرف والتضحية لتحمي نفسها من الظلم والاعتداء.

فرأى الإمام الحسين عليه السلام ـ وهو سبط الرسول ﷺ، وأمله الباسم الذي تجسَّدت فيه جميع طاقاته ـ حالة المسلمين، وما هم فيه من الذُّلِّ والهوان، وأنَّهم لم يعودوا تلك الأُمَّة العظيمة التي تبنَّت رسالة الإسلام، وحملت مشعل الهداية والنُّور إلى جميع شعوب الأرض.

مع النَّاكثين والقاسطين والمارقين

الناكثون

وهم الذين نكثوا بيعتهم، وخاسوا ما عاهدوا عليه الله في التضحية والطاعة للإمام مير المؤمنين عليه السلام، فانسابوا في ميادين الباطل وساحات الضلال، وتمرَّسوا في الإثم. قد أجمع فقهاء المسلمين على تأثيمهم إذ لم يكن لهم أيّ مبرر في الخروج على السلطة لشرعية التي تبنَّت المصالح العامَّة، وأخذت على عاتقها أن تسير بين المسلمين بالحقّ لمحض والعدل الخالص، وتقضي على جميع أسباب التخلُّف في البلاد.

أمَّا أعلام الناكثين فهم: طلحة، والزبير، والسيِّدة عائشة بنت أبي بكر، ومروان بن لحكم، وسائر بني أُميَّة، وغيرهم من الذين ضاقوا ذرعاً من عدله ومساواته.

ور الإمام الحسين عليه السلام في حرب الجمل:

الحرب العامَّة:

ولمَّا استيأس الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من السلم عبَّأ جيشه تعبئة عامَّة، وكذلك عل أصحاب عائشة، وقد حملوها على جملها (عسكر) وأُدخلت هودجها المصفَّح لدروع، والتحم الجيشان التحاماً رهيباً.

ويقول بعض المؤرّخين: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام قد تولى قيادة فرقة من فرق جيش، وأنَّه كان على الميسرة، وخاض المعركة ببسالة وصمود[1].

عقر الجمل:

ورأى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ الحرب لا تنتهي ما دام الجمل موجوداً، فصاح صحابه: **اعْقُرُوا الْجَمَلَ، فَإِنَّ فِي بَقَائِهِ فَنَاءَ الْعَرَبِ**[2].

---

(١) دعائم الإسلام: ١/٤٠١، الحديث ١٥٦٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣/١٦١.

وانعطف عليه الإمام الحسن عليه السلام، فقطع يده اليمنى، وشدَّ عليه الإمام الحسين عليه السلام فقطع يده اليسرى[١]، فهوى إلى جنبه وله عجيج منكر لم يسمع مثله، وفرَّ حُماة الجمل في البيداء، فقد تحطَّم صنمهم الذي قدَّموا له هذه القرابين، وأمر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بحرقه وتذرية رماده في الهواء لئلا تبقى منه بقية يفتتن بها السذّج والبسطاء، وبعد الفراغ من ذلك قال: **لَعَنَهُ اللَّهُ مِنْ دَابَّةٍ، فَمَا أَشْبَهَهُ بِعِجْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**[٢].

ومدَّ بصره نحو الرماد الذي تناهبه الهواء، فتلا قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[٣].

وبذلك فقد وضعت الحرب أوزارها، وكتب النصر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وباءت القوى الغادرة بالخزي والخسران.

وأوفد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لِلُقيا عائشة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام ومحمَّد ابن أبي بكر[٤]، فانطلقوا إليها، فمدَّ محمَّد يده في هودجها، فجفلت منه، وصاحت به: مَن أنت؟

- أبغض أهلكِ إليكِ.

- ابن الخثعميَّة؟

- نعم، أخوك البرُّ.

- عقوق.

- هل أصابكِ مكروه؟

- سهم لم يضرني.

فانتزعه منها، وأخذ بخطام هودجها وأدخلها في الهزيع الأخير من اللَّيل إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية بنت الحارث فأقامت فيه أيَّاماً[٥].

---

(١) وقعة الجمل/ محمَّد بن زكريَّا: ص٤٤.
(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ١/ ٢٦٦.
(٣) سورة طه: الآية ٩٧.
(٤) وقعة الجمل/ محمَّد بن زكريَّا: ص٤٥.
(٥) مروج الذهب: ٢/ ٣٦٧.

القاسطون

ولم يكد يفرغ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من حرب الناكثين كما أسماهم رسول الله صلى الله عليه وآله حتَّى جعل يتأهب لحرب القاسطين الذي أسماهم النبيّ صلى الله عليه وآله بذلك. ورأى الإمام عليه السلام أن يغادر البصرة إلى الكوفة؛ ليستعدّ لحرب عدو عنيف هو معاوية بن أبي سفيان ـ فوالده ـ الذي حارب رسول الله صلى الله عليه وآله وأبلى في حربه أشدّ البلاء وأقواه، ولم يكن معاوية بأقلّ تنكراً للإسلام وبغضاً لأهله من أبيه.

دور الإمام الحسين عليه السلام في حرب أبيه مع القاسطين:

تهيؤ الإمام عليّ عليه السلام للحرب، وخطاب الإمام الحسين عليه السلام:

وتهيأ الإمام عليّ عليه السلام للحرب، وقام الخطباء في الكوفة يحفِّزون الناس للجهاد ويحثونهم على مناجزة معاوية بعدما أحرزوه من النصر الكبير في معركة الجمل، وقد خطب فيهم الإمام الحسين عليه السلام خطاباً رائعاً ومثيراً، قال فيه بعد حمد الله والثناء عليه: **يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَنْتُمْ الأَحِبَّةُ الْكُرَمَاءُ، وَالشِّعَارُ دُونَ الدِّثَارِ[1]، جِدُّوا فِي إِطْفَاءِ مَا دَثَرَ بَيْنَكُمْ، وَتَسْهِيلِ مَا تَوَعَّرَ عَلَيْكُمْ، أَلَا إِنَّ الْحَرْبَ شَرُّهَا ذَرِيعٌ، وَطَعْمُها فَظِيعٌ، فَمَنْ أَخَذَ لَهَا أُهْبَتَها وَاسْتَعَدَّ لَهَا عُدَّتَها، وَلَمْ يَأْلَمْ كُلُومَها قَبْلَ حُلُولِها فَذاكَ صَاحِبُها، وَمَنْ عَاجَلَها قَبْلَ أَوَانِ فُرْصَتِها، وَاسْتِبْصَارِ سَعْيِهِ فِيها، فَذَاكَ قَمِنٌ[2] أَلَّا يَنْفَعَ قَوْمَهُ، وَأَنْ يُهْلِكَ نَفْسَهُ، نَسأَلُ اللَّهَ بِقُوَّتِهِ أَنْ يَدْعَمَكُمْ بِالْفَيْئَةِ**[3].

وحفل هذا الخطاب بالدعوة إلى استعجال الحرب، والاستعداد الشامل لها، والإمعان في وسائلها، فإنَّ ذلك من موجبات النصر، ومن وسائل التغلب على الأعداء، وإنَّ إهمال ذلك وعدم الاعتناء به ممَّا يوجب الهزيمة والاندحار، ودلَّ هذا الخطاب على خبرة الإمام عليه السلام الواسعة في الشؤون العسكريَّة والحربية.

منع الحسنين عليهما السلام من الحرب:

ومنع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله من الاشتراك في عمليات الحروب، فقال عليه السلام: **اِمْلِكُوا عَنّي هَذَينِ الْغُلاَمَينِ** ـ يعني الحسن والحسين عليهما السلام ـ **لِئَلَّا**

---

(١) الدِّثار: الثوب الذي يُستدفأ به فيكون فوق الشعار، فالشعار أقرب للبدن من الدِّثار، لسان العرب: ٤/ ٢٩٠، دَثَرَ.

(٢) قَمِن: حَرٌ وخليق وجدير، لسان العرب: ١١/ ٣١٠، قمن.

(٣) وقعة صفِّين: ص١١٤. بحار الأنوار: ٣٢/ ٤٠٥.

يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[١]. لقد حرص الإمام علي عليه السلام على ريحانتي رسول الله ﷺ؛ لأنَّ بهما امتداداً لنسله وإبقاءً لذرِّيَّته.

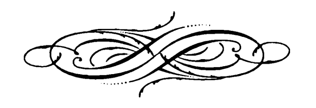
المارقون

ويقول الرواة: إنَّ النبيّ ﷺ سمَّى أهل النهروان بالمارقين[٢]، وإنَّه قد عهد إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقتالهم كما عهد إليه بقتال الناكثين والقاسطين من بعده[٣].

لقد واكب الإمام الحسين عليه السلام هذه الأحداث المفزعة التي جرت على أبيه، ووقف على واقعها، وقد استبان له كراهية القوم لأبيه؛ لأنَّه لم يداهن في دينه، وأراد أن يحمل الناس على الحق المحض والعدل الخالص، ولا يدع محروماً، ولا مظلوماً في البلاد.

وعلى أيَّة حال فإنَّ هذه الحروب قد ساهمت مساهمة إيجابية في خلق كارثة كربلاء التي لم تأتِ إلاَّ بعد انهيار الأخلاق، وإماتة الوعي الدِّيني والاجتماعي، وإشاعة الانتهازية والتحلُّل بين أفراد المجتمع، فقد سيطرت الرأسمالية القرشية على الشؤون الاجتماعية، فأخذت تعيث فساداً في الأرض، وتنقض جميع ما أقامه الإسلام من صروح للفضيلة والأخلاق، وكان من أسوأ ما قامت به أنَّها عملت جاهدة على إشاعة العداء والكراهة لأهل البيت عليهم السلام الذين هم مصدر الوعي والإحساس في هذه الأُمَّة.

فقد عمدت بشكل سافر إلى تقطيع أوصالهم على صعيد كربلاء، وإبادتهم إبادة جماعية بصورة رهيبة لم يحدث لها نظير في تاريخ الإنسانية.



---

(١) نهج البلاغة: ٢/١٨٦، الخطبة ٢٠٧.
(٢) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١/٢٠١.
(٣) ينابيع المودَّة: ١/٣٨٥.

أفول دولة الحقّ

اغتيال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

وأطلَّ على المسلمين شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، وقد كان على يقين بانتقاله عليه السلام إلى حظيرة القدس في هذا الشهر العظيم، فكان يجهد نفسه ويرهقها على أن يفطر على خبز الشعير وجريش الملح، وألّا يزيد على ثلاث لقم حسب ما يقوله المؤرّخون، وكان يحيي ليالي هذا الشهر بالعبادة.

ولمَّا أقبلت ليلة الثامن عشر أحسَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بنزول الرزء القاصم، فكان برماً تساوره الهموم والأحزان، وجعل يتأمَّل في الكواكب وهي مرتعشة الضوء كأنَّها ترسل أشعة حزنها إلى الأرض، وطفق يقول: **مَا كَذَبْتُ وَلاَ كُذِّبْتُ، إِنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِي وُعِدْتُ فِيهَا**.

وأنفق ليله ساهراً، وقد راودته ذكريات جهاده وعظيم عنائه في الإسلام، وزاد وجيبه وشوقه لملاقاة ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله ليشكو إليه ما عاناه من أُمَّته من الأود[١].

وتوجَّه بمشاعره وعواطفه إلى الله يطلب منه الفوز والرضوان، وقبل أن تشرق أنوار ذلك الفجر الذي دام في ظلامه على البؤساء والمحرومين انطلق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فأسبغ الوضوء، وتهيأ إلى الخروج من البيت، فصاحت في وجهه الإوَزُّ كأنَّها ملتاعة حزينة تنذر بالخطر العظيم على سيِّدهم أرض العرب والمسلمين، وتنبأ من لوعتهن بنزول القضاء، فقال عليه السلام: **لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، صَوَائِحُ تَتْبَعُهَا نَوَائِحُ**[٢].

وخرج عليه السلام إلى بيت الله فجعل يوقظ الناس على عادته إلى عبادة الله ثمَّ شرع في صلاته وبينما هو ماثل بين يدي الله وذكره على شفتيه إذ هوى عليه المجرم الخبيث عبد الرحمن بن ملجم، وهو يهتف بشعار الخوارج «الحكم لله لا لك يا عليّ» فعلا رأس

---

(١) أَدَهُ الأمر: بلغ منه المجهود والمشقَّة، لسان العرب: ١/ ٢٥٩، أود.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٤١٢ و٤١٣.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالسيف فقدَّ جبهته الشريفة التي طالما عفرها بالسجود لله، وانتهت الضربة الغادرة إلى دماغه المقدَّس الذي ما فكَّر فيه إلاَّ في سعادة الناس، وجمعهم على صعيد الحق.

ولمَّا أحسَّ الإمام علي عليه السلام بلذع السيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة، وانطلق صوته يدوِّي في رحاب الجامع قائلاً: **فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**[1].

لقد كنتَ ـ يا أمير المؤمنين ـ أوَّل الفائزين، وأعظم الرابحين بمرضاة الله تعالى، فقد سايرت الحقّ منذ نعومة أظفارك، فلم تداهن في دينك، ولم تؤثر رضا أحد على طاعة الله، قد جاهدت وناضلت من أجل أن تعلو كلمة الله في الأرض، ووقيت رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسك ومهجتك.

لقد فُزْت، وانتصرت مبادؤك، وبقيت أنت وحدك حديث الدهر بما تركته من سيرة مشرقة أضاءت سماء الدُّنيا، وغذَّت الأجيال بجوهر الحقّ والعدل.

وخفَّ الناس مسرعين إلى الجامع حينما أُذيع مقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فوجدوه طريحاً في محرابه وهو يلهج بذكر الله قد نزف دمه، ثمَّ حمل إلى داره والناس تعجُّ بالبكاء، وهم يهتفون بذوب الرُّوح: قتل إمام الحق والعدل، قُتل أبو الضعفاء وأخو الغرباء.

واستقبلته عائلته بالصراخ، فأمرهم عليه السلام بالخلود إلى الصبر، واغرورقت عينا الإمام الحسن عليه السلام بالبكاء، فالتفت إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: **يَا بُنَيَّ، لَا تَبْكِ فَأَنْتَ تُقْتَلُ بِالسُّمِّ، وَيُقْتَلُ أَخُوكَ الْحُسَيْنُ بِالسَّيْفِ**[2].

وتحقَّق تنبؤ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فلم تمضِ حفنة من السنين وإذا بالإمام الحسن عليه السلام اغتاله معاوية بالسمّ، فذابت أحشاؤه، وأمَّا الإمام الحسين عليه السلام فتناهبت جسمه السيوف والرماح، وتقطَّعت أوصاله على صعيد كربلاء.

ويقول المؤرّخون: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن حاضراً بالكوفة حينما اغتيل أبوه، وإنَّما كان في معسكر النخيلة قائداً لفرقة من الجيش الذي أعدَّه لمناجزة معاوية، وقد أرسل إليه الإمام الحسن عليه السلام رسولاً يعرِّفه بما جرى على أبيه، فقفل راجعاً إلى

---

(١) شرح الأخبار: ٢/٤٤٢.

(٢) حياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام: ١/٥١٣.

الكوفة، وهو غارق بالأسىٰ والشجون، فوجد أباه على حافَّة الموت، فألقى بنفسه عليه يوسعه تقبيلاً ودموعه تتبلور على خدّيه[١].

وأخذ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العظيم يوصي أولاده بالمُثُل الكريمة والقيم الإنسانية، وعهد إليهم ألَّا يقتلوا غير قاتله، وألَّا يتخذوا من قتله سبباً لإثارة الفتنة وإراقة الدماء بين المسلمين كما فعل بنو أُميَّة حينما قتل عميدهم عثمان[٢].

خلافة الإمام الحسن عليه السلام:

وتقلَّد الإمام الحسن عليه السلام أزمَّة الخلافة الإسلاميَّة بعد أبيه، فتسلَّم قيادة حكومة شكلية عصفت بها الفتن، ومزَّقت جيشها الحروب والأحزاب، ولم تعد هناك أيَّة قاعدة شعبية تستند إليها الدولة، فقد كان الاتجاه العام الذي يمثِّله الوجوه والأشراف مع معاوية، فقد كانوا على اتصال وثيق به قبل مقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبعده، كما كان لهم الدور الكبير في إفساد جيشه حينما مُني جيش معاوية بالهزيمة والفرار.

وعلى أيَّة حال فإنَّ الإمام الحسن عليه السلام بعد أن تقلَّد الخلافة أخذ يتهيَّأ للحرب، وقد أمر بعقد اجتماع عام في جامع الكوفة، وقد حضرته القوات المسلحة وغيرها، فألقى خطاباً رائعاً ومؤثراً دعا فيه إلى تلاحم القوى ووحدة الصف، وحذَّر فيه من الدعايات التي تبثّها أجهزة الحكم الأُموي، ثمَّ ندب الناس لحرب معاوية، فلمَّا سمعوا ذلك وجلت قلوبهم وكمَّت أفواههم، ولم يستجب منهم أحد سوى البطل الملهم حُجْر بن عدي فانبرى يعلن دعمه الكامل له، ووجَّه أعنف اللوم والتقريع لأهل الكوفة على موقفهم الانهزامي. واستبان للإمام الحسن عليه السلام وغيره أنَّ جيشه لا يريد الحرب، فقد خلع يد الطاعة، وانساب في ميادين العصيان والتمرُّد.

وبعد جهود مكثَّفة قام بها بعض المخلصين له نفر للحرب أخلاط من الناس، على حدِّ تعبير الشيخ المفيد[٣] ـ كان أكثرهم من الخوارج، والشكَّاكين، وذوي الأطماع، وهذه العناصر لم تؤمن بقضية الإمام عليه السلام، وقد تطعَّمت بالخيانة والغدر.

الخيانة العظمى:

والخيانة العظمى التي قام بها بعض زعماء ذلك الجيش أنَّهم راسلوا معاوية،

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام: ٢/ ٧٧.
(٢) كشف الغمَّة: ١/ ٤٤١ ـ ٤١٣.
(٣) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ١٠.

وضمنوا له تسليم الإمام الحسن عليه السلام أسيراً، أو اغتياله متى رغب وشاء[١]، وأقضَّ ذلك مضجعه فخاف أن يؤسر ويسَّلم إلى معاوية فَيَمُنَّ عليه، ويسجِّل بذلك يداً لبني أُميَّة على الأُسرة النبوية، كما كان عليه السلام يتحدَّث بذلك بعد إبرام الصلح.

موقف الإمام الحسين عليه السلام:

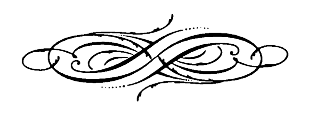
والشيء المحقق أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قد تجاوب فكرياً مع أخيه في أمر الصلح، وأنَّه تمَّ باتفاق بينهما، فقد كانت الأوضاع الراهنة تقضي بضرورته، وأنَّه لا بُدَّ منه، وهناك بعض الروايات الموضوعة تعاكس ما ذكرناه، وأنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان كارهاً للصلح، وقد همَّ أن يعارضه فأنذره أخوه بأن يقذفه في بيتٍ فيطينه عليه حتَّى يتمَّ أمر الصلح، فرأى أنَّ من الوفاء لأخيه أن يطيعه ولا يخالف له أمراً، فأجابه إلى ذلك، وقد دللنا على افتعال ذلك، وعدم صحته إطلاقاً.

حُجْر بن عدي مع الإمام الحسين عليه السلام:

ولـمَّا أبرم أمر الصلح خفَّ حُجْر بن عدي ومعه عبيدة بن عمر إلى الإمام الحسين عليه السلام وقلبه يلتهب ناراً فدعاه إلى إثارة الحرب، قائلاً: يا أبا عبد الله، شريتم الذلّ بالعز، وقبلتم القليل، وتركتم الكثير، أطعنا اليوم، واعصنا الدهر، دع الحسن وما رأى من هذا الصلح، واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها وولني وصاحبي هذه المقدمة، فلا يشعر ابن هند إلاَّ ونحن نقارعه بالسيوف.

فقال الحسين عليه السلام: **إنَّا قَدْ بايَعْنا وَعَاهَدْنا، وَلَا سَبِيلَ لِنَقْضِ بَيْعَتِنا**[٢].

ولو كان الحسين عليه السلام يرى مجالاً للتغلب على الأحداث لخاض الحرب وناجز معاوية، ولكن قد سدَّت عليه وعلى أخيه جميع النوافذ والسبل، فرأوا إنَّه لا طريق لهم إلَّا بالصلح.



(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤/٤٠٦.
(٢) الأخبار الطوال: ص٢٢٠.

حكومة معاوية

واستقبل المسلمون حكومة معاوية ـ بعد الصلح ـ بكثير من الذعر والفزع والخوف، فقد عرفوا واقع معاوية، ووقفوا على اتجاهاته الفكرية والعقائدية، فخافوه على دينهم، وعلى نفوسهم وأموالهم، وقد وقع ما خافوه، فإنَّه لم يكد يستولي على رقاع الدولة الإسلامية حتَّى أشاع الظلم والجور والفساد في الأرض ويقول المؤرّخون: إنَّه ساس المسلمين سياسة لم يألفوها من قبل، فكانت سياسته تحمل شارات الموت والدمار، كما كانت تحمل معول الهدم على جميع القيم الأخلاقية والإنسانية، وقد انتعشت في عهده الوثنية بجميع مساوئها التي نفر منها الناس.

إنكار الإمام الحسين عليه السلام:

وأنكر الإمام الحسين عليه السلام على معاوية هذا الاستلحاق الذي خالف به قول رسول الله صلى الله عليه وآله، فكتب إليه مذكرة تضمَّنت الأحداث الجسام التي اقترفها معاوية، وقد جاء فيها: **«أَوَلَسْتَ الْمُدَّعِي زِيادَ ابْنَ سُمَيَّةَ الْمَوْلُودَ عَلَىٰ فِرَاشِ عُبَيدِ ثَقِيفٍ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ابْنُ أَبِيكَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: الْوَلَدُ لِلْفِراشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ[1]، فَتَرَكْتَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ تَعَمُّداً، وَاتَّبَعْتَ هَوَاكَ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ»**[2].

قتل معاوية حُجْر بن عدي رضي الله عنه:

لقد رفع حُجْر بن عدي علم النضال، وكافح عن حقوق المظلومين، وسحق إرادة الحاكمين من بني أُميَّة الذين تلاعبوا في مقدرات الأُمَّة وحولوها إلى مزرعة جماعية لهم ولعملائهم وأتباعهم، لقد استهان حُجْر بالموت وسخر من الحياة، واستلذَّ الشهادة في سبيل عقيدته، فكان أحد المؤسّسين لمذهب أهل البيت عليهم السلام.

وامتُحن حُجْر أشدَّ ما تكون المحنة قسوة حينما رأى السلطة تعلن سبّ الإمام أمير

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٢٩٥ و٢٩٦.

(٢) رجال الكشيّ: ص٥٠. الاحتجاج: ٢/ ٩١.

المؤمنين عليه السلام، وترغم الناس على البراءة منه، فأنكر ذلك وجاهر بالردّ على ولاة الكوفة، واستحل زياد ابن أبيه دمه، فألقى عليه القبض وبعثه مخفوراً مع كوكبة من إخوانه إلى معاوية، وأوقفوا في (مرج عذراء)(١)، فصدرت الأوامر من دمشق بإعدامهم، ونفَّذ الجلّادون فيهم حكم الإعدام، فخرَّت جثثهم على الأرض وهي ملفَّعة بدم الشهادة والكرامة، وهي تضيء للناس معالم الطريق نحو حياة أفضل لا ظلم فيها ولا طغيان.

لقد عامل معاوية شيعة الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره كالملحدين والكافرين الذي لا يغسّلون ولا يكفنون ولا تجري عليهم المراسيم الإسلامية.

مذكرة الإمام الحسين عليه السلام:

وفزع الإمام الحسين عليه السلام حينما وافته الأنباء بمقتل حُجْر، فرفع مذكَّرة شديدة اللهجة إلى معاوية ذكر فيها أحداثه وبدعه، والتي كان منها قتله لحُجْر والبررة من أصحابه، وقد جاء فيها:

«أَلَسْتَ الْقَاتِلَ حُجْراً أَخَا كِنْدَةَ، وَالْمُصَلِّينَ الْعَابِدِينَ الَّذِينَ كَانوا يُنكِرونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَعْظِمونَ الْبِدَعَ، وَلَا يَخافونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْماً وَعُدواناً مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتَ أَعْطَيْتَهُمُ الأَيْمَانَ الْمُغَلَّظَةَ، وَالْمَواثِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ أَلَّا تَأْخُذَهُمْ بِحَدَثٍ كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَلَا بِإِحْنَةٍ تَجِدُها فِي نَفْسِكَ عَلَيْهِمْ...»(٢).

واحتوت هذه المذكرة على ما يلي:

١ ـ الإنكار الشديد على معاوية لقتله حُجْراً وأصحابه من دون أن يقترفوا جرماً، أو يحدثوا فساداً في الأرض.

٢ ـ إنَّها أشادت بالصفات البطولية في هؤلاء الشُّهداء من إنكار الظلم، ومقاومة الجور، واستعظام البدع والمنكرات التي أحدثتها حكومة معاوية، وقد هبّوا إلى ميادين الجهاد لإقامة الحقّ ومناهضة المنكر.

٣ ـ إنَّها أثبتت أنَّ معاوية قد أعطى حُجْراً وأصحابه عهداً خاصاً في وثيقة وقَّعها قبل إبرام الصلح ألَّا يعرض لهم بأيّ إحنة كانت بينه وبينهم، ولا يصيبهم بأيّ مكروه،

---

(١) عذراء ـ بالفتح ثمَّ السكون والمدّ، وهو في الأصل ـ: الرملة التي لم توطء، والدرة العذراء التي لم تسقف، وقرية بغوطة دمشق وإليها ينسب مرج، فيُقال: مرج عذراء. وقيل: إنَّ حُجْر هو الذي فتحها، فكان جزاؤه أن يُقتل فيها، معجم البلدان: ٤/ ٩١.

(٢) الاحتجاج: ٢/ ٩٠. بحار الأنوار: ٤٤/ ٢١٢.

ولكنَّه قد خاس بذلك فلم يفِ به، كما لم يفِ للإمام الحسن عليه السلام بالشروط التي أعطاها له، وإنَّما جعلها تحت قدميه كما أعلن ذلك في خطابه الذي ألقاه في النخيلة[١].

قتله رُشَيد الهجري رضي الله عنه:

وفي فترات المحنة الكبرى التي منيت بها الشيعة في عهد ابن سمية تعرَّض رشيد الهجري لأنواع المحن والبلوى، فقد بعث زياد شرطته إليه، فلمَّا مَثُل عنده صاح به: ما قال لك خليلك ـ يعني علياً ـ إنَّا فاعلون بك؟

فأجابه بصدق وإيمان: تقطعون يديَّ ورجليَّ، وتصلبوني.

وقال الخبيث مستهزئاً وساخراً: أما والله لأكذِّبن حديثه، خلّوا سبيله.

وخلَّت الجلاوزة سراحه، وندم الطاغية فأمر بإحضاره، فصاح به: لا نجد شيئاً أصلح ممَّا قال صاحبك، إنَّك لا تزال تبغي لنا سوءً إن بقيت، اقطعوا يديه ورجليه.

وبادر الجلادون فقطعوا يديه ورجليه، وهو غير حافل بما يعانيه من الآلام، ويقول المؤرخون: إنَّه أخذ يذكر مثالب بني أُمية، ويدعو إلى إيقاظ الوعي والثورة، ممَّا غاظ ذلك زياداً فأمر بقطع لسانه[٢] الذي كان يطالب بالحق والعدل، ويدافع عن حقوق الفقراء والمحرومين.

قتله عمرو بن الحَمِق الخزاعي رضي الله عنه:

ومن شهداء العقيدة الصحابي العظيم عمرو بن الحَمِق الخزاعي الذي دعا له النبيّ صلى الله عليه وآله أن يمتّعه الله بشبابه، واستجاب الله دعاء نبيه فقد أخذ عمرو بعنق الثمانين عاماً ولم ترَ في كريمته شعرة بيضاء[٣]، وتأثَّر عمرو بهدي أهل البيت وأخذ من علومهم فكان من أعلام شيعتهم.

مذكرة الإمام الحسين عليه السلام:

والتاع الإمام الحسين عليه السلام أشدَّ ما تكون اللوعة حينما علم بمقتل عمرو، فرفع مذكرة إلى معاوية عدَّد فيها أحداثه وما تعانيه الأُمَّة في عهده من الاضطهاد والجور، وجاء فيما يخص عمراً:

---

(١) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ١٦/٤٧. الفتوح: ٤/٢٩٤.
(٢) سفينة البحار: ٣/٣٥٧.
(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٤٥/٤٩٧.

«أَوَلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، الْعَبْدِ الصَّالِحِ الَّذِي أَبْلَتْهُ الْعِبادَةُ فَنَحِلَ جِسْمُهُ، وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، بَعْدَما آمَنْتَهُ، وَأَعْطَيْتَهُ مِنْ عُهُودِ اللَّهِ وَمَواثِيقِهِ مَا لَوْ أَعْطَيْتَهُ طَائِراً لَنَزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، ثُمَّ قَتَلْتَهُ جُرأَةً عَلَىٰ رَبِّكَ وَاسْتِخْفافاً بِذَلِكَ الْعَهْدِ»[1].

لقد خاس معاوية بما أعطاه لهذا الصحابي الجليل ـ بعد الصلح ـ من العهد والمواثيق بألّا يعرض له بسوء ولا مكروه.

مقتل أوفى بن حصن رضي الله عنه:

وكان أوفى بن حصن من خيار الشيعة في الكوفة وأحد أعلامهم النابهين، وهو من أشدّ الناقمين على معاوية، فكان يذيع مساوئه وأحداثه، ولمّا علم به ابن سميّة أوعز إلى الشرطة بإلقاء القبض عليه، ولمّا علم أوفى بذلك اختفى، وفي ذات يوم استعرض زياد الناس، فاجتاز عليه أوفى فشكّ في أمره فسأل عنه فأُخبر باسمه، فأمر بإحضاره، فلمّا مَثُل عنده سأله عن سياسته فعابها وأنكرها؛ فأمر زياد بقتله، فهوى الجلّادون عليه بسيوفهم وتركوه جثة هامدة[2].

مقتل عبد الله الحضرمي رضي الله عنه مع جماعته:

وكان عبد الله الحضرمي من أولياء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومن خلّص شيعته كما كان من شرطة الخميس، وقد قال له يوم الجمل: **أَبْشِرْ يَا عَبْدَ اللَّهِ فَإِنَّكَ وَأَبَاكَ مِنْ شَرَطَةِ الْخَمِيسِ، لَقَدْ أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ بِاسْمِكَ وَاسْمِ أَبِيكَ فِي شَرَطَةِ الْخَمِيسِ.**

إنكار الإمام الحسين عليه السلام:

وفزع الإمام الحسين عليه السلام أشدَّ ما يكون الفزع ألماً ومحنة على مقتل الحضرمي وجماعته الأخيار، فأنكر على معاوية في مذكرته التي بعثها له، وقد جاء فيها:

«أَوَلَسْتَ قَاتِلَ الْحَضْرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ إِلَيْكَ زِيادٌ أَنَّهُ عَلَىٰ دِينِ عَلِيٍّ عليه السلام، فَكَتَبْتَ إِلَيْهِ أَنِ اقْتُلْ كُلَّ مَنْ كَانَ عَلَىٰ دِينِ عَلِيٍّ، فَقَتَلَهُمْ وَمَثَّلَ فِيهِمْ بِأَمْرِكَ، وَدِينِ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ ابْنِ عَمِّهِ صلى الله عليه وآله الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَكَانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبَائِكَ تَجَشُّمَ الرِّحْلَتَيْنِ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ»[3].

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٨١.
(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٤٦٣.
(٣) الاحتجاج: ٢/ ٩١.

البيعة ليزيد:

وختم معاوية حياته بأكبر إثم في الإسلام وأفظع جريمة في التاريخ، فقد أقدم غير متحرّج على فرض خليعه يزيد خليفة على المسلمين يعيث في دينهم ودُنياهم، ويخلّد لهم الويلات والخطوب، وقد استخدم معاوية شتى الوسائل المنحطّة في جعل الملك وراثة في أبنائه، ويرى الجاحظ أنَّه تشبَّه بملوك الفرس والبيزنطيِّين، فحوَّل الخلافة إلى ملك كسروي، وعصب قيصري.

يقول الشيخ محمَّد جواد مغنية: «أمَّا كلمة يزيد فقد كانت من قبل اسماً لابن معاوية، أمَّا هي الآن عند الشيعة فإنَّها رمز للفساد والاستبداد والتهتك والخلاعة، وعنوان للزندقة والإلحاد، فحيث يكون الشَّر والفساد فثمَّ اسم يزيد، وحيثما يكون الخير والحق والعدل فثمَّ اسم الحسين عليه السلام»[١].

وقد أُثر عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه نظر إلى معاوية يتبختر في بردة حبرة وينظر إلى عطفيه، فقال صلى الله عليه وآله: **«أَيُّ يَوْم أَسْوَأُ لأُمَّتِي مِنْكَ، وَأَيُّ يَوْم أَسْوَأُ لِذُرِّيَّتِي مِنْ جِرْوٍ يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ يَتَّخِذُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً، وَيَسْتَحِلُّ مِنْ حُرمَتِي ما حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»**[٢].

الإمام الحسين عليه السلام ومعارضته لبيعة يزيد:

وفي طليعة المعارضين لبيعة يزيد الإمام الحسين عليه السلام، فقد كان يحتقر يزيد، ويكره طباعه الذميمة، ووصفه بأنَّه صاحب شراب وقنص، وأنَّه قد لزم طاعة الشيطان وترك طاعة الرَّحمٰن، وأظهر الفساد، وعطَّل الحدود، واستأثر بالفيء، وأحلَّ حرام الله وحرَّم حلاله[٣]، وإذا كان بهذه الضعة فكيف يبايعه ويقرّه حاكماً على المسلمين.

ولمَّا دعاه الوليد إلى بيعة يزيد قال له الإمام الحسين عليه السلام: **«أَيُّها الأَمِيرُ، إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَعْدِنُ الرِّسالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلاَئِكَةِ، وَمَحَلُّ الرَّحْمَةِ، بِنَا فَتَحَ اللَّهُ، وَبِنَا يَخْتِمُ، وَيَزِيدُ رَجُلٌ فَاسِقٌ، شَارِبُ الْخَمْرِ، قَاتِلُ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ، مُعْلِنٌ بِالْفِسْقِ، وَمِثْلِي لَا يُبَايِعُ مِثْلَهُ»**[٤].

ورفض بيعة يزيد جميع أفراد الأُسرة النبوية تبعاً لزعيمهم العظيم، ولم يشذّوا عنه.

---

(١) الشيعة في الميزان: ص٤٥٥.

(٢) المناقب والمثالب: ص٢٣٢.

(٣) الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٨٠.

(٤) اللهوف على قتلى الطفوف: ص١٧.

معاوية وبيعته للإمام الحسن عليه السلام:

وقام معاوية باقتراف أعظم جريمة وإثم في الإسلام، فقد عمد إلى اغتيال سبط النبيّ ﷺ وريحانته الإمام الحسن عليه السلام الذي عاهده بأن يكون الخليفة من بعده، ولم يتحرَّج الطاغية من هذه الجريمة في سبيل إنشاء دولة أُموية تنتقل بالوراثة إلى أبنائه وأعقابه.

إعلان البيعة رسمياً:

وصفا الجو لمعاوية بعد اغتياله لسبط الرسول ﷺ وريحانته، فقد قضى على مَنْ كان يحذر منه، وقد استتبت له الأُمور، وخلت الساحة من أقوى المعارضين له، وكتب إلى جميع عمَّاله أن يبادروا دونما أيّ تأخير إلى أخذ البيعة ليزيد، ويرغموا المسلمين على قبولها، وأسرع الولاة في أخذ البيعة من الناس، ومن تخلَّف عنها نال أقصى العقوبات الصارمة.

يثرب والإمام الحسين عليه السلام يرفضون البيعة ليزيد:

وامتنعت يثرب من البيعة ليزيد، وأعلن زعماؤها وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام رفضهم القاطع للبيعة، ورفعت السلطة المحلّية ذلك إلى معاوية، فرأى أن يسافر إلى يثرب ليتولى بنفسه إقناع المعارضين، فإن أبوا أجبرهم على ذلك، واتجه معاوية إلى يثرب في موكب رسمي تحوطه قوة هائلة من الجيش، ولمَّا انتهى إليها استقبله أعضاء المعارضة فجفاهم وهدَّدهم، وفي اليوم الثاني أرسل إلى الإمام الحسين عليه السلام وإلى عبد الله بن عباس، فلمَّا مَثُلا عنده قابلهما بالتكريم والحفاوة، وأخذ يسأل الحسين عليه السلام عن أبناء أخيه والإمام الحسين عليه السلام يجيبه، ثمَّ خطب معاوية فأشاد بالنبيّ ﷺ وأثنى عليه، وعرض إلى بيعة يزيد ومنح ابنه الألقاب الفخمة والنعوت الكريمة ودعاهما إلى بيعته.

خطاب الإمام الحسين عليه السلام:

وانبرى أبيُّ الضيم فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال:

«أَمَّا بَعْدُ يَا مُعَاوِيَةُ، فَلَنْ يُؤَدِّي الْمَادِحُ وَإِنْ أَطْنَبَ فِي صِفَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ جَمِيعٍ جُزْءاً، وَقَدْ فَهِمْتُ مَا لَبَسْتَ بِهِ الْخَلَفَ بَعْدَ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ مِنْ إِيجَازِ الصِّفَةِ، وَالتَّنَكُّبِ عَنِ اسْتِبْلَاغِ النَّعْتِ، وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يَا مُعَاوِيَةُ! فَضَحَ الصُّبْحُ فَحْمَةَ الدُّجَىٰ، وَبَهَرَتِ الشَّمْسُ أَنْوَارَ السُّرُجِ، وَلَقَدْ فَضَّلْتَ حَتَّىٰ أَفْرَطْتَ، وَاسْتَأْثَرْتَ حَتَّىٰ أَجْحَفْتَ، وَمَنَعْتَ

حَتَّىٰ بَخِلْتَ، وَجُرْتَ حَتَّىٰ جَاوَزْتَ، مَا بَذَلْتَ لِذِي حَقٍّ مِنْ أَتَمِّ حَقِّهِ مِنْ نَصِيبٍ حَتَّىٰ أَخَذَ الشَّيْطَانُ حَظَّهُ الأَوْفَرَ، وَنَصِيبَهُ الأَكْمَلَ.

وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَهُ عَنْ يَزِيدَ مِنِ اكْتِمَالِهِ وَسِيَاسَتِهِ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، تُرِيدُ أَنْ تُوهِمَ النَّاسَ فِي يَزِيدَ، كَأَنَّكَ تَصِفُ مَحْجُوباً، أَوْ تَنْعَتُ غَائِباً، أَوْ تُخْبِرُ عَمَّا كَانَ مِمَّا احْتَوَيْتَهُ بِعِلْمٍ خَاصٍّ، وَقَدْ دَلَّ يَزِيدُ مِنْ نَفْسِهِ عَلَىٰ مَوْقِعِ رَأْيِهِ، فَخُذْ لِيَزِيدَ فِيمَا أَخَذَ بِهِ مِنِ اسْتِقْرَائِهِ الْكِلَابَ الْمُهَارِشَةَ عِنْدَ التَّهَارُشِ، وَالْحَمَامَ السُّبَّقَ لأَتْرَابِهِنَّ، وَالْقِيانَ ذَوَاتِ الْمَعَازِفِ، وَضُرُوبَ الْمَلَاهِي تَجِدْهُ بَاصِراً.

وَدَعْ عَنْكَ مَا تُحَاوِلُ فَمَا أَغْنَاكَ أَنْ تَلْقَىٰ اللَّهَ بِوِزْرِ هَذَا الْخَلْقِ بِأَكْثَرِ مِمَّا أَنْتَ لَاقِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا بَرِحْتَ تَقْدَحُ بَاطِلاً فِي جَوْرٍ، وَحَنْقاً فِي ظُلْمٍ، حَتَّىٰ مَلأْتَ الأَسْقِيَةَ، وَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَوْتِ إِلَّا غَمْضَةٌ، فَتَقْدِمَ عَلَىٰ عَمَلٍ مَحْفُوظٍ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ.

وَرَأَيْتُكَ عَرَضْتَ بِنَا بَعْدَ هَذَا الأَمْرِ، وَمَنَعْتَنَا عَنْ آبَائِنَا تُرَاثاً، وَلَعَمْرُ اللَّهِ أَوْرَثَنَا الرَّسُولُ ﷺ وِلَادَةً وَجِئْتَ لَنَا بِهَا مَا حَجَجْتُمْ بِهِ الْقَائِمَ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ، فَأَذْعَنَ لِلْحُجَّةِ بِذَلِكَ وَرَدَّهُ الإِيمَانُ إِلَىٰ النَّصفِ، فَرَكِبْتُمُ الأَعَالِيلَ، وَفَعَلْتُمُ الأَفَاعِيلَ، وَقُلْتُمْ: كَانَ وَيَكُونُ، حَتَّىٰ أَتَاكَ الأَمْرُ - يَا مُعَاوِيَةُ - مِنْ طَرِيقٍ كَانَ قَصْدُهَا لِغَيْرِكَ، فَهُنَاكَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ.

وَذَكَرْتَ قِيَادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمَ بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَأْمِيرَهُ لَهُ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ وَلِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَوْمَئِذٍ فَضِيلَةٌ بِصُحْبَةِ الرَّسُولِ، وَبَيْعَتِهِ لَهُ، وَمَا صَارَ لِعَمْرٍو يَوْمَئِذٍ مَبْعَثَهُمْ حَتَّىٰ أَنِفَ الْقَوْمُ إِمْرَتَهُ، وَكَرِهُوا تَقْدِيمَهُ، وَعَدّوا عَلَيْهِ أَفْعَالَهُ، فَقَالَ ﷺ: لَا جَرَمَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ لَا يَعْمَلُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ غَيْرِي.

فَكَيْفَ تَحْتَجُّ بِالْمَنْسُوخِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ فِي أَوْكَدِ الأَحْكَامِ، وَأَوْلَاهَا بِالْمُجْتَمِعِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوَابِ؟

أَمْ كَيْفَ صَاحَبْتَ بِصَاحِبٍ تَابِعاً؟ وَحَوْلَكَ مَنْ لَا يُؤْمَنُ فِي صُحْبَتِهِ، وَلَا يُعْتَمَدُ فِي دِينِهِ وَقَرَابَتِهِ، وَتَتَخَطَّاهُمْ إِلَىٰ مُسْرِفٍ مَفْتُونٍ، تُرِيدُ أَنْ تُلْبِسَ النَّاسَ شُبْهَةً يَسْعَدُ بِهَا الْبَاقِي فِي دُنْيَاهُ وَتَشْقَىٰ بِهَا فِي آخِرَتِكَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[1].

وفنّد الإمام الحسين عليه السلام في خطابه جميع شبهات معاوية وسدّ عليه جميع الطرق

(١) أعيان الشيعة: ١/ ٥٨٣ و٥٨٤.

والنوافذ، وحمَّله المسؤولية الكبرى فيما أقدم عليه من إرغام المسلمين على البيعة لولده، كما عرض للخلافة وما مُنيت به من الانحراف عمَّا أرادها الله من أن تكون في العترة الطاهرة إلاَّ أنَّ القوم زووها عنهم، وحرَّفوها عن معدنها الأصيل.

وذهل معاوية من خطاب الإمام الحسين عليه السلام، وضاقت عليه جميع السبل، فقال لابن عباس: ما هذا يابن عباس؟

فقال ابن عباس: لعمر الله إنَّها لذرِّية الرسول ﷺ، وأحد أصحاب الكساء، وفي البيت المطهَّر فالْهَ عمَّا تريد، فإنَّ لك في الناس مقنعاً حتَّى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين[1].

ونهض أبيُّ الضيم وترك معاوية يتميَّز من الغيظ، وقد استبان له أنَّه لا يتمكن أن يخدع الإمام الحسين عليه السلام ويأخذ البيعة منه.

موقف الإمام الحسين عليه السلام:

كان موقف الإمام الحسين عليه السلام مع معاوية يتَّسم بالشِّدَّة والصرامة، فقد أخذ يدعو المسلمين بشكل سافر إلى مقاومة معاوية، ويحذِّرهم من سياسته الهدَّامة الحاملة لشارات الدمار إلى الإسلام.

وفود الأقطار الإسلامية:

وأخذت الوفود تترى على الإمام الحسين عليه السلام من جميع الأقطار الإسلامية وهي تعجُّ بالشكوى إليه وتستغيث به ممَّا ألمَّ بها من الظلم والجور، وتطلب منه القيام بإنقاذها من الاضطهاد، ونقلت الاستخبارات في يثرب إلى السلطة المحليَّة تجمع الناس واختلافهم عليه، وكان الوالي مروان، ففزع من ذلك وخاف إلى حدٍّ بعيد.

مذكرة مروان لمعاوية:

ورفع مروان مذكرة لمعاوية سجَّل فيها تخوّفه من تحرُّك الإمام الحسين عليه السلام، واختلاف الناس عليه، وهذا نصّها: «أمَّا بعد فقد كثر اختلاف الناس إلى حسين، والله إنِّي لأرى لكم منه يوماً عصيباً»[2].

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/١٨٧.

(٢) أنساب الأشراف: ٣/٣٦٧.

جواب معاوية:

وأمره معاوية بعدم القيام بأيّة حركة مضادّة للإمام الحسين عليه السلام، فقد كتب إليه: «اترك حسيناً ما تركك، ولم يظهر لك عداوته ويبدِ صفحته، واكمن عنه كمون الثرى إن شاء الله، والسلام»[١].

لقد خاف معاوية من تطوُّر الأحداث، فعهد إلى مروان بعدم التعرُّض له بأيّ أذى أو مكروه.

رأي مروان في إبعاد الإمام الحسين عليه السلام:

واقترح مروان على معاوية إبعاد الإمام الحسين عليه السلام عن يثرب، وفرض الإقامة الجبرية عليه في الشام، ليقطعه عن الاتصال بأهل العراق، ولم يرتضِ معاوية ذلك فردَّ عليه: «أردت والله أن تستريح منه وتبتليني به، فإن صبرتُ عليه صبرتُ على ما أكره، وإن أسأتُ إليه قطعتُ رحمه»[٢].

رسالة معاوية للإمام الحسين عليه السلام:

واضطرب معاوية من تحرّك الإمام الحسين عليه السلام، واختلاف الناس عليه فكتب إليه رسالة، وقد رويت بصورتين:

الأولى: رواها البلاذري، وهذا نصّها: «أمّا بعد، فقد أُنهيت إليَّ عنك أُمور، إن كانت حقّاً فإنّي لم أظنّها بك رغبة عنها، وإن كانت باطلة فأنت أسعد الناس بمجانبتها، وبحظّ نفسك تبدأ، وبعهد الله توفي، فلا تحملني على قطيعتك والإساءة إليك، فإنّك متى تنكرني أنكرك، ومتى تكدني أكدك، فاتقِ الله يا حسين في شقّ عصا الأُمَّة، وأن تُردِهِم في فتنة»[٣].

الثانية: رواها ابن كثير، وهذا نصّها: «إنَّ من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء، وقد أُنبئت أنَّ قوماً من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق، وأهل العراق من قد جرَّبت، قد أفسدوا على أبيك وأخيك، فاتقِ الله، واذكر الميثاق، فإنَّك متى تكدني أكدك»[٤].

---

(١) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٦٧.
(٢) العقد الفريد: ٤/ ٢٢.
(٣) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٦٧.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٤.

واحتوت هذه الرسالة ـ حسب النص الأخير ـ على ما يلي:

أوَّلاً: أنَّ معاوية قد طالبه بتنفيذ ما شرطه عليه في بنود الصلح ألاَّ يخرج عليه، وقد وفى له بذلك، إلاَّ أنَّ معاوية لم يفِ بشيء ممَّا أبرمه على نفسه من شروط الصلح.

ثانياً: أنَّ معاوية كان على علم بوفود أهل الكوفة التي دعت الإمام الحسين عليه السلام للخروج عليه، وقد وسمهم بأنَّهم أهل الشقاق، وأنَّهم قد غدروا بعليّ والحسن عليه السلام من قبل.

ثالثاً: التهديد السافر للإمام الحسين عليه السلام بأنَّه متى كاد معاوية فإنَّه يكيده.

جواب الإمام الحسين عليه السلام:

ورفع الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية مذكرة خطيرة كانت جواباً لرسالته حمَّله مسؤوليات جميع ما وقع في البلاد من سفك الدماء، وفقدان الأمن، وتعريض الأُمَّة للأزمات، وهي من أروع الوثائق الرسمية التي حفلت بذكر الأحداث التي صدرت من معاوية، وهذا نصّها:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَكَ عَنِّي أُمُورٌ أَنْتَ لِي عَنْهَا رَاغِبٌ وَأَنَا بِغَيْرِهَا عِنْدَكَ جَدِيرٌ، وَإِنَّ الْحَسَنَاتِ لَا يَهْدِي لَهَا وَلَا يُسَدِّدُ إِلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَىٰ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّهُ رَقَىٰ إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّهُ إِنَّمَا رَقَاهُ إِلَيْكَ الْمَلَّاقُونَ الْمَشَّاؤونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْجَمْعِ، وَكَذِبَ الْغَاوُونَ الْمَارِقُونَ، مَا أَرَدْتُ لَكَ حَرْباً، وَلَا عَلَيْكَ خِلَافاً، وَإِنِّي لأَخْشَىٰ اللَّهَ فِي تَرْكِ ذَلِكَ مِنْكَ، وَمِنَ الإِعْذَارِ فِيهِ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ أَوْلِيَائِكَ الْقَاسِطِينَ الْمُحِلِّينَ حِزْبِ الظَّلَمَةِ، وَأَعْوَانِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

أَلَسْتَ الْقَاتِلَ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ أَخَا كِنْدَةَ وَأَصْحَابَهُ الْمُصَلِّينَ الْعَابِدِينَ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ الظُّلْمَ، وَيَسْتَعْظِمُونَ الْبِدَعَ، وَيَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَخافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْماً وَعُدْوَاناً، مِنْ بَعْدِ مَا أَعْطَيْتَهُمُ الأَيْمَانَ الْمُغَلَّظَةَ وَالْمَوَاثِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ جُرْأَةً عَلَىٰ اللَّهِ وَاسْتِخْفَافاً بِعَهْدِهِ.

أَوَلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ الْخُزَاعِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَبْدِ الصَّالِحِ الَّذِي أَبْلَتْهُ الْعِبَادَةُ فَنَحَلَ جِسْمُهُ وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، بَعْدَ مَا آمَنْتَهُ، وَأَعْطَيْتَهُ مِنَ الْعُهُودِ مَا لَوْ فَهِمَتْهُ الْعُصْمُ لَنَزَلَتْ مِنْ شَعَفِ الْجِبَالِ.

أَوَلَسْتَ الْمُدَّعِي زِيَادَ بْنَ سُمَيَّةَ الْمَوْلُودَ عَلَى فِرَاشِ عُبَيْدِ ثَقِيفٍ؟! فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ابْنُ أَبِيكَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ، فَتَرَكْتَ سُنَّةَ

رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله تَعَمُّداً وَتَبِعْتَ هَوَاكَ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ سَلَّطْتَهُ عَلَى أَهْلَ الإِسْلاَمِ يَقْتُلُهُمْ وَيَقْطَعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَيَسْمِلَ أَعْيُنَهُمْ، وَيُصَلِّبُهُمْ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ.

أَوَلَسْتَ قَاتِلَ الْحَضْرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ إِلَيْكَ زِيادٌ أَنَّهُ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ عليه السلام، فَكَتَبْتَ إِلَيْهِ أَنِ اقْتُلْ كُلَّ مَنْ كَانَ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ فَقَتَلَهُمْ، وَمَثَّلَ بِهِمْ بِأَمْرِكَ، وَدِينُ عَلِيٍّ عليه السلام هُوَ دِينُ ابْنُ عَمِّهِ صلى الله عليه وآله الَّذِي أَجلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبائِكَ تَجَشُّمُ الرِّحْلَتَيْنِ، رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيفِ.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: «انْظُرْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ وَلأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، وَاتَّقِ شَقَّ عَصَا هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَنْ تُرْدِهِمْ فِي فِتْنَةٍ»، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِتْنَةً أَعْظَمُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ وَلَايَتِكَ عَلَيْهَا، وَلَا أَعْظَمُ لِنَفسِي وَلِدِينِي وَلِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أُجَاهِرَكَ، فَإِنْ فَعَلْتُ فَإِنَّهُ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَىٰ اللَّهِ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدِينِي، وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِرْشَادِ أَمْرِي.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: «إِنِّي إِنْ أَنْكَرْتُكَ تَنْكُرْنِي، وَإِنْ أَكِدْكَ تَكِدْنِي»، فَكِدْنِي مَا بَدَا لَكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ لَا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ فِيَّ، وَأَلَّا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرَّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ؛ لِأَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ جَهْلَكَ، وَتَحَرَّصْتَ عَلَى نَقْضِ عَهْدِكَ.

وَلَعَمْرِي مَا وَفَيْتَ بِشَرْطٍ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِكَ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالأَيْمَانِ وَالْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ، فَقَتَلْتَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَاتَلُوا وَقَتَلُوا، وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنَا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقَّنَا وَمَخَافَةَ أَمْرٍ لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلْهُمْ مِتَّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكُوا.

فَأَبْشِرْ - يَا مُعَاوِيَةُ - بِالْقِصَاصِ، وَاسْتَيْقِنْ بِالْحِسَابِ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى كِتَاباً لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا. وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لِأَخْذِكَ بِالظِّنَّةِ وَقَتْلِكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى التُّهَمِ، وَنَفْيِكَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دُورِهِمْ إِلَى دَارِ الْغُرْبَةِ، وَأَخْذِكَ النَّاسَ بِبَيْعَةِ ابْنِكَ الْغُلَامِ الْحَدَثِ، يَشْرَبُ الشَّرَابَ، وَيَلْعَبُ بِالْكِلَابِ، مَا أَرَاكَ قَدْ خَسِرْتَ نَفْسَكَ، وَتَبَّرْتَ دِينَكَ[١]، وَغَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ، وَسَمِعْتَ مَقَالَةَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ، وَأَخَفْتَ الْوَرِعَ التَّقِيَّ، وَالسَّلَامُ»[٢].

(١) تبرت: أهلكت دينك، لسان العرب: ٢/١٣، تَبَرَ.
(٢) رجال الكشي: ص٤٩ و٥٠.

المؤتمر السياسي العامّ:

وعقد الإمام الحسين عليه السلام في مكة مؤتمراً سياسياً عاماً دعا فيه جمهوراً غفيراً ممّن شهد موسم الحج من المهاجرين والأنصار والتابعين وغيرهم من سائر المسلمين، فانبرى عليه السلام خطيباً فيهم، وتحدَّث ببليغ بيانه بما ألمَّ بعترة النبيّ صلى الله عليه وآله وشيعتهم من المحن والخطوب التي صبَّها عليهم معاوية، وما اتخذه من الإجراءات المشدَّدة من إخفاء فضائلهم، وستر ما أُثر عن الرسول الأعظم في حقِّهم وألزم حضَّار مؤتمره بإذاعة ذلك بين المسلمين.

وفيما يلي نصّ حديثه فيما رواه سُليم بن قيس قال: «ولمَّا كان قبل موت معاوية بسنة حجَّ الحسين بن عليّ عليهما السلام، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، فجمع الحسين عليه السلام بني هاشم ونساءهم ومواليهم ومن حجَّ من الأنصار ممَّن يعرفهم الحسين عليه السلام وأهل بيته، ثمَّ أرسل رسلاً، وقال لهم: **لَا تَدَعوا أَحَداً حَجَّ الْعَامَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله الْمَعْرُوفِينَ بِالصَّلَاحِ وَالنُّسُكِ إِلَّا اجْمَعُوهُمْ لِي.**

فاجتمع إليه بمنى أكثر من سبعمائة رجل وهم في سرادق، عامتهم من التابعين، ونحو من مائتي رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: **فَإِنَّ هَذَا الطَّاغِيَةَ** ـ يعني معاوية ـ **قَدْ فَعَلَ بِنَا وَبِشِيعَتِنَا مَا قَدْ رَأَيْتُمْ وَعَلِمْتُمْ وَشَهِدْتُمْ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَإِنْ صَدَقْتُ فَصَدِّقُونِي، وَإِنْ كَذِبْتُ فَكَذِّبُونِي، إِسْمَعوا مَقَالَتِي، وَاكْتُبُوا قَوْلِي، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَمْصَارِكُمْ وَقَبائِلِكُمْ، فَمَنْ أَمِنْتُمْ مِنَ النَّاسِ، وَوَثِقْتُمْ بِهِ فَادْعُوْهُمْ إِلَىٰ مَا تَعْلَمونَ مِنْ حَقِّنا، فَإِنِّي أَتَخَوَّفُ أَنْ يُدْرَسَ هَذَا الأَمْرُ وَيُغْلَبَ، وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.**

وما ترك شيئاً ممَّا أنزله الله فيهم من القرآن إلاَّ تلاه وفسَّره، ولا شيئاً ممَّا قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في أبيه وأخيه وفي نفسه وأهل بيته إلاَّ رواه.

وكل ذلك يقول أصحابه: اللَّهمَّ نعم، قد سمعنا وشهدنا، ويقول التابعي: اللَّهمَّ قد حدَّثني به من أصدِّقه وأئتمنه من الصحابة، فقال عليه السلام: **أَنْشُدُكُمُ اللَّهَ إِلَّا حَدَّثْتُمْ بِهِ مَنْ تَثِقُونَ بِهِ وَبِدِينِهِ**[1].

وكان هذا المؤتمر أوَّل مؤتمر إسلامي عرفه المسلمون في ذلك الوقت، وقد شجب

(١) كتاب سُليم بن قيس: ص٣٢٠. الاحتجاج: ٢/ ٨٧ و٨٨.

فيه الإمام الحسين عليه السلام سياسة معاوية، ودعا المسلمين لإشاعة فضائل أهل البيت عليهم السلام، وإذاعة مآثرهم التي حاولت السلطة حجبها عن المسلمين.

رسالة جعدة للإمام الحسين عليه السلام:

وكان جعدة بن هبيرة بن أبي وهب من أخلص الناس للإمام الحسين عليه السلام، وأكثرهم عليه السلام مودَّة له، وقد اجتمعت عنده الشيعة، وأخذوا يلحّون عليه في مراسلته للقدوم إلى مصرهم ليعلن الثورة على حكومة معاوية، ورفع جعدة رسالته للإمام الحسين عليه السلام، وهذا نصّها:

«أمَّا بعد، فإنَّ مَن قبلنا من شيعتك متطلعة أنفسهم إليك، لا يعدلون بك أحداً، وقد كانوا عرفوا رأي الحسن عليه السلام أخيك في الحرب، وعرفوك باللين لأوليائك والغلظة على أعدائك، والشِّدَّة في أمر الله، فإن كنت تحبّ أن تطلب هذا الأمر، فاقدم علينا فقد وطنَّنا أنفسنا على الموت معك».

جواب الإمام الحسين عليه السلام:

ولم يكن من رأي الإمام الحسين عليه السلام الخروج على معاوية، وذلك لعلمه بفشل الثورة وعدم نجاحها، فإنَّ معاوية بما يملك من وسائل دبلوماسية وعسكرية لا بدَّ أن يقضي عليها، ويخرجها من إطارها الإسلامي إلى حركة غير شرعية، ويوصم القائمين بها بالتمرُّد والخروج على النظام، وقد أجابهم عليه السلام بعد البسملة والثناء على الله بما يلي:

«أَمَّا أَخِي فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ وَفَّقَهُ وَسَدَّدَهُ، وَأَمَّا أَنَا فَلَيْسَ رَأْيِيَ الْيَوْمَ ذَلِكَ، فَالْصَقُوا ـ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ـ بِالأَرْضِ، وَاكْمِنُوا فِي الْبُيُوتِ، وَاحْتَرِسُوا مِنَ الظِّنَّةِ مَا دَامَ مُعَاوِيَةُ حَيّاً، فَإِنْ يُحْدِثِ اللَّهُ بِهِ حَدَثاً وَأَنَا حَيٌّ، كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ بِرَأْيِي، وَالسَّلامُ»(١).

نصيحة الخدري للإمام الحسين عليه السلام:

وشاعت في الأوساط الاجتماعية أنباء وفود أهل الكوفة، على الإمام الحسين عليه السلام واستنجادهم به؛ لإنقاذهم من ظلم معاوية وجوره، ولمَّا علم أبو سعيد الخدري بذلك خفَّ مسرعاً للإمام الحسين عليه السلام ينصحه ويحذِّره، وهذا نصّ حديثه: يا أبا عبد الله، إنِّي لكم ناصح، وإنِّي عليكم مشفق، وقد بلغني أنَّه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة، يدعونكم إلى الخروج إليهم، فلا تخرج إليهم، فإنِّي سمعت أباك يقول بالكوفة: وَاللَّهِ،

(١) الأخبار الطوال: ص٢٢٢. أنساب الأشراف: ٣/٣٦٦.

لَقَدْ مَلِلْتُهُمْ وَأَبْغَضْتُهُمْ، وَمَلُّونِي وَأَبْغَضُونِي، وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ وَفَاءٌ قَطُّ، وَمَنْ فَازَ بِهِمْ فَازَ بِالسَّهْمِ الأَخْيَبِ. وَاللَّهِ مَا لَهُمْ ثَبَاتٌ وَلَا عَزْمٌ عَلَىٰ أَمْرٍ، وَلَا صَبْرٌ عَلَىٰ السَّيْفِ[1].

وليس من شكّ في أنَّ أبا سعيد الخدري كان من ألمع أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأكثرهم إخلاصاً وولاءً لأهل البيت، وقد دفعه حرصه على الإمام الحسين عليه السلام وخوفه عليه من معاوية أن يقوم بالنصيحة له في عدم خروجه على معاوية، ولم تذكر المصادر التي بأيدينا جواب الإمام الحسين عليه السلام له.

استيلاء الإمام الحسين عليه السلام على أموال للدولة:

وكان معاوية ينفق أكثر أموال الدولة على تدعيم ملكه، كما كان يهب الأموال الطائلة لبني أُميَّة لتقوية مركزهم السياسي والاجتماعي، وكان الإمام الحسين عليه السلام يشجب هذه السياسة، ويرى ضرورة إنقاذ الأموال من معاوية وإنفاقها على المحتاجين، وقد اجتازت على يثرب أموال من اليمن إلى خزينة دمشق، فعمد إلى الاستيلاء عليها، ووزعها على المحتاجين من بني هاشم وغيرهم، وكتب إلى معاوية:

مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفيانَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عِيراً مَرَّتْ بِنَا مِنَ الْيَمَنِ تَحْمِلُ مَالاً وَحُلَلاً وَعَنْبَراً وَطِيباً إِلَيْكَ؛ لِتُودِعَها خَزَائِنَ دِمَشْقَ، وَتَعَلَّ بِهَا بَعْدَ النَّهْلِ بَنِي أَبِيكَ، وَإِنِّي احْتَجْتُ إِلَيْهَا فَأَخَذْتُها، وَالسَّلَامُ.

جواب معاوية:

«من عبد الله معاوية إلى الحسين بن عليّ.

أمَّا بعد، فإنَّ كتابك ورد عليَّ تذكر أنَّ عِيراً مرَّت بك من اليمن تحمل مالاً، وحُللاً وعنبراً وطيباً إليَّ لأودعها خزائن دمشق، وأعلَّ بها بعد النهل بني أبي، وإنَّك احتجت إليها فأخذتها، ولم تكن جديراً بأخذها إذ نسبتها إليَّ؛ لأنَّ الوالي أحقّ بالمال، ثمَّ عليه المخرج منه. وأيم الله، لو تركت ذلك حتَّى صار إليَّ لم أبخسك حظّك منه، ولكنَّني قد ظننت ـ يابن أخي ـ أنَّ في رأسك نزوة، وبودي أن يكون ذلك في زماني فأعرف لك قدرك، وأتجاوز عن ذلك، ولكنَّني والله أتخوَّف أن تبلى بمن لا ينظرك فواق ناقة».

وكتب في أسفل كتابه هذه الأبيات:

يـا حُـسـيـنَ بْـنَ عَـلـيٍّ لَـيْـسَ مـا   جِـئْـتَ بِـالـسَّـائـغِ يَـومـاًوَالـعَـلَـلْ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٤/ ٢٠٥.

أَخْـدُكَ الْـمَـالَ وَلَـمْ تُـؤمَـرْ بِـهِ ... إنَّ هَـذَا مِـنْ حُـسَـيْـنٍ لَـعَـجَـلْ
قَـدْ أَجَـزنـاهـا وَلَـمْ نَـغْـضَـبْ لَـهـا ... وَاحْـتَـمَـلْـنـا مِـنْ حُـسَـيْـنٍ مَـا فَـعَـلْ
يَـا حُـسَـيْـنَ بْـنَ عَـلِـيٍّ ذَا الأَمَـلْ ... لَـكَ بَـعْـدِي وَثْـبَـةٌ لَا تُـحْـتَـمَـلْ
وَبِـوُدِّي أَنَّـنِـي شَـاهِـدُهَـا ... فَـإِلَـيْـهَـا مِـنْـكَ بِـالْـخُـلْـقِ الأَجَـلْ
إِنَّـنِـي أَرْهَـبُ أَنْ تَـصَـى بِـمَـن ... عِـنْـدَهُ قَـدْ سَـبَـقَ الـسَّـيْـفُ الـعَـذَلْ(١)

وفي هذا الكتاب تهديد للإمام الحسين عليه السلام بمن يخلف معاوية وهو ابنه يزيد الذي لا يؤمن بمقام الحسين عليه السلام ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعلى أيّة حال فقد قام الإمام الحسين عليه السلام بإنقاذ هذه الأموال من معاوية وأنفقها على الفقراء في حين أنَّه لم يكن يأخذ لنفسه أيّة صلة من معاوية، وقد قدَّم له مالاً كثيراً، وثياباً وافرة، وكسوة فاخرة، فردَّ الجميع عليه(٢).

وقد روى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنَّ الحسن والحسين عليهما السلام كانا لا يقبلان جوائز معاوية(٣).

الإمام الحسين عليه السلام مع بني أُميَّة:

كانت العداوة بين الحسين عليه السلام وبين بني أُميَّة ذاتية، فهي عداوة الضدّ للضدّ، وقد سأل سعيد الهمداني الإمام الحسين عليه السلام عن بني أُميَّة، فقال عليه السلام: **إِنَّا وَهُمُ الْخَصْمَانِ اللَّذَانِ اخْتَصَما فِي رَبِّهِمْ**(٤).

أجل إنَّهما خصمان في أهدافهما، وخصمان في اتجاههما، فالحسين عليه السلام كان يمثِّل جوهر الإيمان بالله، ويمثِّل القيم الكريمة التي يشرف بها الإنسان، وبنو أُميَّة كانوا يمثِّلون مساوىء الجاهلية التي تهبط بالإنسان إلى مستوى سحيق، وكان الأُمويون بحسب طباعهم الشريرة يحقدون عليه، ويبالغون في توهينه، وقد جرت منازعة بين الحسين عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان في مال كان بينهما، فتحامل الوليد على الحسين عليه السلام في حقِّه، فثار في وجهه، وقال عليه السلام: **أَحْلِفُ بِاللَّهِ لَتَنْصِفُنِي مِنْ حَقِّي أَوْ لآخُذَنَّ سَيْفِي، ثُمَّ لأَقومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَأَدْعُوَنَّ بِحِلْفِ الْفُضُولِ.**

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ١٨/ ٤٠٩.
(٢) الحسين بن عليّ/ علي جلال: ١/ ١١٧.
(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ٢/ ٣٣٢.
(٤) الكنى والأسماء/ أبو بشر الدولابي: ١/ ٧٧.

لقد أراد أن يحيي حلف الفضول الذي أسَّسه الهاشميون، والذي كان شعاره إنصاف المظلومين والأخذ بحقوقهم، وقد حاربه الأُمويون في جاهليتهم؛ لأنَّه يتنافى مع طباعهم ومصالحهم.

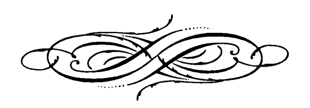
وانبرى عبد الله بن الزبير، فانضم للحسين عليه السلام وانتصر له، وقال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذنَّ سيفي، ثمَّ لأقمنَّ معه حتَّى ينتصف من حقِّه أو نموت جميعاً.

وبلغ المِسْور بن مخرمة بن نوفل الزهري الحديث، فانضمَّ للحسين عليه السلام، وقال بمثل مقالته، وشعر الوليد بالوهن والضعف، فتراجع عن غيِّه، وأنصف الحسين عليه السلام من حقِّه(١).

ومن ألوان الحقد الأُموي على الحسين عليه السلام أنَّه كان جالساً في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله فسمع رجلاً يحدِّث أصحابه، ويرفع صوته ليُسمع الحسين عليه السلام، وهو يقول: إنَّا شاركنا آل أبي طالب في النُّبوَّة حتَّى نلنا منها ما نالوا منها من السبب والنسب، ونلنا من الخلافة ما لم ينالوا، فبمَ يفخرون علينا؟!

وكرَّر هذا القول ثلاثاً، فأقبل عليه الإمام الحسين عليه السلام، فقال له: **أَمَّا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ فَإِنِّي كَفَفْتُ عَنْكَ حِلْماً، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنِّي كَفَفْتُ عَنْكَ عَفْواً، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنِّي أُجِيبُكَ: إِنِّي سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: إِنَّ فِي الْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ الْكُبْرىٰ حَشَرَ اللَّهُ بَنِي أُمَيَّةَ فِي صُورَةِ الذَّرِّ يَطَأُهُمُ النَّاسُ حَتَّىٰ يُفْرَغَ مِنَ الْحِسَابِ، ثُمَّ يُؤْتَىٰ بِهِمْ فَيُحاسَبُوا، وَيُصارُ بِهِمْ إِلَىٰ النَّارِ**(٢)، ولم يُطقِ الأُموي جواباً وانصرف وهو يتميَّز الغيظ.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن موقف الإمام الحسين عليه السلام مع معاوية وبني أُميَّة.



(١) السيرة النبويَّة/ابن هشام: ١/ ١٣٤ و١٣٥.
(٢) المناقب والمثالب: ص٢٠١.

بداية حكومة يزيد

وتسلَّم يزيد بعد هلاك أبيه قيادة الدولة الإسلامية، وهو في غضارة العمر، لم تهذِّبه الأيام ولم تصقله التجارب، وإنَّما كان ـ فيما أجمع عليه المؤرخون ـ موفور الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء وكلاب الصيد وممعناً كلّ الإمعان في اقتراف المنكر والفحشاء.

الأوامر المشدَّدة إلى الوليد:

وأصدر يزيد أوامره المشدَّدة إلى عامله على يثرب الوليد بن عتبة بإرغام المعارضين له على البيعة، وقد كتب إليه رسالتين:

الأولى: وقد رويت بصورتين:

الصورة الأولى: رواها الخوارزمي، وهذا نصّها: «أمَّا بعد، فإنَّ معاوية كان عبداً من عباد الله أكرمه، واستخلصه، ومكَّن له، ثمَّ قبضه إلى روحه وريحانه ورحمته، عاش بقدر ومات بأجل، وقد كان عهد إليَّ وأوصاني بالحذر من آل أبي تراب، لجرأتهم على سفك الدماء، وقد علمت يا وليد أنَّ الله تبارك وتعالى منتقم للمظلوم عثمان بآل أبي سفيان؛ لأنَّهم أنصار الحق وطلَّاب العدل، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة على جميع أهل المدينة»[1].

الصورة الثانية: رواها البلاذري، وهذا نصّها: «أمَّا بعد، فإنَّ معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوَّله ومكَّن له، فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمة الله عليه، فقد عاش محموداً ومات برّاً تقيّاً، والسلام»[2].

وأكبر الظن أنَّ هذه الرواية هي الصحيحة، فإنَّها قد اقتصرت على نعي معاوية إلى الوليد من دون أن تعرض إلى أخذ البيعة من الحسين عليه السلام وغيره من المعارضين، أمَّا

(١) مقتل الحسين عليه السلام/ الخوارزمي: ١/ ١٨٠.
(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٣١٣.

على الرواية الأُولى، فإنَّه يصبح ذكر الرسالة التالية ـ التي بعثها يزيد إلى الوليد لإرغام الإمام الحسين عليه السلام على البيعة ـ لغواً.

الثانية: رسالة صغيرة، وصفت كأنَّها أُذن فأرة، وقد رويت بثلاث صور:

الصورة الأُولى: رواها الطبري والبلاذري، وهذا نصّها: «أمَّا بعد، فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتَّى يبايعوا، والسلام»[1].

الصورة الثانية: رواها اليعقوبي، وهذا نصّها: «إذا أتاك كتابي، فأحضر الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير، فخذهما بالبيعة لي فإن امتنعا فاضرب أعناقهما، وابعث إليَّ برؤوسهما، وخذ الناس بالبيعة فمن امتنع فأنفذ فيه الحكم، وفي الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير، والسلام»[2].

وليس في هذه الصورة ذكر لعبد الله بن عمر، وأكبر الظن أنَّه أُضيف اسمه إلى الإمام الحسين عليه السلام وابن الزبير؛ لإلحاقه بالجبهة المعارضة وتبريره من التأييد السافر لبيعة يزيد.

الصورة الثالثة: رواها الحافظ ابن عساكر، وهذا نصّها: «أن ادعُ الناس فبايعهم، وابدأ بوجوه قريش، وليكن أوَّل من تبدأ به الحسين بن عليّ، فإنَّ أمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ عهد إليَّ في أمره الرفق به واستصلاحه»[3].

وليس في هذه الصورة ذكر لابن الزبير وابن عمر؛ إذ لم تكن لهما أيّة أهمية في نظر يزيد، إلاَّ أنَّا نشكّ فيما جاء في آخر هذه الرسالة من أنَّ معاوية قد عهد إلى يزيد الرفق بالإمام الحسين عليه السلام واستصلاحه، فإنَّ معاوية قد وقف موقفاً سلبياً يتّسم بالعداء والكراهية لعموم أهل البيت عليهم السلام، واتخذ ضدّهم جميع الإجراءات القاسية كما أشرنا إلى ذلك في البحوث السابقة، وأكبر الظن أنَّ هذه الجملة قد أُضيفت إليها لتبرير أخلاق معاوية وأعماله السيِّئة، ونفي المسؤولية عنه فيما ارتكبه ولده من الجرائم ضد العترة الطاهرة.

بقي هنا شيء وهو أنَّ هذه الرسالة قد وصفها المؤرخون كأنَّها أُذن فأرة لصغرها، ولعلَّ السبب في إرسالها بهذا الحجم هو أنَّ يزيد قد حسب أنَّ الوليد سينفِّذ ما عهد إليه

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤/٥٤٨.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٥٤.
(٣) تاريخ مدينة دمشق: ١٤/٢٠٦.

من قتل الإمام الحسين عليه السلام وابن الزبير، ومن الطبيعي أنَّ لذلك كثيراً من المضاعفات السيِّئة ومن أهمِّها ما يلحقه من التذمُّر والسخط الشامل بين المسلمين، فأراد أن يجعل التبِعة على الوليد، وأنَّه لم يعهد إليه بقتلهما، وأنَّه لو أمره بذلك لأصدر مرسوماً خاصاً مطولاً به.

تفاؤل الإمام الحسين عليه السلام بموت معاوية:

وحمل الرسالتين زريق مولى معاوية فأخذ يجدّ في السير لا يلوي على شيء حتَّى انتهى إلى يثرب[1]، وكان معه عبد الله بن سعد بن أبي سرح متلثّماً لا يبدو منه إلاَّ عيناه، فصادفه عبد الله بن الزبير فأخذ بيده وجعل يسأله عن معاوية وهو لا يجيبه، فقال له: أمات معاوية؟ فلم يكلِّمه بشيء، فاعتقد بموت معاوية، وقفل مسرعاً إلى الحسين عليه السلام وأخبره الخبر[2].

فقال له الحسين عليه السلام: إنِّي أظنُّ أنَّ معاوية قد مات، فقد رأيت البارحة في منامي كأنَّ منبر معاوية منكوس، ورأيت داره تشتعل ناراً، فأوَّلت ذلك في نفسي بموته[3].

استدعاء الإمام الحسين عليه السلام:

وأرسل الوليد في منتصف اللَّيل[4] عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث خلف الحسين عليه السلام وابن الزبير، وإنَّما بعثه في هذا الوقت لعلَّه يحصل على الوفاق من الحسين عليه السلام ولو سرّاً على البيعة ليزيد، وهو يعلم أنَّه إذا أعطاه ذلك فلن يخيس بعهده، ولن يتخلف عن قوله.

ومضى الفتى يدعو الحسين عليه السلام وابن الزبير للحضور عند الوليد فوجدهما في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله فدعاهما إلى ذلك فاستجابا له، وأمراه بالانصراف، وذعر ابن الزبير، فقال للإمام الحسين عليه السلام ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟!

فقال عليه السلام: **أَظُنُّ أَنَّ طَاغِيَتَهُمْ ـ يعني معاوية ـ قَدْ هَلَكَ فَبَعَثَ إِلَيْنَا بِالْبَيْعَةِ قَبْلَ أَنْ يَفْشُوَ بِالنَّاسِ الْخَبَرُ.**

قال: وأنا ما أظُنُّ غيره، فما تريد أن تصنع؟

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٤١ ـ ٦٠): ص١٧٠.
(٢) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد: ٢٠/١١٥.
(٣) الفتوح: ٥/١٢.
(٤) البداية والنهاية: ٨/١٦٤.

فقال عليه السلام: **أَجْمَعُ فِتْيانِي السَّاعَةَ، ثُمَّ أَسِيرُ إِلَيْهِ، وَأُجْلِسُهُمْ عَلَىٰ الْبَابِ**.

قال: إنِّي أخاف عليك إذا دخلت.

فقال عليه السلام: **لَا آتِيهِ إِلَّا وَأَنَا قَادِرٌ عَلَىٰ الإِمْتِنَاعِ**[١].

وانصرف أبيُّ الضيم إلى منزله فاغتسل، وصلَّى ودعا الله[٢]، وأمر أهل بيته بلبس السلاح والخروج معه، فخفّوا محدقين به، فأمرهم بالجلوس على باب الدار، وقال لهم: **إِنِّي دَاخِلٌ، فَإِذَا دَعَوْتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ صَوْتِيَ قَدْ عَلَا فَادْخُلوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ**.

ودخل الإمام الحسين عليه السلام على الوليد فرأى مروان عنده وكانت بينهما قطيعة، فأمرهما بالتقارب والإصلاح، وترك الأحقاد، وكانت سجيته التي طبع عليها الإصلاح حتَّى مع أعدائه وخصومه، فقال عليه السلام لهما: **الصِّلَةُ خَيْرٌ مِنَ الْقَطِيعَةِ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ مِنَ الْفَسادِ، وَقَدْ آنَ لَكُما أَنْ تَجْتَمِعا، أَصْلَحَ اللَّهُ ذَاتَ بَيْنِكُما**[٣].

ولم يجيباه بشيء فقد علاهما صمت رهيب، والتفت الإمام عليه السلام إلى الوليد فقال له: **هَلْ أَتاكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ خَبَرٌ؟ فَإِنَّه كَانَ عَلِيلاً وَقَدْ طَالَتْ عِلَّتُهُ، فَكَيْفَ حَالُهُ الآنَ؟**

فقال الوليد بصوت خافت حزين النبرات: آجرك الله في معاوية، فقد كان لك عمّ صدوق، وقد ذاق الموت، وهذا كتاب أمير المؤمنين يزيد.

فاسترجع الحسين عليه السلام، وقال له: **لِمَاذَا دَعَوْتَنِي؟**

فقال: دعوتك للبيعة[٤].

فقال عليه السلام: **إِنَّ مِثْلِي لَا يُبَايِعُ سِرّاً، وَلَا يُجْتَزَأُ بِهَا مِنِّي سِرّاً، فَإِذَا خَرَجْتَ إِلَىٰ النَّاسِ وَدَعَوْتَهُمْ لِلْبَيْعَةِ دَعَوْتَنا مَعَهُمْ كَانَ الأَمْرُ وَاحِداً**[٥].

لقد طلب الإمام الحسين عليه السلام تأجيل الأمر إلى الصباح، حتَّى يُعقَدَ اجتماع جماهيري فيدلي برأيه في شجب البيعة ليزيد، ويستنهض همم المسلمين على الثورة والإطاحة بحكم يزيد. وكان الوليد ـ فيما يقول المؤرخون ـ يحبّ العافية[٦] ويكره الفتنة، فشكر الإمام الحسين عليه السلام على مقالته، وسمح له بالانصراف إلى داره، وانبرى

---

(١) وقعة الطَّفّ/ أبو مِخنف: ص٨٠.
(٢) الدرّ النظيم: ص١٦٢.
(٣) مقتل الحسين عليه السلام/ الخورزمي: ١/ ١٨٣.
(٤) الفتوح: ٥/ ١٣.
(٥) الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٦٤.
(٦) الأخبار الطوال: ص٢٢٨.

الوغد الخبيث مروان بن الحكم وهو مغيظ محنق فصاح بالوليد: لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتّى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبسه فإن بايع وإلاّ ضربت عنقه.

ووثب أبيّ الضم إلى الوزغ ابن الوزغ، فقال له: **يَابْنَ الزَّرْقَاءِ، أَأَنْتَ تَقْتُلُنِي أَمْ هُوَ؟ كَذِبْتَ وَاللَّهِ وَلَؤُمْتَ**(١).

وأقبل على الوليد فأخبره عن عزمه وتصميمه على رفض البيعة ليزيد، قائلاً: **أَيُّهَا الأَمِيرُ، إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَعْدِنُ الرِّسالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ، وَمَحَلُّ الرَّحْمَةِ، بِنَا فَتَحَ اللَّهُ، وَبِنَا خَتَمَ، وَيَزِيدُ رَجُلٌ فَاسِقٌ، شَارِبُ الْخَمْرِ، قَاتِلُ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ، مُعْلِنٌ بِالْفِسْقِ، وَمِثْلِي لَا يُبَايِعُ مِثْلَهُ، وَلَكِنْ نُصْبِحُ وَتُصْبِحُونَ، وَنَنْظُرُ وَتَنْظُرُونَ أَيُّنا أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ وَالْبَيْعَةِ**(٢).

وكان هذا أوّل إعلان له على الصعيد الرسمي ـ بعد هلاك معاوية ـ في رفض البيعة ليزيد، وقد أعلن ذلك في بيت الإمارة ورواق السلطة بدون مبالاة ولا خوف ولا ذعر.

الإمام الحسين عليه السلام مع مروان:

والتقى أبيّ الضيم في أثناء الطريق بمروان بن الحكم في صبيحة تلك الليلة التي أعلن فيها رفضه لبيعة يزيد، فبادره مروان قائلاً: إنّي ناصح، فأطعني ترشد وتسدّد(٣).

قال عليه السلام: **وَمَا ذَاكَ يَا مَرْوانُ؟**

فقال: إنّي آمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد، فإنّه خير لك في دينك ودُنياك.

والتاع أشدَّ ما تكون اللوعة واسترجع، وأخذ يردُّ على مقالة مروان ببليغ منطقه، قائلاً: **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَعَلَىٰ الإِسْلَامِ السَّلَامُ، إِذْ قَدْ بُلِيَتِ الأُمَّةُ بِراعٍ مِثْلَ يَزِيدَ.**

ثم أقبل الإمام الحسين عليه السلام على مروان، وقال: **وَيْحَكَ يَا مَرْوانُ، أَتَأْمُرُنِي بِبَيْعَةِ يَزِيدَ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاسِقٌ؟! لَقَدْ قُلْتَ شَطَطاً مِنَ الْقَوْلِ وَزَلَلاً، وَلَا أَلومُكَ عَلَىٰ قَوْلِكَ؛ لأَنَّكَ اللَّعِينُ الَّذِي لَعَنَكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَأَنْتَ فِي صُلْبِ أَبِيكَ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ.**

وأضاف يقول: **إِلَيْكَ عَنِّي يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَالْحَقُّ فِينا**،

---

(١) الإرشاد/المفيد: ٢/ ٣٣.

(٢) اللهوف: ص١٠. الفتوح: ٥/ ١٤.

(٣) الفتوح: ٥/ ١٦ و١٧. مقتل الحسين عليه السلام/الخوارزمي: ١/ ١٨٤.

وَبِالْحَقِّ تَنْطِقُ أَلْسِنَتُنَا، وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الْخِلَافَةُ مُحَرَّمَةٌ عَلَىٰ آلِ أَبِي سُفْيانَ، وَعَلَىٰ الطُّلَقاءِ وَأَبْناءِ الطُّلَقاءِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مُعاوِيَةَ عَلَىٰ مِنْبَرِي فَابْقُروا بَطْنَهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَآهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَلَىٰ مِنْبَرِ جَدِّي فَلَمْ يَفْعَلوا مَا أُمِرُوا بِهِ.

وتميَّز الخبيث الدنس مروان غيظاً وغضباً، واندفع يصيح: والله لا تفارقني أو تبايع ليزيد صاغراً، فإنَّكم آل أبي تراب، قد أُشربتم بغض آل أبي سفيان، وحقَّ عليكم أن تبغضوهم، وحقَّ عليهم أن يبغضوكم.

فصاح به الإمام الحسين عليه السلام: **وَيْلَكَ يَا مَرْوانُ، إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ رِجْسٌ، وَإِنَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الطَّهارَةِ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١].

ولم يُطقِ مروان الكلام، وقد تحرَّق ألماً وحزناً، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: **أَبْشِرْ يَابْنَ الزَّرْقاءِ بِكُلِّ مَا تَكْرَهُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ يَوْمَ تَقْدِمُ عَلَىٰ رَبِّكَ فَيَسْأَلُكَ جَدِّي عَنْ حَقِّي وَحَقِّ يَزِيدَ.**

وانصرف مروان مسرعاً إلى الوليد فأخبره بمقالة الحسين عليه السلام له[٢].

الأوامر المشدَّدة من دمشق:

وأصدر يزيد أوامره المشدَّدة إلى الوليد بأخذ البيعة من أهل المدينة ثانياً، وقتل الحسين عليه السلام وإرسال رأسه إليه، وهذا نصّ كتابه: «من عبد الله يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة.

أمَّا بعد، فإذا ورد عليك كتابنا هذا، فخذ البيعة ثانياً على أهل المدينة بتوكيد منك عليهم، وذر عبد الله بن الزبير فإنَّه لن يفوت أبداً ما دام حيَّاً، وليكن مع جوابك إليَّ رأس الحسين بن عليّ، فإن فعلت ذلك، فقد جعلت لك أعنَّة الخيل ولك عندي الجائزة العظمى، والحظّ الأوفر، والسلام»[٣].

رفض الوليد:

ورفض الوليد رسمياً ما عهد إليه يزيد من قتل الحسين، وقال: لا والله، لا يراني

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) الفتوح: ٥/١٧.

(٣) الفتوح: ٥/١٨.

الله قاتل الحسين بن عليّ، لا أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ولو أعطاني يزيد الدُّنيا بحذافيرها[١]، وقد جاءته هذه الرسالة بعد مغادرته عليه السلام يثرب إلى مكّة.

وداع الإمام الحسين عليه السلام لقبر جدّه صلى الله عليه وآله وسلم:

وخفَّ الحسين عليه السلام في الليلة الثانية إلى قبر جدّه صلى الله عليه وآله وهو حزين كئيب ليشكو إليه ظلم الظالمين له، ووقف أمام القبر الشريف ـ بعد أن صلّى ركعتين ـ وقد ثارت مشاعره وعواطفه، فاندفع يشكو إلى الله ما ألمَّ به من المحن والخطوب، قائلاً: **اللَّهُمَّ إِنَّ هَذا قَبْرُ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، وَأَنَا ابْنُ بِنْتِ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ حَضَرَنِي مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّ الْمَعْروفَ وَأُنْكِرُ الْمُنْكَرَ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ بِحَقِّ هَذَا الْقَبْرِ وَمَنْ فِيهِ إِلَّا مَا اخْتَرْتَ لِي مَا هُوَ لَكَ رِضاً وَلِرَسُولِكَ رِضاً**[٢].

رؤيا الإمام الحسين عليه السلام لجدّه صلى الله عليه وآله وسلم:

وأخذ الحسين عليه السلام يطيل النظر إلى قبر جدِّه، وقد وثقت نفسه أنّه لا يتمتع برؤيته، وانفجر بالبكاء، وقبل أن يندلع نور الفجر غلبه النوم فرأى جدّه الرسول صلى الله عليه وآله قد أقبل في كتيبة من الملائكة فضمَّ الحسين عليه السلام إلى صدره وقبّل ما بين عينيه، وهو يقول له: **يا بُنَيَّ، كَأَنَّكَ عَنْ قَرِيبٍ أَراكَ مَقْتُولًا مَذْبوحاً بِأَرْضِ كَرْبٍ وَبَلَاءٍ بَيْنَ عِصابَةٍ مِنْ أُمَّتِي، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ عطْشانُ لَا تُسْقىٰ، وَظَمْآنُ لَا تُرْوىٰ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَرْجُونَ شَفاعَتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَمَا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلَاقٍ.**

حَبِيبِي يَا حُسَيْنُ، إِنَّ أَبَاكَ وَأُمَّكَ وَأَخاكَ قَدْ قَدِموا عَلَيَّ، وَهُمْ إِلَيْكَ مُشْتاقونَ، وَإِنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ دَرَجاتٍ لَنْ تَنالَها إِلَّا بِالشَّهادَةِ.

وجعل الإمام الحسين عليه السلام يطيل النظر إلى جدّه صلى الله عليه وآله ويذكر عطفه وحنانه عليه فازداد حزنه، وتمثّلت أمامه المحن الكبرى التي يعانيها من الحكم الأُموي، فهو إمّا أن يبايع فاجر بني أُميّة أو يُقتَل، وأخذ يتوسّل إلى جدّه ويتضرَّع إليه قائلاً: **يَا جَدَّاهُ، لَا حَاجَةَ لِي فِي الرُّجوعِ إِلَىٰ الدُّنْيا، فَخُذْنِي إِلَيْكَ، وَأَدْخِلْنِي مَعَكَ إِلَىٰ مَنْزِلِكَ.**

والتاع النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: **لَا بُدَّ لَكَ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَىٰ الدُّنْيا، حَتَّىٰ تُرْزَقَ الشَّهادَةَ،**

---

(١) الفتوح: ٥/١٨.

(٢) بحار الأنوار: ٤٤/٣٢٨.

وَمَا كَتَبَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا مِنَ الثَّوابِ الْعَظِيم، فَإِنَّكَ وَأَبَاكَ وَأَخَاكَ وَعَمَّكَ وَعَمَّ أَبِيكَ تُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِي زُمْرَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّىٰ تَدْخُلوا الْجَنَّةَ[١].

واستيقظ الحسين عليه السلام وقد ألمَّت به تيارات من الأسىٰ والأحزان، وصار على يقين لا يخامره أدنى شكّ أنَّه لا بدَّ أن يرزق الشهادة، وجمع أهل بيته فقصَّ عليهم رؤياه الحزينة، فطافت بهم الآلام، وأيقنوا بنزول الرزء القاصم. ووصف المؤرخون شدَّة حزنهم بأنَّهم لم يكن في ذلك اليوم لا في شرق الأرض ولا في غربها أشدّ غمّاً من أهل بيت رسول الله ﷺ ولا أكثر باكية وباكٍ منهم[٢].

وداعه لقبر أُمِّه وأخيه عليه السلام:

وتوجَّه الحسين عليه السلام في غلس اللَّيل البهيم إلى قبر أُمِّه وديعة النبيّ ﷺ وبضعته، ووقف أمام قبرها الشريف مليّاً، وهو يلقي عليه نظرات الوداع الأخير، وقد تمثَّلت أمامه عواطفها الفيَّاضة، وشدَّة حنوِّها عليه، وقد ودَّ أن تنشقَّ الأرض لتواريه معها، وانفجر بالبكاء، وودَّع القبر وداعاً حارّاً ثمَّ انصرف إلى قبر أخيه الزكي أبي محمَّد عليه السلام، فأخذ يروِّي ثرى القبر من دموع عينيه، وقد ألمَّت به الآلام والأحزان، ثمَّ رجع إلى منزله وهو غارق بالأسىٰ والشجون[٣].

فزع الهاشميَّات:

ولمَّا عزم الإمام على مغادرة يثرب واللجوء إلى مكَّة اجتمعن السيِّدات من نساء بني عبد المطلب، وقد جاشت عواطفهن بالأسىٰ والحزن، وقد تواترت عليهن الأنباء عن رسول الله ﷺ عن مقتل ولده الحسين، وجعلن ينحن، وتعالت أصواتهنَّ بالبكاء، وكان منظراً مفزعاً.

وانبرى إليهنَّ الإمام الحسين عليه السلاموهو رابط الجأش، فقال لهن: **أَنْشُدُكُنَّ اللَّهَ أَنْ تُبْدِينَ هَذَا الأَمْرَ مَعْصِيَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.**

فذابت نفوسهن، وصحن: لمن نستبقي النياحة والبكاء، فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله ﷺ، وعلي وفاطمة والحسن... جعلنا الله فداك يا حبيب الأبرار.

---

(١) الفتوح: ٥/ ١٩.
(٢) عوالم العلوم: ١٧/ ١٧٧ و١٧٨.
(٣) الفتوح: ٥/ ١٩ و٢٠.

وأقبلت عليه بعض عمّاته، وهي شاحبة اللون، فقالت بنبرات منقطعة بالبكاء: لقد سمعت هاتفاً يقول:

وَإنَّ قَتِيلَ الطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمِ   أَذَلَّ رِقَاباً مِن قُرَيشٍ فَذَلَّتِ

وجعل الإمام الحسين عليه السلام يهدّئها، ويأمرها بالخلود إلى الصبر، كما أمر سائر السيّدات من بني عبد المطلب بذلك(١).

مع أخيه ابن الحنفية رضي الله عنه:

وفزع محمّد بن الحنفية إلى الإمام الحسين عليه السلام، فجاء يتعثّر في خطاه، وهو لا يبصر طريقه من شدّة الحزن والأسىٰ، ولمّا استقر به المجلس أقبل على الإمام الحسين عليه السلام وقال له بنبرات مشفوعة بالإخلاص والحنوّ عليه: يا أخي فدتك نفسي، أنت أحبّ الناس إليّ، وأعزّهم عليّ، ولست والله أُدّخر النصيحة لأحد من الخلق، وليس أحد أحقّ بها منك، فإنَّك كنفسي وروحي، وكبير أهل بيتي، ومن عليه اعتمادي، وطاعته في عنقي؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى قد شرّفك وجعلك من سادات أهل الجنَّة، وإنّي أُريد أن أُشير عليك برأيي فاقبله منّي.

لقد عبّر محمّد بهذا الحديث الرقيق عن عواطفه الفيّاضة المترعة بالولاء والإكبار لأخيه؛ لأنَّه ممّن افترض الله طاعته عليه، وأقبل عليه فقال له محمّد: أشير عليك أن تتنحى ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثمَّ ابعث برسلك إلى الناس، فإن بايعوك حمدت الله على ذلك، وإن اجتمعوا على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولم تذهب مروءتك ولا فضلك، وإنّي أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم، فطائفة معك وأُخرى عليك فيقتتلون، فتكون لأوّل الأسنَّة غرضاً، فإذا خير هذه الأُمَّة كلّها نفساً وأباً وأُمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً(٢).

وبادر الإمام الحسين عليه السلام فقال له: **أَيْنَ أَذْهَبُ؟**

فقال: تنزل مكّة، فإن اطمأنْت بك الدار، وإلاَّ لحقت بالرمال، وشعب الجبال، وخرجت من بلد إلى آخر حتّى تنظر ما يصير إليه أمر الناس، فإنَّك أصوب ما تكون رأياً

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام/ المقرّم: ص١٥٢ ـ ١٥٤.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤/ ٥٥١.

وأحزمه عملاً، حتَّى تستقبل الأُمور استقبالاً، ولا تكون الأُمور أبداً أشكل عليك منها حين تستدبرها استدباراً[١].

وانطلق الإمام وهو غير حافل بالأحداث، فأخبره عن عزمه الجبّار وتصميمه الكامل على رفض البيعة ليزيد قائلاً: **يَا أَخِي، وَاللّٰهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيا مَلْجَأٌ وَلَا مَأْوَى لَمَا بَايَعْتُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ**[٢].

وانفجر ابن الحنفية بالبكاء، فقد أيقن بالرزء القاصم، واستشفَّ ماذا سيجري على أخيه من الرزايا والخطوب، وشكر الإمام نصيحته وقال له: **يَا أَخِي، جَزَاكَ اللّٰهُ خَيْراً لَقَدْ نَصَحْتَ وَأَشَرْتَ بِالصَّوَابِ، وَأَنَا عَازِمٌ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى مَكَّةَ، وَقَدْ تَهَيَّأْتُ لِذَلِكَ أَنَا وَإِخْوَتِي وَبَنُو أَخِي وَشِيعَتِي، وَأَمْرُهُمْ أَمْرِي، وَرَأْيُهُمْ رَأْيِي، وَأَمَّا أَنْتَ فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تُقِيمَ بِالْمَدِينَةِ فَتَكُونَ لِي عَيْناً لَا تُخْفِ عَنِّي شَيْئاً مِنْ أُمُورِهِمْ**.

وصيَّته لابن الحنفية رضي الله عنه:

وعهد الإمام الحسين عليه السلام بوصيته الخالدة إلى أخيه ابن الحنفية، وقد تحدَّث فيها عن أسباب ثورته الكبرى على حكومة يزيد، وقد جاء فيها:

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى أَخِيهِ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: إِنَّ الْحُسَيْنَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها، وَأَنَّ اللّٰهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ. وَأَنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً وَلَا بَطِراً، وَلَا مُفْسِداً وَلَا ظَالِماً، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي ﷺ، أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي وَأَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَمَنْ قَبِلَنِي بِقَبُولِ الْحَقِّ، فَاللّٰهُ أَوْلَى بِالْحَقِّ، وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ أَصْبِرُ حَتَّى يَقْضِيَ اللّٰهُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَوْمِ بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ.

وَهَذِهِ وَصِيَّتِي إِلَيْكَ يَا أَخِي، وَما تَوْفِيقِي إِلّا بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[٣].

---

(١) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٣٥.

(٢) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٢٩.

(٣) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٢٩.

الثورة الحسينيَّة
أسبابها ومخطَّطاتها

ولم يفجِّر الإمام الحسين عليه السلام ثورته الكبرى أشِراً ولا بَطِراً، ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنَّما انطلق ليؤسِّس معالم الإصلاح في البلاد، ويحقِّق العدل الاجتماعي بين الناس، ويقضي على أسباب النكسة الأليمة التي مُني بها المسلمون في ظلِّ الحكم الأُموي الذي ألحق بهم الهزيمة والعار.

لقد انطلق الإمام الحسين عليه السلام ليصحِّح الأوضاع الراهنة في البلاد، ويعيد للأُمَّة ما فقدته من مقوِّماتها وذاتياتها، ويعيد لشرايينها الحياة الكريمة التي تملك بها إرادتها وحريتها في مسيرتها النضالية لقيادة أُمم العالم في ظلِّ حكم متوازن تُذاب فيه الفوارق الاجتماعية، وتُقام الحياة على أُسس صلبة من المحبَّة والإخاء، إنَّه حكم الله خالق الكون وواهب الحياة، لا حكم معاوية الذي قاد حكومته على إماتة وعي الإنسان، وشلّ حركته الفكرية والاجتماعية.

أسباب الثورة:

وأحاطت بالإمام الحسين عليه السلام عدَّة من المسؤوليات الدينيَّة والواجبات الاجتماعيَّة وغيرها، فحفَّزته إلى الثورة، ودفعته إلى التضحية والفداء، وهذه بعضها:

١ ـ المسؤولية الدينيَّة:

أعلن الإسلام المسؤولية الكبرى على كلّ مسلم عمَّا يحدث في بلاد المسلمين من الأحداث والأزمات التي تتنافى مع دينهم، وتتجافى مع مصالحهم.

٢ ـ المسؤولية الاجتماعية:

وكان الإمام الحسين عليه السلام بحكم مركزه الاجتماعي مسؤولاً أمام الأُمَّة عمَّا مُنيت به من الظلم والاضطهاد من قبل الأُمويين، وهو من أولى بحمايتها، وردّ الاعتداء عنها

غيره، فهو سبط رسول الله ﷺ وريحانته، والدِّين دين جدّه، والأُمَّة أُمَّة جدّه، وهو المسؤول بالدرجة الأُولى عن رعايتهما.

٣ ـ إقامة الحجَّة عليه:

وقامت الحجَّة على الإمام لإعلان الجهاد، ومناجزة قوى البغي والإلحاد، فقد تواترت عليه الرسائل والوفود من أقوى حامية عسكرية في الإسلام، وهي الكوفة، فكانت رسائل أهلها تحمِّله المسؤولية أمام الله إن لم يستجب لدعواتهم الملحَّة لإنقاذهم من عسف الأُمويين وبغيهم.

٤ ـ حماية الإسلام:

ومن أوكد الأسباب التي ثار من أجلها حفيد الرسول ﷺ حماية الإسلام من خطر الحكم الأُموي الذي جهد على محو سطوره، وقلع جذوره، وإقبار قِيمه، فقد أعلن يزيد وهو على دست الخلافة الإسلامية الكفر والإلحاد بقوله:

لَعِبَتْ هَاشِمُ بِالْمُلْكِ فَلَا خَبَرٌ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلْ[1]

٥ ـ صيانة الخلافة:

ومن ألمع الأسباب التي ثار من أجلها الإمام الحسين عليه السلام تطهير الخلافة الإسلامية من أرجاس الأُمويين الذين نزوا عليها بغير حقّ، فلم تعد الخلافة في عهدهم كما يريدها الإسلام وسيلة لتحقيق العدل الاجتماعي بين الناس، والقضاء على جميع أسباب التخلف والفساد في الأرض.

٦ ـ تحرير إرادة الأُمَّة:

ولم تملك الأُمَّة في عهد معاوية ويزيد إرادتها واختيارها، فقد كانت جثَّة هامدة لاوعي فيها ولا اختيار، قد كبّلت بقيود ثقيلة سدَّت في وجهها منافذ النُّور والوعي، وحيل بينها وبين إرادتها.

٧ ـ تحرير اقتصاد الأُمَّة:

وانهار اقتصاد الأُمَّة الذي هو شريان حياتها الاجتماعية والفردية، فقد عمد الأُمويون بشكل سافر إلى نهب الخزينة المركزية والاستئثار بالفيء وسائر ثمرات الفتوح

---

(١) الاحتجاج: ٢/ ١٢٢ و١٢٣.

والغنائم، فحازوا الثراء العريض، وتكدّست في بيوتهم الأموال الطائلة التي حاروا في صرفها.

٨ ـ المظالم الاجتماعية:

وانتشرت المظالم الاجتماعية في أنحاء البلاد الإسلامية، فلم يعد قطر من الأقطار إلاّ وهو يعجُّ بالظلم والاضطهاد من جورهم، وكان من مظاهر ذلك الظلم، ما يلي:

أوّلاً: فقد الأمن.

ثانياً: احتقار الأُمَّة.

٩ ـ المظالم الهائلة على الشيعة:

وذهبت نفس الإمام الحسين أسىً على ما عانته الشيعة ـ في عهد معاوية ـ من ضروب المحن والبلاء، فقد أمعن معاوية في ظلمهم وإرهاقهم، وفتك بهم فتكاً ذريعاً، وراح يقول للإمام الحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله، علمت أنَّا قتلنا شيعة أبيك فحنَّطناهم وكفَّناهم وصلَّينا عليهم ودفناهم[(١)]، وقد بذل قصارى جهوده في تصفية الحساب معهم.

١٠ ـ محو ذكر أهل البيت (ع):

ومن ألمع الأسباب التي ثار من أجلها أبو الشُّهداء عليه السلام هو أنَّ الحكم الأُموي قد جهد على محو ذكر أهل البيت عليهم السلام واستئصال مآثرهم ومناقبهم.

١١ ـ تدمير القيم الإسلامية:

وعمد الأُمويون إلى تدمير القيم الإسلامية، فلم يعد لها أيّ ظلّ على واقع الحياة الإسلامية. ومن هذه القيم: الوحدة الإسلامية، المساواة، الحرية...

١٢ ـ انهيار المجتمع:

وانهار المجتمع في عصر الأمويين، وتحلَّل من جميع القيم الإسلاميَّة.

١٣ ـ الدفاع عن حقوقه عليه السلام:

وانبرى الإمام الحسين عليه السلام للجهاد دفاعاً عن حقوقه التي نهبها الأُمويون واغتصبوها، وأهمّها: الخلافة والخمس.

---

(١) الاحتجاج: ٢/٨٨.

١٤ ـ الأمر بالمعروف:

ومن أوكد الأسباب التي ثار من أجلها أبيُّ الضيم عليه السلام إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّهما من مقوِّمات هذا الدِّين، وهو بالدرجة الأُولى مسؤول عنهما، وقد أدلى بذلك في وصيته لأخيه ابن الحنفية التي أعلن فيها عن أسباب خروجه على يزيد، فقال عليه السلام: **وَأَنّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً وَلَا بَطِراً، وَلَا ظَالِماً وَلَا مُفْسِداً، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي، أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ**(١).

١٥ ـ إماتة البدع:

وعمد الحكم الأُموي إلى نشر البدع بين المسلمين، التي لم يقصد منها إلاَّ محق الإسلام، وإلحاق الهزيمة به، وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى ذلك في رسالته التي بعثها لأهل البصرة، يقول عليه السلام: **«فَإِنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ، وَالْبِدْعَةَ قَدْ أُحْيِيَتْ»**(٢).

١٦ ـ العهد النبوي:

واستشفَّ النبيّ صلى الله عليه وآله من وراء الغيب ما يُمنى به الإسلام من الأخطار الهائلة على أيدي الأُمويين، وأنَّه لا يمكن بأيّة حال تجديد رسالته وتخليد مبادئه إلاَّ بتضحية ولده الإمام الحسين عليه السلام فإنَّه هو الذي يكون الدرع الواقي لصيانة الإسلام، فعهد إليه بالتضحية والفداء، وقد أدلى الإمام بذلك حينما عذله المشفقون عليه من الخروج إلى العراق، فقال عليه السلام لهم: **«أَمَرَنِي رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله بِأَمْرٍ وَأَنَا مَاضٍ إِلَيْهِ...»**(٣).

١٧ ـ العزة والكرامة:

ومن أوثق الأسباب التي ثار من أجلها أبو الأحرار هو العزة والكرامة، فقد أراد الأُمويون إرغامه على الذلّ والخنوع، فأبى إلاَّ أن يعيش عزيزاً تحت ظلال السيوف والرماح، وقد أعلن ـ سلام الله عليه ـ ذلك يوم الطَّفّ بقوله: **«أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ، بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَهَيْهاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ، يَأْبَىٰ اللّهُ لَنَا ذَلِكَ وَرَسُولُهُ، وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ، وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ مِنْ أَنْ تُؤْثِرَ طَاعَةَ اللِّئَامِ عَلَىٰ مَصَارِعِ الْكِرَامِ...»**(٤).

---

(١) الفتوح: ٥/٢١.
(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤/٥٦٥.
(٣) مقتل الحسين عليه السلام/الخوارزمي: ١/٢١٨.
(٤) بحار الأنوار: ٤٥/٩.

وقال عليه السلام: «لَا أَرَىٰ الْمَوْتَ إِلَّا سَعادَةً وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَماً»[1].

١٨ ـ غدر الأُمويين وفتكهم:

وأيقن الإمام الحسين عليه السلام أنَّ الأُمويين لا يتركونه، ولا تكفُّ أيديهم عن الغدر والفتك به حتَّى لو سالمهم وبايعهم.

تخطيط الثورة:

ودرس الإمام الحسين عليه السلام أبعاد الثورة بعمق وشمول، وخطط أساليبها بوعي وإيمان، فرأى أن يزجّ بجميع ثقله في المعركة، ويضحِّي بكلّ شيء لإنقاذ الأُمَّة من محنتها في ظلّ ذلك الحكم الأسود الذي تنكَّر لجميع متطلبات الأُمَّة.

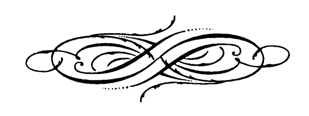
لقد أيقن أبو الشُّهداء عليه السلام أنَّ القضية الإسلامية لا يمكن أن تنتصر إلاَّ بفخامة ما يقدِّمه من التضحيات، فصمَّم بعزم وإيمان على تقديم أروع التضحيات، وهذه بعضها:

أوَّلاً: التضحية بنفسه.

ثانياً: التضحية بأهل بيته.

ثالثاً: التضحية بأمواله.

رابعاً: حمل عقائل النُّبوَّة.



(١) المعجم الكبير: ٣/ ١١٥، المعجم: ص٢٨٤٢.

الإمام الحسين عليه السلام في مكَّة

وبعدما أعلن الإمام الحسين عليه السلام رفضه الكامل لبيعة يزيد اتجه مع أهل بيته إلى مكَّة التي هي حرم الله، وحرم رسوله، عائذاً ببيتها الحرام الذي فرض فيه تعالى الأمن والطمأنينة لجميع العباد.

لقد اتجه إلى هذا البلد الأمين ليكون بمأمن من شرور الأُمويين واعتداءاتهم، ويقول المؤرخون: إنَّه خرج ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب سنة (٦٠هـ)[١]، وقد خيَّم الذعر على المدنيِّين حينما رأوا آل النبيّ ﷺ ينزحون عنهم إلى غير مآب.

وفصل الركب من يثرب، وهو جادّ في مسيرته، وكان الإمام الحسين عليه السلام يتلو قوله تعالى: «﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢]»[٣].

في مكَّة:

وانتهى الإمام الحسين عليه السلام إلى مكَّة ليلة الجمعة لثلاث ليالٍ مضين من شعبان[٤]، وقد حطَّ رحله في دار العبَّاس بن عبد المطلب[٥].

لقد كان بجاذبيته الرُّوحيَّة مهوى القلوب، وندى الأفئدة، وقد حامت حوله النُّفوس تروِّي غليلها من نمير علومه التي هي امتداد من علوم جدّه مفجِّر العلم والنُّور في الأرض.

ولم يترك الإمام الحسين عليه السلام ثانية من وقته تمرُّ دون أن يبثّ الوعي الاجتماعي، ويدعو إلى اليقظة والحذر من السياسة الأُموية الهادفة إلى استعباد المسلمين وإذلالهم.

---

(١) المنتظم: ٥/ ٣٢٤.
(٢) سورة القصص: الآية ٢١.
(٣) وقعة الطَّف: ص٨٦.
(٤) المنتظم: ٥/ ٣٢٤.
(٥) تاريخ مدينة دمشق: ١٤/ ٢٠٧.

فزع السلطة المحلية:

وذعرت السلطة المحلّية في مكّة من قدوم الإمام الحسين عليه السلام إليها، وخافت أن يتّخذها مقرّاً سياسيّاً لدعوته، ومنطلقاً لإعلان الثورة على حكومة دمشق، وقد خفَّ حاكم مكّة عمرو بن سعيد الأشدق وهو مذعور فقابل الإمام الحسين عليه السلام، فقال له: ما أقدمك؟

فقال عليه السلام: **عَائِذاً بِاللَّهِ، وَبِهَذَا الْبَيْتِ**[(١)].

قلق يزيد:

واضطرب يزيد أشدَّ ما يكون الاضطراب حينما وافته الأنباء بامتناع الإمام الحسين عليه السلام عن بيعته وهجرته إلى مكّة، واتخاذها مركزاً لدعوته، وإرسال أهل العراق الوفود والرسائل إلى الدعوة لبيعته.

الإمام الحسين عليه السلام مع ابن عمر وابن عبّاس:

وكان عبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن عمر مقيمين في مكة حينما أقبل الإمام الحسين عليه السلام إليها، وقد خفّا لاستقباله والتشرُّف بخدمته، وكانا قد عزما على مغادرة مكّة، فقال له ابن عمر: أبا عبد الله، رحمك الله، اتقِ الله الذي إليه معادك، فقد عرفت من عداوة أهل هذا البيت ـ يعني بني أُمية ـ لكم، وقد ولي الناس هذا الرجل يزيد بن معاوية، ولستُ آمن أن يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء، فيقتلونك، ويهلك فيك بشر كثير، فإنِّي قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **حُسَيْنٌ مَقْتُولٌ، وَلَئِنْ قَتَلُوهُ وَخَذَلوهُ، وَلَنْ يَنْصُروهُ؛ لَيَخْذُلُهُمُ اللَّهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**، وأنا أُشير عليك أن تدخل في صلح ما دخل فيه الناس، واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل، فلعلَّ الله أن يحكم بينك وبين القوم الظالمين.

فقال له أبيُّ الضيم: **أَنَا أُبايِعُ يَزِيدَ، وَأَدْخُلُ فِي صُلْحِهِ؟!! وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فِيهِ وَفِي أَبِيهِ مَا قَالَ.**

وانبرى ابن عبَّاس فقال له: صدقت أبا عبد الله، قال النبيّ صلى الله عليه وآله في حياته: **مَا لِي وَلِيزِيدَ، لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي يَزِيدَ، وَإِنَّهُ يَقْتُلُ وَلَدِي، وَوَلَدَ ابْنَتِي الْحُسَيْنَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْتُلُ وَلَدِي بَيْنَ ظَهرانيِّ قَوْمٍ فَلَا يَمْنَعُونَهُ إِلَّا خَالَفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ.**

---

(١) تذكرة الخواص: ص٢١٤.

وبكى ابن عباس والحسين عليه السلام، والتفت إليه قائلاً: **يابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَعْلَمُ أَنِّي ابْنُ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟**

فقال: اللَّهمَّ نعم، نعلم ما في الدُّنيا أحد هو ابن بنت رسول الله غيرك، وأنَّ نصرك لفرض على هذه الأُمَّة كفريضة الصلاة والزكاة التي لا يقبل أحدهما دون الأُخرى.

فقال له الإمام الحسين عليه السلام: **يابْنَ عَبَّاسٍ، مَا تَقُولُ فِي قَوْمٍ أَخْرَجوا ابْنَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِن دَارِهِ وَقَرارِهِ وَمَولِدِهِ، وَحَرَمِ رَسُولِهِ، وَمُجَاوَرَةِ قَبْرِهِ وَمَسْجِدِهِ وَمَوْضِعِ مُهاجِرِهِ، فَتَرَكُوهُ خَائِفاً مَرْعُوباً لَا يَسْتَقِرُّ فهيَ قَرَارٍ، وَلَا يَأْوِي فِي مَوْطِنٍ، يُرِيدُونَ فِي ذَلِكَ قَتْلَهُ، وَسَفْكَ دَمِهِ، وَهُوَ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ وَلَا اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيّاً، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.**

وانبرى ابن عبَّاس يؤيد كلامه، ويدعم قوله قائلاً: ما أقول فيهم: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[1] ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[2]، وعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى، وأمَّا أنت يابن رسول الله فإنَّك رأس الفخار برسول الله، فلا تظنّ يابن بنت رسول الله أنَّ الله غافل عمَّا يفعل الظالمون، وأنا أشهد أنَّ مَن رغب عن مجاورتك، وطمع في محاربتك، ومحاربة نبيك محمَّد فما له من خلاق.

وانبرى الإمام الحسين عليه السلام فصدَّق قوله قائلاً: **اللَّهُمَّ نَعَمْ.**

وانطلق ابن عبَّاس يظهر له الاستعداد للقيام بنصرته قائلاً: جعلت فداك يابن بنت رسول الله، كأنَّك تريدني إلى نفسك، وتريد منِّي أن أنصرك، والله الذي لا إلٰه إلاَّ هو أن لو ضربت بين يديك بسيفي هذا بيديَّ حتَّى انخلعا جميعاً من كفِّي لما كنت ممَّن وفىٰ من حقّك عُشر العُشر، وها أنا بين يديك مرني بأمرك.

وقطع ابن عمر كلامه، وأقبل على الحسين فقال له:

مهلاً عمَّا قد عزمت عليه، وارجع من هنا إلى المدينة، وادخل في صلح القوم، ولا تغب عن وطنك، وحرم جدّك رسول الله ﷺ، ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق

(١) سورة التوبة: الآية ٥٤.

(٢) سورة النساء: الآيتان ١٤٢ و١٤٣.

لهم على نفسك حجَّة وسبيلاً، وإن أحببت ألاَّ تبايع فأنت متروك حتَّى ترى رأيك، فإنَّ يزيد بن معاوية عسى ألاَّ يعيش إلاَّ قليلاً فيكفيك الله أمره.

وزجره الإمام، وردَّ عليه قوله قائلاً: **أُفٌ لِهَذَا الْكَلَامِ، أَبَداً مَا دَامَتِ السَّماوَاتُ وَالأَرْضُ، أَسْأَلُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَنَا عِنْدَكَ عَلَىٰ خَطَإٍ مِنْ أَمْرِيَ هَذَا؟ فَإِنْ كُنْتُ عَلَىٰ خَطَإٍ رُدَّنِي فَأَنَا أَخْضَعُ وَأَسْمَعُ وَأُطِيعُ.**

فقال ابن عمر: اللَّهمَّ لا، ولم يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسول الله على خطأ، وليس مثلك من طهارته وصفوته من رسول الله صلى الله عليه وآله على مثل يزيد بن معاوية، ولكن أخشى أن يضرب وجهك هذا الحسن الجميل بالسيوف وترى من هذه الأُمَّة ما لا تحبّ، فارجع معنا إلى المدينة، وإن لم تحب أن تبايع، فلا تبايع أبداً، واقعد في منزلك.

فالتفت إليه الإمام فأخبره عن خبث الأُمويين، وسوء نواياهم نحوه، قائلاً: **هَيْهاتَ يَابْنَ عُمَرَ! إِنَّ الْقَوْمَ لَا يَتْرُكُونِي، وَإِنْ أَصَابُونِي وَإِنْ لَمْ يُصِيبُونِي، فَلَا يَزالونَ حَتَّىٰ أُبايِعَ وَأَنَا كَارِهٌ، أَوْ يَقْتُلُونِي. أَمَا تَعْلَمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ هَوانِ الدُّنْيا عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنَّه أُتِيَ بِرأْسِ يَحْيىٰ بْنِ زَكَرِيَّا إِلَىٰ بَغِيٍّ مِنْ بَغايا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالرَّأْسُ يَنْطِقُ بِالْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؟! أَمَا تَعْلَمْ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يَقْتُلونَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ سَبْعِينَ نَبِيّاً ثُمَّ يَجْلِسُونَ فِي أَسْوَاقِهِمْ يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ كُلُّهُمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَصْنَعُوا شَيْئاً، فَلَمْ يُعَجِّلِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ..**[(١)].

وعلى أيّة حال فقد كثرت كتب أهل الكوفة إلى الإمام الحسين عليه السلام، وقد وقَّع فيها الأشراف وقرّاء المصر، وهي تمثِّل تعطشهم لقدومه؛ ليكون منقذاً لهم من طغمة الحكم الأُموي، ولكن بمزيد الأسف فقد انطوت صحيفة ذلك الأمل، وانقلب الوضع وتغيَّرت الحالة، وإذا بالكوفة تنتظر الحسين عليه السلام لتسقي سيوفها من دمه، وتطعم نبالها من لحمه، تريد أن تحتضن جسد الحسين عليه السلام لتوزِّعه السيوف، وتطعنه الرماح، وتسحقه الخيول بحوافرها.

الكوفة تنتظر الحسين عليه السلام لتشب عليه وثبة الأسد، وتنشب أظفارها بذلك الجسد الطاهر. الكوفة تنتظر الحسين عليه السلام لتسبي عياله بدل أن تحميهم، وتروِّع أطفاله بدل أن تؤويهم[(٢)].

---

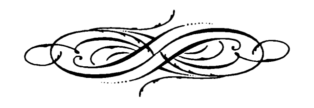
(١) الفتوح: ٥/ ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) مع الحسين في نهضته: ص١٥٧.

ومنح الإمام الحسين عليه السلام هذه الكتب مزيداً من العناية، فقد كان أصحاب الرسائل رجالاً بارزين من القبائل وخاصة اليمانية، وقد كانت أكبر القبائل عدداً وأهمية في الكوفة[١].

وهكذا شاءت المقادير، ولا رادّ لأمر الله على نكث القوم لبيعة الإمام الحسين عليه السلام وإجماعهم على حربه.

ويقول المؤرخون: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام بعدما وافته هذه الرسائل عزم على أن يلبِّي نداءات أهل الكوفة ويوفد إليهم ممثله العظيم مسلم بن عقيل عليه السلام.



(١) الشيعة والخوارج: ص١٦٠.

إيفاد مسلم إلى العراق

وتتابعت كتب أهل الكوفة ـ كالسيل ـ إلى الإمام الحسين عليه السلام، وهي تحثّه على المسير والقدوم إليهم لإنقاذهم من ظلم الأُمويين وعنفهم، وكانت بعض تلك الرسائل تحمِّله المسؤولية أمام الله والأُمَّة إن تأخَّر عن إجابتهم.

ورأى الإمام الحسين عليه السلام قبل كلّ شيء أن يختار للقياهم سفيراً له يعرِّفه باتجاهاتهم، وصدق نياتهم، فإن رأى منهم نيَّة صادقة، وعزيمة مصممة فيأخذ البيعة منهم، ثمَّ يتوجَّه إليهم بعد ذلك، وقد اختار لسفارته ثقته وكبير أهل بيته، والمبرّز بالفضل فيهم مسلم بن عقيل، وهو من أفذاذ التاريخ، ومن أمهر الساسة، وأكثرهم قابلية على مواجهة الظروف، والصمود أمام الأحداث. وعرض عليه الإمام القيام بهذه المهمَّة فاستجاب له عن رضاً ورغبة، وزوَّده برسالة رويت بصور متعددة، وهي:

الأولى: رواها أبو حنيفة الدينوري، وهذا نصّها:

بِسْمِ اللَّهُ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْحَسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَىٰ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَشِيعَتِهِ بِالْكُوفَةِ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَتْنِي كُتُبُكُمْ، وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ لِقُدُومِي عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي بَاعِثٌ إِلَيْكُمْ بِأَخِي وَابْنِ عَمِّي، وَثِقَتِي مِنْ أَهْلِي مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ لِيَعْلَمَ لِي كُنْهَ أَمْرِكُمْ، وَيَكْتُبَ إِلَيَّ بِمَا يَتَبَيَّنُ لَهُ مِنِ اجْتِماعِكُمْ.

فَإِنْ كَانَ أَمْرُكُمْ عَلَىٰ مَا أَتَتْنِي بِهِ كُتُبُكُمْ، وَأَخْبَرَتْنِي بِهِ رُسُلُكُمْ أَسْرَعْتُ الْقُدُومَ إِلَيْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالسَّلَامُ(١).

الثانية: رواها صفي الدِّين، وقد جاء فيها بعد البسملة:

(١) الأخبار الطوال: ص٢٣٠.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ وَصَلَتْنِي كُتُبُكُمْ، وَفَهِمْتُ مَا اقْتَصَتْهُ آرَاؤُكُمْ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ ثِقَتِي وَابْنَ عَمِّي مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ، وَسَأَقْدُمُ عَلَيْكُمْ وَشِيكاً فِي أَثَرِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ[1].

وهذه الرواية شاذة؛ إذ لم يذكر فيها مهمّة مسلم في إيفاده إليهم من أخذ البيعة له، وغير ذلك ممّا هو من صميم الموضوع في إرسال مسلم.

الثالثة: رواها الطبري، وقد جاء فيها بعد البسملة:

مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَىٰ الْمَلَإِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ هَانِئاً وَسَعِيداً[2] قَدِما عَلَيَّ بِكُتُبِكُمْ، وَكَانَا آخِرَ مَنْ قَدِمَ عَلَيَّ مِنْ رُسُلِكُمْ، وَقَدْ فَهِمْتُ كُلَّ الَّذِي اقْتَصَصْتُمْ وَذَكَرْتُمْ، وَمَقَالَةُ جُلِّكُم: إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا إِمَامٌ فَأَقْبِل لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَنَا بِكَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ.

وَقَدْ بَعَثْتُ لَكُمْ أَخِي وَابْنَ عَمِّي، وَثِقَتِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، وَأَمَرْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِحَالِكُمْ وَأَمْرِكُمْ وَرَأْيِكُمْ، فَإِنْ كَتَبَ إِلَيَّ أَنَّهُ قَدِ اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ وَذَوِي الْفَضْلِ وَالْحِجا مِنْكُمْ عَلَىٰ مِثْلِ مَا قَدِمَتْ عَلَيَّ بِهِ رُسُلُكُمْ، وَقَرَأْتُ فِي كُتُبِكُمْ؛ أَقْدِمْ عَلَيْكُمْ وَشِيكاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَعَمْرِي مَا الإِمَامُ إِلَّا الْعَامِلُ بِالْكِتَابِ وَالآخِذُ بِالْقِسْطِ وَالدَّائِنُ بِالْحَقِّ، وَالْحَابِسُ نَفْسَهُ عَلَىٰ ذَاتِ اللَّهِ، وَالسَّلَامُ[3].

وحفلت هذه الرسالة ـ حسب نصّ الطبري ـ بالأمور التالية:

الأوّل: توثيق مسلم والتدليل على سمو مكانته، فهو ثقة الحسين عليه السلام.

الثاني: تحديد صلاحية مسلم باستكشاف الأوضاع الراهنة، ومعرفة التيارات السياسية، ومدى صدق القوم في دعواهم، ومن الطبيعي أنّه لا تناط معرفة هذه الأمور الحسّاسة إلا بمن كانت له المعرفة التامّة بشؤون المجتمع وأحوال الناس.

الثالث: إنّه أوقف قدومه عليهم بتعريف مسلم له بإجماع الجماهير ورجال الفكر على بيعته، فلا يقدم عليهم حتّى يعرِّفه سفيره بذلك.

الرابع: إنّه تحدّث عمّا يجب أن يتّصف به الإمام، والقائد لمسيرة الأُمّة من الصفات، وهي: العمل بكتاب الله، الأخذ بالقسط، الإدانة بالحقّ، وحبس النفس على ذات الله.

---

(١) وسيلة المآل: ص١٨٦، من مصورات مكتبة السيِّد الحكيم قدِّس سرُّه.

(٢) هما: هانىء بن هانىء السبيعي، وسعيد بن عبد الله الحنفي.

(٣) الإرشاد/المفيد: ٢/٣٩.

رسالة مسلم للإمام الحسين عليه السلام:

ويقول المؤرخون: إنَّ مسلماً تخوَّف من سفره وتطيَّر بعد أن أصابه من الجهد وموت الدليلين، فرفع للإمام الحسين عليه السلام رسالة يرجو فيها الاستقالة من سفارته، وهذا نصّها:

«أمَّا بعد، فإنِّي أقبلت من المدينة مع دليلين، فجازا[1] عن الطريق فضلَّا واشتد عليهما العطش فلم يلبثا أن ماتا، وأقبلنا حتَّى انتهينا إلى الماء فلم ننجُ إلاَّ بحشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبت، وقد تطيَّرت من توجُّهي هذا فإن رأيت أعفيتني منه، وبعثت غيري، والسلام».

جواب الإمام الحسين عليه السلام:

وكتب الإمام الحسين عليه السلام جواباً لرسالة مسلم ندَّد فيه بموقفه، واتهمه بالجبن، وهذا نصّه: **أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ خَشِيتُ أَلَّا يَكُونَ حَمَلَكَ عَلَىٰ الْكِتَابِ إِلَيَّ فِي الاسْتِعْفَاءِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي وَجَّهْتُكَ لَهُ إِلَّا الْجُبْنُ، فَامْضِ لِوَجْهِكَ الَّذِي وَجَّهْتُكَ فِيهِ، وَالسَّلَامُ**[2].

في بيت المختار:

وسار مسلم يطوي البيداء حتَّى دخل الكوفة فاختار النزول في بيت المختار الثقفي[3] وهو من أشهر أعلام الشيعة وأحد سيوفهم، ومن أحبّ الناس وأنصحهم للإمام الحسين عليه السلام.

ابتهاج الكوفة:

وعمَّت الأفراح بمقدم مسلم جميع الأوساط الشيعية في الكوفة، وقد وجد منهم مسلم ترحيباً حارَّاً، وتأييداً شاملاً، وكان يقرأ عليهم رسالة الحسين عليه السلام وهم يبكون، ويبدون التعطش لقدومه، والتفاني في نصرته.

وانثالت الشيعة على مسلم تبايعه للإمام الحسين عليه السلام، وكن صيغة البيعة الدعوة إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين،

---

(١) جازا عن الطريق: أي تركاه خلفهما، لسان العرب: ٢/٤١٦، جوز.
(٢) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٤٠.
(٣) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٤١.

وقسمة الغنائم بين المسلمين بالسوية، وردِّ المظالم إلى أهلها، ونصرة أهل البيت ﷺ، والمسالمة لمن سالموا، والمحاربة لمن حاربوا.

رسالة مسلم عليه السلام للإمام الحسين عليه السلام:

وازداد مسلم إيماناً ووثوقاً بنجاح الدعوة حينما بايعه ذلك العدد الهائل من أهل الكوفة، فكتب للإمام الحسين عليه السلام رسالة يستحثّه فيها على القدوم إليهم، وكان قد كتبها قبل شهادته ببضع وعشرين ليلة[(١)]، وهذا نصّها:

«أمَّا بعد، فإنَّ الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً[(٢)]، فعجِّل حين يأتيك كتابي، فإنَّ الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوىً»[(٣)].

فزع يزيد:

وفزع يزيد حينما توافدت عليه رسائل عملائه في الكوفة بمبايعة أهلها للحسين عليه السلام، فراودته الهواجس، وظلَّ ينفق ليله ساهراً يطيل التفكير في الأمر، فهو يعلم أنَّ العراق مركز القوَّة في العالم الإسلامي، وهو يبغضه ويحقد على أبيه، فقد أصبح موتوراً منهم لما صبّوه عليه من الظلم والجور، وأنَّ كراهية أهل العراق ليزيد لا تقل عن كراهيتهم لأبيه، كما أنَّه على يقين أنَّ الأغلبية الساحقة في العالم الإسلامي تتعطش لحكم الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنَّه الممثل الشرعي لجدّه وأبيه، ولا يرضون بغيره بديلاً.

استشارته لسرجون الرومي:

وأحاطت الهواجس بيزيد، وشعر بالخطر الذي يهدِّد ملكه فاستدعى سرجون الرومي، وكان مستودع أسرار أبيه، ومستشاراً سياسياً له، كما كان من أدهى الناس، فعرض عليه الأمر، وقال له: ما رأيك، إنَّ حسيناً قد توجَّه إلى الكوفة، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين، وقد بلغني عن النعمان ضعف وقول سيِّيء، فما ترى مَن استعمل على الكوفة؟

---

(١) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٧٨.
(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٥٨٠.
(٣) تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٥٨٠.

وتأمَّل سرجون، وأخذ يطيل التفكير، فقال له: أرأيت أنَّ معاوية لو نشر أكنت آخذاً رأيه؟

فقال يزيد: نعم.

فأخرج سرجون عهد معاوية لعبيد الله بن زياد على الكوفة، وقال: هذا رأي معاوية وقد مات، وقد أمر بهذا الكتاب[١].

سفر الطاغية إلى الكوفة:

وسار الرجس الخبيث من البصرة متّجهاً إلى الكوفة ليقترف أعظم موبقة لم يقترفها شقي غيره.

وعلى أيّة حال فقد أخذ ابن زياد يجدّ في السير لا يلوي على شيء قد واصل السير إلى الكوفة مخافة أن يسبقه الحسين عليه السلام إليها.

في قصر الإمارة:

وأسرع الخبيث نحو قصر الإمارة وقد علاه الفزع، وساءه أشدّ ما يكون الاستياء من تباشير الناس وفرحهم بقدوم الإمام الحسين عليه السلام، ولما انتهى إلى باب القصر وجده مغلقاً، والنعمان بن بشير مشرف من أعلى القصر، وكان قد توهَّم أنَّ القادم هو الحسين عليه السلام؛ لأنَّ أصوات الناس قد تعالت بالترحيب به والهتاف بحياته، فانبرى يخاطبه: ما أنا بمؤدٍّ إليك أمانتي يابن رسول الله، ومالي في قتالك من إرب.

ولمس ابن مرجانة في كلام النعمان الضعف والانهيار، فصاح به بنبرات تقطر غيظاً، افتح لا فتحتَ، فقد طال ليلك[٢].

نشر الإرهاب:

وعمد ابن زياد إلى نشر الإرهاب، وإذاعة الخوف، ويقول بعض المؤرخين: إنَّه لما أصبح ابن زياد بعد قدومه إلى الكوفة صال وجال، وأرعد وأبرق، وأمسك جماعة من أهل الكوفة فقتلهم في الساعة[٣]، وقد عمد إلى ذلك لإماتة الأعصاب، وصرف الناس عن الثورة.

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣/٢٦٨.
(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٤/٥٦٧.
(٣) الفصول المهمَّة: ص١٨٥.

تحول مسلم إلى دار هانىء:

واضطر مسلم إلى تغيير مقرَّه، وإحاطة نشاطه السياسي بكثير من السِّرّ والكتمان، فقد شعر بالخطر الذي داهمه حينما قدم الطاغية إلى الكوفة، وقد أجمع أمره على مغادرة دار المختار؛ لأنَّه لم تكن عنده قوَّة تحميه، ولم يكن يأوي إلى ركن شديد، فالتجأ إلى دار هانىء بن عروة فهو سيِّد المصر وزعيم مراد، وعنده من القوَّة ما يضمن حماية الثورة والتغلُّب على الأحداث.

وعلى أيّة حال فقد استقرَّ مسلم في دار هانىء واتخذها مقرَّاً للثورة، وقد احتفى به هانىء، ودعا القبائل لمبايعته، فبايعه في منزله ثمانية عشر ألفاً[١].

١ ـ التجسُّس على مسلم:

وأوَّل بادرة سلكها ابن زياد هي التجسُّس على مسلم، ومعرفة جميع نشاطاته السياسية والوقوف على نقاط القوَّة والضعف.

وقد اختار للقيام بهذه المهمَّة مولاه معقلاً، وكان من صنائعه، وتربَّى في كنفه، ودرس طباعه، ووثق بإخلاصه.

كان معقل فيما يقول المؤرخون: أوَّل من يدخل على مسلم، وآخر من يخرج منه، وجميع البوادر والأحداث التي تصدر ينقلها بتحفظ في المساء إلى ابن زياد[٢]. حتَّى وقف على جميع أسرار الثورة.

٢ ـ رشوة الزعماء والوجوه:

ووقف ابن زياد على نبض الكوفة، وعرف كيف يستدرج أهلها فبادر إلى إرشاء الوجوه والزعماء فبذل لهم المال بسخاء فاستمال ودّهم، واستولى على قلوبهم.

٣ ـ الإحجام عن كبس دار هانىء:

وعلم الطاغية أنَّ هانئاً هو العضو البارز في الثورة، فقد أطلعه الجاسوس الخطير معقل على الدور الفعَّال الذي يقوم به هانىء في دعم الثورة، ومساندتها بجميع قدراته، وعرَّفه أنَّ داره أصبحت المركز العام للشيعة، والمقر الرئيسي لسفير الحسين عليه السلام مسلم، فلماذا لم يقم بكبسها وتطويقها بالجيش ليقضي بذلك على الثورة؟ وإنَّما أحجم عن ذلك

---

(١) الأخبار الطوال: ص٢٣٥.
(٢) الأخبار الطوال: ص٢٣٦.

لعجزه عسكرياً، وعدم مقدرته على فتح باب الحرب، فإنَّ دار هانىء مع الدور التي كانت محيطة بها كانت تضم أربعة آلاف مقاتل ممَّن بايعوا مسلماً بالإضافة إلى أتباع هانىء ومكانته المرموقة في المصر، فلهذا لم يستطع ابن زياد من القيام بذلك نظراً للمضاعفات السيِّئة.

اعتقال هانىء رضي الله عنه:

وأسرع الوفد إلى هانىء عشية فوجدوه جالساً على باب داره فسلَّموا عليه، وقالوا له: ما يمنعك من لقاء الأمير فإنَّه قد ذكرك؟ وقال: لو أعلم أنَّه شاكٍ لعدته.

فقال لهم: الشكوى تمنعني.

وأبطلوا هذا الزعم وقالوا له: إنَّه قد بلغه أنَّك تجلس كلّ عشية على باب دارك، وقد استبطأك، والإبطاء والجفاء لا يحتمله السلطان، أقسمنا عليك لما ركبت معنا. وأخذوا يلحّون عليه في زيارته، فاستجاب لهم وهو لا يعلم ما أضمرته له الأقدار.

وعلى أيّة حال فقد كان لاعتقال هانىء الأثر الكبير في ذيوع الفزع والخوف في نفوس الكوفيِّين ممَّا أدَّىٰ إلى تفرُّق الناس عن مسلم وإخفاق الثورة.

ثورة مسلم:

ولمَّا علم مسلم بما جرى على هانىء بادر لإعلان الثورة على ابن زياد لعلمه بأنَّه سيلقى نفس المصير الذي لاقاه هانىء.

اتجه مسلم بجيشه نحو قصر الإمارة فأحاطوا به(١)، وكان ابن زياد قد خرج من القصر ليخطب الناس على أثر اعتقاله لهانىء، فجاء إلى المسجد الأعظم فاعتلى أعواد المنبر، ثمَّ التفت إلى أصحابه فرآهم عن يمينه وشماله وفي أيديهم الأعمدة وقد شهروا سيوفهم للحفاظ عليه.

فهدأ روعه وخاطب أهل الكوفة قائلاً: أمَّا بعد، يا أهل الكوفة فاعتصموا بطاعة الله ورسوله، وطاعة أئمَّتكم ولا تختلفوا، ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلّوا، وتندموا وتقهروا، فلا يجعلن أحد على نفسه سبيلاً، وقد أُعذر من أنذر(٢).

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٧١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٥٧٤.

وما أتم الطاغية خطابه حتَّى سمع الضجَّة وأصوات الناس قد علت، فسأل عن ذلك فقيل له: الحذر، الحذر، هذا مسلم بن عقيل قد أقبل في جميع من بايعه[١].

واختطف الرعب لونه، وسرت الرعدة بجميع أوصاله فأسرع الجبان نحو القصر وهو يلهث من شدَّة الخوف، فدخل القصر، وأغلق عليه أبوابه[٢]، وامتلأ المسجد والسوق من أصحاب مسلم، وضاقت الدُّنيا على ابن زياد، وأيقن بالهلاك، إذ لم تكن عنده قوَّة تحميه سوى ثلاثين رجلاً من الشرط، وعشرين رجلاً من الأشراف الذين هم من عملائه، وقد تزايد جيش مسلم حتَّى بلغ فيما يقول بعض المؤرخين ثمانية عشر ألفاً[٣]، وقد نشروا الأعلام وشهروا السيوف، وقد ارتفعت أصواتهم بقذف ابن زياد وشتمه، وجرى بين أتباع ابن زياد وبين جيش مسلم قتال شديد كما نصَّ على ذلك بعض المؤرخين.

وأمعن الطاغية في أقرب الوسائل التي تمكنه من إنقاذ حكومته من الثورة فرأى أنَّ لا طريق له سوى حرب الأعصاب ودعايات الإرهاب فسلك ذلك.

وأوعز الطاغية إلى جماعة من وجوه أهل الكوفة أن يبادروا ببث الذعر ونشر الخوف بين الناس.

وانطلق هؤلاء إلى صفوف جيش مسلم فأخذوا يشيعون الخوف، ويبثّون الأراجيف فيهم، ويظهرون لهم الإخلاص والولاء خوفاً عليهم من جيوش أهل الشام.

وقام بقية عملاء السلطة بنشر الإرهاب وإذاعة الذعر، وكان من جملة ما أذاعوه بين الناس: «يا أهل الكوفة، اتقوا الله ولا تستعجلوا الفتنة، ولا تشقّوا عصا هذه الأُمَّة، ولا توردوا على أنفسكم خيول الشام، فقد ذقتموها، وجربتم شوكتها».

أوبئة الفزع والخوف:

وسرت أوبئة الخوف والفزع في نفوس الكوفيِّين، وانهارت أعصابهم وكأنَّ الموت قد خيَّم عليهم، فجعل بعضهم يقول لبعض: ما نصنع بتعجيل الفتنة، وغداً تأتينا جموع أهل الشام، ينبغي لنا أن نقيم في منازلنا، وندع هؤلاء القوم حتَّى يصلح الله ذات بينهم[٤].

---

(١) الفتوح: ٥/ ٤٩.
(٢) أنساب الأشراف: ٢/ ٣٣٨.
(٣) أنساب الأشراف: ٢/ ٣٣٨.
(٤) الفتوح: ٥/ ٥٠.

وكانت المرأة تأتي ابنها أوأخاها أو زوجها، وهي مصفرَّة الوجه من الخوف فتتوسل إليه قائلة: الناس يكفونك[١]، وكان الرجل يأتي إلى ولده وأخيه فيملأ قلبه رعباً وخوفاً ويقول له: ما لنا والدخول بين السلاطين.

هزيمة الجيش:

ومُني جيش مسلم بهزيمة مخزية لم يحدث لها نظير في جميع فترات التاريخ، فقد هزمته الدعايات المضللة من دون أن تكون في قباله أيّة قوَّة عسكرية.

ولم يمضِ قليل من الوقت حتَّى انهزم معظمهم، وقد صلَّى بجماعة منهم صلاة العشاء في الجامع الأعظم فكانوا يفرّون في أثناء الصلاة، وما أنهى ابن عقيل صلاته حتَّى انهزموا بأجمعهم بما فيهم قادة جيشه، ولم يجد أحداً يدلّه على الطريق.

خطبة ابن زياد:

ولمَّا أيقن الطاغية بفشل ثورة مسلم، وتفلل قواته المسلحة أمر بجمع الناس في الجامع، فتوافدت الجماهير، وقد خيَّم عليها الذعر والخوف فجاء الطاغية، وهو يرعد ويبرق ويتهدَّد ويتوعد فصعد المنبر، فقال: «أيُّها الناس، إنَّ مسلم بن عقيل أتى هذه البلاد، وأظهر العناد، وشقَّ العصا، وقد برئت الذمة من رجل أصبناه في داره، ومن جاء به فله ديَّته، اتقوا الله عباد الله، والزموا طاعتكم وبيعتكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، ومَن أتاني بمسلم بن عقيل فله عشرة آلاف درهم، والمنزلة الرفيعة من يزيد بن معاوية، وله في كل يوم حاجة مقضية»[٢].

لقد تمكَّن ابن مرجانة من الظفر بسليل هاشم ليجعله قرباناً إلى أُمويته اللصيقة التي نحر في سبيلها هو وأبوه جميع القيم الإنسانية، واستباحا كلّ ما حرَّمه الله من إثم وفساد.

مع ابن زياد:

وكان من أعظم ما رزىء به مسلم أن يدخل أسيراً على الدعي ابن مرجانة، فقد ودَّ أنَّ الأرض وارته ولا يمثل أمامه، وقد شاءت المقادير أن يدخل عليه، وقد دخل تحفُّ

---

(١) الإرشاد/المفيد: ٢/ ٥٤.
(٢) الفتوح: ٥/ ٥٢.

به الشَرطَة، فلم يحفل البطل بابن زياد ولم يُعنَ به، فسلَّم على الناس ولم يسلِّم عليه، فأنكر عليه الحرسي وهو من صعاليك الكوفة قائلاً: هلَّا تسلِّم على الأمير؟

فصاح به مسلم محتقراً له ولأميره: اسكت لا أُمّ لك، ما لك والكلام، والله ليس لي بأمير فأسلِّم عليه.

وكيف يكون ابن مرجانة أميراً على مسلم سيِّد الأحرار، وأحد المستشهدين في سبيل الكرامة الإنسانية؟! إنَّما هو أمير على أُولئك الممسوخين الذين لم يألفوا إلاَّ الخنوع والذُّلّ والعار.

والتاع الطاغية من احتقار مسلم له، وتبدَّد جبروته، فصاح به: لا عليك سلَّمت أم لم تسلِّم فإنَّك مقتول.

ولم يملك الطاغية سوى سفك الدم الحرام، وحسب أنَّ ذلك يخيف مسلماً أو يوجب انهياره وخضوعه له، فانبرى إليه بطل عدنان قائلاً بكلّ ثقة واعتزاز بالنفس: إن قتلتني فقد قتل من هو شرّ منك من كان خيراً منِّي.

ولذعه هذا الكلام الصارم، وأطاح بغلوائه، فقد ألحقه مسلم بالجلَّادين والسفَّاكين من قتلة الأحرار والمصلحين، واندفع الطاغية يصيح بمسلم: يا شاقّ، يا عاقّ، خرجت على إمام زمانك، وشققت عصا المسلمين، وألقحت الفتنة.

أيّ إمام خرج عليه مسلم وأيّة عصاً للمسلمين شقَّها، وأيّة فتنة ألقحها؟ إنَّما خرج على قرين الفهود والقرود، لقد خرج لينقذ الأُمَّة من محنتها أيام ذلك الحكم الأسود.

وانبرى مسلم يردّ عليه قائلاً: والله ما كان معاوية خليفة بإجماع الأُمَّة، بل تغلَّب على وصيّ النبيّ ﷺ بالحيلة، وأخذ منه الخلافة بالغصب، وكذلك ابنه يزيد، وأمَّا الفتنة فإنَّما ألقحتها أنت وأبوك زياد ابن علاج من بني ثقيف.

وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شرّ بريته، فوالله ما خالفت ولا كفرت ولا بدَّلت، وإنَّما أنا في طاعة أمير المؤمنين الحسين بن عليّ عليه السلام ونحن أولى بالخلافة من معاوية وابنه وآل زياد[١].

لقد ترك الطاغية شفاعة ابن سعد في جثَّة مسلم، فقد عزم على التمثيل بها للتشفِّي منه، وليتخذ من ذلك وسيلة لإرهاب الناس وخوفهم.

---

(١) الفتوح: ٥/ ٥٥ و٥٦.

لقد ظلَّ مسلم حتَّى الرمق الأخير من حياته عالي الهمَّة، وجابه الأخطار ببأس شديد، فكان في دفاعه ومنطقه مع ابن مرجانة مثالاً للبطولات النادرة.

وقد انطوت بقتل مسلم بن عقيل صفحة مشرقة من أروع صفحات العقيدة والجهاد في الإسلام، فقد استشهد في سبيل العدالة الاجتماعية، ومن أجل إنقاذ الأُمَّة وتحريرها من الظلم والجور، وهو أوَّل شهيد من الأُسرة النبوية يقتل علناً أمام المسلمين، ولم يقوموا بحمايته والذبّ عنه.

تنفيذ الإعدام في هانىء رضي الله عنه:

وأمر الطاغية بإعدام الزعيم الكبير هانىء بن عروة، وإلحاقه بمسلم مبالغة في إذلال زعماء الكوفة وإذاعة للذعر والخوف بين الناس.

وبعدما أطاح الطاغية بثورة مسلم قبض على العراق بيد من حديد، وأعلن الأحكام العرفية في جميع أنحاء العراق، واعتمد في تنفيذ خططه على القسوة البالغة، فأشاع من الظلم والجور ما لا يوصف، فكان اسمه موجباً لإثارة الفزع والخوف في نفوس العراقيِّين كما كان اسم أبيه زياد من قبل.

مسلم بن عقيل:

أمَّا مسلم بن عقيل فكان من أعلام التقوى في الإسلام، وكان متحرّجاً في دينه أشدّ ما يكون التحرُّج، فلم يسلك أيّ منعطف في طريقه، ولا قرّ أيّة وسيلة من وسائل المكر والخداع، وإنتوقف عليها النصر السياسي شأنه في ذلك شأن عمّه أمير المؤمنين عليه السلام، بالإضافة إلى ذلك إنَّه لم يبعث إلى الكوفة كوالٍ مطلق حتَّى يتصرَّف حسبما يراه، وإنَّما كانت مهمته محدودة وهي أخذ البيعة للإمام الحسين عليه السلام، والاستطلاع على حقيقة الكوفيِّين فإن رآهم مجتمعين بعث إليه بالقدوم إليهم، ولم يؤمر بغير ذلك، وقد أطلنا الحديث في هذه الجهة في البحوث السابقة.

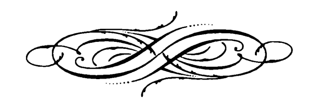
وبهذا ينتهي بنا الحديث عن إخفاق ثورة مسلم التي كانت فاتحة لفاجعة كربلاء، ومصدراً لآلامها العميقة.

لقد صنع الإمام الحسين عليه السلام يوم الطَّفّ الكرامة الإنسانية التي يسمو بها كلّ إنسان، وحسبه أنَّه وحده في تاريخ هذه الدُّنيا قد قدَّم أنبل التضحيات في سبيل ما يرتأي ضميره من إشاعة الحقّ والعدل بين الناس.

لقد كانت صور الفداء التي بذلها الإمام الحسين عليه السلام لإقامة الحياة الكريمة في

الإسلام مذهلة ومدهشة، فقد اهتزَّ من حولها الضمير العالمي، وتركت أثراً عميقاً للحزن في دخائل القلوب، وأثَّرت حتى في نفوس أقلّ الناس إحساساً.

والشيء المهم الذي تميَّزت به قضية الإمام الحسين عليه السلام هو الصمود الرائع أمام الأحداث المفزعة، فقد تسلَّح عليه السلام بصبر لا حدّ لأبعاده، فكان ـ فيما يقول المؤرخون ـ يستقبل المحن الشاقَّة التي تواكبت عليه بالرضا والتسليم لأمر الله من دون أن تبدو عليه أيّة بادرة من بوادر الضعف والانهيار، فكان كلَّما رزىء بكارثة تعصف بالصبر تنفرج شفتاه بكلمة الإيمان العميق الذي صار من أبرز ذاتياته، قائلاً: **«هَوَّنَ ما نَزَلَ بِي أَنَّهُ بِعَيْنِ اللَّهِ...»**[1].



(١) اللهوف: ص٦٩.

اختيار الهجرة إلى العراق

واختار الإمام الحسين عليه السلام الهجرة إلى العراق دون غيره من أقاليم العالم الإسلامي، وهو على علم بما مني به أهل العراق من التذبذب والاضطراب في سلوكهم، ولعلَّ سبب اختياره له دون غيره يعود لما يلي:

إنَّ العراق في ذلك العصر كان قلب الدولة الإسلاميَّة وموطن المال والرجال، وقد أُنشئت فيه الكوفة حامية الجيوش الإسلامية.

ومضافاً إلى أنَّ العراق كان قاعدة حربية، وقلب الدولة الإسلامية النابض.

إنَّ الكوفة كانت البلد الوحيد في الأقطار الإسلامية التي تفقه قيم الأحداث ومغزى التيارات السياسية.

وعلى أيّة حال فقد اختار الإمام الحسين عليه السلام الهجرة إلى الكوفة باعتبارها مركز القوَّة في العالم الإسلامي.

والكوفة كانت مهداً للشيعة وموطناً من مواطن العلويين، وقد أعلنت إخلاصها لأهل البيت عليهم السلام في كثير من المواقف.

وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يثني عليهم ثناءً عاطراً فيرى أنَّهم أنصاره وأعوانه المخلصون له، يقول لهم: **«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَنْتُمْ إِخْوَانِي وَأَنْصَارِي وَأَعْوَانِي عَلَىٰ الْحَقِّ، وَمُجِيبِي إِلَىٰ جِهَادِ الْمُحِلِّينَ، بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدبِرَ، وَأَرْجُو إِتْمَامَ طَاعَةِ الْمُقْبِلِ»**[(١)].

ويقول عليه السلام: **«الْكُوفَةُ كَنْزُ الإِيْمَانِ، وَجُمْجُمَةُ الإِسْلَامِ، وَسَيْفُ اللَّهِ وَرُمْحُهُ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، وَأَيْمُ اللَّهِ، لَيُنْصَرَنَّ اللَّهُ بِأَهْلِهَا فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، كَمَا انْتَصَرَ بِالْحِجَازِ»**[(٢)].

وقد خاض العراق أعنف المعارك وأشدّها ضراوة من أجل أهل البيت عليهم السلام، فانتقم من قتلتهم، وأخذ بثأرهم على يد الثائر العظيم المختار بن أبي عبيد الثقفي.

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٤٥.

(٢) الطبقات الكبرى: ٦/٦.

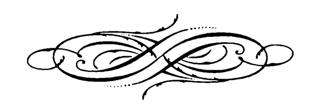
لقد كان اختيار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الهجرة إلى الكوفة ناشئاً عمّا عُرف به أهل هذه المدينة من الولاء العميق لأهل البيت عليهم السلام.

إنَّ الكوفة كانت المقر الرئيسي لمعارضة الحكم الأُموي، فقد كان الكوفيون طوال فترة حكم الأُمويين لم يكفّوا عن معارضتهم، ويتمنون زوال دولتهم.

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام إنَّما اختار الهجرة للعراق للدعوات الملحَّة، والإصرار البالغ من الأغلبية الساحقة من أهل الكوفة للقدوم عليهم حتى في زمن معاوية، فقد توافدت عليه كتبهم وهي تحثّه على المسير إليهم، وتحمِّله المسؤولية أمام الله والأُمَّة إن تأخَّر عن إجابتهم، لا سيَّما بعد أن كتب إليه سفيره مسلم بن عقيل يخبره باجتماع الناس على بيعته، وتطلّعهم إلى قدومه ويحثّه على السفر إليهم، فلم يرَ عليه السلام بُدّاً من إجابتهم.

وعلى أيّة حال فإنَّ الكوفة كانت أصلح مركز لإعلان الثورة على الأُمويين، فقد تزعَّمت هذه المدينة الثائرة الحركة المعارضة لبني أُمية، كما كانت أهم موقع استراتيجي في العالم الإسلامي، وقد تهيأت تهيؤاً تاماً ـ بعد هلاك معاوية ـ لدعوة الإمام الحسين عليه السلام، كما كانت الوطن الأُمّ لشيعته، فقد كانت قلوب أهلها تفيض بالحب والولاء له.

لقد كان اختيار الإمام الحسين عليه السلام الهجرة إلى الكوفة دون غيرها مبنياً على دراسته الوثيقة لواقع الأقطار الإسلامية، وإحاطته باتجاهات المواطنين فيها سواء في الميادين السياسية أم العقائدية، ومدى قدرتهم الاقتصادية والعسكرية، فقد خَبَرَ الإمام الحسين عليه السلام كل ذلك ووقف عليه، فلم يرَ هناك قطراً تتوفر فيه الاستراتيجية الكاملة لحماية الثورة ضمان نجاحها سوى الكوفة التي كانت تضم القوى المؤيدة له والمنحرفة عن الحكم الأُموي، فكان الاتجاه إليها ضرورة ملحَّة لا غنىً له عنها.



الرحلة إلى العراق

أُفٍ لهذه الدُّنيا، وبُعداً لهذه الحياة. مِثْلُ ابن رسول الله ﷺ وريحانته تضيق عليه الدُّنيا، وتتقاذفه أمواج من الهموم فلا يدري إلى أين مسراه ومولجه؟ فقد وافته الأنباء أنَّ الطاغية يزيد قد عهد إلى شرطته باغتياله ولو كان متعلِّقاً بأستار الكعبة.

لقد أيقن سبط رسول الله ﷺ أنَّ يزيد لا يتركه وشأنه، ولا بدَّ أن يسفك دمه وينتهك حرمته، وقد أدلى بذلك في كثير من المواطن، وكان منها:

١ ـ ما رواه جعفر بن سليمان الضبعي، أنَّه عليه السلام قال: **«وَاللَّهِ لَا يَدَعونِي حَتَّىٰ يَسْتَخْرِجوا هَذِهِ الْعَلَقَةَ ـ وأشار إلى قلبه الشريف ـ مِنْ جَوْفِي، فَإِذَا فَعَلوا ذَلِكَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يُذِلُّهُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا أَذَلَّ مِنْ فَرَمِ الأَمَةِ[(١)]»**[(٢)].

٢ ـ قال عليه السلام لأخيه محمَّد بن الحنفية: **«وَاللَّهِ يَا أَخِي، لَوْ كُنْتُ فِي حُجْرِ هَامَّةٍ مِنْ هَوَامِّ الأَرْضِ لاسْتَخْرَجُونِي حَتَّىٰ يَقْتُلونِي»**[(٣)].

٣ ـ ما رواه معاوية بن قرَّة قال: قال الإمام الحسين عليه السلام: **«وَاللَّهِ لَيَعْتَدُنَّ عَلَيَّ كَمَا اعْتَدَتْ بَنو إِسْرَائِيلَ فِي السَّبْتِ»**[(٤)].

واستولت الحَيْرَة على الإمام الحسين عليه السلام، وأحاطت به موجات من الأسىٰ والشجون، وتلبَّد أمامه الجو بالمشاكل الرهيبة والأحداث المفزعة، فهو إن بقي في مكَّة يخشَ من الاغتيال، وإن ذهب إلى العراق فإنَّه غير مطمئن من أهل الكوفة وأنَّهم سيغدرون به، وقد أدلى بذلك لبعض من شاهده في الطريق حسبما يرويه عنه يزيد الرشك يقول: «حدَّثني من شافه الحسين، قال: إنِّي رأيت أبنية مضروبة بفلاة من الأرض، فقلت: لمن هذه؟

---

(١) فَرَمُ الأَمَةِ: هي خرقة الحيض التي تلقيها النساء، لسان العرب: ١٠/٢٥١، فرم.
(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٤/٥٩٦.
(٣) بحار الأنوار: ٤٥/٩٩.
(٤) تاريخ مدينة دمشق: ١٤/٢١٦.

قالوا: هذه للحسين.

قال: فأتيته، فإذا شيخ يقرأ القرآن، والدموع تسيل على خدّيه ولحيته.

قال: قلت له: بأبي وأُمّي يابن رسول الله، ما أنزلك هذه البلاد والفلاة التي ليس بها أحد؟

فقال: **هَذِهِ كُتُبُ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِلَيَّ، وَلَا أَرَاهُمْ إِلَّا قَاتِلِي، فَإِذَا فَعَلوا ذَلِكَ لَمْ يَدَعوا لِلَّهِ حُرْمَةً إِلَّا انْتَهَكوها، فَيُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يُذِلُّهُمْ حَتَّىٰ يَكُونوا أَذَلَّ مِنْ فَرَمِ الأَمَةِ»**[١].

لقد كان متشائماً من أهل الكوفة، فهو يعلم غدرهم وعدم وفائهم، وأنَّهم سيكونون إلباً عليه، ويداً لأعدائه.

وعلى أيّة حال فإنَّا نعرض لبعض الأحداث التي جرت على الإمام الحسين عليه السلام في مكَّة قبل سفره منها، ونتبيَّن دوافع هجرته إلى العراق وما جرى له في أثناء سفره.

رسالته عليه السلام لبني هاشم:

ولمَّا صمَّم الإمام الحسين عليه السلام على مغادرة مكَّة إلى العراق كتب هذه الرسالة لبني هاشم، وقد جاء فيها، بعد البسملة:

«مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَىٰ بَنِي هَاشِم. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ مَنْ لَحِقَ بِي مِنْكُمُ اسْتُشْهِدَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي لَمْ يُدْرِكِ الْفَتْحَ، وَالسَّلَامُ»[٢].

لقد أخبر عليه السلام الأُسرة النبوية بأنَّ مَنْ لحقه منهم سوف يظفر بالشهادة، ومَنْ لم يلحق به فإنَّه لا ينال الفتح، فأيّ فتح هذا الذي عناه الإمام الحسين عليه السلام؟!

التحاق بني هاشم به عليه السلام:

ولمَّا وردت رسالة الإمام الحسين عليه السلام إلى بني هاشم في يثرب بادرت طائفة منهم إلى الالتحاق به؛ ليفوزوا بالفتح والشهادة بين يدي ريحانة رسول الله ﷺ.

أسباب الهجرة من مكَّة:

أمَّا بواعث هجرة الإمام الحسين عليه السلام من مكَّة، وخروجه إلى العراق بهذه السرعة فهي ـ فيما نحسب ـ تعود إلى ما يلي:

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٤/٢١٦.

(٢) كامل الزيارات: ص١٥٧.

الأوَّل: الحفاظ على الحَرم.

الثاني: الخوف من الاغتيال.

الثالث: رسالة مسلم بن عقيل عليه السلام.

خطابه عليه السلام في مكة:

ولمَّا عزم الإمام الحسين عليه السلام على مغادرة الحجاز والتوجُّه إلى العراق أمر بجمع الناس ليلقي عليهم خطابه التاريخي، وقد اجتمع إليه خلق كثير في المسجد الحرام من الحجَّاج وأهالي مكَّة، فقام فيهم خطيباً، فاستهلَّ خطابه بقوله:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، خُطَّ الْمَوْتُ عَلَى وُلْدِ آدَمَ مَخَطَّ الْقِلَادَةِ عَلَى جِيدِ الْفَتَاةِ، وَمَا أَوْلَهَنِي إِلَى أَسْلَافِي اشْتِيَاقَ يَعْقُوبَ إِلَى يُوسُفَ، وَخُيِّرَ لِي مَصْرَعٌ أَنَا لَاقِيهِ. كَأَنِّي بِأَوْصَالِي تُقَطِّعُهَا عُسْلَانُ الْفَلَوَاتِ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ وَكَرْبَلَاءَ، فَيَمْلَأَنَّ مِنِّي أَكْرَاشاً جوفاً، وَأَجْرِبَةً سُغْبىٰ، لَا مَحِيصَ عَنْ يَوْمٍ خُطَّ بِالْقَلَمِ. رِضَا اللَّهِ رِضَانَا أَهْلَ الْبَيْتِ، نَصْبِرُ عَلَى بَلَائِهِ وَيُوَفِّينَا أُجُورَ الصَّابِرِينَ، لَنْ تَشُذَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله لُحْمَتُهُ، بَلْ هِيَ مَجْمُوعَةٌ لَهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ، تَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ، وَيُنْجِزُ بِهِمْ وَعْدَهُ، أَلَا وَمَنْ كَانَ بَاذِلًا فِينا مُهْجَتَهُ، مُوَطِّناً عَلَى لِقَاءِ اللَّهِ نَفْسَهُ، فَلْيَرْحَلْ مَعَنَا فَإِنِّي رَاحِلٌ مُصْبِحاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ»[١].

السفر إلى العراق:

وقبل أن يغادر الإمام الحسين عليه السلام مكَّة انطلق إلى البيت الحرام فأدَّىٰ له التحية بطوافه وصلاته، وكان ذلك هو الوداع الأخير له، وأدَّىٰ فيه فريضة صلاة الظهر ثمَّ خرج مودِّعاً له.

ملاحقة السلطة له:

ولم يبعد الإمام الحسين عليه السلام كثيراً عن مكَّة حتى لاحقته مفرزة من الشرطة بقيادة يحيى بن سعيد، فقد بعثها والي مكة عمرو بن سعيد لصدّه عن السفر إلى العراق، وجرت بينهما مناوشات، وقد عجزت الشرطة عن المقاومة[٢].

وكان ذلك الإجراء فيما نحسب صورياً، فقد خرج الإمام الحسين عليه السلام في وضح

---

(١) اللهوف: ص٣٨. كشف الغمَّة: ١/٥٧٣.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣/٢٧٦.

النهار من دون أيّة مقاومة تذكر، لقد كان الغرض من إرسال هذه المفرزة العسكرية إبعاده عن مكّة، والتحجير عليه في الصحراء حتّى يتمّ القضاء عليه بسهولة.

اتصال دمشق بالكوفة:

وكانت دمشق على اتصال دائم بالكوفة، كما كانت على علم بجميع تحركات الإمام الحسين عليه السلام، وقد اضطربت من فشل المؤامرة التي دبَّرتها الاغتياله في مكّة، ونزوحه إلى العراق ليتولّىٰ بنفسه قيادة الثورة التي عهد بشؤونها إلى سفيره مسلم بن عقيل رضي الله عنه.

موقف الأُمويِّين:

أمّا موقف الأُمويِّين إزاء تحرُّك الإمام الحسين عليه السلام ومغادرته الحجاز إلى العراق فقد كان مضطرباً، فطائفة منهم كانت تحب العافية، وتخاف عواقب الأُمور، وتخشى عليه أن يناله ابن زياد بمكروه فيكون ذلك سبباً لزوال ملكهم، وطائفة كانت تخاف على العرش الأُموي، وتحذر من ذهاب الملك منهم، وترى ضرورة البطش بالإمام الحسين عليه السلام ومقابلته؛ ليسلم لهم الملك والسلطان.

مصادرة أموال ليزيد:

ولم يبعد الإمام الحسين عليه السلام كثيراً عن مكّة حتّى اجتازت عليه وهو في (التنعيم)[١] قافلة من العِير تحمل ورساً[٢] وحللاً كثيرة أرسلها والي اليمن بحير ابن ريسان إلى الطاغية يزيد، فأمر الإمام الحسين عليه السلام بمصادرتها، وقال لأصحاب الإبل: **مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنْصَرِفَ مَعَنا إِلَىٰ الْعِرَاقِ أَوْفَيْنا كِراءَهُ وَحْسَنَّا صُحْبَتَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ الْمُفارَقَةَ أَعْطَيْناهُ مِنَ الْكِراءِ عَلَىٰ مَا قَطَعَ مِنَ الأَرْضِ.**

ففارقه بعضهم بعد أن استوفى كراءه، ومضى في صحبته من أحب منهم[٣].

وقد أنقذ الإمام الحسين عليه السلام هذه الأموال من أن تنفق على موائد الخمور، وتدعيم الظلم، والإساءة إلى الناس.

---

(١) التنعيم: موضع بمكّة في الحل يقع بين مكّة وسرف على فرسخين منمكّة. وقيل: أربعة. سمي بذلك لأنَّ جبلاً عن يمينه يُقال له: نعيم، وآخر عن شماله يُقال له: ناعم، والوادي نعمان، معجم البلدان: ٢/ ٥٨.

(٢) الورس: نبت أصفر يستعمل لصبغ الثياب يكون باليمن، لسان العرب: ١٥/ ٢٧٠، ورس.

(٣) اللهوف: ص٤٢ و٤٣. الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٦٨.

مع الفرزدق:

ولمَّا انتهى موكب الإمام الحسين عليه السلام إلى موضع يُسمَّىٰ بـ(الصِّفاح)[1] التقى الشاعر الكبير الفرزدق همَّام بن غالب بالإمام، فسلَّم عليه وحيَّاه، وقال له: بأبي أنت وأُمِّي يابن رسول الله صلى الله عليه وآله ما أعجلك عن الحج؟

فقال عليه السلام: **لَوْ لَمْ أَعْجَلْ لأُخِذْتُ**[2].

وبادره الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: **مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا أَبَا فِراسٍ.**

فقال: من الكوفة.

ـ أَخْبِرْنِي عَنِ النَّاسِ خَلْفَكَ؟

فقلت: على الخبير سقطت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أُمية، والقضاء ينزل من السَّماء، والله يفعل ما يشاء[3].

واستصوب الإمام الحسين عليه السلام حديث الفرزدق فقال له: **صَدَقْتَ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ، وَكُلَّ يَوْمٍ رَبُّنا فِي شَأْنٍ.**

إِنْ نَزَلَ الْقَضاءُ بِمَا نُحِبُّ فَنَحْمَدُ اللَّهَ عَلَىٰ نَعْمَائِهِ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ أَداءِ الشُّكْرِ، وَإِنْ حَالَ الْقَضاءُ دُونَ الرَّجَاءِ فَلَمْ يَتَعَدَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ نِيَّتَهُ وَالتَّقْوىٰ سَرِيرَتَهُ[4].

وأنشأ الإمام الحسين عليه السلام يقول:

«لَئِنْ كَانَتِ الدُّنْيا تُعَدُّ نَفِيسَةً ... فَإِنَّ ثَوَابَ اللَّهِ أَعْلَىٰ وَأَنْبَلُ
وَإِنْ كَانَتِ الأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أُنْشِئَتْ ... فَقَتْلُ امْرِئٍ بِالسَّيْفِ فِي اللَّهِ أَفْضَلُ
وَإِنْ كَانَتِ الأَرْزَاقُ قِسْماً مُقَدَّراً ... فَقِلَّةُ حِرْصِ الْمَرْءِ فِي الرِّزْقِ أَجْمَلُ
وَإِنْ كَانَتِ الأَمْوَالُ لِلتَّرْكِ جَمْعُها ... فَمَا بَالُ مَتْرُوكٍ بِهِ الْمَرْءُ يَبْخَلُ»[5]

---

(١) الصِّفاح: موضع بين حنين وأنصاب الحرم على يسرة الداخل إلى مكة من مشاش، وقد نظم الفرزدق التقاءه بالإمام الحسين عليه السلام في هذا المكان بقوله:
لَقِيتُ الْحُسَيْنَ بِأَرْضِ الصِّفَاحِ ... عَلَيْهِ الْيَلَامِقُ وَالدُّرَّقْ.

(٢) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٦٧.

(٣) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٦٧.

(٤) تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٥٩٠.

(٥) الفتوح: ٥/ ٧٢.

كتاب الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة:

ولمَّا وافى الإمام الحسين عليه السلام (الحاجر)[١] من بطن ذي الرمة[٢] ـ وهو أحد منازل الحج من طريق البادية ـ كتب كتاباً لشيعته من أهل الكوفة يعلمهم بالقدوم إليهم، وقد جاء فيه بعد البسملة:

«مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ.

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ كِتَابَ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ جَاءَنِي يُخْبِرُنِي فِيهِ بِحُسْنِ رَأْيِكُمْ وَاجْتِمَاعِ مَلَئِكُمْ عَلَى نَصْرِنَا، وَالطَّلَبِ بِحَقِّنَا، فَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ لَنَا الصَّنِيعَ، وَأَنْ يُثِيبَكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَعْظَمَ الْأَجْرِ، وَقَدْ شَخَصْتُ إِلَيْكُمْ مِنْ مَكَّةَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ لِثَمَانٍ مَضَيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَسُولِي فَاكْتُموا أَمْرَكُمْ، وَجِدُّوا فَإِنِّي قَادِمٌ عَلَيْكُمْ مِنْ أَيَّامِي هَذِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ».

ودفع الكتاب بيد البطل الفذّ قيس بن مسهر الصيداوي، فأخذ يجدّ في السير لا يلوي على شيء حتى انتهى إلى القادسية، فاستولت عليه مفرزة من الشَّرَطة أُقيمت هناك تفتِّش كل من يدخل للعراق ويخرج منه تفتيشاً دقيقاً، وأسرع قيس إلى الكتاب فخرَّقه لئلا تطَّلع الشرطة على ما فيه، وأرسلته الشرطة مخفوراً ومعه القطع المخرَّقة من الكتاب إلى الطاغية ابن زياد، فلمَّا مَثُل عنده قال له: مَن أنت؟

فقال: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين الحسين بن عليّ عليه السلام.

قال: فَلِمَ خرقت الكتاب الذي كان معك؟

فقال: خوفاً من أن تعلم ما فيه.

قال: ممَّن الكتاب؟ وإلى من؟

فقال: كان من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم.

وغضب الطاغية وفقد صوابه وصاح به. والله لا تفارقني أبداً، أو تدلّني على هؤلاء القوم الذين كتب إليهم هذا الكتاب، أو تصعد المنبر فتسب الحسين وأباه وأخاه، فتنجو من يدي أو لأقطِّعنَّك.

فقال له قيس: أمَّا هؤلاء القوم فلا أعرفهم، وأمَّا اللعن فأفعل.

---

(١) الحاجر: هو موضع في ديار بني تميم، معجم ما استعجم: ١/ ٤١٦.

(٢) بطن الرُّمَّة: منزل لأهل البصرة إذا أرادوا المدينة، بها يجتمع أهل البصرة والكوفة، معجم البلدان: ٣/ ٨٢.

وظنَّ ابن زياد أنَّه من قبيل أوغاد أهل الكوفة الذين تغريهم المادة ويرهبهم الموت، وما عرف أنَّه من أفذاذ الأحرار الذين يصنعون تاريخ الأُمم والشعوب، وترتفع بهم كلمة الحق والعدل في الأرض.

وأمر ابن مرجانة بجمع الناس في المسجد الأعظم ليريهم من لعن قيس لأهل البيت ـ كما توهَّم ـ أمثلة لنكث العهد حتى يحملهم عليها ويجعلها من أخلاقهم وذاتياتهم.

وانبرى البطل العظيم وهو هازىء من الموت وساخر من الحياة ليؤدِّي رسالة الله بأمانة وإخلاص، فاعتلى منصَّة المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وأكثر من الترحُّم على علي وولده، ثمَّ لعن عبيد الله ولعن أباه وعتاة بني أُمية عن آخرهم[١].

ثم رفع صوته الهادر الذي هو صوت الحق والإسلام قائلاً: أيُّها الناس، إنَّ الحسين بن علي خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، أنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه[٢].

وأسرعت الجلاوزة إلى ابن زياد فأخبرته بشأنه فتميَّز غيظاً، وأمر أن يُصعد به إلى أعلى القصر فيرمى منه وهو حي، وأمسكته الشَّرَطة وألقت به من أعلى القصر فتقطعت أوصاله وتهشَّمت عظامه، ومات ميتة الأبطال في سبيل مبدئه وعقيدته.

ولمَّا بلغ مقتله الحسين عليه السلام بلغ به الحزن أقصاه، واستعبر باكياً، واندفع يقول: **اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا وَلِشِيعَتِنا مَنْزِلاً كَرِيماً عِنْدَكَ، وَاجْمَعْ بَيْنَنا وَإِيَّاهُمْ فِي مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِكَ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**[٣].

فزع السيِّدة زينب عليها السلام:

وسارت قافلة الإمام الحسين عليه السلام حتى انتهت إلى (الخُزَيمية)[٤] وهي إحدى منازل الحج، فأقام فيها يوماً وليلة؛ ليستريح من جهد الطريق وعناء السفر، وقد خفَّت إليه أُخته الحوراء عقيلة بني هاشم، وهي تجرُّ أذيالها، وقلبها الزاكي يتقطَّع من الأسىٰ والحزن، وهي تقول له بنبرات مشفوعة بالبكاء: إنِّي سمعت هاتفاً يقول:

---

(١) الإرشاد/المفيد: ٢/ ٧١.
(٢) اللهوف: ص٤٦ و٤٧.
(٣) الفتوح: ٥/ ٨٣.
(٤) الخُزيمية: منزل من منازل الحاج بعد الثعلبية من الكوفة وقبل الأجفر، معجم البلدان: ٢/ ٤٢٣.

أَلَا يَا عَيْنُ فَاحْتَفِلِي بِجُهْدِ فَمَنْ يَبْكِي عَلَىٰ الشُّهَداءِ بَعْدِي
عَلَىٰ قَوْمٍ تَسُوقُهُمُ الْمَنَايَا بِمِقْدَارٍ إِلَىٰ إِنْجَازِ وَعْدِ

فقال لها أبيُّ الضيم: **يَا أُخْتَاهُ، كُلُّ الَّذِي قُضِيَ فَهُوَ كَائِنٌ**[1].

النبأ المفجع بمقتل مسلم رضي الله عنه:

أمّا النبأ المفجع بمقتل مسلم رضي الله عنه فقد حمله إلى الإمام الحسين عليه السلام عبد الله بن سليمان والمنذرُ بن المُشْمَعِلَ الأسديان[2]، وكانا ـ فيما يقول المؤرخون ـ قد انتهيا من أداء مناسك الحج، وكانت لهما رغبة ملحَّة في الاتصال بالإمام الحسين عليه السلام والتعرُّف على شؤونه، فأخذا يجدّان في السير حتى التحقا به في (زرود).

وبينما هما معه وإذا برجل قد أقبل من جهة الكوفة، فلمّا رأى الحسين عليه السلام عدل عن الطريق، وقد وقف الإمام الحسين عليه السلام يريد مسألته، فلمّا رآه قد مال عنه سار في طريقه.

ولمّا عرف الأسديان رغبة الإمام الحسين عليه السلام في سؤاله تبعاه حتى أدركاه فسلّما عليه وسألاه عن أُسرته، فأخبرهما أنّه أسدي فانتسبا له، ثمَّ سألاه عن خبر الكوفة، فقال لهما: إنَّه لم يخرج منها حتى قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة، ورآهما يجرّان بأرجلهما في الأسواق، وودّعاه، وأقبلا مُسرعينِ حتى لحقا بالإمام الحسين عليه السلام، فلمّا نزل بـ(الثعلبية)[3] قالا له: رحمك الله، إنَّ عندنا خبراً إن شئت حدَّثناك علانية، وإن شئت سرّاً.

وتأمّل في أصحابه فقال عليه السلام: **ما دُونَ هَؤُلَاءِ سِرٌّ**.

فقلنا له: أرأيت الراكب الذي استقبلته عشيّ أمس؟

قال عليه السلام: **نَعَمْ، وَقَدْ أَرَدْتُ مَسْأَلَتَهُ**.

فقلنا: قد والله استبرأنا لك خبره، وكفيناك مسألته، وهو امرؤ منّا ذو رأي وصدق

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٩٥. الفتوح: ٥/ ٧٠.
(٢) في تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٥٩٩.
(٣) الثعلبية: من منازل طريق مكّة من الكوفة بعد الشقوق وقبل الخزيمية، وهي ثلثا الطريق، معجم البلدان: ٢/ ٩١.

وعقل، وإنَّه حدَّثنا أنَّه لم يخرج من الكوفة حتى قتل مسلم وهانىء ورآهما يُجرَّان في السوق بأرجلهما[١].

وكان النبأ المؤلم كالصاعقة على العلويين، فانفجروا بالبكاء على فقيدهم العظيم حتى ارتجَّ الموضع بالبكاء وسالت الدموع كلَّ مسيل[٢]، واستبان للإمام الحسين عليه السلام غدر أهل الكوفة، وأيقن أنَّه مع الصفوة من أهل بيته وأصحابه سيلاقون نفس المصير الذي لاقاه مسلم.

وانبرى إليه بعض أصحابه، فقال له: ننشدك الله إلاَّ رجعت من مكانك، فإنَّه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوَّف أن يكونوا عليك.

والتفت الإمام الحسين عليه السلام إلى بني عقيل، فقال لهم: **مَاتَرَوْنَ، فَقَدْ قُتِلَ مُسْلِمٌ؟**

ووثبت الفتية وهي تعلن استهانتها بالموت قائلين: لا والله، لا نرجع حتَّى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق مسلم.

وراح الإمام الحسين عليه السلام يقول بمقالتهم: **لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ**[٣].

ثمَّ قال عليه السلام متمثلاً:

سَأَمْضِي وَمَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَىٰ الْفَتَىٰ ... إِذَا مَا نَوىٰ حَقّاً وَجَاهَدَ مُسْلِما
وَآسى الرِّجَالَ الصَّالِحِينَ بِنَفْسِهِ ... وَفَارَقَ مَثْبُوراً وَخَالَفَ مُجْرِما
فَإِنْ عِشْتُ لَمْ أَنْدَمْ وَإِنْ مُتُّ لَمْ أُلَمْ ... كَفَىٰ بِكَ عَاراً أَنْ تُذَلَّ وَتُرْغَما[٤]

وصول النبأ بمصرع عبد الله بن يقطر رضي الله عنه:

ولمَّا انتهت قافلة الإمام الحسين عليه السلام إلى (زُبَالَة)[٥] وافاه النبأ الفظيع بقتل رسوله عبد الله بن يقطر، وكان عليه السلام قد أوفده للقيا مسلم بن عقيل رضي الله عنه، فألقت عليه الشُّرَطة القبض في القادسية، وبعثته مخفوراً إلى ابن مرجانة، فلمَّا مَثُل عنده صاح به الخبيث: اصعد المنبر، والعن الكذَّاب ابن الكذَّاب، ثم انزل حتى أرى رأيي فيك[٦].

---

(١) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٧٤.
(٢) الدرّ المسلوك: ١/ ١١١.
(٣) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٧٥.
(٤) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٨٠ و٤١.
(٥) زُبالة ـ بضم أوَّله ـ: وهو منزل معروف بطريق مكَّة من الكوفة، وهي قرية عامرة لها أسواق بين واقصة والثعلبية ـ معجم البلدان: ٣/ ٢٧٨.
(٦) تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٦٠٠ و٦٠١.

واعتلى البطل العظيم المنبر وأخذ يلعن ابن زياد ويذكر مساوىء بني أُميَّة، فاستشاط ابن زياد غضباً، وأمر أن يُلقى من فوق القصر كما فعل بقيس بن مسهر الصيداوي.

ولمَّا انتهى خبره إلى الإمام الحسين عليه السلام شقَّ عليه ذلك، ويئس من الحياة وأمر بجمع أصحابه والذين اتبعوه طلباً للعافية لا للحقّ، فأخرج لهم كتاباً فقرأه عليهم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَانا خَبَرٌ فَظِيعٌ قُتِلَ مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ، وَهَانِىءُ بْنُ عُرْوَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَقْطُرٍ، وَقَدْ خَذَلَنا شِيعَتُنا، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمُ الانصِرافَ فَلْيَنْصَرِفْ مِنْ غَيْرِ حَرَجٍ عَلَيْهِ وَلَا ذِمَامٍ»[1].

رؤيا الإمام الحسين عليه السلام:

وخفق الإمام الحسين عليه السلام وقت الظهيرة، فانتبه وهو يحمد ويسترجع فأقبل عليه ولده البار عليّ الأكبر، فقال له: يا أبةِ، جعلتُ فداك، مِمَّ حَمدتَ اللَّهَ واسترجعتَ؟!

فقال الحسين عليه السلام: **يَا بُنَيَّ، إِنِّي خَفَقْتُ بِرَأْسِي خَفْقَةً فَعَنَّ لِي فَارِسٌ عَلَىٰ فَرَسٍ فَقَالَ: الْقَوْمُ يَسِيرُونَ وَالْمَنَايا تَسْرِي إِلَيْهِمْ، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا أَنْفُسُنا نُعِيَتْ إِلَيْنا**.

قال له: يا أبَةِ، لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟!

قال عليه السلام: **بَلَىٰ، وَالَّذِي إِلَيْهِ مَرْجِعُ الْعِبَادِ**.

وطفق فخر هاشم يلقي على الأجيال أروع صور الإيمان والتضحية في سبيل الله، قائلاً لأبيه: يا أبة، إذاً لا نبالي نموت محقّين.

ووجد الإمام الحسين عليه السلام في ولده خير عون له على أداء رسالته الكبرى، فشكره على ذلك قائلاً: **جَزَاكَ اللَّهُ يَا بُنَيَّ خَيْرَ مَا جُزِيَ بِهِ وَلَدٌ عَنْ وَالِدِهِ**[2].

الالتقاء بالحرّ:

وانتهى موكب الإمام الحسين عليه السلام إلى (شَرَاف)[3] وفيها عين ماءٍ، فأمر الإمام الحسين عليه السلام فتيانه أن يستقوا من الماء ويكثروا منه ففعلوا ذلك، ثمَّ سارت القافلة تطوي

---

(١) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٧٥.

(٢) الدرّ المسلوك: ص١٠٩.

(٣) شَرَاف ـ بفتح أوّله ـ: ماء بنجد بين واقصة والقرعاء ـ معجم البلدان: ٣/ ٣٧٥.

البيداء، وبادر بعض أصحابه فكبّر، فاستغرب الإمام الحسين عليه السلام وقال له: **اللَّهُ أَكْبَرُ، لِمَ كَبَّرْتَ؟!**

قال: رأيت النخل.

وأنكر عليه رجل من أصحابه ممَّن خبر الطريق وعرفه، فقال له: ليس هاهنا نخل، ولكنَّها أسنة الرماح وآذان الخيل.

وتأمَّلها الإمام الحسين عليه السلام فطفق يقول: **وَأَنَا أَرَىٰ ذَلِكَ.**

فعرف أنَّها طلائع جيش العدو جاءت لمناهضته، فقال لأصحابه: **أما لَنا مَلْجَأٌ نَلْجَأُ إِلَيْهِ فَنَجْعَلُهُ فِي ظُهُورِنا، وَنَسْتَقْبِلُ الْقَوْمَ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ؟**

وكان بعض أصحابه ممَّن يعرف سَنَن الطريق، فقال له: بلى هذا (ذو حُسَم)[1] إلى جنبك تميل إليه عن يسارك فإن سبقت إليه فهو كما تريد[2].

خطاب الإمام الحسين عليه السلام:

واستقبل الإمام الحسين عليه السلام قطعات ذلك الجيش فخطب فيهم خطاباً بليغاً، أوضح لهم فيه أنَّه لم يأتهم محارباً، وإنَّما قدمت عليه رسلهم وكتبهم تحثّه بالقدوم إليهم، فاستجاب لهم، وقد قال بعد حمد الله والثناء عليه:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّها مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَيْكُمْ، إِنِّي لَمْ آتِكُمْ حَتَّى أَتَتْنِي كُتُبُكُمْ، وَقَدِمَتْ بِهَا عَلَيَّ رُسُلُكُمْ أَن أَقْدِمُ عَلَيْنَا فَإِنَّهُ لَيْسَ لَنَا إِمَامٌ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَنَا بِكَ عَلَىٰ الْهُدى، فَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ جِئْتُكُمْ، فَإِنْ تُعْطُونِي مَا أَطْمَئِنُّ بِهِ مِنْ عُهُودِكُمْ وَمَوَاثِيقِكُمْ أَقْدِمْ مِصْرَكُمْ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَكُنْتُمْ لِمَقْدَمِي كَارِهِينَ انْصَرَفْتُ عَنْكُمْ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَقْبَلْتُ مِنْهُ إِلَيْكُمْ».

واحجموا عن الجواب؛ لأنَّ أكثرهم كانوا ممَّن كاتبوه بالقدوم إليهم، وبايعوه على يد سفيره مسلم بن عقيل رضي الله عنه.

ثم حضر وقت الصلاة فأمر الإمام الحسين عليه السلام مؤذنه الحجَّاج بن مسروق أن يؤذِّن ويقيم لصلاة الظهر، وبعد فراغه قال الإمام الحسين عليه السلام للحرّ: **أَتُرِيدُ أَنْ تُصَلِّيَ بِأَصْحَابِكَ؟**

قال: لا، بل تصلِّي ونصلِّي بصلاتك. وائتمّوا بالإمام الحسين عليه السلام في صلاة

(١) حُسَم ـ بضم الحاء وفتح السين ـ: اسم موضع.
(٢) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٧٦ و٧٧.

الظهر، وبعد الفراغ منها انصرفوا إلى أخبيتهم، ولمّا حضر وقت صلاة العصر جاء الحرّ مع جيشه فاقتدوا به في صلاة العصر(١).

خطبة الإمام الحسين عليه السلام:

وبعدما فرغ الإمام الحسين عليه السلام من صلاة العصر انبرى بعزم وثيق فخطب في ذلك الجيش خطاباً رائعاً، فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

«أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ، وَتَعْرِفُوا الْحَقَّ لأَهْلِهِ يَكُنْ أَرْضىٰ لِلَّهِ عَنْكُمْ، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَأَوْلَىٰ بِولاَيَةِ هَذَا الأَمْرِ عَلَيْكُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ الْمُدَّعِينَ مَا لَيْسَ لهُمْ، وَالسَّائِرِينَ فِيكُمْ بِالْجَوْرِ وَالْعُدْوانِ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا كَرَاهِيَةً لَنَا، وَالْجَهْلَ بِحَقِّنا، فَكَانَ رَأْيُكُمُ الآنَ عَلَىٰ غَيْرِمَا أَتَتْنِي بِهِ كُتُبُكُمْ، وَقَدِمَتْ بِهِ عَلَيَّ رُسُلُكُمْ انْصَرَفْتُ عَنْكُمْ»(٢).

المشادّة بين الإمام الحسين عليه السلام والحرّ:

ووقعت مشادّة عنيفة بين الإمام الحسين عليه السلام والحرّ، فقد قال الحرّ له: قد أُمرت ألاّ أُفارقك إذا لقيتك حتى أُقدمك الكوفة على ابن زياد، ولذعت الإمام الحسين عليه السلام هذه الكلمات القاسية، فثار في وجه الحرّ، وصاح به: **الْمَوْتُ أَدْنَىٰ إِلَيْكَ مِنْ ذلِكَ**.

وأمر الحسين عليه السلام أصحابه بالركوب، فلمّا استووا على رواحلهم أمرهم بالتوجُّه إلى يثرب، فحال بينهم وبين ذلك، فاندفع الحسين فصاحب به: **ثَكَلَتْكَ أُمَّكَ، مَا تُرِيدُ؟**

وأطرق الحر برأسه إلى الأرض وتأمّل، ثمّ رفع رأسه فخاطب الإمام الحسين عليه السلام بأدب، فقال له: أما والله، لو غيرك من العرب يقولها لي، ما تركت ذكر أُمّه بالثكل كائناً من كان، ولكنّي والله ما لي إلى ذكر أُمّك من سبيل إلاّ بأحسن ما يُقدَر عليه.

وسكن غضب الإمام الحسين عليه السلام، فقال له: **مَا تُرِيدُ مِنَّا؟**

فقال الحر: أُريد أن أنطلق بك إلى ابن زياد.

---

(١) الإرشاد/المفيد: ٢/ ٧٩.

(٢) الإرشاد/المفيد: ٢/ ٧٩ و٨٠.

وثار الإمام الحسين عليه السلام فصاحب به: وَاللَّهِ لَا أَتَّبِعُكَ.

قال: إذاً والله لا أدعك.

وكاد الوضع أن ينفجر باندلاع نار الحرب، إلاّ أنَّ الحرّ ثاب إلى الهدوء، فقال له: إنّي لم أؤمر بقتالك، وإنّما أمرت ألاّ أفارقك حتى أُقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يُدخلك الكوفة ولا يردّك إلى المدينة حتى أكتب إلى ابن زياد، وتكتب أنت إلى يزيد أو إلى ابن زياد فلعلَّ الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلي من أمرك[١].

خطبة الإمام الحسين عليه السلام:

ولمّا انتهى موكبه عليه السلام إلى (البَيْضَةِ)[٢] ألقى خطاباً على الحرّ وأصحابه، وقد أدلى بدوافعه في الثورة على يزيد، ودعا القوم إلى نصرته، وقد قال بعد حمد الله والثناء عليه:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله قَالَ: مَنْ رَأَى سُلْطَاناً جَائِراً مُسْتَحِلًّا لِحُرُمِ اللَّهِ، نَاكِثاً لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفاً لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ كَانَ حَقّاً عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ.

أَلَا وَأَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرُوا الْفَسَادَ، وَعَطَّلُوا الْحُدُودَ، وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفَيْءِ، وَأَحَلُّوا حَرَامَ اللَّهِ، وَحَرَّمُوا حَلَالَهُ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ غَيَّر[٣]، وَقَدْ أَتَتْنِي كُتُبُكُمْ، وَقَدِمَتْ عَلَيَّ رُسُلُكُمْ بِبَيْعَتِكُمْ أَنَّكُمْ لَا تُسْلِمُونِي، وَلَا تَخْذُلُونِي، فَإِنْ أَقَمْتُمْ عَلَىٰ بَيْعَتِكُمْ تُصِيبُوا رُشْدَكُمْ وَأَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، نَفْسِي مَعَ أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِي مَعَ أَهْلِيكُمْ، فَلَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا، وَنَقَضْتُمْ عَهْدَكُمْ، وَخَلَعْتُمْ بَيْعَتِي، فَلَعَمْرِي مَا هِيَ مِنْكُمْ بِنُكْرٍ، لَقَدْ فَعَلْتُمُوهَا بِأَبِي وَأَخِي وَابْنِ عَمِّي مُسْلِمٍ، فَالْمَغْرُورُ مَنِ اغْتَرَّ بِكُمْ، فَحَظَّكُمْ أَخْطَأْتُمْ، وَنَصِيبَكُمْ ضَيَّعْتُمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ، وَالسَّلَامُ»[٤].

---

(١) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٨٠.

(٢) البيضة: ـ بفتح أوّله ويكسر ـ: موضع بين العذيب وواقصة في أرض الحزن في ديار بني يربوع ابن حنظلة، معجم البلدان: ١/ ٥٣١.

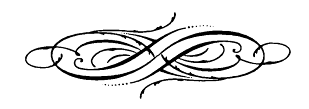
(٣) وفي الفتوح: ٥/ ٨١: «وَأَنَا أَحَقُّ مِنْ غَيْرِي بِهَذَا الأَمْرِ؛ لِقَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله».

(٤) تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٦٠٥.

ولمَّا سمع الحرّ خطابه أقبل عليه، فقال له: إنّي أذكّرك الله في نفسك، فإنّي أشهد لئن قاتلت لتقتلنَّ.

وانبرى عليه السلام قائلاً له: «أَفَبِالْمَوْتِ تُخَوِّفُنِي؟! وَهَلْ يَعْدو بِكُمُ الْخَطْبُ أَنْ تَقْتُلونِي وَسَأَقُولُ كَمَا قَالَ أَخُو الأَوْسِ لابْنِ عَمِّهِ وَهُوَ يُرِيدُ نُصْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَخَوَّفَهُ ابْنُ عَمِّهِ وَقَالَ: أَيْنَ تَذْهَبُ؟ فَإِنَّكَ مَقْتُولٌ، فَقَالَ:

سَأَمْضِي وَمَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَىٰ الْفَتَىٰ ... إِذَا مَا نَوىٰ حَقّاً وَجَاهَدَ مُسْلِما
وَآسَى الرِّجَالَ الصَّالِحِينَ بِنَفْسِهِ ... وَفَارَقَ مَثْبُوراً وَخَالَفَ مُجْرِما
فَإِنْ عِشْتُ لَمْ أَنْدَمْ وَإِنْ مُتُّ لَمْ أُلَمْ ... كَفَىٰ بِكَ ذُلًّا أَنْ تَعِيشَ وَتُرْغَما»[1]



(١) الإرشاد/المفيد: ٢/ ٨٠ و٨١.

في كربلاء

وأقام موكب العترة الطاهرة في كربلاء يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم سنة إحدى وستين[١]، وقد خيَّم الرعب على عيالات أهل البيت، وأيقنوا بنزول الرزء القاصم، وعلم الإمام الحسين عليه السلام مغبَّة الأمر، وتجلَّت له الخطوب المفزعة، والأحداث الرهيبة التي سيعانيها على صعيد كربلاء.

ويقول المؤرخون: إنَّه جمع أهل بيته وأصحابه فألقى عليهم نظرة حنان وعطف وأيقن أنَّهم عن قريب سوف تتقطع أوصالهم، فأغرق في البكاء ورفع يديه بالدُّعاء يناجي ربّه، ويشكو إليه ما ألمَّ به من عظيم الرزايا والخطوب، قائلاً: **اللَّهُمَّ إِنَّا عِتْرَةُ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله قَدْ أُخْرِجنا وَأُزْعِجْنا وَطُرِدْنا عَنْ حَرَمِ جَدِّنا، وَتَعَدَّتْ بَنُو أُمَيَّةَ عَلَيْنا، اللَّهُمَّ فَخُذْ لَنا بِحَقِّنا وَانْصُرْنا عَلَىٰ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.**

ثم أقبل على أولئك الأبطال فقال لهم: **النَّاسُ عَبِيْدُ الدُّنْيا وَالدِّينُ لَعِقٌ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ**[٢].

وبعد حمد الله والثناء عليه خاطب أصحابه قائلاً:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ نَزَلَ بِنَا مَا قَدْ تَرَوْنَ، وَإِنَّ الدُّنْيا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ وَأَدْبَرَ مَعْروفُهَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صَبَابَةٌ كَصَبَابَةِ الإِنَاءِ، وَخَسِيسُ عَيْشٍ كَالْمَرْعَىٰ الْوَبِيلِ[٣]**، أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ الْحَقِّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَإِلَىٰ الْبَاطِلِ لَا يُتَنَاهَىٰ عَنْهُ، لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ، فَإِنِّي لَا أَرَىٰ الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَماً**[٤].

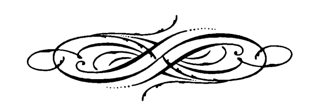
---

(١) وقعة الطَّفّ: ص١٨٠. الإرشاد/المفيد: ٢/ ٨٤.
(٢) مقتل الحسين عليه السلام/الخوارزمي: ١/ ٣٣٧. الفتوح: ٥/ ٩٧.
(٣) المرعى الوبيل: هو الطعام الوخيم الذي يخاف وباله، أي سوء عاقبته، لسان العرب: ١٥/ ٣٠٢، وبل.
(٤) المعجم الكبير: ٣/ ١١٤ و١١٥، الرقم ٢٨٤٢.

رسالة الإمام الحسين عليه السلام لابن الحنفية:

ورفع الإمام الحسين عليه السلام رسالة من كربلاء إلى أخيه محمَّد بن الحنفية وسائر بني هاشم نعى فيها نفسه، وأعرب عن دنوّ الأجل المحتوم منه، وهذا نصّها:

«أَمَّا بَعْدُ، فَكَأَنَّ الدُّنْيا لَمْ تكُنْ، وَكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ، وَالسَّلَامُ»[1].



(١) كامل الزيارات: ص١٥٧ و١٥٨، الحديث ١٩٦.

زحف الكوفة للحرب

وحينما أُذيع النبأ باستيلاء جيش ابن زياد على الإمام الحسين عليه السلام، وفرض الحصار عليه في كربلاء، سادت موجات رهيبة من الذعر والخوف في جميع أوساط الكوفة، وتخدَّرت الجماهير تحت ضغط هائل من قوّة السيوف والرماح. فقد أشاع ابن زياد الإرهاب، وأعلن الأحكام العرفية في جميع أنحاء الكوفة، فكان يحكم بالموت والإعدام لمجرَّد الظنَّة والتهمة، وصار الناس لا يملكون من أمرهم شيئاً.

لقد تمَّت بوارق ابن مرجانة، وتحقَّقت أحلامه حينما ظفر بابن فاتح مكة ومحطِّم أوثان قريش؛ ليتقرَّب بقتله إلى حفيد أبي سفيان زعيم الأحزاب المناوئة للإسلام، ويتَّخذ من ذلك وسيلة لإقرار نسبه اللصيق ببني أُميَّة الذي شهد به أبو مريم الخمَّار[١].

انتخاب ابن سعد قائداً عاماً:

وانتخب ابن مرجانة عمر بن سعد قائداً عاماً لقواته المسلحة التي زجَّ بها لحرب ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله.

نزعات ابن سعد:

ولم يحمل ابن سعد في دخائل نفسه أيّة نزعة شريفة، فليس في ضميره المتحجِّر أيّ بصيص من الكرامة والشرف والنبل، وهذه بعض مظاهر ذاتياته.

١ ـ الخنوع للسلطة.

٢ ـ التهالك على السلطة.

٣ ـ خِسَّة الطبع.

٤ ـ الجبن.

٥ ـ الشك في البعث والنشور.

(١) مروج الذهب: ٣/ ٦ ـ ٨.

دوافع انتخابه:

وإنَّما انتخبه ابن مرجانة لحرب الإمام الحسين عليه السلام؛ ليغري به سواد الناس وجهَّالهم، ويزجَّ بهم لحرب ريحانة رسول الله ﷺ، فإنَّه ابن فاتح العراق وأحد المرشّحين الستة من قبل عمر بن الخطاب لزعامة الخلافة الإسلامية، وإنَّه قرشي وممَّن يمتُّ للإمام الحسين عليه السلام بصلة، ومضافاً إلى ذلك فإنَّه قد وقف على اتجاهاته الفكرية، وعرف نقاط الضعف التي عنده، فرأى أنَّه لا يقوم أحد باقتراف هذه الجريمة سواه.

عدد الجيش الأُموي:

واختلف المؤرخون في عدد الجيش الذي نزح لحرب الإمام الحسين عليه السلام، وفيما يلي بعض ما ذكروه:

١ ـ ثمانون ألف فارس(١).

٢ ـ خمسون ألف فارس(٢).

٣ ـ خمسة وثلاثون ألف فارس(٣).

٤ ـ ثلاثون ألفاً(٤).

٥ ـ اثنان وعشرون ألفاً(٥).

٦ ـ عشرون ألفاً(٦).

٧ ـ ستة عشر ألف فارس(٧).

٨ ـ اثنا عشر ألفاً(٨).

٩ ـ ثمانية آلاف(٩).

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام/أبو مخنف: ص٥٤.
(٢) شرح شافية أبي فراس: ١/٩٣.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ٤/٩٨.
(٤) عمدة الطالب: ص١٧١.
(٥) الفتوح: ٥/١٠١.
(٦) اللهوف: ص٥٢.
(٧) الدرّ النظيم: ص٥٥١.
(٨) الدرّ النظيم: ص٥٥١.
(٩) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان: ص٩٢.

١٠ ـ ستة آلاف[١].

١١ ـ أربعة آلاف[٢].

عدد أصحاب الحسين عليه السلام:

أمَّا أصحاب الحسين عليه السلام فكانوا فئة قليلة، وقد اختلف المؤرخون في عددهم، وهذه بعض الأقوال:

الأوَّل: ما ذهب إليه المسعودي: أنَّهم خمسمائة فارس، ونحو من مائة راجل[٣]. وانفرد المسعودي بهذا القول ولم يذهب إليه أحد غيره.

الثاني: ما رواه عمَّار الدهني، عن أبي جعفر: أنَّهم كانوا خمسةً وأربعين فارساً ومائة راجل[٤].

الثالث: ما ذكره ابن شهرآشوب: أنَّهم اثنان وثمانون رجلاً، الفرسان منهم اثنان وثلاثون[٥].

الرابع: ما قاله سعد بن عبيدة: إنِّي لأنظر إليهم وهم قريبون من مائة رجل فيهم من صلب عليّ خمسة أو سبعة، وعشرة من بني هاشم، ورجل من كنانة، وآخر من سُليم[٦].

الخامس: ما ذكره ابن كثير، والفاخوري: أنَّهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً[٧].

والذي نراه أنَّهم ثمانون رجلاً بما فيهم من أبناء الأُسرة النبوية، والذي يدعم ذلك أنَّ الرؤوس التي احتزت وبُعِث بها إلى ابن مرجانة ويزيد بن معاوية كانت تسعة وسبعين رأساً لا غير.

(١) الصراط السويّ في مناقب آل النبيّ: ص٨٧.
(٢) الأخبار الطوال: ص٢٥٣.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ٦١.
(٤) تهذيب التهذيب: ١/ ١٥١.
(٥) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٩٨.
(٦) أنساب الأشراف: ٣/ ٤٢٤.
(٧) البداية والنهاية: ٨/ ١٨٠.

الإمام الحسين عليه السلام مع ابن سعد:

وطلب الإمام الحسين عليه السلام من ابن سعد الاجتماع به، فأجابه على كره، فالتقى معه ليلاً، وعقد معه اجتماعاً مغلقاً لم يحضره إلاّ العباس وعليّ الأكبر من جانب الحسين عليه السلام، ومع ابن سعد ابنه حفص وغلام لابن سعد، فقال الإمام الحسين عليه السلام له: **يَابْنَ سَعْدٍ، أَما تَتَّقِي اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ مَعادُكَ، أَتَقاتِلُنِي وَأَنَا ابْنُ مَنْ عَلِمْتَ؟! فَاتْرُكْ هَؤُلَاءِ وَكُنْ مَعِيَ فَإِنِّي أَقْرَبُ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**.

وألقى ابن سعد معاذيره الواهية قائلاً: يا أبا عبد الله، أخاف أن تهدم داري.

فقال له الحسين عليه السلام: **أَنَا أَبْنِيها لَكَ**.

فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

فقال الحسين عليه السلام: **أَنَا أَخْلِفُ عَلَيْكَ خَيْراً مِنْها مِنْ مَالِي بِالْحِجازِ**(١).

فقال: لي عيال وأخاف عليهم.

ولم يجد منه الإمام الحسين عليه السلام أيَّ تجاوب، وإنَّما رأى منه إصراراً على الغيّ والعدوان، فاندفع يدعو عليه: **مَا لَكَ! ذَبَحَكَ اللَّهُ عَلَىٰ فِرَاشِكَ سَرِيعاً عَاجِلاً، وَلَا غَفَرَ لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ وَنَشْرِكَ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَلَّا تَأْكُلَ مِنْ بُرِّ الْعِرَاقِ إِلَّا يَسِيراً**.

وولّى ابن سعد، وهو يقول للإمام الحسين عليه السلام بسخرية: في الشعير كفاية عن البُرّ(٢).

منع الإمدادات:

وفرض ابن سعد الحصار على الإمام الحسين عليه السلام، فأحاط بجميع الطرق مخافة أن يصل إليه أيُّ إمداد من الخارج، وقد أحكم هذه الجهة حتى صار من غير الممكن أن يلتحق أيّ أحد بمعسكر الإمام الحسين عليه السلام أو يصلهم بأيّ إمداد.

احتلال الفرات:

وأخطر عملية قام بها ابن سعد احتلاله لنهر الفرات، فقد صدرت إليه الأوامر المشدَّدة من ابن مرجانة بمنع الماء عن الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، فلا يذوقوا منه قطرة واحدة.

---

(١) الفتوح: ٥/ ٩٢ و٩٣.
(٢) الفتوح: ٥/ ٩٣.

يقول المؤرخون: إنَّه حيل بين الإمام الحسين عليه السلام وبين الماء قبل قتله بثلاثة أيام[١]، وكان أعظم ما عاناه عليه السلام من المحن الشاقة مشاهدة أطفاله وحرائر الرسالة، وهم يعجُّون من ألم الظمأ القاتل، فقد كان الأطفال ينادون: الماء، الماء.

ولم يستطع الأطفال مقاومة العطش، وكانوا ينظرون إلى الفرات وهو فيَّاض بمائه، فازداد صراخهم، وذاب قلب الإمام الحسين عليه السلام رحمةً وحناناً لذلك المشهد الرهيب، فقد ذبلت شفاه أطفاله، وذوى عودهم، وجفَّ لبن المراضع، بينما ينعم أُولئك الجفاة بالماء.

القتال على الماء:

والتاع الإمام الحسين عليه السلام أشدّ ما تكون اللوعة ألماً ومحنة حينما رأى أطفاله وأهل بيته وهم يستغيثون من الظمأ القاتل، فندب أخاه وابن والده أبا الفضل العباس لتحصيل الماء، فانبرى البطل العظيم، وصحب معه ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً، وحملوا معهم عشرين قربة، واقتحموا بأجمعهم نهر الفرات، وقد تقدَّمهم نافع بن هلال الجملي، فاستقبله عمرو بن الحجَّاج الزبيدي، وكان المسؤول عن حراسة الفرات، فقال له: ما جاء بك؟

قال: جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حلَّأتمونا عنه.

قال: فاشرب هنيئاً.

قال: أفأشرب والحسين عطشان ومن ترى من أصحابه؟!

فقال: لا سبيل إلى سقي هؤلاء، إنَّما وضِعْنا بهذا المكان لنمنعهم الماء[٢].

ولم يحفل به أصحاب الحسين عليه السلام، فاقتحموا الفرات ليملأوا قربهم، فثار عليهم عمرو بن الحجَّاج مع مفرزة من جنوده، والتحم معهم العبَّاس ونافع بن هلال، ودارت بينهم معركة إلاَّ أنَّه لم يقتل فيها أحد، وعاد أصحاب الإمام الحسين عليه السلام بعد أن ملأوا قربهم من الماء.

وظلَّ الإمام الحسين عليه السلام مع أصحابه وهم يعانون أشدّ الضيق من الحصار الذي فرض عليهم، وينتظرون الأحداث الرهيبة التي يلاقونها على صعيد كربلاء[٣].

---

(١) الإرشاد/المفيد: ٢/ ٨٦ و٨٧.

(٢) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٨٩.

(٣) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٨٨.

مع المعسكرين

المعسكر الحسيني:

أمَّا المعسكر الحسيني فإنَّه كان يمثِّل شرف الإنسان، ويمثِّل القيم الكريمة، والاتجاهات العظيمة التي يسمو بها كل إنسان نبيل، وحسبه أنَّه وحده في تاريخ هذه الدُّنيا قد كتب له الخلود والبقاء، فليس في أُسرة شهداء العالم مثل شهداء كربلاء شرفاً ومجداً واندفاعاً في نصرة الحقّ، وتفانياً في سبيل العدل، ونشير إلى بعض المظاهر من أهدافهم وذاتياتهم.

الأهداف العظيمة:

أمَّا الأهداف العظيمة التي رفعوا شعارها، وناضلوا ببسالة وإيمان من أجلها فهي:

١ ـ الدفاع عن الإسلام.

٢ ـ حماية الإمام عليه السلام والدفاع عنه.

٣ ـ تحرير الأُمَّة من الجور.

٤ ـ النزعات الفذَّة

وتمتَّع أصحاب الحسين عليه السلام بكلّ نزعة كريمة، وقد امتازوا بها على غيرهم من سائر الناس، ومن بينها:

أوَّلاً: الإباء والعزَّة.

ثانياً: البسالة والصمود.

ثالثاً: الانضباط العسكري.

وامتاز معسكر الإمام الحسين عليه السلام بالانضباط العسكري، وقد تجلَّى ذلك في أمرين:

١ ـ الدقَّة في امتثال الأوامر من القيادة العامَّة وعدم مخالفتها، فقد طلب العبَّاس

من أخيه الإذن فلم يسمح له، فلم يخالفه. وبعد مصرع أهل البيت عليهم السلام طلب منه الرخصة، فأذن له.

٢ ـ أنَّه لم يلج أحد ميدان الحرب إلاَّ بعد أن يحصل على الإذن الصريح من الإمام الحسين عليه السلام.

عناصر جيش الإمام الحسين عليه السلام:

ويتألف جيش الإمام الحسين عليه السلام من عنصرين، وهما:

الأوَّل: الموالي:

أمَّا الموالي فكانوا على علاقة وثيقة بالإمام الحسين عليه السلام نظراً للسياسة العادلة التي تبنَّاها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيهم، ولو كانت الظروف مهيَّأة لهم لالتحق القسم الكبير منهم بالإمام الحسين عليه السلام، وقد ضمَّ جيشه من يلي منهم:

١ ـ سليمان بن رزين مولىً للحسن عليه السلام.

٢ ـ قارب الدؤلي مولىً للحسين عليه السلام.

٣ ـ الحرث بن نبهان مولىً لحمزة بن عبد المطلب.

٤ ـ منجح بن سهم مولىً للحسين عليه السلام.

٥ ـ سالم مولىً لعامر بن مسلم العبدي.

٦ ـ جابر بن الحجَّاج مولىً لعامر بن نهشل.

٧ ـ سعد مولىً لعمرو بن خالد الأسدي الصيداوي.

٨ ـ رافع بن عبد الله مولىً لمسلم بن كثير الأزدي.

٩ ـ شوذب مولى لشاكر بن عبد الله الهَمْداني الشاكري.

١٠ ـ أسلم التركي مولىً للحسين عليه السلام.

١١ ـ جون مولى أبي ذر الغفاري.

١٢ ـ زاهر مولىً لعمرو بن الحمق الخزاعي[١].

وهؤلاء الموالي الذين فاقوا الأحرار في شرفهم واندفاعهم لنصرة الحقّ قد فازوا بنصرة سيِّد شباب أهل الجنَّة ونعموا بالشهادة بين يديه.

(١) مناقب آل أبي طالب: ٤/١١٣.

الثاني: العرب:

وبقية أنصار الإمام الحسين عليه السلام الممجّدين كانوا من العرب وأكثرهم من سكّان الكوفة، ومن الطريق التحق به وهب، وأمّا من البصرة فإنّه لم يستشهد معه إلاّ عدد قليل، كما التحق به من الحجاز الصحابي الكبير أنس بن الحارث الكاهلي، وبهذا ينتهي بنا الحديث عن معسكر الإمام الحسين عليه السلام.

المعسكر الأُموي:

أمّا المعسكر الأُموي فقد كانوا مجموعة من الخونة وباعة الضمير، وليس فيهم أيّ إنسان شريف، كما كانوا على يقين لا يخامره أدنى شكّ في ضلالة قصدهم، وانحرافهم عن الطريق القويم، وهذه بعض مظاهر ما اتصفوا به:

١ ـ فقدان الإرادة.

٢ ـ القلق والحيرة.

٣ ـ الفسق.

عناصر الجيش:

ويتألف الجيش الأُموي من عدّة عناصر، ومن بينها:

الأوّل: الانتهازيون.

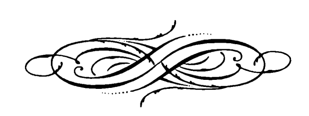
الثاني: المرتزقة.

الثالث: الممسوخون.

الرابع: المُكْرَهون.

الخامس: الخوارج.

هذه بعض العناصر التي ضمها جيش ابن زياد، وقد جاء وصفهم في إحدى زيارات الإمام الحسين عليه السلام ما نصّه: «**وَقَدْ تَوازَرَ عَلَيْهِ** ـ أي على حربه ـ **مَنْ غَرَّتْهُ الدُّنْيا، وَبَاعَ حَظَّهُ بِالأَرْذَلِ الأَدْنَىٰ، وَشَرَىٰ آخِرَتَهُ بِالثَّمَنِ الأَوْكَسِ، وَتَغَطرَسَ وَتَرَدَّىٰ فِي هَوَاهُ**»[1].



(١) كامل الزيارات: ص٤٠١، الحديث ٦٣٩.

المأساة الخالدة

ولم تشاهد أُمَّة من الأُمم محنة أوجع ولا أفجع من كارثة كربلاء، فلم تبقَ رزية من رزايا الدهر، ولا فاجعة من فواجع الدُّنيا إلاَّ جرت على سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته، وقد ألهبت رزاياه العواطف حزناً وأسىً، وأثارت اللوعة حتى عند أقل الناس إحساساً وأقساهم قلباً، وقد أثَّرت على الباغي اللئيم عمر بن سعد فراح يبكي من أهوال ما جرى على الإمام الحسين عليه السلام من فوادح الخطوب.

لقد انتهكت في كارثة كربلاء حرمة الرسول صلى الله عليه وآله في عترته وذرِّيَّته. يقول الإمام الرِّضا عليه السلام: «**إِنَّ يَوْمَ الْحُسَيْنِ أَقْرَحَ جُفُونَنَا، وَأَسْبَلَ دُمُوعَنا، وَأَذَلَّ عَزِيزَنَا...**»[1].

زحف الجيش:

لقد زحفت طلائع جيش ابن سعد نحو الإمام الحسين عليه السلام في عصر الخميس لتسع خلون من المحرَّم، فقد صدرت إلى القيادة العامَّة الأوامر المشدَّدة من ابن زياد بتعجيل القتال خوفاً من أن يتبلور رأي الجيش ويحدث انقسام في صفوفه.

ولمَّا زحف ذلك الجيش كان الإمام الحسين عليه السلام جالساً أمام خيمته محتبياً بسيفه؛ إذ خفق برأسه، فسمعت أُخته عقيلة بني هاشم زينب عليها السلام أصوات الرجال وتدافعهم نحو أخيها، فانبرت إليه وهي فزعة مرعوبة لا لتردّ عنه القضاء، ولا لتنبهه إلى خطورة الموقف، ولا لتثير حميته إلى قتالٍ كان راغباً عنه حقناً للدم الإسلامي، ولكن لتقول له في همس حنون: يا أخي أما تسمع أنَّ الأصوات تقترب؟! فرفع الإمام الحسين عليه السلام رأسه فرأى أُخته، فقال لها بعزم وثبات: **إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ: إِنَّكَ تَرُوحُ إِلَيْنَا.**

وذابت نفس العقيلة، وانهارت قواها، فلطمت وجهها، وقالت بنبرات حزينة: يا ويلتاه.

---

(١) الأمالي/ الصدوق: ص١٩٠.

والتفت أبو الفضل العبَّاس إلى أخيه فقا لله: يا أخي أتاك القوم، فطلب منه الإمام الحسين عليه السلام أن يتعرَّف على خبرهم قائلاً له: **إِرْكَبْ بِنَفْسِي أَنْتَ يَا أَخِي حَتَّىٰ تَلْقَاهُمْ، وَتَقُولَ لَهُمْ، مَا لَكُمْ وَمَا بَدا لَكُمْ، وَتَسْأَلَهُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِمْ؟**[١].

وأسرع أبو الفضل نحوهم، ومعه عشرون فارساً من أصحابه، وفيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر، وسألهم العبَّاس عن زحفهم، فقالوا له: جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه أو نناجزكم[٢].

وقفل العبَّاس إلى أخيه يعرض عليه الأمر، وأقبل حبيب بن مظاهر على القوم فجعل يعظهم، ويذكرهم الدار الآخرة قائلاً: أما والله لبئس القوم يقدمون غداً على الله عزَّ وجلَّ، وعلى رسوله محمَّد ﷺ، وقد قتلوا ذرِّيَّته وأهل بيته المتهجدين بالأسحار، الذاكرين الله كثيراً باللَّيل والنهار، وشيعته الأتقياء الأبرار.

فردَّ عليه عَزرَة بن قيس قائلاً: يابن مظاهر، إنَّك لتزكِّي نفسك!

وانبرى إليه زهير بن القين قائلاً: اتقِ الله يابن قيس، ولا تكن من اللذين يعينون على الضلال، ويقتلون النفس الزكية الطاهرة عترة خيرة الأنبياء[٣].

فقال له عزرة: كنت عندنا عثمانياً فما بالك؟

فقال زهير: والله ما كتبت إلى الحسين، ولا أرسلت إليه رسولاً، ولكن الطريق جمعني وإيَّاه، فلمَّا رأيته ذكرت به رسول الله ﷺ وعرفت ما تقدمون من غدركم ونكثكم، وميلكم إلى الدُّنيا فرأيت أن أنصره، وأكون في حزبه حفظاً لما ضيَّعتم من حقّ رسول الله ﷺ[٤].

وعرض أبو الفضل مقالة القوم على أخيه، فقال له: **«إِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُؤَخِّرَهُمْ إِلَىٰ الْغَدْوَةِ وَتَدْفَعَهُمْ عَنَّ الْعَشِيَّةَ لَعَلَّنَا نُصَلِّيَ لِرَبِّنَا هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَنَدْعُوهُ وَنَسْتَغْفِرْهُ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ الصَّلَاةَ، وَتِلَاوَةَ كِتَابِهِ وَكَثْرَةَ الدُّعَاءِ وَالإِسْتِغْفَارِ»**[٥].

ورجع إليهم أبو الفضل العبَّاس، فأخبرهم بكلام أخيه، وعرض ابن سعد الأمر على شمر بن ذي الجوشن خوفاً من وشايته إذا استجاب لطلب الإمام الحسين عليه السلام

---

(١) الإرشاد/المفيد: ٢/ ٩٠.
(٢) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٩٢.
(٣) تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٦١٦ و٦١٧.
(٤) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٩٢.
(٥) الإرشاد/المفيد: ٢/ ٩٠ و٩١.

وأخَّر القتال، فقد كان المنافس الوحيد له على إمارة الجيش كما كان عيناً عليه، أو أنَّه أراد أن يكون شريكاً له في المسؤولية فيما إذا عاتبه ابن زياد على تأخير الحرب.

وعلى أيّة حال فإنَّ شمر بن ذي الجوشن لم يُبدِ رأيه في الموضوع، وإنَّما أحاله لابن سعد، وانبرى عمرو بن الحجَّاج الزبيدي فأنكر عليهم إحجامهم عن إجابة الإمام الحسين عليه السلام، قائلاً: سبحان الله! والله لو كان من الديلم ثمَّ سألكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوه(١).

ولم يزد ابن الحجَّاج على ذلك، فلم يقل: إنَّه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، خوفاً من أن تنقل الاستخبارات العسكرية حديثه إلى ابن مرجانة فينال العقاب أو العتاب والحرمان منه.

وأيَّد ابن الأشعث مقالة ابن الحجَّاج، فقال لابن سعد: أجبهم إلى ما سألوا، فلعمري ليصبحنَّك بالقتال غداً.

الإمام عليه السلام يأذن لأصحابه بالتفرُّق:

وجمع عليه السلام أصحابه وأهل بيته ليلة العاشر من المحرَّم، وطلب منهم أن ينطلقوا في رحاب الأرض ويتركوه وحده ليلقى مصيره المحتوم، وقد أراد أن يكونوا على هدىً وبيِّنة من أمرهم، فقال لهم: «**أُثْنِي عَلَى اللَّهِ أَحْسَنَ الثَّنَاءِ، وَأَحْمَدُهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْمَدُكَ عَلَى أَنْ أَكْرَمْتَنَا بِالنُّبُوَّةِ وَعَلَّمْتَنَا الْقُرْآنَ، وَفَقَّهْتَنَا فِي الدِّينِ، وَجَعَلْتَ لَنَا أَسْمَاعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً، وَلَمْ تَجْعَلْنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.**

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَصْحَاباً أَوْفَى وَلَا خَيْراً مِنْ أَصْحَابِي، وَلَا أَهْلَ بَيْتٍ أَبَرَّ وَأَوْصَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَجَزَاكُمُ اللَّهُ عَنِّي خَيْراً، أَلَا وَإِنِّي لَأَظُنُّ يَوْمنا مِنْ هَؤُلَاءِ الأَعْداءِ غداً، وَإِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ جَمِيعاً، فَانْطَلِقُوا فِي حِلٍّ لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنِّي ذِمَامٌ، هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَشِيَكُمْ فَاتَّخِذُوهُ جَمَلًا، وَلْيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِيَدِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَجَزَاكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً خَيْراً، ثُمَّ تَفَرَّقُوا فِي سَوادِكُمْ وَمَدَائِنِكُمْ حَتَّىٰ يُفَرِّجَ اللَّهُ، فَإِنَّ الْقَوْمَ إِنَّمَا يَطْلُبُونَنِي، وَلَوْ أَصَابُونِي لَهَوا عَنْ طَلَبِ غَيْرِي»(٢).

---

(١) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٩٢.

(٢) المنتظم: ٥/ ٣٣٧ و٣٣٨.

جواب أهل بيته ﷺ:

ولم يكد يفرغ الإمام الحسين ﷺ من كلماته حتى هبَّت الصفوة الطيِّبة من أهل بيته، وهم يعلنون اختيار الطريق الذي يسلكه، ويتبعونه في مسيرته ولا يختارون غير منهجه، فانبروا جميعاً وعيونهم تفيض دموعاً قائلين: لِمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً.

بدأهم بهذا القول أخوه أبو الفضل العبَّاس، وتابعته الفتية الطيِّبة من أبناء الأُسرة النبوية، والتفت الإمام الحسين ﷺ إلى أبناء عمِّه من بني عقيل، فقال لهم: **حَسْبَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ بِمُسْلِمٍ، اذْهَبُوا فَقَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ**.

وهبَّ فتية آل عقيل تتعالى أصواتهم قائلين بلسان واحد: إذاً ما يقول الناس؟ وما نقول؟ إنَّا تركنا شيخنا وسيِّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن برمح، ولم نضرب بسيف ولا ندري ما صنعوا؟ لا واللَّهِ لا نَفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا نقاتل معك، حتى نرد موردك، فقبَّح الله العيش بعدك[1].

الإمام الحسين ﷺ ينعى نفسه:

وأقبلَ الإمام الحسين ﷺ إلى خيمته يُعَالِجُ سَيْفَهُ وَيُصْلِحُهُ وَهو يَقُولُ:

يَا دَهْرُ أُفٍّ لَكَ مِنْ خَلِيلِ كَمْ لَكَ بِالْإِشْرَاقِ وَالْأَصِيلِ
مِنْ صَاحِبٍ وَطَالِبٍ قَتِيلِ وَالدَّهْرُ لَا يَقْنَعُ بِالْبَدِيلِ
وَإِنَّمَا الْأَمْرُ إِلَى الْجَلِيلِ وَكُلُّ حَيٍّ سَالِكٌ سَبِيلِ[2]

وقد نعى نفسه الشريفة بهذه الأبيات، وكان في الخيمة الإمام زين العابدين ﷺ والعقيلة زينب ﷺ، أمَّا الإمام زين العابدين ﷺ فلمَّا سمع كلام أبيه عرف ما أراد فخنقته العبرة ولزم السكوت، وعلم أنَّ البلاء قد نزل حسبما يقول.

وأمَّا عقيلة بني هاشم فإنَّها لمَّا سمعت هذه الأبيات أحسَّت أنَّ شقيقها وبقية أهلها عازمون على الموت ومصمّمون على الشهادة، فأمسكت قلبها في ذعر، ووثبت وهي تجرُّ أذيالها، وقد فاضت عيناها بالدموع، فقالت لأخيها بنبرات لفظت فيها شظايا قلبها: واثكلاه! واحزناه! ليت الموت أعدمني الحياة، يا حسيناه، يا سيِّداه، يا بقية أهل بيتاه، استسلمت ويئست من الحياة.

---

(١) الإرشاد/المفيد: ٢/٩١ و٩٣.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/١٥٧.

اليوم مات جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله، وأُمّي فاطمة الزهراء، وأبي عليّ، وأخي الحسن، يا بقية الماضين وثِمال[١] الباقين.

فقال لها بحنان: **يا أُخَيَّةُ، لَا يَذْهَبَنَّ بِحِلْمِكِ الشَّيْطانُ.**

وانبرت العقيلة إلى أخيها وهي شاحبة اللون قد مزّق الأسىٰ قلبها الرقيق المعذَّب فقالت له بأسىً والتياع: أتغتصب نفسك اغتصاباً؟! فذاك أطول لحزني وأشجىٰ لقلبي[٢].

ولم تملك صبرها بعدما أيقنت أنَّ شقيقها مقتول، فعمدت إلى جيبها فشقَّته، ولطمت وجهها، وخرَّت على الأرض فاقدة لوعيها، وشاركتها النسوة في المحنة القاسية. وصاحت السيِّدة أُمّ كلثوم: وامحمَّداه، واعليّاه، وأُمَّاه، واحسيناه، واضيعتنا بعدك.

وأثَّر المنظر الرهيب في نفس الإمام الحسين عليه السلام، فذاب قلبه الزاكي أسىً وحسرات، وتقدَّم إلى السيِّدات من بنات الوحي فجعل يأمرهن بالخلود إلى الصبر والتحمُّل لأعباء هذه المحنة الكبرى قائلاً: **يا أُخْتاهُ، يا أُمَّ كُلْثُوم، وَأَنْتِ يَا زَيْنَبُ، وَأَنْتِ يَا فَاطِمَةُ، وَأَنْتِ يَا رَبابُ، أُنْظُرْنَ إِذَا قُتِلْتُ فَلَا تَشْقُقْنَ عَلَيَّ جَيْباً، وَلَا تَخْمُشْنَ وَجْهاً، وَلَا تَقُلْنَ هَجْراً**[٣].

استبشار أصحاب الإمام الحسين عليه السلام:

لقد روى جابر عن أبي جعفر عليه السلام، قال: **«قَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام لأَصْحَابِهِ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله قَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ سَتُسَاقُ إِلَىٰ الْعِرَاقِ، وَهِيَ أَرْضٌ قَدِ الْتَقَىٰ بِهَا النَّبِيُّونَ وَأَوْصِياءُ النَّبِيِّينَ، وَهِيَ أَرْضٌ تُدْعىٰ عَمُورا، وَإِنَّكَ تُسْتَشْهَدُ بِهَا وَيُسْتَشْهَدُ مَعَكَ جَماعَةٌ مِنْ أَصْحَابِكَ لَا يَجِدُونَ أَلَمَ مَسِّ الْحَدِيدِ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٤] تَكُونَ الْحَرْبُ بَرْداً وَسَلَاماً عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ فَأَبْشِرُوا، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلُونا فَإِنَّا نَرِدُ عَلَىٰ نَبِيِّنا...»**[٥].

(١) الثِّمال: الغياث والعِماد والملجأ والمطعم بالشِّدَّة. لسان العرب: ٢/ ١٣٠، ثَمَلَ.
(٢) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٩٣.
(٣) مقتل الحسين عليه السلام/ الخوارزمي: ١/ ٢٣٨.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.
(٥) بحار الأنوار: ٤٥/ ٨٠ و٨١.

سخرية أصحاب الشمر بالإمام الحسين عليه السلام:

وكان الإمام عليه السلام يصلّي، وقد أشرف عليه جماعة من أصحاب الخبيث الدنس شمر بن ذي الجوشن فسمعه يقرأ في صلاته قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾(١).

فجعل رجل من أصحاب الشمر يهزأ بالإمام الحسين عليه السلام، واندفع رافعاً صوته: نحن وربّ الكعبة الطيبون، ميّزنا الله منكم(٢).

رؤيا الإمام الحسين عليه السلام:

وخفق الإمام الحسين عليه السلام خفقة بعدما أعيته الآلام المرهقة، فاستيقظ والتفت إلى أصحابه وأهل بيته فقال لهم: **أَتَعْلَمُونَ مَا رَأَيْتُ فِي مَنَامِي؟**

قالوا: وما الذي رأيت يابن بنت رسول الله؟

قالَ عليه السلام: **رَأَيْتُ كَأَنَّ كِلَاباً قَدْ شَدَّتْ عَلَيَّ تُنَاشِبُنِي(٣)، وَفِيهَا كَلْبٌ أَبْقَعُ أَشَدُّهَا عَلَيَّ، وَأَظُنُّ الَّذِي يَتَوَلَّى قَتْلِي رَجُلٌ أَبْقَعُ وَأَبْرَصُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَهُوَ يَقُولُ لِي: يَا بُنَيَّ، أَنْتَ شَهِيدُ آلِ مُحَمَّدٍ، وَقَدِ اسْتَبْشَرَتْ بِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الصَّفْحِ الْأَعْلَى، فَلْيَكُنْ إِفْطَارُكَ عِنْدِي اللَّيْلَةَ، عَجِّلْ وَلَا تُؤَخِّرْ فَهَذَا مَلَكٌ قَدْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْخُذَ دَمَكَ فِي قَارُورَةٍ خَضْرَاءَ، وَهَذَا مَا رَأَيْتُ، وَقَدْ أَزِفَ الْأَمْرُ وَاقْتَرَبَ الرَّحِيلُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ»**(٤).

دعاء الإمام الحسين عليه السلام:

وخرج أبيُّ الضيم فرأى البيداء قد مُلئت خيلاً ورجالاً، وقد شهرت السيوف والرماح، وهم يتعطشون إلى إراقة دمه ودماء البررة من أهل بيته وأصحابه؛ لينالوا الأجر الزهيد من ابن مرجانة، فدعا عليه السلام بمصحف فنشره على رأسه، وأقبل على الله يتضرّع إليه قائلاً: **اللَّهُمَّ أَنْتَ ثِقَتِي فِي كُلِّ كَرْبٍ، وَرَجَائِي فِي كُلِّ شِدَّةٍ، وَأَنْتَ لِي فِي كُلِّ أَمْرٍ**

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٧٨ و١٧٩.

(٢) الإرشاد/المفيد: ٢/٩٥.

(٣) تناشبني: مأخوذ من نشب في الشيء إذ وقع فيما لا مخلص منه. القاموس المحيط: ص١٤٦، نَشَب. وفي رواية: «تَنْهَشُنِي».

(٤) الفتوح: ٥/٩٩ و١٠٠.

نَزَلَ بِي ثِقَةٌ وَعُدَّةٌ. كَمْ مِنْ كَرْبٍ يَضْعُفُ عَنْهُ الْفُؤَادُ، وَتَقِلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ، وَيَخْذُلُ فِيهِ الصَّدِيقُ، وَيَشْمُتُ فِيهِ الْعَدُوُّ، أَنْزَلْتُهُ بِكَ وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ رَغْبَةً مِنِّي إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ، فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ»[١].

الاحتجاجات الصارمة:

ورأى الإمام الحسين عليه السلام مع أعلام أصحابه أن يقيموا الحجَّة على أهل الكوفة، ليكونوا على بيِّنة من أمرهم وبصيرة على ما قدموا عليه من إثم ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[٢]، وقد أعذروا في الدُّعاء ومنحوا النصيحة لإنقاذ أُولئك الممسوخين من خطر الجريمة التي تؤدِّي بهم إلى النار.

خطبة الإمام الحسين عليه السلام:

ودعا الإمام الحسين عليه السلام براحلته فركبها، واتَّجه نحو معسكر ابن سعد، وهو بتلك الهيبة التي تحكي هيبة جدّه الرسول صلى الله عليه وآله، فخطب فيهم خطابه التاريخي الذي هو من أبلغ وأروع ما أُثر في الكلام العربي، وقد نادى بصوت عالٍ يسمعه جلّهم:

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي وَلَا تَعْجَلُوا حَتَّى أَعِظَكُمْ بِمَا يَحِقُّ لَكُمْ عَلَيَّ، وَحَتَّى أَعْتَذِرَ مِنْ مَقْدَمِي عَلَيْكُمْ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عُذْرِي، وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي، وَأَعْطَيْتُمُونِيَ النَّصَفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَيَّ سَبِيلٌ، وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا مِنِّيَ الْعُذْرَ وَلَمْ تُعْطُوا النَّصَفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[٣]، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٤]».

ونقل الأثيرُ كلماته إلى السيِّدات من عقائل النُّبوَّة وحرائر الوحي، فتصارخن بالبكاء، وارتفعت أصواتهنَّ، فبعث إليهنَّ أخاه العبَّاس وابنه عليّاً، وقال لهما: **سَكِّتاهُنَّ فَلَعَمْرِي لَيَكْثُرُ بُكَاؤُهُنَّ**[٥].

ولمَّا سكتن استرسل في خطابه فحمد الله وأثنى عليه وصلَّى على النبيّ صلى الله عليه وآله وعلى

(١) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٩٦.
(٢) سورة مريم: الآية ٩٠.
(٣) سورة يونس عليه السلام: الآية ٧١.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٩٦.
(٥) تاريخ الأُمم والملوك: ٤/ ٦٢٣.

الملائكة والأنبياء، وقال في ذلك ما لا يحصى ذكره ولم يسمع لا قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه، وقال:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الدُّنْيَا فَجَعَلَهَا دَارَ فَنَاءٍ وَزَوَالٍ، مُتَصَرِّفَةً بِأَهْلِهَا حَالاً بَعْدَ حَالٍ، فَالْمَغْرُورُ مَنْ غَرَّتْهُ، وَالشَّقِيُّ مَنْ فَتَنَتْهُ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا تَقْطَعُ رَجَاءَ مَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا، وَتُخَيِّبُ طَمَعَ مَنْ طَمِعَ فِيهَا، وَأَرَاكُمْ قَدِ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى أَمْرٍ قَدْ أَسْخَطْتُمُ اللَّهَ فِيهِ عَلَيْكُمْ، وَأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ عَنْكُمْ، وَأَحَلَّ بِكُمْ نَقِمَتَهُ، فَنِعْمَ الرَّبُّ رَبُّنَا، وَبِئْسَ الْعَبِيدُ أَنْتُمْ، أَقْرَرْتُمْ بِالطَّاعَةِ، وَآمَنْتُمْ بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ثُمَّ إِنَّكُمْ زَحَفْتُمْ إِلَى ذُرِّيَّتِهِ وَعِتْرَتِهِ تُرِيدُونَ قَتْلَهُمْ. لَقَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْكُمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاكُمْ ذِكْرَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، فَتَبّاً لَكُمْ وَلِمَا تُرِيدُونَ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[(١)].

لقد وعظهم بهذه الكلمات التي تمثِّل هذه النُّبوَّة، ومحنة الأنبياء في أُممهم، فحذَّرهم من فتنة الدُّنيا وغرورها، ودلَّل على عواقبها الخاسرة، وأهاب بهم من الإقدام على قتل عترة نبيهم، فإنَّهم بذلك يخرجون من الإسلام إلى الكفر، ويستوجبون عذاب الله الخالد، وسخطه الدائم، ثمَّ استرسل عليه السلام في خطابه فقال:

أَمَّا بَعْدُ، فَانْسُبُونِي فَانْظُرُوا مَنْ أَنَا؟ ثُمَّ رَاجِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَعَاتِبُوهَا، فَانْظُرُوا هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي وَانْتِهَاكُ حُرْمَتِي؟!

أَلَسْتُ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ، وَابْنَ وَصِيِّهِ، وَابْنَ عَمِّهِ، وَأَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْمُصَدِّقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ؟ أَوَلَيْسَ حَمْزَةُ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عَمَّ أَبِي؟! أَوَلَيْسَ جَعْفَرٌ الطَّيَّارُ عَمِّي؟! أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِي وَلِأَخِي: هَذَانِ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ صَدَّقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ وَهُوَ الْحَقُّ، وَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ الْكَذِبَ مُنْذُ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يَمْقُتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ، وَيَضُرُّ بِهِ مَنِ اخْتَلَقَهُ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي فَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ أَخْبَرَكُمْ، سَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ، وَأَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، وَسَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ، وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، وَأَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يُخْبِرُوكُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِي وَلِأَخِي، أَمَا فِي هَذَا حَاجِزٌ لَكُمْ عَنْ سَفْكِ دَمِي؟[(٢)].

واستمر الإمام الحسين عليه السلام في خطابه، فقال:

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ١٠٠.

(٢) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ٩٧ و٩٨.

فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، أَفَتَشُكُّونَ أَنِّي ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ؟! فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ابْنُ بِنْتِ نَبِيٍّ غَيْرِي فِيكُمْ وَلَا فِي غَيْرِكُمْ، وَيْحَكُمْ أَتَطْلُبُونِي بِقَتِيلٍ مِنْكُمْ قَتَلْتُهُ، أَوْ مَالٍ لَكُمُ اسْتَهْلَكْتُهُ أَوْ بِقِصَاصٍ مِنْ جِرَاحَةٍ.

ثمَّ نَادَى الإمام الحسين عليه السلام قادة الجيش الذين دعوه برسائلهم للقدوم إلى الكوفة، فقال:

يَا شَبَثَ بْنَ رِبْعِيٍّ، وَيَا حَجَّارَ بْنَ أَبْجَرَ، وَيَا قَيْسَ بْنَ الْأَشْعَثِ، وَيَا يَزِيدَ بْنَ الْحَارِثِ، أَلَمْ تَكْتُبُوا إِلَيَّ: أَنْ قَدْ أَيْنَعَتِ الثِّمَارُ وَاخْضَرَّ الْجَنَابُ وَطُمَّتْ الْجِمَامُ، وَإِنَّمَا تَقْدِمُ عَلَى جُنْدٍ لَكَ مُجَنَّدَةٍ، فَأَقْبِلْ؟!

واستغرب الإمام الحسين عليه السلام منهم ذلك، فقال لهم:

سُبْحَانَ اللَّهِ! بَلَىٰ وَاللَّهِ لَقَدْ فَعَلْتُمْ.

وأعرض عنهم ووجَّه خطابه إلى جميع قطعات الجيش، فقال لَهُم:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِذَا كَرِهْتُمُونِي فَدَعُونِي أَنْصَرِفُ عَنْكُمْ إِلَىٰ مَأْمَنِي مِنَ الْأَرْضِ.

فانبرى إليه قيس بن الأشعث ـ وهو ممَّن عُرف بالغدر والنفاق، وقد خلع كل شرف وحياء، وحَسْبُه أنَّه من أُسرة لم تنجب شريفاً قط ـ فقال له: أولا تنزل على حكم بني عمِّك؟ فإنَّهم لن يروك إلاَّ ما تحب، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فأجابه عليه السلام: **أَنْتَ أَخُو أَخِيكَ، أَتُرِيدُ أَنْ يَطْلُبَكَ بَنُو هَاشِمٍ بِأَكْثَرَ مِنْ دَمِ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ؟! لَا وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكُمْ بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ وَلَا أَفِرُّ فِرَارَ الْعَبِيدِ، عِبَادَ اللَّهِ، إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ، وَأَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ**[1].

تزول الممالك وتدول الدول، وهذه الكلمات أحقّ بالبقاء وأجدر بالخلود من كلّ شيء، فقد مثَّلت عزَّة الحقّ، ومنعة الأحرار وشرف الأُباة.

ومن المؤسف أنَّه لم تنفذ هذه الكلمات النيِّرة إلى قلوبهم، فقد أقفل الجهل جميع أبواب الفهم في نفوسهم ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[2]، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3].

---

(١) الإرشاد/المفيد: ٢/٩٧ و٩٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

لقد أعرضوا تماماً عن دعوة الإمام الحسين عليه السلام، فلم يحفلوا بها، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾[١].

وكذلك كان خطاب لزهير بن القين وبرير بن خضير بعد خطاب الإمام الحسين عليه السلام.

خطاب الإمام الحسين عليه السلام الثاني:

وأبت رحمة الإمام الحسين عليه السلام وشفقته على أعدائه إلاَّ أن يقوم بإسداء النصيحة لهم ثانياً، حتى يستبين لهم الحق، ولا يدَّعي أحد منهم أنَّه على غير بيِّنة من أمره، فانطلق نحوهم، وقد نشر كتاب الله العظيم، ولعلَّه إنَّما برز بهذه الهيئة والكتاب على رأسه قد أشار إلى قول النبيّ ﷺ: **«إِنِّي خَلَّفتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي»**[٢] فهو عليه السلام قسيم القرآن فكيف يُستباح دمه؟! واعتمَّ بعمامة جدّه رسول الله ﷺ ولبس لامته، وكان على هيبة تعنو لها الجباه، وتغضُّ عنها الأبصار، فقال لهم:

«تَبّاً لَكُمْ أَيَّتُهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرَحاً، أَحِينَ اسْتَصْرَخْتُمُونَا وَالِهِينَ فَأَصْرَخْنَاكُمْ مُوجِفِينَ[٣]**، سَلَلْتُمْ عَلَيْنَا سَيْفاً فِي أَيْمَانِكُمْ، وَحَشَشْتُمْ**[٤] **عَلَيْنَا نَاراً اقْتَدَحْنَاهَا عَلَىٰ عَدُوِّنَا وَعَدُوِّكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ إِلْباً**[٥] **لِأَعْدَائِكُمْ عَلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ بِغَيْرِ عَدْلٍ أَفْشَوْهُ فِيكُمْ، وَلَا أَمَلَ أَصْبَحَ لَكُمْ فِيهِمْ؟!**

فَهَلَّا لَكُمُ الْوَيْلَاتُ تَرَكْتُمُونَا وَالسَّيْفُ مَشِيمٌ[٦]**، وَالْجَأْشُ طَامِنٌ، وَالرَّأْيُ لَمْ يُسْتَحْصَفْ، وَلَكِنَّكُمْ أَسْرَعْتُمْ إِلَيْهَا كَطَيْرَةِ الدَّبَا**[٧] **وَتَدَاعَيْتُمْ عَلَيْهَا كَتَهَافُتِ الْفَرَاشِ**[٨] **ثُمَّ نَقَضْتُمُوهَا سَفَهاً وَضِلَّةً، فَبُعْداً وَسُحْقاً لَكُمْ يَا عَبِيدَ الْأَمَةِ، وَشُذَّاذَ الْأَحْزَابِ، وَنَبَذَةِ الْكِتَابِ، وَمُحَرِّفِي الْكَلِمِ، وَعُصْبَةِ الْآثَامِ، وَنَفَثَةِ الشَّيْطَانِ، وَمُطْفِئِي السُّنَنِ، وَيْحَكُمْ أَهَؤُلَاءِ تَعْضِدُونَ، وَعَنَّا تَتَخَاذَلُونَ؟!**

---

(١) سورة الروم: الآية ٥٢.
(٢) كمال الدِّين وتمام النعمة: ص٢٣٩.
(٣) موجِفين: أي مسرعين في السير إليك، لسان العرب: ١٥/ ٢٢٣، وجف.
(٤) حششتم: جمعتم الحطب للنار، لسان العرب: ٣/ ١٨٨، حشش.
(٥) إلباً: أي مجتمعين، لسان العرب: ١/ ١٧٧، ألب.
(٦) السيف مشيم: مغمد، لسان العرب: ٧/ ٢٦٢، شيم.
(٧) الدَّبا ـ بفتح الدال وتخفيف الباء ـ: الجراد قبل أن يطير، لسان العرب: ٤/ ٣٨٨، دبا.
(٨) الفراش ـ بفتح وتخفيف الراء ـ: جمع فراشة، وهي صغار البقّ تتهافت في النار؛ لضعف بصرها، لسان العرب: ١٠/ ٢٣٧، فرش.

أَجَلْ وَاللَّهِ لَغَدْرٌ فِيكُمْ قَدِيمٌ وَشَجَتْ عَلَيْهِ أُصُولُكُمْ، وَتَأَزَّرَتْ عَلَيْهِ فُرُوعُكُمْ[١]، فَكُنْتُمْ أَخْبَثَ ثَمَرٍ؛ شَجَنٌ[٢] لِلنَّاصِبِ وَأُكْلَةٌ لِلْغَاصِبِ.

أَلَا إِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السَّلَّةِ[٣] وَالذِّلَّةِ وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ، يَأْبَى اللَّهُ لَنَا ذَلِكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ، وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ، وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ لَا تُؤْثِرُ مَصَارِعَ اللِّئَامِ عَلَى مَصَارِعِ الْكِرَامِ. أَلَا أَلَا وَإِنِّي زَاحِفٌ بِهَذِهِ الْأُسْرَةِ عَلَى قِلَّةِ الْعَدَدِ وَخُذْلَانِ النَّاصِرِ».

ثُمَّ أَنْشَد أبيات فروة بن مسيك المرادي:

فَإِنْ نَهْزِمْ فَهَزَّامُونَ قِدْماً ... وَإِنْ نُهْزَمْ فَغَيْرُ مُهَزَّمِينَا
وَمَا إِنْ طِبُّنَا جُبْنٌ وَلَكِنْ ... مَنَايَانَا وَدَوْلَةُ آخَرِينَا
فَأَفْنَىٰ ذَالِكُمْ سَرَوَاتَ قَوْمِي ... كَمَا أَفْنَىٰ الْقُرُونَ الْأَوَّلِينَا
فَلَوْ خَلَدَ الْمُلُوكُ إِذاً خَلَدْنَا ... وَلَوْ بَقِيَ الْكِرَامُ إِذاً بَقِينَا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا ... سَيَلْقَىٰ الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا
إِذَا مَا الْمَوْتُ رَفَّعَ عَنْ أُنَاسٍ ... كَلَاكِلَهُ أَنَاخَ بِآخَرِينَا

ثُمَّ أَيْمُ اللَّهِ لَا تَلْبَثُونَ بَعْدَهَا إِلَّا كَرَيْثَمَا يُرْكَبُ الْفَرَسُ حَتَّى تَدُورَ بِكُمُ الرَّحَى، وَتَقْلَقَ بِكُمْ قَلَقَ الْمِحْوَرِ، عَهْدٌ عَهِدَهُ إِلَيَّ أَبِي عَنْ جَدِّي ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[٤]، ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾[٥]»[٦].

ورفع يديه بالدُّعاء عليهم قائلاً:

اللَّهُمَّ احْبِسْ عَنْهُمْ قَطْرَ السَّمَاءِ، وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ وَسَلِّطْ عَلَيْهِمْ غُلَامَ ثَقِيفٍ يَسْقِيهِمْ كَأْساً مُصَبَّرَةً فَإِنَّهُمْ كَذَّبُونَا وَخَذَلُونَا، وَأَنْتَ رَبُّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»[٧].

---

(١) تأزَّرت: أي نبتت عليه فروعكم وقويت به، لسان العرب: ١/ ١٣١، أزر.

(٢) الشَّجَنُ: الغُصن المشتبك. القاموس المحيط: ١٥٥٩، شَجَنَ. لسان العرب: ٧/ ٣٩، شَجَنَ. وفي أكثر المصادر يوجد تصحيف للكلمة.

(٣) السلة: استلال السيوف عند القتال. لسان العرب: ٦/ ٣٤١، سَلَلَ.

(٤) سورة يونس عليه السلام: الآية ٧١.

(٥) سورة هود عليه السلام: الآية ٥٦.

(٦) تحف العقول: ص٢٤٠ـ ٢٤٢.

(٧) اللهوف: ص٦٠.

استجابة الحرّ رضي الله عنه:

وثابت نفس الحرّ إلى الرشاد، واستيقظ ضميره بعدما سمع خطاب الإمام الحسين عليه السلام، وجعل يتأمّل ويفكّر في تلك اللحظات الحاسمة من حياته، فقد استولت عليه موجات رهيبة من الصراع النفسي، فهل يلتحق بالحسين عليه السلام فيضحّي بحياته ومنصبه بعدما كان القائد المقرَّب من السلطة، وقد وثقت به وجعلته أميراً على مقدمة جيشها، أو أنَّه يبقى محارباً للإمام الحسين عليه السلام وفي ذلك العذاب الدائم؟ فاختار الحرّ نداء ضميره الحيّ، وتغلَّب على هواه النفسي، فصمَّم على الالتحاق بالحسين عليه السلام واستشهد بين يديه (رضي الله عنه).

الحرب:

وفشلت جميع الوسائل التي اتَّخذها الإمام الحسين عليه السلام؛ لصيانة السلم وعدم سفك الدماء، وقد خاف ابن سعد من إطالة الوقت لئلا يحدث انقسام في صفوف جيشه، فقد أربكه التحاق الحرّ بالإمام الحسين عليه السلام مع ثلاثين فارساً من جيشه، وزحف الباغي إلى مقربة من معسكر الإمام الحسين عليه السلام، فأخذ سهماً فأطلقه صوبه، وهو يصيح: اشهدوا لي عند الأمير أنِّي أوَّل من رمى[١].

واتخذ ابن سعد من السهم الذي فتح به الحرب وسيلة يتقرَّب بها إلى سيِّده ابن مرجانة، ويطلب من الجيش أن يشهدوا له عنده؛ ليكون على ثقة من إخلاصه ووفائه، وأن ينفي عنه الشُّبهات من أنَّه غير جاد في قتاله للحسين عليه السلام، ولا يبقي للمتردِّد في الحرب عذراً. كيف وقد بدأ الحرب ابن سعد ـ ابن فاتح العراق ومن الذين رشَّحهم عمر للخلافة ـ الذي حاز الأولوية في التعدِّي على الحسين عليه السلام وأصحابه، واستشهد على ذلك هؤلاء الأوغاد ليثبت ولاءه وإخلاصه؟!

وتتابعت السهام من معسكر ابن سعد على أصحاب الحسين عليه السلام كأنَّها المطر حتى لم يبقَ أحد منهم إلاَّ أصابه سهم منها، وبطلت بذلك حجَّة السلم التي حرص الإمام الحسين عليه السلام عليها، وكان على انتظار من أعدائه للقيام بهذا العدوان الغادر، فلمَّا بدأوه من جانبهم وجب عليه الدفاع عن النفس وجوباً لا شبهة فيه، والتفت الإمام الحسين عليه السلام إلى أصحابه فأذِن لهم في الحرب قائلاً: **قُومُوا يَا كِرَامُ، فَهَذِهِ رُسُلُ الْقَوْمِ إِلَيْكُمْ**[٢].

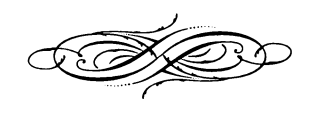
---

(١) أنساب الأشراف: ٣/٣٩٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤/١٠٠. اللهوف: ص٦٠.

وتقدَّمت طلائع الحق من أصحابه إلى ساحة الحرب، وبدأت بذلك المعركة الرهيبة واحتدم القتال أشدّ وأعنف ما يكون، ومن المؤكَّد أنَّه لم تكن مثل تلك المعركة في جميع الحروب التي جرت في الأرض، فقد تقابل اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً مع عشرات الألوف وكانت تلك القلَّة كفُؤاً لتلك الكثرة التي تملك العدَّة والعدد، وأبدت تلك القلَّة من صنوف البسالة والشجاعة ما يبهر العقول ويحيِّر الألباب.

لقد خاض أصحاب الإمام الحسين عليه السلام غمار تلك الحرب عن إيمان وإخلاص فقد كانوا على ثقة بأنَّهم إنَّما يقاتلون في سبيل الدِّين الذي أخلصوا له ووهبوا في سبيله حياتهم، وقد سجَّلوا بجهادهم المُشرق شرفاً لهذه الأُمَّة لا يساويه شرف، وأعطوا للإنسانية أفضل ما قُدِّم لها من عطاء على امتداد التاريخ.



مصارع الأصحاب

وتدافعت جيوش الباطل والضلال وهي مدجَّجة بالسلاح في صفوف كأنَّها السيل ـ ومن ورائهم الدولة والسلطان ـ نحو أُولئك الصفوة الأحرار ومن ورائهم الصبية والنساء، فلم يشغلهم شاغل عن نصرة الحق وإزهاق الباطل، فقد صمدوا بصبر وإخلاص أمام تلك الوحوش الكاسرة فلم ترهبهم كثرتها، وما تتمتع به من آلات الحرب والقتال، وقد أبدوا من البسالة والشجاعة ما يدعو إلى الزهو والافتخار.

وسئل الإمام الصَّادق عليه السلام عنهم، فقال: **«كُشِفَ لَهُمُ الْغِطَاءُ حَتَّىٰ رَأَوا مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ»**[1]، والمراد بالكشف هنا نور الإيمان وقوَّة الإيقان، ونعرض إلى مجريات القتال وما رافقها من شهادة أُولئك الأبرار.

الهجوم العام:

وشنَّت قوات ابن سعد هجوماً عامَّاً واسع النطاق على أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، وخاضوا معهم معركة رهيبة، وهذه هي الحملة الأُولى التي خاضها أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، وهي حملة جماعية ضاربة اشترك فيها معسكر الكوفة بكامل قطعاته، وقد خاض أصحاب الحسين عليه السلام تلك المعركة بعزم يستمد من العقيدة، ويشتق من نفس مفطورة على الإخلاص والتضحية دفاعاً عن الإسلام وجهاداً في سبيل الله، وقد برزت معنوياتهم العسكرية للعيان فكانوا يهزمون الجمع ويخترقون الجيش، وقد اخترقوا جيش ابن سعد عدَّة مرَّات بقلوب أقوى من الصخر، وقد استشهد نصفهم في هذه الحملة[2].

عدد الشُّهداء من أصحاب الإمام عليه السلام:

أمَّا عدد الشُّهداء من أصحابه في الحملة الأُولى فكانوا أربعين شهيداً.

---

(١) علل الشرائع: ١/٢٦٨.

(٢) مع الحسين في نهضته: ص٢٢٠.

لقد اشتدَّ أنصار الحسين عليه السلام في رعايته وحمايته من دون فرق بين الرجل والمرأة والصغير والكبير.

لقد استبسلوا للقتال بعواطفهم الملتهبة وهاموا بحبِّه والإخلاص له.

ولمَّا رأى الكلبي زوجته تهرول خلفه أمرها بالرجوع إلى خيم النساء فأبت عليه، وبصر بها الإمام الحسين عليه السلام فأسرع إليها قائلاً: **جُزِيتُم مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ خَيْراً، ارْجِعِي رَحِمَكَ اللَّهُ لَيْسَ الْجِهَادُ عَلَىٰ النِّساءِ.**

هجوم فاشل:

وشنَّت قوات ابن سعد هجوماً شاملاً على مخيَّم أصحاب الإمام الحسين عليه السلام فتصدّوا لها على قلَّتهم وجثوا لها على الرُّكَب وشرعوا لها الرماح، فلم تتمكَّن الخيل على اقتحامهم وولَّت منهزمة، فرشقهم أصحاب الحسين عليه السلام بالنبل فصرعوا رجالاً، وجروا آخرين، ومُنيت قوات ابن سعد بخسائر فادحة ولم تحقِّق أيّ نصر لها[١].

أما اللذين صرعوا واستشهدوا من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام:

بربر بن خضير.

عمرو بن قَرَظة الأنصاري.

مسلم بن عوسجة.

عبد الله بن عمير الكلبي.

حبيب بن مظاهر.

الحرّ بن يزيد الرياحي.

سعيد بن عبد الله الحنفي.

زهير بن القين.

نافع بن هلال الجملي.

شوذب بن عبد الله الهَمْداني الشاكري.

عابس بن أبي شبيب الشاكري.

جون مولى لأبي ذرّ الغفاري.

حنظلة بن أسعد الشبامي.

(١) الإرشاد/المفيد: ٢/١٠٢.

الحجَّاج بن مسروق الجعفي.

عمرو بن جنادة الأنصاري.

أنس بن الحارث الكاهلي.

أبو الشعثاء يزيد بن زياد بن المهاصر الكندي.

الجابريَّين (سيف بن الحارث بن سريع الجابري، ومالك بن عبد الله بن سريع الجابري).

الغفاريَّين (الأخوان عبد الله، وعبد الرحمن ابنا عروة الغفاري).

الأنصاريَّين (سعد وأخوه أبو الحتوف ابنا الحارث الأنصاري العجلاني).

أنيس بن معقل الأصبحي.

قرَّة بن أبي قرَّة الغفاري.

يحيى بن سليم المازني.

عبد الرَّحمٰن اليزني.

سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي.

الإمام الحسين عليه السلام مع أصحابه:

وكان عليه السلام يبعث في نفوس أصحابه روح العزم والصمود، ويوصيهم بالصبر على ملاقاة الأهوال قائلاً لهم: **صَبْراً بَنِي الْكِرَام، فَمَا الْمَوْتُ إِلَّا قَنْطَرَةٌ تَعْبُرُ بِكُمْ عَنِ الْبُؤْسِ وَالضَّرَّاءِ إِلَىٰ الْجِنَانِ الْوَاسِعَةِ وَالنَّعِيمِ الدَّائِمَةِ، فَأَيُّكُمْ يَكْرَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ سِجْنٍ إِلَىٰ قَصْرٍ...**

إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: إِنَّ الدُّنْيا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ، وَالْمَوْتُ جِسْرُ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ جِنانِهِمْ، وَجِسْرُ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ جَحِيمِهِمْ؛ مَا كَذَبْتُ، وَلَا كُذِّبْتُ[١].

وقد ألهبت هذه الكلمات عواطفهم فخاضوا الموت في استبسال عاصف ليصلوا إلى مراتبهم في الفردوس الأعلى.

الإمام الحسين عليه السلام مع الشُّهداء رحمهم الله:

وكان الإمام العظيم يقف على الشُّهداء الممجّدين من أصحابه وهو يتأمَّل بوجهه

---

(١) معاني الأخبار: ص٢٨٨ و٢٨٩.

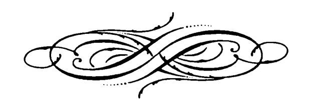
الوديع فيهم فيراهم مضمّخين بدم الشهادة، ومعطّرين بنفحات من روح الله، فانطلق يؤبّنهم بإعجاب قائلاً: **قَتْلَانا قَتْلَىٰ النَّبِيِّين وَآلِ النَّبِيِّينَ**(١).

ولم يعرف التاريخ الإنساني أصدق ولا أنبل من هذا الوفاء، فكان هذا حقّاً هو المجد في معسكر الحسين عليه السلام، فقد ظلّوا على الوفاء لإمامهم حتى الرمق الأخير من حياتهم.

هؤلاء بعض أصحابه، وقد أبلوا في المعركة بلاءً يقصر عنه كل وصف وإطراء، فقد جاهدوا جهاداً لم يعرف له التاريخ نظيراً في جميع عمليات الحروب التي جرت في الأرض، فقد قابلوا على قلّة عددهم وما بهم من الظمأ القاتل تلك الجيوش المكثّفة، وأنزلوا بها أفدح الخسائر.

إنَّ تلك الكوكبة من أبطال الإيمان قد صارعوا الأهوال، وخاضوا تلك المعركة الرهيبة، وقد وقفوا وقفة الرجل الواحد، وقادوا حركة الإيمان، ولم تضعف لأيّ رجل منهم عزيمة، ولم تلن لهم قناة، وقد خضّبوا جميعاً بالدماء وهم يشعرون بالغبطة ويشعرون بالفخار، وقد دلّلوا بتضحياتهم الهائلة النبيلة على عظمة الإسلام الذي منحهم تلك الرُّوح الوثّابة التي استطاعوا بها أن يقاوموا بصبر وثبات تلك الوحوش الكاسرة التي ساقتها الأطماع إلى اقتراف أفظع جريمة في تاريخ البشرية كلها.

لقد سمت أرواحهم الطاهرة إلى الرفيق الأعلى وهي أنضر ما تكون تفانياً في مرضاة الله، وأشدّ ما تكون إيماناً بعدالة قضيتهم التي هي من أنبل القضايا في العالم، وإنَّ أعطر تحية توجَّه لذكراهم كلمات الإمام الصَّادق عليه السلام في حقّهم التي علّمها لصاحبه صفوان: **بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي، طِبْتُمْ وَطَابَتِ الأَرْضُ الَّتِي فِيهَا دُفِنْتُمْ وَفُزْتُمْ وَاللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً**(٢).



(١) بحار الأنوار: ٤٥/ ٨٠.
(٢) بحار الأنوار: ١٠١/ ٢٠١.

مصارع العترة الطّاهرة عليهم السلام

وبعدما استشهدت الصفوة العظيمة من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام هبَّ أبناء الأُسرة النبوية شباباً وأطفالاً للتضحية والفداء، وهم بالرغم من صغر أسنانهم كانوا كالليوث لم يرهبهم الموت ولم تفزعهم الأهوال، وتسابقوا بشوق إلى ميادين الجهاد، وقد ضنَّ الإمام الحسين عليه السلام على بعضهم بالموت فلم يسمح لهم بالجهاد إلاّ أنّهم أخذوا يتضرَّعون إليه، ويقبِّلون يديه ليأذن لهم في الدفاع عنه.

والمنظر الرهيب الذي يذيب القلوب، ويذهل كل كائن حيّ هو أنَّ تلك الفتية جعل يودِّع بعضهم بعضاً الوداع الأخير، فكان كل واحد منهم يوسع أخاه وابن عمِّه تقبيلاً وهم غارقون بالدموع حزناً وأسىً على ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله حيث يرونه وحيداً غريباً قد أحاطت به جيوش الأعداء، ويرون عقائل النُّبوَّة ومخدَّرات الوحي وقد تعالت أصواتهن بالبكاء والعويل، وساعد الله الإمام الحسين عليه السلام على تحمُّل هذه الكوارث التي تقصم الأصلاب، وتذهل الألباب، ولا يطيقها أيّ إنسان إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان.

أمَّا الذين استشهدوا من أبناء الرسول صلى الله عليه وآله، فهم:

علي الأكبر عليه السلام، وكان من أبرّ أبناء الإمام الحسين عليه السلام وأكثرهم مواساة وحرصاً عليه، وهو أوَّل من اندفع بحماس بالغ من الهاشميين إلى الحرب، وكان عمره ـ فيما يقول المؤرخون ـ ثماني عشرة سنة[1]، فلمَّا رآه عليه السلام أخذ يطيل النظر إليه، وقد ذابت نفسه حزناً وأشرف على الاحتضار؛ لأنّه رأى ولده الذي لا ندَّ له قد ساق نفسه إلى الموت، فرفع شيبته الكريمة نحو السَّماء وراح يقول بحرارة وألم ممضّين:

اللّهُمَّ اشْهَدْ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فَقَدْ بَرَزَ إِلَيْهِمْ غُلَامٌ أَشْبَهُ النَّاسِ بِرَسُولِكَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله خَلْقاً وَخُلُقاً وَمَنْطِقاً، وَكُنَّا إِذَا اشْتَقْنا إِلَىٰ رُؤْيَةِ نَبِيِّكِ نَظَرْنا إِلَيْهِ. اللّهُمَّ امْنَعْهُمْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ، وَفَرِّقْهُمْ تَفْرِيقاً، وَمَزِّقْهُمْ تَمْزِيقاً، وَاجْعَلْهُمْ طَرَائِقَ قِدَداً، وَلَا تُرْضِي الْوُلَاةَ عَنْهُمْ أَبَداً، فَإِنَّهُمْ دَعَوْنا لِيَنْصُرُونا ثُمَّ عَدَوا عَلَيْنا يُقَاتِلُونَنَا.

---

(١) الفتوح: ٥/ ١١٤.

وتقطَّع قلب الإمام الحسين عليه السلام حزناً على ولده، فصاح بالمجرم الأثيم عمر بن سعد: **مَا لَكَ؟! قَطَعَ اللَّهُ رَحِمَكَ، وَلَا بَارَكَ لَكَ فِي أَمْرِكَ، وَسَلَّطَ عَلَيْكَ مَنْ يَذْبَحُكَ بَعْدِي عَلَىٰ فِرَاشِكَ، كَمَا قَطَعْتَ رَحِمِي وَلَمْ تَحْفَظْ قَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله**.

ثُمَّ تلا قوله تعالى: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]»[2].

مصارع آل عقيل:

واندفعت الفتية الطيِّبة من آل عقيل إلى الجهاد وهي مستهينة بالموت، وقد نظر الإمام الحسين عليه السلام إلى بسالتهم واندفاعهم إلى نصرته، فكان يقول عليه السلام: **اللَّهُمَّ اقْتُلْ قَاتِلَ آلِ عَقِيلٍ**.

وكان يقول: **صَبْراً آلَ عَقِيلٍ إِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ**[3].

وكان عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام يميل أشدَّ الميل لآل عقيل ويقدِّمهم على غيرهم من آل جعفر، فقيل له في ذلك فقال: **إِنِّي لَأَذْكُرُ يَوْمَهُمْ مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فَأَرِقُّ لَهُمْ**[4].

وقد استشهد منهم سبعة في المعركة دفاعاً عن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهم:

عبد الله بن مسلم بن عقيل.

جعفر بن عقيل.

عبد الرحمن بن عقيل.

عبد الله الأكبر بن عقيل بن أبي طالب.

محمَّد بن أبي سعيد بن عقيل.

محمَّد بن مسلم بن عقيل.

عليّ بن عقيل.

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٣٣ و٣٤.

(٢) بحار الأنوار: ٤٥/ ٤٢ و٤٣.

(٣) بطل العلقمي: ١/ ٢٢٧.

(٤) بحار الأنوار: ٤٦/ ١١٠.

أبناء الإمام الحسن عليه السلام:

وتقدَّمت الفتية من أبناء الإمام الحسن عليه السلام وهم في غضارة العمر وريعان الشباب فجعلوا يتسابقون إلى الموت ليفدوا عمَّهم بأرواحهم، وهم:

عبد الله بن الحسن عليهما السلام.

القاسم بن الحسن عليهما السلام، وفي طليعة أبناء الإمام الحسن عليه السلام القاسم، وكان ـ فيما وصفه المؤرخون ـ كالقمر في بهائه وجماله، وكرونق الزهور وزهوه ونضارته، وقد أنعم الله عليه وهو في سنِّه المبكر بإشراق العقل وفطنة النفس وعزَّة الإيمان، وقد غذَّاه عمَّه بمواهبه، وأفرغ عليه أشعة من روحه حتى صار مثالاً للكمال وقدوة للإيمان، لقد نشأ القاسم في كنف عمّه الإمام الحسين عليه السلام.

وكان القاسم يرنو إلى عمّه ويتطلع إلى محنته، ويود أن يردّ عنه عوادي الأعداء بدمه، وكان يقول: لا يقتل عمِّي وأنا أحمل السيف[1].

وانعطف الإمام الحسين عليه السلام نحو ابن أخيه فجعل يقبِّله والفتى يفحص بيديه ورجليه، وجعل يخاطبه بذوب روحه قائلاً: **بُعْداً لِقَوْمٍ قَتَلوكَ، وَمَنْ خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيْكَ جَدُّكَ. عَزَّ وَاللَّهِ عَلَىٰ عَمِّكَ أَنْ تَدْعُوَهُ فَلَا يُجِيبُكَ، أَوْ يُجِيبُكَ فَلَا يَنفَعُكَ، صَوْتٌ وَاللَّهِ كَثُرَ وَاتِرُهُ، وَقَلَّ نَاصِرُهُ**[2].

الحسن ابن الإمام الحسن عليهما السلام.

عبد الله ابن الإمام الحسن عليهما السلام.

أبناء عبد الله بن جعفر رحمهم الله:

وتسابقت الفتية من أبناء عبد الله بن جعفر إلى الجهاد بين يدي ريحانة رسول الله ﷺ، وهم:

عون بن عبد الله بن جعفر رحمهم الله وأُمّه العقيلة زينب بنت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

محمَّد بن عبد الله بن جعفر رحمهم الله.

عبيد الله بن عبد الله بن جعفر رحمهم الله.

---

(١) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان: ص٢٥.

(٢) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ١٠٨.

إخوة الإمام الحسين عليه السلام:

وبعدما استشهدت الصفوة الطيّبة من أهل البيت عليهم السلام ولم يبقَ مع الإمام الحسين عليه السلام سوى إخوته من أبيه هبّوا للجهاد، ووطّنوا أنفسهم على الموت؛ ليفتدوا ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله بنفوسهم ومهجهم.

العبّاس مع إخوته عليهم السلام ولمّا رأى بطل هاشم وفخر عدنان العبّاس ابن الإمام أمير المؤمنين كثرة القتلى من أهل بيته التفت إلى إخوته من أبيه وأُمّه فقال لهم: تقدّموا يا بني أُمّي حتى أراكم نصحتم لله ولرسوله فإنّه لا ولد لكم[١]. وإخوة الإمام الحسين عليه السلام هم:

عبد الله ابن أمير المؤمنين عليهما السلام.

جعفر بن عليّ عليهما السلام.

عثمان بن عليّ عليهما السلام.

العبّاس ابن أمير المؤمنين عليهما السلام.

وليس في تاريخ الإنسانية قديماً ولا حديثاً أُخوّة أصدق ولا أنبل ولا أوفى من أُخوّة أبي الفضل لأخيه الإمام الحسين عليه السلام، فقد حفلت بجميع القيم الإنسانية والمُثُل الكريمة.

وكان البارز من مثل تلك الأُخوّة النادرة الإيثار والمواساة والفداء، فقد آثر أبو الفضل أخاه وفداه بروحه، وواساه في أقسى المحن والخطوب، وقد أشاد الإمام زين العابدين عليه السلام بهذه المواساة النادرة من عمّه، حيث يقول عليه السلام: **«رَحِمَ اللّهُ الْعَبّاسَ، فَلَقَدْ آثَرَ وَأَبْلىٰ، وَفَدىٰ أَخاهُ بِنَفْسِهِ حَتّىٰ قُطِعَتْ يَداهُ، فَأَبْدَلَهُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِما جِناحَيْنِ يَطِيرُ بِهِما مَعَ الْمَلائِكَةِ فِي الْجَنَّةِ كَما جَعَلَ لِجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طالِبٍ... وَإِنَّ لِلْعَبّاسِ عِنْدَ اللّهِ تَعالىٰ مَنْزِلَةً يَغْبِطُهُ بِها جَمِيعُ الشُّهَداءِ يَوْمَ الْقِيامَةِ»**[٢].

ووقف الإمام الحسين عليه السلام على الجثمان المقدّس وهو يعاني آلام الاحتضار، وألقى بنفسه عليه فجعل يشمّه ويضمّخه بدموع عينيه وهو يلفظ شظايا قلبه الذي مزّقته الكوارث قائلاً: **الآنَ انْكَسَرَ ظَهْرِي، وَقَلَّتْ حِيلَتِي، وَشَمِتَ بِي عَدُوِّي**[٣].

---

(١) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ١٠٩.

(٢) الأمالي/ الصدوق: ص٥٤٨، الحديث ٧٣١.

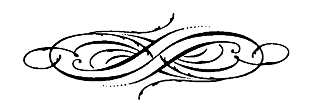
(٣) مقتل الحسين عليه السلام/ الخوارزمي: ٢/ ٣٠.

محمَّد الأصغر.

أبي بكر.

العبَّاس الأصغر.

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن شهداء أهل البيت عليهم السلام، وقد انتهكت بقتلهم حرمة الرسول صلى الله عليه وآله لم يرعَ الجيش الأُموي قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله التي هي أولى بالرعاية والعطف من كل شيء.



مصرع الإمام العظيم عليه السلام

وتتابعت الرزايا والخطوب يتبع بعضها بعضاً على ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو لم يكد ينتهي من كارثة قاصمة حتى تتواكب عليه أشدّ الكوارث هولاً وأعظمها محنة. لقد عانى الإمام الحسين عليه السلام في تلك اللحظات الرهيبة من المحن الشاقّة ما لم يعانه أيّ مصلح كان، ومن بينها:

أوّلاً: إنَّه كان ينظر إلى مخدَّرات الرسالة وعقائل الوحي وهنَّ بحالة من الذعر لا يعلمها إلاَّ الله، ففي كل لحظة يستقبلن عزيزاً من نجوم العترة الطاهرة مضمّخاً بدمائه الزكية لا يلبث أن يلفظ نفسه الأخير أمامهن. وممَّا زاد في وجلهن أنَّ الجفاة من الأعداء الذين محيت الرحمة من نفوسهم قد أحاطوا بهنَّ، ولا يعلمن ماذا سيجري عليهن من المحن بعد فقد الأهل والحماة؟ وكان عليه السلام ينظر إلى ما ألمَّ بهنَّ من الخوف فيذوب قلبه أسىً وحسرات، فكان يأمرهنَّ بالتجلُّد والخلود إلى الصبر، وألاَّ يبدين من الجزع ما ينقص قدرهنَّ، وأعلمهنَّ أنَّ الله يحفظهنَّ وينجيهنَّ من شرِّ الأعداء.

ثانياً: إنَّ الأطفال قد تعالى صراخهم من ألم الظمأ القاتل، وهو لا يجد مجالاً لإغاثتهم، وقد ذاب قلبه الكبير حناناً ورحمة على أطفاله وعياله الذين يعانون ما لا طاقة لهم به.

ثالثاً: تعدي المجرمين بعد قتل أصحابه وأهل بيته إلى قتل الأطفال الأبرياء من أبناء إخوته وعمومته.

رابعاً: مقاساته العطش الأليم، فقد ورد عن شدَّة ظمأه أنَّه كان لا يبصر السَّماء إلاَّ كالدخان، وأنَّ كبده الشريف قد تفتَّت من شدَّة العطش.

يقول الشيخ التستري: «إنَّ عطشه قد أثَّر في أربعة أعضاء، فالشفة ذابلة من حرِّ الظمأ، والكبد مفتَّت لعدم الماء ـ كما قال هو عليه السلام ـ حين كان واقفاً وقد يئس من حياته بحيث علم أنَّهم يعلمون أنَّه لا يعيش بعد ذلك، فأظهر عطشه، وقال: الآن اسْقُونِي

قَطْرَةً مِنَ الْمَاءِ فَقَدْ تَفَتَّتَ كَبِدِي، واللِّسان مجروح من شدَّة اللوك ـ كما في الحديث ـ والعين مظلمة من العطش»[١].

خامساً: فقده للأحبَّة من أهل بيته وأصحابه، فكان ينظر إلى خيمهم فيراها خالية، فجعل يصعِّد آهاته وأحزانه، ويندبهم بأشجىٰ ندبة.

إنَّ النفس لتذوب حسرات من هذه الخطوب التي ألمَّت بابن رسول الله ﷺ.

استغاثة الإمام الحسين عليه السلام:

ونظر الممتحن عليه السلام نظرة مشفوعة بالأسىٰ والحسرات إلى أهل بيته وأصحابه فرآهم مجزَّرين كالأضاحي على رمال كربلاء تصهرهم الشمس، وسمع عياله وقد ارتفعت أصواتهن بالبكاء فأخذ يستغيث ويطلب الناصر والمعين ليحامي عن حرم رسول الله ﷺ قائلاً: **هَلْ مِنْ ذَابٍ يَذُبُّ عَنْ حُرَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ هَلْ مِنْ مُوَحِّدٍ يَخَافُ اللَّهَ فِينَا؟ هَلْ مِنْ مُغِيثٍ يَرْجُو اللَّهَ فِي إِغَاثَتِنا؟**[٢].

مصرع الرضيع عليه السلام:

أيُّ صبر كان صبر أبي عبد الله؟! كيف استطاع أن يتحمَّل هذه الكوارث؟! إنَّه صبر تعجز عنه الكائنات، وتميد من هوله الجبال، وكان من أفجع وأقسىٰ ما نُكب به رزيته بولده عبد الله الرضيع[٣].

صمود الإمام الحسين عليه السلام:

ووقف الإمام الحسين عليه السلام وحيداً في الميدان أمام أعدائه، وقد زادته الفجائع المذهلة إيماناً ويقيناً في بشر وطلاقة وثقة بما يصير إليه من منازل الفردوس الأعلى.

لقد وقف ثابت الجنان لم يوهن عزيمته مصارع أولاده وأهل بيته وأصحابه ولا ما كان يعانيه من ألم العطش ونزيف الدماء، إنَّه صمود الأنبياء وأُولي العزم الذين ميَّزهم الله على بقية عباده.

وذعر ابن سعد من كثرة الخسائر التي مُني بها جيشه، فراح الخبيث الدنس يثير

---

(١) الخصائص الحسينيَّة: ص١١٨.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام/ الخوارزمي: ٢/ ٣٢.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام/ الخوارزمي: ٢/ ٣٢.

النعرات، ويؤلّب الجيش على حرب ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتّال العرب، احملوا عليه من كلٍّ جانب.

ووجّه ابن سعد الرماة نحو الإمام الحسين عليه السلام فكان ـ فيما يقول المؤرخون ـ قد سددت نحوه أربعة آلاف نبلة فصار جسده الشريف هدفاً لنبال أُولئك البغاة[١]، والتحم معهم التحاماً رهيباً، وقد أبدى من البسالة ما لم يشاهد له نظير في جميع فترات التاريخ.

استيلاء الإمام الحسين عليه السلام على الماء:

وألحّ العطش عليه وأضرّ به إلى حدٍّ بعيد، فحمل على الفرات، وكان الموكّلون بحراسته ـ فيما يقول بعض المؤرخين ـ أربعة آلاف فانهزموا من بين يديه، واستولى على الماء فغرف منه غرفة ليروي ظمأه القاتل، فناداه خبيث من القوم: أتلتذُّ بالماء وقد هتكت حرمك؟!

ورمى أبيُّ الضيم الماء من يده، وآثر كرامة عائلته على عطشه، وأسرع إلى الخيمة فإذا بها سالمة، فعلم أنّها مكيدة[٢].

الهجوم على خِيم الحسين عليه السلام:

وتوسَّط أبيُّ الضيم معسكر الأعداء وجعل يقتلهم أشدّ القتال وأعنفه وقد هجموا على خيمه ليسلبوا الحريم والأطفال، فصاح بهم: **«يا شِيعَةَ آلِ أَبِي سُفْيانَ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ، وَكُنْتُمْ لَا تَخافُونَ الْمَعادَ، فَكُونُوا أَحْراراً فِي دُنْياكُم وَارْجِعُوا إِلَىٰ أَحْسابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عُرَباً كَمَا تَزْعَمُونَ»**[٣].

وقد دعاهم عليه السلام إلى الاحتفاظ بالتقاليد العربية التي كانت سائدة في أيام الجاهلية من عدم التعرُّض للنساء والأطفال بأيِّ أذىً أو مكروه.

وانبرى الوغد الخبيث شمر بن ذي الجوشن فقال له: ما تقول يابن فاطمة؟

فقال له الإمام الحسين عليه السلام: **«أَنَا الَّذِي أُقاتِلُكُمْ، وَالنِّساءُ لَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ، فَامْنَعُوا عُتاتَكُمْ مِنَ التَّعَرُّضِ لِحُرَمِي مَا دُمْتُ حَيّاً»**[٤].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ١١٠.
(٢) مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ٤/ ٥٨.
(٣) اللهوف: ص٧١. أنساب الأشراف: ٣/ ٤٠٧.
(٤) مقتل الحسين عليه السلام/ الخوارزمي: ٢/ ٣٣.

فأجابه الشمر إلى ذلك، وأحاط به القتلة المجرمون وهم يوسعونه ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح، فجعلت جراحاته تتفجر دماً.

وداعه عليه السلام لعياله:

وقفل الإمام الحسين عليه السلام راجعاً إلى عياله لودِّعهم الوداع الأخير، وجراحاته تتفجّر دماً، وقد أوصى حرم الرسالة وعقائل الوحي بلبس الأُزر والاستعداد للبلاء، وأمرهن بالخلود إلى الصبر، والتسليم لقضاء الله قائلاً: **اسْتَعِدُّوا لِلْبَلَاءِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالىٰ حَامِيكُمْ وَحَافِظُكُمْ، وَسَيُنجِيكُمْ مِنْ شَرِّ الأَعْدَاءِ، وَيَجْعَلُ عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ إِلَىٰ خَيْرٍ، وَيُعَذِّبُ عَدُوَّكُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَيُعَوِّضُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَالْكَرَامَةِ، فَلَا تَشْكُوا وَلَا تَقُولُوا بِأَلْسِنَتِكُمْ مَا يُنْقِصُ قَدْرَكُمْ**[1].

لقد كانت محنة الإمام الحسين عليه السلام في توديعه لعياله من أقسىٰ وأشقّ ما عاناه من المحن والخطوب، فقد لطمن بنات رسول الله ﷺ وجوههن، وارتفعت أصواتهن بالبكاء والعويل، وهنَّ يندبن جدّهنَّ الرسول ﷺ وألقين بأنفسهنَّ عليه لوداعه، وقد أثّر ذلك المنظر المريع في نفس الحسين عليه السلام بما لا يعلم بمداه إلاّ الله.

وحمل عليه الخبثاء فجعلوا يرمونه بالسهام، وتخالفت السهام بين أطناب المخيَّم، وأصاب بعضها أُزر بعض النساء فذعرن ودخلن الخيمة، وخرج بقية الله في الأرض كالليث الغضبان على أُولئك الممسوخين فجعل يحصد رؤوسهم الخبيثة بسيفه، وكانت السهام تأخذه يميناً وشمالاً، وهو يتّقيها بصدره ونحره، ومن بين تلك السهام التي فتكت به:

١ ـ سهم أصاب فمه الطاهر، فتفجَّر دمه الشريف، فوضع يده تحت الجرح فلمَّا امتلأت دماً رفعه إلى السَّماء وجعل يخاطب الله تعالى قائلاً: **اللَّهُمَّ إِنَّ هَذا فِيكَ قَلِيلٌ**[2].

٢ ـ سهم أصاب جبهته الشريفة المشرقة بنور النُّبوَّة والإمامة، رماه به أبو الحتوف الجعفي فانتزعه، وقد تفجَّر دمه الشريف، فرفع يديه بالدُّعاء على السفاكين المجرمين قائلاً: **اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَرَىٰ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ عِبَادِكَ هَؤُلَاءِ الْعُصَاةِ. اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَداً، وَاقْتُلْهُمْ بَدَداً، وَلَا تَذَرْ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَداً، وَلَا تَغْفِرْ لَهُمْ أَبَداً**.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام/ المقرّم: ص٣٤٨.

(٢) الدرّ النظيم: ص١٦٨.

وصاح بالجيش: **يَا أُمَّةَ السُّوءِ، بِئْسَما خَلَفْتُمْ مُحَمَّداً فِي عِتْرَتِهِ، أَمَا إِنَّكُمْ لَا تَقْتُلونَ رَجُلاً بَعْدِي فَتَهابُونَ قَتْلَهُ، بَلْ يَهُونُ عَلَيْكُمْ ذٰلِكَ عِنْدَ قَتْلِكُمْ إِيَّايَ، وَأَيْمُ اللّٰهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يُكْرِمَنِي اللّٰهُ بِالشَّهَادَةِ، ثُمَّ يَنْتَقِمُ لِي مِنْكُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُونَ**[١].

٣ ـ السهم المثلث، وهو من أعظم السهام التي فتكت بالإمام الحسين عليه السلام.

يقول المؤرخون: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام وقف ليستريح بعدما أعياه نزيف الدماء، فرماه وغد بحجر أصاب جبهته الشريفة، فسالت الدماء على وجهه، فأخذ الثوب ليمسح الدم عن عينيه، فرماه رجس بسهم محدَّد له ثلاث شعب فوقع على قلبه الشريف الذي يحمل العطف والحنان لجميع الناس، فعند ذلك أيقن بدنو الأجل المحتوم منه، فشخص ببصره نحو السَّماء وهو يقول: **بِسْمِ اللّٰهِ وَبِاللّٰهِ، وَعَلَىٰ مِلَّةِ رَسُولِ اللّٰهِ صلى الله عليه وآله، إِلٰهِي إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ رَجُلاً لَيْسَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ ابْنُ بِنْتِ نَبِيٍّ غَيْرُهُ**.

وأخرج السهم من قفاه فانبعث الدم كالميزاب فأخذ يتلقَّاه بيديه، فلمَّا امتلأتا رمى به نحو السماء وهو يقول: **هَوَّنَ ما نَزَلَ بِي أَنَّهُ بِعَيْنِ اللّٰهِ**.

وأخذ عليه السلام من دمه الشريف فلطخ به وجهه ولحيته، وهو بتلك الهيبة التي تحكي هيبة الأنبياء، واندفع يقول: **هٰكَذا أَكُونُ حَتَّىٰ أَلْقَىٰ اللّٰهَ وَجَدِّي رَسُولَ اللّٰهِ صلى الله عليه وآله وَأَنَا مُخَضَّبٌ بِدَمِي**[٢].

مناجاته عليه السلام مع الله تعالى:

واتَّجه الإمام الحسين عليه السلام في تلك اللحظات الأخيرة إلى الله فأخذ يناجيه ويتضرَّع إليه بقلب منيب، ويشكو إليه ما ألمَّ به من الكوارث والخطوب قائلاً: **صَبْراً عَلَىٰ قَضَائِكَ لَا إِلٰهَ سِوَاكَ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ، مَا لِي رَبٌّ سِواكَ وَلَا مَعْبُودٌ غَيْرُكَ. صَبْراً عَلَىٰ حُكْمِكَ؛ يَا غِياثَ مَنْ لَا غِياثَ لَهُ، يَا دَائِماً لَا نَفَادَ لَهُ، يَا مُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ، يَا قَائِماً عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ، احْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**[٣].

الهجوم عليه:

وهجمت على ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله تلك العصابة المجرمة التي تحمل رجس الأرض وخبث اللئام، فحملوا عليه ـ يا لله ـ من كل جانب وهم يوسعونه ضرباً بالسيوف

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام/ المقرّم: ص٣٥٠ و٣٥١.

(٢) اللهوف: ص٦٩. مقتل الحسين عليه السلام/ الخوارزمي: ٢/ ٣٤.

(٣) الخصائص الحسينيَّة: ص٧٧. مقتل الحسين عليه السلام/ المقرّم: ص٣٥٧.

وطعناً بالرماح، فضربه زرعة بن شريك التميمي على كفه اليسرى، وضربه وغد آخر على عاتقه، وكان من أحقد أعدائه عليه الخبيث سنان بن أنس، فقد أخذ يضربه تارةً بالسيف وأُخرى يطعنه بالرمح، وكان يفخر بذلك، وقد حكى للحجَّاج ما صنعه به باعتزاز قائلاً: دَسَرته بالرمح دَسْراً، وهبرته بالسيف هبراً[1].

فالتاع الحجَّاج على قسوته وصاح به: أما إنَّكما لن تجتمعا في دار[2].

وأحاط به أعداء الله من كل جانب، وسيوفهم تقطر من دمه الزكي.

يقول بعض المؤرخين: إنَّه لم يُضرب أحد في الإسلام كما ضُرب الحسين عليه السلام، فقد وُجِدَ به ثلاثمائة وبضعة وعشرون جراحة ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم[3].

خروج العقيلة عليها السلام:

وخرجت حفيدة الرسول ﷺ زينب من خبائها وهي فزعة تندب شقيقها وبقية أهلها، وتقول بذوب روحها: ليت السَّماء أطبقت على الأرض، وليت الجبال تدكدكت على السهل[4].

وأقبل ابن سعد فصاحت به: يا عمر، أرضيت أن يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟! فأشاح الخبيث بوجهه عنها ودموعه تسيل على لحيته المشومة[5]، ولم تعد العقيلة تقوى على النظر إلى أخيها وهو بتلك الحالة التي تميد بالصبر، فانصرفت إلى خبائها لترعى المذاعير من النِّساء والأطفال.

الفاجعة الكبرى:

ومكث الإمام الحسين عليه السلام طويلاً من النهار، وقد أجهدته الجروح وأعياه نزيف الدماء، فصاح بالقتلة المجرمين: **«أَعَلَىٰ قَتْلِي تَحاثُّونَ؟ أَما وَاللَّهِ لَا تَقْتُلُونَ بَعْدِي عَبْداً**

---

(١) الدَّسْرُ: الطعن والدفع، القاموس المحيط: ص٥٠١، دسر. هبرته: قطعته، لسان العرب: ١٥/١٥، هبر.

(٢) أنساب الأشراف: ٣/٤١٨.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ٤/١١٠ و١١١.

(٤) اللهوف: ص٧٣. تاريخ الأمم والملوك: ٤/٦٤٧.

(٥) الإرشاد/المفيد: ٢/١١٢.

مِنْ عِبَادِ اللَّهِ اللَّهُ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ لِقَتْلِهِ مِنِّي، وَأَيْمُ اللَّهِ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يُكْرِمَنِي اللَّهُ بِهَوانِكُمْ، ثُمَّ يَنْتَقِمُ لِي مِنْكُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُونَ»[١].

لقد تاجر الحسين عليه السلام مع الله بما قدَّمه من عظيم التضحية والفداء، فكانت تجارته هي التجارة الرابحة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

والشيء المحقَّق أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قد ربح بتجارته وفاز بالفخر الذي لم يفز به أحد غيره، فليس في أُسرة شهداء الحق من نال الشرف والمجد والخلود مثل ما ناله عليه السلام، فها هي الدُّنيا تعجُّ بذكراه، وها هو حَرَمه المقدَّس أصبح أعزّ حرم وأمنعه في الأرض.

لقد رفع الإمام العظيم راية الإسلام عالية خفَّاقة وهي ملطَّخة بدمه الزاكي ودماء الشُّهداء من أهل بيته وأصحابه، وهي تضيء في رحاب هذا الكون وتفتح الآفاق الكريمة لشعوب العالم وأُمم الأرض لحريتهم وكرامتهم.

لقد استشهد الإمام الحسين عليه السلام من أجل أن يقيم في ربوع هذا الكون دولة الحق، وينقذ المجتمع من حكم الأُمويين الذين كفروا بحقوق الإنسان، وحوَّلوا البلاد إلى مزرعة لهم يصيبون منها حيث ما شاؤوا.

عُمْر الإمام الحسين عليه السلام وسنة شهادته:

أمَّا عمره الشريف حين شهادته عليه السلام، فقد اختلف فيه المؤرخون، وهذه بعض الأقوال:

الأوَّل: ثمان وخمسون سنة، وإليه ذهب معظم المؤرخين[٣].

الثاني: ست وخمسون سنة، وإليه ذهب اليعقوبي وقال: لأنَّه ولد سنة أربع من الهجرة[٤].

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤/ ٦٤٧ و٦٤٨.
(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.
(٣) الإرشاد/ المفيد: ٢/ ١٣٣.
(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٥٩.

الثالث: سبع وخمسون سنة[١].

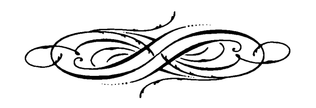
الرابع: خمس وستون سنة[٢].

أمّا السنة التي استشهد فيها فيه سنة(٦١هـ) حسبما ذكره أغلب المؤرخين[٣]، وهي تصادف سنة (٦٨٠ ميلادية، في ١٠ تشرين الأول)[٤]، وما ذكره الحجّة الشيخ محمّد رضا آل كاشف الغطاء رحمه الله أنّه في (١٠ تموز)[٥] فإنّه لا واقع له.

امتداد الحمرة في السَّماء:

ومادت الأرض واسودّت آفاق الكون[٦]، وامتدت حمرة رهيبة في السَّماء[٧] كانت نذيراً من الله لأُولئك السفاكين المجرمين الذين انتهكوا جميع حرمات الله، وفي هذا الأُفق الملتهب بالحمرة والنار.

لقد احتلَّ الإمام الحسين عليه السلام مشاعر الناس وثوى في أفئدتهم فهاموا في حبِّه وتقديسه، وقد فجعوا بما جرى عليه من عظيم الرزايا والخطوب، وظلّت رزيته تنخر في القلوب، وتذوب النُّفوس من هولها أسىً وحزناً.



(١) الكافي: ١/ ٥٣٠.
(٢) مرآة الجنان: ١/ ١٠٦.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٥٨.
(٤) تاريخ الدول العربية: ص١٤٤.
(٥) مجلة الغريّ: عدد ٢٣ و٢٤/ السنة الأُولى.
(٦) مرآة الجنان: ١/ ١٣٤.
(٧) مجمع الزوائد: ٩/ ١٩٧.

معطيات الثورة

وليس في تاريخ هذه الدُّنيا ثورة هزَّت العالم، ومجَّدت الحقّ، وسجَّلت فخراً للإنسان مثل ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فجميع فصولها نور، وكل آفاقها شرف ومجد، وقد حفلت بالدروس الخالدة عن العقيدة التي لا تضعف، والإيمان الذي لا يقهر، والإباء الذي لا يذل. وقد فتحت لأُمم العالم وشعوب الأرض عصراً جديداً اتسم بروح الثورة والتمرُّد على الظلم والطغيان، ومقاومة الاضطهاد ومناهضة الفساد.

لقد كانت ثورة أبي الأحرار هي الثورة الأُولى في التاريخ البشري، وذلك بما حقَّقته من المكاسب على الصعيد الفكري والاجتماعي والسياسي، والتي كان من بينها:

انتصار القضية الإسلامية:

وأحرز الإمام العظيم بشهادته النصر الهائل الذي لم يحرزه أيّ ثائر في الأرض، فقد انتصرت أهدافه ومبادؤه التي ناضل من أجلها، وكان من أهمَّها انتصار القضية الإسلامية في صراعها السافر مع الأُموية التي عبثت بمقدَّرات الإسلام، وراحت تستأصل جميع جذوره حتى لم يعد له أيّ ظل على واقع الحياة، وقد أخذ الإمام الحسين عليه السلام على عاتقه مصير الدِّين الإسلامي فاستشهد في سبيله، وقد أعاد ـ سلام الله عليه ـ للإسلام نضارته، وأزال عنه الخطر الجاثم عليه.

يقول الفيلسوف الألماني (ماريين): «لا يشك صاحب الوجدان ـ إذا دقَّق النظر في أوضاع ذلك العصر، وكيفية نجاح بني أُمية في مقاصدهم، واستيلائهم على جميع طبقات الناس ـ وتزلزل المسلمين.

إنَّ الحسين قد أحيا بقتله دين جدّه وقوانين الإسلام، ولو لم تقع تلك الواقعة، ولم تظهر تلك الحسّيات الصادقة بين المسلمين... ولولا قتل الحسين لم يكن الإسلام على ما هو عليه قطعاً، بل كان من الممكن ضياع رسومه وقوانينه حيث كان يومئذٍ حديث العهد».

ويكفي الإمام الحسين عليه السلام ربحاً في شهادته أنَّه أحيا الإسلام وفداه بدمه، وقد

أشار إلى ذلك الإمام زين العابدين عليه السلام حينما سأله إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله، فقال له: من الغالب؟

فقال عليه السلام: **«إِذَا دَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَأَذِّنْ وَأَقِمْ تَعْرِفُ الْغَالِبَ»**(١).

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام هو المنتصر والغالب؛ لأنَّه أعاد للإسلام حياته ونضارته، فكان هو المجدّد، ولعلَّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله عنى هذه الجهة بقوله: **«حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ»**(٢).

إنَّه لولا تضحية الإمام الحسين عليه السلام لضاعت جميع جهود الرسول صلى الله عليه وآله وماجاء به من خير وبركة ورحمة للناس، فإنَّ بني أُمية حملوا معول الهدم على جميع المبادىء التي جاء بها هذا الدِّين فأعلنوا الكفر والإلحاد، وساسوا الناس بسياسة لا ظل فيها لحكم القرآن.

هزيمة الأُمويين:

وكان من أوليات ما أحرزه الإمام الحسين عليه السلام من الانتصارات الرائعة هزيمته للأُمويين، فقد نسفت تضحيته جميع الأُسس والقواعد التي أقامها معاوية لتوطيد الملك في آل أبي سفيان.

يقول بعض الكُتَّاب: «إنَّ ما بناه معاوية لابنه يزيد في أعوام هدمه الحسين في أيام، ونظر الناس إلى الخليفة نظرة الأفن والاستهتار فنفر المسلمون من سياسته، ولصوق هذا بدولتهم، ووسمه الواسمون بسمات الخديعة والمكر والظلم والجور، وذلك كله بفضل هدي الحسين، وحسن سمته، وما رسمه من سياسة حكيمة في الوقوف أمام ظلمهم، وما اختطه من خطَّة قويمة في دفع عنتهم وبغيهم، وما أبداه في حركاته من حزم وإيثار»(٣).

لقد أطاح الإمام الحسين عليه السلام بنهضته المباركة بتلك الرؤوس التي نفخها الكِبر وأثقلها الغرور، وأعماها الطيش.

أمَّا مظاهر الهزيمة الأُموية بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، فهي:

---

(١) الأمالي/الطوسي: ص٦٧٧، الحديث ١٤٣٢.
(٢) الإرشاد/المفيد: ٢/١٢٧.
(٣) ريحانة الرسول صلى الله عليه وآله: ص١٧٦.

أوَّلاً: تجريدهم من الواقع الإسلامي:

لقد عملت مجزرة كربلاء الرهيبة على تجريد الأُمويّين من الإطار الإسلامي، وأثبتت أنَّهم على وثنيتهم وجاهليتهم.

ثانياً: شيوع النقمة والإنكار عليهم:

وكان من مظاهر الهزيمة الساحقة التي مُني بها الأُمويون شيوع النقمة والإنكار عليهم في جميع الأوساط.

ثالثاً: تحوُّل الخلافة عن بني أُمية:

وهزمت ثورة الإمام الحسين عليه السلام الحكم الأُموي، ونسفت جميع معالمه، وجعلته يعيش في ثورات متلاحقة قامت بها الشيعة وغيرهم.

تركيز التشيُّع:

ومن معطيات الثورة الحسينية أنَّها ركَّزت التشيُّع في إطاره العقائدي وأصبح عقيدة راسخة في نفوس الشيعة. يقول فيليب حتّي: «إنَّ الحركة الشيعية ولدت في العاشر من المحرم، ومنذ ذلك اليوم أصبح عقد الإمامة لذرِّية عليّ سنةً لها في عقائد الشيعة، ما لنبوَّة محمَّد صلى الله عليه وآله من قدر الإسلام»[١].

ويقول بعض المستشرقين: «لولا مقتل الحسين لما كانت هناك شيعة في الإسلام»[٢].

ويقول الشيخ التستري: «إنَّه لو لم يتحمَّل الإمام الحسين عليه السلام لهذه المصائب لم يظهر دين للشيعة؛ وذلك لأنَّ بني أُمية لمَّا استولوا على البلاد وأظهروا الفساد، وسعوا في إخفاء الحق، حتى شبَّهوا الأمر على الناس، فجعلوا سبّ عليّ عليه السلام من أجزاء الصلاة، وأدخلوا في أذهان الناس أنَّ بني أُمية أئمة الإسلام، ورسخ ذلك في عقائد الناس من زمن طفولتهم حيث إنَّهم ألقوا ذلك إلى المعلِّمين ليفيدوا الأطفال في مكاتبهم ومدارسهم، فاعتقد الناس حقيقة أنَّ هؤلاء أئمة الدِّين، وأنَّ مخالفهم على ضلال... ولمَّا قتل الإمام الحسين عليه السلام بتلك الكيفية وسبيت عياله تنبَّه الناس إلى أنَّ هؤلاء لو

---

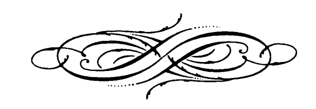
(١) تاريخ العرب: ص٢٥١.
(٢) الحسين بن علي/عمر أبو النصر: ص١٠.

كانوا أئمَّة حق ما فعلوا ذلك، وأنَّ فعلهم لا يطابق ديناً ولا مذهباً ولا عدلاً ولا يطابق جور الجائرين»[1].

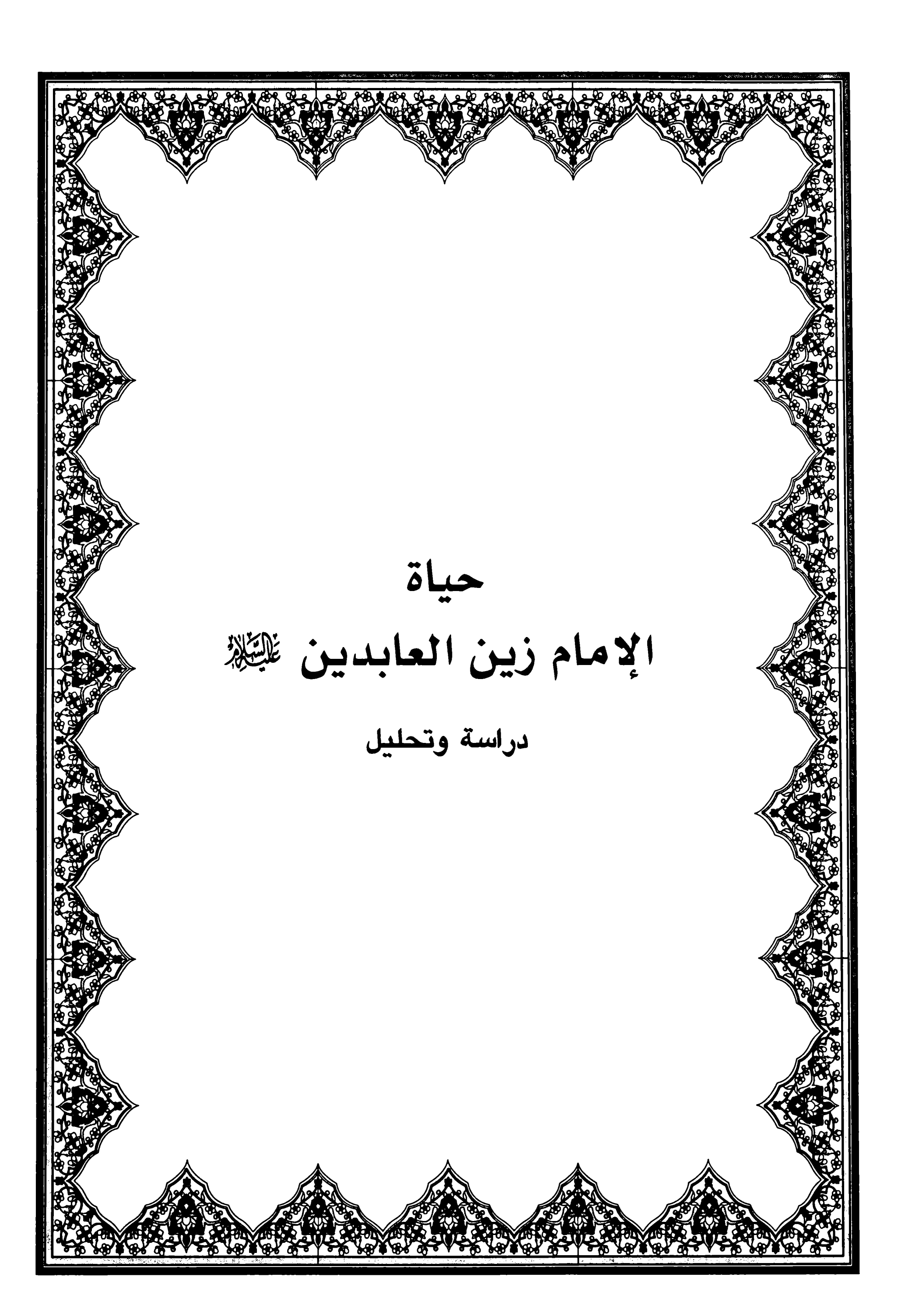
تكوين الحسِّ الاجتماعي:

وعملت نهضة الإمام الحسين عليه السلام على تكوين الحسِّ الاجتماعي وخلق روح الثورة في النُّفوس، وقد تغيَّرت الأُمَّة تغييراً كاملاً فتسلَّحت بعد خمودها بقوَّة الإيمان وقوَّة العزم والتصميم، وتحرَّرت من جميع السلبيات التي كانت ملمَّة بها، فقد أخذت تنادي بحقوقها، وتعمل جاهدة على إسقاط الحكم الأُموي.

لقد قلبت ثورة الإمام الحسين عليه السلام مفاهيم الخوف والخنوع التي كانت سائدة في الأُمَّة إلى مبادىء الثورة والنضال والتحرُّر من ربقة الذل والعبودية، فقد أعطتهم ثورة الإمام الحسين عليه السلام قوَّة دافعة، وأمدَّتهم بروح وثَّابة لمقارعة الظلم والطغيان.



(١) الخصائص الحسينيَّة: ص٨٣.



حياة
الإمام زين العابدين عليه السلام

دراسة وتحليل

النسب الرفيع

أبوه:

الإمام الحسين بن علي عليه السلام سيِّد الشُّهداء.

أُمّه:

السيِّدة الجليلة الكريمة «شاه زنان» سليلة الملوك، وأُمّ الإمام زين العابدين عليه السلام وقد تحلَّت بأوسمة شريفة كان من بينها:

أ ـ نسبها الوضاح فهي حفيدة كسرى الملك العادل.

ب ـ إنَّها زوجة أبي الأحرار وسيِّد الشُّهداء الإمام الحسين عليه السلام.

ج ـ إنَّها أُمّ الإمام زين العابدين وسيِّد الساجدين عليه السلام.

د ـ إنَّها جدة الأئمَّة الطاهرين من نسل الإمام زين العابدين عليه السلام.

هـ ـ إنَّها الرابطة المقدَّسة بين العرب والفرس.

وكانت مثال العفَّة، والطهارة، والكمال، وسمو الآداب وحدة الذكاء.

وعرفت السيِّدة أُمّ الإمام عليه السلام بشاه زنان، وهذا ليس اسماً لها، وإنَّما هو لقب لها، ومعناه في اللغة العربية ملكة النِّساء أو سيِّدة النِّساء[١] أمَّا اسمها الشريف فقد اختلف فيه المؤرخون، وفيما يلي بعض أقوالهم:

١ ـ سلامة[٢].

٢ ـ سلافة[٣].

٣ ـ غزالة[٤].

---

(١) نور الأبصار للشبلنجي: ص١٢٦.

(٢) أُصول الكافي: ١/٤٦٦.

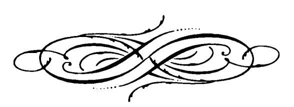
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/ورقة ٤٦.

(٤) صفة الصفوة: ٢/٥٢.

٤ ـ سلمة[١].

٥ ـ سادرة[٢].

٦ ـ شهربانويه[٣].



(١) الأئمة الاثني عشر: ص٧٥.

(٢) الإتحاف بحب الأشراف: ص٤٩.

(٣) روضة الواعظين: ١/ ٢٣٧.

الوليد العظيم

وأشرقت الدُّنيا بولادة الإمام زين العابدين عليه السلام الذي فجر ينابيع العلم والحكمة في الأرض، وقدَّم للناس بسيرته أروع الأمثلة والدروس في نكران الذات، والتجرُّد عن الدُّنيا، والانقطاع إلى الله.

وقد استقبلت الأسرة النبوية بمزيد من الأفراح والمسرات هذا الوليد المبارك الذي بشر به النبي صلى الله عليه وآله، وقد شملت الابتهاجات جميع من يتصل بأهل البيت من الصحابة وأبنائهم.

مكان الولادة:

واختلف المؤرخون في المكان الذي حظي بولادة الإمام زين العابدين عليه السلام، وفيما يلي ما ذكروه.

أ ـ أنَّه وُلد في الكوفة[(١)].

ب ـ كانت ولادته في يثرب[(٢)].

والذي أراه أنَّ ولادته كانت في الكوفة، وذلك لما أجمع عليه الرواة والمؤرخون أنَّه وُلد قبل وفاة جده أمير المؤمنين عليه السلام بسنتين[(٣)].

الزمان:

وتضاربت أقوال المؤرخين في الزمان الذي كانت فيه ولادة الإمام، وفيما يلي ما ذكروه:

أ ـ ولد في اليوم الخامس من شعبان سنة (٣٨هـ)[(٤)] وذلك في يوم الخميس[(٥)].

---

(١) شذرات الذهب: ١/ ١٠٤.

(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ: ص١٨٧.

(٣) أخبار الدول: ص١٠٩.

(٤) تحفة الراغب: ص١٣.

(٥) الصراط السوي: ورقة ١٩٢.

ب ـ ولد في يوم الجمعة لتسع خلون من شعبان سنة (٣٨هـ)(١).

ج ـ ولد في النصف من جمادى الأولى سنة (٣٨هـ)(٢).

د ـ ولد يوم الجمعة ٢٦ جمادى الآخرة سنة (٣٨هـ)(٣).

هـ ـ ولد في شهور سنة (٣٣هـ)(٤) وهذا القول شاذ ومخالف لما أجمع عليه الرواة والمؤرخون من أنَّ ولادته كانت سنة (٣٨هـ).

والمشهور عند الإمامية هو القول الأول.

تسميته:

روى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري قال كنت جالساً عند رسول الله ﷺ والحسين في حجره، وهو يداعبه، فقال ياجابر يولد له مولود اسمه (علي) إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ليقم سيِّد العابدين، فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمَّد، فإن أدركته يا جابر فاقرئه منِّي السلام..(٥).

كنيته:

وكني الإمام زين العابدين عليه السلام بما يلي:

أ ـ أبو الحسين.

ب ـ أبو الحسن.

ج ـ أبو محمد(٦).

د ـ أبو عبد الله(٧).

---

(١) روضة الواعظين: ١/ ٢٢٢.
(٢) بحر الأنساب: ورقة ٥٢.
(٣) الإمامة في الإسلام: ص١١٦.
(٤) النفحة العنبرية، مصور في مكتبة السيِّد الحكيم.
(٥) وسيلة المآل في مناقب الآل: ورقة ٧.
(٦) تهذيب اللغات والأسماء، القسم الأول: ص٣٤٣.
(٧) تهذيب الكمال: م٧/ ٢٥ ورقة ٣٣٤.

ألقابه:

١ ـ زين العابدين:

وأضفى عليه هذا اللقب جده رسول الله صلى الله عليه وآله ـ كما تقدَّم ـ وإنَّما لقب به لكثرة عبادته[١].

٢ ـ سيِّد العابدين:

من ألقابه البارزة (سيِّد العابدين) وذلك لما ظهر منه من الانقياد والطاعة لله.

٣ ـ ذو الثفنات:

لقب بذلك لما ظهر على أعضاء سجوده من شبه ثفنات البعير[٢].

٤ ـ السجاد:

من ألقابه الشريفة التي اشتهر بها «السجاد»[٣] وذلك لكثرة سجوده.

وحدث الإمام أبو جعفر محمَّد الباقر عليه السلام عن كثرة سجود أبيه قال: إنَّ علي بن الحسين ما ذكر لله عزَّ وجلَّ نعمة عليه إلاَّ سجد، ولا قرأ آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ فيها سجود إلاَّ سجد، ولا دفع الله عنه سوءً يخشاه إلاَّ سجد، ولا فرغ من صلاة مفروضة إلاَّ سجد، وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده فسُمِّي السجَّاد لذلك[٤].

ونظم ابن حماد كثرة سجود الإمام وعبادته بهذه الأبيات الرقيقة:

وراهب أهل البيت كان ولم يزل ... يُلقب بالسجاد حين تعبده
يقضي بطول الصوم طول نهاره ... منيباً ويقضي ليله بتهجده
فأين به من علمه ووفائه ... وأين به من نسكه وتعبده[٥]

٥ ـ الزكي:

لقب بالزكي لأنَّ الله تعالى زكَّاه وطهَّره من كلّ دنس.

---

(١) تهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٦.
(٢) صبح الأعشى: ١/ ٤٥٢.
(٣) علل الشرائع: ص٨٨.
(٤) وسائل الشيعة: ٤/ ٩٧٧.
(٥) المناقب.

٦ ـ الأمين:

ومن ألقابه الشريفة التي عرف بها (الأمين)[١] فقد كان المثل الأعلى لهذه الصفة الكريمة، وقد قال عليه السلام: «لو أنَّ قاتل أبي أودع عندي السيف الذي قتل به أبي لأديته إليه».

٧ ـ ابن الخيرتين:

ومن ألقابه التي اشتهر بها (ابن الخيرتين) وكان يعتز بهذا اللقب، ويقول: أنا ابن الخيرتين، إشارة لقول جدّه رسول الله ﷺ: «لله تعالى من عباده خيرتان، فخيرته من العرب هاشم ومن العجم فارس»[٢].

وفاة أُمّه:

وأول نكبة داهمته وهو في المرحلة الأولى من طفولته وفاة أُمّه، فقد أصابتها بعد ولادتها حمى النفاس.

لقد نكب الإمام زين العابدين عليه السلام بوالدته وهو في أول مرحلة من مراحل طفولته، وكان ذلك إيذاناً لتتابع المحن والخطوب عليه التي لم تجر على أيّ إنسان سواه.

مربيته:

وعهد الإمام الحسين عليه السلام إلى سيِّدة زكية من أُمَّهات أولاده بالقيام بحضانة ولده زين العابدين ورضاعته ورعايته، وقد عنيت به هذه المرأة الصالحة كأشد ما تكون العناية، فكانت ترعاه كما ترعى الأمّ الرؤوم فلذة كبدها، وقد درج الإمام في جو من الكتمان الشديد، فلم يخبره أحد بموت أُمّه إلاَّ بعد أن كبر لئلا يحترق قلبه ويقلق باله[٣].

صفاته الجسمية:

ذكر المؤرخون أنّه كان أسمر قصيراً نحيفاً[٤] ورقيقاً[٥]، وكان كلَّما تقدَّمت به السن ازداد ضعفاً وذبولاً، وذلك لكثرة عبادته.

---

(١) الفصول المهمَّة، لابن الصباغ: ص١٨٧.
(٢) الكامل للمبرد: ١/ ٢٢٢، وفيات الأعيان: ٢/ ٤٢٩.
(٣) الإمام زين العابدين عليه السلام: ص١٩.
(٤) نور الأبصار: ص٣٦.
(٥) أخبار الدول: ص١٠٩.

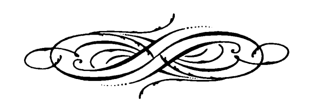
هيبته ووقاره:

أما هيبته فتعنو لها الوجوه والجباه، فكانت تعلو على أسارير وجهه أنوار الأنبياء، وهيبة الأوصياء، ووصف شاعر العرب الأكبر الفرزدق في رائعته هيبة الإمام بقوله:

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
يغضي حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلم إلاّ حين يبتسم

نقش خاتمه:

أما نقش خاتمه فقد كان يحكي مدى انقطاعه واتصاله بالله، فقد نقش عليه «وما توفيقي إلاّ بالله»[١] وقيل كان نقش خاتمه، «علمت فاعمل»[٢].



(١) الفصول المهمة: ص١٨٧.
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/٣٠٢.

نشأته وسلوكه

نشأته:

نشأ الإمام زين العابدين في بيت النبوة والإمامة ذلك البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وفي المرحلة الأولى من طفولته كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يتعاهده، ويفضي عليه أشعة من روحه التي طبق شذاها العالم بأسره، فكان الحفيد - بحقّ - صورة صادقة عن جده يُحاكيه ويُضاهيه في عناصره، ومكوّناته النفسية.

سلوكه:

يقول الرواة: إنَّه كان يمعن في قراءة سيرة جده حينما تجهده العبادة فيتنفس تنفس الصعداء، ويقول بحسرات: «أين عبادتي من عبادة جدي أمير المؤمنين؟..».

سيرته في بيته:

كان الإمام زين العابدين عليه السلام من أرأف الناس وأبرهم وأرحمهم بأهل بيته، وكان لا يتميز عليهم، بل كان كأحدهم، وأثر عنه أنَّه قال: لأن أدخل السوق ومعي دراهم ابتاع بها لعيالي لحماً، وقد قرموا[١] أحب إليَّ من أن أعتق نسمة[٢].

دعاؤه لأبويه:

أما دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام لأبويه فهو من ألمع القواعد في التربية الإسلامية الهادفة إلى إصلاح الأسرة وسعادتها، وشيوع المحبة والاحترام بين أفرادها ومن الطبيعي أنَّ الأسرة إذا صلحت صلح المجتمع بأسره، وإذا فسدت فسد المجتمع كذلك، لأنَّها الخلية الأولى في بناء المجتمع وتكوينه، وفيما يلي نص هذه اللوحة الذهبية من دعائه:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ، وَرَسُولِكَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الطَّاهِرِينَ، وَاخْصُصْهُمْ بِأَفْضَلِ

---

(١) قرموا: أي اشتد شوقهم إلى اللحم.

(٢) البحار: ٦٧/٤٦.

صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَسَلامِكَ، وَاخْصُصِ اللَّهُمَّ وَالِدَيَّ بِالْكَرَامَةِ لَدَيْكَ، وَالصَّلاةِ مِنْكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَلْهِمْنِي عِلْمَ مَا يَجِبُ لَهُمَا عَلَيَّ إِلْهَاماً، وَاجْمَعْ لِي عِلْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَمَاماً، ثُمَّ اسْتَعْمِلْنِي بِمَا تُلْهِمُنِي مِنْهُ، وَوَفِّقْنِي لِلنُّفُوذِ فِيمَا تُبَصِّرُنِي مِنْ عِلْمِهِ، حَتَّى لَا يَفُوتَنِي اسْتِعْمَالُ شَيْءٍ عَلَّمْتَنِيهِ، وَلَا تَثْقُلَ أَرْكَانِي[1] عَنِ الْحُفُوفِ[2] فِيمَا أَلْهَمْتَنِيهِ...».

ولنستمع إلى قطعة أخرى من دعائه لهما:

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ كَمَا شَرَّفْتَنَا بِهِ، وَصل عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ كَمَا أَوْجَبْتَ لَنَا الْحَقَّ عَلَى الْخَلْقِ بِسَبَبِهِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَهَابُهُمَا هَيْبَةَ السُّلْطَانِ الْعَسُوفِ، وَأَبَرُّهُمَا بِرَّ الْأُمِّ الرَّؤُوفِ، وَاجْعَلْ طَاعَتِي لِوَالِدَيَّ، وَبِرِّي بِهِمَا أَقَرَّ لِعَيْنِي مِنْ رَقْدَةِ الْوَسْنَانِ[3]، وَأَثْلَجَ لِصَدْرِي مِنْ شَرْبَةِ الظَّمْآنِ حَتَّى أُوثِرَ عَلَى هَوَايَ هَوَاهُمَا، وَأُقَدِّمَ عَلَى رِضَايَ رِضَاهُمَا، وَأَسْتَكْثِرَ بِرَّهُمَا بِي وَإِنْ قَلَّ، وَأَسْتَقِلَّ بِرِّي بِهِمَا وَإِنْ كَثُرَ...».

ونعود إلى مواصلة ذكر الفقرات المشرقة من دعاء الإمام لأبويه:

«اللَّهُمَّ خَفِّضْ لَهُمَا صَوْتِي وَأَطِبْ لَهُمَا عَرِيكَتِي[4]، وَاعْطِفْ عَلَيْهِمَا قَلْبِي، وَصَيِّرْنِي بِهِمَا رَفِيقاً، وَعَلَيْهِمَا شَفِيقاً، اللَّهُمَّ اشْكُرْ لَهُمَا تَرْبِيَتِي، وَأَثِبْهُمَا عَلَى تَكْرِمَتِي، وَاحْفَظْ لَهُمَا مَا حَفِظَاهُ مِنِّي فِي صِغَرِي، اللَّهُمَّ وَمَا مَسَّهُمَا مِنِّي مِنْ أَذَى أَوْ خَلَصَ إِلَيْهِمَا عَنِّي مِنْ مَكْرُوهٍ أَوْ ضَاعَ قِبَلِي لَهُمَا مِنْ حَقٍّ فَاجْعَلْهُ حِطَّةً لِذُنُوبِهِمَا، وَعُلُوّاً فِي دَرَجَاتِهِمَا وَزِيَادَةً فِي حَسَنَاتِهِمَا، يَا مُبَدِّلَ السَّيِّئَاتِ بِأَضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ...».

ولنستمع إلى قطعة أُخرى من كلامه عليه السلام:

«اللَّهُمَّ وَمَا تَعَدَّيَا عَلَيَّ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ أَسْرَفَا عَلَيَّ فِيهِ مِنْ فِعْلٍ، أَوْ ضَيَّعَاهُ لِي مِنْ حَقٍّ، أَوْ قَصَّرَا بِي عَنْهُ مِنْ وَاجِبٍ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَهُمَا، وَجُدْتُ بِهِ عَلَيْهِمَا، وَرَغِبْتُ إِلَيْكَ فِي وَضع تَبِعَتِهِ عَنْهُمَا، فَإِنِّي لَا أَتَّهِمُهُمَا عَلَى نَفْسِي، وَلَا أَسْتَبْطِئُهُمَا فِي بِرِّي، وَلَا أَكْرَهُ مَا تَوَلَّيَاهُ مِنْ أَمْرِي يَا رَبِّ، فَهُمَا أَوْجَبُ حَقّاً عَلَيَّ، وَأَقْدَمُ إِحْسَاناً إِلَيَّ، وَأَعْظَمُ مِنَّةً لَدَيَّ مِنْ

(١) أركاني: أي أعضائي وجوارحي.
(٢) الحفوف: الإحاطة والشمول.
(٣) الوسنان الشديد النعاس الذي تتوق نفسه إلى النوم.
(٤) العريكة: الطبع.

أَنْ أُقَاصَّهُمَا بِعَدْلٍ أَوْ أُجَازِيَهُمَا عَلَى مِثْلٍ، أَيْنَ إِذاً يَا إِلَهِي طُولُ شُغْلِهِمَا بِتَرْبِيَتِي؟ وَأَيْنَ شِدَّةُ تَعَبِهِمَا فِي حِرَاسَتِي وَأَيْنَ إِقْتَارُهُمَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا لِلتَّوْسِعَةِ عَلَيَّ؟ هَيْهَاتَ مَا يَسْتَوْفِيَانِ مِنِّي حَقَّهُمَا، وَلَا أُدْرِكُ مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَهُمَا، وَلَا أَنَا بِقَاضٍ وَظِيفَةَ خِدْمَتِهِمَا... فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَعِنِّي يَا خَيْرَ مَنِ اسْتُعِينَ بِهِ، وَوَفِّقْنِي يَا أَهْدَى مَنْ رُغِبَ إِلَيْهِ، وَلَا تَجْعَلْنِي فِي أَهْلِ الْعُقُوقِ لِلْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ...».

ولنستمع إلى القطعة الأخيرة من دعاء الإمام:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَاخْصُصْ أَبَوَيَّ بِأَفْضَلِ مَا خَصَصْتَ بِهِ آبَاءَ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأُمَّهَاتِهِمْ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، اللَّهُمَّ لَا تُنْسِنِي ذِكْرَهُمَا فِي أَدْبَارِ صَلَوَاتِي، وَفِي آنَاء مِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ، وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ نَهَارِي، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاغْفِرْ لِي بِدُعَائِي لَهُمَا، وَاغْفِرْ لَهُمَا بِبِرِّهِمَا بِي مَغْفِرَةً حَتْماً، وَارْضَ عَنْهُمَا بِشَفَاعَتِي لَهُمَا رِضًى عَزْماً، وَبَلِّغْهُمَا بِالْكَرَامَةِ مَوَاطِنَ السَّلَامَةِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لَهُمَا فَشَفِّعْهُمَا فِيَّ، وَإِنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لِي فَشَفِّعْنِي فِيهِمَا حَتَّى نَجْتَمِعَ بِرَأْفَتِكَ فِي دَارِ كَرَامَتِكَ، وَمَحَلِّ مَغْفِرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ إِنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَالْمَنِّ الْقَدِيمِ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ...»[1].

مع أبنائه:

أما سلوك الإمام زين العابدين ﷺ مع أبنائه فقد تميَّز بالتربية الإسلامية الرفيعة لهم، فغرس في نفوسهم نزعاته الخيرة، واتجاهاته الإصلاحية العظيمة وقد صاروا بحكم تربيته لهم من ألمع رجال الفكر والعلم والنضال في الإسلام.

وصاياه لأبنائه:

١ ـ نص وصيته:

«يا بني انظر خمسة فلا تصاحبهم، ولا تحادثهم، ولا ترافقهم في طريق، فقال له ولده: من هم؟ قال ﷺ: **«إيَّاك ومصاحبة الكذَّاب فإنَّه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد، ويبعد لك القريب، وإيَّاك مصاحبة الفاسق فإنَّه بايعك بأكلة أو أقل من ذلك، وإيَّاك ومصاحبة البخيل فإنَّه يخذلك في ماله، وأنت أحوج ما تكون إليه، وإيَّاك ومصاحبة**

(١) الصحيفة السجَّاديَّة الدُّعاء الرابع والعشرون.

الأحمق فإنَّه يريد أن ينفعك فيضرك، وإيَّاك ومصاحبة القاطع لرحمه فإنِّي وجدته ملعوناً في كتاب الله...»[١].

٢ ـ ومن جملة وصاياه الرفيعة لأبنائه هذه الوصية الحافلة بالنصائح الجليلة وهذا نصّها:

«يا بني اصبر على النائبة، ولا تتعرض للحقوق، ولا تجب أخاك إلى شيء مضرته عليك أعظم من منفعته لك...»[٢].

٣ ـ ومن وصاياه لبعض أولاده هذه الوصية الرائعة، وهي:

«يا بني إنَّ الله لم يرضك لي فأوصاك بي، ورضيني لك فحذرني منك، واعلم أنَّ خير الآباء للأبناء من لم تدعه المودة إلى التفريط فيه، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق له..»[٣].

٤ ـ ومن وصاياه القيمة هذه الوصية التي خصَّ بها ولده الإمام الباقر عليه السلام، وقد حذَّره فيها من مصاحبة الأحمق، وقد جاء فيها:

«يا بني إيَّاك من مصاحبة الأحمق أو تخالطه، واهجره، ولا تحادثه فإنَّ الأحمق هجنة عياب، غائباً كان أو حاضراً، إن تكلَّم فضحه حمقه، وإن سكت قصر به عيه، وإن عمل أفسد، وإن استرعي أضاع، لا علمه من نفسه يغنيه، ولا علم غيره ينفعه، ولا يطيع ناصحه، ولا يستريح مقارنه، تود أُمّه أنَّها ثكلته، وامرأته أنَّها فقدته، وجاره بعد داره، وجليسه الوحدة من مجالسته، إن كان أصغر من في المجلس أعنى من فوقه، وإن كان أكبرهم أفسد من دونه..»[٤].

٥ ـ ومن وصاياه الرائعة التي نصح بها أبناءه هذه الوصية:

«جالسوا أهل الدِّين والمعرفة، فإن لم تقدروا عليهم فالوحدة آنس وأسلم فإذا أبيتم إلاَّ مجالسة الناس فجالسوا أهل المروآت فإنَّهم لا يزمتون في مجالسهم..»[٥].

---

(١) تحف العقول: ص٢٧٩.
(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٧٦.
(٣) العقد الفريد: ٣/ ٨٩.
(٤) وسائل الشيعة: ٥/ ٤٢١.
(٥) رجال الكشي: ص٤١٩.

دعاؤه لأبنائه:

أما دعاء الإمام لأبنائه فهو في منتهى الروعة والجلال، فقد حكى سلوكه النيِّر معهم وما يتمنَّاه لهم من سمو الآداب، ومكارم الأخلاق، ولنستمع ونصغي إليه فإنَّه من أسمى الثروات في التربية الإسلامية.

«اللَّهُمَّ وَمُنَّ عَلَيَّ بِبَقَاءِ وُلْدِي وَبِإِصْلَاحِهِمْ لِي، وبِإِمْتَاعِي بِهِمْ، إِلَهِي امْدُدْ لِي فِي أَعْمَارِهِمْ، وَزِدْ لِي فِي آجَالِهِمْ، وَرَبِّ لِي صَغِيرَهُمْ، وَقَوِّ لِي ضَعِيفَهُمْ، وَأَصِحَّ لِي أَبْدَانَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ، وَعَافِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَفِي جَوَارِحِهِمْ، وَفِي كُلِّ مَا عُنِيتُ بِهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَأَدْرِرْ لِي، وَعَلَى يَدِي أَرْزَاقَهُمْ، وَاجْعَلْهُمْ أَبْرَاراً أَتْقِيَاءَ بُصَرَاءَ سَامِعِينَ، مُطِيعِينَ لَكَ وَلِأَوْلِيَائِكَ مُحِبِّينَ مُنَاصِحِينَ، وَلِجَمِيعِ أَعْدَائِكَ مُعَانِدِينَ وَمُبْغِضِينَ آمِينَ...».

ولنستمع إلى قطعة أُخرى من هذا الدُّعاء الشريف:

«اللَّهُمَّ اشْدُدْ بِهِمْ عَضُدِي، وَأَقِمْ بِهِمْ أَوَدِي، وَكَثِّرْ بِهِمْ عَدَدِي، وَزَيِّنْ بِهِمْ مَحْضَرِي، وَأَحْيِ بِهِمْ ذِكْرِي، وَاكْفِنِي بِهِمْ فِي غَيْبَتِي، وَأَعِنْ بِهِمْ عَلَى حَاجَتِي، وَاجْعَلْهُمْ لِي مُحِبِّينَ، وَعَلَيَّ حَدِبِينَ مُقْبِلِينَ، مُسْتَقِيمِينَ لِي، مُطِيعِينَ، غَيْرَ عَاصِينَ، وَلَا مُخَالِفِينَ وَلَا خَاطِئِينَ، وَأَعِنِّي عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ مَعَهُمْ أَوْلَاداً ذُكُوراً، وَاجْعَلْ ذَلِكَ خَيْراً لِي، وَاجْعَلْهُمْ لِي عَوْناً عَلَى مَا سَأَلْتُكَ، وَأَعِذْنِي وَذُرِّيَّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَإِنَّكَ خَلَقْتَنَا وَأَمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا، وَرَغَّبْتَنَا فِي ثَوَابِ مَا أَمَرْتَنَا، وَرَهَّبْتَنَا عِقَابَهُ، وَجَعَلْتَ لَنَا عَدُوّاً يَكِيدُنَا، سَلَّطْتَهُ مِنَّا عَلَى مَا لَمْ تُسَلِّطْنَا عَلَيْهِ مِنْهُ، أَسْكَنْتَهُ صُدُورَنَا، وَأَجْرَيْتَهُ مَجَارِيَ دِمَائِنَا، لَا يَغْفُلُ إِنْ غَفَلْنَا، وَلَا يَنْسَى إِنْ نَسِينَا، يُؤْمِنُنَا عِقَابَكَ، وَيُخَوِّفُنَا بِغَيْرِكَ، إِنْ هَمَمْنَا بِفَاحِشَةٍ شَجَّعَنَا عَلَيْهَا، وَإِنْ هَمَمْنَا بِعَمَلٍ صَالِحٍ ثَبَّطَنَا عَنْهُ، يَتَعَرَّضُ لَنَا بِالشَّهَوَاتِ وَيَنْصِبُ لَنَا بِالشُّبُهَاتِ، إِنْ وَعَدَنَا كَذَبَنَا، وَإِنْ مَنَّانَا أَخْلَفَنَا وَإِلَّا تَصرِفْ عَنَّا كَيْدَهُ يُضِلَّنَا، وَإِلَّا تَقِنَا خَبَالَهُ[١] يَسْتَزِلَّنَا[٢]، اللَّهُمَّ فَاقْهَرْ سُلْطَانَهُ عَنَّا بِسُلْطَانِكَ حَتَّى تَحْبِسَهُ عَنَّا بِكَثْرَةِ الدُّعَاءِ لَكَ فَنُصْبِحَ مِنْ كَيْدِهِ فِي الْمَعْصُومِينَ بِكَ...».

ولنستمع بعد هذا إلى القطعة الأخيرة من هذا الدُّعاء الشريف:

«اللَّهُمَّ أَعْطِنِي كُلَّ سُؤْلِي، وَاقْضِ لِي حَوَائِجِي، وَلَا تَمْنَعْنِي الْإِجَابَةَ، وَقَدْ ضَمِنْتَهَا لِي وَلَا تَحْجُبْ دُعَائِي عَنْكَ، وَقَدْ أَمَرْتَنِي بِهِ، وَامْنُنْ عَلَيَّ بِكُلِّ مَا يُصْلِحُنِي فِي دُنْيَايَ

---

(١) خباله: أي فساده.

(٢) يستزلنا: أي يوقعنا في المهالك والمزلّات.

وَآخِرَتِي مَا ذَكَرْتُ مِنْهُ وَمَا نَسِيتُ، أَوْ أَظْهَرْتُ أَوْ أَخْفَيْتُ أَوْ أَعْلَنْتُ أَوْ أَسْرَرْتُ، وَاجْعَلْنِي فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ بِسُؤَالِي إِيَّاكَ، الْمُنْجِحِينَ بِالطَّلَبِ إِلَيْكَ غَيْرِ الْمَمْنُوعِينَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ الْمُعَوَّدِينَ بِالتَّعَوُّذِ بِكَ، الرَّاغِبِينَ فِي التِّجَارَةِ عَلَيْكَ الْمُجَارِينَ[(١)] بِعِزِّكَ الْمُوَسَّعِ عَلَيْهِمُ الرِّزْقُ الْحَلَالُ مِنْ فَضْلِكَ الْوَاسِعِ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ، الْمُعَزِّينَ مِنَ الذُّلِّ بِكَ، وَالْمُجَارِينَ مِنَ الظُّلْمِ بِعَدْلِكَ، وَالْمُعَافَيْنَ مِنَ الْبَلَاءِ بِرَحْمَتِكَ، وَالْمُغْنَيْنَ مِنَ الْفَقْرِ بِغِنَاكَ، وَالْمَعْصُومِينَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالزَّلَلِ وَالْخَطَاءِ بِتَقْوَاكَ، وَالْمُوَفَّقِينَ لِلْخَيْرِ وَالرُّشْدِ وَالصَّوَابِ بِطَاعَتِكَ، وَالْمُحَالِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الذُّنُوبِ بِقُدْرَتِكَ، التَّارِكِينَ لِكُلِّ مَعْصِيَتِكَ، السَّاكِنِينَ فِي جِوَارِكَ، اللَّهُمَّ أَعْطِنَا جَمِيعَ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِكَ وَرَحْمَتِكَ، وَأَعِذْنَا مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، وَأَعْطِ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِثْلَ الَّذِي سَأَلْتُكَ لِنَفْسِي وَلِوُلْدِي، فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، إِنَّكَ قَرِيبٌ مُجِيبٌ، سَمِيعٌ عَلِيمٌ، عَفُوٌّ غَفُورٌ، رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ...»[(٢)].

مع مماليكه:

ويقول الرواة: إنَّه لم يعاقب أمة ولا عبداً فيما إذا اقترفا ذنباً[(٣)] وقد كان له مملوك فدعاه مرتين فلم يجبه، وفي الثالثة قال له الإمام برفق ولطف:

- «يابني أما سمعت صوتي؟...».
- «بلى..».
- «لِمَ لَمْ تجبني؟..».
- «أمنت منك...».

فخرج الإمام وراح يحمد الله ويقول:

«الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمنني...»[(٤)].

مع جيرانه:

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام من أبر الناس بجيرانه، فكان يرعاهم كما يرعى

---

(١) المجارين: أي المحفوظين من الظلم.

(٢) الصحيفة السجَّاديَّة: الدُّعاء الخامس والعشرون.

(٣) البحار: ٤٦/١٠٣.

(٤) تأريخ دمشق: ٣٦/١٥٥.

أهله، وكان يعول ضعفاءهم وفقراءهم، ويعود مرضاهم، ويشيع موتاهم، ولم يترك لوناً من ألوان البر إلا أسداه إليهم، وكان يستقي لضعفاء جيرانه في غلس اللّيل البهيم كما روى ذلك الزهري[١].

مع جلسائه:

قال عليه السلام: «ما جلس إليّ أحد قط إلاّ عرفت له فضله»[٢].

وقد دخل عليه نصر ابن أوس الطائي، فرحب به الإمام، وقال له:

- «ممَّن أنت؟».

- «من طي..».

- «حيَّاك الله، وحيَّا قوماً عُزِيْتَ إليهم، نعم الحيّ حيّك..».

والتفت الطائي إلى الإمام فقال له:

- «من أنت؟..».

- «علي بن الحسين..».

- «أولم يقتل بالعراق مع أبيه؟..».

فقابله الإمام ببسمات فيَّاضة بالبشر قائلة:

- «لو قتل يا بني لم تره..»[٣].

ويقول المؤرخون إنَّه كان لا يسمح لأحد من جلسائه أن يعتدي على من أساء إليه فقد دخل عليه أحد أعدائه، فقال له: «هل تعرف الصلاة؟..».

فانبرى أبو حازم وهو من أصحاب الإمام فأراد الوقيعة به، فزجره الإمام وقال له: «مهلاً يا أبا حازم إنَّ العلماء هم الحلماء الرحماء»، ثمَّ التفت إلى الرجل بلطف وقال له: «نعم أعرفها..».

سأله الرجل عن بعض خصوصيات الصلاة فأجابه الإمام عنها، فخجل الرجل، وراح يعتذر للإمام ويقول له: ما تركت لأحد حجَّة[٤].

---

(١) بهجة الأبرار.
(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس ليوسف القرطبي: ١/٤٦.
(٣) تأريخ دمشق: ٣٦/١٤٥.
(٤) بهجة الأبرار.

مع شيعته:

قال عليه السلام لبعض شيعته:

«أبلغ شيعتنا أنَّه لن يغني عنهم من الله شيء، وأنَّ ولايتنا لا تنال إلاَّ بالورع..»(١).

ووفد جماعة إلى الإمام عليه السلام وعرفوا نفوسهم له بأنَّهم من الشيعة فأمعن الإمام في وجوههم فلم ير عليها أثر الصلاح، فقال لهم: «أين السمت في الوجوه؟ أي أثر العبادة؟ أين سيماء السجود؟ إنَّما شيعتنا بعبادتهم، وشعثهم، قد قرحت العبادة منهم الآماق ووثرت الجباه والمساجد، خمص البطون، ذبل الشفاه، قد هيجت وجوههم، وأخلق سهر اللَّيالي، وقطع الهواجر حثيثهم، المسبِّحون إذا سكت الناس، والمصلون إذا نام الناس، والمحزونون إذا فرح الناس، يعرفون بالزهد، وشاغلهم الجنَّة..»(٢).

استغفاره لمذنبي شيعته:

وبلغ من حبّ الإمام زين العابدين عليه السلام لشيعته والموالين أنَّه كان يدعو لمذنبيهم في كل يوم، فقد قال عليه السلام لأمّ فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر: «إنِّي لأدعو لمذنبي شيعتنا في اليوم والليلة مائة مرَّة، لأنَّا نصبر على ما نعلم ويصبرون على ما لا يعلمون..»(٣).

مع أعدائه:

يقول المؤرخون: إنَّ إسماعيل بن هشام المخزومي كان والياً على يثرب، وكان شديد البغض والحقد على آل البيت عليهم السلام وكان يبالغ في إيذاء الإمام زين العابدين، ويشتم آباءه على المنابر تقرُّباً إلى حكَّام دمشق، ولما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة بادر إلى عزله والوقيعة به لهنات كانت بينهما قبل أن يلي الملك والسلطان، وقد أوعز بإيقافه للناس لاستيفاء حقوقهم منه، وفزع ابن هشام كأشد ما يكون الفزع من الإمام زين العابدين لكثرة اعتدائه عليه، وإسائته له، وقال: ما أخاف إلاَّ من علي بن الحسين فإنَّه رجل صالح يسمع قوله فيَّ، أما الإمام عليه السلام فقد عهد إلى أصحابه ومواليه أن لا يتعرَّضوا له بمكروه، وأسرع إليه فقابله ببسمات فيَّاضة بالبشر وعرض عليه القيام بما

---

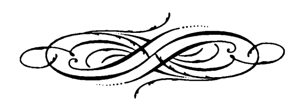
(١) الدر النظيم: ص١٧٣.

(٢) صفات الشيعة، من مخطوطات مكتبة السيِّد الحكيم.

(٣) الوافي: ٢/ ١٨٣؛ عيون المعجزات: ص٧٦.

يحتاج إليه من معونة في أيام محنته قائلاً: «يا ابن العم عافاك الله لقد ساءني ما صُنع بك فادعنا إلى ما أحببت..».

وذهل هشام وراح يقول بإعجاب: «الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء...»[1].



(١) حياة الإمام محمد الباقر: ١/ ٣٥.

عناصره النفسية

يقول سعيد بن المسيب وهو من كبار علماء المدينة: «ما رأيت قط أفضل من علي بن الحسين، وما رأيته قط إلاّ مقت نفسي..»[١].

لقد رفعته مثله العليا إلى قمة الشرف والمجد التي ارتقى إليها العظماء من آبائه.

الحلم:

قد عرفه الجاحظ بقوله: «إنَّه ترك الانتقام عند شدَّة الغضب مع القدرة على ذلك»[٢].

وقد ذكر الرواة والمؤرخون بوادر كثيرة من حلمه منها ما يلي:

١ ـ كانت له جارية تسكب في يديه الماء إذا أراد الوضوء للصلاة، فسقط الإبريق من يدها على وجهه الشريف فشجَّه، فبادرت الجارية قائلة: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: «والكاظمين الغيظ».

وأسرع الإمام قائلاً: «كظمت غيظي..».

وطمعت الجارية في حلم الإمام ونبله فراحت تطلب منه المزيد قائلة: «والعافين عن الناس».

فقال لها الإمام برفق ولطف: «عفا الله عنك..».

وأسرعت الجارية قائلة: «والله يحب المحسنين..».

وقابلها الإمام بمزيد من اللطف والإحسان قائلاً: «إذهبي فأنت حرة..»[٣].

٢ ـ ومن بوادر حلمه أنَّ وغداً لئيماً استقبله بالسب والشتم بلا سبب، فقابله الإمام

---

(١) تأريخ اليعقوبي: ٣/٤٦.
(٢) تهذيب الأخلاق: ص١٩.
(٣) تأريخ دمشق: ٣٦/١٥٥.

باللطف قائلاً له: «يا فتى إنَّ بين أيدينا عقبة كؤوداً، فإن جزتُ منها فلا أبالي بما تقول: وإن أتحير فيها فأنا شرّ ممَّا تقول..»(١).

لقد كان الإمام مشغولاً بعواطفه ومشاعره نحو الله، والفزع من أهوال دار الآخرة التي لا ينجو فيها إلاَّ المتقون، ولم يزعجه هذا الهراء الذي ينم عن نفس قد خسرت الأخلاق والآداب.

٣ ـ ومن آيات حلمه أنَّه خرج من المسجد فسبّه رجل فأسرع إليه الناس للانتقام منه فنهاهم عليه السلام عن ذلك، وأقبل عليه قائلاً: «ما ستره الله عنك أكثر ألك حاجة نعينك عليها؟..».

وخجل الرجل، وود أن الأرض قد ساخت به، ولما نظر إليه الإمام أشفق عليه فألقى إليه خميصة(٢) كانت عليه، وأمر له بألف درهم، وقد قلع بذلك من نفس الرجل نزعة الاعتداء على الناس بغير حق، وأعاده إلى طريق الحق والرشاد فكان إذا رأى الإمام بادر إليه قائلاً: إنَّك من أولاد الأنبياء(٣).

الصبر:

فُجع الإمام زين العابدين عليه السلام بوفاة أُمّه وهو في المرحلة الأولى من طفولته، ولم ينتهل من نمير حنانها، وعطفها، وشاهد وهو في غضون الصبا لوعة أسرته على فقد جده الإمام أمير المؤمنين الذي اغتاله المجرم عبد الرحمن بن ملجم، وما أعقب ذلك من إجبار عمه الإمام الزكي الحسن عليه السلام على مصالحة الباغي ابن الباغية معاوية بن أبي سفيان.

ولما أشرف الإمام زين العابدين عليه السلام على ميعة الشباب فجع بوفاة عمه الإمام الحسن ريحانة رسول الله ﷺ فقد اغتاله بالسم كسرى العرب معاوية بن هند(٤)، وقد ترك ذلك حزناً عميقاً في نفس الإمام عليه السلام.

ومن أعظم المحن التي مني بها الإمام أنَّه رأى السيوف الآثمة في صعيد كربلاء،

(١) البحار: ٤٦/ ٩٦.
(٢) الخميصة: ثوب أسود مربع.
(٣) البداية والنهاية: ٩/ ١٠٥.
(٤) منحه هذا اللقب الخليفة الثاني.

وهي تحصد رؤوس الصفوة من أهل بيت النبوّة بصورة مفجعة لم يعهد لها نظير في تأريخ الأُمم والشعوب.

لقد كان الصبر على المصائب من عناصره وذاتياته، وقد أثر عنه في مدح الصبر أنَّه رأس طاعة الله[١] ومن عظيم صبره أنَّه سمع ناعية في بيته، وكان عنده جماعة فنهض ليرى ماذا حدث، فأخبر أنَّه قد توفي أحد أبنائه، ورجع إلى مجلسه فأخبر أصحابه بالأمر فعجبوا من صبره، فقال لهم: إنَّا أهل بيت نطيع الله فيما نحب، ونحمده فيما نكره[٢] وكان يرى الصبر من الغنائم والجزع من الضعف[٣].

العزة والإباء:

قال: «ما أحب أنَّ لي ببذل نفسي حمر النعم»[٤] وقال في عزَّة النفس: «من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدُّنيا»[٥].

ويقول المؤرخون: إنَّ أحد أعمامه أخذ منه بعض حقوقه بغير حق وكان عليه السلام بمكة والوليد الذي كان ملكاً قد حضر موسم الحج فقيل له: لو سألت الوليد أن يرد عليك حقك؟

فقال لهم هذه الكلمة الخالدة في دنيا الشرف والإباء: «أفي حرم الله عزَّ وجلَّ أسأل غير الله عزَّ وجلَّ!! إنِّي آنف أن أسأل الدُّنيا من خالقها فكيف أسألها مخلوقاً مثلي...»[٦].

الشجاعة:

وكان من شجاعته النادرة أنَّه لما أدخل أسيراً على الطاغية عبيد الله بن مرجانة جابهه الطاغية بكلمات التشفي فأجابه الإمام بكلمات نارية ملتهبة كانت أشد على الطاغية اللئيم من وقع السيوف وضرب السياط، ولم يحفل الإمام بسلطانه وجبروته، فاستشاط

---

(١) الإمام زين العابدين للمقرم: ص١٩.
(٢) حلية الأولياء: ٣/١٣٨.
(٣) الدر النظيم: ص١٧٣.
(٤) الخصال: ص٢٤.
(٥) البحار: ٧٨/ ١٣٥.
(٦) البحار: ٤٦/ ٦٤.

ابن مرجانة غيظاً، وانتفخت أوداجه، وأمر بقتله، فلم يرتهب الإمام ولم يفزع، وإنَّما قال له بكلّ هدوء: «القتل لنا عادة، وكرامتنا من الله الشهادة..».

الإحسان إلى الناس:

يقول المؤرخون: إنَّه ما علم أنَّ على أحد ديناً، وله به مودة إلاَّ أدَّى عنه دينه(١).

وقد قال: إنَّ عدوي يأتيني بحاجة فأبادر إلى قضائها خوفاً من أن يسبقني أحد إليها أو أن يستغني عنها فتفوتني فضيلتها(٢).

وبلغ من عطفه على الناس ما رواه الزهري قال: كنت عند علي بن الحسين عليه السلام فجاء رجل من أصحابه، فقال له: إنِّي أصبحت وعليَّ أربعمائة دينار دين، ولا أتمكن من قضائها، وعندي عيال، ولم يكن عند الإمام في ذلك الوقت شيء من المال ليسعفه به فبكى عليه السلام وقال: أية محنة أو مصيبة أعظم على حر مؤمن من أن يرى بأخيه المؤمن خلة فلا يمكنه سدها(٣).

السخاء:

قد نقلوا نوادر كثيرة من فيض جوده وكرمه كان منها ما يلي:

مع محمد بن أسامة:

مرض محمد بن أسامة فعاده الإمام، ولما استقر به المجلس أجهش محمد بالبكاء فقال له الإمام: «ما يبكيك؟».

- «عليَّ دين».
- «كم هو؟».
- «خمسة عشر ألف دينار».
- «هي عليَّ».

ولم يقم الإمام عليه السلام من مجلسه حتى دفعها له(٤).

---

(١) الإمام زيد لأبي زهرة: ص٢٤.
(٢) ناسخ التواريخ: ١٣/١.
(٣) أمالي الصدوق.
(٤) البداية والنهاية: ١٠٥/٩.

إطعام عام:

ومن كرمه وسخائه أنَّه كان يطعم الناس إطعاماً عاماً في كل يوم في يثرب، وذلك في وقت الظهر في داره[١].

إعالته بمائة بيت:

ومن فيض جوده أنَّه كان يعول بمائة بيت بالمدينة في السِّر[٢].

حنوه على الفقراء:

أ ـ **تكريمه للفقراء**: كان عليه السلام يحتفي بالفقراء، ويرعى عواطفهم ومشاعرهم، فكان إذا أعطى سائلاً قبّله لئلا يرى عليه أثر الذُّلّ والحاجة[٣].

وكان إذا قصده سائل رحَّب به وقال له: مرحباً بما يحمل زادي إلى دار الآخرة[٤].

ب ـ **عطفه على الفقراء**: كان يعجبه أن يحضر على مائدة طعامه اليتامى والأضراء والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم، وكان يناولهم بيده[٥] كما كان يحمل لهم الطعام أو الحطب على ظهره حتى يأتي باباً من أبوابهم فيناولهم إيَّاه[٦].

نهيه عن ردّ السائل:

روى سعيد بن المسيب قال: حضرت عند علي بن الحسين يوماً حتى صلَّى الغداة فإذا سائل على الباب فقال عليه السلام: أعطوا السائل، ولا تردّوا السائل[٧].

روى أبو حمزة الثمالي قال: صليت مع علي بن الحسين الفجر بالمدينة يوم جمعة، فلما فرغ من صلاته نهض إلى منزله، وأنا معه فدعا مولاة له تُسمَّى سكينة، فقال لها: لا يعبر على بابي سائل إلاَّ أطعمتوه فإنَّ اليوم يوم جمعة، فقال له أبو حمزة: ليس كل من يسأل مستحقاً، فقال عليه السلام: أخاف أن يكون بعض من يسألنا مستحقاً فلا نطعمه، ونردّه فينزل بنا أهل البيت ما نزل بيعقوب وآله، أطعموهم، أطعموهم، إنَّ يعقوب كان

---

(١) تأريخ اليعقوبي: ٣/٦.
(٢) تهذيب اللغات والأسماء: ص٣٤٣.
(٣) الحلية: ٣/١٣٧.
(٤) صفة الصفوة: ٢/٥٣.
(٥) البحار: ٤٦/٦٢.
(٦) البحار: ٤٦/٦٢.
(٧) الكافي: ٤/١٥.

يذبح كل يوم كبشاً فيتصدَّق منه، ويأكل منه هو وعياله، وإنَّ سائلاً مؤمناً صواماً مستحقاً له عند الله منزلة اجتاز على باب يعقوب يوم جمعة عند آوان فطاره، فجعل يهتف على بابه: أطعموا السائل الغريب الجائع من فضل طعامكم، وهم يسمعونه، قد جهلوا حقه، ولم يصدقوا قوله، فلما يئس منهم وغشيه اللَّيل مضى على وجهه، وبات طاوياً يشكو جوعه إلى الله، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً، بطاناً، وعندهم فضلة من طعامهم، فأوحى الله إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة لقد أذللت عبدي ذلَّة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي، ونزول عقوبتي وبلواي عليك، وعلى ولدك، يا يعقوب أحب أنبيائي إليَّ وأكرمهم عليَّ من رحم مساكين عبادي، وقرَّبهم إليه، وأطعمهم وكان له مأوى وملجأ، يا يعقوب أما رحمت عبدي المجتهد في عبادته، القانع بالسِّر من ظاهر الدُّنيا... أما وعزَّتي لأنزلنَّ بك بلواي، ولأجعلنَّك وولدك غرضاً للمصائب.

فقال أبو حمزة: جعلت فداك متى رأى يوسف الرؤيا؟[1] قال عليه السلام: في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآله شباعاً، وبات السائل الفقير طاوياً جائعاً[2].

صدقاته:

قال عليه السلام: «ما من رجل تصدَّق على مسكين مستضعف فدعا له المسكين بشيءٍ في تلك الساعة إلاَّ أستجيب له»[3] ونعرض إلى بعض ألوان صدقاته:

أ ـ التصدُّق بثيابه:

كان عليه السلام يلبس أفخر الثياب فكان يلبس في الشتاء الخز فإذا جاء الصيف تصدَّق به أو باعه وتصدَّق بثمنه، وكان يلبس في الصيف ثوبين من متاع مصر، ويتصدَّق بهما إذا جاء الشتاء[4] وكان يقول: إنِّي لأستحي من ربِّي أن آكل ثمن ثوب قد عبدت الله فيه[5].

ب ـ التصدُّق بما يحب:

كان عليه السلام يتصدَّق بما يحب، ويقول الرواة: إنَّه كان يتصدَّق باللوز والسكر، فسئل عن ذلك فتلا قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[6].

---

(١) هي التي رأى فيها أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين.
(٢) دار السلام: ٢/١٤١ للنوري.
(٣) وسائل الشيعة: ٦/٢٩٦.
(٤) تأريخ دمشق: ٣٦/١٦١.
(٥) ناسخ التواريخ: ١/٦٧.
(٦) البحار: ٤٦/٨٩.

ج ـ مقاسمة أمواله:

وقاسم الإمام أمواله مرتين فأخذ قسماً له، وتصدَّق بالقسم الآخر على الفقراء والمساكين[(١)].

صدقاته في السِّر:

وكان عليه السلام يحثُّ على صدقة السِّر ويقول: إنَّها تطفىء غضب الرَّبّ[(٢)] وكان يخرج في غلس اللَّيل البهيم فيوصل الفقراء بهباته وعطاياه، وهو متلثم، وقد اعتاد الفقراء على صلته لهم في الليل فكانوا يقفون على أبوابهم ينتظرونه فإذا رأوه تباشروا وقالوا: جاء صاحب الجراب[(٣)] وكان له ابن عم يأتيه بالليل فيناوله شيئاً من الدنانير، فيقول له العلوي: إنَّ علي بن الحسين لا يوصلني، ويدعو عليه فيسمع الإمام ذلك، ويغضي عنه، ولا يعرفه بنفسه، ولما توفي عليه السلام فقد الصلة فعلم أنَّ الذي كان يوصله هو الإمام فكان يأتي إلى قبره باكياً ومعتذراً منه[(٤)] وقال ابن عائشة: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السِّر حتى مات علي بن الحسين[(٥)].

ابتغاؤه لمرضاة الله:

ولم يك الإمام عليه السلام يبتغي في بره وإحسانه إلى الفقراء إلاَّ وجه الله والدار الآخرة، فكان من أبرز من عناهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قد روى الزهري قال: رأيت علي بن الحسين في ليلة باردة، وهو يحمل على ظهره دقيقاً فقلت له: «يا ابن رسول الله ما هذا؟».

وسارع الإمام قائلاً بصوت خافت: «أعد سفراً، أعد له زاداً أحمله إلى موضع حريز».

ـ «هذا غلامي يحمله عنك..».

فامتنع الإمام من إجابته، وتضرَّع الزهري إليه أن يحمله هو بنفسه عنه إلاَّ أنَّ الإمام

---

(١) خلاصة تهذيب الكمال: ص٢٣١.
(٢) تذكرة الحفاظ: ١/ ٧٥.
(٣) البحار: ٤٦/ ٨٩.
(٤) البحار: ٤٦/ ١٠٠.
(٥) صفة الصفوة: ٢/ ٥٤.

أصر على ما ذهب إليه وقال له: ولكني لا أرفع نفسي عمَّا ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه، أسألك بحقّ الله لما مضيت لحاجتك..».

وانصرف الزهري عن الإمام، وبعد أيام التقى به، وقد ظن أنَّه كان على جناح سفر ولم يع مراده، فقال له: «يا ابن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي تركته أثراً؟...».

فأخبره عليه السلام بالسفر الذي أعد له العدة، وهيأ له الجهاز اللازم، أنَّه السفر إلى دار الحق قائلاً: «يا زهري ليس ما ظننت، ولكنَّه الموت، وله أستعد، إنَّما الاستعداد للموت، تجنُّب الحرام، وأبذل الندى للخير...»(١).

الزهد في الدُّنيا:

وقد سئل الزهري عن أزهد الناس فقال: علي بن الحسين(٢).

وقد رأى عليه السلام سائلاً يبكي فتأثر منه، وراح يقول: «لو أنَّ الدُّنيا كانت في كف هذا ثم سقطت منه لما كان ينبغي له أن يبكي عليها»(٣).

كراهته للهو:

قال عليه السلام: «من ضحك ضحكة مجَّ من العلم مجة» وكان في يثرب رجل بطال يضحك منه الناس، فقال: قد أعياني هذا الرجل ـ يعني الإمام زين العابدين ـ أن أضحكه، واجتاز عليه الإمام وخلفه موليان له فبادر الرجل فانتزع الرداء منه، وولى هارباً، فلم يلتفت له الإمام وسارع من كان مع الإمام فأخذوا الرداء منه، وطرحوه عليه فقال عليه السلام لهم: من هذا؟ فقالوا: إنَّه بطال يضحك أهل المدينة منه، فقال عليه السلام قولوا له: إنَّ لله يوماً يخسر فيه المبطلون(٤).

الإنابة إلى الله:

قد روى المؤرخون أنَّه اجتاز على رجل جالس على باب رجل من الأثرياء فبادره الإمام قائلاً: «ما يقعدك على باب هذا المترف الجبَّار؟..».

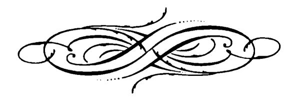
---

(١) علل الشرائع: ص٨٨.
(٢) البحار: ٤٦/ ٦٢.
(٣) الفصول المهمة: ص١٩٢.
(٤) أمالي الصدوق: ص٢٢٠.

ـ البلاء ـ أي الفقر والبؤس ـ.

ـ «قم فأرشدك إلى باب خير من بابه، وإلى ربّ خير لك منه..».

ونهض معه الرجل فأخذ به حتى انتهى به إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وقال له: استقبل القبلة، وصلِّ ركعتين، وارفع يدك بالدُّعاء إلى الله تعالى وصلِّ على نبيه، ثم ادع بآخر سورة الحشر، وست آيات من أول سورة الحديد، وبالآيتين في أول سورة عمران، ثم سل الله سبحانه، فإنَّك لا تسأله شيئاً إلاَّ أعطاك[1].



(١) الجنَّة الواقية والجنَّة الباقية للكفعمي: ص١٩٠.

إمامته

لزوم الرجوع إلى الأئمة:

يجب الرجوع إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام في أخذ الأحكام الدينية منهم لأنّهم أدرى بشؤون الشريعة، وأعرف بأحكام الدِّين من غيرهم، وقد أكّد الإمام زين العابدين عليه السلام ذلك بقوله:

«إنَّ دين الله عزَّ وجلَّ لا يُصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة، ولا يُصاب إلاَّ بالتسليم، فمن سلم لنا سلم، ومن اقتدى بنا هدي، ومن كان يعمل بالقياس والرأي هلك، ومن وجد في نفسه شيئاً ممَّا نقوله أو نقضي به حرجاً كفر بالذي أنزل السبع المثاني، والقرآن العظيم، وهو لا يعلم..».

وجوب طاعة الإمام:

وقد أكّد الإمام زين العابدين عليه السلام على لزوم طاعة الإمام، وذكر أهميته وسمو منزلته، قال عليه السلام:

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَيَّدْتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ بِإِمَامٍ أَقَمْتَهُ عَلَماً لِعِبَادِكَ، وَمَنَاراً فِي بِلَادِكَ، بَعْدَ أَنْ وَصَلْتَ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ، وَالذَّرِيعَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ وَافْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ، وَحَذَّرْتَ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَالِانْتِهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَأَلَّا يَتَقَدَّمَهُ مُتَقَدِّمٌ وَلَا يَتَأَخَّرَ عَنْهُ مُتَأَخِّرٌ، فَهُوَ عِصْمَةُ اللَّائِذِينَ، وَكَهْفُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعُرْوَةُ الْمُتَمَسِّكِينَ، وَبَهَاءُ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ فَأَوْزِعْ لِوَلِيِّكَ شُكْرَ مَا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَوْزِعْنَا مِثْلَهُ فِيهِ، وَآتِهِ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً، وَافْتَحْ لَهُ فَتْحاً يَسِيراً، وَأَعِنْهُ بِرُكْنِكَ الْأَعَزِّ، وَاشْدُدْ أَزْرَهُ، وَقَوِّ عَضُدَهُ، وَرَاعِهِ بِعَيْنِكَ، وَاحْمِهِ بِحِفْظِكَ، وَانْصُرْهُ بِمَلَائِكَتِكَ وَامْدُدْهُ بِجُنْدِكَ الْأَغْلَبِ، وَأَقِمْ بِهِ كِتَابَكَ، وَحُدُودَكَ وَشَرَائِعَكَ، وَسُنَنَ رَسُولِكَ صَلَوَاتُكَ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَ أَحْيِ بِهِ مَا أَمَاتَهُ الظَّالِمُونَ مِنْ مَعَالِمِ دِينِكَ، وَاجْلُ بِهِ صَدَاءَ الْجَوْرِ عَنْ طَرِيقَتِكَ، وَأَبِنْ بِهِ الضَّرَّاءَ مِنْ سَبِيلِكَ، وَأَزِلْ بِهِ النَّاكِبِينَ عَنْ صِرَاطِكَ، وَامْحَقْ بِهِ بُغَاةَ قَصْدِكَ عِوَجاً، وَ أَلِنْ جَانِبَهُ

لِأَوْلِيَائِكَ، وَابْسُطْ يَدَهُ عَلَى أَعْدَائِكَ، وَهَبْ لَنَا رَأْفَتَهُ، وَرَحْمَتَهُ وَتَعَطُّفَهُ وَتَحَنُّنَهُ، وَاجْعَلْنَا لَهُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَفِي رِضَاهُ سَاعِينَ، وَإِلَى نُصْرَتِهِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهُ مُكْنِفِينَ»[١].

عصمة الإمام:

وقد أدلى الإمام زين العابدين عليه السلام بضرورة اتصاف الإمام بالعصمة قال عليه السلام:

«إنَّ الإمام منَّا لا يكون إلاَّ معصوماً..».

وسئل عن معنى المعصوم فقال:

«وهو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة»[٢].

النص على إمامته:

١ ـ إنَّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله عين أوصياءه وخلفاءه الاثني عشر من بعده، وصرَّح بأسمائهم، ومنهم الإمام زين العابدين عليه السلام وقد تضافرت النصوص بذلك[٣].

٢ ـ إنَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد نصَّ على إمامة حفيده زين العابدين وذلك حينما حضرته الوفاة فقد أوصى إلى ابنه الزكي الإمام الحسن عليه السلام وعيَّنه من بعده ودفع إليه مواريث الأنبياء، وأشهد على ذلك ولده الإمام الحسين ومحمد بن الحنفية وجميع أولاده ورؤساء شيعته وقال للحسين: «إنَّك القائم بعد أخيك الحسن، وإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يأمرك أن تدفع المواريث من بعدك إلى ولدك زين العابدين فإنَّه الحجَّة من بعدك، ثم أخذ بيد زين العابدين وكان طفلاً وقال له: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يأمرك أن توصي بالإمامة من بعدك إلى ولدك محمد الباقر واقرئه من رسول الله ومنِّي السلام»[٤].

٣ ـ ونص الإمام الحسين على إمامة ولده زين العابدين عليه السلام، وعهد إليه بالإمامة من بعده، فقد روى الزهري قال: كنت عند الحسين بن علي إذ دخل علي بن الحسين الأصغر ـ يعني زين العابدين ـ فدعاه الحسين وضمه إليه ضماً، وقبَّل ما بين عينيه، والتفت الزهري إلى الإمام الحسين فقال له: «يا ابن رسول الله إن كان ما نعوذ بالله أن نراه فإلى من؟..».

(١) الصحيفة السجَّاديَّة: الدُّعاء السادس والأربعون.
(٢) تأريخ التربية عند الإمامية: ص١٩.
(٣) كفاية الأثر: ص٣١١.
(٤) أصول الكافي: باب النص على إمامة الحسن.

فقال الحسين: «علي ابني هذا هو الإمام أبو الأئمَّة..»[١].

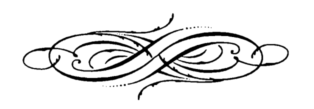
الإمام في عصره:

لقد أحاطت بالإمام مجموعة من العوامل الرهيبة دعته ألا يتمكن من إظهار المعطيات الضخمة للإمامة، وبيان الحق أُصولاً وفروعاً إلاَّ لطائفة قليلة من خواصه وشيعته[٢] وذكر الكشي في ترجمة سعيد بن المسيب أنَّ الفضل بن شاذان قال: «لم يكن في زمان علي بن الحسين عليه السلام في أول أمره إلاَّ خمسة أنفس: سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن جبير بن مطعم، ويحيى بن أم الطويل، وأبو خالد الكابلي، فهؤلاء كانوا يعرفون الإمامة ويدينون بها دون غيرهم»[٣].

لقد اعتزل الإمام عن الناس فترة من الزمن كما اعتزل جده الإمام أمير المؤمنين أيام الخلفاء، وصار جليس بيته، وقد ضرب الإمام زين العابدين لنفسه بيتاً من الشَّعر خارج المدينة[٤] مشتغلاً بالعبادة ونشر العلم، وقد حقن بذلك دمه ودماء البقية الباقية من أهل البيت، وأنقذهم من شر ذلك الحكم الأسود الذي امتحن به المسلمون امتحاناً عسيراً.

لقد منح الله زين العابدين العلم الذي لا يحد كما وهب آباءه، وكان عليه السلام يكتم علومه، ولا يذيعها بين الناس لئلا يفتتن به الجهال، وقد أعلن ذلك بقوله:

إنِّي لأكتم من علمي جواهره ... كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممَّن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا[٥]



(١) روضات الجنَّات: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(٢) روضات الجنَّات: ٤/ ٤٤.
(٣) رجال الكشي.
(٤) فرحة الغري: ص٣٣.
(٥) منهاج العابدين: ورقة ٢ مصور لأبي حامد الغزالي.

مع رزايا كربلاء

عاش الإمام زين العابدين عليه السلام المحنة القاسية التي عاشها أبوه الإمام الحسين عليه السلام أيام حكومة معاوية ويزيد، وشاركه في آلامه وشجونه.

يوم عاشوراء:

وقد تحدَّث الإمام زين العابدين عليه السلام عن ذلك اليوم العصيب الخالد في دُنيا الأحزان قال: «ما من يوم أشد على رسول الله صلى الله عليه وآله من يوم أُحد قتل فيه عمه حمزة بن عبد المطّلب أسد الله وأسد رسوله، وبعده يوم مؤتة قُتل فيه ابن عمه جعفر بن أبي طالب، ثم قال: ولا يوم كيوم الحسين إذ دلف إليه ثلاثون ألف رجل يزعمون أنَّهم من هذه الأُمَّة كل يتقرَّب إلى الله عزَّ وجلَّ بدمه، وهو بالله يذكرهم فلا يتعظون حتى قتلوه بغياً وظلماً وعدواناً..»[1].

استغاثة الإمام:

وألقى الإمام الممتحن نظرة مشفوعة بالأسى والحسرة على أهل بيته وأصحابه فرآهم مجزرين كالأضاحي على رمال كربلاء تصهرهم الشمس، وسمع عياله، وقد ارتفعت أصواتهن بالعويل والبكاء يندبن قتلاهن، ولا يعرفن ماذا سيجري عليهن بعد قتل الحسين، وقد أثر ذلك على الإمام تأثيراً بالغاً فأخذ يستغيث، ويطلب الناصر والمعين ليحامي عن حرم رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً:

«هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ هل من موحد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا؟..»[2].

ولما سمع الإمام زين العابدين هذه الاستغاثة المثيرة، وثب من فراش المرض وجعل يتوكأ على عصا لشدَّة مرضه، فبصر به الحسين، فصاح بأخته السيِّدة أُمّ كلثوم:

---

(١) بحار الأنوار: ٩/ ١٤٧.

(٢) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٢٧٤.

احبسيه لئلا تخلو الأرض من نسل آل محمد، وبادرت إليه عمته فأرجته إلى فراشه وأخذ يعاني من الآلام النفسية أكثر ممَّا يعاني من آلام مرضه، فقد طافت به المحن والخطوب، فهو يرى الكواكب المشرقة من إخوته وأبناء عمومته صرعى على الأرض، ويرى أصحابهم الأوفياء مجزرين كالأضاحي، ويرى أباه وقد أحاط به أعداء الله قد صمموا على قتله، ويرى عقائل الوحي، ومخدرات الرسالة في حالة من الذعر والخوف ما لا سبيل إلى تصويره، وقد قابل تلك الكوارث المفزعة بالصبر، وتفويض أمره إلى الله.

حرق الخيام:

كان هول ذلك المنظر من أفجع ما رآه الإمام زين العابدين ولم يغب عن ذهنه طيلة المدة التي عاشها بعد أبيه، فكان دوماً يقول:

«والله ما نظرت إلى عماتي وأخواتي إلاّ وخنقتني العبرة، وتذكرت فرارهن يوم الطف من خيمة إلى خيمة، ومن خباء إلى خباء، ومنادي القوم ينادي أحرقوا بيوت الظالمين..»[(١)].

الهجوم على زين العابدين:

وهجم الكفرة الجفاة على الإمام زين العابدين، وقد أنهكته العلة ومزَّقت الأحداث الرهيبة قلبه، وقد أراد المجرم الخبيث شمر بن ذي الجوشن قتله فنهره حميد بن مسلم قائلاً:

سبحان الله!! أتقتل الصبيان؟ إنَّما هو مريض..».

فلم يحفل به، وبادرت إليه العقيلة عمته زينب فتعلقت به، وقالت: لا يقتل حتى أقتل دونه[(٢)] فكف اللئام عنه، وقد نجا منهم بأعجوبة.

جزع الإمام زين العابدين:

وجزع الإمام زين العابدين كأشد ما يكون الجزع، وتمنى مفارقة الحياة، وذلك من هول ما رأى من المآسي التي جرت على أهل البيت، وقد أخذ يعاني آلام الاحتضار

---

(١) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٢٩٩.

(٢) تأريخ القرماني: ص١٠٨.

حينما رأى جثة أبيه، وجثث أهل بيته وأصحابه منبوذة بالعراء لم ينبر أحد إلى مواراتها، وبصرت به عمته العقيلة زينب فبادرت إليه مسلية قائلة:

«ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وإخوتي، فوالله إنَّ هذا العهد من الله إلى جدك وأبيك، ولقد أخذ الله ميثاق أُناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات إنَّهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعة، والجسوم المضرجة فيوارونها وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيِّد الشُّهداء لا يدرس أثره، ولا يمحى رسمه على كرور الليالي والأيام، وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وطمسه، فلا يزداد أثره إلاَّ علواً..»[1].

مواراته للجثث الطاهرة:

انبرى قوم من بني أسد من الذين لم يشتركوا في الحرب فحفروا القبور لتلك الجثث الزواكي، وكانوا متحيرين في معرفتها لأنَّ الرؤوس قد فصلت عنها، وبينما هم كذلك إذا أطل عليهم الإمام زين العابدين ـ حسبما نصَّت عليه بعض المصادر الشيعية ـ فأوقف بني أسد على شهداء أهل البيت وغيرهم من الأصحاب، وبادر بنفسه إلى حمل جثمان أبيه فواراه في مثواه الأخير وهو يذرف أحر الدموع قائلاً:

«طوبى لأرض تضمنت جسدك الطاهر، فإنَّ الدُّنيا بعدك مظلمة، والآخرة بنورك مشرقة، أما الليل فمسهد، والحزن سرمد أو يختار الله لأهل بيتك دارك التي أنت بها مقيم، وعليك منِّي السلام يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته..».

سبايا أهل البيت في الكوفة:

وقد وصف ذلك المنظر مسلم الجصاص، يقول: دعاني ابن زياد لإصلاح دار الإمارة بالكوفة، فبينما أنا أجصص الأبواب، وإذا بالزعقات قد ارتفعت من جميع الكوفة فأقبلت على أحد خدَّام القصر فقلت له:

ـ «ما لي أرى الكوفة تضجُّ؟».

ـ «الساعة يأتون برأس خارجي خرج على يزيد..».

ـ «من هذا الخارجي؟..».

ـ «الحسين بن علي..».

(١) كامل الزيارات: ص٢٦١.

يقول: فتركت الخادم، وأخذت ألطم على وجهي حتى خشيت على عيني أن تذهبا، وغسلت يدي من الجص، وخرجت من القصر حتى أتيت إلى الكناس، فبينما أنا واقف، والناس يتوقعون وصل السبايا والرؤوس إذا أقبل أربعون جملاً تحمل النساء والأطفال، وإذا بعلي بن الحسين على بعير بغير وطاء وأوادجه تشخب دماً وهو يبكي ويقول:

يا أُمَّة لم تراع جدنا فينا يا أُمَّة السوء لا سقيا لربعكم
لو أنَّنا ورسول اللّه يجمعنا يوم القيامة ما كنتم تقولونا
تسيرون فينا على الأقتاب عارية كأنَّنا لم نشيد فيكم ديناً[1]

ويقول جذلم بن بشير: قدمت الكوفة سنة (٦١هـ) عند مجيء علي بن الحسين من كربلاء إلى الكوفة، ومعه النسوة وقد أحاطت بهم الجنود، وقد خرج الناس للنظر إليهم، وكانوا على جمال بغير وطاء فجعلت نساء أهل الكوفة يبكين ويندبن، ورأيت علي بن الحسين قد أنهكته العلة، وفي عنقه الجامعة ويده مغلولة إلى عنقه[2] وهو يقول بصوت ضعيف: إنَّ هؤلاء يبكون وينوحون من أجلنا فمن قتلنا؟[3].

خطاب الإمام زين العابدين:

وأحاطت الجماهير بالإمام زين العابدين عليه السلام، فرأى أن يخطب فيهم، ويعرفهم إثم ما اقترفوه، وما جنوه على أنفسهم وعلى الأُمَّة، فقال عليه السلام بعد حمد الله والثناء عليه:

«أيُّها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن من انتهكت حرمته، وسلبت نعمته، وانتهب ماله، وسبي عياله، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل، ولا ترات، أنا ابن من قتل صبراً، وكفى بذلك فخراً.

أيُّها الناس ناشدتكم الله هل تعلمون أنَّكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهود والميثاق والبيعة، وقاتلتموه، فتباً لما قدمتم لأنفسكم وسوأة لرأيكم، بأية عين تنظرون إلى رسول الله؟ إذ يقول لكم: قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي، فلستم من أُمَّتي..».

---

(١) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٣٣٣.
(٢) أمالي الشيخ المفيد: ص١٤٣ مخطوط.
(٣) مقتل الحسين لعبد الله مخطوط.

وعلت أصوات أولئك العبيد الذين سودوا وجه التاريخ بالبكاء والنحيب ونادى منادٍ منهم:

«هلكتم وما تعلمون..».

واستمر الإمام في خطابه فقال:

«رحم الله امرأً قَبِل نصيحتي، وحفظ وصيتي، في الله وفي رسوله وأهل بيته، فإنَّ لنا في رسول الله صلى الله عليه وآله أسوة حسنة».

فهتفوا أجمعين بلسان واحد:

«نحن يا ابن رسول الله، سامعون مطيعون، حافظون لذمامك، غير زاهدين فيك، ولا راغبين عنك، فمرنا بأمرك يرحمك الله، فإنَّا حرب لحربك، وسلم لسلمك نبرأ ممَّن ظلمك وظلمنا..».

ورد الإمام عليهم هذا الولاء الكاذب قائلاً:

«هيهات، هيهات، أيُّها الغدرة المكرة، حيل بينكم، وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إليَّ كما أتيتم إلى أبي من قبل، كلا وربِّ الراقصات[1] فإنَّ الجرح لما يندمل، قُتل أبي بالأمس وأهل بيته، ولم ينس ثكل رسول الله صلى الله عليه وآله وثكل أبي، وبني أبي، إنَّ وجده والله بين لهاتي، ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصته تجري في فراش صدري...».

الطاغية مع الإمام:

وأدخلت سبايا آل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قصر الإمارة حيث يقيم فيه حاكم الكوفة ابن مرجانة، وقد بصر الطاغية بالإمام زين العابدين عليه السلام وقد أنهكته العلة، فسأله قائلاً:

ـ «من أنت؟..».

ـ «علي بن الحسين..».

ـ أولم يقتل الله علي بن الحسين؟».

فأجابه الإمام بأناة: «كان لي أخ يُسمَّى علياً قتلتموه، وإنَّ له منكم مطلباً يوم القيامة..».

فثار ابن زياد في وقاحة وصلف، وصاح بالإمام: «الله قتله..».

(١) الراقصات: مطايا الحجيج.

فأجابه الإمام بكلّ شجاعة وثبات: «الله يتوفى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلاَّ بإذن الله...».

ودارت الأرض بابن مرجانة، وأخذته العزة بالإثم، وغاظه أن يتكلم هذا الغلام الأسير بهذه الطلاقة وقوّة الحجَّة، والاستشهاد بالقرآن، ويردّ عليه كلامه فصاح به: «وبك جرأة على رد جوابي!! وفيك بقية للرد عليَّ؟...».

وصاح الرجس الخبيث بأحد جلاديه: «خذ هذا الغلام واضرب عنقه...».

وطاشت أحلام السيِّدة زينب حفيدة الرسول ﷺ، وانبرت بشجاعة لا يرهبها سلطان، فاعتنقت الإمام، وقالت لابن مرجانة: «حسبك يا ابن زياد من دمائنا ما سفكت، وهل أبقيت أحداً غير هذا؟ فإن أردت قتله فاقتلني معه».

وبهر الطاغية، وقال متعجباً: «دعوه لها، يا للرحم ودت أنَّها تقتل معه..».

وروى الجاحظ في رسائله أنَّ ابن مرجانة قال لأصحابه في علي بن الحسين: «دعوني أقتله فإنَّه بقية هذا النسل ـ يعني نسل الحسين ـ فأحسم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء، وأقطع به هذه المادة...».

إلاَّ أنَّهم أشاروا عليه بالإمساك عنه معتقدين أنَّ ما ألمَّ به من المرض سوف يقضي عليه[١].

اختطاف الإمام:

واختطف بعض الكوفيين الإمام زين العابدين، وأخفاه في داره، وجعل يكرمه ويحسن إليه، وكان كلَّما رآه أجهش بالبكاء فظن الإمام به خيراً إلاَّ أنَّه لم تمض فترة يسيرة من الزمن حتى نادى منادي ابن زياد، من وجد علي بن الحسين وأتى به فله ثلاث مائة درهم، فلما سمعه الكوفي أسرع إلى الإمام فجعل في عنقه حبلاً وربط يديه بالحبل، وأخذ الدراهم[٢] وهذه البادرة الغريبة ـ إن صحت ـ فإنَّه تعطي صورة عن تهالك المجتمع الكوفي على المادة، وتفانيه في الحصول عليها بأي طريق كان.

سبايا آل البيت إلى دمشق:

خرجت الكوفة بجميع طبقاتها لتوديع سبايا نبيهم، وقد عجَّ الرجال والنساء بالبكاء،

---

(١) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٣٤٥ ـ ٣٤٧.

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان: ص٩٨.

وقد استغرب الإمام زين العابدين عليه السلام ذلك منهم وراح يقول: «هؤلاء قتلونا، ويبكون علينا!!»[١].

وأمر الخبيث الدنس شمر بن ذي الجوشن أن يغل الإمام زين العابدين بغل في عنقه فغل[٢]، وانطلق الركب في مسيرته نحو الشام، ويقول المؤرخون: إنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام لم يتكلم مع الجفاة الذين رافقوه بكلمة واحدة ولا طلب منهم أي شيء في طيلة الطريق[٣].

الشامي مع زين العابدين:

وانبرى شيخ من أهل الشام قد ضللته الدعايات الكاذبة نحو الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد رفع عقيرته: «الحمد لله الذي أهلككم، وأمكن الأمير منكم...».

وبصر به الإمام فرآه مخدوعاً، قد خفي عليه الحق، وخده الإعلام الأموي فقال له:

- «يا شيخ قرأت القرآن؟..».

- «بلى..».

- أقرأت قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟...».

وبهر الشيخ فقال بصوت خافت: «نعم قرأت ذلك..».

قال له الإمام: «نحن والله القربى في هذه الآيات، يا شيخ أقرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

«بلى».

«نحن أهل البيت الذين خصَّهم الله بالتطهير...».

وسرت الرعدة في أوصال الشيخ، وتمنى أن تكون الأرض قد وارته ولم يقل ذلك، وقال للإمام: «بالله عليكم أنتم هم؟..».

---

(١) مرآة الزمان: ص٩٩.

(٢) أنساب الأشراف: ق١/ج١.

(٣) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٣٧١.

ـ «وحق جدنا رسول الله ﷺ إنَّا لنحن هم من غير شك...».

وألقى الشيخ بنفسه على الإمام وهو يوسع يديه تقبيلاً ودموعه تجري على سحنات وجهه قائلاً: «أبرأ إلى الله ممَّن قتلكم...».

وطلب الشيخ من الإمام أن يمنحه التوبة، ويعفو عنه، فعفا عليه السلام عنه[١]...

الإمام في مجلس يزيد:

وعمد جلاوزة يزيد إلى عقائل الوحي وأطفال الإمام الحسين فربقوهم بالحبال كما تربق الأغنام، فكان الحبل في عنق الإمام زين العابدين إلى عنق عمته زينب، وباقي بنات رسول الله ﷺ وكانوا كلَّما قصروا عن المشي أوسعوهم ضرباً بالسياط، وجاؤوا بهم على مثل هذه الحالة التي تتصدع من هولها الجبال، فأوقفوهم بين يدي يزيد، فالتفت إليه الإمام زين العابدين فقال له: «ما ظنك بجدنا رسول الله ﷺ لو يرانا على مثل هذه الحالة؟».. فتهافت الطاغية، ولم يبق أحد في مجلسه إلاَّ بكى، وتألم يزيد من ذلك المنظر المفجع فراح يقول: «قبح الله ابن مرجانة لو كان بينكم وبينه قرابة لما فعل بكم هذا..».

ثم أمر الطاغية بالحبال فقطعت، والتفت إلى زين العابدين فقال له: «إيه يا علي بن الحسين أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيت..».

فأجابه شبل الحسين بكلّ هدوء واطمئنان: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

وتميز الطاغية غضباً، وذهبت نشوة أفراحه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

ورد عليه الإمام قائلاً: «هذا في حقّ من ظَلَم، لا في حق من ظُلم..».

وزوى بوجهه عنه احتقاراً له، واستهانة بشأنه[٢].

---

(١) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٣٧١.

(٢) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٣٧٦.

خطاب الإمام زين العابدين:

وأذن يزيد للناس إذناً عاماً، وقد ازدحم بهو قصره بمختلف الطبقات، وهم يهنئونه بالنصر الكاذب، وهو جذلان مسرور قد استوسقت له الدُّنيا، وصفا له الملك، وقد أوعز إلى الخطيب أن يعتلي المنبر، وينال من الإمام الحسين، وأبيه الإمام أمير المؤمنين، وصعد الخطيب المنبر، وبالغ في ذم العترة الطاهرة وأثنى ثناءً كاذباً على يزيد وأبيه، فانبرى إليه الإمام زين العابدين عليه السلام فصاح به:

«ويلك أيُّها الخاطب اشتريت رضاء المخلوق بسخط الخالق، فتبوأ مقعدك من النار...».

واتجه الإمام نحو يزيد فقال له:

«أتأذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات فيهن لله رضا، ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب..».

وبهت الحاضرون، وعجبوا من هذا الفتى العليل الذي ردَّ على الخطيب والأمير وهو أسير، فرفض يزيد إجابته، وألحَّ عليه الجالسون بالسماح له، فردَّ عليهم يزيد قائلاً:

«إن صعد المنبر لم ينزل إلاَّ بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان...».

فعجبوا من ذلك، وقالوا له:

«وما مقدار ما يحسن هذا العليل؟».

إنَّهم لا يعرفون الإمام، وحسبوا أنَّه كبقية الناس، ولكن الطاغية يعرفه فقال لهم:

«إنَّه من أهل بيت قد زقّوا العلم زقّاً..».

وأخذوا يلحون عليه في أن يسمح له في الخطاب، ولم يجد بُدّاً من إجابتهم فسمح له، واعتلى الإمام أعواد المنبر فخطب خطاباً رائعاً لم يشاهد له التاريخ مثيلاً في روعته وبلاغته وقد أبكى العيون، واضطرب الجالسون، فقد هيمن على قلوبهم ومشاعرهم، وكان من جملة ما قاله: «أيُّها الناس أعطينا ستاً، وفضِّلنا بسبع: أعطينا العلم والحلم، والسماحة والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين، وفضِّلنا بأن منَّا النبي المختار محمَّد صلى الله عليه وآله ومنَّا الصدِّيق، ومنَّا الطيَّار، ومنَّا أسد الله، وأسد الرسول صلى الله عليه وآله ومنَّا سيِّدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنَّا سبطا هذه الأُمَّة وسيِّدا شباب أهل الجنَّة».

وبعد هذه المقدمة التعريفية لأسرته، أخذ عليه السلام في بيان فضائلهم قال:

«فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي، أنا ابن مكَّة ومنى،

أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الزكاة بأطراف الرداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجَّ ولبَّىٰ، أنا ابن من حمل على البراق في الهوا، أنا ابن من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أسرى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلَّى بملائكة السما، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا إلّه إلاّ الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وصلَّى القبلتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النَّبيِّين، وقاطع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين وزين العابدين، وتاج البكائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسين، ورسول ربّ العالمين، أنا ابن المؤيد بجبرئيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاصم المعتدين، ومبير المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، ناصر دين الله، وولي أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبة علم الله، سمح، سخي، بهلول، زكي أبطحي، رضي، مرضي مقدام همام، صابر، صوام، مهذب قوام، شجاع قمقام، قاطع الأصلاب، ومفرق الأحزاب، أربطهم جناناً، وأطلقهم عناناً، وأجرأهم لساناً، وأمضاهم عزيمةً، وأشدهم شكيمة، أسد، باسل، وغيث هاطل، يطحنهم في الحروب، ويذرهم ذرو الريح الهشيم، ليث الحجاز، وصاحب الإعجاز، وكبش العراق، الإمام بالنص والاستحقاق، مكي مدني أبطحي، تهامي، خيعن عقبي، بدري، أحدي، وشجري مهاجري، من العرب سيِّدها، ومن الوغى ليثها، وارث المشعرين وأبو السبطين الحسن والحسين، مظهر العجائب، ومفرق الكتائب والشهاب الثاقب، والنُّور العاقب، أسد الله الغالب مطلوب كل طالب، غالب كل غالب، ذاك جدي علي بن أبي طالب، أنا ابن فاطمة الزَّهراء، أنا ابن سيِّدة النِّساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم[1] أنا ابن المزمل بالدماء، أنا

---

(١) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٣٨٧.

ابن ذبيح كربلاء، أنا ابن من بكى عليه الجن من الظلماء، وناحت عليه الطير في الهواء[١].

ولم يزل يقول الإمام أنا: حتى ضجَّ الناس بالبكاء، وخشي يزيد من وقوع الفتنة وحدوث ما لا تحمد عقباه، فقد أوجد خطاب الإمام انقلاباً فكرياً، فقد عرَّف الإمام نفسه لأهل الشام، وأحاطهم علماً بما كانوا يجهلون، فأوعز يزيد إلى المؤذن أن يؤذن ليقطع على الإمام كلامه فصاح المؤذن:

«الله أكبر..».

فالتفت إليه الإمام فقال له: «كبرت كبيراً لا يُقاس، ولا يُدرك بالحواس، لا شيء أكبر من الله»، فلما قال المؤذن:

«أشهد أن لا إلّه إلاّ الله..».

قال علي بن الحسين: شهد بها شعري وبشري، ولحمي ودمي، ومخّي وعظمي، ولما قال المؤذن:

«أشهد أنَّ محمَّداً رسول الله»..

التفت الإمام إلى يزيد فقال له:

«يا يزيد، محمَّد هذا جدي أم جدك؟ فإن زعمت أنَّه جدك فقد كذبت، وإن قلت: إنَّه جدي فلم قتلت عترته...»[٢].

الإمام مع المنهال:

والتقى الإمام زين العابدين عليه السلام بالمنهال بن عمر، فبادره قائلاً: «كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟..».

فرمقه الإمام بطرفه، وقال له:

«أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون، يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، أمست العرب تفتخر على العجم بأنَّ محمَّداً منها، أمست قريش تفتخر على سائر العرب بأنَّ محمَّداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته مقتولين مشردين، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»[٣].

(١) نفس المهموم: ص٢٤٢.
(٢) مقتل الخوارزمي: ٢/٢٤٢.
(٣) حياة الإمام الحسين: ٣/٢٩١.

حبر يسأل عن الإمام:

وكان في مجلس الطاغية يزيد حبر يهودي، وقد أعجب بالإمام زين العابدين عليه السلام، فقال ليزيد:

ـ «من هذا الغلام؟».

ـ «علي بن الحسين..».

ـ «من الحسين؟».

ـ «ابن علي بن أبي طالب..».

ـ «من أُمّه؟».

ـ «بنت محمَّد..».

ـ «يا سبحان الله!! هذا ابن بنت نبيكم قتلتموه، بئسما خلفتموه في ذرِّيته، فوالله لو ترك نبينا موسى بن عمران فينا سبطاً لظننت أنَّا كنَّا نعبده من دون ربّنا، وأنتم فارقكم نبيكم بالأمس فوثبتم على ابنه وقتلتموه سوأة لكم من أمَّة...».

وغضب الطاغية، وأمر فوجىء[1] في حلقه، فرفع الحبر عقيرته قائلاً:

«إن شئتم فاقتلوني، فإنِّي وجدت في التوراة من قتل ذرِّية نبي فلا يزال ملعوناً أبداً ما بقي فإذا مات أصلاه الله نار جهنم»[2].

الإمام مع يزيد:

واجتمع الإمام زين العابدين بالطاغية يزيد فعرض عليه أن يطلب منه حاجة، فقال عليه السلام:

«أريد منك أن تريني وجه أبي، وأن تعيد على النساء ما أخذ منهن، ففيها موارث الآباء والأُمَّهات، وإذا كنت تريد قتلي، فأرسل مع العيال من يؤدِّي بهن إلى المدينة..».

وأطرق الطاغية برأسه إلى الأرض يفكِّر فيما طلبه الإمام منه ثم رفع رأسه، وقال له:

---

(١) فوجىء: أي ضرب ودق.

(٢) الحدائق الوردية: ١/١٣١، الفتوح: ٥/٢٤٦.

«أما وجه أبيك فلن تراه، وأما ما أخذ منكم فيرد إليكم، وأما النسوة فلا يردهن غيرك، وقد عفوت عن قتلك..»[١].

نعي بشر للإمام:

ولما وصل الإمام زين العابدين عليه السلام بالقرب من يثرب نزل فضرب فسطاطه، وأنزل عماته وأخواته، والتفت إلى بشر بن حذلم فقال له: يا بشر رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟ فقال له: نعم يا ابن رسول الله، فأمره الإمام أن يدخل المدينة وينعى لأهلها الإمام الحسين، وانطلق بشر إلى المدينة فلما انتهى إلى الجامع النبوي رفع صوته مشفوعاً بالبكاء، وهو يقول:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قُتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرج ... والرأس منه على القناة يُدار

وهرعت الجماهير نحو الجامع النبوي، وقد علا صراخهم بالبكاء على الإمام عليه السلام، وقد احتفت ببشر تنتظر منه المزيد من الأنباء وهو غارق بالبكاء، فقال لهم:

«هذا علي بن الحسين مع عماته وأخواته قد حلوا بساحتكم، وأنا رسوله إليكم أعرفكم مكانه..»[٢].

وهرعت الجماهير إلى استقبال الإمام زين العابدين، وقد عجّوا بالبكاء والعويل، فكان ذلك ـ كما وصفه المؤرخون ـ كاليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله[٣].

خطاب الإمام زين العابدين:

ورأى الإمام عليه السلام أن يحدِّث الناس بما جرى عليهم من عظيم الرزايا والنكبات، ولم يكن باستطاعته أن يقوم خطيباً فقد ألمَّت به الأمراض، وأنهكته الآلام فجيء له بكرسي فجلس عليه فقال:

«الحمد لله ربّ العالمين، الرَّحمٰن الرَّحيم، مالك يوم الدِّين، بادىء الخلق أجمعين، الذي بعُد فارتفع في السَّماوات العلى، وقرب فشهد النجوى، نحمده على

(١) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٤١٤.
(٢) حياة الإمام الحسين: ٣/ ٤٢٣.
(٣) اللهوف: ص١١٦.

عظائم الأُمور، وفجائع الدهور، وألم الفجائع، ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء، وعظيم المصائب الفاظعة، الكاظّة، الفادحة، الجائحة.

أيُّها القوم إنَّ الله تعالى ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة، قُتل أبو عبد الله الحسين وعترته، وسُبيت نسائه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية.

أيُّها الناس فأي رجالات منكم يسرون بعد قتله أم أي فؤاد لا يحزن من أجله أم أية عين منكم تحبس دمعها، وتضن عن انهمالها، فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات بأركانها، والأرض بأرجائها والأشجار بأغصانها، والحيتان في لجج البحار، والملائكة المقرَّبون، وأهل السَّماوات أجمعون.

أيُّها الناس أي قلب لا ينصدع لقتله، أم أي فؤاد لا يحنُّ إليه، أم أي سمع يسمع بهذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام ولا يصم.

أيُّها الناس أصبحنا مشردين، مطرودين، مذودين، شاسعين عن الأمصار كأنَّنا أولاد ترك وكابل من غير جرم اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، إنَّ هذا إلاَّ اختلاق، والله لو أنَّ النبي تقدَّم إليهم في قتالنا كما تقدَّم إليهم في الوصية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها، وأفجعها، وأكظها، وأفظعها وأمرها، وأفدحها، فعنده نحتسب ما أصابنا، فإنَّه عزيز ذو انتقام..».

حزن الإمام زين العابدين:

وخلد الإمام زين العابدين عليه السلام إلى البكاء ليلاً ونهاراً حزناً على أبيه وأهل بيته، يقول الإمام الصَّادق عليه السلام: إنَّ جدي علي بن الحسين بكى على أبيه عشرين سنة، وما وضع بين يديه طعام إلاَّ بكى[1] وعذله بعض مواليه فقال له:

«إنِّي أخاف عليك أن تكون من الهالكين..».

فقال الإمام برفق:

«يا هذا إنَّما أشكو بثي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون، إنَّ يعقوب كان نبياً فغيب الله عنه واحداً من أولاده، وعنده اثنا عشر ولداً، وهو يعلم أنَّه حي،

---

(١) الإمام زين العابدين لأحمد فهمي: ص٣١.

فبكى عليه، حتى ابيضت عيناه من الحزن، وإنِّي نظرت إلى أبي وإخوتي وعمومتي، وصحبتي، مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني؟ وإنِّي لا أذكر مصرع ابن فاطمة إلاَّ خنقتني العبرة، وإذا نظرت إلى عماتي وأخواتي ذكرت فرارهن من خيمة إلى خيمة»[١].

يقول الرواة: إنَّه كان إذا أخذ ماءً ليشرب بكى، فقيل له في ذلك؟ فقال: كيف لا أبكي، وقد منع أبي من الماء الذي كان مطلقاً للسباع والوحوش[٢].

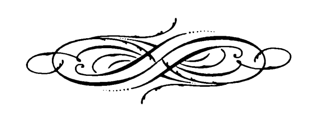
لقد كان دائم البكاء على أبيه، وقد قيل له: إنَّك لتبكي دهرك، فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا، فقال: نفسي قتلتها، وعليها أبكي[٣].

وقد أشفق عليه جماعة من مواليه وأهل بيته من كثرة بكائه على أبيه فقال له بعضهم:

«أما آن لحزنك أن ينقضي؟..».

فردَّ عليه الإمام قائلاً:

«ويحك إنَّ يعقوب النبي كان له اثنا عشر ابناً فغيب الله واحداً منهم فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه، واحدودب ظهره من الغم، وكان ابنه حياً في الدُّنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي، وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني؟..»[٤].



(١) مقتل الحسين للمقرم: ص٤٧.
(٢) بحارا لأنوار: ٤٦/١٠٨.
(٣) بحار الأنوار: ٤٦/١٠٩.
(٤) بحار الأنوار: ٤٦/١٠٨.

عباداته

أعرب عليه السلام عن عظيم إخلاصه في عباداته، فقال: «إنّي أكره أن أعبد الله، ولا غرض لي إلاّ ثوابه، فأكون كالعبد الطامع، إن طمع عمل، وإلاّ لم يعمل، وأكره أن أعبده لخوف عذابه، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل..».

فانبرى إليه بعض الجالسين فقال له:

«فبم تعبده؟».

فأجابه عن خالص إيمانه.

وأعبده لما هو أهله بأياديه وأنعامه...»[(١)].

وقد تحدَّث عليه السلام عن أنواع العبادة بقوله: «إنَّ قوماً عبدوا الله عزَّ وجلَّ رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وقوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار..»[(٢)].

وقد أكَّد الإمام عليه السلام ذلك في حديث آخر له قال: «عبادة الأحرار لا تكون إلاّ شكراً لله لا خوفاً ولا رغبة»[(٣)].

وقد سئلت جارية له عن عبادته فقالت:

- «أطنب، أو أختصر..».

- «بل اختصري..».

- «ما أتيته بطعام نهاراً قط، وما فرشت له فراشاً بليل قط..»[(٤)].

---

(١) تفسير العسكري: ص١٣٢.
(٢) صفة الصفوة: ٢/٥٣.
(٣) الكواكب الدرية: ٢/١٣٩.
(٤) الخصال: ص٤٨٨.

وضوؤه:

قد حدَّث الرواة عن خشوعه لله في وضوئه، فقالوا: إنَّه إذا الوضوء اصفر لونه، فيقول له أهله:

«ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟..».

فأجابهم عن خوفه، وخشيته من الله قائلاً:

«أتدرون بين يدي من أقوم؟..»[١].

وبلغ من اهتمامه أنَّه كان لا يعينه أحد عليه، وكان بنفسه يستقي الماء لطهوره ويخرمه قبل أن ينام، فإذا قام من اللَّيل بدأ بالسواك ثم شرع في وضوئه وبعد الفراغ منه يقبل على صلاته[٢].

صلاته:

كانت تأخذه رعدة إذا أراد الشروع في الصلاة فقيل له في ذلك فقال: أتدرون بين يدي من أقوم، ومن أناجي؟[٣].

خشوعه في صلاته:

تحدَّث الإمام الباقر عن خشوع أبيه في صلاته فقال: كان علي بن الحسين إذا قام في الصلاة كأنَّه ساق شجرة لا يتحرَّك منه شيء إلاَّ ما حرَّكت الريح منه[٤].

ونقل أبان بن تغلب إلى الإمام الصَّادق عليه السلام صلاة جده الإمام زين العابدين عليه السلام فقال له: «إنِّي رأيت علي بن الحسين إذا قام في الصلاة غشي لونه لوناً آخر...».

وبهر الإمام الصَّادق عليه السلام فقال: «والله إنَّ علي بن الحسين كان يعرف الذي يقوم بين يديه...»[٥].

ونقل الرواة عن أبي حمزة الثمالي أنَّه رأى الإمام قد صلَّى فسقط الرداء عن أحد

---

(١) درر الأبكار ورقة ٧٠؛ نهاية الأرب: ٣٢٦/٢١.
(٢) صفة الصفوة: ٥٣/٢.
(٣) وسيلة المآل: ورقة ٢٠٧.
(٤) وسائل الشيعة: ٦٨٥/٤.
(٥) وسائل الشيعة: ٦٨٥/٤.

منكبيه فلم يسوه فسأله أبو حمزة عن ذلك فقال له: ويحك أتدري بين يدي من كنت؟ إنَّ العبد لا يقبل من صلاته إلاَّ ما أقبل عليه منها بقلبه[١].

صلاة ألف ركعة:

وأجمع المترجمون للإمام عليه السلام أنَّه كان يصلِّي في اليوم والليلة ألف ركعة[٢] وأنَّه كانت له خمسمائة نخلة فكان يصلِّي عند كل نخلة ركعتين[٣] ونظراً لكثرة صلاته فقد كنت له ثفنات في مواضع سجوده كثفنات البعير وكان يسقط منها في كل سنة فكان يجمعها في كيس، ولما توفي دفنت معه[٤].

كثرة سجوده:

يقول الرواة: إنَّه خرج مرَّة إلى الصحراء فتبعه مولىً له فوجده ساجداً على حجارة خشنة فأحصى عليه ألف مرَّة يقول: لا إلَه إلاَّ الله حقاً حقاً، لا إلَه إلاَّ الله تعبداً ورقاً، لا إلَه إلاَّ الله إيماناً وصدقاً[٥]. وكان يسجد سجدة الشكر، ويقول فيها: مائة مرَّة «الحمد لله شكراً» وبعدها يقول: «يا ذا المن الذي لا ينقطع أبداً، ولا يحصيه غيره عدداً، ويا ذا المعروف الذي لا ينفذ أبداً، يا كريم، يا كريم» ويتضرع بعد ذلك ويذكر حاجته[٦].

كثرة تسبيحه:

وكان يسبِّح الله بهذه الكلمات المشرقة: «سبحان من أشرق نوره كل ظلمة، سبحان من قدر بقدرته كل قدرة، سبحان من احتجب عن العباد بطرائق نفوسهم، فلا شيء يحجبه، سبحان الله وبحمده»[٧].

ملازمته لصلاة اللَّيل:

من النوافل التي كان لا يدعها الإمام عليه السلام صلاة اللَّيل فكان مواظباً عليها في السفر والحضر[٨] إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى.

---

(١) علل الشرائع: ص٨٨.
(٢) تهذيب التهذيب: ٧/٣٠٦.
(٣) البحار: ٤٦/٦١.
(٤) الخصال: ص٤٨٨.
(٥) وسائل الشيعة: ٤/٩٨١.
(٦) وسائل الشيعة: ٤/١٠٧٩.
(٧) دعوات قطب الراوندي: ص٣٤.
(٨) صفة الصفوة: ٢/٥٣.

ضعفه وذبوله:

وذبل الإمام زين العابدين عليه السلام من كثرة الصلاة، فقد أجهدته العبادة أي إجهاد، وقد بلغ به الضعف أنَّ الريح كانت تميله يميناً وشمالاً بمنزلة السنبلة[١] التي تميلها الريح إذا لم تكن عنده قوَّة يستطيع بها الوقوف، وروى ابنه عبد الله قال: كان أبي يصلِّي باللَّيل فإذا فرغ يزحف إلى فراشه[٢].

وخاف عليه بعض أبنائه، فانبرى إليه بلهفة ووجل قائلاً:

«يا أبة كم هذا الدؤوب ـ يعني على الصلاة ـ؟..».

فأجابه الإمام برفق وحنان:

«أتحبَّب إلى ربِّي..»[٣].

صومه:

وقضى الإمام معظم أيَّام حياته صائماً، وقد قالت جاريته حينما سئلت عن عبادته: ما قدَّمت له طعاماً في نهار قط، وقد أحبّ الصوم، وحثَّ عليه فقد قال: «إنَّ الله تعالى وكل ملائكة بالصائمين»[٤] وكان عليه السلام لا يفطر إلاَّ في يوم العيدين، وغيرهما ممَّا كان له عذر.

حجُّه ماشياً:

وحجَّ الإمام عليه السلام غير مرَّة ماشياً على قدميه كما حجَّ أبوه، وعمّه الحسن عليه السلام وقد استغرق الوقت في إحدى سفراته إلى البيت عشرين يوماً[٥].

حجُّه راكباً:

وحجَّ عليه السلام على ناقته عشرين حجَّة، وكان يرفق بها كثيراً، ويقول المؤرخون: إنَّه ما قرعها بسوط[٦] وقال إبراهيم بن علي: حججت مع علي بن الحسين فتلكأت ناقته فأشار

---

(١) الإرشاد: ص٢٧٢.
(٢) البحار: ٤٦/٩٩.
(٣) البحار: ٤٦/٩١.
(٤) دعوات الراوندي: ص٤.
(٥) البحار، وجاء في العقد الفريد: ٣/١٠٣ أنَّه حجَّ خمساً وعشرين حجَّةً راجلاً.
(٦) حلية الأولياء: ٣/١٣٣.

إليها بالقضيب، ثم ردَّ يده، وقال: آه من القصاص، وتلكأت عليه مرَّة أخرى بين جبال رضوى، فأراها القضيب، وقال: لتنطلقن أو لأفعلن، ثم ركبها فانطلقت[١].

مع هشام بن عبد الملك:

حجَّ هشام بن عبد الملك بيت الله الحرام، وقد صحبته الشرطة، واحتفت به المرتزقة والوجوه والأعيان من أهل الشام، وقد جهد على استلام الحجر فلم يستطع لازدحام الحجَّاج، وتدافعهم على تقبيل الحجر، ولم يعن أحد بهشام ولم يفسحوا له، فقد انعدمت الفوارق، في ذلك البيت العظيم، وقد نصب له منبر فجلس عليه، وجعل ينظر إلى عملية الطواف، وأقبل الإمام زين العابدين عليه السلام ليؤدِّي طوافه، وبصر به بعض من يعرفه من الحجَّاج فنادى بأعلى صوته:

«هذا بقية الله في أرضه..».

«هذا بقية النبوَّة..».

«هذا إمام المتقين، وسيِّد العابدين..».

وغمرت الحجَّاج هيبة الإمام التي تعنو لها الوجوه والجباه، وهي تحكي هيبة جده رسول الله ﷺ، وتعالت الأصوات من جميع جنبات المسجد بالتهليل والتكبير، وانفرج الناس له سماطين فكان السعيد من يقبِّل يده، ويلمس إحرامه، وضجَّ البيت بالتكبير وذهل أهل الشام، وبهروا من هذا المنظر الرهيب، فإنَّهم لا يرون أحداً جديراً بالتكريم والتعظيم، غير الأسرة الأموية، فهي وارثة النبي ﷺ والقريبة إليه حسب ما أكَّده الإعلام الأموي وبادر الشاميون إلى هشام قائلين:

«من هذا الذي هابه الناس هذه المهابة؟..».

وتميَّز هشام من الغيظ، وانتفخت أوداجه، وبرزت عينه الحولاء فصاح بهم:

«لا أعرفه..».

وإنَّما أنكر معرفته للإمام مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ويزهدوا في بني أمية، وكان الفرزدق شاعر العرب الكبير حاضراً، فاستيقظ ضميره، واستوعب الحق فكره، وقد أخذته الرعدة، فاندفع بحماس قائلاً لأهل الشام: «أنا أعرفه...».

ـ «من هو يا أبا فراس؟..».

---

(١) الفصول المهمة: ص١٨٩.

وذعر هشام، وفقد صوابه مخافة أن يعرِّفه الفرزدق إلى أهل الشام، فصاح به: «أنا لا أعرفه..».

وعلا صوت الفرزدق بالإنكار عليه قائلاً: «بلى تعرفه..».

والتفت الفرزدق صوب أهل الشام قائلاً: «يا أهل الشام من أراد أن يعرف هذا الرجل فليأت...».

وخف الشاميون وغيرهم نحو شاعر العرب الأكبر، وقد استحالوا إلى أذن صاغية، وانبرى الفرزدق، وكله حماس لنصرة الحق، فارتجل هذه القصيدة العصماء التي مثلت صدق القول، وجمال الأسلوب فقال:

هذا سليل حسين وابن فاطمة ... بنت الرسول الذي انجابت به الظلم
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد اللَّه كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها: ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يرقى إلى ذروة العز الذي قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
يغضي حياءً ويغضي من مهابته ... فلا يكلِّم إلاَّ حين يبتسم
بكفِّه خيزران ريحها عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم
من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأُمم
ينشقُّ نور الهدى عن نور غرَّته ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم
مشتقة من رسول اللَّه نبعته ... طابت عناصرها والخيم والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء اللَّه قد ختموا
اللَّه شرَّفه قدماً وفضله ... جرى بذاك له في لوحه القلم
فليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
كلتا يديه غياث عم نفعهما ... يستوكفان ولا يعروهما عدم
حمال أثقال أقوام إذا فدحوا ... حلو الشمائل تحلو عنده نعم
لا يخلف الوعد ميمون نقيبته ... رحب الفناء أريب حين يعتزم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هُم
لا يستطيع جواد بُعد غايتهم ... ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت ... والأسد أسد الشرى والبأس محتدم

لا ينقص العسر بسطاً من أكفهم سيّان ذلك إن أثروا وإن عدموا
يستدفع السوء والبلوى بحبهم ويسترد به الإحسان والنعم
مقدم بعد ذكر اللَّه ذكرهم في كل أمر ومختوم به الكلم
يأبى لهم أن يحل الذل ساحتهم خيم كريم وأيد بالندى هضم
أي الخلائق ليست في رقابهم لأولية هذا أوْله نعم
من يشكر اللَّه يشكر أولية ذا فالدِّين من بيت هذا ناله الأُمم[(١)]

اعتقال الفرزدق:

وثار هشام بن عبد الملك، وخرج من أهابه حينما سمع بهذه القصيدة، وود أنَّ الأرض قد ساخت به، فقد دللت على واقع الإمام العظيم، وعرفته لأهل الشام الذين جهلوه آباءه، فقد أشاد الفرزدق بمنزلة الإمام، وجعل الولاء له جزءاً لا يتجزأ من الإسلام، وأنَّه أفضل إنسان تضمه سماء الدُّنيا في ذلك العصر.

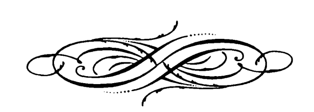
وأمر هشام باعتقال الفرزدق فاعتقل، وأودع في سجون عسفان وهو منزل يقع ما بين مكة والمدينة، وبلغ ذلك الإمام زين العابدين ﷺ فبعث إليه باثني عشر ألف درهم فردها الفرزدق، واعتذر من قبولها، وقال: إنَّما قلت فيكم غضباً لله ورسوله، فردها الإمام عليه فقبلها، وجعل الفرزدق يهجو هشاماً، وممَّا هجاه به:

أيحسبني بين المدينة والتي إليها قلوب الناس يهوي منيبها
يقلب رأساً لم يكن رأس سيِّد وعين له حولاء باد عيوبها[(٢)]

مع رجل يطوف بالكعبة:

سمع الإمام ﷺ رجلاً في أثناء طوافه بالكعبة، وهو يسأل الله الصبر فالتفت الإمام إليه قائلاً:

«سألت البلاء، ولكن قل: اللَّهمَّ إنِّي أسألك العافية، والشكر على العافية»[(٣)].



---

(١) نهاية الأرب: ٢١/٣٢٧ ـ ٣٣١.
(٢) نهاية الأرب: ٢١/٣٣١.
(٣) دعوات قطب الراوندي: ص٤٣.

من علوم الإمام

أما علوم الإمام عليه السلام فقد كانت امتداداً ذاتياً لعلوم آبائه الذين ورثوا علوم النبي صلى الله عليه وآله وفجروا ينابيع العلم والحكمة في الأرض، وأناروا الدُّنيا بعلومهم ومعارفهم وقد ورثها الإمام زين العابدين عليه السلام، فكان ـ فيما أجمع عليه المؤرخون ـ من أوسع الناس علماً، ومن أكثرهم دارية لا في علم خاص، وإنَّما في جميع العلوم والفنون.

في رحاب القرآن

شغفة بالقرآن:

كان الإمام زين العابدين عليه السلام حليفاً للقرآن الكريم وشغوفاً بتلاوته وكان يجد فيه متعة لا تعدلها أي متعة، وقد قال عليه السلام: «لو مات ما بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي»[(١)].

تلاوته للقرآن:

كان الإمام من أحسن الناس صوتاً في تلاوته القرآن الكريم فلا يكاد يسمعه أحد إلاَّ ويتأثر به، ويقول الرواة: إنَّ السقائين الذين يمرون ببابه كان يقفون لاستماع صوته[(٢)].

تدبُّره للقرآن:

يقول الرواة: إنَّه إذا قرأ ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ جعل يكرِّرها حتى كاد أن يموت[(٣)] والسبب في ذلك تدبُّره وتمعُّنه في محتوى هذه الآية الكريمة.

---

(١) البحار: ٤٦/١٠٧.

(٢) شرح شافية أبي فراس: ٢/ورقة ١٩٨.

(٣) أُصول الكافي: ٢/٦٠٢.

دعاؤه عند ختم القرآن:

وكان عليه السلام إذا ختم القرآن الكريم يدعو الله مبتهجاً بهذا الدُّعاء الشريف.

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعَنْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُوراً، وَجَعَلْتَهُ مُهَيْمِناً عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلْتَهُ، وَفَضَّلْتَهُ عَلَى كُلِّ حَدِيثٍ قَصَصْتَهُ وَفُرْقَاناً فَرَقْتَ بِهِ بَيْنَ حَلَالِكَ وَحَرَامِكَ، وَقُرْآناً أَعْرَبْتَ بِهِ عَنْ شَرَائِعِ أَحْكَامِكَ، وَكِتَاباً فَصَّلْتَهُ لِعِبَادِكَ تَفْصِيلًا، وَوَحْياً أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنْزِيلًا، وَجَعَلْتَهُ نُوراً نَهْتَدِي مِنْ ظُلَمِ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ بِاتِّبَاعِهِ، وَشِفَاءً لِمَنْ أَنْصَتَ بِفَهَمِ التَّصْدِيقِ إِلَى اسْتِمَاعِهِ، وَمِيزَانَ قِسْطٍ[١] لَا يَحِيفُ[٢] عَنِ الْحَقِّ لِسَانُهُ وَنُورَ هُدًى لَا يَطْفَأُ عَنِ الشَّاهِدِينَ بُرْهَانُهُ، وَعَلَمَ نَجَاةٍ لَا يَضِلُّ مَنْ أَمَّ قَصْدَ سُنَّتِهِ، وَلا تَنَالُ أَيْدِي الْهَلَكَاتِ مَنْ تَعَلَّقَ بِعُرْوَةِ عِصْمَتِهِ.

اللَّهُمَّ فَإِذْ أَفَدْتَنَا الْمَعُونَةَ عَلَى تِلَاوَتِهِ، وَسَهَّلْتَ جَوَاسِيَ أَلْسِنَتِنَا[٣] بِحُسْنِ عِبَارَتِهِ، فَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَرْعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وَيَدِينُ لَكَ بِاعْتِقَادِ التَّسْلِيمِ لِمُحْكَمِ آيَاتِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى الْإِقْرَارِ بِمُتَشَابِهِهِ، وَمُوضَحَاتِ بَيِّنَاتِهِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَسَلَّم، وَأَلْهَمْتَهُ عِلْمَ عَجَائِبِهِ مُكَمَّلًا، وَوَرَّثْتَنَا عِلْمَهُ مُفَسَّراً، وَفَضَّلْتَنَا عَلَى مَنْ جَهِلَ عِلْمَهُ، وَقَوَّيْتَنَا عَلَيْهِ لِتَرْفَعَنَا فَوْقَ مَنْ لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ.

اللَّهُمَّ فَكَمَا جَعَلْتَ قُلُوبَنَا لَهُ حَمَلَةً، وَعَرَّفْتَنَا بِرَحْمَتِكَ شَرَفَهُ وَفَضْلَهُ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ الْخَطِيبِ بِهِ، وَعَلَى آلِهِ الْخُزَّانِ لَهُ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِكَ حَتَّى لَا يُعَارِضَنَا الشَّكُّ فِي تَصْدِيقِهِ، وَلَا يَخْتَلِجَنَا الزَّيْغُ عَنْ قَصْدِ طَرِيقِهِ».

نماذج من تفسيره:

روى الإمام محمَّد الباقر عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، في تفسير الآية الكريمة ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[٤] إنَّه سبحانه وتعالى، جعل الأرض ملائمة لطباعكم، موافقة لأجسادكم، ولم يجعلها شديدة الحمأ[٥] والحرارة فتحرقكم، ولا شديدة البرودة فتجمدكم، ولا شديدة طيب الريح فتصدع هاماتكم، ولا شديدة النتن فتعطبكم[٦] ولا

---

(١) القسط: العدل.
(٢) لا يحيف: أي لا يميل.
(٣) جواسي: جمع جاسية وهي الغليظة، والمراد غلاظ الألسنة.
(٤) سورة البقرة: آية ٢٢.
(٥) الحمأ: شدة حرارة الشمس.
(٦) تعطبكم: أي تهلككم.

شديدة اللين كالماء، فتغرقكم، ولا شديدة الصلابة، فتمتنع عليكم في دوركم وأبنيتكم، وقبور موتاكم، ولكنَّه عزَّ وجلَّ جعل فيها من المتانة[١] ما تنتفعون به، وتتماسكون، وتتماسك عليها أبدانكم وبنيانكم، وجعل فيها ما تنقاد به لدوركم، وقبوركم، وكثير من منافعكم، فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي سقفاً من فوقكم، محفوظاً يدير فيها شمسها وقمرها ونجومها لمنافعكم، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر ينزله من علٍ ليبلغ قلل جبالكم، وتلالكم، وهضابكم[٢] وأوهادكم[٣] ثم فرقه رذاذاً ووابلاً وهطلاً[٤] لتنشفه أرضوكم، ولم يجعل ذلك المطر نازلاً عليكم قطعة واحدة فيفسد أرضكم، وأشجاركم وزروعكم وثماركم، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يعني ممَّا يخرجه من الأرض رزقاً لكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي أشباهاً وأمثالاً من الأصنام التي لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تقدر على شيء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّها لا تقدر على شيء من هذه النعم الجليلة التي أنعمها عليكم ربّكم تبارك وتعالى...»[٥].

سأل شخص الإمام زين العابدين عليه السلام عن تفسير الآية الكريمة: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[٦] فقال عليه السلام: «جنب الله هو علي بن أبي طالب، وهو حجَّة الله على الخلق، فإذا كان يوم القيامة أمر الله خزان جهنم أن يدفعوا مفاتيحها إلى علي عليه السلام فيدخل من يريد وينجي من يريد، وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي من أحبَّك أحبَّني، ومن أبغضك أبغضني، يا علي أنت أخي، وأنا أخوك، يا علي إنَّ لواء الحمد معك يوم القيامة تقدم به قدام أُمَّتي، والمؤذنون عن يمينك وشمالك..»[٧].

روى الإمام الصَّادق عليه السلام عن جده الإمام زين العابدين عليه السلام تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٨] قال عليه السلام في تفسير: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: إنِّي ضامن على ربِّي تعالى أنَّ الصدقة لا تقع في يد العبد حتى تقع في يد

(١) المتانة: ما صلب من الأرض وارتفع.
(٢) الهضاب: الأرض المرتفعة.
(٣) الأوهاد: الأرض المنخفضة.
(٤) الرذاذ: المطر الضعيف؛ الوابل المطر الشديد؛ الهطل: المطر الضعيف الدائم.
(٥) عيون أخبار الرِّضا: ١/١٣٧ ـ ١٣٨.
(٦) سورة الزمر: آية ٥٦.
(٧) تفسير فرات: ص٣.
(٨) سورة التوبة: آية ١٠٥.

الرَّبّ تعالى. . . وكان يقول: ليس من شيء إلاَّ وكل به ملك، إلاَّ الصدقة فإنَّها تقع في يدي الله تعالى(١).

سأل رجل الإمام زين العابدين عليه السلام عن الحق المعلوم الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾(٢) فقال عليه السلام: الحق المعلوم الشيء الذي يخرجه من ماله ليس من الزكاة والصدقة المفروضتين، فقال له الرجل: فما يصنع به؟ فقال عليه السلام: يصل به رحماً، ويقوي به ضعيفاً، ويحمل له كله أو يصل أخاً له في الله، أو لنائبة تنوبه. وبهر الرجل من علم الإمام وراح يقول له: الله أعلم حيث يجعل رسالته في من يشاء(٣).

علم الفقه:

يقول المؤرخون: إنَّه كان يشبه جده الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في قدرته على الإحاطة بالمسائل الفقهية من جميع جوانبها والتفريع عليها(٤).

بحوث كلامية:

كان من بين ما أدلى به، وسئل عنه من هذه البحوث ما يلي:

القضاء والقدر:

وقد سأل رجل الإمام عليه السلام عنها قائلاً:

«جعلني الله فداك، أبقدر يصيب الناس ما أصابهم أم بعمل؟. .».

فأجابه عليه السلام بجواب حلَّل فيه أبعادها، وواقعها على ضوء الفكر الإسلامي قال:

«إنَّ القدر والعمل بمنزلة الرُّوح والجسد، فالرُّوح بغير جسد لا تحسّ، والجسد بغير روح صورة لا حراك بها، فإذا اجتمعا قويا، وصلحا. كذلك العمل والقدر، فلو لم يكن القدر واقعاً على العمل لم يعرف الخالق من المخلوق، وكان القدر شيئاً لا يحسّ، ولو لم يكن العمل بموافقة من القدر لم يمض، ولم يتم، ولكنَّهما باجتماعهما، والله فيه لعباده الصالحين».

---

(١) تفسير البرهان: ١/٤٤١.
(٢) سورة المعارج: آية ٢٤.
(٣) لآليء الأخبار: ٣/٣.
(٤) الإمام زين العابدين: ص٣٣.

وأضاف الإمام قائلاً: «ألا إنَّ من أجور الناس من رأى جوره عدلاً، وعدل المهتدين جوراً، ألا إنَّ للعبد أربعة أعين: عينان يبصر بهما أمر آخرته، وعيناه يبصر بهما أمر دُنياه، فإذا أراد الله عزَّ وجلَّ بعبده خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب، وإذا أراد غير ذلك ترك القلب بما فيه».

والتفت عليه السلام فقال له: «هذا منه، هذا منه» لقد حلَّل الإمام عليه السلام واقع القضاء والقدر، وأزاح الشكوك التي تحوم حولهما، وأثبت الحقيقة التي قررها الإسلام فيهما.

الله نور:

دخل الإمام عليه السلام مسجد جده رسول الله صلى الله عليه وآله فرأى قوماً يختصمون فقال لهم: «فيم تختصمون؟..».

فانبروا جميعاً قائلين: «في التوحيد».

فزجرهم عن الخوض في ذلك، لقلة بضاعتهم في هذا الأمر، وقال لهم: «اعرضوا عن مقالتكم..».

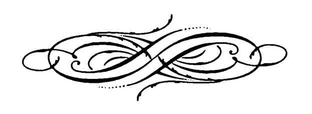
واندفع بعضهم قائلاً: «إنَّ الله يعرف بخلقه سماواته وأرضه، وهو في كل مكان..».

وأرشده الإمام إلى مقالة الحق والصواب قائلاً: «من كان ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، كان نعته لا يشبه نعت شيء فهو ذاك»[١].

عجبه من الشاك بالله:

قال عليه السلام:

«عجبت كل العجب لمن شكَّ في الله، وهو يرى خلقه، وعجبت كل العجب لمن أنكر النشأة الأخرى، وهو يرى النشأة الأولى..»[٢].



---

(١) التوحيد: ص٢٦ ـ ٣٦٧.

(٢) بلاغة الإمام زين العابدين: ص٥. صفة الصفوة: ٢/٣.

من مواعظه وحكمه

واهتم الإمام زين العابدين عليه السلام كأشد ما يكون الاهتمام بوعظ الناس، وقد أثرت عنه كثير من المواعظ وعظ بها أصحابه، وأهل عصره.

مواعظه:

في ذمّ الدُّنيا والتحذير من شرورها وفتنتها:

١ ـ قال عليه السلام: «إنَّ الدُّنيا قد ارتحلت مدبرة، وأنَّ الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل واحد منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدُّنيا، الراغبين في الآخرة، ألا أنَّ الزاهدين في الدُّنيا اتخذوا الأرض بساطاً، والتراب فراشاً، والماء طيباً، وقرضوا من الدُّنيا تقريضاً، ألا ومن اشتاق إلى الجنَّة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدُّنيا هانت عليه المصائب، ألا أنَّ لله عباداً كمن رأى أهل الجنَّة في الجنَّة مخلدين، وكمن رأى أهل النار في النار معذبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة فصاروا بعقبى راحة طويلة، أما الليل فصافون أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم، وهم يجأرون[١] إلى ربّهم، يسعون في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء بررة، أتقياء كأنَّهم القداح[٢] قد براهم الخوف من العبادة ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى، وما بالقوم من مرضى أم خولطوا، فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النار، وما فيها..»[٣].

٢ ـ قال عليه السلام: «يا ابن آدم لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك، وما كانت المحاسبة من همك، وما كان لك الخوف شعاراً، والحزن لك دثاراً، يا ابن آدم إنَّك ميت ومبعوث، وموقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، ومسؤول، فأعِدَّ جواباً..»[٤].

---

(١) يجأرون: أي يتضرعون.

(٢) القداح: السهام بلا ريش ولا نصل.

(٣) أُصول الكافي: ٢/١٣٢.

(٤) الدر النظيم: ص١٣٧.

٣ ـ روى الزهري قال: سمعت علياً بن الحسين يقول: **«من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدُّنيا حسرات، والله ما الدُّنيا والآخرة إلاَّ ككفتي ميزان، فأيُّهما رجح ذهب بالآخر. ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ـ يعني القيامة ـ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ﴾ ـ خفضت والله بأعداء الله إلى النار ـ ﴿رَّافِعَةٌ﴾ ـ رفعت والله أولياء الله إلى الجنَّة ـ. .»**.

ثم خاطب رجلاً من جلسائه، ـ والذي يظهر من فحوى كلام الإمام عليه السلام أنَّه كان متهالكاً في طلب الدُّنيا، فقال عليه السلام يعظه:

«اتق الله، واجمل في الطلب، ولا تطلب ما لم يخلق، فإنَّ من طلب ما لم يخلق تقطعت نفسه، ولم ينل ما طلب، وكيف ينال ما لم يخلق. .».

وأسرع الرجل قائلاً:

كيف يطلب ما لم يخلق؟. . .

فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً:

«من طلب الغنى والأموال والسعة في الدُّنيا فإنَّما يطلب ذلك للراحة في الدُّنيا، والراحة لم تخلق في الدُّنيا، ولا لأهل الدُّنيا، إنَّما خلقت الراحة في الجنَّة، والتعب والنصب خلقا في الدُّنيا، ولأهل الدُّنيا، وما أعطي أحد منها حفنة إلاَّ أعطي من الحرص مثلها، ومن أصاب من الدُّنيا أكثر كان فيها أشد فقراً لأنَّه يفتقر إلى الناس لحفظ أمواله، ويفتقر إلى كل آلة من آلات الدُّنيا، فليس في غنى الدُّنيا راحة، ولكن الشيطان يوسوس إلى ابن آدم أنَّ له في جمع ذلك المال راحة، وإنَّما يسوقه إلى التعب في الدُّنيا، والحساب عليه في الآخرة.

وأضاف الإمام قائلاً:

«كلا ما تعب أولياء الله في الدُّنيا للدنيا، بل تعبوا في الدُّنيا للآخرة. . ألا ومن اهتم لرزقه كتب عليه حفظه، كذلك قال المسيح عيسى عليه السلام للحواريين: إنَّما الدُّنيا قنطرة فاعبروها، ولا تعمروها. .»[1].

وفي هذه الموعظة دعوة إلى الزهد في الدُّنيا، والإجمال في طلبها، فإنَّ السعي وراء المادة سببه الحصول على الراحة، ولكن لا راحة في الدُّنيا وذلك لكثرة همومها

(١) الخصال: ص٦٤ ـ ٦٥.

وآلامها، وقد خلقت الراحة في الجنَّة التي أعدها الله للمتقين من عباده، فالطلب ينبغي أن يكون لها، لا للدنيا.

٤ ـ سأل شخص الإمام زين العابدين عليه السلام فقال له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عليه السلام: **«أصبحت مطلوباً بثمان: الله يطالبني بالفرائض، والنبي يطالبني بالسُّنَّة، والعيال بالقوت، والنفس بالشهوة، والشيطان باتباعه، والحافظان بصدق في العمل، وملك الموت بالرُّوح، والقبر بالجسد، فأنا بين هذه الخصال مطلوب»**[1].

٥ ـ جاء رجل متسوّل يشكو حاله إلى الإمام عليه السلام، فأنكر عليه ذلك قائلاً:

«مسكين ابن آدم، له في كل يوم ثلاث مصائب، لا يعتبر بواحدة منهن، ولو اعتبر لهانت عليه المصائب، وأمر الدُّنيا: فأما المصيبة الأولى فاليوم الذي ينقص من عمره... وإن ناله نقصان في ماله اغتم به، والدرهم يخلف عنه، والعمر لا يرده، والثانية أنَّه يستوفي رزقه فإن كان حلالاً حُوسب عليه، وإن كان حراماً عُوقب عليه، والثالثة أعظم من ذلك، فقيل له: وما هي؟ قال: ما من يوم يمسي إلاَّ ودنا من الآخرة رحله لا يدري أعلى الجنَّة أم على النار..»[2].

٦ ـ قال عليه السلام: **«لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستنابة، وجملة الحال في صواب التبيين، لأعربوا عن كل ما يتلجلج في صدورهم، ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كلِّ حال سوى حالهم، وعلى أنَّ إدراك ذلك كان لا يعدمهم في الأيام القليلة العدة، والفكرة القصيرة المدة، ولكنَّهم من بني مغمورٍ بالجهل، ومفتون بالعجب، ومعدول بالهوى من باب التثبت، ومصروف بسوء العادة عن فضل التعلُّم..»**[3].

٧ ـ ومن مواعظه القيِّمة التي كان يعظ بها أصحابه هذه الموعظة:

«أحبَّكم إلى الله أحسنكم عملاً، وإنَّ أعظمكم عند الله عملاً أعظمكم في ما عند الله رغبة، وإنَّ أنجاكم من عذاب الله أشدكم خشية لله، وإنَّ أقربكم من الله أوسعكم خلقاً، وإنَّ أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله، وإنَّ أكرمكم على الله أتقاكم لله تعالى..»[4].

---

(١) أمالي ابن الشيخ: ص٤١٠.
(٢) الاختصاص: ص٣٣٨.
(٣) البيان والتبيين: ١/ ٨٤.
(٤) روضة الكافي: ص١٥٨.

٨ ـ وممَّا وعظ به الإمام أصحابه قوله: «إنَّ بين اللَّيل والنهار روضة يرتع في رياضها الأبرار، ويتنعم في حدائقها المتقون، فادأبوا رحمكم الله في سهر هذا اللَّيل بتلاوة القرآن في صدره، وبالتضرع والاستغفار في آخره، وإذا ورد النهار فأحسنوا قراه بترك التعرُّض لما يرد لكم من محقرات الذُّنوب فإنَّها مشرفة بكم على قباح العيوب، وكأنَّ الرحلة قد أظلتكم، وكأنَّ الحادي قد حدا بكم، جعلنا الله وإيَّاكم من أغبطه فهمه، ونفعه علمه..»[1].

ومن مواعظه هذه الموعظة التي وجه فيها الخطاب لنفسه، وهي من المواعظ التي ترتعد منها الفرائص، وتفزع منها القلوب، وهذا نصّها:

«يا نفس حتى م إلى الدُّنيا سكونك، وإلى عمارتها ركونك، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك، ومن رواته الأرض ألأُفِكِ؟ ومن فجعت به من إخوانك، ونقل إلى الثرى من أقرانك؟ فهم في بطون الأرض بعد ظهورها، محاسنهم فيها بوال دواثر.

خلت دورهم منهم واقوت عراصهمُ   وساقهم نحو المنايا المقادر
وخلوا عن الدُّنيا وما جمعوا لها   وضمهم تحت التراب الحفائر

كم خرمت أيدي المنون من قرون، وكم غيرت الأرض ببلائها، وغيبت في ترابها ممَّن عاشرت من صنوف وشيعتهم إلى الأرماس، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الأفلاس:

وأنت على الدُّنيا مكب منافس   لخطابها فيها حريص مكاثر
على خطر تمشي وتصبح لاهياً   أتدري بماذا لو عقلت تخاطر
وإنَّ امرءاً يسعى لدُنياه دائباً   ويذهل عن أخراه لا شك خاسر

فحتى م على الدُّنيا إقبالك؟ وبشهواتها اشتغالك؟ وقد وخطك القتير[2] وأتاك النذير، وأنت عمَّا يُراد بك ساهٍ، وبلذَّة يومك وغدك لاهٍ، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات، وعاينت ما حلَّ بهم من المصيبات.

وفي ذكر هول الموت والقبر والبلى   عن اللهو واللذَّات للمرء زاجر
أبعد اقتراب الأربعين تربص   وشيب قذال منذر ومكابر
كأنَّك معنيٌّ بما هو ضائر   لنفسك عمداً وعن الرشد حائر[3]

---

(١) الدر النظيم: ص١٣٧.
(٢) وخطك: أي أسرع، القتير: الشيب.
(٣) في العجز ـ كما لا يخفي ـ زحاف، ولعلَّ الأصح: لنفسك عمداً أو عن الرشد جائر.

انظر إلى الأمم الماضية، والملوك الفانية، كيف اختطفتهم عقبان الأيام ووافاهم الحمام، فأمحت من الدُّنيا آثارهم، وبقيت فيها أخبارهم، وأصبحوا رمماً في التراب إلى يوم الحشر والمآب

أمسوا رميماً في التراب وعطلت مجالسهم منهم وأخلى مقامر
وحلوا بدار لا تزاور بينهم وأنَّىٰ لسكَّان القبور التزاور
فما أن ترى إلاَّ قبوراً ثووا بها مسطحة تسفي عليها الأعاصر

كم من ذي منعة وسلطان، وجنود، وأعوان، تمكن من دُنياه، ونال فيها ما تمناه، وبنى فيها القصور والدساكر[١] وجمع فيها الأموال والذخائر، ومليح السراري والحرائر.

فما صدفت كف المنية إذ أتت مبادرة تهوى إليه الذخائر
ولا دفعت عنه الحصون التي بنى وحف بها أنهاره والدساكر
ولا قارعت عنه المنية حيلة ولا طمعت في الذب عنه العساكر

أتاه من الله ما لا يرد، ونزل به من قضائه ما لا يصد، فتعالى الله الملك الجبَّار، المتكبِّر العزيز القهَّار، قاصم الجبَّارين، ومبيد المتكبرين، الذي ذلَّ لعزّه كلّ سلطان، وأباد بقوَّته كلّ ديَّان.

مليك عزيز، لا يرد قضاؤه حكيم عليم، نافذ الأمر، قاهر
عنَا كلّ ذي عزّ لعزة وجهه فكم من عزيز للمهيمن صاغر
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت لعزة ذي العرش الملوك الجبابر

فالبدار، البدار[٢]، والحذار الحذار من الدُّنيا ومكايدها، وما نصبت لك من مصايدها وتحلت لك من زينتها، وأظهرت لك من بهجتها، وأبرزت لك من شهواتها، وأخفت عنك من غوائلها وهلكاتها.

وفي دون ما عاينت من فجعاتها إلى دفعها داع وبالزهد آمر
فجدّ ولا تغفل وكن متيقظاً فعمَّا قليل يترك الدار عامر
فشمر ولا تفتر، فعمرك زائل وأنت إلى دار الإقامة صائر
ولا تطلب الدُّنيا فإنَّ نعيمها ـ وإن نلت منها ـ غبه لك ضائر

فهل يحرص عليها لبيب، أو يسربها أريب؟ وهو على ثقة من فنائها، وغير طامع

(١) الدساكر: مفردها دسكرة وهي بناء كالقصر فيه الشراب والملاهي.
(٢) أي: العجل العجل.

في بقائها، أم كيف تنام عينا من يخشى البيات، وتسكن نفس من توقع في جميع أموره الممات.

وتشغلنا اللذّات عمّا نحاذر إلاّ له، ولكنّا نغر نفوسنا
بموقف عدل يوم تبلى السرائر وكيف يلذّ العيش من هو موقف
سدى، ما لنا بعد الممات مصادر كأنَّ نرى أنَّ لا نشور، وأنّنا

وما عسى أن ينال صاحب الدُّنيا من لذَّتها، ويتمتع به من بهجتها مع صنوف عجائبها وقوارع فجائعها، وكثرة عذابه في مصابها وفي طلبها، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها.

يروح علينا صرفها ويباكر أما قد نرى في كل يوم وليلة
وكم قد ترى يبقى لها المتعاور تعاورنا آفاتها وهمومها
ولا هو عن تطلابها النفس قاصر فلا هو مغبوطٌ بدُنياه آمن

كم قد غرت الدُّنيا من مخلد إليها، وصرعت من مكب عليها، فلم تُنهضه من عثرته، ولم تنقذه من صرعته، ولم تشفه من ألمه، ولم تبرئه من سقمه، ولم تخلصه من وصمه.

موارد سوء ما لهن مصادر بل أوردته بعد عز ومنعة
هو الموت لا ينجيه منه التحاذر فلما رأى أن لا نجاة وأنّه
عليه، وأبكته الذُّنوب الكبائر تندم إذ لم تغن عنه ندامة

إذا بكى على ما سلف من خطاياه، وتحسَّر على ما خلف من دُنياه، واستغفر حتى لا ينفعه الاستغفار، ولا ينجيه الاعتذار عند هول المنية، ونزول البلية.

وأبلس لما أعجزته المقادر أحاطت به أحزانه وهمومه
وليس له ممَّا يحاذر ناصر فليس له من كربة الموت فارج
تردّدها منه اللها والحناجر وقد جشأت خوف المنية نفسه

هنالك خف عواده، وأسلمه أهله وعواده، وارتفعت البرية بالعويل، وقد أيسوا من العليل، فغمضوا بأيديهم عينيه، ومدوا عند خروج روحه رجليه، وتخلى عنه الصديق، والصاحب الشقيق.

ومستنجد صبراً وما هو صابر فكم موجع، يبكي عليه، مفجع
يعدد منه كل ما هو ذاكر ومسترجع داع له الله مخلصاً
وعمَّا قليل للذي صار صائر وكم شامت مستبشر بوفاته

فشقت جيوبها نساؤه، ولطمت خدودها إماؤه، وأعول لفقده جيرانه، وتوجع لرزيته إخوانه، ثم أقبلوا على جهازه، وشمروا لإبرازه، كأنَّه لم يكن بينهم العزيز المفدى، ولا الحبيب المبدى.

وحل أحبّ القوم كان بقربه يحثُّ على تجهيزه ويبادر
وشمر من قد أحضروه لغسله ووجه لما فاض للقبر حافر
وكفن في ثوبين واجتمعت له لتشييعه إخوانه والعشائر

فلو رأيت الأصغر من أولاده، وقد غلب الحزن على فؤاده، ويخشى من الجزع عليه، وخضبت الدموع عينيه، وهو يندب أباه، ويقول: يا ويلاه واحرباه.

لعاينت من قبح المنية منظراً يهال لمرآة، ويرتاع ناظر
أكابر أولاد يهيج اكتئابهم إذا ما تناساه البنون الأصاغر
وربة نسوان عليه جوازع مدامعهم فوق الخدود غوازر

ثم أخرج من سعة قصره، إلى ضيق قبره، فلما استقر في اللحد، وهيل عليه اللبن احتوشته أعماله، وأحاطت به خطاياه، وضاق ذرعاً بما رآه، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب، ثم وقفوا ساعة عليه، وأيسوا من النظر إليه، وتركوه رهناً بما كسب وطلب.

فولوا عليه معولين وكلهم لمثل الذي لاقى أخوه محاذر
كشاءٍ رتاع آمنين بدالها بمديته بادي الذراعين حاسر
فريعت ولم ترتع قليلاً وأجفلت فلما نأى عنها الذي هو حاذر،..

عادت إلى مرعاها ونسيت ما في أختها دهاها، أفبأفعال الأنعام اقتدينا؟ أم على عادتها جرينا؟ عد إلى ذكر المنقول إلى دار البلى، واعتبر بموضعه تحت الثرى، المدفوع إلى هول ما ترى.

ثوى مفرداً في لحده وتوزعت مواريثه أولاده والأصاهر
وأحنوا على أمواله يقسمونها فلا حامد منهم عليها وشاكر
فيا عامر الدُّنيا ساعياً لها ويا آمناً من أن تدور الدوائر...

كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائر إليها لا محالة؟ أم كيف ضيعت حياتك، وهي مطيتك إلى مماتك؟ أم كيف تشبع من طعامك وأنت منتظر حمامك؟ أم كيف تهنأ بالشهوات وهي مطية الآفات.

ولم تتزود للرحيل وقد دنا وأنت على حال وشيك مسافر

فيا لهف نفسي كم أسوف توبتي وعمري فانٍ والردى لي ناظر
وكل الذي أسلفت في الصحف مثبت يجازي عليه عادل الحكم قادر

فكم ترقع بآخرتك دُنياك، وتركب غيك وهواك، أراك ضعيف اليقين يا مؤثر الدُّنيا على الدِّين، أبهذا أمرك الرَّحمٰن؟ أم على هذا أنزل القرآن؟ أما تذكر أمامك من شدَّة الحساب، وشرّ المآب، أما تذكر حال من جمع وثمر، ورفع البناء وزخرف وعمر، أما صار جمعهم بوراً، ومساكنهم قبوراً.

تخرب ما يبقى وتعمر فانياً فلا ذاك موفورٌ ولا ذاك عامر
وهل لك إن وافاك حتفك بغتة ولم تكتسب خيراً لدى اللّه عاذر
أترضى بأن تفنى الحياة وتنقضي ودينك منقوص ومالك وافر[1]

من حكمه وتعاليمه:

ذم التكبُّر:

يقول عليه السلام: «**عجبت للمتكبِّر الفخور، الذي كان بالأمس نطفة ثم هو غداً جيفة**».

إنَّ المتكبِّر على الناس الفخور بنفسه، لو تأمَّل ذاته قليلاً ونظر إلى بداية تكوينه، ونهاية مصيره لما تكبَّر على الناس، وفخر بما يتمتع به من مال أو بنين.

التحذير من المراء:

قال عليه السلام: «المراء يفسد الصداقة القديمة، ويحلُّ العقدة الوثيقة، وأقلّ ما فيه أن تكون به المغالبة، والمغالبة من أمتن أسباب القطيعة»[2].

الابتهاج بالذنب:

قال عليه السلام: «إيَّاك والابتهاج بالذنب، فإنَّ الابتهاج بالذنب أعظم من ركوبه»[3].

حقيقة الموت:

ووصف الإمام عليه السلام حقيقة الموت بالنسبة للمؤمنين والكافرين، بقوله: «الموت للمؤمن كنزع ثياب وسخة، وفك أغلال ثقيلة، والاستبدال بأفخر الثياب، وأوطأ

(١) البداية والنهاية: ٩/١٠٩ ـ ١١٣، تأريخ ابن عساكر.
(٢) زهر الآداب: ١/١٠٢.
(٣) الدر النظيم: ص١٧٣.

المراكب، وللكافر كخلع ثياب فاخرة، والنقل من منازل أنيسة، والاستبدال بأوسخ الثياب، وأخشنها، وأوحش المنازل وأعظمها...»[١].

أهم أنواع الزهد:

سأل شخص الإمام زين العابدين عليه السلام عن الزهد، فقال عليه السلام: الزهد عشرة أشياء، فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا[٢]، ألا وإنَّ الزهد في آية من كتاب الله قوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٣].

أفضل الأعمال عند الله:

سئل الإمام عليه السلام عن أفضل الأعمال عند الله، فقال عليه السلام: **«ما من عمل أفضل عند الله تعالى بعد معرفة الله، ومعرفة رسوله أفضل من بغض الدُّنيا، وإنَّ لذلك شعباً كثيرة، وإنَّ للمعاصي شعباً، فأول ما عُصي الله به الكبر، وهو معصية إبليس حين أبى، واستكبر، وكان من الكافرين، والحسد وهو معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حبّ النساء، وحبّ الدُّنيا، وحب الرياسة، وحب الراحة، وحب الكلام، وحب العلو، وحب الثروة، فصرن سبع خصال، فاجتمعن كلهن في حب الدُّنيا، فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك.. حب الدُّنيا رأس كل خطيئة، والدُّنيا دنيا بلاء..»**[٤].

صفات المنافق والمؤمن:

قال عليه السلام: **«المنافق ينهى ولا ينتهي، ويأمر ولا يأتي، إذا قام للصلاة اعترض، وإذا ركع ربض، وإذا سجد نقر، يمسي وهمه العشاء، ولم يصم، ويصبح وهمه النوم ولم يسهر.**

والمؤمن خلط علمه بحلمه، يجلس ليعلم، وينصت ليسلم، لا يحدث بالأمانة للأصدقاء، ولا يكتم الشهادة للبعداء، ولا يعمل شيئاً من الحق رياءاً، ولا يتركه حياءاً إن زكّي خاف ممّا يقولون: ويستغفر الله لما لا يعلمون، ولا يضره جهل من جهله..»[٥].

---

(١) معاني الأخبار للصدوق: باب ١٣٦.
(٢) أُصول الكافي: باب ذم الدُّنيا.
(٣) سورة الحديد: آية ٢٣.
(٤) أُصول الكافي: باب ذم الدُّنيا.
(٥) تحف العقول: ص٢٨٠.

المواساة والإحسان:

قال الإمام عليه السلام: «من بات شبعاناً وبحضرته مؤمن جائع طاو فإنَّ الله تعالى يقول لملائكته: اشهدوا على هذا العبد أمرته فعصاني، وأطاع غيري، فوكلته إلى عمله، وعزتي وجلالي لا غفرت له أبداً...»(١).

قال عليه السلام: «من كان عنده فضل ثوب فعلم أنَّ بحضرته مؤمناً يحتاج إليه، فلم يدفعه إليه أكبه الله على منخريه في النار»(٢).

قال عليه السلام: «إنِّي لأستحيي من ربِّي أن أرى أخاً من إخواني، فاسأل الله له الجنَّة وأبخل عليه بالدينار والدرهم، فإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الجنَّة لك لكنت بها أبخل، وأبخل، وأبخل...»(٣).

قال عليه السلام: «يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما يكون، وأجوع ما يكون، وأعطش ما يكون، فمن كسى مؤمناً في دار الدُّنيا كساه الله من حلل الجنَّة، ومن أطعم مؤمناً في دار الدُّنيا أطعمه الله من ثمار الجنَّة، ومن سقى مؤمناً في دار الدُّنيا شربة، سقاه الله من الرحيق المختوم..»(٤).

الدُّعاء للمؤمن:

قال عليه السلام: «إنَّ الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب أو يذكره بخير، قالوا: نعم الأخ أنت لأخيك، تدعو له بالخير، وهو غائب عنك، وتذكره بخير، قد أعطاك الله مثلي ما سألت له، وأثنى عليك مثلي ما أثنيت عليه، ولك الفضل عليه، وإذا سمعوه يذكره أخاه بسوء ويدعو عليه، قالوا له: بئس الأخ أنت لأخيك، كف أيُّها المستر على ذنوبه وعورته، واربع على نفسك، واحمد الله الذي ستر عليك، واعلم أنَّ الله أعلم بعبده منك..»(٥).

التحذير من الطمع:

قال عليه السلام: «رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عمَّا في أيدي الناس، ومن

(١) عقاب الأعمال: ص٣٠.
(٢) محاسن البرقي: ١/ ٩٧.
(٣) مصادقة الإخوان: ص٣٤.
(٤) الإمام زين العابدين: ص١٩٤.
(٥) أُصول الكافي.

لم يرج الناس في شيء، ورد أمره إلى الله تعالى في جميع أموره، استجاب الله له كل شيء..»[١].

شكر المحسن:

قال عليه السلام: «إنَّ الله تعالى يُحبُّ كلّ قلب حزين، ويُحبّ كلّ عبد شكور ويقول الله لعبد من عبيده يوم القيامة: اشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ فيقول الله سبحانه: لم تشكرني إن لم تشكره.

وأضاف الإمام بعد ذلك قائلاً: «أشكركم أشكركم للناس..»[٢].

الأمر بالمعروف:

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «التارك للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كنابذ كتاب الله وراء ظهره، إلاَّ أن يتقي تقاة، فقيل له: ما تقاته؟ قال: يخاف جبَّاراً أن يفرط عليه، أو أن يطغى..»[٣].

فضل الكلام على السكوت:

سأل رجل الإمام عليه السلام عن السكوت والكلام، أيُّهما أفضل؟ فقال عليه السلام: «لكلّ واحد منهما آفات، فإذا سلما من الآفات، فالكلام أفضل».

وانبرى إليه شخص فقال له: كيف ذاك يا ابن رسول الله؟

فأجابه عليه السلام: «إنَّ الله سبحانه لم يبعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، إنَّما بعثهم بالكلام، ولا استحقت الجنَّة بالسكوت، إنَّما ذلك كله بالكلام، وما كنت لأعدل القمر بالشمس..»[٤].

سعادة الإنسان:

قال عليه السلام: «ومن سعادة المرء أن يكون متجره في بلاده، ويكون خلطاؤه صالحين، ويكون له ولد يستعين بهم»[٥].

---

(١) أُصول الكافي: باب الاستغناء عن الناس، وسائل الشيعة: ٦/ ٣١٤.
(٢) أُصول الكافي: باب الشكر.
(٣) حلية الأولياء: ٣/ ١٤٠.
(٤) الاحتجاج: ص١٧٢ الطبعة الأولى.
(٥) الخصال: ص٢٤٥.

علامات المؤمن:

قال الإمام عليه السلام: «علامات المؤمن خمس: فقال له طاووس اليماني: وما هي يا ابن رسول الله؟ قال: الورع في الخلوة، والصدقة في القلة، والصبر عند المصيبة، والحلم عند الغضب، والصدق عند الخوف»(١).

التواضع:

قال عليه السلام: «لا حسب لقرشي، ولا لعربي إلاَّ بتواضع، ولا كرم إلاَّ بتقوى، ولا عمل إلاَّ بنية، ألا وإنَّ أبغض الناس إلى الله عزَّ وجلَّ من يقتدي بسُنَّة إمام، ولا يقتدي بأعماله..»(٢).

الصبر:

قال عليه السلام: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له..»(٣).

من أخلاق المؤمن:

قال عليه السلام: «من أخلاق المؤمن الإنفاق على قدر الاقتار(٤) والتوسعة على قدر التوسع، وإنصاف الناس، وابتداؤه إيَّاهم بالسلام عليهم..»(٥).

العصبية:

سئل الإمام عليه السلام عن العصبية التي هي من أخلاق الجاهلية، فقال: «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»(٦).

الاتقاء من الكذب:

وكان الإمام عليه السلام يحذِّر أبناءه من الكذب، ويقول لهم عليه السلام: «اتقوا الكذب، الصغير منه والكبير، في كل جد وهزل. فإنَّ الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على

(١) الخصال: ص٢٤٥.
(٢) الخصال: ص١٩.
(٣) أُصول الكافي: ٢/ ٨٩.
(٤) الاقتار: ضيق المعيشة.
(٥) أُصول الكافي: ٢/ ٢٤١.
(٦) أُصول الكافي: ٢/ ٣٠٨.

الكبير، أما علمتم أنَّ رسول الله ﷺ قال: ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صدِّيقاً، وما يزال العبد يكذب حتى يكتبه الله كذَّاباً..»[١].

القناعة:

قال عليه السلام: «من قنع بما قسم الله فهو من أغنى الناس..»[٢].

الولاء لأهل البيت:

قال عليه السلام لأبي حمزة الثمالي:

«أي البقاع أفضل؟..».

وحار أبو حمزة في الجواب فقال:

«الله ورسوله أعلم..».

فأجابه عليه السلام:

«إنَّ أفضل البقاع ما بين الركن والمقام، ولو أنَّ رجلاً عمَّر ما عمَّر نوح في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، يصوم النهار، ويقول اللَّيل في ذلك الموضع، ثم لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً»[٣].

سيادة أهل البيت على الناس:

سأل رجل الإمام عليه السلام، فقال له: بماذا فضلتم على الناس جميعاً، وسدتموهم؟ فقال عليه السلام: **«اعلم أنَّ أُناس جميعاً لا يخلون من أحد ثلاثة: إما رجل أسلم على أيدينا فهو مولى لنا، يرجع إلينا ولاؤه فنحن سادته، وإما رجل قاتلناه، فقتلناه فمضى إلى النار، وبقي ماله مغنماً لنا، وإما رجل أخذنا منه جزيته وهو صاغر، ولا رابع فأي فضل لم نحزه، وشرف لم نحصله؟»**[٤].

روائع الحكم القصار:

قال عليه السلام: **«من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدُّنيا»**[٥].

---

(١) أُصول الكافي: ٢/ ٢٢٣.
(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ: ص١٨٧.
(٣) الإمام زين العابدين: ص٢٠٢.
(٤) غرر الآثار ودرر الآثار للديلمي: ص٨٠.
(٥) تحف العقول: ص٢٧٨.

قال عليه السلام: «الخير كله في صيانة الإنسان نفسه»[١].

قال عليه السلام: «ضل من ليس له حليم يرشده، وذل من ليس له سفيه يعضده..»[٢].

قال عليه السلام: «اللئيم يأكل ماله الأعداء، والذي خبث لا يخرج إلاَّ نكداً..»[٣].

قال عليه السلام: «أفضل الأعمال عند الله ما عمل بالسُّنَّة..»[٤].

قال عليه السلام: «لقد استرقك بالود من سبقك بالشكر..»[٥].

قال عليه السلام: «لا يكون الصديق صديقاً حتى يقطع لأخيه المؤمن قطعة من دينه يرقعها بالاستغفار..»[٦].

قال عليه السلام: «ضمنت على ربِّي أنَّه لا يسأل أحد من غير حاجة إلاَّ اضطرته المسألة يوماً إلى أن يسأل من حاجة..»[٧].

قال عليه السلام: «إيَّاك، وما تعتذر منه»[٨].

قال عليه السلام: «سبحان من جعل الاعتراف بالنعمة له حمداً، سبحان من جعل الاعتراف بالعجز عن الشكر شكراً..»[٩].

قال عليه السلام: «من عتب على الزمان طالت معتبته..».

قال عليه السلام: «لا تزهدن في صداقة أحد، وإن ظننت أنَّه لا ينفعك، فإنَّك لا تدري متى ترجو صديقك..».

قال عليه السلام: «لا يعتذر إليك أحد إلاَّ قبلت عذره، وإن علمت أنَّه كاذب».

قال عليه السلام: «ليقل عيب الناس على لسانك..».

قال عليه السلام: «استعن على الكلام بالسكوت فإنَّ للقول حالات تضر..».

قال عليه السلام: «من رمى الناس بما هم فيه رموه بما ليس فيه..».

---

(١) تحف العقول: ص٢٧٨.
(٢) الأتحاف بحب الأشراف: ص٧٥.
(٣) نزهة الناظر: ص٣٢.
(٤) الوافي: ١/ ٦٧؛ الإمام زين العابدين: ص٢١٩.
(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب: ٢١/ ٣٣١.
(٦) بهجة المجالس وأنس المجالس: ١/ ٦٨٥.
(٧) وسائل الشيعة: ٦/ ٣٠٥.
(٨) كشف الغمة.
(٩) تحف العقول: ص٢٨٣.

قال عليه السلام: «خير مفاتيح الأمور الصدق، وخير خواتيمها الوفاء».

قال عليه السلام: «شهادة أن لا إلّه إلاّ الله هي الفطرة..».

قال عليه السلام: «طاعة الله هي العصمة..».

قال عليه السلام: «عجبت ممَّن يحتمي الطعام لمضرته، ولا يحتمي من الذنب لمضرته..»[١].

قال عليه السلام: «لكل شيء فاكهة، وفاكهة السمع الكلام الحسن..».

قال عليه السلام: «اللجاجة مقرونة بالجهالة..».

قال عليه السلام: «كلكم سيصير حديثاً فمن استطاع أن يكون حسناً فليفعل..».

قال عليه السلام: «الحسود لا ينال شرفاً، والحقود يموت كمداً..».

قال عليه السلام: «نظر المؤمن في وجه أخيه المؤمن للمودة والمحبة عبادة..».

قال عليه السلام: «إذا نصح العبد لله في سرِّه أطلعه على مساوىء عمله، فتشاغل بذنوبه عن معائب الناس..».

قال عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من غضب الله، إذا غضب..».

قال عليه السلام: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكراً للمقدرة عليه، فإنَّ العفو عن قدرة، فضل من الكرم..».

قال عليه السلام: «إيَّاكم وصحبة العاصين، ومعونة الظالمين..».

قال عليه السلام: «أخذ الناس ثلاثة من ثلاثة، الصبر من أيُّوب، والشكر من نوح، والحسد من بني يعقوب..».

قال رجل للإمام: يا ابن رسول الله إنِّي لأحبك في الله حباً شديداً، فقال عليه السلام: «اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أحب فيك، وأنت لي مبغض».

قال عليه السلام: «لا ينتفع البليغ بالقول مع سوء الاستماع..».

قال عليه السلام: «لينفق الرجل بالقصد، وبلغة الكفاف، ويقدم الفضل منه لآخرته، فإنَّ ذلك أبقى للنعمة، وأقرب إلى المزيد من الله تعالى، وأنفع في العاقبة..».

قال عليه السلام: «إيَّاك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلاَّ الله..».

قال عليه السلام: «بئس الأخ يرعاك غنياً، ويقطعك فقيراً..».

---

(١) الأصح: لمعرته؛ أي: عاره وفضيحته.

مؤلفاته

الصحيفة السجَّاديَّة

أمَّا الصحيفة السجَّاديَّة فهي من ذخائر التراث الإسلامي، ومن مناجم كتب البلاغة والتربية والأخلاق، والأدب في الإسلام، ونظراً لأهميتها البالغة فقد سمَّاها كبار رجال الفكر والعلم، بأخت القرآن، وإنجيل أهل البيت، وزبور آل محمَّد[١].

دعاؤه عند استجابة دعائه:

كان الإمام عليه السلام يدعو بهذا الدُّعاء عند استجابة دعائه: «**اللَّهُمَّ قَدْ أَكْدَى الطَّلَبُ[٢] وَأَعْيَتِ الْحِيَلُ إِلَّا عِنْدَكَ، وَضَاقَتِالْمَذَاهِبُ، وَامْتَنَعَتِ الْمَطَالِبُ، وَعَسُرَتْ الرَّغَائِبُ، وَانْقَطَعَتِ الطُّرُقُ إِلَّا إِلَيْكَ، وَتَصَرَّمَتِ الآمَالُ، وَانْقَطَعَ الرَّجَاءُ إِلَّا مِنْكَ، وَخَابَتِ الثِّقَةُ، وَأَخْلَفَ الظَّنُّ إِلَّا بِكَ.**

اللَّهُمَّ إِنِّي أَجِدُ سُبُلَ الْمَطَالِبِ إِلَيْكَ مُنْهَجَةً، وَمَنَاهِلَ الرَّجَاءِ إِلَيْكَ مُفَتَّحَةً وَأَعْلَمُ إِنَّكَ لِمَنْ دَعَاكَ لَمَوْضِعُ إِجَابَةٍ، وَلِلصَّارِخِ إِلَيْكَ لَمَرْصَدُ إِغَاثَةٍ، وَإِنَّ الْقَاصِدَ لَكَ لَقَرِيبُ الْمَسَافَةِ مِنْكَ، وَمُنَاجَاةَ الْعَبْدِ إِيَّاكَ غَيْرُ مَحْجُوبَةٍ عَنِ اسْتِمَاعِكَ، وَإِنَّ فِي اللَّهْفِ إِلَى جُودِكَ، وَالرِّضَا بِعِدَتِكَ وَ الِاسْتِرَاحَةِ إِلَى ضَمَانِكَ عِوَضاً عَنْ مَنْعِ الْبَاخِلِينَ، وَمَنْدُوحَةً عَمَّا قِبَلَ الْمُسْتَأْثِرِينَ، وَدَرَكاً مِنْ خَتلِ[٣] الْمَوَارِبِينَ[٤] فَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِي، وَاعْصِمْنِي فِي مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَجُودِكَ الَّتِي لَا تُغْلِقُهَا عَنْ أَحِبَّائِكَ، وَأَصْفِيَائِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ..»[٥].

---

(١) الذريعة في تصانيف الشيعة: ١٥/١٨.
(٢) أكدى الطلب: أي لم يظفر الطلب ببلوغ الحاجة.
(٣) الختل: أقبح الغدر.
(٤) الموارِبين: جمع موارب وهو المخاتل.
(٥) دعوات القطب الراوندي: ص٢٧.

دعاؤه في تفويض أمره إلى الله:

ومن أدعيته هذا الدُّعاء الجليل: «بِسْمِ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمِنَ اللَّهِ، وَإِلَى اللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِحِفْظِ الْإِيمَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَمِنْ تَحْتِي، فَادْفَعْ عَنِّي بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، وَلَا حَوْلَ وَ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ..»(١).

دعاؤه إذا آوى إلى فراشه:

وكان ﷺ إذا آوى إلى فراشه دعا بهذا الدُّعاء: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَا شَيْءَ قَبْلَكَ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَا شَيْءَ فَوْقَكَ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَا شَيْءَ دُونَكَ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَا شَيْءَ بَعْدَكَ، اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْأَرَضِينَ السَّبْعِ، وَرَبَّ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ..»(٢).

نماذج رائعة من الصحيفة

دعاؤه بخواتم الخير:

ومن أجل أدعيته هذا الدُّعاء الشريف وكان يدعو به بأن يمنّ الله عليه بخواتم الخير، وهذا نصّه:

«يَا مَنْ ذِكْرُهُ شَرَفٌ لِلذَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ شُكْرُهُ فَوْزٌ لِلشَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ طَاعَتُهُ نَجَاةٌ لِلْمُطِيعِينَ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاشْغَلْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِكَ عَنْ كُلِّ ذِكْرٍ، وَأَلْسِنَتَنَا بِشُكْرِكَ عَنْ كُلِّ شُكْرٍ، وَجَوَارِحَنَا بِطَاعَتِكَ عَنْ كُلِّ طَاعَةٍ، فَإِنْ قَدَّرْتَ لَنَا فَرَاغاً مِنْ شُغْلٍ، فَاجْعَلْهُ فَرَاغَ سَلَامَةٍ لَا تُدْرِكُنَا فِيهِ تَبِعَةٌ، وَلَا تَلْحَقُنَا فِيهِ سَأْمَةٌ، حَتَّى يَنْصَرِفَ عَنَّا كُتَّابُ السَّيِّئَاتِ، بِصَحِيفَةٍ خَالِيَةٍ مِنْ ذِكْرِ سَيِّئَاتِنَا، وَيَتَوَلَّى كُتَّابُ الْحَسَنَاتِ عَنَّا مَسْرُورِينَ، بِمَا كَتَبُوا مِنْ حَسَنَاتِنَا، وَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ حَيَاتِنَا، وَتَصَرَّمَتْ مُدَدُ أَعْمَارِنَا، وَاسْتَحْضَرَتْنَا دَعْوَتُكَ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا، وَمِنْ إِجَابَتِهَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ خِتَامَ مَا تُحْصِي عَلَيْنَا كَتَبَةُ أَعْمَالِنَا

---

(١) قرب الإسناد للحميري: ص٣.

(٢) فلاح السائل لابن طاووس.

تَوْبَةً مَقْبُولَةً لَا تُوقِفُنَا بَعْدَهَا عَلَى ذَنْبٍ اجْتَرَحْنَاهُ[(١)]، وَلَا مَعْصِيَةٍ اقْتَرَفْنَاهَا، وَلَا تَكْشِفْ عَنَّا سِتْراً سَتَرْتَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، يَوْمَ تَبْلُو أَخْبَارَ عِبَادِكَ، إِنَّكَ رَحِيمٌ بِمَنْ دَعَاكَ، وَمُسْتَجِيبٌ لِمَنْ نَادَاكَ..»[(٢)].

دعاؤه في طلب التوبة:

كان عليه السلام يدعو بهذا الدُّعاء طالباً من الله تعالى أن يمنَّ عليه بالتوبة والمغفرة:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُ يَحْجُبُنِي عَنْ مَسْأَلَتِكَ خِلَالٌ ثَلَاثٌ، وَتَحْدُونِي عَلَيْهَا خَلَّةٌ وَاحِدَةٌ: يَحْجُبُنِي أَمْرٌ أَمَرْتَ بِهِ، فَأَبْطَأْتُ عَنْهُ، وَنَهْيٌ نَهَيْتَنِي عَنْهُ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، وَنِعْمَةٌ أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ، فَقَصَّرْتُ فِي شُكْرِهَا، وَيَحْدُونِي عَلَى مَسْأَلَتِكَ تَفَضُّلُكَ عَلَى مَنْ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ إِلَيْكَ، وَوَفَدَ بِحُسْنِ ظَنِّهِ إِلَيْكَ، إِذْ جَمِيعُ إِحْسَانِكَ تَفَضِيلٌ، وَإِذْ كُلُّ نِعَمِكَ ابْتِدَاءٌ، فَهَا أَنَا ذَا يَا إِلَهِي وَاقِفٌ بِبَابِ عِزِّكَ وُقُوفَ الْمُسْتَسْلِمِ الذَّلِيلِ، وَسَائِلُكَ عَلَى الْحَيَاءِ مِنِّي سُؤَالَ الْبَائِسِ الْمُعِيلِ، مُقِرٌّ لَكَ بِأَنِّي لَمْ أَسْتَسْلِمْ وَقْتَ إِحْسَانِكَ إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْ عِصْيَانِكَ، وَلَمْ أَخْلُ فِي الْحَالَاتِ كُلِّهَا مِنِ امْتِنَانِكَ، فَهَلْ يَنْفَعُنِي يَا إِلَهِي إِقْرَارِي عِنْدَكَ بِسُوءِ مَا اكْتَسَبْتُ؟ وَهَلْ يُنْجِينِي مِنْكَ اعْتِرَافِي لَكَ بِقَبِيحِ مَا ارْتَكَبْتُ؟ أَمْ أَوْجَبْتَ لِي فِي مَقَامِي هَذَا سُخْطَكَ؟ أَمْ لَزِمَنِي فِي وَقْتِ دُعَايَ مَقْتُكَ؟ سُبْحَانَكَ لَا أَيْأَسُ مِنْكَ، وَقَدْ فَتَحْتَ لِي بَابَ التَّوْبَةِ إِلَيْكَ، بَلْ أَقُولُ: مَقَالَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ، الْمُسْتَخِفِّ بِحُرْمَةِ رَبِّهِ الَّذِي عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ فَجَلَّتْ، وَأَدْبَرَتْ أَيَّامُهُ فَوَلَّتْ، حَتَّى إِذَا رَأَى مُدَّةَ الْعَمَلِ قَدِ انْقَضَتْ، وَغَايَةَ الْعُمُرِ قَدِ انْتَهَتْ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ لَا مَحِيصَ لَهُ مِنْكَ، وَلَا مَهْرَبَ لَهُ عَنْكَ، تَلَقَّاكَ بِالْإِنَابَةِ، وَأَخْلَصَ لَكَ التَّوْبَةَ، فَقَامَ إِلَيْكَ بِقَلْبٍ طَاهِرٍ نَقِيٍّ، ثُمَّ دَعَاكَ بِصَوْتٍ حَائِلٍ[(٣)] خَفِيٍّ قَدْ تَطَأْطَأَ لَكَ، فَانْحَنَى، وَنَكَّسَ رَأْسَهُ، فَانْثَنَى، قَدْ أَرْعَشَتْ خَشْيَتُهُ رِجْلَيْهِ، وَغَرَّقَتْ دُمُوعُهُ خَدَّيْهِ، يَدْعُوكَ بِيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَيَا أَرْحَمَ مَنِ انْتَابَهُ[(٤)] الْمُسْتَرْحِمُونَ، وَيَا أَعْطَفَ مَنْ أَطَافَ بِهِ الْمُسْتَغْفِرُونَ، وَيَا مَنْ عَفْوُهُ أَكْثَرُ مِنْ نَقِمَتِهِ، وَيَا مَنْ رِضَاهُ أَوْفَرُ مِنْ سَخَطِهِ، وَيَا مَنْ تَحَمَّدَ إِلَى خَلْقِهِ بِحُسْنِ التَّجَاوُزِ، وَيَا مَنْ عَوَّدَ عِبَادَهُ قَبُولَ الْإِنَابَةِ، وَيَا مَنِ اسْتَصْلَحَ فَاسِدَهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَيَا مَنْ رَضِيَ مِنْ فِعْلِهِمْ بِالْيَسِيرِ، وَمَنْ

---

(١) اجترحناه: أي ارتكبناه.

(٢) الصحيفة السجَّاديَّة الدُّعاء السادس.

(٣) الحائل: الضعيف.

(٤) انتابه: أي قصده.

كَافَى قَلِيلَهُمْ بِالْكَثِيرِ، وَيَا مَنْ ضَمِنَ لَهُمْ إِجَابَةَ الدُّعَاءِ، وَيَا مَنْ وَعَدَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ بِتَفَضُّلِهِ حُسْنَ الْجَزَاءِ، مَا أَنَا بِأَعْصَى مَنْ عَصَاكَ فَغَفَرْتَ لَهُ، وَمَا أَنَا بِأَلْوَمِ مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْكَ فَقَبِلْتَ مِنْهُ، وَمَا أَنَا بِأَظْلَمِ مَنْ تَابَ إِلَيْكَ فَعُدْتَ عَلَيْهِ، أَتُوبُ إِلَيْكَ فِي مَقَامِي هَذَا تَوْبَةَ نَادِمٍ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ مُشْفِقٍ مِمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ، خَالِصِ الْحَيَاءِ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ، عَالِمٍ بِأَنَّ الْعَفْوَ عَنِ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ لَا يَتَعَاظَمُكَ، وَأَنَّ التَّجَاوُزَ عَنِ الْإِثْمِ الْجَلِيلِ لَا يَسْتَصْعِبُكَ، وَأَنَّ احْتِمَالَ الْجِنَايَاتِ الْفَاحِشَةِ لَا يَتَكَأَّدُكَ[1]، وَأَنَّ أَحَبَّ عِبَادِكَ إِلَيْكَ مَنْ تَرَكَ الِاسْتِكْبَارَ عَلَيْكَ، وَجَانَبَ الْإِصْرَارَ[2] وَلَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ أَسْتَكْبِرَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُصِرَّ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا قَصَّرْتُ فِيهِ وَأَسْتَعِينُ بِكَ عَلَى مَا عَجَزْتُ عَنْهُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَهَبْ لِي مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَكَ، وَعَافِنِي مِمَّا أَسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ، وَأَجِرْنِي مِمَّا يَخَافُهُ أَهْلُ الْإِسَاءَةِ فَإِنَّكَ مَلِيءٌ بِالْعَفْوِ، مَرْجُوٌّ لِلْمَغْفِرَةِ، مَعْرُوفٌ بِالتَّجَاوُزِ، لَيْسَ لِحَاجَتِي مَطْلَبٌ سِوَاكَ، وَلَا لِذَنْبِي غَافِرٌ غَيْرُكَ، حَاشَاكَ وَلَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا إِيَّاكَ، إِنَّكَ أَهْلُ التَّقْوَى، وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاقْضِ حَاجَتِي، وَأَنْجِحْ طَلِبَتِي، وَاغْفِرْ ذَنْبِي، وَآمِنْ خَوْفَ نَفْسِي إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَذَلِكَ عَلَيْكَ يَسِيرٌ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ...»[3].

دعاؤه إذا قتر عليه رزقه:

وكان من دعائه عليه السلام إذا قتر عليه رزقه، وضاقت عليه وسائل معاشه:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ ابْتَلَيْتَنَا فِي أَرْزَاقِنَا بِسُوءِ الظَّنِّ، وَفِي آجَالِنَا بِطُولِ الْأَمَلِ، حَتَّى الْتَمَسْنَا أَرْزَاقَكَ مِنْ عِنْدِ الْمَرْزُوقِينَ، وَطَمِعْنَا بِآمَالِنَا فِي أَعْمَارِ الْمُعَمَّرِينَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَهَبْ لَنَا يَقِيناً صَادِقاً تَكْفِينَا بِهِ مِنْ مَؤُونَةِ الطَّلَبِ، وَأَلْهِمْنَا ثِقَةً خَالِصَةً، تُعْفِينَا بِهَا مِنْ شِدَّةِ النَّصَبِ[4] وَاجْعَلْ مَا صَرَّحْتَ بِهِ مِنْ عِدَتِكَ[5] فِي وَحْيِكَ، وَأَتْبَعْتَهُ مِنْ قَسَمِكَ فِي كِتَابِكَ قَاطِعاً لِاهْتِمَامِنَا بِالرِّزْقِ الَّذِي تَكَفَّلْتَ بِهِ، وَحَسْماً لِلِاشْتِغَالِ بِمَا ضَمِنْتَ الْكِفَايَةَ لَهُ، فَقُلْتَ: وَقَوْلُكَ الْحَقُّ الْأَصْدَقُ، وَأَقْسَمْتَ وَقَسَمُكَ الْأَبَرُّ الْأَوْفَى. ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا

---

(١) لا يتكأدك: أي لا ينتقل عليك.

(٢) جانب الإصرار: أي جانب الإصرار على المعاصي.

(٣) الصحيفة السجَّاديَّة: الدُّعاء الثاني عشر.

(٤) النصب: التعب.

(٥) عدتك: أي وعدك.

تُوعَدُونَ﴾ ثُمَّ قُلْتَ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1]، وتحدث الإمام عليه السلام في هذا الدُّعاء عن ظاهرتين من الظواهر النفسية وهما.

دعاؤه في المعونة على قضاء الدَّين:

وكان من دعائه عليه السلام في المعونة على قضاء الدَّين:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَهَبْ لِيَ الْعَافِيَةَ مِنْ دَيْنٍ تُخْلِقُ بِهِ وَجْهِي[2] وَيَحَارُ فِيهِ ذِهْنِي، وَيَتَشَعَّبُ لَهُ فِكْرِي، وَيَطُولُ بِمُمَارَسَتِهِ شُغْلِي، وَأَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ مِنْ هَمِّ الدَّيْنِ وَفِكْرِهِ، وَشُغْلِ الدَّيْنِ[3] وَسَهَرِهِ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَعِذْنِي مِنْهُ، وَأَسْتَجِيرُ بِكَ يَا رَبِّ مِنْ ذِلَّتِهِ فِي الْحَيَاةِ، وَمِنْ تَبِعَتِهِ بَعْدَ الْوَفَاةِ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَجِرْنِي مِنْهُ بِوُسْعٍ فَاضِلٍ، أَوْ كَفَافٍ وَاصِلٍ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاحْجُبْنِي عَنِ السَّرَفِ، وَالِازْدِيَادِ، وَقَوِّمْنِي بِالْبَذْلِ[4] وَالِاقْتِصَادِ، وَعَلِّمْنِي حُسْنَ التَّقْدِيرِ، وَاقْبِضْنِي بِلُطْفِكَ عَنِ التَّبْذِيرِ، وَأَجْرِ مِنْ أَسْبَابِ الْحَلَالِ أَرْزَاقِي، وَوَجِّهْ فِي أَبْوَابِ الْبِرِّ إِنْفَاقِي، وَازْوِ[5] عَنِّي مِنَ الْمَالِ مَا يُحْدِثُ لِي مَخِيلَةً أَوْ تَأَدِّياً إِلَى بَغْيٍ، أَوْ مَا أَتَعَقَّبُ مِنْهُ طُغْيَاناً، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيَّ صُحْبَةَ الْفُقَرَاءِ، وَأَعِنِّي عَلَى صُحْبَتِهِمْ بِحُسْنِ الصَّبْرِ، وَاجْعَلْ مَا خَوَّلْتَنِي مِنْ حُطَامِهَا، وَعَجَّلْتَ لِي مِنْ مَتَاعِهَا بُلْغَةً إِلَى جِوَارِكَ، وَوُصْلَةً إِلَى قُرْبِكَ، وَذَرِيعَةً إِلَى جَنَّتِكَ، إِنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ الْكَرِيمِ...»[6].

دعاؤه في الاستخارة:

وكان من دعاؤه عليه السلام في الاستخارة:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاقْضِ لِي بِالْخِيَرَةِ وَأَلْهِمْنَا مَعْرِفَةَ الِاخْتِيَارِ، وَاجْعَلْ لَنَا ذَرِيعَةً إِلَى الرِّضَا بِمَا قَضَيْتَ وَالتَّسْلِيمِ لِمَا حَكَمْتَ وَأَزِحْ عَنَّا رَيْبَ أَهْلِ الِارْتِيَابِ[7] وَأَيِّدْنَا بِيَقِينِ الْمُخْلِصِينَ وَلَا تَسُمْنَا[8] عَجْزَ الْمَعْرِفَةِ عَمَّا تَخَيَّرْتَ،

---

(١) الصحيفة السجَّاديَّة: الدُّعاء الثامن والعشرون.
(٢) تخلق به وجهي: أي تصيره كالخلق البالي.
(٣) وشغل الدَّين: أي العمل لأجل الخلاص منه.
(٤) وقومني بالبذل: أي قوم أُموري بأن أبذل قدر ما يلزم.
(٥) إزو عنِّي: أي ابعد عنِّي.
(٦) الصحيفة السجَّاديَّة: الدُّعاء التاسع والثلاثون.
(٧) ريب الارتياب: أي تهمة الشَّكّ في تقديرك وقضائك.
(٨) ولا تسمنا: أي لا تجعل علينا علامة.

فَنَغْمِطُ[١] قَدْرَكَ، وَنَكْرَهَ مَوَاضِعَ رِضَاكَ، وَنَجْنَحَ إِلَى الَّتِي هِيَ أَبْعَدُ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ، وَأَقْرَبُ مِنْ ضَرَرِ الْعَافِيَةِ، حَبِّبْ إِلَيْنَا مَا نَكْرَهُ مِنْ قَضَائِكَ، وَسَهِّلْ عَلَيْنَا مَا نَسْتَصْعِب مِنْ حُكْمِكَ، وَأَلْهِمْنَا الِانْقِيَادَ لِمَا أَوْرَدْتَ عَلَيْنَا مِنْ مَشِيَّتِكَ فَلَا حَتَّىٰ لَا نُحِبّ تَأْخِير مَا عَجَّلْتَ، وَلَا تَعْجِيل مَا أَخَّرْتَ، وَلَا نَكْرَهُ مَا أَحْبَبْتَ، وَلَا نَتَخَيَّرُ مَا كَرِهْتَ، وَاخْتِمْ لَنَا بِالَّتِي هِيَ أَحْمَدُ عَاقِبَةً، وَأَكْرَمُ مَصِيراً، إِنَّكَ تُفِيدُ الْكَرِيمَةَ، وَتُعْطِي الْجَسِيمَةَ، وَتَفْعَلُ مَا تُرِيد، وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ..»[٢].

دعاؤه إذا ابتلي:

وكان من دعائه عليه السلام إذا ابتلي أو رأى مبتلى بفضيحة ذنب:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سِتْرِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَمُعَافَاتِكَ بَعْدَ خُبْرِكَ، فَكُلُّنَا قَدِ اقْتَرَفَ الْعَائِبَةَ فَلَمْ تَشْهَرْهُ، وَارْتَكَبَ الْفَاحِشَةَ فَلَمْ تَفْضَحْهُ، وَتَسَتَّرَ بِالْمَسَاوِي[٣] فَلَمْ تَدْلُلْ عَلَيْهِ[٤] كَمْ نَهْيٍ لَكَ قَدْ أَتَيْنَاهُ، وَأَمْرٍ قَدْ وَقَفْتَنَا عَلَيْهِ[٥] فَتَعَدَّيْنَاهُ، وَسَيِّئَةٍ اكْتَسَبْنَاهَا، وَخَطِيئَةٍ ارْتَكَبْنَاهَا، كُنْتَ الْمُطَّلِعَ عَلَيْهَا دُونَ النَّاظِرِينَ، وَالْقَادِرَ عَلَى إِعْلَانِهَا فَوْقَ الْقَادِرِينَ، كَانَتْ عَافِيَتُكَ لَنَا[٦] حِجَاباً دُونَ أَبْصَارِهِمْ، وَرَدْماً[٧] دُونَ أَسْمَاعِهِمْ، فَاجْعَلْ مَا سَتَرْتَ مِنَ الْعَوْرَةِ، وَأَخْفَيْتَ مِنَ الدَّخِيلَةِ[٨] وَاعِظاً لَنَا، وَزَاجِراً عَنْ سُوءِ الْخُلُقِ، وَاقْتِرَافِ الْخَطِيئَةِ، وَسَعْياً إِلَى التَّوْبَةِ الْمَاحِيَةِ، وَالطَّرِيقِ الْمَحْمُودَةِ، وَقَرِّبِ الْوَقْتَ فِيهِ، وَلَا تَسُمْنَا الْغَفْلَةَ عَنْكَ، إِنَّا إِلَيْكَ رَاغِبُونَ، وَمِنَ الذُّنُوبِ تَائِبُونَ وَصَلِّ عَلَى خِيَرَتِكَ اللَّهُمَّ مِنْ خَلْقِكَ، مُحَمَّدٍ وَعِتْرَتِهِ الصِّفْوَةِ مِنْ بَرِيَّتِكَ الطَّاهِرِينَ، وَاجْعَلْنَا لَهُمْ سَامِعِينَ وَمُطِيعِينَ كَمَا أَمَرْتَ...»[٩].

دعاؤه في الإلحاح على الله:

وكان من دعائه عليه السلام في الإلحاح على الله تعالى:

---

(١) فتغمط: أي ننتقصه، ولا نقدره كما يستحق.
(٢) الصحيفة السجّاديّة: الدُّعاء الثالث والثلاثون.
(٣) وتستر بالمساوي: أي أبدى ستراً على قبائحه ومساويه.
(٤) فلم تدلل عليه: أي لم تدلُّ الناس عليه، ولم تظهره لهم حتى يشتهر أمره بينهم.
(٥) قد وقفتنا عليه: يعني أمرتنا أن نقف عنده ولا نتعداه.
(٦) عافيتك لنا: أي عفوك عنّا.
(٧) ردماً: أي سداً.
(٨) أخفيت من الدخيلة: أي أخفيت ما يحول في دخائل النفس.
(٩) الصحيفة السجّاديّة: الدُّعاء الرابع والثلاثون.

يَا اللّٰهُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْكَ يَا إِلٰهِي، مَا أَنْتَ خَلَقْتَهُ، وَكَيْفَ لَا تُحْصِي مَا أَنْتَ صَنَعْتَهُ؟ أَوْ كَيْفَ يَغِيبُ عَنْكَ مَا أَنْتَ تُدَبِّرُهُ؟ أَوْ كَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْرُبَ مِنْكَ مَنْ لَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِرِزْقِكَ؟ أَوْ كَيْفَ يَنْجُو مِنْكَ مَنْ لَا مَذْهَبَ لَهُ فِي غَيْرِ مُلْكِكَ؟ سُبْحَانَكَ أَخْشَى خَلْقِكَ لَكَ أَعْلَمُهُمْ بِكَ، وَأَخْضَعُهُمْ لَكَ أَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِكَ، وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْكَ مَنْ أَنْتَ تَرْزُقُهُ، وَهُوَ يَعْبُدُ غَيْرَكَ، سُبْحَانَكَ لَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ أَشْرَكَ بِكَ، وَكَذَّبَ رُسُلَكَ، وَلَيْسَ يَسْتَطِيعُ مَنْ كَرِهَ قَضَاءَكَ أَنْ يَرُدَّ أَمْرَكَ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْكَ مَنْ كَذَّبَ بِقُدْرَتِكَ، وَلَا يَفُوتُكَ مَنْ عَبَدَ غَيْرَكَ، وَلَا يُعَمَّرُ فِي الدُّنْيَا مَنْ كَرِهَ لِقَاءَكَ، سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ، وَأَقْهَرَ سُلْطَانَكَ، وَأَشَدَّ قُوَّتَكَ، وَأَنْفَذَ أَمْرَكَ! سُبْحَانَكَ قَضَيْتَ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ الْمَوْتَ مَنْ وَحَّدَكَ وَمَنْ كَفَرَ بِكَ، وَكُلٌّ ذَائِقُ الْمَوْتِ، وَكُلٌّ صَائِرٌ إِلَيْكَ! فَتَبَارَكْتَ وَ تَعَالَيْتَ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، آمَنْتُ بِكَ وَصَدَّقْتُ رُسُلَكَ، وَقَبِلْتُ كِتَابَكَ، وَكَفَرْتُ بِكُلِّ مَعْبُودٍ غَيْرِكَ، وَبَرِئْتُ مِمَّنْ عَبَدَ سِوَاكَ.

اللّٰهُمَّ إِنِّي أُصْبِحُ وَأُمْسِي مُسْتَقِلًّا لِعَمَلِي، مُعْتَرِفاً بِذَنْبِي، مُقِرّاً بِخَطَايَايَ أَنَا بِإِسْرَافِي عَلَى نَفْسِي ذَلِيلٌ، عَمَلِي أَهْلَكَنِي، وَهَوَايَ أَرْدَانِي، وَشَهَوَاتِي هَدَمَتْنِي فَأَسْأَلُكَ يَا مَوْلَايَ سُؤَالَ مَنْ نَفْسُهُ لَاهِيَةٌ لِطُولِ أَمَلِهِ، وَبَدَنُهُ غَافِلٌ لِسُكُونِ عُرُوقِهِ، وَقَلْبُهُ مَفْتُونٌ بِكَثْرَةِ النِّعَمِ عَلَيْهِ، وَفِكْرُهُ قَلِيلٌ لِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ، سُؤَالَ مَنْ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْأَمَلُ، وَفَتَنَهُ الْهَوَى، وَاسْتَمْكَنَتْ مِنْهُ الدُّنْيَا وَأَظَلَّهُ الْأَجَلُ، سُؤَالَ مَنِ اسْتَكْثَرَ ذُنُوبَهُ، وَاعْتَرَفَ بِخَطِيئَتِهِ، سُؤَالَ مَنْ لَا رَبَّ لَهُ غَيْرُكَ، وَلَا وَلِيَّ لَهُ دُونَكَ، وَلَا مُنْقِذَ لَهُ مِنْكَ، وَلَا مَلْجَأَ لَهُ مِنْكَ، إِلَّا إِلَيْكَ.

إِلٰهِي أَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ الْوَاجِبِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ، وَبِاسْمِكَ الْعَظِيمِ الَّذِي أَمَرْتَ رَسُولَكَ أَنْ يُسَبِّحَكَ بِهِ، وَبِجَلَالِ وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي لَا يَبْلَى، وَلَا يَتَغَيَّرُ، وَلَا يَحُولُ وَلَا يَفْنَى أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تُغْنِيَنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ بِعِبَادَتِكَ، وَأَنْ تُسَلِّيَ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا بِمَخَافَتِكَ، وَأَنْ تُثْنِيَنِي[1] بِالْكَثِيرِ مِنْ كَرَامَتِكَ بِرَحْمَتِكَ، فَإِلَيْكَ أَفِرُّ، وَمِنْكَ أَخَافُ، وَبِكَ أَسْتَغِيثُ، وَإِيَّاكَ أَرْجُو، وَلَكَ أَدْعُو، وَإِلَيْكَ أَلْجَأُ، وَبِكَ أَثِقُ، وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ، وَبِكَ أُومِنُ، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ، وَعَلَى جُودِكَ وَكَرَمِكَ أَتَّكِلُ..»[2].

دعاؤه في التذلل لله:

وكان من دعائه عليه السلام في التذلّل لله عزَّ وجلَّ:

---

(١) تثنيني: أي ترجعني إليك.

(٢) الصحيفة السجّاديّة: الدُّعاء الثاني والخمسون.

«رَبِّ أَفْحَمَتْنِي ذُنُوبِي، وَانْقَطَعَتْ مَقَالَتِي، فَلَا حُجَّةَ لِي، فَأَنَا الْأَسِيرُ بِبَلِيَّتِي، الْمُرْتَهَنُ بِعَمَلِي، الْمُتَرَدِّدُ فِي خَطِيئَتِي، الْمُتَحَيِّرُ عَنْ قَصْدِي، الْمُنْقَطَعُ بِي، قَدْ أَوْقَفْتُ نَفْسِي مَوْقِفَ الْأَذِلَّاءِ الْمُذْنِبِينَ، مَوْقِفَ الْأَشْقِيَاءِ، الْمُتَجَرِّينَ عَلَيْكَ، الْمُسْتَخِفِّينَ بِوَعْدِكَ، سُبْحَانَكَ أَيَّ جُرْأَةٍ اجْتَرَأْتُ عَلَيْكَ، وَأَيَّ تَغْرِيرٍ غَرَّرْتُ بِنَفْسِي!! مَوْلَايَ ارْحَمْ كَبْوَتِي لِحُرِّ وَجْهِي وَزَلَّةَ قَدَمِي، وَعُدْ بِحِلْمِكَ عَلَى جَهْلِي وَبِإِحْسَانِكَ عَلَى إِسَاءَتِي، فَأَنَا الْمُقِرُّ بِذَنْبِي، الْمُعْتَرِفُ بِخَطِيئَتِي، وَهَذِهِ يَدِي وَنَاصِيَتِي، أَسْتَكِينُ(١) بِالْقَوَدِ مِنْ نَفْسِي، ارْحَمْ شَيْبَتِي، وَنَفَادَ أَيَّامِي، وَاقْتِرَابَ أَجَلِي، وَضَعْفِي وَمَسْكَنَتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، مَوْلَايَ وَارْحَمْنِي إِذَا انْقَطَعَ مِنَ الدُّنْيَا أَثَرِي، وَامَّحَى مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ذِكْرِي، وَكُنْتُ مِنَ الْمَنْسِيِّينَ كَمَنْ قَدْ نُسِيَ، مَوْلَايَ وَ ارْحَمْنِي عِنْدَ تَغَيُّرِ صُورَتِي وَحَالِي إِذَا بَلِيَ جِسْمِي، وَتَفَرَّقَتْ أَعْضَائِي، وَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالِي، يَا غَفْلَتِي عَمَّا يُرَادُ بِي، مَوْلَايَ وَارْحَمْنِي فِي حَشْرِي وَنَشْرِي، وَاجْعَلْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ أَوْلِيَائِكَ مَوْقِفِي، وَفِي أَحِبَّائِكَ مَصْدَرِي، وَفِي جِوَارِكَ مَسْكَنِي يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ..»(٢).

المناجيات الخمس عشرة

من المؤلفات القيِّمة للإمام زين العابدين عليه السلام «المناجيات الخمس عشرة» وهي من الأرصدة الرُّوحيَّة في دُنيا الإسلام، فقد عالج بها الإمام الكثير من القضايا النفسية، كما فتح بها آفاقاً مشرقة للاتصال بالله تعالى. من مناجاته عليه السلام:

المناجاة الأولى:

وتعرف هذه المناجاة بمناجاة التائبين، فقد أناب فيها الإمام إلى الله تعالى، طالباً منه الرحمة والغفران، وهذا نصّها:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي أَلْبَسَتْنِي الْخَطَايَا ثَوْبَ مَذَلَّتِي، وَجَلَّلَنِي التَّبَاعُدُ مِنْكَ لِبَاسَ مَسْكَنَتِي، وَأَمَاتَ قَلْبِي عَظِيمَ جِنَايَتِي، فَأَحْيِهِ بِتَوْبَةٍ مِنْكَ يَا أَمَلِي، وَبُغْيَتِي، وَيَا سُؤْلِي وَمُنْيَتِي، فَوَعِزَّتِكَ مَا أَجِدُ لِذُنُوبِي سِوَاكَ غَافِراً، وَلَا أَرَى لِكَسْرِي غَيْرَكَ جَابِراً، وَقَدْ خَضَعْتُ بِالْإِنَابَةِ إِلَيْكَ، وَعَنَوْتُ بِالِاسْتِكَانَةِ لَدَيْكَ فَإِنْ طَرَدْتَنِي مِنْ بَابِكَ فَبِمَنْ أَلُوذُ؟ وَإِنْ رَدَدْتَنِي عَنْ جَنَابِكَ فَبِمَنْ أَعُوذُ؟ فَوَاأَسَفَاه مِنْ خَجْلَتِي وَافْتِضَاحِي، وَوَالَهْفَا مِنْ سُوءِ عَمَلِي، وَاجْتِرَاحِي(٣)، أَسْأَلُكَ يَا غَافِرَ الذَّنْبِ الْكَبِيرِ، وَيَا جَابِرَ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ أَنْ تَهَبَ

---

(١) أستكين: أي أخضع.

(٢) الصحيفة السجَّاديَّة: الدُّعاء الثالث والخمسون.

(٣) الاجتراح: يُقال اجترح الشيء اكتسبه، ويستعمل هذا التعبير لسيِّئات الأعمال.

لِي مُوبِقَاتِ الْجَرَائِرِ، وَتَسْتُرَ عَلَيَّ فَاضِحَاتِ السَّرَائِرِ، وَلَا تُخْلِنِي فِي مَشْهَدِ الْقِيَامَةِ مِنْ بَرْدِ عَفْوِكَ وَغَفْرِكَ وَلَا تُعْرِنِي مِنْ جَمِيلِ صَفْحِكَ وَسَتْرِكَ، إِلَهِي ظَلِّلْ عَلَى ذُنُوبِي غَمَامَ رَحْمَتِكَ، وَأَرْسِلْ عَلَى عُيُوبِي سَحَابَ رَأْفَتِكَ، إِلَهِي هَلْ يَرْجِعُ الْعَبْدُ الْآبِقُ إِلَّا إِلَى مَوْلَاهُ؟ أَمْ هَلْ يُجِيرُهُ مِنْ سَخَطِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ؟ إِلَهِي إِنْ كَانَ النَّدَمُ عَلَى الذَّنْبِ تَوْبَةً فَإِنِّي وَعِزَّتِكَ مِنَ النَّادِمِينَ، وَإِنْ كَانَ الِاسْتِغْفَارُ مِنَ الْخَطِيئَةِ حِطَّةً فَإِنِّي لَكَ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، إِلَهِي بِقُدْرَتِكَ عَلَيَّ تُبْ عَلَيَّ، وَبِحِلْمِكَ عَنِّي اعْفُ عَنِّي، وَبِعِلْمِكَ بِي ارْفُقْ بِي، إِلَهِي أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ، فَقُلْتَ: «تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً» فَمَا عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ الْبَابِ بَعْدَ فَتْحِهِ؟ إِلَهِي إِنْ كَانَ قَبُحَ الذَّنْبُ مِنْ عَبْدِكَ فَلْيَحْسُنِ الْعَفْوُ مِنْ عِنْدِكَ إِلَهِي مَا أَنَا بِأَوَّلِ مَنْ عَصَاكَ فَتُبْتَ عَلَيْهِ، وَتَعَرَّضَ لِمَعْرُوفِكَ فَجُدْتَ عَلَيْهِ يَا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّ، يَا كَاشِفَ الضُّرِّ، يَا عَظِيمَ الْبِرِّ، يَا عَلِيماً بِمَا فِي السِّرِّ، يَا جَمِيلَ السِّتْرِ اسْتَشْفَعْتُ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ إِلَيْكَ، وَتَوَسَّلْتُ بِجَنَابِكَ وَتَرَحُّمِكَ لَدَيْكَ، فَاسْتَجِبْ دُعَائِي، وَلَا تُخَيِّبْ فِيكَ رَجَائِي وَتَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَكَفِّرْ خَطِيئَتِي بِمَنِّكَ وَرَأْفَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة الثانية:

وتعرف بمناجاة الشاكين، فقد شكا الإمام عليه السلام فيها نفسه سائلاً من الله الإصلاح الشامل لها، وهذا نصّها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْساً بِالسُّوءِ أَمَّارَةً، وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً، وَبِمَعَاصِيكَ مُولَعَةً، وَبِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً، تَسْلُكُ بِي مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ، وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ، كَثِيرَةَ الْعِلَلِ، طَوِيلَةَ الْأَمَلِ، إِنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجْزَعُ، وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْنَعُ، مَيَّالَةً إِلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ، مَمْلُوَّةً بِالْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ تُسْرِعُ بِي إِلَى الْحَوْبَةِ(١) وَتُسَوِّفُنِي بِالتَّوْبَةِ.

إِلَهِي أَشْكُو إِلَيْكَ عَدُوّاً يُضِلُّنِي، وَشَيْطَاناً يُغْوِينِي، قَدْ مَلَأَ بِالْوَسْوَاسِ صَدْرِي، وَأَحَاطَتْ هَوَاجِسُهُ بِقَلْبِي، يُعَاضِدُ لِيَ الْهَوَى، وَيُزَيِّنُ لِي حُبَّ الدُّنْيَا، وَيَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّاعَةِ وَالزُّلْفَى.

إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو قَلْباً قَاسِياً، مَعَ الْوَسْوَاسِ مُتَقَلِّباً، وَبِالرَّيْنِ(٢) وَالطَّبْعِ مُتَلَبِّساً، وَعَيْناً عَنِ الْبُكَاءِ مِنْ خَوْفِكَ جَامِدَةً، وَإِلَى مَا يَسُرُّهَا طَامِحَةً.

---

(١) الحوبة: هي الإثم.

(٢) الرين: نكتة في القلب سوداء، وغفلة.

إِلَهِيَ لَا حَوْلَ لِي، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِقُدْرَتِكَ، وَلَا نَجَاةَ لِي مِنْ مَكَارِهِ الدُّنْيَا إِلَّا بِعِصْمَتِكَ، وَنَفَاذِ مَشِيئَتِكَ أَنْ لَا تَجْعَلَنِي لِغَيْرِ جُودِكَ مُتَعَرِّضاً، وَلَا تُصَيِّرَنِي لِلْفِتَنِ غَرَضاً، وَكُنْ لِي عَلَى الْأَعْدَاءِ نَاصِراً، وَعَلَى الْمَخَازِي وَالْعُيُوبِ سَاتِراً وَمِنَ الْبَلَايَا وَاقِياً، وَعَنِ الْمَعَاصِي عَاصِماً بِرَأْفَتِكَ وَرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة الثالثة:

وتعرف هذه المناجاة بمناجاة الخائفين، وقد أعرب الإمام عليه السلام عن عظيم خوفه من الله وهذا نصّها:

«بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي أَتُرَاكَ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِكَ تُعَذِّبُنِي؟ أَمْ بَعْدَ حُبِّي إِيَّاكَ تُبَعِّدُنِي؟ أَمْ مَعَ رَجَائِي لِرَحْمَتِكَ وَصَفْحِكَ تَحْرِمُنِي؟ أَمْ مَعَ اسْتِجَارَتِي بِعَفْوِكَ تُسْلِمُنِي؟ حَاشَا لِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ أَنْ تُخَيِّبَنِي، لَيْتَ شِعْرِي أَلِلشَّقَاءِ وَلَدَتْنِي أُمِّي أَمْ لِلْعَنَاءِ رَبَّتْنِي؟ فَلَيْتَهَا لَمْ تَلِدْنِي، وَلَمْ تُرَبِّنِي، وَلَيْتَنِي عَلِمْتُ أَمِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ جَعَلْتَنِي وَبِقُرْبِكَ وَجِوَارِكَ خَصَصْتَنِي؟ فَتَقِرَّ بِذَلِكَ عَيْنِي، وَتَطْمَئِنَّ لَهُ نَفْسِي.

إِلَهِي هَلْ تُسَوِّدُ وُجُوهاً خَرَّتْ سَاجِدَةً لِعَظَمَتِكَ أَوْ تُخْرِسُ أَلْسِنَةً نَطَقَتْ بِالثَّنَاءِ عَلَى مَجْدِكَ وَجَلَالَتِكَ، أَوْ تَطْبَعُ عَلَى قُلُوبٍ انْطَوَتْ عَلَى مَحَبَّتِكَ، أَوْ تُصِمُّ أَسْمَاعاً تَلَذَّذَتْ بِسَمَاعِ ذِكْرِكَ فِي إِرَادَتِكَ، أَوْ تَغُلُّ أَكُفّاً، رَفَعَتْهَا الْآمَالُ إِلَيْكَ رَجَاءَ رَأْفَتِكَ، أَوْ تُعَاقِبُ أَبْدَاناً عَمِلَتْ بِطَاعَتِكَ حَتَّى نَحِلَتْ فِي مُجَاهَدَتِكَ، أَوْ تُعَذِّبُ أَرْجُلاً سَعَتْ فِي عِبَادَتِكَ، إِلَهِي لَا تُغْلِقْ عَلَى مُوَحِّدِيكَ أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَلَا تَحْجُبْ مُشْتَاقِيكَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى جَمِيلِ رُؤْيَتِكَ.

إِلَهِي نَفْسٌ أَعْزَزْتَهَا بِتَوْحِيدِكَ، كَيْفَ تُذِلُّهَا بِمَهَانَةِ هِجْرَانِكَ، وَضَمِيرٌ انْعَقَدَ عَلَى مَوَدَّتِكَ، كَيْفَ تُحْرِقُهُ بِحَرَارَةِ نِيرَانِكَ؟ إِلَهِي أَجِرْنِي مِنْ أَلِيمِ غَضَبِكَ، وَعَظِيمِ سَخَطِكَ، يَا حَنَّانُ، يَا مَنَّانُ، يَا رَحِيمُ، يَا رَحْمَانُ، يَا جَبَّارُ، يَا قَهَّارُ، يَا غَفَّارُ، يَا سَتَّارُ، نَجِّنِي بِرَحْمَتِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَفَضِيحَةِ الْعَارِ إِذَا امْتَازَ الْأَخْيَارُ مِنَ الْأَشْرَارِ، وَحَالَتِ الْأَهْوَالُ، وَقَرُبَ الْمُحْسِنُونَ وَبَعُدَ الْمُسِيئُونَ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

المناجاة الرابعة:

وتعرف هذه المناجاة بمناجاة الراجين، وفيها يرجو نوال الله تعالى وألطافه عليه، وهذا نصّها:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم يَا مَنْ إِذَا سَأَلَهُ عَبْدٌ أَعْطَاهُ، وَإِذَا أَمَّلَ مَا عِنْدَهُ بَلَّغَهُ مُنَاهُ، وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ قَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ، وَإِذَا جَاهَرَهُ بِالْعِصْيَانِ سَتَرَ عَلَىٰ ذَنْبِهِ وَغَطَّاهُ، وَإِذَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَبَهُ وَكَفَاهُ.

إِلَهِي مَنِ الَّذِي نَزَلَ بِكَ مُلْتَمِساً قِرَاكَ(١) فَمَا قَرَيْتَهُ، وَمَنِ الَّذِي أَنَاخَ بِبَابِكَ مُرْتَجِياً نَدَاكَ فَمَا أَوْلَيْتَهُ؟ أَيَحْسُنُ أَنْ أَرْجِعَ عَنْ بَابِكَ بِالْخَيْبَةِ مَصْرُوفاً، وَلَسْتُ أَعْرِفُ سِوَاكَ مَوْلَى، بِالإِحْسَانِ مَوْصُوفاً، كَيْفَ أَرْجُو غَيْرَكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدِكَ؟ وَكَيْفَ أُؤَمِّلُ سِوَاكَ، وَالْخَلْقُ وَالأَمْرُ لَكَ؟ أَأَقْطَعُ رَجَائِي مِنْكَ، وَقَدْ أَوْلَيْتَنِي مَا لَمْ أَسْأَلْهُ مِنْ فَضْلِكَ أَمْ تُفْقِرُنِي إِلَى مِثْلِي، وَأَنَا أَعْتَصِمُ بِحَبْلِكَ، يَا مَنْ سَعِدَ بِرَحْمَتِهِ الْقَاصِدُونَ، وَلَمْ يَشْقَ بِنِقْمَتِهِ الْمُسْتَغْفِرُونَ، كَيْفَ أَنْسَاكَ، وَلَمْ تَزَلْ ذَاكِرِي؟ وَكَيْفَ أَلْهُو عَنْكَ وَأَنْتَ مُرَاقِبِي.

إِلَهِي بِذَيْلِ كَرَمِكَ أَعْلَقْتُ يَدِي، وَلِنَيْلِ عَطَايَاكَ بَسَطْتُ أَمَلِي فَأَخْلِصْنِي بِخَالِصَةِ تَوْحِيدِكَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ صَفْوَةِ عَبِيدِكَ، يَا مَنْ كُلُّ هَارِبٍ إِلَيْهِ يَلْتَجِىءُ، وَكُلُّ طَالِبٍ إِيَّاهُ يَرْتَجِي، يَا خَيْرَ مَرْجُوٍّ، وَيَا أَكْرَمَ مَدْعُوٍّ، وَيَا مَنْ لَا يُرَدُّ سَائِلُهُ، وَلَا يُخَيَّبُ آمِلُهُ، يَا مَنْ بَابُهُ مَفْتُوحٌ لِدَاعِيهِ وَحِجَابُهُ مَرْفُوعٌ لِرَاجِيهِ، أَسْأَلُكَ بِكَرَمِكَ أَنْ تَمُنَّ عَلَيَّ مِنْ عَطَائِكَ، بِمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي، وَمِنْ رَجَائِكَ بِمَا تَطْمَئِنُّ بِهِ نَفْسِي، وَمِنَ الْيَقِينِ بِمَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيَّ مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَتَجْلُو بِهِ عَنْ بَصِيرَتِي غَشَوَاتِ الْعَمَى بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين».

المناجاة الخامسة:

تعرف بمناجاة الراغبين:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم إِلَهِي إِنْ كَانَ قَلَّ زَادِي فِي الْمَسِيرِ إِلَيْكَ فَلَقَدْ حَسُنَ ظَنِّي بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ جُرْمِي قَدْ أَخَافَنِي مِنْ عُقُوبَتِكَ فَإِنَّ رَجَائِي قَدْ أَشْعَرَنِي بِالأَمْنِ مِنْ نَقِمَتِكَ وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي قَدْ عَرَّضَنِي لِعِقَابِكَ فَقَدْ آذَنَنِي حُسْنُ ثِقَتِي بِثَوَابِكَ وَإِنْ أَنَامَتْنِي الْغَفْلَةُ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِلِقَائِكَ فَقَدْ نَبَّهَتْنِي الْمَعْرِفَةُ بِكَرَمِكَ وَآلائِكَ وَإِنْ أَوْحَشَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَرْطُ الْعِصْيَانِ وَالطُّغْيَانِ فَقَدْ آنَسَنِي بُشْرَى الْغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ أَسْأَلُكَ بِسُبُحَاتِ وَجْهِكَ وَبِأَنْوَارِ قُدْسِكَ وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ بِعَوَاطِفِ رَحْمَتِكَ وَلَطَائِفِ بِرِّكَ أَنْ تُحَقِّقَ ظَنِّي بِمَا أُؤَمِّلُهُ مِنْ جَزِيلِ إِكْرَامِكَ وَجَمِيلِ إِنْعَامِكَ فِي الْقُرْبَى مِنْكَ وَالزُّلْفَى لَدَيْكَ وَالتَّمَتُّعِ بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ وَهَا أَنَا مُتَعَرِّضٌ لِنَفَحَاتِ رَوْحِكَ وَعَطْفِكَ وَمُنْتَجِعٌ غَيْثَ جُودِكَ وَلُطْفِكَ فَارٌّ مِنْ سَخَطِكَ إِلَى رِضَاكَ هَارِبٌ مِنْكَ إِلَيْكَ رَاجٍ أَحْسَنَ مَا لَدَيْكَ مُعَوِّلٌ عَلَى مَوَاهِبِكَ مُفْتَقِرٌ إِلَى رِعَايَتِكَ إِلَهِي

---

(١) القرى: الضيافة.

مَا بَدأْتَ بِهِ مِنْ فَضْلِكَ فَتَمِّمْهُ وَمَا وَهَبْتَ لِي مِنْ كَرَمِكَ فَلَا تَسْلُبْهُ وَمَا سَتَرْتَهُ عَلَيَّ بِحِلْمِكَ فَلَا تَهْتِكْهُ وَمَا عَلِمْتَهُ مِنْ قَبِيحِ فِعْلِي فَاغْفِرْهُ إِلَهِي اسْتَشْفَعْتُ بِكَ إِلَيْكَ وَاسْتَجَرْتُ بِكَ مِنْكَ أَتَيْتُكَ طَامِعاً فِي إِحْسَانِكَ رَاغِباً فِي امْتِنَانِكَ مُسْتَسْقِياً وَابِلَ طَوْلِكَ مُسْتَمْطِراً غَمَامَ فَضْلِكَ طَالِباً مَرْضَاتَكَ قَاصِداً جَنَابَكَ وَارِداً شَرِيعَةَ رِفْدِكَ مُلْتَمِساً سَنِيَّ الْخَيْرَاتِ مِنْ عِنْدِكَ وَافِداً إِلَى حَضْرَةِ جَمَالِكَ مُرِيداً وَجْهَكَ طَارِقاً بَابَكَ مُسْتَكِيناً لِعَظَمَتِكَ وَجَلَالِكَ فَافْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَلَا تَفْعَلْ بِي مَا أَنَا أَهْلُهُ مِنَ الْعَذَابِ وَالنِّقْمَةِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة السادسة:

وتعرف بمناجاة الشاكرين، وقد سجل فيها شكره لله تعالى على ما أولاه من جزيل الخير، وفضائل النعم، وقد جاء فيها بعد البسملة:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي أَذْهَلَنِي عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابُعُ طَوْلِكَ[1] وَأَعْجَزَنِي عَنْ إِحْصَاءِ ثَنَائِكَ فَيْضُ فَضْلِكَ، وَشَغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ مَحَامِدِكَ تَرَادُفُ عَوَائِدِكَ، وَأَعْيَانِي عَنْ نَشْرِ عَوَارِفِكَ تَوَالِي أَيَادِيكَ، وَهَذَا مَقَامُ مَنِ اعْتَرَفَ بِسُبُوغِ النَّعْمَاءِ، وَقَابَلَهَا بِالتَّقْصِيرِ، وَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْإِهْمَالِ وَالتَّضْيِيعِ، وَأَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ، الْبَرُّ الْكَرِيمُ، الَّذِي لَا يُخَيِّبُ قَاصِدِيهِ، وَلَا يَطْرُدُ عَنْ فِنَائِهِ آمِلِيهِ، بِسَاحَتِكَ تَحُطُّ رِحَالُ الرَّاحِلِينَ، وَبِعَرْصَتِكَ تَقِفُ آمَالُ الْمُسْتَرْفِدِينَ، فَلَا تُقَابِلْ آمَالَنَا بِالتَّخْيِيبِ وَالْإِيَاسِ، وَلَا تُلْبِسْنَا سِرْبَالَ الْقُنُوطِ وَالْإِبْلَاسِ[2]».

إِلَهِي تَصَاغَرَ عِنْدَ تَعَاظُمِ آلَائِكَ شُكْرِي، وَتَضَاءَلَ فِي جَنْبِ إِكْرَامِكَ إِيَّايَ ثَنَائِي وَنَشْرِي، جَلَّلَتْنِي نِعَمُكَ مِنْ أَنْوَارِ الْإِيمَانِ حُلَلًا، وَضَرَبَتْ عَلَيَّ لَطَائِفُ بِرِّكَ مِنَ الْعِزِّ كِلَلًا، وَقَلَّدَتْنِي مِنَنُكَ قَلَائِدَ لَا تُحَلُّ، وَطَوَّقَتْنِي أَطْوَاقاً لَا تُفَلُّ، فَآلَاؤُكَ جَمَّةٌ ضَعُفَ لِسَانِي عَنْ إِحْصَائِهَا، وَنَعْمَاؤُكَ كَثِيرَةٌ قَصُرَ فَهْمِي عَنْ إِدْرَاكِهَا، فَضْلًا عَنِ اسْتِقْصَائِهَا، فَكَيْفَ لِي بِتَحْصِيلِ الشُّكْرِ، وَشُكْرِي إِيَّاكَ يَفْتَقِرُ إِلَى شُكْرٍ، فَكُلَّمَا قُلْتُ: لَكَ الْحَمْدُ، وَجَبَ عَلَيَّ لِذَلِكَ أَنْ أَقُولَ: لَكَ الْحَمْدُ.

إِلَهِي فَكَمَا غَذَّيْتَنَا بِلُطْفِكَ، وَرَبَّيْتَنَا بِصُنْعِكَ، فَتَمِّمْ عَلَيْنَا سَوَابِغَ النِّعَمِ، وَادْفَعْ عَنَّا مَكَارِهَ النِّقَمِ، وَآتِنَا مِنْ حُظُوظِ الدَّارَيْنِ أَرْفَعَهَا وَأَجَلَّهَا عَاجِلًا وَآجِلًا، وَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى

---

(١) الطول: الفضل والغنى.

(٢) الإبلاس: السكوت عند انقطاع الحجّة.

حُسْنِ بَلَائِكَ وَسُبُوغِ نَعْمَائِكَ حَمْداً يُوَافِقُ رِضَاكَ، وَيَمْتَرِي الْعَظِيمَ مِنْ بِرِّكَ وَنَدَاكَ يَا عَظِيمُ، يَا كَرِيمُ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة السابعة:

تعرف بمناجاة المطيعين لله وهذا نصها:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي أَلْهِمْنَا طَاعَتَكَ، وَجَنِّبْنَا مَعَاصِيَكَ، وَيَسِّرْ لَنَا بُلُوغَ مَا نَتَمَنَّى مِنِ ابْتِغَاءِ رِضْوَانِكَ، وَأَحْلِلْنَا بُحْبُوحَةَ جِنَانِكَ، وَاقْشَعْ عَنْ بَصَائِرِنَا سَحَابَ الِارْتِيَابِ، وَاكْشِفْ عَنْ قُلُوبِنَا أَغْشِيَةَ الْمِرْيَةِ، وَالْحِجَابِ وَأَزْهِقِ الْبَاطِلَ عَنْ ضَمَائِرِنَا، وَأَثْبِتِ الْحَقَّ فِي سَرَائِرِنَا، فَإِنَّ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونَ لَوَاقِحُ الْفِتَنِ، وَمُكَدِّرَةٌ لِصَفْوِ الْمَنَائِحِ وَالْمِنَنِ، اللَّهُمَّ احْمِلْنَا فِي سُفُنِ نَجَاتِكَ، وَمَتِّعْنَا بِلَذِيذِ مُنَاجَاتِكَ، وَأَوْرِدْنَا حِيَاضَ حُبِّكَ، وَأَذِقْنَا حَلَاوَةَ وُدِّكَ وَقُرْبِكَ، وَاجْعَلْ جِهَادَنَا فِيكَ، وَهَمَّنَا فِي طَاعَتِكَ، وَأَخْلِصْ نِيَّاتِنَا فِي مُعَامَلَتِكَ، فَإِنَّا بِكَ وَلَكَ، وَلَا وَسِيلَةَ لَنَا إِلَيْكَ إِلَّا بِكَ، إِلَهِي اجْعَلْنِي مِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ الْأَبْرَارِ، السَّابِقِينَ إِلَى الْمَكْرُمَاتِ، الْمُسَارِعِينَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، الْعَامِلِينَ لِلْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، السَّاعِينَ إِلَى رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة الثامنة:

وتعرف بمناجاة المريدين وهذا نصها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَكَ مَا أَضْيَقَ الطُّرُقَ عَلَى مَنْ لَمْ تَكُنْ دَلِيلَهُ، وَمَا أَوْضَحَ الْحَقَّ عِنْدَ مَنْ هَدَيْتَهُ سَبِيلَهُ، إِلَهِي فَاسْلُكْ بِنَا سُبُلَ الْوُصُولِ إِلَيْكَ، وَسَيِّرْنَا فِي أَقْرَبِ الطُّرُقِ لِلْوُفُودِ عَلَيْكَ، قَرِّبْ عَلَيْنَا الْبَعِيدَ، وَسَهِّلْ عَلَيْنَا الْعَسِيرَ الشَّدِيدَ، وَأَلْحِقْنَا بِالْعِبَادِ الَّذِينَ هُمْ بِالْبِدَارِ إِلَيْكَ يُسَارِعُونَ، وَبَابَكَ عَلَى الدَّوَامِ يَطْرُقُونَ، وَإِيَّاكَ فِي اللَّيْلِ يَعْبُدُونَ، وَهُمْ مِنْ هَيْبَتِكَ مُشْفِقُونَ، الَّذِينَ صَفَّيْتَ لَهُمُ الْمَشَارِبَ، وَبَلَّغْتَهُمُ الرَّغَائِبَ، وَأَنْجَحْتَ لَهُمُ الْمَطَالِبَ، وَقَضَيْتَ لَهُمْ مِنْ وَصْلِكَ الْمَآرِبَ، وَمَلَأْتَ لَهُمْ ضَمَائِرَهُمْ مِنْ حُبِّكَ، وَرَوَّيْتَهُمْ مِنْ صَافِي شِرْبِكَ فَبِكَ إِلَى لَذِيذِ مُنَاجَاتِكَ، وَصَلُوا وَمِنْكَ أَقْصَى مَقَاصِدِهِمْ حَصَّلُوا، فَيَا مَنْ هُوَ عَلَى الْمُقْبِلِينَ عَلَيْهِ مُقْبِلٌ، وَبِالْعَطْفِ عَلَيْهِمْ عَائِدٌ مُفْضِلٌ، وَبِالْغَافِلِينَعَنْ ذِكْرِهِ رَحِيمٌ رَؤُوفٌ، وَبِجَذْبِهِمْ إِلَى بَابِهِ وَدُودٌ عَطُوفٌ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنِي مِنْ أَوْفَرِهِمْ مِنْكَ حَظّاً، وَأَعْلَاهُمْ عِنْدَكَ مَنْزِلاً، وَأَجْزَلِهِمْ مِنْ وُدِّكَ قِسْماً، وَأَفْضَلِهِمْ فِي مَعْرِفَتِكَ نَصِيباً، فَقَدِ انْقَطَعَتْ إِلَيْكَ هِمَّتِي، وَانْصَرَفَتْ نَحْوَكَ رَغْبَتِي، فَأَنْتَ لَا غَيْرُكَ

مُرَادِي، وَلَكَ لَا لِسِوَاكَ سَهَرِي وَسُهَادِي، وَلِقَاؤُكَ قُرَّةُ عَيْنِي، وَوَصْلُكَ مُنَى نَفْسِي، وَإِلَيْكَ شَوْقِي وَفِي مَحَبَّتِكَ وَلَهِي، وَإِلَى هَوَاكَ صَبَابَتِي، وَرِضَاكَ بُغْيَتِي، وَرُؤْيَتُكَ حَاجَتِي، وَجِوَارُكَ طَلِبَتِي، وَقُرْبُكَ غَايَةُ سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ أُنْسِي وَرَاحَتِي، وَعِنْدَكَ دَوَاءُ عِلَّتِي، وَشِفَاءُ غُلَّتِي، وَبَرْدُ لَوْعَتِي، وَكَشْفُ كُرْبَتِي، فَكُنْ أَنِيسِي فِي وَحْشَتِي، وَمُقِيلَ عَثْرَتِي، وَغَافِرَ زَلَّتِي، وَقَابِلَ تَوْبَتِي، وَمُجِيبَ دَعْوَتِي، وَوَلِيَّ عِصْمَتِي، وَمُغْنِيَ فَاقَتِي، وَلَا تَقْطَعْنِي عَنْكَ، وَلَا تُبْعِدْنِي مِنْكَ، يَا نَعِيمِي وَجَنَّتِي، وَيَا دُنْيَايَ وَآخِرَتِي».

المناجاة التاسعة:

وتعرف بمناجاة المحبين وهذا نصها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا، وَمَنْ ذَا الَّذِي آنس أَنِسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغَى عَنْكَ حِوَلًا، إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِمَّنِ اصْطَفَيْتَهُ لِقُرْبِكَ وَوَلَايَتِكَ، وَأَخْلَصْتَهُ لِوُدِّكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَشَوَّقْتَهُ إِلَى لِقَائِكَ، وَرَضَّيْتَهُ بِقَضَائِكَ، وَمَنَحْتَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَحَبَوْتَهُ بِرِضَاكَ، وَأَعَذْتَهُ مِنْ هَجْرِكَ وَقِلَاكَ، وَبَوَّأْتَهُ مَقْعَدَ الصِّدْقِ فِي جِوَارِكَ، وَخَصَصْتَهُ بِمَعْرِفَتِكَ، وَأَهَّلْتَهُ لِعِبَادَتِكَ، وَهَيَّمْتَهُ لِإِرَادَتِكَ، وَاجْتَبَيْتَهُ لِمُشَاهَدَتِكَ، وَأَخْلَيْتَ وَجْهَهُ لَكَ، وَفَرَّغْتَ فُؤَادَهُ لِحُبِّكَ، وَرَغَّبْتَهُ فِيمَا عِنْدَكَ، وَأَلْهَمْتَهُ ذِكْرَكَ، وَأَوْزَعْتَهُ شُكْرَكَ، وَشَغَلْتَهُ بِطَاعَتِكَ، وَصَيَّرْتَهُ مِنْ صَالِحِي بَرِيَّتِكَ، وَاخْتَرْتَهُ لِمُنَاجَاتِكَ، وَقَطَعْتَ عَنْهُ كُلَّ شَيْءٍ يَقْطَعُهُ عَنْكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ دَأْبُهُمُ الِارْتِيَاحُ إِلَيْكَ وَالْحَنِينُ، وَدَهْرُهُمُ الزَّفْرَةُ وَالْأَنِينُ، جِبَاهُهُمْ سَاجِدَةٌ لِعَظَمَتِكَ، وَعُيُونُهُمْ سَاهِرَةٌ فِي خِدْمَتِكَ، وَدُمُوعُهُمْ سَائِلَةٌ مِنْ خَشْيَتِكَ، وَقُلُوبُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحَبَّتِكَ، وَأَفْئِدَتُهُمْ مُنْخَلِعَةٌ مِنْ مَهَابَتِكَ، يَا مَنْ أَنْوَارُ قُدْسِهِ لِأَبْصَارِ مُحِبِّيهِ رَائِقَةٌ، وَسُبُحَاتُ وَجْهِهِ لِقُلُوبِ عَارِفِيهِ شَائِقَةٌ، يَا مُنَى قُلُوبِ الْمُشْتَاقِينَ، وَيَا غَايَةَ آمَالِ الْمُحِبِّينَ، أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُوصِلُنِي إِلَى قُرْبِكَ، وَأَنْ تَجْعَلَكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا سِوَاكَ، وَأَنْ تَجْعَلَ حُبِّي إِيَّاكَ قَائِداً إِلَى رِضْوَانِكَ، وَشَوْقِي إِلَيْكَ ذَائِداً عَنْ عِصْيَانِكَ، وَامْنُنْ بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ عَلَيَّ، وَانْظُرْ بِعَيْنِ الْوُدِّ وَالْعَطْفِ إِلَيَّ، وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي وَجْهَكَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ الْإِسْعَادِ وَالْحُظْوَةِ عِنْدَكَ، يَا مُجِيبُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة العاشرة:

وتعرف بمناجاة المتوسلين، وقد توسل وتضرع فيها إلى الله تعالى سائلاً الرحمة والرضوان.

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي لَيْسَ لِي وَسِيلَةٌ إِلَيْكَ إِلَّا عَوَاطِفُ رَأْفَتِكَ، وَلَا لِي ذَرِيعَةٌ إِلَيْكَ إِلَّا عَوَاطِفُ رَحْمَتِكَ، وَشَفَاعَةُ نَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، وَمُنْقِذِ الْأُمَّةِ مِنَ الْغُمَّةِ، فَاجْعَلْهُمَا لِي سَبَباً إِلَى نَيْلِ غُفْرَانِكَ، وَصَيِّرْهُمَا لِي وُصْلَةً إِلَى الْفَوْزِ بِرِضْوَانِكَ، وَقَدْ حَلَّ رَجَائِي بِحَرَمِ كَرَمِكَ، وَحَطَّ طَمَعِي بِفِنَاءِ جُودِكَ، فَحَقِّقْ فِيكَ أَمَلِي، وَاخْتِمْ بِالْخَيْرِ عَمَلِي، وَاجْعَلْنِي مِنْ صَفْوَتِكَ الَّذِينَ أَحْلَلْتَهُمْ بُحْبُوحَةَ جَنَّتِكَ، وَبَوَّأْتَهُمْ دَارَ كَرَامَتِكَ، وَأَقْرَرْتَ أَعْيُنَهُمْ بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ يَوْمَ لِقَائِكَ، وَأَوْرَثْتَهُمْ مَنَازِلَ الصِّدْقِ فِي جِوَارِكَ، يَا مَنْ لَا يَفِدُ الْوَافِدُونَ عَلَى أَكْرَمَ مِنْهُ، وَلَا يَجِدُ الْقَاصِدُونَ أَرْحَمَ مِنْهُ، يَا خَيْرَ مَنْ خَلَا بِهِ وَحِيدٌ، وَيَا أَعْطَفَ مَنْ أَوَى إِلَيْهِ طَرِيدٌ، إِلَى سَعَةِ عَفْوِكَ مَدَدْتُ يَدِي، وَبِذَيْلِ كَرَمِكَ أَعْلَقْتُ كَفِّي، فَلَا تُولِنِي الْحِرْمَانَ، وَلَا تَبْتَلِنِي بِالْخَيْبَةِ وَالْخُسْرَانِ، يَا سَمِيعَ الدُّعَاءِ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين».

المناجاة الحادية عشر:

وتعرف بمناجاة المفتقرين وهذا نصها:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي كَسْرِي لَا يَجْبُرُهُ إِلَّا لُطْفُكَ، وَحَنَانُكَ وَفَقْرِي لَا يُغْنِيهِ إِلَّا عَطْفُكَ، وَإِحْسَانُكَ وَرَوْعَتِي لَا يُسَكِّنُهَا إِلَّا أَمَانُكَ، وَذِلَّتِي لَا يُعِزُّهَا إِلَّا سُلْطَانُكَ، وَأُمْنِيَّتِي لَا يُبَلِّغُنِيهَا إِلَّا فَضْلُكَ، وَخَلَّتِي لَا يَسُدُّهَا إِلَّا طَوْلُكَ، وَحَاجَتِي لَا يَقْضِيهَا غَيْرُكَ، وَكَرْبِي لَا يُفَرِّجُهَا سِوَى رَحْمَتِكَ، وَضُرِّي لَا يَكْشِفُهُ غَيْرُ رَأْفَتِكَ، وَغُلَّتِي لَا يُبَرِّدُهَا إِلَّا وَصْلُكَ، وَلَوْعَتِي لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا لِقَاؤُكَ، وَشَوْقِي إِلَيْكَ لَا يَبُلُّهُ إِلَّا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِكَ، وَقَرَارِي لَا يَقِرُّ دُونَ دُنُوِّي مِنْكَ، وَلَهْفَتِي لَا يَرُدُّهَا إِلَّا رَوْحُكَ، وَسُقْمِي لَا يَشْفِيهِ إِلَّا طِبُّكَ، وَغَمِّي لَا يُزِيلُهُ إِلَّا قُرْبُكَ، وَجُرْحِي لَا يُبْرِئُهُ إِلَّا صَفْحُكَ، وَرَيْنُ قَلْبِي لَا يَجْلُوهُ إِلَّا عَفْوُكَ، وَوَسْوَاسُ صَدْرِي لَا يُزِيحُهُ إِلَّا أَمْرُكَ، فَيَا مُنْتَهَى أَمَلِ الْآمِلِينَ، وَيَا غَايَةَ سُؤْلِ السَّائِلِينَ، وَيَا أَقْصَى طَلِبَةِ الطَّالِبِينَ، وَيَا أَعْلَى رَغْبَةِ الرَّاغِبِينَ، وَيَا وَلِيَّ الصَّالِحِينَ، وَيَا أَمَانَ الْخَائِفِينَ، وَيَا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّينَ، وَيَا ذُخْرَ الْمُعْدِمِينَ، وَيَا كَنْزَ الْبَائِسِينَ، وَيَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ، وَيَا قَاضِيَ حَوَائِجِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَيَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، لَكَ تَخَضُّعِي وَسُؤَالِي، وَإِلَيْكَ تَضَرُّعِي وَابْتِهَالِي، أَسْأَلُكَ أَنْ تُنِيلَنِي مِنْ رَوْحِ رِضْوَانِكَ، وَتُدِيمَ عَلَيَّ نِعَمَ امْتِنَانِكَ، وَهَا أَنَا بِبَابِ كَرَمِكَ وَاقِفٌ، وَلِنَفَحَاتِ بِرِّكَ مُتَعَرِّضٌ، وَبِحَبْلِكَ الشَّدِيدِ مُعْتَصِمٌ، وَبِعُرْوَتِكَ الْوُثْقَى مُتَمَسِّكٌ، إِلَهِي ارْحَمْ عَبْدَكَ الذَّلِيلَ، ذَا اللِّسَانِ الْكَلِيلِ، وَالْعَمَلِ الْقَلِيلِ، وَامْنُنْ عَلَيْهِ بِطَوْلِكَ الْجَزِيلِ، وَاكْنُفْهُ تَحْتَ ظِلِّكَ الظَّلِيلِ، يَا كَرِيمُ، يَا جَمِيلُ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة الثانية عشر:

تعرف بمناجاة العارفين وهذا نصها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي قَصُرَتِ الْأَلْسُنُ عَنْ بُلُوغِ ثَنَائِكَ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِكَ، وَعَجَزَتِ الْعُقُولُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِ جَمَالِكَ، وَانْحَسَرَتِ الْأَبْصَارُ دُونَ النَّظَرِ إِلَى سُبُحَاتِ وَجْهِكَ، وَلَمْ تَجْعَلْ لِلْخَلْقِ طَرِيقاً إِلَى مَعْرِفَتِكَ إِلَّا بِالْعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَتِكَ، إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ تَوَشَّحَتْ أَشْجَارُ الشَّوْقِ إِلَيْكَ فِي حَدَائِقِ صُدُورِهِمْ، وَأَخَذَتْ لَوْعَةُ مَحَبَّتِكَ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ إِلَى أَوْكَارِ الْأَفْكَارِ يَأْوُونَ، وَفِي رِيَاضِ الْقُرْبِ وَالْمُكَاشَفَةِ يَرْتَعُونَ، وَمِنْ حِيَاضِ الْمَحَبَّةِ بِكَأْسِ الْمُلَاطَفَةِ يَكْرَعُونَ، وَشَرَائِعِ الْمُصَافَاةِ يَرِدُونَ قَدْ كُشِفَ الْغِطَاءُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ، وَانْجَلَتْ ظُلْمَةُ الرَّيْبِ عَنْ عَقَائِدِهِمْ مِنْ ضَمَائِرِهِمْ، وَانْتَفَتْ مُخَالَجَةُ الشَّكِّ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ، وَانْشَرَحَتْ بِتَحْقِيقِ الْمَعْرِفَةِ صُدُورُهُمْ، وَعَلَتْ لِسَبْقِ السَّعَادَةِ فِي الزَّهَادَةِ هِمَمُهُمْ، وَعَذُبَ فِي مَعِينِ الْمُعَامَلَةِ شِرْبُهُمْ، وَطَابَ فِي مَجْلِسِ الْأُنْسِ سِرُّهُمْ، وَأَمِنَ فِي مَوْطِنِ الْمَخَافَةِ سِرْبُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ بِالرُّجُوعِ إِلَى رَبِّ الْأَرْبَابِ أَنْفُسُهُمْ، وَتَيَقَّنَتْ بِالْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ أَرْوَاحُهُمْ، وَقَرَّتْ بِالنَّظَرِ إِلَى مَحْبُوبِهِمْ أَعْيُنُهُمْ، وَاسْتَقَرَّ بِإِدْرَاكِ السُّؤْلِ وَنَيْلِ الْمَأْمُولِ قَرَارُهُمْ، وَرَبِحَتْ فِي بَيْعِ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ تِجَارَتُهُمْ، إِلَهِي مَا أَلَذَّ خَوَاطِرَ الْإِلْهَامِ بِذِكْرِكَ عَلَى الْقُلُوبِ، وَمَا أَحْلَى الْمَسِيرَ إِلَيْكَ بِالْأَوْهَامِ فِي مَسَالِكِ الْغُيُوبِ، وَمَا أَطْيَبَ طَعْمَ حُبِّكَ، وَمَا أَعْذَبَ شِرْبَ قُرْبِكَ، فَأَعِذْنَا مِنْ طَرْدِكَ وَإِبْعَادِكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَخَصِّ عَارِفِيكَ، وَأَصْلَحِ عِبَادِكَ، وَأَصْدَقِ طَائِعِيكَ، وَأَخْلَصِ عُبَّادِكَ، يَا عَظِيمُ، يَا جَلِيلُ، يَا كَرِيمُ، يَا مُنِيلُ، بِرَحْمَتِكَ وَمَنِّكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة الثالثة عشر:

وتعرف بمناجاة الذاكرين وهذا نصها:

«بِسْمِ اللَّهِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِلَهِي لَوْلَا الْوَاجِبُ مِنْ قَبُولِ أَمْرِكَ لَنَزَّهْتُكَ مِنْ ذِكْرِي إِيَّاكَ عَلَى أَنَّ ذِكْرِي لَكَ بِقَدْرِي لَا بِقَدْرِكَ وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مِقْدَارِي حَتَّى أُجْعَلَ مَحَلًّا لِتَقْدِيسِكَ وَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَيْنَا جَرَيَانُ ذِكْرِكَ عَلَى أَلْسِنَتِنَا وَإِذْنُكَ لَنَا بِدُعَائِكَ وَتَنْزِيهِكَ وَتَسْبِيحِكَ، إِلَهِي فَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ فِي الْخَلَاءِ وَالْمَلَإِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْإِعْلَانِ وَالْإِسْرَارِ وَفِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَآنِسْنَا بِالذِّكْرِ الْخَفِيِّ وَاسْتَعْمِلْنَا بِالْعَمَلِ الزَّكِيِّ وَالسَّعْيِ الْمَرْضِيِّ وَجَازِنَا بِالْمِيزَانِ الْوَفِيِّ، إِلَهِي بِكَ هَامَتِ الْقُلُوبُ الْوَالِهَةُ، وَعَلَى مَعْرِفَتِكَ جُمِعَتِ الْعُقُولُ الْمُتَبَايِنَةُ فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِذِكْرَاكَ، وَلَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إِلَّا عِنْدَ رُؤْيَاكَ، أَنْتَ الْمُسَبَّحُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَالْمَعْبُودُ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَالْمَوْجُودُ فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَالْمَدْعُوُّ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَالْمُعَظَّمُ فِي

كُلِّ جَنَانٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بِغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ رَاحَةٍ بِغَيْرِ أُنْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ سُرُورٍ بِغَيْرِ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغْلٍ بِغَيْرِ طَاعَتِكَ، إِلَهِي أَنْتَ قُلْتَ: وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)﴾ وَقُلْتَ: وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فَأَمَرْتَنَا بِذِكْرِكَ وَوَعَدْتَنَا عَلَيْهِ أَنْ تَذْكُرَنَا تَشْرِيفاً لَنَا، وَتَفْخِيماً وَإِعْظَاماً، وَهَا نَحْنُ ذَاكِرُوكَ كَمَا أَمَرْتَنَا فَأَنْجِزْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا يَا ذَاكِرَ الذَّاكِرِينَ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة الرابعة عشر:

وتعرف بمناجاة المعتصمين وهذا نصّها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اللَّهُمَّ يَا مَلَاذَ اللَّائِذِينَ، وَيَا مَعَاذَ الْعَائِذِينَ، وَيَا مُنْجِيَ الْهَالِكِينَ، وَيَا عَاصِمَ الْبَائِسِينَ، وَيَا رَاحِمَ الْمَسَاكِينِ، وَيَا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّينَ، وَيَا كَنْزَ الْمُفْتَقِرِينَ، وَيَا جَابِرَ الْمُنْكَسِرِينَ، وَيَا مَأْوَى الْمُنْقَطِعِينَ، وَيَا نَاصِرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَيَا مُجِيرَ الْخَائِفِينَ، وَيَا مُغِيثَ الْمَكْرُوبِينَ، وَيَا حِصْنَ اللَّاجِينَ، إِنْ لَمْ أَعُذْ بِعِزَّتِكَ فَبِمَنْ أَعُوذُ، وَإِنْ لَمْ أَلُذْ بِقُدْرَتِكَ فَبِمَنْ أَلُوذُ، وَقَدْ أَلْجَأَتْنِي الذُّنُوبُ إِلَى التَّشَبُّثِ بِأَذْيَالِ عَفْوِكَ، وَأَحْوَجَتْنِي الْخَطَايَا إِلَى اسْتِفْتَاحِ أَبْوَابِ صَفْحِكَ، وَدَعَتْنِي الْإِسَاءَةُ إِلَى الْإِنَاخَةِ بِفِنَاءِ عِزِّكَ، وَحَمَلَتْنِي الْمَخَافَةُ مِنْ نَقِمَتِكَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِعُرْوَةِ عَطْفِكَ، وَمَا حَقُّ مَنِ اعْتَصَمَ بِحَبْلِكَ أَنْ يُخْذَلَ، وَلَا يَلِيقُ بِمَنِ اسْتَجَارَ بِعِزِّكَ أَنْ يُسْلَمَ أَوْ يُهْمَلَ، إِلَهِي فَلَا تُخْلِنَا مِنْ حِمَايَتِكَ، وَلَا تُعْرِنَا مِنْ رِعَايَتِكَ، وَذُدْنَا عَنْ مَوَارِدِ الْهَلَكَةِ فَإِنَّا بِعَيْنِكَ وَفِي كَنَفِكَ وَلَكَ أَسْأَلُكَ بِأَهْلِ خَاصَّتِكَ مِنْ مَلَائِكَتِكَ وَالصَّالِحِينَ مِنْ بَرِيَّتِكَ أَنْ تَجْعَلَ عَلَيْنَا وَاقِيَةً تُنْجِينَا مِنَ الْهَلَكَاتِ، وَتُجَنِّبُنَا مِنَ الْآفَاتِ وَتُكِنُّنَا مِنْ دَوَاهِي الْمُصِيبَاتِ، وَأَنْ تُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنْ سَكِينَتِكَ، وَأَنْ تُغَشِّيَ وُجُوهَنَا بِأَنْوَارِ مَحَبَّتِكَ، وَأَنْ تُؤْوِيَنَا إِلَى شَدِيدِ رُكْنِكَ، وَأَنْ تَحْوِيَنَا فِي أَكْنَافِ عِصْمَتِكَ بِرَأْفَتِكَ وَرَحْمَتِكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

المناجاة الخامسة عشر:

وتعرف بمناجاة الزاهدين وهذا نصها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِلَهِي أَسْكَنْتَنَا دَاراً حَفَرَتْ لَنَا حُفَرَ مَكْرِهَا، وَعَلَّقَتْنَا بِأَيْدِي الْمَنَايَا فِي حَبَائِلِ غَدْرِهَا، فَإِلَيْكَ نَلْتَجِئُ مِنْ مَكَائِدِ خُدَعِهَا، وَبِكَ نَعْتَصِمُ مِنَ الِاغْتِرَارِ بِزَخَارِفِ زِينَتِهَا، فَإِنَّهَا الْمُهْلِكَةُ طُلَّابَهَا، الْمُتْلِفَةُ حُلَّالَهَا، الْمَحْشُوَّةُ بِالْآفَاتِ، الْمَشْحُونَةُ بِالنَّكَبَاتِ، إِلَهِي فَزَهِّدْنَا فِيهَا، وَسَلِّمْنَا مِنْهَا بِتَوْفِيقِكَ وَعِصْمَتِكَ وَانْزَعْ عَنَّا جَلَابِيبَ مُخَالَفَتِكَ، وَتَوَلَّ أُمُورَنَا بِحُسْنِ كِفَايَتِكَ، وَأَوْفِرْ مَزِيدَنَا مِنْ سَعَةِ رَحْمَتِكَ، وَأَجْمِلْ صِلَاتِنَا مِنْ فَيْضِ مَوَاهِبِكَ، وَاغْرِسْ فِي أَفْئِدَتِنَا أَشْجَارَ مَحَبَّتِكَ، وَأَتْمِمْ لَنَا أَنْوَارَ مَعْرِفَتِكَ،

وَأَذِقْنَا حَلَاوَةَ عَفْوِكَ، وَلَذَّةَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَقْرِرْ أَعْيُنَنَا يَوْمَ لِقَائِكَ بِرُؤْيَتِكَ، وَأَخْرِجْ حُبَّ الدُّنْيَا مِنْ قُلُوبِنَا كَمَا فَعَلْتَ بِالصَّالِحِينَ مِنْ صَفْوَتِكَ وَالْأَبْرَارِ مِنْ خَاصَّتِكَ بِرَحْمَتِكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَيَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ».

رسالة الحقوق

من المؤلفات المهمة في دنيا الإسلام «رسالة الحقوق» للإمام الأعظم زين العابدين عليه السلام، فقد وضعت المناهج الحية لسلوك الإنسان، وتطوير حياته، وبناء حضارته، على أُسس تتوفر فيها جميع عوامل الاستقرار النفسي، ووقايته من الإصابة بأي لو من ألوان القلق والاضطراب، وغيرهما ممَّا يوجب تعقيد الحياة.

تفاصيلها: أما تفاصيل هذه الحقوق الرائعة فلنستمع إلى الإمام عليه السلام يحدِّثنا عنها.

حقّ الله

١ ـ حق الله:

«فأما حق الله الأكبر فإنَّك تعبده، لا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدُّنيا والآخرة، ويحفظ لك ما تحب منهما».

حقوق الأعضاء

٢ ـ حق النفس:

«وأما حق نفسك عليك فإن تستوفيها في طاعة الله، فتؤدِّي إلى لسانك حقه، وإلى سمعك حقه، وإلى بصرك حقه، وإلى يدك حقها، وإلى رجلك حقها، وإلى بطنك حقه، وإلى فرجك حقه، وتستعين بالله على ذلك».

٣ ـ حق اللِّسان:

«وأما حق اللِّسان فإكرامه عن الخنى، وتعويده على الخير، وحمله على الأدب، وإجمامه[1] إلاَّ لموضع الحجَّة والمنفعة للدِّين والدُّنيا، وإعفاؤه عن الفضول الشنعة القليلة الفائدة، التي لا يؤمن ضررها مع قلَّة عائدتها وبعد شاهد العقل والدليل عليه، وتزين العاقل بعقله حسن سيرته في لسانه، ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم».

---

(١) إجمامه: أي إمساكه.

٤ ـ حق السمع:

«وأما حق السمع فتنزيهه عن أن تجعله طريقاً إلى قلبك إلاَّ لفوهة كريمة تحدث في قلبك خيراً، أو تكسب خلقاً كريماً، فإنَّه باب الكلام إلى القلب، يؤدِّي إليه ضروب المعاني على ما فيها من خير أو شر، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٥ ـ حق البصر:

«وأما حق بصرك فغضه عمَّا لا يحل لك، وترك ابتذاله إلاَّ لموضع عبرة تستقبل بها بصراً أو تستفيد بها علماً فإنَّ البصر باب الاعتبار».

٦ ـ حق الرجلين:

«وأما حق رجليك فأن لا تمشي بهما إلى ما لا يحل لك، ولا تجعلهما مطيتك في الطريق المستخفة بأهلها فيها، فإنَّها حاملتك، وسالكة بك مسلك الدِّين[1]، والسبق لك، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٧ ـ حق اليد:

«وأما حق يدك فأن لا تبسطها إلى ما لا يحل لك، فتنال بما تبسطها إليه من الله العقوبة في الآجل، ومن الناس بلسان اللائمة في العاجل ولا تقبضها ممَّا افترضه الله عليها ولكن توقرها بقبضها عن كثير ممَّا لا يحل لها، وبسطها إلى كثير ممَّا ليس عليها، فإذا هي قد عقلت، وشرفت في العاجل وجب لها حسن الثواب في الآجل».

٨ ـ حق البطن:

«وأما حق بطنك فأن لا تجعله وعاءً لقليل من الحرام، ولا لكثير، وأن تقتصد له في الحلال، ولا تخرجه من حد التقوية إلى حد التهوين، وذهاب المروءة، وضبطه إذا همَّ بالجوع والظمأ، فإنَّ الشبع المنتهي بصاحبه إلى التخم مكسلة، ومثبطة، ومقطعة عن كل بر وكرم، وأنَّ الري المنتهي بصاحبه إلى السكر مسخفة ومذهبة للمروة».

٩ ـ حق الفرج:

«وأما حق فرجك فحفظه ممَّا لا يحل لك، والاستعانة عليه بغض البصر، فإنَّه من أعون الأعوان، وكثرة ذكر الموت، والتهدد لنفسك بالله، والتخويف لها به، وبالله العصمة والتأييد، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ به».

---

(١) الصحيح: فإنَّهما حاملتاك وسالكتان بك.

حقوق الأفعال

١٠ ـ حق الصلاة:

«فأما حق الصلاة فأن تعلم أنَّها وفادة إلى الله، وأنَّك قائم بها بين يدي الله، فإذا علمت ذلك كنت خليقاً أن تقوم فيها مقام الذليل، الراغب، الراهب، الخائف، الراجي، المسكين، المتضرع، المعظم من قام بين يديه، بالسكون والإطراق وخشوع الأطراف، ولين الجناح، وحسن المناجاة له في نفسه، والطلب إليه في فكاك رقبتك التي أحاطت به خطيئتك، واستهلكتها ذنوبك، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

١١ ـ حق الصوم:

«وأما حق الصوم فأن تعلم أنَّه حجاب ضربه الله على لسانك، وسمعك وبصرك وفرجك وبطنك، ليسترك به من النار، وهكذا جاء في الحديث «الصوم جنَّة[١] من النار» فإن سكنت أطرافك في حجبها رجوت أن تكون محجوباً، وإن أنت تركتها تضطرب في حجابها، وترفع جنبات الحجاب، فتطلع على ما ليس لها بالنظرة الداعية للشهوة والقوَّة الخارجة عن حد التقية لله، لم تأمن أن تخرق الحجاب، وتخرج منه، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

١٢ ـ حق الصدقة:

«وأما حق الصدقة فأن تعلم أنَّها ذخرك عند ربك، ووديعتك التي لا تحتاج إلى الأشهاد، فإذا علمت ذلك كنت بما استودعته سراً، أوثق بما استودعته علانية، وكنت جديراً أن تكون أسررت إليه أمراً أعلنته، وكان الأمر بينك وبينه فيها سراً على كلِّ حال، ولم تستظهر عليه في ما استودعته منها بأشهاد الأسماع والأبصار عليه بها، كأنَّها أوثق في نفسك لا كأنَّك لا تثق به في تأدية وديعتك إليه، ثم لم تمتن بها على أحد لأنَّها لك، فإذا امتننت لم تأمن أن تكون بها على تهجين[٢] حالك منها إلى من مننت بها عليه، لأنَّ في ذلك دليلاً على أنَّك لم ترد نفسك بها، ولو أردت نفسك بها لم تمتن بها على أحد، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

---

(١) أي: وقاية حصن.

(٢) التهجين: التقبيح والتحقير.

١٣ ـ حق الهدي:

«وأما حق الهدي فأن تخلص بها الإرادة إلى ربك، والتعرض لرحمته وقبوله، ولا تريد عيون الناظرين دونه، فإذا كنت كذلك لم تكن متكلفاً ولا متصنعاً، وكنت إنَّما تقصد إلى الله، واعلم أنَّ الله يراد باليسير، ولا يراد بالعسير، كما أراد بخلقه التيسير، ولم يرد بهم التعسير، وكذلك التذلل أولى بك من التدهقن لأنَّ الكلفة والمؤونة في المتدهقنين، فأما التذليل والتمسكن فلا كلفة فيهما، ولا مؤونة عليهما، لأنَّهما الخلقة، وهما موجودان في الطبيعة، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

حقوق الأئمة

١٤ ـ حق الأئمة:

«فأما حق سائسك بالسلطان فأن تعلم أنَّك جُعلت له فتنة، وأنَّه ابتلي فيك، بما جعله الله له عليك من السلطان، وأن تخلص له في النصيحة، وأن لا تماحكه[(١)] وقد بُسطت يده عليك، فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه، وتذلل وتلطف لإعطائه من الرضى ما يكفه عنك، ولا يضر بدينك، وتستعين عليه في ذلك بالله، ولا تعازه[(٢)] ولا تعانده فإنَّك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك[(٣)] فعرضتها لمكروهه، وعرضته للهلكة فيك، وكنت خليقاً أن تكون معيناً له على نفسك، وشريكاً له في ما أتى إليك، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

١٥ ـ حق المعلم:

«وأما حق سائسك بالعلم فالتعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، والمعونة له على نفسك، في ما لا غنى بك عنه من العلم، بأن تفرغ له عقلك، وتحضره فهمك، وتزكي له قلبك، وتجلي له بصرك، بترك اللذَّات ونقص الشهوات، وأن تعلم أنَّك في ما ألقى إليك رسوله إلى من لقيك من أهل الجهل فلزمك حسن التأدية عنه إليهم، ولا تخنه في تأدية رسالته، والقيام بها عنه إذا تقلدتها، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله».

---

(١) لا تماحكه: أي لا تخاصمه والمماحكة: النقاش في ما لا طائل تحته.

(٢) لا تعازه: أي لا تعارضه في العزة.

(٣) عققت نفسك: أي أذيتها والعقوق: نكران الجميل.

١٦ ـ حق المالك:

«وأما حق سائسك بالملك فنحوٌ من سائسك بالسلطان إلاَّ أنَّ هذا يملك ما لا يملكه ذاك، تلزمك طاعته في ما دق وجلّ منك إلاَّ أن تخرجك من وجوب حق الله، ويحول بينك وبين حقه، وحقوق الخلق، فإذا قضيته رجعت إلى حقه، فتشاغلت به، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

حقوق الرّعية

١٧ ـ حقوق الرعية:

«فأما حقوق رعيتك بالسلطان فأن تعلم أنَّك إنَّما استرعيتهم بفضل قوَّتك عليهم، فإنَّه إنَّما أحلهم محل الرعية لك ضعفهم، وذلهم، فما أولى من كفاكه ضعفه وذله، حتى صيره لك رعية، وصير حكمك عليه نافذاً، لا يمتنع منك بعزة ولا قوَّة، ولا يستنصر في ما تعاظمه منك إلاَّ بالله، بالرحمة والحياطة[١]، والأناة، وما أولاك إذا عرفت ما أعطاك الله من فضله هذه العزة والقوَّة التي قهرت بها، أن تكون لله شاكراً، ومن شكر الله أعطاه فيما[٢] أنعم عليه، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

١٨ ـ حق المتعلمين:

«وأما حق رعيتك بالعلم فأن تعلم أنَّ الله قد جعلك لهم في ما آتاك من العلم، وولاك من خزانة الحكمة فإن أحسنت فيما ولاك الله من ذلك، وقمت به لهم مقام الخازن الشفيق الناصح لمولاه في عبده الصابر المحتسب الذي إذا رأى ذا حاجة أخرج له من الأموال التي في يديه، كنت راشداً، وكنت لذلك آملاً معتقداً، وإلاَّ كنت له خائناً، ولخلقه ظالماً، ولسلبه عزه [غيره خ ل] متعرِّضاً..».

١٩ ـ حق المملوكة (الزوجة):

«وأما حق رعيتك بملك النكاح فأن تعلم أنَّ الله جعلها سكناً ومستراحاً، وأنساً وواقية، وكذلك كل واحد منكما يجب أن يحمد الله على صاحبه، ويعلم أنَّ ذلك نعمة منه عليه، ووجب أن يحسن صحبة نعمة الله، ويكرمها ويرفق بها، وإن كان حقك عليها أغلظ، وطاعتك بها ألزم في ما أحببت وكرهت، ما لم تكن معصية، فإنَّ لها حق الرحمة، والمؤانسة، وموضع السكون إليها قضاء اللذَّة التي لا بدَّ من قضائها، وذلك عظيم، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

---

(١) الحماية والصيانة.
(٢) وردت هكذا، والأصح: ممَّا.

٢٠ ـ حق المملوك:

«وأما حق رعيتك بملك اليمين فأن تعلم أنَّه خلق ربك، ولحمك ودمك وأنَّك تملكه[١] لا أنت صنعته دون الله، ولا خلقت له سمعاً ولا بصراً، ولا أجريت له رزقاً، ولكن الله كفاك ذلك بمن سخره لك، وائتمنك عليه، واستودعك إيَّاه لتحفظه فيه، وتسير فيه بسيرته فتطعمه ممَّا تأكل، وتلبسه ممَّا تلبس، ولا تكلفه ما لا يطيق، فإن كرهته خرجت إلى الله منه، واستبدلت به، ولم تعذب خلق الله، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

حقوق الرحم

ووجه الإمام عليه السلام نظره صوب الأرحام، فأدلى بحقوقهم.

٢١ ـ حق الأمّ:

«فحق أُمّك أن تعلم أنَّها حملتك، حيث لا يحمل أحد أحداً، وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحد أحداً، وأنَّها وقتك بسمعها وبصرها، ويدها ورجلها وشعرها وبشرها، وجميع جوارحها، مستبشرة بذلك، فرحة موبلة[٢] محتملة لما فيه مكروهها، وألمها، وثقلها وغمها حتى دفعتها عنك يد القدرة، وأخرجتك إلى الأرض، فرضيت أن تشبع وتجوع هي، وتكسوك وتعرى، وترويك وتظمأ، وتظللك وتضحى، وتنعمك ببؤسها، وتلذذك بالنوم بأرقها، وكان بطنها لك وعاءً، وحجرها لك حواءً[٣] وثديها لك سقاءاً، ونفسها لك وقاءً، تباشر حر الدُّنيا وبردها لك، ودونك، فتشكرها على قدر ذلك، ولا تقدر عليه إلاَّ بعون الله وتوفيقه».

٢٢ ـ حق الأب:

«وأما حق أبيك فتعلم أنَّه أصلك، وأنَّك فرعه، وأنَّك لولاه لم تكن، فمهما رأيت في نفسك ما يعجبك فاعلم أنَّ أباك أصل النعمة عليك فيه، واحمد الله واشكره على قدر ذلك، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٢٣ ـ حق الولد:

«وأما حق ولدك فتعلم أنَّه منك، ومضاف إليك، في عاجل الدُّنيا بخيره وشرِّه،

---

(١) في رواية «وأنَّك لم تملكه».
(٢) موبلة: أي مواظبة ومستمرة.
(٣) الحواء: ما يحتوي الشيء ويحيط به.

وإنّك مسؤول عمّا وليته من حسن الأدب، والدلالة على ربّه، والمعونة على طاعته فيك وفي نفسه فمثاب على ذلك، ومعاقب، فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدُّنيا، المعذّر إلى ربّه في ما بينه وبينه بحسن القيام عليه، والأخذ له منه ولا قوّة إلاّ بالله».

إنَّ الولد إنَّما هو امتداد لحياة أبيه، واستمرار لوجوده، فهو بعضه بل هو كله يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لولده الإمام الزكي الحسن عليه السلام: «ووجدتك بعضي، بل وجدتك كلِّي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأنَّ الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي».

٢٤ ـ حق الأخ:

«وأما حق أخيك فتعلم أنَّه يدك التي تبسطها، وظهرك الذي تلتجىء إليه، وعزك الذي تعتمد عليه، وقوّتك التي تصول بها، فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله، ولا عدة للظلم بحق الله[1] ولا تدع نصرته على نفسه، ومعونته على عدوه، والحول بينه وبين شياطينه، وتأدية النصيحة إليه، والإقبال عليه في الله، فإن انقاد لربه، وأحسن الإجابة له، وإلاّ فليكن الله آثر عندك، وأكرم عليك منه».

حقوق النَّاس

٢٥ ـ حق المنعم بالولاء:

«وأما حق المنعم عليك بالولاء فتعلم أنَّه أنفق فيك ماله، وأخرجك من ذل الرق، ووحشته إلى عز الحرية، وأنسها، وأطلقك من أسر الملكة، وفك عنك حلق العبودية، وأوجدك رائحة العز، وأخرجك من سجن القهر، ودفع عنك العسر، وبسط لك لسان الإنصاف، وأباحك الدُّنيا، فملكك نفسك، وحل أسرك، وفرغك لعبادة ربك، واحتمل بذلك التقصير في ماله، فتعلم أنَّه أولى الخلق بك بعد أولي رحمك في حياتك وموتك، وأحق الخلق بنصرك ومعونتك، ومكافأتك في ذات الله فلا تؤثر عليه نفسك ما احتاج إليك».

٢٦ ـ حق المولى:

«وأما حق مولاك، الجارية عليه نعمتك، فأن تعلم أنَّ الله جعلك حامية عليه،

---

(١) في نسخة «للظلم لخلق الله».

وواقية وناصراً، ومعقلاً، وجعله لك وسيلة، وسبباً بينك وبينه، فبالحري أن يحجبك عن النار فيكون في ذلك ثواب منه في الآجل ويحكم لك بميراثه في العاجل إذا لم يكن له رحم مكافأة لما أنفقته من مالك عليه، وقمت به من حقه بعد إنفاق مالك، فإن لم تخفه خيف عليك أن لا يطيب لك ميراثه، ولا قوّة إلاّ بالله».

٢٧ ـ حق صاحب المعروف:

«وأما حق ذي المعروف عليك، فأن تشكره وتذكر معروفه، وتنشر له المقالة الحسنة، وتخلص له الدُّعاء فيما بينك وبين الله سبحانه، فإنَّك إذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سرّاً وعلانية، ثم إن أمكن مكافأته بالفعل كافأته وإلاَّ كنت مرصداً له، موطناً نفسك عليها[1]».

٢٨ ـ حق المؤذن:

«وأما حق المؤذن فأن تعلم أنَّه مذكِّرك بربك، وداعيك إلى حظك، وأفضل أعوانك على قضاء الفريضة التي افترضها الله عليك، فتشكره على ذلك شكرك للمحسن إليك، وإن كنت في بيتك متهماً لذلك، لم تكن لله في أمره متهماً، وعلمت أنَّه نعمة من الله عليك، ولا شك فيها فأحسن صحبة نعمة الله بحمد الله عليها على كلِّ حال، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٢٩ ـ حق إمام الجماعة:

«وأما حق إمامك في صلاتك فأن تعلم أنَّه قد تقلد السفارة في ما بينك وبين الله، والوفادة إلى ربك، وتكلَّم عنك، ولم تتكلَّم عنه، ودعا لك، ولم تدع له، وطلب فيك، ولم تطلب فيه، وكفاك هم المقام بين يدي الله، والمسألة له فيك، ولم تكفه ذلك، فإن كان في شيء من ذلك تقصير كان به دونك، وإن كان آثماً لم تكن شريكه فيه، ولم يكن لك عليه فضل، فوقى نفسك بنفسه، ووقى صلاتك بصلاته فتشكر له على ذلك، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣٠ ـ حق الجليس:

«وأما حق الجليس فأن تلين له كنفك[2] وتطيب له جانبك، وتنصفه في مجاراة اللفظ، ولا تغرق في نزع اللحظ إذا لحظت، وتقصد في اللفظ إلى إفهامه إذا نطقت،

---

(١) الضمير في «عليها»: عائد إلى المكافأة.

(٢) الكنف: الجانب.

وإن كنت الجليس إليه كنت في القيام عنه بالخيار، وإن كان الجالس إليك كان بالخيار، ولا تقوم إلاَّ بإذنه، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣١ ـ حق الجار:

«وأما حق الجار فحفظه غائباً، وكرامته شاهداً، ونصرته ومعونته في الحالين جميعاً، لا تتبع له عورة، ولا تبحث له عن سوءة لتعرفها، فإن عرفتها منه عن غير إرادة منك ولا تكلف، كنت لما علمت حصناً حصيناً، وستراً ستيراً، لو بحثت الألسنة عنه لم تتصل إليه لانطوائه عليه. لا تستمع عليه من حيث لا يعلم، لا تسلمه عنه شديدة، ولا تحسده عند نعمة، تقيل عثرته، وتغفر زلته، ولا تدخر حلمك عنه إذا جهل عليك، ولا تخرج أن تكون سلماً له، ترد عنه لسان الشتيمة، وتبطل فيه كيد حامل النصيحة، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣٢ ـ حق الصاحب:

«وأما حق الصاحب فأن تصحبه بالفضل ما وجدت إليه سبيلاً، وإلاَّ فلا أقل من الإنصاف، وأن تكرمه كما يكرمك، وتحفظه كما يحفظك، ولا يسبقك في ما بينك وبينه إلى مكرمة، فإن سبقك كافأته، ولا تقصر به عمَّا يستحق من المودة، تلزم نفسك نصيحته، وحياطته، ومعاضدته على طاعة ربه، ومعونته على نفسه في ما لا يهم به من معصية ربه. ثم تكون عليه رحمة، ولا تكون عليه عذاباً، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣٣ ـ حق الشريك:

«أما حق الشريك فإن غاب كفيته، وإن حضر ساويته، ولا تعزم على حكمك دون حكمه، ولا تعمل برأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه ماله، وتنفي عنه خيانته في ما عزَّ وهان، فإنَّه بلغنا «إنَّ يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا»، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣٤ ـ حق المال:

«وأما حق المال فأن لا تأخذه إلاَّ من حلِّه، ولا تنفقه إلاَّ في حلِّه، ولا تحرفه عن مواضعه، ولا تصرفه عن حقائقه، ولا تجعله إذا كان من الله إلاَّ إليه، وسبباً إلى الله، ولا تؤثر به على نفسك من لعلَّه لا يحمدك، وبالحري أن لا يحسن خلافته في تركتك، ولا يعمل فيه بطاعة ربك، فتكون معيناً له على ذلك، وبما أحدث في مالك، أحسن نظراً لنفسه، فيعمل بطاعة ربه، فيذهب بالغنيمة، وتبوء بالإثم والحسرة والندامة مع التبعة، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣٥ ـ حق الغريم[1]:

«وأما حق الغريم المطالب لك فإن كنت موسراً أوفيته وكفيته، ولم ترده، وتمطله، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مطل الغني ظلم» وإن كنت معسراً أرضيته بحسن القول، وطلبت منه طلباً جميلاً، ورددته عن نفسك رداً لطيفاً، ولم تجمع عليه ذهاب ماله، وسوء معاملته، فإنَّ ذلك لؤم، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣٦ ـ حق الخليط:

«وأما حق الخليط فأن لا تغره، ولا تغشه، ولا تكذبه، ولا تغفله، ولا تخدعه، ولا تعمل في انتقاصه، عمل العدو الذي لا يبقى على صاحبه، وإن اطمأن إليك استقصيت له على نفسك، وعلمت أنَّ غبن المسترسل رباً ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣٧ ـ حق المدعي:

«وأما حق الخصم المدعي عليك، فإن كان ما يدعي عليك حقاً لم تنفسخ في حجَّته، ولم تعمل في إبطال دعوته، وكنت خصم نفسك له، والحاكم عليها والشاهد له بحقه دون شهادة الشهود، فإنَّ ذلك حق الله عليك، وإن كان ما يدعيه باطلاً رفقت به، وورعته، وناشدته بدينه، وكسرت حدته عنك بذكر الله، وألقيت حشو الكلام ولغطه الذي لا يرد عليك عادية عدوك، بل تبوء بإثمه، وبه يشحذ عليك سيف عداوته لأنَّ لفظة السوء تبعث الشر، والخير مقمعة للشر، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣٨ ـ حق المدَّعى عليه:

«وأما حق الخصم المدَّعى عليه، فإن كان ما تدعيه حقاً أجملت في مقاولته بمخرج الدعوى، فإنَّ للدعوى غلظة في سمع المدَّعى عليه، وقصدت قصد حجَّتك بالرفق، وأمهل المهلة، وأبين البيان، وألطف اللطف، ولم تتشاغل عن حجَّتك بمنازعته بالقيل والقال فتذهب عنك حجَّتك، ولا يكون لك في ذلك دَرَكٌ، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٣٩ ـ حق المستشير:

«وأما حق المستشير، فإن حضرك له وجه رأي، جهدت له في النصيحة، وأشرت عليه بما تعلم أنَّك لو كنت مكانه عملت به، وذلك ليكن منك في رحمة ولين، فإنَّ اللين يؤنس الوحشة، وإنَّ الغلظ يوحش موضع الأنس، وإن لم يحضرك له رأي، وعرفت له

(١) الدائن إجمالاً، وتأتي أحياناً بمعنى المديون.

من تثق برأيه، وترضى به لنفسك دللته عليه، وأرشدته إليه لم تأله[1] خيراً، ولم تدخره نصحاً، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٤٠ ـ حق المشير:

«وأما حق المشير عليك فلا تتهمه في ما يوافقك عليه من رأيه إذا أشار عليك، فإنَّما هي الآراء، وتصرف الناس فيها واختلافهم، فكن عليه في رأيه بالخيار إذا اتهمت رأيه، فأما تهمته فلا تجوز لك، إذا كان عندك ممَّن يستحق المشاورة، ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه، وحسن وجه مشورته، فإذا وافقك حمدت الله، وقبلت ذلك من أخيك بالشكر، والارصاد بالمكافأة في مثلها إن فزع إليك، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٤١ ـ حق المستنصح:

«وأما حق المستنصح فإنَّ حقه أن تؤدِّي إليه النصيحة على الحق الذي ترى له أنَّه يحمل، ويخرج المخرج الذي يلين على مسامعه، وتكلمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإنَّ لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه، ويجتنبه، وليكن مذهبك الرحمة، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٤٢ ـ حق الناصح:

«وأما حق الناصح فأن تلين له جناحك، ثم تشرئب له قلبك[2]، وتفتح له سمعك، حتى تفهم عنه نصيحته، ثم تنظر فيها، فإن كان وفق فيها للصواب حمدت الله على ذلك، وقبلت منه، وعرفت له نصيحته، وإن لم يكن وفق لها فيها رحمته، ولم تتهمه، وعلمته أنَّه لم يألك نصحاً إلاَّ أنَّه أخطأ إلاَّ أن يكون عندك مستحقاً للتهمة، فلا تعبأ بشيء من أمره على كلِّ حال، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٤٣ ـ حق الكبير:

«وأما حق الكبير فإنَّ حقه توقير سنّه، وإجلال إسلامه إذا كان من أهل الفضل في الإسلام بتقديمه فيه، وترك مقابلته عند الخصام ولا تسبقه إلى طريق، ولا تؤمه في طريق[3] ولا تستجهله، وإن جهل عليك تحمَّلت وأكرمته بحق إسلامه مع سنه، فإنَّما حق السن بقدر الإسلام، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

---

(١) لم تأله: أي لم تقصر.
(٢) الأصح: بقلبك.
(٣) لا تؤمه في طريق: أي لا تتقدمه في الطريق.

٤٤ ـ حق الصغير:

«وأما حق الصغير فرحمته، وتثقيفه، وتعليمه، والعفو عنه، والستر عليه، والرفق به، والمعونة له، والستر على جرائر حداثته، فإنَّه سبب للتوبة، والمداراة، وترك مماحكته، فإنَّ ذلك أدنى لرشده».

٤٥ ـ حق السائل:

«وأما حق السائل فإعطاؤه إذا تهيأت صدقة، وقدرت على سد حاجته، والدُّعاء له في ما نزل به، والمعاونة له على طلبته، وإن شككت في صدقه، وسبقت إليه التهمة، ولم تعزم على ذلك لم تأمن من أن يكون من كيد الشيطان أراد أن يصدك عن حظك ويحول بينك وبين التقرُّب إلى ربك، وتركته بستره، ورددته رداً جميلاً، وإن غلبت نفسك في أمره، وأعطيته على ما عرض في نفسك منه، فإنَّ ذلك من عزم الأمور».

٤٦ ـ حق المسؤول:

«وأما حق المسؤول فحقه إن أُعطي قبل منه ما أعطى بالشكر له، والمعرفة لفضله، وطلب وجه العذر في منعه، وأحسن به الظن واعلم أنَّه إن منع فما له منع، وإنَّ ليس التثريب في ماله، وإن كان ظالماً فإنَّ الإنسان لظلوم كفَّار».

٤٧ ـ حق السار:

«وأما حق من سرك الله به وعلى يديه، فإن كان تعمدها لك حمدت الله أولاً ثم شكرته على ذلك بقدره في موضع الجزاء، وكافأته على فضل الابتداء، وأرصدت له المكافأة، وإن لم يكن تعمدها حمدت الله وشكرته، وعلمت أنَّه منه، توحدك[1] بها، وأحببت هذا إذا كان سبباً من أسباب نعم الله عليك، وترجو له بعد ذلك خيراً، فإنَّ أسباب النعم بركة حيث ما كانت، وإن كان لم يعتمد، ولا قوَّة إلاَّ بالله».

٤٨ ـ حق من أساء القضاء:

«وأما حق من ساءك القضاء على يديه بقول أو فعل، فإن كان تعمدها، كان العفو أولى بك، لما فيه من القمع وحسن الأدب، مع كثير أمثاله من الخلق فإنَّ الله يقول: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2] وقال عزَّ

---

(١) اختصك.

(٢) سورة الشورى: آية ٤١.

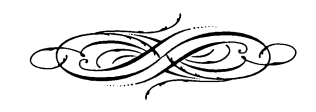
وجلّ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[1] هذا في العمد، فإن لم يكن عمداً لم تظلمه بتعمد الانتصار منه، فتكون قد كافأته في تعمد على خطأ، ورفقت به، ورددته بألطف ما تقدر عليه، ولا قوّة إلاّ بالله».

٤٩ ـ حق أهل الملة:

«وأما حق أهل ملتك عامة فإضمار السلامة، ونشر جناح الرحمة، والرفق بمسيئهم وتألفهم، واستصلاحهم، وشكر محسنهم إلى نفسه وإليك، فإنَّ إحسانه إلى نفسه إحسانٌ إليك، إذا كف عنك أذاه، وكفاك مؤونته، وحبس عنك نفسه، فعمّهم جميعاً بدعوتك، وانصرهم جميعاً بنصرتك، وأنزلهم جميعاً منازلهم، كبيرهم بمنزلة الوالد، وصغيرهم بمنزلة الولد، وأوسطهم بمنزلة الأخ، فمن أتاك تعاهدته بلطف ورحمة، وصل أخاك بما يجب للأخ على أخيه».

٥٠ ـ حق أهل الذمة:

«وأما حق أهل الذمة فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله، وتفي بما جعل الله لهم من ذمته وعهده، وتكلهم إليه في ما طلبوا من أنفسهم، وأجبروا عليه، وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك في ما جرى بينك وبينهم من معاملة، وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله، والوفاء بعهده، وعهد رسول الله ﷺ حائل فإنَّه بلغنا أنَّه قال: «من ظلم معاهداً كنت خصمه» فاتق الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله...».



(١) سورة النحل: آية ١٢٦.

مدرسته.. تلاميذه وأصحابه

وأصيب العالم الإسلامي في عصر الإمام عليه السلام بركود فكري، وتدهور خطير في حياته العلمية والثقافية، فقد عمدت الحكومة الأموية بشكل رسمي إلى محاربة العلم وإماتة الوعي حتى يستمر لها البقاء طويلاً على كرسي الحكم، ونهب ثروات الأُمَّة والتحكم في مصيرها.

من المؤكد أنَّه لم يكن في عصر الإمام أي ظل للعلوم الإسلامية وغيرها من مكونات العقل البشري، ومنمياته، وقد رأى الإمام زين العابدين عليه السلام ذبول الحياة الفكرية، وما مُنيت به الأُمَّة من الجهل فانبرى إلى تأسيس مدرسته الكبرى التي انضم إليها جمهرة كبيرة من رجال العلم والتشريع الذين سنتحدَّث عن تراجمهم.

وعلى أيِّ حال فلم تعرف الأُمَّة ـ في ذلك العصر ـ عائدة أعظم، ولا أنفع من عائدة الإمام زين العابدين عليه السلام عليها، وذلك بما أسس في ربوعها من مدرسته العلمية، وبما فتح لها من آفاق الفكر والعلم والعرفان...

تفرغه لنشر العلم:

لقد رأى الإمام العظيم أنَّ في نشر العلم واجباً رسالياً، ومسؤولية إسلامية فاتجه إليه، كما وجد فيه سلواناً لنفسه التي كانت مترعة بالهموم والآلام، يقول الشيخ أبو زهرة: «انصرف ـ أي الإمام ـ إلى العلم والدراسة والفحص لأنَّه وجد في ذلك غذاء قلبه، وسلوان نفسه، وصرفا لها عن الهم الدائم، والألم الواصب، ولذلك طلب الحديث واتجه إليه»[1].

إشادته بفضل العلم:

كان عليه السلام يشيد بفضل العلم، ويحثُّ على طلبه، وقد قال: «لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج، وخوض اللجج إنَّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى

(١) الإمام زيد: ص٢٤.

دانيال إنَّ أمقت عبد إليَّ الجاهل، المستخف بحق أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وإنَّ أحب عبيدي إليَّ، التقي، الطالب للثواب الجزيل اللازم للعلماء، التابع للحكماء. . .»[١].

تشجيعه للحركة العلمية:

وقام الإمام زين العابدين عليه السلام بدور مهم بتشجيع الحركة العلمية، فكان على ما هو عليه من الجلالة وسمو الذات يجلس في حلقة زيد بن أسلم، فأنكر عليه نافع بن جبير، وقال له: غفر الله لك، أنت سيِّد الناس، تأتي حتى تجلس مع هذا العبد؟!!

فأجابه الإمام: «إنَّ العلم يُبْتَغَى، ويؤتى، ويطلب من حيث كان. .»[٢].

تكريمه لطلاب العلوم:

وكان الإمام عليه السلام يحتفي بطلبة العلوم، ويكرمهم، ويرفع منزلتهم، ويقول المؤرخون: إذا جاء طالب علم رحب به، وقال له: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، وقال الإمام أبو جعفر عليه السلام كان أبي إذا نظر إلى الشباب الذين يطلبون العلم أدناهم إليه، وقال: مرحباً بكم أنتم ودائع العلم، ويوشك إذا أنتم صغار قوم أن تكونوا كبار آخرين[٣].

آداب المتعلمين:

ووضع الإمام عليه السلام آداباً للمتعلمين كان منها قوله: «من ضحك ضحكة مجَّ من العلم مجة»[٤] واستدل ابن جماعة بهذا الحديث على عدم جواز ضحك التلميذ بين يدي أستاذه تأدباً وتكريماً له.

ثواب المتعلم:

قال عليه السلام: «طالب العلم إذا خرج من منزله لم يضع رجلاً على رطب، ولا يابس من الأرض إلاَّ سبَّحت له إلى الأرضين السابعة»[٥].

---

(١) أُصول الكافي: ١/ ٣٥؛ المحجَّة البيضاء: ١/ ٢٦.
(٢) تاريخ دمشق: ٣٦/ ١٤٦.
(٣) الدر النظيم: ص١٧٣.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨.
(٥) الإمام زين العابدين: ص٢٣.

مجانية التعليم:

وقال عليه السلام في ذلك: «من كتم علماً أو أخذ عليه أجراً رفداً فلا ينفعه أبداً. . .»[١].

فقد روى إسحاق بن عمار قال: سألت زين العابدين عليه السلام أنَّ لنا جاراً يكتب ـ أي يعلم الأطفال القراءة والكتابة ـ فقال له: مره إذا دُفع إليه الغلام أن يقول لأهله: إنَّما أعلمه الكتاب والحساب، واتجر بتعليم القرآن[٢] حتى يطيب له كسبه[٣].

تواضع المعلم:

فقد قال عليه السلام لبعض المعلمين:

«فإنَّ أحسنت في تعليم الناس ولم تتجبر عليهم زادك الله من فضله، وإن أنت منعت علمك، وأخرقت بهم عند طلبهم العلم منك كان حقاً على الله عزَّ وجلَّ أن يسلبك العلم وبهاءه، ويسقط من القلوب محلك»[٤].

مركز مدرسته:

واتخذ الإمام عليه السلام الجامع النبوي مركزاً لمدرسته، ومعهداً له، فكان في بهوه يلقي محاضراته وبحوثه على العلماء والفقهاء، وقد تناولت علم الفقه، والتفسير، والحديث، والفلسفة، وعلم الكلام، وقواعد السلوك والأخلاق، يقول المؤرخون: إنَّه كان في كل جمعة يلقي خطاباً عاماً على الناس يعظهم فيه ويزهدهم في الدُّنيا، ويرغبهم في الآخرة، وكان الناس يحفظون كلامه ويكتبونه[٥].

يقول عبد الله بن الحسن بن الحسن إنَّ أُمِّي فاطمة بنت الحسين كانت تأمرني أن أجلس إلى خالي علي بن الحسين، فما جلست إليه قط إلاَّ قمت بخير قد أفدته إمَّا خشية لله أو علم قد استفدته منه[٦].

---

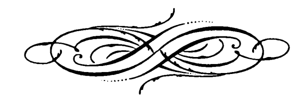
(١) الحلية: ٣/ ١٤٠.
(٢) هكذا في الأصل، ولعلَّ الصحيح ولا اتجر بتعليم القرآن. وإن ثبت الأصل، فإنَّ الإتجار يكون ـ والحالة هذه ـ، مع الله.
(٣) الاستبصار: ٣/ ٦٦.
(٤) مكارم الأخلاق: ص١٤٣.
(٥) روضة الكافي مخطوط.
(٦) أعيان الشيعة: ٤/ ٣٤٠.

احتفاف العلماء به:

واحتف العلماء الفقهاء والقرَّاء بالإمام عليه السلام لا يفارقونه في حضر أو سفر فكان إذا أراد السفر إلى بيت الله الحرام رافقه زهاء ألف عالم وقارىء[1] وهم يسجلون فتاواه وما يلقيه عليهم من العلوم وغرر الحكم والآداب.

تلاميذه وأصحابه:

وتخرج من مدرسة الإمام مجموعة كبيرة من كبار العلماء والفقهاء من الذين نشروا العلم والعرفان في العالم الإسلامي.



(١) البحار.

ملوك عصره

❖ معاوية:

وأول الملوك الذين عاصرهم الإمام زين العابدين عليه السلام هو معاوية بن أبي سفيان، فقد كان الإمام في أيام حكمه في غضارة العمر وريعان الشباب فشاهد تلك السياسة السوداء التي انتهجها معاوية تجاه أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، والتي كان يرمي من ورائها إلى استئصال العترة الطاهرة، والتصفية الجسدية لشيعتهم والمؤمنين بحقهم، بالإضافة إلى ما نشره من الخوف والإرهاب في جميع أنحاء العالم الإسلام لإرغام المسلمين على الذل والعبودية.

❖ مروان بن الحكم:

يا لمهزلة الزمن! يا لسخرية الأقدار!! أمثل مروان بن الحكم الوزغ ابن الوزغ طريد رسول الله صلى الله عليه وآله يكون خليفة على المسلمين، ويسند إليه هذا المنصب الخطير؟!! إن تردي الأوضاع الفكرية، والاجتماعية وندرة الوعي الديني، هو الذي جر على المسلمين هذه المآسي والخطوب، وصير هذا الباغي حاكماً عليهم.

لقد كان مروان عنصراً مدمِّراً من عناصر الباطل والنفاق، وهو صاحب المواقف المخزية، والمعادية للإسلام، وكان ـ فيما أجمع عليه المؤرخون ـ ماكراً خبيثاً، ومبغوضاً عند جميع المسلمين، حتى لقبوه بخيط باطل.

وفي أيام حكومة مروان اختفى الشيعة خوفاً على أرواحهم وأموالهم يقول المسعودي: فاستخفى المؤمنون، وكانت الشيعة تطلب في أقطار الأرض تهدر دماؤهم وأموالهم، وأظهروا لعن أمير المؤمنين عليه السلام على منابرهم[1].

وكان مروان ولعاً بسب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فكان يسبه على المنابر في كل

---

(١) إثبات الوصية: ص١٦٨.

جمعة حينما كان والياً على يثرب[١] وقد أعرب من السبب الذي دعاه إلى ذلك حينما التقى بالإمام زين العابدين عليه السلام فبادر مروان قائلاً: «ما كان في القوم أدفعَ عن صاحبنا ـ يعني عثمان ـ، من صاحبكم، ـ يعني علياً ـ».

فقال الإمام: «فما بالكم تسبونه على المنابر؟..».

وبادر مروان قائلاً:

«إنَّه لا يستقيم لنا الأمر إلاَّ بذلك..»[٢].

❖ عبد الملك بن مروان:

وآلت الخلافة الإسلامية التي هي ظل الله في الأرض إلى جبَّار عنيد من جبابرة بني أمية هو عبد الملك بن مروان، وكان قد بويع له في حياة أبيه، فلما هلك أبوه جددت له البيعة بدمشق ومصر[٣] ويقول الرواة: إنَّه كان قبل أن يلي الخلافة يظهر النسك والعبادة وذلك لإغراء العامة، وتمهيد أرضية لحكومته، ولما بُشر بالملك كان بيده المصحف الكريم فأطبقه، وقال: هذا آخر العهد بك، أو قال: هذا فراق بيني وبينك[٤].

وصبَّ عبد الملك على المسلمين وابلاً من العذاب الأليم، وأحال حياتهم إلى جحيم لا يُطاق فقد سلَّط عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي الذي هو أقذر إرهابي عرفته البشرية في جميع مراحل تاريخها.

لقد سفك هذا الطاغية الجبَّار دماء المسلمين بغير حق، يقول الدَّميري: «كان الحجاج لا يصبر عن سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره»[٥].

أما شؤون الإمام عليه السلام مع عبد الملك بن مروان فهي كما يلي:

كان عبد الملك يطوف بالبيت الحرام، والإمام عليه السلام يطوف أيضاً، وقد أحيط بهالة من الإكبار من قبل الحجاج، فسأل عنه عبد الملك فقيل له: هذا علي بن الحسين فاستدعاه، فقال له:

«يا علي بن الحسين، إنِّي لست قاتل أبيك، فما يمنعك من المسير إليَّ؟».

---

(١) حياة الإمام الباقر: ٢/١٦.
(٢) نهج البلاغة: ١٣/٢٢٠.
(٣) تاريخ ابن كثير: ٨/٢٦٠.
(٤) تاريخ ابن كثير: ٨/٢٦٠.
(٥) حياة الحيوان: ١/١٦٧.

فلم يعن به الإمام وأجابه: «إنَّ قاتل أبي أفسد بما فعله، دُنياه عليه، وأفسد أبي عليه آخرته، فإن أحببت أن تكون هو فكن. . .».

وانحط كبرياء عبد الملك، وراح يقول: «كلاً ولكن سر إلينا لتنال من دُنيانا. . .».

وامتنع الإمام عليه السلام من إجابته[١].

وبلغ عبد الملك أنَّ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله عند الإمام زين العابدين عليه السلام، فبعث يستوهبه، ويسأله الحاجة، فامتنع الإمام من إجابته فكتب إليه عبد الملك يتهدَّده، ويتوعَّده بقطع رزقه من بيت المال، فأجابه الإمام عليه السلام: «أما بعد: فإنَّ الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون، والرزق من حيث لا يحتسبون، وقال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فانظر أينا أولى بهذه الآية والسلام. .»[٢].

وكان لعبد الملك عين بالمدينة يكتب إليه بجميع ما يحدث فيها، وقد أعتق الإمام عليه السلام جارية ثم تزوج بها، فكتب إليه بذلك، وقد استغلَّ عبد الملك هذه الحادثة فأنكر على الإمام ذلك، وكتب له: «أما بعد: فقد بلغني تزويجك مولاتك، وقد علمت أنَّه كان أكفائك من قريش، من تمجد به في الصهر، وتستنجبه في الولد، فلا لنفسك نظرت، ولا على ولدك أبقيت والسلام».

وتحمل هذه الرسالة روح الجاهلية وتقاليدها التي تحرم على العربي أن يتزوج بغير العربية، فأجابه الإمام بمنطق الإسلام بالرسالة التالية: «أما بعد: فقد بلغني كتابك تعنفني بتزويجي مولاتي، وتزعم أنَّه قد كان في نساء قريش من أتمجد به في الصهر، واستنجبه في الولد، وأنَّه ليس فوق رسول الله صلى الله عليه وآله مرتقى في مجد، ولا مستزاد في كرم، وإنَّما كانت ملك يميني خرجت منِّي بأمر أراده الله عزَّ وجلَّ، التمست فيه ثوابه، ثم ارتجعتها على سنَّته، ومن كان زكياً في دين الله فليس يخل به شيء من أمره، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة وتمم به النقيصة، وأذهب اللوم، فلا لوم على امريء مسلم إنَّما اللوم لوم الجاهلية والسلام»[٣].

ويقول المؤرخون: إنَّ عبد الملك لما قرأ رسالة الإمام عليه السلام بهر بها وقال: «إنَّ علي بن الحسين يتشرف من حيث يتضعِ الناس. .»[٤].

---

(١) إثبات الهداة: ٥/ ٢٢٩.
(٢) أعيان الشيعة: ٤/ ق٢/ ٩٨٠.
(٣) أعيان الشيعة: ٤/ ق٢/ ٤٧٩.
(٤) العقد الفريد: ٧/ ١٢١.

وبعث الإمام عليه السلام رسالة إلى عبد الملك دعاه فيها إلى تقوى الله، ولزوم طاعته، وهذا نصها:

«أما بعد: فإنَّك أعز ما تكون بالله، وأحوج ما تكون إليه، فإن عززت به فاعف له، فإنَّك به تقدر، وإليه ترجع، والسلام»[١].

وشاع علم الإمام عليه السلام وزهده وورعه وتقواه في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وتحدَّثت الأندية بفضائله ومآثره، ونقل ذلك إلى عبد الملك فانتفخ سحره، وتميَّز من الغيظ والحقد، فأمر بإلقاء القبض عليه، وحمله إلى دمشق، وقد جرت منقبة له في سفره، فقد روى الزهري لنا ذلك قال: شهدت علي بن الحسين عليه السلام يوم حمله عبد الملك بن مروان من المدينة إلى الشام، فأثقله حديداً، ووكل به حفاظاً في عدة وجمع، فاستأذنتهم في التسليم عليه، والتوديع له، فأذنو إليَّ فدخلت عليه وهو في قبة، والقيود في رجليه، والغل في يديه[٢] فبكيت، وقلت له: وددت أنِّي مكانك، وأنت سالم، فقال: يا زهري أتظن أنَّ هذا ممَّا ترى عليَّ وفي عنقي يكربني؟ أما لو شئت ما كان، فإنَّه وإن بلغ بك وبأمثالك ليذكرني عذاب الله ثم أخرج يديه من الغل، ورجليه من القيد، ثم قال: يا زهري لاجزت معهم على ذا منزلتين من المدينة، قال: فما لبثنا إلاَّ أربع ليال حتى قدم الموكلون به، يطلبونه بالمدينة فما وجدوه، فكنت في من سألهم عنه، فقال لي بعضهم: إنَّا لنراه متبوعاً، أنَّه لنازل، ونحن حوله لا ننام نرصده، إذ أصبحنا فما وجدنا بين محمله إلاَّ الحديد، قال الزهري: فقدمت بعد ذلك على عبد الملك فسألني عن علي بن الحسين فأخبرته، فقال لي: إنَّه قد جاء في يوم فقده الأعوان، فدخل علي، فقال: ما أنا وأنت؟ فقلت: أقم عندي، فقال: لا أحب، ثم خرج، فوالله فقد امتلأ ثوبي منه خيفة، قال الزهري: فقلت: يا أمير المؤمنين ليس علي بن الحسين حيث تظن أنَّه مشغول بنفسه، فقال: حبذا شغل مثله فنعم ما شغل به[٣].

❖ الوليد بن عبد الملك:

وتقلَّد الوليد أزمة الملك في اليوم الذي توفي أبوه عبد الملك، ووصفه المسعودي بأنَّه كان جبَّاراً عنيداً، ظلوماً غشوماً[٤].

---

(١) البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي: ص٢١٧.

(٢) وفي رواية: والغل في عنقه.

(٣) كفاية الطالب: ص٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٤) مروج الذهب.

وفي عهد هذا الطاغية الجبَّار استشهد العالم الإسلامي الكبير سعيد بن جبير على يد الجلاد الممسوخ الحجاج بن يوسف، وكان قتله من الأحداث الجسام التي رُوع بها المسلمون.

وولى هذا الطاغية على يثرب صالح بن عبد الله المري، وكتب إليه بإخراج العلوي الحسن بن الحسن من السجن، وضربه خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد ليضربه أمام الناس، ولما سمع الإمام زين العابدين عليه السلام بذلك خف إليه مسرعاً ودنا منه، وقال له: «يا ابن العم ادع بدعاء الكرب يفرج الله عنك..».

قال: «ما هو؟..».

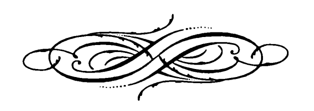
قال عليه السلام: قل: «لا إلّه إلاَّ الله الحليم الكريم، لا إلّه إلاَّ الله العلي العظيم، سبحان الله ربّ السموات السبع، ورب العرش العظيم،والحمد لله ربّ العالمين».

وجعل الحسن يردِّد هذا الدُّعاء، ويدعو الله بإخلاص، فصرف الله عنه، فلم ينفذ الوالي ما أمر به، وأشفق عليه، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بشأنه، فأمره بالإفراج عنه[1].

ويقول المؤرخون: إنَّ الوليد كان من أحقد الناس على الإمام زين العابدين عليه السلام، وكان يرى أنَّه لا يتم له الملك والسلطان مع وجود الإمام عليه السلام فدسَّ له السم[2] وسنذكر ذلك في نهاية المطاف.

وعلى أيٍّ حال فإنَّ الوليد هو آخر من عاصرهم الإمام من ملوك الأمويين.

أما موقف الإمام عليه السلام مع ملوك عصره فكان يتسم بالكراهية والبغض لهم وذلك لفساد أعمالهم، وسوء سياستهم، وانحرافهم عن الطريق القويم، ولكنَّه في نفس الوقت كان يأمل عزة الإسلام، وانتصار جيوشه على جيوش الكفر والإلحاد لترتفع راية الله عالية خفَّاقة في الأرض.



(١) الاتحاف بحب الأشراف: ص٧٦.
(٢) الدر النظيم: ص١٨٢.

عصر الإمام

ليس هناك عصر من العصور الإسلامية ـ فيما أحسب ـ قد مُني بالاضطراب السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، مثل عصر الإمام زين العابدين عليه السلام. فقد ارتطم بالفتن، والأحداث الجسام ممَّا جعله يفقد روح الاستقرار والطمأنينة ويعيش في دوامة من القلق والاضطراب، كما كان كل فرد من أبناء المجتمع يعيش على أعصابه تساوره الهموم والآلام، وقد فقد الأمل في الحياة الكريمة فقد أمعن الحكم الأموي في نشر الظلم والاضطهاد، وإرغام الناس على ما يكرهون.

الحياة السياسية

أما الحياة السياسية في عصر الإمام عليه السلام فقد كانت قلقة ومضطربة كأشد ما يكون القلق والاضطراب، فقد خيَّم الذعر والخوف على الناس، وفقدوا جميع ألوان الأمن والاستقرار، ممَّا سبَّب تفكُّك المجتمع، وشيوع الأزمات السياسية الحادة.

❖ طبيعة الحكم الأموي:

أما الحكم الأموي فقد سبَّب للمسلمين الكثير من المشاكل والخطوب، وأخلد لهم الفتن والمصاعب، وألقاهم في شر عظيم، أما طبيعة ذلك الحكم والمظاهر البارزة فيه، فهي:

الاستبداد:

لقد استبدَّ الأمويون في حكمهم الشعوب الإسلامية، فلم يكن هناك قانون تسير عليه الدولة، وإنَّما كان هناك حكم تسيره عواطف الملوك، وأهواء وزرائهم، ورغبات حاشيتهم.

الجبروت:

وظاهرة أخرى من المظاهر البارزة في الحكم الأموي، وهي الجبروت والكبرياء

عند الحكّام، فقد استعلوا على الرعية، واحتقروا الضعفاء، واستهانوا بالفقراء، وكانوا يرون أنَّهم وحدهم مصادر القوَّة في البلاد لا الشعب، وأنَّهم الذين يضعون من شاؤوا، ويرفعون من شاؤوا.

إقصاء الحريات العامة:

وأقصيت الحريات العامة في العهود الأموية من الشعوب الإسلامية، فلم يعد لها أي ظل على واقع الحياة، خصوصاً حرية الفكر والرأي، فلم يكن باستطاعة أي فرد من المواطنين أن يدلي بفكرته، وبما يدين به.

إقصاء الإسلام:

وتنكر الأمويون للإسلام، فأقصوا جميع نظمه ومبادئه عن المسلمين، ولم يعد لأحكام القرآن أي وجود في دوائرهم وأجهزتهم، يقول نيكلسون: «كان الأمويون طغاة مستبدين لانتهاكهم قوانين الإسلام وشرائعه، وامتهانهم لمثله العليا، ووطئها بأقدامهم..»[1].

نشر الظلم:

وانتشر الظلم والجور في كافة أنحاء البلاد الإسلامية، وشاع الإرهاب والاضطهاد، وكان الناس يقولون في أيام زياد ابن أبيه: «أنجُ سعد فقد هلك سعيد».

سياسة التفريق والاختلاف:

وتبنت السياسة الأموية تفريق المجتمع، وخلق الصراع والتناحر ما بين المسلمين، وذلك بإجاد النعرات العنصرية والقبلية بين الشعوب الإسلامية.

❖ الثورات الداخلية:

وتفجرت السياسة الأموية ببركان مدمِّر من الظلم والجور عصف بأمن الأُمَّة واستقرارها ورخائها، وما بين هذه الثورات ما يلي:

ثورة الإمام الحسين عليه السلام:

وهي من أهم الثورات العالمية التي غيَّرت مجرى التاريخ، وهي لا تزال حية،

---

(١) الإمام الحسين عليه السلام: ص٦٤.

تفيض بالعطاء لجميع الأُمم والشعوب لنيل حريتها وكرامتها واستقلالها، وقد ألهبت عواطف الأحرار والمصلحين وألهمتهم دروس التضحية في الدفاع عن كرامة الأُمَّة، وتحقيق أهدافها، وقضاياها المصيرية.

ثورة المدينة:

وهي من الثورات الرهيبة التي كوت قلوب المسلمين، وهزَّت مشاعرهم وعواطفهم، وتأتي في الأهمية بعد كارثة كربلاء التي أخلدت المآسي للمسلمين...

طرد حاكم المدينة:

وأجمع رأي الثوار على طرد الحاكم العام في يثرب، وسائر بني أمية، وتشكيل حكومة موقتة يديرها أعضاء الثورة، وكان الحاكم عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وهو فتى مغرور، لم تحنكه التجارب، ولم تهذبه الأيام وجعل الناس يرمونه، ويرمون الأمويين بالحجارة(١).

التجاء مروان إلى الإمام:

وفزع مروان كأشد ما يكون الفزع من الثورة لأنَّه كان عنصراً مدمِّراً من عناصر التخريب والفساد، وقد خاف على نسائه من الاعتداء عليهن من قبل الثوار، فالتجأ إلى عبد الله بن عمر طالباً منه أن يحميهن، فرفض ابن عمر إجابته، والتاع مروان، واندفع يقول: قبح الله امرأً كهذا(٢)، وخف مسرعاً إلى الإمام زين العابدين عليه السلام الذي هو من معدن الرحمة والرأفة، فعرض عليه الأمر فأجابه عليه السلام إلى ذلك، فضم نساء الأمويين إلى حرمه، وقد خرج بهم إلى ينبع، ثم إنَّ عائشة بنت عثمان زوجة مروان خرجت إلى الطائف، فمرت بالإمام زين العابدين عليه السلام فخاف عليها، فأرسل معها ولده عبد الله محافظاً عليها، وبقي معها حتى انتهت الواقعة، ويقول المؤرخون: إنَّ الإمام عليه السلام قد كفل أربعمائة امرأة مع أولادهن وحشمهن، وضمهن إلى عياله، إلى أن خرج مسلم بن عقبة من المدينة وأقسمت واحدة منهن أنَّها ما رأت في دار أبيها من الراحة والعيش الهنيء مثل ما رأته في دار الإمام علي بن الحسين(٣).

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ٤٧.
(٢) الأغاني: ١/ ٢٤.
(٣) الإمام زين العابدين لأحمد فهمي: ص٦٤.

انتداب مسلم بن عقبة للحرب:

وانتهت الأنباء إلى دمشق بخلع أهالي يثرب لحكومة يزيد، وطردهم لعامله، فاضطرب الطاغية يزيد، وخاف من انتشار الثورة وامتدادها إلى بقية المناطق الإسلامية، فانتدب أخطر مجرم إرهابي، وهو مسلم بن عقبة لحرب أهالي مدينة النبي صلى الله عليه وآله وقد وصفه الفخري بأنَّه أحد جبابرة العرب وأنّه كان شيخاً كبيراً لما ندبه يزيد لحرب، ويحدِّثنا صاحب (العقد) عن شكله بأنَّه كان أعور أفغر، ثائر الرأس، كأنَّما يقلع رجليه من وحل إذا مشى ويقول المستشرق دوزي: إنَّه كان لا يؤمن بالله، ولا بالإسلام، وكان مريضاً، فلما أسند إليه يزيد قيادة الجيش غره السرور، وقد قال له يزيد: إن شئت أن أعفيك، فإنِّي أراك مدنفاً منهوكاً، فقال له الخبيث: نشدتك الله أن لا تحرمني أجراً ساقه الله[1].

وقد زوده الطاغية يزيد بهذه الوصية الجهنمية التي تحمل الكفر والإلحاد فقد قال له: «إذا قدمت المدينة، فمن عاقك عن دخولها أو نصب لك حرباً فالسيف، السيف، ولا تبقي عليهم، وأنهبها عليهم ثلاثاً، وأجهز على جريحهم، واقتل مدبرهم»[2].

مآسٍ وفظائع:

واقترف الإرهابي المجرم مسلم بن عقبة جميع الموبقات والجرائم، وقد هتك حرمة مدينة النبي صلى الله عليه وآله فكان يسميها فتنة[3] والرسول صلى الله عليه وآله سمَّاها طيبة، وقد أباحها لجيشه الآثم فراح يمعن في قتل الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء، وهتك الأعراض.

الإمام مع مسلم بن عقبة:

وأوجس الإمام زين العابدين عليه السلام خيفة من هذا المجرم الدنس، فقد رأى حرمة المدينة المنورة قد انتهكت، ودماء المسلمين أريقت بغير حق، وكان عليه السلام يدعو بهذا الدُّعاء: «ربّ كم من نعمة أنعمت بها عليَّ، قلَّ لك عندها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قلَّ عند بلائي بها صبري، فلا تخذلني يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً، يا ذا النعماء التي لا تحصى عدداً صلِّ على محمد وآل محمد، وادفع عنِّي شره، فإنِّي أدرأ بك في نحره، وأستعيذ بك من شره..»[4].

---

(١) معاوية بن أبي سفيان لعمر أبو النصر: ص٢٦٦.
(٢) التنبيه والأشراف للمسعودي: ص٢٦٣.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ١٧.
(٤) معاوية بن أبي سفيان: ص٢٦٥ ـ ٢٦٦.

ولما غزا هذا المجرم الخبيث مدينة النبي ﷺ كان الإمام عليه السلام قد فزع إلى قبر جده رسول الله ﷺ مستجيراً به، فألقي عليه القبض، وجيء به إلى الطاغية، فلما رآه ارتعدت فرائصه من هيبته، وقام إليه تكريماً وقال له: سلني حوائجك فأخذ يتشفع بمن حكم عليه بالإعدام فأجابه إلى ذلك، ولما انصرف عنه قيل للإمام رأيناك تحر شفتيك فما الذي قلت؟ قال: قلت:

«اللَّهمَّ ربّ السموات السبع، وما أظللن، والأرضين السبع، وما أقللن، ورب العرش العظيم، ربّ محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شره، وأدرأ بك في نحره، أسألك أن تؤتيني خيره، وتكفيني شره».

وقيل للطاغية السفاح رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتى إليك رفعت منزلته؟ فقال: ما كان ذلك لرأي منِّي، ولكن قد مليء قلبي منه رعباً[1] ولم يبايع الإمام ليزيد كما لم يبايع علي بن عبد الله بن العباس فقد انبرى الحصين بن نمير، فقال: لا يبايع ابن أختنا إلاَّ ما بايع عليه علي بن الحسين. على أنَّه ابن عم أمير المؤمنين، وإلاَّ فالحرب بيننا، فأعفي عن البيعة.

ثورة التوابين:

وندمت الشيعة في الكوفة أشد الندم وأقساه على تركهم نصرة الإمام الحسين عليه السلام، فهم الذين كاتبوه، وتضرعوا إليه لينقذهم من جور الأمويين وظلمهم، حتى إذا استجاب لهم تركوه نهباً للسيوف والرماح ولم ينبروا لمناصرته والذب عنه.

لقد أخذت الشيعة تتلاوم فيما بينها، وقد شعرت بهول الفاجعة وفداحة الرزء، فأخذوا يفكِّرون في وسيلة عملية يكفِّرون بها عن ذنبهم العظيم، فلم يجدوا وسيلة تمحو عنهم الذنب سوى الاندفاع إلى الثورة، والمطالبة بدم الإمام الحسين عليه السلام، وقد رفعوا شعارهم المعروف: «يا لثارات الحسين..».

ثورة المختار:

من ألمع الشخصيات العربية والإسلامية التي عرفها التاريخ هو المختار بن يوسف الثقفي الفارس العربي الذي استطاع أن يتغلب على مجريات الأحداث، ويفجر أعظم

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ١٨.

ثورة اجتماعية تبنت العدل السياسي، والعدل الاجتماعي وتحقيق الفرص المتكافئة بين الناس على اختلاف قومياتهم وأديانهم.

وكان المختار يحتل مكانة مرموقة عند أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، فقد روى عبد الله بن شريك قال: دخلنا على أبي جعفر عليه السلام يوم النحر، وهو متكيء، وقد أرسل إلى الحلاق فقعدت بين يديه إذ دخل عليه شيخ من أهل الكوفة فتناول يده ليقبّلها فمنعه، ثم قال: من أنت؟ قال: أنا أبو محمد الحكم بن المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وكان متباعداً من أبي جعفر، فمدَّ عليه السلام يده إليه، حتى كاد يقعده في حجره، بعد منعه يده، ثم قال: أصلحك الله إنَّ الناس قد أكثروا في أبي، وقالوا، والقول والله قولك.

قال أبو جعفر: وأي شيء يقولون؟ قال: يقولون: كذاب. ولا تأمرني بشيء إلاَّ قبلته، فقال عليه السلام: سبحان الله!! أخبرني أبي والله، إنَّ مهر أُمِّي كان ممَّا بعث به المختار، أو لم يبنِ دورنا، وقتل قاتلينا، وطلب بدمائنا، رحمه الله[1].

وفي هذا الحديث دلالة صريحة على سمو مكانته عند الإمام أبي جعفر عليه السلام وإنَّ له اليد البيضاء على أهل البيت عليهم السلام بما أسدى لهم من الأخذ بثأرهم، وإسعافهم بالأموال التي كانت منها مهر نسائهم، وبناؤه لدورهم التي هدمتها السلطات الأموية.

ولما بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد ورأس عمر بن سعد إلى الإمام زين العابدين عليه السلام خرَّ الإمام ساجداً لله، وقال: الحمد لله الذي أدرك ثاري من أعدائي، وجزى الله المختار خيراً[2].

ثورة ابن الزبير:

وانطوت نفوس الحجازيين على كره عميق للأمويين وذلك لاعتدائهم الصارخ في أيام يزيد على مدينة النبي صلى الله عليه وآله وعلى الكعبة المقدَّسة التي هي موضع عز المسلمين وفخرهم، وعندما دعاهم ابن الزبير لمبايعته استجابت له الأكثرية الساحقة منهم، وقد خلص له الحجاز بأسره كما خلص له غيره من سائر الأقاليم الإسلامية، ولكن ابن الزبير لم يكن أهلاً لهذا المنصب الخطير.

---

(١) الكشي.
(٢) الكشي.

الحياة الاقتصادية

أما الحياة الاقتصادية في عصر الإمام زين العابدين عليه السلام فقد كانت مشلولة، ومضطربة إلى أبعد الحدود، فقد تدهورت الزراعة التي هي العمود الفقري للاقتصاد العام في ذلك العصر، وذلك بسبب الفتن والاضطرابات الداخلية، وإهمال الدولة لمشاريع الري، وما يوجب إصلاح الأرض، وقد نجم عن ذلك شيوع مجاعات عامة، عرض لها المؤرخون، كما ارتفعت أسعار السلع، وقد خلت أكثر البيوت من حاجات الحياة، وأصبحت بطون الناس طاوية، وأجسامهم عارية.

ترف الأمويين:

وأشاع هؤلاء الملوك الفسق والفجور في جميع أنحاء العالم الإسلامي خصوصاً في يثرب، وذلك للقضاء على قدسيتها، وما تتمتع به من مكانة مرموقة في نفوس المسلمين.

موقف الإمام:

وكان موقف الإمام زين العابدين عليه السلام أمام هذه التيارات الفاسدة المدمِّرة للأخلاق متسماً بالصلابة والقوَّة، فقد سلّط عليها أشعة من روحه المقدَّسة التي تحكيها الصحيفة السجَّادية التي تهزُّ أعماق النُّفوس، وذلك بما حوته من وعظ وإرشاد، وما اشتملت عليه من دروس أخلاقية أبرزت قيم الإسلام، وهدى آل البيت عليهم السلام.

لقد وقفت الصحيفة السجَّاديَّة التي هي إنجيل آل محمَّد ﷺ سداً منيعاً وشامخاً لحماية الإسلام، وصيانته من هذا التفسخ الجاهلي الذي أوجده الحكم الأموي، فقد نعت على الأُمَّة ما هي فيه من الانحطاط الفكري والاجتماعي، ودعتها إلى الانطلاق والتحرر من ذل المعصية إلى عز طاعة الله خالق الكون وواهب الحياة.

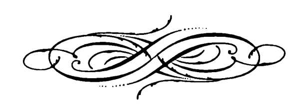
الحياة العلمية

أما الحياة العلمية في عصر الإمام عليه السلام فقد كانت مشلولة بما حوته هذه الكلمة من معنى، فقد كان الخط السياسي الذي سارت عليه الدولة الأموية منذ تأسيسها مجافاة العلم، وإقصاء الوعي الثقافي من المسلمين، وإركاسهم في منحدر سحيق من الجهل لأنَّ بلورة الوعي العام وإشاعة العلم بين المسلمين يهدِّدان مصالحهم، وملكهم القائم على الجهل، وقد رأى الإمام زين العابدين عليه السلام محنة الأُمَّة، وما هي فيه من أخطار

مدمِّرة لوجودها وكيانها، فرفع عليه السلام منار العلم، ودعا شباب الأُمَّة إلى التحرر من قيود الجهل.

لقد فتح الإمام زين العابدين عليه السلام آفاقاً مشرقة من العلم لم يعرفها الناس من ذي قبل، فقد عرض لعلوم الشريعة الإسلامية من الحديث والفقه، والتفسير وعلم الكلام، والفلسفة، ويقول بعض المترجمين له: إنَّ العلماء رووا عنه من العلوم ما لا يحصى.

وأنشئت في عصر الإمام عليه السلام (مدرسة التابعين) وهي أول مدرسة إسلامية أقيمت في يثرب بعد مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام.



إلى جنَّة المأوى

وكان كلَّما تقدَّم سن الإمام زين العابدين عليه السلام ازداد ضعفاً وذبولاً، فقد أجهد نفسه أي إجهاد، وحملها من أمره رهقاً من كثرة عبادته وعظيم طاعته، فكان ـ فيما أجمع عليه المؤرخون ـ قد قضى معظم حياته صائماً نهاره، قائماً ليله، وفي نفس الوقت كانت تلاحقه ذكريات كربلاء، وما جرى على أبيه، وعلى آل البيت من النكبات والخطوب، وكان كلَّما نظر إلى عماته وأخواته تذكَّر فرارهن يوم الطف من خيمة إلى خيمة، ومنادي القوم ينادي أحرقوا بيوت الظالمين، فيحزن أشد الحزن، وأقساه، ومن الطبيعي أنَّ لذلك أثراً وضعياً على صحته التي أذابتها هذه المآسي.

اغتياله بالسم:

كان الإمام يتمتع بشعبية هائلة، فقد تحدَّث الناس ـ بإعجاب ـ عن علمه وفقهه وعبادته، وعجبت الأندية بالتحدُّث عن صبره، وسائر ملكاته، وقد احتل قلوب الناس وعواطفهم، فكان السعيد من يحظى برؤيته، والسعيد من يتشرَّف بمقابلته والاستماع إلى حديثه، وقد شقَّ ذلك على الأمويين، وأقضَّ مضاجعهم وكان من أعظم الحاقدين عليه الوليد بن عبد الملك، فقد روى الزهري أنَّه قال: «لا راحة لي، وعلي بن الحسين موجود في دار الدُّنيا»[1] وأجمع رأي هذا الخبيث الدنس على اغتيال الإمام حينما آل إليه الملك والسلطان، فبعث سماً قاتلاً إلى عامله على يثرب، وأمره أن يدسَّه للإمام[2] ونفذ عامله ذلك، وقد تفاعل السم في بدن الإمام، فأخذ يعاني أشد الآلام وأقساها، وبقي حفنة من الأيام على فراش المرض يبثُّ شكواه إلى الله تعالى، ويدعو لنفسه بالمغفرة والرضوان، وقد تزاحم الناس على عيادته، وهو عليه السلام يحمد الله، ويثني عليه أحسن الثناء على ما رزقه من الشهادة على يد شر البرية.

---

(١) حياة الإمام الباقر: ١/٥١.

(٢) الاتحاف بحب الأشراف: ص٥٢.

نصه على إمامة الباقر:

وعهد الإمام عليه السلام بالإمامة إلى ولده الباقر عليه السلام رائد الحركة العلمية والثقافية في الإسلام، يقول الزهري: دخلت عائداً إيَّاه، فقلت له: «إن وقع من أمر الله ما لا بدَّ منه، فإلى من نختلف بعدك؟..».

فنظر الإمام إليه برفق، وقال له:

«إلى ابني هذا ـ وأشار إلى ولده محمد الباقر ـ فإنَّه وصيِّي، ووارثي، وعيبة علمي، هو معدن العلم وباقره..».

فقال الزهري: «هلا أوصيت إلى أبر ولدك؟..».

ولم يفقه الزهري أمر الإمامة، وإنَّها لم تكن بأيِّ حال خاضعة للأعراف القبلية، وقد ردَّ عليه الإمام قائلاً: «يا أبا عبد الله ليست الإمام بالكبر والصغر، هكذا عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وهكذا وجدناه في اللوح والصحيفة..».

وطلب الزهري المزيد من الإيضاح قائلاً: «يا ابن رسول الله، عهد إليكم نبيكم أن تكونوا الأوصياء بعده؟».

فأجابه عليه السلام: «وجدنا في الصحيفة واللوح اثني عشر اسماً مكتوبة في اللوح إمامتهم وأسماء آبائهم وأُمَّهاتهم، ثم قال: ويخرج من صلب محمد ابني سبعة من الأوصياء منهم المهدي..»[١].

ودخل عليه جماعة من شيعته عائدين إيَّاه، فدلَّهم على إمامة ولده محمد الباقر، وأمرهم بالرجوع إليه، ودفع إليه سفطاً وصندوقاً فيه مواريث الأنبياء، وكان فيه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وكتبه[٢].

إلى جنَّة المأوى:

وثقل حال الإمام، واشتد به المرض، وأخذ يعاني آلاماً مرهقة، فقد تفاعل السم مع جميع أجزاء بدنه، وأخبر الإمام أهله أنَّه في غلس اللَّيل البهيم سوف ينتقل إلى الفردوس الأعلى، وأُغمي عليه ثلاث مرَّات: فلما أفاق قرأ سورة (الفاتحة) وسورة (إنَّا

---

(١) كفاية الأثر للخزاز، إثبات الهداة: ٥/ ٢٦٤.

(٢) بصائر الدرجات: ص١٤٦.

فتحنا) ثم قال عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[١].

وارتفعت روحه العظيمة إلى خالقها كما ترتفع أرواح الأنبياء والمرسلين، تحفُّها بإجلال وإكبار ملائكة الله، وألطاف الله وتحيَّاته.

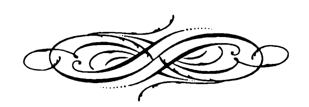
تجهيزه:

وقام الإمام أبو جعفر الباقر بتجهيز جثمان أبيه، فغسل جسده الطاهر، وقد رأى الناس مواضع سجوده كأنَّها مبارك الإبل من كثرة سجوده لله تعالى، ونظروا إلى عاتقه كأنَّه مبارك الإبل، فسألوا الباقر عن ذلك، فقال: إنَّه من أثر الجراب الذي كان يحمله على عاتقه، ويضع فيه الطعام، ويوزعه على الفقراء والمحرومين[٢] وبعد الفراغ من غسله أدرجه في أكفانه، وصلَّى عليه الصلاة المكتوبة.

في مقره الأخير:

وجيء بالجثمان الطاهر وسط هالة من التكبير والتحميد إلى بقيع الغرقد، فحفروا له قبراً بجوار قبر عمه الزكي الإمام الحسن سيِّد شباب أهل الجنَّة وريحانة رسول الله عليه السلام وأنزل الإمام الباقر عليه السلام جثمان أبيه فواراه في مقره الأخير، وقد وارى معه العلم والبر والتقوى، ووارى معه روحانية الأنبياء والمتقين.

وبعد الفراغ من دفنه هرع الناس نحو الإمام الباقر، وهم يرفعون إليه تعازيهم الحارة، ويشاركونه في لوعته وأساه، والإمام مع إخوته وسائر بني هاشم يشكرونهم على مشاركتهم في الخطب الفادح الجلل، والمصاب العظيم!



(١) روضة الكافي.

(٢) حياة الإمام محمد الباقر: ١/ ٥٤.

الفهرس

حياة سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام

حياة
الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

حياة

الإمام الحسن بن علي عليه السلام

حياة
الإمام الحسين بن علي عليه السلام

حياة
الإمام زين العابدين عليه السلام